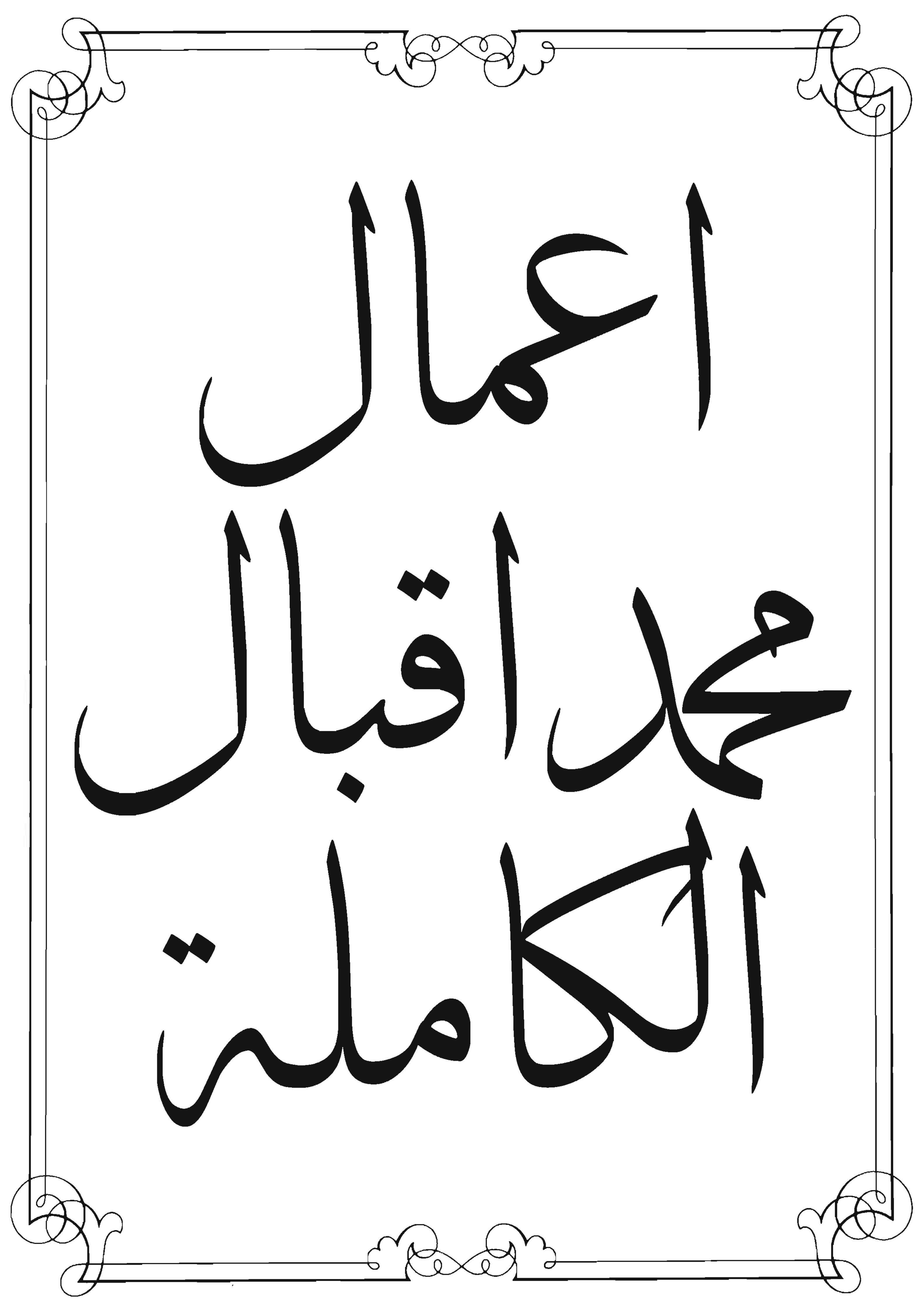
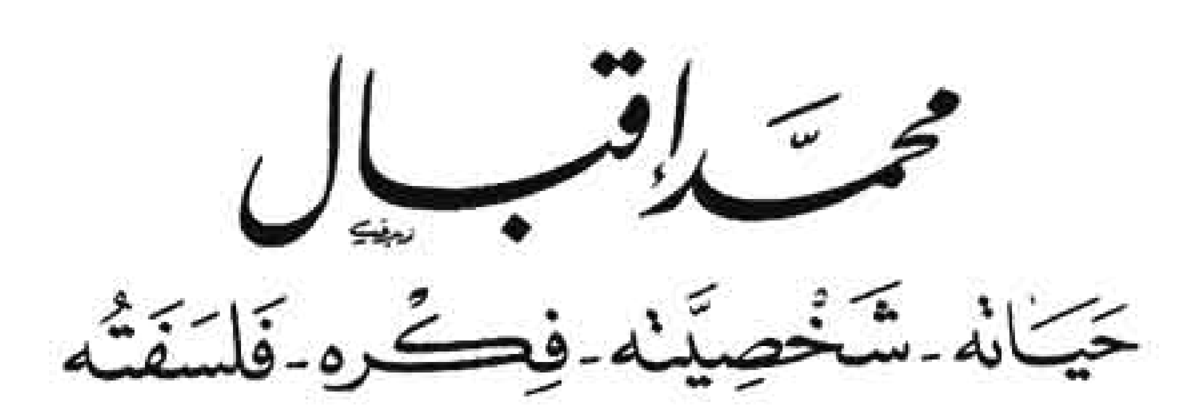

اعمال
محمد اقبال
الکاملة

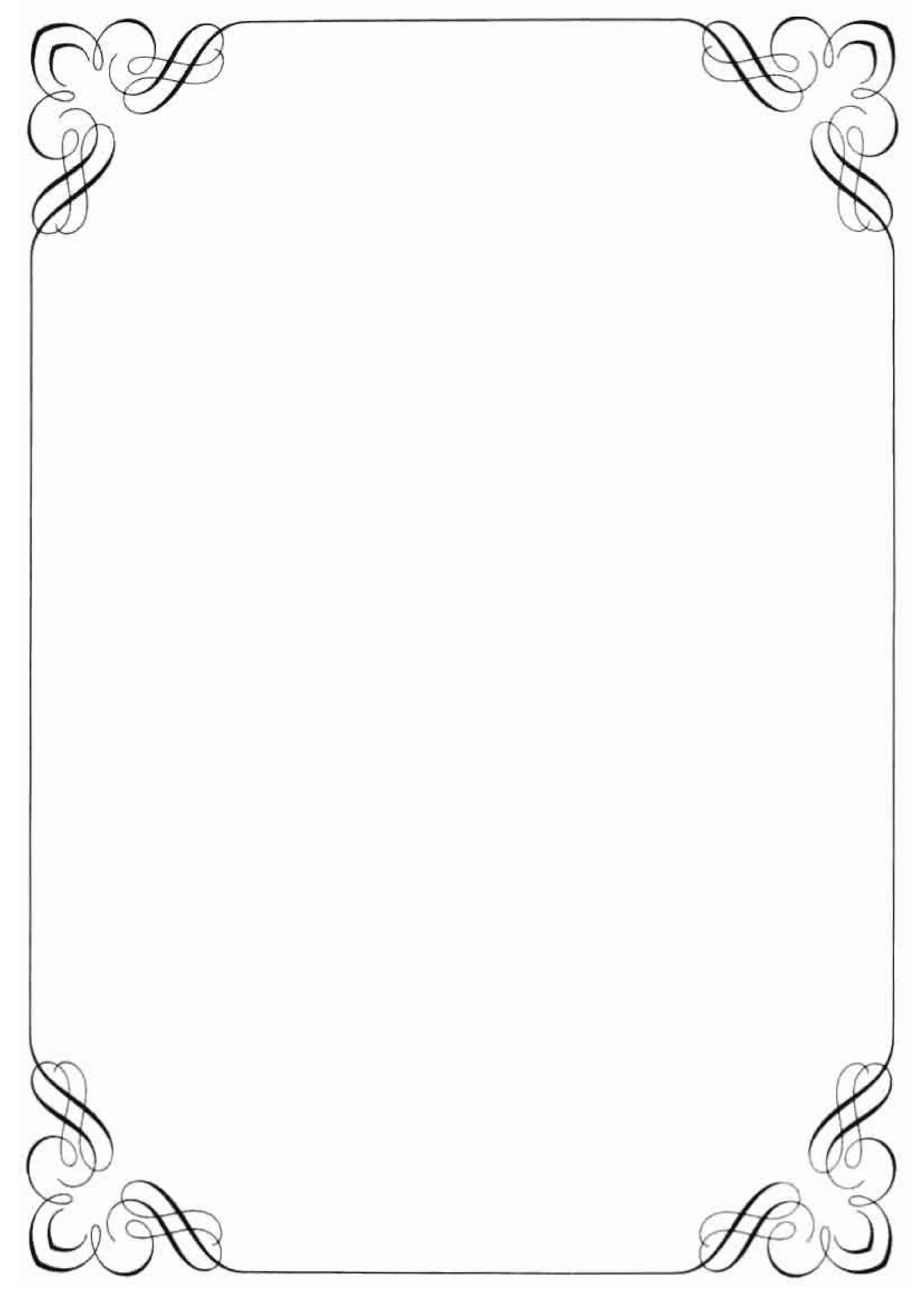




مُحَمَّد إقبال

حَيَاتُه - شَخْصِيَّتُه - فِكْرُه - فَلسَفَتُه





أسرته وولادته :

وُلد محمد إقبال في مدينة « سيالكوت » (الواقعة في ولاية « بنجاب ») سنة ١٨٧٧م ، وهو سليل بيتٍ معروفٍ من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، أسلم جدُّه الأعلى قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصَّلاح والتصوُّف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً ، يغلب عليه التصوف .

نشأته ودراسته :

تعلَّم محمد إقبال في مدرسةٍ إنكليزيةٍ في بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكليةٍ في ذلك البلد ، حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن ؛ أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلِّيَّة ، وكان من نوادر المعلمين الذي يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثَّر في الشابِّ الذَّكي كلَّ تأثير ، وغرس فيه حبَّ الثَّقافة والآداب الإسلامية ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره في الكلِّية سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب ، وانضمَّ إلى كليِّة الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية ، والإنكليزية، ونال وسامين ، وأخذ شهادة (B.A.)[١] ، بامتياز ، وفي لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير « سيرتامس أرنولد » صاحب كتاب « الدَّعوة إلى الإسلام » (The Preaching of Islam) وعميد الكلية الإسلامية في عليكره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي والأديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشئ أول مجلَّةٍ علميَّةٍ

---

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنكليزي الهندي تعادل ليسانس في البلاد العربية .

أدبية في لغة أردو ، اسمها « مخزن » وكان إقبال قد نظم قصيدته الأولى البديعة « جبل هماله » وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر المبدع ، وفي هذه المدَّة أخذ محمد إقبال درجة (M.A.)[١] في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً ، وعيِّن على إثره أستاذاً للتاريخ ، والفلسفة ، والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية ، والفلسفة في كلية الحكومة ، التي تخرج منها ، وشهد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥م حيث التحق بجامعة « كامبردج » وأخذ شهادةً عاليةً في الفلسفة ، وعلم الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضراتٍ في موضوعاتٍ إسلامية أكسبته الشهرة والثقة ، وتولَّى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه أرنولد ، ثم سافر إلى ألمانيا ، وأخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصَّص في المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨م سالماً غانماً ، ولما مر بصقلية في طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدةً افتتحها بقوله : « ابك أيها الرجل أدمعاً لا دمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

نبوغه في الشعر :

ومن دواعي العجب أنَّ كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز

---

(١) وهي تعادل « الماجستير » في البلاد العربية .

اثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاءه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير ، والسياسي الحاذق في عدَّة لغات بالمحاماة ، لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته ، وجلُّ همِّه في تأليف الكتب وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الإسلام » السنوية ، وينشد فيها قصائده ، ومنها « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حلَّ بهم ، وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدةً أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بيَّن فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدِّين ، وعدم إتقانهم أمر الدنيا ، تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنَّى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من « قفا نبك » وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب ، والمعاني والغرض ، وقال « النشيد الوطني » و « أنشودة المسلم » وكلاهما سار مسير المثل ، وصار الأول النشيد الوطني الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية أنشودة المسلم التي تُفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠م وما يوم حليمة بسرٍّ ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر ، جرحت عواطفه وقلبه ، فتحرك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية ، والإمبراطورية الأوربية ، وأملاه حزنه ووجده قصائد كلُّها دموعٌ حارَّةٌ في سبيل المسلمين ، وسهامٌ مسمومةٌ في صدور الأوروبيين ، وتتجلَّى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده « البلاد الإسلامية » رد على الوطنية ، و « دعوة إلى الجامعة الإسلامية » و « يا هلال العيد » و « المسلم » و « فاطمة بنت عبد الله » (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) و « محاصرة أدرنة » و « الصديق » و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى

إلى الرسول » وقد نعى في هذ القصيدة على الزعماء والقادة ؛ الذين يتزعّمون المسلمين ، وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول : « أنا بريء من أولئك الذين يحجُون إلى أوربة ، ويشدُّون إليها الرحال مرَّةً بعد مرَّة ، ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ، ولا يعرفونك » و « هدية إلى الرسول » وقد قال فيها : « إنَّه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدُّنيا ، وقال : إنَّها لا تليق بمقامكم الكريم ، ولكنِّي جئت بهدية ، وهي زجاجةٌ يتجلَّى فيها شرف أمتك ، وهو دم شهداء طرابلس » .

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤م ، وحدث ما حدث ، فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهَّن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشبُّ من حماسته نيراناً ، ويفجِّر إيمانه ، وثقته أنهاراً ، وجاش صدره ، وفاض خاطره ، وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غرَّ قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قطع ، ومنها « الشاعر والتجول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و« الرأسمالية » و « الأجير » و « عالم الإسلام » و « طلوع الإسلام » وكلُّها آيةٌ في الشعر ، والحكمة ، والحماسة ، وحقائق الحياة ، أما « طلوع الإسلام » فهي بيت القصيد في شعره ، لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلاميِّ في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعني جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعددٍ كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، واتَّضحت رسالته ، فنشر له عدَّة كتب فارسية ، وقد آثر اللغة الفارسية لشعره ؛ لأنها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الإسلاميَّة التي تلي اللغة العربية في الأهمية والانتشار في العالم الإسلاميِّ ، ويتكلم بها قطران مهمَّان : إيران ، وأفغانستان ، وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان ، وروسيا ، وتركية ، ونشر مجموعتين

بالأردية ، فأما الدواوين الفارسية فهي « أسرار خودي » يعني (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيخودي » (أسرار فناء الذات) و « بيام مشرق » (رسالة الشرق) في جواب كتاب « جوته » « تحية الغرب » ، و « زبور عجم » و « جاويد نامه » و « بس جه بايد كرد أي أقوام شرق » (ماذا ينبغي أن تعمله الشعوب الشرقية) و « مسافر » و« أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالأردية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كليم » (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة « مدراس » طبعت باسم :

«Reconstruction of religious Thought in Islam» (تجديد الفكر الديني في الإسلام) .

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون، وعلماء الفلسفة والدين اعتناءً عظيماً، وعلّقوا عليها أهميةً كبيرة، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والطليانية، والروسية، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالإنكليزية « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠م في « إله آباد » وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة ، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثّل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٠م ـ ١٩٣١م.

رحلاته :

جاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا ، وإسبانيا ، وإيطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى في « مجريط » محاضرات في الفن الإسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلّى فيه لأول مرّة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف

على تربته دموعاً غزاراً ، وتذكَّر العرب الأوَّلين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأنَّ هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعدُّ من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده .

وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوةٍ نادرةٍ ، وإكرامٍ بالغ ، وقابله السنيور موسوليني ، وكان من قراء كتبه ، والمعجبين بفلسفته ، وتحدَّث معه طويلاً ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال إفريقية ، ولكن الشاعر الإسلامي الغيور رفض دعوتها ، وأبى أيضاً أن يزور جامع باريز ، وقال : إنَّ هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته بأوربة أقيمت له عدَّة حفلات تكريم ، أقامها له أصدقاؤه ، وأساتذته في جامعة كامبردج ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما ، وفي طريقه إلى الهند عرَّج على القدس ، واشترك في المؤتمر الإسلامي الشهير ، وقال في أثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق » .

وفي سنة ١٩٣٢م لبَّى دعوة السلطان الشهير نادر خان ملك أفغانستان في بعثة تتألف من فقيد العلم والشرف سر رأس مسعود حفيد سر أحمد خان ورئيس جامعة عليكره الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدَّث إليه الملك الفقيد طويلاً ، وأفضى إليه بذات صدره ، وبكيا طويلاً ، ولما زار قبر السلطان محمد الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه ، وافتضح باكياً ، وقال قصيدةً حكيمةً بديعةً ، وعلى إثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .

وفاته :

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحته أخيراً ، وظل

أياماً طويلةً رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ، ويملي الكتب والمقالات ، ويقابل الأصدقاء ، والزوَّار ، والعواد ، ويحادثهم في شؤونٍ إسلاميةٍ وعلميةٍ ، ومما نشر له في هذه الأيام مقالة مستفيضة في الردِّ على القومية ، تناقلتها الصحف ، وتحدَّث بها الناس ، ومما قال قبل وفاته بأيام : « **جنة لأرباب الهمم ، وجنة للعبَّاد والزهاد ، قل للمسلم الهندي : أبشر ، فإنَّ في سبيل الله جنة أيضاً** » وقال قبل وفاته بعشر دقائق : « **ليت شعري ! هل تعود النغمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية ، قد أظلَّني موتي ، وحضرتني الوفاة ، فليت شعري ! هل حكيم يخلفني . .؟** » ، وقال وهو يجود بنفسه : « **أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً** » ، وكان ذلك آخر برهانٍ أقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم ويقينه ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه القديم على حين غفلةٍ من العوَّاد ، والأصدقاء ، والتلاميذ ، والإخوان في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارةً ، ونوراً قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨م[١] .

آثاره في الشعر والنثر :

بالفارسية

١ ـ أسرار الذات ١٩١٥ (أسرار خودي) .

٢ ـ رموز نفي الذات ١٩١٨ (رموز بيخودي) .

٣ ـ رسالة المشرق ١٩٢٣ (بيام مشرق) .

---

(١) روائع إقبال : للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ٢٨ ـ ٣٧ . طبعة دار ابن كثير .

٤ ـ **أناشيد فارسية** ١٩٢٧ (زبور عجم) .

٥ ـ **رسالة الخلود** ١٩٣٢ (جاويد نامه) .

٦ ـ **المسافر** ١٩٣٦ (مسافر) .

٧ ـ **ماذا ينبغي أن نفعل يا أمم الشرق** ١٩٣٦ (بس جه بايد كرداي أقوام مشرق) .

٨ ـ **هدية الحجاز** ١٩٣٨ (أرمغان حجاز) .

بالأردية :

٩ ـ **صلصة الجرس** أو (جرس سفر القافلة) ١٩٢٤ (بانك درا) .

١٠ ـ **جناح جبريل** ١٩٣٦ (بال جبريل) .

١١ ـ **عصا موسى** ١٩٣٧ (ضرب كليم) .

(ويتعلق ذلك بالربع الأخير من هذا الكتاب) .

١٢ ـ **مراسلات إقبال ومقالاته** (قد طبعت بعد وفاته) .

بالإنكليزية :

تطور ما وراء الطبيعة في فارس (رسالة ميونيخ) ١٩٠٢ .

تجديد الفكر الديني في الإسلام .

(Reconstruction of Religious Thought in Islam)

* * *

العوامل التي كوّنت شخصيته[1]

المدارس الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال :

لقد تخرَّج محمد إقبال في مدرستين : أما **المدرسة الأولى** : فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلَّب في فصولها ، ودروسها ما بين الهند ، وإنجلترا ، وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين ، ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته ، من فلسفةٍ واجتماع ، وأخلاقٍ واقتصاد ، وسياسةٍ ومدنية غاية ما يمكن لغربيٍّ متخصِّص فضلاً عن شرقيٍّ متطفِّل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسعٍ في الآداب الإنكليزية والألمانية والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ، ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية : ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحدِّ ، واكتفى بثمار هذه المدرسة ؛ لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلامي والتاريخ الإسلامي بالتغني بآثاره ، ولما فسحا له محلَّ الصدارة العلمية ، والزعامة الفكرية العبقرية ، والإسلامية ، ولكن منها شروط دقيقة ومستوى عال لا يحتله الإنسان بمجرد الدراسة ، والتفنن في العلوم ، وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول : لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة ، واقتصر على ثقافتها ، ودراستها ، لما زاد على أن يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة ، أو علم الاقتصاد ، أو في الآداب ، أو التاريخ ، أو مؤلفاً كبيراً ، أو محاضراً بارعاً في العلوم

---

(١) مقتطف من محاضرة العلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، التي ألقاها في مدرج كلية الآداب بجامعة القاهرة في ١٩ من جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ (الموافق ٢٨/ ٣/ ١٩٥١م) .

العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوب ، أو شاعراً مجيداً ، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمة ، أو وزيراً في دولة ، وصدقوني أيها الإخوة ! أن لو كان ذلك لطواه الزّمان فيمن طوى من كبار العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤلفين ، والقضاة ، والـوزراء . إنَّ الفضل في عبقرية إقبال ، وخلـود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع إلى المدرسة الثانية ؛ التي تخرج فيها .

إنني لأراكم أيها الإخوة ! تذهبون كلَّ مذهبٍ في تشخيص هذه المدرسة ، والاهتداء إلى موقعها ، وإني لأراكم تتطلعون إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم ؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها ؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد ؟ ومن المعلمون فيها ؟ فلا شكَّ أنهم من كبار المربين ، وأعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة ، وما تكاليفها ؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها ومحلِّها ؛ لأسرع كثيرٌ منكم إليها ، والتحق بها .

إنها مدرسةٌ ما خاب مَنْ تعلَّم فيها ، وما ضاع مَنْ تخرَّج منها ، إنها مدرسةٌ لم تخرج إلا أئمة الفنِّ المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين ، وقادة الفكر والإصلاح المجددين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأييد ما أثبتوا ، وتفصيل ما أجملوا ، فيتكون من كلمتهم كتاب ، ومن كتابهم مكتبة .

إنها مدرسةٌ ما تعلم التاريخ بل تلد التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار ، بل تنتج الآثار ، إنَّها مدرسةٌ توجد في كلِّ زمانٍ ، وهي أقدم مدرسةٍ على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوة طويلاً ! إنها مدرسةٌ داخليةٌ تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه في كلِّ مكان ، هي مدرسة القلب والوجدان ، هي مدرسةٌ تشرف عنيها التربية الإلهية ، وتمدُّها القوة الروحية .

قد تخرَّج محمد إقبال في هذه المدرسة ، كما تخرَّج كثيرٌ من الرجال الموهوبين ، وحدَّث عنها كثيراً في شعره ، وردَّ إليها الفضل في تكوين سيرته ، وعقليته ، وأخلاقه ، وشخصيته ، وصرَّح مراراً بأنَّه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنَّه لولا هذه المدرسة وتربيتها ؛ لما ظهرت شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ، وقد حدَّث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً ، وذكر فضلهم عليه .

العامل الأول :

فممَّن يُردُّ الفضل إليه في هذه المدرسة « الإيمان » الذي لم يزل مربياً له ومرشداً ، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب ؛ الذي هو مجرَّد عقيدةٍ ، أو تصديقٍ بسيط ، بل هو مزيج اعتقادٍ وحبٌ ، يملك عليه القلب والمشاعر ، والعقل والتفكير ، والإرادة والتصرُّف ، والحبَّ والبغض ، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ، قوي العاطفة ، شديد الإخلاص ، والإجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حبِّه ، مقتنعاً بأن الإسلام هو الدين الخالد ؛ الذي لا تسعد الإنسانية إلا به ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكلِّ .

ويُرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته ، وتماسكه أمام المادَّة ومغرياتها ، وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحي بالنبي ﷺ ، وحبِّه العميق له ، ولا شكَّ أنَّ الحبَّ هو خير حاجزٍ للقلب ، وخير حارسٍ له ، إذا احتل قلباً وشغله ؛ منعه من أن يغزوه غيره ، أو يكون كريشةٍ في فلاة ، أو يعبث به العابثون ، يقول : « **لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبي ، ويعشي بصري ، وذلك لأني اكتحلت بإثمد المدينة** » ، ويقول : « **مكثت في أتون التعليم الغربي ؛ وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود** » ويقول : « **لم يزل ، ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، ويكمنون لي ، ولكني لا أخافهم ، فإنِّي أحمل اليد البيضاء ، إن الرجل إذا رزق الحبَّ الصادق ، عرف نفسه ، واحتفظ**

بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فإني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في إثره الغبار ، فصار أعبق من العبير » .

وفي كتاب « أسرار خودي » ذكر الشاعر مقومات حياة الأمَّة الإسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها : اتصالها الدائم بنبيها ﷺ ، والتشبُّع بتعاليمه ، والتفاني في حبّه ، ولمّا ذكر النبي ﷺ اندفع الشاعر يمدحه ، وأرسل النفس على سجيتها ، فقال أبياتاً لا تزال تعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر الوجداني ، يقول : « إنَّ قلب المسلم عامر بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم ، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وُجدت أمَّةٌ ، ووُجد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ، بأبي هو وأمي ، لم تلد مثله أمٌّ ، ولـم تنجب مثله الإنسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنت حاتم أسيرةً مقيّدةً سافرة الوجه ، خجلةً مطرقةً رأسها ، فاستحيا النبي ﷺ ، وألقى عليها رداءه .

نحن أعرى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كلُّه رحمة ، هذا بأعدائه ، وذلك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال : لا تثريب عليكم اليوم ! نحن المسلمون من الحجاز ، والصين ، وإيران ، وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ ، نحن أزهارٌ كثيرة العدد ، واحدة الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبُّه ، ولا أحنُّ إليه ، وأنا إنسان ، وقد بكى لفراقه

الجذع ، وحنّت إليه سارية المسجد ؟! إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كله ، أنعم بمدينة فيها الحبيب ! » .

ولم يزل حبُّ النبيِّ ﷺ يزيد ويقوى مع الأيام ، حتى كان في آخر عمره إذا جرى ذكر النبي ﷺ في مجلسه ، أو ذكرت المدينة ـ على منوِّرها ألف سلام ـ فاضت عينه ، ولم يملك دمعه ، وقد ألهمه هذا الحبُّ العميق معاني شعريةً عجيبةً ، منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : « **أنت غني عن العالمين ، وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر ، وإن كان لا بدَّ من حسابي فأرجوك يا رب ، أن تحاسبني بنجوةٍ من المصطفى ﷺ ، فإني أستحي أن أنتسب إليه وأكون في أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي** » .

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنَّه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدارٍ من العلم والعقل ، وأكثر كميَّةٍ من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت : « **إن الفقير المتمرِّد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله** » ، **وهنالك علماء ، وفقهاء ، والواحد منهم يملك ثروةً ضخمةً من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون ، لا ينتفع بكنوزه** » .

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة ! وحبُّه ، ومن تتبَّع التاريخ عرف أنَّ الحبَّ هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعاني البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصيَّة الفذَّة ، والعبقرية النادرة ، إليه يرجع الفضل في غالب عجائب الإنسانية ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، وإذا تجرَّد منه شخصٌ ؛ كان صورةً من لحمٍ ودم ، وإذا تجرَّدت منه أمةٌ ؛ كانت قطيعاً من غنم ، وإذا تجرَّد منه شعرٌ ؛ كان كلاماً موزوناً مقفًى فحسب ، وإذا تجرَّد منه كتابٌ ؛ كان مجموع أوراقٍ وحبراً على ورق ، وإذا تجرَّدت منه عبادة ؛ كانت طقساً من الطقوس ، وهيكلاً بلا روح ، وإذا تجرَّدت منه مدنيةٌ ؛

أصبح تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجرَّدت منه مدرسةٌ ، أو نظام تعليمٍ ؛ أصبح تقليداً ، أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز به ، وإذا تجرَّدت منه حياةٌ ؛ كلَّت الطبائع ، وجمدت القرائح ، وأجدبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب ، هذا هو الحبُّ الصادق الذي يتجلَّى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشَّجاعة ، والقوَّة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحبُّ الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشَّهوات ، وبريق المادَّة ، فتمرد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحبُّ الذي يدخل بين الطين والماء ، والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدةً ، وتحفةً فنيَّةً ، كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ، وما من أثر من الآثار الباقية في الأدب ، والفنِّ ، والتأليف ، والبطولة ، إلا ووراءه عاطفةٌ قويَّةٌ من الحبِّ .

لقد ضلَّ منْ زعم أنَّ العلماء يتفاضلون بقوَّة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذَّكاء ، وأنَّ الشعراء يتفاضلون بقوَّة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقَّة المعاني ، وأنَّ المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والإنتاج ، وأنَّ المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة الدراسية ، وكثرة المراجع ، وأنَّ المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة ، وأساليب السياسة ، والحكمة ، واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوَّة الحبِّ والإخلاص لغايتهم ، إذا فاق أحدهم الآخر ؛ فإنَّما يفوقه ؛ لأنَّ الغاية ، أو الموضوع حلَّ في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهواته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلَّم تكلَّم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بقلبه ، وإذا فكَّر ؛ فكَّر بعقله ، وإذا أحبَّ ، أو أبغض ، فبقلبه .

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة ! على الإنسانية جنايةً عظيمةً ؛ إذ

قضت على هذه العاطفة التي كانت قوةً كبرى ، ومنبعاً فياضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية والمادية ، أو الحبِّ الجنسيِّ ، والغرام الماديّ ، ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها أن تفهم : أنَّ هناك حباً للمعاني السامية ، وجمالاً معنوياً هو أقوى من هذا الحب ، وأساءت المدرسة العصرية ـ وأعني بها نظام التعليم الحديث ـ إلى الجيل الجديد ؛ إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان ، وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصري أشبه بجمادٍ متحرِّكٍ دائرٍ لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ، ولا شعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ، إنَّما هو دوامةٌ جامدةٌ ، تديرها يدٌ قاهرةٌ ، أو إرادةٌ قاسرة .

فإذا رأيتم أيها السادة ! أنَّ شعر إقبال من نوعٍ آخر غير النوع الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ، هذا شعر تهتزُّ له المشاعر ، وتتوتَّر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النفس ، حتى تكاد تحطِّم السلاسل ، وتفكُّ الأغلال ، وتتمرَّد على المجتمع الفاسد ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخفُّ بالقوَّة الهائلة ، شعرٌ إذا قرأه الإنسان في لغة الشاعر ، أحسَّ بأنه قد مرَّ به تيارٌ كهربائيٌّ ، فهزَّه هزاً عنيفاً ، إذا وجدتم ذلك أيها السادة ! فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر قويُّ الإيمان ، قويُّ العاطفة ، جيَّاش الصدر ، فيَّاض الخاطر ، ملتهبُ الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدَّثت عنها تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة ، وتنميتها ، وإشعالها فيه .

العامل الثاني :

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته ؛ فهو أستاذٌ كريمٌ لا يخلو منه بيتٌ من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنما الشأن في معرفته ، وتقديره وإجلاله والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ، ورجال الأسرة ، وأهل الحيِّ

أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من ذلك ، رأينا أنَّ العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف العظيم ، ضائعٌ في بيته ، مهجورٌ في داره ، يزهد فيه أولاده ، ويستهين بقيمته أفراد أسرته ، ويأتي رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه ، ويتضلَّع من حكمه .

لا تذهب بكم الظنون ، ولا يبعد بكم القياس أيها الأخوة ! فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن العظيم ، الذي أثَّر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتابٌ ، ولا شخصيةٌ ، ولكنَّه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجلٍ حديث العهد بالإسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوُّق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مالٍ ، ومتاعٍ ، ودارٍ ، وعقارٍ ، وقد وصل هذا المهتدي بشقِّ النفس ، وعلى جسرٍ من الجهاد والتعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور « كولمبس » لما اكتشف العالم الجديد ، ونزل على شاطئه ، أما الذين ولدوا ونشؤوا في هذا العالم الجديد ؛ فكانوا ينظرون إلى « كولمبس » وأصحابه باستغرابٍ ودهشةٍ ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامره من سرورٍ وفرحٍ ، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً .

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءةً تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصَّة فضلٌ كبيرٌ في تذوُّقه للقرآن ، واستطعامه إياه ، وقد حكى قصته لقراءة القرآن ، وقال : « **قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كلَّ يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني : ماذا أصنع ؟ فأجيبه : أقرأ القرآن ، وظلَّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله ، فأجيبه جوابي ، وذات يوم قلت له : ما بالك يا أبي ! تسألني نفس السؤال ، وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد ؟ فقال : إنما أردت أن أقول لك يا ولدي ! اقرأ القرآن كأنما نزل عليك ، ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن ، وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ، ومن درره ما نظمت** » .

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدُّنيا يغوص في بحر القرآن ، ويطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلمٍ جديدٍ ، وإيمانٍ جديدٍ ، وإشراق جديدٍ ، وقوةٍ جديدةٍ ، وكلَّما تقدَّمت دراسته ، واتَّسعت آفاق فكره ؛ ازداد إيماناً بأنَّ القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم الأبدي ، وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقَّدة ، وجواب الأسئلة المحيرة ، وأنَّه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين ، وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ودراسته ، والاهتداء به في مشكلات العصر ، واستفتائه في أزمات المدنيَّة ، وتحكيمه في الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين ، يقول في مقطوعة شعرية : « **إنك أيها المسلم ! لا تزال أسيراً للمتزعِّمين للدِّين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمدُّ حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إنَّ الكتاب الذي هو مصدر حياتك ، ومنبع قوتك ، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتقرأ عليك سورة « يس » لتموت بسهولةٍ ، فوا عجباً ! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة، يتلى الآن لتموت براحةٍ وسهولة**»[1] .

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبُّر لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به تحفةً وهديَّةً لأغنى رجلٍ في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ، ونزل ضيفاً عليه ، أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن ، وقدَّمها إليه قائلاً : « **إن هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كلِّ بداية ، وبقوته كان علي رضي الله عنه فاتح خيبر** » فبكى الملك وقال : « **لقد أتى على نادر خان زمان وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوَّته كلَّ باب** »[2] .

---

(١) هدية الحجاز (أرمغان حجاز) .

(٢) مثنوي مسافر .

العامل الثالث :

والركن الثالث أيها السادة ! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والاعتداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره ، وفي قصيدة يقول فيها : « **انزل في أعماق قلبك ، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سرَّ الحياة ، ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني ، لكن أنصف نفسك يا هذا ! واعرفها ، وكن لها وفياً ، ما ظنُّك بعالم القلب ، وهو كلُّه حرارةٌ وسكر ، وحنانٌ وشوق ، أما عالم الجسم فتجارةٌ ، وزورٌ ، واحتيال ، إنَّ ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظلٌّ زائل ، ونعيمٌ راحل ، إنَّ عالم القلب لم أر فيه سلطة الإفرنج ، ولا اختلاف الطبقات ، ولقد كدت أذوب حياءً ، وتندَّى جبيني عرقاً ؛ إذ قال لي حكيم : إذا خضعت لغيرك ؛ أصبحت لا تملك قلبك ، ولا جسمك** »[1] .

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أنَّ العبد يسمو بها إلى درجة الملوك ، بل يعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً ، يقول في قصيدة : « **إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحبِّ الصادق ، وتمسَّك بآداب هذه المعرفة ، انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك . إنَّ ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله أفضل من أكبر ملوك العالم** » .

إنَّ الصراحة ، والجرأة من أخلاق الفتيان ، وإنَّ عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب » ، وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقاً إذا قيَّد حريته ، يقول في نفس القصيدة : « **يا صاح ! إن الموت أفضل من رزق يقصُّ من قوادمي ، ويمنعني من حرية الطيران** »[2] .

وكان إقبال يعرف قيمته ، ويعرف مكانته في غير صلفٍ ولا غرور ، فيضنُّ

---

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .
(٢) المصدر السابق .

بحرّيته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول في مقطوعة : « **لك الحمد يا رب ! إذ لستُ من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراسةً ، ولكنّي أحمدك على أني لم أبعهما لملك من الملوك** »[١] ، ويقول مفتخراً : « **إنّي من غير شكٍّ فقيرٌ قاعدٌ على قارعة الطريق ، ولكنّي غنيُّ النفس أبيٌّ** » ، وكان عمله بما يخاطب به غيره في قصيدة يقول فيها : « **إذا لم تعرف رازقك كنت فقيراً إلى الملوك ، وإذا عرفته افتقر إليك كبار الملوك . إنَّ الاستغناء ملوكية ، وعبادة البطن قتلٌ للروح ، وأنت مخيّرٌ بينهما ، إذا شئت اخترت القلب ، وإذا شئت اخترت البطن** »[٢] ، ولا شك أنَّ محمد إقبال اختار القلب .

لذلك كان يثور إذا جُرحت كرامته ، وامتُحنت عفَّته ، قدَّم إليه رئيس وزارة في دولةٍ ، في عيد ميلاد محمد إقبال ، هديةً محترمةً من النقود ، فرفضها ، وقال : « **إن كرامة الفقير تأبى عليّ أن أقبل صدقة الأغنياء** » ، وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية ، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أنَّ حرم نائب الملك تكون سافرةً ، تستقبل الضيوف في الولائم الرسمية ، وتكون مع زوجها في الحفلات ، فأشير عليه بذلك ، فرفضها وقال : « **ما دام هذا شرطاً لقبول الوظيفة ؛ فلا أقبله ؛ لأنه إهانة ديني ، ومساومة كرامتي** » .

وكان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوّته ومواهبه ، يعتقد أنَّه صاحب رسالةٍ ومهمَّةٍ في هذه الحياة ، وليس له أن يضع نفسه محلَّ الشاعر الذي ليست له رسالةٌ ، والنَّظامين الذين ينظمون في كلِّ مناسبة ، فإذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه ، يقول في أبيات وجَّهها إلى رسول الله ﷺ : « **إني لأشكو**

---

(١) جناح جبريل .
(٢) المصدر السابق .

إليك يا سيد الأمم ! أنَّ أصدقائي يعتقدون أنّي شاعر نظّام ، فيقترحون علي اقتراحات » . ويقول في بيت آخر : « **أنا حائر في أمري يا سيدي رسول الله ! إنَّك تأمرني أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة ، وهؤلاء يقولون : أرِّخ لموت فلان ، وفلان ، فماذا أفعل** » ؟ .

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، ومما انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكريِّ ، والهيام الأدبيِّ ، اللَّذَيْن يصاب بهما أدباؤنا ، وشعراؤنا ، وكتّابنا ، وعلماؤنا ! فينتجعون كلَّ كلأ ، ويهيمون في كلِّ واد ، ويكتبون في كل موضوع ، وافق عقيدتهم أم لا ، ويمدحون كلَّ شخص ، ويظلُّون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم ، ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد إقبال فكان من توفيق الله تعالى ، ومن حسن حظِّ الإسلام والمسلمين في الهند : أنَّه عرف نفسه في أول يوم ، وقدَّر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركَّز فكره ، وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والإيمان برسالتهم ، والطموح إلى القوة والحرِّية والسيادة ، كان شاعراً مطبوعاً ، حتى لو أراد أو أريد ألَّا يكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر ، وغلبه . كان سائل القريحة ، فيّاض الخاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ ، وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ، وكان فناناً وصنّاعاً ماهراً ، سلَّم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجوُّ ، فما من شاعرٍ ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة ، أو التراكيب والمعاني ، والأفكار ، والأغراض ، وهو من أفذاذ شعراء العالم في التفنُّن والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدة التشبيه ، والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزي والألماني ، فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كلَّ ما يمتاز به محمد إقبال ، فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنَّه امتاز بأنه أخضع شاعريَّته القويَّة ، وقوَّته الأدبية ، وعبقريَّته الفنِّية لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر ملك ، ولا

شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ، بل كان صاحب رسالةٍ إسلامية ، استخدم لها الشعر ، كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء ، فتكون أسرع وصولاً ، ولطيب الأزهار نفحات الهواء ، فيكون أكثر انتشاراً ، فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد حكمته ، يسبقها ، ويوطىء لها أكنافاً ، ويذلل لها صعاباً ، ويفتح أبواباً ، وكان شعره من جنود الإسلام ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفتح : ٤] ولا أعرف أحداً يستخدم شعره لغرضٍ أسمى ، وغايةٍ أجدى منه ، فأيقظ أمّةً ، وأشعل قلوبها إيماناً ، وحماسةً ، وطموحاً إلى حياة الشرف ، والاستقلال ، والسيادة ، والحكم الإسلامي ، حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولةٍ تحكمها ، وتدير دفَّتها ، أوجد بشعره القويِّ الهزّاز القلق الفكريَّ ، والاضطراب النفسيَّ ، الذي عمَّ هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الإسلاميَّ بصفةٍ خاصةٍ ، فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية ، والذلَّة ، وحكم الأجانب ، حتى أصبحت في يومٍ من الأيام الدولة المسلمة الحرَّة حقيقةً راهنةً ، وواقعاً ملموساً .

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولةٍ ، وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلاميِّ ، وتعلمون جميعاً أنَّ الدول تسبقها الثورات الفكرية ، والتذمُّر من الحاضر ، والتطلُّع إلى المستقبل ، والقلق النفسيُّ ، فإذا تمَّ هذا كلُّه ، ونضج ، قامت دولةٌ ، فإن كان شعرٌ قد أقام دولة ، وأحدث ثورةً فكريَّةً ، كانت سبب الانتقال من حياةٍ إلى حياةٍ ، ومن وضعٍ إلى وضع ، فهو من غير شكٍّ شعر إقبال ، وما ذاك أيها الإخوة ! إلا بمعرفة الرجل نفسه ، وتقديره لمواهبه وقوَّته ، ووضعها في محلِّها ، والغيرة عليها من أن تضيع في موضوعاتٍ تافهة ، وألفاظٍ فارغة ، وألوانٍ زاهيةٍ ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجال من العبقريين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم ،

وعلمهم بالمناداة ، أو باللغة المصرية « بالمزاد العلني » وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٣٣] .

العامل الرابع :

والمربِّي الرابع أيها السادة ! الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدَّة المعاني ، وتدفُّق الأفكار ، هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرَّض للنفحات السَّحرية ، ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربه ، ويشكو بثه وحزنه إليه ، ويتزوَّد بنشاطٍ روحيٍّ جديد ، وإشراقٍ قلبيٍّ جديد ، وغذاءٍ فكريٍّ جديد ، فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد ، يلمس الإنسان فيه قوةً جديدةً ، وحياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، لأنه يتجدَّد كلَّ يوم ، فيتجدَّد شعره ، وتتجدَّد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السَّحَر ، ويعتقد أنَّها رأس ماله ، ورأس مال كلِّ عالم ومفكِّر ، لا يستغني عنها أكبر عالمٍ أو زاهد ، يقول في بيت : « **كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شئت في العلم والحكمة ، ولكن لا ترجع بطائل ، حتى تكون لك أنَّةٌ في السَّحر** » ، وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة : « **رغم أنَّ شتاء إنجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ، ولكنِّي لم أترك في لندن التبكير في القيام** » ، وكان لا يبغي به بدلاً ، ولا يعدل به شيئاً ، يقول في بيت : « **خذ منِّي ما شئت يا رب ! ولكن لا تسلبني اللذة بأنَّة السَّحر ، ولا تحرمني نعيمها** » ، بل كان يتمنى على الله أن تتعدَّى هذه الأنَّة السَّحَرِية ، والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة : « **اللهم ! اجرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدِّينية ، وأيقظ الآمال والأماني النائمة في صدورهم بنجوم**

سمواتك ، التي لا تزال ساهرةً ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنومٍ ، ارزق الشباب الإسلاميَّ لوعة القلب ، وارزقهم حبّي وفراستي » ، ويقول في قصيدة : « **اللهم ارزق الشباب أنّتي في السَّحر ، وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي ؛ التي تطير بها وتصطاد ، وليست لي أمنية يا رب ! إلا أن تنتشر فراستي ، ويعمَّ نور بصيرتي في المسلمين »** .

العامل الخامس :

والعامل الأخير ، والمؤثر الكبير في تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها السادة ! هو « المثنوي المعنوي » بالفارسية ، وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورةٍ وجدانية ، ونفسيةٍ شديدة ضدَّ الموجة العقلية الإغريقية ؛ التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب ، والروح ، والعاطفة ، والحبِّ الصادق ، والمعاني الروحية من المباحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين ، والمدارس الدِّينية ، والأوساط العلمية في الشرق الإسلامي ، والكتاب متدفِّقٌ قوّةً وحياةً ، زاخرٌ بالأدب العالي والمعاني الجديدة ، والأمثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القوية ، والطبع الرَّيان الذي يملي هذه المنظومة التي لا تزال فريدةً في موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القويُّ في تحرير الفكر من رقِّ العقل ، والتقديس الزائد للقيم العقلية ، والخضوع للمادِّية الرعناء ، ويبعث التمرُّد على عالم المادية الضيق ، والتطلُّع إلى أجواء الروح الفسيحة ، وكان العالم في عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلي الأوروبي الذي جرف جميع القيم الروحيَّة والخلقيَّة ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية ، والمبادىء الخلقية ، وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارةً عقليةً ميكانيكيةً ، وقد قضى محمد إقبال فترةً من الزمن ينازعه عاملان : عامل العقل ، وعامل القلب ، وقام صراعٌ بين عقله المتمرِّد ، وعلمه المتجدِّد ،

وقلبه الحارِّ الفائض بالإيمان ، وفي هذا الاصطراع الفكريِّ والاضطراب النفسيِّ ، ساعده المثنوي مساعدةً غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحلَّ به كثيراً من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكره في كثيرٍ من أبياته ، ويعزو إليه كثيراً من الحقائق والحكم ، يقول في بيتٍ يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب : « **قد سحر عقلك سحر الإفرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي ، وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بحراً من العلوم** » ، ويقول في بيت : « **لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أنَّ كليماً واحداً ـ يشير إلى سيدنا موسى ـ هامته على راحته يغلب ألف حكيمٍ قد أحنوا رؤوسهم للتفكير** » ، وكان محمد إقبال يرجو أن يجدِّد علمه ورسالته في القرن العشرين ، ويخلفه في مهمته العلمية ، والروحية ، وكان يشعر أنَّ الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقد أشار إلى ذلك إشارةً لطيفة ، يقول في قصيدة : « **لم ينهض روميٌّ آخر من ربوع العجم مع أن أرض إيران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز كما كانت ، إلا أنَّ إقبالاً ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدموع نبتت نباتاً حسناً ، وأتت بحاصلٍ كبير** » .

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال ، وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرج فيها ، ولا شكَّ أنها أقوى من آثار المدرسة الأولى ، وكميات من المعلومات وافرة ، فقد علمته المدرسة الثانية المتعددة الجوانب كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه وأمته ، وقد منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والإيمان القوي ، والخلق المستقيم ، والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة .

***

الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال[1]

لم يكن إقبال اختصاصياً في مادة التاريخ ، ولم يزعم لنفسه امتلاكاً للموضوع وتعمقاً فيه ، واطلاعاً على أسراره وخفاياه ، وإذا طلب منه في مناسبة من المناسبات أن يتناول كتاباً يدور حول هذا الموضوع ويتصل به من بعيد أو قريب بالنقد والتعريف ، أحجم عن الكتابة ، واعتذر عنها ببساطة وتواضع ، وقال : « **إنه لم يختص في هذه المادة ، إنه كان عالم الفلسفة أو عالم القرآن** » ، ولكن من البديهي المعروف أن دراسته كانت واسعة منوعة عميقة ، وأنه تأمل خلال بحثه العلمي المتواصل ودراسته الطويلة الواسعة في تاريخ الأمم والشعوب والدول والحكومات ، وفي الأديان والأخلاق ، وفي المجتمعات البشرية والحضارات الإسلامية المختلفة ، بنظر ثاقب ، ونزل في أغوارها واهتدى إلى أسرارها ، ورغم أن التاريخ ـ كما قلنا ـ لم يكن محور دراساته ، إلا أنه اعتنى بالموضوع عناية لائقة شأن كل باحث يهمه مصير الإنسان ونهضة الإنسانية وانحطاطها ، والقضايا البشرية المصيرية .

وكان الوجه الثاني أن الفلسفة تثير في الإنسان تطلعاً قوياً إلى الحقيقة المجهولة ، وتحدث فيه ملكة خاصة في ربط الوحدات الضائعة والأجزاء المتناثرة ، والتوصل من المقدمات إلى النتائج ومن الجزئيات إلى الكليات ، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغييرات العابرة والأحداث الطارئة إلى كنه الحوادث وأعماقها ؛ لذلك نجد إقبالاً يتوصل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج

---

(١) مقتطف من محاضرة العلامة أبي الحسن الندوي التي ألقاها في ندوة علمية في مدينة « شيكاغو » (الولايات المتحدة الأمريكية) في أغسطس ١٩٧٥م وكتبها أصالة في الأردوية ، ونقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي » .

وحقائق لا يصل إليها أولئك الباحثون والعلماء والمؤرخون ، الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية ، والذين هم طلاب مدرسة التاريخ الجامدون وأساتذتها التقليديون ، وقد دله على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمه العميق للقرآن ، ودراسته المخلصة المتواصلة لهذا الكتاب المعجز ، الذي يحتوي على مواد أساسية ومبادىء واضحة تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية وشقاؤها ، ورقيها وزوالها ، والذي يكشف الستار عن الحوادث التي ستواجهها الإنسانية في المستقبل ، وأسباب شقاء الأمم وهلاكها وازدهارها ، كشفاً تتحير له الألباب ، ويقف عنده العقل عاجزاً مشلولاً لا يجد له التأويل . غير أن هذا الكتاب الذي نزل على « الأمي ابن البادية » ـ كما يقول إقبال ـ منزل من الله العليم الخبير الذي فطر السموات والأرض ، وذلك ما قاله إقبال عندما قَدَّم إلى الأمير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان ، المصحف الشريف :

« إن هذا القرآن سند أهل الحق ، في ضميره حياة وروح ، تندرج في بدايته النهاية ، به فتح عليٌّ باب خيبر » .

ويقول في ديوان « أسرار خودي » :

« إن هذا الكتاب كتاب خالد ، حكمته غارقة في الأزل سارية إلى الأبد ، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة ، ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه ، بالقول الثابت » .

إن دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلومات وحقائق جديدة إذا تفحصنا في غضون دراساته التاريخية ، ورأينا إلى أي مدى تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحي ، أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية ، وإنه ليس أقل من « اكتشاف » إذا قلنا إن شعر إقبال يتضمن بعض إشارات تاريخية دقيقة تتكون منها مؤلفات تاريخية إذا شرحناها شرحاً وافياً ، فقد جمع في بعض أبياته ومقطوعاته أحياناً ، وفي بيت واحد بعض الحين ، عصارة دراسات عميقة ، ومحصول تأملات طويلة ، ولباب مكتبات

كاملة تكونت في التاريخ وفلسفة التاريخ ، وهنالك التقى إيجازه بالإعجاز ، ويمكن إذا شرحنا شعره في نثر وسقنا له شواهد تاريخية ودلائل (وهي كثيرة) أن يأتي رائعاً أخاذاً كما هو الحال في شعره الحلو ، وبيانه الجميل ، وكلامه الجزل ، ولا يمكن أن يقدر قيمة هذه الإشارات العلمية والتاريخية وصدق نتائجها وعواقبها التي جاءت في شعره تقديراً صحيحاً دقيقاً إلا من كان له اطلاع واسع عميق على التاريخ الإنساني والتاريخ الإسلامي وعلى علو القرآن ، وخبرة دقيقة باليهودية والمسيحية ، والأديان الهندية القديمة ، والفلسفات العجمية وآدابها ، وتاريخ القرون الوسطى التي يسميها المؤرخون الغربيون بحق بالقرون المظلمة « Dark Ages » .

ونقدم هنا نماذج من فراسته التاريخية وحكمته القرآنية التي تجلت في شعره ، من غير تدقيق وتمحيص كبير ، واستيعاب شامل ، لكل ما ورد في هذا الموضوع ، وإنما اخترنا من أبياته ما أعانت عليه الذاكرة ، وانطلق به اللسان ، واعتمدنا على شرحه وتصويره وإبرازه في صورته الواضحة المتكاملة على المعلومات العامة لدى القارى ودراسته للتاريخ الذي يحظى به عادة كل متعلم ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك عظمة هذه الحقائق ، وأن نصدق تلك الأفكار والآراء التي قدمها إقبال إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخية والمجتمع الذي تدور حوله هذه الأبيات .

ولذلك نستعرض قبل أن نقدم هذه الأبيات الأجواء التي أنشدت فيها ، والظروف التي دفعت إليها .

لقد وزعت الديانات القديمة ـ وخاصة المسيحية ـ الحياة الإنسانية في قسمين : قسم للدين وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين ، معسكر رجال الدين ومعسكر رجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليج كبير أو وقف دونهما حاجز سميك ، وظلا متشاكسين متحاربين ، وكانا يعتقدان بأن هناك خصومة وعداء

بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه ، فلا يمكن له ـ على حد قولهم ـ أن يركب سفينتين في وقت واحد ، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة وإعراض عن فاطر السموات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير الرهبانية وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها .

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه ، وكل فكرة عن الدين لا تسمح بالاستمتاع المباح والنهضة والاستعلاء والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشري في الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة ، وكبت للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن عدداً كبيراً من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم ورضوا بها ـ كحاجة اجتماعية وواقع حي ـ واطمأنوا إليها ، وعكفوا على تحسين هذه الحياة والحصول على ملذاتها ، ولم يبق لهم أمل في الدين .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة هجروه على أساس هذا التناقض الذي حسبوه حقيقة بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الدنيوي على الكنيسة التي كانت تمثل الدين وتتجرد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات ـ بطبيعة المنطق ـ كَفِيلٍ هائج مائج تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه ، هذا الانفصال بين الدين والدنيا ، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا ، لم يضع حداً على الدين والأخلاق ولم يحرمه من بركات السماء والأرض فحسب ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللادينية وكانت فريسته الغرب أولاً ، والأمم التي دانت لها في الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايتها ثانياً ، وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، والذين لم يدخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من

الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة[1] ، وقدموا صورة وحشية كالحة جائرة مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في النهاية إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى - في أوسع معناها - إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني أو فقدان الحاسة الدينية في هوة عميقة من اللادينية والفوضى الخلقية العامة[2] .

وأعظم هدية للبعثة المحمدية ، ومنّتها العظيمة ، ونداؤها الذي دوت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء الذي عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ولكنه واسع عميق « النية »[3] .

إنه لا يؤمن بأن هذا مجرد دنيا ، وذاك مجرد دين ، إنه يعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص وامتثال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً أو قتالاً أو حكماً أو إدارة أو تمتعاً بطلبات الأرض ، وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكل عبادة وخدمة دينية - بالعكس من ذلك - تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة وجهاداً وذكراً وتسبيحاً ،

---

(١) انظر « تاريخ أخلاق أوربة » ج/ ٢ لمؤلفه ليكي .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » لدرابر ، أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للعلأمة أبي الحسن علي الندوي ، باب « الإنسانية في الاحتضار » .

(٣) هذا الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة ، والذي افتتح به الإمام البخاري الصحيح : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وقتالاً في سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل والعالم والمجاهد والداعي ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالاً ، وتكون بينه وبين الله حجاباً[1] .

وإنها مأثرة عظيمة من مآثر سيدنا محمد ﷺ ومنته العامة الخالدة على الإنسانية ، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا في خصام دائم ، وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان في إلف وود ويتعايشان في سلام ووئام ، إنه ﷺ رسول الوحدة ، وبشير ونذير في الوقت ذاته ، إنه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

إنه أعلن بالآية التالية : ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] أن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة متضادَّة ، فالعبودية والعبادة وحدة شاملة وصورة جامعة ، قد ترى فيها رجال الله في زي الأمراء ومعيشة أصحاب الثراء والجاه ، وترى فيه أمراء وأغنياء في مستوى العباد والزهاد ، جمعوا بين السيف والمصحف ، عباد ليل ، وأحلاس خيل ، من غير أن يروا في ذلك تناقضاً ، ومن غير أن يجدوا فيه مشقة وحرجاً .

واقرأ بعد هذا التمهيد أبيات شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي أنشدها تحت عنوان « الدين والسياسة » ، وتأمل كيف قيد هذا التاريخ الحافل للإسلام والمسيحية والقرون المتوسطة ، والعصر الحديث ، وتعاليم هاتين الديانتين ، ووضع كل هذه الحقائق والمعلومات والمعارف في إطار صغير أو زجاجة رائقة من أبيات ، تترامى لنا بحلاوتها وسهولتها ، وعذوبة جرسها إلى

---

(١) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك ، انظر أبواب الإخلاص والنية ، والإيمان والاحتساب .

جانب طابعها العلمي الرزين وجلالها الفني البديع ، كأنها كأس من الزلال أو جزء من السحر الحلال :

« قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها ـ بالطبع ـ القيادة والسيادة ، والحكم والإدارة ، فقد كان هنا عداء قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوع واستسلام ، وذاك استعلاء كامل واستيلاء .

حتى خلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ومرقت منه كما يمرق السهم من الرمية ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرون على شيء ، فلما انفصل الدين عن الدولة ، جاءت الشهوة وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شؤم على الدولة والدين ، هو لا يدل إلا على ضعف بصر هذه الحضارة وفساد ذوقها .

ولكنه إعجاز رجل من رجال البادية ، الذي كان بشيراً ونذيراً بذات الوقت ، يتجلى في بشارته الإنذار ، وفي إنذاره البشارة .

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعُبَّاد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد »[1] .

إن التاريخ الإنساني الطويل ـ الذي أثخن بالجراح وطفح كأسه بالدماء والدموع ، وأحاط بجزئه الأكبر حروب طاحنة ، ومعارك ضارية ومغامرات أفراد وجماعات وشعوب ـ يشهد بأن تجمع القوة والحكم في أفراد أو جماعة لم يضر النوع البشري مثل ما ضره وجر الشقاء عليه شهوة الحكم ونشوة القوة ، والشعور بالتفوق والعظمة ، فكلما يستولي هذا الشعور على فرد أو جماعة ويحس بأنه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه ، وأنه سيل جارف لا يمنعه شيء ، وقضاء الله المبرم الذي لا راد له ، والشعوب المجاورة كلها والإنسانية برمتها عالة عليه وتحت رحمته ، ورهن إشارته ، والحقيقة الباقية والشريعة السائدة هي القوة ،

---

(١) جناح جبريل (بال جبريل) .

أما الإنسانية والعدالة الاجتماعية والرحمة والأخلاق والضمير ، والحسن والقبيح والخبيث والطيب ، فهي كلمات فارغة لا تحمل معنى ، ومنطق انهزامي ، منطق العبيد والضعفاء والمساكين ، والأمم المستضعفة التي لا تملك حَوْلًا ولا طَوْلًا ، وكلما يصبح شعار (Might is Right) « القوة هو الحق » مقياس الحق والباطل ، وتمد هذه الفلسفة أجنحتها على شُعَب الحياة كلها ، وتصبح خشية الله ، والعطف على الإنسانية ، والورع واتقاء المحارم والصبر عنها ، والحياء وشُعَبه ، آية الجبن وسمة الضعف والتخاذل ، وتتحول الوسائط غايات وتصبح الغايات ممتدة إلى ما لا نهاية لها ، فهنالك ينقلب هذا الفرد أو تنقلب هذه الفئة والجماعة قوة مدمرة عمياء أو بركاناً نارياً هائلاً يتفجر على الإنسانية ، فلا تقف في زحفه الجهنمي وسيله الناري حكومات مستقرة ، وإمبراطوريات عظيمة ، ولا تمنعه حضارات الإنسانية ، أو تعاليم خلقية ، ولا نتائج جهود المعلمين والمصلحين من أهل الدين ولا مؤسساتهم التي كانت تغيث الإنسانية منذ قرون طويلة ، وتسعفها في محنها ورزاياها وتخفف آلامها ، وتمسح دموعها .

هذا السيل الناري الجارف يأتي بين عشية وضحاها على سائر الجهود المعمارية والإنشائية والإنمائية ، وكنوز الآباء والأجداد ، وذخائر العلم والأدب ، وعلى كل ما بناه الأوائل ، بل يقطع الأمل في بناء الإنسانية ونهضتها وصحوتها من جديد إلى قرون طويلة ، وتحول المدن العامرة إلى أنقاض مدمرة ، ومستعمرات زاهرة إلى أراضٍ قاحلة ، تحول العواصم الكبرى إلى مقابر عامة ، والمساجد والمعابد إلى حانات وخانات ، ونوادي الخمر والقمار ، ومؤسسات العلم ومراكز الثقافة ، إلى مراكز اللهو والترويح والفسق والدعارة ، وينقلب المجتمع كله رأساً على عقب ، ويصبح عاليه سافله ، وعزيزه رذيله ، وقد صور القرآن ببلاغته المعجزة هذا التغيير الهائل على لسان ملكة سبأ ، فصدق عليه في كتابه الخالد قائلاً : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً

﴿ أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ [النمل : ٣٤] .

وكانت فريسة هذه الشهوة ـ شهوة الأنانية والحكم والشعور المفرط بالتفوق ـ أمم قديمة ذكرها القرآن ، أمم لم تعرف شيئاً ولم تحسن شيئاً غير الإبادة والتدمير ، وزحفت كالفيل الهائج المائج ، فأهلكت الحرث والنسل ، وداست شعوبها الشقيقة كما يدوس أحدنا أرض مزرعته ولا يبالي ، وكان من بينها قوم عاد ، وقد وصفها القرآن بهذا الداء ، داء الاستكبار : ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] .

وظهرت نتيجة هذا الذهول ـ الذهول عن الله ـ والابتعاد عنه ، وعبادة النفس وتقديسها ، واستعمال وسائل القوة استعمالاً حراً ، لا يبالي بأي قيد ولا يقف عند حد ، ولا يقيم للعاقبة والمصير أي وزن ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أي حساب . وقد حكى القرآن على لسان سيدنا هود الذي بعث في قوم عاد ، هذه الحالة النفسية ، فقال : ﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٠] .

فحين يتسلم فرد أو جماعة مقاليد الحكم المطلق ، ويتسنى له قوة تحقق له ما أراد ، هنالك يعبث الفرد أو هذه الطاغية بتلك الشعوب البريئة المغلوبة المنكوبة كما يعبث اللاعب بكرة القدم ، أو كما يعبث الطفل بجانب القرطاس أنه يتصرف فيها كذرات رمل وقصاصات ورق ، ويعتبر أنه على حق في العبث بمصائرها ، والحكم عليها بالموت أو الحياة ، أو التخفيف عنها والتضييق عليها ، أو بسطها بسطاً أو قطعها إرباً إرباً .

ويقص علينا القرآن قصة فرعون الذي ظن نفسه رباً وحاكماً ، وتقلد هذا الحكم الأناني المطلق ، فيقول : ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

ثم يصور القرآن في موضع آخر فرداً من أفراد هذه الطبقة يمثل الأنانية والأغراض ، ويملك لساناً سليطاً وبياناً ساحراً ، إنه ليس صورة فرد معين ، بل إنه تصوير سلوك خاص ونمط خاص من العقلية والتفكير والاتجاه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة : ٢٠٤ـ٢٠٦] .

إن التاريخ الإنساني زاخر بهذه النماذج البشرية التي تمثل هذا الطراز وهذه العقلية ، مثلها في مختلف أدوار التاريخ كالروم والفرس ، وقد أنشأ فيهم هذا السكر : سكر القوة والحكم والشعور بالتفوق على غيرهم ، رغبة عنيفة في القتل والتدمير والإبادة ، وإذلال الكرامة الإنسانية تجلت في حروبهم ومعاركهم ، وفي عبادة القوة وقهر النفوس ، واضحة جلية ، يقول الدكتور درابر (Drapper) في كتابه « الصراع بين الدين والعلم » (Conflict Between: Religion and Science) :

« لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة التمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتفُّ بهم خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون

يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتشحط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة ، فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين إيرادات الأقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام روما المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها »[١] .

ثم قرأ غزو التتار الوحوش في القرن السادس الهجري في كتاب التاريخ[٢] ، إن الذين أحسوا في أول صدام بأنه ليس هنا في البلاد المجاورة قوة تمنع هذا السيل العرم ، وكانت مأساة إنسانية عامة ، لا تستطيع أن تقرأ تفاصيلها إلا بقلوب واجفة ، وعيون باكية ، إنها كانت فتنة عمياء سوداء ، أحاطت بالعالم الإسلامي كله ، وقوضت بنيان العالم المتمدن المعاصر وأركانه ، كان الجيل الإنساني كله في هذه الفترة المهيبة المروعة من الزمن في وحشة وغربة ، وهلع وفزع ويأس قاتل ظهرت آثاره لا في كتب التاريخ فحسب بل في كتب الشعر والأدب والأخلاق والتصوف أيضاً[٣] ، هذا الجراد المنتشر من الهمج لم يدمر البلاد العامرة المعمورة والمدن الزاهرة ، والأقاليم الخصبة الغنية المنتجة للرجال والنوابغ فحسب ، وجعلها خراباً يباباً وقاعاً صفصفاً ، بل إنه اكتسح الحضارة الإنسانية برمتها ، وتأخر تقدم العالم العلمي والمدني ومسيرته

---

(١) History of The Conflict Between Religion and Science. London 1927. p.p 13-2.

(٢) مثل البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) اقرأ بعض تفاصيلها وأخبارها في كتاب العلاّمة أبي الحسن الندوي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ج١ ، تحت عنوان « التتار محنة العالم الإسلامي » طبع دار ابن كثير ، دمشق .

الحضارية لعدة قرون ، وغشيت سماء العالم الإسلامي الذي حمل لواء الدين والأخلاق والعلم والحكمة في هذه الحقبة من الزمن ، سحب داكنة قاتمة من الانحطاط العلمي والإعياء الفكري والعقلي ، ونضبت فيه منابع النبوغ والذكاء ، وهاجرت أسر علمية دينية عريقة من إيران وتركستان ـ وهما كانتا محاضن العلوم الإسلامية ومعاقلها إذ ذاك ـ تفر بدينها وحرمتها وتراثها إلى الهند التي كانت تقع في أقصى بلاد العالم الإسلامي ، وكانت تحكمها أسر ذات قوة وشكيمة تواجه العاصفة بالإعصار ، وتملك القدرة على مواجهة التتر الوحوش ودحرهم إلى الوراء ، وأصاب العالم الإسلامي نوع من العقم الفكري والجدب العلمي ؛ حتى سدت بعض الأوساط العلمية أبواب الاجتهاد ومنافذه ، وابتغت العافية في التقليد والنقل ، وتطبيق الفعل بالفعل[1] .

إن قيصر ، والإسكندر ، وجنكيز ، وهولاكو ، وتيمورلنك ، ونادر شاه أفشار ، لم يكونوا إلا مرضى هذا الداء العضال ، داء السكُر بالقوة المادية ونشوة الحكم والتفوق بالعظمة ، وكانوا يقنصون الإنسانية ، ويصطادون النوع البشري ، ويدوخون الأسرة الإنسانية مرة بعد مرة ، بأسنتهم ورماحهم ، وبأقدامهم ونعالهم ، اقرأ تفاصيل ملاحمهم ، وصيدهم وقنصهم ، وعبثهم بالرؤوس والجماجم والأشلاء والأنفس والأرواح ، ثم تأمل ـ كيف قدم شاعر الإسلام محمد إقبال عصارة دراسات طويلة وآلاف من الصفحات في ثلاثة أبيات :

« انظر كيف مزق جنكيز وإسكندر رداء الإنسانية ، وهتكا ستر الحشمة ولباس الكرامة ففضحا الإنسان مراراً وتكراراً .

إن تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أن سكر القوة ونشوة الحكم خطر في خطر ،

---

(١) وهذا هو سبب انصراف العلماء من الاجتهاد إلى التقليد بعد القرن الثامن عشر الهجري عند إقبال .

ومصيبة على مصيبة ، إنه سيل جارف يكتسح العقل والفكر والعلم والمعرفة والفن والصناعة كحشائش ونباتات حقيرة ، يجعلها هباء منثوراً » .

قد يرى كثير من رجال الفكر في الشرق أن أوربة (بمعسكريها الشرقي والغربي) وأمريكا أصابتهما هذه العقدة النفسية ، وصرعهما هذا الداء القديم ، إنهم اعتبروا نفوسهم أوصياء (Guardians) على الشعوب والأمم والحاكمين على مصائرهم ، وهم يَزِنُون كل شيء بميزان القوة أو الربح والخسارة ، ولا يرضون بقيادة صالحة أمينة في أي بقعة من بقاع العالم ، ويحاولون أن يجتثوها حالاً إذا نشأت ، بل يرى كثير من المفكرين والخبراء في الشرق أن القيادة الغربية هي المسؤولة عن ذلك التدهور الخلقي والفوضى الفكرية العامة في البلاد الآسيوية بوجه عام ، وفي البلاد الإسلامية بوجه خاص .

هذا المنطق النفعي المجرد عن الحق والنزاهة لا يسمح للقيادة الغربية أن تفكر في أي قضية بحياد تام ورغبة مخلصة في التوصل إلى كنه الأمر ، وإيجاد حلها العادل ، بل إنها تحالف ـ بالعكس ـ الظالم القوي في وجه المظلوم الضعيف الذي له الحق .

ولذلك خابت المؤسسات العالمية النافعة مثل جمعية الأمم المتحدة ومجلس الأمن في مقاصدها ، وصارت لا تمنع صداماً ولا تلم شعثاً ولا تحقق أملاً ، ولا تقدر على إسعاف الإنسانية والأخذ بيدها خالصة مجردة من الأغراض المادية .

وقد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الأكبر (الإخلاص والحياد) تأثير معونات الغرب السخية في المشاريع العمرانية والغذائية في الشرق ، ولم تحقق كثيراً من مطالب الغرب ، ولم تكسب احترامه مقابل هذ المساعدات السخية والدعم القوي .

أما إذا اقترنت هذه القوة وامتزجت بغاية نبيلة سامية ، وصارت تحت توجيه قائد مصلح راشد ، فلا تتخبط كالفيل الهائج الذي أطلق من قيوده ، وتكون

مركباً ذلولًا لقائد عارف خبير لا راكباً ، تابعاً لا متبوعاً ، وسيلة لا غاية ، وتتحول إلى نعمة ورحمة بدلًا من عذاب ونقمة ، وحياة لا موت ، وأداة بناء لا معول هدم ، يستنجد بها في إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، وتحرير الإنسان من سلاسل العبودية ، ورد الحقوق إلى أصحابها ، والمياه إلى مجاريها ، ورد اعتبار الإنسانية وكرامتها ومكانتها اللائقة في هذه الأرض ، هنالك يفتتح عهد سعيد ، ويبنى هذا العالم المنهار المتداعي من جديد .

يقول إقبال : « **إذا تخلت السياسة عن الدين صارت سماً ناقعاً ، وإذا كانت في خدمته صارت ترياقاً واقياً** » .

ويعتقد إقبال أن أروع نموذج وأجمل مثال لهذه القوة الممتزجة بالغايات النبيلة والمقاصد الصالحة ، هي الفتوح المباركة والمغامرات التي قام بها العرب الأولون الذين اعتنقوا الإسلام ، وحملوا رسالته ودعوته في الآفاق ، واستعمالهم للقوة التي آتاهم الله استعمالاً صحيحاً لائقاً ، والذي عبروا عنه على لسان سفيرهم بإخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إنه خاطب في الأبيات الرائعة الآتية الأمة العربية ، وشرح دورهم القيادي الرائع البنّاء في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات ، وأشاد بهذه العقيدة والإيمان والدعوة والرسالة التي كانت مصدر هذا الانقلاب ، ومنبع هذا التحول العظيم في سير الإنسانية واتجاهها ، وحركتها ومصيرها ، وهي من غرر كلامه وعيون شعره باللغة الفارسية :

« **اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي حلة أنيقة ، وأنبتت زهرة يانعة ، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي بل ترعرعت ونمت في حجره ، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمسه .**

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة .

هزم كل طاغوت ، وحطم كل صنم ، وأورق به كل غصن يابس وأزهر وأثمر ، إنه روح معركة بدر وحنين ، وإنه مربي الصِّدِّيق والفاروق والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيض من فيضه ، جعل سيف صلاح الدين البتار ، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب والتقى بها روح الرومي بفكر الرازي .

واجتمع بها العلم والحكمة والدين والشرع ، والإدارة والحكم مع قلوب أواهة مخبتة منيبة في الصدور .

إن جمال قصر الحمراء ، والتاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب القديسين هو نفحة من نفحاته ، ولمحة قصيرة من لمحاته ، وومضة من أنواره وبركاته .

ظاهره تلك التجليات والنفحات ، وباطنه در مكنون لم يطلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون .

فلا ريب أنه يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب » .

من المفارقات العجيبة في هذا الكون أن الأشخاص الذين أنشؤوا إمبراطوريات عظمى ، ودخلت بهم الأمم المستضعفة الذليلة المهانة في دور النهضة والرقي ، والعظمة والكمال ، والنجاح والازدهار ، كانوا متقشفين صابرين مغامرين ، زاهدين في الدنيا وزهرتها ، أغنياء عن التنعم والعيش الرغيد ، وكانت معيشتهم بسيطة ومرهقة ، ولكنهم نجحوا بفضل مغامراتهم وطموحهم ، وعلو همتهم ، وجهادهم واجتهادهم ، وصبرهم على المكاره في تأسيس تلك الحكومات التي ثبتت كالجبال الراسيات لقرون طويلة ، ولكن توفر وسائل الهناء والرخاء ، والبيئة الفاسدة ، ووجود طبقة من المتزلفين وهواة المناصب ، أثر في أخلافهم وأعقابهم بصورة تدريجية فشلت قواهم ، وأخلدوا

إلى الأرض ، وتمرغوا في النعيم والترف ، وصاروا أبناء مطاعم ومشارب ، وسهرات ومآرب ، وعز عليهم الحياة من غير كاس ومزمار ، وطنبور وعود ، وارتكز ذكاؤهم ونبوغهم وإبداعهم على نقطة واحدة ، ولم تكن بالطبع ، نقطة الفتوح وحراسة الحدود ، وتوطيد أركان الدولة ، إنما هي تصميمات أزياء ، وأقسام أطباق ، والتنافس في الطرب والمجون والاستمتاع بلذات الدنيا ومباهجها ، ووصلوا في ذلك إلى حدود لا يتطرق إليها خيال ابن من أبناء البلد ، وفرد من أفراد الشعب .

إنه مبدأ عام جرى به التاريخ الإنساني منذ القدم ، وأخذ به من غير استثناء ويبدو لنا أنها سنة من سنن الكون ، ونتيجة طبيعية منطقية للمال والثراء والمنصب والجاه ، وتوفر أسباب الراحة والرخاء ، وقد كشف القرآن عن وجه هذه الحقيقة بإيجازه المعلوم وبلاغته المعجزة فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ ـ ٧] .

اقرأ تاريخ شعب من الشعوب في أي دور من أدوار التاريخ وحكومة من الحكومات التي قامت على وجه الأرض قديماً وحديثاً ، تَرَ هذا التفاوت واضحاً بين الأول والآخر وبين الأوائل والأواخر في السير والأخلاق وأنماط الحياة ، وفي الأقدار والمقاييس .

ونكتفي هنا بمثالين ونموذجين من هذه الأمة التي سبقت قريناتها في حمل لواء التعاليم الخلقية في هذا العالم ، وهي أمة نبي جعل الفقر شعار فخره ، وربط الأحجار على بطنه ، والتي أقامت به من أول يومها على الزهد والقناعة ، ومراقبة النفس والعطف على الخلق ، فإن أمثلتها ونظائرها تكثر ـ طبعاً ـ في الفرس والروم ، ومصر واليونان ، وفي حكومات وحضارات أخرى .

والواضح المعلوم لدى الجميع أن العرب حين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام في العالم ، وإجراء شريعة السماء في الأرض كانوا فقراء ، غرباء عن حواشي الحضارة ومستلزماتها ، وكانت حياتهم حياة شكيمة وفتوة ، وصبر

وجلاد ، وزهد وشظف[1] ، ولكنهم بفضل القوة الذاتية في الإسلام ، وبحياتهم البسيطة الزاهدة التي فقدتها سائر الشعوب في العالم ، نجحوا في إنشاء دول عظيمة مرهوبة الجانب ، من بينها الدولة العباسية التي حكمت باسم الخلافة خمسمئة سنة حكماً مستقلاً ذاتياً ، ودان لها نصف العالم المتمدن المعاصر على أقل تقدير ، ولقد كان مؤسسو هذه الدولة الأوائل مثل هارون الرشيد والمأمون (مع مطامعهما الملوكية ومعيشتهما الفارهة وترفهما المعلوم) من رجال الفتوة والمغامرة والإقدام ، متعودين على حياة الجندية والفروسية ، ولكن أصاب هذه الدولة أخيراً داء الترف والتنعم ، وأصبح ولاة أمورها الذين حملوا عبء الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدة من الزمن ، عالة على نفوسهم وأهوائهم ، ينساقون معها ، ويدورون في فلكها ، وصاروا فريسة الحكم الطويل والمدنية الناعمة المترفة ، وتكدست عندهم أسباب الراحة والهناء ، وفاضت عاصمتهما بغداد بسيل جارف من الغفلة عن الله ، والتهالك على الدنيا ، عبثت بكثير من رجال العلم والفضل ، وضرب حب الدنيا وحب ما فيها أطنابه على العاصمة ، وما جاورها من البلاد والأقاليم .

وظهرت نتيجة هذا الإغراق في الترف والتمرغ في النعيم والتهالك على حطام الدنيا ، والانصراف عن معالي الأمور في غارة التتر الوحشية في زمن الخليفة العباسي المعتصم بالله ، وتحولت عاصمة العلم والمدنية إلى مجزرة وحشية هائلة ينتكس عند ذكرها قلم المؤرخين[2] .

وقد صور مؤرخ أوضاع بغداد قبل غارة التتر فأحسن وأجاد ، يقول المفتي قطب الدين النهروالي المكي (وهو أحد المؤرخين والعلماء في القرن العاشر الهجري) يصف ما كان عليه أهل العاصمة في هذه الفترة من الزمن :

---

(١) اقرأ للتفصيل رسالة « المد والجزر في تاريخ الإسلام » للعلاّمة أبي الحسن الندوي .

(٢) اقرأ للتفصيل « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » للعلاّمة أبي الحسن الندوي ، الجزء الأول ، باب « التتار محنة العالم الإسلامي » .

« مرفهون بلين المهاد ، ساكنون على شط بغداد ، في ظل ثخين ، وماء معين ، وفاكهة وشراب ، واجتماع أحباب وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ولا دافعوا طعناً ولا ضرباً »[1] .

ونقدم المثل الثاني من الدولة المغولية في الهند التي أسسها ظهير الدين بابر التيموري (١٤٨٢ ـ ١٥٣٠م) على التوبة والإنابة وإرادة الإصلاح والتغيير والتضحية والفداء والعزم الصادق ، فلما رأى بابر أنه لا يملك غير عشرين ألف جندي مقابل مئة ألف مقاتل تحت راية « رانا سانجا » وأن لا أمل هناك ولا مدد سلك طريقاً جديداً للفتح ، يحكي المؤرخ الهندي الشهير محمد قاسم البيجابوري في كتابه (تاريخ فرشته) :

« إن رانا سانجا » توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقاتل من أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهن منجم البلاد محمد شريف بأن الهزيمة محتومة ، ولكن بابر صمم على القتال وقال : إذاً ينبغي لنا أن نتهيأ للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كل جانب من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقت من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية ، وقاوم « رانا سانجا » بعشرين ألف مقاتل وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣هـ » .

ولكن تدرجت هذه الدولة الفتية التي قامت على مثل هذا العزم والحزم ، والتضحية والفداء ، وميثاق مع الله ، والتي تجملت وافتخرت بوجود عصاميين ونوابغ وعباقرة من بين أبنائها مثل « همايون » و « أكبر » و « أورنك زيب » إلى حمأة الرذيلة والإسفاف ، والشهوة واتباع الهوى ، واتباع الرغبات وإتيان

---

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ـ ١٨٠ .

المنكرات ، تجلى أخيراً بصورة واضحة مؤسفة في حياة « محمد شاه » (١٧١٩م ـ ١٧٤٨م) وما جرى في قصره حتى سمي باسم معناه (الماجن) واشتهر به .

وإليك ما جاء عنه في التاريخ مستنداً إلى شهادة علمية : « **إن الملك محمد شاه لم يغير دينه ولكنه غير ديدنه ، فصار الغيم نقيبه ورائده ، إنه أمر بأن يؤذن بالرحيل كلما مرت سحابة على هملايا وأومض برق ، ويغادر الخليفة وركبه القصر إلى الصحراء.. ولذلك سمي المسكين في الأخير « رنكيلاً » يعني « الماجن » وهجره وزيره (آصف جاه) عندما رأى حالته ، فانصرف إلى جبال الدكن وغاباتها** » .

وجاء في بيان الشيخ الكبير عبد العزيز الدهلوي ما يلقي الضوء على تلك الأوضاع الفاسدة :

« **كانت النساء في بيت قمر الدين خان (وزير محمد شاه) يغتسلن الغسل الأخير بماء الورد ، وكان يرسل إلى بيت أحد أمرائه كمية من الورود والأزهار والبان (التنبول) يساوي ثمنها ثلاثمئة روبية كل يوم** »[1] .

تأمل في غابر هذه الحكومات ومصيرها ، وماضي الأمم وحاضرها ، وما بينهما من تفاوت عظيم وبون شاسع ، ثم انظر كيف صور محمد إقبال هذا التاريخ الطويل العريض ، وأزاح الستار عن نهضة الأمم وتأخرها ، ورقيها وانحطاطها في بيت واحد : « **تعال أنبئك عن مصير الأمم وعاقبتها ، سنان ورماح أولًا ، ولهو وغناء آخراً** » .

ولكن هذا المقال لا يتم إلا إذا قلنا : إن هذه الأمم حين تدخل مرحلة اللهو والغناء والترف والمجون ، وتصيبها نوبة عصبية من التمتع بكل لون من ألوان التنعم ، والإحاطة بكل نعمة من نعم الدنيا ، وتتخطى سائر الحدود الخلقية ،

---

(١) تذكرة ص/ ١٧٢ .

والاعتبارات الإنسانية ، وتتجاهل كل حقيقة ، هنالك تتدخل الرحمة الإلهية وتتناولها بعملية جراحية ، ويختار لهذه الجراحة جنكيز وتيموراً ، أو هولاكو ، أو نادراً ، فيقطع هذا الناسور أو هذا السرطان من غير رحمة ولا هوادة ، إنه يقول :

« الملوكية تتحول بين يوم وليلة إلى جنون أو مجون ، وليس التيمور أو جنكيز إلا آلات جراحية تستعملها ـ في حينها ـ القدرة الإلهية » .

ولكن انتهى الآن دور الملوكية القديمة وحكومات شخصية مستبدة إلى حد كبير ، وجاء دور الديمقراطية والجمهورية ، تكدست قوى العالم وثرواتها في أيدي القيادة الغربية (أمريكا وأوربة) وهي تجتاز في هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار ، بعد أن وصلت إلى آخر نقطة من النهضة والرقي والازدهار ، وهي مرحلة مرت بها حكومات شخصية قديمة ، وحضارات بائدة في أوانها ، فلا ترى عندها الآن إلا معاداة الحقائق ، وإذلال الشعوب وهضم الحقوق ، وظلم المستعمرات والجاليات ، وحالة هستيرية عصبية من عبادة النفس ، وتقديس الشهوة ، وعبادة الهوى ، والإغراق في حياة اللهو والعبث والمجون ، والسآمة من الحياة ، والشذوذ الخلقي والجنسي ، والتهالك على كل عاجل وطريف ، ورد فعل عنيف ضد الاجتماع ، والغرام بالذاتية والأنانية ، والذهول التام عن العاقبة والمصير ، وإنكار كل ما يتعدى إطار اللذة والمنفعة ، وكل ذلك يدل على أن هذه القيادة فقدت معنويتها ، وضرورتها وصلاحيتها للبقاء ، وأن هذه الحضارة دخلت دور الاحتضار .

إن تجربة التاريخ تدلنا على أن قيادة فتية شابة كانت تظهر على مسرح العالم في مثل هذه الظروف ، فتقوم بعملية جراحية على هذا السرطان وتنقذ الإنسان من الهلاك ، وتجري في عروقه الميتة دماً فائراً جديداً ، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على ظهر الأرض قيادة أو قوة ، ثم ليس هنا أمل في ظهور قيادة جديدة ، أو بروز حضارة شابة قوية في الميدان ، لأن القوى العالمية اليوم

متطفلة على مائدة الغرب وتعيش على هامشها وتتبع طريقها ، والحضارات المعاصرة بأسرها مستسلمة خاضعة أمامها ، لا تبغي بها بديلاً ، ولا تجد عنها محيصاً ، لذلك يبدو لنا أن هذه العملية الجراحية لا تتم على يد قوة أجنبية من الخارج ، وهي ليست في حاجة إليها لأنها ـ على ما يقول إقبال ـ مثخنة بجروحها الداخلية الغائرة .

إن الطريق الذي اختارته الحضارة الغربية والقوة الهائلة من التدمير والإبادة والقتل والفتك ، التي زودت بها أناساً لا يخافون الله ولا يستحيون من الناس ، أوشكت أن تقضي على نفسها ويأتي حتفها بيدها .

يقول إقبال :

« إن هذا الفكر الجريء الذي فضح قوى الطبيعة وأفشى أسرار الكون انقلب اليوم برقاً خاطفاً ورعداً قاصفاً ، يهدد عش الغرب ووكره ، وحصنه ومعقله » .

* * *

فكر محمَّد إقبال :

نورد هنا بعض الإيضاحات حول فكر وفلسفة محمد إقبال تتيح للقارىء إدراك مغزى قصائده .

الذات الكونية :

الكون في نظر إقبال ، بكل أشكال وجوده ، ثم خلقه ، يتماسك بفعل روحٍ أساسية شاملةٍ لكلِّ شيء . أو على الصحيح ينشأ منها كلُّ شيء . وتسمَّى (خودي) أو (شودي مع نطق CH على الطريقة الألمانية) . وهي ما ترجمناه في هذا الديوان بـ(EGO) (الذات بالعربية) ، ومع ذلك فإن (خودي) تختلف عن المعنى اللاتيني لهذه الكلمة أو المعنى الذي أعطاه لها (شوبنهور) مثلاً ،

كما تختلف عن الكلمة الفرنسية (MOI) التي تعارض (TOI) أو (SOI) وتقترب من كلمة (SELF) الإنكليزية ، وهي الكلمة التي ترجم بها إقبال نفسه هذا المفهوم .

الحياة :

الذات بحركتها تبدع الحياة ، وتدافع عنها ضدَّ نقيضها الموت ، وهي في نزاعٍ دائم مع الموت ، وتنتصر عليه على الدوام .

وإذا جاز لنا هذا التشبيه ، فالحياة مثل الجزيء في الطاقة الكهرطيسية ، توجد ما دامت تؤثر ، وهي تؤثر وتفعل بقوة الذات نفسها ، وضعف الذات يقلِّص في الحياة شكلها ومداها وقابليتها على الفعل والتأثير ، وعندئذ تضمر الحياة وتنتهي بالموت .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

قوة الذات تحوِّل حبة الخردل إلى جبل .

خور الذات يحول الجبل إلى حبة خردل .

الذات الفردية ، الأنا :

بفضل الزوجين تنهض الحياة من كلِّ جانب ، كأنها جيوشٌ جرَّارة . وهكذا تتجزأ الذات ألف مرَّة وألف مرَّة ، وتدفع الأفراد إلى الظهور في مشاهد كلِّيةٍ واسعة .

وعندئذ تصبح غاية الفرد البحث عن مجد الذَّات المطلق (الأنا) ، وتأكيد هذه الأنا بالسمو درجةً بعد درجةٍ ، ومرحلةً بعد مرحلةٍ إلى مستوياتها الرفيعة .

الذات : هي للكائن الفرد الشخصية والقدرة والكمال . وهي ـ في تطوُّرها وارتقائها ـ تضع المثل العليا ، وتحققها بجهودها .

الجهد العنيف :

طبيعة الذات نفسها تدفعها إلى بلوغ الكمال إلى أقصى حدٍّ ممكن ، وإلى بذل الجهد العنيف .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

يتجاوز الهلال كلَّ وجوهه وجهاً بعد وجه .

من يستطيع بلوغ الغاية القصوى دون جهدٍ كبير ؟

ولبلوغ الكمال لا يجوز لك أن تتجنَّب الصِّعاب ، بل يجب عليك أن تتغلب عليها .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

غاية ثورة المؤمن .

أن تتجلَّى عليه ذاته .

والحقُّ أن موسيقا الكون الخالدة لا تقوم إلا على العقبات .

قال إقبال (في رسالة المشرق) :

لا تتجنب الأزمنة الصعبة .

من لم يتخطَّ العقبات لا قيمة له .

ألا تعرف أنَّ الموجة

لا تكون ممتعةً إلا عندما تلطم الصُّخور ؟

الحب والجمال :

هذا الجهد الشَّاقُّ الذي يدفعك إلى تسلق مرتقى الوجود ، والذي يمثل ظاهرة الذات ، هو الحب .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

الحبُّ أن تبصر الذَّات ، الحبُّ أن تصون الذَّات .

وقال :

جوهر الحياة هو الحبُّ ، وجوهر الحبِّ هو الذَّات .

وهكذا فإن ما نبحث عنه هو الجمال . والذَّات الفردية ، وهي تتكامل بدافعٍ من طبيعتها ، تنسجم مع الذوات الأخرى ، وتصل إلى مرتبةٍ عليا هي مرتبة الجمال .

الجمال موجود سلفاً ، ولكن نور الحبِّ يزيده غنىً بنوعٍ من حادثة الطنين ، يكاد يكون سحرياً .

قال إقبال (في جناح جبريل) :

بالحبِّ تزداد الوردة ، وشقائق النُّعمان روعةً وجمالاً .

في نظرة الشاعر ، ذي الصوت الذهبي ، شيء من السحر

في منظور إقبال أنَّ تقدُّم الذات الفردية يدلُّ على الوجهة التي ينمو فيها الجمال ، كما أنَّ تراجع الذات يدلُّ على الوجهة التي يزداد فيها القبح[١] .

قال إقبال :

كلُّ ما يبعث على سموِّ الذات جميل .

كل ما تدعو إليه الدناءة قبيح كريه .

الفن :

يُعرِّف إقبال الفن بهذه العبارات انطلاقاً من مفاهيمه عن الحبِّ والجمال .

قال في (عصا موسى) :

البحث عن الجمال هو الفن .

---

(١) وهذا ما يحدث في الفيزياء فالقصور الحراري مثلاً يدلُّ على الاتجاه نحو الفوضى ، وهذه الظاهرة يمكن أن تساعد على إدراك فكرة محمد إقبال حول هذه النقطة .

وقال في (جناح جبريل) :

الألوان ، الآجر ، الحجارة ، الكمان ، الكلمات ، الرنات ،

كلها يفتقها سرُّ الفنِّ على حساب جوهرنا .

والفن يقدِّم أدلَّته تمجيداً للذات ، والذَّات هي المعيار الوحيد للحكم على قيمته .

الفنُّ يبعث الحياة في كلِّ من يقتربون منه ، ويفعمهم بالحماسة والنشاط ، وفرح الحياة الذي يتجلَّى على وجوههم .

قال في (عصا موسى) :

إذا سمعت أغنيةً فلم تنر وجهك ،

فمعنى ذلك أنَّ المغني بارد القلب .

وقال في (جناح جبريل) :

الشاعر جريءٌ ، إنه يجمِّل الطبيعة .

وقال فيه :

يا شقيقة النعمان ! أيتها العروس ! ما لك تحتجبين عني ؟!

فأنا لست إلا نسمة الصباح .

والإبداع لا يفتر ، والخلق يطَّرد دون هوادة .

في كلِّ لحظةٍ نسمع من يقول : لو كان هذا ، ولو كان ذاك ، ولكنَّ الإنسان ، حين يكون فنَّاناً حقيقياً ، يسهم في عمل الخالق .

قال إقبال في (رسالة المشرق) :

أنت خلقت النهار ، وأنا صنعت المصباح .

أنت خلقت الطين ، وأنا صنعت الأقداح .

أنت خلقت الغابة والجبل والصحراء ،

وأنا صنعت الرواق ، والبستان والكرم .

أنت خلقت الحجر ، وأنا صنعت منه المرآة .

أنت خلقت السُّمَّ ، وأنا استخرجت منه الترياق .

الفن الجميل الوحيد هو الفنُّ الذي يسمو بالروح ، ويلهم الشَّجاعة ، ويوحي بالأمل ، ويعلِّم العيش في شرف .

أما الفنُّ الذي يفسد الروح ، ويتلفها ، ويضعف الحماسة للعمل والحميَّة لاكتشاف أسرار الطبيعة ، الفنُّ الذي يضعف الذَّات ، ويجعلنا عبيداً للناس ، فليس إلا فناً شيطانياً (كما ورد في عصا موسى وأسرار الذات) ولنتذكر هذه الحكمة الهندية :

الحقُّ قوةٌ وجمال[1] .

نفي الذات :

تجنح مجموعةٌ من الذوات الفردية بطبيعتها ، وهي تسعى نحو الرُّقيِّ والكمال إلى الذوبان في « أنا » جماعية ، وبذلك تخلق ذاتاً لمجموعة تزداد تطوراً وسعةً شيئاً بعد شيء . هذه اللاَّذات في المستوى الشخصي تُكوِّن الذَّات في المستوى الجماعي ، وليس في ذلك تخريب للذَّوات الفردية ، بل فيه ما يدعو إلى دعمها وانسجامها .

قال إقبال في (أسرار نفي الذات) :

نفي الذات هو غاية الذات الشخصية ، بل إنَّه دليل ارتقائها .

وقال في (جناح جبريل) :

ما أسعدني عندما يوهب لي ذوق الذَّات .

إنه يدفعني إلى الخروج من ذاتي .

ويمكننا إيضاح هذه الفكرة بقولنا : إن المجتمع الإنساني على النطاق

---

(١) ساتيام ، شيدام ، سندرام ، بالتوالي ، Satyam, chidam, Sandram .

العالميّ سيتمُّ إنجازه بالتعاون على قدم المساواة بين كلِّ الأفراد في أوج ازدهارهم ، لا بسيطرة بعضهم على بعض .

الإنسان الكامل :

نفي الذات يبني مجتمعاً لأناس كملة ، تتمتَّع ذواتهم بأقصى ما لها من بريق . الإنسان الكامل يعشق الحقَّ في أقصى مداه ، والذات في أوج مجدها . عبر الحب تصبح الذات حياةً ، ولأن الذات خالدةٌ ، فالحياة وهي مظهر الذات خالدةٌ كذلك ، ولأن الحبَّ يدفع إلى رقيِّ الحياة رقياً دائماً ، فهو خالد ، وخالدٌ كذلك كل ما يُنجزه الحبُّ .

قال إقبال في (جناح جبريل) :

يا مسجد قرطبة ! وجودك هو الحب .

الحبُّ خالدٌ ، وما من شيءٌ آخر كاملٌ .

الحب يفتح القلوب ، ويهب للعاشق الرقَّة ، والوجد ، ولحن الصَّرخة في منتصف الليل ، ودموع الصباح ، واستقلال مثل هذا العاشق يجد نبعه في نظامٍ تتبعه الذات الشخصية في طاعتها للذَّات الكونية .

وهكذا يتكوَّن الإنسان الكامل الذي هو سيِّد الكائنات في الأرض وفي السماء ، والذي يقنع بالقليل ، أي بالفقر ، « الإنسان المتجرِّد » الذي تحرَّر من كلِّ ما في العالم من مغريات ، لأنه ، حين يسيطر على كلِّ شيء ، ليس محروماً أيَّ شيء ، وهكذا يتجرَّد . إنَّ هذا الوحي الربَّاني هو الفقر .

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الزهد ليس في هجر الطين والماء .

خير أنواع الزهد في غزو كلِّ زاوية في الأرض والسماء .

ويطلق إقبال على إنسانه الكامل على حسب ما طرأ عليه من تحوُّلات ، وما

قطع من مراحل الكمال لقب « الإنسان الحر » « الإنسان الجسور » « القلندر » « الإنسان المتجرد » « الدرويش » إلى غير ذلك من الألقاب .

هذا الإنسان الكامل هو روح الإنسانية المشخصة . وهو في نظر إقبال في سموّه ، وفي رشاقته المثل الأعلى للإنسان المتوازن خير توازن يمكن أن نتصوره :

ونرجو أن تسمحوا لنا بالاستشهاد بقصيدتين من ديوانه (عصا موسى) :

المؤمن
(في هذا العالم)

ناعمٌ كالحرير في حلقة الأصدقاء .
صلبٌ كالحديد في معركة الحقّ والباطل ، هذا هو المؤمن .
ينازع السماء ، كأنه ندٌّ لها .
يحتقر الأرض ، وهو من الأرض ، هذا هو المؤمن .
لا تجتذب السُّماني والحمام بصره .
بل يقتنص جبرائيل وإسرافيل ، ذلك هو المؤمن .

(في الجنة)

تقول الملائكة : « ما أشد فتنة المؤمن ! »
وتشتكي الحور : « ما أشد بُعد المؤمن ! »

والقصيدة الثانية

الإنسان المسلم

يبدو المؤمن كلَّ لحظة في نهارٍ جديد .

يتجلى الله في أقواله وأفعاله .

السلطان ، والرِّفق ، والصفاء والقدرة الكلية :

هذه العناصر الأربعة ضرورية لبناء المسلم .

إنَّه جار جبريل كما هو إنسان الأرض .

لا يرتبط ببخارى ولا ببدخشان .

ما من أحدٍ يعرف هذا السر : المؤمن .

الذي يبدو أنه قارىء (القرآن) وهو القرآن حقاً !

نواياه على مقياس مصائر الطبيعة .

إنَّه الميزان في هذا العالم ، إنَّه القسطاس في يوم الحساب .

إنَّه الندى الذي ينعش قلب شقائق النعمان .

إنَّه الشي الذي يرعش قلب الأزهار .

أيامه ولياليه تعزف لحن الطبيعة الخالد ،

لحناً مثل سورة (الرحمن) في القرآن ليس لموسيقاها نظير .

في معمل فكريٍّ تُصنع النجوم .

وأنت يا هذا ! اعرف نجم قدرك .

وانظر كذلك قصيدة (مسجد قرطبة) في جناح جبريل .

الإسلام :

المثال أكثر بلاغة من المفهوم : ولد إقبال ونشأ وعاش في مجتمع إسلامي ، وكان من الطبيعي أن يبحث عن عناصر تفكيره في تاريخ هذا المجتمع .

وبدا لإقبال أنَّ خير نموذج يقترحه ، وأنَّ خير نظامٍ اجتماعيٍّ هو أكثر

النظم قرباً من أحلامه ، إنما هو الإسلام في نقائه الأصيل .

ومنذئذ جعل يشرح طوال حياته هذا النظام حسب حاجاته ، واستخلص منه رموزاً شعرية ، ومجازاتٍ وإشاراتٍ ، نجدها مبثوثةً في كلِّ ما كتب ، ونظم .

والحقُّ أنَّ إقبالًا وحَّد بين الذات الكونية وبين الله ، كما فهم الإسلام وكما فعل (تيكهارد دو شاردان) تقريباً وهو الناشيء في محيطٍ مسيحي ، حين وحد بين (المسيح الكوني) ـ كما ورد في الإيمان ـ وبين نقطة (أوميغا) أي بين البداية والنهاية في العلم .

وهذه النقطة جرى تعريفها على أنها النهاية القصوى (Noo- genése) التي تتعلَّق بالوجود كله ، والتي ليست خاليةً من بعض أوجه التشابه مع مفهوم الذات الكونية .

ويرى إقبال في شخصية الرسول ﷺ الإنسان الكامل ، كما يجد المجتمع المثالي في صحابته ، مثل أبي بكرٍ الصديق ، وعمر الفاروق ، وعليٍّ ، وأبي ذر ، وسلمان الفارسي ، وأويس القرني ، وخالد بن الوليد. . . إلخ ، رضي الله عنهم أجمعين .

ولقد عاشوا جميعاً حياةً نموذجيةً ، ووضعوا حبَّ رسولهم ، وطريقة سلوكهم الذي علَّمهم إياه فوق كلِّ شيء : ألا وهو الذات الفردية التي بلغت حدَّ الكمال ، والتي ذابت في الذَّات الجماعية ، دون أن تتخلى عن قيمتها الشخصية .

ويقارن إقبال بين إنسانه الكامل وبين المفهوم القرآني للإنسان (خليفة الله في أرضه) ويرى أنَّ كون الإنسان خليفة الله في الأرض أرقى درجات الرقي الإنساني . (أسرار الذات) .

والنبيُّ ﷺ وإنَّه ﴿ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ كما ورد في القرآن الكريم ، هو أفضل مثل على هذا الخليفة .

ويستطيع كلُّ مؤمنٍ باتباع القرآن الكريم أن يصل إلى هذه المرتبة ، ويتبنَّى إقبال فضائل الرسول ﷺ ليزين بها نموذجه في (الإنسان الكامل) .

وهناك ما هو أكثر من ذلك ، فإقبال يشبّه الرسول أحياناً بالله نفسه ، وينسب إليه الصفات الإلهية مثل (الرحمن) وفي هذا التشبيه ما يشير إلى فكرة إقبال من أن العبد يسلك سلوك السيد ، وما يشير إلى العناصر الأربعة التي تصنع المسلم في اشتراكها معاً .

ثم إنَّ إقبالاً تصوَّر هذا المفهوم الوارد سلفاً في جناح جبريل :

الذات ..

إنها البحر الذي تحتويه قطرة ماء .

ويقرن هذه القطرة من الماء بالبحر المبدع .

إقبال المتمرد :

الثورة والتمرد يحتلاَّن مركز تفكير إقبال .

يهاجم المحترفين ، وإذا جاز لنا القول : يهاجم محترفي رسالة الدين .

قال في (جناح جبريل) :

ما أجدر أصحاب المناصب العالية في الكنيسة وفي الإسلام بالرثاء !

حصاد جهودهم ظلمة قلوبهم !

وقال في (جناح جبريل) أيضاً :

هل في مسجدك غير المواعظ ؟

كل أحكامك حق ، ولكنَّ المفسرين

يستطيعون ، وهم يفسرونها ، أن يجعلوا من القرآن (بازند) المجوس .

وقال :

البحث عن المعاني الكاملة في مذهب من المذاهب

يعني تدميره في بساطة .

ويشكو إقبال نظام التربية التي يتلقاها الشباب .

قال في (جناح جبريل) :

أشكو إليك يا رب ! هؤلاء الأرباب : أساتذة المدارس :

إنَّهم يعلمون الشَّواهين الصغيرة العبث بالغبار .

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

يبني معلم المدرسة صرحاً ،
صناعته روح الإنسان .

من أجله قال الفيلسوف (كاغاني) كلمةً سحرتني :

« لا تبن جداراً أمام الشمس

إذا أردت نوراً في باحة دارك » .

وقال في (جناح جبريل) :

تركت المدرسة والدير ، وأنا جدُّ حزين ،
فليس فيهما حياة ، ولا حبٌّ ، ولا معرفةٌ ، ولا بصيرةٌ !

ولذلك حمل إقبال على الزُّهد الساكن البليد في اللاهوتي والصُّوفي :

قال في (جناح جبريل) :

خير أنواع الزُّهد ليس في البعد عن عالم الماء والطين !
خير أنواع الزُّهد في إخضاع هذا المخلوق من الطين ، هذا المخلوق من النور .

وورد في (أسرار الذات) :

الحقُّ يقوم على تأكيد الذات أكثر من نكران الذَّات .

وهناك نصان جديران بالذكر أثارا عاصفة من الاحتجاج عند المسلمين

(الأصوليين) وهما قصيدتان مثيرتان ، هما : (شكوى إلى الله) و(جواب الشكوى) كتبهما إقبال حوالي عام ١٩١٥م . وفي هاتين القصيدتين يهاجم إقبال الله عزَّ وجلَّ هجوماً عنيفاً ، على ما يتصور أنه موقف متباين تجاه الناس . كما يحارب إقبال فكرة القدر الذي لا مفرَّ منه .

يقول في (جناج جبريل) :

كيف يستطيع هذا النجم أن يدلَّني على مصيري ،
والنجم نفسه مهينٌ منبوذٌ في رحاب الفضاء ؟

وقال أيضاً في (جناح جبريل) :

لماذا تخضع إلى قدر العناية الإلهية ؟
لماذا لا تصوغ أنت بنفسك قدرك ؟

وقال :

هذا الذي يقول الحمقى : إنه أسير القدر ،
ما يزال يملك القدرة على تحطيم القدر .

والصحيح ما قاله في (رسالة المشرق) :

أن تعيش لحظةً واحدة وأنت أسد
خير لك أن تعيش نعجةً إلى الأبد .

وفي إطار هذه النزعة رسم إقبال صورة إبليس ، ويذكرنا هذا الشيطان في بعض ملامحه بـ (بروموثيوس) سارق النار :

لقد تزوَّد إبليس بتلك الشجاعة النموذجية التي تثير العواصف في الجداول ، والأنهار ، والبحار ؛ بينما يظلُّ رسل الإله ، مثل الخضر ، وإلياس لا يعملون شيئاً كما ورد في (جناح جبريل) .

إنَّ شجاعة إبليس هي التي منحت قدرة الطين (أي : الإنسان) النزعة إلى النماء والارتقاء . كما ورد في هذا الديوان .

وإبليس يقيس نفسه بالإنسان : أيمكن أن يصبحا ندَّين يتنازعان ؟ أيمكن أن يكونا حليفين يتعاونان . واأسفاه! ما أسهل هزيمة الإنسان ! وعندما يخيب أمل إبليس يحتجُّ هذا الاحتجاج أمام الله :

قال إقبال في رسالة الخلود (جاويد نامه) :

ما ابن آدم ؟ حفنة من الهشيم !

تكفي شرارةٌ واحدةٌ منّي للقضاء على هذه الحفنة من الهشيم .

إن لم يكن في هذا العالم غير الهشيم ؛

فلماذا وهبت لي كلَّ هذا المقدار من النار ؟

كسر المرمر شرف لي ،

أما كسر الزجاج فعارٌ عليَّ .

فلسفة إقبال :

فلسفة إقبال في الذات ونفي الذات فلسفةٌ فرديةٌ ، وفلسفةٌ اجتماعية في آنٍ واحد، ولها تطبيقاتها في النواحي الثقافية (كالناحية اللغوية مثلاً) والاقتصادية، بل والسياسية .

انتشر في زماننا مفهوم التقارب والتضامن ، وتقدَّمت الفكرة القائلة بأن في إمكان مجموعات كبرى من الناس أن تتوحد ، وأن تصون أصالة بعض الوحدات الصغيرة المتجمعة ، وازدادت الدَّعوة إلى صيانة قيمها الذَّاتية .

ونحن نجد في الميدان الثقافي مثلاً أن رسل « الزنجية » يرون فيها إضافةً إلى إنسانية ذات أبعادٍ كونية . ونجد في الميدان السياسي أنَّ أوربة تسعى إلى الوحدة دون أن تتخلى عن هوية أقطارها . ثم أليست عصبة الأمم ، والأمم المتحدة بمؤسستيها GUS, ONU محاولة للتقارب والتعاون بين الشعوب لتحقيق وحدة الجنس البشري ، هذه الوحدة التي يتطلع إليها إقبال .

وعزيمة الشاعر وأهدافه ذات أبعادٍ عالمية .

قال في (رسالة الخلود) :

الإنسانية هي احترام الإنسان ،
إذاً فيجب الاعتراف بدرجته الرفيعة .

ثم إنَّ تفسير إقبال للإسلام نجد فيه غالباً رنةً عالميةً ، تؤثر في قرائه من غير المسلمين .

ونحن إذا تناولنا مذهب إقبال حسب مفاهيمه الفلسفية الشخصية ، بدا لنا أنه عمد إلى قلب كثير من معاني الألفاظ المدرسية القديمة ، واتَّخذ منها رموزاً جديدة .

ولنضرب مثالاً على ذلك كلمة (خودي) التي كانت مرادفة للانطواء على الذات ، والتي أعطاها معنى (احترام الذات) وكلمة (الفقر) التي تعني عادة التقتير والحرمان ، فاستعملها للدلالة على (السيطرة الأخلاقية) .

إذاً فعلينا أن نفهم هذه الرموز في معناه العريض :

المؤمن ، والمسلم يعنيان : الإنسان المثالي .
الكعبة ، والحرم ، والمعبد تعني : الهدف .
السجود يعني : الجهد العنيف .
الصلاة تعني : الرغبة المحرقة .
الأذان يعني : الدعوة إلى العمل والجهد
وهكذا دواليك .

وإذا كان من الممكن أن يبدو إقبال (هرطقياً) في عيون بعض المسلمين ، فإنَّ مداه تجاوز حدود العالم الإسلامي ، فقد قام بدراسته في (لاهور) و (كمبردج) و (هايدلبرغ) و (ميونيخ) . ولم ينقطع قط عن إذكاء طيب شعره بمواد كثيرةٍ متنوعة . جاء بعض هذه المواد من تبحره في التاريخ ، والفلسفة ، والحقوق ، واللاهوت ، وجاء بعضها من ملاحظاته : من حرية

الشعوب واضطهادها ، وألمه وهو يقظان ، وحلمه بالمجد وهو نائم ، من فورة الأفكار الجديدة ومن ألعاب السياسة ، ومن الحروب المدمِّرة ، ومن المساومات و(المناورات) في زمن السلم ، ومن المجابهة بين الشرق والغرب .

لقد أصبح إقبال شاعر الشرق في نهضته ويقظته بهذه الأشعار الحارَّة المغامرة الجريئة ؛ علمنا الإيمان بمستقبلٍ مشرقٍ علينا أن نبدعه بأنفسنا ، واستهوت الشباب أجوبته الواقعية الحية على ألغاز الوجود ، وألهمت عدداً لا يحصى من القراء ، بل إنها ما تزال تفتن الناس حتى الآن ، وسوف تستمر في فتنتها وسحرها إلى أمدٍ بعيد .

ذلك أن إقبالاً ظلَّ طوال حياته روحاً متفتحة ، جعلت آلام الناس جميعاً آلامها الذاتية ، وأحيت في الكائن الإنسانيِّ عنصر الإنسان المبدع الذي يتعاون مع الله ومع الطبيعة .

قال في (جناح جبريل) :

رغم أنَّ الطبيعة لا ينقصها الذوق ،
فاصنع أنت ما لم تستطع الطبيعة صنعه .

وقال في (أجراس سفر القافلة) :

ماذا يلزم الإنسان : طبعٌ رفيعٌ ، وظمأ إلى الصفاء ،
قلبٌ حارٌّ ، عينٌ نقيَّةٌ ، روحٌ قلقة[1] .

***

---

(١) ديوان « جناح جبريل » ترجمة الأستاذ عبد المعين ملّوحي ، ص١٧ ـ ٣٥ .

فلسفة محمّد إقبال

لا بد من كلمة موجزة في فلسفة محمد إقبال تعين القارىء على إدراك مرامي الشاعر .

أساس فلسفة إقبال ما سماه « خودي » (الذات أو الذاتية) .

وقد بين مذهبه هذا في كثير من شعره وخص به منظومة سماها أسرار خودي .

وخلاصة هذه الفلسفة ، وما بنى عليها ، وما يتصل بها من آراء :

(أ) أن الذاتية جوهر الكون وأساس نظامه ، وسر الحياة فيه .

(ب) وأن الذاتية هذه تحيا من تخليق المقاصد ، وتوليد الآمال .

كما يقول إقبال : « **نحن أحياء بتخليق المقاصد ونحن منيرون من شعاع الأمل** » .

(جـ) وأن الذات تقوى بعشق ما تؤمل ، وسعيها إليه غير متوانية وإقدامها عليه غير هيابة واقتحامها كل عقبة في سبيله كما قال :

« **وهي بالمحبة أقوى ، وأحيا وأضوأ** » .

(د) والجهاد الدائم ، والكفاح المتصل تقوى به الحياة وتزداد وتنير . والأحجام ، والتردد والسكون إلى الدعة والخضوع تضعف الحياة وتطفئها .

(هـ) وعلى الإنسان أن يستخرج كل ما في فطرته من مواهب ، وأن يعتمد على نفسه ، ويظهر ذاته في قوله وفعله ، ويحذر التقليد والاعتماد على غيره ، وطلب ما عند الناس والغفلة عما في نفسه من كنوز .

(و) بهذا كله تقوى الذات ، وقوة الذات هي مقصد هذه الحياة . والشاعر

معجب بالقوة في كل شيء ، القوة الحسية ، والقوة المعنوية . وهو بهذا يعجب بالفيلسوف الألماني نيتشه ويذكره كثيراً ولكنه يأخذ عليه أنه عرف العقل لا القلب ، والجسم لا الروح ، والعلم لا العشق ويقول عنه لم يكن أهلاً لنكتة التوحيد ، وأنه آمن عقله وكفر قلبه ، وأنه بنى على أسس مسجد .

بل القوة عند إقبال من عناصر الجمال ، فإن الجمال لا يكون بغير جلال .

يقول في القطعة التي عنوانها : الجلال والجمال :

عندي جمال في بهاء أن تُرَى — في سجدة للقوة الأفلاكُ
ولنغمةٌ من دون نار نفخة — ما الحسن إلا بالجلال يُحاكُ

بل يقول في هذه القطعة إنه لا يحب أن يعذب بنار غير قوية :

لا أرتضي نار الجزاء ولم تكن — وهاجة ولهيبها درّاكُ

(ز) والحسن والقبح أو الخير والشر من علو الذات وانحطاطها وقوتها وضعفها :

عالم الذات به علو وسفل — وبه معرك قُبح وجمالِ
في اعتلاء الذات ما يبدو جميل — وقبيحٌ ما بدا في الاستفال

(ح) والذات المفردة القوية الناضجة تنسلك في الجماعة ، ولا تفنى فيها . وقد بين إقبال في ديوانه أسرار خودي كيف يلتئم الواحد القوي في جماعته وكيف يسعد بهذا الالتئام ويبقى ولا يفنى . ومن إشاراته في هذا :

يا من في القافلة سِرْ — رفيقاً وكن وحيدا

ويقول في ضرب كليم في القطعة التي عنوانها الرجل العظيم :

هو في المجمع خال — ومن الحشد طليق
مثل شمع الحفل ، في الحفل وحيد ورفيق

الحضارة الحديثة

ويروي إقبال أن الحضارة الأوربية مادية ، لا روح لها ولا قلب ، ويشتدّ في نقدها ، ويذكر فلاسفتها فيقبل من آرائهم قليلاً ويردّ كثيراً ، ويرى أن في الإسلام وحضارته سعادة البشر والتأليف بينهم ، وجمعهم على شرعة الحق أخوة متحابّين متعاونين .

فلسفته في هذا الديوان

تتجلى فلسفة إقبال في الذات وما يتصل بها ونظره إلى الحضارتين الإسلامية والأوربية ، وسائر آرائه ، في كل فصول هذا الديوان ، حتى الأدب والفنون الجميلة .

الشعر فيه من الحياة رسالة ... أبديَّة لا تقبل التبديلا
إن كان من جبريل فيه نغمة ... أو كان فيه صُور إسرافيلا
صمت طير الصبح أولى من غناء ... إن سرى في الرّوض باللحن ذبولا

والغناء إن أدى إلى ضعف أو خَوَر فهو حرام :

إن سرت في اللحون دعوة موت ... حرُم الناي عندنا والربابُ

(ط) والإنسان أعظم الكائنات ، وكل شيء في العالم مسخّر له كما في القرآن الكريم :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ

وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٢ـ٣٤] .

(ي) والإنسان حرّ غير مجبر ، ومخيّر غير مسيّر . عزمه دليل على القضاء أو مشير عليه . والمؤمن الحر هو مقياس الصلاح والفساد ، والبقاء والفناء في هذه الدنيا بل في الدنيا والآخرة .

فيـه عـزم علـى القضـاء مُشيـر وهـو فـي العـالمين كـالميـزان

النبات والجماد في قهر الطبيعة ، ولكن المؤمن الحر لا يقيده إلا إطاعته أحكام ربه :

إن النبـات وإن الجـامـدات لهـا مـن القضـاء قيـود ذات إحكـام
والمـؤمـن الحـر لا شـيءَ يقيّـده لكـنْ لخـالقـه فـي قيـد أحكـام

والمصور ينبغي أن يصور الحياة وأن يطبع ذاته على الطبيعة لا أن يحاكيها :

مقصـد الفـنّ فـي الحيـاة لهيـب أبـدى فمـا وَمِيـضُ الشـرار ؟
يـا خبيـراً بفنـه فيـه تمـت صنعـةُ العصـر والعصـور الخـوالي
كـم تـرى مـن طبيعـة وتـريهـا ؛ أرِنـا الـذات فـوق هـذي المجـالي

* * *

تفسير اصطلاحات في الديوان

« الفقر »

يشيد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ، ويعدّه مفتاح كل خير والوسيلة إلى كل سؤدد ، والمقتحم كل عقبة .

ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان :

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيها المسلم تَدري اليوم ما ... قيمة الفولاذ والعَضْبِ الذكَر
هو مِصراعٌ من البيت الذي ... مضمرٌ فيه من التوحيد سر
وأرى مصراعَه الثانيَ في ... سيف فقر تحتويه كفُّ حر

وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاح ... في حومة الحرب كالرجوم

وقوله في قطعة « السلطان » :

تعلّم فألف مقام وشأن ... لفقر بدا فيه روح القُرآن

وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمرّ عليك من فقر مِسَناً ... فيطبع منك سيفاً للمنايا

وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملك مقام فقر ، ولكن ... تؤثر الذل مذعناً ما احتيالي

وقوله في القطعة التي أولها : متاعك في الحياة فنون علم .

وما إن ذل قوم قد أعدّوا ... حماس العشق والفقرِ الغيور

ويتبين من التأمل في هذه الأبيات أن الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو

قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتز به من متاع الدنيا . فماذا يعني إقبال حين يذكر الفقر ويشيد به ويبالغ في إكباره ؟ الذي أدركته من كلام الشاعر أن الفقر الذي يعنيه هو خلاص النفس من قيد التملك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربما يكون ملكاً مسلَّطاً لا يُعجز سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عما فسَّر به بعض الصوفية الفقر .

ففي رسالة القشيري :

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صَدَق في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب عوارف المعارف للسهروردي :

« وقال الكتاني : إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى ؛ لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أن الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فات ، أعني ألا تكون الدنيا في قلبه وإن كانت في يده .

قلندر

يعني به إقبال الإنسان الذي لا يصل نفسه بمال ولا أهل ولا دار .

وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب وأحدث طريقة كان سالكوها يديمون السفر لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ولا أهل ولا وطن ويحلقون رؤوسهم ولحاهم .

وسمى سالك هذه الطريقة قلندراً باسم صاحب الطريقة .

وقد رأيت أن أبقي اللفظ في الترجمة لأنه علم في الأصل ، وجعلته أحياناً وصفاً وأحياناً نسبت إليه فقلت : القلندر والقلندريّ .

الجنون

يكرر الشاعر ذكر الجنون في الديوان ، ففي القطعة التي أولها :

إلى عصبات العرب ما أنا مُنْتَمٍ ولا أنا هندي ولا أنا أعجمي

يقول :

فلست أرى في بيدك اليوم جنّة تشبّ بهذا العقل نار التقدم

وفي القطعة التي أولها :

متاعك في الحياة فنون علم :

يقول :

ومزّقتُ الجيوبَ وأنت خال جنوني - لا ألومك - في قُصور

وفي القطعة ، « يا شيخ الحرم » :

في جنوني لك أسرار بدت فاجْزني يا شيخُ عن هذا اللمم

وفي القطعة التي عنوانها « المدرسة » :

أبعَد الدرس عن حماك جنونا قال للعقل : لا تَلُذْ بنقاش

وفي القطعة « فلسفة » :

إن في حلقة المجانين عقلاً في شرار يرى لهيباً مُضيّا

وظاهر أن إقبالاً يعني بهذا الجنون الحماسَ والإقدامَ وأداء الواجب دون تردد ، وفي غير حساب للمشقة والربح والخسارة ، فهو قريب من العشق الذي يذكر في مقابلة العقل .

وكأنه يقول : إن هذا الإقدام يَعُدُّه الناس جنوناً ، ونحن نحب هذا الجنون[1] .

يُعتبر هذا الديوان من أول دواوين محمد إقبال الشعرية باللغة الأردوية ، وهو من أكثر دواوينه رواجاً ، حثَّ فيه الشاعرُ المسلمينَ على التضحية والعمل ، كي يستعيدوا منزلتهم من المجد والرفعة ، يحتوي هذا الديوان على أروع الأناشيد الإسلاميَّة ، وأعظم قصائد الرثاء . ومن أشهر الأناشيد الإسلامية فيه « النشيد الإسلامي » والقصائد « الشكوى وجواب الشكوى » وقد وَصَفَ الشاعرُ في « الشكوى » مصائبَ المسلمين ، وفي « جواب الشكوى » آمالهم ، لا يوجد لهذه القصيدة نظير في القصائد الإسلاميَّة في القوَّة والانسجام ، نُقدِّم هنا نشيداً وقصيدةً مترجمةً بالعربية شعراً ، هما من أشهر أناشيد وقصائد هذا الديوان .

(١) من أراد أن يستزيد من الاطلاع على سيرة وحياة الشاعر العظيم محمد إقبال ، فليقرأ « محمد إقبال سيرته وفلسفته » للدكتور عبد الوهاب عزام ، و « روائع إقبال » للعلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، و « إقبال الشاعر الثائر » للأستاذ نجيب الكيلاني ، و « محمد إقبال الشاعر المفكر الفيلسوف » للمؤلف .



الدِّيوانُ الأوَّلُ

صَلْصَلَةُ الجَرْسِ
بانكادرا

نَقَلَهُ إلى العَرَبيَّةِ نَثْرًا

ثُمَّ صَاغَهُ بِالعَرَبيَّةِ شِعْرًا

الشيخ صاوي شعلان المصري



النَّشيدُ الإسلامِيُّ

الصِّينُ لنَا والعُرْبُ لَنَا ... والهِنْدُ لنَا والكُلُّ لَنَا
أضحَىٰ الإسلامُ لنَا دِيْناً ... وجَمِيْعُ الكَوْنِ لَنَا وَطَنَا
تَوحيدُ الله لنا نورٌ ... أعْددنا الرُّوحَ له سكَنا
الكَوْنُ يَزولُ ولا تُمحَى ... في الدَّهْرِ صَحائفُ سُؤْددِنَا
بُنيتْ في الأرضِ مَعابِدُها ... والبَيتُ الأوَّلُ كَعبَتُنَا
هُو أوَّل بيتِ نحفَظُهُ ... بحياةِ الرُّوحِ ويحفَظُنَا
في ظِلِّ السَّيف تربَّيْنا ... وبَنَيْنا العِزَّ لِدَولَتِنَا
عَلَمُ الإسلامِ على الأيَّا ... مِ شعارُ المجدِ لمِلَّتِنَا
بهلالِ النَّصرِ يُضيءُ لنا ... ويُمَثِّلُ خِنجَر سَطْوَتِنَا
وأذانُ المُسلِمِ كانَ له ... في الغَرْب صدىً من هِمَّتِنَا
قولوا لِسَماء الكَوْنِ لقدْ ... طاوَلْنا النَّجْمَ بِرِفعَتِنَا
يا دَهْرُ لقد جَرَّبتَ على ... نيرانِ الشِّدَّة عَزْمتَنَا
طُوفانُ الباطِل لم يُغرِقْ ... في الخَوفِ سفينةَ قوَّتِنَا
يا ظلَّ حدائِقِ أنْدلسٍ ... أنسيتَ مغانيَ عِشرَتِنَا
وعلى أغصانِكَ أوكارٌ ... عمَرَتْ بِطلائِعِ نَشأتِنَا
يا دجلةُ هَلْ سجَّلت عَلى ... شطِّيكَ مآثِرَ عزَّتِنَا
أمواجُكِ تَروي للدُّنيا ... وتُعيدُ جواهِرَ سيرَتِنَا
يا أرْضَ النورِ من الحَرَمَيْـ ... ـن ويا ميلادَ شريعَتِنَا
رَوْضُ الإسلام ودَوحتُهُ ... في أرْضِكِ رَوَّاها دمُنَا
ومُحمَّد كان أميرَ الرَّكْـ ... ـبِ يقودُ الفوْزَ لنُصرَتِنَا

إنَّ اسـمَ محمَّـدِ الهـادي رُوحُ الآمـالِ لِنَهْضَتِنَـا
دَوَّتْ أنشـودةُ « إقبـالٍ » جَـرَسـاً يَحـدو فيـه الـزَّمنَـا
لِيُعيـدَ قـوافِلَنـا الأولَـى فـي المَجـدِ ويبعَـثَ أُمَّتَنـا

٢ـ على ضريح فاطمه" بنت عبدالله التى استشهدت فى سبيل الله وهى تسقى الغزاة فى حرب طرابلس

١٩١٢م

رمز العلى و سمية الزهراء يا نور وجه الملة البيضاء
سكنت رفاتك تحت اطباق الثرى قدسية الانوار و الاضواء
حظ من العلياء قل نظيره لسواك يا حورية الصحراء
ارويت أبطال الغزاة بكوثر من رحمة من قبل سقى الماء
جاهدت صابرة و لم تتقلدى سيفا ولا درعا الى الهيجاء
ماسر هذا الشوق و الهمم اللى زاحمت فيها موكب الشهداء
قدمت فى استشهادك المثل الذى يبقى على الأيام خير بقاء
كانت خميلتنا على وشك البلى و المحو بين عواصف النكباء
كيف ازدهت رغم الخريف و اسفرت عن مثل تلك الزهرة الفيحاء
كيف انزوت يا رب تحت رمادنا تلك الشرارة فيه طي خفاء
او لم تزل رغم الخطوب مليئة صحراؤنا بجآذر و ظباء
و الرعد و البرق الذى يغزو الدجى بوميضه فى حالك الظلماء
كيف اختفى يا رب خلف سحابنا فى وقت صحو و انقطاع رجاء
و كم اعترتنى فى مصابك لوعة و سكبت دمع الديمة الوطفاء
و ذكرت ما ادركت من شرف العلى فنسيت آلاسى و مر بكائى
و تبدلت قيثارتى بأنينها فى المآتم الباكى لنشيد غناء
فى كل قلب من ترابك نشوة من عزمة وثابة ومضاء

يتدفق الطوفان من جنباته و تشب منه لوافح الرمضاء
و بشائر آلامال فى رقصاته يحيى صداها ميت الاحياء
الصمت يعلن من ضريحك ثورة و لرب صمت فاق كل نداء

فى هذه الاحضان تولد امة تبنى صروح المجد خير بناء
أنا لست أدرى ما وراء الكون من سكنون اقدار و غيب قضاء
لكن جيلا صاعدا يبدو على قرب المدى فى نضرة و لماء
مثواك مولده القريب و بعثه و مناره الهادى الى العلياء
و أرى نجوما كالدرارى أو مضت بالنور تحت القبة الزرقاء
تقف النواظر حاسرات دونها و يثير منظرها خيال الرائى
تطوى الفضاء فما يبالى ركبها بشروق صبح أو ظلام مساء
بسلاح ماضيها و حاضر يومها تمضى الى غدها بغير و ناء
بقديمها و جديدها نحو العلى فى غير تشويف ولا ابطاء
لبيك فاطم انت قد ارسلتها مرآة مجدك فى سنا و سناء
قدر تجلى منك فى اشراقها ذكرى لكل مجاهد و فدائى



٣ ـ هدية" اقبال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

صور اقبال فكرة خلود الشهداء في حرب طرابلس في لوحة شعرية مشرقة قال تحت عنوان "في حضرة الرسول" :

حين ضقت ذرعا بضوضاء هذه الدنيا و اثلت الهموم كاهلي حزمت امتعتي و ازمعت الرحيل ـ و اني و ان قضيت كل ايامي في قيد الصباح و المساء فاني اشعر بغربتي عن نظام هذا العالم و مقاييسه ـ لقد حملتني اجنحة الملائكة الى مقام من اختاره الله رحمة للعلمين ـ و ما ان مثلت في حضرته حتى سمعت نداء يقول "يا بلبل" روض الحجاز كم لك من اغان اذابت البراعم و الأزهار بحرارة الانغام السحرية ، انها تعبر عن خفقات قلبك و تتحدث عن نشوتك بخمر العشق — ان سجداتك في سكنة الليل ترسم القدوة الصالحة للمومنين، و لكني اسائك و قد تعلمت الطيران و التحليق على اجنحة الملائكة و جئت لنا انسانا من عبيد الورود ـ

ماذا حملت الينا من عالمك الذي خلفته وراءك ؟ قلت يا نبي الله اشكو اليك همومي و حرماني من طمانينة النفس ـ فاني لا أجد الحياة التي أواصل البحث عنها في كل مكان — ان الرياض في كل مكان من الدنيا حافلة بالخمائل ، مليئة بالشقائق و الازهار ولكني لم اجد في جميعها زهرة واحدة تحمل رائحة الوفاء ، على اني يا نبي الله! اتيت اليك بما لا يوجد مثله في الجنة، انها رمز من كرامة امتك ، انها زجاجة مليئة بدماء قانية من شهداء طرابلس :

و لما توالى في الحياة ضجيجها و ضاق بها صدرى و طال عنائي

حملت من الدنيا متاعى لرحلة تخفف ما أشكو من البرحاء

على رغم انى ما برحت مكبلا بلقها صباح و ارتقاب مساء
فما زلت حرا من تقاليد هالم اری اننی فیه من الغرباء
بأجنحة الاملاك ارسلت همتى الى كل اوج صاعد و علاء
اذا أنا بالنور الذى من شروقه تطالعنا شمس الضحى بضياء
هو النير المبعوث للخلق رحمة نبى البرايا اصدق الرحماء
يقول تقدم ايها البلبل الذى سرى حبه شذوا بكل فضاء
تغنيت في روض الحجاز فرائد تحف النخيل الخضر حول قباء
و كاد يذوب الورد وجدا و رقة بمالك من شذو و طيب غناء
و انغامك النشوى تفيض على الربى اناشيد حب صادق و ولاء
وكم سجدة فى مخدع الليل لم تزل بها قدوة الابرار و الصلحاء
تمثلت انسانا من العطر و الشذا تجوب الينا باب كل سماء
فقلت متى يا اكرم الخلق ! تنقضى همومى و القى فى الحياة رجائى
ارى كل روض بالازاهير حاليا ندي الشذا في نضرة ونماء
يجود بمحمر الشقيق عرائسا تميس بها الا غصان فى خيلاء
وما ذكرتنى فى الخمائل زهرة بعطر اخاء او نسيم وفاء
و طافت باحلامى ضحايا طرابلس و ابناء ابطال بها شرفاء
لقد بذلوا فى ارضهم ثمن العلا لتحريرها من عصبة الدخلاء
لقد سجلوها قصبة قرمزية مسطرة امجادها بدماء
و لبهنى الهادى البشير و قال لى بأي الهدايا جئت يوم لقاء ؟
فقلت له هذى الوديعة فى يدى تزيد على الياقوت حسن بهاء
فما حوت الفردوس يوما نظيرها جلالة قدر او جميل رواء
فقال و ماذا ؟ قلت : هذى هديتى زجاجة طيب من دم الشهداء

الشكوى وجواب الشكوى

(حديث الروح)[1]

شكْوايَ أمْ نجْوايَ في هذا الدُّجىٰ ... ونجـومُ ليلـي حُسَّـدي أو عُـوَّدي

أمسيتُ في الماضي أَعِيْشُ كأنما ... قطعَ الزَّمانُ طريقَ أَمْسِي عن غَدِي

والطيـرُ صـادحـةٌ علـى أَفْنَـانِهَـا ... تبكـي الـرُّبـى بـأنينهـا المتجـدِّدِ

قـد طـالَ تَسْهِيْـدِي وطـالَ نشيـدُهـا ... ومَدَامِعِي كالطلِّ في الغُصْنِ النَّدِي

فـإلـى متَـىٰ صَمْتِـي كـأنِّـي زهـرةٌ ... خَـرْسَـاءُ لـمْ تُـرْزَقْ بَـراعَـةَ مُنْشِـدِ

* * *

قَيْثَـارَتـي مُلِئَـتْ بـأنَّـات الجَـوى ... لا بُـدَّ للمَكْبُـوْتِ مِـنْ فَيَضَـانِ

صَعِدَتْ إلى شَفَتِي بلابلُ مُهْجَتِي ... لِيَبِيْـنَ عنهـا مَنطقـي ولِسَـانـي

أنـا مـا تَعَدَّيْـتُ القنـاعـةَ والـرِّضـا ... لكنَّمـا هـي قصـةُ الأَشْجَـانِ

أَشْكُـوْ وفـي فَمـي التُّـرَابُ وإنَّمـا ... أَشْكُـوْ مُصـابَ الـدِّيـن للـدَّيَّـانِ

يَشْكُـوْ لـكَ اللهـمَّ قلـبٌ لـمْ يَعِـشْ ... إلَّا لحمـدِ عُـلاكَ فـي الأَكْـوَانِ

* * *

قـد كـانَ هـذا الكـونُ قبـلَ وُجـودِنـا ... رَوْضـاً وأزهـاراً بغيـرِ شَمِيْـمِ

والـوردُ فـي الأَكْمَـامِ مجهـولُ الشَّـذَا ... لا يُـرْتَجَـىٰ وردٌ بغيـرِ نَسِيْـمِ

بَـلْ كَـانَـتِ الأَيَّـامُ قبـلَ وجـودِنـا ... لَيْـلاً لظَـالِمِهـا وللمَظْلُـومِ

لمَّـا أطـلَّ مُحَمَّـدٌ زَكَـتِ الـرُّبـىٰ ... واخضَـرَّ فـي البُسْتَـانِ كـلُّ هَشِيْـمِ

وأَذَاعَـتِ الفِـرْدَوسُ مَكْنُـونَ الشَّـذا ... فـإذا الـوَرىٰ فـي نُضْـرةٍ ونَعِيْـمِ

* * *

---

(١) اشتهرت هذه القصيدة في البلاد العربية بهذا العنوان ، والصحيحُ ما عَنْوَنها الشاعر بـ « الشكوى وجواب الشكوى » .

مَنْ كان يَهتِفُ باسم ذاتِكَ قَبْلَنَا ... مَنْ كان يَدْعو الواحدَ القهّارا
عَبَدُوا تَمَاثِيلَ الصُّخورِ وقدَّسُوا ... مِنْ دُونِكَ الأَحْجارَ والأشجارا
عَبَدُوا الكَوَاكبَ والنُّجومَ جَهَالَةً ... لَمْ يَبْلُغُوا مِنْ هَدْيِهَا أَنْوَارا
هَلْ أَعْلَنَ التَّوْحِيدَ داعٍ قَبْلَنَا ... وهَدَىٰ الشُّعُوبَ إليكَ والأَنظارا
كُنَّا نُقَدِّمُ لِلسُّيُوفِ صُدُورَنَا ... لَم نَخْشَ يَوْماً غَاشِماً جبّارا

* * *

قَدْ كَانَ في اليُونَانِ فَلْسفَةٌ وفي الـ ... ـرُّومَانِ مَدْرَسَةٌ وكانَ المُلْكُ في سَاسَانِ(1)
لَمْ تُغْنِ عَنْهُم قوَّةٌ أو ثَرْوَةٌ ... في المالِ أو في العِلْمِ والعِرْفانِ
وبِكُلِّ أرضٍ سامِرِيٌّ مَاكِرٌ ... يَكْفِي اليهودَ مَؤُونَةَ الشَّيطانِ
والحِكْمَةُ الأُولىٰ جَرَتْ وثَنِيَّةً ... في الصِّين أو في الهِنْدِ أو طُورانِ
نَحْنُ الَّذِينَ بِنُورِ وَحْيِكَ أَوْضَحُوا ... نَهْجَ الهُدىٰ ومَعَالِمَ الإيمَانِ

* * *

منْ ذا الذي رفعَ السُّيوفَ ليرفعَ اسْـ ... ـمَكَ فَوقَ هاماتِ النُّجومِ مَنارًا
كنَّا جبالًا في الجِبَالِ ورُبَّما ... سِرْنا على مَوْجِ البِحارِ بِحارًا
بِمَعابِدِ الإفْرَنْجِ كانَ أَذَانُنَا ... قبلَ الكَتائِبِ يفتحُ الأَمْصَارَا
لَمْ تَنْسَ إفرِيقِيَّة ولا صَحْراؤُها ... سَجَدَاتِنا والأرْضُ تَقْذِفُ نارًا
وكأنَّ ظِلَّ السَّيْفِ ظِلُّ حديقةٍ ... خَضْراءَ تُنْبِتُ حوْلنا الأزْهارا

* * *

لمْ نخشَ طاغوتاً يحارِبُنا ولو ... نَصَبَ المنايا حَوْلنا أسْوارًا

---

(1) في الأصل هكذا، وفيه اضطراب، ويمكن أن يستقيم الوزن على حساب المعنى فيكون:
قَدْ كَانَ في (اليونانِ) و(الرُّومان) مَدْ ... رَسَةٌ، وكان المُلْكُ في ساسَانِ

نَدْعُو جِهاراً لا إلـه سِوىٰ الَّذي ... صنعَ الـوجـودَ وقـدَّر الأقـدارَا
ورؤوسُنـا يـا ربِّ فـوقَ أكفِّنـا ... نَـرْجُو ثـوابَك مَغْنَمـاً وجِـوارَا
كُنَّـا نـرىٰ الأصنـامَ مـنْ ذهـبٍ ... فَنَهْـدِمُهَـا ونَهْـدِمُ فَـوْقَهـا الكفَّـارَا
لـو كـانَ غيـر المُسْلميـنَ لحَـازَهَـا ... كنْـزاً وصـاغَ الحِلْـيَ والـدِّيْنَـارَا

***

كم زُلْزِلَ الصَّخْرُ الأشمُّ فما وهَىٰ ... مـنْ بـأسِنـا عَـزمٌ ولا إيْمَـانُ
لـو أنَّ آسـادَ العَـريـنِ تفـزَّعـتْ ... لـمْ يَلْـقَ غيـر ثَبـاتِنـا الميـدانُ
وكـأنَّ نيـران المـدافـعِ فـي صُـدُوْ ... رِ المـؤمنيـنَ الـرَّوحُ والـرَّيحـانُ
تـوحيـدُك الأعلـى جَعَلْنَـا نَقْشَـه ... نُـوراً يُضـيءُ بِصُبْحِـهِ الأزمـانُ
فغـدت صـدورُ المـؤمنيـنَ مَصَـاحِفـاً ... فـي الكـونِ مسطـوراً بِهـا القـرآنُ

***

مـنْ غيـرنـا هَـدمَ التمـاثيـلَ الَّتـي ... كـانـتْ تُقـدِّسُها جَهَالاتُ الـوَرىٰ ؟
حتَّـى هَـوَتْ صُـوَرُ المعـابـدِ سُجَّـداً ... لجلالِ مَـنْ خَلـقَ الـوجـودَ وصـوَّرَا
ومَـنِ الأُلـىٰ حَملُـوا بعـزم أكُفِّهِـمْ ... بـابَ المـدينـةِ يـومَ غـزوَةِ خَيْبَـرَا[1]
أمَّـنْ رَمـىٰ نـارَ المَجُـوسِ فـأطفِـئَـتْ ... وأَبـانَ وجْـهَ الحـقِّ أبْلَـجَ نيِّـرا[2]؟
ومـنِ الـذي بـذلَ الحيـاةَ رخيصـةً ... ورأى رِضَـاكَ أعـزَّ شـيءٍ فـاشْتَـرَىٰ

***

نحـنُ الَّـذيـن استيقظـتْ بـأذانهـم ... دُنيـا الخليقـةِ مِـنْ تهـاويـل الكَـرىٰ
نحـنُ الَّـذيـن إذا دُعـوا لصـلاتهـم ... والحربُ تسقي الأرض جاماً أحْمَرا

---

(١) هو سيِّدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي حمل باب حصن خيبر وجعله تُرساً له في المعركة ، وذلك في غزوة خيبر التي كانت في أول السنة السابعة من الهجرة .

(٢) هو السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي .

جعلوا الوجوهَ إلى الحجاز وكبَّروا ... في مسمع الرُّوح الأمينِ فكبَّرا
محمودُ مثلُ إياز[1] قام كلاهما ... لكَ بالخُشُوعِ مصلّياً مُستَغفِرا
والعبدُ والمَوْلىٰ على قَدَم التُّقى ... سجدا لوجهِكَ خاشعينَ على الثَّرىٰ

* * *

بَلَغتْ نهايةَ كلِّ أرضٍ خَيْلُنا ... وكأنَّ أبْحُرَها رمالُ البِيْدِ
في محفلِ الأكوانِ كان هلالُنا ... بالنَّصر أوضحَ منْ هلال العِيْدِ
في كلِّ موقعةٍ رفعنا رايةً ... للمجدِ تُعلنُ آيةَ التَّوحيدِ
أُمَمُ البرايا لم تكن من قبلنا ... إلا عبيداً في إسارِ عبيدِ
بلغت بنا الأجيالُ حرِّيَّاتها ... من بعد أصفادٍ وذلِّ قيودِ

* * *

رُحماكَ ربِّ هل بغير جِباهِنا ... عُرِف السُّجودُ ببيتكَ المَعْمُورِ
كانت شِغافُ قُلوبِنا لكَ مُصْحفاً ... يحوي جلالَ كتابِكَ المَسْطورِ
إنْ لمْ يكنْ هذا وفاءً صادقاً ... فالخلقُ في الدُّنيا بغير شُعورِ
ملأ الشعوبَ جُناتُها وعُصاتُها ... مِنْ مُلْحِدٍ عاتٍ ومِنْ مَغْرورِ
فإذا السَّحابُ جرى سَقاهُم غَيْثَه ... واختصَّنا بصواعِقَ التَّدْمِيْرِ

* * *

قد هبَّتِ الأصنامُ منْ بعد البلىٰ ... واستيقظت من قبل نفخِ الصُّورِ
والكعبة العليا توارى أهلُها ... فكأنَّهم مَوْتىٰ لغير نُشورِ
وقوافلُ الصَّحراءِ ضلَّ حُدَاتُها ... وغدتْ منازِلُها ظِلالَ قُبُورِ
أنا ما حسَدْتُ الكافِرِيْنَ وقدْ غَدَوْا ... في أنعُمٍ ومواكِبٍ وقُصورِ

---

(١) إياز : هو مولىٰ السلطان محمود السبكتكين .

بـلْ مِحنتـي ألّا أرى فـي أُمَّتـي عمـلاً تقـدِّمـه صَـداقَ الحُـوْرِ[1]

* * *

لَـكَ البـريَّـةُ حكمـةً ومشيئـةً أَعْيَـتْ مَـذَاهِبُهـا أُولـى الألْبـابِ
إنْ شئـتَ أجريتَ الصَّحارى أنهُـراً أو شئـتَ فـالأنهـارُ مـوْجُ سـرابِ
فـإذا دُهـي الإسـلامُ فـي أبنـائـه حتَّـى انطـوَوْا فـي محنـةٍ وعـذابِ
فثـراؤُهُـم فقـرٌ ودولـةُ مجـدهـم فـي الأرض نهْـبُ ثعـالـبٍ وذئـابِ
عـاقَبْتَنـا عـدلاً فهـبْ لعـدوِّنـا عـن ذنبـه فـي الـدَّهـر يـوم عقـابِ

* * *

عـاشُـوا بثَـرْوتِنـا وعِشْنـا دُونَهـم للمـوت بيـن الـذُّلِّ والإمـلاقِ
الـذِّيـن يَحْيـا فـي سعـادةِ أهلـه والكـأسُ لا تبقـى بغيـر السَّـاقـي
أيـن الـذيـن بنـار حبِّـك أرْسَلُـوا الـ أنْـوارَ بيـن محـافـل العشَّـاقِ
سكَبُـوا اللَّيـاليَ فـي أنيـنِ دُموعهـم وتـوضَّـؤُوا بمـدامـعِ الأشـواقِ
والشمسُ كانت من ضياءِ وُجُوههمْ تُهْـدِي الصَّبـاحَ طـلائـعَ الإشـراقِ

* * *

كيـفَ انطـوتْ أيـامُهـم وهـمُ الأُلـىٰ نشرُوا الهُدىٰ وعَلَوْا مكانَ الفَرْقَدِ[2]
هجروا الدِّيارَ فأين أزمعَ[3] ركبُهُمْ مـنْ يهتـدي للقـوم أو مـنْ يَقْتـدي
يا قلبُ حسبُك لمْ تُلمَّ[4] بطيفِهِمْ إلَّا علـى مصبـاحِ وَجْـهِ مُحَمَّـدِ
فـازُوا مـن الـدُّنيـا بمجـدٍ خـالـدٍ ولهـم خلـودُ الفـوزِ يـوم المـوعِـدِ

---

(١) الصداق : المهر .
(٢) الفَرْقَد : وهو نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ، ولذا يُهتدى به ، وهو المسمَّى « النجم القطبي » .
(٣) أَزْمَعَ : قَصَدَ وتوجَّه .
(٤) لمْ تُلِمَّ : لم تنزل بهم .

يـا ربِّ ألهِمْنـا الـرَّشـادَ فمـا لنـا   في الكَوْن غيركَ مِنْ وليٍّ مُرْشِدِ

* * *

مــا زالَ قَيْــسٌ والغــرامُ كعهــدِهِ   وربـوعُ ليلـىٰ فـي ربيـعِ جمـالِهـا
وهِضـابُ نجـدٍ مـن مَـراعيهـا المَهـا   وظبـاؤُهـا الخفـراتِ مـلءُ جبـالِهـا
والعشــقُ فيّــاضٌ وأُمَّــةُ أحمــدٍ   يتَحَفَّــزُ التــاريــخُ لاستقبــالِهــا
لـو حـاولـتْ فـوق السَّمـاء مكـانـةً   رقَتْ على شمسِ الضُّحىٰ بهلالِها
مـا بـالُهـا تَلْقَـى الجـدودَ عـواثـراً[1]   وتصُـدُّهَـا الأيَّـامُ عـن آمـالِهـا

* * *

هَجْرُ الحبيبِ رمَىٰ الأحبةَ بالنَّوى   وأصــابهُــمْ بِتَصَــرُّمِ الآمَــالِ
لـو قـد مللنـا العِشْـق كـانَ سبيلنـا   أو نستكيــنَ إلــى هــوى وضــلال
أو نصنــعَ الأصنــام ثــمَّ نبيعهــا   حـاشـا المـوحِّـد أن يـذلَّ لمـال
أيـامُ سلمـانَ بنـا مـوصـولـةٌ   وتُقـى أُويـس فـي أذانِ بـلال

* * *

يـا طِيْـبَ عَهْـدٍ كنـتَ فيـه مَنـارَنـا   فبعثْـتَ نـور الحـقِّ مِـنْ فَـارانِ
وأسـرْتَ فيـه العـاشقيـن بلَمْحَـةٍ   وسقيتهـم راحـاً بغيـر دِنَـانِ
أحـرقْـتَ فيـه قلـوبَهـم بتـوقُّـدِ الإيمـان لا بتَلَهُّـب النِّيـرانِ
لـم نبقَ نحـنُ ولا القُلُـوبُ كـأنَّهـا   لـم تَحْظَ مِنْ نـارِ الهـوىٰ بـدُخَانِ
إنْ لـمْ يُنَـرْ وجـهُ الحبيـب بـوصلِـهِ   فمكـانُ حُـزْنِ القلـبِ كـلُّ مكـانِ

* * *

يـا فـرحـة الأيـام حيـن نـرى بهـا   روض التَّجلِّـي وارفَ الأغصـان

---

(١) الجُدود العَواثِر : الحظوظ الخائبة .

ويعـود محفلُنـا بحسنـك مسفـراً   كـالصُّبـح فـي إشـراقـه الفينـان
قـد هـاجَ حـزنـي أنْ أرى أعـداءنـا   بيـن الطِّـلا[1] والظِّـلِّ والألحـان
ونعـالـجُ الأنفـاس نحـن ونصطلـي   فـي الفقـرِ حيـنَ القـومُ فـي بستـان
أشْـرِقْ بنـورِك وابعـثِ البـرق القـديـمَ بـومضـةٍ لِفَـرَاشـكَ الظَّمْـآنِ

* * *

أشـواقُنـا نحـوَ الحجـازِ تطلَّعـت   كحنيـنِ مُغْتـربٍ إلـى الأوطـان
إنَّ الطيـورَ وإنْ قَصَصْـتَ جنـاحهـا   تسمـو بفطـرتهـا إلـى الطَّيـران
قيثـارتـي مكبـوتـةٌ ونشيـدُهـا   قـد مـلَّ مـن صمـتٍ ومـنْ كتمـان
واللَّحـنُ فـي الأوتـار يـرجُـو عـازفـاً   ليبـوحَ مـن أسـراره بمعـانِ
والطُّور[2] يرتقبُ التجلِّي صارخاً   بهـوى المَشُـوْقِ ولَهْفَـةِ الحَيْـرانِ

* * *

أكبـادُنـا احتـرقـتْ بـأنّـات الجَـوى   ودمـاؤُنـا نهـرُ الـدُّمـوع القـانـي
والعطرُ فاض من الخمائل والرُّبا   وكـأنَّـه شكـوى بغيـر لسـان
أو ليـس مـنْ هَـوْلِ القيـامـة أن يكـو   ن الـزَّهـرُ نَمَّـامـاً[3] علـى البُستـانِ
النَّمـلُ لا يخشـى سليمـانـاً إذا   حَـرَسَـتْ قُـراه عنـايـةُ الـرَّحمـن
أرشـدْ بـراهِمَـةَ الهُنـودِ ليـرفعـوا الـ   إسـلامَ فـوقَ هيـاكـلِ الأوْثـانِ

* * *

مـا بـالُ أغصـان الصَّنـوبـر قـد نـأت   عنهـا قَمَـارِيْهَـا[4] بكـلِّ مكـانِ
وتعـرَّتِ الأشجـارُ مـنْ حُلـل الـرُّبـا   وطيـورهـا فـرَّت إلـى الـوديـانِ

---

(١) الطِّلا : الخمر .
(٢) الطُّوْر : هو الجبل الذي تجلّى اللهُ عليه لموسى عليه الصلاة والسلام وكلَّمه .
(٣) نمَّاماً : هو مَن يُزيِّن للناس الكلام بالكذب .
(٤) القماريُّ : هو ضرب من الحمام مطوَّق حسن الصوت .

يا ربِّ إلَّا بُلْبُلاً لمْ ينتظرْ ... وحيَ الرَّبيع ولا صَبَا[1] نَيْسانِ

ألحانَهُ بحرٌ جرى مُتلاطماً ... فكأنَّه الحاكي عن الطُّوفانِ

يا ليتَ قومي يسمعونَ شِكايةً ... هي في ضميري صرخةُ الوِجْدانِ

***

إنَّ الجواهر حيَّرتْ مرآةَ هـ ... ـذا القلبِ فهو على شفا البُركانِ

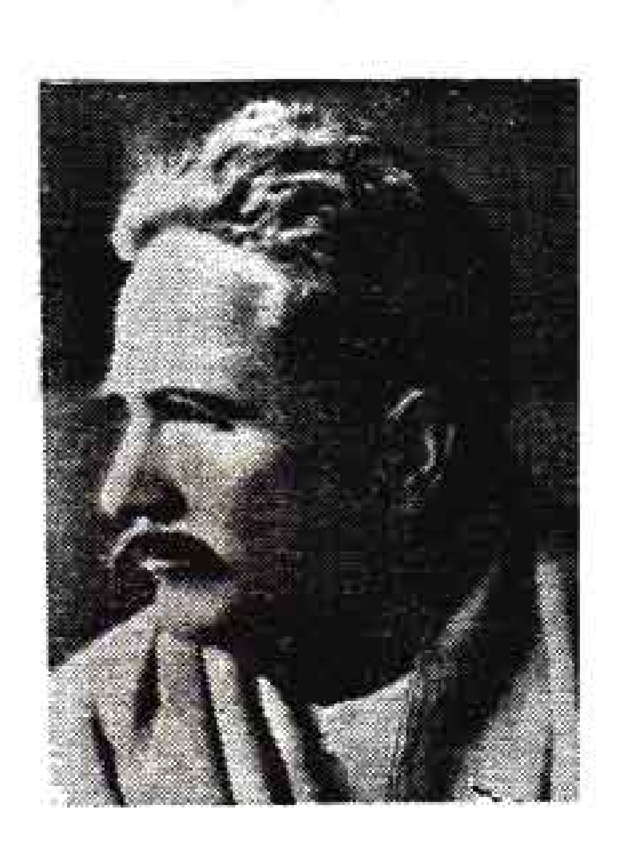
أَسْمِعْهُمُو يا ربِّ ما ألهَمْتَني ... وأعِذْ إليهمْ يقظةَ الإيمانِ

وأذقهمُ الخمرَ القديمةَ إنَّها ... عينُ اليقينِ وكوثرُ الرِّضوانِ

أنا أعجميُّ الدَّنِّ لكِنْ خمْرَتي ... صُنْعُ الحِجازِ وكرْمِها الفَيْنانِ[2]

إنْ كان لي نغمُ الهنود ولحنُهم ... لكنَّ هذا الصوتَ مِن عدنانِ





(١) صَبَا : ريح طيّبة تهب من جهة الشرق .

(٢) الفَيْنَان : أي ذو الأفنان طويل الأغصان .

جواب الشكوى

ثُمَّ نَظم محمد إقبال بعد هذه القصيدة قصيدةً أخرى وضَّح فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم لدينهم ، وعدم إتقانهم أمرَ الدُّنيا ، تبريراً لما جُوزُوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما تغنَّى بهاتين القصيدتين الأطفالُ ، والشبابُ ، وحفظهما الرجال ، والنساء ، وسارتا مسير الرياح وطارتا بغير جناح .

كلامُ الرُّوح للأرواح يَسْري[1] ... وتُدْرِكُه القلوبُ بلا عناءِ[2]

هتفتْ به فطارَ بلا جناحٍ ... وشقَّ أنينُه صدر الفضاءِ

ومعدنُه تُرابيٌّ ولكنْ ... جرتْ في لفظِه لغةُ السَّماءِ

لقد فاضت دموعُ العِشْقِ منِّي ... حديثاً كان عُلْوِيَّ النِّداءِ

فحلَّق في ربا الأفلاك حتَّى ... أهاج العالم الأعلى بكائي

* * *

تحاوَرَتِ النُّجومُ وقُلْن صوتٌ ... بقرب العرش موصول الدُّعاءِ

وجاوبت المجرَّة علَّ طيفاً ... سرى بين الكواكب في خَفاءِ

وقال البدرُ هذا قلبُ شاكٍ ... يواصل شدْوهُ عند المساءِ

ولم يعرفْ سوى رِضوان صوتي ... وما أحراهُ عندي بالوفاءِ

ألمْ أكُ قبلُ في جنَّات عدنٍ ... فأخرجني إلى حينِ قضائي

* * *

---

(١) يَسْرِي : يجري .

(٢) عَنَاء : تعب ومشقة .

وقيل هو ابن آدم في غُرُورٍ ... تجاوزَ قَدْرَه دونَ ارْعِواءِ[1]
لقد سَجَدَتْ ملائكةٌ كرامٌ ... لهذا الخلق من طينٍ وماءِ
يُظَنُّ العِلْمُ في كيفَ وكَمْ ... وسرُّ العَجْز عنه في انطواءِ
وملءُ كُؤوسِهِ دمعٌ وشكوى ... وفي أنغامِهِ صوتُ الرَّجاءِ
فيا هذا لقدْ أبلغتَ شيئاً ... وإن أكثرتَ فيه مِنَ المِراءِ

* * *

عَطايانا سحائبُ مُرْسَلاتٍ ... ولكنْ ما وجدنا السَّائلينا
وكلُّ طريقنا نَوْرٌ[2] ونورٌ ... ولكن ما رأينا السَّالكينا
ولم نجدِ الجواهرَ قابلاتٍ ... ضياءَ الوحي والنُّور المبينا
وكان تراب آدم غيرَ هذا ... وإنْ يكُ أصله ماءً وطينا
ولو صدقوا وما في الأرض نهرٌ ... لأجرينا السَّماء لهم عُيونا

* * *

وأخضعنا لِمُلْكِهِم الثُّريَّا ... وشيَّدنا النُّجوم لهم حُصونا
ولكنْ ألْحَدُوا في خيرِ دينٍ ... بنى في الشَّمس مُلْكَ الأوَّلينا
تُراثُ محمَّدٍ قد أهملوه ... فعاشوا في الخلائق مُهْمَلِينا
تولَّى هادمُو الأصنام قِدْماً ... فعاد لها أولئك يصنعونا
أباهم كان إبراهيمَ لكن ... أرى أمثال آزَرَ[3] في البنينا

* * *

---

(١) ارعواء : كف وارتداع .
(٢) النَّور : الزهر .
(٣) آزر : اسم والد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كان ينحت الأصنام جِزفةً .

وفـي أَسْلافِكـم كـانـتْ مـزايـا   بكـلٍّ فـمٍ لـذِكـراهـا نَشِيْـدُ
تضُوعُ[1] شقـائقُ الصَّحـراءِ عِطْـراً   بـريَّـاهـا وتبتسـمُ الـورودُ
فهـلْ بقيـتْ محـاسنُهـم لـديكـم   فيجمـلَ فـي دلالكـم الصُّـدودُ
لقـد هـامـوا بخـالقهـم فنـاءً   فلـم يكتـبْ لغيـرِهِـمُ الخلـودُ
وكـوثـرُ أحمـد منكـم قـريـبٌ   ولكـنْ شـوقكـم عنـه بعيـدُ

* * *

وكـمْ لاح الصَّبـاحُ سَنـاً[2] وبُشْـرى   وأذَّنـتِ القَمـاري والطُّيـورُ
وكبَّـرت الخمـائـلُ فـي ربـاهـا   مصلِّيـةً فجـاوبهـا الغـديـرُ
ونـوم صبـاحكـم أبـداً ثقيـلٌ   كـأنَّ الصبـح لـم يـدركـه نـورُ
وأضحـى الصَّـوم فـي رمضـان قيـداً   فليـس لكـم بـه عـزمٌ صبـورُ
تمـدَّن عصـرُكـم جمـع المـزايـا   وليـس بغـائـبٍ إلا الضميـر

* * *

لقـد ذهـب الـوفـاءُ فـلا وفـاءٌ   وكيـف ينـالُ عهـدي الظَّـالمينـا
إذا الإيمـانُ ضـاعَ فـلا أمـانٌ   ولا دُنْيـا لمـن لـم يُحْـيِ دِينـا
ومَـنْ رَضـيَ الحيـاةَ بغيـر ديـنٍ   فقـدْ جعـلَ الفنـاء لهـا قَـرينـا
وفـي التـوحيـد للهِمَـمِ اتِّحـادٌ   ولـنْ تبنـوا العُـلا مُتفـرِّقينـا
تسـانـدتِ الكـواكـبُ فـاستقـرَّتْ   ولـولا الجـاذِبِيَّـةُ مـا بقِينـا

* * *

غَـدَوْتُـمْ فـي الـدِّيـار بـلا ديـارٍ   وأنتـم كـالطُّيـورِ بـلا وُكُـورِ
وكـلُّ صـواعـق الـدُّنيـا سهـامٌ   لبيـدَرِكـم وأنتـم فـي غـرورِ

---

(1) تَضُوعُ : تفوح وتنتشر .

(2) السَّنا : الضياء .

أهـذا الفقـر فـي علـمٍ ومـالٍ وأنتـم فـي القطيعـةِ والنُّفـورِ
وبيـعُ مقـابـرِ الأجـدادِ أضحى لـدى الأحفـادِ مـدعـاةُ الظُّهـور
سَيُعْجَبُ تـاجـرو الأصنـامِ قِـدْمـاً إذا سمعـوا بتجّـار القبـورِ

* * *

مِـن المتقـدِّميـن إلـى المعـالـي علـى نهـجِ الهـدايـة والصَّـواب
ومِـن جبهـاتهـم أنـوارُ بيتـي وفـي أخـلاقهـم يُتلـى كتـابـي
أمـا كـانـوا جُـدُودكـم الأوالـي بنـاةَ المَجْـد والفـنِّ العجـابِ
وليـس لكـم مـن المـاضـي تـراثٌ سوى شَكْوَى اللُّغوبِ[1] والاكتئابِ
ومـن يَـكُ يـومـهُ فـي العيـش يـأسـاً فمـا غَـدُهُ سـوى يـومِ العـذابِ

* * *

أتشكُـو أنْ تـرى الأقـوامَ فـازُوا بمجـدٍ لا يـراه النّـائمـونـا
مَشَـوْا بهـدي أوائِلكـم وجـدُّوا وضيَّعتـم تـراث الأوَّليـنـا
أيُحْـرمُ عـامـلٌ وردَ المعـالـي ويسعـدُ بـالـرُّقـيِّ الخـامِلُـونـا
أليـسَ مـن العـدالـة أنَّ أرضِـي يكـون حصـادُهـا للـزَّارعينـا
تَجَلِّـي النُّـور فـوق الطُّـور بـاقٍ فهـل بقـيَ الكليـمُ[2] بطُـورِ سِينـا ؟

* * *

ألـمْ يُبْعَـثْ لأُمّتكـم نبـيٌّ يـوحِّـدكـم علـى نهـج الـوئـامِ
ومصحفكـم وقبلتكـم جميعـاً منـارٌ لـلأخـوة والسَّـلام
وفـوق الكـل رحمـنٌ رحيـمٌ إلـهٌ واحـدٌ ربُّ الأنـام
فمـا نـارُ ألفتكـم تـولّـى وأمسيتُـم حيـارى فـي الظَّـلام

---

(١) اللُّغوب : التعب والإعياء .
(٢) الكليم : لقب سيدنا موسىٰ عليه الصلاة والسلام .

وحسن اللُّؤلُؤ المكنونِ رهنٌ بصوغ العِقْد في حُسْن النِّظامِ

* * *

وكيف تغيَّرتْ بكمُ اللَّيالي وكيف تفرَّقت بكمُ الأماني
تركتم دينَ أحمدَ ثم عُدْتُم ضحايا لِلْهوى أو للهوان
رقيُّ الشَّعبِ قد أضحى لديكم تقرِّرُه صلاحيةُ الزمانِ
وكيف تُقاسُ أوهامٌ ولغوٌ بحكمة منزلِ السَّبع المثاني
أرى ناراً قد انقلبت رماداً سوى ظل مريضٍ من دخانِ

* * *

أرى الفقراءَ عبَّاداً تقاةً قياماً في المساجد راكعينا
هم الأبرارُ في صومٍ وفطرٍ وبالأسحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونا
وليس لكم سوى الفقراء سترٌ يواري عن عيوبكم العُيُونا
اضلَّت أغنياءكم الملاهي فهم في ريبهم يتردَّدونا
وأهلُ الفقر ما زالوا كنوزاً لدينِ الله ربِّ العالمينا

* * *

أرى التفكيرَ أدركهُ خمولٌ ولم تبقَ العزائمُ في اشتعال
وأصبحَ وَعْظُكم من غير سِحْرٍ ولا نورٌ يُطِلُّ من المقال
وعند النَّاس فلسفةٌ وفكرٌ ولكن أين تلقين (الغزالي[1])
وجلجلَةُ الأذان بكلِّ أرضٍ ولكن أين صوتٌ من بلالِ
منائرُكم علتْ في كلِّ حيٍّ ومسجدُكم من العبَّاد خالي

* * *

---

(١) الغزالي : هو أبو حامد محمد الغزالي ، أحد أعلام المسلمين وكبار الفلاسفة ، لقب « بحجة الإسلام » صاحب مصنفات سائرة ، توفي عام ٥٠٥هـ بمدينة « طوس » .

فـأيـنَ أئمــةٌ وجنــودُ صــدقٍ ... تهـابُ شَبَـاةَ[1] عـزمهـمُ الحـرابُ
إذا صنعـوا فصنعهــمُ المعـالــي ... وإنْ قــالــوا فقــولُهـم الصَّــوابُ
مــرادُهــم الإلــهُ فــلا ريــاءٌ ... ونهجهــمُ اليقيــن فــلا ارتيــابُ
لأمَّتهــمْ ولــلأوطــانِ عــاشــوا ... فليس لهم إلـى الـدُّنيا طِـلابُ
كمثـل الكـأس تُبْصِـرُهـا دِهـاقـاً[2] ... وليـس لأجلهـا صُنِـع الشَّـرابُ

* * *

جهــادُ المــؤمنيــن لهــمْ حيــاةٌ ... ألا إنَّ الحيـــاةَ هـــيَ الجهـــادُ
عقــائــدُهــم ســواعــدُ نــاطقــاتٌ ... وبــالأعمــال يثبــتُ الاعتقــادُ
وخــوفُ المــوتِ لــلأحيــاء قبــرٌ ... وخـــوفُ اللهِ لـــلأحـــرار زادُ
أرى ميــراثهــم أضحــى لــديكــم ... مضـاعـاً حيـثُ قـد ضـاعَ الرَّشـادُ
وليــس لــوارثٍ فــي الخيــر حــظٌّ ... إذا لــم يحفــظِ الإرث اتِّحــادُ

* * *

لأيِّ مــآثــر القــوم انْتَسَبْتُــم ؟ ... لتكتسبـــوا فخـــارَ المُسلمينـــا
فـأيـن مقـامُ ذي النُّوريـن[3] منكـم ... ودولـــةُ عـــزّه دُنيـــا ودِيْنَـــا
وفقـــرُ علـــيٍّ الأواب هـــلا ... ربحتــم فيــه كنــزَ الفــاتحينــا
أقمتمْ فـي الـذُّنوب وفـي الخطايـا ... وتغتــابــون حتَّــى الصَّــالحينــا
وهــم ستـروا عيـوب الخلـق فضـلاً ... وإن كـــانـــوا أبـــرَّ المُتَّقينـــا

* * *

---

(١) شَبَاةَ ، جمعها الشَّبَا والشبوات : شباة كل شيء ، أي حدُّ طرفه .
(٢) دِهاق : مُمْتلىء ، يقال : كأس دهاق ، أي ممتلىء .
(٣) هو لقب الخليفة الراشد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه .

أريكةُ قيصَرٍ[1] وسريرُ كِسرى[2] | قد اختَمَيا بملكهم العَمِيمِ
وأنتم تطمحون إلى الثُّريا | بلا عزمٍ ولا قلبٍ سليمِ
تضيعون الإخاء وهم أقاموا | صروحَ إخائهم فوق النُّجومِ
طلبتُمْ زهرةَ الدنيا وعدْتُم | بلا زهرٍ يضوعُ[3] ولا شميمِ
وكان لديهم البستان محضاً | وهم أصحاب جنات النَّعيمِ

* * *

يُعيدُ الكونُ قصَّتهم حديثاً | ويُنشيء منْ حديثهمُ الفنونا
فكمْ نَزَحُوا عنِ الأوكارِ شَوْقاً | إلى التَّخلِيقِ فَوْق العالمينا
ويأسُ شبابكم أدمى خطاهم | فظنُّوا فيه بالدِّين الظُّنونا
هي المدنيَّةُ الحمقاءُ ألقتْ | بهم حول المذاهب حائرينا
لقد صنعتْ لهم صنمَ الملاهي | لتحجبَ عنهم الحَرَمَ الأمينا

* * *

لقد سئم الهوى في البِيْدِ قَيسٌ[4] | ومَلَّ من الشِّكاية والعذابِ
ويحاولُ أن يُباح العِشْقُ حتى | يرى ليلاه[5] وهي بلا حجابِ
يريدُ سفور وجهِ الحُسن لمَّا | رأى وجهَ الغرام بلا نقابِ
فهذا العهد أحرقَ كلَّ غرسٍ | من الماضي وأغلقَ كلَّ بابِ
لقد أفنت صواعقُه المغاني | وعاثتْ[6] في الجبال وفي الهضابِ[7]

---

(١) قيصر : لقب ملوك الروم .
(٢) كسرى : لقب ملوك الفرس .
(٣) يَضُوع : يفوح وينتشر .
(٤) قيس : من أشهر عشاق العرب .
(٥) ليلى : من أشهر عاشقات العرب .
(٦) عَاثَتْ : أفسدتْ .
(٧) هِضاب : جمع هَضْبة ، وهو جبل منبسط ممتد على وجه الأرض .

هـي النَّـارُ الجـديـدة لـيـس يُلقـى لهـا حطـبٌ سـوى المَجْـدِ القـديـمِ
خُـذوا إيمـانَ إبـراهيـمَ تَنْبُـتْ لكـمْ فـي النَّـار روضـاتُ النَّعيـمِ
ويـذكـو مـن دم الشهـداء وردٌ سَنِـيُّ العطـر قـدسـيُّ النَّسيـمِ
ويلمـعُ فـي سمـاء الكـون لـونٌ مـن العُنَّـاب مخضـوبُ الأديـمِ
فـلا تفـزعْ إذا المَـرْجَـانُ[1] أضحـى عقـوداً للبـراعـمِ والكُـرومِ

***

فكَـمْ زالـتْ ريـاضٌ مـن ربـاهـا وكـم بـادتْ نخيـلٌ فـي البـوادي
ولكـنْ نخلـةُ الإسـلام تنمـو علـى مـرِّ العـواصـف والعـوادي
ومجـدُك فـي حِمَـىٰ الإسـلام بـاقٍ بقـاءَ الشَّمـس والسَّبـع الشِّـدادِ
وإنَّـك يـوسـفُ فـي أيِّ مصـرٍ يـرى كنعـانَـه[2] كـلَّ البـلادِ
تسيـر بـك القـوافـلُ مُسـرعـاتٍ بـلا جـرسٍ ولا تـرجيـعِ حَـادِي

***

ضيـاؤك مشـرقٌ فـي كـلِّ أرض لأنـكَ غيـر محـدودِ المكـانِ
بَغَـتْ أمـمُ التَّتَـار[3] فـأدركتْهـا مـن الإيمـان عـاقبـةُ الأمـانِ
وأصبـح عـابـدو الأصنـام قُـدْمـاً حماةَ الحِجْر[4] والرُّكن اليماني[5]
فـلا تجـزع فهـذا العصـر ليـل وأنـت النَّجـم يشـرق كـلَّ آنِ

---

(١) المَرْجَان : صغار اللؤلؤ .
(٢) كنعان : أرض فلسطين .
(٣) التَّتار : قبائل كانت تسكن في أواسط آسيا ، أصلهم من المغول ، اشتهروا بغزواتهم ، وأسلم كثير منهم بعد هجومهم على بغداد .
(٤) الحِجْر : يريد به الشاعر حجْر الكعبة .
(٥) الركن اليَمَاني : هو ركن الكعبة الذي فيه الحجر الأسود .

ولا تخشَ العواصفَ فيه وانهضْ بِشُعلتك المضيئةِ في الزَّمانِ

* * *

أعذ من مشرقِ التَّوحيد نوراً يتمُّ به اتِّحاد العالمينَا
وأنت العطرُ في روضِ المعالي فكيفَ تعيش محتبساً دفينا
وأنت نسيمهُ فاحملْ شذاه ولا تحملْ غبارَ الخاملينا
وأرسل شعلةَ الإيمان شمساً وصُغْ مِنْ ذرةٍ جبلاً حصينا
وكن في قمَّةِ الطُّوفان موجاً ومُزناً يمطر الغيث الهَتُونا

* * *

فباسم محمدٍ شمسِ البرايا أقيمت خيمةُ الفلك المُنيرِ
تَلألأ في الرياض وفي الصحارى وفوقَ الموجِ والسيلِ المغيرِ
ونَبْض الكونِ منه مُسْتَمِدٌّ حرارتَه على مرِّ العصورِ
ومن مراكش[1] يغزو صداه رُبُوعَ الصِّين بالصَّوت الجهيرِ
وما مشكاةُ هذا النُّور إلا ضميرُ المسلم الحرِّ الغَيُورِ

* * *

ورفعُ الذِّكر للمختار رفعٌ لقدرك نحو غاياتِ الكمالِ
فكن إنسانَ عيْنِ الكون واشهد مقامك عالياً فوقَ المعالي
بخنجرِ عزمك الوثَّاب لاحت على الأعلام أنوارُ الهلالِ
نداؤك في العناصر مستجابٌ إذا دوَّى بصوتٍ من بلالِ
وعقلُك في الخطوب أجلُّ درعٍ وعشقُك خير سيفٍ للنِّضالِ

* * *

خلافةُ هذه الأرضِ استقرَّت بمجدكَ وهو للدُّنيا سماءُ

---

(١) مراكش : مدينة تقع في المغرب الأقصى .

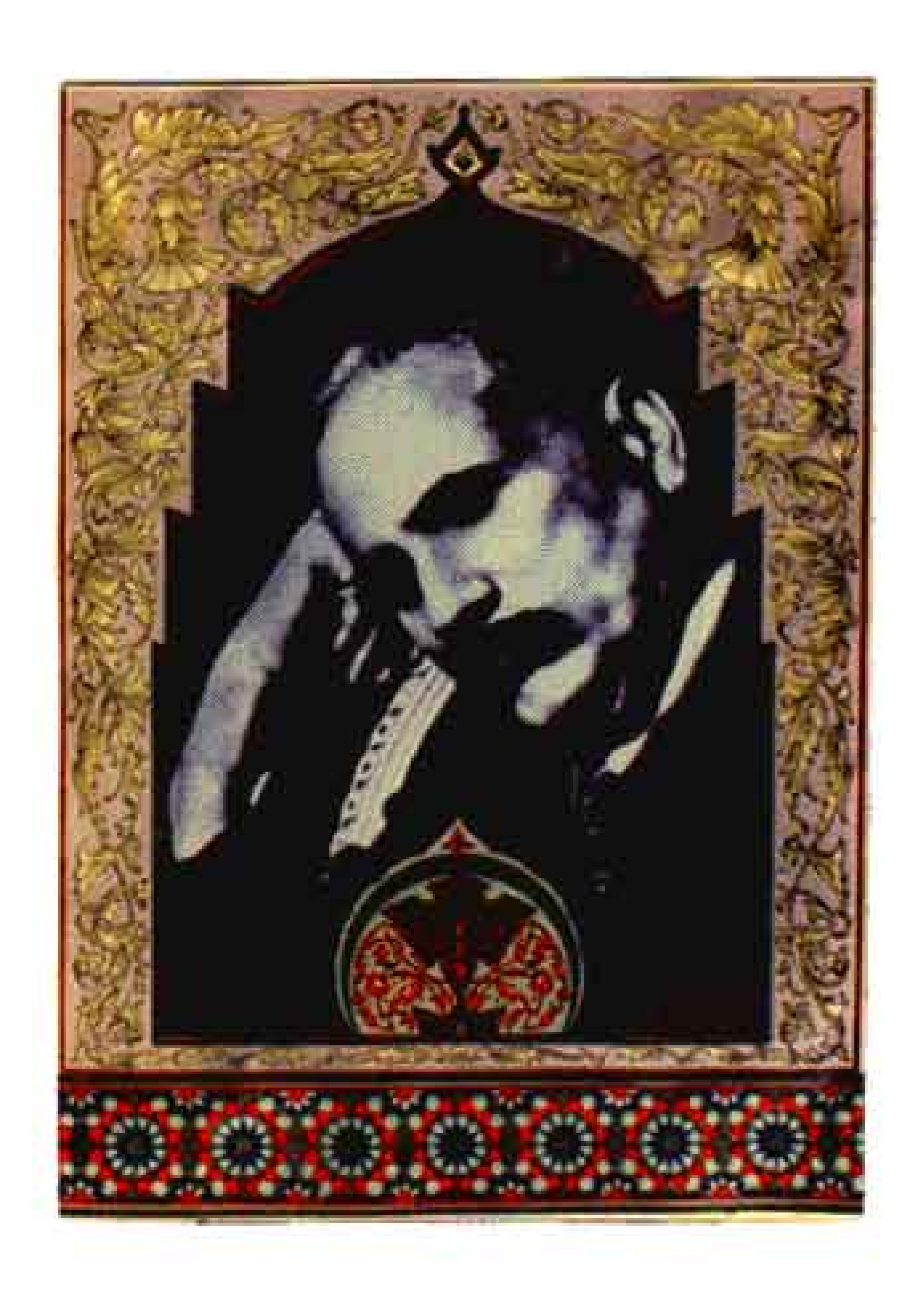
وفــي تكبيــركَ القــدســيِّ يـبـدو صغيــراً كــلُّ مــا ضــمَّ الفضــاءُ

فيــا مــنْ هــبَّ لــلإســلام بـدعــو وأيقــظ صــدقَ غيــرتــه الــوفــاءُ

ستــرفــعُ قَــدْرَك الأقــدارُ حتــى تشــاهــد أنَّ ســاعــدك القضــاءُ

وقيــل لــكَ احْتَكِــمْ دنيــا وأخــرى وشــأنُــك والخلــودَ كمــا تشــاءُ

***






الدِّيْوَانُ الثَّانِي

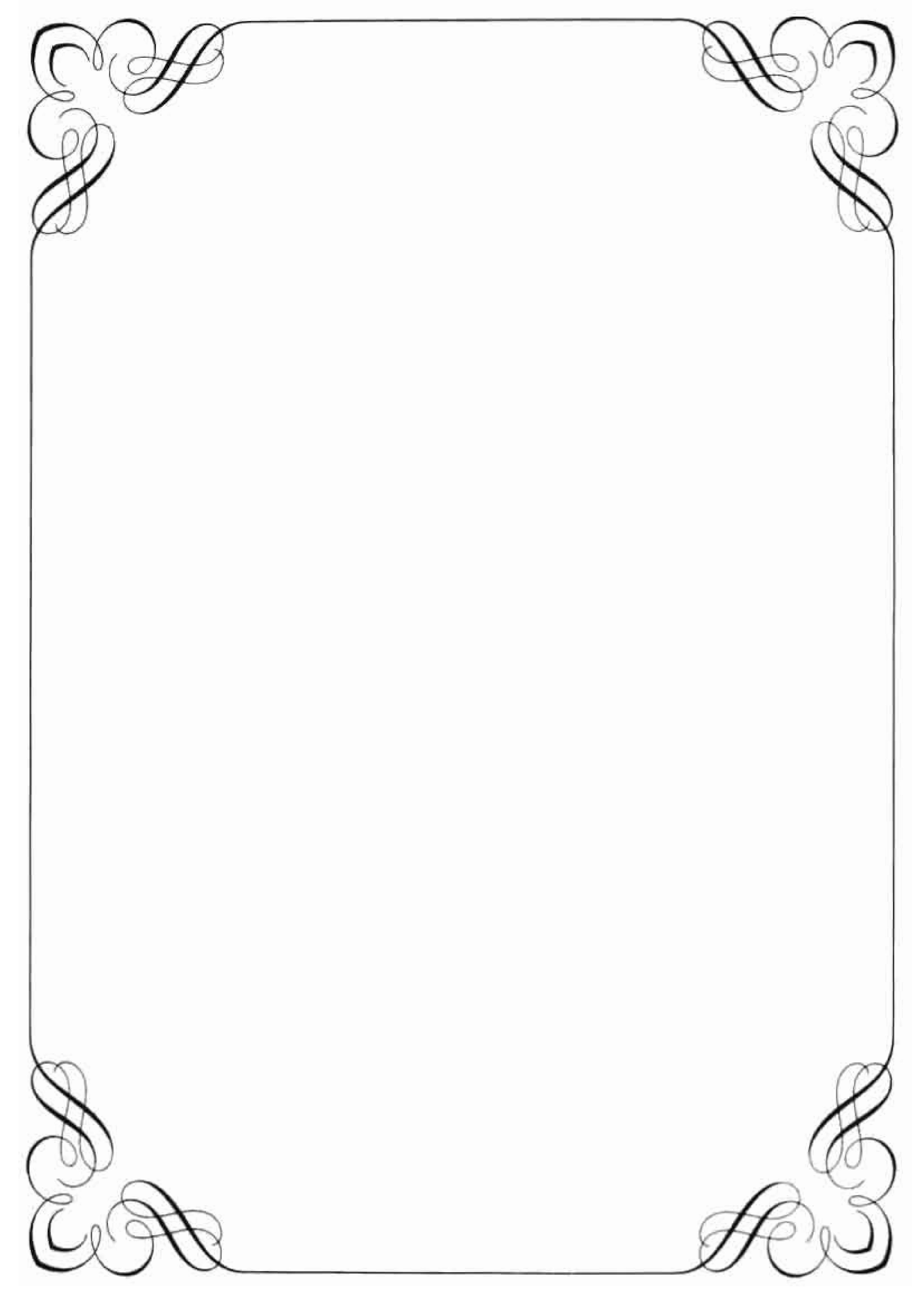
الأَسْرَارُ وَالرُّمُوز

أَسْرَارُ إِثْبَاتِ الذَّاتِ وَرُمُوزُ نَفْي الذَّاتِ

أسرار خودي ورموز بيخودي

نَقَلَهُ إِلَى العَرَبِيَّةِ شِعْرًا

الدكتور عبد الوهَّاب عزَّام



يُعتبر هذا الديوان من باكورة دواوين محمد إقبال ، فيه القصائد حول الفلسفة الإسلاميَّة . في زمان الحرب العالمية الأولى كان إقبال ينظر إلى الجيش التركي نظرة الأمل إلّا أنَّه حين أخذ الإنجليز يعملون على الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر من الترك تحطَّمت آماله ، وحينئذٍ ظهرت في أفكاره ثورةٌ عارمةٌ تعارض أشدَّ المعارضة فكرة الاعتماد على أهل الغرب ، والوثوق بهم ، فبدأ يعمل على بناء فلسفةٍ حديثةٍ تؤدِّي إلى التوفيق في الحياة على أساس تربية الجيل الجديد ، وتقوية الذات . ولم ير محمد إقبال أيّة فائدةٍ للتُّرك من مساعدة قوة الحكومة الألمانية ، فبنى نظرته إلى التصوّف ، ليس على أساس روح الضعف والسلبية ، وهو ما انتشر في العهد الصفوي ، بل دعا إلى القوّة ، والاعتماد على النفس[١] ولم يقنط محمد إقبال بل كرَّس حياته للعمل على الوصول إلى حيث يمكن السبب في حدوث أخطائنا السابقة ، وقد وجد أنَّ مردَّ هذا إلى الآراء الإغريقية الَّتي تغلغلت في عالم الفكر والثقافة بين المسلمين ، وأضحت سبب كلّ ما عقب ذلك من انحرافه . وقد كان من نتيجة تأثير الإغريق على الإسلام أن تحوَّل هذا الدين من الإيجابيَّة الدافقة إلى عقيدة مستسلمةٍ تأمليَّةٍ ، الأمر الّذي أدّى بدوره إلى حالة من التشاؤم والقدرية ، وقد ندَّد بأفلاطون ، وشنَّ حملةً على الصوفيَّة الّتي عدَّها مسؤولة عن فكرة « وحدة الوجود » ، وقد أدّى البحث بإقبال إلى نظريته عن « خودي » أي « الذات » وهو يبدؤها بالأبيات التالية الّتي اقتبسها من مولانا جلال الدين الرُّومي[٢] : « رأيتُ البارحة شيخاً يدور حول المدينة ، وقد حمل مشعلاً ، كأنه يبحث عن شيء ، قلت له : يا سيدي! تبحث

---

(١) « إقبال إيرانيون كي نظر مين » لسر عبد القادر ص(١٨١) .

(٢) من محاضرة الأستاذ سجاد حيدر سفير باكستان في مصر ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٧ مأخوذ عن « إقبال وديوان أرمغان حجاز » للأستاذ سير عبد الحميد إبراهيم .

عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدَّواب ، وضقت بها ذرعاً ، وخرجتُ أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم ، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالىٰ والأقزام الّذين أجدهم حولي ، فخرجت أبحث عن عملاقٍ من الرجال ، وبطلٍ من الأبطال ، يملأ عيني برجولته وشخصيته ، ويروّح نفسي ، قلتُ له : لقد غرتك نفسك يا هذا ! فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله ! لا تتعب نفسك ، وارجع أدراجك ، فقد أجهدت نفسي ، وأنفيت ركابي ، ونقبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً ، قال الشيخ : إليك عنّي ، أيها الرجل! فأحبُ شيء إلى نفسي ، أعزُه وجوداً ، وأبعده منالاً »[1] . وقد ركَّز محمَّد إقبال كلامه في هذا الديوان على الذات الّتي يرتكز فيها كلُّ النشاط ، وكلُّ الحركة ، والّتي هي لبُّ الشخصية ؛ أي « قلب » الذات .

أراد محمد إقبال باصطلاح « خودي » رموز الذَّات ، ووجود الفرد ، ليشير إلى المركز المدرك والنشيط للوعي والحياة ، وهو الّذي في نظره يؤلّف الوجود الأساسي لذات الإنسان بصورةٍ جازمة . وبالأحرى يرفض الأثرة ، ويوجب على المرء أن يرتقي إلى الدرجات العليا ، والكمال .

يعتقد محمد إقبال بأنَّ أخلاق الفرد والأمة تحدِّد الإجابة عن السؤال : ما هي طبيعة الذات ؟ وهذا التأكيد مطلوبٌ إلى ما يوازن بين الفكر الشرقي والرُّوحانيَّة ، ويؤكّد التقاء وجهات النظر التي ترتقي بها الكينونة الذاتيَّة فوق جميع المستويات الخادعة والواهمة .

يعتبر محمد إقبال أنَّ الاستسلام للجبرية هو الَّذي سبب انحطاط المسلمين ، على الرَّغم من قيمهم الدِّينية والرفيعة ، وأمجادهم السياسية خلال القرون المنصرمة .

---

(١) « روائع إقبال » للعلاّمة أبي الحسن النَّدوي ص٨٥ ـ ٨٦ .

محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان أولاً على المقدمة المنظومة ، يبيّن فيها محمَّد إقبال مذهبه الجديد ، يقول في مطلعها :

قطع الصبحُ على اللَّيل السفر　　فهمىْ دمعي على خدِّ الزهر
غسل الدمع سبات النَّرجس　　وصحا العشب بمسرى نفسي
جرَّب الفارس قولي موقدا　　مصرعاً ألقى وسيفاً حصدا

ويشير إلى أنَّ الرومي هو الّذي أيقظه ، ودعاه إلى أن يسلك سبيله :

صيَّر الروميُّ طيني جوهرا　　منْ غباري شاد كوناً آخرا

فصول الدّيوان :

١ ـ أصل نظام العالم من الذَّاتية واستمرار أعيان الوجود متوقف على استحكام الذَّاتية .

٢ ـ حياة الذَّاتية بتخليق المقاصد وتوليدها .

٣ ـ تستحكم الذَّاتية بالمحبة والعشق .

٤ ـ ضعف الذاتية بالسؤال .

٥ ـ إذا استحكمت الذاتية بالمحبَّة والعشق سخَّرت قوى العالم الظاهرة والباطنة .

٦ ـ حكاية في معنى أنَّ مسألة نفس الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة ؛ لتضعف أخلاق الأمم الغالبة عن طريق خفية .

٧ ـ في معنى أنَّ أفلاطون اليونانيَّ ـ الّذي أثر كثيراً في أفكار الأمم الإسلامية وآدابها ـ ذهب مذهب الغنم ، والاحتراز من خيالاته واجب .

٨ ـ حقيقة إصلاح الشعر والآداب الإسلاميَّة .

٩ ـ تربية الذات لها ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : الطَّاعة .

الثانية : ضبط النفس .

الثالثة : النيابة الإلهية .

وفي هذا الفصل يقصُّ قصصاً حقيقية ، أو خيالية لتصوير مذهبه .

١٠ ـ في بيان أنَّ مقصد حياة المسلم إعلاء كلمة الله ، وأنَّ الجهاد إن كان الباعث عليه « جوع الأرض » فهو حرام في شريعة الإسلام .

١١ ـ نصيحة ميرنجاة النقشبندي المسمى الأدب الصحراوي التي كتبها لمسلمي الهند .

١٢ ـ الوقت سيف .

١٣ ـ دعاء « ويختم به المنظومة »[١] .

نشر هذا الديوان سنة ١٩١٥م ، فثار الناس لها بين راضٍ وساخطٍ ومستحسنٍ ومستنكرٍ ، بل بين مصفِّقٍ طرباً يثني معجباً ، وصائحٍ يتعجَّب ويستنكر .

نقله إلى العربية شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام . وهاهو الآن بين أيديكم مع مقدمة الشاعر القيمة التي كتبها لهذا الديوان .

* * *

---

(١) إقبال .. للدكتور عبد الوهاب عزام ص١٠٣ .

خلاصة المقدمة التي كتبها

محمد إقبال لهذا الديوان (أسرار خودي)

ما هذا الشيء الذي نسميه (أنا) أو (خودي) أو (مين)[1] الذي يبدو في أعماله ويخفى في حقيقته ، والذي يخلُق كلَّ المشاهدات ، ولكن لطافته لا تحتمل المشاهدة ؟ أهو حقيقةٌ دائمةٌ ، أم أنَّ الحياة تجلَّت في هذا الخيال الخادع ، وهذا الكذب النافع ، تجلِّياً عرضيّاً لتحقيق مقاصدها العملية الراهنة ؟

إنَّ سيرة الأفراد والجماعات موقوفةٌ على جواب هذا السؤال . ولكن جواب هذا السؤال لا يتوقف على المقدرة الفكرية في الآحاد والجماعات ، كما يتوقف على طباعها وفطرتها . فأمم الشرق المتفلسفة أميل إلى أن تعتبر (أنا) في الإنسان من خِداع الخيال . وهي تعدُّ الخلاص من هذا الغُلِّ نجاةً ، وميلُ أهل الغرب إلى العمل ، ساقهم إلى ما يلائم طباعهم في هذا البحث .

ويمضي إقبال في مقدمته قائلاً :

اختلطت في عقول الهنادك وقلوبهم ، النظريات والعمليات اختلاطاً عجيباً . ودقَّق حكماؤهم في حقيقة العمل ، وانتهوا إلى هذه النتيجة : إنَّ حياة (أنا) المسلسلة ، وهي أصل المصائب والآلام ، تنشأ من العمل ، وإنَّ حالة النفس الإنسانية نتيجةٌ محتومةٌ لأعمالها .

وكانت رسالة الإسلام في غربي آسيا دعوةً إلى العمل بليغةً ، فالإسلام يرى أن (أنا) مخلوقٌ ينال الخلودَ بالعمل ، ولكنَّ تشابهاً عجيباً في تاريخ الفكر الهندي والإسلامي يظهر في بحث هذه المسألة . فالفكر التي فسّر بها شنكر

---

(١) مين بالأردية معناها : أنا .

أجاريه ، كتاب الجيتا (گيتا) هي الفكرة التي فسر بها القرآن محيي الدين بن عربي الأندلسي . وكان له أثرٌ بليغٌ في عقول المسلمين وقلوبهم . جعل ابن عربي بعلمه ومكانته مسألة وحدة الوجود عنصراً في الفكر الإسلاميّ . واقتفى أثره أوحد الدين الكرماني ، وفخر الدين العراقي ، حتى اصطبغ بهذه الصبغة كلُّ شعراء العجم في القرن السادس الهجري .

خاطبَ فلاسفةُ الهند العقل في إثبات وحدة الوجود . وخاطب شعراء إيران القلب ، فكانوا أشدَّ خطراً وأكثر تأثيراً ، حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامَّة ، فسلبوا الأمَّة الإسلامية الرغبة في العمل .

وتمتاز أمم الغرب بين أمم العالم بميلها إلى العمل ، فآراؤهم خيرُ دليل لأمم المشرق إلى فهم أسرار الحياة .

وبدأت الفلسفة الجديدة في الغرب من وحدة الوجود التي دعا إليها الفيلسوف الهولندي الإسرائيلي[1] ولكن مسحة العمل غلبت على طبائع الغرب . فلم يلبث طويلاً طلسم وحدة الوجود التي أُثبتتْ بأدلة رياضية . سبق الألمان إلى إثبات حقيقة (أنا) الإنسانية المستقلة ، ثم تحرَّر من هذا الطلسم الخيالي فلاسفة الغرب على مرِّ الزمان ، ولا سيما فلاسفة الإنكليز .

ويختم إقبال بقوله :

هذه خلاصة تاريخ المسألة التي هي موضوع هذه المنظومة . وقد اجتهدت أن أحرِّر هذه المسألة الدقيقة من تعقيد الأدلَّة الفلسفيَّة ، وألوانها بألوان الخيال ؛ ليتيسر إدراك حقيقتها .

ولم أقصد بهذه الديباجة إلى تفسير هذه المنظومة . ولكن أردت أن أدلَّ على الطريق من لم يُسلِّم من قبل بدقائق هذه المسألة العسيرة .

---

(١) يعني : اسبنوزا .

ولا ينبغي هنا أن أتناول هذه المنظومة من حيث الشعر ، فإنما خيال الشعر فيها وسيلةٌ إلى توجيه الناس إلى هذه الحقيقة :

إنَّ لذة الحياة مرتبطة باستقلال (أنا) وبإثباتها ، وإحكامها ، وتوسيعها . وهذه الدقيقة تمهد إلى فهم حقيقة « الحياة بعد الموت » .

وينبغي أن يعلم القرّاء أنَّ لفظ « خودي » لا يستعمل في هذه المنظومة بمعنى الأَثَرة ، كما تستعمل في اللغة الأرديّة غالباً ، إنما معناها الإحساس بالنفس ، أو تعيين الذَّات .

وهي بهذا المعنى في كلمة « بيخودي » كذلك .

خلاصة مقال الشاعر
إلى الأستاذ نكلسون

مذهب الأستاذ بريدلي أنَّ كلَّ مركزٍ للشعور محدودٌ ، أي : كلُّ ذاتٍ مفردةٍ خداعُ نظرٍ باطل . وأنا أقول ، على خلاف هذا : إنَّ مركز الشعور المحدود الذي لا يُدْرَكُ (الذات) هو حقيقة الكائنات . فالذات حقٌّ لا باطل .

الحياة كلُّها فردية ، وليس للحياة الكلية وجود خارجي . وحيثما تجلَّت الحياة تجلَّت في شخصٍ ، أو فردٍ ، أو شيء . والخالقُ كذلك فرد ؛ ولكنَّه أوحدٌ لا مثل له .

وظاهرٌ أنَّ هذا التصوُّر للكائنات يخالف كلَّ المخالفة ما ذهب إليه شراح فلسفة هيكل من محدثي الإنكليز ، ويخالف أصحاب وحدة الوجود الذين يرون أن مقصد حياة الإنسان ، أن يُفْني نفسه في الحياة المطلقة أو (أنا) المطلق ، كما تفنىٰ القطرة في البحر .

أرى أنَّ هدف الإنسان الدِّيني والأخلاقي إثباتُ ذاته لا نفيها ، وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف .

قال الرسول ﷺ : « **تخلقوا بأخلاق الله** » فكلّما شابه الإنسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فرداً بغير مثيل .

وتنقص فرديته على قدر بعده من الخالق ، والإنسانُ الكامل هو الأقرب إلى الله ، ولكن ليس القصد من هذا القرب ، أن يُفني وجوده في وجود الله . كما تقول فلسفة الإشراق ، بل هو ، على عكس هذا ، يُمثّل الخالقَ في نفسه .

الحياة رقيٌّ مستمر ، تسخّر كلَّ الصِّعاب التي تعترض طريقها ، وحقيقتُها أن تخلُقَ دائماً مطالبَ ومُثُلاً جديدةً ، وقد خَلقتْ من أجل اتساعها وترقيها آلاتٍ كالحواسّ الخمس ، والقوة المدركة ؛ لتقهر بها العقبات والمشقّات .

وأشدُّ العقبات في سبيل الحياة المادّةُ أو الطبيعة ، ولكنَّ المادة ليست شرّاً كما يقول حكماء الإشراق ، بل هي تُعينُ الذات على الرقي ، فإنَّ قُوى الذَّات الخفية تتجلّى في مصادمة هذه العقبات .

وإذا قَهرت الذاتُ كلَّ الصعاب التي في طريقها بلغت منزلة الاختيار . الذاتُ نفسها فيها اختيار وجبر ، ولكنَّها إذا قاربت الذاتَ المطلقة نالت الحرية الكاملة . والحياةُ جهادٌ لتحصيل الاختيار . ومقصدُ الذات أن تبلغ الاختيارَ بجهادها .

دوام الذات أو الشخصية :

مركز حياة الإنسان ذات (خودي) أو شخص ، أعني : أنَّ الحياة حينما تتجلّى في الإنسان تسمّى ذاتاً .

وشخصية الإنسان من الوجهة النفسانية حالٌ من التوتر ، ودوام الشخصية موقوفٌ على هذه الحال . فإن زالت هذه الحال عقبتها حالٌ من الاسترخاء مضرَّةٌ بالذات . فإن يكن في حالة التوتر هذه كمال الإنسان فأول فرضٍ عليه أن يعمل لدوام هذه الحال ، والحيلولة دون حال الاسترخاء .

وكلُّ ما يُمكّننا من إدامة حال التوتر يمكّننا من الخلود .

وهذا التصور للشخصية يقوم معياراً لِقيَم الأشياء أعني : أنَّ في ذاتنا معيار الحسن والقبح . وبهذه تُحلُّ مسألة الخير والشر ، فما يقوِّي الذات خير وما يُضعفها شر . ويجب أن يقوَّم الدين والأخلاق والفنون بهذا المعيار أيضاً .

واعتراضي على أفلاطون ، هو في أصله اعتراضٌ على كل النظم الفلسفية التي تقصد إلى الفناء ، لا البقاء ، والتي تُغفل المادة ، وهي أكبر العقبات في سبيل الحياة ، وتدعو إلى الفرار منها ، لا إلى تسخيرها ، والتسلط عليها .

وكما تَعرِض مسألة المادة في مبحث حرية الذات ، تعرض مسألة الزمان في مبحث خلودها .

يقول برجسون : إنَّ الزمان ليس خطّاً ممتداً إلى غير نهايةٍ يتحتَّم علينا المرور به . هذا التصوُّر للزَّمان غيرُ صحيح ، فالزمان الخالص لا يدخل فيه تصوُّر الطول ؛ أي : لا نستطيع قياسه بمقياس الليل والنهار .

إنَّ خلود الذات أملٌ ، من أراد أن يظفر به فليجدَّ ، ويدأب لبلوغه ، والظفرُ به موقوفٌ على أن نسلك طريقاً للفكر والعمل في هذه الحياة يعيننا على حفظ حالة التوتر ، ولا يستطيع إبلاغَنا هذا الأمل دين بوذا ، والتصوُّف العجمي ، وما إلى هذين من نظم الأخلاق الأخرى . لقد أضرت بنا هذه الطرق ، فأضرعتنا وأنامتنا . إنَّ هذه المذاهب هي الليالي في أيام حياتنا .

تربية الذات :

لا ريب أنَّ الذات تستحكم بالعشق . ومفهوم العشق هنا واسع جدّاً . ومعناه إرادة الجذب والتَّسخير . وأعلى أشكاله أن يخلُق مقاصده ويجدَّ في نيلها . وخاصةُ العشق إفراد العاشق والمعشوق ، أعني : إظهار الانفراد ، والاستقلال فيهما . وإذا جدَّ الطالب في طلب الأوحد الأسمَى ظهر فيه التوحُّد ، ويتحقَّق ضمناً توحُّد المطلوب ؛ لأنه إن لم يكن واحداً مستقلاً بنفسه لم يسكُن الطالب إليه . إنما يمكن عشقُ شخصٍ ، أو وجود معين . ولا

يمكن لشخص عشقُ كائن غيرِ مشخص .

وكما تستحكم الذات بالعشق تضعف بالسؤال . وكل ما ينال بغير جهد يعدُّ سؤالاً ، فالذي يرث مال غيره سائل ، والذي يتَّبع أفكار غيره ، أو يدَّعيها لنفسه سائل .

والخلاصة : أنَّه ينبغي لأجل إحكام الذات أن نخلق في أنفسنا العشق ، ونتجنب كلَّ ضروب الاستجداء (أي البطالة) .

إنَّ في حياة الرسول ﷺ أسوةً حسنةً للمسلم ، فقد كانت حياته خيرَ مثلٍ للسعي الدائم . لقد كانت حياته كلُّها صورةً للعمل .

أشرتُ في فصول من هذا المثنوي إلى أصول فلسفة الأخلاق الإسلامية ، وبيَّنت أنَّ لكمال الذات ثلاث مراحل :

١ ـ إطاعة القانون الإلهي .

٢ ـ وضبط النفس .

٣ ـ والنيابة الإلهية .

والنيابة الإلهية في هذ الدنيا هي أعلى درجات الرقيِّ الإنسانيّ . ونائب الحق (الله) خليفة الله في الأرض ، وهو أكمل ذات تطمح إليها الإنسانية ، وهو معراج الحياة الروحي .

وأول شرطٍ لظهور نائب الحق أن ترقى الإنسانية في جانبيها الروحيِّ والجسميِّ ، فإنَّ ارتقاء الإنسانية يقتضي ظهور أمَّةٍ مثاليةٍ يتجلَّى في أفرادها في الجملة هذا التوحُّد الذَّاتي ، وتصلح لأن يظهر فيها نائب الحق .

فمعنى سلطان الله في الأرض : أن تقوم فيها جماعةٌ شوريَّةٌ يتوحَّد أفرادها ، ويقوم على هذه الجماعة واحدٌ يمكن أن يسمى نائب الحق ، أو الإنسان الكامل ، وهذا الإنسان الكامل يبلغ ذروة الكمال ؛ التي لا تتصوَّر فوقها ذروة .

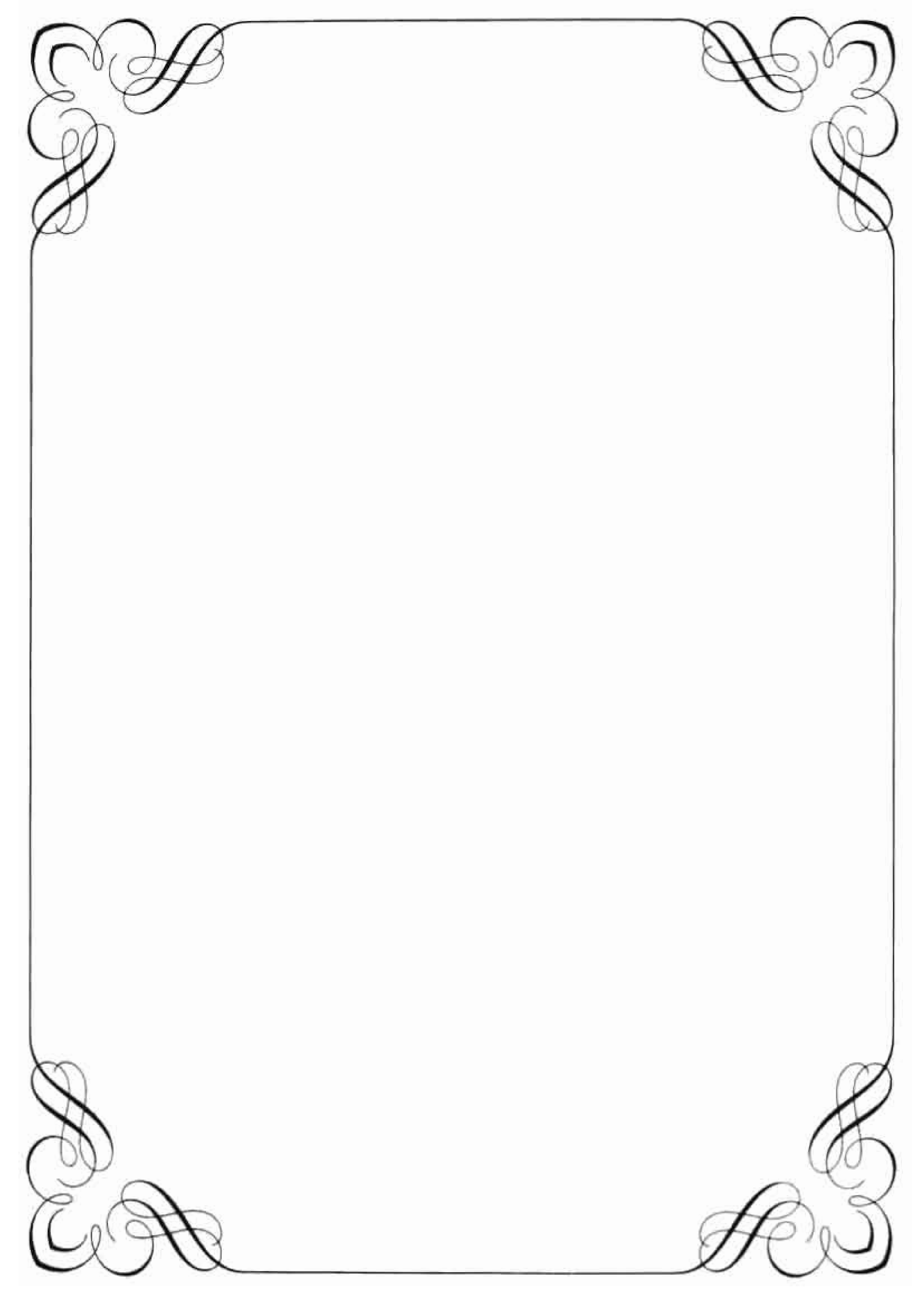
وقد رأى نتشة (الفيلسوف الألماني المعروف) ضرورة ظهور هذه الأمة

المثالية ، ولكن دهريته ، وإعجابه بالسلطان مسخا فلسفته كلها » إهـ .

هذه خلاصة رسالة إقبال إلى الأستاذ نكلسون . وحسبنا في إيضاح مذهبه ما قدَّمنا من تلخيص رسائله ، ومقدمته لأسرار الذات ، ورسالته إلى نكلسون .

* * *







القسم الأول

أسرار إثبات الذّات

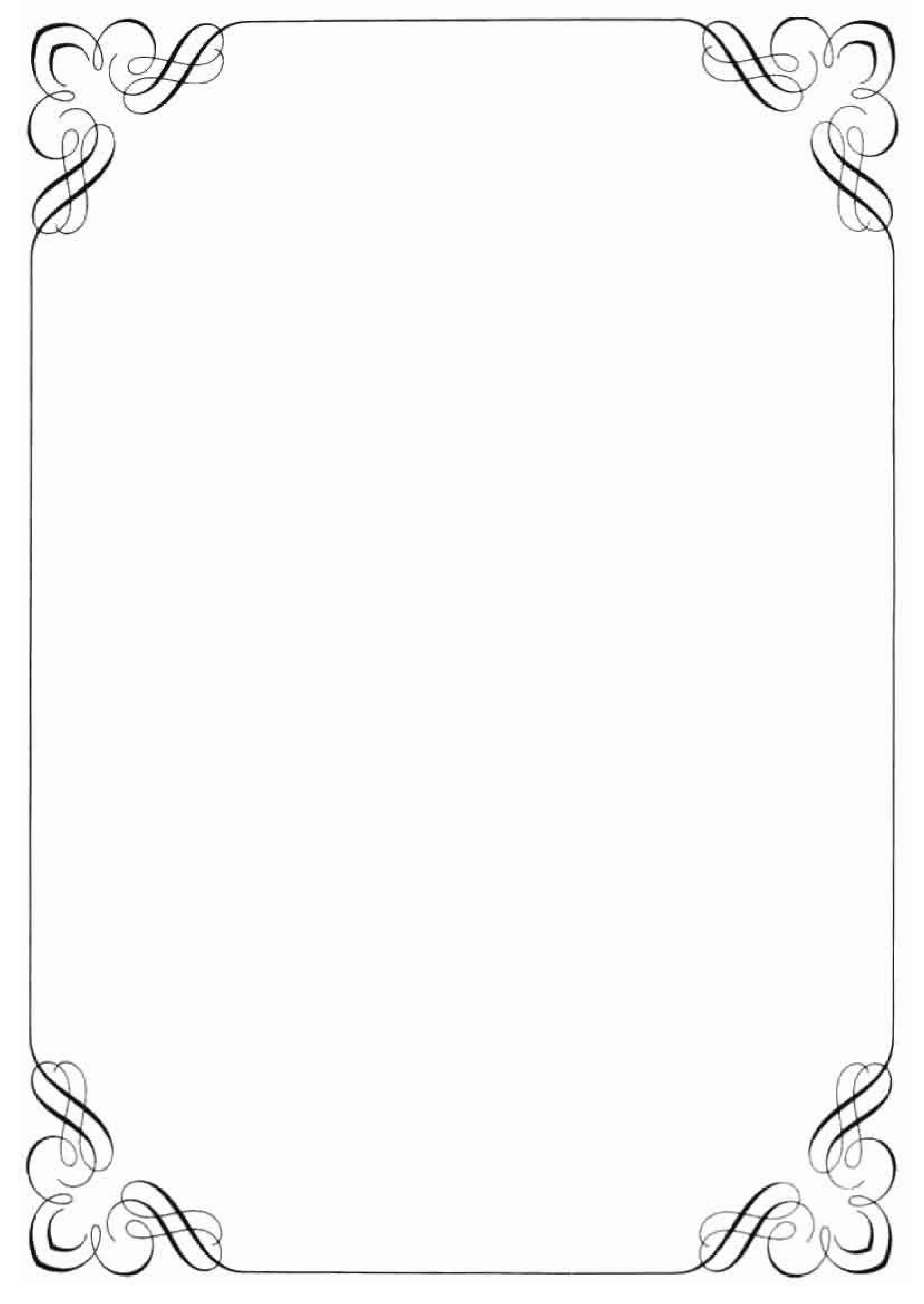
(أسرار خودي)

رأيتُ الشَّيخ بالمصباحِ يسعى … لـه فـي كـلِّ نـاحيـةٍ مجـال
يقول : مَللتُ أنعاماً وبَهْماً … وإنساناً أريد ، فهل يُنال ؟
برمتُ برُفقةٍ خارت قواها … برسْتُمْ أو بحيدرٍ اندمال[1]
فقلنا : ذا مُحالٌ . قد بحثنا … فقال : ومُنيتي هذا المحال

(مولانا جلال الدين الرومي)

(١) حيدر : عليٌّ بن أبي طالب ، ورستم : من أبطال الفرس .





تمهيد

« ليس في أعواد غابي سقطٌ — هي للمنبر أو أعواد صَلْب »[1]

نظيري النيسابوري

قطع الصبحُ على الليل السفَر — فهمَى دمعي على خدِّ الزهَرْ
غسلَ الدمعُ سُباتَ النَّرجسِ — وصحا العُشبُ بمَسرَى نفسي
جرَّب الزَّارعُ قولي مُحصَدا — مِصرعاً ألقَى ، وسيفاً حصدا
إنَّه حَبٌّ دموعي زَرعا — نسجَ الروضَ وأنَّاتي معا
ذرَّةٌ قد نالت الشمسَ أنا — كم صباحٍ في فؤادي كَمنا
طينتي من جَامِ جَمٍّ أنورُ — منْ غيوبِ الكون عِندي عبرُ[2]
صَيْدُ أفكاري ظِباء لم تُرَمْ — لم تُسَيَّب بَعدُ منْ قيدِ العَدمْ
زَانَ بُسْتاني عشبٌ ما ظَهرَ — وجنيتُ الوردَ في جوف الشَّجر[3]
محفِلُ الشادين مني يرجُفُ — في وِتار الكون كفِّي تعزِفُ
صامِتٌ فيَّ ربابُ الفِطرةِ — ما وعَى عنِّي جليسي نغمتِي
إنني شمسٌ قريبٌ مولدي — حُبُكاً في فَلَكٍ لم أعْهَد

---

(١) نيت درخشك وتريبشه من كوتاهي — جوب هرتخل كه منبر شوه داركم

(٢) حام جم أي : كأس جمشيد . وفي أساطير الفرس أنَّ الملك جمشيد كان عنده كأس يرى فيها الأقاليم السبعة . وفي هذا البيت وما بعده يقول الشاعر : إنه يرى الغائب ، ويدرك ما لم يخلق .

(٣) جنى الورد الذي لم يظهر من شجره : علم أنه سيظهر دون ريب ، وأنه سيجنيه ، فكأنه قد جناه .

لم يَرُعْ ضوئيَ سِربَ الزُّهُرِ … أو يُرَجْرَجْ زئبَقي في البَصرِ[١]

ما رأت رقصَ ضيائي الأبحُرُ … أو كسا الأطوادَ ثوبي الأحمر

عينُ هذا الكون لي لا تعهد … أنا من خوفِ طلوعٍ أرْعَدُ

مزّقَ الظلمةَ فجرى فسفَرْ … وبدا طَلٌّ جديدٌ في الزَّهَرْ

إنني أرقب صبحاً مُعلِما … حبَّذا من حول ناري زمزما[٢]

* * *

أنا لَحْنٌ دون ضَربٍ صَعَدا … أنا صوتٌ شاعري يأتي غدا[٣]

دونَ عصري كلُّ سرٍّ قد خَفي … ما بهذي السوق يُشرى يوسُفي[٤]

أنا في يأسٍ من الصّحْب القديم … مُشعلٌ طُوري ليغشاه كليمْ[٥]

بحرُ صحبي قطرةٌ لا تَزْخَرُ … قطرتي كاليمِّ فيه صَرْصرُ

مِن وجودٍ غيرِ هذا لي غناء … ولركبٍ غيرِ هذا لي حُداء

كم تجلّى شاعرٌ بعد الحِمام … يوقظُ الأعينَ حيناً وينام

وجهُهُ منْ ظُلمة الموت سَفَرْ … ونما منْ قبره مثلَ الزَّهَرْ[٦]

* * *

كم بهذا السَّهب مرّتْ قافلةْ … مثلَ سَيرِ النُّوق رهواً سابلةْ

---

(١) لم يغش ضوئي النجوم ، ولم يضطرب شعاعي في الأعين اضطراب الزئبق .

(٢) حبذا من صَلي بناري وزمزم حولهما كالمجوس .

(٣) هو صوت شاعر الغد ، ليس صوتاً للزمن الحاضر .

(٤) أفكاري لا يفهمها هذا العصر ، إنها جميلة جمال يوسف ، ولكن ليس في هذه السوق من يشتريها .

(٥) يائس ممن عرف من الناس ، وهو يرجو أن يأتي إليه كليم يفقه عنه ، كما ذهب موسى الكليم إلى الطور .

(٦) قال : إنه شاعر المستقبل لا الحاضر فقال : كثير من الشعراء لم يُعرف قدرُهم إلا بعد الموت .

غيرَ أنّي عاشقٌ ، ديني النُّواخ … ثورةُ المحشر في هذا الصياخ

أنا لحنٌ كلَّ عنه الوترُ … لا أُبالي أنَّ عُودي يُكسرُ[1]

أبعدِ القطرة عن سيلٍ طما … وانظرنَّ اليمَّ منه التطما

لا تعي موجيَ هذي الأنهرُ … لا تعي لُجّيَ إلا أبحرُ

ليس أهلاً لسحابي زهرةُ … ليس فيها لنموٍّ روضةٌ[2]

كم بُروقٍ نائماتٍ في الجَنانْ … ضاقت البيدُ لديها والقِنانْ[3]

إنْ تكن صحراء فاطلب لجّتي … أو تكن سيناءَ فاقبس شُعلتي

قد حُبيتُ الوردَ من عَين الحياة … ووُهِبْتُ السّرَّ من عين الحياة[4]

أشعلَ الذرَّةَ لحني الثائرُ … رفرفتْ فهي يَراعٌ طائر

مانثا ذا السرَّ غيري في البشرْ … لم يُثقِّب ناظمٌ مثلي الدُّرَر

أقبلَنْ إن تبغ عيشَ الخالدينْ … أقبلَنْ إن تبغ مُلك العالَمينْ

أفشتِ الأفلاكُ لي السرَّ القديمْ … كيف يُخفَى السرُّ من دون النَّديم ؟

أيها الساقي ! من الراح اسقني … وآسِ في قلبي جِراحَ الزَّمن

شعلةُ الماء التي من زمزم … قيصرٌ يعنو لها كالخدم

مُقلةُ المُبصر منها أبصرُ … وشِعابُ الفِكر منها أنور

تجعلُ الريشةَ طوداً قاهرا … وتُري الثعلب ليثاً زائرا

هيَ تسمو للثُريّا بالثَّرى … وتعي القطرةُ منها أبحرا

تجعلُ الصَّمت ضجيجَ المحشرِ … تجعل الدُّرّاج حتفَ الأصْقُر

املأ الكأس بصفوٍ نيّرِ … نوِّرِ الفكرَ بنورِ القمرِ

---

(١) هو لحن لا يطيقه وتر . وهو لا يبالي أن يقطع أوتاره في إظهار هذا اللحن . لا يبالي أن يموت في الإعراب عن هذا الوجد .

(٢) الزهرة التي لا تنمو حتى تصير روضةً ليست أهلاً لمطره .

(٣) جمع قنة ، وهي قمة الجبل .

(٤) العين الأولى عين الماء ، والثانية عين الشيء أي نفسه ، وكلمة الحياة رديف .

لأقود الرَّكبَ شطر المنزل ... باعثاً شوقَ السُّرى في المُقَل

رائياً وجهَ جديدِ الأمل ... ساعياً إثرَ جديدِ العَمَل

فأرى إنسانَ عينِ العارفين ... وأرى لحناً بأُذنِ العالمين

مُعلياً قَدْرَ الكلام المُبدَع ... مازجاً فيه غزيرَ الأدمُع

قارئاً من فيضِ ذا الشيخ العظيم ... كُتُباً تُضمِر أسرار العلومْ[1]

قلبهُ من شعلة الوَجد استعرْ ... وأنا في نَفَسٍ منه شَرَرْ

قد رمى الشَّمعُ فَراشي باللهبْ ... وغزتْ جامي الحُمَيَّا فالتهبْ[2]

صيَّر الروميُّ طيني جوهرا ... مِنْ غُباري شاد كَوناً آخرا

ذرةٌ تصعدُ من صحرائها ... لتنال الشَّمس في عليائها

إنَّني في لُجِّه موجٌ جرى ... لأصيب الدُّر فيه نيِّرا

قد عرتْني نشوةٌ من كأسه ... وحياةٌ نلتُ من أنفاسه

* * *

ليلةً رانتْ على قلبي الشُّجون ... وسرت « يا ربِّ » في الليل السُّكون[3]

---

(١) الشيخ العظيم : هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهرُ شعراء التصوف عند الفرس . ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤هـ لأبٍ من العلماء والفضلاء ، رحل به وهو صبي إلى بلاد الأناضول التي كانت تابعة من قبل للروم ، واستقرّ في مدينة قونية . ولذلك عرف جلال الدين بالرُّومي ، كما عرفت بلاد الترك ببلاد الروم لعين السبب . ولقد تلقى العلم أول ما تلقى على أبيه ، ثم عَقَدَ الأسباب بينه وبين العلماء والمتصوفة ، وتصدَّر للوعظ والإرشاد ، ثم مال إلى التصوف ، وأصبح من شيوخه والتف حوله من المريدين خلقٌ كثير . وله كتابٌ منظومٌ يسمى المثنوي يتضمَّن حكايات لها مغزىً صوفي ، وآيات قرآنية ، وأحاديث نبوية يفسرها ، ويؤولها ، ولكن لا على ظاهرها . ولا يداني المثنوي كتابٌ آخر في شهرته ، ونفاسته عند الصوفية . وكانت وفاة جلال الدين الرومي عام ٦٧٢هـ .

(٢) الفراش والشمع مثل للمحب والحبيب . فالفراش يقدم على النار ، فيحرق نفسه غير مبالٍ ، ولكن الشمع هو الذي غزا فراشه .

(٣) سرت مني دعوة يا رب في الليل .

مـنْ فـراغِ الكـأس قلبـي نـائـحُ　　مـن صروفِ الـدَّهر شـاكٍ صـائحُ
أرهــقَ التسيــارُ فكــري فثــوى　　هيــضَ سِقْطــاه وللنَّــوم هــوى[1]

* * *

لاحَ شيــخُ الحــقِّ ذاك الألمعــيّ　　مــن حكـى قـرآنـنـا بـالفهلـويّ[2]
قـال : يـا ولهـان بيـن العـاشقيـن !　　من شراب العِشْق فاجرع كلَّ حين
شُــقَّ فــي العيــن حِجـابَ البصـر　　وأثِـرْ فـي القلـب هَـوْلَ المحشـرِ
واجعلــنَّ الضُّحْـك ينبـوع البكـاء　　وامـلأ العيـنَ دمـوعـاً مـن دمـاءْ
أنــت كــالكِـمِّ صمــوتٌ أبكــمُ　　انشُــرنْ كــالـورد ريحـاً تَفْعـم[3]
صعِّدنْ من كلِّ عضوٍ ، كالجرس　　نـوحـك الصـامـتَ فـي كـلِّ نفَس
أنــت نــارٌ فــأضـيء للعــالَميـن　　بلهيــب منــك أذكِ الآخــريــن[4]
سِرَّ شيـخ الحـان أعلِـنْ فـي هَيـاجْ　　كن مُداماً واتخذ ثوبَ الزُّجاج[5]
وكـــنِ الفِهـــرَ لمـــرآةِ الفِكَـــر　　واصدَعنْ جهراً وأعلنْ ما استتر[6]
حـدِّثـنْ كـالنَّـاي عـن غـابٍ نـأى　　حـدثـنْ قيسـاً عـن الحيِّ انتـأى[7]
جــدِّد النَّــوح بلحــنٍ محــدَثِ　　ومـن الآهـات فـي الحفـل انفـثِ

---

(١) السقطان : الجناحان .
(٢) يقال عن كتاب المثنوي لجلال الدين الرومي : إنه القرآن في اللسان الفهلوي ، أي : الفارسي .
(٣) كم الزهر منقبض يخفى لونه وريحه ، فإذا انفتح نشر ريحه واستبان شكله . فعمت الرائحة : ملأت الأنف .
(٤) أذكى النار : أشعلها .
(٥) اتخذ ثوب الزجاج : أظهر ما في باطنك ، كما تظهر الزجاجة ما فيها .
(٦) الفهر : الحجر الصغير ، يعني : اكسر مرآة الفكر ، ولا تعول على ما تبديه ، وأبد ما للعشق في قلبك .
(٧) الناي مأخوذ من الغاب وصوته عند شعراء الصُّوفية حنين إلى غابه . وقد بدأ جلال الدين كتاب المثنوي بقصة الناي والغاب .

كلَّ حيٍّ فيه رُوحاً أحْكِمِ   وزِد الحيَّ حياةً من « قُم »[1]
وهلمَّ اسلُك طريقاً أُنُفا   وانفِ عن قلبك ما قد سَلَفا
جرسَ الرَّكْب ! تنبَّه لا تنم   واعرف اللَّذة في هذا النَّغَمْ

* * *

صِرْتُ ناراً في ثيابي تُسعَر   صِرْتُ كالنَّاي ، هَياجاً أُضمِر
ثُرتُ من أوتار نفسي نغما   شِدتُ من حسن بياني إرما[2]
فرفعتُ السِّتر عن سرِّ خودي   فبدا الإعجاز من أمر خودي[3]
كان كوني صورة لم تكمل   كان سِقطاً مُهملاً في الهَمل
مِبْرَدُ العشق براني رجلاً   كيفَ هذا الكون والكمَّ جَلا[4]
فرأت عيناي نَبض الأنجُم   وبعرق البذرِ دَوراتِ الدَّم[5]
وبكيتُ النَّاسَ جنحَ الظُّلَم   فبدا سرُّ حياة الأمم
مَصنعُ الكون أراني ما حواه   فتجلَّى سرُّ تقويم الحياه
أنا - من في ظلمة اللَّيل أنار -   في طريق الملَّة البيضا غُبار[6]
صوتُها في الشرق والغرب علا   لحنُها في القلب ناراً أشعَلا
ذرَّةً ألقت وشمساً حصدت   ألفَ روميٍّ وعطَّارٍ جنت[7]
آهتي الحَرَّى سمَتْ فوق العَنانْ   عِترتي النارُ ، وإن كنتُ الدُّخان[8]

---

(١) قم : فعل أمر . يعني أحي الناس بقولك قم . والكلمة بلفظها العربي في الأصل .
(٢) إشارة إلى ما يقال في وصف إرم ذات العماد .
(٣) أبقيت كلمة خودي في الشطرين كما جاءت في الأصل . ومعناها : الذاتي . وهي أساس فلسفة إقبال .
(٤) جلاني العشق كيف هذا والكون وكمّه حين سلط على مبرده فسوّاني رجلاً .
(٥) رأى نبض النجوم وسير الدّم في عروق القمر ؛ أي : أدرك أسرار الكائنات .
(٦) الملّة البيضاء : الأمّة الإسلامية ، أي : هو غبار من سيرها في الطريق .
(٧) فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي من كبار شعراء الصوفية .
(٨) يعني : أن أصله من هذه الأمة ؛ فإن يكن دخاناً ، فهو من هذه النار .

قلمـي فـي مسـرح الفكـر عـلا فجـلا الأسـرارَ فـي السَّبْـعِ العُلَـى

* * *

مـا قصـدت الشعـر فـي هـذا النَّغَـم نحـتَ أصنـامٍ وتعظيـمَ صنـم[1]
أنـا هنـديٌّ شـآنـي الفـارسـيّ وهـلالٌ أنـا ذو جـام خلـيّ[2]
لا تـؤمِّـل عنـدنـا حسـن البيـان لحـنَ خَنْسـارٍ بـه أو أصفهـان[3]
ذاكـمُ الهنـديُّ يحكـي السَّكـرا لكـن الـدُّرِّيُّ أحلـى مخبَـرا[4]
سحـرَ الفِكـرَ تجلُّبـه وراغ فـإذا لـي شجـرُ الطـورِ يـراع[5]
قـد عـلا فكـري وهـذا الفـارسـيُّ لاءم الفطـرةَ فـي فكـري العلـيّ
أيُّهـا العـائـبُ كـأسَ الخنـدَريـس انظرنْ يا صاح ما تحوي الكؤوس[6]

* * *

في بيان أنَّ نظام العالم من الذَّاتية ، وأنَّ تسلسل حياة أعيان الكون لا يكون إلَّا باستحكامها

هيكـلُ الأكـوانِ مـن آثـارهـا كـلُّ مـا تُبصـر ، مـن أسـرارهـا
نفسَهـا قـدْ أيقظـتْ حتـى انجلـى عـالـمُ الأفكـارِ مـا بيـن المـلا
ألـفُ كـونٍ مختـفٍ فـي ذاتهـا غيـرُهـا يَثْبُـتُ مـنْ إثبـاتهـا

---

(١) ما قصدت ما يفعله الشعراء من نحت الأصنام وعبادتها ، أي : المدح والخنوع للكبراء ، أو للآراء السائدة .
(٢) هو هندي يغلبه اللسان الفارسي . وهو كالهلال كأسه لم تملأ أي لم يتمّ نوره .
(٣) خوانسار وأصفهان أخرجتا شعراء وألحاناً كثيرة .
(٤) الهندي اللغة الأردية التي نظم بها إقبال بعض دواوينه ، والدري اللغة الفارسية .
(٥) يعني صار قلمه من شجرة الطور المقدسة التي رأى موسى عندها النار .
(٦) ناسبت الفارسية أفكاره فكتب بها ، وينبغي أن ينظر إلى معانيه لا إلى ألفاظه الفارسية المعيبة .

جعلت بَزر خصامٍ بزرَها ... نفسَها تنظرُ فيها غيرَها
خلقت أضدادها منْ نفسها ... لترى لذَّتها في بأسها
تبتلي في نفسها قوَّتَها ... لترى منْ نفسها قُدرتها
خُدعٌ منْ وَهمها عينُ الحياة: ... غُسْلُها في دمها عينِ الحياة[1]
تُخربُ البستان أجلَ الوردة ... تُكثر النَّوح لأجلِ النغمة
لفُليكٍ واحدٍ ألفُ هلال ... ولحرفٍ واحدٍ ألفُ مقالْ
عذرها في سَرَفٍ أو قسوةٍ ... أنَّها تبغي جمال الخلقة[2]
حُسنُ شيرينَ لفَرهادَ مِحَنْ ... ومن المسك رَدَى ظَبيُ الختَن[3]
في فَراش حرقة كالمشعَل ... عذرُه في شمعه المشتعلِ
ألفَ يوم سطَّرته يدُها ... ليُجلَّى في سناه غدُها
ألفُ إبراهيم في النار اغتدى ... لسراجٍ يُرتجى من أحمدا[4]

* * *

همُّها الأعمال فهيَ الفاعلُ ... وهيَ العلَّة وهْيَ القابل
ثورةٌ فيها وإجفالٌ، ونور ... واحتراقٌ واختفاء وظهور[5]

---

(١) خلاصة الأبيات المتقدمة: أنَّ الذاتية، وهي واحدة، اتخذت في الكون مظاهر مختلفةً يحارب بعضها بعضاً، والحياة في هذا الخصام، وهذا التنازع بين مظاهر الكون.

(٢) في الأبيات الثلاثة المتقدمة يشير الشاعر إلى أنَّ الخلقة لها مقصدٌ، تهدِّم من أجله آلاف الأشكال، ولا تبلغ الكمال إلا بهذا الهدم.

(٣) عشق فرهاد شيرين قصةٌ رائعةٌ في الأدب الفارسيِّ.. والختن: بلادٌ معروفة بطيب المسك.

(٤) يعني إبراهيم الخليل وأحمد النبي عليهما الصلوات والسلام.

(٥) عمل الذاتية في الطين منه ازدهار العالم، والليل نومها والنهار يقظتها، والأجزاء في الكون شرر شعلتها الواحدة، تنشق فتكون الأجزاء، وتنبسط فتكون الصحراء ثم ينضمُّ بعضها إلى بعض فتكون جبالاً.

سعـــةُ الأيَّـــام ميـــدانٌ لهـــا والسمـــاء النَّقـــعُ يعلـــو سُبلَهـــا
يـدُها فـي الطِّيـن ، للكـونِ ازدهـارْ نومُها الليلُ ، وفي الصَّحو النهار
قسَّمـــتْ شعلتهـــا فـــي شَـــرَر فـــرأى الأجـــزاء عقـــلُ المُفكِـــر
تخلـــق الأجـــزاء إمَّـــا تنفطـــر تُنشـــىءُ الصَّحـــراء إمَّـــا تنتشـــر
ثـم صـارت بـانتشـارٍ فـي مـلال فـاحـزألَّـت فبـدت شـمُّ الجبـال
شيمـةُ الـذَّاتِ التجلّـي لا الخفـاء وهـي فـي الـذرَّاتِ بـاسٌ وضيـاءْ
قـــوَّةٌ صـــامتـــةٌ حِلـــفُ عَمَـــلْ عمـــلُ اليـــوم لآتيهـــا عِلَـــل
قـوَّة الـذَّات مـن الكـون النـواةْ فعلـى قـدرِ القُـوَى قـدرُ الحيـاه
كِلْمـــة الـــذَّات تعيهـــا قطـــرةٌ فـــإذا القطـــرة يـــومـــاً درَّةٌ
خـــارتِ الخمـــرُ فـــلا شكـــلَ لهـــا ومـن الكـأسِ استعـارت شكلهـا[١]
وسهـا طـودٌ عـن النَّفـس فحـار فغـدا صحـراءَ تغشـاهـا البحـار[٢]

* * *

يُعقَـــد النُّـــور لخلـــقِ المقْلـــةِ تخفـــقُ العَيْـــنُ بشـــوقِ الجَلـــوة
وإذا العشـــب نمـــاءَ أضمـــرا شـــقَّ صَـــدْرَ المـــرج حتـــى يَظْهـــرا
يجمـــع الشَّمـــعُ بعـــزمٍ نفسَـــه ومـــن الـــذَّرات يُعلـــي رأســـه
ويُـــذيـــب النَّفـــس إمَّـــا غَفَـــلا فتـــراه دمـــع عيـــنِ همـــلا[٣]

* * *

شـــدَّتِ الأرضُ قُـــواهـــا فـــالقمـــر فـــي طـــوافٍ حـــولهـــا لا مستقـــر
وكيـــانُ الشَّمـــس منهـــا أكبـــرُ فلهـــا عيـــن ذُكـــاءِ تسحَـــر

---

(١) قطرة الماء استكملت ذاتها فصارت درَّة ، والخمر ضعفت ذاتها فهي مائعة تستعير قوامها من الكأس .
(٢) حذف بيتٌ قبل هذا البيت وآخر بعده اختصاراً .
(٣) حذف بيتان بعد هذا البيت اختصاراً .

وعــلا الحــورُ فهــالَ النَّــاظــرا　　وعــلا الطــودَ أبيَّــاً قــاهــرا

وارتــدى كســوةَ نــارٍ حــاميــه　　أصلــهُ حبَّــة نبــت آبيــه[1]

إنَّ ذاتــاً جمعــتْ أسْــرَ الحيــاه　　مــن غديرٍ أزخرت بحرَ الحياه[2]

* * *

في بيان أنَّ حياة الذَّات بتخليق المقاصد وتوليدها

إنَّمــا يُبقــي الحيــاة المقصــدُ　　جَــرَسٌ فــي ركبهــا مــا تَقصــد[3]

سِــرُّ عيشٍ فــي طِــلابٍ مُضمَــر　　أصلُــه فــي أمــلٍ مستتــرُ

أحــيِ فــي قلبــكَ هــذا الأمــلا　　لا يَحُــلْ طينُــك قبــراً مُهمَــلا

يخفِــقُ القلــب بــه بيــن الصدورْ　　هــو فــي صــدرك مــرآة تُنيــر

يهــبُ التــربَ جَنــاحــاً يَصعَــد　　ولمــوسى العقــلِ خَضْــراً يُرْشِــد[4]

إنمــا يحيــا الفــؤادُ الآمــلُ　　وإذا حــيَّ يمــوت البــاطــلُ

فــإذا عــيّ بتخليــق المُنَــى　　هِيــضَ سِقطــاه وأودَى وَهَنــا

أمــلُ الــذاتِ لهيــبٌ يَستعِــرْ　　أو هــو المــوج الــذي لا يستقِــرْ

وهَــقُ المقصــودِ حَبْــل الأمــل　　إنَّــه خَيْــط كتــابِ العمــل[5]

وممــاتُ الحــيِّ فقــدان الــرجــاءْ　　يُطْفِــىءُ الشعلــةَ فِقــدانُ الهــواء

* * *

---

(١) هذا مثل شعري آخر من قوة الذَّاتية شجر الجنَّار ، تقوى ذاته ، فيعلو ، وتكسوه حمرةٌ كأنها النَّار . وكل هذا لأن حبته قويةٌ محتفظةٌ بذاتها .

(٢) الخلاصة أن الذات التي تجمع قوة الحياة تخرج بحراً زاخراً من غدير صغير .

(٣) المقصد مثل جرس القافلة ينبهها للسير .

(٤) هو من العقل كالخَضِر من موسى يهديه ويبين له الحقائق . في بيان : أنَّ حياة الذات بتخليق المقاصد وتوليدها .

(٥) الوهق : حبل فيه أنشوطة تمسك به الخيل المسيبة ، ويصاد به . وخيط الكتاب : الخيط الذي تجمع به أوراقه بعضها إلى بعض .

كيـف فينـا أعيـنٌ قـد ظهـرت ؟ لـذةُ الـرؤيـة فينـا صـوَّرت[1]
مـن مُنَـى التَّخطـارِ رجـلُ الحجَـل مـن مُنَـى التغـريـد حَلـقُ البلبـل
حَـيَّ نـايٌ قـد نـأى عـن غـابـه أطلـق النَّغمـة مـن أوصـابـه
ذلـكَ العقـل الَّـذي الكـون طَـوى وتَـرى الإعجـاز فيـه والقُـوَى
إنَّمـا أصـل الحيـاة الأمـلُ فكـذاك العقـلُ منـه يُنسَـل[2]

* * *

مـا نظـامٌ فـي شعـوبٍ ، وسُنـن ؟ ما تَرى التجديدَ في علمٍ وفنّ ؟[3]
أمـلٌ مـن قـوة فيـه ظَهَـرْ بَـرِحَ القلـبَ فغشَّتـه صُـوَر
كـلُّ مـا نملـكُ من هـذي الحواس كـلُّ عضـوٍ فيـه للعيشِ التماس
كـلُّ فكـرٍ وخيـالٍ واعتبـار كـلُّ حـسٌّ وشعـورٍ وادِّكـارْ
هـي آلات الحيـاة الجـاهـدة حين تَمضي في وغـاها صامده
ليـس قَصْـد العِلـم والفنّ الفِكَـر ليـس قَصْـد المـرج ألـوانَ الـزهَـر
إنَّمـا العلـم وِقـاءٌ للحيـاة إنَّـه للـذَّات تقـويـمُ النجـاة
للحيـاة العلـمُ والفـنُّ خَـدَم للحيـاة العلـمُ والفـنُّ حَشـم

* * *

جـاهـلاً سـرَّ الحيـاة ! اجتهـدِ وامـضِ نشـوانَ بخمـر المقصـدِ
مقصـدٍ كـالصُّبـح فـي أنـواره محـرِقٍ كـلَّ « سِـوى » فـي نـاره
مقصـدٍ يجتـاز آفـاق السَّمـاء يـأخـذُ القلـب بحُسـنٍ وبهـاء

---

(١) في هذا البيت وما بعده يضرب أمثلة لعمل الأمل في العالم . فيقول : إنَّ العين خلقت حينما قصد الإنسان الرؤية ، ورجل الحجلة خلقت من أجل السير والتبختر ، وحلق البلبل من أجل التغريد .

(٢) العقل كذلك من مواليد الأمل .

(٣) كلُّ نظامٍ في الناس وسنن وعلم وفن آمالٌ انبعثت من القلب بقوتها فتصوَّرت صوراً شتى .

ثـــورةٌ فيـــه وفيـــه محشـــرُ وعلــى البــاطــل حــربــاً يُسعِـر
نحـــنُ أحيـــاءٌ بخلـــق الأمـــلِ نحـــنُ فـــي نـــورٍ بهـــذي الشُّعــل

* * *

في بيان أنَّ الذَّات تستحكم بالمحبَّة والعِشْق

نُقَـط النُّـور التـي تُـدعـىٰ الـذواتْ شـرر فـــي طيننـــا للْحَيَـــواتْ
مُشعَـلٌ بـالحـبِّ منهـا الجـوهـرُ يتجلَّـــى مـــن قـــواهـــا المُضمَـــرُ
قطـرةٌ بـالعشـق تُـوعِـي ضـرَمـا وهـي بـالعشـق تُنيـر العـالَمـا[١]
لا يهاب العشقُ في السيف المَضاء ليـس مـنْ مـاءٍ وتـربٍ وهـواءْ
هـو فـي العـالـم صلـحٌ وخِصـامْ للحيـاة المـاء مـن هـذا الحُسـام
نظـرةُ العِشْـق بهـا شَـقُّ الصُّخـور هـو عشـقُ الحـقِّ ، والحـقَّ يَصيـر
فـابـغ فـي طينـك هـذي الكيميـاءْ اقبِسـنْ مـن كـامـلٍ هـذا الضيـاء[٢]
امـض كـالـرومـيِّ شمعـاً يَشتعـل وارم من تبريز في الروم الشُّعَل[٣]
إنَّ فـــي قلبـــك معشـــوقـــاً ثـــوى أقبِلَـن أنبئْـك عـن هـذا الجَـوى
عـاشقـوه قـد شَـأوْا كـلَّ جميـل حبُّهـم فـي كـلِّ قلـبٍ لا يَحـولْ
عشقُـه فـي القلـب نـورٌ أسفـرا للثُّـريـا يـرتقـي منـه الثَّـرى[٤]
تُـربُ نجـدٍ منـه قـد خـفَّ وضـاء طـار وجـداً مُصعـداً نحـو السَّمـاء
مُهْجـةُ المسلـم مَثْـوى المصطفـى عِـزَّةُ المسلـم ذكـرى المصطفـى
مـوجـةٌ مـن نَقْعـه الطـورُ الأشـمّ داره ، للكعبـة العظمـى حَـرَمْ

---

(١) تزعي : تجمع وتدخر .

(٢) حذف بيت قبل هذا اختصاراً والكامل هنا الإنسان المرشد الذي يهدي المبتدىء .

(٣) إشارة إلى جلال الدين الرومي وشيخه شمس التبريزي الذي نقله من العلم إلى العشق ، والروم هنا أرض الروم ، وهي آسيا الصغرى .

(٤) المعشوق المذكور في هذه الأبيات هو الرسول .

ضاق عن آنٍ حواه الأبدُ مستمدٌ من مداه الأمد

آثرت سُحق حصيرٍ عِفّتهْ وعلت تيجانَ كسرى أمّتُه

خلواتٌ في حِراءِ خَلَقا أمّةً مِنها وحُكماً مُشرِقا

كم ليالٍ قد قضاها ساهدا فحبا الأمة مُلكاً خالدا

سيفه في الحرب قَطّاع الحديدْ عينُه في الذكر بالدَّمع تجود

سيفه « آمين » تمحو الظالمين حين يدعو الحقُّ بالنَّصر المُبين

سُنَناً في كوننا قد جدّدا ومن الماضين مُلكاً بدَّدا

فتح الدُّنيا له مفتاحُ دينْ عقِمتْ عن مثِله أمُّ السّنين

استوى مولّى لديه وغلام هو والعبد سواءٌ في الطعام[١]

* * *

أسرتْ في غزوةٍ بنتُ الجواد من عَلا طيّاً بجدواه وسادْ[٢]

رجلها في القيد والرأس حسيرْ مُطرقٌ في ذلِّه الطرفُ الكسير

بُردةً ألقى عليها ساترا إذْ رأى وجهاً ورأساً حاسرا

نحن أعرى في الورى من أختِ طيّ ليس يكسونا لدى الأقوام شي

هو في الدنيا علينا ساترُ وهو في الحشر إلينا ناظر

لطفُه والقهر كلٌّ رحمةٌ لصديقٍ وعدوٍّ رأفةٌ

وبيومِ الفَتح هذا الغافر قال : « لا تثريب » وهو القادر[٣]

إننا من قَيد أوطان بَراءْ نحن من عينين نور لا مِراءْ[٤]

---

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر مثل : أنا عبد آكل أكلة العبد ، وأجلس جلسة العبد .

(٢) إشارة إلى قصة بنت حاتم الطائي حين جيء بها إلى المدينة في الأسرى فألقى عليها الرسول بردة وأطلقها .

(٣) إشارة إلى عفو الرسول يوم فتح مكة عن قريش وقوله : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم .

(٤) يعني : إننا كالبصر يصدر من عينين . هو واحد وإن اختلف مصدره .

نحـــن فـــي مغـــربنـــا والمشـــرقِ كـالنَّـدى فـي وجـه صبـحٍ مُشـرقِ
أسكـرتْنـا عيـنُ سـاقٍ فـي البطـاح كزجاجٍ نحن في الدنيا ، وراح[1]
قـد محـا الأنسـابَ طُـرّاً ذا العظيـم نـارُه قـد أحـرقـت هـذا الهشيـمْ
نحـــن زَهـــرٌ وشَـــذانـــا ائتلفـــا ضمَّنـــا منـــه نظـــامٌ أَلِفـــا
نحـــن كنَّـــا سِـــرّه فـــي قلبـــه فـــأذاعـــت صيحـــةُ الحـــقِّ بـــه

* * *

عشقـــه ثـــارَ بعـــودي الصَّـامـــتِ ألـفُ لحـنٍ فـي فـؤادي السَّـاكـت
مـا حـديثـي عـن ولاء واشتيـاقْ ؟ قـد بكـى جـذعٌ مـواتٌ للفـراق[2]
صـــورتـــي قـــد أوضحـــتْ مـــرآتـــه أنـــا صبـــحٌ أطلعـــتْ آيـــاتُـــه
ثـــورةُ الحشـــر بليلـــي النـــائـــمِ وهـــدوئـــي فـــي اضطـــرابٍ دائـــم
إنَّنـــــي البستـــــانُ فـــــي آذاره فـي عـروقـي المـاء مـنْ أمطـاره[3]
قد غَرَسْتُ العين في حقلِ الوِداد من سراحِ العَيْنِ لي هذا الحصاد[4]
قد شأى الدارَين من يثربَ طِيب حبَّـذا دارٌ بهـا مثـوى الحبيـب !
أنـــا للجـامـيِّ فـــي الشعـــر فـــداءْ نظمـه والنثـر مـن جهلـي دواء[5]
قـــال بيتـــاً بـــالمعـــانـــي يفهـــق فيـــه دُرٌّ مـــنْ مـــديـــحٍ يبـــرُقُ :
« هـــو عنـــوان كتـــاب العـــالَميـــن سيِّـد الكـونيـن ، مـولـى الثقليـن »

---

(١) نحن ممتزجون كما يمتزج الراح والزجاج .
فكـــأنمـــا خمـــرٌ ولا قـــدح وكـــأنمـــا قـــدحٌ ولا خمـــر
(٢) إشارة إلى قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عنده الرسول حين انتقل عنه إلى مكانٍ آخر .
(٣) هو بستان ناضر من مطر آذاره . والضمير للرسول ﷺ .
(٤) جمع ما جمع من المعاني من تسريح عينه في مآثر الرسول .
(٥) الشيخ عبد الرحمن الجامي من كبار العلماء والشعراء والصوفية في القرن التاسع الهجري .

كـم يُـريـكَ العِشـقُ مـن صهبـائـه فتـرى التقليـدَ مـن أسمـائـه[1]

أحكِـم العِشْـقَ بتقليـد الحبيـبْ لتنـال القـربَ مـنْ ربٍّ مُجيـب

فـي حِراء القلـب فـاقعـدْ خـاليـا وإلـى الحـقِّ فهـاجِـرْ راضيـا

اقـويَـنْ بـالحـقِّ ثـمَّ ارجـع إليـك واحطمنَّ اللاَّت والعزَّى لديك[2]

قـوِّيَـنْ بـالعشـق فـي سلطـانـه وابتـغ الجلـوة فـي فـارانـه[3]

تظفـرنْ بـالقـربِ يـا ذا السـائـلُ ! وتكـن تفسيـر « إنـي جـاعـل[4] »

* * *

في بيان أنَّ الذَّات تضعفُ بالسُّؤال

أيها الجابي من الأسْد الخراجْ ! صِـرْتَ كـالثَّعلـب خِبّاً بـاحتيـاج

ذلـك الإعـوازُ أصـلُ العِلـل كـلُّ آلامـك مـنْ ذا المُعضِـل

سـالـبُ الـرِّفعـة من فكـرٍ رفيـع مطفىء الشَّمع مِنَ الذِّهن البديع

مـن كنوز الـدَّهـر أخـرجْ مـا تـريـد وخـذِ الصَّهبـاء مـن دَنِّ الـوجـود

وعـن الـرَّحـل تـرجَّـل كعمـر احذَرن من منَّة الناس ، الحذَر[5]

صـاح ! حتَّـامَ اجتـداءُ المنصِـب ! فيـم كـالطفـلِ ركـوبُ القَصَـب[6]

تجـدِ الإفـلاسَ بـالسـؤل أذلّ وتـرى السـائـلَ أخـزى وأقـلّ

---

(١) للعشق أشكال مختلفة منها التقليد أحياناً . وهو يدعو هنا إلى تقليد الرسول .

(٢) هاجر إلى الحق لتقوى ؛ ثم ارجع إلى نفسك فاحطم ما بها من أهواء .

(٣) فاران : اسم مكة أو جبالها .

(٤) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] أي : لتكون خليفة الله في الأرض .

(٥) إشارة إلى قصة عمر حين سقطت درته من يده وهو راكب فنزل ليأخذها ولم يرض أن يناوله إيّاها أحد .

(٦) ركوب عود من القصب أو الجريد كما يفعل الأطفال .

فَـرِّق الــذاتَ ســؤالٌ واجتــداءْ فبـدت سينـاؤهـا دون ضيـاء[1]
إنْ يكـنْ فـي الـرزق والجَـدُّ عَنـاءْ وطغـىٰ حـولـك سيـلٌ مـنْ بـلاء
لا تـرُم فـي الأرض رزقـاً بـالبُكـاء لا تـرجَّ المـاء مـن عيـنِ ذُكـاء[2]
احـذر الخـزي أمـام المصطفـى يـوم يَخـزى كـلُّ سـاعٍ مـا وفَـى
مـن سمـاط الشَّمـسِ يقتـات القمرْ فعليـه وَسـمُ نُعمـاهـا ظهـر[3]
جـاهـدِ الأيـام والله استعـنْ مـاء وجـه الملَّـة البيضـاء صُـنْ
علّـم النـاسَ الصـدوقُ الصـائـبُ أنْ « حبيـبُ الله سـاعٍ كـاسـبُ »[4]
ويـح مـنْ يحمـل ذلَّ النِّعمـةِ خـافـضَ الـرأس لثِقـل المنَّـةِ
أرهـقَ النَّفْـسَ بـوقـر الـذلَّـة بنقيـرٍ بـاعَ تـاجَ العـزَّة
مـرحبـاً بـالظـامـىء الضحيـانِ لا يسـأل الخَضْـر شـرابـاً فـي الفلا[5]
بسـؤالِ النَّـاس لـم يُنـد الجبيـنْ ذاكـم الإنسـانُ ، لا مـاءٌ وطيـن
تحت هذي الشمس يَمضي ذا الفتى عـالـيَ الـرأس كسَـرْوٍ قـد عتـا
زاد فـي العُسـر مضـاءً حـدُّهُ هـو يقظـانُ وغـافٍ جَـدُّه[6]
كُـن حَبـابـاً مـن عطـاء ينفـرُ فـارغَ الكـأس ببحـرٍ يَـزخَـر[7]

* * *

(١) لا نور في سينائها يهدي إلى الحق . إشارة إلى قصة موسى .
(٢) لا تَسأل الماء ولو من عين الشمس .
(٣) السِّمة التي على وجه القمر سمة اجتدائه نور الشمس .
(٤) إشارة إلى الأثر : الكاسبُ حبيب الله .
(٥) لا يطلب من الخضر شربة ماء . وعند الخضر ماء الحياة كما في القصص .
(٦) همته يقظانة وإن كان جده نائماً .
(٧) يتخيل الشعراء حباب الماء كأساً فارغةً وهي في البحر . فضرب الشاعر الحباب مثلاً في العفة والإباء .

في بيان أنَّ الذَّات تستحكم بالمحبَّة والعشق فتسخِّر قوى العالم الظاهرة والباطنة

حينما الـذَّات بعشـقٍ تُحكـم[1] أمـرُهـا فـي الكـون طـرّاً يَحْكُـمُ

فـإذا مـا أومـأت شُـقَّ القمـر يَــدُهـا مــنْ قــوَّة الحـق أثـرْ

صـاغـرٌ فـي حكمهـا داراً وجـم[2] فـي خصـومات الـورى أقـوى حَكَمْ

اسمـه فـي الهنـد مشهـورٌ علـيّ[3] اسمعَـنْ منّـي حـديثـاً عـن ولـيّ

قصَّ أخباراً عن الورد الشميم[4]: ذلـك الصُّداح فـي المرج القـديم

قصـد الأسـواق فـي بغيتـه سـالـكٌ سكـران مـن خمـرتـه

معـه الحـرَّاسُ قـد حفَّت بـه وأتـى العـامـلُ فـي مـوكبـه

أيهـا الأحمـقُ أفسـح لـلأمير صـاحَ للتطـريـقِ جنـديٌّ نكيـر

غـارقـاً فـي اللـجِّ مـن أفكـاره ومضـى الـدَّرويـش فـي تسيـاره

ضـاربـاً رأس الفتـى فـي غفلتـه فـأتـى ربُّ العصـا فـي شـرَّتـه

وهـو فـي ذعـرٍ وحـزنٍ قـاتـل فتنحَّـى عـن طـريـق العـامـل

دمعُـه مـن محبـس العيـن طليـق ومضـى يشكـو إلـى شيـخ الطـريـق

---

(١) تحكم أي: تصير قوية محكمة.

(٢) دارا وجمشيد من ملوك الفرس القدماء.

(٣) الشيخ أبو علي قلندر من كبار صوفية الهند في القرنين السابع والثامن. والقصة التي يشير إليها الشاعر وقعت بين الشيخ والسلطان علاء الدين الخلجي. وخلاصتها أنَّ أحد مريدي الشيخ ذهب إلى السوق، وكان موكب العاهل قادماً، فنادى أحد الحرس الدرويش ليفسح الطريق فلم ينتبه فضربه على رأسه فذهب إلى شيخه شاكياً، فكتب الشيخ إلى السلطان: إما أن تعزل عاملك أو أنصبْ مكانك ملكاً آخر. فخاف السلطان وأرسل الشاعر الكبير أمير خسرو وكان ماهراً في الموسيقا فغنى بعض شعره على الرباب، فلما آنس من الشيخ قبولاً أبلغه رسالة السلطان يطلب عفو الشيخ فعفا عنه. ويريد إقبال بهذه القصة بيان قوة النفس النقية المستغنية.

(٤) هذا البيت يشير إلى مطلع قصيدة فارسية للشيخ أبي علي قلندر فيها ذكر البلبل والورد.

زمجرَ الشَّيخ بقولٍ من ضَرَم مثلَ برقٍ في ذُرى الطَّود اضطرم
ثم أملى الشَّيخ سطراً من لَهبْ قال للكاتب في نار الغضبْ :
أمسكِ المِزْبَرَ واكتبْ ذا النذير أبلغ السُّلطان عن هذا الفقير :
« عاملٌ عندك غرٌّ قد عصى وعلا رأس غلامي بالعصا
اعزلِ العاملَ ، هذا الفاجرا أو أهَبْ مُلكك مَلْكاً آخرا »
عبدُ حقَّ فيه لله احتساب أرعدَ السلطانَ منه ذا الكتاب
آدهُ غمٌّ وخوفٌ لا يحول فحكى في لونه شمسَ الأصيل
قيَّد العاملَ بالقيدِ الثَّقيل واستغاث الشيخَ للصَّفح الجميل
ورأى خُسرو له خَيْرَ سفير ذلكَ الكوكبَ وضَّاء الضَّمير[1]
ساحرَ الألباب في ألحانه مستمدَّ الغيب في تِبيانه
ولها خسرو بأوتار الرَّبابْ فأهاج الشيخَ وجْداً وأذاب
فطرةٌ كالطَّوْد في عزّتهِ خَشَعتْ لِلَّحْنِ في رقَّته
احذرنْ لا تجرحَنْ قلبَ فقيرْ لا تزُجَّ النَّفس في نار السَّعير

* * *

قصة في معنى أن مسألة نفي الذَّات من مخترعات الأمم المغلوبة لتضعف الأمم الغالبة بهذه الطريقة الخفية

قد سمعنا أنَّ في عصرٍ قديم جَمْعَ ضأنٍ كان في مَرعىً يُقيمْ
وفَرَتْ نسْلاً بذا المرعى الخصيب فارغاتِ البال من ليثٍ وذيبْ
ثمَّ ألْوَى بمُناهنَّ القدَر ورمَى بالسَّهم فيهنَّ الدَّهر
دهمتها الأسدُ من آجامها ناشراتِ الذُّعرِ في أيَّامها
آيةُ القوَّةِ حكمٌ قاهرُ سرُّها الظاهر فتحٌ ظافرُ

---

(١) أمير خسرو الدَّهلوي من كبار الشعراء في القرن الثامن الهجري .

ضربَ الليثُ طبول النوبة آخذاً آفاق هذي الثلة[١]

وكسا المَرعى بصبغٍ أحمرا ما سِوَى الفَرسِ لدى أسد الشَّرى

وانبرى كبش ذكيٌّ ذو عُمُر جرَّب الأحداث من حُلوٍ ومُرّ

غمَّه ما قد يعاني سِربُه من فِعال الأسْد يَدمَىٰ قلبُه

أمرَه أحكمَ في تدبيره وهو يشكو الدَّهر في تقديره

باحتيال العقل يحمي نفسه كلُّ رِخوٍ ليسَ يرجو بأسه

قوة التدبير في دفع الضرر في زمانِ الضَّعف أقوى وأمرّ

فإذا ما ثارَ للثأر الجنونْ صار عقلُ العبد خلّاق الفتون

قال : أمرٌ حار فيه العاقلُ بحرُ عمٌّ ليس فيه ساحِلُ[٢]

كيف للضأن فالُ الأسَدِ ساعدٌ رِخوٌ وفولاذُ يدِ[٣]

ليس وعظٌ منْ بليغٍ قادرا أن يردَّ الكبش ذئباً كاسرا

لكنِ الليثُ رآه حَمَلا إنْ سها عن نفسِه أو غفَلا

فادَّعى في القوم دَعوى مُلهم مرسَلٍ للأسد شُرَّابِ الدم[٤]

قال : كلُّ القوم « كذَّابٌ أشرْ » غافلٌ عن يوم نحسٍ مستمرْ[٥]

جئتُ للنَّاس بشرعٍ مُحكَم إنَّني النُّورُ لطَرْف مُظلِم

عجِّلوا التوبة عن كل قبيح واتركوا الحر إلى الفعل الربيح

ويح جَلْدٍ أُحكمت فيه قُواهْ « نفي ذاتٍ » هُو إحكام الحياه[٦]

---

(١) طبل النوبة كان يضرب في أوقات معينة على أبواب الملوك .

(٢) قال الكبش . . إلخ .

(٣) ساعد الضأن ويد الأسد .

(٤) فادَّعى في القوم . أي ادعى الكبش .

(٥) « كذاب أشر » و« نحس مستمر » اقتباس من القرآن . جاء في الأصل .

(٦) مذهب إقبال قائم على أن الخير في إثبات الذات والشر في نفيها .

علَفُ العُشْبِ به الروح تطيبْ ... عائفُ اللَّحم إلى الله قريبْ

حِدَّةُ الأسنان عارٌ مُبرَم ... بَصَرُ الإدراك منها يُظلم

إنما القوةُ خسرانٌ مبينْ ... خُصَّت الجنَّةُ بالمستضعفين

طلبُ السُّلطان شرٌّ مستطيرْ ... خيرٌ الفاقة من عزّ الأميرْ

تأمنِ الحبَّةُ برقاً مُحرِقا ... وترى البيدرَ منه محرَقا[1]

ذرةً كُنْ لا كثيباً أفيحا ... لتنال النُّور من شمسِ الضُّحى

قُلْ لمن يُزهَى بذبحِ الغنم ... اذبحِ النَّفس بحقٍّ تغنمِ

يقطع السُّبْل على هذي الحياه ... قوةٌ فيها وسلطانٌ وَجاه

يوطأ العشبُ فينمو صُعُدا ... يفتح الأعينَ من بعد الرَّدى[2]

أغفِلَنْ نفسكَ إمَّا تعقلِ ... إنَّما المجنونُ منْ لم يُغفِل

اسدُدنْ عيناً وأذناً وفما ... ليجوز الفكر أقطارَ السَّما[3]

هذه الدنيا فناءٌ في فناء ... إنَّها وهمٌ فما فيها رجاء

كانتِ الأسْدُ جهاداً مَلَّتِ ... نازعاتٍ نحو عيشِ الدَّعة

عن هوىً أصغتْ إلى النُّصح المُنيمْ ... فدهاها الكبش بالسِّحر العظيم

كان فَرس الضأن من سُنَّتها ... فاقتدت بالضأن في شِرْعتها

جوهرُ الآسادِ أضحى خزَفا ... حين صار القوتُ هذا العلَفا

ذهب العُشبُ بنابٍ ذي أشَر ... أطفأ الأعينَ ترمي بالشَّرَر

ذلكَ القلبُ عن الصَّدر نأى ... جوهر المرآة فيها صَدِئا

فذوى في القلب شوق العَملِ ... وهُيامُ السَّعي خَلْفَ الأمل

ذهب الإقدامُ والعزمُ الأليلْ ... والسَّنا والعزُّ والمجدُ الأثيلْ

---

(١) الحبة الواحدة لا تبالي بالبرق ولكن البرق يحرق البيدر الكبير .

(٢) يداس العشب فينمو . فالذلة فيها نفع .

(٣) لعل فيها إشارة إلى ما يفعله نساك الهند ، وإلى الصورة التي تمثل ثلاثة قرود واحدٌ يسد فمه ، والثاني أذنيه ، والثالث عينيه .

بُــرثــن الفــولاذِ فيهــا قــد وَهَــنْ	واستكــان القلــب فــي قبــرِ البــدن
ونمــا الخــوفُ بنقــص المنَّــة	قَطَــع الخــوفُ جــذور الهمَّــة
كــلُّ داء فــي سقــوط الهمــم	يجعــل الأحيــاء مثــل الـرِّمَـم
نــامــت الأســد بسحــر الغنــم	سمَّــتِ العجــزَ ارتقــاءَ الأمــم

* * *

في بيان أنَّ أفلاطون اليوناني الذي أثَّرتْ آراؤه في تصوُّف المسلمين وآدابهم كان على هذه الطريقة الغنميَّة ، وأن الاحتراز من آرائه واجبٌ

راهــبُ المــاضيــن أفــلاطُ الحكيــم	منْ فريق الضأن في الدَّهر القديم
طَــرفُــه فــي ظُلمــة المعقــول ضــلّ	فـي حـزون الكَوْن قـد أعيـا وكـلّ
فكــرُه فــي غيــر محســوسٍ فُتِــن	صــدَّ عــن كــفٍّ وعَيــن وأُذن[1]
قــال : فــي المــوت بــدا سرُّ الحيـاه	فــي خمــود الشَّمــع يــزدادُ سنــاهْ
حُكْمُــه فــي فكــرنــا جــدُّ عظيــمْ	يمحــق الــدُّنيــا لــه جــامٌ مُنيــم
هــو شــاةٌ فــي لبــاس الآدمــيّ	وهــو فــي الصــوفــيّ ذو بــأس قــويّ
عــالــمَ الأشيــاء سمَّــاه الهــراء	وعَلَــتْ أفكــارُهُ فــوق السَّمــاء
فعلُــه « تحليــلُ أجــزاءِ الحيــاه »	وجفــاف النَّبــع مــنْ مــاءِ الحيــاه
زعــم الخســرانَ ربحــاً فكــرُهُ	ودعــا الكــونَ فنــاءً سحــرُه
فكــرُهُ يُغفــي ورؤيــا يخلُــقُ	عينــه تُبصــر آلاً يَبــرُق[2]
حُــرمَ المسكيــنُ حــبَّ العمــلِ	فقفــا معــدومَــه لا يــأتلــي

---

(١) أعرض عن الحوَّاس .

(٢) يؤمن بعالم الأحلام لا عالم اليقظة ، ولا تبصر عينه الماء ، ولكن تبصر السراب . الآل : السَّراب .

منكـراً فـي الكـون مـا لا يُفقـد   خـالقـاً فـي الكـون مـا لا يُشهَـد
عـالـمَ الإمكـان للحـيِّ وطـن   عـالـم الأعيـان للميْـتِ حَسَـن[1]
ظَبيـهُ مـن خفـة لا يَجفـلُ   غيـرُ خطَّـارٍ لـديـه الحجَـلُ[2]
لـم يُـلألـىء عنـده قطـرُ النَّـدى   طيـرُه مـا فيـه صـوتٌ قـد شـدا
حبـةٌ فـي أرضـه تـأبـى النمـاءْ   وفـراشٌ عنـده يلقـى الضيـاء[3]
فـي وغـى العـالـم نكـسٌ مُحجـمُ   مُشفـقٌ راهبُنـا لا يُقـدم
قلبُـه يَعشـو لنـارٍ خـامـدةْ   صـوّرتْ عينـاه دنيـا هـاجـدةْ
طـار مـن عـشٌ إلـى الأوج العَلـيّ   ثم لم يرجع إلى العش الخليّ[4]
هُلـك أقـوام بهـذا الثَّمَـل   حُـرِمُـوا بـالنَّـوم ذوق العمـلِ

* * *

في حقيقة الشعر ، وانسلاخ الآداب الإسلامية

حـرقـةُ الإنسـانِ مـن كـور الأمـلْ   نارُ هذا الطِّين من نورِ الأمل[5]
إنَّـه الخمـرة فـي كـأسِ الحيـاةْ   وبـه وقـدةُ أنفـاسِ الحيـاه
الحيـاة الحـقُّ تسخيـرُ الـدُّنـى   وإلـى التسخيـر تَـدعـوهـا المُنَـى
هـي للمقصـودِ فـي الـدُّنيـا سبيـل   وهـي للعِشْـقِ مـن الحسـن رسـول

---

(١) الحي يعيش في عالم الإمكان ، عالم الحس ، والميت يعيش في عالم الخيال ، عالم الأعيان عند أفلاطون وهذا ردٌّ على أفلاطون .

(٢) خلق أفلاطون عالماً لا يثب ظبيه ولا يتبختر حجله . والحجل طير جميلة في مشيها تبختر .

(٣) الحبة في طبيعتها النمو والفراش في طبعه حب الضوء ولكن حبة أفلاطون تكره النمو ، وفراشه يكره الضوء .

(٤) رأى إقبال أن يخلق الفكر ليعود إلى عالم الحسّ ، لا ليبقى في عالم التفكير والتخيُّل .

(٥) الكور : مجمرة الحداد .

أملُ الإنسان أنَّى يظهر   كيف يشجو الحيَّ هذا المزهرُ؟

كلُّ خيرٍ وبهيجٍ وجميل   هو في بيدائنا نعم الدَّليلْ[1]

حُسنُه في القلب نورٌ يَسْطعُ   تجد الآمال منه تطلُع

خُلِقَ الحسنُ نضيرَ الأمل   وأدام الحسنُ نورَ الأمل

***

مطلعُ الحسنِ ضميرُ الشَّاعر   طُورُه صبحُ الجمالِ الباهر

زادتِ الحسنَ جمالًا نظرتُهْ   زادتِ الفطرةَ حبًّا صنعتُه

غرَّد البلبلُ منْ تلحينه   ضاءَ خدُّ الوَرْدِ من تلوينه

ناره كلَّ فَراش كاويةْ   قِصصُ العشَّاق منه زاهيةْ

مُضمَّرٌ في خَلفه بحرٌ وبرّ   ألْف كونٍ محدَثٍ فيه استتر

كم شقيقٍ في الحشا لم يطلُعِ   وغناهُ وبُكى لم يُسمَعِ[2]

فكره للبدر والنجم نجيّ   يُبدع الحسنَ ، وفي القبح عييّ

خَضِرٌ في ليله ماءُ الحياةْ   تُزهرُ الأكوانُ منْ ماءِ بُكاه[3]

نحن أغرارٌ بطاءُ الأرجُل   ضلَّ سارينا طريقَ المنزل

لطُفتْ في سَيرنا حيلتُه   وَعَلتْ في ركبنا نغمتُه

يحفز الرَّكب لفردوسِ الحياه   ويُتمُّ الدَّور في قوس الحياه[4]

فمضى الركبانُ إثر الجرَس   وشدا الحادي بصوتٍ مؤنِس

وسرَت في زَهرنا نفحتُه   مذ سرت في روضنا نسمتُهُ

نفسٌ منه حياةٌ تُزهرُ   حُرَّةٌ لوَّامةٌ لا تصبرُ

---

(١) يقول : إنَّ الأمل وسيلةُ العمل ، والأمل يخلقه الميل إلى الخير والجمال .

(٢) ضمير الشاعر فيه شقائق لا يراها الناس ، وفيه بكاء وغناء لا يسمعونه .

(٣) إشارة إلى قصة الخضر واهتدائه إلى ماء الحياة في أرض الظلمات .

(٤) يكمل دائرة الحياة .

يـأدِبُ النـاس جميعـاً للقِـرى نـارُه كـالـرِّيح تسـري في الـورى

* * *

ويـلٌ قـومٍ لهـلاكٍ طـائـرُه صـدَّ عـن ورد حيـاةٍ شـاعـرُهْ

كـلُّ حُسْـنٍ شـاهَ فـي مـرآتـه فـي الجسـوم السُّمُّ من جَرعـاتـه

تُـذبـلُ الأزهـارَ منـه القُبَـل ويُعـاف الشَّـدوَ منهـا البلبـلُ

تهِـن الأعصـابُ مـنْ أفيـونـه ويمـوتُ الحـيُّ مـن تلحينـه

يسلـب السَّـروَ جميـلَ المَيَـل ويـردُّ الصقـر مثـلَ الحَجـل[1]

هـو حُـوتٌ نصفـه كـالآدمـيِّ كبنـات البحـر تقتـاد الغـويّ[2]

يُسحـر الـربَّـان منهـا بـاللحـون ولقـاع البحـر تهـوي بـالسَّفيـن

يسلـب القلـب ثبـاتـاً لحنُـه ويُـري المـوت حيـاةً فنُّـه

يُلبـس النَّفـع لبـاسَ الضَّـرر ويُـري الحسـنَ قبيـحَ الصُّـور

فـي بحـار الفكـر يُلقيـك فـلا تشتهيـه أو تطيـقُ العمـلا[3]

شِعـره فينـا يـزيـد الكلـلا كـأسُـه فينـا تـزيـد المَلـلا

سَيـلَ بـرقٍ مـا حَـوىٰ نيسـانُـه آل لَـونٍ وشـذًا بستـانُـه[4]

فنُّـه بـالحـقِّ لا يعتـرف بحـرُه مـا فيـه إلا الصَّـدَفُ

نـوَّمـتْ ألحـانُـه يقظَتنـا أطفـأت أنفـاسُـه شعلتنـا

بلبـلٌ سُـمٌّ قلـوبٍ نغَمُـه ضِغْـثُ وردٍ فيـه ينـوي أرقمـه

خمـره اللألاءَ اتـرك واحـذرِ كـأسَـه والطـاسَ والـدَّنَّ اهجـرِ

---

(١) السَّرو : شجر طويل يصفه الشعراء بالرشاقة والتمايل .

(٢) بنات البحر : حيتان خرافية نصفها الأعلى كالإنسان ، تغوي الملاحين بأنغامها حتى تغرق السفن .

(٣) أي لا تشتهي العمل ، ولا تطيقه .

(٤) نيسان من شهور الربيع يكثر فيه المطر . وهذا الشاعر الذي يصفه إقبال ليس في نيسانه سيل من البرق ، أي ليس في سحابه برق ولا مطر . وقد شبه إقبال وميض البرق بالسيل . والآل : السراب ؛ أي : بستانه سرابٌ من اللون والرائحة .

يا صريعاً خمرَهُ يَغْتَبقُ ... لكَ صبحٌ منْ سناها مشْرِقُ

يا بَرودَ القلب من ألحانه ... قد شربت السُّمَّ من تبيانه

يا دليلاً للرَّدى أفكارُهُ ... عُطِّلَتْ منْ نغمٍ أوتارُه

أنت للذُّلِّ أرحتَ البدنا ... أنت للإسلام عارٌ في الدُّنَى

منْ نسيمٍ مَرَّ يَدمَى خَدُّكا ... بعروق الورد يُلوى قدُّكا

أخزتِ العِشقَ دُجَى صيحاتُكا ... غضَّ من صورته بهزادُكا[1]

شاحبَ الوجه بدا مِنْ ضُرِّكا ... بردتْ نيرانُه مِنْ قُرِّكا

عاجزُ الهمَّة مِنْ ذِلَّتكا ... وعليلُ الرُّوح من عِلَّتكا

أدمعُ الأطفال في كاساته ... كنزه ما اعتَدَّ من آهاته

آه مِنْ وغدٍ ذليلٍ بائس ... هالكٍ من رَكَلات الحارس[2]

صار كالناي هزيلاً نائحا ... شاكيَ الأقدار جهلاً صائحا

ليس إلا الحقدُ في جوهرِهِ ... ليس إلا العجزُ في مخبره

بائسٌ فَسل حليف الخيبة ... شِقْوَةٌ في خِسَّةٍ في ذلَّة[3]

نَوحُه روحُك منه في سَقامْ ... قد حمَى جيرانَه طيبَ المنامْ

ويحَ عشقٍ قد ذكا في الحرَمِ ... نارُه باخت ببيت الصَّنمِ !

***

صيرفيَّ القول ! إن تبغ النَّجاهْ ... فاجعلنْ معيارَه نارَ الحياه

نيِّرُ الفِكْرِ يقود العملا ... مثلَ برقٍ قادَ رعداً جلجلا

---

(١) بهزاد : مصور إيراني ماهر . يقول إقبال : إنَّ هذا الشاعر شوَّه صورة العشق . وفي الأبيات التالية يبين ما أصاب العشق من الذلة والخور على لسان شاعر السوء .

(٢) يستجدي أو يحاول السَّرقة فيركله الحارس .

(٣) هذه الأوصاف تعرب عن غيظ إقبال من الشعراء الذين أذلوا الآداب الإسلامية .

مـنْ بفكـرٍ صـالـحٍ فـي الأدب ؟ … ارجعَـنْ يـا صاحِ شطـر العـرب[1]

وسُلَيْمـى العُـرب يـا صاحِ اعشقـا … لتـرى صبـحَ الحجـازِ ائتلقـا

فـي رياض العجـم قطَّفـتَ الـزهَـرْ … فـي ربيـع الهنـد سـرَّحـت البصـر

من خَرور البيـدِ فـاشـربْ يا رفيـقْ … واشـربـنْ من تمرها الـراحَ العتيـقْ

أسْلِمَـنْ رأسـكَ يـومـاً صـدرَهـا … وألْقِيَـنْ فـي حـرِّهـا صـرصَـرهـا

قـد لبسـت الخـزَّ طـول الـزمـنِ … فـألـفِ الكِـرْبـاس يـومـاً واخشُـنِ

كم وطئتَ الورد في طول المدى … غـاسـلاً ، كـالـورد ، خـدّاً بـالنَّدى

فعلـى رمـلِ الصَّحـارى المُضـرَمِ … أقـدِمَـنْ يـومـاً وغُـصْ فـي زَمـزمِ

فيـم هـذا النـوحُ مثـلَ البلبـل ؟ … وإلام العُـــشُّ بيـــن الظُّلـــلِ ؟

قـد عـلا جـدُّ الهُمـا مـن صيـدكـا … اجعلـن في الطـود مثوى عُشّكـا[2]

ابـن عُشّـاً حيث لا تَـرْقـى الأنـوقْ … تختفـي فيـه رعـودٌ وبـروقْ[3]

لتُـرى أهـلاً لأعصـار الحيـاةْ … وتُـذيـبَ النَّفـسَ فـي نـار الحيـاةْ

* * *

(١) إقبال معجب بالعرب الذين حملوا رسالة الإسلام إلى أقطار الأرض لا يصدُّهم شيء ، ويكبر الهمة والقوة والصبر فيهم ، ويمدح الأدب العربي القوي .

(٢) الهما : طائر خرافي إن سقط ظله على إنسان صار ملكاً ، والشاعر هنا يخاطب المسلم قائلاً إن الهما الذي يمنح الناس الحظ قد علا حظه بأنك صدته فأنت أعلى منه . فارفع عشك فوق الجبل .

(٣) الأنوق : العقاب .

في بيان أنَّ للتربية الذَّاتية ثلاث مراحل :
الأولى : الطَّاعة ، والثانية : ضبط النفس ، والثالثة : النيابة الإلهية

المرحلة الأولى
الطَّاعة

أَلِفَــة الكــدُّ شعــارُ الجمــلِ شيمــةُ الصَّبــر وَقــارُ الجمــلِ
صامــتَ الأخفافِ يمشي ماضيا زَورقاً فـي البيـدِ يَسري هاديا
نقشــت وجــهَ الصحــارى أرجُلُــهْ شــاردَ النَّــوم قليــلاً أكْلُــهْ
ثمِــلاً يختــالُ تحــتَ المحمَــل راقصــاً يُقــدمُ شطــر المنــزلِ
فــي المَــدى مــن راكبيــه أصبــرُ هــائــمٌ بــالسيــر عُجبــاً يَخطِــر

***

فــاحمــلِ الفَــرضَ قــويــاً لا تهــابْ وارجونْ من عنده حُسْنُ المآب[1]
اجهــدَنْ فــي طــاعــةٍ يــا ذا الخســارْ فَمِــنَ الجبــر سيبــدو الاختيــار[2]
بــامتثــال الأمــر يعلــو مــنْ رســبْ وهَــوى الطَّــاغــي ولــو كــانَ اللَّهــب
سخَّــــر الأفـــلاكَ فــــي همَّتـــهِ مــن ثــوى فــي القَيــد مــن شــرْعتِــه
قــد ســرى النَّجــمُ يــؤمُّ المنــزلا طــوعَ قــانــون لــه قــد ذُلِّــلا
ونمــا العشــب بقــانــون النَّمــاءْ فــإذا مــا حــاد يُجفَــى بــالعــراءْ
ولهيـــبٌ دائـــمٌ ديـــنُ الشَّقيـــقْ دمُه منْ ذاك يسري في العروق[3]
يــربــط الــذَّراتِ قــانــونُ الــوصــالْ فهــي بحــرٌ وهــي بــرٌّ بــاتصــال

---

(١) اقتباس من القرآن . وهو في الأصل .

(٢) إذا وفق الإنسان بين نفسه وبين القانون أطاع القانون مختاراً لا مجبراً .

(٣) الشقيق : شقائق النعمان . وهي في الشعر مثال الوجد والاحتراق .

كلُّ شيءٍ فيه قانونٌ سرى ... كيف في هذي المعاني يُمترى ؟[1]

ارجعنْ يا حُرُّ دُستورٍ قديمْ ... زَيِّننْ رِجْلَكَ بالقيدِ الوسيمْ

شدَّةً في شرعنا لا تشكُوَنْ ... وحدودَ المصطفى لا تعدُوَنْ[2]

***

المرحلة الثانية
ضبطُ النَّفس

جَملٌ نفسُك تربو بالعلَف ... في إباءٍ وعنادٍ وصلَفْ

فكُنِ الحرَّ وقُدْها بزمامْ ... تبلُغنْ من ضبطها أعلى مَقامْ

كلُّ من في نفسه لا يحكمُ ... هو في حُكم سواه مُرغَمُ

إنَّما صوِّرتَ من طينٍ لَزِبْ ... سيط في أمشاجه خوفٌ وحبّ :

خيفةُ الدُّنيا وخوفُ الآخره ... خوفُ مَوتٍ ورزايا فاقره

حبُّ جاهٍ وثراءٍ وبلدْ ... حُبُّ زوجٍ وقريبٍ وولدْ

من مزاجِ الطِّينِ والماءِ البدن ... مَركبُ الأهواءِ ، مَغلوبُ الفِتَن

مَنْ يَمسِّك بعصاً من « لا إله » ... فلتحطِّم طِلْسم الخوف يداه[3]

كلُّ من بالحقِّ أحيا نَفْسَهُ ... لا ترى الباطلَ يُحني رأسَهُ

ليسَ يدنو الخوفُ منه أبدا ... ليس ، غيرَ الله ، يخشى أحدا

---

(١) في الأبيات السابقة ضرب الشاعر أمثالاً مختلفة لسير الأحياء والأشياء على قوانين .

(٢) ينصح المسلم بالتزام الشرع واحتمال شدته . فهذا قانون لا يسعد الإنسان بدونه . ويقول للمسلم كنت حراً باتباع دستورك القديم فارجع وقيد رجلك بهذا القيد الجميل ، ففي هذا القيد حريتك لا عبوديتك .

(٣) لا إله : اختصار لا إله إلا الله . وهكذا يستعملها الشاعر في كثيرٍ من شعره . قوله : إنما السبيل إلى إبطال طلسم الخوف أن تمسك عصا من التوحيد كعصا موسى تبطل السحر .

كــلُّ مــنْ مــوطنُــه إقليــم « لا » من قيودِ الزَّوج والولد خلا[1]
مُعــرضٌ عمــا ســوى الله الأحــدْ يضعُ السكِّين في حلق الولَدْ[2]
واحــدٌ مــن نفســه فــي عسكــرٍ يبــذلُ الــرُّوحَ بيــومِ الخطَــرِ

* * *

درَّةُ التوحيد ، فاحفظها الصلاة حَجُّك الأصغر ، فاعرفها الصلاة
فــي يــد المسلــم هــذا الخنجــرُ يُقْتَــل الفحــشُ بــه والمنكــرُ
يفتــك الصــومُ بجــوعٍ وصــدَى ضابطاً بالقسط هذا الجسدا
وينيــرُ الحــجُّ قلــبَ المــؤمــنِ هجــرةُ الأهــل بــه والــوطــنِ
إنَّمــا الطــاعــة أسُّ الأمــة إنهــا خيــطُ كتــاب الملَّــة[3]
بــالــزكــاة العــابــدُ المــالِ ادَّكــرْ علِّمــت حــبَّ المســاواة البشــرْ
تُكثــرُ المــالَ ، وشُحّــاً تمحــقُ « لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا »
تلــك أسبــابٌ بهــا تَستحكِــمُ إنْ يكــنْ فــي القلــب ديــنٌ مُحكم
اقــوَ يــا مــؤمــنُ بــالله القــويّ تحكُمَــن فــي ذلــك البَكــر الأبــيّ[4]

* * *

المرحلة الثالثة

النيابة الإلهية

إنْ خَطمتَ الصَّعبَ قُدْتَ العالما نــافــذَ الأمــرِ عليــه حَكَمــا[5]

---

(١) لا إشارة إلى نفي ما سوى الله .

(٢) يضع السكين في حلق ولده كإبراهيم الخليل .

(٣) خيط الكتاب ما تضم به صفحاته بعضها إلى بعض .

(٤) البكر : الجمل الفتي ، ويراد به الجسد مسايرة للتشبيه الذي بدأ به الفصل .

(٥) لا يزال الشاعر في تشبيه الجسد بالجمل . فالصعب هنا الجمل غير الذلول .

مشرقاً في الأرضِ ما دارَ الفلك ... فترى المُلك الذي يخلُد لك
نائبُ الحقِّ على الأرض سعيدْ ... حكمُه في الكون خُلْدٌ لا يبيدْ
هو بالجزءِ وبالكلِّ خبير ... وبأمر الله في الأرض أميرْ
في فسيح الأرض يمضي طاويا ... وعزمُه ، هذا البساط البالِيا[1]
ينجلي منْ فكره مثلَ الزَّهر ... غيرَ هذا الكون أكوانٌ أخر[2]
يُنضج الفكرة فينا بالضَّرَمْ ... يُخرج الأصنام من بيت الحرمْ
رنَّ عودُ القَلْبِ من مضرابه ... يَقظٌ في الحق نومانُ به[3]
باعثٌ في الشَّيب ألحان الشبابْ ... ناشرٌ في الكون ألوان الشَّباب
هو في الناس بشيرٌ ونذيرْ ... وهو جُنديٌّ وراعٍ وأميرْ
مقصدٌ من « علَّم الأسما » هُوَه ... سرُّ « سبحان الذي أسرى » هُوَه[4]
مُحضرٌ منْ تحته طِرفُ الزَّمانْ ... حينما يُمسِكُ منه بالعنان[5]
يبعث الأرواحَ منه قولُ « قُمْ » ... وهي إلى أبدانِها مثلُ الرِّمم[6]
ذاتَه تتبَعُ ذاتُ العالَم ... سطوةٌ فيه نجاة العالَم
يبعث الميتَ بإعجازِ العملْ ... قِيَمُ الأعمالِ منه في بدَل[7]
سيرُه يخضرُّ في بيدائه ... كم كليمٍ هام في سينائه !
جدَّدَ الدُّنيا بتفسيرٍ جديدْ ... عبَّر الرؤيا بتعبيرٍ جديد
كونُه المكنونُ أسرارُ الحياةْ ... نغمةٌ يُضمرُ مزمارُ الحياةْ

---

(١) البساط البالي : الأباطيل الموروثة .

(٢) يخلق من فكره أكواناً أخرى ، لا يقيده ما هو واقع .

(٣) المضراب : أداة تضرب بها أوتار العود .

(٤) الهاء في هوه للوقف . والبيت مردوف والقافية في « الأسما » و« أسرى » .

(٥) يعدو تحته حصان الزمان ، أي يسير الزمان سريعاً إلى مقصده .

(٦) إن قال قم انبعثت الأرواح من قبور الأبدان .

(٧) يبدل قيم الأعمال بما يضع من معايير جديدة .

شـــاعـــرُ الفِطـــرةِ غنَّـــى طبعَـــه ليقيـــم الـــوزنَ إذْ أبـــدَعـــه

نقعنـــا ثـــار إلـــى أوجِ السَّمـــاء فبـــدا الفـــارسُ مـــن هـــذا الهبـــاء[1]

* * *

فـــي رمـــاد اليـــوم منَّـــا تـــرقُـــدُ شُعلـــةٌ يـــرمـــي بهـــا الكـــونَ الغـــدُ

روضـــةٌ تُضمـــرهـــا أكمـــامُنـــا ضـــاءَ مـــن صبـــح غـــدٍ أبصـــارُنـــا[2]

أنـــتِ يـــا فـــارسَ طِـــرف الـــزَّمـــنِ ! أنـــت يـــا نـــوراً لعيـــن الممكـــنِ

مـــوكـــبَ الإنشـــاء هيَّـــا زيِّـــنِ وتمكـــنْ فـــي ســـواد الأعْيُـــن

قُـــمْ فسكِّـــن مـــن ضَجيـــج الأمـــمِ وامـــلأ الآذان زهـــرَ النَّغَـــم

جـــدِّدَنْ فـــي النـــاس قـــانـــون الإخـــاء وأدِرهـــا كـــأسَ حـــبٍّ وصفـــاءْ

أبلـــغ النـــاس رســـالاتِ السَّـــلامْ وأعـــدْ فـــي الأرض أيـــام الـــوئـــام

مـــنْ بنـــي الإنســـان أنـــت الأمـــلُ أنـــت مـــنْ ركـــب الحيـــاة المنـــزلُ

أذبلَـــتْ كـــفُّ الخـــريـــف الشجـــرا فـــاغـــدُ فـــي الـــروض ربيعـــاً نضِـــرا

نحـــن مـــن فيضـــك نسمـــو للقُلَـــلْ في جهاد الكون نمضي كالشُّعل[3]

* * * [4]

---

(١) يكثر في الفارسية ذكر الفارس والغبار . يقال مثلاً : رب فارس في هذا الغبار . والشاعر يقول هنا : قد أصابنا ما أصابنا ومرت بالناس محن فارتفع غبارهم فظهر هذا الفارس من هذا الغبار يعني أن هذا الإنسان الكامل لا يناله الناس إلا بعد حوادث شديدة .

(٢) الأكمام جمع كم الزهرة قبل أن تنفتح ، يقول : إنَّ الكم عندنا سينفتح عن روضة ، وعيوننا تضيء بنور المستقبل .

(٣) الأبيات السبعة الأخيرة خطاب للإنسان الكامل أو النائب الإلهي .

(٤) هنا عنوان فصل حذفته وحذفت معه اثنين وعشرين بيتاً لم أجد في ترجمتها فائدة . والكلام بعدها متصل بما قبلها .

يا أخا الوردة كن صنوَ الحجرْ ... وكن السورَ لبستان الزَّهر[١]

آدميّاً صوِّرن من تُربكا ... ثم شيِّد عالَماً بدعاً لكا

أنت إن كنت تراباً هيِّنا ... فليضع غيرُك منك اللبنا

أيها الصَّارخ من جَور الدَّهر ... يا زُجاجاً يشتكي جورَ الحجرْ

فيمَ هذا النوح ؟ ماذا المأتمُ ؟ ... وإلام الصَّدرَ حُزناً تَلدِم ؟

مضمرٌ في السعي مضمونُ الحياةْ ... لذَّة التخليق قانون الحياةْ

قُمْ فشيِّد عالماً دون مثيل ... وخُضِ النار وأقدِمْ كالخليل

إنما السَّيرُ على حُكم الزَّمانْ ... هو رَمْيُ التُّرس في وقت الطِّعانْ

إنَّما الحرُّ الشجاع الفطِنُ ... من قفا الآثارَ منه الزَّمنُ

وإذا الدُّنيا عَتتْ عن أمره ... حاربَ الدَّهر، ولم يعبأ به

يهدم الموجودَ فيما آثرَا ... يمنح الذرَّاتِ شكلاً آخرَا[٢]

يصرفُ الأيامَ عن كرَّاتها ... يمنع الأفلاك من دوراتها[٣]

خالقاً من قوةٍ في قلبه ... ذلك العصرَ الذي يرضى به

فإذا أعوز عيشُ الرَّجُلِ ... فالحياةُ الموتُ موتَ البطل

حبذا عشقٌ بغَى الأمر الجليلْ ... وجنى في النَّار ورداً كالخليل

تتجلَّى في مِراس المُعْضلِ ... قوة كامنةٌ في البطل

عُدّة الأنذال حقدٌ لا سواه ... استمع : صاح، ذا شرع الحياه :

الحياةُ الحقُّ بأسٌ يظهرُ ... حُب الاستيلاء فيه مضمرُ

ربَّ عفوٍ كان من آفاتها ... يكسرُ الموزونَ من أبياتِها

يحسَب العجزَ قُنوعاً خانعُ ... لصروف الدهر ذلٌ طائعُ

---

(١) لا تكن وردة وكن كالحجر صلابةً، وكن سوراً يحمي الأزهار.

(٢) يغير نظام الموجودات إن لم تلائمه. يعني يسخّر عالم الطبيعة في مراده.

(٣) يغير ما يزعمه الناس من تأثير الفلك وحكم الأيام.

قاطعٌ سُبلَ الحياة الخَورُ ... قَلْبُه خَوفاً وكِذباً يُضمرُ

قَلْبُهُ من كلِّ خيرٍ فارغُ ... ليثه في كلِّ خبثٍ والغُ

في كمينٍ راصدٌ هذا اللئيمْ ... فاحذرنْ يا صاحبَ العقل السليمْ

احذرنْ يا صاحِ منْ تزيينه ... إنَّه الحِرباء في تلوينه[1]

إنَّه يخفى على أهل النظر ... لَبَّسَ الحقَّ عليهم واستتر

في ثياب اللين حيناً يظهرُ ... وهو حيناً في اتضاعٍ يُستَر

وهو طَوراً في ثيابِ المُجبَرِ ... وهو طوراً في حجابِ القَدَر

وهو حيناً في لباس التَّرف ... يُلبسُ الصِّحةَ ثوبَ الدَّنَف

ما سوى القوةِ للصِّدق دَعَمْ ... اعرفنْ نفسك ، هذا جامُ جم[2]

هي من حقل الحياة الحاصل ... فُسِّر الحقُّ بها والباطلُ

مدَّعاه في غنىً عن حجة ... إنْ تحدَّى المدَّعي بالقوة

تجعل الباطل حقّاً ماثلاً ... وَهَنُ الحقِّ يُحقُّ الباطلا

سطوة القوَّة تُحلي ما أمرّ ... إنْ تقل للخير شرٌّ فهو شرّ[3]

أيُّها الغافلُ عمَّا حُمِّلا ... أنت في الكونين أعلى منزلا

افتحنْ عيناً وأُذناً وفما ... تُبصرِ الحقَّ طريقاً مُعلَما

* * *

(١) الضمير في هذا البيت والأبيات التالية يعود إلى الخور . وفيها يبين إقبال تعذير الضعفاء والتماس أسماء مختلفة لضعفهم .

(٢) جام جمشيد وهي كأس خرافية كانت ترى فيها الأقاليم السبعة .

(٣) ينبغي أن يذكر القارىء أنَّ إقبالاً يعني قوة الروح والخلق أيضاً .

قصة فتًى من مرو جاء إلى السيد المعظم علي الهجويري[1] شاكياً بغي أعدائه

مُجتبى هُجويرَ مقصودُ الأمَمْ — من رأى الجِشتيّ مثواه الحرم[2]
قطع الأطوادَ واجتازَ السُّدود — باذراً في أرضنا بذر السُّجود
زمن الفاروق منهُ يُشرقُ — وبه للحقّ يعلو منطقُ
حارسُ العزّة من أمّ الكتاب — معقلُ الباطل منه في تَباب
حيّت البنجابُ من أنفاسه — صُبْحُنا نوَّر من نبراسه
ذا رسولُ العشقِ ، وهو العاشق — فيهِ سرُّ العِشْق بادٍ بارقُ

* * *

قصةٌ أسْرِدُها في أسْطرِ — طاوياً في الكِمّ روضَ الزَّهَر :
قد أتى لاهورَ منْ مروَ فتى — قدُّه كالسَّروِ عالٍ قد عتا
جاء عند السَّيد العالي الجنابْ — كاشفاً منْ نوره عنه الضَّبابْ
قال : إني في عُداةٍ لزِمُوا — كزجاجٍ بصخورٍ يُصدَم
علِّمني أيُّها الشيخ الكبيرْ — كيف عيشي بين أعداءٍ كثير
فأجاب الشيخ ، من فيه الجمال — قد تجلّى في إطارٍ من جلال :

---

(١) الشيخ علي الهجويري مؤلف كتاب « كشف المحجوب لأرباب القلوب » في التصوف . كان من كبار الصوفية الذين وفدوا على البنجاب ، ووعظوا فيها ، ونشروا الدعوة الإسلامية . توفي سنة ٤٦٥هـ ومزاره في لاهور ، يقصده الناس من كل صوب ، ونسبته إلى هجوير إحدى قرى غزنة .

(٢) الشيخ معين الدِّين الجشتيّ أحد عظماء الصوفية ودعاة الإسلام في الهند . أسلم بدعوته كثيرٌ من الهنادك ، أقام في أجمير وتوفي بها سنة ٦٣٢هـ ، ومزاره أعظم المزارات الإسلامية في الهند ، ويشير إقبال في هذا البيت إلى زيارة الجشتيّ قبر الهجويري في لاهور واعتكافه عنده زمناً .

أيها الغافلُ عن سرِّ الحياة ... لا يَميزُ الخيرَ من شرِّ الحياة

حرِّرَنْ نفسَك من يأسٍ وغمّ ... أنت بأسٌ نائمٌ ، قُمْ لا تنمْ

إن رأى النَّفس زجاجاً حجرُ ... فهو في الحقِّ ، زجاجٌ يُكسر

وإذا خارت قواه السائرُ ... قطع السُّبْلَ عليه الفاجرُ

كم ترى نفسك طيناً قد حُقِر ... شعلةَ الطُّور من الطِّين أثِرْ

فيمَ شكواك الرفيقَ النافعا ... فيمَ شكواك العدوَّ الخادعا

كم عدوٌ لك ، في الحق صديقْ ... أنت بالأعداء ذو غُصنٍ وريق

قوة الأعداءِ فضلاً يَعلمُ ... من مَقامَ « الذَّات » حقّاً يَفهم

يوقظُ الخَصْمُ قِواك الهاجدة ... مثلَ ما تحيي المواتَ الراعدة[1]

قوةُ العزم تذيب الحجرا ... لا يبالي السيلُ صخراً إنْ جرى

تشحذُ العزمَ عِقابُ السُّبُل ... امتحانُ العزم بُعدُ المنزلِ[2]

ما حياةٌ دونَ عزمٍ مُحْكَمٍ ؟ ... ما غَناءُ العيش مثلَ النَّعَم ؟

زلزِلِ العالمَ وافعل ما ترى ... إن حَبَتْك الذَّاتُ عزماً مُسْعَرا

اهجرنَّ الذَّات إن تبغ الفناء ... واعمُرنَّ الذات إن شئت البقاء

ما الرَّدى ؟ أن يدركَ الذاتَ الوَسَنْ ... أتراه بُعدَ روحٍ وبدن ؟[3]

يا أخا يوسف في الذَّات أقمْ ... ومنَ السِّجن إلى المُلك استقِم[4]

أحكمنَّ الذات وانهض عاملا ... ناصراً للحقِّ ، سرّاً حاملا

هاكَ سرّاً في حديثٍ مؤنسٍ ... افتح الكِمَّ بحَرِّ النفَس[5]

« حبذا سرّ حبيب يُضْمَرُ ... في حديثٍ عن سواه يؤثر[6] »

---

(١) السحابة الراعدة : الممطرة .

(٢) العقاب : جمع عقبة .

(٣) الردى : أن تغفل الذات لا أن يفارق الروحُ البدن .

(٤) كن مثل يوسف أقام في نفسه فأحكمها ، فمضى من السجن إلى الوزارة .

(٥) أبدي السر في قصة قصيرة ككم الزهرة .

(٦) هذا البيت من شعر جلال الدين الرُّومي .

قصة الطائر الذي أجهده العطش

طـائـرٌ مِـنْ ظمـإٍ قـد جهـدا ... كـدخـانٍ نفَسـاً قـد صعَـدا
قَـدْ رَأى الماسـةَ مثـلَ النَّـدى ... صـاغهـا مـاءً لعينيـه الصَّـدى
خَـدَعتـه شـذرةٌ مثـلُ الشَّـرر ... فـرأى الجاهـل مـاءً فـي الصَّخَـر
لـم يجـدْ ريّـاً بضَـرْبِ المِنقَـر ... لـم يُصـب مـاءً بنقـر الجـوهـر
قـالـتِ الشَّـذرة : جُنِّبـتَ الهُـدى ... تضرب المنقار في جسمي سُدى
لسـتُ مـاءً . لا تـرانـي سـاقيـه ... مـا أنـا مـن أجـل غيـري بـاقيـه
جـاهـلٌ يقصـد هضمـي مـا اهتـدى ... لحيـاةٍ نـورُهـا منهـا بـدا
كـلُّ منقـارٍ بمـائـي ينكسـر ... وتـرى الإنسـان منـه ينبهـر
مـا رأى الطـائـرُ فيهـا أربـا ... فتـولَّـى عـن سنـاهـا لغَبـا
حسـرةٌ فـي صـدره تتَّقـدُ ... زفـراتِ لحنُـه يصَّعَّـد

* * *

وأضـاءت مثـلَ دَمْـعِ البلبـلِ ... قطـرةٌ فـي غُصْـنِ وردٍ خَضِـل
لضيـاء الشمـس فيهـا مِنَّـةٌ ... ولخـوف الشمـس فيهـا رعـدة[1]
كـوكـبٌ يـرعَـد مِـنْ نَسْـلِ السَّمـاء ... شـاقـه الجلـوة فـي هـذا الفضـاء[2]
غـرَّه الأكمـام والـزَّهـر الخصيـبْ ... لـم يـزوَّد مـن حيـاةٍ بنصيـب[3]
قطـرةٌ مـنْ دَمْـعِ صـبٍّ تبهَـر ... زانـتِ الهُـدْبَ وكـادت تقطِـر

---

(١) هي مضيئة بنور الشمس ، وهي في خوفٍ أن تجفَّ في أشعة الشمس .
(٢) قطرة الندى كأنها كوكب من السماء تجلى على الأرض ، والندى في شعر إقبال يرمز أحياناً للأمور العلوية .
(٣) الأكمام : أكمام الزهر ، وهذه القطرة سريعة الزوال ، لم تأخذ نصيباً من الحياة الذاتية .

فمضــى الطــائــر فيهــا راغبــا		بــلَ بــالقطــرة خَلقــاً لاهبــا
أيُّهــا البــاغــي عــدوّاً تقهــرُ !		قطـرةٌ أنت ، تُـرى ، أم جـوهـر ؟
حينمــا الطــائــر أضنــاه صــداه		حــيَّ نفســاً بحيــاةٍ مــنْ سِــواه
كــانــت الشَّــذرةُ عضبــاً يُـرهَـب		لــم تكــنْ قطــرةَ طــلٍّ يُشْــربُ
قــوةَ الــذَّات احفظنهــا أبــدا		وكــنِ الأَلمــاس لا قطــر النــدى
أنضــج القطــرة كــالطَّــود تُــرى		حــامــلاً غيمــاً مُفيضــاً أنهــرا
أثبــتِ الــذَّات وفيهــا حَقِّــق		فِضــةً كــن بــالتئــام الــزِّئبــق[1]
ومــنَ الــذَّات أَبِــنْ أســرارهــا		حــرِّكَــنْ عــن لحنهــا أوتــارهــا

* * *

قصة الألماس والفحم

قصــةٌ أخــرى بهــا أُدلــي إليــك		يفتــح الحــقُّ بهــا بــابــاً عليــك :
قــال لــلألمــاس فحــمُ المعــدِن :		يــا حليــفَ النُّــور طــول الــزَّمــن !
نحــنُ صنــوان نَمــانــا والــدُ		أصلُنــا فــي الكــون أصــلٌ واحــدُ
وعلــى التيجــان أنــت الــزينــةُ		وأنــا فــي التُّــرب حظِّــي الــذلَّــة
لــك حســنٌ فــي المــرايــا يسطــعُ		وأنــا مِــنْ كــفٌ تــرب أضيَــع
مــن ظــلامــي قــد أضــاء المجمــرُ		ورمــاداً آض فــيَّ الجــوهــر
مَــوطــئ الأقــدام بيــن البشَــرِ		قــد رمــوا فــي مهجتــي بــالشَّــرَر
إنَّ حــالــي بيكــاء لَحَــرى		هل ترى أصلي وفصلي هل ترى ؟
إنَّنــي مــوج دُخــانٍ يُعقَــد		كــلُّ مــا فــيَّ شــرارٌ يَصعــدُ
ومــن الأنجــم فيــكَ الــرَّونــقُ		كــلُّ جنــبٍ فيــك نــورٌ يُشــرق

---

(١) كن في صلابة الفضَّة باجتماع الذرات المضطربة كالزئبق .

تـــارةً نـــورٌ بعينَـــيْ قيصـــرا تـــارةً فـــصٌّ يـــزيـــن الخِنجـــرا

* * *

قـال : فـاسمـع يـا رفيقـي وافهـم ا ينضـج التـربُ فيغـدو خـاتَمـا
شـنَّ فيمـا حـولـه حـربـاً ومـرّ وغـدا بـالحـرب صلبـاً كـالحجـر
هيكلـي مِـنْ نضجـه قـد نـوَّرا وبصـدري كـم شعـاعٍ أسفـرا
أنـت مِـنْ ضَعـفٍ وكيـان تنفَـق وبليـنٍ فـي قـوام تُخْـرَق
اهجُـرنْ خـوفـاً وغمّـاً لا تهُـن وانضَجَنْ كالصَّخر والألماس كُن
مـن أجـاد السعـي والأخـذ معـا فهـو فـي الـدَّاريـن بـدرٌ طلعـا
وبحِجـر الكعبـةِ انظـر حجـرا كـانَ مـنْ قبـلُ تـرابـاً حُقِـرا
جـاوَزَ الطـورَ عـلاءً لا جـرم ورَجَـتْ تقبيلَـهُ كـلُّ الأمـم
قـوةُ الأحيـاء عـزٌّ ونجـاةْ والـونَى والـذلُّ مِنْ ضعفِ الحياه

* * *

قصَّة الشيخ والبرهمي ، ومحاورة نهر الجنج وجبل همالا في معنى دوام حياة الأمة بالتمسُّك بسنتها

بـرهمـيٌّ فـي بنـاريـسَ علـمْ غـائـصٌ فـي فكـر كـونٍ وعـدَم[1]
بـرجـالِ الله يحفَـى فِعلُـه ومـن الحكمـة وافٍ كِفلُـه
عقلُـه فـوق الثـريَّـا قـد عـلا ذهنـه مـاضٍ يحُـلُّ المشكـلا
فكـره العنقـاءُ إمـا حلَّقـا شعلـةٌ منهـا السِّمـاك احتـرقـا
كـأسُـه دهـراً خلَـتْ مـنْ خمـرةِ قـد حمـاهُ الـراحَ سـاقـي الحكمـة
فـي ريـاض العلـم ألْمَـى شبَكـا طـائـرَ المعنـى بـه مـا أدركـا

---

(١) بناريس : المدينة المقدسة في الهند عند الهندوس .

فكـرَه أدَمَـى ولكـنْ لـم تـزلْ — عُقَـد الأكـوانِ فيـه دون حـل
أعـربَـتْ عـن يـأسـه آهـاتُـه — وحكـت حَيـرتَـه نظـراتُـه
سـار يـومـاً نحـو شيـخٍ كـامـلٍ — رُبَّ صَـدْرٍ بفـؤادٍ آهِـلِ
لقـيَ الشَّيـخ بنفـس راجيـه — تحسـنُ الصَّمـت ، وأذنٍ واعيـه :
فـأهـاب الشيـخ : يـا خِدنَ السمـا — اهبطـنَّ الأرضَ وارعَ الـذِّمَمـا
ضقـتَ فـي الأرض مجـالاً فعـلا — فكـرُك المقـدام فـي أوج العُلَـى
طـاويَ الأفـلاك ! فـي الأرض قُـمِ — لا تطِـرْ تطلـب سـرَّ الأنجُـم
لا أقـولُ اهجـرْ غـداً أصنـامكـا — كـافـرٌ أنـت فخـذْ زُنَّـاركـا
يـا أمينـاً لتـراث الأوَّليـنْ ! — لا تـدعْ نهـجَ الجـدود الأقـدَمين
بـاجتمـاعِ الشَّمـل تحيـا الأمَّـة — وكـذاك الكُفـر فيـه وَحـدة
لـم يكمَّـلْ فيـك حتـى كفـرُكـا — ليـس أهـلاً لفـؤاد صـدرُكـا
إنَّ إبـراهيـم فينـا هُجِـرا — وبَعُـدتُـمْ أنتـمُ عـن آزرا[1]
قيسُنـا مـا هـام خلـف المحمَـل — فـي جنـونِ العِشـق لمَّـا يكمُـلِ
إنَّ شمـع الـذات فينـا لانطفـاءْ — كيـف يُجـدينـا طـوافٌ فـي السمـاءْ

* * *

جـاش نهـر الجنـج يـومـاً جـائـلا — فـي سفـوح مـن هِمـالا قـائـلا :
حـامـلاً مـن بَـرَدٍ أوقـارَه ! — عـاقـداً مـن أبهـرٍ زُنَّـاره ![2]

---

(١) يدعو هذا الشيخ إلى استمساك البرهمي بدينه وكماله فيه ما دام برهمياً . ويرى الكمال ولو في الكفر خيراً من النقص . ثم يقول : إنَّ الموحدين لا يسيرون على نهج إبراهيم الذي كسر الأصنام ، والوثنيين لا يتبعون آزر الذي نحتها .

(٢) الخطاب من نهر الجنج لجبل همالا ، وخلاصة المحاورة : أن النهر يعيِّر الجبل بالعجز عن المسير فيجيب الجبل بأن البقاء في ثبات الكائن في مقامه ، وأنَّ الفناء في زواله عن مقوماته . وهذه المحاورة تصوِّر رأي إقبال في إثبات الإنسان ذاته وتقويتها، وأنَّ نفيها ، أو الغفلة عنها يودي بها .

صاغك الحقُّ نجيّاً للسَّماء ... وحمى رجلَك سيراً في العراء
قُيِّدت رجلُك عن سيرٍ فما ... هيبةٌ فيك ورأسٌ قد سما ؟
إنما العيش مسيرٌ وُصلا ... وحياةُ الموج في أن يجفِلا
غضِبَ الطَّودُ لقول النَّهَرِ ... فرمت أنفاسُه بالشررِ
قال : يا مرآة وجهي ! ويلكا ... كم حوى صدري بخاراً مثلَكا
إنَّ هذا السَّيْرَ فيهِ الحَيْنُ لكْ ... من يزُل عنْ نفسه يوماً هلكْ
بمقامٍ لكَ هلاَّ تأبَه ! ... أفخارٌ بالرَّدى يا أبلهُ !
يا وليد الفَلك المرتفعِ ! ... صِرْتَ دونَ السَّاحلِ المتَّضِعِ
قد وهبتَ النَّفس بحراً غاصبا ... وأبحت الرُّوح لصاً سالبا
كُنْ كوردٍ في رُباه عاكفِ ... لا تَرُم للريح كفَّ القاطف[1]
إنَّما العيشُ نماءٌ في المكانْ ... وبروضِ الذَّات قطفُ الأقحوانْ
في دهورٍ لم تُزحزِخ أرجُلي ... أتُراني زائلاً عن منزلي ؟
وإلى الأفلاك قدِّي يصعد ... فعلى سفحي الثُّريا ترقد
أنت تفنى في خِضَمٍ خِضرِمِ ... وقِلالي مسجدٌ للأنجمِ
وبعيني لاح سرُّ الفلكِ ... وبسمعي طيرانُ المَلَكِ
وبنارِ الجدِّ طولَ الدَّهَر ... قد حوى صدري صنوفَ الجوْهرِ
« صخرٌ قلبي وناري في الصَّخر ... ليس للماء إلى ناري ممرّ[2] »
قطرةٌ إن كنت فاحفظ نفسكا ... جاهد الأمواج واجنُب يأسكا
وابتغِ النُّور وكنْ درّاً يُضيء ... ثم كن قُرْطاً على وجهٍ وضيء
أو فزد واعلُ سحاباً ممطرا ... يُشعل البرق ويهمي أبحرا[3]

---

(١) الريح : الرائحة . لا ترم أن يقطفك الناس لتفوح رائحتك .
(٢) اقتباس من جلال الدين الرومي مع تغيير في اللفظ .
(٣) إنْ كنت ماءً فاحفظ نفسك في البحر حتى تصير لؤلؤة . أو كن سحاباً ذا برقٍ ورعدٍ يجتدي منك البحر ماءه .

يبسـط البحـرُ لجـدواك يـدا | شـاكيـاً مـنْ فـاقـةٍ يـرجـو النَّـدى
فهـو فـي فيضـك دون المـوجـة | وهـو فـي جـدواكَ بـادي الـذِّلَّـة

* * *

في بيان أنَّ حياة المسلم لإعلاء كلمة الله وإن كان الباعث على الجهاد « جوع الأرض » فهو حرامٌ في شريعة الإسلام

صبغـةَ الله أنِـزْ فـي قلبكـا | والهـوى والصِّيـتَ دَعْ فـي حبْكـا
إنَّمـا المسلـم بـالحـبِّ قهـر | مسلـمٌ لا حـبَّ فيـه قـد كفـر
غـضَّ بـالحـقِّ ، وبـالحق نظَـر | ولـه فـي الحـقِّ نـومٌ وسَهَـر
فـي رضـاه لـرضـا الحـقِّ فنـاء | كيف يرضى النَّاس هذا الادِّعاء ؟[1]
في رُبـى التَّـوحيـد أرسـى العَمـدا | وعلـى النـاس جميعـاً شهـدا
وعليـه يشهـدُ الـدَّاعـي الأميـن | شـاهـدٌ أصـدقُ كـلّ الشَّـاهـديـن
فـدعِ القـال إلـى الحـال الجلـي | وأضـيء بـالحـقِّ ليـلَ العمـلِ
وكـن الـدرويـش فـي زيِّ الأميـر | ذاكـراً لله يقظـانَ الضَّميـر
واقصِـدَنَّ الحـقَّ فـي كـل الفِعـالْ | يسطَعَـنْ فيـك مـن الحـقِّ جـلال
خيـرُ الحـرب إذا رمـتَ الإلـه | شـرٌّ السِّلـمُ إذا رُمـتَ سـواه
نحـن إن لـم يُعـلِ حقّـاً سيفُنـا | اكتسـى فـي الحـرب عـاراً صفُّنـا

* * *

---

(١) الحق : الله تعالى . يبلغ المؤمن درجة يفنى فيها رضا الحق في رضاه . أي يكون رضاه رضا الحق . والشطر الثاني مأخوذ من جلال الدين الرومي .

شيخنا الشيخ (ميانميرُ) الوليّ ... من سَناهُ كلُّ سِرٍّ ينجلي[1]

كان ثَبْتاً في طريق المصطفى ... مِزْهَر العِشْقِ بحقٍّ عَزَفا

قبرُه الإيمان في أوطاننا ... مشعلُ النُّور على بلداننا

سجدَ النَّجمُ على أعتابه ... كان مَلْكُ الهند من طُلاّبه

غرس المَلْكُ هواه في الفؤادْ ... طالباً في حرصه فتح البلادْ

بالهوَى أضرَم ناراً قلبَهُ ... مُقرئاً « هل من مزيد » عَضْبَه[2]

دوّخت أجنادُه كلَّ وطنْ ... وتوالى الفتحُ في أرض الدَّكَن

دَيدن المسلم للحقِّ التجاء ... يُحكم التدبيرَ منه بالدُّعاء

قصدَ الشيخَ العليَّ القَدْرِ ... راجياً منه دعاءَ الظَّفر

صمتَ الشيخُ لقول المالك ... وصغَى كلُّ مريدٍ سالك

قطع الصَّمتَ مريدٌ أقدما ... أمسكت إحدى يديه درهما

قال : مولايَ ! اقبل النذرَ الحقيرْ ... أنتَ للمسكين بالحقِّ نصيرْ

عَرَقي من كلِّ عضو قد همى ... قبل أن تمسك كفي الدِّرهما

قال : سلطاني به أولى يدا ... سائلٌ في حلة المُلك بدا[3]

---

(١) القصة التي نظمها الشاعر في هذا الفصل كانت بين السلطان شاهجهان والشيخ ميانمير وشاهجهان أحد سلاطين الدولة الإسلامية المغولية في الهند . ولا تزال آثاره في العمارة زينة الهند كلها ومفخرتها . وهو باني المزار ذائع الصيت « تاج محل » في مدينة أجرا . شاده لزوجه ممتاز محل . حكم (١٠٣٧ ـ ١٠٦٨هـ) ومير محمد المعروف بميانمير هو أحد مشايخ الطريقة القادرية في الهند ولد في السند سنة ٩٣٨هـ . وأخذ عن شيخه الشيخ محمد خضر ، ثم انتقل إلى لاهور ، فأخذ عن مشايخها . وقد عظمت مكانته ، فكان يزوره السلطان جهانجير ثم ابنه شاهجهان صاحب القصة . وتلمذ له عبد الحكيم السيالكوتي المعروف في علم الكلام . توفي سنة ١٠٤٥هـ ومزاره مقصد الزائرين في لاهور اليوم .

(٢) هل من مزيدٍ جاءت في الأصل بلفظها العربي . يعني جعل سيفه يقول : هل من مزيد .

(٣) قال الشيخ : سلطاني . . إلخ .

مَلْكنـا أفقـر مـن كـلِّ البشـر	وعلـى الشمـس تـولّـى والقمـر
جـوعُـه بـالنَّـار يُصلـي العـالميـن	عينـه فـوق سمـاط الآخَـريـن
سيفُـه بـالقَحْـط والمـوت رمـى	نفسَـه يَبنـي ويُـردي عـالَمـا
ضجـت الأقـوامُ مـن فقـر لـديـهْ	شقـي المسكيـنُ مـن جـوع يـديـه
حُكْمُـه فـي النَّـاس شـرٌّ وأشَـر	قطَـعَ الطُّـرْقَ علـى رَكْـب البشَـر
بخـداعِ النَّفـس والجهـل دعـا	نهبَـه فتحـاً . وبئـس المـدَّعَـى
عسكـرُ الملـك ومـا قـد أسـروا	بسيـوف الجـوع منـه شَـذَرُ
غصَّـةُ السـائـل جـوع السـائـل	وخَـرابُ المُلـك جـوعُ الـدائـل
مـنْ لغيـر الله سـلَّ المُغْمَـدا	سيفَـه فـي صَـدْرِهِ قـد أغمَـدا

* * *

نصيحة مير نجاة النقشبندي المعروف ببابای صحرائي (الأب الصَّحراوي) التي كتبها لمسلمي الهند

أنـتَ كـالـوردِ مِـنَ الأرض بـدا	مِنْ ضمير الـذَّات نِلتَ المولـدا
لا تَعْـدَ الـذَّاتَ واخلُـد أبـدا	قطرةً كُنْ واشرب البحر صدى[1]
إنَّمـا الـرِّبـحُ بهـذي الثـروةِ	والغِنـى فـي حفـظِ هـذي السلعـةِ
أنـتَ مـوجـودٌ وفـي خـوف العَـدَمْ	يـا أسيـرَ الـوهـم أخطـأتَ الفَهَـم
عنـديَ الخُبْـر بـأوتـارِ الحيـاةْ	سـأُنبِّيـكَ بـأسـرارِ الحيـاةْ :
غـوصـةٌ فـي النفـس غـوصَ الـدرَّةِ	وظهـورٌ بعـد هـذي الخلـوة
هـي جمـعٌ مـنْ رمـادٍ شـرَرا	واشتعـالٌ بَعْـدُ يُعشـي البصـرا
هـي حـولَ الـذَّات طـوفٌ فـاعلَـمِ	واجعلَـنْ نَفْسَـكَ بيـتَ الحـرَم
حَلِّقَنْ في اللَّوح عن جذب التراب	منْ هُوِيٍّ لا تخف ، مثل العقابْ

(١) كن قطرة لا ترضى بغاية فهي تشرب البحر في ظمئها . الصدى : الظمأ .

أنتَ إنْ لم تكُ طيراً ويحكا فعن الغار فابعد عُشَّكا[1]

أيها الجاهد في كسب العلومْ عن إمام الرُّوم خذ نصحَ الحكيم

« إنَّما العلمُ لدى الجسم شقاء وهو في القلب دواءٌ وشفاء »[2]

قصَّةُ الرومي تقضي بالعجب : كان فَيضاً من علوم في حلَبْ

وعلى رجليهِ للعقلِ قيود في ظلام العقل بالفُلك يَرُود

هو موسى دون طورٍ يُشرق ما درى ما العشقُ أو منْ يعشقْ

وعن الإشراق والشكُّ حكى ومن الحكمة درّاً سلكا[3]

وعن المَشَّاء[4] حلَّ العقدا كلُّ خافٍ من سناه قد بدا

وحواليه صِوانُ الكُتُبِ وعلى فيه بيانُ الكتُب

* * *

أمَّ يوماً مكتبَ المُلا جلالْ شيخُ تبريز بأمرٍ من كمال[5]

قال : ماذا القالُ والقيلُ وما منْ قياسٍ ودليلٍ أوْهَما

صرخَ الروميُّ : مهلاً يا جهول! لا تهوِّن منْ مقالاتِ العقول

اخرُجنْ منْ مكتبي يا أبلهُ ! قالَنا والقيلَ أنَّى تفقه ؟

قالُنا أرفعُ ممَّا تعقل سُرُج الإدراكِ منه تُشعَل

نارُ شمسِ الدينِ زادت حُرَقا فرمى منْ روحهِ ما أحرقا

فاستطارَ البرقُ منْ نظرتِهِ وتلظَّى التُّربُ من شُعلتِهِ

---

(١) إشارة إلى قصة الغار والحمامة التي عششت عليه . يعني إن لم تكن ذا همة تطير عن الأرض فلا تطلب المنزلة الرفيعة .

(٢) بيت من جلال الدين الرومي .

(٣) سلك الدر : نظمه في السلك .

(٤) أي : الحكماء المشائين .

(٥) شيخ تبريز شمس الدين التبريزي الصوفي الذي أرشد جلال الدين الرومي إلى التصوف ، وكمال هو : كمال الدين الجنيدي شيخ شمس الدين .

فـإذا الأدراكُ مـِـنْ نـارِ القلـوب	محـرقٌ والكتْـبُ منهـا فـي لهيبْ
جهـل الـرومـيُّ عشقـاً أضـرمـا	مـا درت أوتـارُه ذا النَّغمـا
قـالَ : هـذي النـارُ مـا قصَّتُهـا ؟	أحـرقـت أسفـارَنـا وقـدتُهـا
قـال شمسُ الـديـن يـا ذا المسلمُ !	ذوقَنـا والحـالَ أنَّـى تعلَـم ؟
حـالُنـا أرفـعُ ممـا تُفكِـرُ	ولظـانـا الكيميـاءُ الأحمـر[١]

***

تجمـع الحكمـةَ زاداً بَـردا	فسحـاب الفكـر يهمـي بَـردا[٢]
مِـنْ هشيـمٍ فيـك أذكِ اللهبـا	مِـنْ تـرابٍ فيـك أطلِـع شُهُبـا
مـنْ لهيـبِ القلـبِ عِلـمُ الكامـل	مقصـدُ الإسـلامِ تـرك الآفـل[٣]
صـدَّ إبـراهيـمُ عمَّـا يـأفُـلُ	فحـوتـه كـالجِنـان الشُّعَـل[٤]
قـد نَبَـذتَ الـدِّيـن ظِهـريّـاً ومـا	تبتغـي بـالـدِّيـن إلا الـدِّرهمـا
أيُّهـا السـاعـي لكُحْـل المُقَـل	غـافـلاً عمَّـا بـه مـن كَحَـل[٥]
مـن فـم التِّنيـنِ فـابـغِ الكـوثـرا	واسْـألـنْ مـاءَ الحيـاةِ الخنجـرا[٦]
حجـرَ الكعبـة مـن بيـت الـوثَـنْ	التمس والمسكَ في الكلب اطلبن
طفِّـىء العشـقَ بعلـم الحـاضـرِ	لا تـؤمِّـلْ كـأسَ هـذا الكـافـر

---

(١) انتهت قصة الرومي والتبريزي .

(٢) بردا الأولى فعل ماض ، والثانية : البرد الذي ينزل من السحاب .

(٣) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل في القرآن الكريم وقوله حينما أفل الكوكب ثم القمر : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . وكأن الشاعر تصور الأفل خامداً . فقال : إن علم المسلم من نار القلب . والإسلام ترك ما يأفل ، أي : يخمد .

(٤) إشارةً إلى قصة إلقاء إبراهيم في النار ، وكونها برداً عليه وسلاماً .

(٥) الكحل سواد طبيعي في منابت أشفار العين . يقول الشاعر : أيها الساعي للجمال المصنوع غافلاً عن جماله الطبيعي ، يعني : المسلم المقلد غيره ، الغافل عما عنده .

(٦) يعني : اركب الأهوال وراء ما تبتغي ، واطلب المنفعة عن كلِّ ضار ، واجعل ماء الخنجر أي بريقه ماء الحياة .

قد براني السَّعيُ في كل بعيدْ | وعرفتُ السِّرَّ في العلم الجديدْ
وحباني سرَّ هذي الجنَّة | قيِّمُ البستان بعد الخِبْرة
علمُ ذا العصرِ حجابٌ أكبرُ | يعبد الوُثْنَ وفيها يَتْجر
من حدود الحسّ لا ينطلقُ | وله الظاهرُ سجنٌ مُغلَقُ
زلقت رجلاه في سُبْلِ الحياة | وضعتْ في حلقهِ السَّيفَ يداهْ
كشقيقٍ فيه نارٌ هامدهْ | شعلةٌ كالطَّلِّ فيه بارده[1]
منْ لهيبِ العِشق تخلو فِطرتُهْ | في طلابِ الحقِّ تبدو خيبتُه
عِلَلُ العقل لها العشقُ دواءْ | مبضعُ العِشْق لدى العقل شفاءْ
سَجدَ العالمُ للعشقِ الجليل | هو محمودٌ لأصنامِ العقول[2]
جامُه منْ نَشْوةِ الرَّاحِ خلا | ليله عن وَجْد « يا ربِّ » سلا[3]

***

سَرْوكَ الباسقُ قد أغفلته | كلُّ سَرْوٍ غيرَهُ أكبرتَه[4]
أنت كالنَّاي خلِّي من جواكْ | بلُحون الناس أعليت صداكْ
تبتغي نفسَك في سوقِ سِواكْ | وسماطَ النَّاس تجدوهُ يداكْ
مِنْ سراجِ النَّاس نادينا استعر | أحرقَ المسجدَ مِنْ ديرٍ شرزْ
ظَبْيُنا خاف سوادَ الكعبةِ | فرماهُ صائدٌ في الثُّغرة[5]

---

(١) علم هذا العصر فيه نار كنار الشقائق لا حرارة فيها ، وله بريق كبريق الندى لا نار فيه .

(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب مكسر الأصنام . يعني : أن العشق كمحمود ، والعقول كالأصنام .

(٣) الضمير في هذا البيت يرجع إلى العقل أو علم العصر الحاضر ، ليس في كأسه نشوة . ولا في ليله دعاء « يا رب » وما فيه من وجد .

(٤) يرجع يخاطب المسلم .

(٥) نفر من سواد الكعبة فخرج من الحرم فتمكن منه الصياد .

ورقُ الـــوردةِ كـــالعَـــرفِ انتشَـــرْ — جــافِـلاً مــن نفســه! عُـذْ للمقَـرّ[1]
يــا أمــيـنَ الســرّ مِــنْ أمّ الكتــابْ — هــل إلــى وحــدة مــاضينــا إيــاب ؟
نحـــن خُـــرّاسُ حصـــونِ الأمّـــةِ — كُفــرنـــا تـــركُ شعـــارِ الملّـــةِ
أكـــؤسُ السَّـــاقــي أراهـــا كِسَـــرا — حَفْــلُ نُــدْمــان الحجــازِ انتشــرا
تعمـــرُ الكعبـــةُ مِـــن أصنـــامِنـــا — يضحـكُ الكُفْــرُ علــى إســلامنــا[2]
شيخُنـــا بـــاعَ الـــدُّمَـــى مِلّتَـــهُ — جـــاعـــلاً زُنّـــاره سُبحتـــهُ[3]
شيَـــخَ الشّيـــخَ بيـــاضُ الشّعَـــر — وهـــو لــلأطفـــال مثـــلُ السُّخَـــر[4]
قلبـــهُ بيـــتٌ لأصنـــامِ هـــواهْ — فهــو صِفْــرٌ مقفــرٌ مـن « لا إلــه »[5]
يَلبس الخِرْقَةَ مَنْ يُرخي الشعَر — آهِ ! للتّـــاجـــر بـــالـــدِّيــن اتَّجَــر
بمـــريـــديـــه أدام السَّفَـــرا — فـــي هُـــدَى أمَّتـــه مـــا فكَّـــرا
أعْيُـــنٌ عُمْـــيٌ حكـــاهـــا النَّرجِـــسُ — وصُـــدورٌ مـــن قلـــوب تُفلِـــسُ
عبْـــدُ الأشيـــاخَ فينـــا المنصِـــبُ — حُـــرمـــةُ الأمَّـــة منهـــم تـــذْهَـــبُ
واعـــظٌ عينـــاه شطـــرَ الـــوَثـــنِ — وفتـــاوَى تُشتَـــرى بـــالثَّمـــن
وجهَـــه للحـــان ولَّـــى شيخُنـــا — « يـــا رفــاقــي بعــدُ مــا تــدبيــرنــا »[6]

* * *

---

(١) يرى إقبال أنَّ الإنسان ينبغي أن يثبت في نفسه وأخلاقه وسننه . ويبعد في مساعيه دون أن ينسى مركزه فهو كالوردة ينتشر عرفها ويلتئم ورقها . فإذا تفرق الورق فنيت .

(٢) نحن مسلمون ولكن في أنفسنا وثنية من عبادة الهوى والخضوع لغيرنا .

(٣) الدُّمى : جمع دمية ، يراد بها الإنكليز وما عندهم من مال ومناصب . . إلخ .

(٤) يعني : أن الشيخ صار شيخاً بابيضاض شعره لا بعلمه وتقواه . والأطفال يسيرون وراءه ساخرين منه . وأحسب الشاعر يعني ضرباً من رجال الطرق في الهند .

(٥) « لا إلـه » اختصار لا إله إلا الله حيثما جاءت في شعر إقبال .

(٦) مأخوذ من بيت لحافظ الشيرازي :

شب أز مسجد سوى ميخانه آمد بيرما — چيست ياران طريقت بعد أزين تدبيرما

الوقت سيف[1]

نضَّـــر اللهُ تـــرابَ الشَّـــافعـــيّ — سَحَـــرَ الألبـــاب هـــذا الألمعـــيّ
فِكْـرُهُ قـد صـاد نجمـاً لامعـا — حين سمَّى الـوقت سيفاً قـاطعـا
فـاتَ خـوفـاً ورجـاءً صـاحبُـه — كفُّـه كـفُّ كليـمٍ ، ضـاربُـه
تُغـدق الصَّخـرةُ مـنْ ضـربتـه — ويَغيـض البحـرُ مـن صـوْلتـه
كـانَ هـذا السَّيفُ في كـفِّ الكَليمْ — فشـأ التَّـدْبيرَ بـالعـزمِ الصَّميـم
شـقَّ صـدرَ البحـر لمعُ القَبَس — صيَّـر القلـزُم مثـل اليَبَـس
وبهـــذا السَّيـــفِ يـــومَ الخطَـــر — زَلْـزَلَـتْ خيبـرَ كـفُّ الحيـدر[2]

* * *

ممكـــنٌ إبصـــارُ دورِ الفلَـــك — وتـــوالـــي نُـــوره والحلَـــكِ
يـا أُسيرَ اليوم والأمس انظـرا[3] — انظـرنْ فـي القلـب كَونـاً سُتِـرا
أنـتَ فـي النفس بـذرتَ البـاطـلا — وحسبـتَ الـوقْـتَ خطّـاً طـائـلا
وذرعـتَ الـوقـت طـولاً ، للشَّقـاءْ — بـذراعٍ مـنْ صَبـاح ومسـاءْ
وجعلـتَ الخيـطَ زُنَّـاراً لكـا — صِـرتَ لـلأصنـام نـدّاً ويلكـا !
صِـرْتَ يـا إكسيرُ تُـربـاً سـافـلا — يـا وليـدَ الحـقّ صِـرْتَ البـاطـلا
اقطـع الـزنَّـار حـرّاً لا تَهُـنْ — شمعـةً فـي محفِـل الأحـرار كُـنْ
إيـه يـا غـافـلُ عـن أصـل الـزَّمـانْ — كيف تـدري مـا خلودُ الحيوان[4]
يـا أسيـر الصُّبـح والمُسـى اعقِلَـنْ — « لي مع الله » بها الوقت اعرفَنْ[5]

---

(١) الوقت سيف من كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه .

(٢) حيدر : علي بن أبي طالب .

(٣) انظرا : فعل الأمر مع نون التوكيد الخفيفة .

(٤) الحيوان : الحياة .

(٥) إشارة إلى الأثر : لي مع الله وقت لا يسعني فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب ، ويريد =

كــلُّ مــا يظهــرُ ، مــنْ تِسيــاره والحيــاةُ الســرُّ مــنْ أســراره[1]

مــا مِــنَ الشَّمــس أراه يــوجَــد إنَّهــا تفنــىٰ وهــذا يخلُــد

وبــه الشَّمــسُ أضــاءت والقمــر وبـه فـي العيشِ مـا سـاء وسرّ

قد بسطْتَ الوقت بسطاً كالمكان وفَـرَقْـتَ اليـومَ مـن أمسِ الـزَّمـانْ

يــا شــذاً قــد فــرَّ مــنْ بستــانــه وحبيسَ السِّجـنْ مـنْ بنيـانـه[2]

وقتُنــا بيــن الحنــايــا ســافــرُ ليــسَ فيــه أوَّلٌ أو آخِــر

الحيــاةُ الــدَّهــر يــا مَــنْ عــرفــا « لا تسبوا الدَّهر » قول المصطفى

* * *

نكتــةً كــالــدُّرِّ خــذهــا رائقــة بيــن حــرٍّ ورقيــقٍ فــارقــة :

حيــرةُ العبــد مسيــرُ الــزَّمــنِ حيــرةُ الأزمــانِ قلــبُ المــؤمــن

ينســج العبــدُ عليــه كفَنــا مــن صبــاحٍ ومســاء مُــذْعِنــا

وتــرى الحــرَّ مــن الطيــن نجــا نفســه حــول الليــالــي نسجــا

قفــصُ العبــدِ صبــاحٌ ومســاءْ يُحـرَم التحليـقَ فـي جوِّ السمـاءْ

وبصَــدْرِ الحــرِّ ثــار النفَــسُ طــائــر الأيــام فيــهِ يُحبَــس

فطـرة العبــد حُصــولُ الحــاصــلِ ليــس فــي تفكيــره مِــن طــائــلِ

فــي مقــامٍ مــنْ همــودٍ راكــدُ نَــوْحُــه ليــلاً وصبحــاً واحــدُ

ومــن الحــرِّ جــديــدُ الخلقــة كــلَّ حيــنٍ ، وحــديــثُ النَّغمــة

قيّــد العبــدَ صبــاح ومســاء وثــوى فــي فمــه لفــظُ القضــاء[3]

= الشاعر أن يقول إن الوقت حال الإنسان ، لا ساعات الفلك .

(١) الضمير يرجع إلى الوقت .

(٢) يقول الشاعر : إنك أحياناً كالرائحة لا تثبت في بستانها ، وأحياناً سجين في سجن بنته يد تسير مع ساعات الزمان ، وتحبس نفسك فيها والوقت هو أنت .

(٣) لفظ القضاء والقدر ، يعتلُّ به ، ويحيل الأمور عليه .

وأرى الحــــرَّ مُشيـــراً للقَـــدَرْ صـوَّرت كفّـاه أحـداثَ الـدَّهَـر[1]

عنـده المـاضـي التقَـى والقـابـل عـاجـلٌ بيـن يـديـهِ الآجَـل[2]

* * *

ضـاقَ عـن معنـايَ حـرفٌ وصـدَى عجـزَ الإدراكُ فـي هـذا المـدى

قلـتُ ، واللفـظُ من المعنى خَجِـلْ وشكـا المعنـى مـنَ اللَّفـظ المَحِـلْ

مـات معنـىً فـي حـروف يُحبَـس نـارَه يُخمـدُ منـك النفَـسُ

سـرُّ غيـبٍ وحضـورٍ فـي القلـوبْ رمزُ وقـتٍ ومـرورٍ فـي القلـوبْ[3]

إنَّ للـوقـتِ للَحنـاً صـامتـا ولـه فـي القلـب سـرّاً خـافتـا[4]

أيـنَ أيـامٌ بهـا سيـفُ الـدهَـر صـرَّفتـه فـي أيـادينـا القُـدَر ![5]

قد غرسنا الدِّين في أرض القلوب وجلـونـا الحـقَّ مـن ستـر الغيـوبْ

ومِـنَ الـدُّنيـا حلَلنـا العُقَـدا واستنـار التُّـربُ منّـا سُجَّـدا

مِنْ دنـانِ الحـقّ صـرَّفنـا الرَّحيـق وهَـدَمْنـا حـانـةَ العصـرِ العتيـقْ

يـا مـديـرَ الـرَّاح فـي أضـوائهـا ومُـذيـبَ الكـأسِ مـن لألائهـا[6]

مـن غـرورٍ واختيـالٍ تَسكَـرُ ومـن الفقـر لـدينـا تَسْخَـرُ !

كـأسُنـا كـانـتْ سِراجَ المحفِـل صَـدْرُنـا كـانَ لقلـبٍ مُشعَـلِ

إنَّ هـذا العصـرَ مِـنْ آثـارنـا مـن عَجـاجٍ ثـارَ فـي تسيـارنـا

---

(١) عزم الحر من القضاء ، ويقول الشاعر في هذا : إن القضاء يستشير الحرّ فيما يفعل .

(٢) لا يعتل بأن شيئاً قد فات وقته وأن شيئاً لم يحن وقته . بل عزمه يطوع كل وقت لما يريد .

(٣) القافية مردوفة والروي في حضور ومرور .

(٤) أبيات إقبال هذه في الوقت وفي التفريق بين العبيد والأحرار من أروع ما عرفته الفلسفة والشعر .

(٥) في هذا البيت والأبيات بعده يذكر إقبال ماضي المسلمين .

(٦) في هذا البيت وأبيات تليه يخاطب الشاعر أهل الغرب المسيطرين على العالم .

روضةُ الحقِّ ارتوت مِنْ دمنا　　عزَّ أهلُ الحقِّ في الدنيا بنا
كبَّر العالَمُ من تكبيرنا　　كعَباتٍ شادَ مِنْ تعميرنا
« اقرأ » الحقُّ لنا قَدْ علَّما　　بيدينا رزقَهُ قد قسَّما[1]
لا تهوِّنْ قَدْرَ حرٍّ أعدَما　　أن تَرى التَّاج مضى والخاتما
إن نكنْ عندك أصحابَ الخسارْ　　قُدماء الفكر أحلافَ الصَّغارْ
فلدينا عزَّةٌ مِنْ « لا إلٰه »　　نحن لِلْكَونينِ حُرَّاسٌ أباةْ
قَدْ تركنا غمَّ أمسٍ وغدِ　　ووفينا لحبيبٍ أوْحَدِ
نحنُ ورَّاثُ هداةٍ للبشرْ　　نحنُ عند الحقِّ سرٌّ مدَّخر
لا تزال الشمس تُبدي نورنا　　غيمُنا فيهِ بروقٌ وسَنا
ذاتُنا المرآة للحقِّ ، اعلَمِ　　آيةُ الحقِّ وجودُ المسلمِ

* * *

دعاء[2]

أنت في الكَوْنِ كروحٍ مُستتِر　　روحُنا أنت ، ومنَّا تَستتر
منكَ فيه نغمةٌ عُودُ الحياةْ　　في هواكَ ، الموتُ محسودُ الحياةْ
عُدْ فسكِّنْ ذي القلوبَ البائسةْ　　عُدْ فعمِّر ذي الصدورَ اليائسةْ
عُدْ فكلِّفنَا الفِعال الماجدا　　ألْهبنَّ العِشق فينا الخامدا
إنَّنا نشكو تصاريفَ القضاءْ　　أنت تُغلي السِّعْرَ والأيدي خَلاء[3]
عن فقيرٍ لا تحجَّب ذا الجمال　　عشقَ سَلْمانَ امنحنَّا وبلالْ
عَيْنَ سُهْدٍ لفؤادٍ قَلِق　　امنحنَّا واضْطرابَ الزِّئبَق

---

(١) يشير إلى أول سورة في القرآن : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ .
(٢) الخطاب لله تعالى .
(٣) يعني تكلفنا واجبات عظيمة وليس في يدنا اليوم أسبابها .

آيــةً أظهِــر مــن الآي المبيــن لنَـرى أعنـاق قـومٍ خـاضعيـن[1]
أظهِــر البــركـانَ مِـنْ أعـوادنـا وامـحُ غيـرَ الله فـي نيـرانـنـا
كفُّنـا ألقـت بخيـط الـوَحْـدَة كم ترى في أمرنا مِنْ عُقدة ؟[2]
قَـدْ مضينـا كنجـومٍ حـائـرهْ إخـوةٌ لكـنْ وجـوهٌ نـافـرهْ
انظمَـنْ فـي السِّلك هـذا الـورقا جَـدِّدَنْ سنَّـة حُـبٌّ أخلقـا[3]
ابعثنَّـا مثـل مـا كنَّـا لكـا ائتمـن فيمـا تـرى أحبـابَكـا
منـزلَ التَّسليـم أبلـغ رَكْبَنـا عـزمَ إبـراهيـم يسِّـره لنـا
علِّمـنَّ العشـق مـنْ أفعـال « لا » رمـزَ إلا الله علِّـم غـافـلا[4]

* * *

أنـا كـالشمـع لغيـري أُحْـرَق وبـدمعـي كـلُّ حفـلٍ يَشـرَقُ
رَبِّ ! هذا الدمع نورٌ في القلوبْ ذو هَيـاجٍ واضطـرابٍ ونحيـبْ
أبـذرُ الـدَّمـعَ فتنمـو شُعَـلُ نـارُ شِقْـر الـرَّوض منهـا تَنصِـل[5]
أمـسِ فـي قلبـي ، وعينـاي الغـدُ أنـا فـي الجمـع فـريـدٌ مُـوحـد[6]
« ظـنَّ كـلٌّ أننـي نعـم السميـز ليس يدري أيُّ سرٌّ في الضمير »[7]
أيـن يـا ربَّـاه فـي الـدُّنيـا النـديـم نخـلُ سينـاءَ أنـا ، أيـن الكليـم ؟

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤].
(٢) يعني : أضاع المسلمين خيط الاتحاد ، فتعقدت أمورهم .
(٣) الورق : ورق الكتاب ، والسلك : الخيط الذي يجمع به الورق .
(٤) « لا » : يريد النفي في كلمة التوحيد ، نفي ما سوى الله ، و« إلا الله » هي الإثبات في هذه الكلمة .
(٥) الشقر : شقائق النعمان . وهي زهر أحمر يضرب به المثل في الاحتراق ، ولكنَّ الشاعر يقول إنَّ هذه النار الباردة تمحوها نار دموعي .
(٦) قلبه متصل بذكرى الماضي ، ولكن عينيه تريان المستقبل ، وتطمحان إليه . وهذا معنى يكرره إقبال .
(٧) البيت من فاتحة المثنوي لجلال الدين الرومي في وصف الناي .

ظـالـمٌ نفسـي فَكَـمْ عنَّيتُهـا ... شُعـلاً فـي صَـدْرِهـا أذكيتُهـا

شُعـلاً للحسِّ تـذرو مـا بـه ... وتَشُـبُّ النَّـارُ فـي أثـوابـه[1]

وبهـا العقـلُ جنـونـاً عُلِّمـا ... وبهـا أُحـرِق مـا قـد عُلِمـا[2]

قد علَتْ من حرِّها شمسُ السماءْ ... حـولهـا لِلْبَرقِ طـوْفٌ في الفضـاءْ

كـلُّ عِـرْق فـيَّ نـاراً يقطـرُ ... شُعَـلاً يَنْبُـتُ فـيَّ الشَّعَـرُ

بلبلـي يلفـظ هـذا الشررا ... فتـراه نَغَمـا مستعـرا

صَـدْرُ عصـري مـا بقلـبٍ يـوهـن ... نَـوْحُ قيسٍ حينَ يخلو المَحْمِلِ[3]

يخفـق الشَّمـعُ وحيـداً وَيْلَـهُ ! ... فـي فَـراشٍ لا يـرى أهـلاً لـه[4]

كـم أرجِّي مُسعـداً لـي فـي البشر ... ونجيّـاً كـم أرجِّي فـي الـدَّهَـرْ

***

يـا مـن الأنجـمُ منـه تستنيـر ! ... أرجِعنْ نـارَكَ مـنْ روحي الكسير

اسلُبَـنْ نفسـيَ مـا أودعتَهـا ... عَطِّلَـنْ مِـنْ نـورهـا مـرآتَهـا

أو فهـبْ لـي وجـهَ خـلٍّ لَبِـقِ ... هـوَ مـرآةٌ لِعِشْـقٍ مُحـرِقِ

***

يَخفُـقُ المـوجُ بمـوجٍ فـي العُبَـاب ... لا يسيـرُ المـوجُ إلّا فـي صِحـاب

ومَـعَ الكـوكـبِ يَسـري الكـوكـبُ ... وعلـى الأقمـارِ يحنـو الغَيْهَـبُ

ومـعَ اللَّيْـلِ نهـارٌ أبـدا ... ومسيـرُ اليـومِ يقتـادُ غـدا

نهـراً ، أبصـرُ ، يَفنَـى فـي نَهَـر ... ونسيـمَ الـرَّوض فـي عَرْفِ الـزَّهَـرْ

---

(١) نار تحرق المحسوسات ، وتنفذ إلى البواطن .

(٢) هذه النار نار العشق تخرج بالعقل عن حدوده الضيقة . وتحرق ما لقنه الناس من علم . انظر الكلام عن العشق والعقل في مقدمة ضرب الكليم .

(٣) يبكي إقبال لخلوِّ عصره من القلب كما يبكي المجنون لخلو المحمل من ليلى .

(٤) يعني : أنه كالشمع ، لا يجد فراشاً أهلاً لناره . ليس له أصحاب ، أو تلاميذ يفقهون عنه ما يقول .

رُبّ حـانٍ آهـلٍ مـنْ شَـربـه راقـصَ المجنـونُ مجنـونـاً بـه
أنـت يـا واحـدُ لا شبـهَ لكـا عـالَمـاً أنشـأتـهُ مـنْ أجلكـا
وأنـا مثـلُ شقيقـاتِ الفَـلا[1] مُفْـردٌ ، فـي بُهـرَة الجمـع خَـلا
هَـبْ نجيّـاً يـا ولـيَّ النِّعمـة مَحـرمـاً يُـدرك مـا فـي فطـرتـي
هَـب نجيّـاً لَقِنـاً ذا جنَّـة[2] ليسَ بـالـدُّنيـا لـه مِـنْ صلـة
رُوحَـه أودِع مِـنْ أنَـاتيـهْ وأرى فـي قلبـه مـرآتيَـه
وأسـوّيـه بطينـي مُحكمـا وأُرَى آزرَه والصَّنمـا[3]

* * *



(١) الشقيقات : جمع شقيقة واحدة الشقائق التي تسمى شقائق النعمان . هو وحيد وإن كان جماعة .

(٢) يريد إقبال نجياً مجنوناً . والجنون في لغة إقبال الهيام والإقدام إلى غير حدٌ .

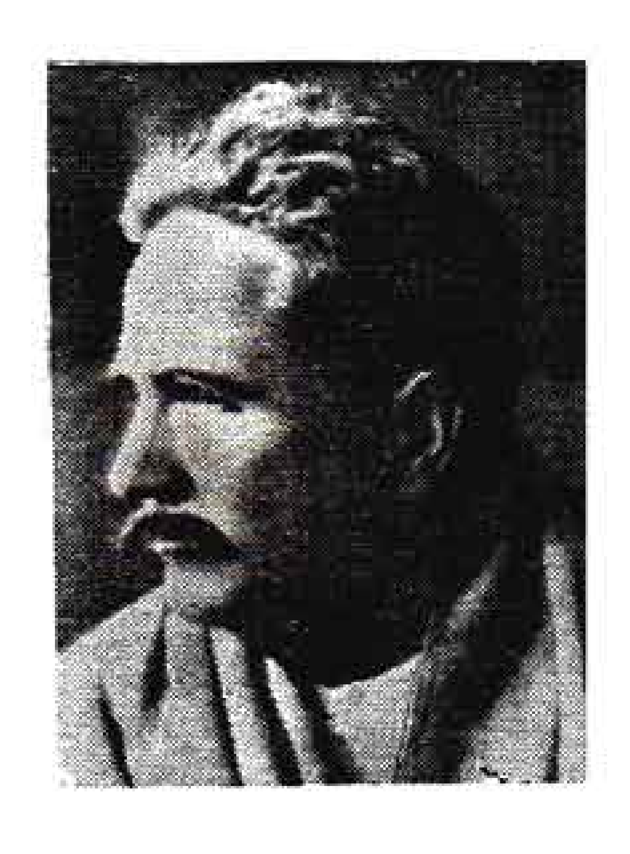
(٣) يكون له ناحتاً كآزر ويكون صنماً له يتوجه إليه توجه العابد إلى الصنم .



القسم الثاني

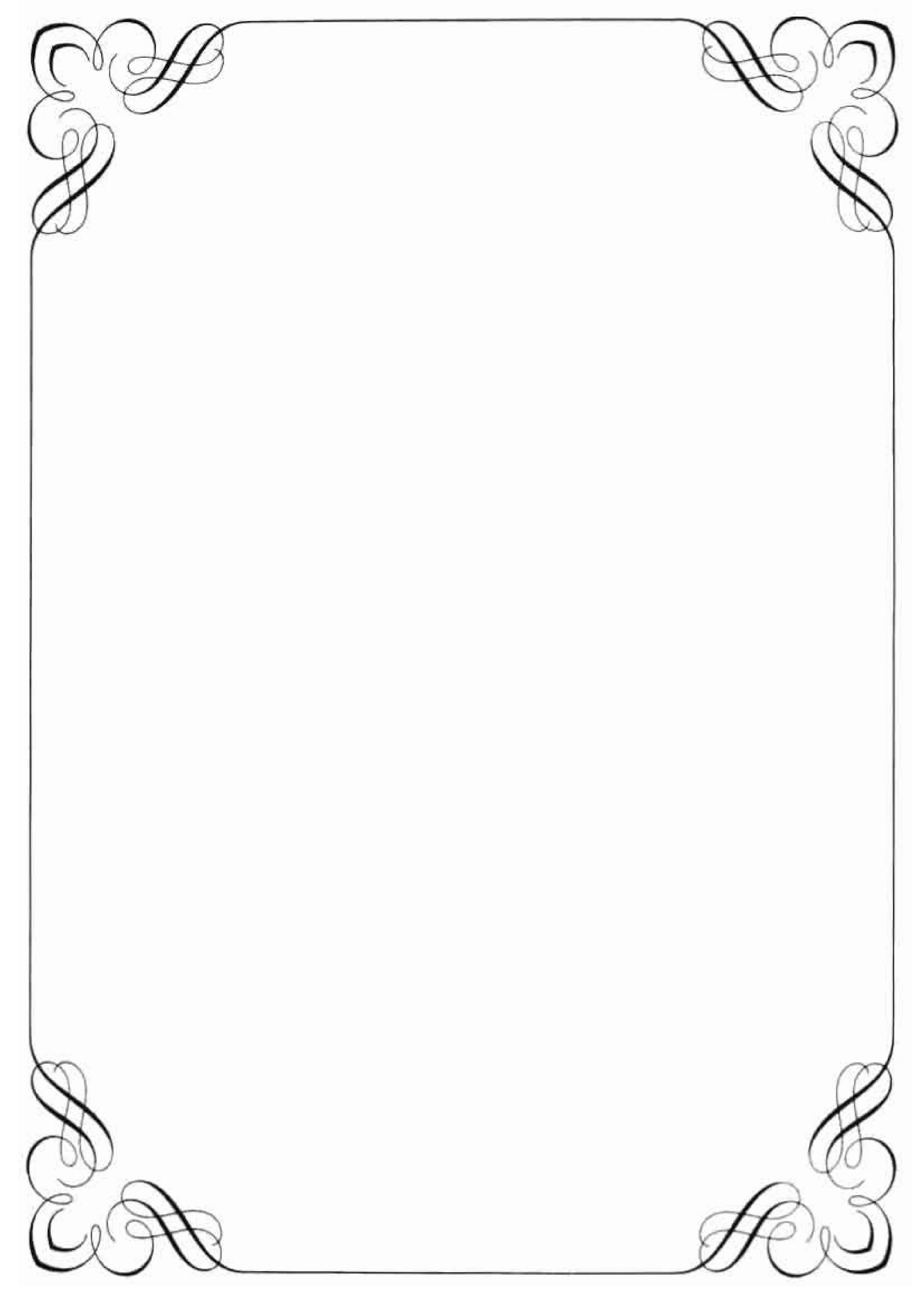
رُموز نفي الذّات

(أسرار بيخودي)









٢ ـ رموز بيخودي (أسرار نفي الذَّات)
باللغة الفارسيَّة

هذه المقالة الفلسفية المنظومة باللُّغة الفارسيَّة نشرها محمد إقبال عام ١٩١٨م وهي من حيث الاسم تبدو أنها ضد الكتاب الأول ، لكنَّها في الحقيقة تفسر ، وتبيِّن نفس النظرية ، وتعتبر التتمة اللأَّزمة له ، وقد طبعت أحياناً القصيدتان في مجلدٍ واحدٍ بعنوان « أسرار ورموز » هنا يكمل محمد إقبال فلسفته بالتأليف بين الفرد والقوى أو الذات الكاملة وبين الجماعات الَّتي تعيش فيها .

وأما الموضوعات الرئيسية فهي علاقة الفرد بالمجتمع ، والإنسانية ، والطبيعة الاجتماعية المثالية ، والمبادىء الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة .

محتوى الديوان

يبدأ الشاعر المنظومة بتمهيد في ارتباط الفرد والأمَّة ، ثم يعقد الفصول التالية :

١ ـ الأمَّة تنشأ من اختلاط الأفراد ، وكمال تربيتها بالنبوَّة .

٢ ـ أركان الأمة الإسلاميَّة .

أ ـ التوحيد : ويستطرد في بيان التوحيد إلى فصول أخرى ، كما يعقد فصولاً أخرى للتمثيل .

ب ـ الرسالة : وفي هذا العنوان فصول أخرى منها أن مقصد الرسالة المحمدية الحرية ، والمساواة ، والأخوة بين بني آدم ، ويقصُّ قصصاً شتَّى في

هذا الصَّدد . وأن الأمة المحمَّدية قائمة على التوحيد ، والرسالة ، فلا يحدُّها مكان ، وأنَّ الوطن ليس أساس الأمَّة ، وأنَّ الأمة المحمدية لا يحدها زمان ، ودوامها موعود ، وأنَّ نظام الأمة لا يكون بغير القانون ، وقانون أمَّة محمد القرآن ، وأنَّ نجاح الأمة باتباع الشريعة الإلهية ، وأن حسن سيرة الأمة بالتأدُّب بالآداب المحمَّدية .

٣ ـ حياة الأمة تقتضي مركزاً محسوساً ، ومركز الأمة الإسلاميَّة الحرم .

٤ ـ الاجتماع الحقيقي لا يكون إلا بقصدٍ يقصد إليه ، ومقصد الأمَّة المحمدية حفظ التوحيد ، ونشره .

٥ ـ توسيع حياة الأمَّة بتسخير قوى العالم . وكمال حياة الأمَّة أن تحسَّ ذاتها كما يحسُّ الفرد ، وينشأ هذا ، ويكمل بحفظ سنن الأمَّة .

٦ ـ بقاء النوع بالأمومة . وحفظ الأمومة واحترامها من قواعد الإسلام .

٧ ـ السيدة فاطمة الزهراء أسوةٌ كاملةٌ لنساء الإسلام .

٨ ـ خطاب إلى المسلمات .

٩ ـ خلاصة مطالب المنظومة في تفسير سورة الإخلاص .

١٠ ـ مناجاة المصنف الرَّسول الَّذي بُعث رحمةً للعالمين .

ويبيِّن محمد إقبال في هذه المنظومة فكرة أنَّ « الوطن ليس أساس الأمَّة » فيقول : إنَّ العصبيات الوطنية قطعت أرحام الأمم ، ويبيِّن كيف هجر النَّصارى دين عيسى وتقطع أمرهم بينهم . . . كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون .

ويذكر ميكافيلي الإيطالي ، وأثره في سياسة أوربة إلى أن يقول :

جعـل الملـك إلهـاً دينـه   كـلُّ قبـحٍ نـالـه تحسينـه
وزن الحـقِّ بـربـع وجـدى   ولدى الملك خنوعاً مسجدا

صيَّر الحيلة فنّاً محكما　　فزها الباطل مما أعلما[1]

ويخاطب المرأة المسلمة :

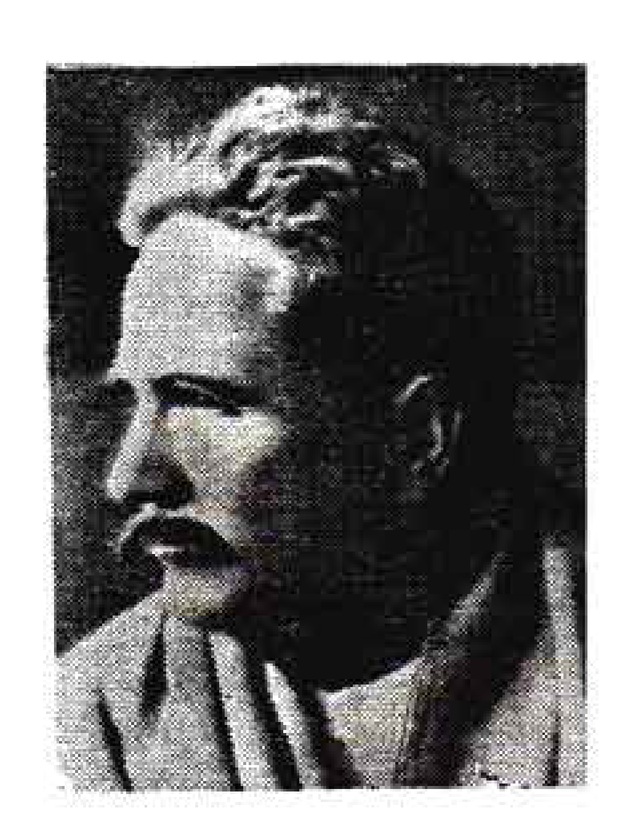
احذري فتنة عصرٍ مهلك　　وإلى صدركِ ضمّي وُلْدكِ

بَعُدَتْ عن عشّها في خطرِ　　هذه الأفراخ ، لا تَطِرِ

فيك تسمو للمعالي فطرةْ　　فاتبعي الزهراءَ ، نعمَ الأسوةْ

علَّ غصناً منكِ يأتي بِحُسين　　فترى النضرَةَ رَوْضَات دَوَيْن

***

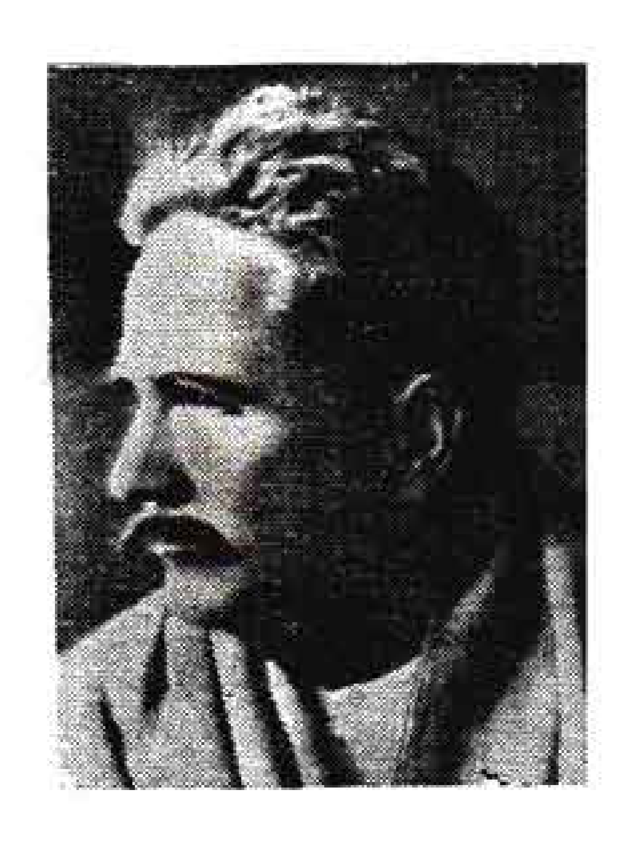


(١) إقبال ـ للدكتور عبد الوهاب عزام ص١٣٧ .




جـدْ بنَفْـيِ الـذَّاتِ . لا تهـابْ
اجْتَهِدْ ، واللهُ يَهْديكَ الصَّوابْ

(جلال الدِّين الرُّومي)






تمهيد

مهداةٌ إلى الأمَّة الإسلاميَّة

إيـه يـا مُنكـراً أحـاديـثَ عشقـي ... ليس بي حُرقةٌ تكون بغير عُرفي [1]

ختـمَ اللهُ إليـكِ الأممـا ... بـكِ حقَّـاً كـلَّ بَـدءٍ خُتمـا

كـم تقـيٍّ فيـكِ كـالرسْل مُنيبْ ... وجـريـحِ القلـب رفَّـاء القلـوب

لـكِ طـرفٌ بـالنَّصـارى سُحِـرا ... وعـن الكَعبـة أبعَـدتِ السُّرى [2]

يـا مـنِ الأفـلاكُ مِـنْ هَبـوتِهـا ... « مِنْ رنـا الكـونُ إلـى طلعتهـا » [3]

سـرتِ كـالمـوج دؤوب السَّفـرِ ... « أيـن تبغيـن مُـرادَ النَّظـر ؟ » [4]

كفَـراشٍ فـي لظـى الحـبِّ اصبـري ... وخـذي عُشَّـكِ بيـن الشـررِ

أحْكمـي العشـق بـروح قـدْ صفـا ... جـدِّدي العهـد بحـبِّ المصطفـى

صحبـةَ النَّصـرانِ قلبـي هجـرا ... حينمـا وجهـكِ عنـدي أسفـرا

ورفيقـي رهـنُ حسـنِ الآخـريـن ... واصـف الطـرَّة منهـم والجبيـن

---

(١) ترجمة بيتٍ لعرفي الشيرازي صدَّر به الشاعر هذه التقدمة . ومعناه : لا يستطيع أحدٌ إنكار ما أصف من آلام عشقي . فإنه إن شعر بالآلام التي أصفها فهذه الآلام لا تكون بي ولكن به هو . إنني أصف شيئاً لا يمكن أن يكون في قلب غيري ، فكيف يستطيع إنكاره ؟!

(٢) يعني أهل أوربة الذين سيطروا على الهند وغيرها حقبةً .

(٣) الأفلاك من الهبوة التي أثرتها في جهادك على الأرض .

(٤) الشطران بين الأقواس بيت للشيخ سعدي الشيرازي .

سـدَّةَ الساقـي بخـدَّيـه يَـدوسْ ... منشـداً قصَّـة غلمـانِ المجـوسْ[1]

وأنـا فيـكِ قتيـلُ الحـاجـبِ ... وتُـرابٌ فـي حِمـاكِ الحـادب

أنـا مـنْ نظـم مـديـحٍ أرفـعُ ... لسـتُ ممَّـن لأميـرٍ يَـركـعُ

كـمْ مـرايـا صُغتُهـا مـنْ كلِمـي ... فَعَـنِ إسكنـدرَ تعلـو هِممـي[2]

لا تَـرى المنّـةَ جيـدي تـأطِـر ... من زهور الروض حِجْري صَفِرْ[3]

مُقْـدِمٌ فـي الـدَّهـر مثـل الخِنجـرِ ... منْ قلوب الصَّخر مائي أمتري[4]

أنـا فـي نـار الحيـاة الشَّـررُ ... فـي ثيـابٍ مـنْ رمـادي أسْتَـرُ

* * *

قَصَدَتْ بـابكِ روحـي في خشوع ... فـي هـدايـا مـن لهيـبٍ ودمـوعْ

إنَّ فـي الـزرقـاء يمَّـاً يقطـرُ ... فـوق قلـبٍ لا هـبٍ لا يفتـرُ

أجمـعُ القطـر ربيعـاً جـاريـا[5] ... وإلـى روضِـكِ أزجـي صـافيـا

قـد حُبيـت الحـبَّ مـنْ محبـوبنـا ... أنتِ قلبٌ قد ثوى في صدرنا[6]

قـذف العشـقُ بقلبـي حُـرَقـا ... صـاغَ مـرآةً فـؤادي المُحـرَقـا

وشققـتُ الصَّـدر ، كـالـورد لـكِ[7] ... مُـدنيـاً مـرآتـه مـن وجهـك

---

(١) يعني : أنَّ الشعراء الآخرين فتنوا بذكر ألحان وغلمان المجوس ، وهؤلاء في الشعر الفارسي كغلمان النَّصارى في الشعر العربي يقرن ذكرهم باللهو والسكر ؛ إذ كانوا خدم الحانات .

(٢) مرآة إسكندر مشهورة في الشعر الفارسي ، يقال : إنه كان يرى فيها الأقاليم ولعلَّ أصل الخرافة منارة الإسكندرية ومراياها . ويقول الشاعر هنا : إنَّ في شعري مرايا كمرآة إسكندر ، فلست في حاجةٍ إليها .

(٣) يعني : أنه لا يجني الزهر في حجره بل يستكبر أن يجنيه استغناءً عنه .

(٤) حذف بعد هذا بيتان .

(٥) الربيع : النهر الصغير .

(٦) محبوبنا الرسول ﷺ .

(٧) يتخيل الشعراء أن الورد يمزق صدره حين يتفتح ، ويقول الشاعر : إن العشق صاغ قلبه=

لتنـــالـــي نظـــرةً مـــنْ سِحـــرِكِ وتُـــرَيْ مغلـــولـــةً فـــي شَعـــرِكِ[1]

ثـــم أشـــدو قِصَصـــاً مـــنْ أمســـك فـــأذَكِّـــي حُـــرَقـــاً فـــي نفسِـــكِ

* * *

أســـأل الحـــقَّ حيـــاةً تحصُـــف لفـــريـــقٍ نفسَـــه لا يعـــرف

نـــائـــحٌ والليـــل ســـاجٍ ســـادلُ يهجَـــعُ النـــاسُ ودمعـــي هـــاطـــلُ

تصطلـــي روحـــي بحـــزنٍ وألـــمْ وردُ « يـــا قيُّـــوم » أُنســـي فـــي الظُّلَـــمْ

أمـــلاً فـــي الصـــدر صيَّـــرتُ دمـــا ليُـــرَى فـــي أدمُعـــي مُنسجمـــا

مـــا احتـــراقـــي كشقيـــقٍ أبـــدا فيم أستجدي من الفجر النَّدى[2]

أنـــا كـــالشَّمـــع دمـــوعـــي غُسُلـــي فـــي ظـــلام الليـــل أذكـــى شُعَلـــي

محفـــلُ النـــاس بنـــوري يُشـــرقُ أنشـــرُ النُّـــور ونَفســـي أحـــرقُ

مـــا لنـــاري فـــي الحشـــا مـــن فَتـــرةٍ مـــا بـــأسبـــوعـــي فَـــراغُ الجمعـــة[3]

إنَّ روحـــي فـــي سحيـــق الجَســـد آهـــةٌ ثـــوبَ غبـــارٍ تـــرتـــدي[4]

مُـــذْ بـــرانـــي الحـــقُّ فجـــرَ الخلقـــة زلـــزلـــتْ أوتـــارَ عـــودي أنَّتـــي

أنَّـــةٌ للعِشْـــق تُفشـــي ســـرّهُ آهـــةٌ فـــي العِشـــق تُـــذكـــي جمـــرهُ

تجعـــل العصـــفَ لهيبـــاً يُحـــرقُ وفَـــراشـــاً مـــنْ تـــرابٍ تخلُـــقُ[5]

* * *

= مرآة وهو يشق صدره فيضع هذه المرآة أمام الأمة الإسلامية لترى فيها حقيقتها .

(١) أي لتقدري جمالك ، وتدركي مزاياك ، وتحبي نفسك .

(٢) الشقيق : زهر أحمر يجعله الشعراء مثلاً للاحتراق . ويقول إقبال : ما هذا الاحتراق الذي هو لون لا حقيقة له ، ولماذا أستجدي الندى من الفجر كالشقيق وغيره من الزهر . أنا أحترق بناري كالشمع وأتخذ من دمعي ندى .

(٣) أيامه كلُّها عملٌ وجهدٌ ، ليس فيها يوم راحة .

(٤) روحه آهة والجسد تراب يسترها كما يتردى الإعصار بالغبار .

(٥) تجعل العصف ـ وهو الهشيم ضعيف اللهب ـ ناراً قوية تحرق غيرها ، وتخلق من التراب فراشاً هائماً يهفو على النار .

فـي ضمير العِشقِ وَسْمٌ كـالشَّقِرْ ولـــه وردةُ وجـــدٍ تستعــز
هـــذه الـــوردة أحبُـــو صَـــدركِ فــي سُبــاتٍ منــك أذكــي حشـرَكِ
لأرى فــي تُـربـكِ الـروضَ الينيـغ وبــأنفــاســكِ أرواحَ الــرَّبيــغ

***

في معنى ارتباط الفرد والأمَّة

رحمـــةٌ للفـــرد حِجْـــرُ الأمَّـــة كــامــلٌ جــوهــرُه فــي الملَّــة
فـالْـزَمَـنَّ الجمعَ جهْـدَ المستطاعْ فـي ذُرا الأحـرار كـنْ مثـلَ الشعـاعْ
واحْفَظَـنْ مـا قـالـه خيرُ البشـر : كـلُّ شيطـانٍ مــنَ الجمــع نفـرْ
فَـــردنـــا مـــرآتـــه أمَّتُـــهُ وكـــذا مـــرآتهـــا صـــورتُـــه
وهمـــا سِلْـــكُ نظـــامٍ ودُرَرْ أو نجــومٌ تتجلَّــى فــي النَّهَــر[1]
قيمـــةُ الأفـــرادِ جـــدوى الملَّـــةِ ومـــن الأفـــراد نظـــم الأمَّـــة[2]
وإذا الـــواحـــدُ فـــي الجمـــع نمـــا كـــان كـــالقطـرة صـارت خِضْـرِمـا
جُمـــعَ المـــاضـــي لـــه فـــي لُبِّـــه والتقـــىٰ الغـــابـــرُ والآتـــي بـــه
صلـــة الأمـــس تـــراه والغَـــدِ وقتُـــه لا ينتهـــي كـــالأبـــدِ
هـــو بـــالأمَّـــة قلـــبٌ طـــامـــحُ وهـــو بـــالأمَّـــة سعـــيٌ رابـــحُ
روحـــه مـــن قـــومـــه ، والبـــدنُ ســـرُّه مِـــنْ قـــومـــه والعَلَـــنُ
بلســـانِ القـــوم يشـــدو منطقـــا وَمِـــنَ الأســـلاف يَقفـــو طُـــرُقـــا
تُنضـــجُ الفطـــرةَ فيـــه الصُّحبـــةُ فتـــراه الفـــردَ وهـــو الأمَّـــةُ
تُحكِـــمُ الـــوحـــدةَ فيـــه الكثـــرةُ وهـــي ، بـالـوحـدةِ فيـه ، وحـدة[3]

---

(١) نهر المجرة .

(٢) قيمة الأفراد من فضل الأمّة عليها .

(٣) كثرة الأمة لا تضر بوحدة الفرد بل تحكمها ، والكثرة فيها موحدة بوحدة الفرد . ورأي=

أفــرِدِ اللَّفــظ مــن البيــت تــرى ... جـوهـر المعنـى لـديـه انكسـرا[١]

تَسقُــطُ الأوراقُ مــن غصــنٍ ينيع ... فتُـرى محـرومـةً وصـلَ الـرَّبيـع

طفئــت أنغــامُ أعــوادٍ غِنــاء ... فــاتهـا مــنْ زمـزم الأمَّـة مـاء

يُحـرَم الفـردُ الـوحيـدُ المقصِـدا ... فتــرى نظــمَ قُــواه بَــدَدا

تجمــعُ الأمَّــةُ شمــلَ المُنَّــة ... فيــه تحبــوه عظيــمَ الهِمَّــة

نشَــأتْ بــالقيــد حــرّاً مطلقــا ... أثبتـتْ فـي الأرض سَرْواً بَسَقـا[٢]

ظَبيُــه الــوثَّــابُ مِسكــاً يَعبــق ... إنْ حــواهُ مــن نظــامٍ وَهَــق[٣]

أنتَ لم تعرفْ «خودي» من «بيخودي» ... أنـت لا ريـبَ مـن الشـكِّ رَدِي[٤]

إنَّ فــي طينــك نــوراً قــد بــدا ... بشعــاعٍ منــه أبصـرتَ الهـدى[٥]

كــلُّ غــمٌ ورضــاً مــن دورتــهْ ... أنــت حــيٌّ بتــوالــي ثَــورتِـه

أنــت منــه أنــت حقّــاً ، وأنــا ... أنـا وهـو الفـرد لا يـرضـى ثُنـا[٦]

يخلــقُ النَّفــسَ ويَــذْرو ويُقِــرّ ... ذو دلالٍ فــي خضــوعٍ مستتــر[٧]

= إقبال أن غاية الجماعة تقوية الفرد وإسعاده ، وهو لا يفنى فيها .

(١) الفرد في الجماعة كلفظ في بيت من الشعر إن فصلت اللفظ من البيت اختل البيت ، وتعطل معنى اللفظ .

(٢) تقيد الفرد بقيود الجماعة لا يعبده بل يحرره ، وثباته في الجماعة ينميه مثل الشجرة تثبتها في الطين فتنمو وإن لم تثبت في الأرض لم تنم .

(٣) الوهق : حبل فيه آخية يصطاد به يعني : أن قيد النظام للإنسان يمنع وثوبه ولكن يكمله ويطيبه .

(٤) أثبت خودي ، ومعناها : الذَّاتية ، وبيخودي : أي نفي الذاتية على لفظهما في الأصل يعني الشاعر أنَّ الإنسان إن لم يميز مواضع الذاتية من مواضع نفيها اشتبه عليه أمره ، وهذا أساس فلسفة إقبال . انظر المقدمة .

(٥) يعني : الذاتية .

(٦) وجودك منه ووجودي منه ، وهو مع هذا فرد لا يثنى .

(٧) هذا النور الذي يسميه الذاتية يصنع نفسه ويثبتها ويفرقها . وله دلال يظهر في صورة خضوع ، يعني أنه غالب ، وكأنه مغلوب .

يـأسـرُ الشعلـةَ هـذا الشَّـررُ | لهـبٌ مـنْ حـرِّه مُستعـرُ[1]
حـرةٌ رهـنُ قيـودٍ فطـرتُـه | جزؤه بـالكُـلِّ حـاطـت قـوَّتـه
لكفـاح دائـمٍ تنـزُو قُـواه | هو يُسمَى الذاتَ أو يُسمَى الحياه
يستثيـرُ الحـربَ فـي جلـوتِـه | حين يُبدي النَّفس منْ خلوته[2]
يقطـع الجبـرُ عليـه الطـرُقـا | ولـهُ بـالحـبِّ فـرعٌ سَمَقـا[3]
تتشظّـى الـذَّاتُ فـي أمَّتهـا | لتُـرى الـروضـةُ مـنْ زهـرتهـا[4]
نكتـةٌ خـذهـا بكـفٍّ مِخـدَم | « وانصرف عنِّيَ إن لـم تفهـم »[5]

* * *

في معنى أنَّ الملَّة تنشأ من إخلاص الأفراد وأنَّ تكميل تربيتها بالنبوَّة

ما ارتباطُ الجمعِ ، أنَّى يوصَفُ ؟ | قصـةٌ أوَّلُهـا لا يُعـرفُ
إنَّـنـا نبصـرُ فَـرداً فـي الجميـعْ | زهـرةٌ نقطـف فـي هـذا الربيـعْ[6]
فِطـرةٌ تنهـجُ نَهْـجَ الـوَحـدةِ | إنّمـا تـزهـرُ وَسْـط الـرَّوضـة
كـلُّ فـردٍ بـأخيـه ائتلفـا | مثـلَ درٍّ فـي سُمـوطٍ ألِّفـا
لَفَّهـم فـي عيشهـم معتَـرَكُ | كـلُّ فـردٍ بـأخيـه مُمسِـكُ

---

(١) شررٌ صغير ، ولكنه كبيرٌ في معناه يقوى على الشعلة الكبيرة .
(٢) يظهر من خلوته أي يبدو في الكون فيثير حرباً هي جهاد الحياة الدائم .
(٣) الجبر والإكراه يقطع عليه الطريق ، وهو بالحق والاختيار ينمو ويعظم .
(٤) تفرق الذات نفسها فتنمو من زهرتها روضة ، أي : تعظم وتكثر بهذا التفريق .
(٥) هذا الشطر من المثنوي لجلال الدين الرومي .
(٦) مذهب إقبال أنَّ غاية الجماعة سعادة الفرد ، وأن الفرد لا يفنى من أجل الجماعة .

مـن جِـذابِ تتـوالـى الأنجـمُ   كـوكـبٌ مـنْ كـوكـبٍ مستحكِمُ

* * *

كـان رَكـبُ النَّـاسِ مـأواهُ الجبالْ   ومـروجٌ وسُهـوب ورمـالْ
نسجُـه مـا أُحْكِمـتْ لُحْمَتُـهُ   فِكْـرُهُ مـا فُتِّحَـت زهـرتُـهُ
عـودُهُ مـا بلحـونٍ رَنَّمـا   لحنُـه لمَّـا يُـؤلَّـفْ نَغَمـا
لـم يُثِـره مِـنْ رجـاءِ مِضْـرب   لـم يَخـزه بـزبـانـى مطلـب[1]
محفـلٌ غُفْـل حـديـثِ المـولـد   جـامُـه مـن خمـره غيـر نـدي[2]
لـم يُـرعـرغ فـي ثَـراه نجمُـه   كـرْمُـه مـا فـارَ فيـه دمُـه[3]
فكـره دارٌ لغيـلانِ الخيـالْ   خـائفٌ مِنْ وهمه في كلِّ حـالْ
ذو وجـودٍ ضيِّـقٍ ميـدانُـه   قـد أحـاطـت فكـرَه جُـدرانُـه
طينُـه مـن خيفـةٍ قـد خُلقـا   قلبُـه مِـنْ قَصْـفِ ريـحٍ خَفَقـا
روحُـه مـنْ كـلِّ صَعْـبٍ تهـرُبُ   يَـدُهُ فـي أرضـه لا تضـربُ
كـل مـا ينمـو بـأرضٍ يقطِـفُ   كـلُّ مـا تـرمـي سمـاءٌ يلقَـفُ

* * *

ثـم يهـدي الله ذا قلـبٍ بصيـر   يكتب الأسفـار مِنْ حرفٍ يسيـر
عـازفٌ فـي كـلِّ نفْـسٍ ينفُـث   وحيـاةً فـي مـواتٍ يَبعـث
تقبـسُ الـذرَّةَ مِـنْ أنـواره   كـلُّ قَـدرٍ حـالَ فـي معيـاره[4]
يَنشـر الأنفـسَ منـه نَفَـسُ   بشعـاعٍ منـه يُـزهَـى مجلِـسُ

---

(١) المضرب ما يضرب به أوتار العود .
(٢) يعني : ليس عنده نشوة العمل والإقدام .
(٣) النجم : النبت الذي لا ساق له .
(٤) أي : تغيرت قيم الأشياء بما أتى به من مقاييس جديدة .

شفـــةٌ تُحيـــي وعيـــنٌ تَجـــذبُ   وحَـــدا الأشتـات هـــذا عجَـــبُ[1]

يَهَـــبُ النَّـــاسَ جـــديـــدَ النَّظـــر   يَجْعَـــلُ البيـــدَ كـــروضٍ نَضِـــرِ[2]

فتـــرى الأمَّـــةَ مِنْـــهُ ســـائـــره   بلهيـــبٍ مِنْـــهُ حَـــرَّى ثـــائـــره

شـــرراً فـــي قلبهـــا قَـــدْ أشعـــلا   فـــأحـــالَ الطِّيـــنَ فيهـــا شُعَـــلا

سيـــرهُ يعطـــي التـــرابَ البصَـــرا   فـــإذا الـــذرَّةُ سينـــاءَ تَـــرَى[3]

عـــارِيَ العقـــل بجـــدواه كســـا   وَهَـــبَ الثـــروةَ هـــذا المفلِســـا[4]

ينفُـــخُ الجمـــرة فـــي مـــوقِـــده   ويـــذيـــب الغِـــشَّ مـــن عسجـــده[5]

ويفـــكُّ العبـــدَ مِـــنْ أغـــلالـــه   ويُجيـــر القِـــنَّ مـــن أقيـــالـــه

قـــائـــلاً أن لســـتَ عبـــداً فـــاعلَـــمِ   أتَـــرى قـــدرَك دون الصَّنَـــمِ[6]

يجـــذب الإنســـانَ شطـــر المقصـــد   جـــاعـــلَ الشَّـــرع زمـــامـــاً فـــي اليـــدِ

نكتـــةَ التـــوحيـــد يـــوحيهـــا إليـــه   أدبَ الطـــاعـــة يمليـــه عليـــه[7]

* * *

---

(١) كلامه ونظره يجذب البعيد إليه حتى يصيرا كنفسٍ واحدة .

(٢) يهب الناس نظراً جديداً فيرون الأشياء على غير ما رأوها قبلاً ، فرب حسن يصير قبيحاً ، وقبيح يصير حسناً .

(٣) ترى الذرة على ضآلتها طور سيناء . الذرة لا ترى إلا في نور الشمس ، ولكن هذا الرسول الذي يتحدث عنه الشاعر يحيي الموات ، وينير الظلم ، فترى الذرة طور سيناء .

(٤) العقل عريان مفلس حتى يمده الرسول فيكسوه ويغنيه أي : هو يهدي العقل ويقويه .

(٥) يشعل العقل ، ويميز له الخبيث من الطيب .

(٦) الناس يعبدون الصنم ويستعبدون الإنسان فيقول الرسول للإنسان لست عبداً ، ولست قدراً من الأصنام .

(٧) يقيده بالشريعة ليجذبه إلى المقصود ويعلمه توحيد الله وأدب الطاعة فترى الإنسان حراً من عبادة الكبراء مقيداً بالشرع .

أركان الأمَّة الإسلاميَّة

الركن الأول : التوحيد

طـوَّفَ العقـلَ بـدنيـا العِلـلِ ... قـاده التَّـوحيـد شطـر المنـزلِ
أعـوَزَ المنـزلُ هـذا السـابـلا ... زورقُ الفكـر أضـلَّ السـاحـلا
في « آتي الـرحمن عبـداً » مُضمرُ ... رمـزُ تـوحيـدِ لقلـبِ يُبصـرُ[1]
يبتلـي التـوحيـدُ فيـك العمـلا ... فيجلِّـي لـك سـرّاً أُغفِـلا
يُشـرق الـدِّيـنُ بـه والحكمـةُ ... ويُـرى الأيـدُ بـه والمُكنـةُ
قـد تجلَّـى حيـرةً للعـالِميـن ... وتجلَّـى عمـلاً فـي العـاشقيـن
يـرتقـي فـي ظلِّـه المتَّضِـعُ ... ويصيـر التُّـربُ تِبْـراً يَسطـع
يجتبـي التـوحيـدُ عبـداً ثـابَـرا ... فيـردُّ العبـد خلقـاً آخـرا
فهـو فـي الحـق حثيـثٌ دائـبُ ... دمُـه كـالبـرقِ فيـه لاهِـبُ
ريبـهُ يَفنَـى ويحيـا العَمـل ... عينُـه فـي الكـونِ يَقظـى تعمَـلُ
فـي « مقام العبـد » إن تثبتْ قـدم ... جَـرَّةَ السـائلِ تُصبخ جامَ جم[2]
« لا إلــه » الـروحُ فـي أمتنـا ... « لا إلـه » اللَّحـن فـي نغمتنـا[3]
« لا إلــه » السـرُّ فـي أسـرارنـا ... « لا إلـه » السمـط مـن أفكـارنـا
صـار قلبـاً إنْ حـواهـا حجـرُ ... كـلُّ قلـبِ لـم تَحِـزه ، مَـدَرُ
يتلظَّـى الكـونُ مـنْ زَفـرتِهـا ... ويضـيءُ القلـبُ مـنْ وقـدتهـا
وتُسيـل القلـب مـاءً فـي الصـدور ... تصهـر المـرآة منـه فـي الحَـرور

---

(١) إشارة إلى الآية في سورة مريم ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ [مريم : ٩٣] .

(٢) كأس جشميد التي ترى فيها الأقاليم السبعة . أي إن صدقت النية في مقام العبودية لله وحده ينقلب السائل ملكاً ووعاؤه الذي يجتدي فيه يصير كأس جمشيد .

(٣) تقدَّم أنَّ « لا إله » اختصار كلمة التوحيد .

شعلـةٌ فـي روحنـا مثـلُ الشَّقيـق ... كـلُّ مـا نمتـاره منهـا الحـريـق

بيَّـض التَّـوحيـدُ مُسـودَّ البَشَـرْ ... فـأبـو بكـرٍ أخـوه وعمـر

ليـس إلا القلـب قـربٌ وابتعـادْ ... وهـذه الكـأسُ بهـا هـاجَ الفـؤاد

وحـدة القلـب قـوامُ الأمَّـة ... أشـرقـتْ سينـاءُ مـن ذي الجلـوة

قـد هـدى الأمَّـة سُبْـلَ العمـل ... هـذه الفكـر بهـا والأمـلِ

نـزعـةٌ واحـدةٌ فـي قلبهـا ... فعيـارُ الحُسْـنِ والقُبْـحِ بهـا

لا يُجيـد الفكـرُ فـي قيثـاره ... دونَ نـارِ الحـقِّ فـي أوتـاره[1]

نحـن فـي الإسـلام أبنـاءُ الخليـلْ ... من « أبيكم » خذ إذا شئت الدَّليلْ[2]

أُمـمٌ قـد عبـدتْ أوطـانَهـا ... وبنـتْ مـنْ نسـبٍ بنيـانَهـا

أتَـرى الأوطـانَ أصـلَ الأمـم ... تُعبَـد الأرضُ بهـا كـالصَّنـم؟

إنَّمـا الأنسـابُ فخـرُ السُّفهـاءْ ... حُكمها في الجسم ، والجسمُ هَباءْ

ضمَّنـا فـي الحـقِّ أسٌّ آخـرُ ... هـو فـي الألبـاب منَّـا مُضمَـرُ

قـد خلصنـا مـن حـدودٍ وقيـود ... قلبنا في الغيب إذ نحن شهودْ[3]

ضمَّنـا ، كـالـزهـر ، نظـمٌ مضمـرُ ... بصـرٌ ليـس يـراه مُبصـرُ[4]

وُحِّـد الـرئـيُ لنـا والفكـرةُ ... كسهـامٍ جمعتْهـا جَعبـةٌ[5]

نحـن فكـرٌ وخيـالٌ واحـد ... ورجـاءٌ ومـآلٌ واحـدُ

نحـن مـن نعمـائـه حِلـفُ إخـاءْ ... قلبنـا والـرُّوحُ واللفـظ سـواءْ

* * *

---

(١) الفكر وحده لا يجدي ، ولا بد له من حرقة الإيمان .

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج : ٧٨] .

(٣) أمتنا مؤسسة على العقيدة لا على الأرض . فقلوبنا ليست رهن الحس بل هي متصلة بالغيب ، أي بالمعاني التي لا تحدها الأوطان .

(٤) نظامنا قائم غير مرئي ، كالبصر لا تدركه الأبصار .

(٥) الرئي : المظهر .

في معنى أنَّ الخوف ، والحزن ، واليأس أمهاتُ الخبائث[1] وقاطعاتٌ طريق الحياة ، وأنَّ في التوحيد دواءَ هذه العلل الخبيثة

عُـــدَّة المــوت قُنــوطٌ مُحبــطُ — والحياة الحـقُّ أن « لا تقنطوا »[2]

إنمـــا العيـشُ رجـاءٌ يُــوصــل — فقنــوطُ الحــيِّ ســمٌّ يَقتــل[3]

يــأســك القبــر إليــه تــرجــع — إن تكـنْ ألْـوَنْـدَ فهـو المصـرع[4]

رُبّــت الخيبــة فــي أكنــافــه — ونمــا العجــز علــى ألطــافــه[5]

آهِ مـــنْ نـــوم الحيــاةِ المُخــدِر — إنَّـــه آيـــةُ ضعـــفِ العنصــر

كحلُـه فـي العيـن يُعمـي البصـرا — ويــردُ الصُّبــحَ ليــلاً أكــدرا[6]

نفــسٌ منــه سَمــومٌ للحيــاه — كــلُّ ينبــوعٍ بــه جــفَّ ثــراه

وهــو للغــمّ حليــفٌ واصــلُ — إنَّمــا الغـــمُّ لحـــيٍّ قــاتــلُ

يــا سجيــنَ الغــمّ أبصِــر واسمــعِ — من رسول الله « لا تحزن » وعي[7]

ذلــك النُّصــح ســرى فــي قلبــه — فغــدا الصِّــديــقُ صــدِّيقــاً بــهِ

نمــا المسلــم مثــلَ الكــوكــبِ — بــاســمٌ فــي سعيــه والــدَّأبِ

---

(١) مأخوذ مما جاء في الأثر من تسمية الخمر أم الخبائث .

(٢) مقتبس من القرآن ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ .

(٣) رجاء يوصل : دائم لا ينقطع .

(٤) ألْوَنْد : جبل عال مشرف على مدينة همذان يعني : إن تكن كجبل ألْوَند في اليأس مصرعك .

(٥) الضمير اليأس في أكنافه تشب الخيبة ، وبفضله ينمو العجز .

(٦) الكحل يجلو البصر ولكن كحل اليأس يعمي ويجعل النور ظلاماً .

(٧) إشارة إلى ما حكى القرآن الكريم من قول الرسول لأبي بكر في الغار : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

حـــرِّرِ النَّفــس مـــنَ الغـــمِّ ودَعْ　　إنْ عــرفــت الله ، أغــلالَ الطَّمــعْ

قـــوةُ الإيمـــانِ تُحيــي فــاعلَمـــنْ　　وِزدَ « لا خوفٌ عليهم » فاقرأنْ[1]

قلبـه مـن « لا تخـف » قلبٌ سليمْ　　حين يمضي نحو فرعونٍ كليمْ[2]

خـــوفُ غيـــرِ الله قتْـــلُ العمـــلِ　　وهـــو لـــلأحيـــاء قطـــعُ السُّبُـــلِ

وبـــه العـــزمُ يخـــاف الغِيـــرا　　وتـــرى المِقْـــدَام منـــه حَـــذِرا

مـن نمـا ذا البـذر يـومـاً فـي ثَـراهْ　　حَـــرمتْــه مـــن تجلِّيهـــا الحيـــاهْ

فهـــو فســـلٌ وهـــو شـــادٍ يَغْـــزِف　　يـــد شُلَّـــت وقلـــبٌ يـــرجُـــفُ

يســرِقُ الـرجـلَ قُـوَى تسيـارهـا　　يسلـــبُ الـــرأسَ قـــوى أفكـــارهـــا

إنْ تجلَّـــى لعـــدوٍّ خـــوفُكـــا　　هـــانَ كـــالـــوردِ ، عليـــه قطفُكـــا

سيفُـــه يـــزدادُ فتكـــاً فـــي اليـــد　　عينُـــه فيـــك حســـام لا يَـــدي[3]

غلَّنـا الخـوفُ ، وكـم فـي بحـرنـا　　مـــنْ عُبـــابٍ مـــائـــجٍ فـــي دهـــرنـــا

إنْ أبَـى النَّغمـة يـومـاً مِـزهَـرُكْ　　فمـــنَ الخـــوف تنـــدَّى وتـــرُكْ

فـــاعـــزِكِ الأذنَ يَثْـــر فيـــه الغنـــاء　　ويهـــزَّ اللحـــنُ آفـــاقَ السَّمـــاءْ

كـــلُّ شـــرٍّ فـــي فـــؤادٍ يُضمـــرُ　　أصلـــه الخـــوفُ ، إذا مـــا تُبصِـــرُ

مـــنْ ديـــار المـــوت عيـــنٌ قَـــدِمـــا　　مثل ميـم المـوت قلـبٌ أظلمـا[4]

عينُـــه تلبيـــسُ آثـــارِ الحيـــاه　　أذنــه تــدليــسُ أخبــار الحيــاه[5]

يُـــزهـــر الخِـــبُّ بـــه والمَلِـــق　　ونفـــاقُ القلـــبِ منـــه يـــورقُ

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

(٢) إشارة إلى قصة موسى وفرعون وقول الخالق عن موسى : ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾
وفرعون هنا نكرة ولهذا لحقه التنوين .

(٣) لا يؤدي دية من قتله .

(٤) عين : جاسوس . والميم في خط الرقعة والخط الفارسي مصمتة . فجعل الشاعر الخوف مظلم القلب مثل ميم الموت . وفي الأصل ميم مرك . ومرك : موت . فالميم في الأصل والترجمة .

(٥) تشوه مظاهر الحياة عينه . وتحرف أخبار الحياة أذنه .

ثــوبــه للــزُّور ستــرٌ والــريَــبْ حِجْــرُه الفتنــةُ فيــه والحــرَبْ

حُــرِمَ الخــوفُ طُمــوحَ الهمَّــةِ فهــو خــدنٌ لحليــف الــذِّلَّــةِ

كــلُّ مــن يفقــد ســرَّ المصطفــى يجدُ الإشراكَ فـي الخوْفِ اختفى

* * *

محاورة السَّهم والسَّيف

قـال سهـمٌ مـرهـفٌ يـوم الـزِّحـامْ قــال للسيـف وللحـرب ضـرامْ

يــا مــن الجَنَّــة فــي أعطــافــه ذو الفقار العضبُ من أسلافه ![1]

خــالــداً صــاحبْــتَ يَفْـري الفيلَقـا وعلــى الشَّــام نثـرتَ الشفقــا[2]

نــارُ قهــر الله فــي جــوهــرِكــا جَنَّــةُ الفــردوس مــأوى ظلِّكــا !

إننــي فــي الجــوّ أو فــي جَعبتـيِ حيثمــا كنــت ، بجسمـي شُعلتـي

وإذا القــوس رمتنــي للثُّبــور بَصُـرَتْ عيني بـأحنـاء الصُّـدور :

إنْ خـلا الصَّـدرُ مِنَ القلـبِ السَّليم مــا بــه يــأسٌ ولا خــوفٌ مقيـمْ

نَفَــذ النَّصــل خِــلالَ الأعظُــمِ فكســوتُ الجســمَ درعــاً مــن دمِ

وإذا حَــلاَّه قلــبٌ مــؤمــنُ نــورُه الظَّــاهــرُ ممَّــا يُبطــنُ

ذاب روحــي مــن فــؤاد وَقــدا وهمــىٰ نصلــي كقطْـرات النَّـدى

* * *

---

(١) ذو الفقار : سيف علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) في الأصل وعلى الشام نثرت الشفقا . وشام في الفارسية بمعنى الليل .

قصَّةُ

السُّلطان عالمكير والأسد[1]

إنَّ عـــالمكيـــر عـــالـــي المنزلِ — مـــن بنـــي تيمـــور فخـــرِ الـــدُّول

كـــانَ لـــلإســـلامِ منـــه عِـــزَّةُ — ولحكـــم الشـــرع فيـــه حُـــرمـــةُ

آخـــرُ الأسهـــم فـــي جُعبتنـــا — فـــي ذيـــاد الكفـــر عـــن ملَّتنـــا

غَـــرَسَ الإلحـــاد فينـــا أكبـــرُ — فنمـــا فـــي طبـــع دارا يُـــزهِـــر[2]

وخبـــا فـــي الصـــدر مصبـــاحُ الفـــؤادْ — وبـــدت أمتنـــا رهـــنَ فســـادْ

فتـــولَّـــى الهنـــد فـــي ذي المحنـــةِ — زاهـــدٌ ربُّ حســـامٍ مُصلـــتِ

اجتبـــاه الحـــقُّ للـــديـــن المبيـــن — اجتبـــاه أجـــلَ تجـــديـــد اليَقيـــنْ

أحـــرَق الإلحـــاد مـــنْ بـــرق الحُســـامْ — وأنـــار الـــديـــنَ فـــي هـــذا الظـــلامْ

حـــرَّف الجُهَّـــالُ عنـــه مـــا جـــرى — فكـــرُهـــم عـــن قصـــده قـــد قصَّـــرا

كـــان إبـــراهيـــمُ بيـــت الصنـــمِ — فـــي لظـــى الحـــقِّ فَـــراشـــاً يـــرتمـــي

كـــان فـــي الأمـــلاك فـــرداً خيِّـــرا — زهـــدُه مـــنْ قبـــره قـــد ظهـــرا[3]

---

(١) هو محيي الدين عالمكير الملقب أورنغ زيب ، أحد عظماء الملوك في دولة المغول في الهند ، وكان حريصاً على نشر الإسلام في الهند ملتزماً حدود الشرع ، حكم الهند من سنة ١٠٩٩هـ إلى سنة ١١٤٨هـ ، انظر ترجمته في « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » للعلامة عبد الحيّ الحسني ، الجزء الثاني ، طبع دار ابن حزم بيروت .

(٢) أكبر هو جلال الدين أكبر من أعظم سلاطين المغول في الهند ، حكم خمسين سنة ، وحاول أن يجمع بين الإسلام والأديان الأخرى في دينٍ سمَّاه الدين الإلهي ، وكان يتقرّب إلى الهنادك ، ويرعى شعائرهم . ودارا أخو عالمكير المذكور هنا .

(٣) شاهجهان بن تاج محل لزوجه . فلما ولي عالمكير لم يبنِ لأبيه مزاراً بل دفنه بجانب زوجه في تاج محل . ثم بنى لنفسه قبراً صغيراً ساذجاً .

ذاكـم المَلـك الفقيـر الجاهـد ... زينـة العـرش المليـك الماجـد[1]

سـار صبحـاً مُـوغـلاً فـي غَيضـة ... معــه مــنْ جُنْــدِه ذو ثقــة

فـي نسيـم الصبـح نشـوانَ خَطَـر ... سـامعـاً تسبيـح طيـرٍ فـي الشجرْ

وامّحى السلطانُ في شوق الصلاه ... مـن مجـاز حـثَّ للحـقِّ خُطـاه

وأتـى ليـثٌ مَهيـبٌ فَتِـك ... صـوتُـه يَـرعَـد منـه الفلـكُ

شـمَّ ريـحَ الإنـس بُعـداً فـدنـا ... وعلـى السلطـان أهـوى البُـرثُنـا

فـإذا الخنجـر منـه فـي اليـد ... بـاقـراً كـالبـرق بطـنَ الأسـد

لـم يفـزَع قلْبـه بـالبغتـة ... خال ليث الغاب ليث الصُّورة[2]

ثـمَّ للحـقِّ دعـاه الـولَـهُ ... فـي صـلاة الـوجـد معـراجٌ لـه[3]

مثـل ذا القلـب الـذي لـم يَهـنِ ... دارُه بـالحـقِّ صـدرُ المـؤمـن

إنمـا العبـد أمـامَ الحـقِّ « لا » ... وهـو للـزور « نعم » لـن يَبطُلا[4]

أيهـا الغـافـل! قلبـاً حصِّـلا ... هيِّئـنْ للحِـبِّ هـذا المحمـلا[5]

ابـذلِ النَّفـسَ تَنَلْهـا لا مفـرّ ... ذلَّ للحـقِّ تَنـلْ عـزَّ الـدَّهَـر

أحـرقـنْ بـالعشـق خـوفـاً وانهـدَا ... حمـلاً فـي الحـق ليثـاً للعِـدى

إنَّ خـوفَ الله إيمـانٌ جلـيّ ... ثـمّ تقـوى غيـرِه شـركٌ خفـي

* * *

---

(١) زينة العرش لقب هذا السلطان (أورنك زيب) .

(٢) توهم الليث صورة ليث .

(٣) ثم دعاه الوجد إلى الصلاة مرة أخرى .

(٤) العبد لدى مولاه يفنى ولكن يثبت في جهاد الباطل واللفظان العربيَّان « لا » ، و« نعم » في الأصل .

(٥) الألف في حصلا نون التوكيد الخفيفة .

الركن الثَّاني

الرسالة

تــاركُ الآفِــل ، مِــنْ قبـلُ الخليـل — هُـو للـرُّسْـل علـى النَّهـج دليـل
إنَّـــــه لله فينــــا آيـــــــةُ — رُبِّيَــتْ فـــي قلبـــه ذي المِلَّـــةُ
﴿ طهِّـــرا بيتـــي ﴾ إليــه أنـــزلا — بعـد سَيْـلٍ مــن دمـوعٍ سُيَّـلا[1]
قفـــرةٌ مـــن أجلنـــا قـــد عَمَّـــرا — وبنَـى البيــتَ الــذي قـد طَهَّــرا
﴿ تــب علينـا ﴾ نضَـرت زهـرتها — فنَمــتْ فـــي أرضنـــا روضتُهـــا[2]
صــوَّر الــرحمــنُ منَّـــا هيكـــلا — وحبـــاه الـــروحَ ممَّـــا أنـــزلا
أحـــرُفــاً كنَّـــا ولَسنـــا كَلِمـــا — فتـــألَّفنـــا كيـــبَ نُظِمـــا
بـــالـــرســـالاتِ بـــدا تكـــوينُنـــا — شـــرعُنـــا منهـــا ومنهـــا دينُنـــا
ذاكَ مَـــن « يهـدي إليـه مـن يـريـدْ » — حلقـــةٌ منهـــا حـــوالينـــا يشيـــد[3]
حلقـــــةٌ ذاتُ محيــــطٍ يُعجــــزُ — ســاحـةُ البطحـــاء فيهـــا مـــركـــز[4]
نحـــــنُ ممَّـــــا جمَّعتنـــــا أمَّـــــةُ — أُرسلـــت للنَّـــاس فيهـــا الـــرَّحمـــة
مَـــوْجُنـــا فـــي بحـــرهـــا متَّصـــلُ — مـــوجـــةٌ مـــنْ مـــوجـــةٍ لا تُفصـــل
أمَّـــةٌ فـــي حـــرزِ سُـــور الحـــرَم — فـــي حفـــاظٍ مثـــلَ أسْـــد الأجـــم[5]

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

(٢) إشارة إلى دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ [الحج : ١٦] .

(٤) بطحاء مكة .

(٥) إشارة إلى بيت البردة :

أحــلَّ أمتــه فـــي حـــرز ملّتـــه — كالليث حلَّ مع الأشبال في أجم =

إنْ تحقَّــق ممعنــاً فـــي كَلِمـــي ... نظــرةَ الصِّـــدِّيــق ربّ الفَهَـــم

فـــالنبــيُّ الـــروح فينـــا والعَصَــبْ ... وإلـــى القلـــبِ مِـــنَ الــربِّ أحَـــبّ

سِفْـــرُه فـــي القلـــب نبـــعُ القـــوَّة ... شَـــرعـــهُ حَبْـــلُ وريـــدِ الأمَّـــة

قطـــعُ حبـــلٍ منـــه للمـــوت رَديـــف ... كـذبـول الـورد فـي ريـح الخـريـف

حيَّـــتِ الأمـــة مـــنْ تـــريـــاقـــه ... صُبحهـــا نـــوَّر مـــن إشـــراقـــه

وحَّـــد المـــرســـلُ فينـــا النغَمـــا ... والطَّـــوايـــا والمُنـــى والألَمـــا

كثـــرةُ الأُلَّافِ عيـــنِ الـــوَحْـــدة ... ومِـــنَ الـــوحْـــدَةِ نَـــشْء الأمَّـــة[^1]

وحـــدة القصـــد حيـــاة الكثـــرة ... مقصـــدُ المسلـــم ديـــنُ الفطـــرة

علَّـــم الفطـــرة خيـــرُ الـــرُّسـلِ ... فمضينـــا للهُـــدى كـــالشُّعَـــل

بحـــرُه أخـــرجَ هـــذا الجـــوهـــرَا ... نحـــنُ روحٌ واحـــدٌ منـــه سَـــرى

هـــذه الـــوَحْـــدةُ مـــا لـــم تفقَـــدِ ... تحفـــظُ المسْلِـــمَ حتَّـــى الأبـــدِ

ختـــم الله علينـــا شِـــرْعَتَـــهْ ... وعلـــى المـــرسَـــل فينـــا بعثَتَـــه[^2]

محفـــلُ الأيَّـــام منـــا يَبســـمُ ... خُتِـــمَ الـــرُّسْـــل بنـــا والأمـــمُ

خـــدمـــةَ السَّـــاقـــي إلينـــا صـــرفـــا ... جـــامَـــه الآخِـــرَ فينـــا خلَّفـــا

« لا نبـــيٌّ بعـــدُ » فضـــلٌ عُـــرفـــا ... إنَّـــه حـــرمـــةُ ديـــنِ المصطفـــى[^3]

إنَّـــه قـــوةُ هـــذي الملَّـــة ... إنَّـــه ســـرُّ اتحـــاد الأمَّـــة

كـــلُّ دعـــوى بعـــدهـــا لـــلأفَـــنِ ... أحكِـــمَ الإســـلامُ طـــولَ الـــزَّمـــن

مـــا ســـوى الحـــقِّ قـــلاه المسلـــمُ ... قائلاً : « لا قوم بعدي » فاعلموا

* * *

[^1]: (١) الكثرة المؤتلفة هي في الحقيقة وحدة لا كثرة . وإذا ائتلفت الكثرة فاتحدت نشأت الأمّة .
[^2]: (٢) في حاشية الأصل بيت من البردة :
لمـــا دعـــا الله داعينـــا لطـــاعتـــه ... بـــأكـــرم الـــرســـل كنَّـــا أكـــرم الأمـــم
[^3]: (٣) لا نبي بعدي فضل من الله على هذه الأمة . ومكانة الإسلام من هذا .

في بيان أنَّ مقصود الرسالة المحمَّدية
تمكين الحرِّية والمساواة والأخوَّة بين البشر

عبد الإنسانُ أصنام البَشرْ — فهو في عُدْمٍ وذلٍّ محتقر
قيصرُ العَسفِ وكِسرى قيَّدا — منه جيداً ثمَّ رجلاً ويدا
ومن القسِّيس والمَلْك طِلابْ — بخراج الحقل ، والحقلُ خرابْ
نصب الأشراكَ للصَّيد الضرَعْ — بائعُ الجَنَّة أُسْقُفَ الخُدَعْ
حقله قد عاث فيه البَرْهمنْ — ومجوسٌ أحرقت ما قد خَزنْ
أضعفَ الرقُّ لديه الهِمما — لَحنُه في عوده سالَ دما

* * *

وأميناً بعث المولى به — سلَّم الحقَّ إلى أصحابه
رفعَ العُبدانَ بالحقِّ إلى — سُرُر الخاقان والزُّورَ قَلى
بثَّ في بَردِ الرَّماد الشُّعَلا — فعلى برويزَ فَرهادُ علا[1]
سلب السُّلطانَ حِزْبَ الآمرينْ — فسما بالحقِّ قدرُ العاملينْ
عزمُه هدَّ قديماتِ الصُّوَرْ — وبنى حصناً جديداً للبشر
بثَّ روحاً حيَّت الموتى بها — وافتدى الأعبدُ منْ أربابها
مولدٌ مات به العصر القديم — وبيوتُ النَّار والوثنِ حطيم
أزهرَ التحريرُ في روضته — هذه الصَّهباء من كرمَتِه
عصرنا اللألاء في أنواره — فتحَ الأعينَ في أحجاره[2]
خطَّ في العالم سطراً مُبدَعا — أمةً فاتحةً قد أبدعا

---

(١) برويز ملك عظيم من ملوك الفرس . وفرهاد مهندس فارسيٌّ له مع برويز وجاريته شيرين رائعة في الأدب الفارسي .

(٢) المدنية الحاضرة من آثار البعثة الإسلامية فهذا العصر جاء إلى الوجود في حجرها .

صدرُها من وَقدة الحقِّ أضاء — ذرَّةٌ منها أنارت في ذُكاء

أشرق الكون بها إذ يبتني — كعباتٍ منْ بيوت الوثنِ

ولدتها الأنبياء القُدُم — فإذا الأتقى لديها الأكرمُ

إخوةٌ فيها جميعُ المؤمنين[1] — طينها حريةٌ في العالمين

المساواة لديها فطرةُ — ومن التمييز فيها نفرةُ

نسلُها كالسَّرو حرٌّ قد علا — عهدها أحكَم من ﴿ قالوا بلى ﴾[2]

سجدة الحقِّ بسيماها غُرَر — قَبَّلَ النجمُ ثراها والقمر

* * *

قصة

أبي عبيد وجابان

في معنى الأخوَّة الإسلاميَّة[3]

مُسلمٌ في حَومةِ الحربِ أَسَرْ — قائداً منْ جيش كِسْرى ذا خَطَرْ

قائدٌ ربُّ خداعٍ ماكرُ — عجمَ الأيامَ ذئبٌ غادرُ

لم يعرِّفْ آسريه باسمه — أو يحدِّثْ أحداً عن وسمهِ

قال للآسر: يا ذا الكرمِ — آمنَنِّي. ذاك شأنُ المسلمِ

وضع الجنديُّ في الغمد الحسام — مُعلنا أنْ دمُك اليوم حَرام

وخبَتْ في الحرب نيران العَجَم — وهوى منْ آلِ ساسانَ العلَمْ

فإذا المأسورُ جابانُ الكبيرْ — قائدٌ في جند إيران أميرْ

---

(١) إشارة إلى الآية: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

(٢) إشارة إلى الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(٣) أبو عبيدة الثقفي: أحد قواد المسلمين في فتح العراق، وجابان: قائد فارسيّ.

أقبــل الجنــد بصــوتٍ قــارعِ يســأل القــائــد قتــل الخــادع

بُــو عبيــدٍ قــائــد الغُــزب الأبــيّ عزمُه في الحرب عن جيش غنيّ[1]

قــال يــا قــوم : ألسنـا المسلميــن نغمــةً واحــدةً فــي العــالَميــن

مــن أبــي ذرٍّ علــتْ أو حَيْــدر مــن بــلالٍ سُمعــتْ أو قَنبــرِ[2]

كــلُّ جنــديٍّ أميــنُ الملَّــةِ صلحُــه والحــربُ عهــدُ الأمَّــة

إنَّ جــابــان عــدوٌّ غَشِــمُ لكــنِ الأمــنَ حَبــاه مسلــمُ

دَمُــه اليــوم عليكــم حُــرِّمــا أمــةَ المختــار ! أوفــوا الــذِّممــا

* * *

قصة

السلطان مراد والعمّار[3]

في معنى المساواة الإسلاميّة

أخــرجــتْ أرضُ خُجنــدٍ صــانعــا نــال فــي التشييــد صيتــاً ذائعــا

صــانعــاً فــرهــادُ حقــاً وَلــدا لمــراد مسجــداً قــد شيَّــدا[4]

غضــب السُّلطــان مــنْ تقصيــره لــم يــرَ الإتقــانَ فــي تعميــرِه

قــدَحــت عيــنُ المليــك الشَّــررا ويــدَ المسكيــن فــوراً بتــرا

ســار للقــاضــي حــزينــاً يجــأر دمُــه مــن يــده يَنْهَمِــرُ

قال : يا مَن قولُه الحقُّ المبين ! يــا حفيظــاً شرعَ خيرِ المرسليـن !

---

(١) بو عبيد هكذا جاءت في الأصل واقتضى الوزن وذكر الاسم إبقاءها كما جاءت .

(٢) الحيدر : علي بن أبي طالب وقنبر خادمه . يعني : أن نغمة ينطق بها بلال ، أو قنبر هي نغمة علي وأبي ذر . سواء فيها الكبير والصغير ، والسيد والمولى .

(٣) مراد : أحد أمراء خوقند في تركستان في القرن الثالث عشر الهجري .

(٤) فرهاد مهندس له قصة رائعة معروفة في الأدب الفارسي .

لستُ للسُّلطان عبداً فاسْمَعِ — حكُم القرآن فينا واقطعِ[1]

قرعَ الحاكم سنَّ المُبلسِ — ودعا السُّلطانَ نحو المجلس

فأتى السلطانُ يخشى ذنبَه — هيبةُ القرآن تُدمي قلبَه

عينُه من خجَلٍ للقَدَمِ — وعلى خدَّيه لونُ النَّدَمِ

وقف الخصمان : خصمٌ يشتكي — وخصيمٌ في ثياب الملكِ

جَهر السلطان : إنِّي نادمُ — لا أردُّ الحقَّ إنِّي جارم

وتلا القاضي : « حياةٌ في القصاصْ » — ذاك قانونُ حياةٍ . لا مناص

ليس دون الحرِّ عبدٌ مسلمُ — وحَّدَ المعمارَ والمَلْكَ دمُ

سمع القرآن يُملي حكمَهُ — فنضا السلطانُ فوراً كمَّه[2]

إذ رأى الخصمُ الذي قد فعلا — آيةَ « الإحسان والعدل » تلا[3]

قائلاً : « لله أعفو وكفى — إنَّني أعفو لأجل المصطفى »

نَملةٌ عزَّت سُليمان القويّ — انظرن سطوة قانون النَّبيّ

جمع القرآنُ موليّ وفتاه — وذوي التيجان سوَّى بالرعاء

* * *

في بيان أنَّ الأمة الإسلاميَّة مؤسسة على التَّوحيد فلا تحدُّها الأمكنة

قلبنا الخفَّاق يأبى مَوطِنا — رِيحُهُ العاصفُ تأبى مسكنا[4]

---

(١) اقطع يد السلطان قصاصاً .

(٢) شمَّر كمَّه استعداداً لقطع يده .

(٣) آية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] القطع عدلٌ ؛ والعفو إحسانٌ .

(٤) حذف قبل هذا أبيات فيها حديث وقعة كربلاء .

ليسَ مِنْ هندٍ وروم قلبُنا — ما سوى الإسلام فيه أرضُنا
كعبٌ الشَّاعرُ في خير العباد — أنشد المِدحةَ من « بانتْ سعادْ »[1]
نَظَمَ الدُّرَّ منيراً في ثناه — من سيوف الهند سيفاً قد دعاهْ[2]
مَنْ على الأفلاك فيه رفعةُ — لم ترقهُ لبلادٍ نسبةُ
قال : سيفٌ من سيوف الله قلْ — يا نصير الحقِّ زوراً لا تقلْ
وكذا كَمْ قالَ ذو القَدْرِ العلي — من سَناه كحلُ عين الرُّسل :
ليَ مِنْ دنياكمُ قد حُبِّبا — بعضُ ما فيها حلالاً طيبا[3]
إنْ تكنْ سرَّ المعاني تعلمُ — فافهم النُّكتة في « دنياكمُ »
كان في الدُّنيا وفيها ما سَكَنْ — ذلك المشرقُ في ليل الزمَنْ
مِنْ سَناه قد تجلَّى العالمُ — مُشرقاً إذ كان طيناً آدمُ
لستُ أدري ما حِماه والوطنْ — أنا دارٍ أنَّه فينا سكنْ[4]
قد رأى في أرضنا دنيا لنا — وهو في الدُّنيا كضيفٍ بيننا
إذ أضعنا القلب في هذا اليَباب — وفقدنا النَّفس في هذا التراب
لا تحدُّ الأرضُ قلبَ المسلمِ — لا يُرَى في تيهِ « أنَّى وكمِ »[5]
ليس للمسلم في الأرض عَطنْ — حائرٌ في قلبه كلُّ وطنْ[6]

---

(١) كعب بن زهير الذي مدح الرسول بالقصيدة المعروفة : بانت سعاد فقلبي اليوم متبول .

(٢) إشارة إلى البيت :

إنَّ الرسول لسيفٌ يستضاء به — مهندٌ من سيوف الهند مسلولُ

(٣) إشارة إلى الحديث : « حبب إلي من دنياكم ثلاث . . » إلخ . لم يقل الرسول من دنياي ، أو دنيانا بل قال : دنياكم .

(٤) سكن الإنسان : من يسكن إليه من أهلٍ ، أو صديق .

(٥) لا يتيه في عالم العلل والمقادير .

(٦) يقول إقبال في ديوان ضرب الكليم :

إنما الكافر حيرا — ن له الآفاق تيه
ورأى المؤمن كونا — تاهت الآفاق فيه =

حصّلِ القلبَ ففي وُسْعَتهِ ... ضلَّ هذا الكونُ في فُسْحتهِ

عقدةَ الأقواتِ حلَّ المسلمُ ... هجر الدارَ الإمامُ الأعظمُ[1]

أمةٌ ملءُ الدُّنَى قد أسّسا ... جعلَ التَّوحيدَ فيها أُسُسا

صارتِ الأرضُ لدينا مَسْجِدا ... إذ أشاعَ الفَضلَ فينا وهدى

ذلكَ المحمودُ في الذِّكرِ الحكيمْ ... ذلكَ المحفوظُ بالله الرَّحيم

تفزعُ الأعداءُ منْ هيبتهِ ... في ارتعادٍ منْ سَنا طلعتهِ

فلماذا أرضَ أهليهِ هجرْ ؟ ... أتراه خشيةَ الأعداء فرّ ؟

حجبَ القصّاصُ معنى القصَّةِ ... غلطوا في فهم معنى الهجرة

هجرةٌ شَرْعُ حياةِ المسلمِ ... هجرةٌ سرُّ ثباتِ المُسْلم

إنها التَّسيار نَحْوَ الوُسعةِ ... ولأجلِ اليمِّ تركُ القطرة[2]

اهجرِ الزَّهرة أجْلَ الروضة ... إنَّ هذا الخسْرَ ربحُ الكثرةِ

شرفُ الشَّمْسِ مسيرٌ مطلقٌ ... فيه من فوق البرايا تخفُق

لا تكنْ نهراً من السُّحب يُمَدّ ... وكنِ البحرَ ، عُباباً لا يُحَدّ

اقصدن تسخير كلِّ العالَم ... لتُرى سلطانَ أهلِ العالَم

لا يقيّدك مُقامٌ في الورى ... وكنِ الحوتَ يَسيحُ الأبحُرا

كلُّ من حُرِّرَ مِنْ ذُلِّ الجهات ... فلكٌ يُزهِرُ منْ كلِّ الجهاتْ

تركَ الوردَ شذاهُ فسرى ... في فسيح المزجِ عِطْراً نَشَرا

يا أسيراً قد ثوى في روضةِ ... عندليباً هائماً في وردةِ !

سيِّرَنْ نفسك حرّاً كالصَّبا ... ثم عانق كلَّ أزهار الرُّبَى

= يعني : أن المؤمن المجاهد لا تعوقه ولا تحيره عقبات هذا العالم ، بل يسخرها كما يشاء .

(١) الإمام الأعظم رسولُ الله ﷺ .

(٢) في القرآن الكريم : ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] فالهجرة ترك المكان الذي يعسر فيه العمل إلى المكان الذي يتيسر فيه أداء الواجب .

احذرنْ منْ خدعة العَصْرِ الجديدْ   التبـاسَ النَّهـج حـاذرْ يـا رشيـدْ

***

في بيان أنَّ الوطن ليس أساس الأمَّة

قطَّعـوا الأرحـام بيـن الإخـوةِ   صيَّـروا الأوطـان أسَّ الأمَّـةِ
قـدَّسـوا الأوطـان إعجـابـاً بهـا   قسَّمـوا الإنسـان أسـرابـاً بهـا
طلبـوا الجنَّـة فـي « بئس القـرار »   « فـأحلُّـوا قـومهـم دار البـوار »[1]
محـق الجنَّـة هـذا الشجـرُ   ليـس إلا الحـربَ فيـه ثمـرُ
أنْكَـرَ الإنسـانُ وجـهَ الإخـوة   وانتهـت قصَّـةُ الإنْسـانيـةِ
ذهـبَ الإنسـانُ روحـاً وانقضـى   بقيـتْ أقـوامُـه وهْـوَ مَضـى
مَنْصِـبُ الـدِّيـن حـواهُ السَّاسـة   فنمـتْ فـي الغـربِ هـذي الآفـةُ
ديـنُ عيسـى بطلـت قصَّتُـه   وَخَبـتْ فـي دُوره شُعلتُـهُ
عجـز الأسقـفُ عـنْ تقـديـره   حـادتِ الأزلامُ عـن تـدبيـره
قـوم عيسـى حقـروا بِيعَتـهُ   أبطلـوا فـي سـوقهـم سكَّتـهُ
مـزَّق الـدَّهـريُّ ثـوب المـذهـب   ومـن الشيطـان قـد وافـى نَبـي
ذا الفُلَـورنَسـيُّ عبـدُ الـوثـن   كحلُـه أودَى بنـور الأعيـنِ[2]
خـطَّ لـلأمـلاك سِفـراً منكـرا   وبـذورَ الحـربِ فينـا بـذرا
مـزَّقَ الحـقَّ بحـدِّ القَلـم   فطـرةٌ تـؤثـرُ عَيـش الظُّلَـمِ
آزرُ العصـر ، بـدا تـزويـرُه   خطَّـةً بِـدعـاً جـلا تفكيـرُهُ
جعـل المُلـكَ إلهـاً دينُـه   كـلُّ قبـح نـالـه تحسينُـه

---

(١) اقتباس من القرآن جاء في الأصل .

(٢) الفلورنسيُّ : ميكافلي ، مؤلف كتاب الأمير الذي أحلَّ للملوك كلَّ وسيلةٍ تبلغ بهم الغاية .

جعلَ النفعِ عيارَ الذِّمَمِ حينما خرَّ لهذا الصَّنمِ[1]
صارت الحيلةُ فنّاً مُحكما ونما الباطلُ ممَّا علَّما
خطةٌ لِلْوَهْنِ فينا حبَكا في طريقِ الدَّهر ألقى حَسَكا
أرمدَ النَّاسَ بهذي الحكمة إذْ دعا التزويرَ بالمصلحة

***

في بيان أنَّ الأمة المحمدية ليس لها حدودٌ زمانيَّة أيضاً

أرأيتَ الطَّير في عُرسِ الربيع وهياجَ الكِمِّ والوَرْدَ اليَنيع
وعَروسُ الزَّهر نَشوَى النَّغَم وعلى الأرض قُرىً منْ أنجمِ
غسَلَ العُشْبَ دموعُ السَّحَرِ وشدا الماءُ لنومِ النَّهَرِ
وإذا الكمُّ على الغصن رَبا منحتْه حِجرَها ريحُ الصَّبا
دَمِيَ البرعومُ مِنْ قطفتهِ ومضى كالرِّيح عن روضته[2]
عَشَّشَ الوُرْقَ وطار البلبلُ وشذًا فرَّ وطلٌّ ينزل[3]
ليس يُكرى من ربيعٍ رونقُ حين تذوي زهراتٌ تَعبِقُ
محفلُ الأزهار باقٍ يضحك لا يُبالي كنزُه ما يُهلك
موسم الأزهار أبقى في الدَّهَر هو أبقى من ورودٍ وزهَر[4]
لا يبالي جوهراً قد كُسرا مَعدن يُنمي ويُبدي الجوهرا
كم شروقٍ وغروبٍ ، لا مقرّ ! أكؤسٌ تؤخذُ من دَنِّ الدَّهَر

---

(١) الصنم : الملك .
(٢) الريح : الرائحة .
(٣) تذهب طير وتجيء أخرى ، وتسير الرائحة وينزل النَّدى . فالروضة باقيةٌ على تبدل ما فيها .
(٤) موسم الزهر أبقى من آحاد الزهر . فالزهرة تذبل ، والموسم يدوم .

خمـرةٌ مـنْ شَـربِهـا لا تنفَـدُ تـذهـب الآمـاس والبـاقـي الغـدُ[1]

ثـابـتٌ فـي الـدَّهـر تقـديـرُ الأمـمْ مـن مَسيـر الغـدِ سيَّـارِ القَـدَمْ

يَسفُـر الخِـلُّ وتبقـى الصُّحبـة يـرحـل الفـرد وتبقـى الأمَّـة[2]

ولهـا عيـشٌ ومـوتٌ آخـرُ ثـم ذاتٌ وصفـاتٌ أُخَـرُ

ينشـأ الفـردُ مـن الطِّيـن القليـل تـولـد الأمـة مـن قلـبِ جليـلْ

نفَـسُ الأمَّـة يُحصَـى بـالمئيـنْ ويعيـش الفـرد عَشْـراتِ سنيـن

وحيـاةُ الفَـرْدِ روحٌ فـي بـدنْ وحيـاة الشعـب فـي حفـظِ السُّنَنْ

مـوت فـردٍ نَضْـبُ وردٍ للحيـاه مـوتُ قَـوْمٍ تـركُ قصـدٍ للحيـاه

* * *

كممـاتِ الفـردِ تفنـى الأمـمُ ولهـا يـومـاً قضـاءٌ يُحتَـمُ

أمـةُ الإسـلام تـأبـى أجـلا أصلها الميثاق في ﴿قالوا: بلى﴾[3]

لا تخـاف المـوتَ هـذي الأمَّـةُ ﴿ نحن نـزّلنا ﴾ لـديها حجـةٌ[4]

دامَ ذكـرٌ مـا أقـام الـذَّاكـرُ بـدوام الـذِّكـر دامَ الـذَّاكـر[5]

ذلـك المصبـاح أنَّـى يُطفَـأ ؟ قال ربي عالماً : ﴿ أن يطفئوا ﴾[6]

أمَّـةُ الحـقِّ إلـى الحـقِّ تُنيـبْ أمَّـةٌ يَعْشَقُهـا أهـلُ القلـوب[7]

---

(١) الآماس : جمع أمس .

(٢) يسفر ، أي : يُسافر .

(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] يعني : أنها قائمة على عقيدةٍ أزليةٍ عامةٍ خالدة فهي دائمة بدوام هذه العقيدة .

(٤) إشارة إلى الآية : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

(٥) المعنى : إن كان الذكر محفوظاً فلا بدَّ أن يدوم الذَّاكر ، فلا ذكر بدون ذاكر .

(٦) الآية : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢] .

(٧) إلى الحق تنيب : الحق هنا الله تعالى .

مُضلتٌ بالحقِّ ذا السَّيفُ الصَّقيلْ مُضْلتٌ من غمدِ آمالِ الخليلْ[1]
ما سوى الحقِّ محاهُ برقُه ليعيد الحقَّ حيّاً نطقُه
نحنُ للتَّوحيدِ أقوى حجةٍ للكتابِ اختارنا والحكمةِ[2]

* * *

أضمرَ الدَّهرُ علينا ثارَهُ مخفياً في صدره تاتاره
أطلق الفتنةَ منْ أحبالها ورمى بالطَّوْدِ من أثقالها
فتنةٌ موطئُها هامُ الأممْ نظرةٌ منْ طرفها قتلٌ عمَمْ
أنفُ هَوْلٍ في حشاها يرقُدُ ليسَ للأمسِ بمثواها غدُ
سطوةُ الإسلام للتّربِ هَوَتْ ما رأت بغدادُ روما ما رأتْ
لكن اسألْ ذلكَ الدَّهرَ المُليمْ محدَثَ الأفعالِ ذا المكرِ القديمْ
روضنا كان لهيبُ التتَر حَلْيَنا كان نِثارُ الشَّرر[3]
فلإبراهيم فينا فطرةٌ وإلى المولى لدينا نسبةُ
من لهيب قد جنينا زهَرا نار نمرودِ رَدَدْنا كوثرا
كلُّ نارٍ يوقدُ الدَّهرُ لنا زهراتٌ حين تأتي روضَنا

* * *

ذهب الروم وفُضَّ الموكبُ شرقُها أقوى وأقوى المغربُ
كأسُ ساسان من الغمِّ دَمُ حانُ يونان خرابٌ مُظلم[4]

---

(١) إبراهيم الخليل : كان يأمل أن تخرج من ذريته أمةٌ موحدة فانجلت آماله عن هذه الأمة .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

(٣) يعني : كانت نار التتر علينا برداً وسلاماً ، بل كانت روضة لنا كما كانت النار لإبراهيم .

(٤) ساسان الذي تنسب إليه دولة الفرس الساسانية التي سيطرت من القرن الثالث الميلادي=

وعنــت مِضــرُ لــدهــرٍ عَــرِم وثَــوتْ أعظمُهــا فــي الهَــرَمِ
وأذانُ الحــقِّ فينــا خلَــدا أمــةُ الإســلام تبقــى أبــدا
إنَّ للكــونِ مــنَ العِشــق حيــاه وبــه أجــزاؤه شــدَّت قُــواه
أحيــت العِشــقَ قلــوبٌ تُسعَــر شَبّهــا مــنْ « لا إلــه » الشَّــرر[1]
إنْ نكــنْ كــالكــمِّ نُطــوَى كَمَــدًا فــرَدانــا فيــه للــرَّوضِ رَدَى[2]

* * *

في بيان أنَّ الأمة لا تنتظم بغير شريعة وشريعة الأمة المحمَّدية القرآن

أمَّــةٌ خلَّــت يــداهــا السُّننــا ككثيــبٍ مــنْ رمــال وَهَنــا
سيــرةُ المُسْلِــم شــرعٌ وكفــى ذلكُــم بــاطــنُ ديــنِ المصْطَفــى
بــانتظــامِ الصَّــوْتِ تعلــو النَّغمــةُ وهــي مــن دونِ نظــامٍ ضجَّــةْ
إنَّمــا فــي الحلــق مَــوجٌ مــن هَــواء يَعلَــق النَّظــمُ بــه فهْــوَ غِنــاء
صــاحِ هــلْ تعلــم مــا سُنتكــا ؟ أيَّ ســرٍّ ضَمنــتْ قــدرتُكــا ؟
الكتــابُ الحــيُّ والــذِّكــرُ الحكيــم حكمــةٌ فــي الــدَّهــر تبقــى لا تــريــمْ
إنَّ فيــه ســرُّ تكــويــن الحيــاه يستمــدُّ النكــس أيــداً مِــنْ قُــواه
لفظــةٌ لا ريــبَ أو تبــديــلَ فيــه آيــة لا لَبــس أو تــأويــلَ فيــه
قــوةٌ فيــه تشــدُّ الخــورَا وبهــا يــرمــي الــزجــاجُ الحجــرا

= حتى ظهور الإسلام .

(١) يعني : أنَّ الأمة الإسلامية تبقى بما في قلوبها من الوجد والهيام والإقدام على العمل وهذا العشق حياة العالم .

(٢) إن كنا في ضيق وغم منطوين ككم الزهرة فحياة هذه الروضة ، هذا العالم ، رهن بحياتنا إن متنا ماتت .

قطَّعَ الأشراكَ عن صيدٍ كسير فدعا الصَّيَّادُ منه بالثُّبور
ذا بلاغٌ آخِرٌ للمرسلين قد تلاه « رحمةٌ للعالمين »
ترفعُ الخاملَ فيه رفعةٌ وتقيمُ الرأسَ منه سجدةُ
قاطعو الطرْقِ هداةً صُيِّروا من كتابٍ ، كم كتابٍ سَطَّروا
والبوادي منْ سراجٍ زَهَرا قد أضاؤوا بالعلومِ الفِكَرا[1]
الَّذي يُصدَعُ مِنْهُ الجبلُ وعلى الأفلاك منه وَجَلُ[2]
ذلك الينبوعُ منْ آمالنا قدْ حواه الصَّدْرُ منْ أطفالنا
انظُرِ الظمآنَ في حَرّ القفارْ عينُه حمراء منْ وَقْدِ النَّهار
عَنسُه كالظَّبي في تَعْدائِها دمُها كالنَّارِ في رمضائها
طائفُ الصَّحراء يأبى الجُدُرا ضاربٌ في البيدِ يقلي الحضرا
خَفَقَتْ في قلبه هذي السُّوَرْ فاستقرَّ الموج فيه كالدُّرر[3]
قرأ الدرس مِنَ الآي المبينْ فغدا بالحقِّ حرّاً لا يَمين
حكمَ الدُّنيا جميعاً عدلُه عَرْشَ جمٍّ وطئته رجلُه[4]
مُدُناً قد شيَّدتْ هَبوتُه ورِياضاً أنْبَتتْ زهرتُه[5]

* * *

إنَّ إيمانك في قيدِ الرُّسوم سننُ الكفرِ لكَ السِّجنُ المقيمْ
أمرُكم قطعتمُ فهو « زبُر » مُسرعي السَّيرَ إلى شيء نُكُرْ[6]

---

(١) زهر السراج : أضاء .
(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .
(٣) سكن اضطرابه واطمأن ، موجه الثائر سكن واستقر كالدرة في الماء .
(٤) جم : جمشيد أحد ملوك الفرس القدماء .
(٥) الهبوة : الغبار الذي يثور في الحرب ، أو سير الأرجل الكثيرة ، ونحوها .
(٦) إشارة إلى الآيتين : ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ [المؤمنون : ٥٣] و ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ

سَكِرَ الصُّوفيُّ من أحوالِه وانتشى باللَّحن مِنْ قوَّالِه[1]

قلبُهُ شعرَ العراقيِّ تلا ومن القرآن أقوى وخلا[2]

تاجه والعرش صوفٌ وحصيرْ فقره يَجبي رباطاً للفقيرْ[3]

وأخو الوعظِ جُزافاً قائلُ كَلِمٌ عالٍ ، ومعنى سافِلُ

قولُه مِنْ ديلميٍّ وخطيبْ فعلُه حِلف ضعيفٍ وغريبْ[4]

لكتاب الله حقٌّ . فاقرأنْ كلَّ ما تبغيه منه فاطلبَنْ

* * *

في بيان أنَّ التقليد في زمن الانحطاط أولى من الاجتهاد

عصرنا هذا مليءٌ بالفِتَن طبعُه خلقُ شرورٍ ومِحَنْ

محفلُ الماضين فيه مقفر صوَّحتْ فيه حياةٌ تنضُر

أنكرتْ أنفسَنا أنظارُنا وجَفَتْ نغمتَها أوتارُنا

شعلةُ التَّوحيد فينا سَلَبا نارَه والنُّور منَّا سَلبا

وإذا ما اعتلَّ تقويم الحياه فَمِنَ التقليدِ للقوم نجاه

سُننُ الآباء حَبلُ الملَّة ومِنَ التقليد جمعُ الأمَّة

يا خليّاً في خريفٍ من ثَمرْ ارقب الغيث ولا تجفُ الشَّجر[5]

= ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر : ٦] .

(١) القوَّال : منشد القصائد الدينية ، وهو معروف بهذا الاسم في إيران والهند .

(٢) العراقي : شاعرٌ صوفيٌّ فارسيٌّ .

(٣) يعني : أنه يأخذ مالاً من الفقراء المقيمين في الأربطة .

(٤) الديلمي والخطيب من رواة حديث الضعفاء . والضعيف والغريب من أنواع الحديث . بين الشاعر أنهم تتبعوا المحدثين غير الثقات والأحاديث غير الصحيحة يستدلون على أقوالهم وأفعالهم .

(٥) يعني : يجب الاستمساك بسنن الآباء حتى تعود للأمة سيرتها . كما ينتظر صاحب =

قد حُرِمْتَ البحرَ فاذكر خُسرَكا … يا قليلَ الماءِ واحفظْ نهركا[1]

فعسى سيلُ الجبالِ الهادرُ … منه في مجراك لجٌّ زاخرُ

حالُ إسرائيلَ فيها تَبْصِرَه … إنْ تكنْ روحُك روحاً مُبصره

انظرنْ كيف ابتلاها الزَّمنُ … وَعَرتْها في الخطوب المِحَنُ

وجهُها في كلِّ حينٍ يُلطمُ … كادَ في أعراقها يَفنى الدَّمُ

عصرتْ عنقودَها كفُّ الخُطوبْ … ذكرُ هارون وموسى في القلوب

إنْ خبا في اللَّحن منها قَبَسُ … لم يزل في الصَّدر منها نفَسُ

سار في إثر الجدود المحملُ … حينما انفضَّ لديها المَحفلُ

يا من انفض له جمعٌ وجاه … وخبا في صدره شمعُ الحياه

آيةَ التوحيد في القلب اسطُرا … ومنَ التقليد أمسك بالعُرا

اجتهادٌ في زمان القهقرى … يذهبُ الأقوامَ منه شذرا

اقتداءٌ برسومِ الأوَّلين … هو أولى ، لا اجتهاد الغافلين

لم يُصبْ آباؤنا بالهَوَسِ … طهُرتْ أعمالُهم كالأنفُسِ

فكْرُهُم كان رقيقاً مرهَفا … فعلهمُ أوفى بشرعِ المصطفى

فِكَرُ الرازي ونجوى جعفر … أينَ ؟ والعُربُ هداةُ البشرِ

ضيَّق الدينُ علينا يسرَه … وادَّعى كلُّ لئيم سِرَّه

قد جهلت الدِّين عنه حائدا … الزَّمَنْ يا حُرُّ نهجاً واحدا

باحَ لي بالسرِّ نبَّاضُ الحياه … إنَّما في الخلف مقراضُ الحياه[2]

وحدةُ الشرع حياةُ الأمة … فمن القرآن روحُ الملَّة

نحنُ طينٌ وهو قلبٌ لا جَرَمْ … هو « حبلُ الله » من شاء اعتصَمْ

= الشجر أيام الخريف إيراقه وإثماره في الربيع ، ولا يقطعه أو يهمله .

(١) إن قلَّ الماء في نهرك فاحتفظ بالنهر عسى أن تأتيه السيول بالماء فيزخر مرةً أخرى .

(٢) كلمتا نبَّاض ومقراض في الأصل .

فـانتظـمْ فـي سلكـه كـالـدُّررِ ... أو غبـاراً فـي الـرِّيـاح انتثـرِ

* * *

في بيان أنَّ كمال سيرة الأمَّة من اتِّباع الشَّرع الإلهي

لا تقلْ فـي الشـرع معنًـى مُضمرُ ... ليـسَ إلَّا النـورَ تحـوي الـدُّرَرُ
جـوهـرٌ أبـدعَ فيـهِ القـادرُ ... جـوهـرٌ بـاطنـه والظـاهـرُ
ليس علـمُ الحـقِّ غيـرَ الشِّـرْعـة ... ليـس غيـرَ الحـبِّ أصـلُ السنَّـة
شـرعُنـا للفـرد مِـرقـاةُ اليقيـنْ ... تـرتقـي منـه مقـامـاتُ اليقيـن[1]
شِـرعـةُ الحـقِّ نظـامُ الأمـم ... ومـن النَّظـم دوام الأمـم
إنَّ فيـه الأيـد يـا مـن أخلَصـا ... اليـدُ البيضـاءُ فيـهِ والعصـا
قـامَ لـلإسـلام بـالشَّـرعِ قـوام ... بـدؤه الشَّـرعُ وبـالشَّـرع الختـام
لـكَ أيـدِي نكتـةَ الشَّـرع المبيـن ... أنتَ مَن في حِكْمةِ الدِّين أمينْ :
إنْ يعـارِض ذو عنـادٍ مسلمـا ... فـي أداءِ النَّفـل مـا إنْ لـزمـا
صـارَ هـذا النفـلُ فـرضُ الأمـة ... فـالحيـاةُ الحـقُّ عيـنُ القـدرة
وإذا جيـشُ عـدوٍّ فـي الـوغـى ... تـركَ الإعـدادَ والسِّلـمَ بَغـى
وقضـى أوقـاتَـه فـي الـدَّعـة ... تـاركـاً لِلْحَـرْبِ أخـذَ العُـدَّة
فحـرامٌ أخـذه بـالبغتـة ... قَبْـلَ أن يـأخـذ كـلَّ الأهْبَـةِ
سـرُّ هـذا الأمـر يـا ذا البصـر : ... « الحيـاةُ العيـشُ بيـن الخَطـرِ »
يتحـدَّاك بـرضـوى العـاليـه ... فـي امتحـانِ لِقِـواكَ العـاتيـه[2]
ويـناديـك أن اقصـمْ ظهـرهـا ... وبحـدِّ السيـف فـاصهـرْ صخـرهـا
ليـس كـفءَ الليـث فـي صـولتـه ... حمَـلٌ يـرجـفُ فـي ذلَّتـه

---

(١) مرقاة اليقين ومقامات اليقين في الأصل بلفظهما العربي .

(٢) في الأصل : جبل ألوند . واستبدلت به رضوى في الترجمة .

إنْ حكى الصَّعوةَ صقرٌ كاسِرُ ... فهْوَ كالصَّعوة واهٍ خائِرُ

كتبَ الشارعُ ربُّ الحكمة ... لكَ هذا اللوحَ ، لوحَ القُدْرَة

يَشْحذُ العزم بنارِ العمل ... ويرقِّيكَ لأعلى مَنْزِل

وإذا تَلْغَبُ يعطيك القُوى ... ويربِّي منك طوداً ما خَوى

إنَّ دينَ المصطفى دينُ الحياه ... شَرْعُه للنَّاس قانون الحياه

إنْ تكنْ أرضاً يصيِّركَ السَّماءْ ... ويربِّيك كما الحقُّ يشاءْ

يصقل المرآةَ مِنْ صخرٍ شديد ... وينقِّي الرَّينَ منْ قلبِ الحديدْ

ضيَّع القومُ شعارَ المصطفى ... ضيَّعوا رَمز بقاءٍ عُرِفا

ذلك الغصن العسِيُّ المعتلي ... مُسلمُ الصَّحراء ربُّ الجَمَلِ

الذي البطحاء أزكتْ غَرْسَهُ ... ورياحُ البيد ربَّت نفسَه

أذْبَلتْهُ اليومَ ريحُ العَجم ... صيَّرته النايَ روحُ العَجَمِ

قاتلُ الآساد ذبحَ الغنم ... وطءُ نملٍ مسَّه بالألم

من أذابَ الصَّخرَ من تكبيره ... راعه البلبل في تصفيره

من علا الطودَ سريعاً مُصعِدا ... غلَّ بالتُّكلان رجلاً ويدا

من برى الأعناق ضرباً عَضبُه ... يَلْدِمُ الصَّدر ويَدمَى قلبُه

مُوقظ الآفاق مِنْ خطْواتهِ ... قُيِّدت رجلاه في خَلْواته

منْ أطاع الناسُ طرّاً أمرَه ... واجتدى دارا وكسرى برَّه

رضي القُنع وأكدَى جِدُّه ... وارتضى الكِدْيةَ عِزّاً جَدُّه

شيخنا أحمدُ[1] منْ في قُرْبه ... تكسبُ الشَّمسُ سناً في قلبه

قال يوماً لمريدٍ فهمِ ... احذرنْ يا صاح فكرَ العجمِ

فكرُهم إنْ كان للنّجم ارتقى ... فهْو منْ سُنتنا قد مرَقا

---

(١) هو الشيخ أبو العباس أحمد الرفاعي ، صوفيٌّ عراقيٌّ من كبار الصوفية ، مؤسس الطريقة الرِّفاعية ، انضمَّ إليها خلقٌ كثيرٌ من الفقراء ، كان له به اعتقادٌ كبير ، توفي سنة (٥٧٧هـ) (١١٨٢م) .

يـا أخـي فـاسمـعْ لهـذا الـرَّشَـدِ استمـع نُصْـحَ الإمـام المُـرشِـد
وبهــذا الحــقِّ فــاشــدُد قلبكـا واتبـع العُـرْبَ تُصِـبْ شِـرعَتكـا

***

في بيان أنَّ حُسْنَ سيرة الأمَّة من التأدُّب بالآداب المحمَّدية

سـائـلٌ مثـل قضـاء مُبْـرَم صـاحَ بـالبـابِ بصـوتٍ مُبـرِمِ[1]
بـالعصـا صُلـت عليـه غضبـا فهـوَى مـنْ يَـده مـا قشبـا[2]
إنَّ هـذا العقـلَ فـي شـرْخِ الشَّبـابْ لا يبـالـي بضـلالٍ وصـوابْ
ورأى الـوالـدُ فعلـي فنفـر وذوى فـي وجهـه روضُ الـزَّهـر
آهــةٌ فــي فمــه تلتهــب قلبُـه فـي صَـدْرِه يَضْطـرب
كـوكـبٌ فـي عينـه قـد ومضـا نـوَّرَ الهُـدبَ قليـلاً ومضـى[3]
روحـيَ الغـافـلُ فـي الجسـم ارتعـدْ ومضـى الصَّبـرُ وخـلاَّنـي الجلَـدْ
مثـلَ فـرْخٍ فـي الخـريـف انتفضـا مـنْ ريـاحِ اللَّيـل فـي العُـشِّ قضَـى
قـال لـي الـوالـد : يـومَ المحشـر تلتقـي أمَّـةُ خيـر البشـرِ
الغُـزاة الغـرُّ مـنْ أمَّتـه وأولـو الميـراث مـن حِكمتـه
والنجـومُ الـزُّهـرُ أربـابُ الصَّفـاء حجـةُ الـدِّيـن فـريـقُ الشُّهـداءُ
وأولـو العلـم وأربـابُ القلـوب وأولـو الزُّهـد وأصحـاب الذُّنـوب
وعـلا فـي لـجِّ هـذا المحشـر صـوتُ هـذا السـائـل المنكسـرِ

---

(١) وقعت هذه القصة في سيالكوت بلد إقبال وقصّها على الناس كثيراً . ومبرم في آخر البيت بمعنى ممل .

(٢) قشب : جمع وكسب .

(٣) يعني دمعت عينه ، علق الدّمع بأهدابه ثم سقط .

أيها الحائر في ذا الموكب ! ما جوابي حين يلحاني النَّبي :
« قد حباك الحقُّ طفلاً مسلما لم تُنله من كتابي مغنما
هيِّن الأشياء قد شقَّ عليك لم يَصِرْ ذا الطِّينُ إنساناً لديك[1] »
وأنا في العَتْب من خير الرُّسُلْ بين خوف ورجاء وخجَلْ
أفكِرنْ في الأمر واذكر يا بُنيّ أمةَ المختار إذ ترنو إليّ
لحيتي البيضاء في الحشر انظرِ رِعدتي في الخوف والحزن اذكرِ
لا تزد عبء أبيك الوَهنِ عند مولاي غداً لا تُخزِني
أنت كِمٌّ في فروع المصطَفى فتفتَّح في ربيع المصطفى
نظرةً من روضهِ فالتمسِ وسناً من خُلْقه فاقتبسِ
مرشدُ الرُّوم الذي قطرتُه قد حوت بحراً ، سَمَتْ قولته :[2]
« لا تجذَّ الحبل من خير البشرْ لا تقل عندي فنون وبَصر »
فطرةُ المسلم طرّاً رأفةُ قوله والفعل كلٌّ رحمةُ
العظيمُ الخُلْق منْ شقَّ القمر رحمةٌ عمَّت ونُورٌ للبشر
لستَ منْ معشَرنا فاعتزلِ إنْ تكنْ منه بعيدَ المنزلِ
طائرٌ أنت على دَوْحتنا شدْوُه واللَّحنُ منْ نغمتنا
إنْ تكنْ ذا نغمةٍ لا تُفرد بسوى بستاننا لا تُغْردِ[3]
كلُّ من أوتي حظّاً منْ حياه في سوى بيئته يلقى رداه
بلبلٌ أنتَ ؟ ففي الرَّوض امرَح ومع السِّرب بلحن فاصدَحِ
إنْ تكنْ صقراً فلا تغش البحَارْ ليس إلا خلوةَ الصَّحراء دار[4]

---

(١) هذا قول النبي لوالد إقبال في المحشر .

(٢) جلال الدين الرومي . وما بين القوسين من ديوانه المثنوي .

(٣) أغرد : أطرب بالتغريد .

(٤) الصقر يعيش في الصحراء ، والبلبل بين الأشجار فليلزم كل بيئته .

أو تكن نجماً فنوّر في سَماك لا يكن مَسراك إلا في الحِباك

* * *

قطرَ نيسانَ اجمعنْ إنْ تردِ واجعلنْ في الروض مأواه النَّدِي[1]
لتراهُ مثلَ قطراتِ النَّدى تحضنُ الأكمامُ منها ولدا
وانشِف الأنداء منْ جوهرها واسلبِ اللألاء منْ عنصرها
بشُعاعِ الصُّبحِ وضَّاء البُكر الذي من سحره ينمو الزَّهَر[2]
لن ترى دُرَّك إلا كالحبَاب لنْ ترى سَعْيَكَ إلا في سرابْ
ألقِها في اليمّ تُعْقَدْ جوهرا ماؤها يسطعُ نجماً نيِّرا
قطرُ نيسان عن اليمّ نأى لجفافٍ . لن تراه لؤلؤا

* * *

طينةُ المسلم درٌّ يا بُنيّ ماؤها والنُّورُ منْ بحر النَّبيّ
قطرَ نيسان ! فغُصْ في موجه وابرزنْ ، درّاً صَفَا ، من لجه
صاح ! من شمس الضُّحى كن أنورا كن ضياءً ليس يخبو الدَّهَرا

* * *

في بيان أنَّ حياة الأمَّة تحتاج إلى مركزٍ محسوس وأنَّ مركز الأمَّة الإسلاميَّة البيت الحرام

عقدةٌ تنحلُّ منْ أمر الحياه حين أفشي لكَ منْ سرّ الحياه :
كخيالٍ جَفَلتْ من نفسها حُرَّةٌ قد نفرت من حبسها[3]

---

(١) مطر شهر نيسان الذي ينشأ منه اللؤلؤ في ظن القدماء .

(٢) متصل بالبيت الذي قبله ؛ أي : انشف الماء بشعاع الصبح .

(٣) الأوصاف في هذا البيت وما بعده أوصاف الحياة .

وقتُها ما فيه أمسٌ وغدُ   في دُنى الأوقات ليست تُصْفَدُ
أنظرنْ نفسَك حيناً واعتبرْ   لستَ إلّا جَوَلاناً يستمرّ
شعلةٌ فيها أعدَّت سِتْرها   منْ دخانٍ فأشاعت سرَّها
ماؤُها قد عقدته في دُرز   ليُرى السَّيرُ سكوناً في النَّظر
نارُها في نفسها تُخفي الحريق   وتُرَى في الغُصْن أزهارَ الشقيق[١]
فكرُكَ العاجزُ عنها أوهِما   طيرانَ اللَّون وَرداً جُسْما[٢]
ما أوى للعُشِّ هذا الطائرُ   هو طيْرٌ وهْو لون طائر[٣]
هو حرٌّ وحواه مَحبِسُ   وهو في النَّوح لحوناً يَنبُس[٤]
ريشُه ينسلُ طيراً كلَّ حينْ   يخلقُ الأسبابَ منه كلَّ حين
عُقداً تعقد في أعمالها   وتحلُّ العقد في تجوالها
تسكنُ الطِّين على إسراعها   لتزيد السَّير في إهطاعها[٥]
كم لحونٍ في جواها رُقَّدِ   يومُها ميلادُ أمسٍ وغدِ
في سهولٍ كلَّ حينٍ وحزونْ   كلَّ حين في اختراعٍ وفنون
إنْ تكنْ كالرِّيح تأبى محبسا   تنزلُ الصَّدر فتُدعى نَفَسا
حولَها منْ خيطها ناسجة   حولَها مِنْ خيطها عاقدة
هي في العُقْدة مثلُ الحبَّة   مضمرٌ فيها فروعُ الدَّوحةِ
تفتحُ العَيْنَ على ما تُضمر   فإذا الدَّوحة منها تَظهر

---

(١) نار الحياة تخفي حرها، وتظهر أعراضها في مظاهرها. ومثل الشاعر بأزهار الشقيق التي جعلها الشعراء مثلاً للالتهاب.

(٢) الحياة حركةٌ دائمة يتوهمها الإنسان ثابتة. يقول إقبال: الفكر العاجز عن إدراك الحياة يرى جسماً يسميه ورداً وليس هو في الحق إلا لوناً في طيران مستمر.

(٣) الطير: الطيران. والحياة طيران ولون طائر. لا ثبات لها، ولا تستقر في عش.

(٤) الحياة مقيدة بأشكال وهي في الحقيقة لا تحويها هذه الأشكال. ونوحها وغناؤها متصلان.

(٥) تضع نفسها في الطين (تزرع وتغرس) لا لتسكن فيه بل تزيد إسراعاً في سيرها.

خلعـةُ الطِّيـن عليهـا تُـرفَـد ... فـإذا عيـنٌ وقلـبٌ ويـدُ[1]
تـؤثـر الخلـوةَ فـي الجسم الحيـاه ... وتجلّـى نشـأةَ العـمّ الحيـاه[2]
هكـذا سنَّـة ميـلاد الأمـم ... مـركـزٌ فيـه حيـاةٌ تنتظـم[3]
إنّمـا المـركـز روحُ الـدائـرة ... نقطـةٌ ، فيهـا محيـطٌ ، ضـامـره
ومِـنَ المـركـزِ للقـوم نِظـام ... وَمِـنَ المـركـز لِلْقَـوْم دوام
نقطـة المـركـز منّـا الحَـرمُ ... لحنُنـا والـوجـدُ فينـا الحـرمُ
نفَـسٌ فـي صَـدْرنـا يتّقـد ... روحنـا الغـالـي ، ونحـن الجسد
مِـنْ نـداه نَضَـرت أغصـاننـا ... حَـيَّ مـن زمـزمـه بستـانُنـا
نحنُ مِنْ دعـواه فـي الـدنيـا دليل ... نحـنُ فيـه مـن بـراهيـن الخليلْ[4]
صـوتنـا ينـدَى بـه فـي الأمـم ... واصـلاً مُحـدَثَنـا بـالقـدمِ
وحّـد المـلّـة طـوفٌ حـولـه ... فهـي صُبـح قـد حـوى صـدرٌ لـه
وُحّـدتْ فـي حَسْبـه كثـرتُنـا ... أُحكِمـتْ مـنْ وحـدةٍ قـوتُنـا[5]
إنَّ فـي الجمـع حيـاةَ الأمـمِ ... إنَّ هـذا الجمـع سـرُّ الحـرَم

* * *

أيُّهـا المسلـمُ يـا ذا البَصـر ! ... قـومُ مـوسـى عبـرةٌ فـاعتبـرِ
زهـدوا فـي مـركـزٍ قـد جمّعـا ... فتـراهـم فـي البـرايـا قطعـا[6]
يـا عليـلاً شـاكيـاً جـورَ الـزّمـن ... يـا أسيـراً غَلُّـه وهـم وظـنّ

---

(١) الحياة تلبس الطين فتراها حيواناً له عين . . إلخ .

(٢) العمّ : الجماعة الكثيرة .

(٣) تولد الأمة حين تجمع الحياة في مركز معين ، في شريعة ، أو قانون ، أو مقصد .

(٤) الخليل : إبراهيم . نحن الدليل على صدق ما يدعي للحرم من أنه يجمع الناس ، ويكون مركز الأمة . ونحن برهان على تحقيق ما أمله الخليل في الحرم .

(٥) في حساب الحرم كثرتنا وحدة . وبهذه الوحدة تستحكم قوتنا .

(٦) حذفت هنا أبيات في وصف اليهود .

اجعلن ثوبك ثوب المحرِم … أطلِع الصُّبحَ بليلٍ مُظلم

افنَ كالآباء ما بين السجود … اسجدنْ حتى تُرى عينَ السجود[1]

من خشوع المسلمين الأولين … سيطروا بالحقِّ بين العالمين

في سبيل الحقِّ شوكاً وطئوا … فإذا الروضةُ هذا الموطَأُ

* * *

في بيان أنَّ الاجتماع الحقيقي من الاستمساك بمقصد ، ومقصد الأمَّة الإسلاميَّة حفظُ التَّوحيدِ ونشرُه

اعرفنْ عنِّي لسانَ الكائناتْ … ففعالُ الكون فيها كلمات

ينظمُ المقصدُ أشتاتَ الحياه … فتراها « مطلعاً » راع الرواه[2]

طِرفُنا من تحت مهمازِ الطَّلبْ … صرصرٌ ما ندَّ عنه من أربْ

إنما يُبقي الحياةَ المقصدُ … هو أشتات قُواها يَنضِدُ

حينما تدري الحياةُ المطلبا … تجعل الكونَ إليه سببا

وبه الأشياءُ طرّاً تنقُد … فتردَّ الشيءَ أو تعتقد[3]

يُبحر الرُّبان أجلَ الساحلِ … وإلى المنزل سَيرُ السَّابلِ

وعلى قلبِ الفراش الحُرَقُ … لسراجٍ حوله يحترقُ[4]

طاف قيسٌ في الصحارى ولَها … قاصداً ليلاه يرجو وَصْلها

ما اقتفينا في الصَّحارى أثرا … مُنذ ليلانا أقامت في القُرى

---

(١) السجود الأول جمع ساجد .

(٢) المطلع هنا مطلع القصيدة .

(٣) اعتقد المال : اقتناه . إذا عرف الإنسان مقصده نقد به الأشياء ، فرد بعضها ، وأخذ بعضها .

(٤) يذكر أمثلة من المقاصد : الساحل للسائر في البحر ، والمنزل للسائر في البر ، والاحتراق للفراش ، وليل لقبس .

إنمــا المقصــودُ روحُ العمــلِ — كيفَـه والكــمَّ منـه تجتلــي[١]

دَوران الــدَّم فــي أعــراقنــا — مســرعٌ بــالجــدِّ فــي أغــراضنــا

الحيــاةُ الحــقُّ منــه تستعِــرْ — تجمــع النَّــار بــه مثــلَ الشَّقِــرْ[٢]

هــو مضــرابٌ لعُــودِ الهمَّــة — مــركــزٌ يَجــذبُ كــلَّ القــوَّة

حــرَّكَ الأعضــاء فــي ركــب البشــر — جــامعــاً شتَّــى عيــونٍ فــي نظــر[٣]

فكــنِ المجنــونَ فــي هــذا الحبيبْ — طُــفْ بــه طــوف فــراشٍ بــاللهيبْ

أبــدعَ القمــيُّ فيمــا أسمعــا — علَّــم الأوتــار معنــىً مُبــدَعــا[٤]

رامَ نَقْــشَ الشَّــوك حينــاً رَجِــلُ — فــاختفــى عــن نــاظريــه المحمَــل

لحظــةً يــا صــاحبــي إن تغفُــلِ — ألــفَ ميــلٍ زاد بُعــدُ المنــزلِ

ذاكــمُ العــالَــمُ دَيــرٌ قــدُمــا — بــامتــزاج الأمَّهــاتِ انتظمــا[٥]

كــم وكَــم يُنبــت مــن مقصبــةِ — ليــراعٍ فيــه نــار النَّــوحــةِ

كــم تــدمَّــت مــن يــديــه روضــةُ — لتــربَّــى مِــنْ شقيــقٍ زهــرةُ[٦]

كــم تُــرى نقشــاً وكــم تمحــو يــداه — ليُــرَى نقشُــك فــي لــوحِ الحيــاه

كــم مــن الأرواح بُثَّــت أنَّــةُ — لتَعَــالَــى مــن أذانٍ نغمــةُ[٧]

---

(١) يتبين للعمل كيفه وكمه من مقصوده .

(٢) الشقر : الشقائق . والضمير يعود إلى المقصود الحياة تستعر به . وتجمع في نفسها ناراً كما تجمع الشقائق النار ، في خيال الشعراء .

(٣) يجمع الأعين المختلفة على نظر واحد .

(٤) القمي : ملك القمي الشاعر . والإشارة إلى بيت له معناه .
« ذهبت لأنقش الشوك من قدمي فاختفى المحمل عن عيني . غفلت لحظة فبعدت طريقي مئة سنة » .

(٥) امتزاج الأمهات اختلاط العناصر . والتركيب بلفظه العربي في الأصل .

(٦) هذا البيت والذي قبله بيت واحد في الأصل . والمعنى أنَّ التكمل في العالم شاقٌ أليمٌ ينبت غابات من أجل نغمة ناي ويخرب روضات من أجل زهرة ، وقد تقدَّم هذا أول الكتاب .

(٧) تعالى : تتعالى .

ورجـــالَ الـــزور دهـــراً ربَّبـــا ... وعلـى الأحـرار والَـى الحَـرَبـا
ثَـمَّ فـي طينـك إيمـانـاً بـذر ... كِلْمـةَ التـوحيـد مـن فيـك نَشَـرْ
نقطـــةٌ دارَ عليهـــا العـــالَـــمُ ... كلمـــةٌ صـــار إليهـــا العـــالَـــم
قـــوةٌ فيهـــا تُـــديـــر الفَلَكـــا ... وبهـــا الشمـــسُ تُنيـــرُ الحَلكـــا
لـؤلـؤ البحـر نمـى مـنْ نـورهـا ... بـه المـوجُ طمـا مـنْ نـورهـا
نَفحُهـــا صيَّـــر طينـــاً سنبُـــلا ... وَجـدُهـا صيَّـر ريشـاً بلبـلا[1]
فـي عـروقِ الكَـرْمِ منهـا شُعلـة ... وبطيـــن الكـــأس منهـــا لمعـــةُ
لحنهـا فـي مِـزْهَـر الكَـون استتـر ... أيهـا العـازفُ! يـدعـوك الـوتَـر
نغمـــاتٌ فيـــك تَســـري كـــالـــدَّمِ ... أعمـلِ المضـرابَ فـي ذا النغَـم
كِلْمـــةُ التَّـــوحيـــد منـــك المقصـــدُ ... أنـــت للتكبيـــر فيهـــا تـــوجَـــدُ[2]
الجهـــاد المـــرُّ حِلـــفُ المسلـــم ... أو يُـدوِّي الحـقُّ بيـنَ الأمـمِ
أنـــتَ لا تـــدري بـــآيـــات الكتـــابْ ... أمـــةَ العَـــدْل يسمِّينـــا الخطـــاب
أنـــتَ فـــي الأيـــام نـــورٌ وبصـــرْ ... شـاهـدٌ أنـتَ علـى كـلِّ البشـر[3]
ادعـــوَنْ كـــلَّ لبيـــبٍ ، أبلـــغِ ... وعـــن الأمّـــيِّ قـــولاً بلِّـــغ
قـــولـــه مـــا فيـــه نُطـــقٌ عـــنْ هـــوَى ... صـادقٌ مـا ضـلَّ يومـاً أو غـوى[4]
نَبْضَ هـذا الكـون قـد جسَّـت يـداه ... فتجلَّـــى ســـرُّ تقـــويـــم الحيـــاه
نضَّـرَ الأزهـار فـي رَوض الـدَّهَـر ... ومحـــا الأدنـــاسَ عنهـــا والكـــدَرْ
دينُـــه فيـــه الحيـــاةُ الخـــالـــده ... لا تـــراهـــا عـــنْ هُـــداهُ حـــائـــده
أيهـــا التـــالـــي الكتـــابِ المنـــزَل ... شمِّـــرنْ ، لا تقعُـــدنْ عـــنْ عمـــلِ

---

(١) السنبل : نبات طيب الرائحة .
(٢) فيها : في الدنيا .
(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .
(٤) إشارة إلى الآيات : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم : ١ ـ ٣] .

يعشـق الأصنـامَ عقـلُ الأمـم نـاحـتٌ أو عـابـدٌ للصَّنـم
هـو أحيـا سُنّـةً مـن آزرا محـدِثـاً فيهـا إلهـاً للـورىٰ
اسمـه لـونٌ ودارٌ ونسـب هو من سفك دماء في طربْ[1]
وعَلَـى أقـدام هـذا الصَّنمِ ذُبِـحَ الإنسـانُ ذَبْـحَ الغنـمِ
أيهـا الشـاربُ مـن كـاس الخليـلْ ! يا حميَّ النفْس من طاس الخليل !
سيـفَ « لا موجـود إلا هـوْ » خُـذِ وبـه الأصنـام هـذي فـاجـذُذِ
فـي ظـلام الـدَّهـر أشـرِق للمـلا وانشـرنْ حقّـاً عليـكَ اكتمـلا[2]
خجلتَـا لـك فـي اليـوم العسيـرْ حينمـا يسـألـك الهـاديْ البشيـرْ :
قـد أخـذت الحـقَّ عنِّـي مـا دهـاك لـم تبلِّغـه بحـقٌّ لسـواك !

***

في بيان أنَّ توسيع حياة الأمَّة بتسخير قوى العالَم

مـؤمنـاً بـالغيـبِ غيـر الغـافـل كـارهـاً كـالسَّيل قيدَ السَّاحـل!
اعـلُ عـن ذا الطِّيـن غصنـاً نـاضـرا وصِـلِ الغـائـبَ واغـزُ الحـاضـرا
ذلـك الحـاضـرُ تفسيـر الغيـوبْ وهـو مفتـاحٌ لتسخيـر الغُيـوبْ
مـا سـوى اللهِ لتسخيـرِ العمـلْ صَدرُه للرَّمـي ، فـاقـذِف لا تُبَـلْ
مـا سـوى اللهِ تـراه يُخلـق لتـرى سهمَـك فيـه يمـرُق[3]
عقـدةٌ تلقـاك بَعْـدَ العُقـدةِ ليُـرَى فـي الحـلّ لُطـفُ الحيلـة
فسِّـرَنْ يـا كِـمُّ ! روضـاً نفسكـا سخِّـرَنْ يـا طـلُّ ! ذي الشمس لكـا
مـن يسخِّـر عـالَـم الحـسِّ سمـا ومـن الـذَّرَّة يُخـرِجْ عـالَمـا

---

(١) يعبد الناس في هذا العصر عصبية الأنساب والأوطان ، فيسفكون الدماء .

(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] .

(٣) في الأبيات المتقدمة دعوة إلى تسخير عالم الحس ، وبيان أنَّ هذا التسخير يؤدي إلى معرفة عالم الغيب .

كلُّ ما في الكون من بحرٍ وبرّ   لوحُ تعليمٍ لأربابِ النَّظر

أيُّها النائمُ طالت غفلتهْ   عالَمُ الحسّ جفتْه همّتُهْ

قُمْ وفتّح بصراً قد سُكّرا   لا تحقّر عالَماً قد حُقّرا

إنّه توسيعُ ذاتِ المسلم   وامتحانٌ لصفاتِ المسلِم

هو يبلوك بسَيفِ الزَّمنِ   لترى أنّ دماً في البدَن

اضربِ الصَّدر بقهر القوّةِ   اختبرْ عظمَك في ذي الصَّدمة

جعل الحقُّ الدُّنى للخيِّرين   وجلاها لعيون المؤمنين

هذه الدُّنيا طريقُ الظَّعَنِ   هذه الدُّنيا محكُّ المؤمنِ

فأسِرَنْها قبلَ أن تأسركا   لا تُضِعْ في جوفها جوهرَكا

أدهِمُ الفكر الذي يطوي الفضاء   والذي يجتازُ آفاقَ السَّماء

ساقَه في الكونِ حاجاتُ الحياه   فهو في الأرض وفي النَّجم خُطاه

يبتغي في الكون تسخير القوى   لتُرى فيه بأعلى مُستوى

نائبُ الحقّ ، بحقٍّ آدمُ   حكمه في الأرض ماضٍ حاكِم(1)

لكَ منْ ضيقكَ ، منها سعةٌ   ولأعمالك فيها فسحةٌ

صهوةَ الرِّيحِ اعلُوَنْها آمرا   ألجمَنْ هذا الجوادَ النَّافرا

شُقَّ قلبَ الطَّوْدِ عن جوهره   شُقَّ موجَ البحر عن درٍّ به

ألفُ كونٍ في فضاء تُكفَتُ   رُبَّ شمسٍ قد حوتها ذرَّةُ

بشعاعٍ أظهرنْ ما احتجبا   واكشفَنْ عنْ كلِّ سرٍّ حُجبا

من شُعاع الشَّمس ناراً فاقبِسِ   ومنَ السَّيلِ بروقاً فاخلِسِ(2)

ثابتُ الأنجم أو سيَّارُها   التي قد عُبدتْ أنوارُها

كلُّها يا صاحِ عُبدانٌ لكا   وإماءٌ سُخِّرتْ من أجلِكا

سيِّرنْ فكرك فيها عسَسا   سخِّرن آفاقها والأنفُسا

---

(1) يعني أنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض بالحقّ ، وحكمه فيها نافذ .

(2) استخرج الكهرباء من سيل الماء .

افتــح العيــنَ وأنعِــمْ نظَــرا ... أبصـرن فـي الـراح معنـىً مُضمَـرا
كــم ضعيــفٍ فــي قــويٍّ أمَـرَا ... حيـن فـي الكـون أجـال البصـرا
أيُّها المقصود من أمرِ ﴿ انظروا ﴾ ... كيـف فـي آفـاقهـا لا تنظـر ؟[1]
قطــرةٌ مــن نفسِهــا ذاتُ خَبَــرْ ... خمرةٌ في الكرم ، طلٌّ في الزَّهَر
وهـي فـي البحـر تـراهـا جـوهـرا ... جوهـراً كـالنَّجـم فـي الليـل سـرى
كـالصَّبـا لا تهـفُ حـولَ الصُّـوَرِ ... اطلبـنْ فـي الـروض معنـى الـزَّهَـرِ
دون مضــرابٍ لحــونــاً سيِّــرا ... ومــن الأحــرف طيْــراً طيِّــرا[2]
أيُّهـا الطَّـالـع فـي حَـزْنِ الحياه ... أيُّهـا الغـافـل عـنْ طعـنِ الحياة
بلَّــغ السَّعــيُ الــرفــاقَ المنــزلا ... أنــزَلــوا ليلــى وحَطّــوا المحمــلا
وبقيــتَ اليــوم قيســاً مبلســا ... فــي الصحـارى عـاجـزاً مستيئسـا
« علَّـمَ الأسمـاءَ » فخـرُ الآدمـيّ[3] ... حكمــةُ الأشيــاء نصــرُ الآدمــيّ

***

في بيان أنَّ كمال حياة الأمَّة أن تشعر بنفسها كالأفراد وأنَّ توليد هذا الشعور وتكميله ، من الاحتفاظ بسنن الأمَّة وروايـاتها

أرأيــتَ الطفــلَ يــا ذا البَصَــرِ ! ... مــا لــه عــنْ نفسِــهِ مـن خبـرِ
لَيـس يـدري مـا قـريـبٌ وبَعيـدْ ... كــرةَ النَّجــم بكفَّيــه يــريــد
مــا سـوى الأمّ يـرى منـه الجفـاءْ ... همُّــه أكــلٌ ونــومٌ وبكــاء
لَيــس تــدري أذنُــه مــا النغمــةُ ... لحنُــه ثــورتُــه والضجَّــةُ

---

(١) إشارة إلى الآية : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس : ١٠١] .
(٢) إشارة إلى آلات البرق ، والهاتف ونحوها .
(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

فكـــره غُفـــلٌ ضعيـــفُ الأثـــرِ … قـــولُـــه فيـــه صفـــاءُ الجـــوهـــرِ

ليـس فـــي تفكيـــره إلا السّـــؤالْ … أين ؟ أنّى ؟ ومتى ؟ في كلِّ حال

كـــلُّ نقـــشٍ عنـــده ينطبـــعُ … وهـــو كـــلٌّ غيـــرَه يتّبـــع

عينـــه إمّـــا بكـــفٍّ تُطبـــق … تتنـــزّى روحُـــه فـــي قلَـــقِ

فِكْـــرُه فـــي الجـــوّ واهٍ حـــذرُ … كصُقَيْـــرٍ لاصطيـــادٍ يُجبـــرُ

خلـف صيـدٍ فـي حِـذارٍ يُرسلُـه … ثُـمَّ يـدعـوه إليـه يُعجلـه[1]

ثـــم غشّـــاه لهيـــبُ الفِكَـــرِ … فـرَمَـى خُـذروفُـه بـالشّـرر[2]

فتـــراه عينُـــه مُستعلنـــا … فيـدقُّ الصَّـدر يعني : هـا أنـا[3]

ومـــنَ الـــذّكـــرى ينمّـــي نفسَـــه … غـــدَه يـــربـــطُ فيـــه أمسَـــه

ينظـــمُ الأيـــامَ خيـــطُ الـــذّهـــبِ … نسَـــقَ الـــدرّ بسمـــطٍ مُعجِـــب

جسمـه يُـرمِـي ويُكـري قـائـلا : … مثـل مـا كنتُ أراني مـاثـلا[4]

« أنـا » هـذي بـدءُ مقصـود الحياه … اليقظـــة فـــي عـــود الحيـــاه

مثَـــلُ الأمّـــة حيـــن النَّشـــأةِ … مثـــلُ الطِّفـــل ضعيـــفَ المُنّـــة

هـــي طفـــلٌ نفسَـــه لا يعـــرفُ … جـــوهـــرٌ غشّـــى عليـــه الصَّـــدَفُ

يـــومُـــه بـــالغـــدِ لـــم يـــوصـــلْ ولا … بصبـــاحٍ ومســـاءٍ سُلســـلا

وبعيْـــنِ الكـــون إنســـانـــاً يُـــرَى … كـــلَّ شـــيءٍ مـــا عـــداه أبصـــرا[5]

---

(١) كالصقر الصغير الذي يُعلَّم الصيد ، يتلطف صاحبه في إطلاقه وراء الصيد ودعوته إلى الرجوع .

(٢) ثم يعلق التفكير به فيرمي فكره بشرر كما تدار جمرة النار في خذروف فيتطاير منها الشرر . وفي الأصل « زرجك » وهي لعبة يديرها الصبيان يتطاير منها الشرر . والخذروف قرص يدار بخيط فيسمع له دويّ .

(٣) يدرك الطفل نفسه فيعني بها ويقول ها أنا . وكان يرى غيره لا نفسه .

(٤) يرمي ويكري : يزيد وينقص . يشعر الإنسان بأنه مع تغير جسمه لا تتغير ذاته .

(٥) هي في الكون كإنسان العين يرى كلَّ شيء إلا نفسه ، فهي تقلد وتتبع ولا تعتمد على نفسها .

بَعْـدَ لأيٍ طـرَفُ الخيـط بـدا … بعد ما حلَّت يداها العُقدا[1]

فإذا رازَ قُـواهـا الـدَّهَـرُ … يتجلَّى ذا الشعورُ المضمرُ[2]

أسطـراً تمحـو ، وأخـرى تسطُـر … صفحـاتٍ بيـديهـا تَـزبـرُ

يُبلِـس الفـردُ إذا مـا انتثـرا … عِقْـدُ أيـامٍ عليـه قُـدِّرا

نـورُ قـومٍ مـن مـداد السِّيَـر … نفسَـه يعـرفُهـا بـالـذِّكَـر

أمـةٌ قـد نسِيَـت سيـرتَهـا … ينسـخُ الـدَّهـرُ غـداً آيتهـا

أنـت سفْـرٌ كتبتـه السِّيـرةُ … خَيطُـه أيـامُـك الموصـولـةُ

ثـوبنـا أيـامُنـا فـي الـزَّمـن … وخيـاطُ الثَّـوب حفـظُ السُّنَن[3]

مـا تـرى يـا غِـرُّ تـاريـخ البَشَـرْ ؟ … قصـةٌ ! أسطـورة ؟ لَهـو سَمَـر ؟

فـي سَنـاه أنـت بـالنفـس بصيـرْ … فـي هـداه أنـت بـالسَّيْـر خبيـرْ

إنَّـه أعصـابُ جسـمِ الأمَّـة … إنَّـه فـي الـروح مثـلُ الشُّعلـةِ

هـو يجلـوك كسيـفٍ مخـذَمِ … ثـمَّ يـرمـي بـك بيـن الأمـم

أيُّ عـودٍ ذي فنـون تسحَـر ! … نغمـاتُ الأمـس فيـه تُـؤثَـر

خـامـدُ الشُّعلـة ، فيـه يُشْعـلُ … يـومُـه لـلأمـس فيـه مـاثِـلُ

شمعـه كـوكـبُ بخـتِ الأمـم … وسنـا اليـوم وأمـسِ المظلـم

عينـه تُبصـرُ مـا قـد عَبَـرا … وتُـرى المـاضـيَ حيَّـاً مُحضَـرا

وعتيـقُ الـرَّاح فـي كـاسـاتـه … وخُمـارُ الأمـس فـي نَشْـواتـهِ

صـائـدٌ يَـرجـعُ فـي أشـراكنـا … طـائـراً قـد طـار مـن بستـاننـا

فـاذكـر التـاريـخَ واستحكِـمْ بـه … عِـشْ بـأنفـاسٍ مضـت ، فـي طبِّـه

أحكِمـنْ وُصْلـةَ يـومٍ وغـدِ … والحيـاةُ امـضِ بهـا طـوعَ اليـدِ

---

(١) تكون كالذي معه خيط معقد يحل عقده حتى يجد طرف الخيط فيمكنه الانتفاع به .

(٢) راز الإنسان الشيء : حاول رفعه ليعرف ثقله .

(٣) الخياط : الإبرة .

وقـدِ الأيـام قَسـراً بمِهـاز   أو فعِش أعمى بليلٍ ونهاز[1]

صاحِ ! منْ ماضيك تبدو حالُكا   ومنَ الحال بدا استقبالُكا

إن تُرِدْ خُلْدَ حياةٍ فصِلِ   ما مضى بالحالِ والمستقبَلِ

* * *

في بيان أنَّ بقاء نوع الإنسان بالأمومة ، وأنَّ حفظ الأمومة واحترامها منْ أصول الإسلام

نَغَماتُ المرءِ عَزْفُ المرأةِ   هو من محنتها في عِزَّةْ

كست الذُّكرانَ ربَّاتُ الحجالْ   إنَّ ثوب العِشْق من نَسجِ الجَمال[2]

عَشَقُ الحقِّ رَباهُ حِجرُها   ذلك اللحنُ حواه صدرُها

الذي قدْ بهَر الكونَ سَناه   قرَنَ الطيبَ إليها والصَّلاه[3]

جهلَ القرآنَ جهلاً مُسلمُ   قد رآها أمةً لا تُعْظمُ

إنَّما الأمُّ علينا رحمةُ   وإلى الرُّسْل لديها نسبةُ

رأفةُ المرسَل في رأفتها   سيرُ الأقوامِ من صنعتِها

ومن الأمِّ علتْ أقدارُنا   وبِسيماها بدا مِقدارُنا[4]

لفظةُ الأمَّة فيها نُكتُ   أترى فكركَ فيها يَثبتُ ؟

إنما الأمة منْ وصل الرحِمْ   دونه أمرُ حياة لا يَتمّ

قال خير الخلق ، وهو الحجةُ :   تحت رِجل الأمّهاتِ الجنَّةْ

---

(١) المهار : الزمام .

(٢) إكبار الرجل المرأة وحبها يدعوانه إلى الإقدام والعمل ، وكذلك تهديه المرأة وتلهمه .

(٣) إشارة إلى الأثر : حبب إلي من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرة عيني في الصلاة .

(٤) المقدار هنا القدر ، أي مستقبل الناس مكتوبٌ في سيما الأم .

كُشفــت بــالأمِّ أســرارُ الحيــاه بخـــلال الأمّ تَسيـــارُ الحيـــاه
وبهــا فــي نهـرنــا يعلـو العُبـابْ ويــدوم المــوج فيــه والحَبــابْ

* * *

هـــذه الغِـــرّة بنـــتُ القـــريـــة عَبلـــةُ الجِســـم وغُفْـــل السّحنـــة
حيِّـــة العَيْـــن ، كَهـــامُ المِقـــوَل دون تعليـــمٍ وصقـــلِ الصيقـــل[1]
ألَـــم الأمّ عليهـــا يثقُـــل وجهُهـــا يُعـــربُ عمـــا تَحمِـــل
أمـــرنـــا يُحكَـــمُ مـــن آلامهـــا صبحُنـــا يشـرق مـــن إظـلامهـا[2]
إنْ تَهـبْ مـن حِجـرهـا لـلأمَّـةِ مسلمـــاً حقّـــاً عظيـــم النَّجـــدةِ
والتـــي رقَّـــت وخفَّـــت مَحمِـــلا بـــاطـــنُ المـــرأة فيـــه عُطِّـــلا[3]
شـعَّ نـــور الغَـــرب فـــي فكـــرتهـــا وتُـــرى الثـــورةُ فـــي مقلتهـــا
قطَّعـــتْ أوصـــال هـــذي الأمَّـــةِ حيـــن طـــاشـــت عينُهـــا بـــالنَّظـــرةِ
إنَّ حـــرِّيتهـــا أصـــلُ البـــلاء إنَّ حـــرِّيتَهـــا فقـــدُ الحيـــاء
ليلهـــا مـــا ضـــاء فيـــه نجمُهـــا لـــم يطـــق أعبـــاء أمّ علمُهـــا[4]
ليتهـــا لـــم تَنْـــمُ فـــي روضتنـــا ليتهـــا تُغْسَـــلُ مـــنْ حُلَّتنـــا

* * *

أنجمُ التَّـوحيـد فـي غيـبِ الأبـدْ مضمـــراتٌ ليـس يحصيهـا عَـــددْ
لـم تُسَيَّـبْ بَعْـدُ مـن قَيـد العـدَم لـــم تُقيَّـد بعـــدُ فـــي كيـــفٍ وكـــمّ
جَلَـــواتٌ فـــي دجـــانـــا تُضمَـــر فـــي ظـــلام الكـــون عنَّـــا تستـــرُ
قطـــراتٌ لـــم تَـــزِنْ زهـــرَ الـــرُّبـــى وزهـــورٌ لـــم تفتّحهـــا الصَّبـــا

---

(١) كهام المقول : عيية اللسان . عينها خفرة ، ولسانها قليل الكلام .
(٢) تعاني الظلام في أيامها ليشرق صبحنا : أي نسعد بشقائها .
(٣) صدفت عن الحمل والوضع .
(٤) لم يضيء في ليلها نجم : لم يولد لها ولد .

إنمـا تنبـتُ هـذي الـزهَـراتْ نـاضـراتٌ فـي رياض الأمهات
أيهـا العـاقـلُ ! مـالُ الأمَّـة ليـس مـن عِقيـانهـا والفضَّـةِ
إنَّــه أولادهـــا مِــلءُ الأمــل فــي ذَكــاءٍ ونشــاطٍ وعَمــلْ
تحفـــظ الأمُّ إخــاء الأمَّــة وقُــوى قــرآنِنــا والمِلَّــة

* * *

في بيان أنَّ سيِّدة النِّساء فاطمة الزهراء أسوةٌ كاملةٌ للنِّساء المسلمات

أمُّ عيســى نسبــةٌ واحــدةُ بثـلاثٍ تـزدهـي فـاطمـةُ :
قـرَّة العيـن لخيـر الأوَّليـن ، خاتمِ الرُّسْلِ ، وخيرِ الآخِرين
نـافـخُ الـرَّوح بـدنيـا الـوَهَـنِ خـالـقُ العَصْـرِ جـديـدِ السُّنَن
وهـي زوجُ المـرتضـى ذا البطـلِ أسـدِ الله ِالحكيـمِ الفيْصـلِ
ملـكٌ فـي الكـوخ زهـداً قـد أقام كـلُّ مـا يملـك درعٌ وحُسـامْ
وهـي أمُّ السَّيـديـنِ الأكـرمَيـن حسـنٍ خيـرِ حليـمٍ وحُسَيـن
ذا سـراجٌ فـي ظَـلامِ الحـرَمِ حـافـظٌ وَحْـدَة خيـرِ الأمـم
ازدرى الملـكَ ابتغـاء الألفـةِ أطفـأ النِّيـرانَ بيـن الإخـوةِ
ذاك فـي الأبـرار ربُّ العَلَـمِ أسوةُ الأحرار في الخَطْب العَمي
سيـرةُ الأولاد صنـعُ الأمَّهـات وخِـلالُ الخيـرِ طبـعُ الأمَّهـاتْ
زهـرةٌ فـي روضـة الصـدق البتـولْ أسـوةُ النِّسـوة فـي الحـقّ البتـولْ
فـاقـةُ السَّـائـل أذرت دمعهـا ليهـوديٍّ أبـاعـتْ درعَهـا[1]
كـلُّ مـن فـي الأرض قـد طـاع لهـا ورضـاهـا حيـن تُـرضـي بعلَهـا
نُشِّئَـتْ مـا بيـن صبـرٍ ورضـا في الفَمِ القرآنُ ، والكفُّ الرَّحَى

---

(١) أباع : عرض للبيع ، أي عرضت درعها للبيع لتعطي سائلاً .

دمعُهـا مـن خشيـة الله جـرى   فـي مصلاَّهـا يفـوقُ الجوهـرا
لقـطَ الـروحُ الأميـنُ الـدُّرَرا   وعلـى العـرش المعلَّـى نثـرا
أنـا لـولا الشَّـرع عـن هـذا نَهَـى   وإلـى شـرعِ الـرسـول المنتهـى
طفـتُ حـولَ القبـرِ إجـلالاً لهـا   نـاثـراً مـنْ سَجَـداتـي حـولهـا

* * *

خطابٌ إلى المرأةِ المسلمة

مُشعَـلٌ مصبـاحُنـا مـن نـارِكِ   عِـرضُنا فـي الصَّون من أستارِكِ
خَلقُـك الطَّـاهـرُ فينـا رحمـةٌ   قـويَ الـدِّيـنُ بـه والأمَّـة
طفلُنـا علَّمتِـه حيـن الفِطـام   كِلْمـةَ التـوحيـد مـنْ قَبل الكلامْ
صِيـغَ مِـنْ حُبِّـك أطـوارٌ لنـا   فِعْلُنـا ، أقـوالنـا ، أفكـارُنـا
بـرقُنـا فـي سُحُـبٍ منـك ثـوَى   شَـعَّ فـي الأطـواد ، والبيدَ طـوَى
ضـاء ديـنُ الحـقِّ مـن أنفـاسِـكِ   ونمـا التـوحيـدُ فـي أحجـارِكِ
ذلـكِ العَصـرُ غـرورٌ مـاكـرُ   وعلـى الأديـانِ بـاغٍ فـاجـرُ
عقلُـه أعمـى وبـالله كفَـرْ   كـم جهـولٍ فـي شِـراكِ قـد أسَرْ
عينُـه عيـنٌ وقـاحٍ فـاتـكِ   بِشباكِ الهُـذْبِ كـم مـنْ هـالـكِ !
صيـدُه يحسَـب حـرّاً نفسَـهُ   مَيْتُـه يـزعـمُ قصـراً رَمْسَـهُ[1]
بـكِ يخضـرُّ غِـراس الـوَحـدةِ   بـكِ ينمـو رأسُ مـال المِلَّـة
لا تسيـري غيـرَ نهـج السَّلَـفِ   لا تبـالـي بجـدىً أو تَلَـفِ
احـذري فتنـةَ عصـرٍ مُهلـكِ   وإلـى صَـدْرِكِ ضمِّـي وُلْـدَكِ
بَعُـدتْ عـن عشِّهـا فـي خطـرِ   هـذه الأفـراخ ، لمَّـا تطِـرِ

---

(١) الأسير في أغلال هذا العصر يظنُّ نفسه حراً ، والميت يحسب رمسه قصراً لا يدري هذا أو ذاك ما هو فيه من عبودية أو هلاك .

فيكِ تسمو للمعالي فطرةٌ — فاتبعي الزهراءَ ، نعمَ الأسوةُ
علَّ غصناً منك يأتي بحُسَيْن — فترى النضرةَ رَوْضاتٌ ذَوَيْن

* * *

خلاصة مطالب المنظومة

في تفسير سورة الإخلاص

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾

ظهر الصِّدِّيقُ لي في الحُلُمِ — مُزهِراً منه ترابُ القَدَم
ذا « أمنُّ الناسِ » فينا مَن جَلا — طُورُنا منه الكليمَ الأولا[1]
هو ثاني اثنين في الدِّين وفي — صحبة الغار وفي القبر ، الوفي[2]
قلتُ : يا صفوةَ أصحابِ الصَّفاء — مطلَعَ الدِّيوان من أهل الوفاء !
بكَ قرَّ الأسُّ في بُنيانِنا — فانظرنْ ما الطبُّ من أدوائنا
قال : حتَّامَ أسيرُ الوَهَم — سورةُ الإخلاص بُرء السَّقَم
نَفَسٌ في كلِّ صدر جائلُ — وهي للتوحيد سرٌّ هائلُ
فاجلُ هذا السرَّ في كل الفِعالْ — ولتكن منه مثالاً للجمال
الذي سمَّاك عبداً مُسلما — بكَ للوحدةِ في الدُّنيا سَما
قلتَ : أفغانٌ ، وتركٌ وعَجمْ — لم تَزُلْ عما تعودتَ القَدَمْ
طهِّرنَّ الحقَّ من هذي السِّماتْ — اقصدِ البحر وخلِّ القَنواتْ
يا أسيراً لِسماتٍ ويحكا ! — قد بَعُدتَ اليوم من دَوحتِكا
أبدل الوحدةَ بالتثنيةِ — لا تقطِّع صاحِ ! حبلَ الوَحْدَةِ

---

(١) إشارة إلى الحديث : « أمنُّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر » .
(٢) كان ثاني الرسول في الدخول في الإسلام وفي الغار ، وفي القبر إذ كان أول من دفن بجانبه .

عـابـدَ الـواحـدِ ! وحِّـد واهجـرن	كـلَّ تفـريـقٍ وللحـقِّ ارجعَـنْ
أيُّهـا المُغفـلُ معنـى الكلـمِ	أثْبِتَـنْ فـي القلـب ألفـاظَ الفَمِ
أمـةً قطَّعتَهـا فـي أمـمِ	وهَـدَمْـتَ الحصـنَ فيـه تحتمـي
قُـوَّةَ الإيمـان زِدْ بـالعمـلِ	مـات إيمـانٌ إذا لـم يَعمـلِ

***

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾

أشعِـرَنَّ القلـبَ « الله الصمـد »	تَخَلَّصَنْ مِنْ قيـد أسبـابٍ وحـدْ
ليـسَ عبـدُ اللهِ عبـدَ السبَـب	مـا الحيـاةُ الحـقُّ دورَ اللَّـولـب[1]
ليـسَ غيـرَ الله يـرجـو المسلـمُ	وهْـو للنَّـاس جميعـاً سَلَـمُ
لا تبُثَّـنَّ شكـاةً أحـدا	لا تمـدَّنَّ إلـى الخَلـق يـدا
بـالشعيـر اقنـع ، تقيَّـل حيـدرا	مـرحبـاً فـاقتله ، وافتـح خيبـرا[2]
فيـمَ لـلأجـواد حمـلُ المِنَـنِ	أنـت ، مـنْ لا ونعَـم فـي حَـزنِ
لا تـرُم رزق لئيـمٍ يُنغـصُ	يـوسفٌ أنـت ، فـأنّى تـرخُصُ ؟
إنْ تكـن نمـلاً وكنـتَ المقْعَـدا	لا تـؤمِّـل مـنْ سليمـان جَـدَى
خفِّـفِ الـزاد ، طـريـقٌ وعِـرُ	عـشْ ومـتْ حـرّاً . عـداك الغَـرَرُ
اجعلن « أقلِلْ من الدُّنيا » الشِّعارْ	و« تعـش حـرّاً » بهـا كـلَّ الفخـار[3]
وكـن الإكسيـرَ لا التُّـربَ بهـا	معطيـاً لا سـائـلاً . فـي حبِّهـا[4]

---

(١) إن أخلَصَ الإنسان لله ، وتوكَّل عليه لا يقيده ما يقيد الناس من أسباب ، بل يخلق هو وسائله إلى غاياته ، وليست الحياة دورات آلية بل فيها إرادةُ الإنسان وعزيمته .

(٢) مرحب : أحد رؤساء اليهود في خيبر ، قتله عليٌّ رضي الله عنه .

(٣) إشارة إلى ما يروى عن عمر رضي الله عنه : « أقلل من الدنيا تعش حراً » .

(٤) الضمير يرجع إلى الدنيا .

« بو عليٌّ » ليس مجهولًا لديك   جَرعةً من كأسه أهدى إليك :[1]
« تحت قابوس اركلنْ بالأرجل   ابذل الرأس وبالعرض ابخلِ »
يُفتح الحانُ عَجولًا نفسَه   لفقيرٍ لم يدنِّس كأسه

* * *

قائدُ الإسلام هارون الرشيدْ   مَنْ سقى نقفورَ من ماءِ الحديد[2]
قال : يا مالكُ مولى الأمَّةِ   أنت يا رونقَ وجه الملَّةِ
أنت يا بلبلَ فردوسِ الحديث   إنَّني أرغب في درسِ الحديث
لِمَ يُخفى ذا العقيقَ اليمنُ ؟   اقصدَن بغداد ، نعم الوطن[3]
حبَّذا زهرةُ أيامِ العراق   حبَّذا حسنٌ به الأعينَ راقْ
تربُه فيه منَ السُّقْمِ نجاه   قاطرٌ منْ كرْمِه ماءُ الحياه
قال : « إني خادمٌ للمصطفى   وبحسبي حبُّه لي شرَفا
أنا ، من قُيِّدتُ في حُبِّي لهُ   كيف أنأى عن مكانٍ حلَّهُ
لي في يثرب حبٌّ واشتياق[4]   أين من ليلي بها صبحُ العراق ؟
ويقول العشق : أمري امتثلا   لستُ أرضى بملوكٍ خَوَلا
أنت تبغي أن تُرَى لي سيِّدا   أن تُرى مولىً لحرٍّ عُبُدا
ألتعليمك أغشى بابكا   خادمُ الأمَّة لا يعنو لكا
إنْ تَرُمْ في الدين علماً يُقتنى   فاغشيَنْ حَلْقة درسي هاهنا »

* * *

---

(١) هو أبو علي قلندر أحد كبار الصُّوفية في الهند ، وقد سبقت ترجمته في القسم الأول لديوان « الأسرار والرموز » ، وما بين القوسين من شعره .

(٢) نقفور : أحد ملوك البيزنطيين حاربه الرشيد فهزمه .

(٣) اليمن : من مواطن العقيق . يعني : لماذا يبقى مالك في الحجاز كما يبقى العقيق في معدنه .

(٤) في الأصل : أنا حيٌّ بتقبيل تراب المدينة . وقد خففت العبارة في الترجمة .

الـذي استغنَـى جـديـرٌ بـالـدَّلال فــي دلالٍ عنــده كــلُّ جمــال
صبغـةَ الحـقِّ مَـن استغنـى اكتسَـى ورأى صبــغَ ســواه دَنَســا
أنــت مِـنْ غيـرك تجـدو علمكـا بطــلاء منــه تَطلــي وجهكــا
أنـــت منـــه بِشعـــارٍ تفخـــرُ أنــت ذا أمْ غيَّـرتـك الغِيَـر؟[1]
خَشَعــتْ أرضُــك مــن أمطــاره وخــلا البستــانُ مــنْ أزهــاره
مطــراً مِــنْ مــزنــه لا تجتــدي لا تُبِــدْ زرعَــك عمــداً بــاليـدِ
سَلْسَلَــتْ عقلَــكَ أفكــارٌ لــه مــلأتْ حَلْقَــكَ أوتــارٌ لــه
مستعــارٌ كَلِــمٌ فــي فمكــا مستعــارٌ أمــلٌ فــي قلبكــا
أعــوزتْ طيـرَكَ ألحـانُ الغنـاء ليس في سروك في الجوِّ رُواء[2]
أنـت فـي كـأسـك خمـراً تجتـدي وكـذاك الكـأس جـدوى فـي اليـد
لـو يعـودُ اليـومَ فينـا ذو النظـرْ من به تصديق ﴿ ما زاغ البصر ﴾[3]
مـازَ صــدقــاً وكــذبــاً سمعُــه وابتلــى كــلَّ فــراشٍ شمعــه[4]
ثـم نـادى « لسـتَ منـي » يـا فتـى ويلتــا يــا ويلتــا يــا ويلتــا
فــإلامَ العيــشُ مثــلَ الأنجــمِ يَطْلُــعُ الصُّبــحُ لهــا بــالعــدَم
أنــت قــد غــرَّك صبــحٌ كــاذبُ أنــت عــن نَفْسِـك حقّـاً ذاهــب
أنت شمسٌ نَفْسَك اعرِف كلَّ حين لا تُضِئْهــا مــنْ نجـوم الآخـريـن
إنَّ فــي قلبـك نفســاً مــن سـواك بـاعَـتِ الإكسيـرَ بـالتُّـربِ يـداك
بســراجِ النــاس مغنــاك أضــاء وبخمـر النَّـاس فـي الـرأس انتشـاء

---

(١) هل أنت أيها المسلم كما عهدتك ، أم أنت إنسان آخر .
(٢) السَّرو : شجر طويل شكله كالسنبلة دائم الخضرة ، جميل التمايل . يقول الشاعر إنَّ طيرنا لا يستطيع الغناء كالطير ، وسرونا ليس له رواء كالسرو .
(٣) إشارة إلى الآية : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] .
(٤) لو عاد الرسول صلوات الله عليه لميز الصادق والكاذب ، وعرف شمعه الفراش الذي يهفو إليه حباً .

لـك حـولَ الشَّمـع فـي الحفـلِ دوار اغشَينْ نارك . هل في القلب نار[1]
ابـقَ فـي مثـواك مثـلَ البصـر لا تـدَعْ عُشَّـك مهمـا تَطِـر[2]
حَـيٌّ فـردٌ نفسَـه قـد عَـرفـا وقبيـلٌ عـن سـواه صَـدفـا[3]
عـن طـريـق المصطفـى لا تـذهبَـنْ واتـرك الأربـابَ ، والله اعبُـدَنْ

* * *

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾

قـد عـلا قـومُـكَ عـن لـونٍ ودَمْ وعـلا أسـودُه حُمـرَ الأمـم
فـي وضـوء قطـرةٌ مـن قنبـر هـي أغلـى مـن دمٍ مـن قيصـرِ
اتـركـن عمَّـاً وأمَّـاً وأبـا وكَسلمـان إلـى الـديـن انسبـا[4]
يـا خليلـي اسمع حـديثي واعقِـلا مـن خـلايـا النَّحـل هـذا المثـلا :
قطـرةٌ مـن شَقـرٍ كـالقَبَـسِ ثـمَّ أخـرى مِـنْ بيـاضِ النَّرجسِ
لـم تقُـلْ هـذي : أنـا نَيلَـوْفَـر أو تقـلْ هـاتيـك إنِّـي عَبهَـرْ
شـأنُ إبـراهيـمَ فـي ملتنـا ديـن إبـراهيـم فيـه شهـدُنـا
إنْ جعلـت الـدمَ ركـنَ الملَّـة صـدَعـتْ دعـواك جمـعَ الإخـوة
فـي ثَـرانـا ليـس ينمـو بَـزرُكـا أنـتَ مـا أسلـم حقّـاً فكـرُكـا

---

(١) هنا يقول الشاعر : لا تكن فراشاً يهفو على نار غيره بل اصطل نارك إن تكن في قلبك نار .

(٢) مذهب إقبال أن يثبت الإنسان في نفسه ، يبعد السير ولكن لا يخرج من منهاجه . فليكن كالبصر ، يتقلب في العالم ، وهو مكانه ، وكالطائر يحلق في الجو ولا ينسى عشه . يعني أن يكون في فكره وعمله صادراً عن عقيدته وإحساسه هو .

(٣) حياة الفرد أن يعرف نفسه ويعتدَّ بها ، وحياة الجماعة أن تعتمد على نفسها ، وتصدف عن غيرها .

(٤) يروى أنَّ سلمان الفارسي رضي الله عنه سئل عن نسبه ، فقال : سلمان بنُ الإسلام .

ابـنُ مسعـودٍ سِـراجُ المتَّقيـن جسمـهُ والـرُّوح وَجْـد المُختبِيِـن
أجَّ مـن مـوت أخيـه صَـدْرُه وأذابَ القلـبَ منـه جمـرُه
لـم يجفَّ الـدَّمع مـن حـرقتـه نـاحَ نَـوحَ الأمّ فـي لَـوعتـهِ :
« آهِ للقـارىء درسَ العظـةِ ورفيقـي فـي طـلابِ الحكمـةِ »
« آهِ للسَّـروِ الـذي قـد وَرَفـا وشـريكـي فـي ولاءِ المصطفـى »
« عينُـه تُحـرَم إبصـار النَّبـيّ وأنـا أشهـد أنـوار النبـي[1] »

* * *

مـا مـن الأنسـاب يَقـوَى وصلُنـا ليـس مـنْ رومٍ وعُـرب أصلُنـا
إنمـا حـبُّ الحجـازيِّ الحبيـب قد حبانا ذاكـمُ الوصلَ القريـب
حَسْبُنـا آصـرةٌ مـنْ حُبِّـهِ حسـبُ عيـن نشـوةٌ فـي قـربـه
جـدَّد الـدَّهـرُ بنـا سيـرتَـهُ مُـذْ حـوت أعـراقُنـا نشـوتَـه
عشقُـه سِـرُّ اجتمـاع الأمَّـةِ نبضَـت منـه عـروقُ الملَّـة
صلـةُ العِشْـقِ لنـا أقـوى سَبـب هو في الروح ، وفي الجسم النسب
أيهـا العـاشـق خـلِّ النَّسبـا خـلِّ إيـران ، وخـلِّ العَـربـا
نـورُ حـقٍّ مثلَـه أمَّتُـه قـد نمـت أغصـانَنـا دوحتُـهُ
« نـور حـقٍّ مـا حـواه نسـبُ ثوبُ حقٍّ ، لا سِدًى أو لُحمةُ »[2]
مـن ثـوى فـي نسـبٍ أو بلـدِ قد غَفا عن ﴿ لم يلدْ ولم يُولَد ﴾

* * *

---

(١) يقصد الشاعر من هذه القصة أن ابن مسعود بكى أخاه لما جمعهما من صلة بالنبي لا من صلة النسب .

(٢) البيت لجلال الدين الرومي .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾

صاحِ ! ما المسلمُ للدُّنيا احتقرْ ... عامِراً بالحقِّ قلباً قد عمر ؟
زهْرةٌ من شَقِرٍ في القُننِ ... لم تَرُعها طلعةٌ من مُجتنِ
نَفَساً ينفخ فيها السَّحَرُ ... فتراها لهباً يستعرُ
تُشفق الزُّهرُ عليها تحسَبُ ... أنَّها خُلِّف عنها كوكبُ
النَّدى منها نُعاساً يَغسِلُ ... وشُعاعُ الشَّمس فيها قُبَلُ
﴿ لم يكن ﴾ أمسِكْ بها واشدُد يدا ... لتُرى في الناس حُرّاً أوحَدا
ذلك الواحدُ لا شرِكَ له ... عبدُه يأبى شريكاً مِثلَه
قد سما المسلم أعلَى مَنْ سَما ... ليس يرضى بمُسامٍ في السَّما
وِردُه ﴿ لا تحزنوا ﴾ في المأزِق ... ﴿ أنتم الأعلَون ﴾ تاجُ المَفرِق
حملَ الكونين طرّاً ظَهرُه ... وحوى برّاً وبحراً صدرُه
أذُنُه للرَّعد إمَّا جَلجلا ... صدرُه لِلبَرق إمَّا نزلا
قاتِلُ الزُّور ، وللحقِّ وزَرْ ... أمرُه المعيار في خيرٍ وشرّ
جمرُه كلُّ لهيبٍ في حشاه ... جوهرٌ فيه كمالٌ للحياه
ليس في ضوضاء هذي الأمم ... نغمةٌ إلا أذانَ المُسلمِ
هو في العفو وفي البذل عظيمْ ... وهو حين القَهر ذو طبعٍ كريم
لُطفُه في الحَفلِ جبرُ المنكسِرْ ... قهرُه في الحرب صهرٌ للحجَر
هو في الرَّوض صفيرُ البُلبلِ ... وهو في البِيد انقضاض الأجدل
قلبه تحت سَماءٍ لا يقرّ ... هو فوق الزُّهْرِ ما إن يستقرّ
طائرٌ ينقُر نجمَ الحُبُكِ ... طائراً فيما وراء الفَلَكِ
أنتَ ، يا منْ لم يَطِرْ منك جَناحْ ! ... دودةٌ في ظلمةِ التُّرب تُراح
مستكينٌ تشتكي جور الزَّمانْ ... قد أصبتَ الذُّلَّ من هَجر القُران[1]

---

(١) القران : القرآن .

قد هَبَطْتَ الأرضَ طُهراً كالنَّدى | بالكتاب الحيِّ أمسكت يدا
فإلام العيشُ في التُّرب ؟ ارحلا | اصعدَنْ فوق السمواتِ العُلَى

* * *

شكوى المصنف إلى من أرسل رحمةً للعالمين

نَضَرَتْ منك مُحيّاها الحياه | ورأت تعبيرَ رؤياها الحياه
الجهاتُ الستُّ نورٌ يَسطعُ | منك ، والأقوامُ جمعاً تَبَعُ
إنَّ فقراً فيكَ ذخرُ الكائنات | قد تعالى بك قدرُ الكائنات[1]
أنتَ أشعلتَ مصابيح الحياه | وحبوتَ النَّاس من رقٍّ نجاه
صُورُ الكون بدت من دونكا | فاقةٌ تشكو وتشكو الحَلَكا
نَفَسٌ منك أطار الشَّرَرا | فاستحالَ الطِّينُ مِنْهُ بشرا[2]
وَسَمَتْ للنَّيرينِ الذَّرَّة | وتجلَّتْ من حَشاها القوّة
من أبي أنت وأمي أقرب | مذ رأى وجهَك طَرفي المعجَبُ
عشقُك النارَ بجسمي يُضرِم | فليُذِبْ روحيَ منه ضَرَمُ
ومتاعي أنَّةٌ مثلَ الرَّبابْ | إنها المصباح في بيتي الخراب
كيف لا يُبدي شَجٍ أتراحَه ؟ | كيف لا يُبدي زجاجٌ راحه ؟
ضلَّ عنْ سرِّ النبيِّ المسلمُ | مؤثناً قد صار هذا الحرَم[3]
كلُّهم في قلبه يثوي هُبَلْ | ومناةٌ فيه والعُزَّى تحُل

---

(١) الفقر عند إقبال ، كما هو عند الصوفية ، ألا يستغنى الإنسان إلا بالله . انظر مقدمة « ضرب الكليم » .

(٢) يعني : أنَّ الكائنات قبلك كانت في ظلامٍ وفاقةٍ وحاجةٍ إلى من يبعث فيها الحياة والقوة .

(٣) المسلم صار بيت أوثان بما في نفسه من أهواء ، وعبادة للكبراء .

شيخُنـا يفضلـه البـرَهْمَـنُ ... سُمنـاتٌ رأسَـه يستـوطـنُ[1]

هجر العُربَ ، وفي العُزبِ عِصَمْ ... وأطـال النَّـومِ فـي حـانِ العجـم

فـتَّ بَـردُ العُجـمِ فـي أعضـائـه ... دمعُـه أبـردُ مـنْ صهبـائـه

هـو ، كـالكـافـر ، يَخشـى الأجـلا ... صَـدْرُه مـن قلـب حـيٌّ قـد خـلا

داؤه كـلُّ طبيـبٍ مـا شفـا ... فحملـتُ النَّعشَ عنـد المصطفـى

هـالكـاً عـرَّفتـه مـاء الحيـاه ... ومـن القـرآن أسـرار النَّجـاه

قلـتُ عـن أحبـاب نجـدٍ قِصَّتـي ... حَـدثـتْ عـن روضِ نجـدٍ نفحتـي

فـأضـاء الحفـلَ مـن لحنـي أيـاة ... ودَرى قـومـي أسـرار الحيـاة[2]

* * *

قيـلَ : أُهـدي سحـر أوْرُبَّـة لنـا ... وبقـانـونِ الفـرنـج افتتنـا[3]

واهبـي عـودَ سُلَيمـى كـرَمـا ... والأبـوصيـريَّ بُـرداً كـرُمـا[4]

اهـدِ للحـقِّ ، الـذي قـد أفكـا ... الـذي يجعـل مـا قـد ملكـا[5]

إنْ يكـن قلبـي غَـوَى لا يُبصـرُ ... أو سـوى القـرآنِ لفظـي يُضْمِـرُ

أنـت يـا مـن نـورُه صبـحُ العُصـور ! ... أنـت يـا عـالـمَ أسـرارِ الصـدور !

اهتكـنْ أستـار فكـري وافضحـنْ ... طهِّـرن مـن شـوكتـي روضَ الـزَّمـن

وحيـاتـي اقطـع لأجـل الأمَّـةِ ... واكفيَـنْ شـرِّي أهـلَ الملـةِ

أبعدنْ عن روضتي الغيث المَريع ... واحـرمنِّـي مـن شـآبيـبِ الـرَّبيـع

جفِّـفِ الـراح بكَـرمـي عـاجـلا ... وامـلأنْ واحـيَ سُمَّـاً قـاتـلا

---

(١) سمنات : بيت أصنام معروف في الهند أخربه السلطان محمود الغزنوي ، ويعيد الهنادك بناءه اليوم .

(٢) الأياة : شعاع الشمس .

(٣) القانون : آلة موسيقية . وفي الكلام تورية بالقانون الذي معناه الشرع .

(٤) الأبوصيري الشاعر ناظم البردة . وعود سليمى يراد به قوة العرب في الأدب والغناء .

(٥) اهد من ادعى أن فلسفتي مأخوذة من الفرنج ؛ لأنه يجهل ما في دينه من قوانين .

واخـــزِيَنَّــي يــوم حشــر الأمــم　　　واحــرمَنِّــي منــك لثــمَ القــدَم

أو أكن أخلصت نصحي في البيانِ　　　ونظمــت الــدُّرَّ مــنْ ســرّ القُــرانِ

فــدعـــاءٌ منــك أجــري وكفــى　　　بــكَ كــمْ نــال وضيــعٌ شــرَفــا

اســألــنَّ اللهَ ربَّ العــرش لــي　　　يجعلَــنْ عشقــي قــريــنَ العمــل

ربِّ قــد أنعمــتَ بــالــرُّوح الحزيــن　　　ونصيبــاً شئــتَ لــي مــن علــمِ ديــن

فــاجعلَــنْ فــي الفعــل حظّــي أوفــرا　　　واجْعَلَـــنْ قَطْــرَ ربيعــي دُررا

* * *

أمــلٌ آخــر فــي القلــب أقــام　　　مُــذْ حوىٰ قلبيَ فــي الــدنيــا مُقام

هــو فــي صــدرِي كقلبــي نــزلا　　　شــاهــداً صبــحَ حيــاتــي الأوّلا

أمـــلٌ أذكيـــتُ منـــه لهبـــي　　　مُــذْ شــدا بــاسمــك أمــي وأبــي

كلَّمـــا غيَّــض منّــي الــزمــنُ　　　ودهـــانـــي ريبُــه والمِحـــنُ

شــبَّ فــي قلبــيَ هــذا الأمــلُ　　　ونمـــا بـــالعتــق فيــه الثَّمَــل

إنَّــه تحــت تــرابــي جَــوهــرُ　　　كــوكــبٌ فــي جنــح ليلــي يُسفِــر

* * *

همــتُ حينـــاً بــذواتِ الحــورِ　　　وتعشَّقْـــتُ ذواتِ الطُـــرَرِ

وعلــى الــرَّاح صحبــت الغــانيــه　　　حيــن أطفــأتُ ســراجَ العــافيــه

وأحــاطــت بيّــدري نــارُ البُــروقْ　　　وغـــزا قلبــيَ قُطّــاع الطــريــقْ

وبــروحــي لــم يــزل هــذا العُقــار　　　وبكيســي لــم يــزل هــذا النُضــاز

* * *

لبــس الــزُنَّــارَ عقلــي الآزريّ　　　وغــزا روحــي بــالنقــش الفــريّ[1]

---

(١) الأزري المنسوب إلى آزر ناحت الأصنام ، وهذا العقل الوثني نقش في روحه نقشاً عجيباً .

فـي إسـار الشـكّ أمضيـت سنيـنْ ... وهـو فـي رأسـي مقيـمٌ لا يَبيـن

أحـرُفـاً مـا نلـتُ مـنْ عِلـم اليقيـن ... ومن الحكمة في الريب رهين[1]

لـم يَلُـح فـي ليـل عُمـري نـورُ حـقّ ... لـم يُنِـرْ ليلـي شعـاعٌ مـن شفَـقْ

وفـؤادي مُضمـرٌ هـذا الـرجـاء ... صـدَفٌ فـي قلبـه دُرٌّ أضـاء

ثـمَّ مِـنْ عينـيَّ دمعـاً سَجَمـا ... وتجلّـى فـي فـؤادي نغمـا[2]

* * *

يـا مَـن القلـبُ سِـواه أغفـلا ! ... ائـذنَـنْ أذكـر هـذا الأمـلا

سيـرتـي مـا ضـاء فيهـا العمـلُ ... كيـف مثلـي مثـلَ هـذا يـأمُـلُ ؟

أنـا مِـنْ إظهـاره فـي خجَـلِ ... منـك لُطـفٌ يسِّـرَ الجُـرأة لـي

يـا رحيمـاً بـك للنـاس مفـاز ... كلُّ ما أبغيه موتي في الحجاز[3]

هَجْـرُ غيـر الله شـأنُ المسلـمِ ... كيـف لـي عيـشٌ ببيـت الصنـم ؟

حسـرةُ المسلـم إنْ حُـمَّ الممـات ... أن يكـون الـدَّيرُ مثوى للرُّفات[4]

ويـلَ يـومـي ، وهنيئـاً لغـدِي ... إن أقُـمْ فـي ذا الحِمَـى من لَحدي

حبَّـذا أرضٌ تـراهـا مـوطنـا ! ... حبَّـذا تـربٌ تـراه مسكنـا !

---

(١) الحكمة : الفلسفة .

(٢) هذا الأمل الّذي كرر الشاعر ذكره وأطال في وصفه تحوّل دمعاً سجم في عينيه ، ونغماً رنَّ في قلبه .

(٣) كرّر الشاعر هذا الرجاء في شبابه قبل وفاته بثلاثين سنة إلى أن توفي ، وروى الأستاذ يوسف جشتي شارح دواوينه الشعرية أنَّ أحد أصحاب محمد إقبال دخل عليه في يناير سنة ١٩٣٨م (أي : قبل وفاته بثلاثة أشهر) وأخبره أنه عزم على الحجّ ، وسأله أن يدعو اللهَ ليقبل حجَّه ، فبكى إقبال بكاءً شديداً وقال : بل أسأل الله أن ييسّر لي زيارة روضة الحبيب ﷺ .

(٤) يعني : أن بلاد الهند يسيطر عليها الإنكليز ، وليست بلاداً إسلامية خالصةً ، فهي ليست جديرة أن يعيش فيها المسلم ، أو يعبر فيها .

« دارُ حبِّـــي ومليكـــي والسَّكـــن   أيُّها العُشَّاقُ ! ذا نِعْمَ الوطن »[1]

كـــوكبـــي أطلِعْـــهُ بـــالسَّعـــد غـــدا   فـــي ظـــلال الـــدَّار هـــبْ لـــي مـــرقـــدا

لِيـــرى الـــراحـــةَ قلبـــي القِلِـــقُ   ويـــرى الهـــدأةَ هـــذا الـــزئبـــقُ

أيُّهـــا الـــدَّهـــر انظـــرَنْ هـــذا السَّـــلام   قـــد رأيـــتَ البـــدءَ فـــانظـــرْ مـــا الختـــامْ

* * *

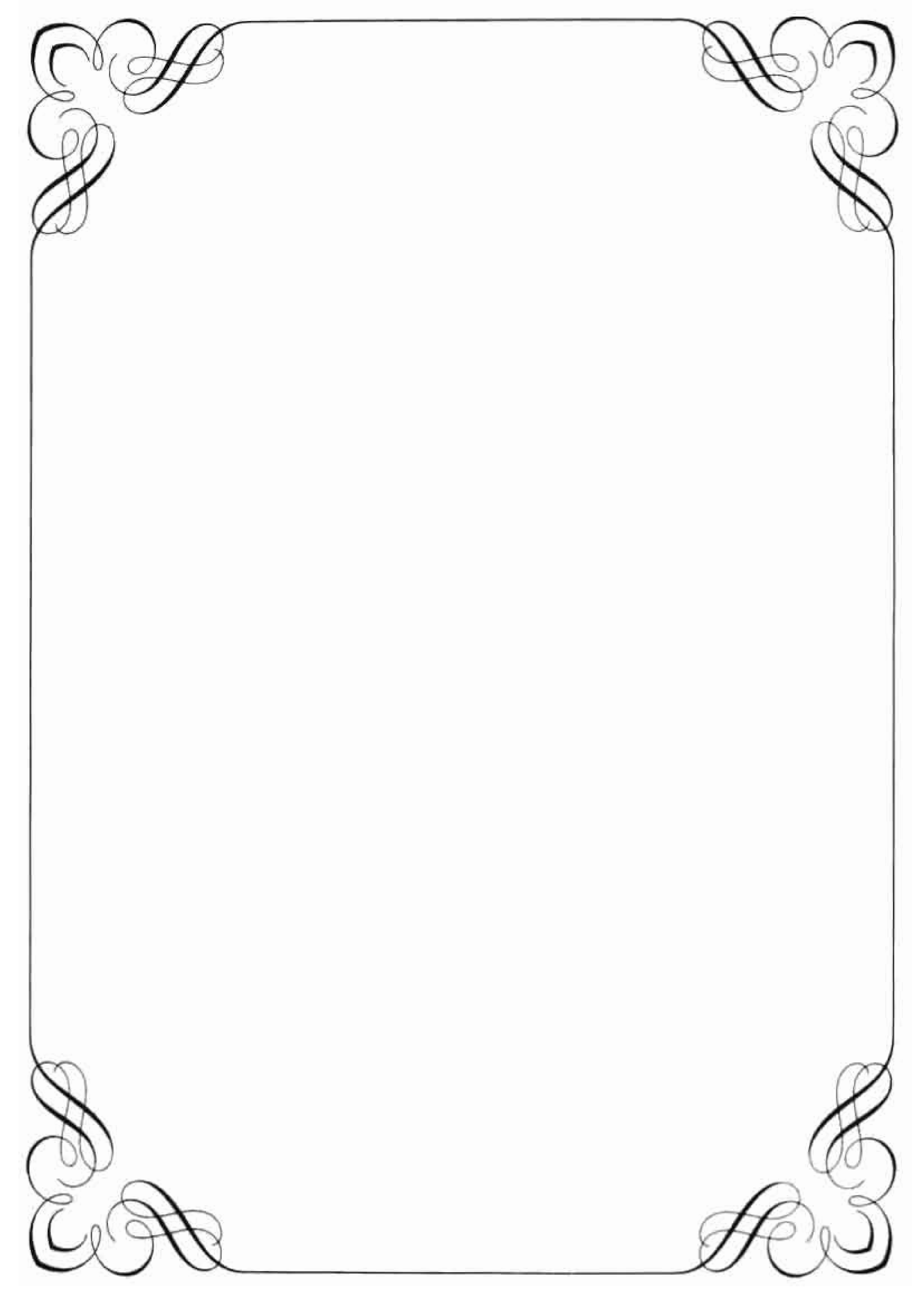
(١) هذا البيت أحسبه مقتبساً من جلال الدين الرومي . والسكن هنا : من يسكن إليه الإنسان ، ويطمئن .



الدِّيْوَانُ الثَّالِثُ

رِسَالَةُ الشَّرْقِ
پیام مشرق

نَقَلَهُ إِلَى العَرَبِيَّةِ
الدكتور عبد الوهَّاب عزَّام



طبع هذا الدِّيوان أوَّل مرّة باللغة الفارسية عام ١٩٢٣م ، وكتب الشّاعر فوق عنوان الديوان : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ [البقرة : ١١٥] وكتب تحته : « جواب ديوان الشاعر جوته » .

وقدَّم محمد إقبال هذا الدِّيوان على أنَّه شعر الفارسيَّة الكامل ، لأنَّه قدَّم إلى القارىء اللغة الفارسية في مجموعة من الأشعار تحتوي على مختلف أقسام الشِّعر الفارسي من الغزل والرُّباعي والبيتي والقطع والمثنوي وغيرها ، ويُصادفنا في الديوانِ الشعرُ الأخلاقي والحركات السياسية والاجتماعية لذلك الوقت .

والدِّيوان روضةٌ من الشِّعر تختلف أزهارها ، ونوارها ، وضروب النبات فيها وألوان وصنوف الرَّيحان فيها ، وروائحه جمعت أشتات الزهر من المشرق والمغرب .





محتوى الديوان

يشتمل هذا الديوان على هذه الأقسام :

القسم الأول : شقائق الطور ، وهي رباعيات .

القسم الثاني : الأفكار ، وهي إحدى وخمسون قطعة وقصيدة .

القسم الثالث : الخمر الباقية ، وهي قصائد صوفية ، رمزية من الضَّرب الّذي يسمَّى في اصطلاح الأدب الفارسي والأردوي غزلًا ، وهو غير الاصطلاح العربي ، وعدد الغزليات في هذا القسم خمسٌ وأربعون .

القسم الرابع : نقش الفرنج ، وهي أربع وعشرون قطعة وقصيدة ، يذكر فيها الشَّاعر بعض شعراء أوربة وفلاسفتهم ، وينقد مذاهبهم وآراءهم ، فيقبل منها ويردّ .

القسم الخامس : الدَّقائق ، وهي قطع صغيرة ، وأبيات مفردة ألحقها الشاعر بهذا الدِّيوان . وقد ترجم هذا الديوان بكامله إلى العربيَّة شعراً الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ، وهو يُقدَّم إليكَ الآن مع مقدمة الشاعر .

* * *

مقدمة محمد إقبال[1]

لديوان « رسالة الشرق »

نظمتُ بيام مشرق لأجيب به الديوان الغربي لفيلسوف الحياة الألماني جوته الذي يقول فيه الشاعر الألماني الإسرائيلي هاينا :

« هذه باقةٌ من العقائد يرسلها المغرب إلى المشرق ويتبين من هذا الديوان أنَّ المغرب ضاق بروحانيته الضعيفة الباردة فتطلع إلى الاقتباس من صدر المشرق » .

ما المؤثرات وما الأحوال التي كتب فيها جوته هذه المجموعة من الأشعار التي هي أحسن آثاره ، والتي سمَّاها هو باسم « الديوان » .

لا بدَّ للإجابة عن هذا السؤال أن نبين إجمالاً هذا التأثير الذي سمي في تاريخ الأدب الألماني التأثير الشرقي . وددت أن أفصِّل في هذه المقدمة الكلام في هذا التأثير ، ولكن المراجع الكثيرة التي يحتاج إليها في هذا البحث لم تتيسر في الهند . وقد بين بال هورن مؤلف تاريخ آداب إيران في مقالٍ له مقدار ما كان جوته مديناً لشعراء الفرس . ولكن العدد المشتمل على هذا المقال من مجلة نارو أندسود لم يمكن الحصول عليه في خزانة كتب في الهند ، ولا من ألمانيا . فلا مناص من أن أعتمد في كتابة هذه المقدمة على ما أذكر من دراستي السابقة وعلى الرسالة المختصرة المفيدة البارعة التي كتبها في هذا الموضوع مستر « شارلس ريمي » .

كانت طبيعة جوته المتطلعة تميل منذ الحداثة نحو الأفكار الشرقية ، وفي

---

(١) كتبها محمد إقبال بالأردوية ، ونقلها إلى العربية خلال ترجمة هذا الديوان الأستاذُ الدكتور عبدُ الوهاب عزّام .

استراسبورج حيث كان يتعلَّم القانون لقي هردر ذا المكانة والصيت في الأدب الألماني . ويعترف جوته في سوانحه بما تركت صحبة هردر في نفسه .

لم يكن هردر يعرف الفارسيَّة ، ولكن لغلبة النزعة الأخلاقية عليه كان لكتب سعدي أثر بليغ في نفسه حتَّى ترجم بعض فصول كلستان إلى اللغة الألمانية . ولم يكن لحافظ الشيرازي هذه المكانة عنده ، وهو يقول داعياً معاصريه : قد غنينا كثيراً على أسلوب حافظ وقد وجب الآن أن نقتدي بسعدي . ولكن مع حب هردر الآداب الشرقية هذا الحبَّ لا يُعرف في شعره أو مؤلفاته الأخرى أثرٌ من هذه الآداب . وكذلك كان شلر معاصر جوته الثاني بعيداً عن تأثير الشرقيين . وقد مات قبل ظهور التأثير الشَّرقي ، وينبغي ألا نغفل عن هذه المسألة : إنَّ قصتَه « توران دخت » أخذت خطتها من قصة بنت سلطان الإقليم الرابع التي كتبها نظامي الكنجوي في « هفت پيكر » واستهلَّها بقوله :

كفت كز جملهٔ ولايت روس
بود شهري بنيكوئي چو عروس

* * *

وسنة ١٨١٢ نشر فون همر ترجمةً كاملةً لديوان حافظ : وبهذه الترجمة ابتدأ التأثير الشرقي في آداب الألمان . وكان عُمُر جوته إذ ذاك خمساً وستين سنة . وكان هذا على حين بلغ انحطاط الألمان غايته في كلِّ ناحية . لم تكن طبيعة جوته مهيأة للمشاركة عملاً في الحركات السياسية في وطنه ، فلما ضاق بالاضطراب الشائع في أوروبة أخذت روحه القلقة المحلقة تلتمس عشاءً في فضاء الشرق الساكن الآمن .

وقد أثارت أناشيد حافظ هياجاً كبيراً في أفكاره ، فاختار آخر الأمر « للديـوان الغربي » صورةً متميزة ثابتة ، ولكن ترجمة فون همر لم تكن مؤثرةً في جوته فحسب ، بل كانت مأخـذاً لخيـالاته العجيبة الغريبة ، فيبدو نظمه أحياناً كأنَّه ترجمـةٌ حـرَّةٌ من شعر حافظ ، وأحياناً تجد قوةَ تخيُّله في مصرعٍ

واحدٍ مهيعاً جديداً تنير فيه مسائل في الحياة بالغةً في الدِّقة والصُّعوبة .

يقول بيل شوسكي كاتب سوانح جوته المعروف :

كان جوته يرى صورته في نغمات بلبل شيراز ، وكان يخطر له بين الحين والحين أنَّ روحه لبست صورة حافظ ، فعاشت في بلاد الشرق . فنحن نجده شبيه حافظ في ذلك السُّرور الأرضي ، وتلك المحبة السَّماوية ، وذلك اليسر ، وذلك العمق ، وذلك الغليان والتوقد ، وتلك السَّعة في المذهب ، وهذا النُّور القلبي ، وذلك التحرُّر من الرسوم والقيود . بل في كلِّ أمر حافظ ، لسان الغيب ، وترجمان الأسرار ، وكذلك جوته . ولحافظ عالم من المعاني في ألفاظٍ بسيطةٍ في ظاهرها ، وكذلك في طريقة جوتِه المطبوعة تتجلَّى الحقائق والأسرار ، وكلاهما نال إعجاب الأمير والصعلوك ، وكلاهما أثَّر في فاتحي عصره العظام « يعني حافظ في تيمور ، وجوته في نبوليون »[1] وكلاهما في عصر اضطرابٍ عامٍّ وخراب ، حافظ على السكون والطمأنينة في قلبه مبتهجاً بالمضيِّ في ترنمه القديم .

ثم جوته مدينٌ في أفكاره لغير حافظ : للشيخ عطار ، وسعدي ، والفردوسي ، وللأدب الإسلامي عامَّةً . فقد كتب في بعض المواضع غزلًا في قيود القافية والرديف ، وهو يستعمل في لغته استعاراتٍ فارسيَّةً بغير تكلُّف مثل : جوهر الأشعار ، وسهام الأهداب ، والطرَّة المعقودة ، بل هو في فورة الفارسية لا يحترز من الإشارة إلى الولوع بالمرد . ثم أسماء أقسام الديوان فارسية كذلك مثل « مغنى نامه ـ ساقي نامه ـ عشق نامه ـ تيمور نامه ـ حكمت نامه ، وغيرها » ومع هذا كلِّه فليس هو مقلداً أيَّ شاعرٍ فارسيٍّ . فطرته الشعرية حرَّةٌ ولا ريب . وإنما غناؤه في مروج الشقائق المشرقية عرضيٌّ محض . وهو لا يفرط في غربيته ، وإنما يقع بصره وحده على الحقائق الشرقية التي تلائم

---

(١) لا تصحُّ رواية التقاء حافظ وتيمور فقد توفي الشاعر قبل أن يفتح تيمور شيراز .

فطرته الغربية . ولم يمل إلى التَّصوُّف العجمي قط . وكان يعلم أنَّ أشعار حافظ تفسر في المشرق تفسيراً صوفيّاً ، ولكنه لم يكلف إلا بالغزل محضاً ، ولم يهتم بالتفسير الصُّوفي في كلام حافظ أيَّ اهتمام .

وكانت معارف مولانا الرُّومي وحقائقه الفلسفية مبهمةً عنده . لا يمكن أن ينكر الرومي رجلٌ مدح سبنوزا (فيلسوف هولندي كان يقول بوحدة الوجود) وأعمل قلمه في الدفاع عن برونو (فيلسوف إيطالي وجودي) »[1] .

والخلاصة أنَّ جوته في الديوان المغربي اجتهد في إظهار الروح العجمية في الأدب الألماني .

* * *

وقد أكمل الأثر الشرقي الذي بدأ في ديوان جوته الشعراء الذين جاؤوا بعده : بلاتن ، وروكرت ، وبودن ستات .

فأمَّا بلاتن ؛ فقد تعلَّم الفارسيَّة لمقاصد أدبيَّةٍ ، ونظم غزلاً في القافية المردوفة ، بل في العروض الفارسي ، ونظم رباعيات ، ونظم قصيدةً في نبوليون . واستعمل الاستعارات الفارسية بغير تكلُّفٍ ، مثل جوته : عروس الورد ، والطرة المسكية ، وشقائق العذار . وهو مولع بالتغزُّل المحض كذلك .

وأمَّا روكرت ؛ فكان ماهراً في الألسنة الثلاثة : العربية ، والفارسية ، والسنسكريتية . وكان لفلسفة الرومي مكانةٌ عظيمةٌ في رأيه . وتأثير مولى الروم فيما كتب من غزلٍ كان أوضح ، وكانت مصادره من الأشعار الشرقية أوسع بما عرف من لغات الشرق .

وقد التقط لآلىء الحكمة من مخزن الأسرار لنظامي ، وبهارستان جامي ،

---

(١) يعني أنَّ الرومي كان من القائلين بوحدة الوجود ، فلو عرفه جوته لعني به ، كما عني بهذين الفيلسوفين .

وكليات أمير خسرو ، وكلستان سعدي ، ومناقب العارفين ، وعيار دانش ، ومنطق الطير ، وهفت قلزم ، بل زين كلامه بقصص وروايات إيرانية ترجع إلى ما قبل الإسلام . وقد أحسن نظم بعض واقعات التاريخ الإسلامي وأشخاصه مثل موت محمود الغزنوي ، وغزو محمود سومنات ، والسلطانة رضية[1] وموضوعات أخرى .

وأكثر شعراء الأسلوب الشرقي قبولًا بعد جوته : بودن ستات ؛ الذي نشر منظوماتٍ بالاسم المستعار « مرزا شفيع » وقد لقيت هذه المجموعة الصغيرة من القبول ما اقتضى طبعها مئة وأربعين مرة في مدَّةٍ قصيرة . أحسن هذا الشاعر تصوير الرُّوح العجمية حتى بقي الناس في ألمانيا زمناً طويلاً يحسبون أشعار مرزا شفيع ترجمة شعر فارسي .

وقد استفاد بودن ستات من أمير معزي ، وأنوري كذلك .

ولم أرد أن أذكر في هذا الصدد هاينا معاصر جوته المشهور ، إذ لم يكن في الجملة ذا صلةٍ بالتأثير الشَّرقي ، ولم يهتمَّ بما اقتبس شعراء ألمانيا من الشعر الشَّرقي إلا ديوان جوته ، على أنَّ الأثر العجمي بين في مجموعته المسماة « الأشعار الجديدة » وقد أجاد جداً في نظم قصة محمود ، والفردوسي ، ولكنَّ قلبَ هذا الشاعر الألماني الحرَّ لم يستطع الإفلات من شرك سحر العجم ، حتى لقد تصوَّر نفسه مرَّةً شاعراً إيرانياً أُجلي إلى ألمانيا يقول :

« يا فردوسي ! يا جامي ! يا سعدي ! إنَّ أخاكم في سجن الغم يخفق حنيناً إلى أزهار شيراز » .

ثم نذكر من مقلدي حافظ الأدنين منزلةً ، دومر ، هرمن ستال لوشكي ، ستابك ، لتز ، لنت هولد ، وفون شاك . وهذا الأخير كان ذا منزلةٍ عاليةٍ في العلم ، ونظمه قصة إنصاف محمود الغزنوي ، وقصة هاروت وماروت

---

(١) من دولة المماليك التي قامت في دهلي .

مشهور . وأوضح الآثار في كلامه : أثر عمر الخيام .

وبعد فلا بدَّ من بحثٍ طويلٍ لكتابة تاريخ كامل لتأثير الشرق في الأدب الألماني ، والمقابلة بين شعراء إيران وألمانيا ، لتقدير أثر العجم تقديراً حقًّا ، ولكن لم يتيسَّر الوقت ، ولا العدَّة لهذا البحث . ولعلَّ هذا البحث المختصر يثير قلب أحد الشبان للتَّحقيق والتدقيق في هذا الشأن .

* * *

وأما « پيام مشرق » الذي كتب بعد « الديوان الغربي » بمئة سنة فلست في حاجة إلى الإبانة عنه . فسيرى الناظرون فيه بأنفسهم أنَّ أكثر ما يرمي إليه هو النظر في الحقائق الأخلاقية ، والدينية ، والمذهبية ؛ التي تتَّصل بالتربية الباطنية في الأفراد والأمم . ولا ريب أنَّ بين ألمانيا قبل مئة سنة وأحوال الشرق الحاضرة تشابهاً ما ، ولكن الحقيقة أنَّ الاضطراب الباطن في أمم العالم .. الذي لا نستطيع تقدير خطره لأننا متأثرون به ـ هو مقدمة انقلاب حضاري وروحاني عظيم جداً .

كانت الحرب العظمى التي قامت في أوربة قيامة كادت تمحو نظام العالم القديم من كل جوانبه . وأن الفطرة لتخلق اليوم في أعماق الحياة من رماد الحضارة والثقافة إنساناً جديداً وتخلق عالماً جديداً لإقامة هذا الإنسان . عالماً يرى هيكله غير البين في مؤلفات آين شتاين ، وبركسون .

لقد رأت أوربة بعينيها النتائج المخوفة لمثلها الاقتصادية ، والأخلاقية ، والعلمية . وسمعت من سنيور نيتي « الذي كان رئيس وزراء إيطالية » قصة « انحطاط الفرنج » المحزنة ، ولكن واأسفاه لم يستطع عبَّاد القديم الذين سمعوا حقائقه أن يقدروا الانقلاب المدهش الذي كان يثور في الضمير الإنساني .

وإذا نظرنا نظرةً أدبيةً خالصةً نرى أنَّ اضمحلال قوى الإنسان بعد الحرب لا ييسر نشوء مُثُلٍ روحيةٍ صحيحةٍ ناضجة . بل يخشى أن تغلب على طبائع

الناس هذه الإباحية المنهوكة الضعيفة الأعصاب التي تفرُّ من مصاعب الحياة ، والتي لا تميز بين نزعات القلب وأفكار العقل . لا شكَّ أنَّ أمريكا عنصر صحيح في الحضارة الغربية ، فلعلَّ هذا الإقليم خالص من قيود الروايات القديمة ، ولعلَّ وجدانه الاجتماعي يقبل راضياً الأفكار والنزعات الجديدة .

* * *

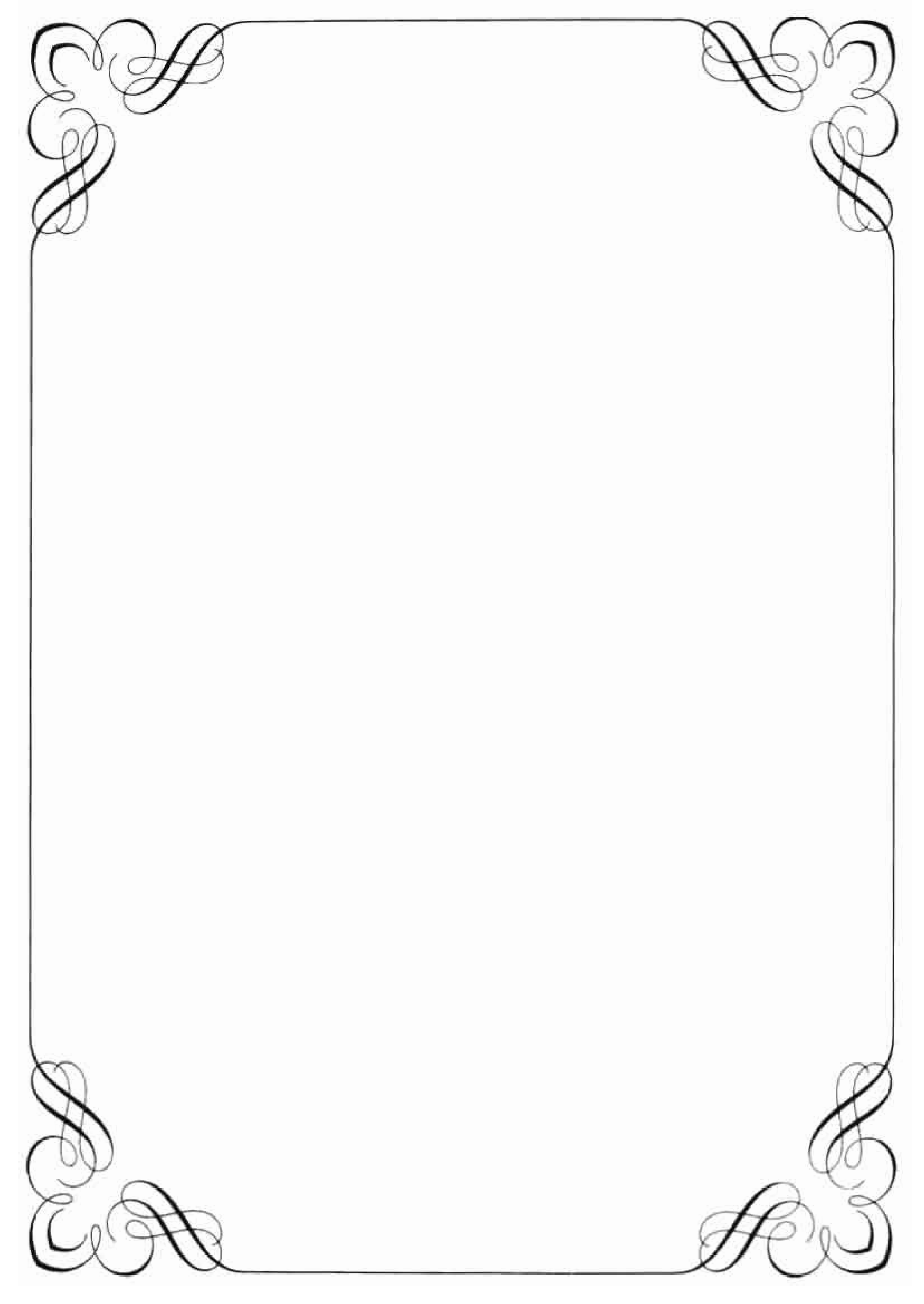
إنَّ الشَّرق ، ولا سيما الشَّرق الإسلامي ، يفتح عينيه بعد نوم القرون المتطاولة . ولكن يجب على أمم الشرق أن تتبيَّن أنَّ الحياة لا تستطيع أن تُبدِّل ما حولها حتى يكون تَبَدُّلٌ في أعماقها ، وأنَّ عالماً جديداً لا يستطيع أن يتخذ وجوده الخارجي حتى يوجد في ضمائر الناس قبلاً . هذا قانون الفطرة الثابت الذي بينه القرآن في كلماتٍ يسيرةٍ وبليغةٍ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد: ١١] إنه قانونٌ يجمع جانبي الحياة كليهما الفردي والاجتماعي . وقد اجتهدت في كتبي الفارسية أن أبيِّن للناس صدقه ، وأنَّه لجدير بالإكبار كلُّ مسعىً في العالم ـ ولا سيما في بلاد الشرق ـ يقصد إلى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق الحدود الجغرافية ، فيولد أو يجدد فيها سيرةً إنسانيةً صحيحةً قوية .

* * *

وأختم بالثناء على صديقي جودهري محمد حسين . ام . اي ، قد رتَّب مُسوَّدات « پيام مشرق » للطبع . ولولا احتماله هذه المشقة لكان عسى أن يتأخَّر نشرُ هذه المجموعة مدَّةً طويلة .

إقبال

* * *



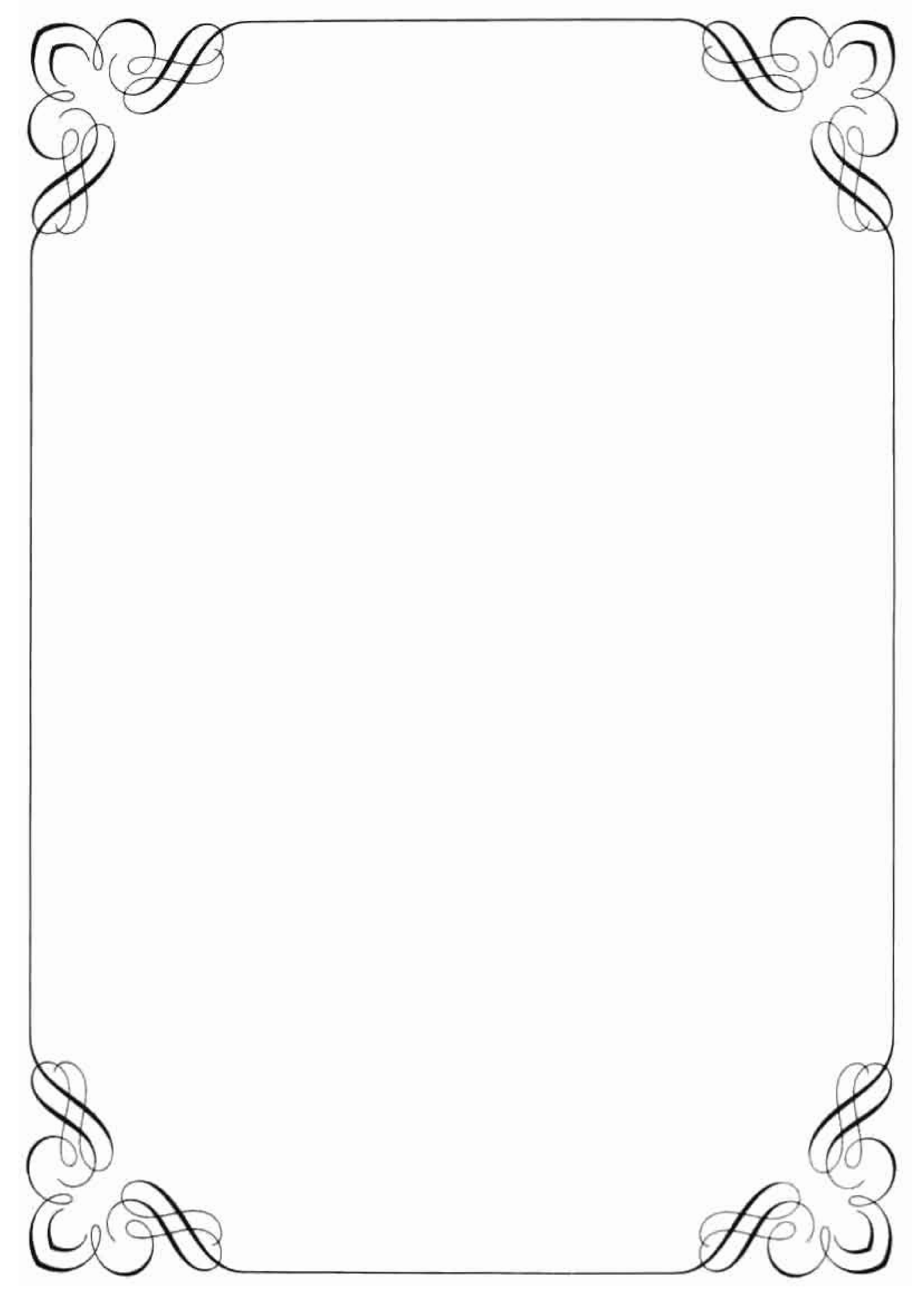



القسم الأول

شَقَائِقُ الطُّور





- ١ -

شَهيدُ دَلالِه حَفْلُ الوجود وكلُّ الكائناتِ من السُّجُود[1]

ألم تَرَ أنَّ شمسَ الأُفقِ لاحتْ بوجهِ الصُّبحِ من أثرِ السُّجُودِ ؟

- ٢ -

بقلبي من تحرُّقِه ضياءُ ويجلو النُّور في عيني البكاءُ

فزاد من الحياة نوىً غبيٌّ يقول : العشقُ مسٌّ أو هُراءُ

- ٣ -

نسيمُ العِشْقِ في الجنَّات جارِ ويُنمي العِشْقُ أزهار البراري

ويخترقُ البحارَ له شعاعٌ فيهدي العشقُ حيتان البحار

- ٤ -

رموزُ العِشْقِ في وَرَق الشقائقْ وغمُّ العِشْقِ في رُوحِ الخلائقْ

وإن تَصْدَع طباقَ الأرض تُبصر نصيبَ العِشْقِ من دمِ كلِّ عاشِقْ

- ٥ -

وما كلٌّ له في الحُبِّ كفلُ وما كلُّ الورَى للحُبِّ أهلُ

على وَرَقِ الشَّقائق وَسْمُ غمَّ ويخلو منْ شرار القَلب لَعْلُ[2]

- ٦ -

بهذا المزج مثلَ الرَّيحِ[3] أسْري علامَ أهيمُ فيه ؟ لستُ أدري

فإنْ أظفرْ وإن أُخفقْ فإنّي شهيدُ تضرُّمِ الآمال عُمْرِي

---

(١) جمع ساجد .

(٢) اللعل : أي العقيق .

(٣) الريح : الرائحة .

- ٧ -

يقـول العنـدليـبُ : أيـا صحابـي ! أغيـرُ الغـمِّ فـي هـذا التـراب ؟
يَشيـخُ الشـوكُ فـي عَـرضِ الفيـافـي ويـذوي الـوردُ فـي عُمُـر الشبـابِ

- ٨ -

لبَـدْءِ أو ختـامٍ لَسْـتُ أدري أنـا سـرٌّ أحـاولُ كَشْـفَ سـرِّ
فـإنْ بَـدتِ الحقيقـةُ دون ستـر رجعتُ إلى « لعلَّ » و« ليت شعري »

- ٩ -

أقلبي ! كـالفـراش هـوى ، إلامه ؟ ولا تمضـي مضـاء فتـى ، إلامـه ؟
بنـاركَ فـاحتـرقْ يـومـاً وأقـدمْ بنـارِ الأجنبـيِّ صلّـى ، إلامـه ؟[1]

- ١٠ -

أقـمْ بـدنـاً علـى كـفِّ الغُبـار[2] شـديـدَ الأسْـر صُلْبـاً كـالحجـار
وقلبـاً فيـه جيَّـاشـاً بهـمّ كنهـرٍ فـي حمـى الأطـواد جـار

- ١١ -

أنجـمَ الصُّبـح تُسـرع فـي فـراقٍ لعلّـك مـن رُقـادي ضقـتَ ذَرعـا
ضللـتُ بغفلتـي سُبُلـي ولكـن أتيـتَ وجُـزْتنـا يقظـانَ تسعـى

- ١٢ -

وكـم ذا فـي الـوجـود مـن الحُبـور ! أرى اللّـذاتِ فـي شَـوق الظهـورِ
ويَصـدَع غُصنَـه بُـرعـومُ زَهـرٍ فيبسـم للحيـاةِ مـنَ السُّـرور

- ١٣ -

تقـول فـراشـةٌ مـنْ قبـل خلـقٍ أنلنـي لمحـةَ قلـقِ الحيـاة
رمـادي فـاذرُه سَحَـراً ولكـن أذقنـي ليلـةً حُـرَق الحيـاة

---

(١) هذه الرباعية مردوفة . فيها الروي قبل الكلمة المكررة .
(٢) يكثر التعبير في الفارسية عن الإنسان بكف غبار « مشت خاك » .

- ١٤ -

بني الإسلامِ ! سرٌّ في ضميري يُضيء كرُوحِ جبريلَ الرسولِ
أخادع آزريَّ الطبع عنه[١] فهذا السرُّ من سرِّ الخليل

- ١٥ -

أراكَ بسرِّ أفلاكٍ تجولُ وتجهلُ سرَّ نفسك يا جهولُ
فوَجِّه - كالنواة - إليك عينا ليُنبت منْ قرارتك النخيلُ

- ١٦ -

تَغنَّى طائرٌ سحراً طويلا فأبدَعَ شدوَه نغماً وقيلا :
أبِنْ عمَّا بصدرك لا تدعْه غناءً أو أنيناً أو عَويلا

- ١٧ -

أتبغي عند مِثلي مِنْ شرابٍ يرُدُّك منْ وجودك كالبعيد
فلا تطلُبْ بسوقي مِنْ متاعٍ سوى صدرٍ تمزَّق كالورودِ[٢]

- ١٨ -

تَسوءُكَ رَوضتي مَرأىً إذا لم يَسرُّكَ في طلابٍ بذلُ روحِ
أبيِّن في عُروق الوَرد سِرّاً ربيعي ليس من لونٍ وريحِ

- ١٩ -

أنا في الروض مُنفردٌ غريبٌ على غضْني أنوحُ مع الرِّياح
فإنْ تكُ من رقاق القلب فابعُد فإنَّ دمي ليرشَحُ في نُواحي

- ٢٠ -

أهاب إسكندرُ بالخضر : أقبلْ وعانِ الكدَّ في بحرٍ وبرٍّ
وموتنْ في الوغى تزدَدْ حياةً إلامَ تحيد عن كرٍّ وفرٍّ ؟

---

(١) آزري الطبع : الذي يشبه آزر والد إبراهيم ، وكان ينحت الأصنام ، وكان ولده الخليل يدعو إلى التوحيد .

(٢) جمعُ ورد . والورد في خياله يمزِّق صدره ليتجلَّى جماله .

- ٢١ -

لـه نقـشٌ يُجـدَّد كـلَّ حيـنٍ فـلا تَبقـى الحيـاةُ علـى غِـرار
فـإنْ صـوَّرت يـومـك مثل أمسٍ فمـا يَحـوي تـرابـك مِـنْ شـرار

- ٢٢ -

بهـذا المَـرجِ مـا علَّقـتُ قلبـي مضيـتُ ولـم تعـوِّقني القيـودُ
كـريـح الصُّبـح طفـتُ بـه قليـلاً مضيـتُ ونضّـرت منِّـي الـورودُ

- ٢٣ -

أجـاش بقطـرتـي بحـراً وردَّتْ حُميَّـاه تـرابـي جـام جـمٍّ[1]
أقـام العقـلُ أصنـامـاً بـراسـي خليـلُ العِشـق بـادَرهـا بهـدمِ

- ٢٤ -

أتيـتَ الطُّـور تلتمـسُ التجلِّـي فـروحُـك منك ليست فـي وصـال
فـأقْـدِمْ فـي طـلابـك آدميّـاً كـذاك اللهُ فـي طلَـب الـرِّجـال

- ٢٥ -

لخـوفِ المـوت قلبُـك فـي ارتعـادِ ولـونُـك حـالَ مـنْ خـوفِ الشَّتـاتِ
فنفسَـك أُحْكِمَـنْ وازدد نضـوجـاً فـإنْ تفعـل تعـشْ بعـد الممـاتِ

- ٢٦ -

دَع الـرازيَّ فـي تفسيـر آي فـإنَّ ضميـرنـا نعـم الـدليـلُ
يضـرِّم عقلُنـا والقلـبُ يصلـى بـذا نمـرودُ فسَّـر والخليـلُ

- ٢٧ -

فـأبلـغْ شـاعـر الألـوانِ عنِّـي : لهيبُـك كـالشَّقـائـق لا يَضيـرُ
فنفسَـك لا تُـذيـب بنـارِ قلـبٍ ولا ليـلاً لمحـزونٍ تنيـرُ
جميلُـك أو قبيحُـك لا أراه جَعلـتَ عيـاره ربحـاً وخُسـرا
بهـذا الحفـلِ مـن مثلـي وحيـداً ؟ أرى الـدُّنيـا بعيـنٍ فـيَّ أخـرى

---

(١) كأس جمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية كان يرى فيها العالم .

- ٢٨ -

دع الشُّطآن لا تـركـنْ إليها ضعيفٌ عندها جَرسُ الحياةِ
عليك البحرَ صارع فيه موجاً حياةُ الخلدِ في نَصَبٍ تُواتي

- ٢٩ -

أتكثرُ لي حديثاً عن حياةٍ ولستُ أراكَ فيها بالحقيقِ ؟
سَكِرتُ بلذَّة التَّسيار حتَّى جعلتُ منازلي مِيلَ الطَّريقِ[1]

- ٣٠ -

مَررتُ بزهرةٍ ذبلتْ فقالتْ وجُودي مثلُ ما طارَ الشرارُ
يذوبُ لِمحْنَةِ النقاشِ قلبي فليسَ لنقشِ ليقته قرار

- ٣١ -

أرى الدُّنيا على سعةٍ كحوتٍ من الأيام في بحرٍ عميقِ
فقلبَك أبصرنْ واعجب لبحرٍ منَ الأيام في كاسٍ غريق

- ٣٢ -

أنا في المرح حِدّيثُ الطيورِ ومقوَلُ كلِّ بُرعومٍ صَغير
فأسْلَمَ للصَّبا تُربي بموتي فما لي غيرُ طوفٍ بالزُّهور

- ٣٣ -

أوادي الورد يُبدي كلَّ شيء فما سرُّ الشَّقائق في لهيبٍ ؟
بأعيننا الرُّبى أمواجُ لونٍ فكيف تُرى بعينِ العندليبِ

- ٣٤ -

دماغي يَعشق الأصنام كفراً يربُّها ويعبد كلَّ حين
فأبصر في فؤادي نارَ عشقٍ بعيدٌ أنت مِن سنَني وديني

---

(١) يعني : أن كلَّ منزل يبلغه يعدُّه علامة على الطريق لا غاية . والميل الحجر يبين المسافة .

- ٣٥ -

عـوالـمُ مِـنْ نجـومٍ لا تُحَـدُّ يطيـر الفكـر فيهـا لا يُـردُّ
ولكـن فـي خفـايـا القلـب يُلفـى لمـا يحتـويـه الحـدُّ ، حـدُّ

- ٣٦ -

بسلسلـةِ القضـاء ربطـتَ رجـلاً وفـي سعةِ العوالـم ضقْـتَ حـالا
فقُـم إن كنـتَ فـي ريـبٍ وحـاول تجـدْ للـرِّجـل فـي الـدنيـا مجـالا

- ٣٧ -

بضـربـك قـد علـتْ أنغـامُ رُوحـي أفـي روحـي وخـارجَهـا تكـون ؟
بـرقـك خـامـدٌ وبـك اشتعـالـي بـلا كيـفٍ فكيـف تُـرى بـدونـي

- ٣٨ -

أرى الأنفاس من جدواه موجاً ومن أنفاسه نايي ونغمي
على النهر المؤيـد قد نبتنا وقطر نداه أعصابي وجسمي

-

أيـا طفل السجايا أسمع عتابي أإسلام وفخر بإنتساب ؟
فأن تعتز بالإنـساب عرب فأن جزاءها هجر الصحاب

-

أ أفغـان وتاتار وتـرك وفي مرج ومن غصن نـمونا
حرام بيننا تفريق لون ربيـع واحد فيه زهونـا

-

ثوت في صدورنا هم كبار بطينتنا فؤاد فيه نـار
من الخمر التي فينا أضاءت مقيم في زجاجتنا شرار

أيـا قلبـي ! أيـا قلبـي ! أيـا قلبـي ! أيـا فُلْكـي ! ويـا بـرِّي وبحـري !
قَطَـرْتَ علـى تُـرابـي كـالنَّـدى أمْ نبـتَّ بتُـربتـي بُـرعـوم زهـرٍ ؟

- ٣٩ -

أتسأل من أنا من أين جيت … حبيتُ بما على نفسي طُويتُ

بهذا البحر مثلَ الموج أسري … إذا لم أطو في نفسي فنيتُ

- ٤٠ -

عليك السَّيْرَ لا ترغب مَقيلا … وسِرْ كالشَّمس لا تَرقُبْ دليلا

وهَبْ للآخرينَ متاعَ عقلٍ … ونارَ العِشْق فاحْفَظْها بَديلا

- ٤١ -

ألا يا عشقُ ! يا رمزَ الفؤاد ! … ويا زرعي النضير ! ويا حصادي !

تقادمَ أهلُ هذا التُّرب فاخرجْ … بآدم مُحدَثٍ من ذا الرَّماد

- ٤٢ -

يرى قلبُ الشُّجاع الليث وهماً … وفي قلب الجبان الظَّبي بَبْرُ

فإن تجبُنْ رأيت الموجَ وحشاً … وإنْ تشجُعْ فإنَّ البَحْرَ بَرُّ

أخمراً خلْتني أمْ كأسَ خمرٍ … ودُرّاً خلتني أم كيس درّ

أراني غير روحي وهي غيري … متى أنظر إلى مكنون سرِّي

- ٤٤ -

تقول : بطيرنا عَلِقتْ قيودُ … وفي شَركِ الجسوم لها همودُ

ومعنى الرُّوح بالأجسام يعلو … مِسنٌّ سيوفنا هذي الغُمودُ

- ٤٥ -

فكيف بقلبنا وُلِدَ الرَّجاءُ … وكيف سراجُ منزلنا يُضاء

ومن في العين يبصر ؟ ما يراه ؟ … وكيفَ حوَىٰ النُّهى طينٌ وماءُ

- ٤٦ -

لنا كون لأزميلٍ ونحتٍ … يقلِّبه صباحُك والمساءُ

مثالٌ من تُراب لم يكمَّل … يسوِّيه بمبرده القضاءُ

- ٤٧ -

طريقُك فانحتنه في كفاحٍ … طريقُ سواك مسلكُه عذابُ

فإنْ أبدعت في عملٍ فريٍّ … وإنْ يك مأثماً فلك الثوابُ

- ٤٨ -

دليلُ القلب لا يرضى نزولاً ولا يُرضيه ماؤك والتُّرابُ
فلا تحسبه في جسدٍ مقيماً فلا يرضى بشطِّ ذا العُباب

- ٤٩ -

تَخِذْتُ لخلوتي طيني ومائي وبُوعِدَ بين أفلاطٍ وبيني
فلم أستجد يوماً عين غيري ولم أر عالمي إلَّا بعيني

- ٥٠ -

ترى رمز الحياة بكل كمٍّ مجازٌ فيه يا قلبي الحقيقه
بتُربٍ مظلم ينمو ولكن له عينٌ إلى شمس الخليقه

- ٥١ -

يُضيء على المروج وكلَّ سَهْبٍ وكاسُ الورد فيه نورُ حُبٍّ
وما تَغْشَى الورى ظلماتُ ليلٍ فحرقته السِّراج لكلِّ قلب

- ٥٢ -

وبالعدَمِ استزابت ثمَّ راغت فحلَّت قلبَ آدم للثَّواء

- ٥٣ -

بقلبي سرُّ جُثمانٍ وروحٍ فلا فزع إذا أجلي أتاني
فإمَّا غاب عن عينيَّ كونٌ فباقٍ ألفُ كونٍ في جناني

- ٥٤ -

مزاجَ الزَّهر أعرف في يقينٍ وريحُ الورد في خَلَد الغصونِ
وحبَّبني إلى الأطيار أنِّي عَرَفْتُ لها مقاماتِ اللُّحونِ

- ٥٥ -

نظامُ الكون منْ شعر الرَّجاء له الأوتار مِنْ وتَر الرَّجاء
بعيني كلُّ ما يمضي ويأتي هو اللَّمحاتُ مِنْ دهر الرَّجاء

- ٥٦ -

يهيمُ القلبُ في أثر الرَّجاءِ وصدري من ضجيجٍ في عناءِ
فلا تطمعْ جليسي ! في حديثي فإني مِنْ فُؤادي في نداءِ

- ٥٧ -

أرى الحكماءَ تحطمُ كلَّ شكلٍ ومِنْ هذا الوجودِ بسومنات[1]

(١) معبد أصنام معروف في الهند .

يـريـدون المـلائـك فـي طـلابٍ ومـا ظفـروا بـآدم فـي الحيـاة

- ٥٨ -

جلسـتُ مـع الطبيعـة ألـف عـامٍ وُصِلْـتُ بهـا وعـن نفسـي فُصِمْـتُ
قُصـارى سيـرتـي فـي ذاك أن قـد نحتُّ ، وقد عبدتُ ، وقد حطَمْتُ

- ٥٩ -

بنفسـي جلوةُ الأفكارِ ، مـا هـذا ؟ وحولي محشر الأسرارِ ، ما هذا ؟
أَبِـن لـي يـا حكيـمُ : يقيـم جسمـي وروحـي دائـم التَّسيار . مـا هـذا ؟

- ٦٠ -

بكيفـك إنْ تُحِـطْ خُبـراً وكمِّـك يفـضْ مِـنْ قطـرةٍ لـك فيـض يَمِّك
فيـا قلبـي لـم استجـداءُ شمـسٍ ؟ مـن الأنفـاس نـوِّرْ ليـلَ غمِّـك

- ٦١ -

أفـق مـا القلـبُ بـالأنفـاس يَحيـا ولا هُـو رهـنُ مـا يبقـى ويفنـى
أخـا الأوهـامِ لا تـرهَـبْ حِمـامـاً فـإنْ نَفـسٌ مضـى فـالقلـبُ يبقَـى

- ٦٢ -

إلـى أهـل التَّصـوُّف والصفـاء رجـالُ اللهِ أربـاب الضيـاء :
أنـا عبـدُ الهمَّـة عبـد نفـس بنـورِ النَّفـس للخـلَّاق راء

- ٦٣ -

بعُـدَّة حـانتـا الغبـرا غُبـار ودورةُ كـأسِنـا الفُلـكُ المُـدار
حـديـثُ جهـادنـا مُضـنٍ طـويـل ودُنيـانـا لقصَّتنـا اختصـار

- ٦٤ -

ومـا علَّقـتُ بـالأنغـام قلبـي وفـي نغَـم الحيـاة أنـا الخبيـرُ
وقـد غنَّيـتُ فـي الأغصـان حتَّـى تَصيحَ الطَّيرُ : من ذا ؟ يا زهورُ !

- ٦٥ -

أثـرتُ بنغمتـي كـلَّ النـوادي ومـن شـرَرِ الحيـاةِ جَعلـتُ زادِي
أضـاء القلـبُ مـن عقلـي ولكـنْ جعلـتُ عيـار عقلـي فـي فـؤادي

- ٦٦ -

رددتُ العُجـم فتيـانـاً بـزمـري وراحَ متـاعُهُـمْ مـنْ بعـد خُسـرِ

وكـانـوا هـائمين بكـلِّ وادٍ   وقـافلـةً نَظَمْتُهُم بشعـري

- ٦٧ -

بـروحِ العُجْـمِ مِـنْ نَغَمـي شـرار   قـرعتُ لهم بـأجراسي فسـارُوا
وعـاليتُ الحـداء لهـم كعُرْفي[1]   تبـاطـأ محمـلٌ ونـأتْ ديـارُ

- ٦٨ -

نفثتُ النَّـار مِـنْ روحـي نفثـتُ   وصـدرَ الشَّـرق قلبـاً قـد وَهَبْتُ
وصيَّـر طينَـه لهبـاً نُـواحـي   كبـرقٍ فـي سجـايـاه نَفَـذْتُ

- ٦٩ -

بـأغصـانِ الـرَّجـاء جنيـتُ أكـلاً   وأفضـى الـدَّهـر بـالسـرِّ المنيـع
أرامـيَّ اخـشَ للبستـان ريًّـاً   فـإنَّ معي رِسـالاتِ الـرَّبيـع

- ٧٠ -

بحـار العُجـم ليـس لهـا قـرارُ   وفـي أحشـائهـا دُررٌ كبـارُ
ولكـنْ لا أحـبُّ ركـوبَ بحـرٍ   إذا لـم يُخشَ فـي مـوجٍ خطـارُ

- ٧١ -

علـى دُنيـاك تقضـي بـالهـوانِ   وسـتـرٌ للمغيَّـب كـلُّ آن
فـأخكـم يـومَـك المشهـودَ واعلـمْ   بـأنَّ غـداً ضميـرٌ فـي الـزمـانِ

- ٧٢ -

كَـرِهْـتَ سيـادةَ الإفـرنـجِ لكـنْ   سجُـودُكَ للقبـابِ وللقبـورِ
ألفـتَ عبـادةَ السَّـادات حتَّـى   لتنحـتُ سـادةً لـك مـن صخـورِ

- ٧٣ -

إلام تعيـش فـي رثِّ الإهـاب ؟   إلام تعيـش نمـلاً فـي تـرابِ ؟
فِطِـرْ كـالصَّقـر معتـزمـاً وحلِّـقْ   إلامَ أسيـرُ حـبٌّ فـي اليَبـابِ ؟

---

(١) إشارة إلى بيت عرفي الشيرازي :
نـوارا تلـخ تـرمي زن جـوذوق نغمـه كمـا يـابى
حدى راتيز ترمى خوان چون محمل راكران بينى

- ٧٤ -

اتخـذ فـي الـوردِ والأزهـار عشـاً ومِـنْ طيـرٍ دروسـاً فـي انتحـاب
وإنْ ينقـصْ قُـواك الشيـبُ فـاؤخُـذْ مـن الـدُّنيـا نصيبـاً مـن شبـاب

- ٧٥ -

أهـابَ بمسمعـيَّ تُـراب قبـرٍ : وتحـت الأرض يُمكـن أن يُعـاشـا
لـه نَفَـسٌ وليـس لـديـه روحٌ ذليـلٌ فـي مُـرادِ سـواه عـاشـا

- ٧٦ -

سمـاطـي ليـسَ فيـه مـا يـروقُ ولا فـي الكـأس لألأتُ الـرَّحيـق
غـزالـي يغتـذي عُشـب المَـوامـي ولكـن صـدرُه مسـكٌ فتيـق

- ٧٧ -

قُلـوبُ المسلميـن قبـسن نـاري ودمعـي مـن عيـونهـم هَتـونُ
بـرُوحـي مَحْشـر قـد غـابَ عنهـم فلـم تـر مـا رأيـتُ لهـم عيـونُ

- ٧٨ -

أرى للعشـقِ تصـريفـاً عجيبـاً يقلِّـب كيـف مـا يهـوى القلـوبـا
رمـاك بـأدمـعٍ وسبـاكَ نفسـاً وصيَّـرنـي إلـى نفسـي قـريبـا

- ٧٩ -

رأيتـك لا تـزالُ أسيـر طيـنٍ إلـى تُـركٍ وأفغـانٍ تُـردُّ
أنـا بشـرٌ بـلا لـونٍ وريـحٍ وللتـوران أو للهنـد بعـدُ

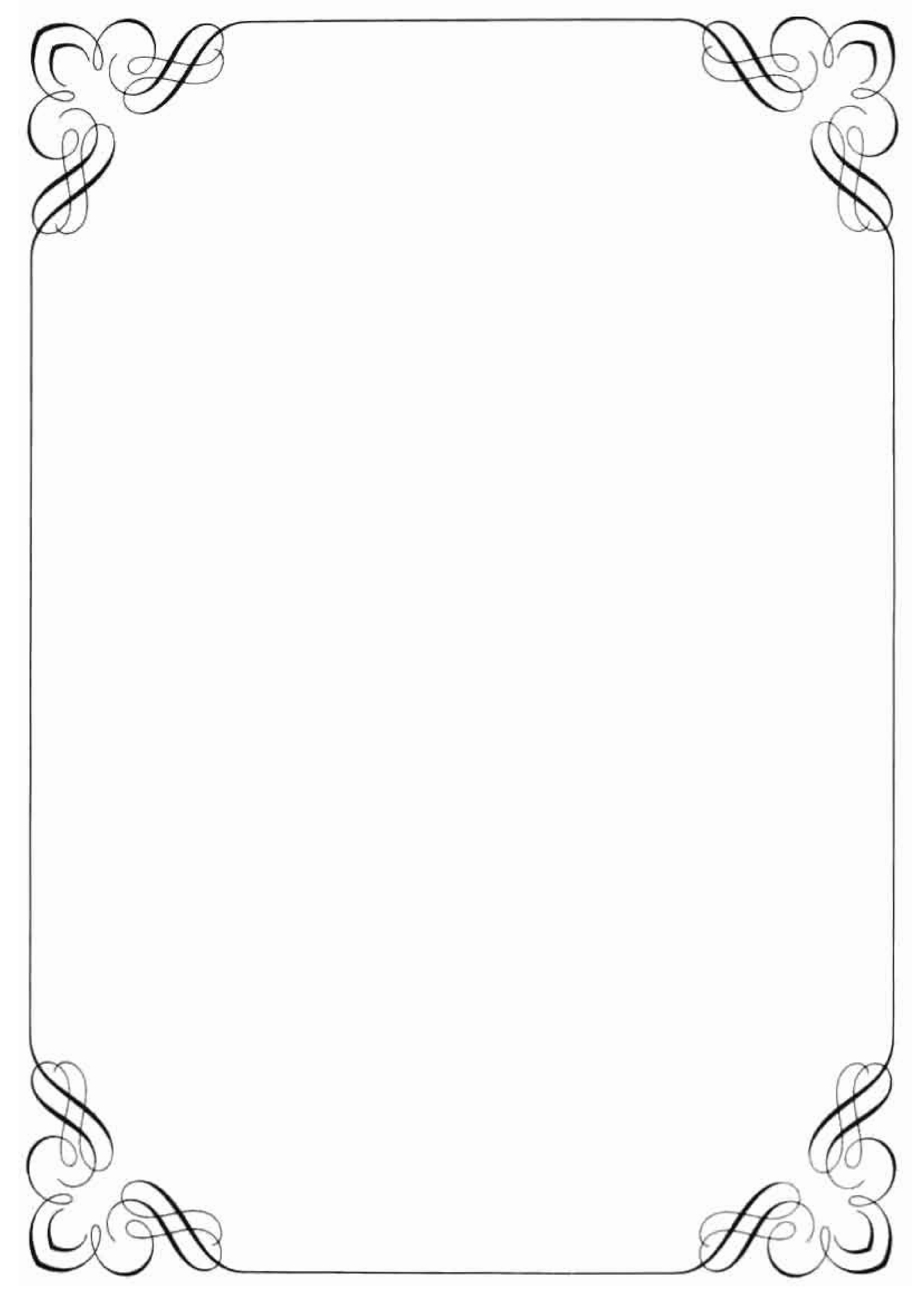
- ٨٠ -

أثـار الشِّعْـرُ فـي جنبـيَّ نـارا وزَدَّ التُّـربَ فـي طُـرقـي شَـرارا
حـديـثَ الحـبِّ حـاوَلَـهُ لسـانـي فـزاد السـرَّ تبيـانـي سِـرارا

- ٨١ -

تـولَّـى بعـدُ عـن عقـلِ الفنـون وأدمـى قلبـه عِشـقُ الشُّجـونِ
فـلا تستفـتِ إقبـالاً لشـيءٍ فـإنَّ حكيمنـا رَهْـنُ الجنـونِ

* * *





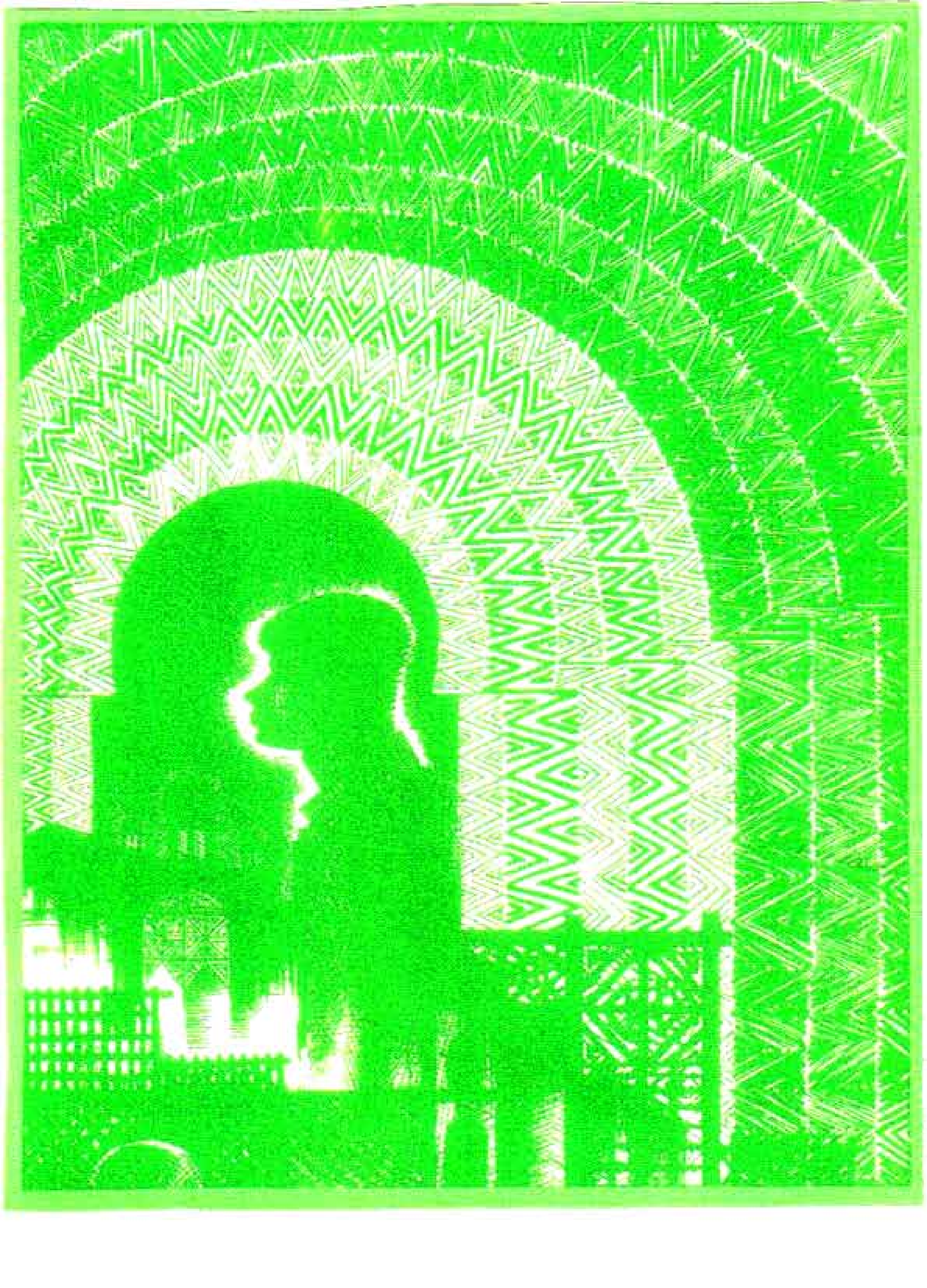
القسم الثاني

أفكــــار









تو ہے محیطِ بیکراں، میں ہوں ذرا سی آبجو

یا مجھے ہمکنار کر یا مجھے بیکنار کر!

الوردةُ الأولى

لا أرى في المُروجِ لي من قريع | أنا أولى زهورِ هذا الرَّبيع
أبتغي في الغدير صورة نفسي | لأرى وجهَ مؤنسٍ لي سميع
في سُطوري رسالةٌ بيراع | خطَّ سطر الحياة في ترصيع
أمس قلبي ، وعبرةُ اليوم عيني ، | وغدي مُنيتي وكلُّ بديع
وأنا النَّجمُ خلَّفته الثُّريّا | نَسَج التُّربُ ثوبَ وردٍ عليّا

***

دعاء

أيا مالئاً كاسي بحانةِ فِطرتي | أذبْ طينَ كاسي من حرارة خمرتي
وصيِّرْ أنيني ثروة العشق واجْعَلَنْ | تراباً بسينائي تسعَّر شُعلة
إذا متُّ فاجعلني سِرَاجَ شقيقةٍ[1] | وبالبيدِ أحرقني وزدْ نار وسْمتي

***

رائحةُ الورد

وحوراءَ في الخُلد ضاقتْ فقالتْ : | « جَهلنا بما تحتنا مِنْ جهاتٍ
يحيِّرُ عقلي نهارٌ وليلٌ | وما قيل عن مَوْلدٍ أو ممات
غَدَتْ ريحَ وردٍ وذرَّتْ بغُصْنٍ | فحلَّت بعالمِ ماضٍ وآت

(١) يعني : زهرةً من الشقائق .

وتَفَتَّح عيناً وتَبَسَّم كمَا ... وبعد نماء هَوَتْ في شتات

لهذي الطليقة لم تبق ذكرى ... سوى آهةٍ سمَّت بالشَّذاةِ[1]

* * *

نشيد الوقت

قد أحاطَ الشَّمسَ حِجري ... وحوى الأنجم صَدْري

أنا لا شيء ولكنْ ... فيكُمُ روحيَ تسري

أنا في دُورٍ وقفرٍ ... أنا في كوخٍ وقصرِ

أنا داءٌ ودواءٌ ... وأنا عيْشةُ يُسْر

أنا سيفُ الدَّوران[2] ... أنا عَين الحيوَان[3]

إنَّ جنكيزَ وتيمو ... رَ قليلٌ من غُباري

ثورةُ الإفرنج فيها ... نَفَثَاتٌ منْ شراري

إنَّما الإنسان والدُّنيا ... نُقُوشي وابتكاري

ودماءٌ مِنْ قلوبٍ ... في ربيعي كالبُهار

أنا لَفْحُ النِّيرانِ ... أنا رَوْض الرِّضوان

أنا سيَّارٌ مقيمٌ ... إنَّ هذا الأمرَ إمرُ

إنَّ في خمرةِ يومي ... منْ غدٍ يظهر سِرُّ

ألفُ كونٍ ، فانظُرَنْها ... في ضميري تستسرُّ

ونجومٌ في حباك ... وقبابٌ فيَّ خُضرُ

أنا ثوبُ الإنسان ... أنا سرُّ الرحمن

---

(١) الشذاة : الرائحة .

(٢) دوران الفلك .

(٣) ينبوع الحياة ، وعين الحياة في الأساطير شرب منها الخضر ، فلم يمت .

سِــرِّي التَّقــديــرُ والتــد بيــر مــنْ سحــرِ فنــونِــكَ
أنـــت مجنـــونٌ بليلـــى أنـــا صحـــراءُ جنـــونـــك
أنـــا كـــالـــرُّوح بَـــرِّي مـــن خيـــالات ظنـــونـــك
أنـــت فـــي جـــوفـــي سـرٌّ وأنـــا ســرٌّ شُـــؤونـــك
أنـــا حـــاد أنـــت نُـــزلُ أنـــا حَقْـــلٌ أنـــت حـــاصـــل
أنـــت فيّـــاضٌ بلحـــنِ أنـــت نـــار فـــي المحـــافـــل
يـــا أسيـــر الطِّيـــن فكِّـــر أنـــت عـــنْ قلبـــكَ غـــافـــل
انظـــرنـــه مـــلءَ كـــأسٍ وهـــو بحـــرٌ دون ســـاحـــل
إنَّ مـــوجـــاً فيـــك يعلـــو منـــه يبـــدو طـــوفـــانـــي

* * *

الرَّبيع

ـ ١ ـ

هلـــمَّ فـــإنَّ سحـــاب الـــربيـــع يخيِّـــم فـــوق الـــرُّبـــى والـــوهـــاد
وشَـــذو العَنـــادلِ فـــي كـــلِّ وادِ
ودُرَّاجُـــه والقطـــاء فـــي تهـــادي
على حـــافة النَّهـر جذْلى شوادي
شقيـــقٌ وورْدٌ ضحـــوكٌ يُنـــادي
فطـــرفـــك ســـرُح بهـــذا المُـــراد
هلـــمَّ فـــإنَّ سحـــاب الـــربيـــع يخيِّـــمُ فـــوق الـــرُّبـــى والـــوِهـــاد

ـ ٢ ـ

هلـــمَّ فمـــلءُ الـــرُّبـــى والسُّهـــولِ قـــوافـــلُ أزهـــاره والـــوُرودِ
نسيـــمُ الـــرَّبيـــع علـــى كـــلِّ عـــودِ
وللطَّيـــر إبـــداعُهـــا فـــي النشيـــدِ

ومـزَّقـتِ الجَيْـبَ حُمْـرُ الخـدود[1]

جنى الحُسـنُ نـاشـىء زهـرٍ نَضيـدِ

وللعِشْـق إبـداعُ غـمٍّ جـديـدِ

هلـمَّ فمـلء الـرُّبـى والسهـولِ قَـوافـلُ أزهـارِه والـورودِ

- ٣ -

صفيـرُ البـلابـلِ مـلءُ الجِـواء وصوتُ الصَّلاصلِ ملءُ النَّسيم[2]

دمُ المـرج فـي جـوفـه كـالحَميـمْ

فيـا قـاعـداً صـامتـاً لا يـريـمْ !

دعِ الصمـت واتـركْ وَقـار الحليـمْ

وخَمْرَ المعاني اشربَنْ يا سقيمْ !

تـدثَّـر بـوردٍ وغـنِّ النـديـمْ

صفيـرُ البـلابـلِ مـلءُ الجِـواء وصـوتُ الصَّـلاصـل مـلءُ النَّسيـم

- ٤ -

دعِ الـدُّورَ واطلـبْ فسيـح البـراري وانظـر إلـى صفحـاتِ الجمـال

علـى حـافـة المـاء دونَ مـلالِ

تـأمَّـلْ تَـرَقْـرُقَ مـاء زُلالِ

وحـدِّقْ إلـى نَـرجـسٍ ذي دَلالِ

بُنَيَّـاتُ نيسـان ذاتُ اختيـالِ

وقَبِّـل عيـونـاً لهـا كـالـلآلـي

دعِ الـدورَ واطلـبْ فسيـح البـراري وانظـر إلـى صفحـات الجمـال

- ٥ -

وعَيْـنَ البصيـرة فـانظـر بهـا أيـا غـافـلاً عـن عيـان الخَلْـقِ !

---

(١) شقائق النعمان .

(٢) الصلصل : الفاختة ، أو طائر يشبهها ، والكلمة نفسها في شعر إقبال .

شقيــقٌ بــدا حَلَقــاً فــي حلَــقْ
بــأعطــافــه لهــبٌ قــد عَلِــق
علــى كبــدٍ فيــه ذات حــرق
يلــوح نــدىً مــن دمــوعِ الفَلَــق
فحــدِّق إلــى أنجــم فــي شفــق[1]

وعيــنَ البصيــرة فــانظــرْ بهــا — أيــا غــافــلاً عــن عيــان الخَلْــقِ

ـ ٦ ـ

تــرى المــرجِ صــرَّح فــي هَيْجــه — بمــا أضمــرتْ مُهَــجُ الكــائنــاتِ

فَنــاءُ الصفــات وكــونُ الصفــاتِ
ومــا أبــدتِ الــذَّات مــنْ جَلــواتِ
ومــا خِلْتَــهُ مــن معــانــي الحيــاةِ
ومــا خِلْتَــه مــن معــانــي الممــاتِ
فليــس لــه هــاهنــا مــنْ ثبــاتِ

تــرى المــرجِ صــرَّح فــي هَيْجِــه — بمــا أضمــرتْ مهــجُ الكــائنــاتِ

***

الحياةُ الخالدة

لا تظــنَّ الخمَّــارَ وافــى ختــامــاً — كَمْ مِنَ الرَّاح في عُروقِ الكروم !
يجمُــل المــرءُ لا بثــوبِ حيــاةٍ — مــزَّقَتــه النَّسيــمُ كــالبُــرعــوم
مَــنْ يُحــطْ بــالحيــاة لــم يــرض قلبــاً — لــم تَخِــزْه المنــى بشــوكٍ أليــمِ
مُحكمــاً كــالجبــال عــشْ ، لا ضعيفــاً — واهــنَ النَّــار طــائشــاً كــالهشيــم

***

---

(١) يشبه النَّدى على الشقيق بالأنجم في الشفق .

أفكار النجوم

سَمِعْتُ بكوكبٍ لأخيه يشكو : لنا بحرٌ وليس يَلوحُ ساحلُ
خُلقنا للمسير بلا وقوفٍ فليس لركبنا أبداً مَنازلُ

* * *

فإنْ تمض النجوم كما نراها فما جدوى العناء ؟ وما نُفيدُ ؟
بأشراك الزَّمان لنا إسارٌ سعيدٌ منْ يُجانبه الوُجود

* * *

لَهذا العبءُ محمله شديدُ فليتَ وجودَنا عدمٌ أبيدُ
كرهتُ القبَّة الزرقاء أوجاً حضيضُ التُّربِ خيرٌ لو نريدُ[1]

* * *

فطوبى لأبي آدم في طعانٍ قد استولى على طرْف الزَّمان
خليقٌ بالحياة له قوامٌ يُجدِّد أو يُخلِّق كلَّ آن

* * *

الحياة

بكى في الظَّلام سحابُ الرَّبيع فقال : الحياة بكاءٌ مديدْ
فقال له البرْقُ في ومضه : هل الضِّحْكُ في لمحة ؟ لا تزيدْ
فمن أبلغَ الروضَ هذا الحديث فصَار حوارَ النَّدى والورودْ ؟

* * *

---

(١) لو كان لنا إرادة واختيار .

محاورة العلم والعِشْق

العلم :

أنــا ســرُّ الكــواكــب والجهــات　　وفــي قيــدي ثــوى مــاضٍ وآت

وعينــي حــدَّقــت فيمــا أمــامــي　　ومــا نظــري وراء السَّــابحــات ؟

وكــم نغَّمــتُ فــي عُــودي وبــوقــي　　وأســراري عــرَّضْــتُ بكــلِّ ســوق

العشق :

بسحــركَ سُجِّــرت هــذي البحــارُ　　ومــلءُ الجــوِّ سَمُّــك والشــرار

وكنــتَ لــي الصديــق فكنــت نــوراً　　ونــوركَ مــذ هَجَــرتَ حمــاي نــارُ

وُلــدتُ الأمــس فــي حــرم الــرحيــم　　وصــرْتُ اليــوم فــي قيــد الــرجيــم

هلــمَّ فَــرُدَّ روضــاً ذا اليبــابــا　　ورُدَّ مَشيــبَ دُنيــانَــا شَبَــابــا

هلُــمَّ بــذرَّةٍ مِــنْ نــار قلبــي　　أقــم فــي الأرض فــردوســاً عُجــابــا

كــلانــا الــدَّهــرَ خــلٌّ لا يجــورُ　　للحــنٍ واحــدٍ بــمّ و زيــرْ

* * *

غناءُ النجوم

وجــودُنــا نظــامُنــا　　وسُكْــرنــا انسجــامُنــا

فــي دَوْرنــا دوامُنــا　　لا يُــرتجــى مقــامُنــا

فــي فلــكٍ مــرامنــا　　نتظــر ســائــراتِ

وجلــوةَ الشهــودِ　　ومظهــرَ البــدود[1]

---

(١) جمع بد ، وهو الصنم ، معرب بت .

ومعــــرَكُ الــــوجـــودِ	والعـــدْمِ والمـــوجـــودِ
والغَيـــب والمشهـــودِ	ننظـــر ســـائـــراتِ
وحَلبـــةَ الطّعـــانِ	ونشـــأةَ الشُّجعـــانِ
وغِيـــرَ التيجـــانِ	وذِلَّـــةَ السُّلطـــانِ
ولعـــبَ الـــزَّمـــانِ	ننظـــر ســـائـــراتِ
مضـى زمـان المـولـى	والعبـدُ قـد تـولَّـى
سِكنـــدرُ قـــد ولَّـــى	وقيصـــرُ قـــد ذلّاَ
والـــوثـــنُ اضْمَحـــلاَّ	ننظـــر ســـائـــراتِ
والصمـــتَ والصيـــاحـــا	والـــذُّلَّ والكفـــاحـــا
والخنْـــعَ والطمـــاحـــا	وتـــارةً أفـــراحـــا
وتـــارة أتـــراحـــا	ننظـــر ســـائـــرات
عقلُـك فـي عَقـدٍ وَحـلّ	مِنْ كمْ وكيف في شُغُل
مثـل غـزال قـد عُقِـل	مضطـربٌ ومضمحـلْ
ونحـنُ فـي العليـا نحـلّ	ننظـــر ســـائـــراتِ

* * *

مـا السـرُّ مـا الظهـور ؟	ومـا الـدُّجـى مـا النُّورُ ؟
مـا القلـبُ مـا الشعـورُ ؟	مـــا فطـرةٌ ضجـورُ ؟
مـا الغيـبُ والحضـورُ ؟	ننظـــر ســـائـــراتِ
كُفـــركَ عنـــدنـــا أمـــمُ	حـــولـــك عنـدنـا لمـمُ
يـا مـن بصـدرِه خضـمُ	قنعـتَ بـالظّـل انسجـمْ
نحـــنُ بعـــالـــمٍ نهـــمٌ	ننظـــرُ ســـائـــراتِ

* * *

نسيمُ الصُّبح

أجـــيء مـــن لـــجّ بَحـــرِ ومـــن قـــلال الجبـــالِ
مُسيَّـــراً لســـت أدري مـــن أيـــن شُـــدَّت رحـــالـــي
أُزجـــي لِطـــائـــر غـــمٍّ بشـــرى ربيـــعِ الجمـــالِ
ونـــاثـــراً تحـــت عُـــشٍّ نِثَـــارَ زَهـــرٍ غَـــوالِ
بخُضـــرة أتـــرَدَّى وبـــالشقيـــق اتصـــالـــي
حتَّـــى يهـــجَّ فيـــه لـــونـــاً وريحـــاً وصـــالـــي
يمـــسُّ أوراق وردٍ تلطُّفـــي واحتيـــالـــي
فـــلا تميـــلُ غصـــونٌ مـــن طـــوفـــيَ المتـــوالـــي
وشـــاعـــرٍ هيَّجَتْـــهُ همـــومُ عِشْـــقٍ لقـــالِ
مـــزجـــتْ أنفـــاس صـــدري بلحنـــه والمقـــالِ

***

نصيحة صقر لفرخه

تعلَّـــم بنـــيَّ بـــأنَّ الصُّقـــورَ لهـــا قلـــبُ ليـــثٍ وجســـمٌ صغيـــر
فكـــنْ مُحْكَـــم الـــرأيِ شهمـــاً جســـورا علـــيَّ السجـــايـــا أبيـــاً غيـــورا
بُغـــاث الطيـــور اهجـــرنهـــا بعيـــدا ودعهـــا إذا لـــم تُـــردْ أن تصيـــدا
فتلـــكَ الـــرعـــاديـــدُ نســـلُ اللئـــام تـــدسُّ منـــاقيـــرهـــا فـــي الـــرَّغـــامْ
أرى البـــازَ صيـــداً لمـــا اصطـــاده إذا قلَّـــد الصيـــد مـــا اعتـــاده[1]
فكـــم بـــاشـــقٍ قـــد أتـــاه النَّـــوى بصحبـــةِ لقَّـــاطِ حـــبٍّ هـــوى

---

(١) يعني : إنْ قلَّد الصقرُ الطيور الضعيفة التي يصطادها في عاداتها كان هو صيداً لها مغلوباً على أمره .

فنفسكَ فاحفظْ وعِشْ في جذل | جريئاً متيناً قويَّ العضل
ودَعْ للدَّراريج لينَ الجسد[1] | وكن مخلباً كالمُدى أو أحدّ
متاعُ الحياة ، تعلَّم ، جهادُ | وصبرٌ على محنةٍ واجتهادُ
نقول لفرخِ عقابٍ عتيق : | « بريق الدِّماء يفوق العقيق »
ولا تبغ سِرباً كَسِرب الغنم | توحَّدْ كقومك منذ القدم
سمعتُ وصاة الصّقور العتاق | بألا نقيم بظلٍّ وساق
فليس لنا في رياضٍ مجال | فسيحُ الفيافي لنا والجبال
ولقطك حبّاً بأرض خطاء | حبانا الإله عنانَ السَّماء
فأمَّا خطىً في التُّراب النجيب[2] | فأشرف منه حمام ريب
فإنَّ بساطَ البزاة الحجر | يحدُّ مخالبهنَّ الصَّخر
نماك الأوابدُ زرق العيون | كأنك عنقاء جوٌّ متين
أصيلٌ أبيٌّ بيوم الخطر | كفيلٌ بإنسان عين النَّمر
جناحُك منْ سَطَوات البروق | من الشُّهب فيك كريمُ العزوق[3]
فَطِرْ في السموات لا تخشَ خطبا | وكلْ ما أصبتَ يبساً ورطبا
ولا تقبلنَّ طُعمةً من أحد | وكنْ راشداً واستمعْ للرَّشد

سوس الكتب
(الأرضة)

سمعتُ : بمكتبي ليلةً | يُنادي الفراشة سُوسُ الكتاب
يقول مررتُ بكتْب ابن سينا | ونقَّبْتُ في كتُبِ الفَاريابي
ولم أدر حكمة هذي الحياة | وما زلت من ظُلمتي في حجابِ
تُجيبُ الفراشةُ في حُرقةٍ : | أرى نكتةً لا تُرى في كتابِ
رأيتُ الكفاحَ يُعدُّ الحياه | رأيت الكفاحَ يُمدُّ الحياه

(١) دراريج : جمع دراج وهو طائر معروف .

(٢) يعني : الصقر ونحوه ، وكلمة النجيب في الأصل . (٣) الشهب : أي البيض ، وفيها تورية بشهب السماء .

الشَّقيقة[1]

نـــــارٌ بِصَـــــذرِ عِشْـــــقِ   فـــــي أزلٍ أنيـــــرُ

شمســـاً أُرى وفـــي كـــلّ   ذرَّة أثـــــور

شـــرارَهـــا مـــن نـــاري   السمـــاءُ تستعيـــر

حللـــتُ صَـــذرَ مَـــرجِ   كنفـــسٍ أدورُ

وكـــالنَّـــدى مـــن تُـــربـــيَ   غُصـــنٌ بـــدا نضيـــرُ

قـــال : قفـــي قليـــلاً   ولهبـــي يغـــورُ

ومـــا ثـــواء قلـــبِ   مـــن ألَـــمٍ يسيـــرُ ؟

ثـــوى بضيـــق غُصـــنِ   فـــي قلـــقٍ يفـــور

حتَّـــى كُسيـــتُ لـــونـــاً   وعبـــقَ العبيـــر

رش الندى طريقي بلـؤلؤ يـنير   والصبح لي ضحوك وبي الصبا تـدور

حكى لعندليب ورد لـه نضير   أني سلبت ناري وخـمد السعير

فقال في نواح : كم أغلى الظهور   أجمل مـن شمس تشع في ضـلوعي

فهل – وليت شعري – للنار مـن رجوع

الحكمة و الشعر

إبن سينا في غبار حائـر   ويـد الرومي في ستر الحبيب

غاص هذا يجـتبي دراً وذا   كغثـاء دار في اللج المهـيب

إن حـقاً دون نار حكمة   وهو شعر إن يصب نار القلوب

اليـراعة

وذرة حقـيرة قـد جمعت قـواها   كأنها فراشة من حرق تـصلاها

قد نورت دجـاها

فهي أيـاة خلقت وأنعقدت شرارا   من حرقة في قلبها تحولت نضـارا

ويصرا نظارا

فـــراشـــةٌ فـــي قلـــقٍ   تطيـــرُ كـــلَّ نـــاحيـــه

علـــى اللَّهيـــب رفـــرفَـــتْ   حتَّـــى كـــأنَّـــه هيَـــه

أنـــا وأنـــت قـــاليـــه[2]

(١) واحدة الشقائق ، التي تسمى شقائق النعمان ، وهي في الشعر مثال لحرقة القلب انظر المقدمة .

(٢) يعني : تحبُّ الوحدة وتكره التَّعدد ؛ الذي يقال فيه : أنا وأنت .

أو كـــوكـــبٌ فـــي صـــدره مُستتـــــرُ الضِّيـــاءِ
وقـــد تـــدلَّـــى هـــابطـــاً فـــي الأرضِ لاجتـــلاءِ
مـــن فلـــك السَّمـــاءِ

أو قمـــر مصغَّـــرٌ بجلـــوةٍ تمـــامُ
فمنَّـــةُ الشمـــس علـــى شُعـــاعـــه حـــرامُ
لـــم يحـــوه مُقـــام

يـــا لـــك مـــن يـــراعـــة تصـــوَّرت مـــن نـــورِ
مَسيـــرهـــا سِلْسِلَـــةُ الغيـــابِ والحضـــورِ
وسنَّـــة الظهـــور

يـــا مشعـــلاً للطَّيـــر فـــي معتكـــرِ الظَّـــلام
مـــا حُـــرقـــة أحسستهـــا فـــأنـــت فـــي هُيـــام ؟
حـــرارةُ الإقـــدام

نحـــن ـ وقـــد نبتنـــا مثلـــك مـــن تـــراب ـ
نجهـــل فـــي اضطـــرابِ نبصـــر فـــي اضطـــراب
نُخفـــق فـــي الطِّـــلاب

أقـــولُ قـــول واعٍ مجـــرِّبٍ شفيـــق :
لا تسعيَـــنْ لنُـــزْلٍ وامـــضِ علـــى الطَّـــريـــق
وارضَ بـــذا التـــوفيـــقِ

***

الحقيقة

تقـــول لبطـــةٍ صَحبـــت عُقـــاب : أرى مـــا أدركـــتْ عينـــي ســـرابـــا
أجـــابتهـــا محـــاورةً بحـــق ولكنـــي أرى مـــاءً عُبـــابـــا
فقـــال الحـــوتُ فـــي لُـــجٍّ عميـــق : هنـــا شـــيءٌ ويضطـــرب اضطـــرابـــا

***

نغمةُ حادي الحجاز

يـا نـاقتـي الخطَّـارة
وظبيتـــي المعطـــارة
وعُـــدَّتـي والشَّـاره
والمـــالُ والتجـــارة
يـا دولتـي السيـارة !
حُثِّـي الخطـى قليـلاً منـــزلنـا قـــريـــبُ
مطـــربـــةُ الـــرُّغـــاء
جميلـــةُ الــــرُّواء
محســـودةُ الحسنـــاء
وغَيـــرةُ الحـــوراء
بُنَيَّـــةَ الصَّحـــراء !
حُثِّـي الخطـى قليـلاً منـــزلنـا قـــريـــبُ
كـم غُصتِ في السَّراب
فـي وقـدة اليبـاب
وسـرتِ لـم تهـابـي
فـي اللَّيـل كـالشّهـاب
والنَّـومُ عنـك نـائـي
حُثِّـي الخطـى قليـلاً منـــزلُنـا قـــريـــب
قطعـــةُ غيـــمٍ غـــادي
سفينـــةُ الـــروّاد
كـالخضـر فـي البـوادي

تمضيـــن فـــي ســــداد

فلـــذةَ قلـــب الحـــادي !

حُثّـــي الخطـــى قليـــلاً   منـــزلُنـــا قـــريـــب

هُيـــامـــكِ الـــزِّمـــام

وسَيـــــركِ الأنغـــام

يتعبُـــــك المُقـــــام

لا الجـــــــوع والأوام

والسَّفـــــر المُـــدام

حُثّـــي الخطـــى قليـــلاً   منـــزلُنـــا قـــريـــب

ممسيـــةٌ فـــي اليمـــنِ

مصبحـــةٌ فـــي قَـــرَنِ

تـــريـــنَ حُـــزنَ الـــوطـــنِ

كـــالخـــزِّ تحـــت الثَّفـــنِ

إيـــه غـــزالَ الخُتَـــنِ !

حُثّـــي الخطـــى قليـــلاً   منـــزلُنـــا قـــريـــب

بـــدر السمـــاء نَعِســـا

خلـــف التِّـــلال خَنســـا

والصُّبـــحُ قـــد تنفَّســـا

مـــزَّق هـــذا الغلَســـا

والـــريـــح تـــزجـــي نفســـا

حُثّـــي الخطـــى قليـــلاً   منـــزلُنـــا قـــريـــب

لحنـــي دواءُ السَّقـــم

والـــروحُ مـــلءُ نَغمـــي

يحـــدو الـــركـــاب كَلِمـــي

مـــنْ جَـــارحٍ وبلســـم

هلمَّ بنتَ الحرمِ !

خُنِّي الخطى قليلاً — منزلُنا قريب

* * *

بين الله والإنسان

خَلَقْتُ الأنام لطينٍ وماء — خلقتُ تتاراً وزنجاً وفُرسا

خلقتُ من التُّرب هذا الحديد — وسهماً خلقتُ وسَيفاً وتُرسا

وفأساً خلقتَ لجذعٍ وغُصنٍ — وسجناً صنعتَ لطيرٍ مغنِّي

الإنسان :

خلقتَ الظَّلام فصُغتُ السِّراج — وطيناً خلقتَ فصُغتُ الكؤوسا

خلقتَ جبالاً وبيداً ومرجاً — خلقتُ حدائقها والغروسا

أنا منْ حجارٍ صنعتُ مرايا — أنا مِنْ سمومٍ صنعت دوايا

* * *

اليراعة

تَقولُ يراعةٌ : لا تحسبنِّي — كنَملِ السُّوء يألمني رفيقي

ولا أعشو إلى نيران غيري — كما يهفو الفراش على الحَريقِ

إذا حلَك الظلامُ كعين ظبيٍ — أنرتُ بنورِ أضلاعي طريقي

* * *

وَحْدة

قَدْ قلتُ للبحر يوماً — في موجه المتعالي

أراك حلـــف طـــلابٍ فمـــا تُكـــنُّ ببـــالِ ؟
وكَـــمْ -ـــويـــتَ بصـــدرٍ مـــن لامعـــات الـــلآلـــي
أفيـــكَ مثْلـــيَ صـــدرٌ بجـــوهـــر القلـــبِ حـــالـــي ؟
فصـــدَّ عنِّـــي بجَـــزرٍ ولـــم يـــردَّ ســـؤالـــي
وقلـــتُ للطـــود يـــومـــاً : يـــا خـــاليـــاً مـــنْ عَنـــاء
أنـــال سَمْعَـــكَ صـــوتٌ مـــن زفـــرة وبُكـــاء
إنْ كنـــتَ تحـــوي عقيقـــاً بـــه عـــروقُ دِمـــاء
فـــواسنـــي بحـــديـــثٍ إنِّـــي حليـــفُ شقـــاء
فَصَـــدَّ عنِّـــي صَمـــوتـــاً ولـــم يـــردَّ ســـؤالـــي
جَـــدَدْتُ فـــي السيـــر حتَّـــى أتيـــتُ بـــدرَ السَّمـــاء
فقُلـــتُ : يـــا نضـــو سيـــرٍ إلـــى متـــى فـــي مَضـــاء
الأرضُ مـــرجُ زهـــورٍ مـــن نـــوركَ الـــلألاء
أخْلـــفَ نـــوركَ قلـــبٌ فـــي حـــرقـــةٍ وعنـــاءِ
رأى الكـــواكـــبَ تـــرنـــو فلـــم يـــردَّ ســـؤالـــي
وقُلـــتُ لله ربِّـــي مـــن بعـــد طـــوف البـــريَّـــة :
أمـــا بـــدنيـــاكَ هَـــذي مـــنْ ذرَّة لـــي نجيَّـــة ؟
أكـــلُّ طينـــيَ قلـــبٌ وذي البـــرايـــا خليَّـــة
طـــابـــت مُـــروجٌ ولكـــنْ ليســـت بشـــدوى حـــربـــه
أجـــابنـــي بـــابتسَـــامٍ ولـــم يـــردَّ ســـؤالـــي

* * *

قطرةُ النَّدى

قـــد قيـــل لـــي تـــدلَّـــي مـــنْ فَلَـــك الـــدَّراري
وَاسْتحكمـــي وسيـــرِي للبحـــرِ ذي التَّيَّـــارِ

فـي المـوجِ لا تحـاري
تحـوَّلـي واختَـاري
فـي الـدُّرر الكبـارِ

فمـا رضيـتُ بحـراً لصُحبتـي بحـالِ
عفـتُ احتسـاءَ رَاحٍ تَسلُبنـي خـلالـي
ما ضِقْتُ من خصالي
وعشـت فـي اعتـزالِ
قطـرتُ كـالـلآلـي

الـورد لـي سـؤول : مـا خطْـبُ طيـر السَّحـرِ
ومـا جهـاتُ النَّظـرِ ؟
ومـا وَرَاء البَصَـرِ ؟
ما الشَّوْك حـول الزَّهر

مـا نحـن فـي اصطحـاب ؟ مـن نحـنُ يـا ودُودُ ؟
مـا طـائـري المغنِّـي رجَّحـه الأملـود ؟
مـا يقصـدُ الغـرِّيـد ؟
ومـا الصَّبـا تُـريـد ؟
مـا العـالَـمُ العَتيـدُ ؟

فقُلـتُ : المُـروجُ حـر بُ الحيـاة فـي الآفـاق
حَفـلٌ لـهُ نظَـام مـنْ لـذَّة الفـراقِ
الـرُّوحُ مـنْ إشْـراقِ
ونَفسـي أشـواقـي
سـرٌّ مـن الخَـلاَّقِ

مِـنْ فلـكٍ هُبُـوطـي مـن طينـةٍ فتقـتِ
مِـنْ لـذَّةِ التَّجلِّـي نمـوتِ إذ أشـرقـتِ

فـي الغُصْـنِ قَـدْ خَفَقْتِ

كـم حُجُـبِ مـزَّقـتِ

نفســك قــدْ حقَّقــتِ

الــدَّهــرُ فــي اخضِــرار　　مــنْ دَمْعِنـا فــي السَّحَــرِ

وذي الجهـــات طـــرّاً　　خِــداعُنــا فـــي النَّظــر

بالصَّدر سربُ الزُّهُر[1]

مــن قَلْبنــا كــالشَّــررِ

ونُــورنــا فــي البَصَــر

فـــي ثــوبِ وردٍ إبــرُ　　مــنْ شــوكــة تصــول

شــوكٌ ، أجــلْ ، ولكــن　　نـــادمــه الجميــل

مـــنْ عشقـــهِ نحيــلُ　　وعنـــده الخليـــل

فــي روضـهِ أصيل

القَلْـــبَ أخلينـــه　　مــن صُحْبَــةِ الــدُّهــور

عينـــك فـــافتحَنْهَـــا　　لِلْكَـــوكَـــبِ المنيـــر

وصحبــةِ البصيـــر　　مثلـــي هلُـــمّ طيـــري

وفــي الفلــكِ الكبيــرِ

***

العشق

فكــريَ قــد أجــدّ كــلّ سيــرِ　　وطَــافَ بَيْــنَ حــرم ودَيْــرِ

عــدتُ للطــلاب فــي البَـرَاري　　مــرتــديــاً بــالنَّقــعِ كــالإعصــارِ

---

(١) الزُّهُر : النُّجوم .

بغيرِ خضرٍ أطلُبُ المنازل[1] يحملُ رحلي للخيالِ كاهلُ
تطلُبُ راحاً كأسيَ الحطيمُ كالصُّبح من شباكهِ النَّسيمُ
منطوياً كالمَوجِ في البحارِ حيران كالإعصار في الصَّحاري
عشقُكَ فَاضَ بغتةً بقلبي وحلَّ كلَّ عُقدةٍ في لبِّي
عرَّفني الوُجودَ والفَناء وصار ديري حَرماً وضَّاء
على حَصيدي مرَّ كالبُروق[2] عرَّفني لَذاذةَ الحريقِ
صُعِقتُ توّاً وسُلبتُ حِسِّي فُصِلْتُ من نفسيَ مثلَ العَكْسِ[3]
رَفَعتُ للعَرْشِ العليِّ تُربي بالسرِّ قَدْ أفْشَيْتَه لِقَلْبي
وبلَغتْ سَفينتي مُرسَاهَا وفاضَ قُبحي رونقاً وتَاهَا
عندي حديثُ العِشق لا سِواه لا أحملُ الملامَ في بَلْواهُ
غنيتُ عَنْ وَمضِ العُلومِ حَسبي خفقي ونَاري ودُموعُ الحبِّ

* * *

حياتَك فابغِ في الخطر الجليل

غزالٌ بثَّ شكواه غَزَالًا فَقَال سأقصُدُ البلَدَ الحرامَا
أرى الصَّيَّاد حولي كلَّ حينٍ فلا أستطيعُ في أرضٍ مُقاما
أبدِّل خيفةَ الصَّيَّاد أمْنا وأنفي الغمَّ عن قلبي المعنَّى
أجابَ رفيقُه أن يا خليلي حَياتَكَ فابغِ في الخَطَرِ الجَليل
ونفْسَكَ فَاشحذنْ في كلِّ آنٍ وعش أمضَى من السيف اليمَاني

---

(١) بغير دليل ، كما دل الخضر الإسكندر .

(٢) يكثر في الشعر الفارسي ذكر إحراق البرق البيدر ، ويكني به الصوفية عن قطع العشق علائق الإنسان بالدُّنيا .

(٣) العكس : الصورة . والكلمة نفسها في الأصل .

ففــي الأخطــار لِلْهِمَــمِ اختبــارُ لأرواحٍ وأجســـــادٍ عيـــارُ

* * *

الحياة

قــد ســألنــا عــن الحيــاةِ حَكيمــاً قــال : خَمــرٌ يطيــبُ فيهَــا الأمــرُ

قُلــتُ : بــل دُودةٌ نمــت فــي تُــرابٍ قــال : لا ! بــل سَمَنــدر لا يقــرُّ[1]

قلتُ : والشر طبعها . قال : لا بل خيـرَهـا قـد جَهلـتَ والجَهـلُ شـرُّ

قُلــتُ : مــا شــوقهــا يسيــر لنُــزْلٍ قــال : فــي الشــوقِ منزل مستــرُّ

قُلتُ : في الطِّين خَلْقُها قال فانظُر : شقّــت الطيــن حبَّــةٌ فهــي زهْــرُ

* * *

الحور والشاعر

(معارضة لقصيدة الحور والشاعر لجوته)

الحور :

لا الخمــــرُ يــــومــــاً تطبِّيــــكَ ولا إلينـــــا أنــــتَ نــــاظــــرُ

إنِّــــي عَجِبْــــتُ لشــــاعــــرٍ بهــوى الأحبــةِ غيــرِ شــاعــرِ

مِــــنْ حُــــرٍّ أنغــــامِ الــــرَّجــــاء وحــــرقــــةِ الطَّلــــب المثــــابــــر

نَفَــــسٌ تــــذيــــبُ بلــــوعــــةٍ وتغــــزُّلٌ يشجــــو المــــزاهــــرِ

وخلقــــتَ بــــالألحــــان دنيــــا كَ العجيبــــةَ خَلْــــقَ شــــاعــــرِ

تبــــدو لهــــا إرَمُ كمــــا يبــــدو لعيــــنٍ فِعْــــلُ ســــاحــــرِ

---

(١) السَّمندر : حيوان خرافي يعيش في النَّار .

الشاعر :

تَخْـدَعَـنْ قلـبَ مسـافـرٍ ... بـالسِّحْـرِ مـنْ وخَـزات قـائـلِ
مـا إنْ تحـاكـي لـذَّةً ... وخـزاتِ شَـوكٍ فـي المجـاهـلِ
مـاذا أقـولُ وفطـرتـي ... لا تَـرتضـي دَعـة المنـازلِ
قلبـي علـى قلـقٍ كمـا ... تهفـو الصَّبـا حـولَ الخمـائـلِ
فـإذا نظـرتُ إلـى جميـلٍ ... رائـعٍ حلـوِ الشَّمـائـلِ
خَفَـقَ الفـؤادُ إلـى الَّـذي ... يعلـوه حسنـاً فـي المحـافـلِ
فمـنَ الشـرار إلـى النُّجـوم ... إلـى الشُّمـوس رقـيِّ آمـلِ
إنِّـي ليهلكنـي القـرارُ فمـا ... أعـوجُ علـى المـراحـلِ
وإذا شـربـتُ مـنَ الـرَّبيـع ... الكـاس تسـري فـي المفـاصـلِ
أشـدو بشعـرٍ آخـرٍ ... وربيعـي الآتـي أغـازلُ
طلبـي النهـايـةُ فـي الَّـذي ... لا ينتهـي فيـه المُسـائـلُ
لا صـابـرٌ نَظَـري ولا ... قلبـي عـن الآمـالِ غـافـلُ
تـودي قلـوبُ العـاشقيـن ... بـدارة الخلـدِ المُـوَاصـلُ
لا صـوتُ محـزونٍ ولا ... ألَـم ولا واسٍ يسـائـلُ

* * *

الحياةُ والعمل
(جواب لنظم هاتنا[1] المسمَّى سؤالات)

يقـول السـاحـل المسكيـنُ : دهـراً ... حييتُ ولم يَبِنْ لي ما أكون . . ؟

(١) هاتنا : شاعر ألماني .

فقال الموج في صخبٍ وسيرٍ : وجودي السَّيرُ والعَدَمُ السُّكون

* * *

الملكُ لله

طارقٌ أحرق السَّفين فقالوا : ليسَ هذا منْ فعله برشيد
غرباءٌ ومن لنا برجوعٍ ذا خطارٌ في الشرع غيرُ سديد
أمسك السَّيفَ طارقٌ في ابتسامٍ قائلاً واثقاً بعزمٍ شديد :
مُلكنا اليوم خالصاً كلُّ مُلكٍ إنَّه مُلك ربّنا المعبود

* * *

النهر [١]

انظر النهر جارياً في هُيامٍ بين خُضر المروج مثل المجرَّه
كان في المهد في السَّحاب نؤوماً شاقه السَّير في مروجٍ وخضره
يبعث اللحنَ جارياً فوق صخرٍ صافي اللَّون في بهاء ونضره
يقصد البحر ذا العبابُ طروبا وعَزوفاً عن كلِّ شيء غريبا
مَنَحتْهُ يدُ الرَّبيع طريقاً من أقاحٍ ونرجسٍ وشقيقِ
يضحك الوردُ إنْ تلبَّث لدينا ويقول البرعوم : قف يا صديقي
وهو قالٍ عرائسَ المرج ماضٍ في الرُّبى والوهادِ غير رفيقِ

---

(١) ترجمة نظم جوته المسمَّى نغمة محمد مع تصرفٍ كبير . وفي هذا النظم الذي كتب قبل « ديوان الغرب » بكثير أحسن الشاعر في بيان تصوير الإسلام للحياة ، وقد أريد بهذا النظم أن يكون جزءاً من قصةٍ إسلامية لم تكمل . وإنما أردنا بهذه الترجمة أن نبين عن رأي لجوته فحسب .

وعـزوفـاً عـن كـلِّ شـيء غـريبـا يقصـد البحـرَ ذا العُبـاب طـروبـا
ومئات الأنهار في الحَزْنِ والسَّهل تُنـاديـه : يـا فسيـحَ المجـالِ
قَـدْ حمـانـا المسيـرَ قِلّـةُ مـاء فـازحمنّـا من بغـي هـذي الـرمـالِ
أفسـحِ الصَّـدر للـرِّيـاح سـريعـاً حـامـلاً رفقـةً ضعـاف الحـالِ
يقصـد البحـرَ ذا العبـابُ طـروبـا حـامـلاً جـوهـراً كثيـراً عجيبـا
هَـدَرَ النَّهـر جـائـزاً كـلَّ سـدٍّ جـاز ضيـق السُّفـوح والـوديـانِ
فـاض سيـلاً علـى رُبـى ووهـادٍ جـاز كـلَّ المـروجِ والبلـدان
هـائجـاً زاخـراً سـريعـاً مشـوقـاً بجـديـدٍ يمـرُّ كـلَّ زمـان
يقصـد البحـر ذا العُبـاب طـروبـا وعـزوفـاً عـن كـلِّ شـيء غـريبـا

***

الجنَّة

وأيـن بجنَّـةٍ لعـب اللَّيـالـي وليـس هنـاك مـن فلـكٍ يـدورُ
ولا فيهـا ليـوسـف غـمُّ سجـنٍ ولا فيهـا زُليخـا تَستجيـرُ
ولَيْـسَ خَليلُهـا يصلَـى بنـارٍ ولا بكليمهـا شـررٌ يَثـور
وليـس لِصَـرصـر فيهـا هُبـوبٌ فَـزَوْرَقُهـا علـى أمـنٍ يَسيـرُ
ولا ليَقينهـا « هـل » أو « عسـى أن » ولا لِـوِصَـالهـا هجـر مـريـرُ
وكيـفَ يلـذُّ عَقـلٌ ذُو ضـلالٍ إذا وَضحـت طـريـقٌ لا تَجـورُ
فـلا تَحفـل بكـونٍ فيـه نقـصٌ بـه المـولـى وليـس بـه الغَـرورُ

***

العِشق

العقـلُ يُحـرقُ عـالمـاً فـي جَلـوة منـه تُغيـرُ

لكنَّـــه بـــالعِشْـــقِ يعـــرفُ   كَيــفَ فـــي الـــدنيـــا يُنيــزْ
العِشْـــقُ فـــي الأرواح يخلـــق   كـــلَّ لـــونٍ أو يُثيـــرْ
إنِّـــي لأذكـــــر راقصـــــاً   ذا الحـــرف أو هـــو بـــي يـــدور
بـــالعِشْـــقِ تـــرتـــاح القلـــوبُ   وإنَّـــــه فيهـــــا سعيـــرْ
مـــا كـــل معنـــىً ينطـــوي   فـــي اللَّفـــظ ، كـــم معنـــى يثـــور
أنصـــت لقلبـــك ســـاعـــةً   فلعلَّمـــا يـــدنـــو العسيـــر

* * *

لغزُ السَّيف

مـــا جـــاهـــدٌ يُنبـــطُ مـــاء الحجـــر   لا يَهتدي بالخضْر كالإسكندر ؟
كنظـــرِ العيـــنِ صفـــيٌّ مشـــرقُ   لا بلـــل وهـــو غـــريـــقُ نهـــر
مصـــــراعـــــه مكمَّـــــل منفـــــردُ   ليـــس عليـــه منَّـــةٌ لـــلأشطـــر

* * *

الجمهورية

تريد معنى العُلى منْ ساقطي همم   وأيـن للنَّمـل إقـدام السُّليمـانـي[1]
فاتبع حكيماً ودعْ جمهورَهم ، أترى   بـألـفِ رأسِ حمـارٍ عقـلَ إنسـان ؟

* * *

---

(١) نسبة إلى سليمان الحكيم ، وقصته مع النمل معروفة .

إلى داعية الإسلام

في بلاد الفرنج

الــدَّهــرُ عـــادَ بنـــار نمــــرود ... جَـوْهـرُ الإسـلام رَهـنُ تجـديـد

هَلـمَّ نُلـق الحجـابَ عـن حُـرَقٍ ... كالشَّمس تغشى الورى بتجريد[1]

أمللـتَ حُـور الفـرنـج مـنْ حكـمٍ ... ورُعـت أصنـامَهُـم بتـوحيـد

فقـل لأهـل الحجـاز عـن سلمـى ... وبـثَّ فـي التـرك شـوق معمـود

علـى خـراسـان والعـراقَ فعـج ... وردَّ للعُجْـمِ شـوق تغـريـد[2]

كـم انتظـرنـا لعـارفٍ ولكـم ... شجـا « جمـال »[3] بلحـنِ مفـؤود

جعلـتَ عشقـاً حـديـث ذي هَـوس ... نَثَـرْتَ درَّ الكـلام بـالبيـد

* * *

غنَّى الكشميريُّ[4]

غنَّـى أخـو الشِّعـر ربُّ البيـان ... وبلبـلُ كشميـرَ ذاتِ الجنـان

يفتِّـح أبـوابـه إنْ نـدر ... ويغلقهـا جـاهـداً إنْ حضـر[5]

فقيـل لـه : يـا أنيـس القلـوب ... عجبنـا وفعلُـكَ أمـرٌ عجيـب

فمـاذا أجـاب الهمـامُ الفقيـر ؟ ... فقيـر بملـك المعـانـي أميـر :

إإخـوانـنـا مـا رأيتـم سـداد ... أفـي الـدار غيـري متـاعٌ يـراد ؟

---

(١) أي بظهورها دون حجاب وفي الأصل بالعري .

(٢) خراسان والعراق من ألحان الموسيقا أيضاً .

(٣) جمال الدين الأفغاني .

(٤) محمد طاهر الكشميري الشاعر المتوفى سنة ١٢٨٧هـ .

(٥) ندر : خرج وهي لغة الحجاز اليوم .

إذا كان في الدار ربُّ العرين غنًى ففيها متاعٌ ثمين
وإنْ غاب عنها أنيسُ الورى فلا دارَ أفرغَ منها تُرى

* * *

إلى مصطفى كمال باشا[1]
حزيران (١٩٢٢م)

أمّة كانت ومن حكمتها نحنُ آثارٌ على مرِّ العُصور
قد عرفنا سرَّ تقديرٍ مضى فمضينا نقتفي سرَّ الدهور
شرراً كنا، أجدنا نظراً فإذا شمسٌ على الكونِ تسير
شيخاً أطفأ في أحشائه نارَ عِشْقٍ فخنعنا في فتور
صرصر البيداء في فطرتنا أذبلتْ ريحُ الصَّبا فينا الزُّهور[2]
وعلى الأفلاك دوّى صوتنا فاسمعنْه اليوم في نَوحِ الأسير
رُبَّ صيدٍ قد أخذنا وثبةً دون أشراكٍ كما انقضّت صقور
وغدونا يوقِعُ الصيدُ بنا ولنا قوسٌ وسهمٌ في الجفير
«كلَّما أمكن طرفٌ فاركضَنْ كم أمات العزمَ تدبيرُ الأمور[3]»

* * *

الطَّائرة

على غصنِ وردٍ بوقت السَّحر نغا طائرٌ لطيورٍ أخر :

---

(١) كان الشاعر معجباً بمصطفى كمال إعجابه بالعزم والإقدام، فلما رآه يقلّد الفرنج عابه وقال : إنَّ جديده قديمُ أوربة .
(٢) يعني خلقنا للجهاد فأضعفنا الترف .
(٣) البيت الأخير للشاعر نظيري .

« لقـد سُلب الأجنُح الآدميّ ومكّن في الأرض هذا الغبيّ »
فقلت له : « يا أميرَ الرّياح أفي الحقّ إن قلبته من جناح .. ؟
بطائرةٍ قد ركبنا الهواء شققنا بها في عَنان السَّماء
وأية طائرة في الفلك يفوت مداها جَناحَ الملَك
لها عزم صقرٍ وأيدُ عقاب بلاهور[1] ترنو إلى فارياب[2]
تُدوّي وتزفر حين السِّفار وفي العشّ صمتٌ كحوت البحار
من الطِّين صار لنا جبرئيل من الأرض نحو السماء دليل »
وعى الطائر الألمعيُّ الكلام وأبصر ما قلتُه في الخصام
فأهوى إلى ريشه ينقر وقال مقالَك لا أنكر
فيا مَنْ يروقُك عقدٌ وحلُّ وفي قيد سحرك عُلْوٌ وسُفْلُ
أأصلحت في الأرض بعد عناء فجئت لتصلحَ جوَّ السَّماء[3]

* * *

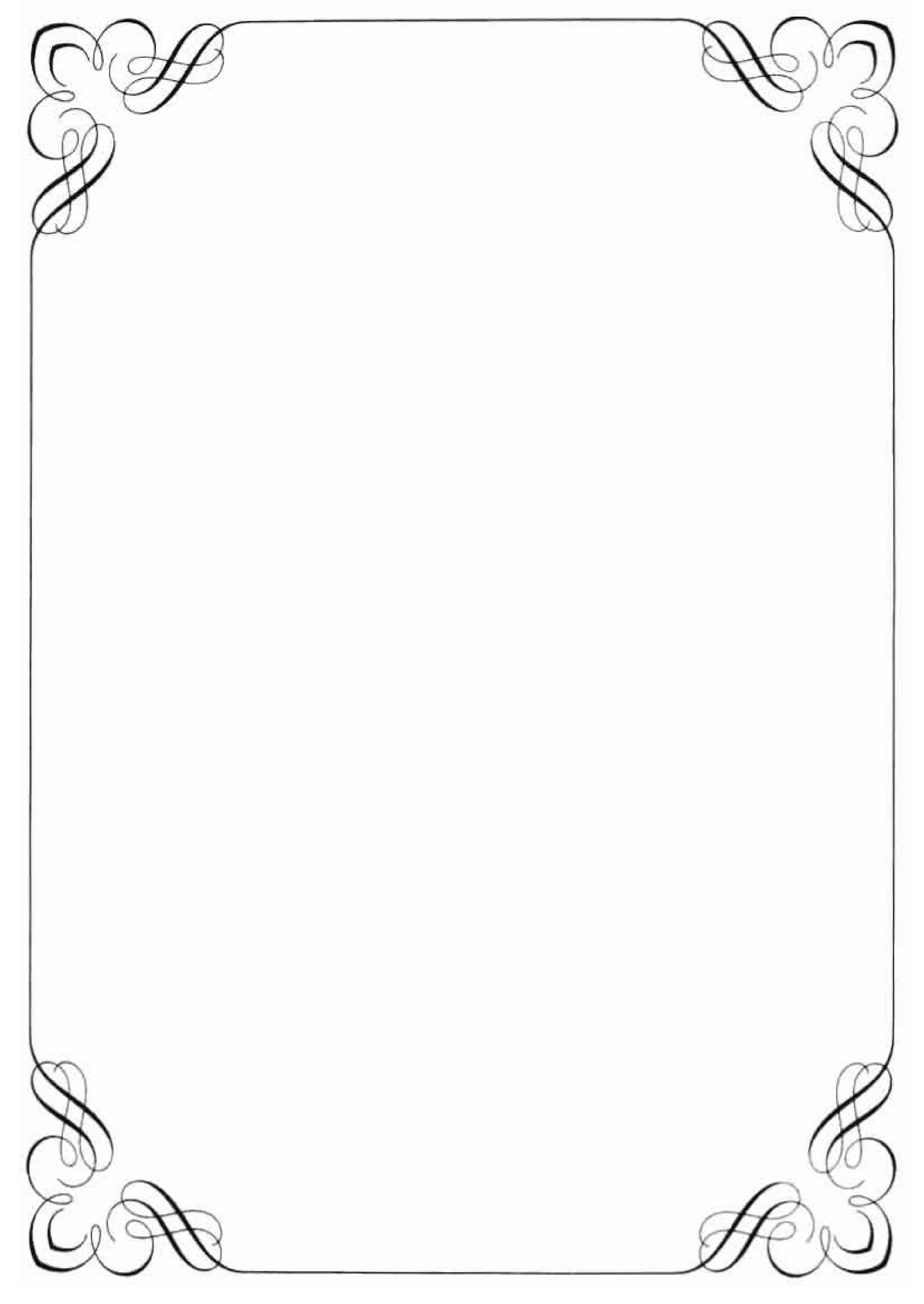
العِشْقُ

هو الحرفُ ضاءتْ عليه القلوب وليس بسرٍّ وسرّاً يرى
هلم أُنبّئكَ قولَ الخبير بمن قد رواه وعمّن روى
وعاه النَّدى خلسةً في السَّماء وأسمعه الوردَ قطرُ النَّدى
وباح به الوردُ للعندليب عن العندليب روته الصَّبا[4]

* * *

---

(١) لاهور تقع في باكستان وهي إحدى كبريات مدنها ، وعاصمة ولاية بنجاب اليوم .
(٢) فارياب ، تقع في تركستان .
(٣) البيت الأخير للشيخ سعدي الشيرازي .
(٤) أبيات تمثّل تطور العشق من قطرة إلى غِناء بلبل إلى خفق الرّيح .

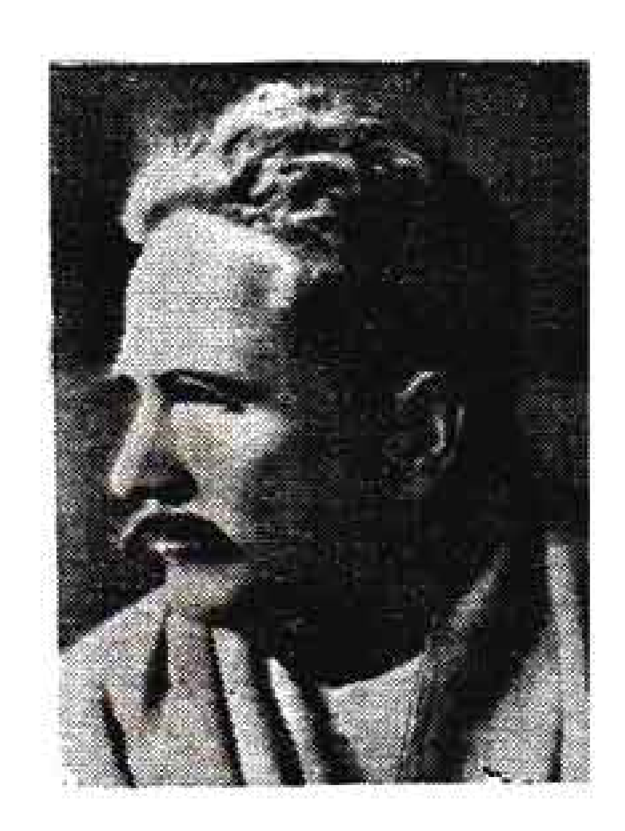




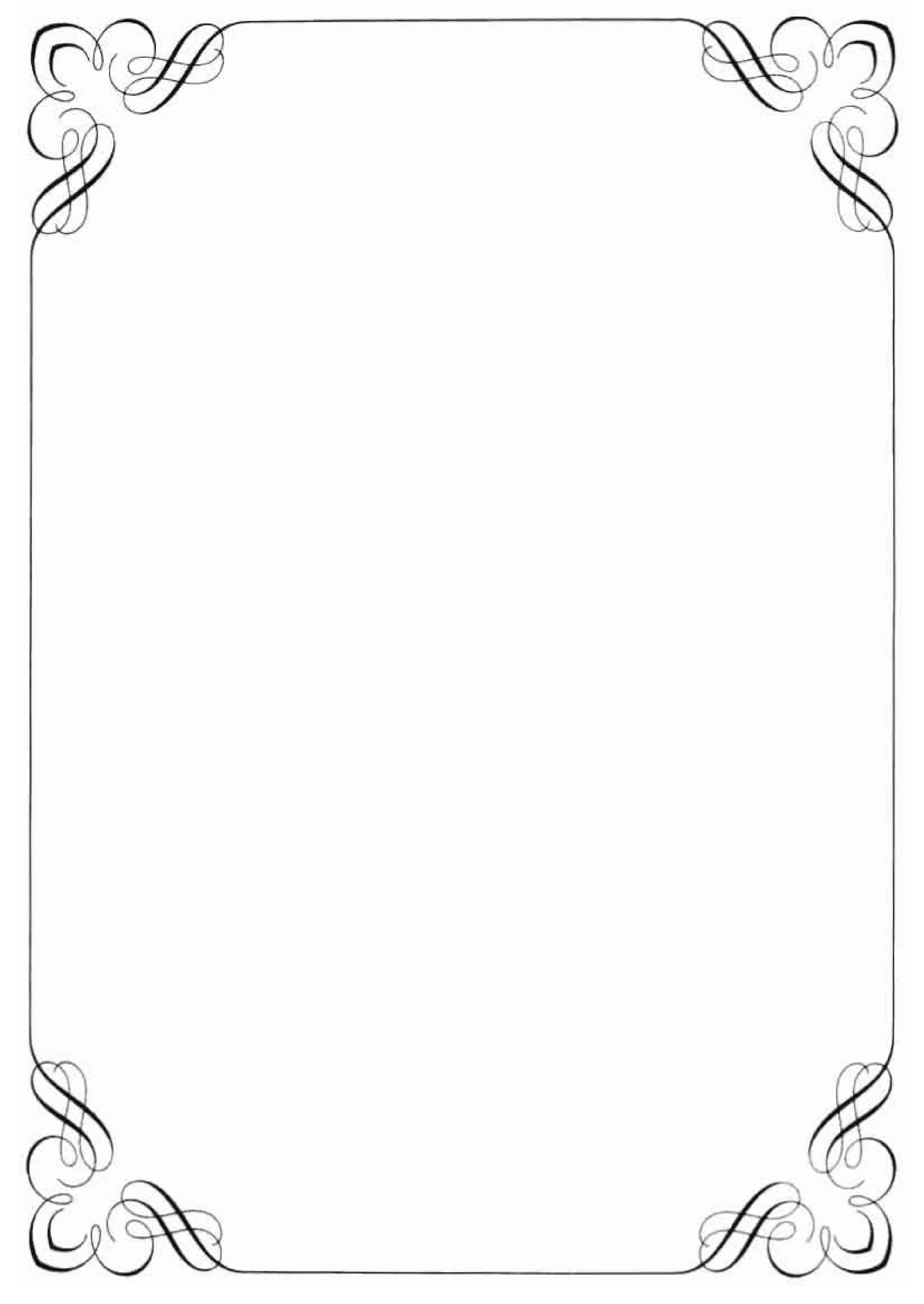

القسم الثالث

الخَمر البَاقِية

(غزليّات)





حبـــا الـــــربيـــعُ رُبـــانـــا   محـــافـــلَ التَّغـــريـــد
فـــاستيقظـــت أكمـــام   للبلبـــل الغـــرِّيـــد
لا تحسبـــنَّ أنْ خُلقنـــا   فـــي صبـــح دهـــرٍ مـــديـــد
فمـــا تـــزال خيـــالاً   حـــوى ضمير الـــوُجـــود
لا تغتـــرر بعلـــوم   الكـــأس خيـــر شهيـــد
إنَّ الفقيـــه مُـــريـــبٌ   فـــلا تكـــنْ بمُـــريـــد
ضـــمَّ الـــربيـــعُ شتيـ   ـــتَ الأورادِ بـــالتنضيـــد
وبـــثَّ ريحـــاً ولـــونـــاً   أنظـــارنـــا فـــي الـــورود
مـــن يُحكمـــن نظـــراتٍ   لنفســـه فـــي شهـــود
لـــم يشـــدُ يـــومـــاً بغيـــب   كـــلاَّ ولا مـــوجـــود
قـــد قـــال فـــي ألحـــان فـــاســـ   ــمـــغ مقـــال شيـــخٍ رشيـــد :
فـــي كـــلِّ دهـــرٍ خليـــلٌ   والنَّـــار مـــن نمـــرود[1]
لا تلحيـــنَ أهـــل ديـــرٍ   فـــالعِشـــقُ جـــدُّ عنيـــد
أقـــام أوثـــان حـــبٍّ   فـــي القلـــبِ مـــن محمـــود[2]
يضيـــع شـــدو حيـــاةٍ   ينســـاب بيـــن الهنـــود
فـــالميـــت ليـــس بحـــيٍّ   بـــالنفـــخ مـــن داود

***

عقلُنـــا ينحـــتُ ربـــاً كـــلَّ حيـــن   فهـــو مـــن قيـــدٍ إلـــى قيـــدٍ رهيـــن
ارفـــعِ البـــرقـــع جهـــراً لا تُبـــلْ   ليـــس فـــي حيِّـــك غيـــري ذو حنيـــن

---

(١) إشارة إلى قصة إبراهيم الخليل ونمرود الذي ألقاه في النار .
(٢) السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند الملقب بمحطم الأصنام .

أنــا مــن عينــيَّ غيــورٌ نــاســج　　نظــراتــي لــك ستــراً فــي العيــون
بسمـــةُ خَلـــس ودمـــعٌ ورنـــاً　　ليس في الحُبِّ سواها من يمين
حبَّــذا العِشْــق ففــي يــوم النَّــوى　　زاد بــاللَّــوعــة عهــدٌ لا يميــن
أيهــا الطــائــر مــن صــدري اقبسَــنْ　　لتــزيــدَ النّــار فــي هــذا الأنيــن
عُــود تيمــور مضــى لا لحنُــه　　هــو فــي لحــن سمــرقنــد يبيــن
ســادنُ الكعبــةِ لا تــأْذَنْ لــه　　فــلإقبــال إلــهٌ كــلَّ حيــن

* * *

شكــوايَ أمــــرٌ عجيـــب　　مــن نــور عينــي شكــاتــي
فنظــرتــي لــي حجــاب　　وأنــت فــي الجلــوات
أبلــغ خــلائــق نــورٍ　　الحــق مــن كلمــاتــي[1]
حــذارِ كــفَّ تــراب　　للنَّفــس فــي نظــرات[2]
فــي محفــلٍ مــن ربيــع　　نــذوب مــن حــرقــات
بــالــرِّيــش منــا شــرار　　فــي الفجــر مــن آهــات
يــا واهــنَ النَّفــس تــدري　　مــن أيــن لــي نغمــاتــي ؟
حــواكَ كــونٌ بعيــدٌ　　مــن عــالمــي وجهــاتــي
مثــلَ الشَّقيــق تــرانــي　　بــالــرَّوض فــي حســرات
والقلــب غُــرضــة رمــي　　مــن أسهــم اللَّحظــات
فــي عــرف أهــلِ قلــوبٍ　　الكَــذْحُ ســرُّ الحيــاة
لكعبتــي لــم أســافِــر　　لــلأمــن فــي طــرقــاتــي
وكــم قبيــل أقــامــوا　　وأدبــروا فــي شتــات

---

(١) يعني بخلائق النور الملائكة .

(٢) كف التراب : الإنسان ، والنظر إلى النَّفس من فلسفة إقبال التي سماها « أسرار خودي » .

فـــي دارة ضـــــاء فيهـــا الهـــلال فـــي مشكـــاة[1]
فـــاخلـــق بطينـــك خلقـــاً ذا يقظـــــةٍ وحصـــــاة
مثـــلُ اتســـامِ شـــرارٍ تلبَّـــث الفـــرصـــات[2]
إنْ لـــم تكـــنْ ذا فضـــولٍ فتلـــك إحـــدى نكـــاتـــي
العِشْـــقُ أبعـــدُ شـــأنـــاً مـــن ضـــائـــع الأنَّـــات
فـــي العجـــم أزكـــى نشيـــدي مـــا بـــاخ مـــن جمـــرات
والعُـــرب مـــن نـــارِ شـــوقـــي لـــم تـــأتهـــم نفثـــاتـــي

* * *

فـــي ذلـــك الحفـــل ســـؤلـــي عـــن مَحـــرمٍ بـــي حقيـــق
لـــذاك أزجـــى غنـــائـــي وفيـــه لحـــنُ الصَّـــديـــق[3]
فـــي خلـــوة كـــلٌ لفـــظٍ فيهـــا كستـــرٍ صفيـــق
يبـــثُّ قلبـــي حـــديثـــاً بمقلتـــي وبمـــوقـــي
مـــن أجـــل نظـــرة وجـــدٍ لـــوجهـــك المـــرمـــوق
مطهِّـــر نظـــراتـــي بـــدمـــع عيـــنٍ طليـــق
كـــالكِـــمِّ كـــلُّ أمـــوري لعقـــدة ولضيـــق[4]
لكـــن الجلـــوة شمـــسٌ أنمـــو بقلـــبٍ مَشـــوق
كـــالمـــوجِ ، ليـــس كيـــانـــي يهـــاب سيـــل العقيـــق[5]
ولســـت فـــي البحـــر أبغـــي إلـــى الشطـــوط طـــريقـــي

---

(١) يعني الدنيا جعلها داراً صغيرة فيها القمر كسراج في مشكاة .
(٢) فرصات : جمع فرصة .
(٣) اللحن : الرمز في الكلام .
(٤) يتخيَّل الشاعر أن كم الزَّهر لانطباقه معقود .
(٥) العقيق : هو كل سيل كبير يشقُّ الأرض وواد بالمدينة .

مــــا بيـــن عيـــنٍ ورأيٍ ... بينـــي وبيـــن صـــديقـــي[1]

مهمـــا تبـــاعـــد عنِّـــي ... فكـــلُّ حيـــنٍ رفيقـــي

قـــد خـــطَّ فـــي ستـــر عينـــي ... نقـــوشُ كـــونٍ أنيـــق[2]

بشعـــوذات أرانـــي ... فـــي قيـــد سحـــرٍ وثيـــق

فـــي قبَّـــة قـــد أحـــاطـــت ... لا أرتضـــي بـــالضِّيـــق

شـــوكٌ بجنـــب سمـــاء ... لا بـــدَّ لـــي مـــن مُـــروق

لا أستـــريـــح بعُـــشٌ ... مـــن لـــذة التحليـــق

طـــوراً بشـــاطـــىء نهـــرٍ ... طـــوراً بـــروضٍ شقيـــق

* * *

المغنِّـــي الصبيـــح فـــي ألحـــانِ ... وريـــاضُ الـــرَّبيـــع ألـــواحُ مـــانـــي[3]

وتحيـــي دم الـــربيـــع شقيـــق ... أيُّ ظمـــأ بـــه إلـــى الألـــوان ؟

نغمـــةٌ تفتـــح العيـــون لمعنـــى ... ضـــاق عنـــه طـــرائـــق التبيـــان

فتـــأمَّـــل بعيـــن عشـــقٍ وأبصِـــرْ ... منـــه آيـــاً تُضـــيءُ دون بيـــان

فعيـــونُ العقـــولِ تُظْهِـــرُ فيهـــا ... هـــذه الكـــائنـــاتُ سحـــرَ العيـــان

وعـــن عشـــقٍ خُـــذْ دروسَ جهـــادٍ ... وافعلـــن مـــا تشـــاء فـــي كـــلِّ آن

إنمـــا العشـــق جـــوهـــرٌ لشعـــورٍ ... وهـــو روحُ الإدراك والعـــرفـــان

ولنـــا غـــايـــة مـــن الشَّمـــس أعلـــى ... إنهـــا الشَّمـــس صُـــوَّة الـــرُّكبـــان[4]

إيـــه يـــا قطـــرةً عـــنِ النفـــسِ تـــاهـــتْ ... تطلبيـــنَ المحـــالَ فـــي الأكـــوان

---

(١) الرأي : رأي العين .

(٢) في هذا إشارة إلى الصور التي تسمّى خيال الظل ، فالستر يظهر عليه الخيال لا الحقيقة ، فهو يقول : إنَّ هذا العالم نقوش في ستر العين تخدع عن الحقائق .

(٣) ماني : صاحب مذهب المانوية كان ماهراً في التصوير ، وترك ألواحاً مصورةً في كتاب عرف باسم « أرزنك » ضرب به المثل .

(٤) الصوّة : أحجار تجعل علامة على الطريق .

إنَّ عـاراً معيشـة البحـر إن لـم … تطلعـي منـه درَّةً ذات شـان

يـا جهـولاً بقـدر نفسـك لـولا … أنـت كـان العتيـق كـالصَّـوان[1]

* * *

قد هدمتُ الأصنام لم أرضَ شكلاً … أنـا سيـلٌ هـدمـتُ كـلَّ سـدودي

ومـن العِشـقِ قـد رأيـتُ كيـانـي … كـان عقلـي يُـرينـي وجـودي

وبـديـرِ ضـراعتـي وهـو أنـي … وصـلاتـي بكعبـةِ التَّـوحيـد

ومـن الـذكـر سُبحتـي بيمينـي … فـاعجبَـنْ مـن زنَّـاري المعقـود

منبـع الحـزن فيـك غيـر نضـوبِ … دمـعُ قلبـي حبسـتُه عـن خـدودي

راق قـولـي ، وسيـرتـي لجنـونٍ : … خمـرُ شـوقٍ لسكـرتـي وشهـودي

* * *

طـوبـى لمحـرق عقـلٍ … بنـارِ راحٍ عتيـق

مَـنْ يعتنـي بمتـاعٍ … مـنْ نـاره كـالشَّقيـق

أوحـى الـرَّبيـعُ إلـى الـزا … هـديـن بيـع الـدلـوق[2]

فـاغـرس بـالكـأس الحميَّـا … بستـان وجـهٍ أنيـق

قلبـي رثـى لفقيـهٍ … مجـاورٍ بـالعتيـق

مـا اتبـاعـه شيـخ خـان … فتـوى بكـأسٍ رحيـقِ

اللحـنُ لا تقـدرُونـه … علـى غنـائـي الـرقيـق

فبـرقـةُ اللَّحـن تغشـى … إسكنـدراً بحـريـق

لـروضِ « ويمـر » تهـدي … الصَّبـا سـلام مشـوق[3]

فـذي الـدِّيـار أضـاءتْ … لعيـنٍ ذي تحقيـق

* * *

---

(١) يعني أنَّ الإنسان جهل قدر نفسه وقدَّر أشياء ليس لها قيمة إلَّا بتقديره .

(٢) الدلوق : جمع دلق ، وهو لباس بالٍ مرقع يلبسه الزُّهَّاد والشحاذون .

(٣) ويمر : مدينة في ألمانيا ، أقام فيها الشاعر غوته كثيراً ومات ودفن فيها .

نَــــوح ليلِــــيَ القلـــق والهمـــوم فـــي الفلـــق
والأنيـــنُ مِـــنْ شَـــرَر والقـــريـــض مـــنْ حَـــرَق
أيـــن حـــرص مجتهـــد مِـــن تضـــرُّم العشـــق
ذاك فـــأس فـــرهـــاد ذاك خُســـر فـــي مـــذق[1]
قُـــل لســـاكنـــي حجـــب عـــنْ تـــرابـــي القلـــق :
ذا الغُبـــارُ ذو نظـــر ذا التـــرابُ ذو فلـــق
مطـــربتـــي تسكـــرنـــي وتـــزيـــد فـــي حُـــرقـــي
نغمـــاتُ مستحـــر بـــالقلـــوب ذي علـــق
مِـــنْ حـــذاره أرضُ سمـــر فنـــدبـــت فـــي فـــرق
مـــن هجـــوم جنكيـــز أو هـــلاكـــو فـــي الحلُـــق[2]
هـــات مطـــربـــي غـــزلاً نظـــم مـــرشـــدي اللبـــق
لأفـــوزَ مـــن لهـــب التبـــريـــزي بـــالحـــرق

* * *

مُنيتـــي أن يتجلَّـــى ذلـــك البـــدرُ التَّمـــامُ
فيـــدي تُمســـكُ صـــدري وبعينـــيَّ اقتحـــامُ
ويقـــول الحســـن : صبحـــي ليـــس يغشـــاه ظـــلام
فيقـــولُ العشـــق : وجـــدي ليـــس يخبـــو والهيـــام
ليـــس مـــن يـــومـــي وأمســـي وغـــدي فـــيَّ زمـــام
ليـــس لـــي نَجـــدٌ وغـــورٌ ليـــس يحـــوينـــي مقـــام

---

(١) فرهاد : المهندس ، وخسرو برويز : ملك الفرس ، وكان وعد فرهاد أن يهب له معشوقته « شيرين » إذا شق طريقاً في الجبل ، ففعل ولم يظفر بأمنيته ، فضرب فرهاد مثلاً في العشق الخائب .

(٢) أشار الشاعر أكثر من مرة إلى سمرقند وجنكيز كأنه يُشير إلى ما أصاب المسلمين من هذه النواحي .

خمــــرة الأســــرار أبغــــي ... وكـــــؤوســــــاً لا تــــرام
وبحــــــانــــــات مجـــــوس ... دائـــــر عنــــدي جــــام[1]
لا تقُــــلْ : مــــالــــي ولحنــــاً ... لا يـــــرى فيـــــه انسجـــام
فـــــأنــــا طــــائــــر غيــــبٍ ... عـــن حبيبــــي لــــي كــــلام
أرفــــع الستـــــر وأشــــــدو ... لــــي فــــي اللَّحـــن مقــــام[2]
أنــــا صمصـــــام دمــــــاء ... لــــي بــــالغمـــد كَعـــام[3]

***

غُصْـــــنُ الحيــــــاة نــــديٌّ ... مـــن ظمئنــا فـــي الطِّـــلاب
عيــــن الحيــــاة أراهــــا ... تعلُــــــه الهيِّــــــاب[4]
فَمَـــــنْ أبـــــثُّ حـــديثـــي ... وأيــــن أزجــــي ركــــابــــي ؟
ولا تـــــؤثـــــر آهـــــي ... ونظــــرتــــي فــــي حجــــاب
فـــزَمـــزِمـــنْ فـــي غنـــاء ... واخفـــض نـــواح الـــرَّبـــاب[5]
فـــلا تـــزالُ طيـــورٌ ... تنـــوح تحـــت نقـــاب
أهـــل الحجـــاز تـــولـــوا ... قـــوافلـــي بســـلاب
حبيبنـــا عـــربـــيٌّ ... فـــلا تفـــه بعتـــاب
وزن عُجـــــم وهنـــــد ... لا تبـــغ وزن خطـــابـــي

---

(١) المجوس في الشعر الفارسي كالنصارى في الشعر العربي ، يذكر الشعراء خمرهم وحاناتهم .
(٢) من مقامات الموسيقا .
(٣) الكعام : هو الكمام للجمل ، الّذي يخشى صياله ـ وبالفتح جمع كعم ، وهو وعاء السّلاح ـ .
(٤) عين الحياة في الأساطير : عين من شرب منها لا يموت ، وقد شرب منها الخضر ، والشاعر يقول : « إن الحياة هي عطشنا في الكفاح لا ورود عين الحياة » .
(٥) الزمزمة : كلام خفي .

فــأصــل هــذي الــلآلــي بـــالليــل دمــع انتحــابـي
هلُــمَّ فـــالــرَّاحُ عنــدي مــن دنُّ عــالــي الجنــاب[1]
وخمـــرة القـــول أصبـــى مــن خمـــرة الأعنـــاب

* * *

مـن كـرى المـوت لا تفيـقُ عيونٌ دون نـور تفيضُـه مـنْ سنـاكـا
إنَّ مـن دونـك الـوجـودُ محـال ومحـالٌ فنـاؤنـا فـي جسمـاكـا
قـد حـوى الكـون قلبنـا وهـو فيـه عقـدةٌ لا تحـلُّ فـاكظـم فـاكـا
نغمـاتي الضعـاف أحـرقـن صحبي حـرقتي نغمـةٌ أبـت أن تحـاكـا[2]
إنْ تضـنَّ الصبـا بطـلٌ فـدعهـا نـار قلـب الشقيـق تـأبـى فكـاكـا[3]
فـإلـى الحـق وجّـه القلـب واصبر لا تـــؤمـــل بغيـــره إدراكـــا
سُـدَّة الـوُثْـنِ هـذه وعليهـا[4] جبهـات الأبـاة تـأبـى حِكـاكـا

* * *

كتب إلى أحد الصُّوفيَّة[5]

لهيـب الـوجـد مـن أسمـاء لا عنـدي ولا عنـدك
وحـرُّ القلـب فـي البيـداء ، لا عنـدي ولا عنـدك

---

(١) جلال الدين الرومي .
(٢) أبت أن تنسج ، يعني : لا يستطاع إظهارها .
(٣) يتخيَّل الشاعر أنَّ الطلَّ يخفف من حرقة الشقائق الملتهبة ، يقول لا نبالي إن لم يسقط الطل فهذه النار لا تفارقنا بأيَّة حال .
(٤) الوثن : جمع وثن .
(٥) في هذه الأبيات مثالان من الشعر الفارسي ، الأول أن وزن الهزج فيه مفاعيلن ثماني مرات وهو في العربية لا يزيد على أربع ، والثاني القافية المردوفة والردف هنا « لا عندي ولا عندك » والروي الهمزة الممدودة قبلها .

وشيـخ أنــت فــي حــان وإنــي نــاشــيء ســاق

عطــاش نطلــب الصهبــاء لا عنــدي ولا عنــدك

رهنــاً قلبنــا والــدِّيــن حــبُّ الغيــد مــن عُجــم

ونــارُ الشــوق مــن ظميــاء ، لا عنــدي ولا عنــدك

حطــام كــان أصــدافــاً علــى شــطٍّ لقطنــاهــا

فقــدنــا الــدُّرَّة البيضــاء ، لا عنــدي ولا عنــدك

وبلــوى يــوســف المفقــود مــن يطيــع ذكــراهــا

وخفق القلب في زلخاء[1] ، لا عندي ولا عندك

كفــانــا النُّــورُ فــي المصبــاح قــد أخفتْــه أستــارُ

فطــوق النُّــور فــي سينــاء ، لا عنــدي ولا عنــدك[2]

* * *

قلبُنــــا كـــــونٌ ولكـــــن مـــا بــــه دور القمــــر

دورانٌ ليـــــس فيـــــه مـــن عشـــيٍّ أو بُكـــر

ويـــل ركـــبٍ قـــد أســـفَ العـــزمُ فيـــه وضمـــر

فهـــو يـــرتـــاد طـــريقـــاً ليـــس فيهـــا مـــنْ خطـــر

فـــدع العقـــل ومـــوج العشـــق صـــارع لا تقـــر

فبـــذاك النهـــر ضيـــق ليـــس فيـــه مـــن دُرر

كـــلُّ مـــا يجـــري خيـــالُـــك أو خيـــالـــي فـــي الأثـــر

هـــو فـــي العيـــن ولكـــن مُستتـــرٌ كـــالنَّظـــر

* * *

غيـــر مجـــدٍ بكـــاؤنـــا ويلتـــا ! ضـــاعَ ذا النغـــم

---

(١) زلخاء : زليخاء عاشقة يوسف الصِّديق عليه الصلاة والسلام .

(٢) الطوق : الطاقة .

نَـــوح قلـــبٍ ممــــزقٍ حـــاصـــلُ الغـــمِّ والألـــم
خفـــق القلـــب ســاعيــاً يخلـــق الـــدَّبــر والحـــرم
هــــو فينــــا محـــدِّقٌ نحـــن فيـــه علـــى قـــدم
نبـــذ الستـــر أهلـــه لُـــذت بـــالنفـــس فـــي حـــرم[1]
غيـــرة العشـــق فـــانظـــرن ! أيْنـــا شـــوقـــه احتـــدم ؟
مطـــربُ ألحـــان فـــي الـــدُّجـــى قـــد شـــدا معجـــب الحكـــم
ذوق راحٍ محـــــــــــرَّم شـــربُ راحٍ لنـــا أمـــم
هـــي مسيـــر حيـــاتنـــا مـــا ســـوى السيـــر يُغتنـــم
ليـــس للمـــوج منـــزل أو طـــريـــقٌ إذا التطـــم
أشعـــلِ النَّـــار فـــي هشيمـــي مـــن قـــال فـــي القـــدم :
« منـــزل الكبـــريـــاء لـــي » مـــرشـــد الـــرُّوم[2] ذا العلـــم

***

أبـــدِ مـــن طينـــك نـــاراً تُضمـــر لا تحـــلَّ بعـــد هـــذا يُقـــدَر
مُلْـك جمٌ « لنظيـري »[3] مصرع : « ليـس مـن قـومـي مـن لا يُنحـر »
ســاحـــر العقـــل يعبِّـــي جنـــده لا تُـــرع للعشـــق جنـــد ينصـــر
بمقـــامٍ ولحـــونٍ لـــم تُحِـــط عُـــود سَلمـــى كـــلُّ حيـــنٍ يَقطـــر
نظـــري فـــي النَّفـــس أحكمـــتُ فلـــم يتـــوجَّـــه لســـواهـــا النظـــرُ
فتَجلَّـــى الحـــبُّ فـــي كـــل الـــدُّنـــى وأنـــا فـــي شُغُـــلٍ لا أنظـــر

---

(١) أهل السر الّذين في عالم الغيب والشاعر على مذهبه في الذاتية ، يقول : إنّه لم يُبال بالنظر إلى عالم الغيب بل نظر إلى نفسه ، وإنَّ عشقه الغيور لم يتجه إلى غيره بل غيره نظر إليه .

(٢) مرشد الرُّوم ، يراد به جلال الدين الرُّومي .

(٣) نظيري النيسابوري ، أحد الشعراء الفارسيين الكبار ، هو وجمشيد أحد ملوك الأساطير الفارسية .

ما جنونُ العِشْق في البيداء سدًى ... في قرى الحسن تعالوا نجأر[1]

وبصيد الوحش في البحر اهتفنْ ... لا تقلْ : زورقنا لا يُبحر

ملء عيني دليل ما مضى ... في طريقٍ ليس فيها خطر

اصبحنْ شُرباً خليعاً واحْذَرَنْ ... عهد شيخٍ ليس فيه ذأر[2]

غايةُ الإفصاحِ لمحٌ وكُنى ... فلُغى الخلوة رمز يُعبر[3]

* * *

تضيقُ بدار أصنام ... ولا ترضى بمحراب

ولكن نحو مشتاقٍ ... تسيرُ بشوقِ أصحاب

فاقدِم واتخذ مغنا ... كَ في أرواحِ أحباب

وكيف وأنت ربُّ الدًا ... ر تدخل خطو مرتاب ؟

تُغير على ذوي التسبيح ... تحمل كلَّ أسلاب

وتطرق أهل زنَّار ... بليلٍ فعل نهاب

وذو جحفل لجب ... لسفك دماء أصحاب

وطوراً في جماعات ... بكاساتٍ وأكواب

وتأتي باللهيب إلى ... كليم غير هيَّاب[4]

وتأتي كالفراش إلى ... يتيمٍ شمعُه كابي[5]

فيا إقبال خذ كأساً ... بخمر « الذَّات » لهَّاب

---

(١) لعل الشاعر يُشير إلى مجنون ليلى وهيامه في البيد ، ويعني أن هذا الهيام في فضاء الطبيعة لا بد أن ينتهي إلى صلاح الجماعات في القرى .

(٢) الذأر : الشرة وحدة الخلق .

(٣) يعبر : كتعبير الرؤيا .

(٤) إشارة إلى النَّار التي لاحت لموسى عليه الصلاة والسلام .

(٥) إشارة إلى اصطفاء الرسول ﷺ .

سفـــاكَ الغـــربُ مـــن كـــامـــنٍ   لنفســـك منـــك ســـلاَّب

* * *

لـــذعـــاتُ حـــان العُجـــم ليســـت   كُـــفءَ نـــاري الحـــاميـــه
ذا أحمــــد العـــربـــيُّ نَظْـ   ـــرَتُـــهُ تحيـــط جهـــاتيـــه
مـــا حيلتـــي والعقـــلُ فـــي   عُقَـــدٍ لـــه متـــواليـــه
نظـــراتُ عينـــكَ ، فـــانظـــرنْ   حلَّـــت طلســـم مجـــازيـــه
حِيَـــلُ العقـــول تفـــوقهـــا   خفقـــات قلبـــي الـــداميـــه
فـــاهجـــر كنيـــس تفلســـفٍ   لحـــريـــمِ نـــاري الحـــاميـــه

* * *

أنت كالمرآة تفنى في جمال الآخرين   فاغسلَنْ قلباً وعيناً من خيال الآخرين
من نواح الطَّير في الأحرام فاقبسْ واحرقنْ[1]   ذلك العشَّ الذي شُدْتَ بمال الآخرين
وتعلَّم جاهداً خفقَ جناحيك وطرْ   أنت لا تسطيع طيراً بجبال الآخرين
أنا حرٌّ وغيورٌ مسرفٌ في غيرتي   ممكن قتلي بكأس من زلالِ الآخرين
إيهِ يا أقربَ من روحي ولا أبصره   عندنا هجرُك أحلى منْ وصالِ الآخرين[2]

* * *

عنـــدليـــبُ الـــرَّبيـــع جُـــنَّ غنـــاءَ   وعـــروسُ الشَّقيـــق تُـــزهـــى بهـــاءَ
لا مغـــنٍّ ولا مـــزاهـــرُ فيـــه   ذاك لحـــنٌ مـــن المغيَّـــب جـــاء
محـــرم السـرِّ مـــن يســـدد ضـــربـــاً   فـــي وتـــار الحيـــاة أيـــان شـــاء[3]

---

(١) الأحرام : جمع حرم .
(٢) وهذه قطعة أُخرى بنيت على الرمل المثمن ـ والرمل في الشعر العربي لا يزيد على ست تفعيلات والقافية فيها مردوفة بكلمة الآخرين ، والروي اللام التي قبل الرديف ـ .
(٣) الوتار : جمع وتر .

مـــن وراء الستـــور أنبئـت ســـراً … لست أفشي ، فالدهر لعباً أساء[1]

لا تعنّـــفْ وخـــذْ سبيـــل ودادٍ … قـــدَّر اللهُ فـــي الحيـــاة التقـــاء

أيـــن فـــي دارة التـــراب مقـــامٌ ؟ … كـل شـيءٍ كـالـرَّمـل يمضـي هبـاء

زهـرةٌ مـن ريـاض كشمير جسمي … وبـــأرض الحجـــاز قلبـــي أضـــاء

وأغـــانـــيَّ واللحـــونُ نمتْهـــا … أرضُ شيـــراز ، حـــبَّ ذاك انتمـــاء

* * *

نحـن تـربٌ ، وكـالنجـوم سفـارا … مـن خضـمٌ الـزرقـاء نبغـي قـرارا

نحـــن مـــن شعلـة الحيـــاة جميعـــاً … لـذَّة « الـذَّات » فـرَّقتنـا شـرارا[2]

قـلْ لأهـلِ السَّمـاء : إن تـرابـاً … نـال بـالعقـل فـي السمـاء مطـارا

نحـنُ فـي العشـق زهـرةٌ فـي نسيـمٍ … وبكـــدِّ الحيـــاة نقـــدح نـــارا

نحـن فـي المرج نـرجسٌ نـاظـرات … كلُّنـــا أعيـــنٌ فـــألـــق الستـــارا

* * *

ليـــردَّ العُـــرب دمعـــي دامیـــاً … روضـــة تنبـــت ورداً وشقيقـــا

وليـــردَّ العُجـــم أنفـــاســـي وقـــد … صـوَّحـت جنـاتهـم ، روضـاً أنيقـا

مـــن حيـــاةٍ وخلـــودٍ كـــدحُنـــا … يـا تـرابـي ! فلتكـن قلبـاً خفـوقـا

صحـــب الله فـــؤادي هـــائمـــاً … سـار لا يـرضـى مقـامـاً أو طـريقـا

صـــوَّر اليـــأس علـــى آفـــاقنـــا … عقلُنـا اليـائـسُ فـاحـذره رفيقـا

وبعـــودٍ قطِّعـــت أوتـــارُه … قـد حبـا قلبـاً إلـى اللَّحـن مشـوقـا

أنـــت نـــشء وكـــلامـــي شُعَـــل … علَّ شـدوي مضـرمٌ فيـك حـريقـا

ليـــس فـــي قلبـــي إلا أن أرى … قطـرةً فيـك غـدت بحـراً عميقـا

---

(١) إشارة إلى الألعاب من وراء الستار كالَّذي يسمَّى خيال الظلّ .

(٢) يعني : لذة الاستقلال والوحدة كما يرى الشاعر في فلسفة « الذات » .

لا عـــرا الـــزُوح هـــدوء ولتكـــن بحيـــاة الكـــدِّ والكَـــدْح خليقـــا

* * *

لا التَّـــاج يـــزهـــو عليـــه ولا سنـــا الـــزِّينـــات

فقيـــرٌ حيُّـــك ، لكـــن مـــن الملـــوك الأبـــاة

فـــي الشيـــب مـــاتـــت قلـــوبٌ وفتيـــةٌ فـــي سُبـــات

فمـــا لصـــدرٍ نصيـــبٌ فـــي الفجـــر مـــن آهـــات

لا تقعـــدنْ عـــن طِـــلابٍ فـــي واسِـــع الفلـــوات

فمـــا بعصـــرك هـــذا هـــادٍ إلـــى الطُّـــرقـــات

غَفِلْـــتَ عـــن ســـرِّ وقـــتٍ أضعتـــه فـــي شتـــات

وقـــتٌ عـــداه حســـابٌ بـــالشَّهـــرِ والسَّنـــوات

هـــذا الـــرِّبـــاط قـــديـــم مـــا فيـــه عيـــش مـــواتـــي

غَفِلْـــتَ عـــن ســـرِّ عيـــشٍ وعـــن جهـــادِ الحيـــاة

مـــاذا يخـــطُّ مـــن الـــذنـــب كـــاتبـــا الهفـــوات

دنيـــاكَ مـــا قـــد أصبنـــا فيهـــا ســـوى نظـــراتِ

إقبـــالّا الحـــرَّ أمســـك بـــذيلـــه فـــي ثبـــات

فمـــا يـــرى فـــي ربـــاط مـــن بـــائعـــي الخـــرقـــات

* * *

عشقـــي الجـــريء صـــدرُه سعيـــرُ وحكمتـــي عـــن شـــرر تخـــور

إنْ يكمـــل الهيـــامُ صـــار ذلًّا قيـــسٌ بـ « ليلـــى » عنـــدنـــا شهيـــر

إليـــك جئـــت فـــي سجـــود وجـــدٍ سيمـــاه فـــوق جبهتـــي تفـــور

هـــب سيـــف « لا » لكـــافـــري وأبصـــر « إلا » ي كيـــف فـــي الدنـــى تثـــور[1]

---

(١) يشير إلى النفي والإثبات في « لا إله إلا الله » يعني : هب لي أنا الكافر توحيداً وانظر فعلي .

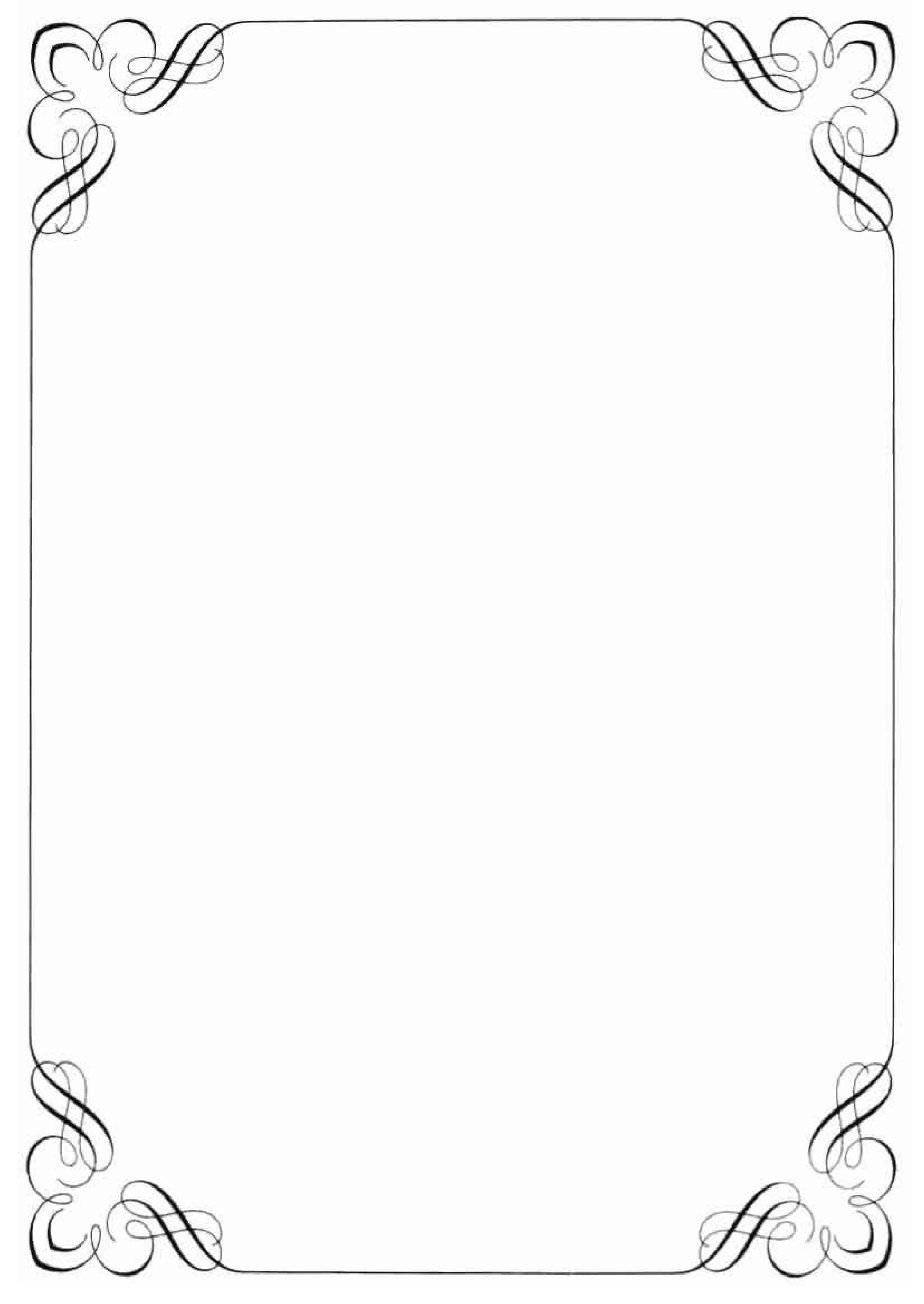
لا بـدَّ مـن دورٍ يعيـد أمسـي ... فـي جلـوات مـن غـدي يسيـر
نـورك فيـه للـدُّنـى نصيـبُ ... « سينـا » ي كيـف فـاتهـا تنـويـر
أحـدِّث الـرحمـن فـي حجـابِ ... وفـي حمـاك منطقـي جهيـر
أيـا رسـول الله ! إنَّ ربـي ... محجَّـب وأنـت لـي ظهـور

* * *

أسفـي عليـك نحتَّ أصنامـاً أخـر ... عوداً ولم تبحثْ بقلبك عن أثر[1]
أسفي عليك صُهرت في نار الفرنـ ... ـجِ ومن لحاظ العين روحك قد قطر[2]
أسفـي عليـك فمـا وُزنـت بنظـرة ... فـي حلَّـة فيهـا التـرابُ لـه قـدَر
أسفـي عليـك قـرأتَ أسفـار العقـو ... ل وما فهمتَ حديثَ وجدٍ يُستطر
أسفـي عليـك تطـوفُ مـن ديرٍ إلـى ... حـرمٍ وفـي معنـاك لـم تُجِـد النَّظر

* * *

(١) هذه الأبيات مردوفة في الأصل تكرر في أواخرها الكلمة التي ترجمتها « أسفي عليك » ، وقد كررتها في أول كل بيت .
(٢) ذاب في نار الفرنج وأفنى نفسه بالنظر إليهم وتقليدهم .





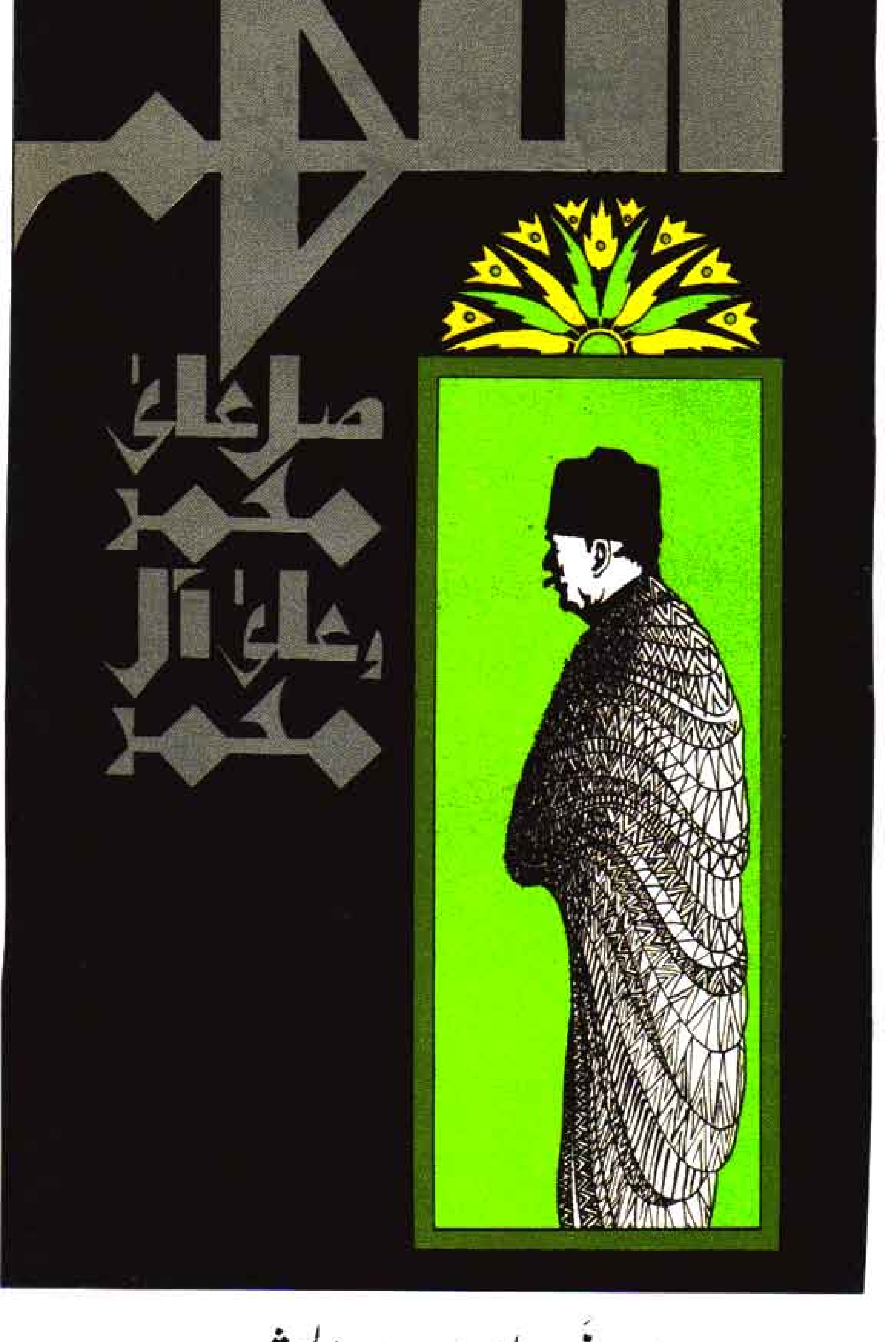
القسم الرابع

نقشُ الإفرنج









طرحِ نَو انداز اندر جانِ خویش
تازہ کُن با مُصطفےٰ پیمانِ خویش

نقش الإفرنج

أبْلغي يا ريحُ عنِّي عالَمَ الإفرنج جهرا :
إنَّما العقل أسيرٌ زادَه التحليقُ أسرا
يتحدَّى العِشقُ برقاً منه هذا العقل فرَّا
سُحِرَ العقلُ ، وكان العِشْقُ بالأكباد أدرى
تبصرُ الأعينُ لوناً حينما تبصرُ زهرا
ووراء اللَّونِ معنىً هو أجلى منه يُدرى
ما عجبنا أنَّ إعجاز مسيحٍ نلت خُبرا[1]
قد عجبنا لمريضٍ داؤه عندك أشرى[2]
تجمعُ العلم وتلقي القَلْبَ لا ترغبُ فيه
آهِ ذا نقدٌ ثمينٌ ضاعَ في كفٍّ سفيه
إنَّما الحكمةُ أمرٌ ليس فيه مِنْ نهايه
ليس في كتَّابها للحبِّ والعِشقِ بدايه[3]
قطعت سُبلَ قلوبٍ يقظاتٍ بالعمايه
ذاتُ طرفٍ ذي كلامٍ هو في الفتنة آيه
ودلالٍ لا ترى فيه إلى القلب سرايه

---

(١) الخطاب لعالم الإفرنج .
(٢) شرى الداء : إذا اشتد ، وأشرى للتفضيل ، يعني : أنه كالمسيح في المعجزات ، ولكنَّه لا يشفي .
(٣) أي : ليس في كتابها ألم العشق وحزُه كما يبرى القلم .

ليس فيها لـذةُ الـوخـ ـزةِ مـنْ غَمْـزِ الـرَّعـايـه
طوت البيد ولم تظـ ـفر بظبي في النهايه
طافت البستان لم تبـ ـلغ من الأزهار غايه
فَهَلُمُّوا نسأل العِشْق ـسداداً ورَشادا
واقصدوا العِشْقَ سُجودا وابلغوا مِنْهُ مُرادا

* * *

سلكَ العقلُ طريقاً ذا شعابٍ حين سارا
ملأ العالمَ هرجاً وأصارَ الماءَ نارا
في يديه كمياء ردَّت الرمل نضارا
لم يصُغ إكسير حبٍّ في قلوبٍ أو أنارا
سحرهُ قد خال فينا فقبلناه جهارا
ذاك قطَّاع طريقٍ قطعَ السُّبل نهارا
فنَّه قد هدّم الأفرنـ ـج والنقعَ أثارا
ثمَّ في مُقلة عيني ذرَّ من ذاك غُبارا
كمْ زرعنا مِنْ شرارٍ وحَصَدْنا مِنْ لهيبِ
كمْ عقدْنا وحلَلْنا عُقداً فوق القلوبِ

* * *

أينَ مِنْ خفق الشَّواهيـ ـن جناحُ العندليب
أينَ منْ يلقطُ مِنْ حب على الأرضِ تريب
من فتى يلقط عنقو د الثُّريا لا يَخيب
أينَ منْ يسري بروضٍ كنسيمٍ في هبوب
مَنْ بصير في ضمير الزهـ ـر للسرِّ يصيب
أين فوق الأرض ظنٌّ سارَ أو شكٌّ مريب
من طموحٍ جاوز الأفلا ك لِلْمَسْرى الرَّحيب

حبَّـذا عقـلٌ فسيـحٌ قـد أحـاطَ العـالَميـن

نــورُ أمـلاكٍ ونـا ر الأنسِ فيه دونَ مين

نحـنُ مِـنْ خلـوةِ عِشـقٍ قـد بـرزنـا بـالسَّجـايـا

فجعلنـا مـوطـىء الأقـدا م فـي الأرض مَـرايـا

فـانظـرنْ همَّتنـا كيـ ـف لعبنـا بـالعطـايـا

قـد أضعنـا الكـونَ جهـراً حيـنَ حـزنـاهُ خفـايـا[1]

قـدْ نـزلنـا شـطَّ نهـرٍ نبصـرُ المـوج سَـرايـا

تبصـرُ الأعيـنُ سطـراً مِـنْ غُـدُوٍّ وعَشـايـا

قَلْبُنـا بيـتُ هـذا الـدَّيـر لا يبغـي سبـايـا[2]

فـرمـى النَّـارَ بـرطـبٍ وييبـسِ فـي البـرايـا

شعلـةً كنَّـا جميعـاً وانتثـرنـا كـالشَّـرز

أهـلَ شـوقٍ وحنيـنٍ ورجـاءٍ ونَظَـز

أصبـح العِشـقُ غـويـاً قـاطعـاً كـلَّ وكـاء[3]

فتنـةٌ للنـاس فيهـا خَفْـقُ حـوتٍ فـي العـراء

آثَـر الحَـزبَ علـى الخفـضِ وعبَّـى للقـاء

لـم يـروِّ السَّيـفَ إلا مِـنْ صـدورِ الأوفيـاء

قطـع الطُّـرق وسمَّـى الـ ـقَطْـعَ حِفْـظَ الأمنـاء

أخـذ الـدُّفَّ وغنَّـى راقصـاً دونَ حيـاء

رافعـاً فـي الكـفِّ كـأسـاً مِـنْ دمـاء الأصفيـاء

حـانَ أنْ نُحـدِثَ نهجـاً ونجـدَّ النظـرا

---

(١) يعني : استولينا عليه بقوة أرواحنا ، وبذلته أيدينا احتقاراً .

(٢) في الأصل : الدير القديم ، وهو كناية عن الدُّنيا .

(٣) أحسب الشاعر يقصد في هذه الأبيات إلى أنَّ العشقَ ، وهو الوجدان السليم قد صار هوىً وطمعاً ، ففعل ما فعل (المترجم) .

فـاغسلـنْ لـوحَ فـؤادٍ وأجِـــدَّ الأسطـــرا

لحـــنُ إسكنــــدر ولَّـــى وتقضَّـــــى لحـــــنُ دارا

وأتـــى فـــرهـــادُ يبغــي ملـــك بـــرويـــزَ جهـــارا

يـــوســـفُ فـــارق سجنـــاً وعـــزيـــزَ الملـــك صـــارا

وخـــرافـــاتُ زليخـــا ورُقـــاهـــا تتـــوارى

كـــلُّ ســـرٍّ كـــان يخفـــى غشـــيَ الشُّـــوق نهـــارا

ومضـــى حفـــلُ النُّـــدامـــى وبـــريـــقُ القـــول بـــارا

فـافتـحِ العَيْـن وأمعِـنْ لتـرى مـا لا تـرى

إنما تبني الحياةُ اليوم كـــونـــاً آخـــرا

أنـــا فـــي الأرض بصيـــرٌ عـــارفٌ ســـرَّ الحيـــاةِ

أبصـــر الـــذَّرَّات طـــراً كنجـــومٍ نـــاظـــراتِ

وأرى الحبَّـــة تحـــت التُّـــرب مـــن قبـــل نبـــاتِ

ذاتُ أصـــلٍ وفـــروعٍ وثمـــارٍ يـــانعـــاتِ

وأرى الأطـــواد ريشـــاً فـــي ريـــاحٍ قَلِقـــاتِ

وأرى الـــرِّيـــش ثبـــاتـــاً كجبـــالٍ راسخـــاتِ

وانقـــلابٌ ليـــس يحـــو يـــه ضميـــرُ الكـــائنـــاتِ

قـــد أراه لســـتُ أدري كيـــف فـــي العَيـــنِ يـــواتـــي

حبَّـذا المبصـرُ جهـراً فـارسـاً فـي ذا القَتَـر

ويـرى جـوهـرَ لحـنٍ فـي اهتـزازٍ بـالـوتـر

بـــالحيـــاة النَّهْـــرُ جـــار وسيجـــري فـــي مضـــاء

عـــاتـــق الـــزَّاح فتـــىً وسيبقـــى فـــي فُتـــاء

كـــلُّ أهـــلٍ لـــوجـــودٍ ســـوف يحظـــى بـــالضِّيـــاء

ووجـــودٌ غيـــرُ أهـــلٍ ســـوف يحـــويـــه الفنـــاء

إنَّمـــا العِشْـــقُ عيـــونٌ تـــرقـــبُ الحســـن ظمـــاء

ومُنـــى الحســـنِ ظهـــورٌ وسيبـــدو فـــي جـــلاء

إنَّ هـــذي الأرض فيهـــا ... لـــي دمـــوعٌ مِـــنْ دمـــاء
سيُـــرى الـــدَّمـــعُ عقيقـــاً ... فـــي حشـــاهـــا ذا بهـــاء
« فـي ظـلام الليـل جاءتـ ... ـنـي مـن الصُّبح بِشاره
أطفـئ الشَّمـع ولاحَـتْ ... لي من الشَّمس أماره »[1]

* * *

جمعية الأمم

بـــؤســـاءُ الأرضِ رامـــوا سُنَنـــاً ... لتزولَ الحَرْبُ في هذي العُصور
وسمعنـــا أنَّ نبَّـــاشـــي قُبـــورٍ ... شـــركـــةٌ شـــادوا لتقسيـــمِ القبـــور

* * *

شوبنهاوَر ونيتشا[2]

طـــارَ مِـــنْ عُشّـــه يسيـــرُ بـــروضٍ ... فـــأصـــابتـــه شـــوكـــةٌ مِـــنْ زُهـــور
لعـــن الـــرَّوضَ والـــزَّمـــان ونـــادى ... بثبـــورٍ لنفســـه والطُّيـــور
ورأى وسمـــة الشقـــائـــق جـــوراً ... وطلَّسْـم البرعـوم خَـدعُ خبيـر[3]
قـال ذي الـدَّار شيَّـدْتَ بـاعـوجاج ... كـلُّ صبـحٍ بهـا إلـى ديجـور
نـــاحَ حتَّـــى تقـــاطـــرت نغمـــاتٌ ... مـن دمـاءٍ ، بـدمـع عيـنٍ غـزيـر
وشجـا الهـدهـدَ النُّـواحُ فـوافـى ... ينـزع الشَّـوك مـن جنـاحِ الكسيـر

---

(١) هذا البيت يضمن في شعر إقبال وهو لغالب (الشاعر الأردوي المشهور) .

(٢) فيلسوفان ألمانيان معروفان ، الأول متشائم ، والثاني يعجب بالقوة واحتمال الشدائد في هذه الحياة .

(٣) في الشقيقة سواد يجعلها الشُّعراء وسمة من الحرقة . وطلسم البرعوم يريد به انطباقه وانبهاءه كالطلسم .

قال : أخرج من كل خسرك ربحاً　　مــزّق الــوردُ صَــدْرَه للعبيــر
واجعـل الجُـرْحَ بَلسمـاً فسترضـى　　واثْلَـفِ الشَّـوكَ تغـدُ كلُّـك روضـا

* * *

الفلسفة والسياسة

لا تقيســوا فلسفيــاً بــارعــاً　　بسيــاسـيٍّ وبــالعــدل احكمــوا
ذاكَ عيـنٌ جهـرت فـي شمسهـا[1]　　وجمــودُ عيــنٍ ذا لا تَــزحــم
ذاكَ فــي الحــقِّ دليــلٌ واهــنٌ　　ذا لــدى البــاطــل قــولٌ مُحْكــمُ

* * *

نيتشا

ثــارَ مِــنْ ضعـفِ الأنـاسيِّ قلبـه　　فبــرى الخلــق المكمــل لُبُّــه
فتنــة فــي الغــرب مــن ذي جنــون　　كــان فــي دار الـزُّجـاجـيِّ ضـربـه

* * *

بايرُن[2]

قطــراتٌ رشحــتْ مــن كــأســه　　شعلــةٌ تنمــو كــوردٍ وشقيــق
ذو رســالاتٍ بهــا حــرُّ الجــوى　　فــرسـولُ الحـبِّ منهـا فـي حـريـق
ضــاق بــالإفــرنــج بــرداً طبعــه　　فهـو فـي الأوطـان فـي غـمٍّ وضيـق

---

(١) جهرت العين : لم تبصر في الشمس .
(٢) الشاعر الإنكليزي المعروف فارق وطنه إلى بلاد اليونان لنصرة الثائرين بها ، ومات هناك .

وخيالٍ كم بنى مِنْ ملعبٍ فيه للحورِ مراحٌ وبريق
جَلواتٌ للشَّباب ائتلقتْ فهو في الغَشْيَةِ منها لا يفيق
طائرٌ فارق عشًّا ورأى حِلَقَ الشُّبَّاك[1] أولى بالحلوق

***

جلال وهيكل[2]

ليلةً بتُّ أعاني حلَّها مشكلاتٍ لحكيم الألمانِ
ذاكَ مَنْ أبرز في إبداعه أبديَّ الكونِ من سترٍ لآني[3]
يخجلُ العالم من أفكاره شاكياً ضيقَ زمانٍ ومكانِ
سرتُ في بحرٍ له فالتطمَتْ سفنُ العقل بموجِ الطُّوفانِ
نفثَ النَّومَ بعيني سحرُه فحماني فكرَ باقٍ أو فاني
وأحدَّ الشَّوقَ طرفي فإذا نور وجهٍ لحكيم رحماني
إنه الشَّمسُ تجلَّت في الضحى كلُّ أفقٍ بسناها نوراني
نورُه في مظلمِ الأفق سرى كمنارٍ في طريقِ الرُّكبان
تنبتُ الأفكار في ألفاظه مثلَ ما ينمو شقيقُ النُّعمان
قال : قم يا أيها النائمُ ! هل تمخرُ السُّفن سرابَ القيعان
« في طريقِ العِشْقِ بالعقل يُسار ؟ بسراجٍ تبتغي شمسَ النَّهار »[4]

***

(١) الشباك : الشبكة .
(٢) جلال الدين الرومي ، وهيكل الفيلسوف الألماني .
(٣) يريد أنه أدرك من الشيء المؤقت حقائق أبدية ، والآني نسبة إلى الآن .
(٤) البيت الأخير للرومي .

بتوفي

(شاعرٌ مجري قُتِلَ شاباً في الدِّفاع عن وطنه ، ولم يعثر على بدنه لتبقى له ذكرى أرضية)

لعروسِ الرِّياض غَنَّيتَ حيناً | زدتَ قلباً جوىً وأسليتَ قلبا
وخضَّبْتَ الشقيق من دمك المسفوك | وجْداً وجلّ ذلك خضبا
كم بآهِ الصَّباح في المرجِ يسري ، | في صدور الأكمام فَتَحْتَ قلبا
نغماتٌ من الجوى ذبت فيها | في « مزار » القريض تُدفن حبا
وإلى الترب لم تعد بمماتٍ | ذاك حقٌّ فليس أصلك تربا

* * *

جلال وجوته[1]

شاعر الألمان في رَوْضِ إرم[2] | فاز بالصحبة من شيخ العجم
شاعرٌ يشبه ذا العالي الجناب | ما نبياً كان لكن ذو كتاب[3]
قصَّ للعارفِ بالسرِّ القديم | ما وعى إبليسُ والشيخُ الحكيم
فأجابَ الشَّيخ : يا رب العلاء | أنت صيادٌ ولكن في السماء
قد خلا فكركَ في القلب السليم | فأجدَّ الرُّوح في الكون القديم
فرأيتُ الدرَّ في قاع البحار | ودبيبَ الرُّوحِ منْ خلف الستار

---

(١) شاعر الألمان جوته صاحب القصة المعروفة فوست . وفي هذه القصة يبين الشاعر درجات تطور الإنسان في إطارٍ من روايةٍ قديمة عن العهد الذي كان بين الحكيم فوست والشيطان ، وقد بلغ فيها الفنُّ درجةً لا يدركها الخيال .

(٢) يقصد الشاعر بإرم الجنة .

(٣) شيخ العجم : جلال الدين الرومي ، والبيت الثاني من قول الجامي عن الرُّومي : ماذا أقول في هذا العالي الجناب ـ لم يكن « نبياً » ولكن له كتاب ـ .

ليس كلٌّ قد تجلّى العِشقُ له ... ليس كلٌّ أهل هذي المنزله
« قد تجلّى لسعيدِ ألمعيٌ ... مكرُ إبليس وعشقُ الآدمي »[1]

***

رسالة برگسون[2]

إذا ما شئت أن تحظى بسرٍّ ... تبوح له الحياة لمستجيب
فلا تبعدْ بنفسِكَ عن لظاها ... كما جَفِلَ الشَّرارُ عن اللهيب
ولا تصحَبْ سوى نظرٍ عريف ... ولا تمرر بأرْضِك كالغريب
وما صورتُه وهمٌ فأعدد ... لعقلٍ شبَّ في أدب القلوب

***

حانة الفرنج[3]

عهدُ حاناتِ فرنجٍ ... ذكّرني يا خليلي !
رَبَّتِ الخمرةُ فيها ... عينَ خمَّار جميلٍ
نظرة الساقي رسالا ... تٌ لشرَّاب الشَّمول
عقلُها الخاتر غاز ... عشقَها كلَّ سبيل
جوُّها ما أشْعَلَتْه ... نارُ آهاتِ الحيارى
ليس فيها مِنْ خليعٍ ... فيه ترنيحُ السُّكارى

***

(١) البيت الأخير لجلال الدين الرومي .

(٢) فيلسوف فرنسي .

(٣) يقصد الشاعر في هذه الأبيات إلى ما يعوز الإفرنج من الإيمان وحرارة الوجدان .

حكماء[1]

لوك[2]

فارغُ الكأس أتى الروضَ شقيقٌ[3] يملأ الأكواب من شمس الضُّحى

كنت[4]

فطــرةٌ ضــاءت شــرابــاً ولهــا نجـم كـأسٍ مــن حـريـم الأزل

برگسون

مــا لــه مِــنْ أزلٍ خمــرٌ وكــاس نــاره مِنْ حـرقـة القلـب الشَّقِيـقْ

* * *

شعراء

براونگ[5]

ليـس فـي كـاس الحياة البرد نـارٌ فبمـاء الخضـر كـأسـي أمـلأ[6]

بايرن

منـةٌ للخضـر لا تلهـبُ صـدري فبمــاء القلــب كــأســي أمــلأ

---

(١) صوَّر الشاعر كلاً من هؤلاء الفلاسفة ببيت . وهذه الكنايات لا يدركها إدراكاً تاماً إلا من عرف هؤلاء الفلاسفة ، وعرف خصائص كلٍّ منهم .

(٢) فيلسوف إنكليزي .

(٣) شقائق النعمان .

(٤) فيلسوف ألماني .

(٥) شاعر إنكليزي .

(٦) ماء الخضر : عين الحياة التي شرب منها الخضر ، فخلد ، وحرمها إسكندر .

غالب[1]

لأزيد الخمرَ والصَّدر لهيباً أصهَر الدَّنَّ وكأسي أملأْ

جلال الدِّين الرومي

أين مزجٌ مِنْ سنا جوهرِها مِنْ عروقِ الكَرْمِ كأسي أملأْ

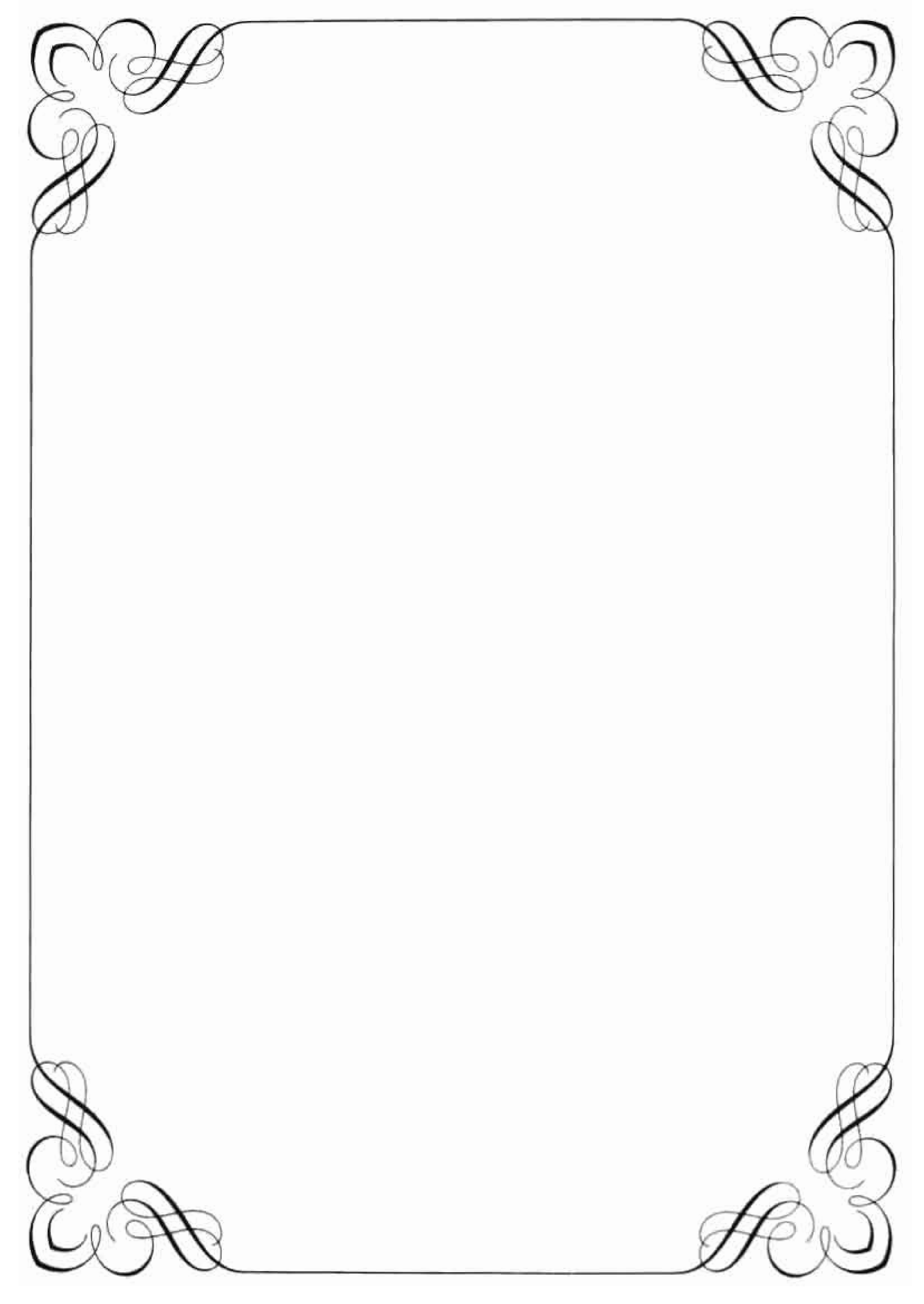
حانات الفرنج

أمسِ في حانة الفرنجة وهْناً راعني قولُ ماجنٍ ذي خلاعه
قال : ليست كنيسةً تغشاها في دُمىً للغناءِ تبغي سماعه
إنَّها حانةُ الفرنج وفيها كلُّ ما ذمَّه البريةُ طاعه
قد وزنا الأعمالَ فيها بوزنٍ غير ما حسَّن الأنامُ اصطناعه
لا تزنْ وزنَ أمَّةٍ ذات دينٍ رثٌّ ميزانهم فحاذرْ متاعه
كلُّ قبحٍ يزيدُ جاهك ، حسنٌ كلُّ حسنٍ يضرُّه فهو شناعه
إنْ تفكَّرت فالحياةُ رياءٌ وبها الصِّدقُ قولةٌ خدَّاعه
إنَّما الصِّدق والوفاء حجابٌ يُحرم السَّاعي الغريرُ ارتفاعه
شيخنا قال : موِّهنْ كلَّ صُفر بنضارٍ وزيِّفَنْ كلَّ ساعه
ذاك سرُّ الحياه لا تفشينه تربحنْ في يديك كلَّ بضاعه

* * *

---

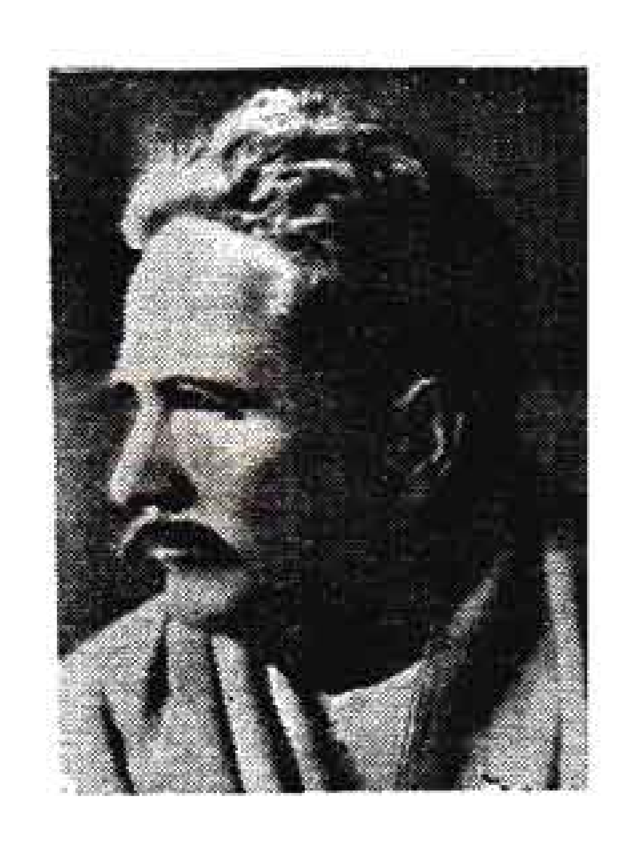
(١) أسد الله غالب شاعر بالفارسية والأردية ، يُعتبر شعره حجة باللغة الأردوية ، توفي سنة ١٨٦٨م وهذا البيت لغالب نفسه .



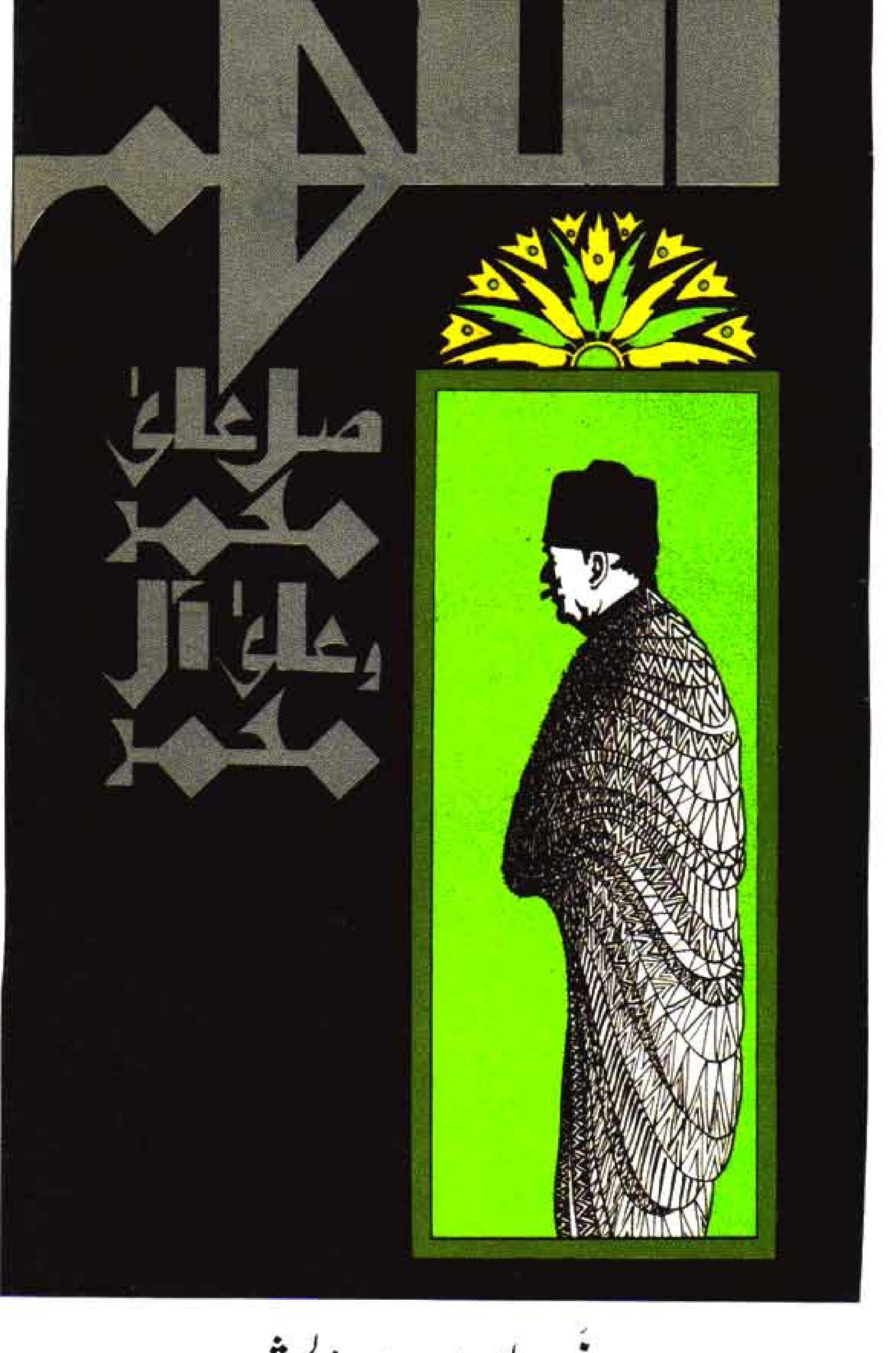



القسم الخامس

رقَائِق





طرحِ نَو انداز اندر جانِ خویش
تازہ کُن با مُصطفٰے پیمانِ خویش

رقائِق

ذرّاتُنــــا ثــــورةٌ تهــــدُر ... بــأنفــاسنـا محشــرٌ مضمــرُ
لقــد أفصَـحَ الخضـر فـي الظُّلماتِ ... علــى حيــنَ صــاحَبَــهُ إسكنــدرُ
عسيرٌ علـى النَّاس فَهْـمُ المماتِ ... وفهــمُ الحيــاةِ لهــمْ أعْسَــرُ

* * *

حبــةُ الــدُّرِّ تعــرفُ البحــرَ لكــنْ ... أيُّ علــمٍ لهــا بــدورِ الــرَّحــى ؟

* * *

يصــرُّ اليــراع لإعــواز لــبّ[1] ... فليــس لمــرودِ كحــلٍ صــريــر

* * *

طفـتُ بـالبيـتِ حـامـلاً أصنـامـي ... وأمامَ الأصنامِ « هو » قد جأرتُ[2]
وفــؤادي يسيــرُ خلْــفَ طِــلابِ ... فــي طـريــقٍ كشعــرةٍ قــد مَــرَرْتُ
يقولُ ورد روضٍ : عيشُ الرَّبيعِ أحلى ... وصبحُ مرجٍ عندي منَ الجميعِ أحلى
من قبـل جـور كـفّ لـزينـة تقطفنـي ... موتٌ بحضنِ نضرٍ من الفروع أحلى[3]

* * *

يــا صــاحبــي ذاك قــولٌ ... علــى الحيــاة دليــلُ

---

(١) يعني لأنه فارغ الجوف .

(٢) صاح بلفظ « هو » يريد الله تعالى .

(٣) وهذا مثال آخر من زيادة التفعيلات على المعهود في العربية وفي القافية المردوفة .

النَّوم موتٌ خفيفٌ والموتُ نومٌ ثقيلُ

* * *

إنْ تكنْ للعفوِ لست بأهلٍ فإلى الأعداء فاقصدْ بحقدك
لا تُقِمْ في الصدر مصنعَ حقدٍ لا تصبَّ الخلَّ في كاس شهدك
دعِ التسآل عن طبعٍ دقيقٍ يشقُّ الشَّعر في الليل البهيمِ
لشاعرنا زجاجاتٌ رقائقُ تحطمهنَّ أنفاسُ النَّسيمِ
أيبغي وصفَ حربٍ في حياة « حَبابٌ ضاع في لجٍّ عظيم ؟ »

* * *

امضِ في الدُّنيا كنهرٍ في جبال واعرف الأغوارَ فيها والنُّجودا
أو مثالَ السَّيْلِ فاجْرُفْ كلَّ شيء لا تباليه هبوطاً أو صعودا

* * *

قطوفَ الورد ! لا تجزعْ لِشَوْكٍ كذاك الشَّوْكُ من نَفَس الربيع

* * *

لا تبتغِ الخضابَ والتَّلوينا لبسُ الشبابِ سرقةُ السِّنينا

* * *

رأيتُ العِشْقَ يأبىٰ كلَّ وغدٍ كميتِ الطَّير تأباهُ الصُّقور

* * *

يبورُ الشِّعر في الأسواق نقداً فلا خُبزٌ بفضةِ ياسمين

* * *

انتهى

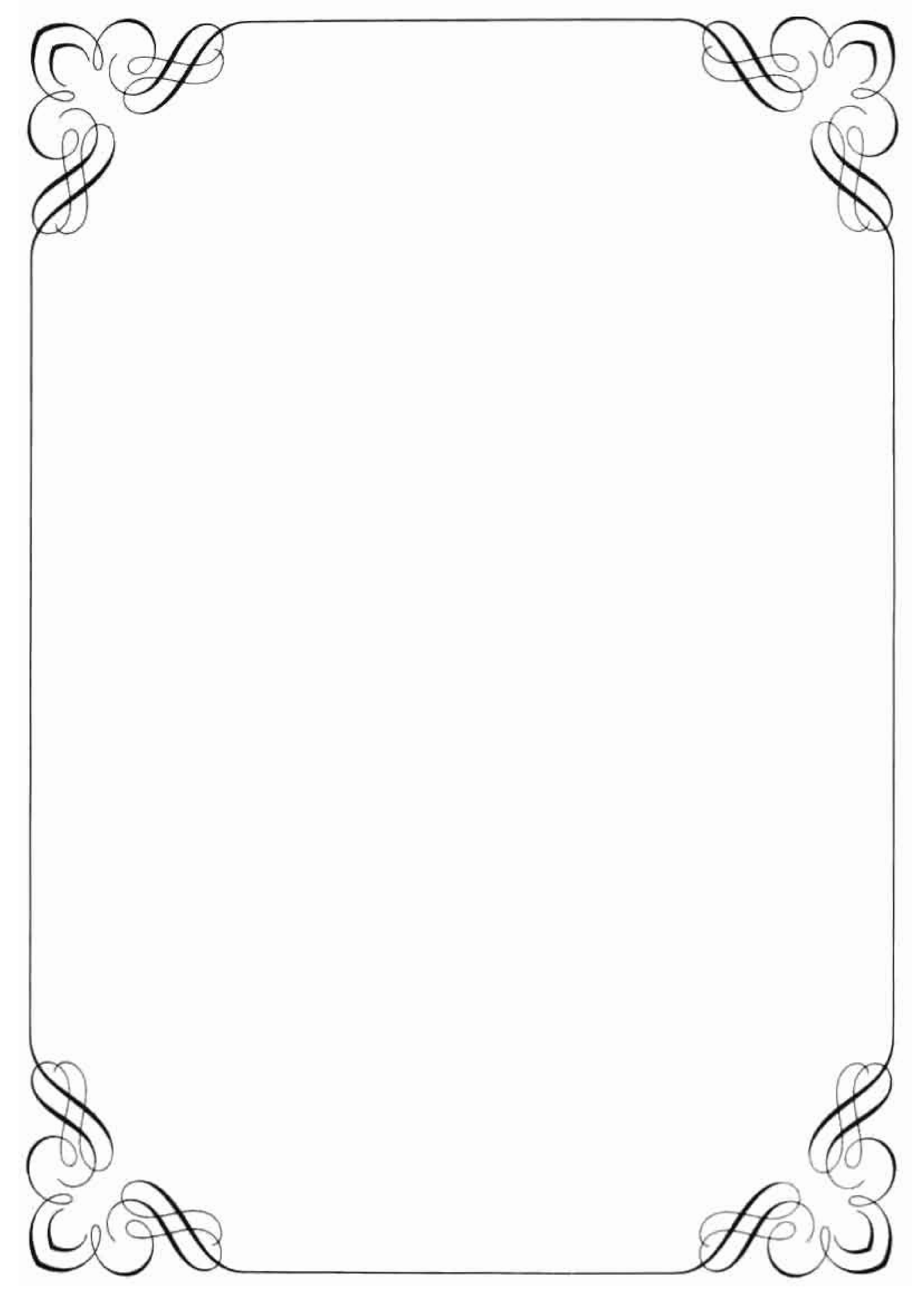


اللّمَعات









بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بدأتُ هذه المنظومة حينما قرأتُ منظومتَيْ إقبال : « أسرار خودي » ، و« رموز بي خودي » ونشرت الأبيات الأولى منها ، ثم شُغلتُ عن إتمامها ، فلبثتُ أعاودُ النَّظم فيها حيناً بعد حين .

فلما أشرفت ترجمة « پيام مشرق » على النِّهاية عزمتُ على إتمام المنظومة ، فتمَّتْ بحمد الله .

وهي مهداة إلى الشَّاعر العظيم إقبال اعترافاً بفضله .

(عبد الوهاب عزام)



أيُّهـــا اللَّيـــلُ ! إليـــكَ المفـــزَعُ كـمْ حَنَـتْ منـكَ علينـا أضلـعُ ؟
كَمْ خفينـا فـي غيابـات الـدُّجى ومـلأنـا اللَّيـلَ همَّـاً وشجـا ؟
كـم أَلِفْـتُ الليـلَ أمّـاً حـانيـة وكـرهـتُ النَّجـم عينـاً رانيـة ؟
كـم أَلِفْـتُ الليـل وحشـاً راقبـا مـن شُعـاعِ الصُّبـحِ سهمـاً صائبـا
كـم بثثـتُ اللَّيـل سـرّاً كتمـا فـوعـاهُ الليـل عنّـي ألمـا ؟
كـانـتِ الظَّلمـاءُ لَـوْحـاً لـلألَـمْ خطَّـتِ الآهـاتُ فيـه كـالقلـم !
كـانَ لـي الليـلُ مـداداً فَنَفِـد وطغـى قلبـي بمـدٌ بَعْـدَ مـدّ
جاشتِ الظُّلماء موجاً بعد موج وغزاني الوَجْدُ فوجاً بعد فَوْج !
فَنِيَـتْ هـذي ، وهـذا زاخـرُ وانْجَلَـتْ هـذي ، وهـذا غـامـرُ
خلتنـي فـي الليـل جمـراً سعـرا ونجـومُ اللَّيـل منـه شـررا
إرَّة قَـدْ وقـدتْ فـي أضلعـي[1] وسحـابٌ هـاطـلٌ مـن أدمعـي ؟

* * *

كنـتُ سطـراً لـم يُفسِّـرْهُ أحـدْ خطَّـهُ فـي غيبـهِ اللهُ الصَّمـد
فـي ضميـري كـلُّ معنـىً منبهـم حـرت فـي الإعـراب عنـه بـالكَلِـمْ
قـد ثـوى العـالـمُ فـي قلبـي ومـا خُطَّ شيءٌ فيه إلَّا الحرفُ « ما »[2]
جـلَّ قلبـي أن أراه جـام جـم[3] صُـوَرُ الأقطـارِ فيـه تنتظـم
إنَّمـا الأقطـار فـي قلبـي العميـد أحـرفٌ أوحـت إلـى معنـىً بعيـد

---

(١) الإرة : جبل النار .
(٢) يعني : لم يكن العالم في قلبه إلا نفياً .
(٣) جام جم أو كأس جمشيد ، في خرافات الفرس : كأس كانت تُرى فيها الأقاليم السّبعة .

ربَّ معنـــىً فـــي ضميـــرٍ يكتـــم ... ليـس فـي النـاس عليـه مَحْـرَم(١)
وقلـــوبٍ رمْسُهـــا هـــذي الصُّـــدور ... أتـراني مسمعاً مـن فـي القبـور(٢)
أنـــا فـــي النَّـــاس فصيـــحٌ أعجـــم ... نـــاطـــقٌ فيهـــم كـــأنِّـــي أبكـــم !
صمَّـــتِ الآذانُ عـــن هـــذا البيـــان ... ضاعَ في ضوضائهم هذا الأذان !
كيـــف يُجـــدي القـــومَ هـــذا النَّغـــم ... وعلـــى الآذان رانَ الصَّمـــم ؟
كيف يُجدي القَدْحُ في هذا الحجر ؟ ... قلبُـــه رخـــوٌ خَلـــيٌّ مِـــنْ شـــرر
إنَّ خَفْـــقَ القلـــب قـــدحٌ مُجْهـــدُ ... بعضُـــه يـــوري ، وبعـــضٌ يَصْلُـــد
كيف يُجدي النفخُ في هذا الرَّمادْ ... طفـىء الجمرُ ولـم تـورِ الـزِّنـاد !

* * *

يَخْـــرِقُ اللَّيـــلَ شعـــاعٌ يَخْفـــقُ ... ثـــمّ يلتـــفُّ عليـــه الغَسَـــقُ
كمنـــارِ البحـــرِ يخفـــىٰ ويَلُـــوح ... فيـه بيـن الغيـبِ والـوَمْـضِ وُضوح
أو يـــراعِ اللَّيـــل يخفـــىٰ ويُنيـــر ... فهـو سطـرٌ مـنْ غيـابٍ وحضـور(٣)
تـــارةً يبـــدو طـــريقـــاً لَحبـــا ... قـــامـــت الأنجـــمُ فيـــه نُصبـــا
أو بيـــانـــاً مـــن بيـــاضٍ وســـوادْ ... كبيـاضِ الطِّـرْسِ يعلـوه المِـداد
كـــلُّ لـــونٍ فيـــه حـــرفٌ مُفْصِـــحُ ... أُلِّفـــت منـــه سُطـــورٌ وضَّـــح
ورآه تـــــارةً خطـــــاً أجـــــمَ ... وكـــأنَّ الضَّـــوءَ تفصيـــلُ الظُّلَـــم
فهـــو سَطْـــرٌ مـــن ظـــلامٍ أرقـــطُ ... أعجمـــت معنـــاه تلـــك النُّقـــطُ
كـــلُّ لـــونٍ فيـــه حـــرفٌ أعجـــمُ ... وحـوى الأحـرفَ سَطْـرٌ مظلـم(٤)

---

(١) المَحْرم هنا : الأمين على السر ، كما يؤتمن المحرم من الأقارب على الحرمات .
(٢) إشارة إلى الآية : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .
(٣) هذا من قول إقبال : أي كرمگ شبتاب سرايا تو نوراست برواز توبگ سلسله غيب وحضور ست (يا يراعة الليل كلك نور ، وطيرانك سلسلة من الغيبة والحضور) .
(٤) حاصل المعنى في هذه الأبيات : أن النفس تارةً تدرك إدراكاً واضحاً ، وتارةً تُغمُّ عليها الحقائق .

يـا لُبيـنـى أوقـدي ، طـالَ المـدى أوقـدي عـلَّ علـى النَّـار هـدى[1]

أوقـدي يـا لبُـن قـد حـارَ الـدَّليـل أوقـدي النَّـارَ لأبنـاء السبيـل

ارفعـي النَّـار وأذكـي جمـرهـا علَّ هـذا الـركـبَ يعشـو شطـرهـا

شـرِّدي هـذا الظـلامَ الجـاثمـا أرشـدي هـذا الفـراشَ الهـائمـا

حبَّـذا النـارُ بليـلٍ تـوقـدُ حبَّـذا المـؤنـسُ هـذا المـوقـدُ ؟

حبَّـذا عنـدك هـذا النـزلُ لـو حـوانـا فـي سفـارٍ منـزل

مـا لـذا المنـزلِ قـد سـار الفـريـق إنَّمـا النِّيـران أعـلامُ الطَّـريـق

قـد تـرحَّلنـا مـن الفـجِّ العميـق لا نبـالـي بقـريـبٍ أوْ سحيـق

رنَّ فـي آفـاقنـا هـذا النِّـداء فـأممنـا البيـت يحدونـا الرَّجـاء[2]

قـد غنينـا عـن مبيـتٍ ومقيـلْ وعـن الأمـواه والظـلِّ الظَّليـل

وعـن الـرَّغبـة والخـوفِ سُـوى خُلـع النعـلان فـي وادي طـوى[3]

نحـن لا نـرضـى بنـار الغَسَـق نحـن لا نـرضـى بنـور الشَّفَـق

نحـن لا نـرضـى بنجـم الصُّبـح لاح لا ولا نـرضـى تبـاشيـرَ الصَّبـاح

نحـن لا نـرضـى نجـومـاً لامعـه إنمـا نبغـى شمـوسـاً طـالعـه

قـد رحلنـا بـالجـوى والحُـرقِ وغنينـا عـن رسيـم الأينـق

أيـن منـا طـائـراتٌ سبَّـق جَمَـعَ الغَـرْبُ لهـا والمشـرقُ

نحـن ركـبٌ فـي جـواه مُـوضـع لـم يَسَعْـهُ فـي جـواه مـوضـعُ

كـلُّ حُـرٍّ ضـاق عنـه المـوطـنُ وانطـوى دون منـاه الـزَّمـنُ

---

(1) إشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] .

(2) إشارة إلى الآية : ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] .

(3) النعلان هنا كناية عن الرغبة والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه : ١٢] .

كـلُّ طيَّـارٍ علـى متـن الفكـر   وعلـى متـنِ هيـامٍ لا يقـر
طـائـرٌ منـه يغـارُ الملَـك   طـائـرٌ مـن تحتـه ذا الفلـكُ
بـارقٌ فـي اللَّـوْحِ لا ينطفـئُ   كـلُّ غـايـاتٍ لـديـه مبـدأُ
زوِّدينـا بهيـامٍ ووجيـب   زوِّدي يـا لُبـنَ مِـنْ هـذا اللهيـب

***

جـالَ فـي الظلمـاءِ نـورٌ مـن نغَـم   مُـزِّقـتْ منـه ديـاجيـرُ الظُّلـم
أشعـاعٌ فيـه صـوتُ صـائـحِ   أمْ كـلامٌ منـه نـورٌ لائـح ؟
أذنَ الـرَّكـب لهـذا المنشـدِ   أطـربَ الناشـدَ صـوتُ المنشـد[1]
سـال فـي القلـب مسيـلَ المطـر   ينبـتُ الـرُّوح بسهـبٍ مقفـرِ
أو خـريـرِ المـاء مـن نبـعٍ زُلال   بشَّـر الغـارقَ فـي بحـر الـرِّمـال
رَنَّ فـي نفسـي رنيـنُ الجـرس   صـاح فـي أذنـي فقيـدٌ مبلـس
طـوتِ البيـداءُ عنـه السَّـابلـهْ   وهـداهُ الصَّـوْتُ شَطْـرَ القـافلـه
سبـقَ القلـبُ إليـه الأذنـا   كبـلالٍ لصـلاةٍ أذَّنـا
دارَ قلبـي شطـرَ هـذا المطـربِ   دورةَ الإبـرة شطـر القُطْـبِ
« غنـنـي يـا منيتـي ! لحـنَ النُّشـور   ابـركـي يـا نـاقتـي ! تـمَّ السُّـرور
عُـدْتَ يـا عيـدي إلينـا مـرحبـا   نِغْمَ ما روَّحتَ يا ريحَ الصَّبا[2] »

***

حبـذا الصَّـوْتُ فَمَـنْ هـذا البشيـر ؟   ومـنِ الهـاتـفُ بـالقَلْـبِ الكسيـر ؟
وَمَـنِ المُسْعـدُ فـي هـذي الهمـوم ؟   ومَـنِ البـارقُ فـي هـذي الغيـوم ؟
ومـنِ الهـابـط فـي نـورِ السَّمـا   هـاديـاً فـي الأرض جيـلاً مظلمـا ؟

---

(١) المنشد في الشطر الأول ، منشد الشعر ، وفي الثاني : الذي يدلُّ على الضَّالة ، والناشد : منْ ينشدها .

(٢) جاء هذان البيتان بألفاظهما العربية في مثنوي جلال الدين الرُّومي .

ومـنِ الهـادي إلـى أرض الحبيـب ... يعـرف النهـج وقـد حـارَ اللَّبيـب ؟
ومـنِ السَّـائـقُ شَطْـرَ الحَـرَمِ ... وإلـى الأصنـام سَيْـرَ الأمـمِ ؟
وَمَـنِ القـارىءُ فـي بيـت الصَّنـم ... سـورةَ الإخـلاصِ فـي هـذا النَّغم ؟
ومَـنِ الحـرُّ الـذي قـد حطمـا ... مـن قيـود الأسـرِ هـذا الأدهمـا ؟
وَمَـنِ الآبـي علـى كـلِّ القيـود ... وَمَـنِ القـاطِـعُ أغـلالَ العبيـد ؟
ومَـنِ البـاعـثُ فـي ميـت الأمـم ... ثـورةَ العـزَّةِ مـن هـذي الهِمـم ؟
لاحَ كـالغُـرَّة فـي هـذا السَّـواد ... بـصٌّ كـالجمـرة فـي هـذا الـرَّمـاد
جـرف النَّـاس أتـيٌّ مـزبـد ... ضـلَّ فيـهِ المقتـدي والمـرْشِـدُ
وطغـى اللُّـجُّ عليـه والتطـم ... فـرسـاً كـالصَّخـر فـي هـذا الخِضَم
عـارضَ المـوجَ علـى أغمـاره ... وطـوى اللُّـجَّ علـى تيَّـاره
سبـح اللُّـجُّ وبـالشـطِّ استقـر ... داعيـاً والنـاسُ غرقـى فـي النَّهـر
يجـرفُ التيَّـار جسمـاً جـامـدا ... تَقْـذِفُ اللُّجَّـةُ قلبـاً خـامـدا
إنَّ عـزم الحـرِّ بحـرٌ مُـزْبِـدُ ... جـائـشٌ فـي الـدَّهـر لا يَتَّئِـدُ
هـذه الأقـدارُ فـي تسيـارهـا ... هِمـمُ الأحـرارِ فـي أسفـارهـا[1]
ومـنِ الشَّـاعـر يُـذكـي القـافيـه ... فهـي نـورٌ وهـي نـارٌ حـاميـه ؟
تَقْشعـرُّ الأرضُ مـن أوزانـه ... ويهيـمُ النَّجْـمُ مـن ألحـانـه
وكـأنَّ الـدَّهـرَ صـوتٌ كُتِبـا ... قـد حكـاه الشِّعـر لحنـاً مطـربـا[2]
هـو بـالأشعـار بحـرٌ فـائـض ... وهـو لـلأزمـان قلـبٌ نـابـض
حـدَّثتـه الأرض عـن أخبـارهـا ... وحَبَتْـهُ الـزُّهـر مـن أسـرارهـا
هـو بـالأمـسِ خبيـرٌ بِغَـدِ ... وهـو اليـومَ نجـيُّ الأبـد
كَشَـفَ اللهُ عـن الغيـبِ لـه ... فلسـانُ الغيـب يُمْلـي قـولـه
عَـرَفَ الشَّـرقَ وراد المغـربـا ... فـانجلـى السِّـرُّ لـه مـا كُـذبـا

---

(١) هذه : مبتدأ ، وهمم : خبر .
(٢) يعني : أنَّ الدَّهر أمام الشَّاعر كعلامات الموسيقا ، والشعر قراءة هذه العلامات .

جـاهــدٌ فـي الخيـرِ لا يتَّئـد   عــزمُــه فــي صَــدْرِه يتَّقـدُ
وفقيـــرٌ وغنـــاه لا يُحَـــدّ   فقــره استغنــاؤه عــنْ كــلِّ يـد
هـــو بـــاللهِ وفـــي اللهِ غنـــيّ   ضاقَ عـن هـذا الغنى كـلُّ ثـري

* * *

صغار الهمم

إنَّ فـي النـاس قلـوبـاً جـامـده   جـذوةُ الإقـدامِ فيهـا خـامـده
همُّهـا مـا يبتغيـه الجسـدُ   كـلُّ مـا تهـوى طعـامٌ ودَدُ
حـدَّدَتْ آرابُهـا آفـاقَهـا   فحكـتْ فـي ضِيقهـا أخـلاقَهـا
لا تبـالـي حيـن تبغـي أربـا   عُمِـرَ الكـونُ بـهِ أم خَـرِبـا
إنَّمـا قـانـونهـا أهـواؤهـا   سُخِّـرتْ فـي نفعهـا آراؤهـا
وتـرى أهـواءهـا تغلبُهـا   كـلَّ حيـنٍ فـي هـوىً يجـذبُهـا
وإلـى الأرض تـراهـا مُخلِـدَه   لا تُـرى نحـو المعـالـي مُصْعـده
إنَّمـا آفـاقُهـا هـذا البـدن   إنَّمـا مَبْـرَكهـا هـذا العَطَـن
إنَّمـا أحيـاؤهـا كـالـرِّمـم   خـامداتِ العَـزْم مـوتـى الهِمَـم

* * *

العالمُ مَعْبد

إنَّمـا العـالَـمُ طُـرّاً مَعْبَـدُ   كـلُّ مَـنْ أحسـنَ ، فيـه يَعْبُـد
كـلُّ مَـنْ أدلـى بقـولٍ طيِّـبِ   ينبـتُ الخيـرَ كغيـثٍ صيِّـبِ
كـلُّ مـنْ أحسن يـومـاً عمـلا   كـلُّ مـن أحيـا مـواتـاً همـلا
كـلُّ مـنْ فـي أرضـه قـد زرعـا   ليقيـتَ النَّـاس والعُجْـم معـا
كـلُّ مـنْ يغـرسُ مخضـرَّ الشَّجـر   فيـه لـلإنسـان ظـلٌّ وثمـر

كـل مـنْ يَنْبِطُ بئـراً فـي السبيـل ... تنفـعُ الظمـآن مـنْ حـرِّ الغليـل
كـلّ مـنْ يبنـي بنـاءً حسنـا ... كـلُّ مـنْ فـي صنعـه قـد أتقنـا
كـلُّ مَـنْ أحـدثَ علمـاً للبشـر ... ينفـعُ النـاسَ ولـم يقصـدْ لشرّ
كـلُّ مـنْ أحـدث فكـراً مُحكمـا ... يبتغـي للنـاس خيـراً عممـا
كـلُّ مَـنْ جـدَّ وإنْ لـم يجـد ... لـم يضـع وقتـاً بلهـوٍ ودِدِ
كـلُّ مـنْ أثَّـر فيهـا أثـرا ... خـالـداً للخَيْـرِ مـا بيـنَ الـورى
كـلُّ مـنْ فـي دهـره قـد أجمـلا ... فكـرةً أو قـولـةً أو عمـلا
كلّهُـم للهِ نِغْـمَ العـابـدُ ... كلُّهـم للخيـرِ نغْـمَ القـاصـدُ
فـاصطنـع للخيـرِ فكـراً ويـدا ... ولسـانـاً وابـغِ فـي الخيـر يـدا

***

لا رهبانية في الإسلام

ليـس منـا مـن ثـوى فـي صـومعـه ... يحبـسُ الأعمـال والفكـر معـه
ضـاق نفسـاً عـن مجـالٍ وسعـا ... فثـوى فـي ضيقـهِ قـد خَنَعـا
ليـس شيئـاً أنْ تُـرَى معتـزلا ... عـابـداً تخشـى البـرايـا وجِـلا
إنَّمـا العـابـد مـنْ خـاضَ الحيـاة ... مـوضحـاً فيـه سبيـلاً للنَّجـاة
آخـذاً بـالعَـدْلِ مـا عنـه حِـول ... ذاكـراً مـولاه فـي كـلِّ عمـل
إنَّـه بـالحـق مـوصـولٌ ومَـنْ ... يتَّصـلْ بـالحـقِّ لا يخـشَ الفتـن
ثـورةٌ مضمـرةٌ فـي حلمـه ... إنْ يفكِّـرْ ظـالـمٌ فـي ظلمـه
أرأيـت الصَّقْـرَ فـي متـنِ الـرِّيـاح ... يطلـبُ الـرزق بعـزمٍ وجنـاح
طـائـراً فـي الجـو يسمـو عـازمـا ... لا يُـرى حـول الـدَّنـايـا حـائمـا
يـأكلُ الجـوع ولا يـرضـى الجيـف ... لـو يـراه الجـوعُ يـومـاً مـا أسفّ
فـإذا الجـدُّ رمـاه فـي الشَّـرك ... لـم يطـقْ صبـراً عليـه فهلـك
ليـس يحـوي الحـرَّ يـومـاً شبـكُ ... فـأسـار الحـرِّ فيـه مهلـكُ

يـا فتـى هـذا الجهـادُ الأكبـر عـزمـاتُ الحـرّ فيـه تُخبـر
قـلَّ فـي النّـاس عليـه صـابـرُ ليـس إلا الحـرُّ فيـه ظـافـر
يـا أسيـر الـوَهْـمِ أقـدم لا تُبَـلْ وامـضِ فيمـن صـحَّ عـزمـاً واتَّكـل

* * *

معنى التَّوَكُّل

مَـنْ يَنَـمْ عـن سعيـه لا يتَّكـل إنَّمـا التكـلانُ سعـيٌ متَّصـل
مُقْـدمٌ فـي أمـره المتَّكِـلُ واثـقٌ بـالله فيمـا يـأمُـلُ
عـازمٌ مـاضٍ علـى خيـرِ سنـن لا يبـالـي بِعِقـابٍ أو مِحَـن[1]
أرأيـتَ الطَّيـر فـي نـورِ الصَّبـاح تطلـب الـرزق بعـزمٍ وجنـاح
إنَّهـا تخـرجُ فـي كـفِّ القـدر مقـدمـاتٍ لا تبـالـي بـالخطـر
طـالبـاتِ الـرزق فـي كـلِّ رجـا تمـلأ الجـوَّ وثـوقـاً ورَجـا
يـا لهـا مـنْ أمـلٍ قـد صـوَّرا طـائـراً يطلـب رزقـاً قُـدِّرا
أرأيـت العَـزْمَ فـي شكـل جنـاح خـافقـاً لا ينثنـي دونَ النَّجـاح
لا يصـد الطيـرَ خـوفُ التَّهلُكـه أو تبـالـي بطـريـقٍ مهلكـه
ضـرب المختـار هـذا مثـلا للـذي يسعـى عظيمـاً أمـلا[2]
أرأيـتَ الطَّيـر فـي أوكـارهـا راجيـاتٍ رزقهـا فـي دارهـا ؟
ثـاويـاتٍ تبتغـي أرزاقهـا ليـس تَـدْري مـنْ إليهـا سـاقهـا
مـن ونـى فـي سعيـه لـم يتَّكِـلْ إنَّـه للـوهـمِ والعَجْـزِ وكـل
إنَّمـا التُّكـلان عـزمٌ وعمـل إنَّـه الإقـدامُ فـي ضـوء الأمـل

---

(١) العقاب : جمع عقبة .
(٢) جاء في الأثر : لو توكلتم على الله حقَّ التوكل ؛ لرُزقتم كما ترزق الطير ؛ تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً .

إنَّــه الإعــداد والعــزم معــا ... إنَّــه الحــرُّ إلــى القصــد سعــى
إنَّــه التقــديـرُ فــي سعــي البشــر ... هــو عنــدَ الله مــنْ بعـضِ القــدر
هِمَـمُ الأحــرار فــي إيمــانهــا ... سُنَــنُ الخــلاّق فــي أكــوانهــا
سنـــــةُ الله التـــي لا تبـــدَّلُ ... مــا لهــا كــرُّ اللّيــالــي حــوَّلُ

* * *

غفلة بعض المسلمين عن معنى التوكل

آهِ مـــنْ لـــي بقلـــوبٍ واعيــه ... مُقْـدِمـاتٍ فــي المعـالـي سـاعيـه
آهِ مَـــنْ يفقــه هـــذا الكَلِمــا ؟ ... آهِ مــنْ يـدركُ هــذا النَّغمــا ؟
أيُّهــا المسلــمُ مــاذا قَــدْ عــدا ؟ ... كنــتَ فــي الأرض جهــاداً وَهُـدى
آهِ للنُّــور الـــذي قــد طفئــا ... آهِ للقَلْــبِ الــذي قَــدْ صَـدِئــا
آهِ للنَّـــار الـــذي تشتعـــل ... فيضـــيء الأرضَ منهـــا شُعَـــلُ
خَمَـدتْ فــالقلــب بــردٌ وهمــود ... خَمَـدَتْ فــالنَّفس عَجْـزٌ وركــود
إنَّ هـــذا القـــول زِنْـــدٌ وحجــر ... ليت شعري هل لـديه منْ شرر
إنـــي أُضْـــرِمُ هـــذا الألمــا ... علَّـه فــي القلــب يـذكـي ضَـرَمـا
إنـــي أنفــخُ فـــي هـــذا السَّــواد ... علَّ جمـراً محرقـاً تحت الرَّمـاد
علَّنـــي أُذهـــبُ هـــذا الخبثــا ... علَّنـــي أمحَـــقُ هـــذا العبثــا
إنَّنـــي أبعـــثُ فيهـــم نغمـــي ... علَّنـــي أبعـــثُ مَيْـــتَ الهمـــم
إنَّنـــي أُمطـــرُ فـــي أرضٍ مـــوات ... علَّهـــا تُنْبـــتُ ألـــوان النَّبـــات

* * *

الأمل

لا تـــرانـــا فـــي جهـــادٍ نيـــأسُ ... لَيْـــسَ مِـــنْ أمَّتنـــا مَـــنْ يئســوا

أشعل الإيمان في كلِّ دُجى — واقدحِ العزم إذا الهَوْلُ دجا
وَازْفَعَنْ في كلِّ ليلٍ شُعَلا — وابعثَنْ مِنْ كلِّ يأسٍ أملا
وصلِ القَلْبَ بخلّاق الرجاء — واخلقَنْ في كلِّ حينٍ ما تشاء
إنما الإنسانُ فكرٌ وعَمَل — يَصْدَعُ الظلماءَ في نور الأمل
أمل الإنسان في القلب ضياء — وهو في الكفِّ جهادٌ ومَضاء
إنَّه النَّار التي تَشْتَعِلُ — إنَّه النَّجمُ الذي لا يأفُلُ
إنْ دَجَا باليأس ليلٌ غَيْهَب — يَصْدَعُ الظُّلمةَ هذا الكوكبُ
هو وَحْيُ اللهِ يهدي عبده — ويُرِيه في الدَّياجي قَصْدَه
هو نورُ اللهِ في أفق النجاه — هو هدي اللهِ في هذي الحياه
إنَّه القُطب إليه يَنْزِعُ — كلُّ قلبٍ وإليه يَفْزَعُ
إبرةٌ تهدي إلى قَصْدِ السبيل — تَقْصدُ القُطْبَ وعنه لا تميل
يا دليلاً هادياً في كلِّ واد — أنت سرُّ اللهِ في كلِّ فؤاد
يَقْدحُ القلبُ إذا ما خفقا — شرراً منه منيراً مُخْرِقا
فهو نورٌ وهو نارٌ يَلْذَعُ — يوضح النَّهج وفيه يَدْفعُ
فاؤمُلْ لخيرٍ وصابرْ لا تملَّ — إنَّما الدُّنيا رجاءٌ وَعَمَل
وقضاءُ اللهِ عونُ الآملين — وهو في عَوْنِ الأباةِ العاملين
لا يردُّ الله قلباً آملا — لا يردُّ الله عبداً عاملا
ربَّ عبدٍ مخلصٍ قد أقسما — فأبرَّ اللهُ مِنْهُ القسما[1]
وجهادُ العبد أولى أن يُبر — إنَّه الفعلُ على القولِ أبرّ
إنَّ عزمَ الحرِّ فيه قَسَمُ — مُضْمَرٌ يَعْلَمُهُ مَنْ يَعْلَمُ
قد تولَّى اللهَ هذا المقسِمُ — فدعاه في يقينٍ يقسم

***

---

(١) إشارة إلى ما جاء في الأثر: «ربَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره».

الوجدان السليم

ذلـك الـوِجْـدانُ إنْ لـم يصـدأ مِـنْ غَشـاواتِ الهـوى أو يُطفـأ
أو تحجبـه ريـاحٌ عـاتيـه صَـرْصَـرُ الأهـواءِ فيهـا سـافيـه
أو يجلِّلْـهُ ظـلامُ الغفلـة أو يَحْجُبْـه حِجـابُ الشَّهـوة
أيقـظِ الـوِجْـدان يـا مَـنْ غفـلا فمضـى يحيـا حيـاةً همـلا
أيقـظِ الـوِجْـدان واسمـعْ وَحْيَـهُ أيقـظِ الـوِجْـدان واتْبَـع هـديـه
إنَّـه المـرآة ، إمّـا صُقِـلا تبصـرِ العـالـمَ فيـه مثـلا
اجْلُـه بـالفكـر والعلـم معـا واجْلُـهُ بـالـذِّكْـرِ حتَّـى يسطعـا
لا تُضِـعْ فـي السُّوق هـذا الجوهرا لا تُطِـعْ مـن بـاع فيـه واشتـرى
لا تُضِـعْ فـي لغـوهـم هـذي الحِكَمْ لا تَغُـلْ ضـوضـاؤهـم هـذا النَّغـم
نحـن فـي الـدُّنيـا حـوانـا مَهْمَـهُ مَجْهـلٌ أعـلامـه تشتبـه
تقْصِـد المنـزلَ هـذي القـافلـه فـي فيـافٍ خـافَ فيهـا السّـابلـه
فـاتْبَعَـنْ خِـرِّيتهـا لا تُبلِـسِ وأصِـخْ فيهـا لِصَـوْتِ الجَـرَسِ[1]
إنَّـه الـوِجْـدَان فـي هـذي الفلاه إنَّـه داعٍ يُنـادي للنَّجـاه
أرأيـتَ الفُلْـكَ تسـري مـاخـره فـي ليـالٍ وبحـارٍ زاخـره
تهتـدي فيهـا بِنُـورٍ بـارقِ مـن منـارٍ فـي الدَّيـاجي خـافقِ
تهتـدي النَّهـجَ علـى لمحـاتـه وتـوقَّـى الصَّخـر مِـنْ ومضـاتـه
وَهَـدتْهـا إبـرٌ لا تَغْفُـلُ قـاصـداتٌ قطبَهـا لا تعـدلُ
إنمـا الـوِجـدانُ فـي بحـر الحيـاه إبـرةُ القطـبِ وَمِصْبـاحُ النَّجـاه

* * *

---

(١) جرس القافلة ، وفيه إشارةٌ إلى قول سعدي الشيرازي ـ ما زمنز مقصود من خبريم ـ أبن قدرهست كه بانگ جرس ميآيد .

طغيانُ العقلِ على القَلْبِ

محنـــةٌ للنـــاس هـــذا الـــزمـــنُ ... كـــلُّ إنســـانٍ بـــه مُمْتَحـــنُ
كـــلَّ مـــا نبصـــرُ فيـــه فتـــنُ ... فتـــنٌ فيهـــا تحـــارُ الفِطـــنُ
أُطْلِـــقَ الإنســـانُ مِـــنْ أغـــلالـــه ... سُيِّـــبَ الشَّيطـــانُ مِـــنْ أحبـــالـــه
جُـــرِّدَ العـــالـــمُ مـــن أستـــاره ... وانبـــرى يكشـــفُ عـــن أســـراره
وأجـــال الفكـــرَ فـــي طيَّـــاتـــه ... ومضـــى يبحـــث فـــي ذرَّاتـــه
وأحـــاط الأرض مـــن أقطـــارهـــا ... ومضـــى يبحـــث فـــي أغـــوارهـــا
فـــارعـــاً فـــي ظهـــرهـــا أجبـــالهـــا ... مخـــرجـــاً مـــن بطنهـــا أثقـــالهـــا
طائراً في اللوح من فوق السَّحاب ... حيـــثُ لا يطمـــع صَقْـــرٌ أو عُقـــاب
طـــاويـــاً أقطـــارَهـــا لا يغتـــرب ... كـــل مـــا يسمـــو إليـــه يقتـــرب
يَسْمَـــعُ الهمـــسَ بـــأقصـــى المغـــربِ ... منْ بأقصى الشَّرق فاسمعْ واعجبِ
ضـــاقـــت الأرض عليـــه فـــانتحـــى ... فـــي ذُرى الأفـــلاك يبغـــي مســـرحـــا

* * *

آه لـــو أُعطـــي قلبـــاً خـــافقـــا ... مثـــل مـــا أعطـــي عقـــلاً بـــارقـــا
آهِ لـــو يعمـــر قلبـــاً راحمـــا ... مثـــل مـــا يَغمـــرُ عقـــلاً راجحـــا
آهِ لـــو أغمَـــرَ عينـــاً ســـاجمـــه ... مثـــلَ مـــا أعمـــل كفَّـــاً حـــاطمـــه
آهِ لَـــوْ هَـــذَّبَـــهُ إيمـــانُـــه ... مثـــلَ مـــا مكَّنَـــهُ عِـــرْفـــانُـــه
آهِ لـــو سَيْطَـــر فـــي أهـــوائـــه ... مثـــلَ مـــا سيطـــر فـــي أجـــوائـــه
آهِ لـــو لـــم يُعْمِـــه طغيـــانُـــه ... فيهـــدِّم فـــوقَـــه بنيـــانـــه
ليتَـــهُ لـــم تُطْغِـــه أعمـــالُـــه ... ليتـــه لـــم تُعْمـــه أمـــوالُـــه
ليتـــه لـــم تغشـــه أضـــواؤه ... وتـــوقِـــز سمعَـــهُ ضـــوضـــاؤه
آهِ لـــو أنَّ شعـــاع الكهـــربـــاء ... فـــي ظلام الصَّـــدر منـــه قـــد أضـــاء

ويلـه مـن مـاردٍ قـد دمَّـرا ما بناه مخربـاً مـا عمـرا

ليتـه حـاط الـذي قـد شيـدا بـونـام وسـلام وهـدى

ليتـه حـاطَ البلاد الـزاهـرة ليتـه صـان الجِنـان النَّـاضـرة

***

إنَّ هـذا العصـرَ روضٌ مُـزهـرُ كـلُّ غُصْـنٍ فيـه نـامٍ مثمـرُ

نَضـرتْ فيـه فنـون الـزَّهـر أينَعَـتْ فيـه ضُـروبُ الثَّمـر

آهِ لكـنْ فـي مهبِّ العـاصفـة كـلَّ حيـنٍ تعتـريـه جـائفـة

صَـرصـرٌ تـأتـي عليـه لا تَـذَرْ تَخطـم الأغصـانَ فيـه والشَّجـر

يَخْـرُبُ البستـان مـنْ قـد غـرسـا يَهْـدِم البُنيـانَ مـنْ قـد أسَّسـا

كـلُّ طـاغٍ يـدَّعـي البستـانَ لـه يبتغـي الأشجـار والبنيـانَ لـه

لـو تـآخـوا ورَضُـوا بـالمعـدلـه وجنـوا فـي غيـر بغـيٍ أكْلَـه

لـو تـآخَـوْا واهتـدَوْا واستثمـروا ثـمَّ أسمـىْ عـدلُهـم مـا دمَّـروا

لأوَوْا مِنْـه إلـى ظـلٍّ ظليـل ورأوا فـي زهـره كـلَّ جميـل

وجنـوا أثمـاره وانتفعـوا ونمـا بستـانهـم فـاستمتعـوا

فتعـالـوا ننظـرِ الـدَّاء العصـيّ ونـرى الأسباب فـي الداء الـدَّويّ

إنَّ هـذا الشِّعـر لا يحصـي العِلَـل إنَّـه يعيـا بـذا الأمـرِ الجَلَـل

إنَّـه لمحـةُ عيـنٍ عـابـره ليتـه كـفُّ طبيـبٍ مـاهـره

إنَّـه نفثـةُ نفـسٍ شـاعـره ليتهـا كـفُّ حكيـمٍ قـادره

***

البيت

معبـدٌ لله مـا أطهـره فيـه سـرُّ الله مـا أظهـره

روضـةٌ يَنْبُتُ فيهـا الخَلِـقُ وتـرى الحـقُّ عليهـا يُشْـرِقُ

تنشأ الخيراتُ فيه وتربّ ... من رأى الخير له أمٌّ وأبّ !
أنفسٌ فيه كنفسٍ واحده ... ألفتها في حماها الوالده
بل شكولٌ مُثلّث للوالد ... كالمرايا حولَ وجهٍ واحد
كلُّها حبٌّ وإيثارٌ فلا ... حسدٌ فيها ولا حقدٌ ولا
فأخٌ يفدي أخاه جاهدا ... وكلا الصنوين يفدي الوالدا
وترى الأمَّ عليهم حانيه ... تَسْهَرُ اللَّيل إليهم رانيه
وأبوهم في غدوٍّ ورواح ... يبسط الحبَّ عليهم والجناح
روضةٌ للحبّ فيها مُثُلا ... كلُّ غصنٍ بأخيه اتصلا
كلُّ خيرٍ هاهنا منبعه ... كلُّ برٍّ هاهنا مطلعه
مَسْجدٌ يَسْعَدُ فيه الوالدان ... وهما الخلَّاقَ فيه يَعْبُدان
يَعْبُدُ الرَّحمنَ من قد عبدا ... والديه وإلى البرِّ اهتدى
فإلى توحيده مِنْ غيرِ بَيْن ... قَرَنَ الرَّحمن برَّ الوالدين
إن تشاؤوا مثلاً لا يُدفَعُ ... بيِّناً كالشمس نوراً يطلع[1]
فاقرؤوا يا قومنا كي تشهدوا ... ﴿ وقضى ربُّك ألا تعبدوا ﴾
﴿ واعبدوا الله ﴾ فهيا فاقرؤوا ... ﴿ قل تعالوا أتلُ ﴾ فيها النبأ[2]
أحكموا الأسرةَ مِنْ قرآنها ... وارفعوا بالدِّين مِنْ بنيانها
واعمروا البيت ببرٍّ ووفاء ... وسلامٍ ووئامٍ وإخاء
إنَّ هذا البيت في نظم الأمم ... مثل بيت الشعر في نظم النَّغم
كلُّ بيتٍ أُلِّفتْ آحادُه ... آزرت أسبابُه أوتادَه

---

(١) الآية : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

(٢) الآيتان : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء : ٣٦] ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

وِنظَـام البيـتِ مِـنْ نظـم الكَلِـم　　　كـلُّ لفـظٍ بـأخيـه يَنْتَظِـم
كـلُّ لفـظٍ مـن حـروفٍ أُلِّفـا　　　كـلُّ حـرفٍ بـأخيـه ائتلفـا
ونظـامـاً واحـداً يُبنـى القصيـد　　　ليس فيـه مـن قصـورٍ أو مـزيـد
فـي قـوافٍ أُلِّفَـتْ أبيـاتهـا　　　ورويٌّ نـاظـمٍ أشتـاتهـا
ومعـانٍ بعـد هـذا غـاليـه　　　تـرتقـي الأنفُـس فيهـا عـاليـه
هـل رأيتـم قـطُّ مِـنْ شعـرٍ رفيع　　　كـلُّ بيـتٍ فيـه ذو معنـىً وضيع
كيـف تُبنـى للمعـالـي أُمَـمُ　　　مـن بيـوتٍ جمعهـا لا يُنظَـمُ
مـن بيـوتٍ فـي خـلافٍ وشقـاق　　　يـؤذنُ البيـتُ أخـاهُ بـالفـراق
كـل بيـتٍ فيـه لفـظٌ ثـائـر　　　كـلُّ لفـظٍ فيـه حـرفٌ نـافـر
لا تقـلْ فيهـا زحـافٌ وعلـل　　　بـل شـذوذٌ وسنـادٌ وخَلَـل

* * *

ليت شعـري مـا أصـاب المسجـدا　　　مـا أصـاب الخيـرَ فيـه والهـدى
لا أرى جمعـاً لـديـه نُظِمـا　　　لا ولا صفّـاً لـديـه قـوِّمـا
مـا أحـسُّ اليـومَ تـرتيـلَ القُـرَان　　　لا ولا أسمـعُ تـرجيـعَ الأذان
خَـرِسَ المنبـرُ عـنْ أصـواتـه　　　عطـلَ المحـرابُ مـن آيـاتـه
ذهـبَ العبّـادُ عنـه قـددا　　　ومضـوا فـي كـلِّ أفـقٍ بَـدَدا
غَلَـبَ الملهـى عليـه والطَّـريـق　　　ومضـى فـي غَيِّـه كـلُّ فـريـق

* * *

روضـةُ البيـتِ أراهـا ذاويـه　　　كـانـت الأمـسَ زهـوراً زاهيـه
صـوَّحَـتْ أعشـابُهـا والشَّجـر　　　وذَوَتْ أوراقُهـا والـزَّهـر
صَـدَفَـتْ عنهـا عيـونٌ واقيـه　　　وحمتهـا المـاءَ أيـدٍ سـاقيـه
غـاب بستـانيُّهـا دون إيـاب　　　فطغـى الشَّـوكُ عليهـا والتُّـراب
إنَّهـا يـا قـومنـا إحـدى الكبـرُ　　　أنعِمـوا التفكيـر فيهـا والنَّظـر

هـي أصـل الـدَّاء أو أصـل الـدَّواء نعمــةُ الأقــوام فيهــا والشَّقــاء

* * *

اعمـروا بـالخيـرِ هـذا المسجـدا وابتغـوا الخيـراتِ فيـه أبـدا[1]
اعمـروا البيـتَ وردّوا والـديـه واجعلـوه حـرمـاً يـؤوى إليـه
نضِّـروا الـرَّوضـةَ مـن إروائهـا وابتغـوا النِّعمـة فـي أفيـائهـا
أرجعـوا الطيـرَ إلـى أوكـانهـا ليشـبَّ الـولْـدُ فـي أحضـانهـا
ألِّفـوا الأحـرف فـي كِلمـاتهـا وانظمـوا الأمَّـة مـن أبيـاتهـا

* * *

تنافر الجماعة

إنَّنـا نُبصـر فـي كـلِّ مكـان حسـرةَ الأنفـس فـي هـذا الـزَّمـان
مـن وجـوهٍ مـات فيهـا الخَفـرُ وعيـونٍ حـارَ فيهـا النَّظـر
يلعـن الـوجـه أخـاه نـافـرا يغُـض الطَّـرفَ أخـاه نـاظـرا
قطَّعـوا مِـنْ بينهـم كـلَّ سبـب هجـر النَّـاسُ حيـاءً وأدب
ثـورةً تبصـرهـا كـلَّ طـريـق يتجلَّـى الهجـر فيهـا والعقـوق
ليسـت الأمُّ بهـا أمـا تـرى لا ولا الـوالـدُ فيهـا عـزِّرا
لا ولا الأخـتُ لهـا حـرمتُهـا مـن أخيهـا وُقِـدَتْ حسـرتُهـا
لا صغيـرٌ قـد رعـى حـقَّ الكبيـر أو كبيـرٌ راحـمٌ ضعـف الصَّغيـر
فـرى فـي قبحهـا أفعـالَهـا تسمـعُ الألفـاظ أصـداءً لهـا
تلـكَ فيـضٌ مـن قلـوبٍ فـي نفـور تقـدحُ النيـران منهـا فـي الصُّـدور
إنَّمـا النـاس صـلاحٌ وفسـاد بـالتئـامٍ أو شِقـاقٍ وعنـاد
إننـا نبصـرُ آحـاداً ولا نبصـرُ الحُـبَّ بهـا متصـلا

---

(1) المسجد : هو الأسرة .

إنها الأعداد في غير حساب ... لم يؤلفها على النَّهجِ احتساب
ومن الأعداد بُغْضٌ واختلاف ... ومن الأعداد حبٌّ وائتلاف
ومن الأعداد حِقْدٌ وشِقاق ... ومن الأعدادِ رُحمٌ ووفاق
فإذا سارتْ على غير سَنَن ... فهي بغضٌ وشقاقٌ وفتن
وإذا أَلَفتها في قاعدة ... فاستقامتْ في طريقٍ واحده
فهي نظمٌ وائتلافٌ واطِّراد ... وحسابٌ بالغٌ كلَّ مراد
فانظروا ما النَّظم في أعدادنا ... وانظروا ما الجمع في آحادنا
انظموا هذي القلوبَ النافره ... واجمعوا هذي الوجوهَ الثائره
املؤوا الأنفسَ خيراً وهدى ... واجمعوا بالحُبِّ هذا البددا
اغسلوا بالحُبِّ هذا الدَّرنا ... أطفئوا بالودِّ هذا الضَّغنا

* * *

ما ينالُ الحُبُّ يوماً بالهوى ... إنَّما الأهواء أسبابُ النَّوى
يجمعُ الحقُّ نفوساً شارده ... إنَّ للحقِّ طريقاً واحده
ليس إلا الحقُّ في جمع القلوب ... ما سوى الحقِّ إليه نستجيب
أرضعوها الحقَّ في ألبانها ... أشعروها الحقَّ في أحضانها
واجعلوهُ قبلةً في كلِّ حين ... لا تزيغوا عنْ شمالٍ أو يمين
ومن الحقِّ إلى الخيرِ طريق ... ليس إلا الحقُّ للخير رفيق
ومن الخير إلى الحبِّ المسير ... ومن الحبِّ إلى الجمع المصير

* * *

لا يُرى للحقِّ إلا مَشْرِق ... كلُّ حقٍّ من سناه يُشْرقُ
ليس للخيرات إلا منبعُ ... كلُّ خيرٍ من جداه ينبعُ
إنَّما للحبِّ نهرٌ واحد ... كلُّ ينبوعٍ إليه عائد
مَنبعُ الحقِّ هو الحقُّ المبين ... باريٌ بالحقِّ كلَّ العالمين
منبعُ الخيرِ هو البرُّ الرَّحيم ... برُّه في خلقه فيضٌ عميم

منبعُ الحبِّ هو الله العلي ... هو مولى للبرايا وَوَلي
فأضيئوا النفس من إيمانها ... وانظروا الآياتِ من إحسانها
املؤوا الأنفس من نور اليقين ... وانظروا إبداعها في كلِّ حين
إنَّما الإنسان من لحمٍ ودم ... فيه قلبٌ كسراجٍ في ظلم
ذلك اللحم إلى ماءٍ وطين ... ذلك النُّور لربِّ العالمين
فإذا أطفىء فيه ذا الضِّياء ... فهو وحشٌ همُّه سفكُ الدِّماء
إنَّ هذا الجسمَ ذو وزنٍ وحد ... وبهذا القلب كونٌ لا يُحَدّ
هالكٌ مَنْ عاشَ في ضيقِ الجسدْ ... مَنْ يعشْ في وسعة القلب خَلَدْ
أنت في جسمك مِنْ طينٍ وماء ... أو قوامٍ فيه لحمٌ ودماء
أنت في الروح حياةٌ وطماح ... ورجاءٌ وجهادٌ وكفاح
أنت في قلبك سرُّ العالمين ... فيه أمرُ اللهِ للخلقِ مبين
لا يحدُّ القلبَ في الآفاق حدّ ... إنَّه يكبرُ عن وزنٍ وعد
أيُّها الغافلُ عن سرِّ الإله ... انظرنْ في القلبِ يوماً لتراه
ضاق عنْ أمرِ الإله العالمُ ... وحواه القلب ، هذا الخاتمَ
كلُّ ما أدركتَ منْ معنىً جميل ... كلُّ ما أبصرتَ مِنْ أمرٍ جليل
كلُّ ما أوعاهُ تاريخُ البشر ... من جلالٍ وجمالٍ وعبر
كلُّ ما سُجِّلَ عن أخياره ... كلُّ ما حُدِّث عن أبراره
هو نورُ الله في القلب الصغير ... أو تجلِّي اللهِ في الكونِ الكبير[1]
هو نبضُ القلبِ في الدُّنيا انتشر ... هو خفقُ القلب يرمي بالشرر
إنَّما الإيمان بالدُّنيا يدور ... فهو نار في دجاها وهو نور
فاجعلوا مِنْهُ تباشيرَ المنى ... واملؤوا الآفاقَ منه بالسَّنا
ارفعوا الأنفسَ فيه صاعده ... ارفعوها عن معانٍ خامده
عن متاعٍ وطعامٍ وشراب ... ومعانٍ كلُّها نبتُ التُّراب

---

(١) الكون الكبير : القلب .

قيمة الإنسان قلبٌ لِلعُلى ... لا رياشٌ ومتاعٌ للبلى

كلُّ ساعٍ قَدرُه بغيتُه ... وزنُه بين الورى مَنبتُهُ

أيُّها القانع دوداً في تراب ... حلِّقَنْ في جوِّها مثل العُقاب

أيُّها السادرُ في لهوٍ وَدَدْ ... مَنْ لهذا الكونِ في يومٍ وغَد

أنقذوا الإنسان من هذا الرَّدى ... أبصر الإنسان يا قومي هوى

* * *

أيُّها المسلمُ يا مَنْ خُلقا ... ليكونَ الحقُّ فيه خُلُقا

انهضنْ يا صاح بالعبءِ الثَّقيل ... أنت في الأرضِ عن الله وكيل

قد قضى الخلّاق بالأمر إليك ... قسم الأرزاق يوماً بيديك

سطِّرنْ بالحقِّ في هذي البلاد ... واحكمنْ بالعدلِ ما بينَ العباد

أنقذِ الإنسان من هذا الشَّقاء ... وأزل من أرضنا هذا العناء

املأ الأرض بحبٍّ وصفاء ... وسلامٍ ووِدادٍ وإخاء

واحكمنْ بالحقِّ في أرجائها ... وانعَمَنْ بالأمن في أفيائها

واملأ الآفاقَ حقّاً وسَنَا ... واملأنْ بالخيرِ آفاقَ الدُّنا

علِّمِ الإيمان والحقَّ العلي ... علِّمِ الإيثارَ والزهدَ الغني

زهدَ مَنْ يملك آلاف الألوف ... وهي في عينيه لغوٌ وزيوف

قولةٌ في الحقِّ أعلى عنده ... فعلةٌ في الخير أغلى عنده

كلُّ ما يمسكُ منها درهمُ ... كلُّ ما ينفق منها مغنمُ

هذهِ الأموالُ جمعاً يا بني ... لا تساوي ذلةَ الحرِّ الأبي

إنَّها اللعبةُ في عينِ الحكيم ... إنَّها الدِّرهمُ في كفِّ الكريم

جوهراً يحسبُ من لا يعرفُ ... وهي عند العارفين الصَّدَفُ

إنَّما الجوهر قلبٌ قد أضاء ... وَسِعَ الأرضَ جميعاً والسَّماء

لا يعافُ الحرُّ أكلَ الطَّيبات ... آخذاً في الأرض كلَّ الثَّمرات

ربَّما استولى على أعدادها ... ربَّما أوفى على آمادها

آخـــذاً أو معطيـــاً لا يَشْـــرَهُ رابحـــاً أو خـــاسـراً لا يـــأبــه
عبَّـــد الـــدُّنيـا ولا تستعبـــده فـــاكهـــاً فـــي نعمـــةٍ لا تفسـده
حـــائمـــاً للـــرِّزقِ صقـــراً طـــائـرا لا يُـــريـــغُ الـــرزَّاق فيهـــا صـــاغـرا
فـــإذا شِيْـــمَ هـــوانـــاً فـــزعـــا مثـــل مـــا يَفْـــزعُ مـــن قـــد لُسعـــا
واستمـــدَّ العـــزَّ مـــنْ همَّتـــه واستثـــار النـــار مِـــنْ عَـــزْمَتِـــه
فـــإذا المـــاءُ لهيـــبٌ ودُخـــان وإذا الحلـــمُ ضـــرابٌ وطِعـــان
وإذا سُـــدَّ عليـــه كـــلُّ بـــاب فـــارقَ الـــدُّنيـا إلـــى غيـــر إيـــاب
إنَّ مـــوتَ الحـــرِّ فـــي ذلتـــه وحيـــاةَ الحـــرِّ فـــي عـــزَّتـــه

* * *

قـــالَ لـــي شيـــخٌ وقـــورٌ ألمعـــي مـــن بنـــي ينبـــع شهـــمٌ عـــربـــي
كنتُ يـــومـــاً فـــي عيـــونٍ ونخيـــل في القرى من ينبع النخلِ الجميل
ومعـــي مـــنْ أهـــل نجـــدٍ نَفَـــرُ اصطيـــادُ الطَّيْـــر فيهـــمْ وطـــر
وإذا صقـــرٌ علينـــا حلَّقـــا سـابحـــاً فـــي جـــوِّه قـــد خفقـــا
أسرعَ الـرفقـةُ في نَصْـبِ الشَّـركْ وسمـانـى وضعـوهـا فـي الشَّبَـكْ
وهـوىٰ فـانقـضَّ هـذا الأجـدلُ بـل هـوىٰ هـذا القضـاءُ المنـزلُ
فطـوى سقطيـه هـذا المهلـك وثـوى فـي حَبْلـه يـرتبـكُ
وأتـى الصَّيَّـادُ للطيـرِ الأسيـر عينـه فـي اللَّـوح لكـنْ لا يطيـر
سـابـحُ الجـو بخيـطٍ علقـا ذلـك الخفَّـاق فيـه أخفقـا
ذلـكَ الصَّيـاد فـي جـوِّ السمـاء صـاده بـالختـل صيـادُ القضـاء
قـاهـرُ الجـو بعـزمٍ وجنـاح بـدَّلَ الشُّبَّـاك مـنْ مَتْـن الـرِّيـاح
ضـاقـت الأجـواء عنـه مسـرحـا كيـفَ يـرضـى فـي إسـارٍ مطرحـا ؟
ثـمَّ قـالَ الشيـخ جئنـا ننظـر لنـرى الأجـدلَ أنَّـى يـؤسـر
فـإذا دمعـةُ عيـنٍ هـاملـه وإذا المهجـةُ فيهـا سـائلـه

ذا يسمَّى « الحرُّ » من بين الصُّقور — لا يطيقُ الأسر من بين الطيور[1]
فكـنِ الصَّقـر الأبـيَّ العـاليـا — وكـنِ الحـرَّ الكـريـم الآبيـا
واحـذرنْ يـا حـرُّ هـذي التَّهلكـه — احذرنْ من خوضِ هذي المعركه
إنَّهـا معـركـةٌ لـلأبطـن — ضـلَّ فـي غـوغـائها ذو الفِطَن
فـي وغـاهـا كـلُّ حـزمٍ ضيِّعـا — غـابَ عنهـا العقـلُ والقلـبُ معـا
لا تغـرَّنْـكَ مـرايـا بـارقـه — وفنـونٌ وعلـومٌ خـارقـه
إنَّهـا رأسٌ بـلا قلـبٍ يسيـر — إنَّهـا هـزجٌ ومـزجٌ وسعيـر
قـد أضـلَّ الغـيُّ هـذي الأممـا — فثـوى إبليـس فيهـا حكمـا
فـدعـاهـا فـي ظـلامٍ تصطـدم — ورمـاهـا فـي ضـلالٍ تحتـدم

***

الشيوعية

أحدثُ الدَّعوات في هذي الأمم — تسلُكُ الإنسان في سِلْكِ الغنم
تَعِدُ الإنسان بالمرعى الخصيب — فيـه عُشْـبٌ ورُغـاءٌ ونَبيـب
تَعِـدُ الإنسـان أعشـابَ الـرَّبيـع — ثـمَّ عيشٌ مثل مـا عـاش القطيع
يـوعـدُ المـرعـى ولا شـيء لـه — وعصـا الـرَّاعـي تـربـه أُكْلَـه
ليس يرغو سربُهم : أينَ المسير — لا ، ولا يثغـو إلـى أيـنَ المصيـر
ويتـمُّ الشَّبـه فيـه بـالغنـم — قطعـهُ عـن منبـعِ الخيـر العَمِـم
كفـرُه بـالله والخيـر ومـا — فيـه إنسـانٌ عـن العُجـم سمـا
وضيـاعُ البيتِ منـه والـرَّحِـم — وحنـانِ القلـب مـن أختٍ وأم
كـافـرٌ بـاللهِ لا بـالـوثـن — كـافـرٌ بـالسِّلـمِ لا بـالفتـن
يبصـر الظُّلمـةَ عنـد الصَّنـم — عـن ضيـاء الله والحـقِّ عمـي

---

(١) الحرُّ : نوع من الصقور قلَّ أن يعيش بعد إمساكه .

كلُّ ما في البيت من ودٍّ وحبّ لا يساوي عنده مكيالَ حَبّ
كلُّ ما يدعو أناسٌ بالشعور لا يساوي عنده كفَّ شعير
ذاكمُ السَّيرُ وهذا المنتهى أنعموا التفكيرَ يا أهلَ النُّهى

* * *

إقبال

بيَّنَ الإقبالُ منْ سرِّ الحياه وأزالَ السِّتر عن نورِ النجاه
بيَّن الإقبالُ منْ سير الزَّمان وأفاضَ النُّور من هدي القُران
بثَّ في النفس كلاماً منْ شَرر منه عشقُ الحقِّ في القلبِ استعر
فتقتْ نظراتُه كلَّ حجاب فرأى الدَّوحة من تحت التُّراب
ضاقتِ الآفاقُ عن نظراته ضجَّت الأفلاك من أنَّاته
وَصَلَتْهُ نفحةٌ منْ ربِّه فتجلَّى نورُه في قلبه
قد ثوى في قلبه كلُّ الجهات واستوى في فكره ماضٍ وآت
سال في ألحانه دمعٌ ودمُ والتقى الماءُ عليها والضَّرم

* * *

يا بَرودَ القلبِ خذْ مِنْ نارِه فالحياةُ الحقُّ في أشعاره
يا مواتَ القلب خذ من رجعه[1] يا جمودَ العين خذ من دَمْعه
يا صغيرَ الهمِّ خُذ من همَّته يا كليلَ العَزم خُذ من عزمته
يا أسيرَ اليأسِ خذْ آماله في دجى اليأس اتِز أقواله
أيُّها المسلم صعد في السماء وابلغنْ في جوِّها أعلى العلاء
وخذِ الإقدامَ منه والطِّماح وجناحاً قاهراً هُوجَ الرِّياح

---

(١) الرَّجع : المطر ، كماء ، جاء في القرآن .

ذا جلالُ الدِّين منْ خَلْفِ العُصور	قد أتى في شِعْرِهِ نارٌ ونور[1]
إنَّه الإسلام في عِزَّته	إنَّه الإيمانُ في قوَّته
إنَّه القرآن في أنواره	إنَّه الفرقانُ في أسراره

* * *

بلِّغي يا ريحُ في شطِّ النَّوى	أدمعي قبراً بلاهور ثوى
وامضِ يا برق بوجدي وهيامي	أبلغنْ قبراً بلاهور سلامي
إنَّ : إقبالاً بلاهور أقام	رحمةُ اللهِ عليه والسَّلام

* * *

دعاء

فالقَ الإصباحِ ربَّ المشرقين	باسطَ الليل وربَّ المغربين !
أنت في الصُّبح ضياءٌ في جمال	أنت في الليلِ ضياءٌ في جلال
ناشرَ الشَّمس خِضَمّاً من ضياء	طاوي الذَّرةِ شمساً في خفاء
أنت نورٌ في ظهورٍ وجلاء	أنت نورٌ في حجابٍ وخفاء
يا جليساً في دُجى أستاره	يا خفياً في ضُحى أنواره
يا أنيساً في قلوبِ العارفين	وحياةٌ لقلوب الغافلين
يا ضياءَ العين في النور العمم	وضياءَ القلب في داجي الظُّلم
قربُك المؤنس في هذي القفار	هديك المنقذ في هذي البحار
ناظمَ الكونِ البليغِ المبدعا	محسناً مطلعَه والمقطعا
خلقُك الألفاظُ فيه وافيه	أمرُك الوزنُ له والقافيه[2]
كلُّ لفظٍ فيه نُظّارٌ إليك	كلُّ معنى فيه برهانٌ عليك

---

(١) مَولانا جلال الدين الرومي ، والشاعر يعترف باقتدائه به .
(٢) في القرآن الكريم : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

منكَ هذا العقلُ ، هذا الثائرُ طالبٌ إيَّاك ساعٍ حائرُ

جاوز الأفلاك يسعى نحوكا يَكْشِفُ الأستار يبغي وجهكا

منكَ هذا القلبُ ، هذا الخافقُ في الدياجي منك نورٌ بارق

ذاكرٌ إيَّاك راجٍ كلَّ حين خفقُه ذكرٌ وشوقٌ وحنين

* * *

اجعلن عقلي ضياءً ثاقبا يَصْدَعُ الباطل حقّاً صائبا

واشددَنْ فكري بصدقٍ وسداد واحبُني التوفيقَ في كلِّ مراد

واملأنْ قلبي بحبٍّ وصفاء واحْفَظَنْهُ منْ شقاقٍ ومِراء

وارْفَعَنْ في الحق صوتي عاليا وجناني فيه عضباً ماضيا

واجْعَلَنْ وجهك قصدي لا سواه هوِّنَنْ في عين قلبي ما عداه

وامنح المسلم قلباً خافقا واحبُه بالعلم عقلاً بارقا

امْنَحَنْهُ العقلَ والقلبَ السَّليم واهده ربِّ الصراطَ المستقيم

واجْعَلَنْهُ في البرايا حكما قاضياً بالعدلِ إمَّا حكما

اجْعَلَنْهُ قائداً بين البشر هادياً للخير لا يسعى لِشَر

* * *

أنقذِ الإنسان من هذي الغُمَم أنْجِيَنْ مِنْ بغيها هذي الأمم

هدم الإنسان ما قد عمرا حينما أمَّر عقلاً كفرا

فاهدِ بالإيمان عقلاً حائرا واجعلِ القلب عليه آمرا

أدرِكِ النَّاس بحبٍّ ووئام إنَّك الدَّاعي إلى دار السلام[1][2]

* * *

---

(١) في القرآن الكريم : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس : ٢٥] .

(٢) تمت الترجمة عشية يوم الجمعة السابع من رجب سنة ١٣٧٠ من الهجرة ، في مدينة كراجي . ولله الحمد أولاً وآخراً ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] . المترجم الدكتور عبد الوهاب عزام .

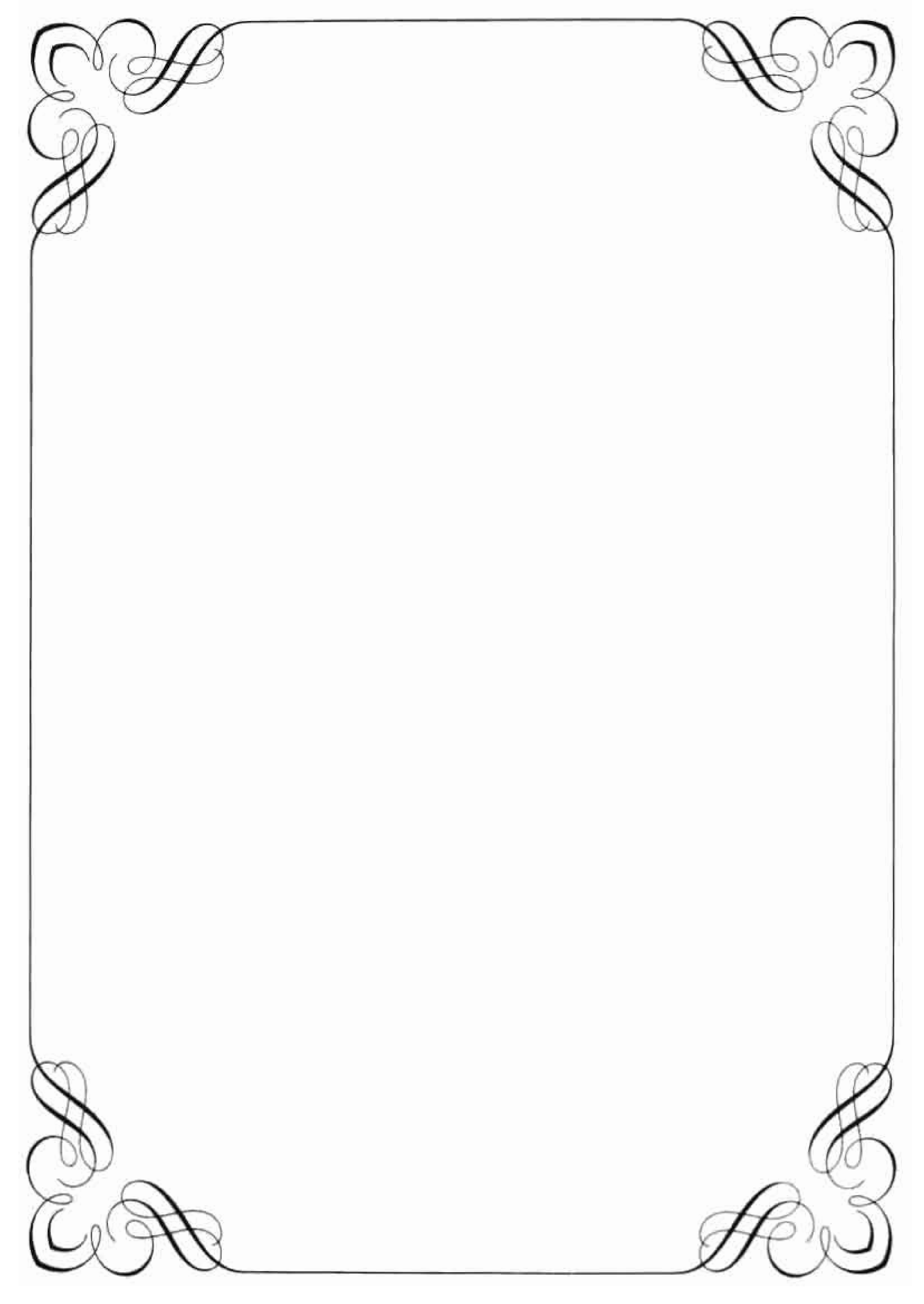


الدِّيوانُ الرَّابِعُ

زَبُورُ العَجَمْ

نَقَلَهُ إلى العَرَبيَّةِ شِعْرًا

الدكتور حسين مجيب المصري



هذا الدِّيوان ـ في الأصل ـ جزءٌ هو أشبه بالفصل ، ترتيبه قبل الأخير في الدِّيوان ، عنوانه : « زبور العجم » .

وليس من التزيد وتجاوز الحد قولنا : إنه على لطافة حجمه يستغرق جمهرة أفكار محمد إقبال في عموم وشمول ، ويكشف النقاب عن وجه الحقائق التي أومأ إليها الشاعر ، ويوضح على نحوٍ دقيق عميق قيماً ومثلاً كان حاثاً عليها موجباً للأخذ بها ، كما يجري عليه صفاته ويميزه بسماته مفكراً ، يغوص على الجوهر منصرفاً عن المظهر ، في دعوةٍ بلغتْ من الجرأة مداها ، يتمسّك صاحبُها فيها التمسُّك الشَّديد العنيد بمذهبه الجديد ، ضارباً صفحاً عن معروف القوم ومألوفهم في العصور الخوالي ، وإن كان في نظرهم مقدساً من تراثهم .

محتوى الديوان

يحتوي أصل الديوان على أربعة أقسام :

القسم الأول : فيه دعاء ، وست وستون قطعةً أكثرُها بدون عنوان .

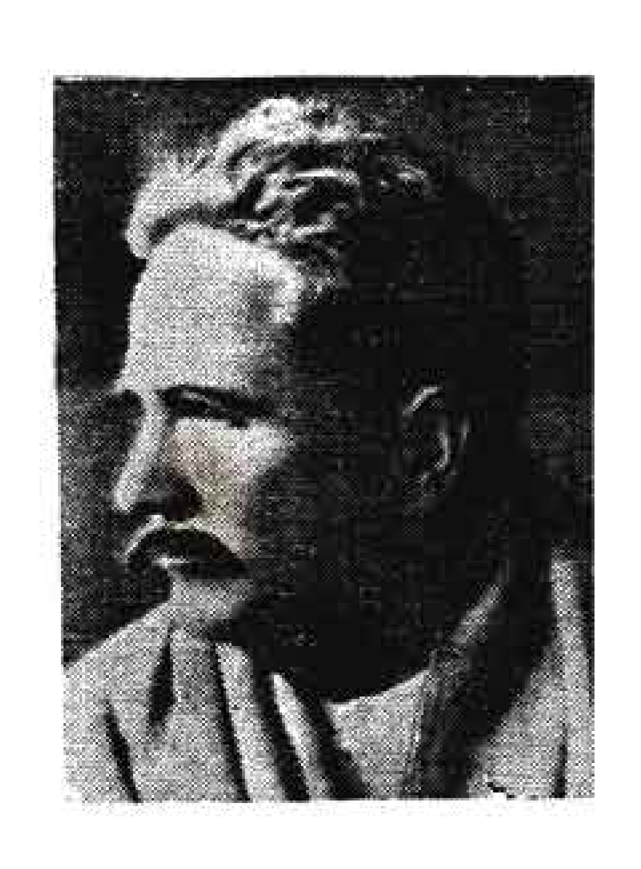
القسم الثاني : فيه خمسٌ وسبعون قطعةً تقلُّ فيها العناوين أيضاً .

القسم الثالث : (الّذي هو بين أيديكم) هو بعنوان « حديقة السرِّ الجديد » (كلشن رازجديد) وهو على طريقة «كلشن راز » .

أخرجه الشاعر عام ١٩٢٩م ساجلاً به كتاباً لصوفي من أهل القرن السابع وأوائل الثامن هو الشيخ محمود الشبستري ، عنوانه روضة السرِّ (كلش راز) ، أَلَّفه الشيخ الشبستري إجابة لأسئلة في التصوُّف أرسلها إليه بعض الصُّوفية ، ولهذا سماه الشاعر ـ محمد إقبال ـ « روضة السر الجديد » (كلشن راز جديد) وفيه يُجيب عن تسعة أسئلة فيها رقائق فلسفيَّة وصوفيَّة .

القسم الرابع : كتاب العبودية ، ويبيِّن فيه الشاعر آثار العبودية في الحياة والفنون الجميلة على مذهبه المعروف .

وإليكم الآن القسم الثالث من هذا الديوان الّذي نقله مِن الفارسية إلى العربية شعراً الأستاذُ حسين مجيب المصري :



لـك عيـنٌ ، نظـراً فيهـا خلقـت | لـك نفـسٌ ، ولهـا دُنيـا خلقـت
نـامَ هـذا الشَّـرقُ لا يـرعـاه نَجْـم | بنشيـد العَيْـش فجـراً قـد خلقـت[1]

* * *

تمهيد

خبـا فـي الشَّـرق ذيَّـاك اللهيـبْ | فـأيـن الـرُّوحُ بـل أيـن الـوجيـب[2]
وأضحـى صـورةً تـرنـو إليهـا | ومـا للعيـش مـن ذوقٍ لـديهـا[3]
يجـافـي قلبُـه طيـفَ الأمـانـي | ويُسكـت نـايَـه رجعُ الأغـانـي[4]
عـن المقصـود مـن قـولـي أبنـتُ | علـى سفـرٍ لمحمـودٍ أجبـتُ
تـوالـت بَعْـدَ ذا الشيـخِ العهـود | ومـا لِلنَّـار فـي روحٍ وقـود[5]
لنـا كَفَـنٌ ونَـزْقـدُ فـي ثـرانـا | قيـامُ البعـثِ يـومـاً مـا عنـانـا[6]
وفـي تبـريـزَ عيـنٌ للحكيـم | رأتْ آثـارَ جنكيـزَ الظَّلـوم[7]

---

(١) رعى النجم : راقبه ، وانتظره . وفي الأصل أنَّ الشرق نام مستتراً عن النجم .

(٢) خبت النار : انطفأت . الوجيب : خفقان القلب .

(٣) يرنو : ينظر في سكون ودوام . الذوق : نورٌ يلقيه الله في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل .

(٤) يجافي : ضد يواصل ويؤانس . الرجع : الصَّدى .

(٥) أبان : أفصح وبين . والسفر : الكتاب . والإشارة إلى كتاب گلشن راز لمحمود الشبستري الذي نظم الشاعر منظومته تلك في الرد عليه . وقدت النار وقوداً : اشتعلت .

(٦) الإشارة في قيام البعث إلى تحرك الهمم إلى العمل على ما فيه صلاح الدنيا والآخرة . عنانا : أهمَّنا .

(٧) تبريز : مدينة في شمال إيران ينسب إليها الشبستري . وإقبال يذكر ما ماج به عهد المغول من جسام الخطوب ، وقد عاصر الشبستري هولاكو ، فذكر جنكيز على سبيل المجاز .

ولكنْ ثورةٌ أخرى وَجَدْتُ ... وشمسٌ غير هذي ما شهِدتُ

رفعتُ أنا عن المعنى النُّقابا ... جعلتُ الشَّمسَ ما كان الترابا

ألستَ ترى بلا كأسٍ خُماري ... وليس لشاعرٍ غيري شعاري[١]

وكلُّ الخيرِ فيمن قال تَعْدَم ... بأنّي شاعرٌ يا صاح فافهم[٢]

فما أشتاقُ داراً للحبيب ... وما في القلب منْ وَجْدٍ مذيب

ترابي ليس من هذا الممر ... وفيه القلبُ لا يشقىٰ بأسر

لقد صافيتُ جبريلَ الأمينا ... عَدُوّاً لا أشاهدُ لي مبينا[٣]

بفقري كان لي مالُ الكليم ... وجاهُ الملكِ في سَمَل العديم[٤]

وما الصَّحراء تحويني تُرابا ... ولا الدأماء تطويني عُبابا[٥]

زُجاجي منه ترتعد الصُّخورُ ... وأفكاري بلا شطٍّ بُحور

هي الأقدارُ تكمنُ خلف ستري ... قياماتٍ أقمتُ بمحضِ أمري

بذاتي برهةً ها قد خلوتُ ... بدنيا الخُلدِ أخلقها بدوت

وليس العارُ من شعري عليا ... فللعطَّار لن تجدِ السَّميّا[٦]

---

(١) الخمار : صداع السكر . يقول : إنَّ مذهبه مخالف لمذهب غيره من الشعراء .

(٢) عدم الشيء : لم يجده . يا صاح : يا صاحبي ، حذف آخره للترخيم . وكأنما إقبال يكره أن يعدّ شاعراً .

(٣) العدو المبين : الشديد العداوة .

(٤) الكليم : موسى عليه السلام . وظاهر أنَّ الإشارة إلى قوله تعالى في سورة القصص : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] وقد أراد موسى أنه فقير الدنيا لأجل ما أنزل الله إليه من خير الدين وهو النجاة لأنه كان عند فرعون في ملك وثروةٍ ، وقال ذلك وهو راضٍ بهذا البدل ، وفرحاً به وشاكراً له ، والفقر عند الصوفية من مقاماتهم . وهو ليس فقدان الغنى ، بل فقدان الرغبة فيه والميل إليه ويؤثر عنهم قولهم (الفقر فخري) . السَّمل : الثوب البالي . العديم : الفقير .

(٥) الدأماء : البحر . والعباب : الموج .

(٦) العطار : هو الشاعر الفارسي الصُّوفي « فريد الدين العطار » من أهل القرن السادس الهجري . وله منظومة بعنوان منطق الطير ، يصور فيها فناء الصُّوفي في الذات =

بــروحـــي للحيـــاة مـــع الفنـــاء صـــراعٌ ، لا أرى غَيْـــرَ البقـــاء
رأيــتُ ثــراكَ عــن روحٍ غــريبـــا ففيـــه نفخـتُ مــن روحـي دبيبـا[1]
ولــي فــي القلــب وهــاجُ السَّعيـر دجـاكَ أنِـر بمصبـاحـي المنيـر[2]
وذاك القلـــبُ حـــبٌّ فـــي ثـــراه كلـــوحٍ خطَّـــه مـــا فـــي ســـواه[3]
وذوق الـــذَّات شهـــدٌ فـــي لهـــاتـــي وهــــذا كلُّــــه مـــن وارداتـــي[4]
لقد جربت ذلكَ في البدايه منحت الشرقَ منه في النهايه
وجبـــريــــلُ كتـــابـــي إنْ رآه أنـــارَ لنـــا بلمـــحٍ مـــن سنـــاه[5]
لـــربِّـــي ظـــل يشكـــو مـــن مقـــامـــه وحـــالُ القلـــب بيّـــن فـــي كـــلامـــه
جـــلاء للتَّجلّــــي لا أريــــد ولكــنْ مــا حــوى القلــبُ العميــد[6]
كففــتُ عــن الــوصـــالِ السَّــرمــديّ لــذذتُ شكــاةَ قلــبٍ لــي شجـي[7]
غرورَ المرءِ هبني والخضُوعا إذا ما ذابَ أوْ أمسى دُموعا !

السؤال الأول

وقفتُ حيال فكري في التحيُّر فما مفهوم ما يُدعى التفكُّر

= الإلهية . وكأنما يريد إقبال ليقول : إنَّ شعره في تصوير مذهبه مغاير لشعر العطار . السَّميُّ : النظير هنا .

(١) الدبيب : دبَّ الشراب والسُّقم في الجسم دبيباً : سرى ، وكأنه مشى .

(٢) السعير الوهاج : النار المتأججة المضيئة .

(٣) يشبه قلبه باللوح الذي كتب فيه . غير أنَّ ما يحويه مخالفٌ لما يحوي غيره .

(٤) اللهاة : لحمة في الحلق . الواردات : ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تعمُّدٍ من الإنسان .

(٥) السنا : الضوء . وقد صرفنا المعنى عن أصله بعض الشيء في ترجمة هذا البيت خشية فهم المبالغة فيه على ظاهرها .

(٦) العميد : من هدَّه العشق .

(٧) السَّرمديُّ : الخالد . والشَّجيُّ : الحزين .

طريقٌ شرْطُها من أيِّ فكر ؟ نطيعُ اللهَ ثُمَّ نكادُ نكفر !

الجواب

بِصَدْرِ المرءِ منَّا أيُّ نور عجيبٌ ، غيبُه عَيْنَ الحضور
بدا لي الثَّابتُ السَّيارُ جهرة أراه النَّار أو نوراً بنظره[1]
وفيه النَّار حيناً مِنْ دليل ويَسْطَعُ نورُه مِنْ جبرئيل
بهذا النُّور للرُّوح الشُّروق شعاعٌ منه شمساً قد يفوق
بمسِّ التُّرب ينأى عن مكانٍ بقيدِ اليومِ يخرجُ مِنْ زمان[2]
وما بتردُّدِ الأنفاس يبقى دؤوباً مثله في البحث تلقى ؟
ويهنأ في الشواطىء بالمقام يعبُّ البحرَ أحياناً بجام[3]
عصا موسى وهذا كان بحرَه وَقَدْ ضُرِبَتْ فشقَّت منه صَدْرَه
غزالٌ ، وهو يرعى في السماء ويُروىٰ مِنْ مجرتها بماء[4]
له في الأرضِ والزَّرقا مقر وحيداً بين قافلةٍ يمر[5]
ومن أحواله ظلمٌ ونور وجناتٌ وموتٌ ثمَّ صُور
لإبليسَ وآدمَ منهُ مظهر ويَكْمُن تحته لا شَكَّ مخبر[6]

---

(١) جهرة : عياناً . أو : بمعنى الواو .

(٢) الترب : التُّراب . اليوم : المراد به هنا مرور الليل والنهار .

(٣) عبَّ الماء : شربه بلا تنفس ، والجام : الكأس .

(٤) المجرة : نجوم تسمى حاملة التبن أو ناثرته في الفارسية ، والطريق اللبنية في الإنجليزية ؛ لأنها تشبه طريقاً يتناثر فيه التبن ، كما شبهت في الشعر الفارسي والعربي بالنَّهر .

(٥) الزرقاء : السماء .

(٦) يشير إلى أن إبليس مخلوق من نار وهو يجسد الفكر ، أمَّا آدم وهو يجسد الروح فإنه بالإلهام انعكاس للنور الإلهي .

إليــه العيــنُ فــي شــوقٍ شــديـد ... تجــلٌ منــه إعجــابُ الحميــد[١]

بعيـــنِ خلـــوةٍ هـــا قـــد رآهـــا ... تجــلٌ عينــه الأخــرى مــلاهــا[٢]

حــرامٌ غَضــبُ عيــنٍ بــامتهــان ... فشـــرطٌ للطَّــريــق ، لــه اثنتــان

وذاكَ البحـــرُ يخلقـــه بنهـــره ... ويُصبــح جــوهــراً فــي مستقــره

فيبـــدو صـــورةً ليســـت لجنســـه ... وغــوَّاصــاً يصيــر للقــط نفســه !

هيـــاجٌ فيـــه منعـــدمٌ صـــداه ... لـــه لـــونٌ ، ومـــا أحـــدٌ رآه

وهذي كأسُه تحوي الزَّمانا ... وبالتَّدريج نُدْرِكُه عيانا

حيـــاةٌ منـــه بـــالأوهـــاق تُـــرمـــىٰ ... ومــنْ يعلــو ولا يعلــو لتُصمــى[٣]

ولكـــنْ نَفْسَهـــا أســـرتْ بـــذلـــك ... وغيـــرَ اللهِ أوْرَدَتِ المهـــالـــك[٤]

وأنـــتَ العـــالميـــنَ إذا غـــزوتـــا ... فَـوَحْـدَكَ مـن هـلاكٍ قـد نجـوتـا[٥]

وهــذا البحــثُ فــي القفــر احــذرنَّــه ... عليــكَ بعــالــمٍ فيــك ادخلنَّــه

ضعيــفٌ ؟ خــذْ مــن الــذَّات قــوى ... تــريــدُ الله ؟ قــرِّبهــا ، لــذاكــا

بغــزو الــذَّات إنْ يــومــاً ظفــرتــا ... لــكَ الآفــاقُ فــي ملــكٍ وجــدتــا

لــكَ الــدُّنيــا ، ليسعــد يــومُ نصــرك ... سمــاءً قــد شَقَفْــتَ فَتِــهْ بِقَــدْرك

جعلــت البــدر يسجــدُ فــي هــوانٍ ... عليــه رميــت أوهــاق الــدُّخــان[٦]

---

(١) تصرفنا بعض الشيء في ترجمة هذا البيت كراهية فهم المبالغة فيه على ظاهرها ، والحميد : هو الله تبارك وتعالى .

(٢) ملاها : ملأها .

(٣) الأوهاق : جمع وهق وهو حبل ذو أنشوطة يطرح في عنق الحيوان أو الإنسان ليؤخذ به . ويصمى : يقتل .

(٤) غير الله : ترجمة ماسوا في الفارسية أي ما سوى الله . وفي هذا إشارة إلى طلب الوحدانية والانصراف عن التعدُّد إلى الواحد .

(٥) يريد بالعالمين عالم الطبيعة وعالم الذَّات .

(٦) الأوهاق : تقدَّم شرحها .

بهـذا الـدَّيـر حـرّاً قـد أقمـنـا وأصنـامـاً كمـا تهـوى نحتًـا[1]
مـن الـدُّنيا بملك كـلِّ حـذفـور مقامَ الصَّوتِ والألـوانِ والنُّـور[2]
وتنقصـه وأنـتَ تـزيـدُ فيـه تغيُّـرُه علـى مـا تشتهيـه[3]
بِقَطْعـك عنـه قَلْبـك كـلَّ قطـع وإبطـال الطِّلسـم لسحـرٍ تسـع[4]
إذا مـا شئـتَ غـوصـاً فـي ضميـره فَقَمْحَـكَ فضْلَـنْ علـى شعيـره
وهذا الملكُ ، والملكُ العظيم وتوءمه هو الدِّين القويم[5]

السُّؤال الثَّاني

وعلمٍ كان ساحلَ أيِّ بحر ؟ بعيـدِ القـاع يُخـرجُ أيَّ درِّ

الجواب

حيـاةٌ ، يـا لهـا بحـراً يمـور وسـاحلـه الفَطـانـة والشُّعـور[6]
عميـقٌ مـوجُـه أبـداً يميـد وفـي الشُّطـآن أطـوادٌ وبيـد[7]
عُبـابٌ فيـه قـد عَـدِمَ القـرارا فـلا تسـأل ، علـى شـطٍّ أغـارا[8]

---

(١) الدَّير القديم : من أسماء الدُّنيا في الشِّعر الفارسي .
(٢) الحذفور : الجانب . وجمعه حذافير . يقال : ذكره بحذافيره ؛ أي بجميع جوانبه ، وتفاصيله .
(٣) يريد العالم .
(٤) الطلسم : كتابة للسَّحرة . والتسع هي السموات السبع .
(٥) في رأي إقبال أنَّ الملك ينبغي أن يقوم على أساسٍ من الدين أي : الدِّين الحنيف .
(٦) الفَطانة : الإدراك ، والفهم .
(٧) يميد : يضطرب . الشطآن : جمع شاطىء . الأطواد : جمع طود وهو الجبل . والبيد : جمع بيداء وهي الصحراء .
(٨) العباب : الموج .

روى الصَّحـراءَ منقطعـاً عـن اليـمِّ أفاد العين معنى الكَيْف والكمِّ[(١)]

ومـا تلقـاه جـاء إلـى حضـوره ينيرُ بفضـل فيـضٍ مـن شعـوره[(٢)]

بخلـوتـه انتشـى كـرةَ الـرَّفيقـا بقلـبِ الكـائنـاتِ بـدا شـروقـا[(٣)]

ويظهـــــــر أولًا للمستنيـــــــر بمـــــراةٍ ليـؤخـــذ كـــالأسيـــر

وقـــرَّبـــه مـــن الـــدُّنيـــا الشعـــورُ فـــأدرك ســـرَّهـــا وهـــو الخبيـــر

بـــدا بـــالعقـــل مـــرفـــوعَ النِّقـــاب ولكـــن قـــد تعـــرَّى بـــالخطـــاب

وفـي دنيـاه ليـس لـه مُقـام من الدُّنيا له هذا المقام[(٤)]

تـرى الـدُّنيـا ولكـنْ ليـسَ فيكـا بمـا تحـويـه فَلْتَـدَعِ الشُّكـوكـا

مـن الأزهـار دنيـا اللـون طـاقـه نُقيِّـدهـا ، لهـا منَّـا انطـلاقـه[(٥)]

طـريـق القلـبِ سـرى إليهـا ويثنـي كـلُّ مخلـوق عليهـا

إذا أغمضـتَ عنهـا العيـنَ هـانـت وإلا البحـرَ والأطـوادَ كـانـت[(٦)]

بـرؤيتنـا لـدنيـانـا النَّمـاء بنـا لِغُصـونهـا هـذا العَـلاء

ومنظـورٌ ونـاظـرُ غـورِ سـرٍّ تَضَـرُّعُ قلـبِ ذرات لأمـر

أنـا المشهـودُ يـا مَـنْ أنـت تَشْهـدْ لتجعلنـي ، فبـالنظـراتِ أوجـد[(٧)]

---

(١) اليمُّ : البحر .

(٢) الحضور في الاصطلاح : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .

(٣) انتشى : سكر . والمراد أنه طاب نفساً بعزلته .

(٤) المقام : بضم الميم الإقامة . وبفتحها الرياضة الروحية عند الصوفية التي توجه سلوكهم ، وهي من الأمور المكتسبة الاجتهادية وتخضع للإرادة . وقالوا : إنَّ المقام هو القيام أو موضع قيام العبد في طريق الحق . ومن مقامات الصوفية التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرِّضا .

(٥) طاقة الزهر : ما يجمع منه في حزمة . يقول : إنَّ العالم الخارجي خليطٌ من ألوان وأشكال وروائح . ونحن نقيد هذا العالم ونخضعه لنظام معين .

(٦) الأطواد : تقدم شرحها .

(٧) الإشارة هنا إلى الخلاف بين الواقعية والمثالية .

وذاتُ الشيءِ تَكْمُلُ بالوجود وبالتمكين من هذا الشُّهود

فليس زوالُها بالبعد عنَّا ونورُ شعورِنا فَقَدَتْهُ منَّا

تجلِّينا به الدُّنيا تكون بنا نورٌ تجلَّى أو رنين[1]

ومنها العونُ في اللأواءِ جَرِّبْ بأحوالٍ لها نظراً فأدِبْ[2]

وأيْقِنْ أنَّ آساد الفلاة أرادتْ عونَ نملٍ للنَّجاة[3]

تعينك ، أنتَ تلكَ الذَّاتُ فاعرف كجبريل الأمين إذاً فرفرف

وعالَمُ كثرةٍ بالعقل شاهدْ لتدركَ مظهراً يبديه واحد[4]

ومن ريحِ القميصِ فنلْ نصيبا تنسَّم منْ ضفاف النِّيل طيبا[5]

وذاتك نيِّرين بها تصيدُ ومن تدبيرها لهما القيودُ[6]

---

(١) إقبال لا ينكر الوجود ، بل ما يبدو من مظاهر الموجودات ، وهو يؤكد أثر العقل على ما يقع تحت الحسّ ، ويشير إلى أنَّ العالم يحمل طابع الإنسان عليه .

(٢) اللأواء : الشدة .

(٣) هذا مذكور بقوله تعالى في سورة النمل : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٧ ـ ١٩] فلما رأت النملة جنود سليمان فرت منهم فتبعها غيرها وصاحت محذرةً منبهةً . وهذا منها شبيه بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم وكأنها بذلك أنجت النّمال كما أنجت جنود سليمان من ظلمٍ كادوا يرتكبونه وهم لا يشعرون وهو سحق تلك النمال ، فعجب سليمان لها على ضعفها كيف كانت سبباً في نجاة جنوده من ظلمهم النمال من هلاكها . آساد الفلاة : أسود الصحراء . وهم هنا جنود سليمان .

(٤) إنَّ النظر في هذا الكون بكلِّ ما وسعَ أولُ دليلٍ على قدرة الواحد تبارك وتعالى .

(٥) قال تعالى في سورة يوسف : ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣] وقد أرسل قميص يوسف من مصر إلى أرض كنعان ، ووجد فيه يعقوب رائحة يوسف ، فارتدَّ إليه بصره . الريح : الرائحة . تنسم : شمَّ .

(٦) المراد بالنيرين الشمس والقمر .

وتلك اللذَّات في دنياك أضرِم بغزوكَ ما ترى أو غابَ حطِّم[1]

***

السؤال الثالث

يقال لممكنٍ صلةٌ بواجب وما بعدٌ وقربٌ يا مخاطب ؟[2]

***

الجواب

وهذا العالمَ الفاني فجدِّدْ وعقلَ كيفه والكمَّ قيِّدْ
لإقليد وطوسيٌّ أراه وعقل قاس أرضاً قد كفاه[3]
وليس حقيقةً فيه الزَّمانُ ولا أرضٌ ولا حتَّى المكانُ
أقم هدفاً لترشقَ بالسِّهام وما المعراجُ فافهم من كلامي[4]
أتحوي مطلقاً دنيا الجزاء وليس سوى ضياء للسَّماء[5]

---

(١) في الأصل المكان واللامكان أي هذا العالم والعالم الآخر . يرى إقبال أنَّنا لا نتجاوز عالمنا بالعقل ، ولكننا نبلغ العالم الثاني بالرُّوح الملهمة . وتسمى هذي القوَّة الروحية سلطاناً .

(٢) في الأصل : القرب والبعد والكثيرُ والقليلُ .

(٣) هو إقليدس الذي علم الهندسة في الإسكندرية على عهد بطليموس ووضع مبادىء علم الهندسة السَّطحية . والطوسي : هو نصير الدين الطوسي فلكي رياضي ، كان معقود الصلة ببلاط هولاكو . وقد شرح كتاب الأصول لإقليدس .

(٤) رشقه بالسهم : رماه به .

(٥) في الأصل دير المكافأة . والدَّير في الشعر الفارسي يطلق على الدُّنيا . يشير إلى قوله تعالى في سورة النور ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النُّور : ٣٥] وعند إقبال أنَّ النور أقرب شيء إلى المطلق .

ومــا لحقيقـــةٍ زمـــنٌ وَحَـــدّ فكيـف تـريـدُ دنيـا لا تحـدّ !
لهـا حــدٌّ ولكــنْ ليــس يظهــرُ ولا يخفـى بهـا مـا كـان أكثـر[1]
وليـس ببــاطــنٍ أيُّ ارتفــاع ويقبـلُ ظـاهـرٌ كـلَّ اتّسـاع[2]
إلـى أبـدٍ لعقـلٍ مـا السبيـل ؟ فــواحــده كثيــرٌ ، والقليــل
وأعــرجُ كــان ، بغيتــه السُّكــون علـى القِشْـر اللبـابُ لـه يكـون[3]
ومــزَّقنـا الحقيقـةَ فـي يـدَيْنـا مظــاهــرَ للفــوارقِ مـا رأينـا
وفـي غيـر المكـانِ رأى مكـانـا وكــالــزُّنَّـار يتَّخـذُ الـزمـانـا[4]
زمـانٌ مـا بـدا لـي فـي الضميـر خلقت الوقت يمضي بالشهور[5]
يمـرُّ العـام ، مـا سـاوى الشَّعيـرا بـآيـة ﴿ كـم لبثتم ﴾ كـن بصيـرا[6]
لذاتِك عُدْ ، تَخَلَّص من هديرٍ ونَفْسَك ألقِ في قاع الضَّمير[7]
وفصــلُ الجسْــمِ عَــنْ روحٍ كــلام فتفــرقــةٌ وتمييــزٌ حــرام
وتخفــي الــرُّوحُ ســرَّ الكــائنـات وهــذا الجســمُ حــالٌ للحيــاة

---

(١) في الأصل أنَّ حدها في داخلها لا في خارجها وليس في داخلها منخفضٌ ولا مرتفع ولا قليلٌ ولا كثيرٌ .

(٢) يذهب إقبال إلى أنَّ الزمان والمكان مما يقيس به العقل عالم الطبيعة إلا أن العقل يعجز عن إدراك المطلق ؛ لأنّه يربط الواحد بغيره والقليل بالكثير .

(٣) كان هنا تامة .

(٤) راجع ما قلناه في المكان واللامكان في ديوان « هدية الحجاز » . والزنَّار : ما يشد به النصارى وسطهم .

(٥) الحقيقة في نظر إقبال لا تقبل التجزئة وهي في تغيُّر ، وليس في الإمكان قياس الزمان بالأعداد .

(٦) حبة الشعير مضرب المثل في حقارتها في الفارسية ، أمّا آية ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ فمن قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف : ١٩] ولقد لبثوا في الكهف طويلاً طويلاً . وإقبال بذلك يقدِّم الحجَّة على عجز الحساب عن قياس الزَّمن .

(٧) الهدير : صوت الرَّعد والبحر .

لهـا الحنّـاء مِـنْ صَـوَرٍ عـروس ... هي المعنى ، ففي حُلَلٍ تميس[1]
تستَّـرت الحقيقـةُ بـالنِّقـاب ... ويسعدُها الظهورُ بلا حجاب
وبيـنَ الـرُّوح والجَسَـدِ الفـراق ... بغربٍ ، أين في الحكم الوفاق[2]
رجـالُ الـديـنِ سُبْحَتُهـم تـدور ... بـأمـرِ الحكـمِ ليـسَ لهـمْ شُعـور
ففـي التمـويـه منقطـعُ الشبيـه ... هـو الجسـدُ الـذي لا روح فيـه[3]
وقلبُـك ثـمَّ عقلُـك فـاصْحَبَـنْ ... إلـى الأتـراكِ فـارْحَـلْ ، وانظُـرن
بتقليـدٍ لهـم ذاتـاً أضـاعـوا ... بدينٍ ربطُ حكمٍ لم يراعوا
وكـم جـزء لـواحـدٍ قـد رأينـا ... بـأعـدادٍ لنُحصيـه أتينـا
تـرى دنيـاكَ مـا يبـدو كتـرب ... أراهـا بـرهـةً مـنْ صُنْـعِ ربـي[4]
وصـورةَ ميـتٍ رسـمَ الحكيـم ... بـلا عيسـى ولا ضـربِ الكليـم[5]
ومـا مـنْ حكمـةٍ قلبـي رآهـا ... بشـوق حكمـةٍ أخـرى ابتغـاهـا
أرى الـدُّنيـا بثـورتهـا تميـد ... خفـوقٌ هـزَّ بـاطنهـا شـديـد[6]
دعِ الأعـدادَ واطـرحهـا ، لتهمـل ... وبعـض الـوقـت فـي ذاتٍ تـأمَّـل
فمـنْ كـلٌ جـزيء كـانَ أكثـر ... جنـون قـولـة الطـوسـي وآخـر[7]

---

(١) تميس : تتبختر .

(٢) يقول : إنَّ أهل الغرب يفصلون بين الروح والجسد ، وبالتالي فصلوا بين الدين والدولة ، وعكف رجال دينهم على العبادة دون أن يلتفتوا إلى شأن من شؤون الحكم في دولتهم .

(٣) يريد نظام الحكم الذي ينفصل عن تعاليم الدين . والتمويه : الخداع بالظاهر .

(٤) يريد ليقول : إنَّ العالم كتلةٌ من المواد ، ولكنَّها أحداثٌ متلاحقة . وسلوكٌ منظم ، والطبيعة للذات الإلهية ، كالطبع للذات الإنسانية ، وهي في تصوير القرآن عادةٌ إلهية ، كما يقول إقبال .

(٥) هو عيسى عليه السلام الذي أحيا الموتى ، والكليم موسى عليه السلام الذي ضرب البحر بعصاه .

(٦) تميد : تضطرب .

(٧) في الأصل: نصير الدين الطُّوسي، وفخر الدين الرازي من أهل القرن السادس الهجري.

أرسطو مرّةً إيّاه فاعرفْ ... وبيكون لحنَه يوماً لتعزفْ[1]
لهذين المقامُ فغادرنَّه ... تضيعُ بمنزلٍ ، فحذارِ منه
بعقلكَ وهو يدركُ كلَّ كمّ ... وباطنَ مَعْدنٍ أو قاعِ يمّ[2]
على دنياكَ سَيْطرِ ثُمَّ هَيمنْ ... وفي أفلاكها الأجرامَ مكّن[3]
ولكن حكمةً أخرى تعلم ... وذاتَك نحّ عن يومٍ لتسلم[4]
ودعْ دنيا الدَّياجي والنَّهار ... يميناً فاطلبن بلا يسار[5]

***

السُّؤال الرَّابع

أهذا محدثٌ هجرَ القديما ... فكانا الكونَ والباري العظيما
أمعروفٌ وعارفُه ، إلهي ... لم الأشواقُ أرْمَضتِ الظَّليما[6]

الجواب

حياةُ الذَّات إيجادٌ لغيرٍ ... وللمعروفِ بعدٌ كلُّ خيرِ[7]

---

(١) أرسطو صاحب المنطق يمثل الاستنتاج ، وفرانسيس بيكون الفيلسوف الإنجليزي يمثل الاستدلال بالتجربة .

(٢) المعدن : المنجم . واليمُّ : البحر .

(٣) هيمن على الشيء : راقبه وحفظه .

(٤) في الأصل : عني خداع الليل والنهار .

(٥) الدّياجي : الظلمات ، والمراد بها هنا : الليل .

(٦) يقول : إنَّ المحدث انفصل عن القديم ، فأصبح الأول العالم ، أما الثاني فالله تبارك وتعالى . . وإذا ما كان المعروف والعارف هما ذات الله ، فما الحنين الذي أضنى الإنسان . والظليم : التراب ، والمراد به الإنسان .

(٧) يقول : إن الفراق بين العارف والمعروف خيرٌ عظيم .

قـديمـاً أو مغـايـره حسبنـا طلسمـاً كـان حُسْبانٌ ، فخبنـا[١]

ذكـرنـا الأمـسَ والغـد فـي دوامٍ (فكان) و(سوف) أسٌّ للكلام[٢]

وفطـرتُنـا انقطـاعٌ عنـه كـانـا سبيـلاً قـد ضللنـا فـي سُرانـا[٣]

وليـس لنـا بفـرقتـه عيـارٌ وواصلنـا ، فـدامَ لـه القـرار[٤]

بنـا ويـه ! عجيـبٌ ، أيُّ حـالِ ففـرقتُنـا فـراقٌ فـي وصـال[٥]

فـراق يمنـح النَّظـر الترابـا وقشّـاً مـا بـه بلـغ السَّحـابـا[٦]

وهـذا العشـق يـزكـو بـالفـراق مـع العشّـاق كـانَ علـى وفـاق[٧]

تبـاريـح الفـراق لنـا الحيـاةُ تخلَّـدنـا ، فيبقينـا الممـاتُ[٨]

مَـنِ المـولـى ؟ ومَـنْ إيـاه يُعبـد همـا سـرٌّ يـؤيِّـدُ أنْ سنخلـد[٩]

يـدومُ لـه التجلّـي نـورُ ذاتِ وبيـن الجمـع معنـى للحيـاة[١٠]

وتلـكَ محبـةٌ فـي الجمـعِ تُبصـر بغيـرِ الجمـع ذا مـا ليـس تُبصـر

---

(١) مغاير القديم هو المحدث . وحسبه حسباناً : عدَّه وأحصاه . وكان هنا تامة .

(٢) في تفيد معنى المصاحبة . والأس : الأساس .

(٣) السرى : السير ليلاً .

(٤) العيار : ما يكون في الدراهم والدَّنانير من الذهب والفضة يكسبها قيمتها . والمراد به هنا القيمة . واصله : ضد قاطعه وهاجره .

(٥) في الأصل : ليس بدوننا ولسنا بدونه .

(٦) المراد بالتراب هنا الإنسان . وفي الأصل : يجعل القش جبلاً . وفي الفارسية كاه بمعنى : القش ، وكوه بمعنى : جبل .

(٧) زكا : نما وصلح . وفي الأصل : أنَّ الفراق حامل المرأة للعشق . وحامل المرأة يعين على التزين ، وإصلاح المظهر .

(٨) تباريح الشوق : شدَّته وآلامه .

(٩) في الأصل : ما أنا وما هو . وإقبال بذلك ينكر مبدأ فناء النفس الإنسانية في الذات الإلهية ؛ لأنه يتحدَّث عن الفراق والتلاقي ، ويرى الخير كلَّ الخير في اجتماع المحب بالمحبوب .

(١٠) الجمع : الجماعة من الناس .

تجليـــاتُ محفَلِنـــا تـــأمَّـــلْ تجلِّـي الله لا الـدُّنيـا تـأمـل[1]

فـــلا الأبـــوابَ أمسكنـــا علينـــا ونحـن بـه بمفـردِنـا اختلينـا[2]

ويجعـــلُ نَفْسَـــهُ عنَّـــا غـــريبـــا يُـداعينـا كمعـزفـهِ طـروبـا[3]

وننحـــتُ مثـــلَ صـــورتـه الحجـاره ونسجـدُ ، مـا رأتـه العيـنُ ، تـاره

هتكنـــا ستـــرَ فِطـــرتنـــا علينـــا جمـالَ حبيبنـا هـا قـد رأينـا[4]

وهـــذا التُّـــرب مـــاجَ بـــه الخيـــال فبـاطنُـه أضـاءَ ولا يـزال[5]

ولكـــن مـــن فـــراقٍ وهـــو يشكـــو بفضـلِ فـراقِـهِ تلقـاه يـزكـو[6]

بـــه كـــانـــت لـــه هـــذي البصيـــره فهـذا ليلـه أضحـى الظهيـره

وأنفـــد حـــزنـــه جـــزعُ الصَّبـــور ومـن حـزنٍ تبـدَّل بـالسُّـرور[7]

وأصبـــح دمعـــه دُرّاً ثمينـــا الحـزن أوَّدتِ الغصـونـا[8]

وذاتُـــك : إن تعـــانقهـــا طـويـلا تجد في الخلد من موتٍ بديلا !

مقـــامـــاتٌ لهـــا بـــالحـــبِّ عقـــدُ ومـا مـن منتهـى يحـدُوه خَـدُّ[9]

تسيـــر لـــه الأمـــورُ بـــلا ختـــامِ بـه الفجـرُ الضَّحـوكُ بـلا ظـلامِ

---

(١) الحفل : مكان اجتماع المجتمعين .

(٢) أمسك عليه الباب : أوصده . وفي الأصل : أنَّ هذا المحفل يخلو من باب وجدار وقصر .

(٣) في الأصل : أنه يجعل نفسه غريباً عنا تارةً ، ويعزف علينا كآلة الطرب تارةً أخرى .

(٤) هتك الستر : مزَّقه أو جذبه من موضعه .

(٥) الترب : التراب . والمراد به الإنسان الذي خلق من تراب .

(٦) يزكو : ينمو ويصلح .

(٧) أنفد : أفنى . والجزع عدم احتمال الصبر ، يقول : إنه حزن حزناً لا يطيقه حتى الصَّبور .

(٨) أوَّده : ثناه وعطفه . يقول : إنَّ للحزن ثماراً طيبة أثقلت الغصون . وهو مأخوذ من نخلة المأتم في الفارسية ، بمعنى النعش .

(٩) في الأصل : أنَّه ربطها في عقدة فهو مقيد ، كما أنه يمضي لا يقف عند نهاية فهو مطلق . يحدو : يسوق . والوخد : سرعة السير .

يغـايـر عقلَنـا وعـزُ الطـريـق ودنيا كـان فـي وهـج الشـروق[١]

بـآلاف العـوالـمِ قَـدْ مـررنـا على بعضِ التوقف هل قَدَرنا ؟

خلـوداً فـي حيـاتـك يـا مسافـر وفي موتٍ ، إلى الدَّاني فبادر[٢]

وليـس البحـر يغـرقُنـا انتهـاء تعلَّـق فيـه ، مـا هـذا فنـاء[٣]

وجودُ الذات في ذاتٍ محال لتصبح نفسها ، هذا كمال[٤]

السؤال الخامس

أجبني من أنا ؟ وَضِّح (أنا) لي وما في الذات من (شدِّ الرِّحال)[٥]

الجواب

بـذاتٍ عُـوذةٌ للكـائنـات وأوّلُ نـورهـا أصـلُ الحيـاة[٦]

وتصحـو مِـنْ رُؤاهـا فـي كـراهـا بكثـرٍ بَعْـدَ واحـدِهـا تـراهـا[٧]

---

(١) الوهج : اتقاد الشمس وحرها . وفي الأصل : أنّه عالم في نور برهة .

(٢) المسافر في اصطلاح الصوفية : هو من سار قلبه متوجهاً إلى الحق . الداني : القريب . بادر : سارع . أي سارع إلى أول وأقرب طريق إليك ، واسلكه .

(٣) لا يريد إقبال للنفس الإنسانية فناءً في الذات الإلهية كفناء القطرة في البحر على أن ذلك قصارى ما ينشد الصُّوفي . ويقول : إنَّ الإنسان إذا تعلق بالذات الإلهية فليس هذا فناء فيها .

(٤) يعني : أن كمال الذات الإنسانية في قدرتها على ضغط كيانها ، حتى إذا اتصلت بالذات الكلية .

(٥) الرِّحال : جمع رحل ، وهو ما يشد على ظهر البعير لركوبه . وشدُّ الرحال كناية عن السفر ، وفي الأصل : (أي معنىً في قولنا سافر في الذات) .

(٦) العوذة : ما يعلق على الإنسان لحفظه من الشرّ والحَسَد .

(٧) الرؤى : جمع رؤيا وهي الحلم . والكرى : النوم . الكثر : الكثرة . وعند إقبال أنَّ الحياة في تعدد الأناسي على اختلافهم والوحدانية لله .

ونمضي في اتساع ، ماربونا … ولولا ذاكَ منها ما زكونا[١]

يضمُّ صميمُها في العمق بحرا … وقلبُ القطرِ موجٌ ما استقرا

تخالفُ من بشيمته تَصَبَّر … وفي ملأٍ لنا تبدو بمظهر[٢]

كنارٍ ، والذاتُ لها شَرارُ … نجومٌ ، سائر وله القرارُ[٣]

وراءَ حدودِها والغيرُ تشهد … وفي الجمع الكبير كَمَنْ توحَّد[٤]

تأمَّل في انطواء كيف تبدو … ترابٌ ديسَ ، منه كيف تنمو

تثور وراءَ سترٍ للخفاء … وتبحثُ في دوامٍ عن رواء

بنارٍ في الصَّميم ثوتْ وقامتْ … تحاربُ نفسها ، والحربُ دامت

فَمِنْ هذا لعالمنا النظام … وكالمرآة قد أضحى الرَّغام[٥]

ذواتٌ أطلعتها من شعاعٍ … جواهرُ أُخرِجَتْ كانت بقاع

ترابُ الجسم لِلذَّات الحجاب … وتبدو الشمسُ أطلعها السَّحاب

وتلكَ الذَّات تشرقُ منْ صُدورِ … بجوهرها التُّراب لنا كنورِ

ومعنى للأنا كمْ قلت بيِّن … (بذاتك فلتسافرْ) فلتُعيِّن

على صلةٍ بأرواحِ جُسومُ … فسافرْ كي تحقِّقَ ما تروم[٦]

بذلك مولدٌ من غير أمٍّ … ومن سطحٍ كإمساك بنجم

على خلد حصولك بالتياعِ … كأنك قد رأيتَ بلا شُعاعِ

---

(١) ربا : زاد ونما ، وما في الشطر الأول شرطية زمانية ، أي تتسع مدة نمونا . وزكا : كربا .

(٢) الشيمة : الفطرة ؛ أي : تخالف من يصبر بطبعه ، فهي لا تستطيع صبراً . الملأ : الجماعة .

(٣) يشبهها كذلك بالنجوم الثوابت والسيارة .

(٤) توحد : انفرد واعتزل .

(٥) الرَّغام : التراب .

(٦) الجُسوم : جمع جسم . تروم : تريد .

وعــن أمــلٍ وعــن وجــلٍ تنــاء كشــقٌ أنــت محــدثــه بمــاءِ[1]
طلســمَ البــرِّ والــدأمــاء فــاصــدع وبــدرَ التــمِّ فلتصــدغ بــإصْبَــع[2]
بــأوبــةِ مَــنْ يطــوف بــلا مكــان لــه الــدُّنيــا لتحمــلْ فــي الجنــان[3]
لهــذا الســـرِّ تفسيـــرٌ محـــال وتنفــع فيــه عيــنٌ لا مقــال[4]
فمــا قــولــي (أنــا) وهــي الضيــاء وفــي ﴿ إنــا عــرضنــا ﴾ مــا نشــاء[5]
ويــرجــفُ مــن سنــاهــا الأزهــران زمـــانٌ تحتضنـــه والمكـــان[6]
مقـــرٌّ ضمَّهـــا كـــانَ القلـــوبـــا لهــذا التُّــربِ أصبحــتِ النَّصيبــا[7]
عـــن الغيـــرِ افتـــراقٌ ، وارتبـــاط بنفــس ضيعــةٍ ، وبــه اختــلاط[8]
خيــالٌ فــي التــراب لــه الكيــان ! أيحــويــه الــزَّمــان أم المكــان ؟[9]
سجينٌ ، في قيودٍ ، كيف أفلت ! فمــا الــرَّامــي وأوهــاقٌ تــدلَّــت ؟[10]
بصـــدرك مثـــل مصبـــاحٍ منيـــرِ لـــك المـــرآةُ ، فيهـــا أيُّ نـــور

---

(١) التنائي : البعد . الوجل : الخوف .
(٢) الدأماء : البحر .
(٣) الأوبة : العودة . الجنان : القلب .
(٤) المقال : القول . أي : أنَّ الرؤية بالعين تنفع في معرفة السرّ لا الكلام .
(٥) قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . والأمانة الطاعة ، وقد عظم شأنها . وحملها الإنسان على ضعفة ولم يفِ ، ولم يراع حقَّها ، فكان ظلوماً ، وبكنه عاقبتها جهولاً . وقيل : إن هذي الطاعة تتمُّ باختيار الإنسان وإرادته .
(٦) الأزهران : الشمس والقمر ، السَّنا : النور ، والسناء : الرفعة . وفي الأصل : أن الفلك يرتعد من سناها ، أو سنائها .
(٧) التُّرب : التراب . وإقبال يسمي الإنسان على الدوام حفنة التراب .
(٨) الضيعة : الضياع ، وبه : أي بالغير .
(٩) الخيال في الفارسية بمعنى النية .
(١٠) الأوهاق : الحبال التي يصاد بها .

عليها أنتَ قد كنتَ الأمينا　　بإدراكِ لذاتِكَ كنْ قمينا[1]

السؤال السادس

أهذا الجزءُ عن كلٍّ يَزيد !　　وكيفَ البحثُ عنه لمن يُريد ؟

الجواب

ومـا لِلـذَّات مقيـاسٌ لـدينـا　　وأعظـمُ مـا يلـوحُ لنـاظـرَيْنـا[2]
مـن الأفـلاك تهبـطُ ثُـمَّ تَعلـو　　ببحرِ الكون تسقـط ثُـمَّ تَسمو[3]
فَمَـنْ بـالنَّفـس يملكـه الشعـور　　سـواهـا ، أو بـلا ريـشٍ يطيـر
حـوتهـا ظلمـةٌ والصَّـدر نـورُ　　تناءت جنةٌ ، في الحضن حورُ[4]
لهـا حكـمٌ بهـا الألبـابُ تسحـر　　ومِـنْ قـاعِ الحيـاةِ أتَـتْ بجـوهـر
خلـوداً فـي الصميـم العيش كـانـا　　ولكـنْ للعيـون بـدا زمـانـا
مقـامُ الكـونِ منهـا قـد تقـدَّر　　وتحفظـه بمـا للعيـن يَظْهَـر
أتسـألُ عـن طبيعتهـا وتسـأل　　وعنهـا مـا بقـدرٍ ليـس يفصـل
ومـاذا عَـنْ طبيعتهـا لقـائـل　　فجيـر ظـاهـر والضـدُّ مـاثـل[5]
فمـا قـولـي ؟ وفـي قـول النَّبـي　　بـذا الإيمـانِ فـي قـولٍ جلـي[6]

---

(١) القمين : الجدير .
(٢) الناظران : العينان . يقول : إنَّ الذَّات أعظم ما نرى ، وإن كانت الرؤية ليستْ بالبصر .
(٣) تسمو : تعلو .
(٤) تناءت الجنة : بعدت .
(٥) المراد بالضد هو الاختيار . ماثل : قائم . وفي الأصل أنَّ الاختيار داخلها .
(٦) قيل : إن جبريل مضى إلى النبي عليه الصلاة والسلام في هيئة رجل وسأله عن الإيمان فقال له : هو أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وبالقدر خيره وشره .

وما للخلقِ عندك غير جَبْرٍ وَمِنْ بعدٍ ومنْ قربٍ بأسر
وتلك الروحُ منْ نفسِ الإله بخلوتها تلوح بلا اشتباه[1]
وهذا الجبرُ وهمٌ أو ظنون بغير إرادةٍ روحٌ تكون ؟![2]
تصول بعالمٍ لِلْكَيْفِ والكَمْ وعن جبرٍ إلى المختار تُقْدِمْ[3]
وذاكَ الجبرُ منه إنْ أفاقتْ لها الدُّنيا كتلكَ النوقُ ساقتْ[4]
برغبتها خفوقُ النَّجمِ واجبْ برحمتها تلألأتِ الكواكبْ[5]
تميط السِّتْر عما أضمرته وجوهرها بِعَيْنيها رأته[6]
وأهل النُّور قد وقفوا طويلا أرادوا أن يروا وجهاً جميلا[7]
ومِنْ كرْمٍ لها خمر الملائك وكان عيارها ترباً كذلك[8]
تقولُ : وهل إليها من سبيل إذاً أوردْ مقاماً لِلْعَويل
لكَ الأيامُ فاجعلها خلودا ونُح في الفجر ، عقلُك لن يفيدا
لهذا العقلِ منْ حسٍّ صدور ومِنْ عشقٍ نحيبُ الفجرِ نور
لعقلٍ جزؤه ، للنَّوح كل ونوحٌ دام ، ما إنْ دام عقل
وذاك العقل ما وسع الخلودا من الأنفاس ما يحصى عديدا[9]

---

(١) أي أنَّ الروح في خلوتها مع الله تبدو في كل مظاهرها بجلاء .
(٢) كان هنا تامة .
(٣) صال : غلب وقهر ، في الأصل أنها تغير على عالم الكيف والكم . وتمضي من الجبر إلى الاختيار .
(٤) في الأصل : أنَّها إذا نفضت عنها غبار الجبر ساقت عالمها كما تسوق الناقة . والنوق جمع ناقة .
(٥) خفوق النجم : اضطرابه . وفي الأصل أنَّ السماء تدور بإذنها .
(٦) تميط : تزيح وترفع .
(٧) أطلقنا أهل النور على النورانية ، وهم طائفة من الملائكة .
(٨) الكرم : شجر العنب . والملائك : الملائكة . والعيار ما يضاف إلى الدنانير والدراهم من ذهب وفضة . والمراد قيمتها . والترب : التراب ، فهي تستمدُّ قيمتها من ترابها .
(٩) في الأصل : إنَّ أنفاسنا تحصي الساعات كعقرب الساعة . والعديد : العدد .

بخلــقِ الليــلِ يُشْغَــل والنَّهــار ومــنْ نــارٍ لــه بعــضُ الشَّرار[1]
قصــارانــا نــواحُ العِشْقِ كــانــا وتحــوي بــرهــةٌ منــه زمــانــا
وذاتٌ إن بــدا المعــروف عنهــا لحلَّت عقــدةً فــي العمــق منهــا[2]
لعينــك مثلهــا هــذا الضيــاء ؟ وتحســبُ أنْ سيــدرِكُهــا الفنــاء
فكيــفَ تخــافُ مــنْ ريــبِ الفنــاء إذا نَضِجتْ ، فعنهــا المــوتُ نــائي
ومــوتــاً غيــر هــذا خــاف قلبــي وروحــي بــل ومــاءٌ لــي وتــربــي
سكــون الخَفْــقِ فــي شــوقٍ أليــم وإبعــادُ الشَّــرارِ عــن الهشيــم[3]
وأنفسَنــا بــأيــدينــا نُكَفِّــن ومــوتٌ جــاءنــا نلقــى بــأعيــن
فــوتُــك كــامــنٌ لــك فــي الكميــن تــذكَّــر ، واخــشَ عــاديــة المنــون[4]
بجسمــك كــان حفــرٌ للحفيــر ومنكــرٌ فيــه جــاوره نكيــر[5]

السؤال السابع

ومنْ عبر السبيلَ ومَنْ مسافرْ ووصفُ كمالِ منْ في ذكرِ ذاكر ؟

* * *

الجواب

أطِــلْ نظــراً علــى قلــب تــردد بصــدركَ منــزلٌ ، إيَّــاهُ فــاشهــد[6]

---

(١) يقول : إنه لا يأخذ الشعلة بل شرارها .
(٢) المراد بالمعروف عنها العظيم من قدرتها .
(٣) يقول : إنَّ الموت الحق الذي يرهبه هو عدم العشق ، والهشيم : ما يبس وتكسر من النبات .
(٤) المنون : الموت .
(٥) منكر ونكير : اسم ملكين يحاسبان الناس في القبر ، والحفير : القبر .
(٦) المنزل : مكان النزول ومرحلة من المراحل التي ينتهي إليها سالك طريق التصوُّف .

وفي حَضرٍ بذلك تلكَ سفرةْ ومن ذاتٍ إلى ذاتٍ ، بخطرةْ[1]

فأين مقرُّنا يا ليتَ شعري وما لحنا لشمسٍ أو لبدرِ

ومالك غايةٌ ، لا تبغ غايةْ فروحُك تنتهي عند النهايةْ

بنا نضجاً ظننتُ وما نضجنا نقصنا في المنازل أو كملنا

وفي عدم الوصول لنا الحياةُ بسفرتنا تحشَّانا المماتُ[2]

تجوُّلنا برحبِ الأفقِ كانا وطئنا ذا المكانَ وذا الزَّمانا[3]

لغبنا ، حولَ أنفسنا ندورْ بقاعِ الكون موجتُنا تثور[4]

ودوماً كنْ لذاتكِ في الكمين ومن شكٌ ففرَّ إلى اليقين

وما لأجيجِ عِشقٍ من فناء ونظرةُ ذي اليقين بلا انتهاء[5]

كمالًا نظرة كانت بذات وذلك بالخروج عن الجهات[6]

بذات الحقِّ تخلو آنذاكا ترى مولاكَ والمولى يراكا[7]

---

(١) الحضر : ضد السفر . الخطرة : ما يلوح في الفكر . ومن معاني السفر : السير إلى الله من منازل النفس حتى يصل العبد إلى مقام القلب .

(٢) السفرة : المرة من السفر . والباء هنا للسببية . تحشاه : استثناه . يقول في الأصل : إن هذا السفر لنا حياةٌ خالدة .

(٣) الرحب : السعة . والمراد بالمكان والزمان هذا العالم بأسره . وفي الأصل مجالنا من السمكة إلى القمر . وهما في الفارسية ما هي وماه . كما قال إن الزمان والمكان تراب طريقنا .

(٤) لغبنا : تعبنا .

(٥) أجيج النار : شدة اشتعالها .

(٦) المراد بالجهات : العالم أجمع .

(٧) عند إقبال أنَّ هذا ما تبلغه الذات في أوج كمالها حتى في اتصالها المباشر بالذات المحيطة بالكل . جاء في سورة النجم عما شاهده ﷺ ليلة المعراج : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] أي : إنَّ بصره أثبته ما رأى إثباتاً صحيحاً مستيقناً ، فما عدا عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها .

ومن المفسرين من قال باستحالة تلك الرؤية كما أنَّ منهم من أجازها لأن موسى =

بنور فلتنر مِنْ ﴿ لن تراني ﴾ … وإن أغمَضْتَ عينكَ أنت فانٍ[1]

بذاتِك كنْ قوياً في حضوره … حذارِ من الضَّياعِ ببحرِ نوره[2]

وممَّا ماج فيك لتعطِ ذرَّه … بجانبِ شمسنا لتنير مرَّه

تحرَّقَ حيث يبدو في جلاء … وأظهرْ منك ذاتَك في ضياء[3]

برؤيته ، لعالمنا إمام … له لا للورى كان التَّمام[4]

وإيَّاهُ اطلبنْ إذا افتقدْته … بفضلِ ثيابه خذْ إنْ وجدْته[5]

ولا تمدُدْ إلا الملاَّ يمينا … ولا تُغْمِضْ عن الشَّصِّ العُيونا[6]

لأمرِ الدِّين والدُّنيا إمامُ … هو الرائي ، وقد عمي الأنام[7]

كمثلِ الشَّمسِ تُشرِقُ في الصباحِ … لديه شموسُ أفكارٍ صِحَاحِ

وغربيٌّ له حكماً أقاما … عن الشَّيطان قد خَلَعَ الزِّماما

بغيرِ العزفِ ليس له غِنَاءُ … حوته بما يطير به السَّماء[8]

ومن بستانه الصحراءُ أجمل … مدينتَه فدغ ، فالفقرُ أفضل

= طلبها .

(١) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

(٢) هذا صريحٌ في دَلالته على أنَّ إقبالًا لا يأخذُ بمذهب الفناء في الذَّات الإلهية .

(٣) يقول : أنر ذاتك عياناً وذاته في الخفاء .

(٤) الورى : الناس . والمراد هنا بالتَّمام : الكمال .

(٥) أخذ بفضل ثيابه : تمسك بما يمسكن التمسُّك به منها .

(٦) الملاَّ : هو الشيخ الذي لا يفقه الدين على ما ينبغي . الشَّص : الحديدة التي تؤخذ بها السمكة . يقول : إنَّ مثل هذا الشيخ يخدعك ، كما تُخْدعُ السَّمكة بالشصِّ لتصاد .

(٧) الأنام : النَّاس .

(٨) يقول : لا غناء ولا صدى عند الغرب إلا بالمعازف ، ولا يطير في السماء إلا بطائرة صنعها . وهذا من الدليل على إغراقه في المادِّية .

مــن الســرّاق شــرذمــةٌ تغيــر وراء الخبـز طـالَ بهـا المسيـر[١]
صحـا جسـمٌ وللـرُّوحِ السُّبـاتُ مـع الـدِّيـن الفنـونُ محقـراتُ[٢]
لــدى الكفّــار زاد الكفـر عقــلُ ولــلإنســان عنـد الغـرب قتــلُ
وهــذا راصــدٌ ولــذا الكميــنُ إلهـي ! كـنْ لهـم نِعْـمَ المعيـنُ !
إذا مــا شئــتَ بلِّغهــم كــلامــي نظامُ الحكمِ كـالسَّيفِ الحُسَامِ[٣]
علـى هـذا الحسـام الـروحُ تجـري يصولُ على الرقاب وليس يدري[٤]
ليدخل ذلك الصَّمْصامُ غِمْدَه وإلا أهلكَ الإنسان بَعْده[٥]

السؤال الثامن

أتعرف ما تضمَّنه (أنا الحقُّ) أتحسبه هراء حين ينطق[٦] ؟

الجواب

أعــاود عنــه قــولًا لــي يطــولْ وعنـد القـوم سـرٌّ مـا أقـول[٧]
بحلقتــه مجــوســيٌّ أشــاعــا (حيـاة بـالأنـا خـدعـت خـداعـا)

---

(١) السُّرَّاق : جمع سارق . والشرذمة : الجماعة من الناس .
(٢) السبات : النوم . في الأصل : الدين والفن والعلم . وأطلقنا الفنون على العلوم والفن .
(٣) السيف الحسام : القاطع . يقول : إنَّ هذا نظام الحكم في بلاد الغرب .
(٤) يصول : يثب . وفي الأصل : إنَّ هذا السيف لا يميز في الضرب بين مسلمٍ وكافر .
(٥) الصمصام : السيف . يريد له أن يستقرَّ في غمده ؛ لأنه يقتل نفسه بقتله الناس .
(٦) أنا الحق : قول منسوبٌ إلى الحلاَّج ، ذلك الصوفي الذي كان يتجوَّل في الأسواق ، وقد غلب عليه الوجد والطرب ، وحرص على الدَّعوة إلى آرائه وتعاليمه التي خرجت على مألوف القوم في زمانه ، فبلغت من أهل الدين مبلغاً شديداً ، واتهموه بالحلول والكفر ، وأفتوا بقتله ، فصلب في بغداد سنة ٣٠٩هـ . وإقبال يرى في الحلاَّج رأياً آخر يناقض رأي قومه ، ويعانده . ولذلك انبرى للدِّفاع عنه في عديدٍ من تآليفه .
(٧) عاود الشيء : عاد إليه . والمراد بالقوم هنا أهل إيران والهند .

سبـات الـربُّ فيـه الحلـمُ كنَّـا   وهـذا الحلـمُ مِنـهُ قـد خُلِقنـا ![1]

ولــولاهُ لمــا وُجِــد المكــان   بمـا يحـوي ولا وُجِـدَ الـزَّمـان

هـو العقـلُ المميـزُ بـلْ هـو القلـبُ   هو التَّفكيرُ والتَّصديقُ والرَّيب[2]

وفـي الأحـلام تُغـرِقُ نـاظـريكـا   وأقـوالاً وأعمـالاً لـديكـا[3]

وبـاستيقـاظـه يفنـى الجميع   فَمَنْ شوقاً سيشري أو يبيع[4]

لـدينـا العلـمُ نـورٌ بـالقيـاس   وتعـويـلُ القيـاسِ علـى الحواس[5]

تغيُّـر حسِّنـا سبـبُ التغيُّـر   لعـالمنـا ، فيشملنـا التطـوُّر

فمـا مِـنْ حـولنـا ريـحٌ ولـون   ولا يبـدي لنـا الآثـارَ كـون[6]

وهــذا كلُّـه وهـمٌ عجـاب   علـى وجـهٍ لخـالقنـا حجـاب

وخـدعـةُ حسِّنـا لا ريـبَ فيهـا   دخلنـا مـنْ خِـداعِ الحسِّ فيهـا[7]

فمـا ذاتٌ لنـا فـي الكـائنـات   بـذاتِ حسِّنـا قطـعُ الصِّـلات

حـريـمُ الـذَّات مـا بَلَغَتْـهُ نظـره   تشـاهـدهـا بـلا نظـر ، بخطـره[8]

لهـا يـومٌ بـلا فلـكٍ يـدور   تـأمَّلهـا فمـا شـكٌّ يثـور[9]

إذا سمَّيـتَ تلـكَ الـذَّاتِ وهمـا   كمظهـرِ أيِّ شـيء قلـت حتمـا

معـي قـل : مـن تخـامـره الظنـون   تـأمَّلهـا ، لتعـرفَ مَـنْ يكـون

---

(١) السبات : النوم . يقول : إن هذا الكون وما فيه حلم رآه الله في سباته . وهو ينسب هذا إلى المجوسي ؛ لأن الله جل جلاله لا تأخذه سنةٌ ولا نوم .

(٢) يقول : إن العقل والقلب هما هذا الحلم .

(٣) الناظران : العينان .

(٤) يشري : يشتري .

(٥) التعويل على الشيء : الاعتماد عليه .

(٦) الريح : الرائحة . وطالما سمَّى إقبال العالم عالم الرائحة واللون .

(٧) التيه : الصحراء التي تاه فيها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر .

(٨) الحريم : ما يحيط بالبناء كالحرم . الخطرة : الفكرة .

(٩) يقول : إنَّ أيامها ليست زماناً يحسب بدوران الفلك .

أعـــالمنـــا تـــرى ؟ أورد دليـــلا ... بفكـــرك كـــانَ ذلـــكَ مستحيـــلا[1]

لقـد خفيـت ، دليـلاً فـاطـرحـن ... تفكّـــرَ ، ذلـــكَ الســـرَّ اكْشِفَـــنْ

أراهـا الحـق مـا فـي ذاكَ بـاطـلْ ... لهـا أكـلٌ ، فـأيقـنْ لا تجـادلْ[2]

إذا نَضِجَـتْ ، لهـا امتنـع الـزوال ... فـراقُ العـاشقيـن هـو الـوِصـال

جنـاحٌ لـو حبـوت بـه الشَّـرارا ... لخلّـد فـي الخفـوقِ بـه وطـارا[3]

بمـا أبـلاه ربـي مـا الخلـود ... ببحـثٍ ليـسَ هـذا مـا يُـريـد[4]

لـروح طـابَ خلـد ، تستعـارُ ... ويَثْمَلُهـا مـن العِشْـق العُقـار[5]

ومـا للطَّـودِ والـوادي البقـاء ! ... ستبقـى الـذَّات ، للـدُّنيا الفنـاء[6]

عـن المنصـورِ مـا جـدوى الكـلام ؟ ... بـذاتِـكَ فـاطلبـنْ ربَّ الأنـام[7]

بذاتِك ضعْ ، ودعْ عنك الجِدالا ... وحقِّقهـا بمـا الحـلاجُ قـالا[8]

السؤال التاسع

وسـرَّ الـوَحْدَة الخـافـي أتـدري ... أيعلمُ عارفٌ يا ليت شعري ؟![9]

---

(١) يقصد أنَّ العالم ظاهر لنا ، إلا أنه مع ذلك في حاجة إلى دليل ، وهو ما يعجز حتى فكر جبريل .

(٢) الأكل : الثمر والرزق الواسع .

(٣) حباه : أعطاه .

(٤) أبلى في ذلك بلاء حسناً : أظهر قدرته فيه . والمقصود هنا عمل . وفي الأصل أن خلود الله ليس جزاء على عمله ، لأن هذا الخلود ليس له بالبحث والطلب .

(٥) يثمل : يسكر . العقار : الخمر .

(٦) الطود : الجبل . يقول أي قيمة لبقاء الجبال والوديان ، فالبقاء للذات وللدنيا الفناء .

(٧) المنصور : هو الحلاَّج . وقد ذكر إقبال معه من يسمى « شنكر چريا » وهو مفسر هندي لكتاب من كتب الهند المقدسة . الأنام : الناس .

(٨) دع عنك : اترك وأهمل .

(٩) العارف : العالم ، والحكيم ، والصُّوفي في ذروة المعرفة .

الجواب

مقـــامٌ تحـــت قُبَّتِهـــا يطيـــب وفيهـا النَّيـرانِ إلـى مغيـب ![1]

ونعـشُ الشَّمـسِ يحملـه المسـاء كـواكبُـه لهـا الكفـنُ الضيـاء

كمنهـالِ الـرِّمـال هَـوَتْ جبـالُ لهـذا البحـر بعـد الحـالِ حـالُ

علـى الأزهـار عـاصفـةٌ تثـور ورعـبٌ للقـوافـلِ مـن مغيـر

وإنْ بـالـدُّرِّ زان الطَّـلُّ زهـرا فبـاقٍ تـارةً ليـزولَ أخـرى[2]

بغيـر سمـاعهـا الألحـانُ تفنـى وتلقـى النَّـار في الأحجـار دفنـا[3]

حمـامٌ عنـه تَسْـآلٌ أيجـدي مـن الأنفـاسِ قُيِّدنـا بقيـد[4]

***

غزل

لنـا الكـاسـاتُ دارتْ بـالفنـاء وقـد ذُقنـاه مـن دانٍ ونـائـي[5]

---

(١) المراد بهذي القبة قبة السماء. وبالنيرين: الشمس والقمر، ولهما المغيب بعد ظهورهما.

(٢) الطلُّ : النَّدى . وهذا النَّدى يبقى تارةً ثم يزول تارةً أخرى .

(٣) يقول: إنَّ الألحان التي لا تسمع تموت في قيثارتها، كما تموت النَّار الكامنة في الحجر.

(٤) الحمام : الموت ، والتَّسآل : السؤال .

(٥) الغزل عند الفرس منظومةٌ ذات رويٍّ واحدٍ لا تقلُّ أبياتها عن سبعة ولا تزيد على خمسة عشر ، وموضوعها الغزل وغالباً ما تتضمن المعاني الصُّوفية . والشاعر يلتزم في البيت الأخير منه ذكر لقبه الشعري . وإقبال لا يلتزم شروط الغزل في هذي المنظومة .
دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . يقول الشاعر : إننا جميعاً نلقى الفناء .

تسمَّى ساحةٌ قد جال فيها بدنيا ، مِنْ نجومٍ في ضياء

بها إنْ ذرةٌ أبدتْ نِفَارا فرُقْيَة نظرةٌ كلَّ الغَناء[1]

أتطلبُ أن يقرَّ لنا قرارٌ بنا الأيامُ تجري جريَ ماء

شغاف القلب فاحفظ فيه ذاتاً وكوكبها سراجٌ للمساء[2]

هي الدُّنيا مقامُ الآفلينا وذا العرفانُ عند العارفينا[3]

بقلبٍ باطلاً ما إنْ أردنا وهذا الحزنُ منه قَدْ أفدنا[4]

هنا الرغباتُ ما هم يَرْمقونَهْ وبهجةُ شوقِهم ما يَطْلبونَهْ[5]

وفي الإمكان تخليدٌ لِذات وجعلُ الوصلِ منْ هذ الشتات[6]

ومصباحٌ بِزَفْرَتنا تألَّقْ بإبرتنا سماءٌ سوف تُرْتَقْ[7]

لدى القيُّومِ ذوقٌ للكلام تجلَّى في جموعٍ للأنام[8]

فَمِنْ برقِ التجلِّي كان فيه وذاكَ الجامُ مَنْذَا يحتسيه[9]

---

(١) الرقية : ما يقرأ على المسحور ليزول عنه أثر السحر . والغناء : الكفاية . وتكفي نظرة تبطل هذا النفار ، كما تبطل الرُّقية السحر .

(٢) شغاف القلب : غلافه ، والسراج : المصباح .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٦] وأفل النجم : غاب . وهذا في شأن إبراهيم عليه السلام الذي لم يحبَّ عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حالٍ ؛ لأنَّ مثل هذا التغيُّر من صفات الأجسام .

(٤) أفاد : استفاد .

(٥) يرمق : ينظر ويطلب .

(٦) الشتات : التفرق .

(٧) رتق الفتق : سدَّه .

(٨) القيوم : من أسماء الله الحسنى ، وهو بمعنى الباقي . وفي الأصل : الله الحي . الجمع : الجماعة . والأنام : الناس .

(٩) الجام : كأس الشراب . احتسى : شرب . وفي الأصل : من قدحَ برق التجلِّي في قلبه ، وشربَ تلك الخمر ، ثم ضرب رأسه بالكأس .

لِمَنْ قلبُ عيارِ الحسنِ منه | وطافَ ببيتِ من ؟ ما زال عنه[1]
(ألستُ) لخلوةٍ قد صعَّدتْها | (بلى) أيُّ المعازفِ ردَّدتها[2]
لعشقٍ أيُّ نارٍ في التراب | وحرَّق لحننا كَمْ منْ نِقَاب[3]
تدورُ الكأسُ ، لكنْ ما بقينا | بمحفلهِ الحياةُ غَدَتْ رنينا[4]
لعزلته فؤادي قد تحرَّق | أهيىء محفلاً ما إنْ تفرَّق
وأنثرُ حبةً في الأرضِ ذاتي | له قد صُنْتُ لا لِسَواهُ ذاتي !

الخاتمة

لِيُشهَرْ منك ذيَّاك الحُسام | بعمدكَ لا يطيبُ لك المقام[1]*
وتملكُ قدرةً فارفعْ نقابا | تنلْ شمساً وبدراً والسحابا
دُجَاك أنرْ بأنوارِ اليقين | يداً بيضاءَ أظهرْ لِلْعُيون[2]*
وعينَك فافتحنَّ على فؤادِك | من الشَّرر الثُّريَّا في حصادِك[3]*
ومن قلبي لتقتبسِ الشرارا | أنا الروميُّ إمَّا شئت نارا[4]*
وإلَّا ، نارَ غربٍ خذْ وحاذِرْ | ومُتْ في القلبِ كي تحيا بظاهِرْ

---

*(1) شهر السيف : أخرجه من غمده . الحسام : السيف .

*(2) الدُّجى : الليل . واليد البيضاء : المشعة . قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه : ٢٢ ـ ٢٤] .

*(3) الشرر : جمع شررة وهو ما يتطاير من النار كالشرار . والحصاد : الزرع . في الأصل . من فتح العين على قلبه ، نثر الشررة ، وحصد الثريا . والثريا مجموع كواكب تشبه بالعنقود والسنبلة في الشعر الفارسي .

*(4) الرومي : هو جلال الدين الرومي من أهل القرن السابع الهجري أكبر وأشهر شعراء التصوُّف عند الفرس ، وصاحب كتاب المثنوي الذي يعد أعظم الكتب أهمية في التصوُّف الإسلامي . وإقبال يردد ذكر الرومي في كتبه ، وينظر إليه نظرة المريد إلى

---

(1) العيار : ما يضاف من ذهبٍ أو فضةٍ إلى الدينار والدِّرهم . زال عن المكان : غادره . وفي الأصل : بمنزل من يطوف قمره .

(2) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] والشاعر يسأل عن الخلوة التي ذكرت فيها ألست ، والمعزف الذي ردَّد لحنها .

(3) التراب هنا هو الإنسان .

(4) ما بقينا : ما دمنا باقين . بمحفله : أي بمحفله الله .

رسالة العبودية

ترجمة نصبة كاملة

(بندگی نامة – لمنظومة إقبال)

رسالة العبودية

ناجى القمر المضيء للعالم ربه قائلا: إن نوري يحيل الليل نهارا!

وذكري الأيام التي كنت فيها نائما في ضمير الزمان، بغير ليل ونهار !

ولم يكن ثمة كوكب في سوادي، ولم يكن الدوران من طبعي !

وما ارتدت الصحراء مرآة من نوري ولا اكتسى الدر، وما وقع في البحر هياج لجمالي !

(لكن) آه من سحر الوجود وفتنه هذه ! وويلي من هذا الإشراق والتذوق !

لقد تعلمت الإشراق من الشمس وأنرت (دنيا) مترتبة ميتة. مترتبة ذات ضياء (لكنها) بغير فراغ، جبينها من العبودية قد تشوه!

إن آدمها قد اصطيد كالسمك، إذ هو آدمي جاحد لله، عابد للآدمي!

فمنذ جعلتني أسير الماء والطين، أخجلتني من الطواف حوله !

إن هذا العالم غير مطلع على نور الروح وليس جديرا بالشمس ولا بالقمر !

فدعه في الفضاء النيلي اللون، واقطع وشائجنا نحن النوريين عنه!

أو اعفني من خدمته، أو أوجد من ترابه آدم آخر !

فالأفضل لعيني المتفتحتين أن تكونا معتمتين عمياوين، والأفضل يا إلهي، أن تكون هذه المترتبة بغير نور !

إن القلب يموت في الجسد بالعبودية، وتستحيل الروح عبئا على الجسد بالعبودية.

وبالعبودية يحل ضعف الشيخوخة في الشباب، وبالعبودية تسقط الأنياب من أسد الغاب.

وبالعبودية يتفرق محفل الأمة فردا فردا ويكون هذا وذاك في صراع مع هذا وذاك.

(ولكأن) ذاك في سجود، وهذا في قيام، وتمسى أعمالهم وأعيلؤهم مثل صلاة بلا أمام.

ويتصارع كل فرد مع فرد آخر، ويكون لكل فرد في كل زمان إلها آخر.

وبالعبودية يربط رجل الحق الزنار، وبالعبودية يصبح جوهره زائفا !

ويتعرى غصنه عن الأوراق بغير مهركان (بريد وقت أن يحل فصل الخريف) ولا تكون في روحه سوى خشية الموت !

ويضحي بلا ذوق، فيظن الحمة ترياق، وهو ميت بغير موت، ونعشه على الكتف !

لقد ضيع ماء وجه الحياة، وقنع كالحمير بالتبن والشعير !

فانظر إلى ممكنه ومحاله، وانظر إلى حركته ومكوثه شهورا وسنين !

إنهم أياما في مأتم الواحد منهم بعد الآخر

وفي الوفاء بالوعد أقل من دقائق الساعة !

أرض بور تعج بحمى العقارب، نملها يلدغ التنين ويصطاد العقارب !

صرصرها نار من جهنم، ولزورق ابليس (فيها) ريح المراد ! نار تدور في الهواء، تنثنى شعلة في شعلة !

نار من دخان منتن كلها مرارة ! نار شديدة الرغوة، تهيج البحار!

على شفيرها الحيات في عراك، حيات ذات أصلال نائرة للسلم !

شعلتها عضوض مثل كلب عقور، مهولة، حارقة للأحياء (لكن) نورها منطفئ !

وإن تكون لمئات من الزمان في مثل صحارى البلاء هذه لأطيب من أن تكون (عبدا) محكوما لحظة واحدة !

في بيان الفنون الجميلة للغلمان

الموسيقي

هنالك مهالك في فنون العبودية، فماذا أقول عن دمدمة العبودية ؟!

إن نغمتها خالية من حرارة الحياة، لكنها تأتي على جدار الحياة كالسيل.

إن قلب الغلام أسود سواد عارضه، ونغماته رديئة رداءة طبعه !

فقد ذهبت الحرارة عن قلبه المتجمد، وذهب عنه ذوق الغد ولذة اليوم.

وكشف نايه من أسراره وموت أهل البلد في معزافه.

فهو يجعلك عاجزا مولود، ويجعلك نافرا من الدنيا.

إن عينيه تكتحلان بالدموع المتوالية، فلتنأ ما أمكنك عن دنيا ألحانه.

وحذار، فإن هذه النغمة ليست إلا الموت، والعدم وحده في كسوة صوته !

فإن كان بك عطش، فليس في هذا الحرم زمزم، وإنما هلاك الآدمي في خفض صوته ورفعه.

نه يزيل لهيب القلب عنه، ويغشيه غما، ويقدم السم في أقداح جسم.

ن الغم، يا أخي، قسمان، فاصغ إلينا واجعل شعلتنا سراجا لعقلك!

غم يلتهم الآدمي، وغم يأكل كل غم !

وذلك الغم الثاني الذي هو رفيقنا، أضحت روحنا بصحبته بغير غم.

ففيه صراع الغرب والشرق بحر، جملة الموجدات فيه غرقى ! عندما يحل بقلب يصبح القلب منه بحرا بلا شاطئ !

ما العبودية فهي تغافل عن أسرار الروح، تؤدي أنشودتها بذلك نغم الآخر إلى الضلال.

على أني لا أني لا أقول أن نغماته خاطئة،

كن مثل هذا العويل لا يليق إلا بالأرامل !

ك إن النعيم ينبغي أن يكون سريعا كالسيل، ليزيل الغموم عن قلب فرقة بعد فرقة.

ينبغي أن يخلق النغم الجنون، ويحل النار في دماء القلب. ومن داه يمكن أنكاء الشعلة، ويمكن أن يكون الصمت جزءا منه.

هل تعرف في الغناء ذلك المقام، الذي يجري فيه الكلام بغير حرف ؟!

ن النغمة الواضحة سراج للفطرة، يكون معناها نقاش الصورة.

أنا وإن كنت لا أعرف من أين ينبع المعنى، إلا أن صورته واضحة لنا معروفة لدينا.

ن النغمة إن لم يكن لها معنى، تكون ميتة ولهيبها يكون من نار باردة !

ن أسرار المعنى قد حلها المرشد الرومي، ولذا يسجد فكري على أعتابه.

((فالمعنى ذلك الذي يجذبك، ويجعلك في غنى عن النقش، وليس المعنى ذلك الذي يجل المرء أعمى أصم، وأكثر عشقا للنقوش)).

لكن مطربنا لم يدرك جلاء المعنى

فعلق قلبه بالصورة، وفر من المعنى !

التصوير

لقد رأيت فنا من التصوير، ليس إبراهيميا ولا آزريا: ((راهب في حلقة شباك الهوى. متيم مع طائر في القفص. ملك أمام فقير مرتديا الخرقة. رجل من الجبال يحمل حطبا.

عاشق في الطريق إلى بيت الصنم. جوكي (راهب) في خلوة الخراب.

شيخ يحترق بالآلام الشيخوخة فيتحول الطين في يده سراجا. مطرب ثمل بنغمة غريبة. بلبل صدح فتقطعت أوتاره.

شباب غض يصاب بنظرة واحدة. طفل على كتف الأب الشيخ)).

وتقطر من الأقلام مضمون الموت، وفي كل مكان أسطورة الموت ودمدمته !

إن العلم الحاضر في سجود لدى الأفل، فإنه يزيد الشك ويزيل اليقين من القلب!

وليس من لذة للتحقيق بغير يقين، ولا قوة للتخليق (طاقة للخلق بغير يقين، ولا قوة للتخليق (طاقة للخلق) بغير يقين.

وتدرب الرعشات في القلوب بغير يقين، ويشكل عليها تقبل النقش الجديد.

فيكون بعيدا عن الذات ومتألما وحسب، ويكون مرشده هو ذوق الجمهور وحده.

إنه يستجدي الحسن من الفطرة، وهو قاطع طريق، لكنه يتظاهر بأنه خاوي اليدين.

إن البحث عن الحسن في خارج ذاتك خطأ فإن ذلك الذي ينبغي أن يكون، أليس هو أمامنا ؟!

إن النقاش عندما يودع ذاته لدى الفطرة، يسقط نقشه ويمحو صورته.

فلم يبرز لون من لدنه زمانه، ولم يضرب محكمه على زجاجنا مرة.

وبقيت الفطرة في الطيلسان ذات الألوان السبعة.. بقيت على قرطاسه عرجاء زمنة !

والفراشة (التي يرسمها) غير خافقة بسبب قلة اشتعاله، والصورة التي يرسمها اليوم لا تعكس صورة الغد.

وليس لنظراته نفوذ في الأفلاك لأن قلبه في صدره غير مبال.

فهو مترب، بلا حضور. خجل، ليس له نصيب من صحبة الروح الأمين.

وفكره معدم ! ولا ذوق يحركه. وليس لصيحة اسرافيله قيامة.

ولو أن الآدمي قد عد نفسه في عداد الطين لا نطفأ نور الإله في ضميره،

عندما خرج الكليم (موسى) عن ذاته، أصبحت يده مظلمة وعصاه رسنا.

ليس ثمة حياة بغير قوة الإعجاز، وليس كل فرد عارفا لهذه الأسرار !

ما ذلك الفنان الذي يزيد على الفطرة فيكشف أسراره أمام باصرتنا؟

وهو وإن لم يكن بحره في احتياج، (إلا أن) نهرنا هو الذي يصل إليه بالخراج.

وهو الذي يجذب من بساط الزمان ثنياته، وهو الذي ينال منه كل حبيب العيار.

فحوره أجمل من حور الجنة: ومنكر لاته ومناته كافر !

وهو الذي يخلق الكائنات الأخرى ويهب القلب حياة أخرى. وهو الذي يتلاطم بحره وموجه ويطرح موجه أمامنا الدر. ومن سعة روحه يملأ شأنه كل فراغ. إن فطرته الطاهرة عيار للجميل والقبيح، وصنعته مشاطة لكل حسن وقبيح.

إنه عين إبراهيم وعين آزر، فيده تهدم الأصنام وتصنعها. وهو يزيل كل بناء قديم، ويصقل جملة الموجودات. وفي العبودية

يصبح الجسد خلوا من الروح. وأي أمل أفضل ترجوه من جسد بلا روح ؟!

فإن ذوق الإيجاد والتجلي يذهب من القلب، فيغفل الآدمي بذلك عن نفسه.

ولو أنه جعلت جبريل غلاما، لذهب عن القبة البلورية اللون !

ويصبح مذهبة تقليدا وعمله آزريا، وتكون الندرة في مذهبه كفرا!

ويزداد الوهم والشك في كل جديد عليه، فيقبل على كل قديم ودارس !

لقد ذهبت عينه وصار أعمى عن المستقبل، عندما تجاور رزقه وتراب المدافن !

فإذا كان هذا هو الفن ! فإنما هو موت الأمل: باطنه كريه وظاهره جميل.

إن الطائر العاقل لا يق أسيرا،

ولو وضعت له شباك من الحرير !

مذهب الغلمان

بين العشق والمذهب في العبودية فراق، وشهد الحياة فيها شيء المذاق !

والعشق؟ ختم التوحيد على القلب، وموجهة كل مشكل يقابلك.

وليس العشق في العبودية سوى كلام، فلا يصاحب عملنا قولنا.

إن قافلة الشوق بغير ذوق الرحيل

وبغير يقين وبغير سبيل وبغير دليل !

إن الغلام يفرط رخيصا في الدين والعمل ويسلم الروح ليبقى على البدن حيا !

وهو وإن كان اسم الإله على شفتيه، إلا أن قبلته هي طاقة صاحب الأمر.

إنها طاقة مشرقة اسمها الكذب، فلا تلد بطونها إلا الأكاذيب.

وهذا الصنم إذا سجدت له يكون إلها، فإذا اتجهت في القيام للواحد، يكون له الفناء.

وذلك الإله (الحق) يمنح العيش والروح، وهذا المولى (السيد) يسلب الروح ويعطى الرغيف.

وذلك الإله واحد، وهذا مئات من الشظايا. وذاك عون للجميع، وهذا بلا حول ولا قوة !

وذلك الإله علاج لآلام الفراق، وهذا المولى في كلامه نفاق.

إن العبد إذا ركن إلى ذاته تكفر باصرته وسمعه وعقله.

وإذا يركب أرواح عهده، تكون الأرواح في الأجساد.. لكنها عن الأجساد غائبة.

إنه حي بلا روح، فأي سر هذا ؟ لتتمعن ! فأنى أسوق إليك معنى جميلا، فانظر !

إن الموت والحياة يا متلقي الدقائق، ليسا إلا من الاعتبارات وحسب

فالأسماك بالجبال والصحراء بغير وجود، والطيور في قاع البحار بغير وجود.

وشجن المغنى للأصم منعدم، ولذة الصوت والصدى له منعدمة !

والأعمى يكون ثملا مسرورا أمام الصناجة، لكنه في عداد الموتى أما الألوان !

وإن الروح حية قائمة بالحق، وإلا فهذه ميتة وذلك حي ! إن ذلك الحق الذي لا يموت هو الحق، والحياة مع الحق حياة مطلقة.

وكل من يعيش بغير الحق ليس إلا ميتا، وإن لم ينح في مأتمه نائح.

فكل ما يراه بناظريه في حجاب، وقلبه خال من الذوق والشوق والهياج.

فأنى لأعماله لوعة المشتاق ؟! وأنى لأقواله نـــور الآفـــاق ؟! إن مذهبه ضيق مثل آفاقه، وإشراقه أظلم من عشائه. إن الحياة حمل ثقيل على عاتقه، وموته ربيب أحضانه.

والعشق من سحبته آلام، ومن نفسه تخمد نيرانه (نيران العشق).

وأين من تلك الديدان التي لم ترتفع من الطين أبدا

الشمس والقمر والفلك الدوار ؟!

فلا تطلبن ذوق اللقاء من غلام، ولا تطلبن منه يقظة.

فإن عينه لم تعان محنة الرؤية، وما كان له في الدنيـــا إلا الأكـــل والنوم الثقيل والموت.

إن حاكمه يحل قيده لو أنه وضع على روحه قدا آخر.

فهو يجعل له مذهبا كله عقد في عقد، ويأمره بأن يلبس درعا مـــن هذا المذهب.

وبذلك يجعله محكوما للقهر والحقد، ويزيد فيه الخوف من المـــوت المفاجئ.

حتى يصبح الغلام يائسا من نفسه، ويختفي الأمل من صدره.

وعندئذ يخلع عليه خلعة جميلة حينا ويضع في يده أيضـــا زمـــام الأمور حينا آخر.

وإن اللاعب الماهر لا يدع قطعة تقفز خارج يده، إلا بأن يجعـــل بيدقه يترقى إلى وزير.

لقد أذهبت نعمة اليوم عقله، حتى جعلته ينكر المعنى في الغد.

إن جسده ضخم من منح الملوك، لكن روحـــه الطـــاهرة نحيلـــة كالمغزل.

فأن تتألم روح طاهرة وتأسى، لأفضل من هلاك قريـــة الأحـــرار كلها.

ليس القيد على القدم وإنما هو على الروح

وإنه لمشكل في مشكل في مشكل !

في فن بناء الأحرار

اختر صحبة الذاهبين زمانا، وأبصر صنعـــة الرجـــال الأحـــرار أيضا.

وانظر إلى أعمال أيبك وسوري، وافتح عينيك إن كانت لك جرأة.

لقد أخرجا ذاتيهما، وبهذا تفرجا على نفسيهما.

لقد وضعا الأحجار على الأحجار، وربطـــا الزمـــان بمتعلقاتـــهما المتفردة.

إن نظرك إلى ذلك يجعلك أكثر حنكة، ويطرحك إلى عالم آخر.

إنه يأتي بالنقش إلى النقاش، ويعطيك خبرا من ضمير.

إن همة الرجال والطباع العالية، (تجدها) في القلب الحجرى لذينك اللعلين الغاليين.

ولا تسلني مسجد من كان هذا، فلا خبر عندي ! ولا تسل الجسـ عن أمر الروح !

آه من احتجابي عن ذاتي، وعن عدم ارتشافي من فرات الحياة.

وآه لقد قلعتني من جذوري وأصولي، وأبعدتني عن مقامي !

إن المحكمات من اليقين المحكم، ويا ويلتي من غصن يقيني وقـــ خلا من الندى.

ليس بي قوة ((إلا الله))

وسجدتي ليست جديرة بهذه الساحة !

انظر إلى ذلك الجوهر الرقراق، وانظر إلى ذلك التاج الذي تحـت القمر.

إن مرمره أكثر رواء من الماء الجاري ولحظة هنـــاك أدوم مـــ الأبد !

إن عشق الرجال يفضح سرهم، وثقب الحجر إنمـــا يكـــون بـــإبر الجفون (الرموش).

إن عشق الرجال طهر وبهاء كالجنة، ويقطر النغم فـــي الحجـــ والآجر.

إن عشق الرجال نقد نوعيان للحسان، ويكون للحســـن مدمـــرا أو حاميا !

لقد تجاوزت همته ذلك الجانب من الكون، وتجاوزت عالم كيـــف ولماذا.

وحيث إن ما رآه لا يجوز الخوض فيه.

فإنه رفع النقاب عن ضميره !

إن الجذبات ترتفع بالمحبة، وينال قدرا منها مـــن لا قيمـــة لـــه فالحياة بغير محبة مأتم كلها، وأعمالها وأعباؤها كلها قبيحة غـــير محكمة.

والعشق يصقل المعرفة، ويمنح الحجر خاصية المرآة.

ويهب العشاق صدر سيناء ويمنح أهل العقل اليد البيضاء.

ولديه كل ممكن وموجود حائر، وجميلة العالم مـــر وهـــو ســـكر النبات.

إن حرارة أفكارنا من ناره، وخلق الأرواح النفخ فيها شأنه.

ويكفي العشق أن يكون له النمل والطير والآدمي، ويكفي للعشـــق أن تكون له وحده الداران.

إن سلك اللب بغير قهر سحر، وسلب اللب مع القدرة هو النبوة.

وقد جمع العشق كليهما في الأعمال ومزج بينهما، وأثار العشـــق عالما في العالم !



الدِّيوانُ الخامِسُ

جَناحُ جِبْريل

بالِ جبريل

نَقَلَهُ مِنَ الأُردوِيَّةِ إِلى الفَرنسِيَّةِ نَثْراً

السيد ميرزا سعيد ظفر شاغتي

و السيدة سوزان بوساك

ثُمَّ نَقَلَهُ مِنَ الفَرنسِيَّةِ إِلى العَرَبِيَّةِ نَثْراً

الأستاذ عبد المعين الملوحي

ثُمَّ صاغَهُ بِالعَرَبِيَّةِ شِعْراً

الأستاذ زهير ظاظا

محتوى الديوان

يحتوي هذا الديوان على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : إحدى وستون قطعة تتناول أفكار الشاعر الشائعة في شعره في صور شتَّى ، ورباعيات قليلة .

القسم الثاني : قصائد نظمها في الأندلس حين زارها .

القسم الثالث : قصائد ، ومن عيونها « لينين أمام الله » وهي صورةٌ تمثيليةٌ رائعة ، ويوجد في هذا القسم غير هذه القصيدة ، بعض القصائد منها عن فلسطين ، ومحاورة طويلة بين جلال الدين الرومي ومحمد إقبال .

وقطعٌ كثيرةٌ متفاوتة العناوين ومختلفة المواضيع .

وقد نقله أولاً من الأردوية إلى الفرنسية نثراً ثم نقله من الفرنسية إلى العربية نثراً الأستاذ عبد المُعين الملُّوحي ، ثم صاغه في العربية شعراً الأستاذ زهير ظاظا ، وهو الآن بين أيديكم .

القسم الأول

(١)

دَوَّتْ بِصَـرخَـةِ رغبتـي أركـانَ حضـرتـه الشَّـريفـة
فـاسترحمتْـهُ العـاكفـون لفـرط جـرأتهـا المخيفَـة
هـي ذيْ مـلائكـةُ السَّمـاء وحـورُهـا أسـرى خيـالـي
بصـري يكـدِّر مـا يفيْـضُ بـه التجلِّـي مـن جمـالِ
إنْ كـانـتِ اقتصـرتْ علـى نقـشِ المسـاجـدِ همَّتـي
لـي سـاعـةٌ تجتـاحُ فيهـا الكـونَ جِـدَّةُ نظـرتـي
مـاذا فعلـتَ ، أبحـتَ سـرِّي هـاهنـا ، لكـن لمـاذا ؟!
وأنـا هـو السـرُّ الـوحيـد لهـمْ بِصَـدْرِ الكـون هـذا
أنـا مـا سكـرتُ بمـا سُقيْـتُ فهـل بكـاسـك مـن ثُمَـالـةْ
مـا مـدحـةٌ للبحـرِ أنْ يهـب النَّـدى ظِمئـاً حيـالـهْ

(٢)

لِـمَ أهتـمُّ بـأخطـاءِ النجـومْ ؟ وأذيـبُ القلـبَ فـي هـذا العنـا
إنْ أصـابـتْ شـأوَهـا أو أخطـأتْ فهـوَ شـيءٌ ليـس يعنينـي أنـا
ثـمَّ هـل يمكننـي أرثـي لهـا وأنـا أطلـبُ مـن يـرثـي لحـالـي
لسـتُ فـي كـونـك إلا حفنـةً فلمـاذا يُشْغِـلُ العـالـمُ بـالـي
هـوَ لـي أمْ لـكَ أنـتَ عـالمـي أم عـالمُـكْ ؟
كـلُّ غيـبٍ وشهـادةْ ليـسَ لـي منـه نصيـبْ
جـاهـدَ العقـلُ جهـادهْ هـو أم أنـتَ المصيـبْ
أنـا مـا قصَّـر فـي بحـريـك هـذيـن مضـائـي
رُغْـمَ أنِّـي ليـس لـي علـمٌ بمـا خلـفَ الفَضـاء
كيـفَ إبليـسُ الـرَّجيـم قـال : لا ، للكـون هـذا

ولمـــــاذا (أنـــــا حتـــــى الآن لا أدري لمـــــاذا) !!

ليـت شعـري أنـت حقًّـاً أمْ أنـا مـوضـعُ سـرِّهْ

أنـا بـالنسبـة لـي طـوَّحْـتُ فـي خيـري وشـرِّهْ

يـا أبـا القـاسـم يـا جبـريـلُ يـاقـرآنُ إنـي[١]

حلـفُ سيـرٍ فـإليكـم أيُّهـا السَّـادة عنِّـي

أئِنـا يشـرحُ مـا فـي القـول هـذا مـن حـلاوةْ

أنـا أم أنـت الـذي يَمْنَحُـه هـذي الطَّـلاوةْ

عطـرُك اللهـمَّ فـي الإنسـان مـا زالَ ولـونُـك

وبـإشـراقـة هـذا النَّجـمِ قـد أشـرقَ كـونُـك

أنـا مِـنْ آدم فـرعٌ وهـو مـنْ صُنْـعِ يَـدَيْـك

هـل أسـاءت هـذه الـرِّحلـة فـي شـيءٍ إليـك

* * *

قـد تـألَّفـتَ فـزِدْهُ ألَقـاً هـذا العِـذارْ

وأدمْ لـي حكمتـي فـي أسـره ليـلَ نهـارْ

خـذ إلـى أسـركَ قلبـي فَلَقَـدْ طـابَ التهـالُـكْ

أنـا لا أرغـبُ أن يُكْشَـفَ حبِّـي وجمـالُـك

أنـت كـاللُّجـة لا سـاحـلَ لـك وأنـا الجـدولُ لا لُجَّـة لـي[٢]

قـلْ لهـا تـأخـذني فـي حضنهـا وأغثنـي مـرةً مـنْ سـاحلـي

---

(١) يريد الشاعر أن يقول : إنَّ القلب السليم هو الّذي لا يحول بينه وبين الله رسولٌ ولا ملك ، إنّه حتى القرآن الكريم ممكن أن لا يزيد الظالمين إلّا خساراً .

(٢) المقصود ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] أنت أقرب إلي من حبل الوريد وأنا لا أرى شيئاً ، يا للفضيحة أنا كالجدول ، أيّاً كان ذلك الذي سيمر على ضفافه فإنه من غير أن يبذل كبير جهدٍ سيميِّز بين الحصى الخضراء والزرقاء .
أما أنت فكاللجّة ، حتى السماء إذا نظرت إليها فلن تجد أكثر من مرآةٍ تعكس زرقتها .

إنْ أكُـنْ قـوقعـةً فـارغـةً … فمن المسؤول عن هذا السُّلوك ؟
أنـت مـنْ يجعـل مـنْ هـذا الحصى … جـوهـراً يُلْهـبُ تيجـان الملـوك
ربٌ مـا قَـدَّرت لـي رَجْـعَ الـربيـغ … فـاحفـظ اللهـمَّ هـذا النَّفَسـا
فعسـى تـروي بـه قُبَّـرةٌ … ذلـك الغصـنَ الـذي قـد يَبِسـا
مـع مـا أرهقنـي عـبءُ الحيـاه … مـع مـا أخـرجتنـي مـن جنَّتـكْ
سترى كـم تـوبـةٍ فـي صفحتـي … وأرى كـم رحمـةٍ فـي صفحتـك
أنـا قـد يَخمـرُ وجهـي خجـلاً … حيـن تبـدو صُحُفـي بيـنَ يـديـك
فـرجـائـي عنـدمـا تقـرؤهـا … أنَّنـي أنظـرُ يـا ربـي إليـك
أعـرفُ الحـبَّ الـذي خَبَّـأتَـه … عن قلوبٍ سُمْتَهـا مـن ضَـرَمِك
أنـت لـو تجعلـه قطبـاً لهـا … لـم تطُـفْ إلا بـه فـي حَـرَمِـكَ
ارحـم الكَـلَّ الضعيـفْ … ضـاعَ فـي حقـلٍ وبيـدرْ
بـدلاً مـن ذا الـرَّغيـفْ … أعطـهِ قـوَّة حيـدرْ

(٤)

سـواء أهـزَّتْـكَ أم لـم تهـزَّك … شكـوايَ أطلـبُ تُصغـي إلَـيْ
أنـا وقـعٌ لسـت أسـأل عـدلاً … فيـا طـالمـا العـدلُ يبغـي علـيْ
سمـاءٌ وأرضٌ وريـحٌ غضـابْ … وكـلٌ علـى قبضـةٍ مـن تـرابْ
فهـل لـك فـي الخلـقِ مـنْ فـرحـةٍ … وهـل هـذه رحمـةٌ أم عـذابْ
أنـا العطـرُ خيمتُـه وردةٌ … تقـاومُ ريحـاً ببستـانـكَ
وبـالـرغـم مـن ضعـف أسبـابهـا … إلـى الآن تـزهـو بـألـوانـكَ
وبـالـرَّغـم مـن أنَّنـي فـي السَّمـاء … وضيـعٌ وأكثـرُ مـن مـزدرىٰ
رضيـتُ ببـؤسـي الـذي اخترتـه … وأنشـأتُ مملكـةً فـي العَـرا
خـلا الـروض مـا فيـه مـن أجْمَـةٍ … فتـاهـتْ عليـه المهـا والظِّبـاءْ
إذا كـان صيـادُنـا مـاهـراً … فليـس يصيـدُ بهـذا العـراءْ
إلـى عـالـمِ الحُـبِّ لا تستطيـعُ وصـولاً مـلائكـةٌ فـي السَّمـاءْ

ورايتُـــه ليـــس تُعطـــى ســـوى … لمـن لا يهـابـون سَفْـكَ الـدِّمـاءْ
ومـن أيـنَ تعـرفُ معنـى الـوِصـال … إذا لـم تنـلْ مـن ضِـرام الهجـرْ
ســألتـكَ تمـلأُ روحَ الشَّبـاب … بـأنّـاتِ إقبـال هـذا الفجـرْ
وتـؤتـي الشَّـواهيـن عـون الجنـاح … لتنـزلَ منـزلهـا فـي القِمَـمْ
وأمنيّـة العُمْـر هـذي الجـراح … تقسمُهـا بيـنَ كـلِّ الأمـمْ

(٥)

نمـطُ العَيْـشِ هـاهنـا … أفقـدَ الحـبَّ بهجتَـهْ
أدركِ الحـبَّ أخمـدتْ … نفحـةُ المـوتِ جـذوتَـهْ
فـي لهيـب انتظـاره … بـدَّدَ العمـرُ حُـزقتـهْ
ضـاع عمـري بلحظـةٍ … أخَـذَتْ منـه زَهْـرَتَـهْ
تـربـتْ مـن شـرارةٍ … قـاومـتْ منـه شُعْلَتَـهْ
هـبْ لـه خُلْـدَ روحـه … وأدِمْ فيـه سَخطَتَـه
وانظـرِ الأرضَ عنـدمـا … يهـبُ الأرضَ نظـرتَـهْ

* * *

(٦)

أنـا أرجـو ألا يقـوم رمـادي … أبـداً هـاهنـا بتقـويـم قلبـي
ورجـائـي ألّا يكـون عـذابـي … مثـل يـومـي غـداً أمـامَـك ربـي
ثـمَّ أرجـو ألّا أخـورَ وأبكـي … وتـرى الحـورُ لـوعتـي ونحيبـي
وعسـى هـذه المحـافـلُ ألّا … يـأخـذوا أيَّ فكـرةٍ عـن لهيبـي
ربّمـا يـذكـرُ المسـافـر يـومـاً … كـلَّ وخـزٍ رآه عَبْـرَ الطَّـريـقِ
فـرجـائـي ألّا يصيـر حنينـاً … ذلـكَ الـوخـزُ فـي فـؤادي الرَّقيـقِ
جعـلَ الحـبُّ مـن فـؤاديَ بحـراً … لـم أجـدْ سـاحـلاً لـه فـي حيـاتـي
أنـا أرجـو ألّا أفـاجـأ يـومـاً … وأرى سـاحلـي شعـوري بـذاتـي
ورجـائـي ألا أكـون ببحثـي … وهـو بحـثٌ بغيـر لـونٍ ومنهـجْ

أنعم إقبال النظر في فلسفة الحياة ، ونظريات السياسة والعمران عند الأمم الغربية ، فتجلّت له هذه الحقيقة : إنَّ هذه الفلسفة ، وهذا المنهاج في الحياة يجعلان هذه الدنيا جهنم لا محالة .

وإلى هذا كشف له السنن القرآنية حقائق الحياة حتى رأى البروق الكامنة في السُّحب ، والعواصف المضمرة في الرياح .

هذا النظر حفز إقبالاً إلى أن يحذر الغرب ، فيقول للغربيين سنة ١٩٠٥م : « ستقتل حضارتكم نفسها بخنجرها . لا يثبت العشُّ على غصنٍ رطيبٍ ضعيفٍ مضطرب » .

ولم يأل إقبال جهداً ، منذ ذلك الحين إلى آخر لمحات حياته ، في أن يحذِّر الناس عامَّةً والأمم الإسلامية خاصَّةً من هذه الحضارة الشيطانية ، ويخوفهم عواقبها .

***

وهذه طائفة من النذر ، اسمها « ضرب كليم » يكتبها إقبال بعد أن يحطم كلَّ أصنام العصر الحاضر ، ولكنه لا يكتفي بأن يبطل سحر الفرعونية ، والهامانية ، والقارونية[1] ، بل يهدي هذه الأمة في نور القرآن إلى الأودية المباركة من سينا ، وفاران ، حيث تفيض البركة من ينابيع الأرض ، وينزل الخير من السماء .

هذا ما يتعلق بـ « ضرب كليم » . ويجدر بنا الآن أن نبرز نقطة من الأهمية بمكان في دراسة إقبال بوجهٍ عام ، وهي : أنَّ شعر إقبال حافل بكلماتٍ معينة ، عربيةٍ وفارسيةٍ ، لم يقصد إلى مدلولها اللغوي ، إنما استخدمها كاصطلاحات من وضعه هو . إذاً لا يتأتّى لأحدٍ أن يتبين ما يرمي إليه الشاعر ما لم يكن ملمّاً بحدود تلك المصطلحات الخاصَّة ، مثل « علم وعشق ، ذكر وفكر ، خبر

---

(١) يعني : صفات فرعون ، وهامان ، وقارون .

(٧)

أيُّهـا السَّـاقـي لقـد قـامَ الغفـاة   ثـورةٌ فـي كـلِّ شـيءٍ فـي الحيـاة
ذرَّةٌ لـم تَخْـلُ مـن عـاصفـةٍ   أيُّهـا السَّـاقـي خـذ الكـأس وهـات
نُهِبَـتْ خيـراتُنـا أجمعهـا   لـم نَعُـدْ ننفـعُ شيئـاً لِلْعبـاد
أيُّ عيـنٍ قـد أصـابـت ركبنـا   جَعَلَتْـهُ هـائمـاً فـي كـلِّ واد
فتنـةٌ فـي القَلْـبِ قـد أودتْ بنـا   نحـن أبنـاءُ أطبّـاءِ القلـوب
أيـن فـي وديـاننـا المـاءُ الـذي   قبـلُ أحْيَيْنَـا بـه روحَ الشُّعـوب
لِـمَ لا يَنْطَلِـقُ التَّـوقُ الـذي   يُـوقـدُ الجـذوةَ فـي صَـدْرِ الحـرمْ
حُجُـبٌ غطَّـتْ عيـونَ المـؤمنيـن   أن تـرى زمـزمَ قُـرْبَ الملتـزمْ
رغـمَ أنَّ النَّهـرَ والبستـانَ فـي تبـريـزَ بستـانٌ ونهـرْ
لـم يـزالا لـم تَقُـمْ جـوقـةُ رومـي منـذ دهـرْ
قـل لهـا إن شئـتَ هـذا النهـرَ والبستـان قـومـي
لـو تـرى إذْ رَقَصَـتْ تبـريـز فـي حضـرةِ رومـي
أنـا لا أيـأس مـن حقـلٍ ذوىٰ   أيُّهـا السَّـاقـي إذا المـاءُ هطَـلْ
فـأعـذْ رونقـه إنْ لـم يكـن   وابـلاً يـا أيُّهـا السَّـاقـي فَطَـلْ
أيُّهـا السَّـاقـي هُـمُ قـد منحـوا   لـذوي الكـديـة أسـرارَ الملـوكْ
أنـا لـو أُعطيـتُ دنيـا أبـرويـز   لـم أكـنْ أرغـبُ عـن هـذا السلـوكْ
أنا لا أخلو بما أنعمته من موهبه   ليس من طغرل أو سنجار في بيتي هبه
أنا بالفطرةِ أصبحتُ رقيباً للوجودْ   رغمَ هذا ما لجمشيدِ على قلبي قيودْ

***

(٨)

ألا يـا أيُّهـا السَّـاقـي   مـن الكـاسـاتِ هـاتيـك
لعلـي أنْ أرى يـومـاً   مكـانـي مـنْ معـانيـك
لمـاذا أُغلِقَـتْ أبـوابُهـا   الحـانـاتُ فـي الهنـد

مضت هدراً ثلاثُ قرونٍ بَعْدَ سقوطِ سرهندٍ[1]

مضت هدراً ثلاثُ قرون   في حانٍ هَدَمْناها
ولم تتحمَّل النُّدمان   بُعْدَكَ أيها السَّاقي
ذوت غزليتي لا شيء   واللاَّشيء حرَّمه
علينا بائع اللاَّهوت   بَعْدَكَ أيُّها السَّاقي
قلوبُ أسودنا في الغاب قد هَجَرَتْ تحقُّقَها
مع الصُّوفيِّ والملاَّ عبيدٌ أيُّها السَّاقي
منِ انتزعَ الحقيقةَ من مهنَّد حبِّنا هذا
وما أبقى لها إلا   قراباً أيُّها السَّاقي
كلامُ القَلْبِ حينَ يكونُ حيَّاً خمرُنا الباقي
وإلا كان للأرواح موتاً أيُّها السَّاقي
أنا ليلٌ بلا قمرٍ   وما لي هاهنا قَدْرُ
ألا يا أيُّها السَّاقي   بكأسك ذلك البدرُ
بكأسك سرُّ ذيَّاك السُّكون وهذه الحركة
فأينَ الماءُ، ماذا كان   ردُّ الخضرِ للسَّمكة

(٩)

ساقيَّ ما حصل الذي أبغيه   الذَّات عالمها متى نلغيه
القلبُ منشغلٌ بما عاطيته   عمَّن يغنيه ومنْ يَسْقيه
ذهبتْ بجوقته كؤوسُك كلُّها   لم تبقِ إلا الصَّمتَ في واديه

---

(١) إشارة إلى المصلح الكبير الإمام الرباني مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي المتوفى سنة ١٠٣٤هـ، ويذكره الشاعر في مناسبات عديدة في دواوينه المختلفة، انظر للاطلاع على حياته وجهوده الإصلاحية الجزء الثالث من سلسلة العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي لكتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع دار ابن كثير بدمشق .

مـا مثلـه متسـوِّلٌ فـي حـانـةٍ ... بـالـلامبـالاة التـي تـرويـه[1]
لـو جـاء مـاءُ الخضـرِ كسر كـأسَـهُ ... ورثـى لـذي كلـفٍ بـه يـأتيـه

* * *

سـاقيَّ والكـأس الصغيـرة لـم تعـد ... تكفـي هلـمَّ لـه بمـا يكفيـه
فـرغـتْ دِنـانُ القَـوْم فـي أديـارهـم ... وأتيـتُ أسـألـك الـذي تخفيـه
بصـري علـى طمـحٍ وقلبـي جـامـحٌ ... فـاستـرْ إذا أحببـتَ مـا أنـويـه
غـادرتُ لـؤلـؤتـي الَّتـي أغـرقتَهـا ... فـي البحـر تنعـمُ مـنْ ضيـائك فيـه

* * *

نظـراتُ هـذا الشِّعـر تَسْحَـرُ لبَّنـا ... والحسـنُ لا يحتـاجُ للتنـويـه
تضفـي علـى لـونِ الشقـائـق رونقـاً ... وتـزيـدُهـا ألقـاً بمـا تضفيـه

* * *

مـرةً تبصـرُ المحـبَّ شـريـداً ... مـرةً تبصـرُ الملـوكَ لـديـه
مـرةً يقحـمُ النِّـزال عـريّـاً ... مـرةً يحشـدُ الـدروع عليـه

(١٠)

أحـرقـتْ رغبتـي بـلاهـةَ سُـوقٍ ... فـأتَتْنـي ملـوكُـه تشتـريهـا
لسـتُ أبتـاعُ سكـرةَ الملـك غُبْنـاً ... بعبـوديتـي الَّتـي أنـا فيهـا
لا يليـقُ الـوجـود هـذا بحـرٍّ ... سـرُّه يشتكـي وجـودك ذاكـا
لـم يجـدْ هـاهنـا مـنَ المـوتِ بـدّاً ... أو مفـرّاً مـن الحيـاة هنـاك
لـذَّةُ العِشـقِ مـن فـراقٍ وهجـرٍ ... فـاتَّـقِ اللهَ أنْ تقـولَ لمـاذا
مـا تـردَّدتُ أو تشـردتُ يـومـاً ... أو تسكَّعـتُ فـي طـريـقٍ كهـذا
لا يمَـلُّ الشَّـاهيـن مـا يـرتجيـه ... بيـن غـابٍ يـرودُهـا وجبـالِ

(١) انظر : « حانة القلندرية في (منطق الطير) للعطار ص٣٧١ ، طبع دار الأندلس » .

ويـرى فـي اتخـاذه الغُـشّ عـاراً نـاعـمٌ بـالُـه شـديـدُ المحـالِ
مـن تُـرى يسّـر الـذّبيـح لبـرٍّ بعـدمـا كـان تلّـه للجبيـنِ
كثـرةُ الـدَّرسِ أمْ نبـاهـةُ نفسٍ إنَّ فـي ذاك آيـةً للضَّنيـنِ
سلـوة الشرق حيـن يجرح شعـري وضـريحـي لكـلِّ طلعـةِ حـرِّ
جنتُ (آلوند)[1] مرةً بعد أخرى فغبـارُ الطـريـق يعـرفُ سـرِّي
ليـس يحتاجُ زخـرفَ القـول معنىً كيفمـا قلتَـه سبيـتَ الغـوانـي
مـا استعـارتْ يـدُ الحـديقـةِ لـونـاً حيـنَ صـاغَـتْ شقـائـقَ النُّعمـان

* * *

هـو ذا الحـبُّ مـرةً إلْـفَ وادٍ مـرةً وحـدَه يغنِّـي الجبـالا
مـرةً بـالغيـاب يَشْقَـى وأخـرى يمـلأ القلـبَ غبطـةً ووصـالا
طـالمـا ألهـبَ المحـاريـبَ وَجْـداً طـالمـا أصْلَـح المنـابـرَ بـالا
مثلـه مثـلُ الإمـامِ علـيٍّ أخـذ العلـم كلَّـه والقِتـالا

(١١)

ألا يتـذكَّـرُ يـومَ اللقـاء وتـاريـخَ لحظتِـه الحـاسمـهْ
ومـا قـدَّس الحـبُّ مـن بقعـةٍ وأسيـافَ نظـرتـه القـاسمـهْ
ذوى الحـبُّ فـي أنفس العـاشقيـن ولـم يبـقَ منـه سـوى وسـوسـهْ
وصـرنـا إلـى زمـنٍ مـالـه إلـهٌ سـوى صنـمِ المـدرسـهْ
يقـولـون أستـاذنـا آزرٌ ولـلآن مـا عـرفـوا رسمَـهُ
هُـمْ وثنيُّـون لا يعـرفـونَ مـن فـنِّ آزرَ إلّا اسمَـهُ
نَعَـمْ هـمْ إلـى الآنَ لـم يعـرفـوا رشـاقـةَ فطـرتـه البـادئـهْ

---

(١) آلوند : جبل في إيران جنوبي غرب طهران وهو بمثابة (رضوى) عند شعراء العرب ومن هنا اختار عزّام أن يستبدل آلوند برضوى في ترجماته ومن الجدير بالذكر أنَّ إقبال نظم جناح جبريل على غرار رباعيات (بابا طاهر الهمداني) الذي يكثر في شعره ذكر جبل آلوند وميمند .

تطوَّح معبدُهم في الرِّياح ولم تبق زاويةٌ هادئة
تعجَّبت من عالمٍ هكذا فلا هُوَ عُشٌّ ولا هُوَ قَفَص
هب الكرْمَ رونقَه يا كريم فلم يبقَ في الدَّنِّ إلا غصص
وحاناتُ إيران قد أجدبتْ وهذي التي فجَّرت عينَنَا
يظنُّون شعري لأجلِ الرَّبيع وما علموا ما الذي بيننا
دمي وغباري هما الجوهرانِ اللَّذانِ يجيشان فيما تشيدْ
وأنت سفكتَ عليها دَمي وخلدُ التألُّق أجرُ الشهيد
بفضلك لا أشتكي الأصدقاء ولا أشتكي جَورَ هذا الزمانْ
وثوبُ الحياة التي خضتُها بفضلِكَ أخلعُه في أمانْ
فهبني بسرِّك ذوقَ الفَناء كما فنيَ السَّابقون الأوَلْ
فلا الحزنُ ثبَّط منْ عزمهم ولا الخوفُ أقْعَدَهُم في الدُّولْ
نعمْ ، عقدَ الفكرِ أطلقْتها وخلَّصتني من شياطينهِ
متى الحبُّ تمنحني سرَّه وتجعلني من مجانينهِ

(١٢)

يَهَبُ الشَّقيق بلا حسابٍ خمره فترى الكؤوس على مدى البُستان
عجباً من الصُّوفيِّ يترك زُهْدَه لأقلِّ بارقةٍ بهذا الحانِ
الحبُّ يجعلُ حيثُ مدَّ بِسَاطَهُ من طعمةِ المتسوِّلين ملوكا
يرثون شرفة أبرويز بمكرِهم فتظنُّ كان كمثلهم صُعلوكا
هذي النُّجومُ عتيقةٌ كسمائها هل من نجومٍ غيرِها وسماء
يا ليتَ شعري والقيامةُ أزلقتْ ما حظُّها من هذه الضوضاء
مولاي عينك لو أدرتَ لحاظَها عنِّي لحلَّ الويل بي في لحظتي
أنا غبطتي عند الصباح تَنَهُّدي حاشاكَ تحرمني وداعةَ غبطتي
لم لستَ مُهْتَمّاً بهذا كلِّه ؟ ولو اهتممتَ جعلت منه يقينا
عيناكَ لامعتان إلا أنَّها دلَّتْ على عدم اكتراثك فينا

أنـا لا يـلائمنـي ربيـعٌ طـافـحٌ ... بـالـزَّهـر لـم يُـدْرِكْ مـدى أحزانـي
ويظـنُّ مـن خُيَـلائـه عـن فـرحـةٍ ... غنَّـى لـه العصفـور فـي البُستـانِ
قـالـت لـي الحمقـى تبـدَّد شملُنـا ... فكنِ ابنَ عصرك أيها المجنونُ[1]
فـأجبتُهـم إنْ كـان غيـرَ مناسـبٍ ... فمـن المناسـب حـربُنـا المكنـونُ
حقّاً أبو الحسن المحقِّقُ قال لي : ... الـرُّوح لا تفنـى إذا فنـي الجسـد
أتظـن تبقـى الشَّمـس مشـرقـةً إذا ... هي أنكَرَتْ هذا الشُّعاعَ إلى الأبد[2]

(١٣)

عـدمُ اكتـراثِـك لـم يـزلْ وشقـائـي ... لـم أستفـدْ شيئـاً بكـلِّ غِنـائـي
ربَّـاه أيـنَ أنـا وأنـتَ وإنْ يكـنْ ... هـذا فضـاؤُك أنـتَ أيـنَ فضـائـي ؟
ولـكَ الـوجـودُ جميعُـه أمْ لـي أنـا ... والكـونُ سِحْـرُكَ أمْ تمـوُّجُ ذاتـي
مـا خضـتُ إلا وقعـةً نشبـتْ بـه ... فـي سـاحهـا أنفَقْـتُ كـلَّ حيـاتـي
مـا خضـتُ طوال العمـر إلا وقعـةً ... نَشَبَـتْ علـى لغـزٍ مـن الألغـازِ
بحـرارةِ الـرُّومـيِّ كنـتُ أخـوضهـا ... حينـاً وحينـاً بـاكتئـابِ الـرَّازي
ما أفلحَتْ تلكَ العُقابُ وقد نَمَتْ ... وتـرعـرعـتْ بيـن النُّسـور الكـاسـرة
فَلِصَقْـرِنـا الملكـيِّ سـرٌّ واحـدٌ ... لـم تـدره تلـك العُقَـابُ الحـائـرة
لِلْحُـبِّ أغنيـةٌ ومـا لِغِنـائهـا ... لغـةٌ ، ولا تحتـاجُ لـلألفـاظِ
هـي إن تكـنْ أو لـمْ تكـنْ عـربيـةً ... فـالسـرُّ كـلُّ السـرِّ فـي الألحـاظِ

---

(١) شاهد من سعدي شيرازي وهو حرفاً : انسجم مع الزمن .

(٢) في الأصل (أيمكن أن تظل الشمس مشرقةً لو أنكرت أشعتها) وفي الهامش أنَّ الشمس هي الذات الكونية ، وأشعتها هي الذوات الفردية .

قلت : وقريب من هذا .

ربـاه ذاتـك فـي سمـاء حيـاتنـا ... شمـس أشعتهـا ذوات النـاس

وقريب من هذا قول شوقي في معارضته لعينيَّة ابن سينا :

يـا نفـس مثـل الشمـس أنـت أشعّـة ... فـي عـامـرٍ وأشعـة فـي بلقـع
فـإذا طـوى الله النهـار تـراجعـتْ ... شتى الأشعة والتقت في المرجعِ

مـــا بيـــن دروشـــةٍ ولا ملكيـــةٍ … فـــرقٌ إذا صلحـــتْ أمـــورُ الـــذَّاتِ
كلتـــاهُمـــا تغـــزو الـــوجـــودَ فهـــذه … بيـــدِ الجنـــودِ وتلـــكَ بـــالنَّظـــراتِ
البعـــضُ قـــد تـــركَ الرِّكـــابَ لغيـــرهـــا … والبعـــضُ يكتُـــمُ جـــرحَـــهُ ويعـــانـــي
لـــو أتقـــنَ الحـــادي مقـــامـــاً واحـــداً … لـــم يـــرغبـــوا عنْـــهُ لحـــادٍ ثـــانِ
الفكـــرُ حتَّـــى بـــالفضيلـــةِ لـــم يَعُـــذْ … يرضى بقولِ القلبِ في تفسيرها
والقلـــبُ حتَّـــى بـــالتَّجـــارب كـــافـــرٌ … ويـــردُّ قـــولَ الفِكْـــرِ فـــي تقـــريـــرهـــا
فـــإلـــى متـــى هـــذا النفـــورُ يقـــودنـــا … وإلـــى متـــى تجتـــاحُنـــي أنفـــاســـي
اللهُ يعلـــم مـــا رأت نفســـي الَّتـــي … أقســـو عليهـــا رحمـــةً بـــالنَّـــاسِ

(١٤)

أنـــا لا يبـــدو مجـــالـــي هـــاهنـــا … يتعـــدَّى أبـــداً ظِـــلَّ القمـــرْ
وأرى اللُّعبـــة مـــن مـــاء وطيـــن … ليس في كوني سوى هذا السَّمَرْ
أيُّ عيـــنٍ هـــاهنـــا مـــا افتتنـــتْ … عنـــدمـــا مـــزَّقـــتُ أطـــرافَ الـــرداءْ
تـــربـــتْ مـــن أعيـــنٍ كـــانـــتْ تـــرى … بقعـــةً زرقـــاءَ فـــي هـــذي السَّمـــاء
كـــمْ لنـــا قـــافلـــةٌ مـــرهقـــةٌ … طـــوَّحَـــتْ خَلْـــفَ تـــلافيـــفِ الأثيـــر
إنَّ هـــذا المشتـــري والنَّيِّـــريـــنْ … بعضُ من صاحبتُ في هذا المسير
هـــذه الأرضُ وهـــاتيـــكَ السَّمـــاء … فـــي رحـــابِ الســـرِّ لا تنتهيـــانْ
قفـــزةٌ واحـــدةٌ مـــنْ عـــاشِـــقٍ … تجعـــلُ الأســـرارَ فـــي جُبَّـــة كـــانْ
أنـــتَ إنْ حـــاولـــتَ كتمـــانَ الهـــوى … فَضَحَتْـــهُ صـــرختـــي عِنْـــدَ الصَّبـــاح
صـــرخـــةُ الحـــبِّ التـــي تملكنـــي … لـــم تـــدعْ للحـــبِّ ســـراً لا يُبـــاح
رغـــمَ مـــا تطلقُـــه مـــنْ حيـــرةٍ … صـــرخـــةُ التـــائـــه مـــنْ غيـــر دليـــلْ
هـــي عنـــدي وكمـــا أعـــرِفُهـــا … دعـــوةٌ تُغـــرِبُ عـــن قُـــرْبِ الرَّحيـــلْ

* * *

إنْ تكـــنْ ربَّـــاً فيعنـــي عنـــدنـــا … صـــرتَ تهتـــمُّ بـــأرضٍ وسمـــاء
وجَـــعٌ فـــي الـــرأس لا يتـــركُـــه … لهنـــاء فـــي صبـــاحٍ ومســـاء

أستميــــحُ العُــــذرَ إمَّـــا إنْ تكـــنْ مَحْـضَ إنسـانٍ على هـذي الوِهـادْ
فهــو لا يعنــي(تمـامـاً) عنـدَنـا وَجَعاً في الرَّأسِ ، لكنْ في الفؤادْ

(١٥)

واضــحٌ قــولــي ، وفِكْــري نيِّـرٌ رغــمَ أنِّــي حــافــلٌ بــالحِيَــرِ
طينتـــي هـــذي الَّتــي أملِكُهــا كــلُّ مــا أعــرفــه عــن قــدري
ليــسَ عنــدي غيــرَ شــيءِ واحــدٍ أنـــا أم أنـــت الـــذي يَمْلكُـــه ؟
أنــت لــو مَكَّنْتَنــي مــنْ صــونــه عــن زمــانــي لــمْ أكــنْ أهْتِكُـه
كيــف لا تُعــرِبُ عنِّــي صــرختــي كيــف لا تمــلأُ أرجــاءَ السَّمــاءْ
أنـــا غَنَّيْـــتُ كمـــا علمتنـــي أنـا أم أنـت الـذي صـاغَ الغِنـاء ؟!
خطـــأٌ إن كـــان فـــي تصميمنـــا مــا الــذي يــدعــو إلــى تكــراره
ذلـــك الإنســـانُ مـــا قيمتُـــه ومتـــى يخـــرج مـــن فخَّـــاره
رغـــم أنَّ الغَـــرْبَ مـــا علَّمنـــي مـن جميـع العلـم غيـر التُّـرَّهـاتْ
فـأنـا يـؤسفنـي (المـلأ) الـذي صـار لـلإسـلامِ عـاراً فـي الحيـاة

* * *

أيهــا المسلــم[1] يــا نــورَ السَّمــاء كيـف لا تشـرقُ فـي أرضِ البشـرْ
أنـــت سلطـــانُ الليـــالـــي لا كمـــا قـــالـــتِ الحمقـــى أسيـــرٌ للقَـــدَرْ
إنَّ أصنـــامـــي التـــي فـــي مَعْبَـــدِي مثلُهـــا تلـــكَ التـــي فـــي معبـدِكْ
لـــم تحطمْهـــا يـــدٌ غيـــرُ يـــدي فتــرفَـــعُ عـــن يـــدٍ غيـــر يـــدك
ذلـــك الأعمـــى الـــذي تَقْصِـــدُه مـــا لـــه علـــمٌ بمـــا فـــي قلبـــك
هـــو لا يبصـــرُ حتَّـــى نَفْسَـــه وتـــراه تحفـــةً مـــن ربِّـــك

---

(١) في ترجمة النثر للأستاذ الملُّوحي « يا أنت ! وقد اختلف النقاد في تحديد المنادى » ص٩٨ .

رَبَّاه هذا الشَّوق ينبضُ روعةً ويروحُ حتى في ابتياع الدَّاء
بالرَّغم من هذا فأرخصُ سلعةٍ عند الشراء مواهبُ العلماء
ملكَ المرابون البلادَ جميعها وتقامروا حتَّى على الأديانِ
والناسُ يعتقدون رغم شقائهم للإنكليز بمطلق السُّلطانِ
لم تمنحِ العلماءَ حتى قشَّةً وجَعَلْتَهُم أخلى العبادِ وفاضا
والإنكليز وهم عبادٌ مثلُنا يُعْطون أبناء الحمير رياضا
ملئت كنائِسُهم بكلِّ ملذَّةٍ فهنا اللحومُ وهاهنا الكاساتُ
هل في مساجدنا بكلِّ بلادِنا إلا المواعظُ تلك والصلواتُ[1]
قرآنُك الحقُّ المبين وإنْ يكن قاسي كلامَ مفسِّريه وعاني
لو يرغبون برأيهم أن يجعلوا القرآن (بازند المجوس)[2] لكانَ
فردوسك اللهمَّ لم يره هنا أحدٌ وأنتَ هو السَّميعُ المُبْصرُ
الإنكليز بلادُهم فردوسُهم والمسلمون إلى سمائِك تنظرُ
ما زال فكري في سمائِكَ حائماً فاسجنْه في فلكٍ من الأفلاكِ
تأبى عليَّ ملائكيَّةُ فطرتي أنْ أستمرَّ بهذه الأشراكِ
لك ذلكَ الدَّرويش جرَّح نفسه حاشا تكون لقلبه جهتانِ
لا في سمرقندٍ ولا دلهي ولا في أصبهانَ له مقامٌ ثانِ
أنا لستُ مِسكيناً ولستُ مراوغاً والحقُّ : أرفضُ غيرَ نفسي شاهدا
غضبت عليَّ الأصدقاء جميعُهم والحقُّ لا يبقي صديقاً واحدا
لم أستطع أبداً أسمِّي سُمَّهم حلوى وأعرفُ أنَّه قتَّالُ

---

(١) المقصود اللادنيوية التي مُني بها المسلمون واللَّادينية التي انتهى إليها الغرب ، فليس في كنائسه إلا دنيا ، وليس في دنيا المسلمين إلا مساجد .

(٢) البازند : شرح ترجمة معدلة لكتاب زرادشت (رأفيستا) ويُشير الشاعر إلى عناصر في هذا الدين مثل الثنوية وارتكاب المحارم (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(دومند) عندي لا يسمَّى صخرةً ... وعليه من قُلَلِ الجِبال جِبالُ
لما قُذِفتُ لنارِ نمرودٍ أتى ... جبريلُ يسألني فَلَمْ أتكلمِ
وصمتُّ لمَّا قال : هل لك حاجةٌ ... أنا مسلمٌ أنا لستُ حبة شَيلمِ
ربَّاه ! إني أتعبَتْني حيرتي ... ما عاد يمكن أن أغضَّ عيوني
الحسنُ من حولي يشيع وصاله ... والحُبُّ في صدري يذيعُ فتوني
سكرانُ مغتبطُ السَّجيَّة منتشٍ ... بالفقر فرحانُ الفؤاد بهيجُهُ
يا ليت شعري كيفَ يُحْرَمُ برعمٌ ... من رغبةٍ في الابتسام تهيجُهُ
لم يستطعْ إقبالُ يكتمُ جرحه ... حتَّى أمام الله قام وقالا
من سوف يُسْكِتُ ذلك الوَقِحَ الذي ... لم يبقِ للمتجمِّلين جمالا

***

القسم الثاني

علق إقبال على هذه القصيدة بقوله :

تفضَّل جلالة السلطان نادر شاه ـ الذي استشهد بعد ذلك ـ بدعوتي فاغتنمتُ زيارة ضريح الفيلسوف السنائي الغزنوي في شهر (تشرين الثاني) عام ١٩٣٣م وقد نظمتُ هذه التأمُّلات على نمط قصيدةٍ مشهورةٍ لهذا الفيلسوف[١] ذكرى لهذا اليوم السعيد :

« إنَّنا نسير على خُطى السنائي والعطَّار »[٢] .

***

(١) القصيدة نمط من الشعر العربي اقتبسه الفرس ، ويتَّجه إلى مدح شخصية ما ، أو إلى تجسيد عقيدة عند أهل التصوُّف كالسنائي (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(٢) الشطر الثاني من بيت لمولانا جلال الدين الرومي .

لـم تَقْـوَ صحـراءُ الطبيعـة هـذه لما جننتُ على احتواء جنوني
لـولا الجنونُ أساء في تقديرها لـم آتها بمخاوفي وظُنوني
بالذَّات يمكنُ أن نكسِّر سِحْرَ ما بعثتهُ من عطرٍ ومن تَلْوين
لا أنتَ تملكُ في الحياةِ ولا أنا أسرارَ وحدانية التَّكوين!
صُوَرُ الوجودِ تموجُ نُصْبَ عيوننا فاملأ عيونَك ما ملأتُ عيوني
لـو يستطيعُ البحر يتركُ موجه ألقى بموجِ الظنِّ بحرُ يقيني
بين المحقِّق والفقيه خصومةٌ عَصَفَتْ بمِنْبَرِ ذلكَ المسكينِ
لمَّا رُئِيَ الحلاَّج فوق صليبه كسَرَ الصَّليبَ تعصُّباً للدِّينِ
ما بَيْنَ مِنْبَرِ ذا وبين صليبِ ذا لـم ألق غير خصومةٍ من طِيْنِ

* * *

رجلُ البصيرةِ لا يذوقُ هوانا سِيَّان عبداً كانَ أو سلطانا
يختالُ والدِّرع الوحيدةُ زهدُه لا يشتكي زمناً ولا شيطانا
جبريلُ دعني في الحياة وسكرتي لا أنتَ أستاذي ولا أنا عَبْدُكَا
أنا إن تَبِعْتُ خُطاك خنتُ خلافتي شتَّانَ وَجْدي في السَّماء ووَجْدُكَا
سَفْكُ الدِّماء رسالةٌ مذمومةٌ لكنَّها في الأرض أقدسُ فرضِ
أهلُ السَّماء صلاحُهم في أنَّهم يستغفرون بها لمن في الأرضِ
كم ذا ذهبتُ مُشَرِّقاً ومُغَرِّباً أتفحَّصُ الحاناتِ في الآفاقِ
فهنا كؤوسٌ لا مذاقَ لخمرها وهناك خمرٌ ما لها من ساقِ
طورانُ من إيرانَ تأخذُ ثأرها ويلاطُ قيصر من دمائهما ندي
ذهب الدراويش الذين عهدتَهم لا يأبهون لصارمٍ ومهنَّد
وبقيتُ في حرمٍ يتاجر شيخه بوشاحِ فاطمةٍ ومصحفِ أحمدِ
لما اشتكى لله إسرافيلُ من شكوايَ قال ـ بحرقةٍ وتنهُّدِ ـ :
هذا الفتى قبل الأوان يريد أن ينهي الوجود بشِغْره المتمرِّدِ
فأجابه صوتٌ : أليس أشدَّ من هذي النِّهاية ما ترى يا سيدي

إحـرامُ أهـلِ الصِّيـن داخـلَ سـدِّهـا ورقـودُ مكَّـةَ فـي جـوارِ محمَّـد

* * *

مِـنْ (لا إلــه) لنـا كـأسٌ يمنِّينـا

وكـؤوس (إلا الله) كُسـرَتْ بـأيـدينـا

الكـأسُ طـافحـةٌ بـالنَّفـي فـي الأرواح

والكـأسُ فـي الإثبـات تبكـي ذهـاب الـرَّاح

العـازفُ المـوهـوبُ بـالعَـزفِ أخـرسنـا

نبكـي بـلا صـوتٍ ونخـونُ أنفسنـا

عجبـاً لأوربَّـة بـالنَّهـر تُغـرينـا

وبـذاتِ لجَّتـه ضـاعـتْ معـانينـا

تُخفـي بهـدأتهـا تيَّـارَهـا المـاحـي

عصفـتْ فمـا تـركـتْ وَكْـراً لتِمْسـاحِ

رأيُ العبيـد بهـا لا نطمئـنُّ لـه

وتقـرِّرُ الأحـرارُ الـرأي مجملـه

لا شـيءَ يُقْنِعُنـا إلا اجتهـادٌ وفـي

يـأتـي بلـؤلـؤةٍ مـن ذلـك الصَّـدَفِ

ذاكَ الـزُّجـاج إذا عَجَنْتُـه فـي الكِيـر

فـأنـا أسـوِّيـه صخـراً بـإكسيـري

لـي فـي الجهـاد يـدٌ فـرعـونُ يخشـاهـا

بيضـاءُ مـا مُـدَّت إلَّا لمـولاهـا

أتظـنُّ أوربَّـة أنْ ينتهـي نَفَسـي

أو تنطفـي نـاري فـي قشِّهـا اليَبِـسِ

نـاري وقـد أذكـتْ مـا اخضَـرَّ مـن قصبـي

لا شـيءَ يمنعُهـا مـن ذلـك الحَطَـبِ

متفــــاهـــمٌ قلبـــي — لا يعـــرفُ اليــأســا
الحــــبُّ علّمـــه — أنْ يُــزغِـم النَّفسـا
مـــن عُسْــرِ عـــالمــه — يستخــــرجُ اليُسْـــرا
لا قَيْصــــرَ قيصـــرِه — يـــرجـــو ولا كِسْـــرى
متعلّــــقٌ أبـــــداً — بـــركـــابِ سيِّـــدِهِ
لا غَـــزْوَ لــــلأقمـــاز — يَسْقُطْـــنَ فـــي يـــده
هـــو سيِّـــد الأشيـــاء — هـــو خـــاتـمُ الــرُسُــلِ
هـــو شُعْلـــةُ السَّـــاري — فـــي هـــذه السُّبـــلِ
هـــو مـــركـــبٌ مـــنْ نـــور — يمشــي أمـــام الـــرَّكْـــبْ
أعطـــى جنـــون الطُّـــور — لغبـــار هـــذا الـــدَّرْبِ
هـــو أولُ المَيْـــدانِ — هـــو آخـــر الـــدَّربِ
فـــي أعيـــنِ السَّكـــرانِ — مـــنْ نَشْـــوَةِ الحــبِّ
هـــو رحمـــةُ القُـــرآن — للنَّـــاس أعطـــاهـــا
هـــو سيِّـــدي يـــاسيـــن — هـــو مـــالكـــي طـــه
أقلعـــتُ عـــن غَـــوْصـــي — وتـــركـــتُ أخمـــالا
لـــولا (سنـــائـــي) مـــا — أقْلَعْـــتُ إجـــلالا
لـــولاه عـــنْ بحـــري — لـــولاه مـــا حِلْـــتُ
فـــلآلـــيءٌ فيـــه — أضعـــافُ مـــا قلـــتُ

(٢)

الشاعـرُ الفـرحُ الحـزيـنُ معـاً أنـا — حـذر الحكيـمُ أشُـوبـه بجنـونـهِ
أوتيـتُ ملكَهمـا بـوجـهِ معـذِّبـي — ورميـتُ بـالاثنيـن حـول عيـونـه
والزُّهد منْ شِيَم الملوك فإن تجِدْ — ذا الفقـر فيـه فَمِـنْ عظيـم فتـونِـهِ

زهدُ الملوكِ كأبرويز محبةً ... ألقى ممالكه إلى شيرينهِ[1]
وكهدأةِ الأسدِ المقيم كما يُرى ... ما بين مِخلَبِه وبين عرينهِ
لا قعدةُ الصُّوفيِّ مُنهدِمَ القُوى ... من فقد دُنياه وضيعةِ دينِهِ
ما قول سادتِنا الدَّراويش الَّتي ... سمعت لآهات ابنها وأنينِهِ
هو من رجالِ الله إلا أنَّه ... سيثيرُ عاصفةَ النُّشور بطِينِهِ
رجلٌ تنيرُ طريقهُ شطحاتُهُ ... حيٌّ كمثلِ البَرقِ بين شؤونه
ملكٌ أماراتُ الجنونِ بوجهه ... والعَبْدُ يفضحُه غباءُ سكونه
تيمورُ أو جنكيزُ كانَ كِلاهما ... ملكاً وخدش الله فوق جبينه
شعري بفارسَ والعراقِ محيِّرٌ ... طرِبوا له وتحيَّروا لشجونه
الكافرُ الهنديُّ[2] يذبحُ دونما ... سيفٍ ولا رمحٍ فَمَنْ لجنونه

(٣)

روعةُ السرِّ التي أعطيتُها ... والَّتي مكَّنني منها الجنونُ
إنَّ أنفاسي الَّتي أحدو بها ... أُخِذَتْ من صَدْرِ جبريلَ الأمينِ
لستُ آتي النَّجم كي أسألَه ... عن مصيري هاهنا كيف يكونُ
هو لا يعرف من أينَ أتى ... في رحابِ الكونِ منبوذٌ مَهِيْنُ
ما حياةُ الناس إلا سكرةٌ ... وهي في اليقظة أو في الحُلْمِ
لا تُضِعْ عمرك في تفسيرها ... كثرةُ الحيرة موتُ الهِمَمِ

* * *

فرحي تفجَّر من ... قدمي إلى رأسي

---

(١) يمكن أن يكون في هذا إشارة إلى قصر « دربند عجم » الَّذي بناه أبرويز لمعشوقته شيرين رمزاً لحبِّه كالملك المغولي شاهجهان الذي بنى « تاج محل » في القرن الخامس عشر الميلادي رمزاً لحبِّه لزوجته « ممتاز محل » .

(٢) انظر من تلقَّب من الشعراء بالكفري (مكتوبات الإمام الربَّاني الجزء الأول ، ص٣٢) .

والقـــــومُ تطلــــــب أنْ أنسَـــــلَّ مِـــــنْ نفســـي
مـــا ســـرُّ قلبــــي ؟ آهْ لضميــــــره العـــــذبِ
وسمــــــوٌ نظـــــرتـــــه فـــي سكـــرة الحــبِّ
لا أرتضـــــي بـــــدلاً عـــن قلبـــي المجنـــونْ
بكنـــــوزِ قـــــارونٍ وعلــــومِ أفـــلاطـــونْ
معـــــراجُ سيِّـــدنـــا علـــمٌ عظيـــمُ الشـــانْ
بـــدتِ السَّمـــاء بـــه فـــي عـــالـــمِ الإنســـان
لابـــدَّ يُـــذهِشُنـــا مـــا كـــان يُختَمَـــلُ
فـــوجـــودنـــا هـــذا مـــا زالَ يَكْتَمِـــلُ
فـــي كـــلِّ آونـــةٍ نُصْغـــي إلـــى إعـــلان
يلغـــي خـــرافـــاتِ مـــن ســـالـــف الأزمـــان
ألهتـــك أوربَّـــة بـــالسِّحـــر عـــن ذاتـــك
إيَّـــاك أن تـــرضـــى عـــن كَسْـــرِ مـــرآتـــك
لا تتـــرك الـــرُّومـــي[1] ولهيـــبَ حـــرقتـــه
فـــدواؤك الشَّـــافـــي فـــي نـــارِ نَظْـــرَتِـــهِ

---

(١) يرى إقبال أنَّ المراحل المختلفة للخبرات الداخلية ترتبط بأحوال مختلفة من الوعي الذاتي ، وبالتالي فالخبرات الداخلية التي نجدها في الأدب الديني العالمي مهما كانت مغلفة في مفاهيم سيكيولوجية متقادمة فإنها لا ترتكز على وهم ، وإنما تحمل قيمةً معرفيةً كاملة .
والظاهر : أنَّ العلم الحديث ما زال لا يملك الأدوات التي يستطيع بمقتضاها أن يحلِّل بدرجةٍ مناسبة مضمون هذه الخبرات الصوفية .
ويريد إقبال بتمجيده للرومي أن يعرب عن سخطه على الفلسفة المجردة داعياً إلى الفلسفة التجريرة التي تجلت عند الرُّومي في مبدأ العشق العيني المشار إليه في قول الرومي : ليس الحرام تنظر إلى وجه الحبيب ، وإنما الحرام أن لا يكون لك حبيب تنظر إليه « انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ فصل إقبال والرومي » .

أو مـــــا اسْتَعَـــــذْتَ بــــه ... مـــا ضـــاعَ مِـــنْ نَفْسِـــك
إيـــــاك كنـــــت تـــــرى ... جيحـــون فـــي كـــأســـك

(٤)

ألا يـــا عـــالمـــاً فـــي المـــاء ... بيـــن التُّـــرب والأهـــواء
ظـــاهـــر ذلـــك الســـرِّ ... أنـــا أبـــديـــهِ أم أنـــت
وهـــذا الليـــلُ فـــي حـــزنٍ ... وحـــرقتُـــه وحيـــرتُـــه
ولحـــنُ مـــؤذّنِ الفَجْـــرِ ... أنـــا أعطيـــه أم أنـــت
نشـــاط الـــدَّهـــر يطلـــبُ مَـــنْ ... أنـــا أم أنـــت يثقِلُـــه
ويَخمـــلُ عبئـــه يجـــري ... أنـــا أغـــريـــه أم أنـــت
غبـــارٌ نحـــن يـــا أعمـــىٰ ... ولكنّـــي أعيـــي ذاتـــي
فحقـــلُ الكـــون لا أدري ... أنـــا أسْقِيـــه أم أنـــت

* * *

(٥)

كمـــا أنـــتَ لا تكتـــرثْ للسّنيـــن ... وَسِـــرْ فـــي طـــريقـــكَ نحـــو الأمـــام
كمـــا أنـــت لا تُصْـــغِ للقـــائليـــن ... فلســـتَ لنجـــدٍ ومصـــرٍ وشـــام
تعـــالـــى جهـــادُ النَّـــزيـــه الغَيـــور ... تعـــالـــى يكـــونُ لنيـــل الحُطـــام
وجـــائـــزةُ الحـــرِّ غيـــرُ الخمـــور ... وغيـــرُ الغـــوانـــي وغيـــرُ الخِيـــام
علـــى الطُعْـــمِ يسقـــطُ مـــن لا يطيـــر ... ومـــن لا يحلِّـــق فـــوقَ الغَمـــام
إذا سلـــب الغـــربُ قلـــب الغَـــريـــر ... فســـرُّك يغـــزو مصيـــرَ الأنـــام
عصـــاك تُصَـــدِّع صُـــمَّ الجبـــال ... وتعـــرف سينـــاءُ صِـــدقَ الكـــلام
فـــدعْ تـــرفَ الغمْـــدِ مـــا للهـــلالِ ... علـــى فخـــره غيـــرُ شكـــلِ الحســـام
إمـــامُـــك يفقـــدُ معنـــى الخشـــوع ... ويَنْقُـــضُ نجـــواك عـــزُّ القيـــام
أمثلـــك يـــرضـــى بهـــذا الخنـــوع ... وتلـــك الصَّـــلاة وذاكَ الإمـــام

* * *

نسيبُ جبريلَ معصومٌ من الرِّيبِ وحكمةُ الذَّوق تعلو حكمةَ الكُتُبِ

كم كانَ مِنْ سفنٍ للقومِ أغرقها سلَّمُ التَّصوفِ واللاّهوتِ والأدبِ

كنْ ثاقبَ العين في قلب الأسود لها جرحٌ فما لثُغَاء الشاة من عَتَبِ

جسَّ الطبيبُ بقلبي ما أكابِدُه فقال : ويحك ما تخفيه منْ طلب

تطلعاتُك لا طاقاتُ تحملها لكن (لكَ الحقُّ) لا تيأس من السَّببِ

وما يُسمَّى صفاءَ الرُّوح أعرفه وليس هذا الذي في قلبك اللَّجِبِ

هذا الدمُ القِرْمزيُّ اللونِ (نَضْرَتُه) تدلُّ أنَّك لم تشربْ شرابَ غبي

(٧)

لشقائق النعمان قنديلٌ على الآكام يشرقُ من جديد[١]

ويحثُّني العصفورُ في البستان ، يرغب أن أجدِّد في النَّشيد

الحورُ صفٌّ بعد صفٍّ والزهورُ مبعثرة

ضجَّ الجميعُ ولا أظنُّ جميعَ هذا ثرثرة

---

(١) يبدو أنَّ القصيدة ستكون غامضةً إذا تُركت بغير تعليق للرُّموز التي طفحت بها والتي تعطيك فكرةً بشرحها عن طبيعة شعر إقبال وما فيه من رمزية مغرقة ، وتستطيع أن تأخذ فكرةً واضحةً عن ذلك إذا تأملت ما هُمش به جناح جبريل ـ الأصل ـ من اختلاف النقاد في فهم كثير من شعر إقبال .

يشير إقبال في هذه القصيدة إلى أنَّ الحضارة قد دخلت في طورٍ جديد ، وهي بحاجة إلى ديانة تناسبها ، وهذه الناس الذاهبة هنا وهناك تبحث عن شيء ، وهاهي الذوات بدأت تستقل ، كلُّ واحد معتصمٌ بذاته وهذا سيجعل تلك الديانة أكثر جمالًا ؛ لأنَّ الديانة الحقة إذا نزلت على الفطرة الحرة كانت كمثل لؤلؤة النَّدى على الزهرة الحمراء . سيتألق البستان ، وغاية الفطرة هذه هي الجمال كله ، ولا يمكن لهؤلاء الذين أصبحت نفوسهم كالمدن في تعقيدها إزاء صفاء الفطرة لا يمكن لهم أن يفهموا كلَّ هذا ؛ لأن هذه الزحمة في نفوسهم ستحول بينهم وبين تجلّي القصة في ثوبها الجديد ، ويختم إقبال رموزه بإشارات لا تحتاج إلى تعليق .

الثَّوب أصْفرُ أصفرُ والثَّوب أزرقُ أزرقْ
والقِرمزيَّةُ قِرمِزيَّةٌ والتفرُّدُ مُطْلقْ
ألقى نسيمُ الصُّبح لؤلؤةً على تاج الزُّهور
والشَّمسُ نوَّرت النَّدى لتزيد من ألقِ العُطور
من هذه الغاباتِ قامَ الحسنُ يبدأ رقصتَه
في هذه الغاباتِ لا في المُدْنِ نفهم قصَّتَه
اغرَقْ بذاتك ما استطعْتَ فشطُّ بحرك في حياتك
إنْ كان يزعجُك انتسابي فانتسبْ لجمال ذاتِك
ما عالمُ القَلْبِ ؟ المحبةُ والمروءةُ والحماسة
ماعالم الجسدِ ؟ التِّجارة والتملُّق والسياسة
يا أنتَ أنتَ إذا وَجَدْتَ غنى الفؤاد فَلَنْ تُرَاع
أما غنى الأجساد فهو وكلُّ ما فيه ضَياع
وإذا وَجَدْتَ القلبَ ثم أضعته فالحقُّ أنّك ما وَجدتَه
والحقُّ : أنَّك ضائعُ الخُطواتِ من وهم تُصَدِّق ما ظننتَه
للإنكليز سيادةٌ في غير قلبِ المسلمِ
ما فيه تأويلاتُ شيخٍ أو مسائلُ برهمي
لو كنتَ تَسْمَعُ للقلندر حينَ قال وحينَ جلَّلني حياء
لما انحنيتَ أمام غيرك صرتَ منْ جسدٍ ومن قَلْبٍ هباء

(٨)

دَمُ المسلمِ النُّورُ في دَرْبِه ومَوهبةُ السِّحر في قلبه
ويعترفُ العصرُ أنَّ الجمالَ صَبَا وترَعْرَعَ في شعبه
ولولا مدارسُ هذي الشُّيوخ وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها
لرؤى المدينةَ مما ارتواه وأورقَ بالحبِّ بستانُها
صغارُ الشَّواهين ما ذنبها هُمُ علَّموها عناقَ الغبارْ

هُـمُ قتلـوا القَلْـبَ فـي صَـدْرِهـا ... هُـمُ أبـدلـوهـا بهـذا الشَّنـاز

تـرى النشـأ يمـلأ وجـه الطـريـق بـروحـاتِ نِسـرٍ وغـدواتِ بـاز

ومفتـي المـدينـةِ وادٍ سحيـق ... يضُـجُّ بمصطلحـاتِ الحجـاز

أنـا لسـتُ أفهـمُ هـذي الكـؤوس ... ويـؤسفنـي مثـلُ هـذا اللَّجـاج

ومـن كـان يحسنُ نَحْتَ الصُّخور ... تـرفَّـع عـن أن يَصُـوغ الـزُّجـاج

يقـولـون إقبـالُ مـاذا يـريـدُ ... ومـن أيـن جـاء بهـذا السُّلـوكْ

سـألـتُ الـدَّراويـشَ عـن سِرِّهـا ... وألقيتُـه فـي وجـوهِ الملـوك

(٩)

هـو الحـبُّ يمضـي حِيـالَ الحيـاة ... يغنِّـي نشيـدة ألحـانِـهِ

ويـرسِلُهـا فـي وجـوه التُّـراب ... ويمنحُهـا بعـض ألـوانِـهِ

يُغَلْغِـل فـي الأرض أوتـارَه ... ويمـلأ هيكـلَ إنسـانـهِ

كمـا يَتَغَلْغَـلُ ليـن النَّسيـم ... بسيقـانِ زهـر وقفطـانِـهِ

إذا المـرءُ لـمْ يَـدْرِ مـا ربُّـهُ ... تحـوَّل عبـداً لسلطـانِـهِ

ومـنْ طلَـبَ اللهَ لا مِـنْ سـواه ... وأدركَ قيمـةَ عِـزْفـانـه

تحـوَّل (دارا) لـه طـالبـاً ... و(جمشيـدُ) من بعضِ نُـدْمَانِـه

يجـاهـدُ للقلـب حـرُّ الجهـاد ... وللبطـن صعلـوكُ أوطـانـه

وذاك يحصِّـل سـرَّ الخلـود ... وهـذا يمـوتُ بميـدانـه

تمعَّـن بقلبـك واستَنْبِـهِ ... ولا تسـألِ الشَّيـخ عـن شـانـه

خـلا حَـرَمُ الله مـن أهلـه ... فكـنْ أنـت جَـذْوةَ أركـانـه

* * *

(١٠)

القَلْـبُ يَنقُصُـه الهـوى ... والعَيْـنُ يَنقُصهـا الصَّفـاء

مـنْ لـمْ يُغـامِـز مثلمـا غـامـرتُ تـدهشـه السَّمـاء

مـا سـرُّ طينتِـك الَّتـي ... ذوقُ التَّجلِّـي نقشُهـا

أتَضِيعُ فـي وهـم الحيـاة وأنـت قلبـك عـرشَهـا
حـاشـا لأوروبـة الَّتـي جفَّـت دمـوعُ عيـونهـا
حـاشـا تنيـرُ بقطـرةٍ مُلِئَـتْ بليـلٍ ظنـونهـا
هـل يعـرفُ الصـوفـيُّ والمـلاَّ حقيقـةَ جـذبتـي
ضنُّـوا بكـلِّ ثيـابهـم وأنـا أمـزِّق جبَّتـي
مـا مـزَّقـا يـومـاً ولا حشـواً ولا طـرفَ الـرِّداء
فـاعجـبْ لصُـوفـيٍّ ومـلاَّ يلجئـونـك للـرِّيـاء
حتَّـى متـى يـا طينتـي تتـوسليـنَ إلـى النُّجـوم[1]
كـانـتْ نجـومـاً ثـمَّ ضـاعـتْ خلـفَ أوهـامِ العلـوم
إمَّـا أكـفُّ أنـا وإمَّـا أن تكـفَّ عـن الـوجـودِ
هـذا الصِّـراعُ البـاردُ الـواهـي طـريـقٌ للجحـودِ
مـا دُمْـتُ صـاعقـةً ففـي الصَّحـراء أعمـلُ والجبـال
عُشْـبٌ وقـشٌّ يـابـسٌ لا يستحقَّـان انفعـالـي
الكـونُ ميـزانٌ يكـونُ لـذي الشَّجـاعـة والجـلادِ
للمـؤمـنِ الحـقِّ المخـاطـر بـالحيـاة لمـا ينـادي
حـاشـا لمـن (لـولاك)[2] فـي يـده يـرى شيئـاً منيعـا
مـا مـؤمنـاً مـنْ لـمْ يكـنْ للكـونِ علتـه جميعـا

* * *

(١١)

ألـفُ خـوفٍ ولا قيـامُ لسـانـي بحـديـثٍ ممـا يُكَـذِّب قلبـي
عنـدمـا قلـت للقلنـدر[3] هـذا قـال : أحسَنْـتَ إنَّ ذلـك دأبـي

---

(١) ربما كان المقصود هنا : « بأيهم اقتديتم . . . » (الحديث) .
(٢) لولاك لما خلقت الأفلاك .
(٣) القلندرية : طريقة صوفية يمكن أن تكون امتداداً للملامتية ، ويشير السهروردي في =

عوارفه (٢٣٢) إلى عدة فروق بينهما ، وعنه ينقل المقريزي ذلك بتصرف في الخطط (٢/ ٤٣٢) .

وترتبط نشأتها في التراث الإسلامي بمجيء جمال الدين الساوي إلى دمشق بعد سقوط ساوة في أيدي التتار حوالي عام ٦١٧هـ .

انظر الوافي للصفدي (٤/ ٢٩٢) . النعيمي (٢/ ٢٠٩) معجم البلدان (ساوة) ، تلبيس إبليس (٣٩٨ ، ٤٠٥ ، ٤١٧) . (الكواكب السائرة ٣/ ١٩١ ترجمة علي بن صدقة) . (وفيه ١/ ٤٨ ترجمة محمد الجارحي) . (وخلاصة الأثر ٣/ ٣٨٩ محمد بن أحمد العبادي) وانظر التذكرة التيمورية وعلى هامش لطف السمر (١/ ٣٥٣). والعبر (٥/ ١٤١) والبداية والنهاية حوادث سنة ٧٦١هـ ورحلة ابن بطوطة (٣٣) ونلفت النظر إلى وجود جملة من المعتقدات الزرادشتية ترتبط ببحيرة ساوة ، وفي الحديث (خمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوة) وهذا ما يفسر وجود بقايا زرادشتية في الأدب القلندري .

وينبغي أن يمحّص رأي دائرة المعارف الإسلامية « النسخة الفرنسية » من أنَّ قلندر يوسف الإسباني هو مؤسس القلندرية وعنها نقل فروخ في (التصوف في الإسلام) ص٢٦ وكذا حسين مجيب المصري في ترجمته غير المشهورة لأرمغان حجاز (١٥٦) ومحقق لطف السمر (٣٥٣) أو عن قاموس المنجد .

وربما كانت أخبار قلندر يوسف هذا شفوية غير مكتوبة ، أو أنها بمعنى آخر تقليدية .

كما أننا غير مطمئنين إلى صحة كون (قلندر نامه) من تأليف شيخ الإسلام عبد الله بن محمد الهروي كما تقطع بذلك دائرة المعارف الإسلامية . « النسخة الإنكليزية » والمرجح أن يكون من تأليف هاتفي (عبد الله بن محمد الهروي) صاحب تيمورنامه و« شاه نامه » الذي ألفه للملوك الصفوية ، وهو ابن أخت جامي صاحب النفحات وقد توفي سنة ٩٢٧هـ .

والمشهور أنه عن طريق رباعيات بابا طاهر الهمداني / التي يرى فيها النقاد مباينةً قوية لرباعيات الخيام / انتشرت نظرات القلندرية للحياة .

والتداخلات التي تحيط بحياة بابا طاهر لها أهميتها في تفسير كثير مما نسب للقلندرية .

فمن ذلك اتهامهم بالإيمان بالتناسخ وكون بابا طاهر أحد أولياء (أهل الحق) التناسخية كما في دائرة المعارف مادة أهل الحق ، ومن ذلك أنَّ الدركزيني الهمداني شيخ الساوي كان من بلدة بابا طاهر كما في الوافي للصفدي . =

الــذي يَحْشُــد الجمــوعَ بحــانِ ظُرْف ساقٍ مُنَشَّأً في الخلاعةْ
خَــورُ القلــبِ لا يــداويــهِ رازي رغمَ ما في كلامه منْ براعةْ
المــريــدُ البسيــطُ وهــو نقــيٌّ يُرفِقُ التَّوبةَ النَّصوح بكاء
اســأل الله نعمــةً مثــل هــذي للشُّيوخ الَّتي تموت رياء
ربّ مــا زال نجــلُ آدم هــذا إسرَ وهمٍ وشعوذاتٍ قديمةْ
صنمُ النَّفس تحت إبطيه يُضْفي حُلَّة النَّصر فوق شرٍّ هزيمةْ
لستُ في صرختي أبرِّىء نفسي فاحتراف الإيمان روحُ الشَّجاعه
وأنا ، كلُّ تهنآتي (لملاّ) يدَّعي حملَ مثلِ هذه القناعةْ
مؤمنٌ لا يكون للحبِّ أهلاً مؤمنٌ في الجحود جدُّ عريقِ
وإذا الكُفرُ صادفَ الحبَّ يوماً قاده الحبُّ مرغماً لطريقي

(١٢)

أو لا تزال مسافراً تسري وتَغُرُّك الدُّنيا بما فيها
والعصرِ إنَّ القوم في خُسْرِ وسلِ الطبيعةَ عن فيافيها

= ومن ذلك أن الخاكسارية وهم من مقدسي بابا طاهر يطلقون اسم القلندر على من هو في المرتبة الخامسة من مراتبهم السبعة كما في كتاب (الشبك ص٥٣) ويلاحظ أن ما فيه من وصف للقلندر (ص٥٤) ترجمة حرفية لما في البرهان القاطع (ج٢ ص٣٠٤) .
ولا يكاد يختلف حديث إقبال عن القلندر وحديث بابا طاهر عن نفسه ، قارن قصيدة الشاهين (ص٣٥٧) بهذه القصيدة التي يصف بها بابا طاهر نفسه كما في دائرة المعارف ، يقول : إنه قلندر ينتقل من مكان إلى آخر ، لا يغطي رأسه سقف .
ويتوسَّد في نومه وسادة من الحجر ، ويزعجه القلق الروحاني باستمرار ، تمزّق قلبه الكآبة والهم ولا يزهر في قلبه إلا زهرة الأسى وحدها ، حتى الربيع بما فيه من حسن وسحر يخلفه شقياً بائساً .
يقول : عيناي وقلبي لا ينصرفان بسهولة عن التعلّق بأسباب هذه الحياة الدنيا وقلبي الثائر يشتعل بين ضلوعي ولا يريحني لحظة واحدة ، أأنت أسد أيها القلب أم نمر من نمور ، أنت الذي لا تكف عن حربي وكفاحي ، سأسفك دمك أيها القلب إذا وقعت في يدي ، لأرى من أي لون أنت .

يمشي المنافقُ في نقائصه | لا زاهداً حقّاً ولا ملكا
وترى الموفّقَ رغم محنته | مَلِكاً يُبَجّل أينما سلكا
كفُّ المنافقِ لا تساعده | في حمل سيفٍ يَبْعَثُ الفرقا
والمؤمن الصدِّيق محنتُه | قدرٌ يشوبُ سيوفَه ألَقا
ما للمنافقِ مِنْ إرادته | حزٌّ ولا مِنْ صَوْلةِ القَدَرِ
يستقبلُ الأقدارَ مرتبكاً | مُتعلّلاً بالعِلْمِ والنَّظَرِ
المسلم المغوار حجّتُنا | نرمي بها الجهلاء بالدِّين
في نفسه أقدارُ أمَّتِه | متستّرٌ في زيِّ مسكين
حتى تحسَّ بما أكابده | مزّقْتُ أسراري إلى الأبدِ
وجذورُ غفلتك التي سَكِرَتْ | لا أستطيع بلوغها بيدي

(١٣)

الحورُ في الغرب سكرُ القلبِ والبَصَرِ | فاهدأ قليلاً وكنْ منها على حَذَرِ
بحرُ الوجود تعالى أن نحيط به | وبعضُ ما فيه موجُ الشَّمسِ والقمر
حاشا لقيثارةٍ مهما بَذَلْتَ لها | أن تستطيع احتواءَ اللَّحنِ والوتر
صوفيُّنا خلفَ لاهوتيِّ أديرةٍ | يريد يستبدلُ البخُّور بالحَجَرِ
والمنبرُ اليوم والمحرابُ قد فرغا | من صيحةِ الحقِّ أو من صرخةِ السَّحر
أين الأذانُ الذيْ كانت تميد له | روحُ الجبال وأينَ الصَّعْق في الصُّور
طوّفتُ في أمَّةِ الصحراء أسألها | فإذ بها أمةُ الصَّحراء في خَوَرِ
رأيتُهم في سجودٍ لا اتجاه له | وماله في وجوهِ القوم من أثر
مهلاً فقرطبة الحمراء ما بَرِحَتْ | تلوحُ بين دخانِ الغَرْبِ بالشَّرَر
حماسةُ الشِّعر هذا من شبيبتها | تفوحُ رَغْمَ حروبِ الكُفْرِ والأشَرِ

* * *

(١٤)

يَقِظٌ كما الفاروقُ يقظةُ قلبِه | يقظٌ كمِثْل المرتضى في حربِهِ

حجرُ الفلاسفةِ المجرَّب مثله يستخرجُ الذَّهبَ الدَّفينَ بتربِهِ
أيقظْ فؤادَكَ إنَّ عُمْرَكَ ضائعٌ ما دام قلبُك غارقاً في حجبِهِ
أنا ، لا عصاي ولا عصاك تُفيده إنْ لم يذقْ ذوقَ الكليم بضربِهِ
ستكون في الصَّحراء أحمقَ باحثٍ إنْ كانَ لم يَضحَبْك مُزهَفُ شَمِّكَا
وغزالُنا التَّتريُّ لستَ تصيدُه مهما نصبتَ له حِبَالةَ وهمِكا[1]
ربَّاهُ أينَ يلوذُ مركبُك الَّذي عصفتْ بطيبةِ نفسه الرُّهبانُ
أيروحُ في طلبِ الشواطىء مخطئاً والبحرُ بحرُك أنت يا رحمنُ
لولا الرِّياء بذلتُ خالصَ زفرتي للمُسْلِم المطروحِ حول منارِهِ
كُتِمَتْ مخافةَ برهميٍّ لم يزلْ يخفي شرارته بمعبد نارِهِ
فإلى متى صمتي وحولي أمَّةٌ يلهو بها السُّلطان والدَّرويش
هذا بِسُبْحَتِهِ وذاك بِسَيْفِه وكلاهما مما تكدّ يعيش
سمحتْ حضارتُنا الحديثةُ هذه للنَّاس يتَّجهون كيف أرادوا
مَكَرَتْ بعالمهم فظاهرُ أمرها حرّيةٌ والواقعُ استعبادُ
مولاي خُذْ بيدي ليشربَ إنَّه بترابِ يثربِك المطهَّرِ مرهمي
ضيَّعْتُ معرفتي وإيماني على شكِّ الفِرَنج ووسوساتِ البرهمي

* * *

(١٥)

عيونُ الذَّات دافقةٌ خلال الدرِّ والصَّدف
بغيرِ تصنُّعٍ منها ولا دَجَلٍ ولا صَلَفِ
إذا كانتْ لها أسلوبها في الهَجْرِ والشَّوقِ
فذلكَ منْ تواضعها وذلك منتهى الذَّوقِ

---

(١) إشارة إلى قول مولانا جلال الدين الرومي : سير مرحلة على هدي رائحة المسك خيرٌ من سير مرحلة في اقتفاء الأثر والدوران حوله .

أتطلـــبُ جيفـــةَ الغـــربـــانِ هـــاتيـــكَ الشَّـــواهيـــنُ
إذا أخْفَـــتْ مخـــالبهـــا فـــأعينُهـــا سكـــاكيـــنُ
متـــى الأوتـــار تلهبُهـــا بلـــوعـــةٍ ذلـــكَ الحـــبُّ
فَنَغْمـــةُ صـــورِ إسـرافيـــلَ لا تفتـــنُ فـــي القلـــبِ
أتيـــتُ الغـــربَ لـــم أغْبَـــأْ بسكـــرةِ دلِّ ســـاقيهـــا
كـــرامُ النَّـــاس لا تشجـــو علـــى مـــرأى أعـــاديهـــا
غـــزاةُ العصـــر ليـــس لهـــا علـــى عشَّـــاقنـــا عـــونُ
ومـــا مـــن عـــاشـــقٍ إلا لـــه مـــن حبِّـــه كـــونُ
غيـــابٌ كـــالحضـــورِ بـــه مـــن الهيجـــان أدومُـــهُ
لعـــلَّ الهجـــر للجُـــرحِ الـــذي فـــي الـــوَصْـــل مـــرهمُـــه
ولـــولا ذاك عـــانيـــتُ مـــا عـــانيـــتُ مـــن غُصَصـــي
ولـــو أنِّـــي ظَفِـــرْتُ بـــه رجعـــتُ ولـــم تَطُـــلْ قِصَصـــي !
إذا أحببـــــتُ تلمُّســـــه فـــذلـــكَ فيـــضُ أشجـــانـــي
أقـــمْ فـــي عـــزلـــةٍ واقـــرأ (مـــزاميـــري بـــإيـــرانِ)[1]
ولا يحـــزنْـــكَ مـــا تقـــرأ مـــن شطحـــي ومـــن مَيْلـــي
يقـــال : يَـــرُنُّ صـــوتُ السِّـــرِّ فـــي منتصـــفِ الليـــلِ !

(١٦)

شبـــابٌ قعـــودٌ رقـــودٌ نيـــامْ لعجزِ الأميـرِ وفـوضـى الجنـود
فـــواأسفـــاً كيـــفَ هـــذي السِّهـــام تطيـشُ بـلا هَـدَفٍ فـي الـوجـود
يقـــولـــون بحـــرٌ عميـــقٌ عميـــقٌ ومـــا أضيـــعَ البحـــرَ مـــا أضيعَـــهْ
بحثـــتُ بـــه مـــوجـــةً مـــوجـــةً وقلَّبـــتُ قـــوقعـــةً قـــوقعـــهْ
أمـــا آنَ تهجـــرُ أصنـــامَهـــم أمـــا آن تخـــرجُ مـــن قُمْقُمِـــكْ

---

(١) أحد دواوين الشاعر يحتوي على غزليات فارسية تُثير الدهشة بشطحاتها .

وغـــايـــةُ أصنـــامهـــم أنَّهـــا ... تـــزخـــرفُ هيكلَهـــا مـــن دَمِـــكْ
أنـــا كيـــفَ أجهـــرُ هـــذا المســـاء ... بســـرٍّ كهـــذا الـــذي أهتِكُـــهْ
وشغـــلُ الحكيـــم بهـــذا العـــراء ... كشغـــلِ المحـــبِّ بمـــا يُهلكـــه
هـــو الحـــبُّ ينسيـــك وقـــعَ الجِـــراح ... وتَفْضَـــــحُ ســـرَّك آثـــارُهُ
ومـــا الحـــبُّ إنْ لـــم تمـــت عـــزّةً ... ومـــا العيـــش جَلَّلَـــهُ عـــارُهُ
أنـــا لـــم أرَ السِّـــرَّ لـــوْ لَـــمْ أنـــلْ ... طـــريقـــةَ رومـــيٍّ وأحـــوالَـــهُ
ومـــنْ بَـــدْءِ تلمـــذتـــي قـــال لـــي ... ومـــا زلـــتُ أحفـــظ مـــا قـــالَـــهُ
رأيـــتُ فـــلاسفـــةً بـــالألـــوف ... رؤوسهُـــمُ تحـــتَ أطمـــارهـــا
وذو الـــوحـــي يَـــزفَـــع مـــنْ رأســـه ... ويكشِـــفُ أوهـــام أفكـــارِهـــا
إذا خُضـــتَ معـــركـــةً فلْتكـــنْ ... كمـــوســـى بخطـــوتـــه الضَّـــاربـــةْ
فَمِـــنْ ﴿ لا تخف ﴾ شعلـــةٌ لـــم تـــزل ... تصـــاعـــدُ فـــي الأجمـــة الـــلاَّهبـــةْ
بـــريـــقُ الحضـــارة أوجُ التَّـــرف ... لـــدى الغـــربِ لـــم يستطـــعْ فتنتـــي
أنـــا ابـــنُ المـــدينـــة وابـــنُ النَّجـــفْ ... غبـــارُهمـــا كـــانَ فـــي مُقلتـــي
غبـــــارُهمـــــا قطـــــرةٌ للعُيـــــون ... وأنفـــعُ طـــبٌّ لـــذي علَّـــةِ
مقيـــمٌ بـــرغـــمِ ريـــاحِ القُـــرون ... ومـــا كـــان مـــن مستبـــدٌ عتـــي

(١٧)

كـــانَ الشّتـــاء كمثـــلِ السَّيـــفِ حـــدَّتُـــهُ ... وكان طَرفُ الهوىٰ في مَيْعَةِ الولعِ
أيـــامَ لنـــدنَ مـــاخـــورٌ لطـــالبهـــا ... بمـــا تضـــمُّ مـــن الحـــانـــات والبِيَـــعِ
أيـــامَ كنـــتُ صـــلاةَ الفجـــر أبعثُهـــا ... على الصَّقيع بمرأى الفاجرِ الهلِعِ
مـا لي هنـا ولهيبي حيثُ رحتُ ذكي ... يثيـــر فـــي حتمـــه آلام مجتمعـــي
وكيـفَ كانـتْ هنـاكَ النَّاسُ تُنكِرُني ... وتـــدَّعي أنَّ هـــمَّ الشـــرقِ جـاء معي
أيـــام آلـــت مقـــاليـــدُ الأمـــور إلـــى ... مـــا تـــدَّعيـــه يـــد العُمَّـــال مـــن شُـــرُعِ[1]

---

(١) لعلها إشارة الشاعر إلى تولي حزب العمال الحكومة في إنكلترا أول مرة عام ١٩٢٤م ، =

فكـان فـي دربِ قُطّاعِ الحجـارة مـا لأبـرويـز مـن التَّـدليـس والطَّمـع[1]

يـا لعبـةً مـن دمقـراطيـةٍ طَلَبَـتْ عرشَ الملوك بما أبدته من وَرَعِ

كانتْ حكايةُ فصلِ الدينِ آخرَها إنَّ السيـاسـةَ جنكيـزيـة الجَشَـعِ

ذكرتُ دلهي بروما حين طفتُ بها[2] فكنـت بينهمـا فـي ملتقـى وجعـي

كـلا الـدروس لهـا سحـرٌ وأبَّهـةٌ ربَّـاه عفـوكَ قـد أبْعَـدْتَ مُنتجعـي

(١٨)

استفتِ قلبكَ كيفَ المسجدُ افترقا وكيـف نخـرج مـن محـرابـه فِـرَقـا

وأيـنَ ذو جَلَـدٍ منهـم يمـرُّ بـه تقـوى طـويّتُـه إنْ تكتـمِ الحُـرقَـا

الحبُّ ، يَعْـرِفُ مـن زلَّـت لـه قـدمٌ بـأنَّـه أقصـرُ الأشيـاء أزمـانـا

وأنَّـه جـرحُ سهـم إنْ صبـرت لـه أوتيـتَ مـنْ جُعْبَـةِ الصَّياد سُلـوانـا

ضـاعـتْ عقيـدةُ قـومٍ فـي مصـادمـةٍ بـاثنـي وسبعيـن وادٍ مـن معـانيهـا

هيهـاتَ يُـذْرِكُهـا مـنْ لَيْـسَ فـي دمـه وجـدٌ يـؤلِّـف قـاصيهـا ودانيهـا[3]

درسُ الشَّريعةِ غيرُ الوَجد وهو كما رأيـتُ مُنْتشـرٌ فـي جُمْلَـة الفِـرَقِ

= (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

(١) يمثل أبرويز حزب المحافظين وهو عند إقبال حزب استعماري صريح (الأصل) .
قلت : لا يخفى أن المقصود بقوله قطاع الحجارة هنا فرهاد وبذلك : أعطى إقبال أبعاداً جديدة لقصة فرهاد وشيرين ومرةً أخرى يقول في قصيدة (اجتماع لينين بفيلهلم إمبراطور ألمانيا) إذا الشعب لبس تاج السلطان ستستمر أيضاً فوضى المجتمع .
ذلك التاج هو شيرين ؛ إذا لم يُتَيَّمْ بها أبرويز فسوف يتيّم بها فرهاد قاطع الحجارة .
انظر مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص٧٩ .

(٢) عند عودة إقبال من لندن بعد اشتراكه في مؤتمرالمائدة المستديرة ، الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند زار روما في نهاية عام ١٩٣١م وقابل موسوليني (الأصل) .

(٣) يذكرنا هذا المعنى ببيتٍ ربما كان من شعر بابا طاهر ، أي : كن قلندري الصفة صوفي المظهر والمشرب معروفاً لدى اثنين وسبعين فرقة (الشبك ٥٤) .

وأنَّــه وكمــا نَمَّــتْ تجــاربُنــا — إسلامنا الغير مكتوب على الورقِ
غصنُ اليقين الرَّطيب الوَجْدُ ينبتهُ — ولا يفــوحُ بغيــر الــوَجْــدِ معنــاه
فقــل لــذي هِمَّــةٍ بــالــدرسِ مجتهــدٍ — هيهــات تبلــغُ بــالأوهــام مغنــاه
الحــبُّ فــي قحــة يحلــو وفــي سفــهٍ — فكــنْ بحبِّــك فــي هــذيــن سكِّيــرا
ولا تكــونــنَّ ذا حُــبٍّ بــلا سفــهٍ — فــإنَّ ذلــك لا يجــديــكَ قِطْميــرا
لن تهدأ الرِّعْدَةُ الملقاةُ في خَلَدي — ولــن تــراقــبَ يــوم الحشــر ذا جــاهِ
إنْ لــم تَشُقَّ بسيفِ السُّكر جذبتها — شقَّــت أمــام البــرايــا معطــفَ الله[1]

(١٩)

الــزُّهــد إخضــاعُ هــذا الطِّيــن والشَّــرر — وليس في بُعْدنا عن عالمِ البشر
فقــل لصــوفيَّــةٍ بــالفقــر راضيــةٍ — هذا العذابُ عقابُ الجُبْنِ والخور
ومــا عليــك إذا أنكــرت مَــذْهَبَهــم — وقلتَ : أطلب منكم زُهْدَ مُقْتَدِرِ
فالزُّهد والملكُ لا يُسْتحسنان لمن — أضاع أمجاد تيمورلنك في سمر

***

يا حبَّذا يغفلُ السَّاقي الجميلُ فلا — يليــقُ بــالقــول هــذا جسمُــه القمــري
إنَّ الــرِّفــاقَ إذا جــاشــت قــرائحُهــم — وأيقــظَ الطَّيْــشُ منهــم رَقْــدَةَ الفِكَــرِ
خاضوا بكلمة (عفواً) ما يروقُ لهم — ومــزَّقــوا ســرَّهــم فــي ثــوب معتــذر
أفيلســـوفٌ وصـــوفـــيٌّ ومجتهـــدٌ — في سكرةٍ من كؤوس السَّمعِ والبصر
ما في الثلاثة من أبدى فوا أسفاً — من روح ذي طمحٍ في عين مُنْبَهِرِ
كـــانـــت بـــزاويـــةِ الأقفـــاصِ بغيتُهـــم — لــو أمعنــوا قبــل هــذا التيــهِ بــالنَّظــر

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
لن تسكني رعدتي حتى في يوم الحساب ، إما أن تشق ثوبها أو أن تشق معطف الله !
يريد الشاعر أن يقول : لن أضحي بهذه الرعدة التي تمتلكني ولا بدّ لي من أن أجد من يُصغي إليها ولو لم يبقَ إلا الله فإنني سأتمسك بمعطف كبريائه ولن أبرح حتى أشقه بجذبتي أو يمحوها بخمره . (انظر ص١١٩ ، من الترجمة النثرية) .

سجنُ التَّفلُّتِ لا قضبانُ تُمسِكُه وَرُبَّ غلٌّ خفيٌّ بالغُ الأثرِ
تغنيكَ إنْ حرتَ فيما قلتُ تجربةٌ فما التَّجارِبُ إلا مرهمُ الحِيَرِ
انظرْ خرابَ فؤادِ الغَرْبِ يأكلُه وعقلُه في كمالٍ وافرٍ بَطِرِ
يقوده العقلُ في نهرٍ يفجِّره وخَلْفَه قلبُه يمشي على كَدَرِ

***

(٢٠)

رُغْمَ أنّ العقلَ لا يمنعُه قربٌ وبُعدُ
إنَّه والحق : ما أُهِّلَ للحَضْرةِ بَعْدُ
اسألِ الله تعالى والتَمِسْ عيناً لقلبكْ
إنَّها أثمنُ ما تكسِبُه منْ فَضْلِ ربِّكْ
أنا لا أنكرُ أنَّ العلمَ للنَّفس حُبُور
هو فردوسٌ ولكنْ فارغٌ ما فيه حورُ
ما أحقَّ النَّاس بالرأفة من عصرٍ سفيه
ليسَ في العالم قلبٌ يجدُ الغِبْطةَ فيه
إنَّه صحوٌ بآنٍ واحدٍ هذا الجنون
ذلكَ النَّوعُ جنونٌ ما له صحوٌ يكون
قلقُ القلب غذاءٌ وعطاءٌ حيويُّ
إنَّ قلباً ليس فيه قلقٌ ، قلبٌ شقيُّ
أنت للحَضْرة سرٌّ ما لها سرٌّ سواك
إنَّها إنْ كُنْتَ حيّاً حيثما كنتَ هناك
كَسَّرَ اللؤلؤُ كَسْراً كلَّ أصدافِ البُحور
فلماذا أنتَ يا لؤ لؤتي تأبى الظُّهور
مسلمٌ أنتَ وقد ألهبتُ سينائي عليكَ ؟!

أولا يــزعــج قــولــي : ﴿ أرنــي أنظــرْ إليــكَ ﴾[1]

(٢١)

إنَّهــا الــذَّاتُ إن تمعَّنْــتَ بحــرٌ ... مــالــه ســاحــلٌ لِخَــوْضِ جبــانِ
ومحــالٌ تكــونُ جــدولَ أنــسٍ ... ومحــلاً لجمــع أهــلِ الهــوانِ
رُبَّمــا تكســر السَّمــاء بفــأس ... فبنــاءُ السَّمــاء سبــكُ زجــاج
والــذي يجعــلُ البحــارَ بحــاراً ... تُتَّقــى أنَّهــا محــلُّ الهِيــاجِ
لا يطيــق الجبــان لجَّــة ذاتٍ ... ويغــوصُ الشُّجــاعُ فيهــا ويطفــو
وقــوام الشُّجــاع ليــس علــومــاً ... تَــرِبَ العلــمُ فــالشجــاعــةُ لطــفُ
كيــف يستــوعــبُ المنجِّــمُ هــذا ... بطــريــقٍ مكبَّــلٍ بــالنُّجــوم
أنــت مــن طينــةٍ يحــكُّ عليهــا ... ســرُّك الحــيُّ زيــفَ كــلِّ العلــوم
إنَّ فــردوسنــا علــى الأرض هــذي ... فيــه جبــريــلُ لا يغيــبُ وحــورُ
حبَّــذا أنْ تكــونَ ثــاقــبَ عيــنٍ ... حجــرُ العيــن فيــه مــاءٌ ونــورُ
بجنــونــي فهمــتُ عصــري تمــامــاً ... وتحمَّلْــتُ وقعــةً بعــد وقعــه
ألْبَسُ الــدِّرْعَ مــن نسيــجِ جنــونــي ... ليــس ثــوبــاً مــرقَّعــاً ألــفَ رُقْعــة
إنَّ شــحَّ الطبيعــة اليــومَ هــذا ... وهــيَ مــن طبعهــا السَّخــاءُ لَعَــارُ
لليــواقيــتِ كــاللَّهيــب احمــرارٌ ... شكــلُ نــارٍ وليــس فيهــا شــرارُ

(٢٢)

جــاءَ مــنْ نَسْمَــةِ الصَّبــاح كتــابٌ ... وأنــا جــالــسٌ علــى عــرشِ ذاتــي
فــإذا فيــه : مبصــرَ الــذَّات أقبــلْ ... صــرتَ فــي رتبــة الملــوكِ الكُمــاةِ
شــرفُ الــرأي ذاكَ جــاءكَ منهــا ... والحيــاةُ الكــريمــةُ المستقيمــه
وحيــاةٌ تكــونُ مــن غيــر ذاتٍ ... أيُّ معنــىً لهــا وأيَّــةُ قيمــه

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى حكايةً عن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

أيُّهـا الفيلسـوفُ دعـكَ وشـأنـي فـأنـا مـدركٌ إلـى أيـنَ أمضـي

لسـتَ مثلـي مسـافـراً كيـف أشكـو لـكَ دربـي وأنـتَ فـي غَيْـرِ أرضـي

ليـس سهـلاً إذا الـدَّراويـش حجَّـتْ مـن بعيـدٍ إلـى مـدارسِ شعـري

القضـايـا دقيقـةٌ فـاستلمْهـا واقـضِ فـي أمـرهـا إذا كُنْـتَ تـدري

لسـتُ أخفيـك أنَّنـي لـم يُـرْقْ لـي ذلكَ العيشُ في طُقوسِ الصَّوامع

لا يصيـد[1] العنقـاءَ صيَّـاد سـوء مُلِئَـتْ نفسُـه بـذلِّ المطـامـع

طِـرْتَ أم غُضـت فـي سمـاء وبحـرٍ أم تـراجعـتَ عنهمـا وجَبُنْـتَ

ليـس يـدعـو إلـى الـرِّثـاء وجـودٌ كـالـوجـودِ الـذي تعـانيـه أنـتَ

وسـواءٌ ، فـلا تقـل عـربـيٌّ كنـتَ أو لـم تكـنْ فليـس يُفيـدُ

سـتـرى الـذكـرَ أجنبيّـاً إذا لـمْ يَـكُ للـذِّكْـرِ فـي الفـؤاد شهيـدُ

* * *

(٢٣)

النخلـة الشمَّـاءُ أختُـك كُـوِّنـتْ ممـا تبقَّـى مـن بقـايـا طينتِـكْ[2]

أتطوفُ في الحاناتِ تسقي كأسَها وتطـوفُ مخنـوقـاً بعلمـانيتِـكْ

مـا فـي مـدارسِـك الَّتـي تـرتـادُهـا إلا بحـوثٌ مغفَّـلٍ وبليـد

سـرُّ الـدِّراسـةِ فـي فـؤادك كـامـنٌ لـو كنـتَ تُتْقِـنُ صَـرْخَـةَ التَّـوحيـد

---

(١) يرى الدكتور كفافي أن اصطياد العنقاء رمز للظفر بأعمق حقائق العرفان التي تستعصي على الآخرين (المثنوي ، ص١٠٥) .

(٢) في حاشية ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : يرى التراث الإسلامي أنَّ النخلة خلقت من بقايا الطين الَّذي خلق منه آدم (عليه الصلاة والسلام) وتسمى (خيمة الإنسان) ويرمز بها إلى آدم أحياناً .

يقول الأستاذ زهير ظاظا (مترجم هذا الديوان شعراً من نثر الأستاذ الملُوحي) يريد الشاعر أن يقول : أيها الإنسان إذا كانت النخلة شقيقتك فمن الَّذي سرق نبيذك أيها المسكين . . . إنها العلمانية .

لـم تبـق يـا مسكيـنُ إلا فـرصـةٌ لـك فـي استعـادة سِـرّكَ المفقـودِ
اطلبْ علومَ القلـب مـن أستـاذهـا واجهـدْ لنيـل مقـامِـكَ المحمـودِ

***

إن كــان زيُّــك زيَّ سلطـــانِ أو كـــان زيُّــك زيَّ مسكيـــنِ
فغِطـــاؤنـــا لا رأسَ يَحْمِلُـــه فيليـــق إلا رأسُ شـــاهيـــنِ
ليــس النُّجــوم بــرغــم لعبتهــا مســؤولــةٌ عـــن هـــدم أمجـــادكْ
بــل مــوتُ ذاتِـكَ بعــدمــا شَقِيَـتْ مـــا بيـــن قُمْقُمِهـــا وأصفـــادِكْ
أنـــا آســـفٌ جـــدّاً ويُحـــزِنُنـــي غضبـي علـى ديـري ومـدرستـي
ضـــاعـــتْ هنـــاك بصيـــرتـــي وذوى حبّـــي وأظلـــم دربُ معـــرفتـــي

***

(٢٤)

دواءُ البصيـــرة ـ هـــذا الـــدواء ـ رجـــاؤك فـــي كشـــفِ داءِ البصـــرْ
ومـــا العقـــلُ إلا جـــدالُ العلـــوم وحـــربُ الظُّنـــونِ ورجـــمُ النَّظـــر
مصيـــرُكَ أرفـــعُ مـــنْ وقفـــةٍ وأوّلُ معنـــــــاه ذوقُ السَّفـــــــر
وســرُّ الـــلآلـــيء خُلْـــدُ البـــريـــق وإلا فمعـــدنُهـــا مـــن حَجَـــرْ
ومـــا هـــي جـــدوى دمٍ فـــي العـــروق إذا كـــانَ يطفـــيءُ نـــارَ الفِكَـــرْ
فقـــلْ للشَّقـــائـــق فـــي خِـــدْرِهـــا تجلَّـيْ فـإنّـي نسيـمُ السَّحَـرْ[1]
ومـــا عـــدَّه الغـــرب سقـــطَ المتـــاع بمـــذهبنـــا رأسُ مـــال الظَّفَـــرْ
يقـــولـــون إقبـــال فـــي فقـــره غنـــيٌّ علـــى أيِّ كَنْـــزٍ عثـــرْ
وعـــالمُـــهُ لَهَـــبٌ كلُّـــهُ ولا يمنـــحُ النَّـــاس إلَّا الشَّـــرَرْ[2]

---

(١) المقصود قل لهذه المتعلمنة : لا تخافي يا أنتِ تعالي إليّ فلن أعصف بك أنا لست إلا جمالًا وعطاءً أنا نسيم السحر ولست ريح الظهيرة .

(٢) البيت من روائع إقبال ومعناه : لا جدوى لك من لهب إقبال إذا كنت غير قابل =

أعينُ الدَّرويش لم تعبأ بما ... أظهرتْ أبَّهةُ الإسكندرِ
هذه التِّيجان ما قيمتُها ... وهي تستجدي نساءَ البيدرِ
كيف لا تيأسُ ترجو صنماً ... ومِنَ الله تعالى تيأسُ
أنتَ هل تعرف كفراً آخراً ... غير هذا أيها المتكسُ
أنا لا أفهم ما قصدُ السَّماء ... وهي بالسُّلطة لو شاءتْ تطيح
تهبُ السُّلْطةَ من لا يملكون ... أيَّ مفهومٍ عن الشَّعبِ الجريح
وحدَها النظرةُ ما أطلبُه ... وشؤونَ القَلْب عنها تَصْدُرُ
نظرةٌ خاليةٌ من جذبةٍ ... نظرةٌ فارغةٌ لا تَسْحرُ
وأنا مِنْ أجلِ هذا كلِّه ... باعتزالِ القَصْر محكومٌ عليّ
أنا لا أجهل ما تَقْصِدُه ... ومصيرُ الكلِّ معلومٌ لديّ
مع هذا لا أرى مِنْ زاهدٍ ... مالهُ مِنْ طَمَعٍ في السُّلطةِ
أنا لا أقتلُ ذاتي هكذا ... أنا حرٌّ سُلْطتي في خِلْطتي
وحياتي عندما شرَّدتُها ... أرْضَتِ النَّاسَ جميعاً كَلِمي
قيمةُ الأشعارِ هذي أنَّها ... خطراتٌ في قلوبِ الأُممِ

***

= للاشتعال .

إقبال لا يرضى أن يكون شعلة في يد الآخرين .

« إقبال يشعل ولا يضيء »

وسيأتي قوله :

حطب الموقد الغليظ مملٌّ ... وأنا رغبتي بحرق الدقاقِ
أنا لا أمنح الحصاد لحقلٍ ... عملي الفرد والوحيد احتراقي

(٢٦)

لستَ لهذي الأرضِ والسَّماءِ — وإنَّما السَّماءُ والأرضُ لكْ
ولستُ موضوعَهُما وإنَّما — هذان جانبانِ منْ موضوعِكْ
تطلُّعُ العقلِ ووجدُ القَلْبِ — شرارتان من لهيبِ الحبِّ
والعُشْبُ موجودٌ ليحرقاهُ — في ذلك السَّهلِ الخصيبِ الرَّحْبِ
والرَّوض هذا بقعةٌ تصطفقُ — بصرخةٍ وزفرةٍ تنطلقُ
أعشابهُ ليستْ لصنعِ عشٍّ — كلُّ الجمال عندما تحترقُ
حتَّى متى مركبُ هذي الذَّاتِ — يمخُرُ في النِّيل وفي الفُراتِ
قُدِّرَ أن يركبَ بحراً ماله — من ساحلٍ في هذه الحياةِ
فكيفَ عند هؤلاء رغبةٌ — بأنْ يدلَّها المدارُ الحائرُ
ركَّابُهم بالرُّغم من نشاطها — يَنقُصها اليومَ دليلٌ ماهرُ
ألحاظُ موهوبٍ وعينٍ ثاقبه — وسحرُ ألفاظٍ وروحٌ لاهبه
كلُّ الَّذي يملكهُ منْ عُدَّةٍ — قائدُ هذي القافلاتِ الذَّاهبه
فيا لحسنِ فارسٍ ووحيهِ — ويالكأسِهِ ويالغصَّتي
بحثتُ طولَ العُمْرِ في بستانه — فما وَجَدْتُ زينةً لِقِصَّتي
تَرْقُدُ في حَنجَرتي أغنيةٌ — لو قلتُها لحيَّرت جبريلا
أحرصُ أن تبقى هنا مطويةً — هناكَ سوفَ أنقَعُ الغليلا

***

(٢٧)

لستَ يا أنتَ في الفضاء سجيناً — لستَ دمعاً على منازلِ رسمِه
يَشهدُ الحرُّ أنَّ سرَّ التَّجلِّي — بين صَلْصَالِه وهيكلِ جِسْمِه
لا يخاف البستانُ شَهْرَ خريفٍ — فلماذا مَلأتَ بالخوف عشَّك
يرقص العشُّ في السَّماء لهيباً — عندما تحرِقُ الصواعقُ قشَّك
الحياةُ الحياةُ لفظةُ سرٍّ — مَلأتْ عالَم القَلَنْدرِ طيبا

إنَّها السَّهمُ منذ كانت رَمْتُهُ ومن القوس لا يزالُ قريبا
لا تعيقُ النُّجومُ سرَّك هذا فسماءُ النُّجوم غيرُ سمائك
أخطُ في الموقع الذي أنت فيه لترى زرقةَ السَّماءِ بمائك
لا تقلْ للدَّليل دعني لوحدي إنَّ أمراً كمثلِ هذا بديهي
لا يطيقُ الكريمُ ذلَّ سؤالٍ فاجتهدْ وَخُذْكَ اجتهادَ فقيهِ

***

(٢٨)

تأمُّلُ فيلسوفٍ كلُّ ما أعطانيَ الفِكرُ
ولولا الحبُّ ما أدركتُ ما يَضَمَّنُ السَّكرُ
ونظرتُهُ هي الشَّررُ المُشِعُّ بمحفلِ القلب
بلا دنٍّ ولا خمر تدور كؤوسُها جنبي
تظنُّ تنافُر الكلماتِ مِنْ شعري ومِنْ أدبي
فحانتنا على علمٍ بما مزَّقت من حُجُبي
إليكَ البرعمَ الظَّامي لِمَقْدَم نسمةِ الصُّبحِ
تأمَّلْه تجدْ فيه حكايةَ ذلكَ الجُرحِ
غيابٌ أم حضورٌ لستُ أدري ما أكابدُهُ
فهلْ من بينهم أحدٌ يشاهدُ ما أُشاهِده
هنا يا أنتَ كلُّ الناس يعرِفُ بعضُهم بعضا
هنا إلا أنا فيهم غريبٌ يُنكِرُ الأرضَا
وكنتُ بقصرِ أوربَّة من المُمكِنِ أن أبقى
شريطةَ تحمُّل الصَّحراء حين أُجنُّ ما تلقى
مضى إقبالُ هوناً في دروبِ الفِكْرِ واجتازا
ولما جاءَ دربَ الحبِّ مالَ القلبُ وانحازا

(٢٩)

وأخيــــراً انتبهـــتُ ولبِّـــتْ صَـــرختـــي هـــذي السَّمـــاء
وسمعـــتُ مـــا قـــالـــوا : أخيـــراً ســوف يَنْكشـــفُ الغِطـــاء
للعـــاشقيـــن حكـــايـــةٌ وتكـــاد تَتَّفِـــقُ الحكـــايـــه
نـــارٌ وحـــزنٌ وانفجـــارٌ فـــي البـــدايـــةِ والنِّهـــايـــة
فـــانظـــرْ إلـــى قَـــدَرِ الشُّعـــوب وكيـــف يبـــدأُ بـــالسُّيـــوف
فـــإذا انتهـــى فـــإلـــى المـــزاميـــر الشَّجيَّـــة والـــدُّفـــوف
حـــانـــاتُ أوربَّـــة كـــذلـــك والغـــريـــبُ طقـــوسُهـــا
السُّكْـــــرُ يبـــــدأ أولّا وتـــدورُ بعـــدُ كـــؤوسهـــا
سِيَّـــانِ تيمـــورلنـــك فـــي سُلْطـــانـــه سلطـــانِ نـــادرْ
الكـــلُّ تسقطُـــه أخيـــراً سَكْـــرةُ الـــزَّمـــنِ المُبَـــادرْ
ولَّـــى زمـــانُ الـــوَحْـــدة المطـــروح فـــي دَرْبِ الفنـــاءْ
خـــرجـــتْ أخيـــراً مـــن صـــدور الغَيْـــم عـــاصفـــةُ البقـــاءْ
لـــم يتحمـــل مـــوجـــةَ الشَّطحـــاتِ هـــذي أيُّ ســـاحـــل
هتَكْـــتَ يـــا مجنـــونُ أســـرارَ الكتـــابِ بغيـــرِ طـــائـــل

(٣٠)

يـــرحـــلُ كـــلُّ كـــائـــنٍ ويـــذهـــبُ حـــوتٌ وطيـــرٌ ، لجـــةٌ وكـــوكـــبُ
وأنـــتَ أنـــتَ فـــارسُ الميـــدان وقـــائـــدُ الجيـــوشِ فـــي الـــزَّمـــان
يـــا سيِّـــد الجبـــالِ والصَّحـــراء جنـــدُك فـــي الأرضِ وفـــي السَّمـــاء
أهكـــذا قيمتُـــك الـــذَّاتيـــة هـــدرتُهـــا وروحُـــك الفتيَّـــه
فيـــا لهـــا بصيـــرةٌ فـــي كـــدرِ ويـــالـــه مـــن قِصَـــرٍ فـــي البصـــرِ
لا تعبـــدِ الأرضَ فـــإنَّهـــا لَكـــا كـــنْ راهبـــاً إنْ شئـــتَ أو كُـــنْ مَلكـــا
لا شـــكَّ فيمـــا قُلْتُـــهُ ولا جَـــرَمْ فقـــد رأيـــتُ اليـــوم سيِّـــدَ الحَـــرَم
قـــولٌ بـــلا فِكْـــرِ ولا إشـــاره وعمـــلٌ تَنْقُصُـــه الحـــراره

كلُّ شيءٍ إلى التَّجسُّدِ يسعى رغبةً في النُّموِّ يهلكُ نفسَهُ

وحياةٌ بغير ذوقِ ظهورٍ يحتويها ، يسومها الموتُ بؤسَهُ

قُوَّةُ الذَّات قوةُ الذَّات سرٌّ يَهَبُ النَّصرَ في الحياة لأعزَلْ

خَوَرُ الذَّات يجعل السَّيف عبثاً ويرى في الجبالِ حبَّة خردلْ

شرَّدتْ نفسَها النُّجومُ ولكنْ ليسَ يعني ضلالةً واختلاطا

لفراقٍ يؤولُ كلُّ وجودٍ ليس عن صُدفةٍ وليس اعتباطا

يظهر البَدْرُ آخر الليل فردا أصفرَ الوجه في السَّماء وحيدا

كلُّ نورٍ أخذْتَه منْ غريبٍ سوف تخبو به رويداً رويدا

قلبُك الشَّمسُ فاقبِسِ النُّورَ منه كلُّ ما ترتجيهِ نفسُك عندكْ

كلُّ شيءٍ سواك ـ أنت ـ سرابٌ شَهِدَ اللهُ أنَّك الحقُّ وَحْدَكْ

شوكُ صحرائنا يحلُّ بلطفٍ عِقْدَ السَّالكين من حيثُ يُدمي

فامضِ في الشَّوك حافياً وتقرَّحْ لستَ تنجو بلا جنونٍ وحزمِ

لغزُ هذي التَّداخلاتِ وإنْ لم يستطعْ أن يفكَّه العِلْمُ كلُّهُ

شوكُ صحرائِنا يغورُ برفقٍ وبأسلوبِه اللَّطيفِ يحلُّهُ

(٣٢)

ما لِمُلْكِ الغرب خُلْدٌ بَلَغَ العَصْرُ أشُدَّهْ

كلَّما شيَّد صرحاً ضَحِكَ الشرق وهدَّهْ

عندما أنهيتُ عشيٍّ قيل هبْ للعُشِّ ذاتا

صرخاتُ العُشِّ برقٌ تملأ العُشَّ حياةَ

أنتَ عبدُ الله فالزمْ ليس للحرِّ تحوُّلْ

ما عدا عزَّ العبوديةِ لله تسوُّلْ

سيِّدُ الأحرارِ عبدٌ حرم الله بذاتِهْ

فاحفظِ الذَّات وصُنْها إنَّها منْ عَتَباتِهْ

كيفَ (إلا الله) لم تَدْمَغْ أساطيرَ مسطِّرْ

أيـــنَ ذاك الكَلِـــمُ الطيِّـــبُ والطَّبـــعُ المُسَيْطـــرْ
كـــمْ قلـــوبٍ فـــي صـــدورٍ ذُعِـــرَتْ مـــنْ نَظْـــرَتِـــكْ
درس العلـــم اللَّـــدُنِّـــي وذوى فـــي فطـــرتـــكْ
ربمـــا أشـــرفَ إقبـــال علـــى الســـرِّ القـــديـــمْ
حـــدَّث السِّـــرُّ حـــديثـــاً كحميـــمٍ لحميـــمْ

(٣٣)

لِمَ تسألون القومَ ما هو مصدري ؟ وأنـا بنفسـي لـم أُحِـطْ بمصيـري
ما زلتُ منذ وُجِدْتُ أشرقُ سائلاً وأغيبُ فـي وَجْـدي وفـي تفكيـري
الحـرُّ يَسْمـو فـي الحيـاةِ بـذاتـه ويصـوغُ مـا يختـارُه مِـنْ أمـره
يـا أنـتَ حتـى اللهُ جـلَّ جـلالـه أفتـى بـرأي كليمِـه فـي عمـره
أســرارُ روحِـك جَـدُّ سيمـائيـة فَلِمَ النِّزاع على هياكلَ مِنْ حَجَر
بلهيـبِ أنفـاسـي الَّـتي أطلقْتُهـا شـاهـدتُ ما تخفيه أعماقُ القَدَر
سِـرِّي تتـرجمـه سلاطـةُ أعينـي لا تسـألـوني من تكونُ وما هي
لـو أن (نيتشـه) جاءني بحماسهِ لأريتُـــه (زردشتَـــه) وإلهـــي
صرخاتُ وَجْدي في الصَّباح تلَطَّخَتْ بـدمـي ولـم أسْمَـعْ لهـنَّ جـوابـا
ربَّـاه ! أيُّ جـريمـةٍ قـارفتُهـا لأكـونَ مـن قتلـىٰ الصَّباحِ عقابا

(٣٤)

تَـدَخُّـلُ الحـبِّ بـأطـوار السُّلـوكْ يكشـفُ للعبيـدِ أسـرارَ المُلـوكْ
مـا كـان للـرازيْ وَلِلْغـزالـي والـرُّومـيْ والعَطّـارِ مِـنْ نـوالِ
لـو لـم يعـانـوا رغبـةَ الصِّيـاح وصـرخـةَ الحيـرةِ فـي الصَّبـاح
فيـا رئيسَ الـرَّتْـل كـنْ حليمـا لا يقتـلُ اليـأس فتـىً حكيمـا
تنقُصنـا شجـاعـةُ الـرَّسـولِ لا تَنْقُـصُ الرَّغبـةُ فـي الـوصـولِ
إيـاكِ يـا قُبَّـرتـي مـن التَّلـفْ فالموتُ خيرٌ لكِ من هذا العَلَفْ
يُعَـرْقِـلُ الجنـاحَ أن يطيـرَ وربَّمـا يتـركُـه كَسِيـرا

أعزُّ من أبَهةِ الإسكندر ... وملك (دارا) نظرة القَلَنْدَرِ
دَرْوشةٌ تَنِمُّ عن قلبٍ مليْ ... فيه عبيرُ أسَدِ عليّ
شريعةُ الشجعان هؤلاء ... الجهرُ بالحقِّ بلا رِياء
وما لهؤلاءِ قطُّ غالبُ ... هذي أسودُ اللهِ لا تُغالَبُ

***

(٣٥)

جاءَ من عِندِهم كتابٌ جديدٌ ... صرخة الليلِ أوصَلَتْه إليّا
فإذا فيه : يا مسافرُ أمسِكْ ... وتفكَّرْ بما قَطَعْتَ مليّا
ربما كُنتَ ذاهباً من جديدٍ ... في طريقٍ كمثلِ تلكَ عَسِيْره
غُصْ طويلاً فأنتَ أيضاً عميقٌ ... وافهم القَصْدَ فالحياةُ قصيرة
أنا (سيفاً خرجت) من غير غِمْدٍ ... ضاعَ في غَمْرَةِ المعاركِ غِمْدي
يجرحُ النَّاسَ منظري من بعيدٍ ... ويخوضُون في مرامي وقَصْدِي
أيُّ مُسْتَهْتِرٍ بكلِّ ملامٍ ... خطَّ فوق المِحْرَابِ تلكَ الحروفا
(هذه الأغبياء تسجدُ لمَّا ... يقتضي الأمرُ أنْ يكونوا وقوفا)
امْضِ يا شاهدَ الشَّقاء بصمتٍ ... إنْ تكنْ موضوعي لمزَّقْتَ نفسك
بعدما الحفلةُ انتهت وتولَّوا ... جاء دوري وقيل : كأسَك كأسَك
وهبَ المسلمين إقبالُ ناراً ... فإذا النَّار ذاتُها في ذُبولٍ !!
ما على الكأسِ في الحقيقةِ لومٌ ... خاملٌ طافَ بين أهل الخمول
ذاك إقبالُ كنتُ أبحثُ عنه ... وهو مُسْتَعْصِمٌ بحصنٍ ورُخٍّ
وأخيراً وبعد لأيٍ طويلٍ ... وقع البازُ في حبائلِ فخِّ

(٣٦)

أنا لولا موجةُ الرَّغْبَة لم توجدْ حياتي
فحياتي موجةُ الرَّغْبَة في أعماقِ ذاتي

كــلَّ حيـنٍ عــالمــي يَضطـرُّنــي أطلــقُ وَجْـدي
عــلَّ إنسـانـاً جـديـداً يحمــلُ اللّــوعـة بعـدي
ممكـــــنٌ للنَّـــار أنْ تحـرِقَـهُ عشَّـك هــذا
تســألُ السَّــاقــي إذا لــم تــكُ ظمــآنــاً لمــاذا
لا تقــلْ فــي الغَـزبِ رأيـاً بيــريـــقٍ يتعلَّـــق
مــاشُــه مــنْ كهــربــاء جعلَتْــــهُ يتــألَّـــق
لا تتــوقُ النَّفــسُ أنْ تَحْكُـمَ آفــاقَ الفَضــاء
حيــنَ لا تَتَّصــف الأبصــار حقَّــاً بــالمَضـاء
أنــا لــو لــم تسقــطِ الأوراقُ عــن عشِّــي الَّلطيــف
عَجِـزَ الصَّيــادُ عــن صيـدي ولــو وقـتَ الخـريـف
عــن قــريـبٍ تَقْلِـبُ النيَّـاتُ أقـدارَ الخـلائـق
ليــس أوهــامُ غبــيٍّ إنَّهــا جــدٌّ حقــائــق

* * *

(٣٧)

العقــلُ هــذا ليــس يَقْهَــرُ وسعُــه وســعَ الطبيعَــه
وجهــاً لــوجـهِ ضَعهُمــا وانظــرْ لقــوَّتها المطيعـة
الحــقُّ : أنَّــك قــد أضعْــتَ الــذَّاتَ فــاطلــبْ مــا أَضَعْتَـا
وعلــى العطــورِ وعــالــمِ الألــوان سيطــرْ مــا استَطَعْتـا
وانظــرْ مقــام القبّــة الــزرقــاء ليــس لــه حــدود
واختــرْ مَقــامــاً مثلــه يَسْمــو بـذاتِـك فــي الـوُجـود
أشجــارُ حَــوْزِكَ عــاريــاتٌ حــول قــارعــةِ الطَّـريـق
أوقــفْ تمــزُّق وردك الظَّــامـــي وتحطيــمَ الشَّقيــق
لــم يستطــعْ ذوقُ الطبيعــة أن يــؤكِّــد وسْعَــهُ
اصْنَــعْ بِــذَوقــكَ أنــت مــا لــم تستطــع هــي صُنْعَــه

(٣٨)

شيوخُ القومِ أجدرُ بالرِّثاءِ
وأربابُ الكنيسةِ في سواءِ

حصادُ جهودِهم ظلماتُ شكٍّ
جَرَتْ في قلبهم مجرى الدِّماءِ

بنفسك ثِقْ تجدْ (نغفور) عبداً
ويسألُ عن رضاك (ابنُ السماء)[1]

أنا حزني على هجري تبدَّى
بآلافٍ من الطُّرُقِ الدَّقيقهْ

بسكرةِ قربه ، بصُراخِ وَجْدٍ
رَجَعْتُ به ، بدهشته السَّحيقهْ

ومَنْ يكُ شأنُه حبّاً وسكراً
تجاوزَ حدَّ إدراكِ الحقيقه

جرى قدرُ الجمالِ بكلِّ قلبٍ
إذا كان الهوى كانَ الجنونُ

وذنبُ الرَّاجعين بلا نصيبٍ
من الحسناء تفضَحُه العيونُ

أما كانت بنو تيمور تركا
بنو عثمان أتراكٌ كذاكا

أولئك في ترابِ السند ضاعوا
وصخرُ أولاء مرتفعٌ هناكَ

بِمَ النُّسَّاكُ في الحَرَم استبدَّت
بإقبال الذي هَجَرَ القُصورا

ولم تَقْوَ الملوكُ عليه يوماً
وقدْ ملأتْ عوالمَهَا نُسورا

فما هو سِرُّهُ ؟ الشَّاهين هذا
ملوكيٌّ لجينيٌّ خفيفُ

يطيرُ على القُصور فيزدريها
ويدمي قلبَه الحَرَمُ الشريفُ

(٣٩)

العلمُ أطلَقَ الحياةَ الراقدهْ
في شعوذاتٍ من عصورٍ بائدهْ

مِنْ كلِّ سحرٍ عصرنا مُحاشُ
بلا عصا الكَليمِ لا يُعاشُ

ذو العقلِ مثلُ نصلِ سيفٍ عقلُهُ
بألفِ أسلوبٍ يتمُّ صقلُهُ

والحبُّ مسكينٌ شريدٌ زاهدُ
ومالَهُ إلا طريقٌ واحدُ

حُجَّاجُه تَظَلُّ في تلهُّفِ
لا يعرفونَ تَرَفَ التوقُّفِ

---

(١) ابن السَّماء : إمبراطور من أباطرة الصين ، وكذا نغفور ، وللأخير تنتسبُ الكؤوس النغفورية التي يُضرب بها المثل بالجودة والندرة .

لا وإلا[1]

لو لم تسِر في ظلام التُّرب نابتةٌ ... ما نشَّرت في فضاء النُّور أغصانا

تقضي الحياة بـ« لا » في البدء نافية ... وفي النهاية « إلا » تُكمل الشانا

إنْ لم تجيء بعدها « إلا » مثبِّتةٌ ... كانت على الموت «لا» في الدهر عنوانا

إنْ أمةٌ روحها لم يمض معتزماً ... عن « لا » فقد آذنت بالهُلْك إيذانا

* * *

إلى أُمراء العرب[2]

هل يُسْعدُ الكافرَ الهنديَّ منطقُه ... مخاطباً أمراء العُرْب في أدبِ

من أمَّةٌ قبل كلِّ النَّاس قد أخذتْ ... بحكمةٍ فأعانتها على النُّوب :

إخاءٌ مصطفويٌّ دون تفرقةٍ ... وهجرُ كلِّ غويٍّ من أبي لهب

ما من حدودٍ وأرضٍ كان منشؤُها ... من أحمدِ العُربِ كانت أمةُ العَرب

* * *

---

(١) يرى إقبال أنَّ الحياة محوٌ وإثباتٌ ، أو هدمٌ وبناء . فالأمة الصالحة تمحو السيء وتثبت الحسن . وكلمة التوحيد قائمة على نفي غير الله وإثبات الله . فإن محت الأمة ولم تثبت ، أو هدمت ولم تبن فعاقبتها الفناء ، وهو يعني هنا حضارة أوربة عامَّةً والروس الشيوعيين خاصَّةً .

(٢) العرب هم الأمة التي حملت إلى الأمم رسالة الإسلام ، وعلمتها الأخوة والتعاون . والشاعر ينعى على أمراء العرب أن نسوا هذه الرسالة التي بلغوها ، وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

فكــم يفعــلُ الطَّيــشُ فــي عقلــه — ويُنْقِــصُ رغبتــه مــن نُضــج
لقــد بلغــتْ صــرختــي أوجَهــا — كــذلــكَ أعْلَــنَ شيــخُ الحَــرَمْ
وحــذَّرنــي اليــومَ مــنْ كَتْمِهــا — لِتَسْمَــعَ ذلــكَ كــلُّ الأمــمْ
أنــا لــم أقــل ﴿ أرنــي ﴾ مــرةً — كمــوســى لأعــرفَ أســراره
فمــوســى جــديــرٌ بــالحــاجِــه — ومثلــي جــديــرٌ بمــا اختــاره
وبــالــرُّغــمِ مــن أنَّ أهــل القلــوبْ — تُهتِّــك أســرارَهــا فــي البــلادْ
فــإنَّ الطــرائــق هــذي الجــرينــة يَصْعُــبُ إطــلاقُهــا للعبــادْ
تضــرُّعُ حــاشيــة الســالكيــن — عيــونٌ ضعــافٌ وقلــبٌ هلــوعْ
فــأيــن الحمــاســةُ أيــن النَّضــارةُ أيــن السَّكينــةُ أيــن الــدُّمــوعْ
أنــا لــم أزل عَطِشــاً مــا ارتــويــتْ — كمِثْلِــكَ عطشــان لــم تــرتــوِ
هــو الحــبُّ أسمــى صعــودٍ لنــا — ولكنَّنــا فيــه لــم نَنْضَــوِ
نهضنــا بــأسلــوبِ درويشنــا — فكــانَــتْ لنــا أرضــرومُ وشَــامْ
ولمــا زَهِــدْنــا بــأسلــوبــه — ذهبنــا دواليــكَ خلــفَ الأنــام

(٤٢)

ذاتَــك فــالــذَّاتُ الَّتــي تَــدْعَمُهــا — معــرفــةٌ يغبطُهــا جبــريــلُ
وإنْ أضــافَ الحــبُّ عونــاً أطْلَقَــتْ — فــي النَّــاس مــا يُطْلِــقُ إســرافيــلُ
أنــا خليــلُ هــذه الأصنــام — وعُــدَّتــي معــرفــةُ الأيــام
فــي النَّــارِ ألقَــوْنــي كــإبــراهيــمَ — فكنــتُ فــي النِّيران فــي نعيــم

* * *

قــافلــةُ القَــوْم بــوضــعٍ يــؤســفُ — حــائــرةٌ يَسْحَــرُهــا التــوقُّــف
ورُغــمَ هــذا غِبطــةُ السِّيــاحــه — تجــاوزتْ غِبْطــةَ تِلــك الــرَّاحــه
أنــا علــى شِعْــري شــديــدُ الغيــرهْ — فقــمْ إذا كنــتَ بــلا بصيــره
أنــا مجــالــي الــذَّاتُ فــي مشــاعــري — نبيلــةٌ كحــدِّ سيــفٍ بَــاتــر

* * *

تـذكـرتْ روحـي دروسَ الغَـزْبِ ... أيـامَ حـوره سَكِـزْن جنبـي
فـآهِ يـا لفـرحـةِ الحضـورِ ... وآهِ مـن منطقـه المَغْـرُور

* * *

هـذا الـزَّمـانُ ليلُـه شـديـدُ ... وأنـتَ عـن قـافلتـي بعيـدُ
لهيبُ زَفـرتـي هـو المصبـاح لـكْ ... يُبَـدِّدُ الليـلَ وَيَقْشـع الحَلَـكْ

* * *

حكـايـةٌ ليـس لهـا نظيـرُ ... بسيطـةٌ لكنَّهـا تُثِيـرُ
ثبـاتُ إسمـاعيـلَ مُبْتَـداهـا ... ومَقْتَـلُ الحسيـنِ منتهـاهـا

* * *

(٤٣)

غصنُ العَقيدة في المدارس عارِ ... ومـذاقُ أديـرةٍ بـلا أسـرار
بالرَّغم من طُول الطَّريق وعُسْره ... عينـاكَ ظـاعنـةٌ وقلبُـك سـارِ
أسفـاً لـديـنٍ ليسَ يَكْسِبُ دولـةً ... ولـدولـةٍ وقفـتْ كخيبَـر وجهـه
مـن أيـنَ لـلاثنيـن كـرَّةُ حَيْـدَر ... يلقـي سخـافتهـا ويُصْلِـحُ فقهَـهُ
لا تبلـغُ العلمـاءُ بـاطـنَ مـؤمـنٍ ... ومـذاقَ رغبتـه ولطـفَ تـأمُّلِـهُ
أسـرارهُ فيمـا وراءَ حُـدودهـم ... وجمـالُـه فيمـا وراء تجمُّلِـه
وعجـوزُ حـانتنـا يقـولُ مـؤكِّـداً ... عن صرحِ أوربَّة المضيءِ المعتمِ
هـذي المـرايـا مـن جليـدٍ مـا لهـا ... وُسْعٌ لِتَعْكِسَ نـورَ قلـبِ المسلـمِ

(٤٤)

الحـادثُ المحجـوبُ قَبْـلَ ظهـوره ... للنَّـاس تُغْلِنُـه نقـاوةُ مُهْجَتـي
لا حـظَّ لـلأفـلاك مـن دورانهـا ... فـالسرُّ مظهـرُه جسـارةُ صَرْختـي
أتَـرى بـلا روحٍ شـرارةَ أنّتـي ... أم أنَّ عُشْبَـك مـا يـزالُ نـديَّـا

صرخاتُ هذا القلب في صَلْصَاله ... تُـذكـي لهيبَـك بكـرةً وعَشِيَّـا

لـن يَخْمُد اللَّهبُ الذي في طينتي ... حتَّـى يُحـرِّر كـلَّ شـيءٍ فيهـا

بـالـرُّغم مـن قَـدَرٍ قـد ارْتَبَكَـتْ بـه ... فُضِحَتْ شيوخُ السُّكر في ناديها

(٤٥)

مـا وَجَـدْنـا وقـد بَحَثْنـا كثيـرا ... فـي حـواشـي الصُّوفـيِّ إلا غُبـارا

يـدَّعـي أنَّـه يخـوضُ حـروبـاً ... كبَّـدَتْـه هـزيمـةً وشَنَـارا

كيـفَ زالـتْ حـرارةُ الحـبِّ عنـه ... وارتضـى هـذه الحيـاةَ السَّقيمـهْ

حـربُـه لـم تكـنْ لِيَغْنَـم شيئـاً ... وقُصَـاراه أن يكـونَ غنيمـه

كُتُـبُ القَـومِ عنـده فـوقَ بعـضٍ ... يصـلُ الليـلَ حـولها بـالنَّهـار

مـا تبقَّـى لـديـه إلا حكـايـا ... أوليـاءَ يقـولُهـا للصِّغـارِ

مـا تعجَّبـتُ أنْ يشيـعَ خـرابٌ ... في الزَّوايا وفي تَكايا السُّلوك

عجبـي مـن نهـايـةٍ مثـلَ هـذي ... كيـفَ دبَّـت إلـى قُصُـورِ الملـوك

امْـضِ يـا شـاهـدَ الشَّقـاء بصمـتٍ ... أيُّ يـوم مضـى عليـكَ كيـومـي

مثـلَ سَجَّـادةِ الصَّـلاة نفـاقـاً ... يَطْفَـحُ التَّـاجَ فـي منـازِلِ قـومـي

الكتـابُ الَّـذي يمـوجُ بيـاضـاً ... والَّـذي عنـد كـلِّ مُـلَّا وصـوفـي

يمـلأُ الحشـرَ حيـرةً وارتبـاكـاً ... ووقـوفـاً يكـونُ مثـلَ وقـوفـي

وسـواءٌ كـان ابـنُ آدم هـذا ... عـربيّـاً أم لا ، معـانيـه بيـضُ

وعـنِ العَـالَـمِ الَّـذي هـو فيـه ... وعـنِ العـالـمِ الأخيـرِ يفيـضُ

ذهبـتْ سكـرةُ المسـاء ولكـنْ ... نظـرةُ السَّـاقي فـي الفـؤاد كنصْـلِ

ولهـا فيـه طعنـةٌ بعـد أخـرى ... فَسَلُـوهُ فـديتُـه لِـمَ قَتْلـي ؟

لا يـذمُّ البستـانُ مُـرَّ غنـائـي ... يَصْبُـغ الـرُّوحَ مِنْـه لـونـاً فلـونـا

رُبَّ سُـمٍّ يكـونُ تـريـاقَ داء ... ودواءٍ يكـونُ للـدَّاء عَـوْنـا

* * *

(٤٦)

أقصى مواهبِ أوربَّة النشيطةِ أن … تَقلِبَ العَصْرَ في ليلٍ من التِّيهِ

كم وردةٍ قصفتْ في روضنا يدُها … ما مزَّقت طوقَ زرٍّ واحدٍ فيه

حرارةُ الحبِّ من خمر اليقين وما … لمنكرِ الحبِّ إلا الوهمُ يُفْنِيه

هَبِ المدارس يا رباه حُرْقَتَها … فحسنُها باردٌ لا رُوحَ تُذْكيه

متى سمواتُنا تنشقُّ وَزْدَتُها … متى ابنُ آدمِنا هذا ترقِّيه

هذي السَّماءُ التي أغرتْ كواكبَنا … اللاَّزَوَرْديَّةُ المجنونةُ الفَرِحَةْ

سماءُ شيطانٍ ما فيها ملائكةٌ … رأسٌ منيرٌ ولكنْ نظرةٌ وقحةْ

العقلُ حجَّتنا طُرّاً فما أحدٌ … إلا وَلِلْعَقْلِ مصباحٌ بمذهبه

هذا الجنون - ومن يدري حقيقتَه - … لعلَّه هو أيضاً أن يُصاب به

العقلُ عند جميع النَّاس منهجُه … ولم يكن من خصوصيات إنسان

والمؤمنُ الحقُّ هذا الكونُ أجمعُه … ميراثُه ، وأنا - لولاك - برهاني

(٤٧)

ليسَ سهلاً فَقَبْلَ بدئِك فارجعْ … يرفضُ البَحْرُ أن يقول لماذا

موضعُ الدُّرَّةِ الفريدةِ صعبٌ … وخلالَ الطَّريق تعرفُ هذا

ما لسنجارَ أو لـ (طغرل) حظٌّ … من عيونِ القَلَنْدَرِ[1] الملكية

حيرةُ الفِكْرِ أم حماسةُ رومي ؟ … وَجْدُ موسى أم فكرةٌ فلسفيه ؟

هي أسلوبُ ثعلبٍ في ظلامٍ … أم (يَدُ الله) في طريقة حُبِّه ؟

حيلةُ الإنكليز تظهرُها أمْ … هجماتُ التُّركيِّ داخلَ حربه

أهي في هذه الشَّريعة قامتْ … تَحْرُسُ المَعْبَدَ الذي شيَّدَتْهُ ؟

أمْ هي الوَجْدُ في فؤادٍ مُلَبٍّ … يُمْسِكُ الكعبةَ التي ألهبَتْهُ

---

(١) من شيوخ المتصوفة في الهند ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .

كـنْ غنيـاً وكـنْ إذا شئـت عبـداً أو أميراً ما بين (سمعاً وطاعه)
كـلُّ هـذي الألقـابِ ألقـابُ وَهْـمٍ لا يكـونُ الـوصـولُ دون شَجَـاعَـهْ

(٤٨)

ليـس لِلْجُنْـدِ غيـرُ شكـلِ سيوفٍ ليـس للتَّـاج غيـرُ لمعـةِ جـوهـرْ
فـي عـروشٍ وفـي جيـوشٍ بحثنـا مـا عثـرنـا علـى فـؤاد القَلَنْـدَرْ
لـمْ تحصِّـلْ مـن (لا إلـه) ضيـاءً هـذه الـذَّاتُ للطَّـريـقِ الطَّـويـلِ
أصبحـتْ معبـداً لأصنـامِ وهـمٍ عنـدمـا ضيعـتْ حـوارَ الخليـلِ
يصنـع الحـرُّ كـونَـه بجهـادٍ ويـرى فـي تَـدَخُّـلِ النَّـاس عـارا
لَسْـتَ آجـرّةً لقصـرِ غـريـبٍ لَسْـتَ فـي وقعـةِ الحيـاة غُبـارا
كـلُّ مـا فـي سمـائنـا مـن مَـدَارٍ لا يسـاوي مـدارَ هـذي القلـوبِ
ومَصِيـرُ القلـوبُ أبعـدُ شـأواً مـن غبـارٍ مشـرَّدٍ فـي الـدُّروبِ
قـال أهـلُ البِحـار أهـلُ البراري : ليـس لِلْغَـزب غيـرُ راحـةِ يـأسِـهِ
واقـفٌ فـي طـريـق سيـلٍ عنيـدٍ ليـس يقـوى على حمـايـة نفسِـهِ
قِـفْ قليـلاً فـأنـت أيضـاً قـديـرٌ ولـكَ الحـقُّ فـي اختيـارِ الحيـاة
كـلُّ فجـرٍ يطـلُّ تبـدعُ كـونـاً صرخـةُ الـوَجْـد فـي عـوالـم ذاتـي
أنـا فـي حـانتـي قنعـتُ بـدَنِّـي لست ممَّنْ يطوف حول الكنائسْ
أبـداً لا تقـدِّمِ الخمـرُ هـذي نَفْسَهـا فـي رحـاب تِلْـكَ المـدارس

(٤٩)

لـم تَهَـبْ لـي الطبيعـةُ اليـوم فِكْـراً ثـاقبـاً ، غيـر أنَّنـي لا أُبـالـي
عُـدَّتـي طينتـي التـي وهبتنـي طيـرانـي المُخِـفُّ عَبْـرَ الليـالـي
طينـةٌ بـالجنـون تَصْقُـل حِسِّـي طينـةٌ تَجْعَـلُ الغبـيَّ نبيهـا
ربمـا مَـزَّقَـتْ لجبـريـل سـرّاً ورأى قـولـه : ﴿ أتجعـل فيهـا ﴾
طينتـي لا يهمُّهـا صُنْـعَ عـشٍّ مـنْ دقـاقِ الأغصـانِ فـي البُسْتـان

وجبينُ النُّجوم يَرْشَحُ عاراً لبريقِ الدُّموعِ في أجفاني

(٥٠)

يَقْصِدُ المُبْدعُ الغَيُورُ بلاداً لمعانيه غيرَ كلِّ البلاد
لا إلى الكوفة التي ما استطاعتْ كَسْرَ سيفٍ ولا إلى بغداد[1]
نظراتي التي تموجُ فتوناً والَّتي تملأُ الفؤاد حُبُورا
مَنَحَتْني في حانةِ الغرب صحواً ونشاطاً وغبطةً وسُرورا
لستُ أحتاج فيلسوفاً ومُلّاً موتُ قلبٍ هما وفِسْقُ بصيره
كيف لِلاهوتيٍّ أُبدي ازدرائي حين ألقاه وهو رأسُ العشيره !!
الدَّراويشُ يطربون لهذا والدَّراويش دأبُهم غيرُ دأبي
لستُ أُغنىٰ بمثلِ هذا فدعني أبحثُ اليوم عن تفتُّحِ قلبي
ممكنٌ يُشترى غنى (أبرويزِ) ومحالٌ جراح (فرهاد) تُشْرىٰ[2]

---

(١) بغداد : عاصمة العباسيين إذاً فهي السلطة المادية ، والكوفة عاصمة علي رضي الله عنه إذاً فهي السلطة الروحية .

(٢) فرهاد : شخصية إيرانيّة أسطورية وقصة حبه لشيرين مشهورة في الأدب الفارسي ، كان فرهاد قاطع أحجار فشغف بالملكة شيرين شغفاً جنونياً وهي زوجة أبرويز وقبل من أجلها معاناة كل المصاعب أمره وزير أبرويز بحفر قناة في الجبل لجرّ بحر اللبن لعلاج الملكة التي زعم أنها مريضة فحفر فرهاد القناة ، وقيل له عندئذ : إن الملكة ماتت فانتحر عند سماع النبأ .
وعندما علمت الملكة بانتحاره وكانت صحيحةً سليمةً مضت إلى قبر العاشق وعندئذ انفتح القبر ومضت شيرين للحاق بالحبيب فرهاد . وتناول الشعراء هذه الأسطورة بطرائق مختلفة ، فرأى فيها بعضهم أنَّ الحبَّ لا بدَّ أن يفتك بالمحبِّ والمحبوب معاً .
وكان آخر تأويل إنكار استغلال الفقير ورأى في ذلك صراعاً بين رأس المال وبين العمل . الأصل .
قلت : وقد نقل الملحمة إلى العربية المرحوم محمد فريد أبو حديد ، وانظر كذلك (مختارات من الشعر الفارسي) د . محمد غنيمي هلال ، الدار القومية للطباعة والنشر=

والـــذي يجعـــل القَلَنْـــدَرَ حـــرًا … أنَّـــه لا يخـــاف للســـرِّ نشـــرا

لســتُ عــن متعــةٍ أمــزِّق ثــوبــي … تلـك أسـرارُنـا وليـس وسـاوسْ

طمعــي الفــردُ والمطــامــع كُثْــرٌ … هَبَــةُ الفِكْـر مـن رُقـاد المـدارسْ

رأيُ غــانـدي إنْ كنـتَ غيـرَ قـويٍّ … غيـرُ مجـدٍ فـي ملَّتـي واعتقـادي

ليــس إلا عصـا الكليـمِ لسحــرٍ … بــرهمــيٌّ مشعــوذٍ فــي البــلادِ

(٥١)

إقبـالُ تُحـزِنُـه المـلائكـةُ الَّتـي … عـابـت أمـام الله جـرأة صَـرْخَتِـه

وقــحٌ يُهَتِّــك للطبيعــة ســرَّهْ … ويجمِّـل الـدنيـا بلـؤلـؤِ نَظْـرَتِـهْ

لا ينتمـي لــلأرض وهــو سليلُهــا … لا الشَّــامُ مــوطنُــه ولا قــاشــانُ

مُتَعــدِّدُ الأوصــاف فــي قــدراتــه … ملــكٌ وفــي رغبــاتــه إنســانُ

قَلِــقٌ ريــاحُ الخــدِّ تمــلأ صــدره … ويعيقــه بستــانُــه المتنــاهــي

فـي ظـلِّ مـذهبـه المـلائكـةُ اهتـدتْ … لطـــريـــقِ آدم فـــي رحـــابِ الله

(٥٢)

لُعْبــةُ النَّــرْدِ لــم تكــنْ دونَ نــردِ … أرنـــي مظهـــراً لِتِلْـــكَ المغـــازي

خمـــرةُ القـــومِ لا تُنَـــالُ بِبَحْـــثٍ … فـــازَ رومـــيٌّ بهـــا وأخْفَـــقَ رازي

كـــأسُ جمشيـــدَ لمعُهـــا فـــي دوامٍ … أيُّ ملكيـــةٍ بـــلا شعـــوذاتِ

ليـس قلبـي وليـس قلبُـك فـابحـثْ … إن تمكَّنْـتَ فـــي صُـــدورِ الفِئـــاتِ

ليــس للعــاجــزِ الضَّعيــفِ حيــاةٌ … ودواءُ الضَّعيـــف ذوقُ العبـــادهْ

لا تقلْ في الصَّلاة : وجهت وجهي … فصَـلاتـي كمـا صـلاتُـك عـادهْ

نحـــن سجَّـــادةٌ لـــه حـــركـــاتٌ … فـــوق سَجَّـــادةٍ بغيـــر حـــراكِ

إنَّ حـربـاً أبطـالُهـا نحـنُ حـربٌ … تُعْلـنُ النَّصـر قَبْـلَ بـدءِ العِـراك !!

* * *

= ص٣٥٧ (القاهرة) .

لغـــةُ التُّـــركِ والعَـــرَبْ عـــذبـــةٌ ملـــؤهـــا الطَّـــرَبْ
لكـــن الحـــبَّ لـــم يكـــنْ ملـــكُ تـــركٍ ولا عَـــرَبْ
حَسْبُـــهُ البعـــدُ عنهمـــا حَسْبُـــه كنـــزُه الـــدَّفيـــنْ
حَسْبُـــهُ الحُـــبُّ إنَّـــه لهجـــة النَّـــاس أجمعيـــنْ
تحـــــتُ أصنـــــامِ آزرٍ صَنْعَـــةُ العـــاجـــزِ الـــذَّليـــلْ
والـــذي يطلـــب العُـــلا حَسْبُـــه صَنْعَـــةُ الخليـــلْ
لســـت نفعـــاً مجـــرَّداً إنَّـــك النَّجْـــمُ والمـــدارْ
مـــن جنـــونٍ مثـــابـــرٍ ذلـــك النَّقْـــعُ والغُبَـــارْ

* * *

(٥٣)

دوَّى النِّداءُ على القوافلِ معلناً بـدءَ المسيرِ فقُمْ مع الرُّكبانِ
أواهُ مـاذا يفعـلُ السَّاري الَّذي يتـوقَّـع التَّـرحـال كـلَّ أوانِ
انهضْ فَخَمْرُك لا تناسب هاهنا ديـراً وعصـرُك غيـرُ طبعِـك فـانِ
سِيَّان كـانَ القَلْبُ عبداً طائعاً أو لـم يـدعْ للعقـلِ مـنْ سُلْطانِ
فـالـدَّربُ يـا هـذا المسافرُ صعبةٌ وطـويلـةٌ وكثيـرةُ الأشجـانِ

* * *

(٥٤)

نَفَسي يُؤجِّجُ نارَ وَرْدَتِك الَّتي خَمَدَتْ لـواعجُهـا علـى الأغصـانِ
لـم يهـدأ البستـانُ منـذ أتيتُـهُ فـانظـر لآثـاري مـدى البُستـانِ
أيقظتُ قلـبَ العـارفيـن بِصَدْرِهـم وهَتَكْـتُ للبُسطـاء سـرَّ الحـانِ
ووهبـتُ للجيليـن ذوقَ لهيبهـم ومـلأتُ أنفُسَهـم بـرشـحِ دِنـانـي
أنـا أعجمـيُّ الحـبِّ إلا أنَّنـي أطلقتُ في الحَرَمِ الشريفِ لِسَاني
كـمْ ثـوبِ إحـرامٍ علـى متضـرِّعٍ مـزقْتُـه بـاللَّحـن مـن ألحـانـي

متلطخٌ قلبي بنظرةِ عادلٍ ... بسهامِ سيدنا الحُسين رماني

في الشَّام أم في الكوفةِ النَّرْدُ الَّذي ... كانا على شقَّيْه يختصمان

أخشى يكونُ كلاهُما متعثراً ... فالنَّرد هذا ماله شقَّانِ

لِمَ تعجبون لمسلمٍ متحرِّقٍ ... ورداؤه قطعٌ من الأحزانِ

فقرُ الجُنَيْدِ وملْكُ سنجارٍ به ... وجنونُ طيفور الطَّليقِ العاني

بالرُّغمِ ممَّا قُلْتُ قبحي ظاهرٌ ... تأذَّى به عيناك حين تراني

(٥٥)

هذا الهلالُ بصدقِه يتسامى ... أبداً يريدُ الكرَّ والإقداما

لولا تجاوزه لكلِّ وجوهه ... ما كان في فَلَكِ السَّماء إماما

لا تفتحُ الأنسامُ بُزعمَ وردةٍ ... بلهاءَ عن شمسِ الصَّباح تحيدُ

طهرُ العيونِ هو الحقيقة كلُّها ... والقَلْبُ في حِضْنِ العيونِ مريدُ

هذي الشَّقائقُ تَحرِقُ القلبَ ارتمتْ ... في الحَقْل ما احتملت سيوفَ سنابلِهْ

كوقائع (الغوري) و(أيبك)[1] عُطِّلاً ... ونشيد (خسرو) في قلوب بلابلِهْ

(٥٦)

يا أيُّها الإنسانُ كُنْ يَقِظاً فَدَرْبُك في السَّماءْ

لا ترمِ نَفْسَك خَلْفَ هذا الصُّبْح أو ذاكَ المساءْ

الدَّرْبُ ذلك ماله زمنٌ ليأسفَ ركبُهُ

ومَنِ الَّذي يدري ويَعْرِف أين تَنْشبُ حربُهُ

لا سرَّ ينبضُ في التسكُّعِ والتمحُّل واليقين

فوق المواخرِ والمساجدِ والكنائسِ أجمعين

---

(١) هو قطب الدين أيبك المتوفى سنة (١٢١٠م) مؤسس سلالة المماليك الأتراك ، أولى سلالات سلطنة دهلي بنى مناراً عالياً يُسَمَّى اليوم بـ « قطب المنار » (وهي من أهم الآثار الإسلامية في الهند) وخلفه التمش .

اللـــؤلـــؤُ الفـــردُ الَّـــذي ... قـــد نـــدَّ عـــن صـــدرِ المَحَـــارهْ
مجـــلاهُ فـــي دَمْـــعِ الصَّبـــاح وليـــس فـــي خِـــدَعِ الحضـــارهْ
القـــرمـــزيُّ الخـــدُّ لا يحتـــاج مسحـــوقـــاً يبـــاعْ
والعـــازفُ المـــوهـــوبُ لا يـــرضـــى بـــألحـــان الـــرُّعـــاعْ
ألحـــانُ هـــذا العصـــر يلـــزمهـــا الكثيـــر مـــن الـــذَّكـــاء
إذْ طـــالمـــا الصَّـــوتُ الـــذي فـــي الســـرِّ يخطـــىء فـــي الغِنـــاء

(٥٧)

يَمَّمْتُ مـــدرســـةَ الأســـود رأيتُهـــا ... تبكـــي أبـــاطـــرة الـــزَّمـــانِ الـــذَّاهـــب
جارتْ عليها الحادثاتُ فأصبحتْ ... مـــرعـــىً لخـــرفـــانٍ ووكـــرَ ثعـــالـــبِ
مـــا للقـــوافـــلِ مـــنْ يقـــود رِكـــابَهـــا ... بحـــوارِ مـــوســـى فـــي رحـــاب الله
مـــن أيـــن للعصفـــورِ ذوقُ نشيـــده ... والجمـــع ســـاهٍ والمـــردِّدُ لاهِ
لآهِ لأنفـــاسٍ مَضَـــتْ وكـــأنَّهـــا ... طيـــفٌ ومـــرَّ بـــذلـــك البُستـــانِ
وهـــي الَّتـــي أذكـــت لهيـــبَ جمـــالـــه ... وهـــي التـــي روَّتـــه بـــالألحـــان
فـــي ليـــلِ دهشتـــه هنـــاك وَوَجْـــدِه ... ظلمـــاتُ تـــاريـــخٍ يُكَـــرِّرُ نفسَـــهُ
هـــل دهشـــةٌ أخـــرى ووَجْـــدٌ آخـــرٌ ... يـــروي حقيقَتَـــهُ ويمـــلأ كَـــأْسَـــهُ
جُـــرحـــي تـــألَّـــق كـــالبـــروق بليلهـــمِ ... ليـــروا حقيقـــةَ هـــذه الحسنـــاءِ
وليعلـــم الغُـــربـــاءُ ليســـت فجـــةً ... ثمـــراتُ هـــذا السَّيـــرِ فـــي الصَّحـــراءِ

(٥٨)

أتـــذْكُـــر البيـــت الَّـــذي قـــد قـــالـــه ... سلمان[1] ذاك الشاعِرُ الحرُّ الأمين
(سيظـــلُّ عـــالمنـــا بـــرُغْـــمِ صعـــابِـــه ... (سيظلُّ) مفتوحاً أمام العاملين)
البحـــثُ يلـــزمـــه مـــواهـــبُ بـــاشـــقٍ ... وفـــؤادُ ليـــثٍ لا يخـــاف جـــروحـــا

---

(١) هو مسعود سعد سلمان : شاعر فارسي مشهور ، ربما وُلد في لاهور في العهد الغزنوي (إقبال) .

مـن غيـرِ معـرفـةٍ وغيـر قـراءةٍ يجـدُ الشُّجـاعُ طـريقـه مفتـوحـا
دعْ عَنْـكَ طـاووسـاً يتيـه وبلبـلاً يَشْـدُو فليـسَ السـرُّ فـي الاثنيـنِ
السـرُّ ليـس بنغمـةٍ وبصـورةٍ السـرُّ فـي سَمْـعٍ ورقـةِ عيـنِ

(٥٩)

المعرفة أم التجرد

ليـس يقـوى علـى القَلَنْـدَر دهـرٌ قلبُـه تحـت عَـرْشِـه مُسْتَقَـرُّهُ
سـرُّه ليـس فـي العُلـوم ولكـنْ علمُـه بـالتجـرُّد الحـقّ سـرُّهُ ؟
هـي تـرمـي لصَقْـلِ عَقْـلٍ وفكـرٍ وهـو يـرمـي لصَوْغِ عينٍ وقَلْـبِ
هـو دربٌ بـذاتـه مُسْتَقـلٌّ وهـي بحـثٌ علـى مجـرَّد دَرْبِ
هـو عنـد الصِّحـاب عيسـى وموسـى وهـي للنَّـاس فيلسـوفٌ وقـاضِ
هـو لِلسـرِّ والبصيـرة روحٌ وهـي ليست سِوى أقاويلَ ماضِ
هـو سكـرانٌ بـالفضيلـة سـارٍ وهـي سكـرانـةٌ بِخَمْـر الـرَّذيلـةْ
مُطْلـقُ السُّكـر فـي الحقيقـةِ حـالٌ ليـس فيـه رذيلـةٌ وفضيلـةْ
الـذي يقتضـي التجـرُّدَ شـيءٌ ليـس سِيَّـان والـذي يقتضيهـا
نظـرةُ النَّفـي لِلْقَلَنْـدَرِ سيـفٌ طَبَعَتْـهُ الـذَّات الَّتـي يقتفيهـا
واحـدٌ مـن جنـودِهـا الحـقّ يُغْنـي عـن جيـوشٍ تخـاف وَهْـمَ الفَنـاء
وإذا المـرءُ كـان صـاحـبَ قلـبِ كَسَـرَتْ عينُـه مـرايـا السَّمـاء

(٦٠)

وقـف الجميـعُ يعـارِضـون نـدائـي لـم يُجْمِعـوا إلّا علـى إقصـائـي
ذهبوا مع الصَّحراء خَلْفَ جنونهم وبقيـتُ مجنـونـاً بـلا صحـراء
حمداً لِمَنْ رَجِـمَ العباد فأسْدِلَـتْ أستـارُ كعبتنـا بـوجـهِ صيـاحـي
وبقيـتُ وحـدي مـرةً أخـرى وَقَـدْ طافتْ على الحَرَمِ الشريفِ جِراحي
فقهـاؤنـا وقفـوا بصـوتٍ واحـدٍ دونـي ومـا حـاروا بـأيِّ جـوابِ

لا مثلَ أفلاطونَ بين حضورِه وغيابِه والسَّلبِ والإيجاب
كانت رجالُ الفِكْرِ تَنْبُضُ جرأةً وحميَّةً أوحتْ بها الأعرافُ
نفسٌ إذا القرآنُ ما انتفعتْ به لا الكشفُ يَنْفَعُها ولا الكشَّافُ
إنْ كُنْتَ منْ وهمٍ بشيءٍ مفرحٍ تأسى فإنَّك في السَّفينةِ تَغْرَقُ
في خمرِ أوربَّة شُعاعٌ ذائبٌ بالرُّغْمِ من أكدارها يتألَّقُ

(٦١)

عجباً من مغامراتِ ذكيٍّ جعل الوَجْدَ والتعقُّلَ دربا
لم تزل حولَه المواجدُ حتَّى تركتْهُ في ساحةِ الحبِّ نَهْبَا
كيفَ ناحَتْ حمامةُ الأيكِ قربي ثمَّ كانتْ عَذُولَه ورقيبَهْ
إنَّني مدركٌ إلى أينَ يمضي مخفلٌ يُزيِنُكَ الضميرُ خطيئَهْ
قيلَ إن الأتراكَ بالشِّعرِ أدرى فأقرنوهم من شِعْرِ إقبال بيتا
(لا يكون القويُّ جارَ ضعيفٍ كلُّ ما في يديه لولا وَلَيْتَ)
ما طقوسُ المساجدِ اليومَ ؟ ظلمٌ وانتهاكٌ لحرمةِ السَّاجدينَا
ما سلوكُ الكنائس اليومَ ؟ سوقٌ لوجوه الرُّهبان والسَّالكينَا
في ردائي الَّذي تمزَّق سرٌّ من بقايا الأسرار يُكْشفُ بعدي
لا يليقُ الجنونُ فالعصر هذا ليس عصراً لذي جنونٍ وَوَجْدِ
أضِعِ النَّفس في البحار وغامِرْ ثم غُصْ في البحار واعثُرْ عليها
وأَقِمْ بين ضجَّةٍ وتَلَوٍّ ليس من شاطئٍ يقودُ إليها
هل لمثلي مِنَ الفضاء نصيبٌ مَنْ تُراني أنا وما جنسي ؟!
جئتُ للأرضِ ؟ أم تخلَّقْتُ منها ؟ قفصي الكونُ ؟ أم نهايةُ نفسي ؟
كَمْ تَعَثَّرتُ في متاهاتِ ذاتي وكأنِّي في أرضِ ذاتي دخيلُ
بين نفسي مِنَ الخصامِ وبيني سهرٌ دائمٌ وليلٌ طويلُ
قصَّةُ الحبِّ ألفُ نقشٍ ولونٍ وغِنائي أشدُّ نقشاً ولونا
تارةً أملأُ الحياةَ وِصَالاً تارةً أطلبُ الفِراقَ لأفنى

اليقيـــنُ اليقيـــنُ جلســـةُ حـــبٍّ — مـــن خليـــلٍ بنـــارِ نمـــرودَ يُمْسِـــكْ
ســـرُّهُ أنْ تقـــومَ لله شُكْـــراً — وقصـــاراه أن تلـــوذَ بِنَفْسِـــكْ
كعبـــةُ العُـــرْبِ أطلقـــتْ كـــلَّ لحـــنٍ — طـــافـــت الفـــرسُ والمغـــولُ عليـــه
كيـــف تسمـــو حضـــارةٌ ليـــس فيهـــا — حـــرمٌ يجمـــعُ القلـــوبَ إليـــه
صـــوت قيثـــارتـــي الَّتـــي سَمِعـــوهـــا — أعجمـــيٌّ لكـــنَّ لحنـــي حجـــازي
شَهِـــدَ الغـــرب أنَّنـــي غـــزنـــويٌّ — حيـــن جـــرَّعتُـــه مصيـــر إيـــازٍ[1]
أيهيـــمُ الفـــؤادُ فـــي كـــلِّ حســـنٍ — أمْ يُغَنِّـــي لـــوحـــده فـــي الـــزِّحـــامِ
رُغـــم أنَّ الـــزَّمـــان للقلـــب غِـــلٌّ — لا يـــذلُّ الـــزَّمـــان قلـــبَ هُمـــامِ
أيهـــا المسلـــمُ الـــذي يشتكينـــي — لا تَلُمْنـــي فـــأنـــتَ تفضـــحُ عينَـــكْ
لا تخفْ من صراحتي في حديثي — إنَّ هـــذا الحـــديـــث بينـــي وبينـــكْ
طيـــرانُ الأنبيـــاء ليـــس كهـــذا — مـــالـــكَ اليـــوم فـــي السَّمـــاءِ اجتيـــازٌ
ليـــس يعنـــي إنْ كـــان جـــدُّك بـــازاً — أنَّـــك اليـــوم بـــالـــوراثـــة بـــازٌ
آهِ للمُسلـــم الـــذي بـــات رسمـــاً — شَغَلَتْـــه عـــن الحيـــاة جُـــدُوْدُه
سألوني فقلت : يوجد ، قالوا : — أيـــنَ سلطـــانُـــه وأيـــنَ وجـــودُه
لا يبـــالـــي الـــدَّرويـــشُ عُســـرَ طـــريـــقٍ — ويـــرى العُنْـــر عـــونَـــهُ ونصيـــرَه
اســـألِ اللهَ أن تكـــونَ بصيـــراً — فســـلاحُ الـــدَّرويـــش نـــورُ البصيـــرهْ
إنَّهـــا الـــذَّاتُ عنـــدمـــا تتجلَّـــى — تَنْعُـــمُ النَّـــاسُ فـــي ظـــلال النُّبُـــوَّه
إنَّهـــا نَفْسَهـــا حجـــابُ إلـــهِ — عنـــدمـــا تـــأخـــذ الكتـــاب بقـــوَّهْ
تَصِـــلُ الـــذَّاتُ قـــابَ قـــوسيـــن لكـــنْ — لا تـــرى نَفْسَهـــا بعـــرشٍ وكـــرســـي
كـــلُّ شـــيءٍ هنـــاك تُغْـــرِبُ عنـــه — صـــرخـــةُ الفَجْـــرِ فـــي قـــرارة نفســـي
صَنَـــمُ العَيْـــنِ كـــلُّ لـــونٍ تـــراه — يجعـــلُ الكـــونَ هيكـــلاً للعُقـــولِ

---

(١) كما قصَّ الغزنوي ضفائر إياز التي تنبض إغراءً هكذا فعل إقبال بضفائر أوروبة فعاد منها وقلبه في صدره وفي يده قصاصة شعرها منادياً .
إن الحسن الذي يمكن للمقص أن يزلزله لا يستحق أن يكون كعبة للقلوب .

مُمكِــنٌ أنــتَ أنْ تكــونَ خليــلاً في صُـراخِ الصَّباحِ بعـدَ الأفـولِ

فيمَ هـذا المُحـبُّ يَعْبَث سُكْـراً بحبـالِ الصَّيْـدِ الَّتـي أوقعتـه

لـم تَـزِدْهُ الشُّبـاكُ إلا حُبُـوراً وكـأنَّ الشُّبـاكَ قـد أطلقتـه

عِلْـمُ رازيْ تَهَـوُّرٌ وانحـدارٌ وحيـاةُ القلـوب علـمُ القَلَنْـدَرْ

قِمَّـةَ الشُّكْـرِ والمحبَّـة تبـدو في السُّلـوك الـذي يمـتُّ لِحَيْـدَرْ

أيـنَ مَـنْ أطلـقَ الحيـاةَ بعقلـي ؟ أيـنَ ذاكَ الَّـذي أبـادَ حَصَـادي

هـو فـي عُـزلـةِ الفـؤاد مقيـمٌ وسـؤالـي الـوحيـدُ أيـنَ فـؤادي ؟

أنـا لا أركـبُ الهـوادجَ هـذي أنـا لا أمتطـي الـرِّكـابَ دليـلا

أرشـدُ الـرَّكْـبَ للطـريـق وأمضـي لسـتُ عمَّـا يُفَتِّشـون بـديـلا

حطـبُ المَـوْقِـدِ الغليـظِ مُمـلٌّ وأنـا رغبتـي بحـرق الـدِّقـاقِ

أنـا لا أمْنَـحُ الحصـادَ لحقـلٍ عملـي الفـردُ والـوحيـدُ احتـراقـي

قـد تنفَّسْـتُ ليس مـن نـارِ قلـبٍ نفسـاً بـارداً أهـاجَ رمـادا

شعلـةُ الفِكْـر للطَّـريـق ضيـاءٌ ودليـلٌ لـه ولَيْـسَ مُـرادا

أرضُنـا هـذه لطُهْـرِك تهفـو أنـتَ بـرهـانهـا وأنـتَ هُـداهـا

قلبُـك المطمئـنُّ قبضـةُ نـورٍ مَنَحـتْ أعْيُـنَ السَّمـاء مـداهـا

عـن يـدِ الله طِـرْتَ لا عـن غبـاء أنـتَ شـاهينُـه وأنـتَ رسـولُـه

ولـكَ الحُـوْرُ والمـلائـكُ صَيْـدٌ ذاك ديـنٌ وليـس شعـراً أقـولُـه

أتُـرىٰ مـا لِلْمُسْلميـن نصيـبٌ مـن جنـونِ الحـبِّ الَّـذي أطلقـوه

دمُهـم كـان للشُّعـوب منـاراً ثـمَّ هُـمْ فـي ظـلامهـم أهـرقـوه

ذاك أنَّ الضُّلـوعَ خـارتْ قُـواهـا لـم يعـد بينهـا لهيـبٌ يصـولُ

سجـداتٌ رتيبـةٌ فـي خمـولٍ وصفـوفٌ مُعـوجـةٌ وذُهـولُ

أيُّهـا المسلـمُ المثـابـرُ يـرجـو ثـوبَ تقـواه كـنْ نسيـجَ حيـاتِـك

كـنْ وحيـداً ووحِّـدِ الله واكشِـفْ سِحْـرَ ألـوانـنـا بقـوَّة ذاتِـك

كُـنْ كمـا المـوجُ كـلَّ حيـنٍ تـراهُ يـدرسُ الشـاطـىءَ الَّـذي يبتغيـه

انتـزعْ مـن يـديـه ثـوبَـك وارجِـعْ لا تغـرنَّـك الإقـامـةُ فيـه

النَّدى شفَّ عن صُدور ورودٍ ليس فيها من الخلاعة كُفءُ
فوَّر الخضرةَ النسيمُ صباحاً فورةً ما لها هُنالِكَ دِفْءُ
احمرارُ الشَّقيق صورةُ نارٍ ضاعَ في غمرةِ الحياةِ فؤادُهْ
شعلةُ العقلِ للمسافرِ عونٌ والَّذي يُلهِبُ الطَّريقَ مُرادُهْ
ما هو العقلُ ؟ إنَّه ليس إلَّا نارَ مصباحنا بهذا الطريقِ
وضجيجُ الطَّريق منْ فعلِ قلبٍ ليس للعقلِ مِنْهُ غيرَ بريقِ

* * *

القسم الثالث

في مسجد قرطبة

وقف محمد إقبال ـ في عام ١٩٣٢م ، الذي زار فيه إسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود ـ في جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمن شاعر ، وقفة خاشع أمام الإيمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ، وقفة خاشع أمام العاطفة القوية ، والحبِّ الطاهر ؛ الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفنِّ الإسلاميِّ العربيِّ الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كلُّ ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى أنَّ هذا المسجد العظيم صورةٌ للمسلم في هذه الأرض الحنون ، تجلَّت فيه أخلاق المسلم وصفاته ، علوٌّ في الهمَّة ، واتساعٌ في القلب ، وبساطةٌ في المظهر ، وبراءةٌ في النية ، وثباتٌ على الحقِّ ، وإعلانٌ للعقيدة والمبدأ ، وجمعٌ بين الجمال والجلال ، والأنفة والتواضع .

وتذكَّر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكَّر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ، تذكر ـ والشيء بالشيء يذكر ـ بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوِّي في الجوِّ ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعونه ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمة ، فليس له نظيرٌ في الأصوات ، والهتافات ، والإعلانات ، والرسالات ، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون ، ويضطرب له العالم ، وتتزلزل به أوكارُ الفساد ، ذلك الأذان الذي تنفَّس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ،

وانطلقت موجةٌ من نور ، عاشت بها الدنيا وما بين العالم اليوم وبين الصبح الصَّادق إلا هذا الأذان الصَّادق الذي ينادي به المؤمن الصادق .

وتذكر بهذا الأذان الرسالة السامية السَّماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الأذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمَّنها ، وامتلأ إيماناً ويقيناً بأنَّ الأمَّة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة ـ التي كتب لها الخلود ـ لا تموت ولا تفنى .

حرَّك هذا المنظرُ الرائعُ ، وهذا الأثرُ التاريخيُّ ، وهذا المسجدُ الغريبُ الفريدُ الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرَّك كل ذلك في إقبال الإيمان والحنان ، والأحزان والأشجان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها « في جامع قرطبة » وقد كتبها في إسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد إقبال أنَّ هذا العالم خاضعٌ للفناء، وأنَّ الآثار التي تخلفها الأجيال، وأنَّ البدائع الفنية التي تنتجها العبقريةُ الإنسانيةُ بين حينٍ وآخر ، كتب لها الاضمحلالُ والاندثارُ ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات إلا ذلك الأثر الذي أكمله عبدٌ مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأنَّ عمله يستمدُّ الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبِّه القويِّ الخالص[1] ـ والحب هو أصل الحياة الذي حرم الله عليه الموت ـ إنَّ الدهر سريعٌ ، ورفيقٌ في سيره ، وهو تيارٌ عنيفٌ لا يقف في طريقه شيء ، والحبُّ هو القوة الوحيدة التي لا تقاوم لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ، إنَّ الحبَّ غيرُ خاضع للنظام الرياضي المرسوم ، فله عصورٌ ليس لها اسم في لغتنا ، الحبُّ هو الذي تجلَّى في الرسالات السماوية ، وفي الأخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النُّور

---

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه إقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي حقيقة جامعة بين الإيمان والحنان ، ولا صلة له بالغرام والعاطفة الجنسية .

والسُّرور ونشوةَ الخمور ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ، الحبُّ قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الأحزاب، فله أطوار وأدوار ، وهو رحالةٌ لا يزال في سير وانتقال ، وحلٌ وترحال، له منازل ومقامات يمرُّ بها ويخلفها وراءه، هو الذي أطلق قيثارة الحياة فانطلقت منها نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها .

ثم يلتفت الشاعرُ العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويقول له : « **تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحب البريء ، ولهذه العاطفة القوية ، التي كتب لها الخلود فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، إنَّ البدائع الفنية إذا لم ترافقها العاطفة ، ولم يسقها دم القلب ـ الحب ـ أصبحت مصنوعات سطحية من لونٍ ، أو قرميدٍ ، أو حجرٍ ، أو لفظةٍ ، أو كتابةٍ ، أو صوتٍ ، لا حياة فيها ولا روح ، إنَّ المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحبِّ ، ولا تقوم إلا على العاطفة والإخلاص ، الحبُّ هو الذي يفرق بين قطعةٍ من حجر ، وقلبٍ خفَّاقٍ حنونٍ للبشر ، فإذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصمَّاء خفقت وعاشت ، وإذا تجرَّدت منه القلوب الإنسانية جمدت وماتت** » .

ويقول في عقيدة مؤمنٍ ، ودلال شاعرٍ محب : « **إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الإيمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة الأحزان ، إنَّ الإنسان في تكوينه وخلقه قبضةٌ من طينٍ لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدراً لا يقل عن العرش كرامةً وسمواً ، فقد أشرق بنور ربه ، وحمل أمانة الله ، إنَّ الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لهم تلك اللَّوعة واللَّذة التي امتاز بها سجود الإنسان ؟!** .

وهنا يتذكر محمد إقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكَّر أنَّه هنديُّ النجار ، وأنه من إحدى بيوتات « البراهمة »[1] ، ويتذكَّر أنَّه أمام أثر إسلاميٍّ عربيٍّ صميمٍ

---

(١) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى « سبرو » أسلم جده الأعلى قبل مئتي سنة .

قديم ، فيقول : « انظر أيها المسجد ! إلى هذا الهندي ـ الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام ـ كيف غمر قلبَه الحبُّ والحنان ، وكيف فاض قلبُه ولسانُه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيدُ والإيمان » .

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالأمّة الإسلامية العظيمة التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ، فيرى أنه صورةٌ صادقةٌ للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكمُ البنيان ، كثيرُ الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقةً بنور ربها ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلًا للملائكة ، ومهبطاً للرحمة الإلهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة : « إن المسلم حيٌّ خالد ، لا يزول ، ولا ينقرض ؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم ، وموسى ، وجاء بها النبيون ، وقد قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة ، وتكفَّلت بتبليغ هذه الرسالة ! » .

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الأمّة التي يمثلها هذا المسجد ، الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : « إنَّ المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب ، فليست دجلة في العراق ، ودانوب في أوربة ، والنيل في مصر ، إلا موجةً صغيرةً في بحره الواسع ومحيطه الأعظم ، إنَّ له عصوراً في التاريخ لا يقضى منها العجب ، وله حكاياتٌ ومواقفُ في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب ، هو الذي أمر العصر العتيق ـ العصر الجاهلي ـ بالرَّحيل ، وافتتح العصر الجديد ، إنَّه إمام رجال الحبّ والعاطفة ، وفارس ميدان الإيمان والحنان ، لسانُه لبنٌ وعسل ، وسيفه علقمٌ وحنظل ، يعيش في ميدان الحرب



القسم الثالث

المَــرأة







بفضل دمهم العربي ، خفةُ روح ، وحفاوةٌ ، وبساطةٌ ، وجمالٌ شرقيٌّ ، فتكثر فيهم عيون المها ، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ، ورنات الحجاز » .

ثم يخاطب إسبانيا ـ الأندلس الإسلامي المغصوب ـ فيتغنَّى بأرضها التي تطاولت السماء سمواً ورفعة ، ويتوجع على أنَّ أجواءها لم تسمع الأذان من قرون ، ثم يذكر ما مر على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويتشوَّق إلى ثورةٍ جديدة ، مركزها الشرق الإسلامي ، فيقول : « **لقد شهدت ألمانيا ثورة الإصلاح الديني التي عفت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة في أوربة ، فجحدت أوربة المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحرَّر الفكر الأوربي ، وتحرَّكت سفينته في يسرٍ وسهولة ، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها أوربة اضطراباً ، وأصبح الشعب الطلياني ـ الرومي ـ شاباً فتياً بلذة التجديد[1] ، هكذا الرُّوح الإسلامية مضطربةٌ قلقةٌ ، تطلب انتفاضةً جديدة ، ولكن متى ذلك ؟ إنَّه سرٌّ من أسرار الله ، لا يفصح به اللسان ، والعالم يتمخَّض بحوادثَ جسام ، فلا يستطيع أحد أن يتكهَّن بالمستقبل »** ، ويخاطب نهر قرطبة « الوادي الكبير » ويقول : « **إن على شاطئك أيها النهر العزيز ! رجلاً يرى حلماً لذيذاً ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لا يزال في طيَّات الغيب ، يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ، ولكنَّها لا تزال محجوبةً عن أعين الناس ، لو كشفت الغطاء عن وجه هذا العالم الجديد ، وبحت ما في صدري من أفكار وأسرار ؛ لشقَّ ذلك على أوربة ، وفقدت رشدها ، وجنَّ جنونها »** .

ثم يعود مرَّةً ثانية ، يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب ، والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويقول : « **كلُّ حياة لا تجديد**

---

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني روح النخوة والطموح ، والاعتداد بالنفس والقومية الرومية .

فيها ، ولا ثورة أشبه بالموت ، إنَّ الصراع هو حياة روح الأمم ، إنَّ أمةً تحاسب عملها في كل زمان سيفٌ بتَّارٌ في يد القدر ، لا يقاومه شيء ، ولا يقف في وجهه شيء » .

ويختم محمد إقبال قصيدته البديعة ، بكلمةٍ حكيمةٍ مأثورة ، مبنيةٍ على تجاربَ واسعةٍ ، ودراساتٍ عميقةٍ ، واستعراضٍ واسعٍ للأدب ، والشعر ، والفن ، والأفكار ، يقول :

« إنَّ كلَّ مأثرة وكلَّ إنتاجٍ ، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقصٌ ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع ، وكلَّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يَدْمَ له القلب ، ولم تتألق به النفس قبل أن يصدر ، ضرب من العبث والتسلية ، ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار » .

وهذا هو سرُّ الخلود والبقاء للآداب ، والأفكار ، والإنتاج ، وهذا سرُّ تفاهة الأدب الجديد ، الذي يولد سريعاً ، ويموت سريعاً ، وهذا هو سرُّ التأثير والخلود في شعر إقبال وإنتاجه فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا[1] ؟

* * *

(نُظمَتْ في مسجد قرطبة)

إنَّ هـــذي الصـــرخـــةَ اليـــومَ التـــي تفضـــحُ أمـــري
صـــرخـــةُ القلـــبِ التـــي خبَّـــأتهـــا طيلـــةَ عُمْـــري
صحبـــــةُ الأطهـــــارِ نـــــورٌ ورضـــــا الله حُبُـــــور
وشقيـــقُ الـــرَّوض كـــاســـاتٌ علـــى النَّهـــر تـــدور
هـــاهنـــا يمكـــن أنْ أذكـــرَ وَغْثَـــاءَ المسيـــز
ووضـــوئـــي لِصـــلاتـــي مـــنْ دَمِ القَلْـــبِ الكسيـــرْ

---

(١) من « روائع إقبال » للعلاّمة أبي الحسن علي الحسني النَّدوي .

مـــع مـــنْ يمشـــي الَّـــذي يمشـــي علـــى هـــذا الطَّـــريـــقْ
وأنـــا إلّا رجـــائـــي ليـــسَ لـــي فيـــه رَفيـــقْ
أيكـــونُ القَضْـــرُ عُشِّـــي وأنـــا أكـــره لـــونَـــهْ
أنْـــتَ ذاك العُـــشُّ والغُصـــنُ الـــذي يَسْتُـــر كـــونَـــهُ
أنْـــتَ مـــن أطلقـــت مـــنْ صـــدري صـــراخَ الفَجْـــر بعثـــا
لـــي مـــن التَّـــوحيـــد نـــارٌ تُلْهِـــبُ العـــالـــمَ بحثـــا
بـــكَ أنفـــاســـي تغنَّـــى لـــكَ تغـــدو وتـــروح
ذات شجـــوٍ وحمـــاسٍ ونـــدوبٍ وجـــروح
أملـــي أنـــت وشُغلـــي طلبـــي أنـــتَ الـــوحيـــد
وأنـــا هـــذا نصيبـــي غيـــرَ هـــذا لا أُريـــد
عنـــدمـــا تخطِـــر قـــربـــي تصبـــحُ الصَّحـــراءُ بحـــرا
وإذا لـــم تـــكُ فـــي البُستـــان فـــالبُستـــان صحـــرا
أتمنَّـــى مـــرَّةً أخـــرى ولـــو جـــرعـــةَ كـــأسٍ
علَّ أنْ أخـــرجَ يـــومـــاً مـــنْ طـــوافـــي حـــولَ نفســـي
أنـــا منهـــا فـــي خمـــارٍ كيـــفَ لـــي أشـــربُ منهـــا
كـــلُّ حـــانـــاتِ الـــورى حطَّمْتُهـــا فـــي البَحْـــثِ عنهـــا
أيُّهـــا السَّـــاقـــي متـــى تنظـــرُ لـــي عيـــنُ حنـــانـــك
ومتـــى الجمهـــورُ بـــالأقـــداح تـــروي مـــنْ دِنـــانـــك
خلقُـــك اللَّهـــمَّ هـــذا لـــم يَـــذُقْ ذوقَ فتـــونـــي
وأنـــا ، إنْ لـــمْ تبـــدِّلْـــه يبـــدِّلْـــه جنـــونـــي
مـــا هـــو العـــارُ الـــذي يَلْحـــقُ هـــذا الفيلســـوف
وهـــو بـــالســـرِّ الـــذي خبَّـــأتَـــه أنـــت يطـــوف ؟!

* * *

نسمـــةُ الأسحـــار هـــذي نفحـــةُ اللهِ الخبيـــرْ

فــي نسيــج الــرُّوح يجــريهـــا كنُسْـــغٍ فـــي الضَّميـــر
يصبـــح الـــرَّاعـــي كمـــوســـى بتعـــاليـــمِ شُعيـــب
﴿ لا تخـــف ﴾ سيـــفٌ فخـــذهـــا وهْـــي وحـــيٌ دون ريـــب

* * *

مسجد قرطبة

(نظمت في أرض الأندلس وبخاصةٍ في قرطبة)

(١)

ضيـاءُ الصُّبـحِ بعـد الليـلِ آتٍ (ومـن هـذيـن كـلُّ الحـادثـاتِ)
همـا فـي الـدَّهـر خيـطٌ مـنْ حـريـرٍ تلـوَّن بـالحيـاة وبـالممـاتِ
همـا إيقـاعُ أغنيـةِ الحِجَـابِ ولحـنُ الحـقِّ فـي هـذي الـرِّحـاب
علـى وتـر الخُلـود لهـم نشـاطٌ مُلِـمٌّ بـالقَـرار وبـالجَـواب
وعنـدهمـا بكـلِّ النَّـاسِ علـمٌ همـا حجـرُ المحَـكِّ لكـلِّ شَغْـبِ
فـلا تفخـرْ بقلبـك دون زيـفٍ وجـرِّب مثلمـا جَـرَّبْـتُ قلبـي
فـإن هـو كـان زيفُـك مثـلَ زيفـي ولـمْ يـكُ لـي ولا لـكَ أيُّ قيمـة
فعيـدُك مثـلُ عيـدي عيـدُ مـوتٍ وحظُّـك مثـلُ حظِّـي فـي الـوليمـه
ومـا المعنـى ليـومِـك أو ليـومـي بـلا ليـلٍ يكـون ولا نهـار
إذا عبـر النُّبـوغُ بـأرضِ قـومٍ تـولَّـى مثـلَ زوبعـةِ الغُبـار
حكـايـةُ كـوننـا وهـمٌ وظـنٌّ وهـذي كـلُّ أطـوار الحكـايـة
مـن العَـدَمِ البـدايـةُ أخـرَجتنـا وتـرمينـا إلـى العَـدَمِ النِّهـايـة

(٢)

المـــوتُ لا يَمحـــو رجـــالَ اللهِ مـــنْ هـــذا الـــوجـــود
الحـــبُّ فـــي دمهـــم تلـــوَّنَ بـــالثبـــاتِ وبـــالخلـــود

مهمـــا يكـــنْ جـــريـــانُ هـــذا العصـــرِ جبَّـــاراً عنيفـــا
فـــالحـــبُّ يَجْـــرُفـــه ولكـــنْ سيلُـــه يَبْـــدُو لطيفـــا
الأمـــسُ والغـــدُ ليـــس وُجْهتَنـــا الَّتـــي نسعـــى إليهـــا
الحـــبُّ أزمنـــةٌ بـــلا أسمـــاءَ نُطلِقُـــه عليهـــا
مـــا الحـــبُّ ؟ مـــا هـــو ؟ إنَّـــه ونبـــاتُ أوقـــاتِ الصَّفـــا
فـــي نفحـــةِ الـــوحـــي الأميـــنِ علـــى فـــؤادِ المصطفـــى
مـــا الحـــبُّ ؟ سكـــرةُ وردةٍ خَلَـــعَ الجمـــالَ عـــذارُهـــا
لَعِـــبَ النَّسيـــمُ بهـــا عليـــه فقطعـــتْ أزرارَهـــا
الحـــبُّ فـــي ســـاحِ الجيـــوشِ هـــو المقـــدَّمُ والنَّبيـــه
والحـــبُّ فـــي الحَـــرَمِ الشَّـــريـــفِ هـــو المشـــرِّعُ والفقيـــه
أســـألْ بـــه متسكِّعـــاً خلْـــفَ الهـــوادجِ والقـــوافـــلْ
بيـــن الألـــوفِ مـــن المنـــازلِ والألـــوفِ مـــن المـــراحـــلْ
الحـــبُّ ليـــسَ مغنِّيـــاً الحـــبُّ إبـــداعُ الأغـــانـــي
أوتـــارُه نـــورُ الحيـــاة وقـــوسُـــه نـــارُ المعـــانـــي

* * *

مسجد قرطبة

(٣) و (٤) و (٥) و (٦)

قصـــرُ التَّـــاريـــخ ومسجـــدُهُ مـــا أروعَ مـــا صَنعـــتْ يـــدهُ
لِلْقَـــوْمِ بِصَـــدْرِ حكـــايتـــه صـــوتٌ مـــا زال يُـــرَدِّدُهُ
ظمـــأٌ لا ريَّ لـــهُ وبـــهِ طلـــبُ الظمـــآنِ ومَقْصِـــدُهُ
يـــزدادُ بـــرؤيتـــه ولهـــاً ويـــريـــدُ يقـــومُ فَيُقْعِـــدُهُ
وكـــأنَّ عـــلائـــقَ زينتـــه خَفَقـــاتُ القَلْـــبِ ومَعْقِـــدُهُ
فـــي الصَّخْـــرِ فنـــونُ ســـرائـــرنـــا بلطـــائفنـــا نتعهَّـــدُهُ

لِيَهِيجَ رنينُ جوانبه بأنين الرُّوحِ نزوِّدُهُ
يا ظلَّ الغَرْبِ ودوحتَه من ذا تاريخُك يجحده
بكَ أضحتْ تربةُ أندلسٍ حَرَماً في الغربِ نُمجّده
لاندَّ له في سؤدده إلا الإيمانُ وسؤدده
عربيُّ اللَّحن حجازيٌّ روحُ الإسلام تُخلِّدهُ
يمنيُّ العِطْرِ تهبُّ به أنسامُ الشَّام وَتَحْشُدُهُ
نظراتُ ظبائك لاعبةٌ بسهامِ الحبِّ تكبِّدُهُ
أنا من كفَّارِ الهند وفي نظراتي ما لا تَجْحَدُهُ
وحماسةُ أغنيتي هذي من لحنِ قَلْبِك يُنْشِدُهُ
وصلاةُ الحبِّ على شفتي (وعلى خديكَ تورُّده)
الفتنةُ وجهُكَ يوقدها وأنا أشرحُ ما تُوقِدُهُ
توحيدُ اللهِ لنا نورٌ وحياةُ القَلْبِ توحُّدُهُ
لو كلُّ رياحٍ في الدُّنيا اجتمعتْ لا تَقْدِرُ تُخمِدُهُ
يحكيك جمالاً وجلالاً رجلٌ للهِ تعبُّدُهُ
وحماسُ ضحاه وَوَجْدُ مساه وما يخفيه له غدُهُ
ومسرَّتُه ومحبَّته وتواضُعُهُ وتودُّده
عذبُ الكلماتِ خفيفُ الرُّوحِ رقيقُ القلبِ مُسَهَّدُهُ
أبديُّ الحبِّ نقيُّ الحَزبِ مصونُ العِرضِ مهنَّدُهُ
وعلى يده لله يدٌ بلطيفِ القُدْرَةِ تَعْضُده
العالمُ قصرُ خلافته وسماءُ العَالمِ مَعْبَدُهُ
سرُّ الكونين بنظرته وعن الكونين تجرُّده
وسرابُ العَصْرِ بنورِ الدِّين ونارِ الحبِّ يُبَدِّدُهُ
هو أوَّلُ سرٍّ في الدُّنيا ورجاءُ الكون ومقصِدُهُ
هو مِثْلُكَ شاغلُ عالمه بقديمِ الحُسْنِ يُجَدِّدُهُ

كنخيـل الشَّـام وأغمُـدِهـا شَمَخَـتْ فـي المسجـدِ أعمُـدُه
تتـألَّـقُ زرقـةُ قبَّتـهِ وتقيـمُ الليـل وتُقْعِـدُه
وتَنَهُّـدُهـا فـي وَحْـدتها كـالطُّـورِ كـواهُ تَنَهُّـدُهُ
بَعَثَـتْ جبـريـلَ منـائـرُهـا بجمـالٍ أنْـتَ مُحمَّـدُه
نـادى إبـراهيـمَ ومـوسـى لشهـودٍ هـذا مَشْهَـدُه

(٧)

إنَّ أرضـاً أنـتَ فيهـا لسمـاءٌ لِلْعُيـونْ
كيـف لـم يسمـع أذانـاً أهلُهـا مُنْـذُ قـرونْ
ليـت شعـري كيـفَ أسـرى مـوكـبُ الحـبِّ الغَضُـوبْ
ليـت شعـري مـا يـرى الآن وفـي أيِّ الـدُّروب
هيَّـج الألمـانُ حـولَ الـدِّيـن إصـلاحـاً عـريقـا !
بـدَّدَ الأسـرارَ لـم يتـركْ لهـا بيتـاً عتيقـا
أصبحـتْ منـه هبـاءً عصمـةُ البـاب العجـوزْ
وأفـاق الفِكْـرُ لا يعـرفُ شيئـاً لا يجـوزْ
منـذ أنْ ثـارتْ فـرنسـا بـدأ الغـرب العِـراكـا
لـمْ تَعُـدْ تُبصـرُ فيـه بعـدهـا إلا ارتبـاكـا
هـي ذي رومـا التـي شـاخَـتْ علـى العَهْـدِ القـديـم
تحتسـي خمـراً جـديـداً معهـا البـابـا نَـدِيـم
فـي فـؤادِ المُسْلِـمِ اليـومَ كهـذا الغَليـان
هـو سـرُّ الله عـن تبيـانـه كـلَّ اللسـان
فـارقُبـوا مـنْ ذلـكَ الـواثـبُ فـي بحـر القضـاءْ
وارقبـوا الكُـوبَ الـذي يختـارُه مَـاءُ السَّمـاءْ

تميلُ سحابةُ الوادي فتحكي فيه غطاسا
رمَتْها الشَّمسُ بالياقوتِ أكداساً فأكداسا
وأغنيةُ ابنة الفَلاّح تُطْربُ رُغْمَ ركّتها
بِرقّتها إذا غنَّت وآهتها وأنّتها
كأنَّ غناءَها فيضٌ يُقلُّ سفينةَ القلبِ
تغازلُ نهرَ قُرطُبَة الذي يذخرُ بالحبِّ
هنالك يَرْتَعُ السّاري هنالِكَ تَصْدَحُ الورقُ
كأن النَّهر تاريخٌ يغنِّي فوقه الشَّزقُ
نعمْ ، ما زال عالَمُه الجديدُ يحوطُهُ القَدَرُ
ومثلي ليسَ يُعْجزُه على إدراكِه نَظَرُ
ولو هَتَكْتُ أستاري وأسْفَرَ وجهُ أفكاري
لَكلَّ الغربُ أن يحمل ما غنّتْه أوتاري
حياةٌ ليس فيها ثورةٌ موتٌ لطالبها
وهل لحياتنا فكرٌ يكونُ لغير غالبها
وبدءُ الفِكْرِ بدءُ تأهُّبِ الأحرار للخَطَر
وشعبٌ واثقُ الخطوات سيفٌ في يدِ القدر
إذا الآثارُ جوهرنا أبَتْهُ عابَها النَّقْصُ
وإنْ لم تأخذِ الأنغامَ عنَّا أضحكَ الرقصُ

* * *

صرخة « المعتمد »[1] في السِّجن

تكـادُ صـرخـةُ قلبـي عنـد حَنْجَـرتـي تشـقُ مـن كَتْمهـا قلبـي وتنطلـقُ
كـأنَّهـا جمـرةٌ فيـه بـلا شَـرَرٍ قلبـي بهـا دون كـلِّ النـاسِ يحتـرقُ
كـذاك تفعـلُ بـالحـرِّ الحيـاةُ إذا أرادَ شيئـاً وحـالـتْ دونَـه الطُّـرقُ
أليـسَ عـاراً علـى الأحـرار يسجنُهُـمْ مـع العبيـد دعـيٌّ جيشُـهُ الحَمَـقُ
لعـلَّ فـولاذَ سيفـي صِيْـغَ ثـانيـةً غـلاً لكفـي الَّتـي لـم يَثْنِهـا فَـرَقُ
لا أشمـتَ اللهُ بـالأقـدارِ حـاسـدَنـا فليـسَ شـيءٌ مـن الأقْـدار يُسْتَبَـقُ

* * *

(١) المعتمد بن عبّاد : ملك إشبيلية حالف الفونس السادس فأسره يوسف بن تاشفين وألقاه في السجن فمات فيه .
وقد نشرت قصائده مترجمة إلى اللغة الإنكليزية في سلسلة (WISDOM OF the east) (من ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية) .

النخلة الأولى [1]

(١)

(يلاحظ أن المقطع الأول من القصيدة ترجمة لقصيدة عبد الرحمن الأول التي وردت في نفح الطيب ٣/ ٥٤ وقد غُرِسَت النَّخلةُ في مدينة الزَّهراء ، والقصيدة كما ذكرها المقريّ) .

تبـدَّت لنا وسط الرُّصافَةِ نخلةٌ تناءتْ بأرضِ الغَرْبِ عن بلدِ النَّخل
فقلتُ شبيهي في التغرُّب والنَّوى وطولِ اكتئابي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلكِ في الإقصاءِ والمُنْتأى مثلي
سقتْكِ غوادي المُزْنِ في المُنْتأى الذي يسُحُ ويستمري السِّماكينِ بالوَبْلِ

---

(١) وقد ترجمها الشاعر كما في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :

أنت نورُ عيني
أنت فرحُ قلبي
أنا بعيدٌ عن وطني
وأنت عندي شجرةٌ من سيناء
ترعرَعَتْ في أرض الغرب
ومع ذلك فأنت حوريةٌ من الصحراء العربية
أنا نَفَذَ صبري في غربتي
وأنت نَفَذَ صبرُك في غربتك
أيمكن أن تؤتي ثمارَك في الأرض الغربيَّة
عسى أن يكونَ ندى الصَّباحِ هو الذي يَسْقيك .

(وقد استوحى إقبال المقطع الثاني من القصيدة ذاتها لذلك آثرنا نظم المقطع الثاني على نهج أبيات عبد الرحمن) .

وأعْجَبُ ما فِي الكونِ غربةُ مثلنا ... وفي الشَّام من أمثالنا عَدَدُ الرّملِ

وما زلتُ في التَّطوافِ ألقى على المدى ... زماناً غريب الوجه مختلف الشَّكل

وليس لهذا البحر من ساحلٍ يُرى ... مضيتُ به عريانَ مُمْتَشِقاً نصلي

وما منْ حياةٍ للَّـذي أنِفَ الرَّدى ... وهل يقدح الزَّند الشرارَ من الوحل

إذا شامَ طرفي البرقَ زادَ تألُّقاً ... وحنَّ بذكرِ الشَّامِ للأعين النُّجْلِ

وما ضرَّنا مُلْكٌ تركناه خلفنا ... فكلُّ بلادِ الله ملكُ ذوي العَدْلِ

سنبني كما كُنَّا بنينا لغيرِنا ... وحاشا لأهلِ الجُودِ توصمُ بالبُخل

إذا نَضَبَتْ أجسادُنا منْ دمائِنا ... فمنزلُنا ريَّانُ من غَدَقِ البَذْلِ

ستذكُرُنا الدُّنيا وتندُبنا الورى ... وتطْلُب من آثارنا كعبةَ الفضلِ

يقال هنا صلَّتْ وضجَّت قلوبُهم ... هنا انتبذَتْ أرواحَها رسلُ النَّخْلِ

* * *

إسبانيا

(كُتبت في إسبانيا ساعة مغادرتها)

صوتُ المنائر في نسيمِك يَرْقُدُ وصداه في أرواحنا يتردَّدُ
يا توءَمَ الحرم الشريف تطوَّفَتْ بكِ رُكَّعٌ من عاكفينَ وسُجَّدُ
سيماكِ من أثرِ السُّجود على الثَّرى طربٌ يفوحُ ونضرةٌ تتجدَّدُ

* * *

تحكي النجومُ أسنةً لرماحهم بإزائها ليلٌ يقومُ ويَقْعُدُ
ملؤوا وهادَكَ بالخيامِ ولم تزلْ أوتادُها بنسيمهم تتأوَّدُ
إنْ تسألِ الحسناءُ عن حُنَّائهم فتَخيبُ يُنْصِفُها دمي المتورِّدُ
يا طالما سُفِكتْ هناكَ دماؤُنا ظُلماً ونحنُ المشفقونَ العُوَّدُ

* * *

ما كان صقرُ قريشٍ غيرَ موحِّدٍ عجباً أما في المسلمين موحِّدُ
خَمَدَتْ حقيقتُنا وزالَ لهيبنَا وبريقُ قرطبةَ الشَّريدُ مخلَّدُ
ووقفتُ لا نومي خَمَدْتُ ولا السُّرى أتكبَّدُ الجرح الذي أتكبَّدُ
عانيتُ مشهدهم وقُلْتُ وقيل لي سِيَّان قولٌ في العزاء ومَشْهدُ

* * *

ستُهتك الأستارُ عن سينائنا وتُباحُ أسرارٌ لنا وتُبدَّدُ
ويكونُ أول من يقومُ بهتكها للناس أولَ مصلحٍ يتحمَّدُ

* * *

دعاء طارق

نزل طارق بن زياد ـ القائد الشاب ـ بجيشه العربي المسلم على أرض إسبانيا ، مدخل أوربة ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتتقطع بالمسلمين أسباب الرُّجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « **أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر** »[1] ، فيثير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم .

صفَّ طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافىء الجيش الإسباني في العُدَّة والعَدَد ، ووصول الميرة والمدد ، فإن العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامي غريبٌ منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع في ميرةٍ ولا مددٍ ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلَّب عليه ، ويعرف أنه لو حدث به حدث ، ودارت عليه دائرة لأصبح خبراً من الأخبار ، وكان طعمةً السباع والنسور .

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ، وفكَّر فلم ير حيلة إلا أن يضم إلى هذا الجيش قوةً لا تُهزم ، وإرادةً لا تغلب ، إنها القوة الإلهية ، وإنها الإرادة الربَّانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه ، أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد قال الله : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

---

(١) قطعة من خُطْبة طارق بن زياد .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ، ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلّداً للرسول الأعظم ﷺ ـ قائد الكتيبة المؤمنة الأولى ـ إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفَّه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي ، ويقول : « **اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد** » ، فتأسَّى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد إقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، رجالٌ غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك ، لقد منحتهم طموحاً وعلوَّ همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلها بحكمك وينفذون فيها أمرك ، لا يعلوهم غيرك ، أبطال مغاوير ، تنفلق بهيبتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال ، لقد ذاقوا لذة الإيمان والحب ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ، وذلك شأن الحب إذا خالطت بشاشته القلوب ، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهمه الوحيد ، لا يفكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إنَّ العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التردي في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ونفوسهم بسخاء وشجاعة ، إن العالم بحاجة إلى دمٍ عربيٍّ زكيٍّ ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليله إلا الدم العربي الطاهر ، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل في حلته ، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دماءنا في هذه الأرض النائية ، لتخصب الإنسانية بعد جدب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظارٍ شاقٍّ طال أمده .

لقد أكرمت يا رب ! رعاة الإبل وسكان الوبر ـ العرب ـ بنعم فريدة لم يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ،

هو : أذان الصبح ، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح ، والإيمان القوي ، والذوق الرفيع ، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلةٍ من الناس ، أما العرب فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم ، وجدة إيمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودويِّ أذانهم في السكون المخيم على العالم ، والظلام الحالك ، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرونٍ طويلة ، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان ، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديداً ، أعد يا رب ! إلى هذه الأمة المؤمنة الحمية الإيمانية والغضبة المؤمنة ، التي تجلَّت في دعاء نوح ، فقال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦]. حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد ، وأخلق فيها المطامح البعيدة ، والعزائم القوية الشديدة ، واقذف في قلوب الناس رعبتها ، وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف(١) .

وقد استجاب الله دعاء طارق ـ القائد المؤمن المخلص ـ وانتصر الجيش الإسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العَدد والعُدد ، وأصبحت إسبانيا النصرانية الأوروبية الأندلس الإسلامي الغربي ، وقامت دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قروناً ولم تضعف ولم تزل ، إلا بفقدهم الروح التي تضلع بها طارق وأصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الإيمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، وبانغماسهم في الشهوات والحروب الداخلية ، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢](٢) .

* * *

---

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) ديوانه .

(٢) من « روائع إقبال » للعلاَّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

دعاء « طارق »

« نُظمت في ساحة المعركة في الأندلس »

هـذي الكُمَـاة عبـادُك الأخيـارُ — حملـوا عَنَـاءَ العـالميـن وسـاروا
أصحـابُ سـرِّكَ والسِّيـادةُ طبعهـم — والنُّـور فـي نظـراتهـم والنَّـارُ
فعلتْ كموسى في البحار عِصِيُّهم — وتـراجعـت لخطـاهـمُ الأنهـارُ
البَحْـرُ حَبَّـة خـردل فـي كفّهـم — والعِشْـقُ فـي أرواحهـم إعصـارُ
عـزفـوا عـن الـدَّاريـن إلا أنَّهـم — علـمٌ علـى الـدَّاريـن لا ينهـارُ
نيـلُ الشَّهـادة للمـوحِّـد مطمـحٌ — وإذا تقحَّـمَ فـالجـراحُ غبـارُ
لا سَبْـيَ غـانيـةٍ وسَلْـب خـزانـةٍ — ومطـامـحُ الهمـمِ الكبـارِ كبـارُ
كلُّ العباد على اختلافِ عروقهم — تـرجـو رجـاءَ شقـائـقِ النُّعمـانِ
تـرجـو مـن العـربـيِّ لـونَ دمـائـه — وتضـجُّ ليـلَ نهـارَ فـي البُستـانِ
ربَّـاه أنـت بَعَثْـتَ مـن صحـرائهـم — سكَّـانهـا وجعلتهـم أفـذاذا
وملأتَ صَدْرَ الصُّبح من آهاتهم — وجَعَلْـت أعـرابيَّهـم أستـاذا
طـوتِ الحيـاةُ الـدَّهـر تنشـد طُلْبـةً — عـزَّتْ وطلبتُهـا مـذاقُ النَّـار
وبـروحهـم عثـرتْ عليهـا بعـدمـا — كلَّـت مـن التَّـرحـال والتَّسيـار
المـوتُ ليـس نهـايـةً فـي عينهـم — هـو للبصيـرة بَـابُهـا المفتـوحُ
ربَّـاهُ ! فـابعـث مسلميـن أعـزَّةً — يتـوسلـون كمـا تـوسـلَ نـوحُ
لتغيُّـرات العَصْـر مـن ثـوراتـه — وهـمٌ وأنـت الفـرد لا تتغيَّـرُ
ربـاهُ ! أنـت هـو الحقيقـةُ كلُّهـا — والنَّـاس منهـا مـوسرٌ أو مُعْسـرُ
الـدَّهـر ملـك يـديـك ليـس لأهلـه — إلا ظنـونُ الـواهـم المتقـوِّلُ
يتنـازعـون علـى تفهُّـم عـالـمٍ — سكـرانَ مـن مـاضٍ ومـن مستقبـلِ

* * *

« لينين » أمام الله[1]

يــا مــن نــرى فــي النَّفــس والآفــاقِ مــن آيــاتــهِ
الحــقُّ : أنَّــك خــالــدُ حــيٌّ يقــوم بــذاتِــهِ
مــا كــان يمكــنُ فــي وجــودك أنْ يكــونَ علــى يقيــنْ
والعقــلُ يخــرجُ مــرغمــاً عــن رأيــه فــي كــلِّ حيــنْ
مــا كــان يــدركُ عقلُنــا فــي طيشِ نظــرتــه السَّــريعــةْ
مــا كنــتَ تُــرسلُــه مــن الأنغــام فــي خَلَــدِ الطبيعــةْ
سِيَّــان رصَّــادُ النُّجــوم ومــن تــوغــل فــي النبــات
وقفــوا علــى مِــرْصــادهــم والكــلُّ ينقصــه الثبــات
اليــومَ أعلــنُ بعــدمــا شــاهــدت عــالمــك الأخيــرْ
وأنــا الــذي كــابــدتُ أفهمُــه وعــانيــت الكثيــرْ
أنّــي ـ وتعلــم ـ لــم أكــنْ وحــدي هنــالــكَ فــي غُــرور
كــانــت أســاطيــر الكنيســةِ حــول عَتْمَتِنــا تــدور

---

(١) علَّق الأستاذُ الملُّوحي على القصيدة بقوله : يهمُّ القارىء أن أذكر تعليقاً على هذه القصيدة ورد في كتاب « مدخل إلى فكر إقبال » للكاتب الفرنسي (لوك كلومبتر) (طبع بيرسيجرس باريس عام ١٩٥٥م) وفيه ص٧٣ :
هذه القصيدة العجيبة كتبها إقبال آخر سني حياته ، ويخطىء من يرى فيها تغيُّراً في وجهة أفكاره والصحيح أنها تعميق لهذا التفكير . . فليست هي المرة الأولى التي يفضح فيها إقبال مساوىء الرأسمالية .
ويجب أن نقول إنَّ هذه القصيدة تدل على يقظة وجدان أكثر وضوحاً وأشد وعياً للواقع الاجتماعي ونجد بها هذا الغضب الرَّاعد الذي كلُّه حب وصفاء .
انظر مجلة فكروفن عدد ٣٢ ص٧٩ وما بعدها .

كنَّـــا هنـــاك مكبَّليـــن بكـــلِّ أغـــلالِ الليـــالـــي
أيـــامَ أنـــتَ تصـــوِّر الأزمـــانَ فيـــه علـــى التَّـــوالـــي
قلبـــي يمـــزِّقـــه ســـؤالٌ فيـــه فـــائـــذن بـــالســـؤال
تـــركَتْـــه خـــوفـــاً مـــن عـــواقِبـــه أبـــاطـــرةُ الجِـــدال
هـــذا الســـؤال وكـــان طـــول العُمْـــرِ يـــرمينـــي شـــريـــدا
ويثيـــرُنـــي تحـــت السَّمـــاء أســـىً ويتـــركنـــي وحيـــدا
هـــذا الـــذي ألقـــى بـــأيـــامـــي حُطـــامـــاً فـــي الـــوِهـــادِ
هـــذا الســـؤالُ وكـــان مغـــروســـاً كشـــوكٍ فـــي فـــؤادي
هـــذا الســـؤال عـــن الأنـــام ولـــن أجـــور علـــى الأنـــام
وأنـــا تضـــايقنـــي مـــراقبـــة الطَّـــريقـــة فـــي الكـــلام
فـــالمـــرءُ لمـــا تعصـــفُ الأفكـــارُ فـــي أرجـــاء روحـــه
لا يستطيـــع تخيُّـــر الكلمـــات تخـــرج مـــن جُـــروحـــه
[مـــنْ كـــان آدمُ حيـــنَ كـــان الطيـــن صلصـــالاً عليـــه
مـــنْ كـــان سيِّـــده ســـؤالٌ لا أوجهـــه إليـــه]
إيَّـــاك يعبـــد ـ لا أظـــنُّ وأنـــتَ عـــلاَّمُ الغيـــوب ـ
عـــاصَـــرْتُـــه أيـــامَ كـــان الـــدِّيـــن أفيـــونَ الشُّعـــوب
عـــاصَـــرْتـــه متـــرنِّحـــاً بهيـــاكـــل الصَّنـــم القبيـــح
فـــي درب أوربَّـــة التـــي ائتمـــرتْ علـــى الشَّـــرق الجريـــح
فـــي درب أوربـــة التـــي تبـــدو منـــاراً للحيـــاة
والحـــقُّ أنَّ النَّبـــع فـــي ظلمـــاتهـــا نبـــعُ الممـــات
تـــاهـــت بـــأبنيـــةِ المصـــارفِ فـــوق أبنيـــةِ الكنـــائـــس
وأتَـــتْ لهيكلِهـــا الجـــديـــدِ بكـــلِّ أنـــواعِ النفـــائـــس
قـــالـــوا تجـــارات تـــدارُ وكـــلُّ مـــا فيهـــا قمـــار
ومصـــادفـــاتٌ تجعـــل البُلـــدان فـــي جيـــب الكِبـــار
أيُّ السيـــاســـةِ والحكـــومـــةِ والكنيســـةِ والسَّمـــاء

رفعـــوا مســـاواةً تقـــال وأشـــربـــوا حُـــبَّ الـــدمـــاء
العُـــزيُ والفقـــر المبـــادلُ والبَطـــالـــة والفَســـاد
آيـــاتُ أوربَّـــة التـــي انتشـــرت بـــأنحـــاءِ البـــلاد
أسفـــاً لشعـــبِ كـــامـــلٍ ردَّ المحبَّـــة للسَّمـــاء
حُصِـــرَتْ روائعُـــه بمـــا أوحـــتْ إليـــه الكَهْـــربـــاء
لـــم يَبْـــقَ بعـــد حكـــومـــةِ الآلات معنـــىً للقلـــوب
كـــان الحنـــان مـــلاذُنـــا فَمَحَتْـــه مـــن بيـــن الشُّعـــوب
وبـــرُغـــم هـــذا كلِّـــه تبـــدو الـــدَّلائِـــلُ أنَّهـــم
سيُـــدَّدُون وَيَقْـــرَعـــون علـــى الهـــزيمـــةِ سِنَّهـــم
حـــانـــاتُهـــم وقعـــت بمـــا نصبـــوه مـــن تلـــكَ الشِّبـــاك
فـــإذا شيـــوخُ السُّكـــر ممـــا يشـــربـــون بـــلا حَـــرَاك
الحمـــرة الملقـــاةُ فـــوق وجـــوههـــم عِنْـــدَ المســـاء
آثـــارُ خمـــرٍ زائـــفٍ وخضـــابِ زورٍ لا دِمـــاء
ربَّـــاه ! أنـــت القـــادرُ الحـــقُّ الـــرَّحيـــم العـــادِل
مـــن ذاق مـــن مـــرِّ المعيشـــة مـــا يـــذوقُ العـــامِـــلُ
الـــرأسمـــاليـــون مـــركبُهـــم يُعَـــربِـــدُ فـــي بحـــارك
فمتـــى تُغَـــرِّقُـــه وتـــأخـــذُ مـــن مظـــالمهـــم بثـــارك

* * *

الملائكة تغني

« مقطوعة تابعة لقصيدة لينين »

الفِكْـــرُ حـــرٌّ لا يُـــرَدُّ جِمـــاحُـــهُ والحـــبُّ لا مـــأوى لـــه يُـــؤويـــهِ
ربـاه ! لـوحتُـك التـي لـم تكتمـلْ جـارت علـى السرِّ الَّـذي تطـويـه
كُهـان خلقـك فـي صفـوف طُغـاتهـم يَقِفُـون للبسطـاء بـالمـرصـادِ
محـــنٌ صبـاحَ مســاءَ لا معنـــى لهـــا إلا لجـوءُ النَّـاس لـــلإلحـــادِ
فقراؤهـم مـن بؤسهـم فـي سكـرةٍ والأغنيـاء مـن الـرَّفـاه سُكـارى
عبـدٌ يلـمُّ مـن الشَّـوارع خبـزَه عـوَزاً ، وعبـدٌ يُطْعـمُ الأقمـارا
هـل تَسْلَـمُ الحكمـاءُ والفقهـاءُ من طمـعٍ تـأجَّج فـي النُّفـوس وَقيْدُهْ
أمْ تَسْلَـمُ الآراءُ مـــن لعنـــاتـــه هــذي عطــايــاه ، وتِلْــكَ عبيــدُهُ
يــرعَــونَ كــلَّ ضغينــةٍ لبقــائهــم والحــبُّ مــن ألــم الشَّقــاء يصيــحُ
سبحـانَـك اللهـمَّ فـالحـبُّ الـذي يـأسـو جـراحَ البـائسيـن جـريـحُ
ذاتُ الحيـاةِ الحـبُّ جـوهـرُ سرِّهـا والحــبُّ جـوهـرُه حيـاةُ الـذَّاتِ
أسفـاً لهـذا السيـف يخبـطُ سرَّه فـي الغِمْـدِ بيـن الـذُّلِّ والآهـاتِ

* * *

« أوامر الله للملائكة »

قـومـوا إلـى كـونـي الغـريـقِ وأطلقـوا فقـراءَه فيـه علـى الأمـراء
أيـدِّلـون مسـاجـدي بقصـورهـم جـوراً علـى خلقـي وهـم أُجَـرائـي

وأرى جمالًا في بهاء أن تُرى ... في سجدةٍ للقوَّة الأفلاكُ
ولَنغمةٌ من دون نارٍ نفخةٌ ... ما الحسنُ إلا بالجلال يُحاكُ
لا أرتضي ناراً لجزء ولم تكن ... وهَّاجةً ولهيبُها درَّاكُ

***

المصوِّر[1]

قلّد الغربَ فنُّ عُجْم وهندٍ ... عمَّ هذي البلادَ موتُ الخيال
شفَّني الغمُّ أن بِهزادَ عصري ... يُفقد الشرقَ بهجةَ الآزال[2]
يا خبيراً بفنِّه فيه تمَّت ... صنعةُ العصر والعصورِ الخوالي
كم تَرى من خليقةٍ وتُريها ... أرِنا الذَّاتَ فوق هذي المجالي

***

الغناء الحلال[3]

تفتح القلبَ نغمةٌ من غناء ... أيَّ فتحٍ والقلبُ رهنُ هُمودِ ؟
في صُدور الأفلاك لحنٌ خفيٌّ ... صاهرٌ حرُّه نجومَ الوجودِ

---

(١) يرى الشاعر أنَّ المصوِّر وكلَّ ذي فنٍّ ينبغي أن يُظْهِرَ ذاته فيما يصوِّر لا أن يحاكي الطبيعة ، وأنَّ المحاكاة موت .

(٢) بهزاد : مصورٌ فارسيٌّ مشهور نبغ أيام الدَّولة الصفوية ، والشاعر يغتمُّ لأنَّ بهزاد عصره يقلد الغرب ، فيفقد الشرق البهجة القديمة .

(٣) يرى الشاعر أنَّ الغناء وكلَّ لحنٍ يحلُّ إنْ كان فيه قوةُ الذات وحرقة الحياة ، ويَحْرُمُ إن أضعف الذات ، ولم يقبس من الحياة ناراً . الغناء يفتح القلب فكيف يفتحه إن أماته ؟! وفي الأفلاك ألحان طبيعية تذيب النُّجوم ، وتبرىء الإنسان من الخوف والغم ، وترفع النفس من العبودية إلى السيادة . . إلخ . والنغمة الحيَّةُ التي يُحلُّها فقهاءُ الذات لا تزال تنتظر مطرباً يعلنها .

في أرض فلسطين

تحرّكت السياراتُ التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) ، ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت الشمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبعت من عين الشمس ، ولم يزل الشروق مصدر سرورٍ وإلهامٍ للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزمان ، فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال ، الذي جاء من أوربة يمثل الهند الإسلامية في المؤتمر الإسلامي ، وبدأ يتمتّع بهذا المنظر الخلاب ، ويسخو بنظراته ـ التي يحتفظ بها الشعراء ـ في سبيل القلب ، فكلُّ نظرة تضيع في جمال الطبيعة ترجعُ إلى القلب بالربح العظيم ، لأنها تشحن « بطاريته » بالنور الجديد ، والقوة الجديدة .

هذا وقد تهيأ الجو ، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم وإثارة قريحته ، فقد غطت الجو سحائب ذات الألوان ، واكتست جبال فلسطين بطيلسانٍ جميلٍ زاهي اللون ، وهبَّ النَّسيم عليلاً بليلاً ، وهفت أوراق النَّخيل مصقولةً مغسولةً بأمطار الليل ، وأصبحت الرّمال في نعومتها وصفائها حريراً .

ورأى الشاعر العظيم آثار نيرانٍ انطفأت قريباً ، وأثافيَ[1] منثورةً هنا وهناك ، وبقايا من خيامٍ وأخبية ، ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب ، وتخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظعنت .

وطاب المكان والزّمان للشاعر ، وسمع كأن منادياً من السماء يحثه على أن

---

(١) الأثافي : الحجارة التي توضع عليها القدور .

يلقي عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته[1] .

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية ، عواطف الشاعر وهاجت قريحته ، وتحرك الحبُّ الدفين ، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن ، وتظهر الكوامن ، فيتذكر الإنسان أحب شيء إليه ، فيحن إليه ، ويتمثله ، ويتغنَّى به ، وقد حلَّ « الإسلام » ، وحلت الأمة الإسلامية في قلبه محلَّ الحبيب الأثير ، وسيطر حبه على مشاعره ، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه وتغنَّى بجماله ومحاسنه ، وركز آماله وأحلامه عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلًا طلَّه النَّدى أنيقاً ، وبستاناً من النور حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه منىً ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى أنَّ ركب الحياة بطيء لا يسايره في أفكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى أن العالم عتيق شائب ، وفكره « الإسلامي » جديد فتيٌّ ، ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنامٌ وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم القومية ، والوطنية ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .

وقد تسربت هذه الوثنية إلى العالم الإسلامي والعربي ، أفليس العالم في حاجة إلى ثورةٍ إبراهيميةٍ جديدةٍ ، إلى كاسر أصنامٍ يدخل في هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جذاذاً ؟

وسرح طرفه في العالم الإسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل والعاطفة ، رأى العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ، ورأى أنَّ النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ،

---

(١) الوصف للمكان والمنظر لإقبال ، نقلناه إلى العربية في لفظنا .

ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته .

ورجا العالم الإسلامي أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجىء العالم بصراحته وشجاعته ، وتطلع العالم إلى الحجاز ـ معقل الإسلام وعرين الأسود ـ فما كان منه إسعاف وإنجاز ، ولم تتجدد معركة كربلاء على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الإنسانية إلى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الإسلامي إلى بطله الجديد .

وهناك شعر محمد إقبال أنَّ السبب في هذا التحول العظيم ، هو ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول :

« لا بدَّ أن يعيش العقل والعلم في حضانة الحب ، وإشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تسند الدين وتغذيه عاطفةٌ قوية ، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ، فإذا تجرَّد الدين عن العاطفة والحبِّ أصبح مجموعةً من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوة ، هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلى في معركة بدر وحنين » .

وهنا يُقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول : **« إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود ، وأنت البغيةُ المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون ، وحار في الوصول إليها الباحثون »** .

ثم يستعرض العالم الإسلامي ـ وقد عرف شرقه وغربه وعربيه وعجميه ـ فيحزنه قصر النظر ، وقلَّة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمَّة ، وقلة البضاعة[1] في رجال الدين ، ويرى أن المراكز العلمية والدينية ـ بمعناها

---

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما همَّ بصدره .

الواسع ـ محرومةٌ من عمق الفكر ، وسلامة الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز التي تتزعم العالم الإسلامي ، وتقود الأجيال البشرية ، ويقول : « **إني هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارة ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضت ، وأولئك الأبطال الذين رحلوا وغابوا في غياهب الماضي ، إن شعري يوقظ العقول ، ويهز النفوس ، ويربي الآمال في الصدر ، ولا عجب إذا كان شعري يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقعه في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي ودعائي ألا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد** » .

ثم يقبل في شعره إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنَّه ذرةٌ حقيرة أو قطرةٌ صغيرة في جنب هذه السعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرةٍ فكانت شمساً بازغة ، وكيف تجلى بالجلال فكان في الأرض ملوكٌ كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ، وكيف تجلى بالجمال فكان زهاد وعباد ، زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله ويقول : « **إن الحنين إليك هو حادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضفي على صلاتي ، وعبادتي حياةً روحانية ، فإذا تجردت صلاتي من هذا الحنين لم أر أنها تقربني إليك ، لقد وجد عندك العقل والعاطفة ما يعوزهما وما يحتاجان إليه ، فأصبح العقل ـ بعد توفيقك ـ يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب** » ، ويناجي ربه ويقول : « **إن الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الأرض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد** » .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيداً في دراساته العلمية الطويلة الواسعة ، وأنه قد اتضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كلُّ من درس

علم النخيل تمتع بالرطب ، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والإيمان ، ذلك الصراع الذي لم يزل ولا يزال قائماً حامياً ، ويذكر معركةً قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادة والإيمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الإيمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكلٍّ حلفاء ، ولكلٍّ معسكر[1] .

فلينظر العالم العربي إلى أيِّ معسكر ينضم ؟ إلى معسكر المادة والمعدة ، أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص ، وإلى أيِّ رايةٍ ينضوي ؟ إلى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمَّدية التي التفَّ حولها أبو بكر وعمر[2] .

في أرض « فلسطين »

كُتبت أكثرُ هذه الأبياتِ في فلسطين حين زيارة إقبال لها عام ١٩٣١ للاشتراكِ في المؤتمر العالمي الإسلاميِّ .

من الفقرِ أن تأتي وفاضك فارغٌ ... وقد طُفتَ في تلك الرياضِ جميعِها[3]

« سعدي »

نزلت بريّة الوادي بذي سلمِ ... والشَّمس ترتعُ بين البَان والعَلَمِ

---

(١) من « بال جبريل » (جناح جبريل) قصيدة « ذوق وشوق » .

(٢) من « روائع إقبال » للعلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي .

(٣) البيت في الأصل :

« ما أفقر من يطوف في كل هذه البساتين ذاهباً لزيارة الأصدقاء ويداه فارغتان » .

وقد ترجمه الفراتي :

واحسرتا قد عدت فارغ اليد ... من تحف الدنيا لهذه البلد

انظر البستان (١ : ١٦) .

وفاحَ ريحُ صباحٍ من مواجدها ... يشفي العليل من الأوصابِ والسَّقَم
بنظرةٍ لجمال الوادي واحدةٍ ... تقحَّم القلبُ منها ألفَ مُقتحمِ
وللمساء سحابٌ من غلائلها ... حمراءُ زرقاءُ من وردٍ ومن عَنَم
ألْقَت براقعَ مجلاها على إضمٍ ... وأومضَ البرق في الظَّلماء من إضمِ
نقيَّةُ الخدِّ سعفُ النخل مشرقةٌ ... مرفوعةُ الراي تحكي رفعةَ القِمَمِ
والرَّمل كالخزفي في أرجاء كاظمةٍ ... يموجُ فيها بما في الخزِّ من عَمَمِ
هنا بقيَّةُ أطلالٍ ، هنا لهبٌ ... يذوي ، هنا بضعُ أشلاءٍ من الخِيَم
كمْ خَلْفَ ليلى ركابٌ منْ هنا عبرتْ ... وعضٌ من لَغَبٍ نضوٌ على لُجُم
هُمُ أقاموا سكارى هاهنا زمناً ... فإنْ رضيتَ بسكر هاهنا أقمِ
يرى هنا من نأتْ عنه أحبَّتُهُ ... سَلْوَهُ ، ويهيج الوَجْدُ بالشَّبم

(٢)

خمرُ الحياةِ كمِثْل السُّمِّ عاقبةً ... عندي ، ومن ذا الذي يُصْغي إلى كلمي
صياحُ وجهٍ جديدٌ لا يقيمُ له ... وزناً زمانٌ تعاطى سكرة القِدم
أما لمعتركِ الأيَّامِ من طَمَعٍ ... بغزنويٍّ جديدٍ غير منهزمِ
عباد (سومنات) تخشى أن يحرِّمَها ... أمام (سومنات) مبعوثٌ من الحَرَم
لا في لهيبِ تراثِ العُرُبِ من رَصَدٍ ... يُرَجَّى ، ولا في غِنَاءِ الفرس من نَغَمِ
هل في الحجاز حسينٌ من بني مُضَرٍ ... وهل هنالك محمودٌ من العَجَم
ألا يهيم على وجه الفُرات لهم ... قلبٌ ، ولم يلقَه خالٍ ولم يَهِمِ
أحُسْنُ دِجْلة لم يفتنْ سرائرهم ... وحسنُ دجلةَ في محرابهم صنمي
أما لهم من بقايا الحبِّ باقيةٌ ... وهم سلالةُ أهل الحبِّ والتَّيمِ
أستغفرُ الله هل للدِّين من قِيَمٍ ... بغير حبٍّ وهل للشعب منْ قِيَمِ
بالحبِّ قدَّم إبراهيم واحده ... وابنُ الحسينِ على كفِّ الحسين رُمي
فسل حُنيناً وبدراً عن حروبهما ... كم ضرَّج الحبُّ فيهما من فؤاد كمي

في آية[1] الخلق أنت السرُّ لا أحدٌ ولو تجلَّيت ما أبقيتَ من عِصَم
لأجل معناك ما تلقى وما لَقِيَتْ قوافل القوم في الوِديان والأكَمِ

***

رهباننا انقطعت عنَّا بأديرةٍ وكلُّ منقطعٍ في الدَّير عنك عَمِي
لا يرتضي القومُ عن حاناتهم بدلًا بالرُّغم من أنَّ ساقي الناشئين ظمي

***

أنا - وفي غزلياتي الَّتي اشتهرتْ بصيصُ نارٍ ذَكَتْ مِنْ صالفِ القِدَمِ -
حكايتي البحث عن قومٍ هنا عُدِمتْ أخبارُهم وهنا سادوا على الأمم

***

لِلشَّوك كالوَرْدِ حظٌّ من نسائمكم ونسمةُ الصبح للرَّيحان والسَّلَم
أنا أعِيبُ على وردٍ بلا جذلٍ كما أعيب على شوكٍ بلا ألم

***

هذا الغناءُ الَّذي ماج الرجاءُ به تسيل أنفاسُه من مُهجتي ودمي
كما تسيلُ دماءُ العازفين على أوتارِهم وتروّىٰ من أكفِّهمِ

***

فلا تدع لهياج القَلْب فرصتَه فإنَّ ذلك يعني فرصةَ العَدَمِ
أرجو جدائل هذا الشعر تنصفني بموجةٍ من معاني هذه اللَّمَمِ

(٤)

اللَّوح أنت وما في اللَّوحِ من قَدَرٍ وكلُّ ما فيه من سطرٍ ومن كَلِمِ

---

(١) يبدو أن إقبالًا في المقاطع الثلاثة اللاحقة يخاطب الله عزَّ وجلَّ ومع ذلك فإن هذا التأويل غير مؤكد .
ويرى تشيشتي أنَّ الحبيب هنا وفيما بعد هو النبي ﷺ .

لـو تنطقُ القبّـة الـزرقـاء مـا كَـذَبَـتْ بـأنّهـا ذَرّةٌ فـي بحـرِكَ العَـرِمِ

* * *

لـك الجـلالُ الـذي لـم تبـقَ روعتُـه مِـنْ ملـك سِنْجـار إلا عبـرةَ النَّـدم

لـولا جمـالُـك مـا ذاق الجُنَيْـدُ نـوىً ولا أهيـل علـى طيفـورَ بـالتُّهَـمِ

نـداكَ لا تَعْـرِفُ الأنسـابَ نفحتُـهُ يا منْ غَمَرْتَ جميعَ النَّاس بالكَرَمِ

إنْ لم تكن نُصْبَ عيني في الصَّلاة فلا قامت على الزُّور في محرابها قدمي

* * *

مذاهبُ الفِكر من بحثِ الغيابِ وَهَتْ ومشهدُ الحبِّ منْ وَثْب الحضورِ دمي

بالرُّغم من ثورةٍ للشَّمسِ ساطعةٍ ما زالتِ الأرضُ في بحرٍ من الظُّلَمِ

* * *

(٥)

أنـا ـ وتعـرف أيـامـي التـي سلفـت وما تحمَّلْتُ من كدِّي ومن سأمي ـ

مـا كنـتُ أعـرفُ أنَّ العلـمَ مضيعـةٌ وأنَّـه سبـبُ الأطمـاع والنَّهَـمِ

* * *

هززتُ كلَّ نخيلِ الفِكْرِ ما سَقَطَتْ علـيَّ غيـرُ عـراجيـنٍ مـن الهَـرَمِ

لقـد تيقَّـظ وِجـدانـي الَّـذي عَصَفَـتْ بـه مقـالاتُ مـوتـورٍ ومُنْتَقِـمِ

* * *

الفِكْـرُ مـن حيـث تـأتيـه أبـو لهـبٍ وكلُّـه كلُّـه مكـرٌ مِـنَ الأمَـمِ

والحبُّ حيث يكون المصطفى يدُه وكلُّـه كلُّـه مـن مقلتيـه نُمِـي

* * *

أخـذتُ عنـه فنـونَ الحـبِّ فـاغتنمـوا مذاهبَ الحبِّ في شعري وفي حِكَمي

نهايـةُ الحـبِّ أحلـى مـن بـدايتـه ... وربمـا صَحَّـتِ الأجسـام بـالسَّقَـمِ

* * *

وليـس أغـربُ منـه عنـد مُبْتَـدَأ ... وليـس أعْجَـبُ منه عنـد مُخْتَتَـمِ
إذا رمـاك فمـا للقلـبِ مـنْ حِيَـلٍ ... وإنْ جُـرِحـتَ فجـرحٌ غيـرُ ملتئـم

* * *

يـا سـائلي عـن فـراقـي بعـد ليلتنـا ... وعن حظوظي من البلوى وعن قِسَمي
فـراقُـه رغبـةٌ فـي القَلْـب محـرقـةٌ ... وصرخةٌ من صُراخِ الفَجْرِ ملءُ فمي
أهلُ الوِصال لهم قلبٌ بلا طَلَبٍ ... وأيُّ معنـىً لقلـبٍ غيـرِ مُضْطَـرمِ
وهـل لقطـرةِ مـاء مجـدُ تسميـةٍ ... إلا إذا نُبِـذَتْ مـن عجمـة الـدِّيـم

* * *

حـاولـتُ لمـا تجلّـى أنْ أشـاهـده ... وسـوَّلـت لـي نفسـي هَتْكَـةَ الحُـرَمِ
بالرُّغم من أن طرفي في الهوى وقحٌ ... أغضيـتُ لمَّـا تجلّـى خشيـةَ الـدَّهَـمِ

* * *

الفراشةُ واليراعة

قـال الفـراشُ لنفسـه لمَّـا رأى ... رَقْصَ اليَراع على المِدَاد الأسودِ
كـمْ فـي حيـاتِـك مـن غبـيٍّ أحمـقٍ ... مـا ذاقَ تصليـةً بنـارِ المَـوْقِـد
سمـعَ اليَـراعُ كـلامَـه فـأجـابَـه ... حـاشـا لأمثـالـي بمثلِـك تقتـدي
حمـداً لـربِّـي مـا خُلِقْـتُ فـراشـةً ... بجنـاحهـا وسـمُ العبيـد الـرُّقَّـد
أنـا لسـت أستجـدي سـواي تسـوُّلاً ... أنـا فـي فـؤادي جُـذْوتـي وتـوقُّـدي

* * *

وصية « إقبال » لولده « جاويد »

أبنيَّ ! لحنُ الذَّات في أعماقنا ... باقٍ يدلُّ على خلود حياتِهِ
أبنيَّ ! ليلُ الشَّعب ليس يضيئُه ... إلا تصلِّيه بشعلةِ ذاتِهِ
أبنيَّ ! قولك : كان آدمَ جدُّنا ... مَلِكاً لهذي الأرض قولُ نبيهِ
فيه مِنَ الإيمانِ ألفُ حقيقةٍ ... ومِنَ التألُّق ألفُ نوعٍ فيهِ
أبنيَّ ! لن يصل الغرابُ لعشِّنا ... مهما استطالت في السَّماءِ قواهُ
هذي الشَّواهينُ التي يلهو بها ... أبناءُ سيِّدهِ الذي ربَّاه
أبنيَّ ! صان الله وجْهَك عالياً ... ما في زمانِك منْ يَصُونُ حياءَهُ
إيَّاك أن يأتي لقبري زائرٌ ... ويقولُ لي جاويدُ يبذلُ ماءَهُ
إقبالُ ما رضيَ الترهُّبَ سيرةً ... لنقاءِ فكرته وخِصْبِ فؤادِهِ
أبنيَّ ! ليس بُنيَّ إلا مَنْ روى ... بوصيتي هذي جميعَ بلادِهِ

* * *

تسول

صاحَ في الحانة سكِّيرٌ ظريفْ ... إنَّما السُّلطان شحَّاذٌ جَلِفْ
أيُّكُمْ يخرجُ عن بزَّتِهِ ... طمعاً في ذلك التَّاج الصَّلِفْ
أيُّكُمْ يُصْبح عُريانَ لِكَيْ ... يرتدي في القَصْر ثوباً من ذَهَبْ
كأسُه حمراءُ في لون الشَّقيق ... وعليها من دَمِ النَّاس حَبَبْ
كلُّ ما في قَصْرِهِ جَمَّعَهُ ... بقرارٍ مُجْحِفٍ إثْرَ قرار
ليس مَنْ يَسْرِقُ في جِنْحِ الدُّجى ... مثلَ مَنْ يَسْرِق في وَضَحِ النَّهارْ
كَمْ بذاكَ الحَقْلِ من فلَّاحةٍ ... شَحَذوا منها طعاماً للدَّجاجْ
بلِّغوهم أنَّني قلتُ لكم ... إنَّما الشَّحاذُ منْ سنَّ الخراجْ

* * *

المُلاَّ والفردوس

أنـــا أيضـــاً كنـــتُ لكـــنْ مـــا تحمَّلـــتُ السُّكـــوت
كنـــتُ مِـــنْ شـــدَّةِ غيظـــي أتمنَّـــــى أنْ أمـــوت
كنـــتُ إذْ بَشَّـــرتِ الحجَّـــابُ بـــالفـــردوسِ (مُـــلاّ)
فتقـــدَّمـــتُ أنـــادي : عفـــوكَ اللهـــمَّ كـــلاَّ
ليـــس للمُـــلاَّ اهتمـــامٌ بمغـــانيـــك وحـــوركْ
هـــو سكـــرانُ ، نعـــمْ سكـــران ، مـــنْ غيـــر خمـــوركْ
مـــا درى مـــن لُجَّـــة الـــذَّوقِ ســـوى قيـــلَ وقـــالْ
يَحْسَـــبُ الـــدِّيـــنَ الـــذي أنـــزلـــتَ تـــاريـــخَ جـــدالْ
أنـــا لا أرضـــى لنفســـي أنْ أرى عبـــدي جبـــانـــا
كيـــفَ تـــرضـــاهُ زعيمـــاً وهـــو لا يُحْسِـــنُ شـــانـــا
لـــم يَعُـــذ يـــأبـــهُ إنســـانٌ بمـــلاَّكَ المنفِّـــر
فـــإذا مـــا جـــاء يـــومـــاً قيـــل قـــد جـــاء المكفِّـــر
لا يـــرى فـــي خَلْقِـــكَ المسكيـــنَ إلاَّهُ مُطيعـــا
كيـــف تـــرضـــى عـــن غبـــيٍّ كفَّـــرَ النـــاسَ جميعـــا
ليـــس فـــي الفـــردوس ذكـــرٌ لكهـــوفٍ وصـــوامِـــع
إنَّمـــا الفـــردوسُ فيـــضُ الحـــبِّ مـــن صَـــدْرِ الجـــوامـــع

***

الدِّينُ والسِّياسة

عنـدي لـرهبنـةِ الكنـائـسِ طُـرْفَـةٌ فهَلُـمَّ نَضْحَـكُ للحيـاة قليـلا
بُنيـتْ لأعـداء الملـوكِ وأصبحـتْ للطـامعيـنَ مـن الملـوكِ سبيـلا

رأسُ الكنيسة في الوَدَاعة غارقٌ والقَصْرُ فوقَ النَّاس يرفعُ أنفَه
تنوي المضيَّ فيستبدُّ أمامَها وتريدُ تلعنه فتمشي خلفَه
هذا التناقضُ كيفَ أمكنَ دمْجُهُ سبحانَك اللهمَّ ربَّ النَّارِ
ما لِلقُصورِ وللكنائسِ حيلةٌ في النَّاس غير تبادلِ الأدوار
فصلوا عن الدِّين السياسةَ بعدما وصلوا بفتنتهم إلى التِّيجانِ
وتطاول البابا فقيل له : استرِحْ أصبحْتَ سلطاناً بلا سُلطانِ
وتلفَّتَ الشَّعبُ الجريحُ فلم يجدْ حظَّاً له من ذلك التغييرِ
كانتْ مصالحَ راهبٍ ومتوَّجٍ صارتْ مصالحَ حاكمٍ ووزيرِ
ثنويةٌ لم تُبقِ درباً صاحياً سقتِ الدِّيانةُ كأسَها والدَّارا
هي في اليسار وفي اليمين مقيمةٌ تُزجي التناقضَ يمنةً ويسارا
هي لعنةُ الدُّنيا كما أفضى لنا بالسرِّ هذا سيِّدُ الصَّحْراء
لن تعرفَ النَّاسُ السَّلامةَ ساعةً إنْ لم تَقُمْ من حُمْقِ هذا الدَّاء
أبداً مرقَّعةُ الجُنَيْد لِوَحْدِها لن تستطيعَ لأمرنا ترقيعا
إنْ لم يكنْ هو أردشير صراحةً خَرَقَ الطرائقَ أردشيرُ جميعا

* * *

الأرض لله(1)

الحَبُّ ذو العَصْفِ والرَّيحان يُنْبِتُه من ظلمة الطِّين ربُّ الحبِّ والطِّينِ
والغَيْمُ من لُجَجِ الأمواجِ يَرْفَعُه إلى السَّموات سلطانُ السَّلاطينِ
يسوقُ للزَّهر أنساماً تهيِّجُها فيطلقُ الزَّهرُ أنغام البساتين
للشَّمس من نورِه طوقٌ يزيِّنها وللنَّدى نسبٌ من حوره العينِ

---

(1) العنوان مقتبس من قوله تعالى : ﴿ ... إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

فقـلْ لصـاحـبِ تـاجٍ يـدَّعيـه لـه   أفِقْ فـإنَّـك مسكيـنُ المسـاكيـن
مالي ومالَكَ من هذا التُّرابِ سوى   ضجيجِ حين نُولّي عنه في حَيْنِ
الأرضُ لله يعطيهـــا أحبَّتَـــه   والحُبُّ عـاقِبَـةُ الغـرِّ الميـامينِ

***

رسالة إلى شاب

سَجَّـــادُكَ العَجَمِـــيُّ هـــذا والأثـــاثُ الإنكليـــزي

ماذا يفيدك يا عزيزي !

مـــاذا تفيـــدك ثـــروةٌ حصَّلْتَهـــا   فـــي مثـل أبَّهـة الملـوك بـذلتَهـا

أبكي لأجلك يا عزيزي !

هــل ذُقْـتَ يـومـاً غِبْطَـةَ الإيمـانِ   أو بـأس حيـدرَ أو رضـا سلمـانِ

ارحم شبابك يا عزيزي !

سلـعُ الحضـارة لا تقـاسُ بـذاتكَـا   أتظنُّهــا ثمنــاً لكــلِّ حيــاتكَــا

أخطأت جِدّاً يا عزيزي !

المـؤمـنُ الصـدِّيـق سيِّـدُ سـاعتـه   ورقـيُّ عـالمـه رقـيُّ قنـاعتـه

فاعرِف مكانَك يا عزيزي !

لو دَبَّ روح النَّسْر في قلب الشَّبابْ   لم يبحثوا عن سِرِّهم بين التُّرابْ

إيَّاك تيأسُ يا عزيزي !

باليأسِ معرفةُ الفتى تغتالُه وبصيرته   والمؤمنُ الصدِّيق برهانُ الإله سريرتُهْ

فاربأ بنفسِك يا عزيزي !

يا أيُّها الشَّاهين عُشُّك ليس في قصر الملوك لو كنت شاهين الجبال حقيقةً ما أمْسَكُوكْ

فارْجِعْ لعُشِّك يا عزيزي !

***

نصيحة

قـالَ للبـازِ الفتـى نَسْـرٌ عجـوزْ ... أنت في الجوِّ كما شِئْتَ تجوزْ

لــي رمــوزٌ كنــتُ قــد حصَّلتُهـا ... من شبابي فاغتنمْ هذي الرُّموز

لا تقــلْ أصلــي وفصلــي أبــداً ... قيمــةُ الشَّـاهيــنِ فــي أخـلاقِـهِ

إنَّمــا الشَّــاهيــن مــن يَحْـرُقُـه ... دمُــهُ الشَّخصــيُّ فــي أعمــاقِـهِ

قســوةُ التَّدريــبِ روحُ السُّـؤددِ ... لا تضيِّعْــه سـدىً هــذا الكـلامْ

ستــرى قيمتَــه يــا ولــدي ! ... حيـن تنقـضُّ علـى فَـرْخِ الحمـامْ

مــا أرينـا فــرحــةً أمتـعُ مـن ... فرحةِ المنقـضِّ من أفـقِ السَّماء

فـــرحٌ واللهِ لا يعـــدلـــه ... فرحٌ ، حتى ولا سفكُ الدِّماء !

* * *

شقائق النعمان في الغاب(١)

لِمَــنِ السَّمــاءُ تــزيَّنــتْ بــلآلــي ... والـدَّيرُ من أهـلِ الصَّبابـة خـالِ

أشقيقـةَ النُّعمـان هـل تجديـن فـي ... تلـك البـراري مـن يـرُقُّ لحـالـي

---

(١) شقائق النعمان رمز العلمانية والمادية والعقلانية التي تنكر ما يقابلها كما يرى إقبال . وعلى العموم هي رمزٌ لكل ما ليس لظاهره معنىً يجانسه ، فشقائق النعمان حمراء كالنار ، إلا أنها لا تحرق هي كالدم إلا أنها تفتقر لحيويته فلذلك ينبذها البستان على ضفافه .

قال إقبال في ديوان الأسرار والرموز (٦٩) في حديثه عن نار الشقائق : إنَّ هذه النار الباردة تمحوها نار دموعي إلا أن إقبالاً يعود فيقول : إن هذه الشقائق تحترق لأنها ضيعتْ معناها .

ولهيــب دائــم ديــن الشقيــق ... دمه من ذاك يسري في العروق

إلا أنه ليس من السهل السيطرة على رموز إقبال التي تظهر أحياناً وكأنها زئبق لمعانيه ، وهي تتبادل الأدوار من أجل تحقيق هدفٍ واحد .

هي رُغم ما تبدي رحابةَ صدرها ... قفصٌ يضيق بمثله أمثالي
سافرتِ تائهةً وتهتُ مسافراً ... فتعالَيْ نَقْتسمِ الهمومَ تعالَيْ
وعلام أَيَّتُها الشقيقةُ سيرنا ... وإلامَ هذا الكدُّ في التَّرْحال
موسى غريبٌ عن نوى وديانيا ... وشتاتُ بالِك في الجبال وبالي
سيناءُ أنتِ ونار واديها أنا ... وأنا تجلِّيها وأنتِ جبالي
مِنْ ذلكَ الغوَّاصُ أخرجَ درَّنا ... من بين أوصالٍ ومن أوحالِ !
هل كان مَخْفيَّاً فرام ظهورَه ... أم فرحةً بتفوُّقٍ وتعالي !
البحرُ تكشف ما يكابدُ قطرةٌ ... منه وتَفْضَحُ سرَّه في الحالِ !
شاهدتُ زوبعةً تئنُّ لموجةٍ ... فسألتها فاستغربتْ لسؤالي
قالتْ : ألا تبكي لثورةِ موجةٍ ... لم تلطم الشَّطَّ الغبيَّ السَّالي
أتعيقُها تلك الرِّمالُ أمامها ... وأنا أجرُّ إلى السَّماءِ رمالي

* * *

آلامُ آدمَ شمسُ كلِّ حقيقةٍ ... والشَّمسُ تشهدُ لي بصدقِ مقالي
هذا الوجودُ بِصَمْتِه وحماسه ... لك يا بنَ آدم يا كبيرَ الآلِ

* * *

قطعة

إقبال غنَّى أمَامَ الرَّوض أغنيةً ... رشيقةً هيَّجت في الرَّوض شكواهُ
ما كنتُ كالزَّهر رَهْنُ الرِّيح عالَمُهُ ... إنْ شاء مزَّقه أو شاءَ أبقاهُ
أمشي ويمشي جنوني في الطَّريقِ معي ... ولا يمزِّق ثوبي غير حُمَّاهُ

* * *

كتاب السَّاقي

(١)

نَثَرَ الرَّبيع على الفلا يَدَهُ وأطلقَ عسكرهْ
وتحوَّل الوادي إلى حانٍ فقامَ وأسكرهْ
الوردُ والنِّسرين يُمسكُ بالأكفِّ وبالقدودْ
في صَبْغَةِ ألوانها من كلِّ ما خَلَعَ الوجودْ
وشقائقُ النُّعمان تَرقُصُ في الوِشاح الأحمرِ
ما بينَ بسمةِ أبيضٍ يرنو وغَمْزَةِ أسمرِ
وترى السماءَ من السُّرور تكادُ تَسْقُطُ في الفِجَاجْ
وندى النسيمِ خلال زُرْقتها تكسَّر كالزُّجاجْ
وتدفَّق الدَّمُ في الحِجْر ومضى يكابد ما هجرْ
والقُبَّراتُ تركن في الأعشاشِ أغلال الشَّجرْ

* * *

آهِ لهذا الجدولِ المحزونِ يَقْفِزُ في الوِهادْ
لا يشتكي ضيقَ الحياةِ ولا يَمَلُّ من الجهادْ
ينسابُ ، يَرْقُدُ ، يستقرُّ ، يهيجُ ، يَصْخَبُ ، يلتوي
يروي الجلوسَ على الضِّفاف وبالتمزُّق يرتوي
وإذا تجمَّعتِ الصُّخورُ عليه شتَّت حزبَها
واختارَ من ثغراتها درباً ومزَّق قلبَها
يا أيُّها السَّاقي فهاتِ من الكؤوسِ من الدِّنان
لا تُثْخنِ القلبَ الجريحَ وأنتَ أجْدَرُ بالحَنان

هـــذي الشَّقـــائـــقُ جـــوقـــةٌ بـــالسـرِّ تَـرْقُـصُ فـي الطَّـريـق
دعنـــي أبـــدِّدُ خمـــرتـــي أسفـــاً علـــى الكـــأسِ العتيـــق
مـــا كـــلُّ مـــا دار السُّقـــاةُ بـــه تـــدورُ بـــه القلـــوب
أنـــا أطلـــب الخَمْـــرَ التـــي كـــانـــت تُشَـــقُّ لهـــا الجيـــوب
كـــانـــت تَفِيْـــضُ كـــآبـــةً كـــالـــوَرْدِ يَـــذْبُـــل فـــي الخُـــدود
فتُســـرُّ إشكـــالاتنـــا وتـــذيـــعُ أســـرارَ الخلـــودْ
أيُهـــا السَّـــاقـــي هتَّـــك الأستـــار
عُمْـــرُنـــا البـــاقـــي جلـــوةُ الأســـرار
لـــذَّةُ التَّلحيـــن ليـــس فـــي الأوتـــار
يَضـــرَعُ الشَّـــاهيـــنُ أصغـــرَ الأطيـــارْ

* * *

(٢)

بـــدَّلـــتَ أنغـــامَ الـــزَّمـــانِ ونـــوطـــةَ العَـــزْفِ البليـــد
وتـــداخلـــت آلاتُـــه وتمـــرَّد النَّغَـــمُ الجـــديـــد
فَـــرحٌ للُغْـــزِ الإنكليـــز وللَّـــذي عـــرَّىٰ غـــرورهْ
ولأن ذات الســـرِّ يَعْكـــسُ مـــن زُجـــاج الصِّيـــن نـــورَهْ
هُـــوذا علـــى مـــرأى وسمْـــعِ الكـــون يَـــرْقُـــصُ فـــي المـــرايـــا
ويجيـــش فـــي (آلـــونـــد) يلمـــعُ فـــي رؤوس الهيمـــلايـــا
فَـــرِحٌ لأنَّ الأرضَ تَلْفـــظُ كـــلَّ سلطـــانٍ مهيـــنْ
وتُعَلِّـــم الشَّعْـــبَ المكبَّـــلَ كيـــف يـــأخـــذ بـــاليميـــنْ
فَـــرِحٌ لأنَّ الـــرأسمـــال ينـــالُ منـــه جنـــونُ طـــورِهْ
ولأنَّـــه كـــالسَّـــاحـــر المفضـــوحِ بعـــد أداء دورِهْ

* * *

لــــم يبـــق إلا الـــرُّوحُ تلـــكَ وذلـــك الشَّعـــبُ العـــراءْ
نـــزلـــت علـــى سينـــاء صعقتُهـــا فَلَمْلَمَهـــا حِـــراءْ
مـــا مسلمـــاً مَـــنْ يســـأل التَّـــوحيـــد يَصْقُـــل فـــأسَـــه
لِيُحَطِّـــمَ الأصنـــامَ أجمَعَهـــا ويتـــركَ نفســـه
نفـــسٌ أقـــام لأجلهـــا مـــا شـــاءَ مـــن أصنـــامِـــه
ويـــريـــدُهـــا صنمـــاً يـــرافِقُـــه إلـــى إســـلامِـــهِ
هـــذا هـــو الصَّنَـــمُ الـــذي شيطـــانُـــه عَقْـــلُ العليـــم
خُـــدَّامُـــه أهـــلُ الطَّـــريـــق كتـــابـــه العلـــمُ الأليـــم
أسفـــاً لحـــقٌ يتـــركُ الطَّـــاغـــوتَ يـــودعُـــه صـــروحـــه
ويـــرى الفقيـــر يكـــاد يَلفِـــظُ فـــي خِضَـــمٍّ الجهـــلِ روحَـــه
كلمـــاتُـــه هـــذا المبشِّـــرُ تَجْـــذِبُ القَلْـــبَ الغـــريـــر
لكـــنَّ ذوق الحـــبِّ يَنْقُصُهـــا ويَنْقُصُـــه الكثيـــر
ولـــه مـــواعِظُـــهُ ينظِّمهـــا بـــدقَّـــةِ منطقـــه
لكنَّهـــا ســـرعـــان مـــا تخفـــى بِعُقْـــدَةَ رونقـــه
حتـــى المـــريـــدُ فـــؤادُه بقيـــودِ سُبْحَتـــه أسيـــر
حبَّـــاتُ فـــخٌ أوْقَعَتْـــه وكـــوان شـــاهينـــاً يَطِيـــر
هـــذا المســـافـــرُ كيـــف يـــرجـــعُ مـــن ظُنـــونِ الارتقـــاء
هـــو نفسُـــه مـــا عـــادَ يَعْـــرِف مـــا الفنـــاءُ ومـــا البَقـــاء
خَمَـــدَتْ حقيقتُـــه ونـــارُ الحـــبِّ تـــاهَـــتْ فـــي فـــؤاده
فـــإذا هـــو المتحـــرِّق المجنـــونُ يَشْحَـــطُ فـــي رمـــادِهْ

(٣)

قلـــوبُ القَـــوْم مـــا عـــرفـــتْ كلـــذَّة خمـــركَ البـــاقـــي

(أدرْ كـــأســاً ونــاولهـــا ألا يـــا أيُّهـــا السَّـــاقـــي[1])
رمـــــاديٌّ ذَرُّ أجنحـــــةٍ بـبـــابِ الســـرِّ تكتـــظُّ
ومـــا مِـــنْ ذرةٍ إلّا لهـــا مِـــنْ حبِّنـــا حـــظُّ
بـــودِّي أنْ أرى شيخـــاً يغيِّـــر وضعنـــا هـــذا
يقـــومُ ويجعـــلُ التِّلميـــذَ لـــلأستـــاذ أستـــاذا
يخـــاف البـــازُ عصفـــوراً يُقَلِّـــمُ ظُفـــرَ مخلبـــهِ
فـــآتِ شبـــابنـــا نـــوراً تفيـــضُ علـــى الشُّيـــوخ بـــهِ
وخلِّصهـــم بمـــا تختـــار مـــن قيـــدِ العبـــوديّـــة
ولـــو ألقيْتَهـــم حطبـــاً بنيـــرانِ الـــوجـــوديّـــه
تصـــرَّفْ بـــالجنـــونِ لهـــم وفجِّـــرهْ بهـــمْ شُعَبـــا
فليســـوا شعبـــةً منـــه إذا لَـــمْ يسقطـــوا تعبـــا
شبـــابٌ لا يليـــق بهـــم مثـــالُ الجَمْـــرِ فـــي ضَـــرَمِـــهْ
كقلـــبْ المـــرتضـــى بـــأســـاً وكـــالصِّـــدِّيـــق فـــي كَـــرَمِـــهْ
بظـــلٍّ جمـــالـــك الـــريّـــانِ أورقَ شِغْبُنـــا اليبـــسُ
ولمَّـــا أنْ بخِلَـــتْ بـــه تـــوقَّـــف ذلـــك النَّفَـــسُ
أسَهْمـــكَ لـــم يعـــد يقـــوى علـــى تجـــريـــحِ أمثـــالـــي
أمِ الـــرَّكـــبُ الـــذي تـــرميـــه أصبـــحَ فـــارغَ البـــالِ
ســـألتْـــك هـــذه الحسنـــاءُ تُطْلِقُهـــا مـــن الخـــدْرِ
ليعـــرفَ عُـــذَّلـــي معنـــى لهيـــبِ العِشْـــقِ فـــي صـــدري
بشعـــري ضـــعْ لهـــم شَـــرَكـــاً وهـــاتِ الحـــبَّ مـــن سَلْبـــي

---

(١) ذكر العلامة السودي في شرحه التركي على ديوان حافظ أن هذا البيت الذي افتتح به حافظ ديوانه هو من قصيدة ليزيد بن معاوية وقد عاب بعض الشعراء على حافظ الشيرازي فعلته هذه .
انظر العقد الجوهري شرح ديوان الجزري ، ص٣ .

وخـلِّ حُسـامَـك الهنـديَّ يجـرحُ كـلَّ ذي قلـبِ

مـرادي رشـفُ أسـرارٍ تـؤوّل راحـة اليـأسِ
وإلا قلـتُ للطـلاب مـا أخفيـهِ فـي نفسـي
ركبنـا البحـر فـي فلـكٍ بـأعينـه صنعنـاهُ
فـأجـرى الـرّيـحُ عـاصفـةً وعكـسَ الـرّيـح أجـراهُ
ذوتْ عينـايَ مـن أرقٍ علـى قلـقٍ طـوىٰ جَنبـي
وهـذا الـدّمْـعُ فـي عينـيَّ طـلٌّ مِـنْ نـدى قلبـي

* * *

خُشـوعـي فـي عَـذابـاتـي وَوَثْبـي فـي طُمـوحـاتـي
ونـوعُ طـرقتـي هـذي الَّتـي أمحـو بهـا ذاتـي
وفكـري وهـو بُستـانٌ ونفسـي وهـيَ مـرآتـي
وحِصـنُ يقينهـا المُضْنـى وجَيْـشُ ظنـونهـا العـاتـي
وقلبـي وهـو ميـدانٌ تَضِـجُّ بـه عـراكـاتـي
ودروشتـي الَّتـي تبـدو نصيبـي مـن مُعـانـاتـي
سـألتُـك أن تعتّقهـا وتَمْـزُجَهـا بـآهـاتـي
وتسقيهـا لقـافلتـي بمـوكـبِ جيلنـا الآتـي

(٤)

إنَّـه البحـرُ دائـمُ الحـركـات وثبـةٌ بعـد وثبـةٍ فـي الحيـاةِ
ذاكَ بحـرٌ مـن الحيـاة تجلّـى واحـداً فـي تمـوُّجـات الـذّواتِ
اللّهيـبُ الـذي تـأجَّـجَ فينـا والَّـذي يحتـوي جنـونَ الـدُّخـانِ
يـرفـضُ المُكْـثَ بيـن مـاء وطيـنٍ وهـو راضٍ عـن كـلِّ مـا يصنعـانِ
مـا الَّـذي يطلـبُ اللهيـبُ بهـذا إنَّـه قـاطـنٌ وسـارٍ بـآنٍ
فـي فـرارٍ إلـى السَّمـاء تـراهُ حَـذِرَ المَـوْتِ فـي شِبَـاك المعـانـي

إنَّهــا الــوَحْــدةُ الَّتــي كبَّلتْهــا ... حلقــاتُ التَّعَــدُّديَّــة هــذي
رُغْــمَ كــلِّ التَّعَــدُّديَّــة تبقــى ... وَحْــدةٌ مــا لهــا نظيــرٌ محــاذي
إنَّ أبعــاد مَعْبَــدِ العصــرِ هــذا ... ذاتُ أبعــاده القــديمــة ستَّــة[1]
ولســومنــاتَ كــلِّ عصــرٍ وجــودٌ ... إنَّ ســومنــاث لا يُكَــرِّرُ نَحْتَــهْ
نحــنُ فــي ظلِّــه معــاً واختــلافــي ... عنك يــا أنــت كــاختــلافــك عنّــي
واللهيــبُ الــذي تــأجَّــجَ فينــا ... خلــق الحــادثــاتِ منــك ومنّــي
حلقــاتُ اللهيــب نحــنُ ولكــن ... هــو فــي قلبهــا يظــلُّ وحيــدا
فــي بــروقٍ وفــي نجــومٍ مُشــعٌّ ... تَسْبُــك التِّبْــرَ نــارُهُ والحــديــدا
فــي غيــاضٍ وفــي ريــاضٍ مقيــمٌ ... كــلُّ مــا فــاضَ فيهمــا فــاضَ عنــه
لا يَعِــبْ زهــرك المُفَتَّــح شــوكــي ... كــلُّ شــوكــي وكــلُّ زهــركَ منــه
ليــتَ شِعْــري يفيــدُ كيــدُك هــذا ؟ ... ليــت شعــري عــرفــتُ مــا هــو كيــدُهُ
هــو ذا يَنْسِــفُ الجبــال بحــزمٍ ... هــوذا الحُــورُ والمــلائــك صَيْــدُه
هــو حينــاً تــراه بــازاً وحينــاً ... خَجِــلاً فــي دمــائــه يتشحَّــطْ
وهــو حينــاً حمــامــةٌ دون عُــشٍّ ... فــي شِبَــاكِ حِيَــالَــه تَتَخَبَّــطْ

(٥)

الــرَّاحــةُ الكُبــرى بقلبــكَ والسَّكينــةُ خُــدْعَتــانْ
فــالكــونُ ذرَّاتٌ يهيّجهــا بــرقصتــه الــزَّمــان
وقــوافــلُ الأشيــاء فــي الآفــاق تَضْــرب بــالــدُّفــوفْ
وتــروح تُمْعــنُ فــي التَّجَــدُّد لا تفكِّــر بــالــوُقــوف
السَّيْــرُ معنــاهــا العَمِيــقُ بــه تَجُــول بــه تَصُــولْ
فَــدَعِ الــوُصــول لمــن يــريــد فليــس مَطْلَبُنــا الــوُصــول

---

(١) اهتمَّ إقبال بنظريات « أينشتين » التي وضعت حداً للهندسة التقليدية (الأستاذ الملوحي في ترجمته النثرية) .

تَـــوقٌ إلـــى الطَّيـــرانِ يتـــركُ ســـرَّهـــا يتفطَّـــر
وتحـــسُّ راحـــةَ صَـــدْرِهـــا فـــي وثبـــةٍ لا تَفْتُـــرُ
وتَحِـــلُّ ، تَعْقِـــدُ مـــا تَحِـــلُّ ، تُقيـــمُ تهْـــدِمُ مـــا تُقيـــمُ
فِـــرْدَوْسُهـــا أن تستمـــرَّ وروحُهـــا السَّيـــرُ المُقيـــمُ
وإذا ابتـــداهـــا المـــوتُ وهـــو النِّـــد فـــي وَجْـــهِ الحيـــاة
ومـــن العسيـــر كفـــاحُـــه تمضـــي إليـــهِ فـــي ثبـــات
وَبِـــذَوْقِهـــا الثَّنـــويِّ تنقســـمُ اثنتيـــن إلـــى النِّـــزال
وتـــروح تُخشَـــدُ فـــي السُّهـــول تعـــودُ تُخشَـــدُ فـــي الجبـــال
كـــالغُصـــنِ إنْ جـــرَّدْتَـــه مـــن سَكْـــرَةِ الـــدُّنيـــا صحـــا
وازدادَ فـــي وقـــتِ الـــرَّبيـــع تنـــوُّراً وتفتُّحـــا
لا شـــيءَ أســـرعُ مِـــنْ تَـــدَارُكِهـــا لمـــا أَفْسَـــدْتَ منهـــا
الـــوقـــتُ سلسلـــةٌ وكـــلُّ جهـــاتـــه يَصْـــدُرْنَ عنهـــا
شفتـــان فـــي فمهـــا أزلٌ إلـــى أبـــد
الـــوقـــتُ بينهمـــا كـــالنَّفْـــس فـــي الجســـد !

(٦)

مـــوجـــةُ الأنفـــاسِ سيـــفٌ جَعَلَتْـــه الـــذَّات حـــدًا
طَلَبَـــتْ ذاتُـــك شيئـــاً نيلُـــه يَصْعُـــبُ جِـــدًا
هـــذه ذاتُ شَـــريـــدٍ هـــذه ذاتُ مُقيـــمِ
إنَّهـــا اليقظـــةُ والعـــزلـــةُ والســـرُّ الحميـــم
إنَّهـــا الـــذَّات ســـؤالٌ فـــي طـــريـــق المستـــدلِّ
مثلمـــا الشَّـــوقُ إلـــى العُـــزْلـــة فـــي وقـــت التجلِّـــي
إنَّـــه البحـــرُ الَّـــذي تحملُـــه قطـــرةُ مـــاءْ
وهـــي فـــي الظُّلمـــة والنُّـــور علـــى حـــدٍّ ســـواء
وُلِـــدَتْ منـــك ومنِّـــي فـــأضعنـــاهـــا كـــلانـــا

وأنـــا أُزهِـــقُ ظنِّـــي هـــو مِـــنْ أيْـــنَ اجتـــلانـــا

أزلِيَّـــاتـــي وَرَائـــي أَبَـــدِيَّـــاتـــي أمـــام

وأنـــا رُغْـــمَ غبـــائـــي طـــامـــحٌ نحـــو التَّمـــام

إنَّهـــا الـــذَّات الَّتـــي تمخـــر فـــي بحـــر الحيـــاة

فتُنـــاغـــي لطمـــاتِ وتُقـــاســـي لطمـــاتْ

عنـــدمـــا تَطْمَـــعُ أن تقلـــب آمـــالَ الشَّبـــاب

تتخفَّـــى وتـــديـــرُ اللَّحـــظَ مـــن تحـــت النِّقـــاب

فتـــرى الصَّخْـــرَ تـــرابـــاً صَعِقـــاً ممَّـــا تُـــديـــر

وتـــرى العـــالـــم وَجْـــداً يتمنَّـــى لـــو يَطِيـــر

إنَّهـــا البَـــذْءُ جميعـــاً إنَّهـــا ذاك الغُبـــار

إنهـــا فـــي البَـــذْرِ أضـــواءٌ وفـــي الصَّخْـــرِ شـــرار

إنَّهـــا فـــي ظُلمـــةِ النُّـــور إذا شـــعَّ النَّهـــار

مـــا لهـــا أعلـــى وأدنـــى مـــا لهـــا جـــارٌ ودار

مِـــنْ قليـــلٍ وكثيـــرٍ ويَميـــنٍ ويَســـار

لَـــمْ تَـــزَلْ حِلْـــفَ كفـــاحٍ وانقـــلاب وانتصـــار

أحـــرقـــتْ آدمَ لمَّـــا جسَّـــدَتْـــه لِلْقَضـــاء

فـــإذا آدمُ لحـــنٌ وإذا الـــذَّاتُ حِـــدَاء

وإذا فـــي بـــؤبـــؤ العَيْـــنِ انطبـــاعـــاتُ السَّمـــاء

قبـــحُ السَّلامـــة أنَّهـــا فـــي عيـــن صـــاحبهـــا قـــذى

والعُمْـــرُ حـــربُ الـــذَّاتِ فـــالشَّـــرف الـــرَّفيـــع أو الأذى

الـــذَّاتُ عنـــد تجـــاهـــل الأهـــواء مـــرهمُهـــا الأكيـــد

وتجـــاهُـــلُ الأهـــواء دربُ الـــذَّات والخبـــزُ الـــوحيـــد

(محمـــود) تـــرفـــع رأســـه ذاتٌ تـــؤلِّـــف جنـــده

و (إيـــاز) عنـــد النـــاس مـــلءُ الأرض ممَّـــا عنـــده

لمـــا أراد الغَـــزْنَـــويُّ يحطِّـــم الصنـــم الكبيـــرَ[1]
جـــاؤوا إليـــه بكـــلِّ أصنـــاف الجـــواهـــر والحـــريـــرْ
فـــرمـــى بمـــا جمعـــوه فـــي بحـــرٍ وبـــدَّدَهُ جميعَـــهْ
وأجـــابَ جئـــتُ لِكَـــيْ أحطِّمـــه وَلَيْـــسَ لكـــي أبيعَـــهْ
فَـــلأنْ أسمَّـــى هـــادمَ الأصنـــام خيـــرٌ فـــي السُّلـــوك
مـــن أن أسمَّـــى بـــائـــعَ الأصنـــامِ مـــن بيـــن الملـــوك
ليـــسَ السُّجـــود تهـــدُّل الكتفيـــن مـــن فَـــرْطِ القُعـــود
مـــا كـــان يغنـــي عـــن سجـــودٍ آخـــرٍ فهـــو السُّجـــود
مِـــنْ هـــذه الأصـــواتِ والألـــوانِ عـــالمُنـــا خليـــط
وجَـــلٌ يطـــارِدُه الفنـــاء مـــن المُحيـــط إلـــى المُحِيـــط
أصنـــامُ ألـــوانٍ وأصـــواتٍ تلـــمُّ الكـــونَ لمَّـــا
أسفـــاً علـــى سمـــعٍ وعيـــنٍ ألِفـــا عُمْيـــاً وصُمَّـــا
الأمـــرُ مـــرحلـــةٌ ودربُ الـــذات تَـــذْخَـــرُ بـــالمـــراحـــل
مـــا أبعـــدَ الجُـــزُرِ الَّتـــي تغـــريـــك عـــن تلـــك السَّـــواحـــل
يـــا أنـــت نـــارُكَ لـــم تكـــنْ مِـــنْ مـــوقـــدٍ هـــذا لهيبُـــه
ضـــاعـــتْ شـــرارتُـــك الَّتـــي كـــانـــت بنظـــرتهـــا تَهِيبُـــه

***

عبـــدُك العـــالـــمُ فـــاؤمـــر فهـــو لا يَهْـــرُبُ مِنْـــكَ
غيِّـــرِ المـــوقـــفَ وانظـــرْ إنَّـــه يَصْـــدُرُ عَنْـــكَ
امـــضِ لا تـــركـــن لشـــيءٍ وانـــضُ عـــن كـــونِـــكَ هَـــوْلَـــهْ
لهشـــة الـــرَّاكـــن مِـــنْ سُـــرعـــة مـــا يبصـــرُ حـــولَـــهْ
ظـــاهـــرُ العـــالـــم سحـــرٌ وعصـــا مـــوســـى ثبـــاتُـــك

---

(١) الأبيات ليست في الأصل وإنما هي توضيح لمراد إقبال بقوله : هيئة محمود .

أَسَدُ الله الَّذي يقتنص العالمَ ذاتُك

جوهرُ الكون قديمٌ   فكرُك الكشفُ الجديد

أينَ كفٌّ تَنْظِمُ الجوْهَرَ في سِلْكٍ فريد

أيُّها المسلمُ فارقُبْ   نظرةَ الدُّنيا إليك

في ملاء من رجاء   يُعْقَدُ العَزْمُ عليك

إنَّ للآماد شغلاً   حولَ أقطار الوجود

عندما تكْشِفُ عن ذاتك تُدعى للسُّجود

لستُ فيما قلتُه أشرح لِلْعالم قدرَك

فأنا حاولتُ حتى الآن أن تَفْتَحَ صَدْرَك

مَزَّقَ الكلْمةَ ضيقٌ   عن معانٍ نقتفيها

نحنُ مرآةُ معانٍ   كَدَرُ الكلْمة فيها

زفرتي تُضْرِمُ صدري   وأنا بين السُّيوف

غير أنَّ القول من خشيته يرجو الوقوف

أنا من كثرةِ ما حلَّقْتُ ألهبتُ النَّواحي

فلو اجتزت قليلاً   أحرقَ النُّورُ جناحي

* * *

الزَّمن

شُعْلةُ العُمْرِ من لهيب الثَّواني   أشْعَلَتْها تغيُّرات الزَّمان

غَدُكَ الطُّعْمُ في حِبَالةِ أمسٍ   فترفَّقْ بيومك المُتَفاني

يَرْقُبُ النَّاسُ طالعاً ذا خيالٍ   ويخوضون في جميع الأماني

وأنا ذلك الخيالُ ولكنْ   يَصْعُبُ اليومَ شرحُ تلك المعاني

يَسْقُطُ العالمُ الجديدُ بكأسي   قطرةً قطرةً كرشح الدِّنان

سُبَحُ القَوْم لعبةٌ في يديهم   أنا سُبْحتي ليالي زماني

كلُّ حَبَّاتها عَرَفْتُ ولكنْ | لا أسوِّي بين الجميع بشاني
ولكلٍّ طريقةٌ وسلوكٌ | بعضها فارسيٌّ وأخرى حِصاني
مرةً أجعلُ الأعنَّة سوطاً | مرةً أجعلُ السِّياط عِناني
لكَ من حفلةِ اللقاء نصيبٌ | فإذا لم تكنْ فلستَ بجانِ
ليس من عادتي أخبِّىءُ كأساً | لنديمٍ على كرامةِ حاني
بدءُ هذي التَّعَرُّجات عسيرٌ | وهي ليستْ تعرُّجات جَبَانِ
وهيَ ليستْ لراصدٍ في غرورٍ | وهي ليست لمقتفٍ في هَوان
إنَّ عيناً خبيرةً بقُواها | غيرُ محتاجةٍ لحَمْلِ سِنان
شفَقُ الأفْقِ ذاكَ نهرُ دماءٍ | فتحمَّلْ نهرَ الدِّماء وعانِ
وانتظرْ مَطْلِع الصَّباح وقهقهْ | حاكت اللُّغزَ ذاك أسطورتان

***

هذه الفِكْرةُ الجريئةُ عرَّتْ | سلطاتِ الطبيعةِ المستبدَّهْ
إنَّ عُشّاً هي الصَّواعقُ فيه | ليس صعباً لمثلها أنْ تَهُدَّه
إنَّها الرِّيح والفضاءُ جميعاً | إنَّها البحرُ والسَّفينةُ عندهْ
كان جُنْدُ القضاء للموت ذعراً | فإذا بالقضاء يَقْتُلُ جندَهْ
وإذا أنت جئت بالسَّيفْ طفلاً | أمسَك الطِّفلُ للجمال فِرِنْدَهْ
ذهبَ العالمُ القديمُ قتيلاً | أترى يَسْلَمُ المقاتلُ بعدَه
قامر الإنكليز حتى تولَّوا | وكذا الدَّهر لا يقامِرُ وحدَه
إنَّ هذا الصُّوفيَّ يحمل ناراً | لا تبالي بريح تلك الشُّكوكِ
ملأ اللهُ دربَه بمعانٍ | علَّمتْ قلبَه سلوكَ الملوكِ

***

آدمُ يُغادرُ جنَّةَ عَدْن
والملائكة تودِّعه

أنــــتَ مـــــوهـــــوبٌ وإلّا ... لـــم نَجـــدْ للُغـــزِ حـــلاّ
كُنْــتَ مـــن طيـــنٍ ويبـــدو ... أنَّ ذاك الطيــــــنَ ولّـــــى
كـــانـــتِ النَّفخـــة منـــه ... زئبقـــاً فـــي الســـرِّ حـــلّ
ويقـــولـــون تـــرابٌ ... قـــل عســـى هـــذا وعـــلّ
ومـــع النكتـــة هـــذي ... أحمـــلُ العـــالـــم كُـــلاّ
كَلِـــفٌ بـــالحُسْـــنِ حتّـــى ... أنـــت فـــي الحُلْـــمِ تَصَلّـــى
لـــك فـــي الحُلْـــمِ نعيـــمٌ ... يغمـــرُ اليقظـــةَ ظِـــلاّ
دمعُـــك الصُّبـــحَ لـــدينـــا ... يمـــلأ الجنَّـــة طـــلاّ
يطلـــبُ الـــرَّوض ليسقـــي ... زهـــره ممَّـــا تملّـــى
فـــاكشِـــفِ الأســـرارَ وارقُـــصْ ... تَـــرَقُّـــصِ الجَـــوقَـــةُ دلّا
إنّمـــا الـــدُّنيـــا بكـــاءٌ ... وغِنَـــاءٌ ليـــس إلا

* * *

روح الأرض تستقبل آدم

فـــأتـــى الأرضَ فقـــالـــت ... إنَّـــه آدمُ جـــــاء
أنـــتَ يـــا آدمُ فـــاعلـــمْ ... كُنْـــتَ مـــن طيـــنٍ ومـــاء
حَـــوْلَـــكَ العـــالَـــمُ فـــانظـــرْ ... وتمعَّـــنْ فـــي السَّمـــاء
ووراء الحُجُـــبِ حُسْـــنٌ ... فتـــأمَّـــلْ مـــا وراء
لا تكـــنْ نـــافـــذَ صبـــرٍ ... واحتمـــلْ وَهْـــمَ الشَّقـــاء
ضجَّـــةُ العـــالَـــم هـــذا ... حـــربُ خـــوفٍ ورجـــاء
لـــك مـــا فـــي الكـــون مُلْـــكٌ ... مـــن بحـــارٍ وفضـــاء

هـــذه السُّحْـــبُ جميعـــاً هـــذه البِيْـــدُ العَـــراء

(٢)

كنـــتَ مـــن وجـــه مـــلاكٍ فـــي انـــدهـــاشٍ وفنـــاءْ
فَخُـــذِ المـــرآة وانظـــرْ فيـــك أســـرارَ القضـــاءْ
نظـــراتٌ ذاتُ مغـــزىً أطلقَـــتْ ســـرَّ البقـــاء
وشـــراراتُ صـــراخٍ يتعـــالـــى فـــي السَّمـــاء

(٣)

إنَّ ضـــوء الشَّمـــس هـــذا مـــن شـــراراتِـــكَ ضـــاء
عـــالـــمٌ أنـــت جـــديـــدٌ أنـــت والكـــونُ ســـواء
أنـــتَ فـــردوسُـــك ذاتٌ مـــالهـــا قـــطُّ انتهـــاء
جســـدٌ ؟ لا ليـــس هـــذا جســـداً هـــذا جـــزاء
أيُّهـــا الـــزَّهـــرةُ فـــانظـــرْ كيـــفَ تمضـــي فـــي العَطـــاء

(٤)

كـــلُّ أوتـــارِك تبكـــي أيُّهـــا العـــودُ الشَّـــريـــد
كـــلُّ ميـــراثـــك حـــبٌّ فتخيَّـــر مـــا تـــريـــد
سيِّـــدُ الأســـرار فـــي المعبـــد مـــن وقـــتٍ بعيـــد
تنفـــق الـــذَّاتُ وتبلـــى ثـــم تُبْـــدي وتُعِيـــد
ثُـــمَّ فـــي غيـــر كثيـــرٍ تمتطـــي كـــلَّ جـــديـــد

***

قطعة

خطـــاي كمِثْـــل نسيـــمِ الصَّبـــاح تُبطـــيء حينـــاً وتُســـرِع حينـــا
أنـــا شـــوكتـــي إبـــرةٌ للـــورودِ تـــرقـــعُ مـــا انقـــدَّ عبـــر السنينـــا

بـدأبـي كَسَـوْتُ ثيـابَ الحـريـرِ   هــذي الشَّقــائــقَ واليــاسمينــا

* * *

المُرشِدُ والمُرِيد

إقبال وهو التلميذ الهندي يوجه إلى مرشده أسئلةً نجد أجوبتها كاملةً مدرجةً في كتابه (المثنوي) وهو يوردها بنصِّها بالفارسية .

قــالَ إقبــالُ لـــرومـــيٍّ   يـــا إمــامَ العـــاشقيـــن
لـــم يـــزلْ يمـــلأُ سمعـــي   ذلـــكَ القـــولُ المبيـــن
وتـــرُ العـــودِ وقشـــرُ العـــودِ والعـــودُ سجـــونْ
عنـــدمـــا تيبَـــسُ فيـــه   ييبـــسُ اللَّحـــنُ الـــدَّفيـــنْ
عصـــرُنـــا النشـــوان هـــذا   تنتشـــي منـــه الظُّنـــون
رقصـــةُ الأجســـادِ لا تمحـــو أســـى القلـــبِ الحـــزيـــن
مبـــدأُ العـــالـــم يـــا أستـــاذُ مـــا شـــاؤوا يكـــون
ليـــس فـــي قلـــبِ حضـــورٌ   أو بـــوجـــدانٍ يقيـــن
كيـــف يستـــوعـــبُ ســـراً   ذلـــكَ الصَّـــدْرُ المُهيـــن
ردَّ للصِّـــدِّيـــق مـــا يـــروي عـــن الـــوحـــي الأميـــن
كيـــف جَـــزَّتـــه إلـــى الأوهـــام قيثـــارةُ طيـــن
رُغـــمَ مـــا أنفقـــه للمَجْـــد مـــن كـــدِّ القُـــرون
قـــال رومـــي أيُّ فـــرقٍ   بيـــن لحـــنٍ وطنيـــن
إنَّ فـــنَّ الاستمـــاع الحـــقَّ   سلطـــانُ الفنـــون
كـــالعصـــافيـــر وليســـت   كلُّهـــا تـــأكـــلُ تيـــن
قـــال : طـــوَّفـــتُ لأجـــل العِلْـــم فـــي شـــرقٍ وغـــربِ

وأنـــــا الآن وحيـــــدٌ والأســـــى يمــــلأ قلبـــي

قـــال : هـــذا طــبُّ كــفُّ   لــيــس أهــلاً لعـــلاجِــكْ

جَعَلَـــتْ منــكَ مــريضـاً   فــي فــراشٍ مــن لَجاجــكْ

اســـألِ الأمَّ عـــلاجـــاً   مـــن عقـــاقيـــر الأمـــانْ

إنَّ نصـــف الطـــبِّ مـــن علـــمٍ ونصفـــاً مـــن حنـــانْ

قـــال يـــا مـــنْ شَـــرَحَـــتْ نظـــرتُـــه ضيـــقَ فـــؤادي !

أمَلــــي أفهـــمُ مـــا تَفْهَـــم مـــن أمـــرِ الجهـــادِ

قـــال : مـــن ســـوَّى لـــك الأصنـــام ســـوَّى لـــك فـــأســـه

وبـــأحجـــار الحبيـــب   يضـــربُ الحـــاذقُ كـــأســـه[1]

لا تقـــلْ ليـــت ولـــولا   مـــا علـــى همِّـــك بـــاسُ

أنـــت يـــا هـــذا الـــذي يجـــرحُ فـــي الـــدَّهـــر ويـــأســو

قـــال : حـــورُ الغَـــرْب ألقَـــتْ فِتَـــنَ الشَّـــرق شبـــاكـــا

صَـــرَعَـــتْ ذا اللُّـــبِّ حتـــى   لا تـــرى فيـــه حِـــراكـــا

قـــال : يـــا إقبـــال ! احْـــذَرْ   ظـــاهـــراً يَطغـــى عليـــكَ

عنـــدمـــا تَفـــرِكُهـــا الفضـــةَ انظـــر ليـــديـــكَ

قـــال : يـــا رومـــي ! وسِحْـــرُ الإنكليـــزيّ إلامَـــا

يـــأخـــذ الطـــالـــبَ لحمـــاً   ثـــم يـــرميـــه عظـــامـــا

قـــال : كـــالعصفـــور إنْ لـــمْ   يُكْمِـــلِ الـــريـــشَ وطـــار

هجـــم القـــطُّ عليـــه   ورمـــاه للصِّغـــار

قـــال : إنَّ الـــدِّيـــن والقـــوميَّـــة اليـــومَ صـــراعْ

---

(١) في المثنوي (كسر زجاجة الحبيب لا يكون إلا بحجر الحبيب) ومعناه كما شرحه د . كفافي : إنه لاحق لإنسانٍ في أن يميت إنساناً آخر فالله وحده هو الذي يميت سواء كان ذلك بفعل مباشرٍ أو بأمر واجب الاتباع مما نصَّت عليه الشريعة .
انظر ترجمة د . كفافي للمثنوي ص٦١٣ .

أنتَ هل تدري بماذا ينتهي هذا النزاعُ
قال : ما في اللَّيلِ للزائف والمحضِ عياز
ودليلُ الذَّهب الخالصِ إشراقُ النهاز
قال يا شيخ! بماذا أملأ الدَّرب القصيره
وبأيِّ الأمر أغنى بعِيانٍ أم بَصيره
قال : يا إقبالُ ما هذا الذي ليس يَبِينُ
إنْ تكنْ تُبصرُ يعني أنت إنسانٌ مبينُ
يملأ المُهجة حقٌّ وحبيبٌ دامغُ
ما عدا ذلكَ يا إقبالُ جوزٌ فارغُ
قال : يا من ملأ الشَّرق بما يحيي القُلوب
ما الذي يَغصِفُ بالشَّرقِ وماداء الشُّعوب
قال : ما أعرف شعباً مات إلا لمَّا
حَسِبَ الأحجار بخوراً وظن الشَّهد سُمَّا
قال : يا شيخُ ! وهذا المسلمُ الضَّائعُ كونُهْ
دمُه أصبح ثلجاً عطرُه غابَ ولونُهْ
قال : يا إقبالُ ! إنَّ الله لا يظلمُ شعبا
ورجالُ القَلْبِ لا تجرؤ أنْ تَجْرَح قلبا
قال : يا أستاذ ! إنَّ الشُّوق والحقَّ أقول
كَسَدَتْ فالبيعُ أيُّ البيع يحظى بالقَبول
قال : اذهب واشْتر الحيرة بالعقل الظَّنين[1]
إنَّه وهمٌ وظنٌّ وهي حقٌّ ويقين
قال : جيراني جميعاً ندماءُ للأمير

---

(1) انظر « المثنوي » ترجمة كفافي « حيرة المحب أمام الحبيب لا حيرة من يولِّيه ظهره » ص١٠٢ .

وأنـــا فـــوق حصيـــري حـــاســـرُ الــرأس فقيـــر

قـــال : كـــن خـــادمَ حـــرٍّ قلبُـــــه دون حـــدود

لا تكـــنْ فـــي مجلـــس السُّلطـــان مـــن بعـــضِ القـــرود

إنْ تكُـــنْ عبـــداً لإنســـانٍ لـــه قلـــبٌ كبيـــر

هـــو خيـــرٌ مـــن طـــوافٍ بيـــن نُـــدمـــانِ الأميـــر

قـــال : يـــا هـــذا الـــذي يُنْبِهُـــمُ فـــي وَجْـــدِ الكبـــار !

ضعـــتُ مـــنْ قلـــةِ علمـــي بيـــن جبـــرٍ واختيـــار

قـــال : يـــا إقبـــالُ ! مـــا الشَّـــاهيـــن ؟ يبـــدو كـــالغُـــراب

ريشُـــه يُصْبـــحُ تـــاجـــاً ريـــشُ هـــذا للتُّـــراب

يطلـــب المـــوتـــى غـــرابٌ ظُفْـــرُهُ عـــبءٌ عليـــه

وتـــرى الشَّـــاهيـــن يمضـــي أكْلُـــه صنـــعُ يـــديـــه

قـــال : مـــاذا يـــأمـــل الإســـلام مـــن هـــذا السُّلـــوك

ألكـــي نـــرضـــى بفقـــرٍ أم إلـــى طيـــشِ الملـــوك

قـــال رومـــي : جنَّـــة الإســـلام فـــي ظـــل السُّيـــوف

ليـــس مـــا تطلبـــه الـــرُّهبـــان مـــن أمـــنِ الكهـــوف

قـــال : يـــا أستـــاذُ ! كيـــف الخـــوضُ فـــي مـــاء وطيـــن

أيـــن مـــا يـــوقـــظُ قلبـــي وهـــو فـــي صَـــدْري سَجيـــن

قـــال : لا تشمـــخْ كنعـــشٍ فـــوراء النَّعـــش كـــفُّ

وتـــواضـــع كحصـــانٍ أينمـــا شـــاء يخـــفُّ

قـــال : يـــا أستـــاذُ ! أيـــن البعـــثُ مـــن ضعـــفِ يقينـــي

وأنـــا أجْهَـــلُ مـــا أجهـــلُ مـــن أســـرار دينـــي

قـــال : مـــا أنـــت وهـــذا ابْعَـــثِ النَّفـــس بـــذاتـــك

ثـــم ســـلْ نفســـك مـــاذا إنَّهـــا دربُ حيـــاتـــك

قـــال : يـــا أستـــاذُ ! إنَّ الـــذات تمضـــي فـــي السَّمـــاء

تحمـــلُ الظُّلمـــة والنُّـــور علـــى حـــدٍّ ســـواء

مع هذا غابَ عنها ... ما يجلّيه الفِراقُ

هي مِنْ فَقْدِ التَّجلّي ... في جحيمٍ لا يُطاقُ

في ازدهارٍ وانهيارٍ ... شأن أربابِ الوصول

هي مما افترسَتْه ... في جراحٍ لا تزول

قال رومي : ليس إلا الحبُّ أهلاً للعراكِ

لكنِ الموضوع (مَنْ يوقعه بين الشّباكِ)

قال : يا أستاذُ ! قلْ لي ... هل لهذا الشّعب حَرْقُك

أنت للإسلام شمسٌ ... في ضمير الكون شرقُك

قال رومي : كلُّ حَبٍّ ... يرغبُ العُصفورُ نَقْرَهْ

لا تكنْ بُرْعمَ وردٍ ... تقصفُ الأطفالُ ظهرَهْ

كنْ على حبّك فخّاً ... يمنعُ الحائم طولَهْ

واسْتُرِ البُرْعُمَ واضْرِب ... قصباً نفسَك حولَهْ

قال : يا أستاذُ ! ما الحربُ الّتي تملأُ جنبَكْ

أنا ما جئتكَ إلا ... قلتَ لي قلبَك قلبَكْ

هو ذا قلبي بِصَدْري ... وأنا حِلْفُ طريقي

بين كدٍّ وخمولٍ ... مِلْءَ مرآتي بريقي

قال : يا إقبالُ لَسْنا ... أهلُ فقهٍ وأصولْ

أنا لي مثلُك قلبٌ ... وكما أنت تقولْ

إنّما القَلْبُ سماءٌ ... عرشُه في مستواها

وله ربٌّ حواه ... ولها ربٌّ حواها

ما لملك القلبِ يا إقبالُ دربٌ تسلكُهْ

مُنتهى الحكمةِ أنْ تبحثَ عمّن يَمْلِكُهْ

قال : يا أستاذُ ! فكري ... للسّموات دليل

وأنا في الأرض هذي ... خائرُ العَزْمِ ذليل

لِمَ نسترشد بالمُصْلِحِ لا يُصْلِحُ أهلَهْ ؟

ولِمَا العارفُ بالدِّين بغيرِ الدِّين أبلهْ
قال رومي بعدما استرسل في الكون الكبيرْ :
في سماء الله يسري مَنْ على الأرض يسير
قال : يا أستاذ ! لا أبصِرُ في الدَّرْبِ منارا
أين مَنْ يَقْدَحُ للحكمة في صدريَ نارا
قال : يوري العلمَ ناراً يابسُ الخبز الحلالْ
والذي يأكل كدَّ النَّاس يُفْنيه الضَّلالْ
قال : يا أستاذ ! إنَّ العصر يستدعي النِّزالْ
ولهيبَ الشِّعر يخبو وقدُهُ دون اعتزالْ
قال : يا إقبال ! لسنا نَقْصِدُ العزلة قصدا
عندما الأحباب تأتي تُصْبِح الخِلْطَةُ شهدا
بدِّدِ العُزلةَ واذهبْ من قطيعٍ لِقَطيع
تشتري الناسُ فراءً ليس من أجلِ الربيع
قال : أين الهندُ ضاعتْ لا لهيبٌ لا ضياءْ
ورجالُ القَلْبِ فيها تُعَساءٌ أشقياءْ
قال : يا إقبال ! هذي الناس لا تعرفُ روحا
أجْلِ الدمعةَ هذي وكفى اليومَ جروحا
يَلفظُ الحقُّ بعيداً جَسَداً ما فيه قلبُ
إنَّ ربَّ النَّاس حيٌّ وهو للأحياء ربُّ
كلُّ ما في الشِّعر هذا من صُراخٍ وصياح
ليس ما يُذهشُ أنْ يذهبَ أدراجَ الرِّياح

* * *

جبريلُ والشَّيطان

التقـــى سيِّـــدُنـــا جبـــريـــلُ إبليـــسَ الـــرَّجيـــم
قـــال : مـــا شـاهـدتَ قـل لـي أيهـــا الخـــلُّ القـــديـــم ؟!
مـــا جـرى فـــي عـــالـــم الألـــوانِ والعِطْـــرِ الجـديـــذ
قـــال : شـــوقٌ وطمـــوحٌ وبكـــــاءٌ ونشيـــــذ
قـــال : مـــا زالَ حـــديـــثُ القـــوم فـــي الحضـــرة خلقُـــكْ
أولا يُمكـــن أن يُـــزقـــعَ فـــي الجلبـــابِ خـــرقُـــكْ
قـــال : هيهـــاتَ ولكـــنْ لَسْـــتَ تـــدري مـــا أســـرُّ
هـــو فـــي الظـــاهـــر يُشْقِـــي وهـــو فـــي الحـــقِّ يَسُـــرُّ
قَـــدَحُ الســـرِّ الـــذي أسْكَـــرنـــي منـــه تكسَّـــرْ
ورجـــوعـــي لـــلأعـــالـــي بعـــد سُكْـــري يتعسَّـــرْ
أنـــا حتَّـــى لا أطيـــقُ العَيْـــشَ فـــي تلـــك الأعـــالـــي
أنـــتَ للـــرَّحمـــة حـــالٌ وأنـــا اللَّعنـــةُ حـــالـــي
ذلـــك العـــالـــم مـــا معنـــاهُ مـــن غيـــر أوابـــدْ ؟
إنَّـــه المـــوتُ الـــذي تَغْـــرِف لـــولا مـــا أكـــابـــدْ
فـــإذا كنـــتُ حيـــاةً بقنـــوطـــي للـــوجـــود
أتـــرى الـــواجـــبَ أبقـــى فـــي قُنـــوطـــي أمْ أعـــود
قـــال : لكـــنْ عنـــدمـــا استنكفـــتَ كِبْـــراً أن تطيعَـــهْ
نـــالـــك العـــارُ ونـــال المـــلأَ الأعلـــى جميعَـــه
صـــارَ شُغْـــلَ المـــلأ الأعلـــى أمـــام الله خـــوفَـــهْ
يَهْـــدرُ الـــذُّعْـــرُ عليـــه تمـــلأ الـــرُّعـــدةُ جـــوفَـــه
قـــال : يـــا جبـــريـــل لكـــنْ جـــرأتـــي ســـرُّ البقـــاء
وهبـــتْ للحمـــأ المسنـــون شـــوقـــاً للنَّمـــاء

أنت في الشاطىء ترنو لِصِراعاتِ المواقف
أنا أم أنت الذي تَضْفَعُه تلك العواصف
عندما تَعْصِفُ ريحي لُجَجَ البحرِ الجليلَة
لا يرى إلياس والخضرُ من الواقع حيله
فإذا أمكن يوماً تسألُ الله تعالى
فأنا أرجوك أن تسألَه هذا السؤالا
دمُ مَنْ ذاك الذي خضَّبَ تاريخ ابن آدمْ[1]
دَمُ مَنْ هذا (دمي أم دمُه أم دمُ آدم)
صاغني الله تعالى شوكةً تجرحُ قلبه
أنت لا تُتْقِن إلا النَّفْيَ والإثباتَ قربَة

***

قطعة

بالأمسِ أوصى مُرْشدٌ أصحابَه بوصيةٍ سبحان ربِّكِ منْ وَهَبْ
أغلى وأثمنُ من بحور لآلىء يا ليتَها كُتبتْ بماء منْ ذهبْ
في خمرِ أوروبة لشعبٍ كاملٍ سُمٌّ يُسَمِّمُ ذاتَه وإرادتَه
تفني بنيه بالتسكُّع خلفها تمحو مواهبَه تُبيدُ كرامتَه

***

---

(١) يبدو أن إقبالًا يريد أن يقول : إن ما نفخه الله تعالى في آدم من روحه هو ما في دماء ابن آدم من حنين إلى الخير والشيطان بشوكته الشريرة يسيل تلك الدماء لتسقي نبتة الأرض ، ومن باب آخر يحاول إقبال أن يدافع عن المعتقدات الغيبية في التصور الإسلامي ؛ خاصة وجود الشيطان الذي يجري في الناس مجرى الدم كما في الحديث .

الأذان

قال نجمُ الصُّبح للأفلاك يوماً لاحِيا
أحدٌ منكم رأى آدمَ يوماً صاحيا
سخَّر المريخَ ممَّا   قاله نجمُ الصَّباحِ
قال : هل ينفع شيئاً   صاحياً أو غير صاحِ
تدركُ الأقدار ما تفعلُ في هذا الظَّلامْ
وأرى الخير لمداومته في أنْ تنامْ
قالت الزَّهرة : أفٌّ غيِّروا الموضوع هذا
تُنفِقُ الليلةَ في الباطلِ واللغو لماذا
فيم نهتمٌّ لهذي الذَّرَّةِ العمياءِ قولوا
فأجاب البدر هذا النجم في الأرض يصولُ
نحنُ في الظُّلمة نبدو   وهو يبدو في النَّهار
روحُه سرُّ الليالي   قلبُه قَطْبُ المدار
وهو لو أدرك معنى   سهرِ الليل وذاقَه
جاز أطباق الثُّريا   وأرى الله طباقَه
إنَّه في صَدْرِه   يستر نوراً باهرا
وهو أطلقه لم   يبقِ نجماً ساهرا
فعلا صوتُ أذانٍ   بينما هُمْ في جِدال
يا لها صرخةُ وعظٍ   صدَّعتُ قلبَ الجبال

***

قطعة

رُغمَ ما يوجد في رِكَّة شعري من عُيوب

ربمـــا تبلـــغ يـــومـــاً كلمـــاتـــي للقلـــوب

مـــا علـــى الشَّـــارع لـــومٌ كيفمـــا قـــال وعبَّـــز

أنـــا يُغْنينـــي عـــن الشعـــر نـــداءُ (اللهُ أكبـــر)

أنـــا تغنينـــي إذا أخفقـــتُ فـــي كَشْـــفِ النَّـــوايـــا[1]

صلـــواتٌ وتـــراتيـــلٌ بهـــاتيـــكَ الـــزَّوايـــا

مَعْشـــرُ الجـــانـــب هـــذا دينُهـــم لا يستطـــاعْ

عـــرفـــوا النَّفـــس ولمـــا نظـــروا فـــي اللهِ ضـــاعـــوا

وعبـــادُ الجـــانـــب الآخـــر عُمَّـــالُ منـــاجـــمْ

هـــم عـــن الـــلاَّهـــوت أغـــرابٌ وفـــي البَحْـــثِ أعـــاجـــمْ

* * *

الحب

مَـنْ شهيـدُ الحـبِّ الـذي زعمـوهُ ابحثـوا عنـه فـي جميع الفِجَـاج

سِمَـةُ العِشْـقِ لا تُتَـاحُ لشعـبِ دونَ شعـبِ ولا تُبـاحُ لـراجـي

فـي هيـاجِ الفـؤاد للحـبِّ سرٌّ كهيـاجِ الفَـراش حـولَ السِّـراج

إنَّمـا الغـزنـويُّ صنـوُ إيـازٍ إنْ يكـنْ قلبُـه بغيـر هيـاج

روَّجَ الحـبُّ سـوقَ كـلِّ حكيـمٍ حـاك آراءَه بـه للـرَّواج

هـي لـولا تـدخُـلُ الحـبِّ فيهـا لعبـةٌ مـن لآلـىء مـنْ زُجـاجِ

رجـلُ الحـبِّ لا يَـذِلُّ لشـيء مستقـلُّ الفـؤاد حـرُّ المـزاجِ

ليـس يحتـاجُ أو يخـافُ مليكـاً إنَّمـا الخـوف مظهـرُ الاحتيـاجِ

تـاجُ إسكنـدر الشَّهيـر متـاعٌ وأنـا الفَقْـرُ والتـدروشُ تـاجـي

أنـا أبنـي الـرِّجـال بـالفقـر هـذا وهـو يبنـي مـدينـةً مِـنْ زُجـاجِ

* * *

---

(١) يقارن إقبال بين الإسلام والمسيحية .

رسالة نجم

بَعَثَ النَّجْمُ لي يقول : محالٌ ... أن يعيق الظلامُ شُغْلَةَ ذاتي
أنتَ مثلي مسافرٌ ذو لهيبٍ ... فأنِرْ باللَّهيب ليلَ الحياةِ

* * *

إلى جاويد[1]

لتكنْ لِقَلْبِكَ يا بنيَّ مكانةٌ ... في موطن الحبِّ البعيد النائي
كُنْ في أماسيه وفي أسمارِهِ ... نَغَماً يُجدِّد حرقة النُّدماءِ
وعي الفؤاد حقيقة الدُّنيا فإن ... وَهَبَتْك إيَّاه يدُ الرَّحمنِ
أخرَجتَ من صَدْرِ الورود حديثها ... ونزعتَ صمتَ شقائقِ النُّعمانِ
إيَّاكَ يوماً أن تدينَ لصانعٍ ... في ليلِ أوربة يَصُوغُ زُجاجا
صُغْ من ترابِ الهند كاسكَ وافتخرْ ... وارفعْ بلادك فوقَ رأسك تاجا
أبنيَّ عرجونٌ بداليةٍ (أنا) ... أبياتُ شعري هذه أعنابي
من هذه الأعناب أعصرُ خمرةً ... حمراء تُلْهبُ بالحياة شبابي
أنا عيشة الأمراء لم آبه لها ... أنا عِشْتُ درويشاً مع الفقراء
فادْخُلْ سجلَّ الفقر باسمك إنَّه ... فخرُ النَّبيِّ وسيِّدُ الأسماء

* * *

الدينُ والفلسفة

محلُّ الدِّين من يد فيلسوفٍ ... محلُّ الشَّمس من كَبِدِ السَّماء

---

(١) قدم إقبال هذه القصيدة بقوله : « جواب أول رسالة تلقيتها منه وكتبها بخط يده وأرسلها إلى لندن » .

لــه فــي كــل يــومٍ وهــمُ بحــثٍ ... يكــونُ مــن الصَّبــاح إلــى المســاء
أنـــا فـــي ظـــلٍّ بيتـــي أم غـــريـــبٌ ... وهــل سفــري بعيــدٌ أم قــريــب؟
قــد استــوحشــتُ مــن جبــلٍ ووادٍ ... فــأيـــنَ تـــراه يستتـــر الحبيـــبُ
أضعــتُ علــى رســومِ القــوم عُمْــري ... أفتِّــشُ عـــن بصيـــرٍ بـــالـــرُّســـومِ
تعجَّب جئت من أين (ابن سينا) ... وساءلني ستذهب أين (رومي)
أرافــقُ فــي طــريقــي كــلَّ ســارٍ ... وأُغطيــه نصيبــاً مــن طــريقــي[1]
ولــم أرَ فــي طــريقــي مستعــدّاً ... يكـــونُ إلـــى نهـــايتـــه رفيقـــي

***

رسالة من أوربة

الاعتصـــامُ بحبـــلِ الحـــسِّ ضيَّعنـــا ... في الليل من بحثنا عن شاطىء البصر
وَلِلْبَصيــرة بحــرٌ عــاصــفٌ حظيــت ... مــن قعــره غطسةُ الــروميِّ بــالــدُّرَرِ
أنـــا لقـــافلـــةِ الـــرُّومـــيِّ متَّبِـــعٌ ... وهــل لقــافلــة الــرومــيِّ مــن أثــر
هَــبْ عصــرنــا مثنويّــاً آخــراً فلقــد ... جــارت رســالــةُ أوربــة علــى البَشــر
طــريــقُ حُــرِّيــةِ الأحــرارِ مُظْلمــةٌ ... تضيئهــا شعلــةُ الــرومــيِّ بــالشَّــرَر

***

---

(١) شاهدٌ دخله بعض التحوير من شعر غالب الشاعر الأردوني الكبير في القرن التاسع عشر ، وله دواوين رائعة باللغة الأردوية والفارسية ، وقد سبقت ترجمته في الديوان الثالث .

جواب

على ابنِ آدمَ أن يرعى العُلى أنِفاً — كظبي (خوتان)[1] يرعى نبتةَ الجودي
ولا يجوزُ لـه بـلْ لا يليقُ بـه — أكلُ الشَّعير ورعي العشب والعُودِ
هُـمْ يُضحُون بـالمُقْتاتِ من كـلأٍ — ويَخْضَعُون لمن ناواهُـمُ الشَّانـا
ومن تخلَّق بالقرآن مجَّدَهُ — وأصبَحَتْ نفسُه للنَّاس قرآنا

* * *

على قبر نابليون

التَّوْقُ للفِعْل سيفُ الخالدين به — تشقُّ في جُبَّة الأسرار أقدار
وقبل مولد نابليون خاضَ به — إسكندرُ الأرضَ أمصاراً فأمصار
جبال (آلوند) هدَّتها حماستُه — وأطلقَتْ سيلُ تيمورلنك تيارا
تصير صرخةُ أهل الله صَرْخَتَه — إذا أصرَّت على الإيمان إصرارا
والتَّوْقُ لحظته لا تستمرُّ فإنْ — لم تغتنمْ نَيْلَه في وقته غارا
وقام يثأر ليلُ القَبْر منك له — لا يستقرُّ إلى أن يأخذ الثَّار
(مسيرنا نحو وادِ الصَّمْت لذَّتُه — أنْ تملأ القُبَّةَ الزرقاء آثارا)[2]

* * *

---

(١) خوتان : بلدة كانت تحت حكم التتر المسلمين ، تنسب إليها ظباء المسك .
(٢) شاهد من شعر حافظ الشيرازي وقد أورده إقبال بالفارسية .

موسوليني (1)

نشــاطٌ جـديــدٌ وفكــرٌ جـديـد يثيــرُهمـــا أمَــلُ الثَّـــائـــرِ

صَبَــا شعبُــه أن يـــردّ الصِّبـا إلــى مجـدِ أمَّتِــه الغـابـرِ

نشــاطٌ جـديــدٌ وفكــرٌ جـديـد وهـــذان معجـــزةُ القـــادر

يصـوغــان مــن حجــرٍ لـؤلـؤاً وتـــاجــاً لحــاضـره الـزَّاهــر

تــأمَّلــت رومــا وقــد جـددت بتجـديـدهــا حيـرةَ النـاظـر

فقلـــتُ : أيـــا ربِّ مـــاذا أرى وهــذا الهُـدى خطــأٌ أم صـوابْ

حيــاة تُقــرُّ عيــونَ الشُّيــوخ وتـذكـي الطُّمـوحَ بصـدرِ الشَّبـاب

فيــا للتَّجلِّــي الــذي هــاهنـا ويــاللحمــاسـةِ مــاذا تُــذِيــع

وهـــل تستطيــعُ رؤوس الــزُّهــور أنْ تتــوارى بفصــلِ الــرَّبيــع

سمــاؤك يــا نغمــةَ الثَّــائـريـنَ تهــزُّ أغــانيــك أقطــارَهــا

وروحُـــك تنتظـــرُ العـــازفيـن فَمَـــنْ سيهيِّـــجُ أوتـــارَهــا

---

(1) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
نظم إقبال هذه القصيدة حوالي عام ١٩٣١م حين زار موسوليني بعد عودته من لندن وانفضاض مؤتمر المائدة المستديرة الذي دعت إليه الحكومة البريطانية للبحث في الإصلاح الدستوري في الهند ، ويبدو أنه نظمها قبل استيلاء هتلر على السلطة .
وفي قصيدة تالية يقارن إقبال بين عمل موسوليني وبين أعمال السياسين الإنكليز بهذه العبارات :
بحجة نشر الحضارة سوّغتم أمس تلك المذابح الجماعية والمجازر كما يسوغها اليوم موسوليني .
وعن غزو الحبشة دان إقبال مرة أخرى رئيس الحكومة الإيطالي وكتب قصيدة عنوانها : (جثة الحبشة) مايلي :
واأسفا مرآة شرف الكنيسة حطمتها روما إلى ألف كسرة أيها الحبر الأعظم ، ياله من حادث مروع (الأصل) وانظر فيما يتعلّق بغضب إقبال على موسوليني مجلة فكر وفن عدد ٣٢ ص٧٤ ـ ٧٥ .

ومَنْ ذا الَّذي صاغَ هذا الجمال وبارَكَ بالحبِّ تِلكَ النُّفوس
هو الحرُّ ذو النَّظراتِ الَّتي بها تَقْتَدي نظراتُ الشُّموس

* * *

سؤال

قال درويشٌ أبيٌّ يسألُ الله تعالى
أنا لا أشكو إليك الفقرَ والعيشَ المحالا
لكن اللهمَّ قلْ لي أنتَ أرسلت الملائك ؟
ليقيموا سلطةَ الأوغاد في ظلِّ سمائك

* * *

إلى فلاح البنجاب

أيُّها الفلاحُ ما سرُّ الحياةْ ؟ ما الَّذي يكتُمه هذا المدارْ
أنت فيها منذُ آلاف السنين خَلْفَ محراثٍ يُغَطِّيكَ الغُبار
خمدتْ نارُك في الطِّين الَّذي علقتْ أكوامُه في نَعْلِكَا
قلْ لِمَنْ أذَّن في هذا الصَّباح أرني اللهَ الذي في فعلكَا
لم يقلْ للنَّاس حيَّ للفلاح إنَّما حيَّ على الفلَّاح قالْ
هو يدعوهم إلى مأدبةٍ أنتَ أرسلتَ لها كلَّ السُّلالْ
كيف ترضى أن يكونوا هكذا وهُمُ مِثْلُكَ مِنْ حمأةِ طينْ
إنَّ نَبْعَ الخضر لا يبلغُه وجِلٌ من ظلماتِ المعتدين
ليس يُجدي الهَمُّ في شيء إذا لم تَضَعْ ذاتَك تحتَ التَّجرِبَة
حطِّم الأصنامَ يوماً واحداً لا تخفْ معبدَها أنْ تخربَة
حطِّم الأوثان أوثانَ العروق واهدمِ الأصنامَ أصنامَ القبائل

وانـــضُ أغـــلالَ التقـــاليـــد التـــي تتعنَّـــى خلفهـــا مـــن غيـــرِ طـــائـــل
لا تقـــلْ أنشـــدُ فـــي الـدِّيـــن الخـــلاص وامنـــحِ الكهَّـــانَ روحـــانيتَـــهْ
إنَّ ديـــنَ الله فـــي الـــدِّيـــن الـــذي يهـــبُ الإنســـانَ وحـــدانيتَـــهْ
احْفَـــظِ القلـــبَ الـــذي تحملُـــه لا تـــدَعْـــه تحـــتَ أقـــدامِ العبـــاد
الَّـــذي يـــزرعُـــه فـــي صَـــدْرِهِ يجـــدُ المتعـــة أيـــامَ الحصـــاد

* * *

نادر شاه ملك الأفغان

فـــي حضـــور الحـــقِّ كـــان الحَـــدَثُ الفـــردُ الكبيـــر
غيمـــةٌ تحمـــلُ فـــي أعمـــاقهـــا روحَ الـــزُّهـــور
رأتِ الفـــردوسَ فـــي الـــدَّرب فقـــالـــتْ للسَّمـــاء[١]
آهِ مـــا أجمـــلَ هـــذا هـــاهنـــا نلقـــي الـــدِّلاء
فـــأجـــابتهـــا وقـــالـــت نتـــرك الهنْـــد لقـــابـــل
أدركـــي عشبـــاً جـــديـــداً ظمئـــاً فـــي أرضِ كـــابـــل
وعســـى نـــادرُ يـــأتـــي ليـــرى هـــذي الحقـــائـــق
علَّـــه يَغْســـلُ بـــالـــدَّمـــع جـــراحـــاتِ الشَّقـــائـــق[٢]

* * *

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية : « ربما كانت الهند التي مرَّ بها نادر شاه قادماً من باريس إلى إيران لمحاربة (بجه سقا) الَّذي خلع أمان الله خان عن عرشه ، هي المقصودة بهذا الفردوس ، وهم يرددون (الهند جنة نيشان) يعني إنَّ الهند تشبه الفردوس كما يقولون عن روما : إنها المدينة الخالدة » .

(٢) جراح شقائق النُّعمان هي آلام الأفغان .

حلمٌ تَتَرِيّ (١)

كـلُّ شـيء حـولنـا يَسْلُبنـا مجدَنا حتى سَجاجيدُ الصَّلاة[٢]

أنـا لا أستـاء أن تَـرْمُقَنـا شـزراً أعيـنُ أولادِ الطغـاة

بَلِيَـتْ أثـوابُنـا أجمعُهـا جبَّـةُ الشيـخِ وجلبـابُ الأميـر

مـا الَّـذي أفعَلُـه فـي وحدتـي مـا الَّـذي يفعـل إيمـانـي الكسيـر

* * *

وصية « خوش حال خان » (٣)

يـا أمـة الأفغـان شـدُّوا بعضَكـم بعضـاً وكـونـوا سـادةَ الأفغـانِ

مـا شـاهَـدَتْ عينـاي أجمـلَ منظـراً كجمـال صيَّـاديكُـمُ الفتيـانِ

يـرمـون فـي بحـر السَّمـاء شِبـاكَهـم (صيدُ النُّجوم رياضةُ الشُّجعان)

أطفـالٌ كـوهستـان وعـدٌ مفعـمٌ متـواثـبٌ فـي قلـبِ كـوهستـان

ليسـوا أقـلَّ مـن المغـول شجاعـةً ليسـوا بـأدنـى منهـمُ فـي شـانِ

أنا (خوش حال) أحبُّ قبراً إن أمتْ فـوق الجبـالِ ممـرَّدَ البُنيـان

لا رِيـحَ تصفعُـه بنقـعٍ خـامـلٍ مـرَّت عليـه خيـول مغلستـان

مـا تبقَّـى غيـرُ جمـرٍ هـامـدٍ يتخفَّـى تحـتَ أكـوامِ الـرمـاد

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملُوحي النثرية : « إذا كان إقبال يؤيد ثورة « خوش حال خان » فليس من الغريب أن يؤيِّد تطلعات التتر في تركستان إلى الاستقلال » .

(٢) في ترجمة الأستاذ الملُوحي النثرية : « يعني أن الأتقياء ينبهوننا » .

(٣) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
من المهم أن نذكر أنَّ إقبالاً رغم نزعته للجامعة الإسلامية يمدح ثائراً على الإمبراطورية المغولية في عهد (أورنك زيب) وإقبال لا يريد فرض الوحدة من الخارج ولكنه يريد وحدة عفوية تنبثق من الداخل .

أيُّ ريحٍ فوقه لو عَصَفَتْ جَعَلَتْ منه حديثاً للعِبَادْ
غطَّت الرِّيحُ بُخارى كلَّها وسمرقندَ بليلٍ قاتم
(وتَطَلَّعْتُ لنفسي فإذا أنا فصٌّ ماله من خاتم)[1]
بينما أندُبُ حظِّي فجأةً زلزلتْ أرضَ سمرقندَ السَّماء
وإذا مرقد تيمورلنك قد بدَّدَ اللَّيلَ بسيفٍ منْ ضياء
كان نوراً أبيضاً في صُفْرةٍ كضياءِ الشَّمس منْ قَبْلِ الأُفول
قال لي : يا أيُّها الباكي أنا روحُ تيمورلنك فاسْمَعْ ما أقول
إنَّ باب الله مفتوحٌ وإن سَدَّتِ الأيامُ أبواب التتر
أنتَ من أبناء طوران وإن فرَّقَتْ أبناءُ طورانَ البشر
فهبِ الذَّاتَ لهيباً آخراً وبريقاً ثانياً من مقلتِكْ
أنا حطَّمتُ بهذين الجيوشَ لِمَ لا تَخْلُفني في أمَّتِكْ

* * *

الحالةُ النَّفسية والظَّرف

الرَّأيُ بعد شجاعة الشجعان هي أولٌ وهو المحلُّ الثَّاني
إنْ كنتَ يقظاناً فأنتَ مظفَّرٌ والحالُ خيرُ ذخائرِ الإنسان
كلُّ الحياة على اختلافِ ظُروفها ظلٌّ تؤلفه ظروفُ الحال
في كلِّ وقتٍ للمسافر جِدَّةٌ ومنازِلُ القَلْبِ المقيم خوالِ
كلماتُنا مع أنَّها لم تَختَلِفْ لا في معانيها ولا في لَفْظِها
في سَجْدَةِ الجنديِّ نلمح غبطةً ليست كسَجْدةِ ناسكٍ في وعظها
هو مسلمٌ لكن وهذا مسلمٌ ما زاد عن قرآنِهِ قرانُه
للنَّسْرِ كالشَّاهين جوٌّ واحدٌ لكنْ لكلٍّ منهما طيرانُهُ

---

(١) تعليق إقبال : بيتٌ لشاعر مجهول ربَّما أورده الطوسي في شرح الإشارات .

أبو العلاء المعري

يقال : إنَّ المعرّيّ لم يكن أبداً ... ليأكل اللَّحم لا يلوي على دينِ

يقالُ : كان نباتياً بمذهبه ... وليس يقتاتُ إلا من يدِ الطين

شوى له مرةً مستهزىءٌ حَجَلاً ... يريد يلقاهُ فيما اختار مُرْتَبِكا

لكنَّ شيخَ اللُّزوميّات حين رأى ... شناعة السيخ ألقى فوقه وبكى

وقال : يا أيُّها المسكينُ ما اقترفَتْ ... يداك حتَّى دَخَلْتَ النَّار بالسَّيخِ

لو كنتَ بازاً لأعطوك الدَّجاج فِدًى ... وما لجأتَ إلى شَجْبي وتوبيخي

لم تُلْقِ بالكَ للأديان إذْ وَعَظَتْ ... وللطبيعةِ إذْ قالت لطالبها

اللهُ سخَّر للأقوى خلائقَه ... وقدَّر الموت للمستضعفين بها

***

سينما

أيعودُ آزرُ مرةً أخرى ... ويذيعُ في السينما معانيه

أصنامُها في صَدْرِ صالتها ... عادت له بِرَواجِ ماضيه

ما كان يُنْحتُ قبلُ من صنم ... جاءت تُريدُ تبيعُه فينا

صاغت لنا الدُّنيا لنعبدَها ... وثناً وصاغَ لِعَصْرِهِ الدِّينا

ما كان فنَّاً فنُّه أبداً ... ما كان غيرَ طقوسِ أوثانِ

فتفحَّصِ السِّينما الَّتي ظَهَرَتْ ... هي في الحقيقةِ ثوبُه الثَّاني

هو صاغ أصناماً لعالمه ... ما صاغَ من طينٍ وفخَّارِ

وتصوغُ صالتُها لعالمنا ... أصنامَها من مارجِ النَّارِ

ما في زوايا المعبدَيْنِ سِوى ... هذا الرَّمادِ وذلكَ الطِّينِ

إنْ لم يلِ التَّوحيدُ أمرَهما ... لَمْ يتركا شرفاً لِمِسْكِينِ

***

إلى جماعة « بيرزاده »[١] في البنجاب

جزتُ البلاد إلى ضريحِ مجددٍ[٢] ووقفتُ ليلي نادباً ونهاري

وعلى التُّرابِ من الضَّريح تألُّقٌ غبَطَتُه في قَصْرِ السَّماء جواري

لا غروَ للأسرارِ تَلْمعُ هاهنا فهاهنا توارى صاحبُ الأسرار

من ردَّ جاهنكير عن يده وما ذلَّتْ عمامتُه لوصمةِ عارِ

هذا المكانُ من الوجود ضريحُه وهنا يقيمُ معلِّمُ الأحرارِ

الهندُ تعرف أرضُها وسماؤُها كيفَ افتداها من جحيمِ النارِ

هو أحمدُ المختار لِلْمِحَنِ الَّتي نالتْ شريعةَ أحمدَ المختارِ

لما وقفتُ على ضريح مُجَدِّدٍ دار الحديثُ عن الزَّمان الدائرِ

فشكوتُ دروشةَ الزَّمان له وما ألقاه من شوقي وعزمي الخائرِ

فأجاب : طرفُك ليس يبصرُ قلتُ : لا هو مبصرٌ لكنْ بِغَيْرِ نفوذِ

من أين ألتمس البصائر إنَّني أصبحت في عينيَّ كالمنبوذِ

فأجابني ذَهَبَ الذين عرفتَهم لم يبقَ سرٌّ في دَمِ البنجاب

لا تكتَرِثْ منهم بصاحبِ شطحةٍ مجنونةٍ ولو ارتدى جلبابي

أرني قلنسوةً لِدَرْويشٍ لهم لم ترضَ قنزعةَ العمامةِ جارا

ذهبوا مع الفقهاءِ خلف ملوكهم لم يتركوا لذوي القلوبِ منارا

***

سياسة

تقضي السياسةُ أن نُحدِّدَ أولًا أدوارنا في لعبة التِّيجانِ

---

(١) بيرزاده : تعني عضواً في طريقة رئيس جماعة روحية ومؤسسو هذه الطريقة كانوا دراويش أتقياء ، ولكن أولادهم انقلبوا إلى الماديِّين .

(٢) يريد به إقبال مجدِّد الألف الثاني الشيخ السَّرهندي .

لا الشاه أنت بها ولا أنا بيدقٌ　　هذا اختيارُ اللاّعبِ الشّيطانِ
إنَّ البيادق إنْ أعاقت نفسها　　دلَّتْ على شاهٍ بلا سُلطانِ

* * *

التَّجَرُّد

ليس التَّجرُّد أن تقيمَ على الطَّوَى　　وقواكَ خائرةٌ وبيتُك مُعْدَمُ
فَمِنَ التَّجرُّدِ ما يطيحُ بأهله　　ومِنَ التَّجرُّدِ ما يعزُّ ويكرمُ
أنا لم أجد عند الملوك تجرُّداً　　أحلى وأجدى مِنْهُ في شابور
شابورُ في صنع الإمارةِ مسلمٌ　　فتعلَّموا الإسلامَ من شابور

* * *

الذَّات

لا تَرْضَيَنْ فضةً بالذَّاتِ أو ذهبا　　ولا تبعْ بِشَرارِ ذلكِ اللَّهبا
إليك ما قال (فردوسي) الذي كشفتْ　　للفُرس أقوالُه الأستارَ والحُجُبا
(المالُ يوجدُ حتَّى حينَ تَفْقِدُه　　فلا تكنْ وَقِحاً إنْ رمتَه طلبا)[1]

* * *

فراق

النُّورُ حول الشمس يزهو إذ يفارقها صباحا
غَزَلَتْه من ذهبِ الحرير فصار للدّنيا وشاحا
والكونُ مُغْتبطٌ بما　　جَلَبَ الفراقَ من التَّسلّي

(١) شاهد من ديوان الفردوسي بالفارسية .

متـــرنـــحٌ فـــي صمتـــه نشـــوانُ مـــن مُتَـــعِ التَّجلِّـــي
هـــل تعـــرف الأنهـــارُ والأفـــلاكُ أســـرار التشـــوُّف
هـــل يـــرتـــوونَ مـــن الفـــراق ويكتـــوونَ مـــن التلهُّـــف
أنـــا قسمتـــي قلـــقُ الفِـــراقِ ســـواه مـــالـــي مـــن مُنـــىً
هـــو فـــي الصَّميـــم مـــن التُّـــرابِ ومـــا التُّـــرابُ ســـوى أنـــا

* * *

الدَّيـــر

لا العصرُ للقولِ بالألغاز مُحتملٌ ولا أنـا أستطيـع اليـوم إلغـازا
مضـى الَّـذيـن إذا قـالـوا لميِّتِهـم قـمْ ، قـامَ فيهـم بـإذنِ اللهِ واجتـازا
فما الَّذي بعدهم في الدَّير تفعله جمـاعـةٌ بمـذاقِ الـدَّيـر كفَّـارُ
أخِـذمـةٌ لقبـورِ القـوم مـا بَـرِحـوا أمْ أنَّهـم لقبـورِ القـومِ حُفَّـارُ

* * *

شكوى الشَّيطان

قـــال إبليـــسُ الـــرَّجيـــمُ يشتكـــي اللهَ تعـــالـــى
مـــا لِنَجْـــلِ الطِّيـــن هـــذا فـــوقَ نـــاري يتعـــالـــى
هُـــــوَ ذا آدم بعـــــدي هُـــو ذا كـــومُ التُّـــراب
واهـــنُ الـــرُّوحِ كبيـــرُ الكِـــرْشِ مـــوفـــورُ الثِّيـــابِ
عقلُـــه فـــي الأوج لكـــنْ قلبُـــه يَلْفِـــظُ روحَـــه
مـــا لقلبـــي غيـــركَ اللهـــمَّ لـــو تـــأســـو جـــروحـــه
كلَّمـــا يجعـــلُ منـــه الشـــرق معيـــارَ النَّجـــاسَـــة
لا تبـــالـــي حكمـــاءُ الغـــرب أنْ تـــرفـــعَ راسَـــه

حـورُ فـردوسِـكَ تخشـى عـالـم الفِـرْدَوْسِ يُقْفِـزْ
جئتُـك اللهـمَّ بـالحُجَّـة كـي تـرضـى وتغفِـرْ
فسَّـرَ الغـربُ الـدِّيمقـراطـيُّ تَـزكـي لِسُجـودي
لـم يعـذْ مـن بعـده فـي الأرض معنـىً لـوجـودي

* * *

دمٌ في الشرايين

لا تَخْشَ نيلَ السُّوء من رجلٍ إنْ كـانَ فيـه دمٌ ونـامـوسُ
وارغـبْ عـن المحـروم مـنْ دمـه فـالخيـرُ مِـنْ كفَّيْـهِ ميـؤوسُ
رجـلٌ يحـرِّكُ قلبَـه دمُـهُ لا الفَقْـرُ يُحْـزِنُـه ولا الجـودُ
إيَّـاك مـنْ لـم يَهْـدِهِـمْ دمُهُـمْ سـودُ الـدِّمـاء عقـولُهـم سـود

* * *

الطَّيران

تشكَّـتِ التينـةُ للعُصفـورِ مِـنْ معبـدِ الألـوان والعُطـورِ
قـالـتْ لـه : يـا أيُّهـا المغـرِّدُ حتَّـى متـى يكفـرُ هـذا المعْبَـدُ
لـو أنَّ لـي أجنحـةً وعَـوْنـا أغـرَقْـتُ بـالجمـالِ هـذا الكـونـا
أجـابهـا العصفـورُ فـي وداعـةْ إجـابـةً فـي منتهـى البـراعـةْ
قـال لهـا : أيَّتُهـا المسكينـةْ كيـف تطيـريـن وأنـت تينـةْ
قـولُـك لا يَنِـمُّ عـن غبـاء وإنَّمـا يـدعـو إلـى الـرِّثـاء
أتـدَّعيـنَ الظُّلـمَ فـي عيـنِ العَـدلْ وأنـتِ أحـرى مـن أريـتُ بـالعَـذلْ
الطَّيـران سـرُّنـا المحجـوبُ لا يستطيـعُ نيلَـه مجـذوبُ

* * *

معلم المدرسة

أمامَ روحِ التّلاميذ الّتي اختنقت ... يبني المعلّم هذا صرحَ فخّار
الحقُّ ما قال كاغاني[1] وَيَسْحَرُني ... ما قال من بيت شعرٍ بذَّ أشعاري
(إذا الجدارُ أمامَ الشّمس ترفعُه ... فلن ترى نورَها في باحة الدّار)

* * *

الفيلسوف

يعرفُ الفيلسوفُ كيفَ يطيرُ ... وهو في العِلْم غايةٌ في البراعة
جسدٌ فارغٌ وعِلْمٌ غزيرٌ ... لو أضافوا إليه روحَ الشّجاعة
يَرْسُم النّسرُ في السّماء دوائر ... كالشّواهينِ والطيورِ الحرائر[2]
لا تغرَّنَّكَ المظاهر هذي ... فهو يخفي نقيضها في السّرائر
هي تقتاتُ من إوزٍّ وبطٍّ ... وهو يقتات جيفةً وفطيسة
أيُّ معنىً له إذا حرموهُ ... متعة الانقضاض فوق الفريسَة

* * *

---

(١) كاغاني : هو شاعر فارسي من القرن السابع عشر الميلادي .

(٢) النّسر : رمزٌ لمتوسطي الشجاعة عند إقبال فهو لا يصل إلى رتبة الشاهين لأنه يأكل من فرائس غيره ، إلا أنَّ قيمته تتجلّى في أنه مهما كان من الغربان على الجيفة فإنها لن تجد غير الانسحاب إذا لمحت قدوم النسر إلى الساحة ، وستقف ترمقه من بعيد مترقبةً ما إذا سيبقي على شيء لها أم لا .

الشَّاهين[1]

جزتُ في الأرض بلدةً بعد أخرى ... ثمَّ ألقَيْتُ كلَّ شيءٍ ورائي

ذلكَ العالمُ الذي زعموه ... ليس يقتاتُ غير حَبٍّ وماءِ

أنا نَجْلُ الصَّحراء والزُّهدُ ديني ... وهما في سجيَّتي ودمائي

أجْهَلُ الزَّهرَ والنَّسيم وما في ... لوعةِ العندليب عند المساء

ورجالُ البُستان تغري ولكنْ ... ليس تُغْري منشَّأً في العَراء

أين مجدي إذا شقيتُ لجوعٍ ... وأذلَّتْ حمامةٌ كبريائي

بافتراسي أصونُ عزَّة وجهي ... وأروِّي حماستي وإبائي

كلُّ طيرٍ له من الأرض عشٌّ ... وأنا هاهنا حليف مضائي

كيف يبني قلندر الطَّير عشاً ... وهو الفَرْدُ في رحابِ السَّماء

* * *

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
الشاهين : الطَّير المختار عند إقبال لأنه :
١ ـ لا يبني لنفسه عشاً يعني أنه درويش .
٢ ـ يطير إلى الأعالي .
٣ ـ ليس بخيلاً ، ويقنع بالزهيد .
٤ ـ لا يأكل مما يقنصه الآخرون ، يعني أنه يصون كرامته .
وينبغي أن يفهم من البند الرابع أنه رمز للمجتهد الذي يعاف التقليد كما يعاف الشاهين فريسة غيره .

المريدُ الثائر(١)

أنــا فــانــوسـي الــذي أمْلِكُــه شمعــةٌ فــي قصعــةٍ مــن خَـزَفِ

إن أقَمْـــتُ الليــل ذابــتْ وإذا هَبَّــتِ الــرِّيــحُ عليهــا تنطفــي

مــا الَّـــذي يفعَلُـــه سيِّــدنـــا بـالمصــابيــح الَّتـي حـول المزار

ثــمَّ مــا معنـى مـزارٍ وضـريـح وستـــورٍ وعطـــورٍ وجِمَـــار

يــا إلهـي كـمْ لنـا مـن كعبـةٍ كـم لنـا مـن صنـمٍ فـي الحـرمِ

وفقــاعــاتِ قبــابٍ فــوقَهــم جعلتنـــا ضحكـــةً لـــلأمـــم

ليـس مـا يعطـى لهـذي الأوليـاء مــن نــذورٍ بــاسمهـم إلَّا رِبَـا

المــرابـــي دائمــــاً مختبـــئٌ ووليُّ القَــوْم فــي القبــر اختبــا

أتــراهــم سلكــوا كــالأوليــاءْ إنَّمــا هــم أوليــاء بــالــوراثــهْ

مــلأ الغــربــانُ أوكــار النُّســور خلَّـصَ اللهُ مــن القــومِ تــراثــهْ

* * *

آخر وصايا هارون

قــال الــرَّشيــد لابنــه يــوصيــه : هـــا أنـــذا اختُضِـــرْتُ

ستمـــرُّ بعـــدي أنـــت فـــي هـــذا الطَّـــريـــق كمـــا مـــررتُ

أبنـــيَّ إنَّ المـــوتَ نـــورٌ فـــي عيـــونِ المـــؤمنيـــن

---

(١) من المهم أن نشير هنا إلى أن قصيدة إقبال هذه لا تتناقض مع وقفة إقبال على ضريح سنائي ومجدِّد وقوله : سيكون ضريحي كعبة الأحرار ، وأمثال ذلك ، فهو لا يريد هنا أن يقرر عقيدةً ما ، ونستطيع أن نفهم مراد إقبال من قصيدته السابقة (الدَّير) .
وفي مناسبة أخرى يقول إقبال : إنَّ الصوفية حين تفسر تفسيراً خاطئاً وتقدم إلى الجماهير غير المتعلمة من خلال الأشعار المحببة ؛ يمكن أن تكون أكثر خطراً من حشود جنكيزخان .

والنُّـــــور هـــــذا لا تشـــاهِـــدُه عيـــونُ الكـــافـــريـــن

***

إلى عالمِ نفس

دعْ عنكَ فكرَكَ فالإعصار جرَّارُ   وليس تجدي ببحر الذَّات أفكارُ
وأين أنتَ بهذا البحر من جُزُرٍ   صغيرةٍ ما أتاها قطُّ بحَّارُ
إن لم تشقَّ كموسى ثوبَ لُجَّتها   فحظُّك الصَّمْتُ إنْ وافاك إعصارُ

***

أوربة

مقتبسة عن نيتشة

أشباه (شيلوخ)[1] في المِرْصاد واقفةٌ   مَكْرُ الثَّعالب يَفْري قوَّةَ الأسَدِ
لا بدَّ تسقطُ أوربة إذا نَضِجَتْ   في كيس شيلوخها المجهولِ للأبدِ

***

الأسدُ والبغلة

قالَ للبغلةِ يوماً أسدٌ   أنتِ حقاً لكِ سرٌّ من أبوكِ
فأجابته ألا تَعْرِفُني   أنا خالي فَخْرُ إصطبل الملوكِ

***

---

(١) كذا في الأصل ويبدو أنه تحريف (شيلون) وستكون الفكرة أشدَّ إغراءً إذا كنا مصيبين في رأينا . انظر مادة شيلون في قاموس الكتاب المقدس .

فكرة حرّة[1]

ألا تـــرثـــي لعُصفــورٍ عــن الطَّيــران قــد مُنعــا
إذا استخفــى وحــاول أنْ يطيــرَ لــوَحْــدِه وقعــا
يحــاولُ أن يكــون فــؤادُه بيتــاً لجبــريــلِ
وليــس لــه مــن الطَّيــران غيــر القَــال والقيــلِ
هــل العصفــورُ بيــن الشَّــوك كــالعصفــور فــي الجنَّــة
بــربــك هــذه حــريَّــةٌ فــي الفكــر أم جِنَّــه
فقــل لمفكِّــر حــرٍّ أضــلَّ الفكــرُ وجــدانَــه
تعــالــى الله أن يلهــمَ مــا يُبْطِــلُ قــرآنــه
وهــل يهــدم مجــدَ الشَّعْــب غيــر الفِكْــرَة الحــرَّه
وهــذي الفكــرة البلهــاء سيِّــدُهــا (أبــو مــرَّه)

* * *

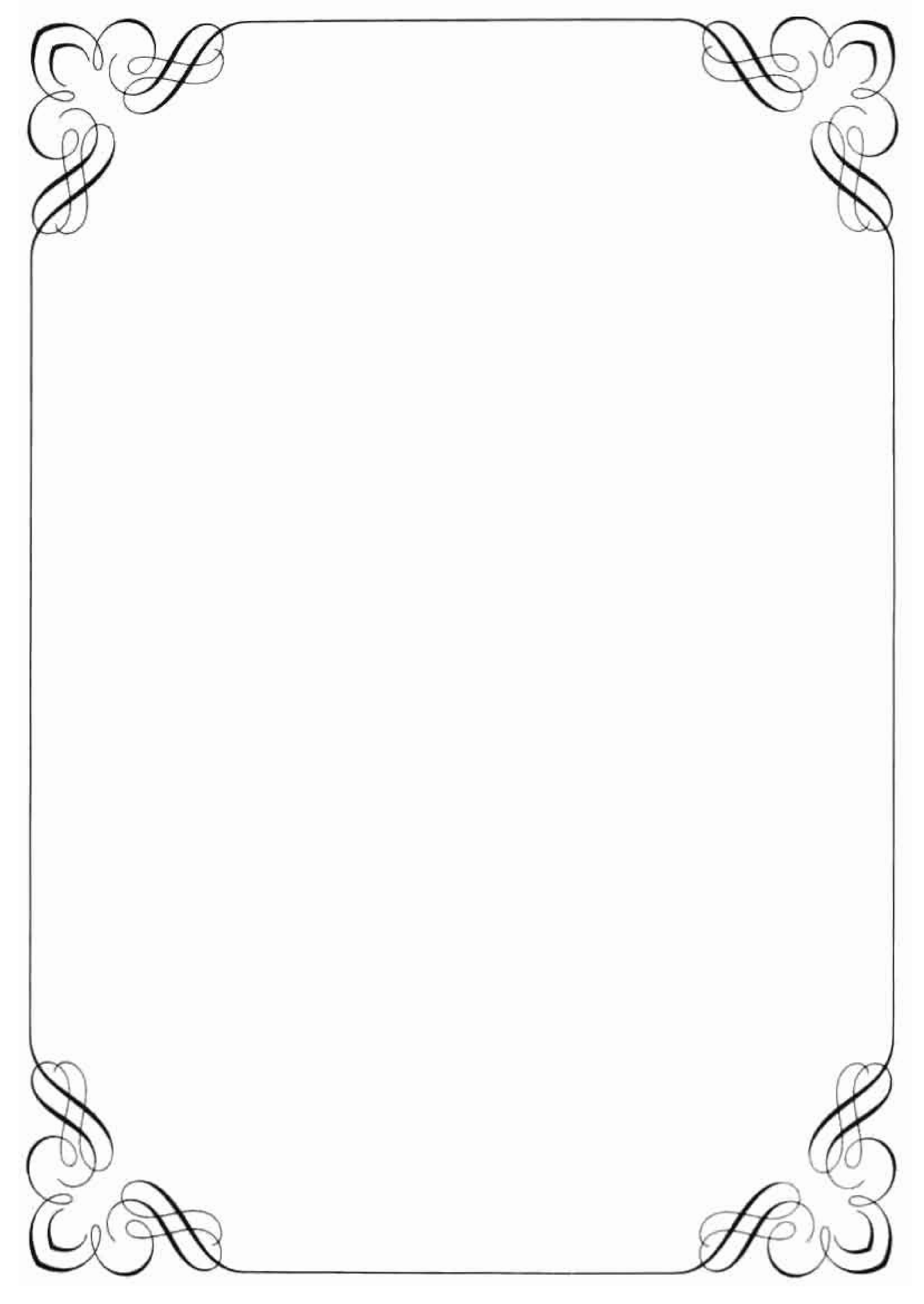
النِّسرُ والنَّملة

قــالــت النَّملــة للنّســر الــذي مــرَّ يــومــاً مــا علــى وادي النَّمــلْ
أنــت تــرعــى فــي بســاتيــن النُّجــوم وأنــا فــي شقــوة العيــش المُــذِلْ
قــال : لكــن أنــا لا أبحــث عــن مــؤنــي مثلــك فــي هــذا التُّــراب
لســتُ ألقــي نظــرةً حتَّــى ولا للسمــواتِ التــي فــوق السَّحــاب

•••

---

(١) في ترجمة الأستاذ الملوحي النثرية :
نرى أن الشاعر لا يقصد الفكرة الحرة على الإطلاق وإنما يقصد (فكرة حرة معينة) هي كما ورد في دائرة معارف لاروس مادة LIBRE (الفكرة الحرة هي رأي المفكرين الأحرار . والمفكر الحرّ : هو الذي يفكّر ويتحدث في حريّة في موضوع الدين) .





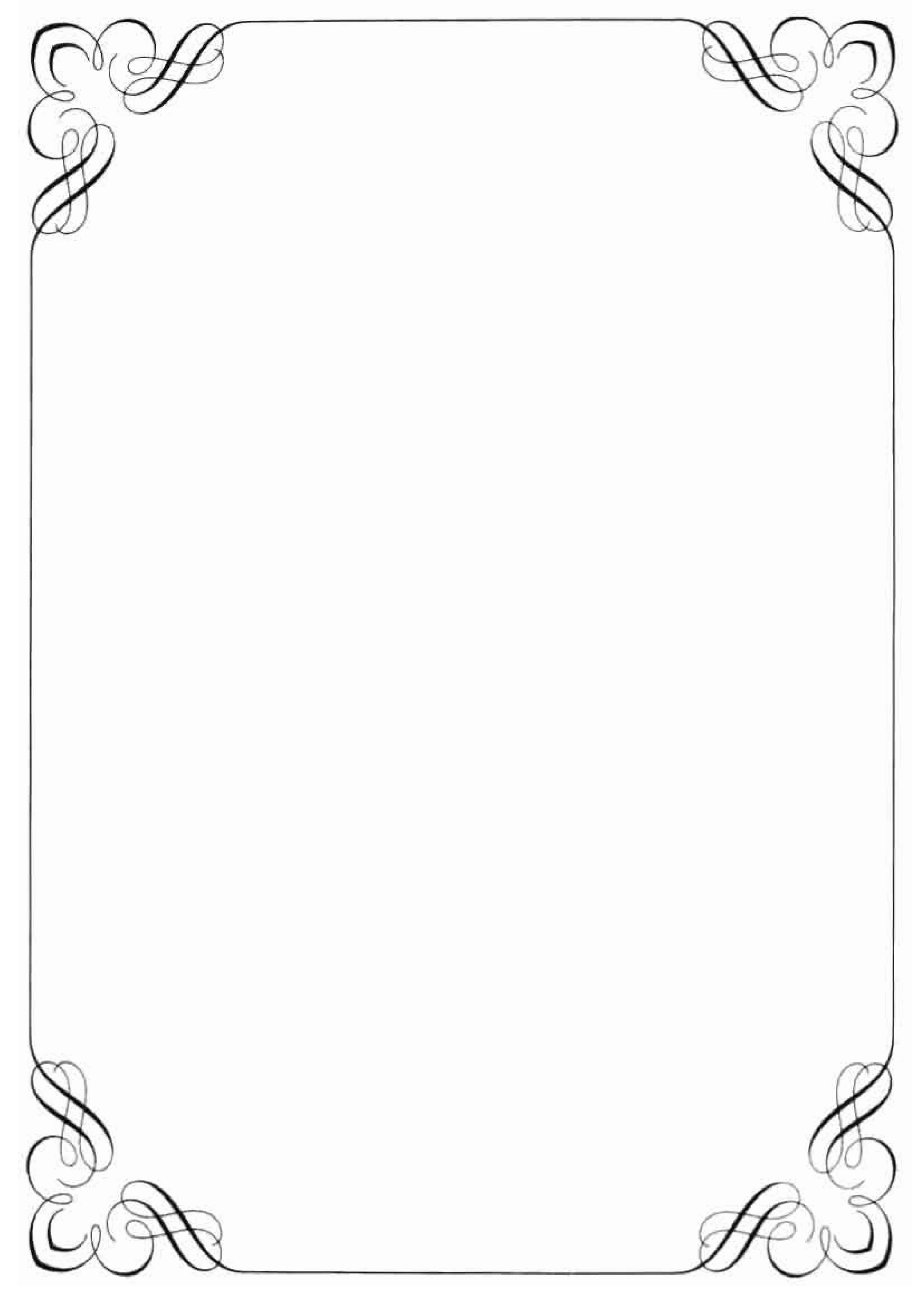
الدّيوانُ السّادِسُ

ضَربُ الكَليم

ضَرب كَليم

نَقَلَهُ إلى العَرَبيّةِ شِعرًا

الدكتور عبد الوهّاب عزّام



هذا الديوان الثالث[1] لمحمد إقبال باللغة الأردوية ، نُشر عام ١٩٣٦م ، ولم ينشر في حياته ديوانٌ بعده ، يشتمل هذا الديوان على آراء ونظرات في الناس جماعات ووحداناً وفي الدين والتربية والفنون والأدب والسياسة ، فهو أدخل في الفكر والفلسفة ، ولكن فيه من العاطفة والخيال ما يدخله في الشعر .

وكل حقيقة في هذا الكون أهل أن تدخل في الشعر ، إن صبغتها عاطفة الإنسان ، أو صورها خياله ، وموضوعات الشعر تتوالى من محيط دائرته إلى مركزها ؛ بعضها عند المحيط يدخل في الشعر قليلاً ، ويجاورُ ما هو خارج الدائرة . وبعضها أدخل في الدائرة ، وهكذا تتوالى إلى مركز الدائرة ، على قدر نصيب الموضوعات من العاطفة والخيال .

فالكلام في هذا الديوان (ضرب الكليم) شعر يقارب الحقائق المجردة أحياناً ، لكنه في جملته أقرب إلى المحيط منه إلى المركز .

والديوان في جملته ضرب يفجر الماء من الحجر لا موسيقا وغناء ، كما قال إقبال :

كفاحٌ شديد ، وضربٌ سديد فلا تبغ في الحرب عزف الوتر

ومن أجل هذا سمَّاه إقبال « ضرب الكليم » ، رمزاً إلى قصة موسى عليه الصلاة والسلام حين ضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

فلعل القارىء يقدِّر حقائقه في معرض من الشعر شفاف أكثر مما يلتمس فيه خيال الشعر وزينته وبهجته .

---

(١) وهو الثالث بالأردوية ، وأما بترتيب الدواوين بالفارسية والأردوية فهو السادس .

الأول : ثورة على « الإسلام غير المنزل من الله » وضعه الأعاجم وخيلوا إلى الناس أنه عين الإسلام ، وفرضوه على الأمة التي بُعثت لتمحو ما لا يلائم الدعوة القرآنية . وكان هذا الكيد للإسلام انتقاماً من الهزيمة التي أصابت الأعاجم بسيوف المسلمين . فقد علموا أن سرَّ القوة والسطوة في هذه الأمة المجاهدة ، سنن القرآن وعقائده التي تبعث الحياة في النفوس . فكادوا لها ليبعدوها عن القرآن ، ويربكوها في حبالة « الإسلام غير القرآني » . وقد أحكموا كيدهم حتى حسب المسلم الغرُّ هذا السراب ماءً . لقد أدخلوا في الإسلام فلسفة اليونان المخدرة ، وخضوع المجوس للسادة ، وشريعة اليهود المعنيّة بالصور والأشكال ، كذلكم عمدوا إلى هذه الأمة التي كانت شعلةً من العمل والإقدام ، فجعلوها بالاستسلام واليأس كومةً من رماد .

والقسم الأول من رسالة إقبال نذير الموت لهذا الإسلام غير المنزل ، وبشير الحياة للإسلام القرآني .

* * *

والقسم الثاني من رسالة إقبال احتجاجٌ دائم على هذه الفتن التي تموج بها الحضارة الغربية ، والتي يذهب موجها بشباب الأمة الإسلامية كما يذهب السيل بالغثاء . وضرب الكليم هو إيذان هذه الحضارة بالحرب .

ما حضارة العصر الحاضر ؟ ولماذا يشتدُّ إقبال في معاداتها ؟

لا نعرف جواب هذا السؤال حتى نعلم ما الحضارة الإسلامية .

إنَّ من يتدبر القرآن يتجلَّى له أن الإسلام نظام حياة يسمى ديناً . فقد بيَّن القرآن للحياة الإنسانية مقاصد، وحدَّ حدوداً، وجعل للإنسان الاختيار والاجتهاد غير متعدٍّ هذه الحدود وهذه المقاصد، والحدود لا تتبدل، فهي حقائق أبدية ، وقيم للحياة خالدة . يتبين من القرآن أنَّ للحياة مظاهر مختلفة متغيِّرة ، ولكن لها ينبوعاً واحداً لا يتغير ، وهذا الينبوع أصل هذه الحقائق التي ذكرت آنفاً .

والإيمان بوحدة ينبوع الحياة ، ينبوع الحقائق الأبدية ، يؤدي حتماً إلى هذه النتائج .

(أ) كلُّ إنسانٍ مودعٌ في فطرته ممكنات الحياة ، وغاية الحياة نموُّ هذه الممكنات وتجلِّيها . وهذه الجواهر الفطرية الخفية إذا نضجت وتلألأت تجلَّت ذات الإنسان . وحفظ هذه الذات وخلودها هما غاية سعي الإنسان وجهده .

(ب) والناس آحادٌ في أخوةٍ شاملةٍ عامَّة ، لا تحدها الأوطان ، والأقوام ، واللغات .

(جـ) ثم فلاح النوع الإنسانيِّ في أن يمضي في الحياة على شريعةٍ واحدة ، يُتلقى بالوحي ، وهو اليوم محفوظ بين دفتي القرآن تحت هذه السماء .

في الإسلام نظامٌ للمعايش محكم ، قائم على هذه القواعد المحكمة . يمضي الإنسان به على سنن التقدُّم والترقي ؛ حتى يبلغ في مراحل الكمال سدرة المنتهى .

وإليك خصائص هذا النظام :

(أ) في هذا النظام يستطيع كلُّ فردٍ في الجماعة أن يمثّل في نفسه الصفات الإلهية التي يسمِّيها القرآن « الأسماء الحسنى » . وهي ينبوع القيم الدائمة في الكائنات .

(ب) وتستحكم نفس الإنسان فيستطيع أن يوازن بين هذه الصفات كلها ، فقد وصفت الأسماء بأنها الحسنى . ولا يكون الحسن بغير اعتدال وتناسب .

(ج) وتتجلَّى في الإنسان بصيرة يصحُّ بها حكمه ، ويستقيم رأيه ، فيعلم أيَّ هذه الصفات الإلهية تقابل أيَّ الحادثات الخارجية التي تنتابه .

(د) ثم يبدو في الجماعة ـ التي تؤلفها أفرادٌ من هذا القبيل ـ قدرةٌ على تسخير عالم الطبيعة ، وصلاحيةٌ للانتفاع بهذا التسخير في فلاح الإنسان وسعادته .

(هـ) وبالإيمان المحكم بوحدة الخالق ، ووحدة الكائنات ، ووحدة الأمة

وائتلافها تتوافق الأضداد الظاهرة بين الإنسان والكائنات ، وبين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان ونفسه ، فيزول التنافر والاضطراب عن الجماعة الإنسانية .

(و) ثم يرى كلُّ واحدٍ في هذه الجماعة نفسه مظهراً للصفة الإلهية « رب العالمين » ، فيقوم على الإنسانية بالحق والعدل غير راجٍ أجراً ، ولا عوضاً . فتيسّر لوحدان الجماعة ضروريات الحياة ، وتنمو فيهم القوى الفطرية ، وتذلَّل لهم الوسائل والأسباب أبداً .

* * *

هذه خلاصة المدنية القرآنية في كلماتٍ قليلة . وعلى عكسها المدنية الحاضرة . فهي تناقض هذه الأصول كلَّ المناقضة .

هذه المدنية قائمة على هذه الفلسفة : إنَّ الحياة تنشأ من اجتماع العناصر ، المادية اتفاقاً ، وتفنى بتفرُّق هذه العناصر . والدنيا هي دنيا هذه العناصر المادية التي يتغيَّر فيها كلُّ شيء ، فليس فيها قيم دائمة ، وليس فيها قانون لمكافأة الأعمال . والخير ما يجلب لواحد أو جماعة نفعاً خاصاً (ولو كان في هذا هلاك آحادٍ ، أو جماعاتٍ أخرى) . والشرُّ ما يضرُّ واحداً أو جماعة . وكل أمل هؤلاء الوحدان والجماعات في الحياة أن تجرَّ إلى أنفسها منفعةً . وعمل العقل والعلم أن يهيِّيء الأسباب والوسائل أو الحيل والمكائد لتحصيل هذه المنفعة .

ونتيجة هذه الفلسفة (مدنية العصر الحاضر) في الأفراد : أنَّ في كلِّ ستةٍ من تلك الأفراد فرداً يختلُّ عقله ، فيرسل إلى مستشفى المجانين ، كذلك دلَّ إحصاء أهل الغرب أنفسهم . ونتيجة هذه الفلسفة في الجماعات : أنَّ أمم العالم في شغلٍ بالقتل ، وسفك الدماء ، والتدمير ، أو بالاستعداد للقتل ، والسفك ، والتدمير .

* * *

أنعم إقبال النظر في فلسفة الحياة ، ونظريات السياسة والعمران عند الأمم الغربية ، فتجلَّت له هذه الحقيقة : إنَّ هذه الفلسفة ، وهذا المنهاج في الحياة يجعلان هذه الدنيا جهنم لا محالة .

وإلى هذا كشف له السنن القرآنية حقائق الحياة حتى رأى البروق الكامنة في السُّحب ، والعواصف المضمرة في الرياح .

هذا النظر حفز إقبالاً إلى أن يحذر الغرب ، فيقول للغربيين سنة ١٩٠٥م : « **ستقتل حضارتكم نفسها بخنجرها . لا يثبت العشُّ على غصنٍ رطيبٍ ضعيفٍ مضطرب** » .

ولم يأل إقبال جهداً ، منذ ذلك الحين إلى آخر لمحات حياته ، في أن يحذِّر الناس عامَّةً والأمم الإسلامية خاصَّةً من هذه الحضارة الشيطانية ، ويخوفهم عواقبها .

***

وهذه طائفة من النذر ، اسمها « ضرب كليم » يكتبها إقبال بعد أن يحطم كلَّ أصنام العصر الحاضر ، ولكنه لا يكتفي بأن يبطل سحر الفرعونية ، والهامانية ، والقارونية[1] ، بل يهدي هذه الأمة في نور القرآن إلى الأودية المباركة من سينا ، وفاران ، حيث تفيض البركة من ينابيع الأرض ، وينزل الخير من السماء .

هذا ما يتعلق بـ « ضرب كليم » . ويجدر بنا الآن أن نبرز نقطة من الأهمية بمكان في دراسة إقبال بوجهٍ عام ، وهي : أنَّ شعر إقبال حافل بكلماتٍ معينة ، عربيةٍ وفارسيةٍ ، لم يقصد إلى مدلولها اللغوي ، إنما استخدمها كاصطلاحات من وضعه هو . إذاً لا يتأتَّى لأحدٍ أن يتبين ما يرمي إليه الشاعر ما لم يكن ملمّاً بحدود تلك المصطلحات الخاصَّة ، مثل « علم وعشق ، ذكر وفكر ، خبر

---

(١) يعني : صفات فرعون ، وهامان ، وقارون .

ونظر ، سوز وساز ، أو درويش وقلندر ومردحُر » وأخرى غيرها . ومع أنَّ كلَّ واحدة من تلك الاصطلاحات لها أهميتها إلا أن من بينها اصطلاحاً هو بمثابة المحور لفكر إقبال ، المحور الذي حوله يدور شعره كله ، ألا وهو « خودي = الذاتية » . لقد كان هذا اللفظ يستعمل عندنا (بالأردوية) من قبل بمعنى الكبرياء والغرور (الأنانية) لكن إقبالًا أفاض عليه معنى خاصاً مغايراً للمعنى القديم الذي لم يلبث أن اختفى في أيامنا هذه أمام مزاحمه الجديد .

فماذا يعني إقبال بـ « خودي » ؟ .

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال تأبى إلا البسط والتفصيل ، لأنَّ فلسفة إقبال هي فلسفة « خودي » سواء بسواء ، بحيث لا يمكن الإحاطة بمغزى هذا الاصطلاح بدون استعراض فلسفته برمَّتها . وليس هذا مقام التفصيل والإطناب ، إلا أنه نظراً إلى تكرار وجود هذا الاصطلاح في « ضرب الكليم » يتحتَّم علينا أن نعرِّفه تعريفاً خاطفاً بكلمةٍ موجزةٍ قدر الإمكان :

هل شخصية الإنسان ووجوده الفردي ، أو بعبارة أخرى « أنا » حقيقة مستقلة ، أم هي من نسج الخيال فقط ؟ هذا هو السؤال الذي قلَّما أغفل مفكرو أية أمة من أمم العالم الإجابةَ عنه . فذهب أفلاطون ومن ورائه حكماء إيران والهند ، إلى أن الكون لا يتمتع إلَّا بالوجود الكلِّي ، وأنَّ ذات الإنسان (شخصيته أو « أنا ») وَهْم وخدْعة لا غير . ثم إنَّ هذه الخدعة إنما تستمد القوة من العمل الذي هو بدوره ينشأ من الرغبة . فالطريق إلى التخلص من هذه الخدعة هو أن يتدرَّج الإنسان من ترك الرغبة إلى ترك العمل ، لكي يتلاشى حباب ذات الإنسان في بحر الوجود الكلِّي . وفناء الذات هذا هو النجاة والغاية من الحياة . فهذه هي فلسفة الحياة التي ظهرت وانتشرت بيننا باسم نظرية وحدة الوجود والتي حوّلت المسلمين من أمةٍ دائبةٍ في العمل إلى جمادٍ لا حراك به .

وقد عُني إقبال بتفنيد فلسفة الحياة هذه ، ومعارضتها بضدها أعني فلسفة « خودي » ، وتتلخص هذه الفلسفة الأخيرة في أن الوجود ليس كلياً يشمل

الكون من حيث المجموع ، بل هو فردي يخصُّ جميع الموجودات كُلّاً على حدة ، حتى أنَّ الله أيضاً فرد ، وإن كان متميزاً عن سائر الكون في طبيعة وجوده الفردي الخاص . فـ « خودي » عبارة عن أسمى صورةٍ للحياة الفردية التي بها تتشكّل شخصية الإنسان ، ووجوده المستقل . وعلى هذا فالغاية من الحياة الإنسانية هي إثبات « خودي » لا سلب الذات . ويعتقد إقبال : أنَّ الإنسان كلما تشبه بذلك الفرد الكامل العزيز الوجود (الذي يطلق عليه « أنا » المطلق أو الله) أصبح هو نفسه منفرداً عزيز الوجود ، وذلك بما يسمى بتقوية « خودي » وإحكامها . و« التشبه بالله » إنما يعني استمرار الإنسان في التحلّي بصفات الله إلى أن يتم بذلك جذب « أنا المطلق » في نفسه (نفس الإنسان) . والمحك الذي يكشف عن قوة « خودي » وضعفها هو مدى تغلب الإنسان على الموانع التي تعترض سبيله في الحياة ، ولا يخفى أنَّ أعظم تلك الموانع هي المادة ، ولكن لا يفهم من هذا أنَّ المادة شرٌّ يستوجب الابتعاد والنفور منه ، فإنها ليست شراً ، إنما هي وسيلة لإيقاظ الهمم ، وإبراز قوى الإنسان من مكامنها .

واحتناك الموانع والعوائق ، وتغلب الإنسان عليها يصل بـ « خودي » إلى أن تستطيع الصمود حتى لصدمة الموت ـ الأمر الذي ييسر لها الحصول على الحياة الخالدة . فكلُّ عملٍ يؤدي إلى تقوية « خودي » خير ، كما أنَّ كلَّ عمل يؤدي إلى إضعافها شر .

ويبين إقبال المراحل المختلفة لارتقاء « خودي » فيقول : إنَّ المرحلة الأولى هي (خلق المقاصد) أو (توليد الرغبات) ، فإنَّ الرغبات والأماني هي عين الحياة وأصل القوة من حيث إنَّها تحرك وتدفع إلى العمل . والمرحلة الثانية لخلق المقاصد هي مرحلة الجهاد المتواصل لتحقيق تلك المقاصد ، والحماس للحصول على المقاصد والسبق إلى الغايات هو ما يسمَّى بـ « العشق » في عرف إقبال . ثم إنَّ هناك ثلاثة شروط للنجاح في هذا الجهد : أولها الطاعة ، أعني : الانقياد التام لأوامر الله ، وذلك يستلزم إنشاء مجتمعٍ على النظام الذي جاء به

القرآن . وينتج من الطاعة ضبطُ النفس ؛ الذي هو الشرط الثاني للنجاح . وليس المراد بضبط النفس القضاء أو الضغط على الشهوات ، بل مجرد « كظمها » أي : تغيير مجراها ، وتحويل وجهتها ، بحيث يتمُّ التوازن بينها ، ذلك التوازن الذي يتجلّى بأكمل وجهٍ في الذات الإلهية الجامعة لصفاتٍ متضادةٍ متعادلةٍ للغاية .

وإذا تمَّ تطهير الفكر والعمل ، وتهذيب النفس على النحو الذي تقدَّم ، وصل الإنسان إلى المقام الذي يسمِّيه إقبال « نيابة الله » . وذلك هو الشرط الثالث . وإنما يعني إقبال بـ « نيابة الله » القوة التنفيذية التي تتولى إجراء حدود الله (أحكام القرآن) في العالم . (ولا تعني نيابة الله الحلول محلَّ الله ؛ لأن ذلك يستلزم خلوَّ المحل ، وانعدام شاغله أولًا) .

هذا المقام هو « مقام المؤمن » والمقام الذي يؤكد إقبال أنه يمثل آخر مدى قوة « خودي » واستحكامه . إذا انتهى الإنسان إلى هذا المقام غلب هو على الدنيا ، ولم تغلب الدنيا عليه ـ الحال التي تسمَّى في عرف إقبال « الفقر (حال الدرويش أو القلندر) » وهي عبارة عن تسخير جميع الكون ، ثم الاستغناء عنه بحيث يكون الإنسان مظهراً لتلك الصفة من صفات الله التي ذكرها بقوله « الصمد » و« غني عن العالمين » . والجماعة التي تنتظم أفراداً هذه حالهم هي الأمة المسلمة . وأقصى ما تهدف إليه رسالة إقبال هو البعث الجديد لهذه الأمة التي قيل عنها :

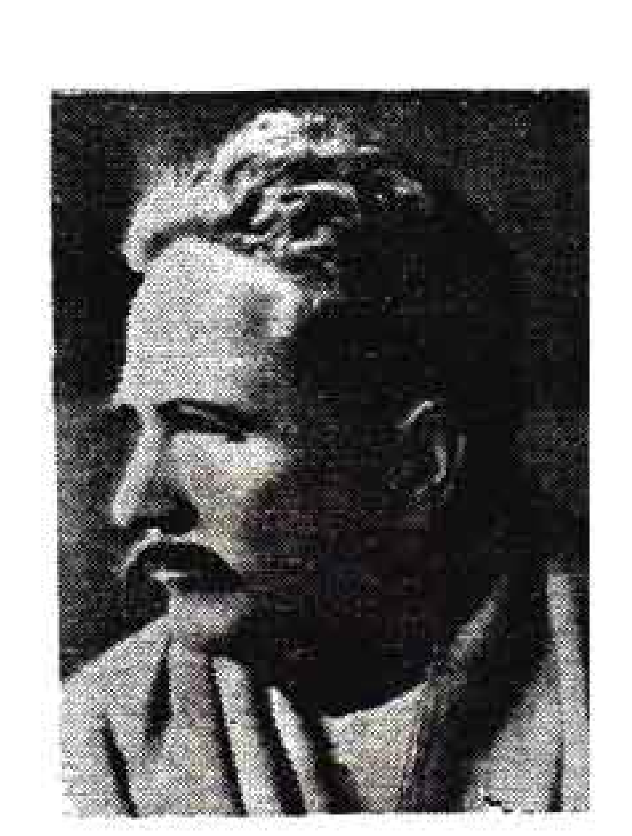
ميــان امتــان والامقــام اســت	كه آن امت دوكيتي را امام است
نيــاســا يــد زكــار آفـريـنـش	كه خواب وخستكي بروي حرام است

(إنها تعلو فوق الأمم ؛ لأنَّها أمةٌ نيطت بها الإمامة في الدنيا والآخرة فهي لا تني عن مواصلة أمور الخلق ؛ لأنَّ النوم والتعب محرمان عليها) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] وقيل عنها أيضاً :

« بـاغـان عنـدليبـي خـوش صفيـري   بـراغـان جـره بـازي زودكبـري
أميـــر أو بسلطـــانـــي فقيـــري   فقيـــر أو بـــه درويـــش أمبـــري

(إنها في البساتين عندليبٌ حسن التغريد ، وفي الصحارى باز خفيف سريع الانقضاض ، الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطاناً ، كما أنَّ الفقير فيها أمير على الرغم من كونه درويشاً)[1] .

﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .



---

(١) قام بترجمة هذه الكلمات من الأردوية الأستاذ الدكتور محمد يوسف (المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة) .

فطْرةُ الحُرِّ لا تُطيق مُقاماً   فائلف السيرَ دائباً كالنسيم

ألفُ عَينٍ تشقُّ صخرَك فاضربْ   بَعْدَ غَوْصٍ في (الذّات) ضربَ الكليم



إلى القارئين

إذا لـم تُصب في الحيـاة النظـرْ فليس زجاجُك كُفءَ الحجر[1]
كِفـاحٌ شـديدٌ ، وضـربٌ سـديـد فلا ترجُ في الحرب عَزفَ الوتر
مَعيـنُ الحيـاة دمـاءُ القلـوب ولحنُ الـدِّمـا لا المياهِ الفِطَر[2]

* * *



(١) أنت بالنظر الصائب صلبٌ تطيق الصدام في الحياة ، وإن لم يصب نظرك كنت كالزجاج لا تقوى على الصدام .

(٢) لحن المياه يستخرج من أوان تصف ، ويوضع فيها الماء مقادير مختلفة على نسب محددة ، ويضرب عليها . وهذه تسمى « جل ترنك » أي : لحن الماء . فقال الشاعر : إنَّ الفطرة لحن دمٍ ، لا لحن ماء . يعني : أنَّ أنغامها تنبعث من دماء الناس ، لا من المياه .

تمهيد

(١)

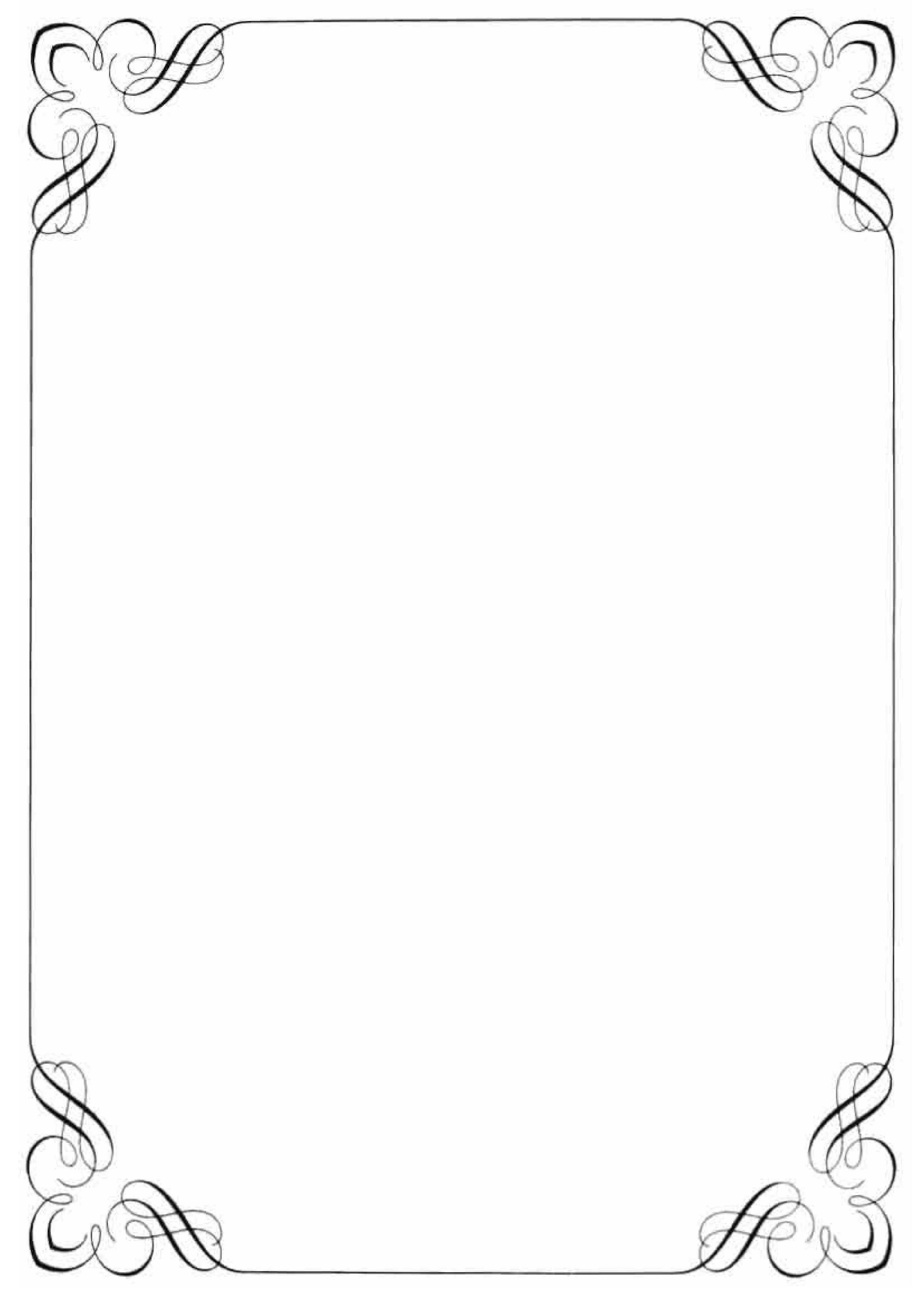
يَقْظَة «الذات» لا أراها بدَيْرٍ ... لا ولا تُجتلَى لدى المِحرابِ
إنَّ روحَ الشُّعوب في الشرق غافٍ ... من سموم الترياق، رهنُ غياب[١]
إنْ تَضِق بالجهاد في الأرض ذَرعاً ... فحرامٌ مسراكَ فوقَ السَّحاب[٢]
ليس من خيفة الممات نجاةٌ ... إن تَرَ (الذات) هيكلاً من تراب[٣]
ليس يُخفي صروفَه الدهرُ لكنْ ... لك قلبٌ وناظرٌ في حجاب
قد مُنِحتُ الهشيمَ في آسيا إذ ... أنَّ ناري حديدةٌ في التهاب[٤]

(٢)

ذَنبُ إقبالِ البيانُ وإن كان ... شبيهَ الزَّمان نزرَ الوصال[٥]
هاج أنغامُه عكوفاً على الخشخاش مَوْتَى، إلى طلابِ المعالي
فمهيضُ الجناحِ ألفُ دارٍ ... قد رَنا اليوم للفضاء العالي[٦]
فعداهُ التغريدُ في الأسحار ... وحنينٌ ومُتعةُ الأبصار[٧]

---

(١) الترياق: الأفيون.
(٢) يقول: إن لم يستطع الإنسان المجاهدة على هذه الأرض، فاشتغاله بالفلك، وما وراءه حرام.
(٣) يرى إقبال أنَّ الحياة الخالدة بقوة الذات. فمن حسب ذاته تراباً كالجسم لم يخلص من خشية الموت.
(٤) ناري شديدة الالتهاب، فأنا قادرٌ على إحراق هشيم آسيا؛ أي أممها التي هي كالهشيم؛ أي إزالة مفاسدها وإعدادها للحياة.
(٥) إقبال قليل المخالطة للناس، ولكن بيانه سائر فيهم.
(٦) إقبال دعا إلى طلاب المعالي العاكفين على الأفيون حتى طمحت الطير الداجنة كسيرة الجناح إلى عنان السماء لتطير.
(٧) دعاء على إقبال بأن يحرم مما يحب من التغريد.. إلخ جزاء إيقاظه الغافلين.





القسم الأول

الإسلام والمُسلمون







بسم الله الرحمن الرحيم

الصبح

إنَّـا لنجهـلُ مطلـعَ الصُّبح الـذي يُدعى بيومٍ أو غدٍ في الأزمُنِ
لكنَّمـا الصبـحُ الـذي ارتجَّـت لـه ظُلَـمُ العوالـم ، مـن أذانِ المؤمـنِ

***

لا إله إلا الله[1]

مُنتسـرٌ فـي الـذات معنـىً بعيـدٌ سـرُّه لا إلٰـــه إلا اللهُ
سيـفُ الـذاتِ قـاطـعٌ غيـرُ نـابٍ شَحـذُهُ لا إلٰـــهَ إلا الله
عصـرنـا يبتغـي خليـلاً حَطـومـاً وُثْنَـه . لا إلٰـــه إلا الله[2]
إنَّ دنيـاك مَـوثـن لا تصـدِّق زوره . لا إلٰـــه إلا الله
فـي متـاع الغـرور تسعـى وتبغـي ربحـه ! لا إلٰـــه إلا الله
يـا أسيـر الخسـار والـربـح يَنسـى نفسـه ! لا إلٰـــه إلا الله
مـالُ دنيـاك والبنـون خـداعٌ كلُّـه . لا إلٰـــه إلا الله
هـي أصنـامُ واهـمٍ قـد بـراهـا وهمُه . لا إلٰـــه إلا الله
حبـسَ العقـلَ فـي مكـانٍ ووقـتٍ كفـرُه . لا إلٰـــه إلا الله
لا زمـانٌ ولا مـانٌ فحطّـم غلَّـه . لا إلٰـــه إلا الله

***

---

(١) بنى الشاعر هذه الأبيات على كلمة التوحيد بلفظها العربي فجهدت في الملاءمة بينها وبين الوزن وجعلتها ردفاً وبنيت الروي قبلها على الهاء غير ملتزم حرفاً آخر .
(٢) الوُثْنُ : جمع وثن ، والموثن : مكان الأوثان .

الاستسلام للقدر[1]

من القرآن قد تركوا المساعي ... وبالقرآن قد ملكوا الثُّريَّا
إلى (التقدير) ردُّوا كلَّ سَعْيٍ ... وكان زَماعُهم قَدراً خفيَّا
تبدَّلت الضمائر في إسارٍ ... فما كرهوه صارَ لهم رَضِيَّا

* * *

المعراج[2]

وذَرَّةٍ طار فيها الشَّوقُ صاعدةً ... تُغيرُ في عَرَصات الشَّمسِ والقمرِ
يا رِفْقةَ المَرجِ ! تلقى الصقرَ مُقدمةً ... دُرّاجةٌ تملأ الأنفاسَ من شَرَر
المسلمُ السَّهم ، والأفلاكُ غايتُه ... سرائرُ الرُّوح في المعراج فاذَّكر[3]
جهلتَ ﴿ والنجم ﴾ أسراراً فلا عجبٌ ... ما زال مَدُّك محتاجاً إلى القمر[4]

* * *

---

(١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ المسلمين احتجوا بالقرآن في القصور عن السعي ، ومن هذا القرآن نفسه ملك المسلمون الآفاق . وقد ركنوا اليوم إلى القدر وكان عزمهم من قبل قدراً . والحقُّ أنَّ العبودية بدلت النفوس ، فرأوا حسناً ما كان عندهم قبيحاً .

(٢) الذرة التي يملؤها الشوق تعلو على الشمس والقمر ، والدُّرَّاجة إذا ملأ صدرها الحماس قاتلت الصقر ، فإنما القوة الحق قوة الروح ، لا شيء يستعصي عليها .

(٣) يريد أن في المعراج سرَّ الروح . وهو رمز إلى أنَّ المسلم سهمٌ هدفه الفلك .

(٤) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم ، التي يذكر فيها الوحي ، وتقريب الرسول إلى ربه . وليس جهلك عجيباً ، فإن نفسك لم تكمل ، ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه ، كما يحتاج البحر إلى القمر في مدِّه .

إلى سيدٍ مصابٍ بالفلسفة

لـو لـم تُـؤَلّ « ذاتَـك » النّسيـانـا — لمْ تَحمِلَنْ زُنَّار (بَرْجَسَانا)[1]
أصـداف (هيكـلٍ) مـن الخـوالـي — طِلَّسَمـةُ جميعـه خيـالـي
فكيـف صـاحِ تُحكَـمُ الحيـاةُ — وكيف تجتازُ الزمانَ (الذاتُ) ؟
وطَلَـبُ الإنسـان للثبـات — وقصـدُه دستـور ذي الحيـاة؟
يُحـوِّل الـدُّجى إلـى الإشـراق — أذانُ مـؤمـنٍ نِـدا الآفـاق
وأنّـي فـي الأصـل سُـوَمنـاتـي — إلـى مَنـاةَ سَلَفـي والـلاتِ[2]
وأنـت مـن أولاد هـاشمـيٍّ — وطينتـي مـن نسْـلِ بَـرْهَمـيِّ
فـي عَصَبـي فلسفـةُ الأشيـاء — قـد مُـزِجَـتْ بطينتـي ومـائـي
أحـاط إقبـالٌ بهـا تفصيـلا — وإن يكـن عـرفـانُـه قليـلا
عـاقبـةُ العقـلِ إلـى شَتـاتِ — فلسفـةٌ بُعْـدٌ مـن الحيـاة
ونَغْمـةُ الأفكـار دونَ صَـوت — للـذَّة الأعمـال حـادي المـوت
الـدِّيـنُ فـي حيـاتنـا تقـويـم — الـدِّيـن أحمـدٌ وإبـراهيـمُ
(قلبَك فـاربط بالهُدَى المحمديِّ — « أبـا علـيٍّ » اتـركَـنْ يـابـن علـيّ
إنْ تـكُ بـالطـريـق غيـرَ داري — فـالقـرشـيُّ اتبَعـه لا البخـاري)[3]

***

---

(١) برجسون : فيلسوف فرنسوي ، ويلفظ اسمه في الهند بركسان ، وهيكل : فيلسوف ألماني .

(٢) سومنات : معبد كبير في الهند هدمه السلطان محمود الغزنوي حينما فتح الهند ، ويشيده الهنادك اليوم . واللات ، ومناة من أصنام العرب .

(٣) هذان البيتان من شعر الخاقاني في « تحفة العراقين » وأبو علي والبخاري في البيتين : ابن سينا .

الأرض والسماء

صاح عَلَّ الذي رأيتَ ربيعاً ... هو في أعيُن خريفُ الزَّمان
سالكَ النَّهج ! كلَّ حينٍ شُؤونٌ ... لا تفكّر في الربح والخسران
رُبَّ ما خِلتَه بدنياك أوْجاً ... هو أرض لعالَمٍ غاب ثانِ

* * *

اضمحلال المسلمين

إنَّ كان ذا الذهبَ الذي ... يَقْضي الحوائجَ في الدُّنى
فالفقرُ صاحِ مُيَسِّرٌ ... ما لا يُيَسِّرُه الغِنَى
شُبّانُ قومي لو تحلَّوْا ... بالشَّجاعة دِيدَنا
لم تُلْفَ صَعْلكتي أقلَّ ... من الملوك تَصَوُّنا
الأمر ليس كما زعمتَ ... وقد وصفتَ المؤمنا
فزعمتَ أنَّ طماحه ... من قِلَّة المال انثنى
إنْ كان في الدُّنيا بدا ... لي جوهرٌ فيه سَنا
فَمِنَ التَّصَعْلُكِ قد بدا! ... لا بالخزائنِ والقُنَى

* * *

العلم والعشق

قال لي العلمُ غُروراً : ... إنَّما العِشْقُ جنونْ
قال لي العِشْقُ مجيباً : ... إنَّما العلمُ ظَنينْ
لا تكنْ سوسَ كتابٍ ... يا أسيراً للظنون
فمن العِشْق شُهودٌ ... ومن العِلْم حجابْ
مِنْ لهيب العِشْقِ ثارتْ ... ثورةٌ في الكائناتْ

وشهودُ (الذّاتِ) للعِشق ، وللعلم الصِّفات

ومِنَ العِشق ثباتٌ   وحياةٌ ومماتٌ

عِلْمنا سُؤلٌ جليٌّ   عِشقُنا خافي الجوابْ

معجزاتُ العِشق مُلكٌ   زانَه فقرٌ ودِين

وعبيدُ العِشق أدنا   هم له عرشٌ مكين

ومن العشق زمانٌ   ومكانٌ ومكين[1]

إنَّما العشق يقينٌ   وبه يفتحُ بابْ

أُلْفَةُ المنزل في شرعٍ من الحُبِّ حرام

خطَرُ البحر حلالٌ   راحةُ السِّرْبِ حرامُ

خفقةُ البرق حلالٌ   وَفْرة الحَبِّ حرام[2]

علمنا نَسْلُ كتابٍ   عِشْقُنا أمُّ الكتابْ

***

اجتهاد

حكمةُ الدِّين كما قد زعموا   عُلِّمَتْ في الهند من أيِّ طريقِ ؟

ما بها لذةُ سعيٍ دائبٍ   لا ولا فيها من الفكر العميقِ

أين منهم جُرأةُ العقل لدى   مَخفلٍ يهفو إلى الفكر مَشوق

آه للتقليد والأسر بما   ألِفوه وزوالِ التحقيق

---

(١) يستعمل كثيراً في الآداب الإسلامية غير العربية كلمة مكين مع مكان . ويراد بها من يحل في المكان .

(٢) الحب لا يرضى القرار ففي شرعه ألفة المنزل حرام ، وحلال ركوب الخطر في البحر ، وحرام الدعة على البر . وخفقة البرق التي تحرق البيدر حلال ، ووفرة الحب ؛ أي : الجمع والادخار وحب السلامة حرام . وذكر البرق والبيدر شائع في الشعر الفارسي والأردي .

بـــدَّلـــوا القـــرآنَ لا أنفُسَهـــم   كـم فقيـهٍ مُبعَـدٍ مـن تـوفيـقِ[1]
وكفـــى القـــرآنَ نقصـــاً أنَّـــه   ما هدى المؤمنَ منهاجَ الرقيق[2]

* * *

شكر وشكوى

لـك الحمـد إنِّيَ عبدٌ جهولٌ   ولكـنْ وُصِلْـتُ بسـرِّ الغيـوبْ
مَنَحْـتُ القلـوبَ هُيامـاً جـديـداً   أثـرتُ البعيـدَ بـه والقـريـب
ومن حرِّ شَذْوِي يُرى في الخريف   طَـروبـاً بصحبتـي العنـدليـب
ولكـــن خُلِقْـــتُ بـــأرضٍ بهـــا   نفـــوسُ العبيـــد بـــرِقٍّ تطيـــب

* * *

الذكر والفكر

ذانِ للســـالـــك الطَّمـــوح مقـــام   نَـزَلَـتْ فيـه « عَلَّـمَ الأسْمَـاءَ »[3]
ومقـام التفكيـر قـولُ ابـنِ سينـا   ومقـامُ العطَّـار بـالـذِّكـر ضَـاء[4]
ولـــذكـــرٍ « سبحـــانَ ربّـــيَ » والفكـــرُ يقيـــسُ الـــزمـــانَ والأرجـــاء[5]

* * *

---

(١) كرر إقبال هذا المعنى في شعره ، يقول : إن النفوس قد ضعفت ، فأولت القرآن تأويلاً يلائم ضعفها إشفاقاً من تكاليفه .

(٢) يعني أنَّ الذين بدلوا القرآن المذكورين في البيت السابق لم يجدوا في القرآن طريقاً إلى العبودية التي سكنوا إليها ، فحسبوا القرآن ناقصاً .

(٣) الآية : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

(٤) في الأصل : العطار والرومي ؛ أي : فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وهما من كبار شعراء الصوفية .

(٥) الذكر يتصل بالحقيقة الإلهية ، والفكر في شغلٍ بقياس الزمان والمكان .

شيخ الحرم

يَخفَى عليكَ مقامُ آدمَ في الورى فالنفسُ ما نالَ الإلٰه وصَالُها[1]
ما في أذانك من صباحي دعوةٌ أو في الصلاة جمالُها وجلالُها

* * *

القدر[2]

ربما يبلغُ اللئيمُ مُناه وينالُ الكريمَ ضيمُ الزمانِ
علَّ في منطقِ القضاء خفاءً ويُرَى دون منطقٍ في العيانِ
عَلِمَ النَّاسُ ذي الحقيقةَ طُرّاً وجلاها التاريخُ كلَّ أوانِ
نحو مسعى الأقوام يرنو القضاءُ نظرةٌ كالحُسام فيها مَضاءُ

* * *

التوحيد

قوَّةً كان في الحياةِ على الأرض فصارَ التَّوحيدُ علمَ الكلام
رَدَّهُ في الفعال غيرَ مضيء جهلُنا اليوم ما لنا من مقام
قائدَ الجيش ! قد رأيتُ غُموداً مِن «هُو اللهُ» ما بها من حُسام[3]

---

(١) يخفى عليك مقام الإنسان ، ولهذا أخلدت إلى الأرض فلم تصل إلى الله .

(٢) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ القضاء يبدو غير تابع للمنطق ، ولعل له منطقاً خفياً ، وعلى كل حال نرى حقيقةً لا جدال فيها ، هي أنَّ عين القضاء تنظر إلى مساعي الأمم ، فتقضي فيها على قدر مساعيها .

(٣) رأيت غموداً ليس فيها حسام من التوحيد ، وفي الأصل : من « قل هو الله » أي قل هو الله أحد .

مـا درى الشيـخُ أنَّ تـوحيـدَ فكـرٍ دون فِعـلٍ ، يُعـدُّ لَغْـوَ كـلام[1]
يـا إمـامـاً لـركعـةٍ كيـف تـدري فـي الـوَرَى مـا إمـامـةُ الأقـوام ؟

***

العلمُ والدِّين[2]

العلـم يخلـق إبـراهيـم مـوثَنَـه إذا تـراه نـديـمَ القلـبِ والنَّظـرِ
هذي الحياةُ وهذا الكونُ ، ما بُدِلا ما مُحدَثٌ وقديمٌ قولُ ذي بصَر
ما يُحسنُ المرجُ تربيبَ الزُّهور إذا لم تَشْرِكِ النَّسماتُ الطَّلَّ في الزَّهَر
العلم إن لم يُضِف نَجْوى الكليم إلى رأيِ الحكيـم فما للعلـم من قَـدَر

***

المسلمُ الهندي

قـال البَـرَهْمَـنُ : خـائـنٌ أوطـانـه والإنكليـزُ تقـول : هـذا مجتـدي
ونُبـوَّةُ البَنجـاب قـالـت : كـافـر مستمسـكٌ بقـديمـه لا يهتـدي[3]
أيَّـانَ صـوتُ الحَـقِّ يعلـو هـاهنـا ؟ ويلٌ لقلبي في الصِّراع المُجْهد[4]

***

---

(١) لا يفيد توحيد الأفكار دون توحيد الأفعال ، فإنَّ ثمرة وحدة الفكر وحدة العمل .
(٢) العلم وحده عاجز مُضل حتى يتَّصل به القلب ويصاحبه الإيمان ، ويهديه العشق . فإن كان كذلك خلق هو إبراهيمه ليحطم أوثانه التي يصنعها . هذا شأن الحياة ، لا قديم فيها ولا حديث ، والعلم والبصيرة أو العقل والقلب كالطلِّ والنسيم لا بدَّ من اشتراكهما في تربية الزهر .
(٣) نبوة البنجاب يقصد بها من ادعى النبوة (هو مرزا غلام أحمد القادياني) .
(٤) هذا الشطر مضمن في الشعر ، وقد جاء في الأصل بلفظٍ فارسي .

على ذكر الإذن بحمل السيف[1]

أيها المسلمُ تَدْري اليومَ ما ... قيمةُ الفولاذ والعَضْب الذكَر
هو مصراعٌ من البيت الذي ... مضمرٌ فيه من التَّوحيدِ سِرّ
وأرى مصراعه الثانيَ في ... سيفِ فَقْرٍ تحتويه كفُّ حُرّ
أنتَ يا مسلمُ - إن تظفر به - ... خالدٌ أو حيدرٌ يوم المَكرّ[2]

* * *

الجهاد[3]

الشيخُ أفتَى أنّه عصرُ القلم ... ما السيفُ فيه حاكمٌ بين الأمَمْ
أما دَرى الشيخُ بأنَّ وعظَه ... في مسجدٍ قد صار من لَغْوِ الكلِم ؟
فما ترى السِّلاحَ كفُّ مسلمٍ ... بل قلبُه من لذَّةِ الموت حُرِم
مَنْ قلبُه يهابُ مَوْتَ كافرٍ ... فكيف ميتةَ الشَّهيدِ يَغْتنم[4] ؟
فعلِّمَنْ ترك الجهادِ طاغياً ... مِنْ كَفِّهِ يسيلُ في العالم دَم
أما ترى الغربَ بدا مُدَجَّجاً ... ليحفظَ الباطلَ في عِزٍّ عَمَمْ ؟
يا مُفتياً على الكنيسِ مُشْفقاً ... قد حارَ في أحكامِه أولو الفَهَم
الحربُ في المشرق شرٌّ داهِمٌ ... والحربُ في المغرب شرٌّ لا جَرَم

---

(١) أذن الإنكليز للناس بحمل السيوف بعد أن حَرَّم حمل السلاح كله ، فنظم إقبال هذه الأبيات .

(٢) يريد خالد بن الوليد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

(٣) قامت طائفة في الهند تنكر الجهاد ، تقول : إن هذا عصر الدعوة بالقلم لا القتال بالسيف ، وتدعو المسلمين إلى السلم ، فيأخذ عليهم إقبال أنهم يدعون المسلمين ولا سلاح في أيديهم ويتركون الأمم المدججة في السلاح التي تشن الحرب بين الحين والحين .

(٤) يريد بموت كافر : الموت في غير جهاد .

إن يَبْتغ الحقَّ فكيف حاسب المسـ ـلم لا الفِرِنْجَ ذلك الحَكَم ؟

***

القوة والدين

كم أصاب الإنسانَ في هذه الأر ضِ مِنَ إسْكَنْدَرٍ ومن جَنكيزِ
ويقول التاريخُ في كلِّ عصر : خَطَرٌ فَرْطُ قُوَّةٍ لعزيز
هي سيلٌ غُثَاؤه الفَنُّ والعِلمُ وما أَثَّلَ الورى من كنوز
وهي سُمٌّ بغير دينٍ . وبالدِّين دَواءٌ لكلِّ سُمٍّ نَجيز

***

الفقر (١)

الفقر يمضي بلا سلاحٍ في حَوْمةِ الحَرب كالرُّجوم

---

(١) يشيد محمد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ، ويعدُّه مفتاح كل خير والوسيلة إلى كلِّ سؤدد ، والمقتحم كل عقبة ، ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان .

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيها المسلم تدري اليوم ما قيمة الفولاذ والعضبِ الذَّكر
هو مِصراع من البيت الذي مضمرٌ فيه من التَّوحيد سرّ
وأرى مصرَاعه الثاني في سيف فقر تحتويه كفُّ حرّ

وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاحٍ في حومة الحرب كالرُّجوم

وقوله في قطعة « السُّلطان » :

تعلَّم فألف مقام وشان لفقر بدا فيه روحُ القران

وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمرُّ عليك من فقر مِسَنّاً فيطبع منك سيفاً للمنايا =

وكــلُّ ضـربٍ لــه سـديـدٌ إنْ ثــار مـن قلبـه السَّليـمِ
حَمـاسُـهُ قَـصَّ كـلَّ عصـرٍ قِصَّـةَ فـرعـونَ والكليـمِ
يـا غَيـرةَ الفقـر أنجـدينـا واهـدي إلـى نَهجِـك القـويـمِ
عبـادةُ الغـرب جمـعُ مـال تَنْخَـرُ فـي رُوحـه السقيـمِ

= وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملـك مقـام فقـر ، ولكـن تـؤثـر الـذلّ مـذعنـاً مـا احتيـالـي

وقوله في القطعة التي أولها « متاعك في الحياة فنون علم » :

ومـا إن ذلَّ قـوم قـد أعـدُّوا حمـاس العِشق والفقـرِ الغيـورُ

ويتبين للقارىء من التأمّل في هذه الأبيات أنَّ الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتزُّ به من متاع الدنيا . فما يعني إقبال حين يذكر الفقر ويُشيد به ويُبالغ في إكباره ؟ الذي يُدركه القارىء من كلام الشاعر : أن الفقر الّذي يعنيه الشاعر هو خلاص النفس من قيد التملُّك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربّما يكون ملكاً مسلَّطاً لا يُعمر سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عمّا فسَّر به بعض الصُّوفية الفقر .

في « رسالة القشيري » :

سُئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صَدَقَ في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل : صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب « عوارف المعارف » للسهروردي :

وقال الكتاني : « إذا صحَّ الافتقار إلى الله تعالى صحَّ الغنى بالله تعالى ، لأنهما حالان لا يتمّ أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أنَّ الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فَاتَ ، أعني أن لا تكون الدُّنيا في قلبه وإن كانت في يده .

العشـــقُ والسُّكــر مــا أبــاحــا أنْ أضبِـطَ النفسَ فـي همـومـي
فعُقـــدة الكِــمُ لـــم تُفَتَّـــح إلا بمَـــوْجٍ مـــن النسيـــم[1]

***

الإسلام

إنَّ نار « الذَّات » ، والنورُ لديها هـي لـلإسـلام رُوحٌ مستنيـر[2]
إنَّ نار « الذات » ، فاقبس من لظاها فـي حيـاة الخَلْـقِ نـورٌ وسُفـوز
هـي تقـويـمُ وجـودٍ وهـي أصْـلٌ للتَّجَلّـي أُخْفِيَـتْ خَلْـفَ سُتـور
إنْ قَلَى الغـربُ مـنَ الإسـلامِ لفظـاً فلـه اسـمٌ آخـرُ : الفقـرُ الغَيـور[3]

***

الحياة الأبدية[4]

صـدَفٌ لنـا هـذه الحيـاة ، وذاتنـا كالقطر من نَيسان في الصدَفات[5]
مـا قيمـة الصَّـدف الـذي لا يستطيع يُحيـــل قَطْـــراتٍ إلـــى دُرَّات
إنْ صـانـتِ الـذَّاتُ المتينـةُ نفسَهـا أعيَـتْ علـى الأيـام كـلَّ مَمـات

***

---

(١) كِمُّ الزهر لا يفتح إلا بالنسيم ، وبيان الشاعر وشكواه كالنَّسيم تفتح بهما نفسه .
(٢) روح الإسلام هي الذات نارها ونورها .
(٣) إنَّ نفر الفرنج من لفظ الإسلام فنحن نسميه اسماً آخر فيه حقيقته هو الفقر الغيور .
(٤) يؤكد الشاعر في هذه الأبيات رأيه في الذات أنَّها مقصد الحياة ، وأنَّها إن قويت واستحكمت ؛ لم تمت .
(٥) يقال : إنَّ الأصداف تكون على سطح الماء مفتوحة ، فإذا نزل مطر نيسان تدخل في كل صدفة قطرة منه فتنطبق عليها حتى تتحوَّل دُرَّة . والشاعر يجعل الحياة صدفةً ، والذَّات قطرةٌ من نيسان . ويريد أن تحكم الحياة الذات كما تحيل الصدفةُ القطرةَ دُرَّةً .

السُّلطان(١)

تَعَلَّمْ ؛ فـألـفُ مقـام وشـانِ ... لفقـر بـدا فيـه روح القُـرَانِ
إذا انجلت (الـذَّات) فـي قهرهـا ... فهـذا مقـامٌ لملـكِ الـزَّمـان
وتـوزن فـي ذا المقـام القُـوَى ... قُـوَى مـؤمـنٍ تُبتلـى بـامتحـان
وإنَّـك فـي ذا المقـام عظيـمٌ ... وظـلٌّ مـن الله فـي ذا المكـان
ومـا ذاك بغـيٌ وقهـرٌ ولكـن ... هـو العشقُ والوَجْد ملءَ الجَنان
فمـا يستطـاع بقهـرٍ وبغـيٍ ... على الأرض حفظُ الورى في أمان
وأعيـاك فـي الـدَّهـر حفـظٌ لفقـرٍ ... فـأصبحت في الرقِّ خِدنَ الهَوان
وكـان علـى الـدِّين سيمـا سجـود ... تُبـاري الكـواكـب مِـلءِ العيـان
وكـان علـى الشمـس منـه سَنـاً ... فهـل فـي نجـومـك منـه معـانِ ؟

* * *

إلى الصُّوفيِّ

تـرى عينـاك دنيـا المعجـزاتِ ... وفـي عينـيَّ دنيـا الحـادثـاتِ
ومن دنيا الخيال عجبتَ ، فاعجب ... لـدنيـا للحيـاة وللممـات
تبـدِّلهـا بنظـرةِ غيـرِ واعٍ ... وكـمْ تـدعـوك دنيـا الممكنـات

* * *

---

(١) السُّلطان الحقُّ هو أحد شؤون الفقر ، كما يفسره الشاعر ، فهو تجلي « الذات » ـ ذات الفقير ـ بالتسلُّط . وليس السُّلطان طغياناً ، أو بغياً إلخ . . (كتبت في بهو بال في رياض المنزل دار السيد راس مسعود) .

صريع الفرنج

- ١ -

مِنْ تجلّي الفرنج نلتَ وجوداً فهمُ منك هيكلاً قد أقاموا
ومن (الذات) هيكل التُّرْب خالٍ أنت غِمدٌ مُذَهَّب لا حسامُ

- ٢ -

ووجودُ الإله عندك ريبٌ وأرى الريبَ في وجودك أنتا
إنّما الكونُ جوهرُ (الذات) يُجْلَى فانظرنْ أيَّ جوهرٍ قد دفنتا

***

التصوُّف[1]

إنَّ علم اللاهوت في ملكوتٍ ليس للدين آسيا - ليس شيًّا
وقيامُ الأسحار في طول وَجْد ليس للذات راعياً - ليس شيًّا
ذلك العقلُ صاعداً للثُّريا ليس بالوجد سارياً - ليس شيًّا
ينطق العقل « لا إلٰه » ولكنْ ليس بالقلب مسلماً - ليس شيًّا[2]
كلماتي خوافق وسَنا الإصباح لم يبدُ خافقاً - ليس شيًّا

***

(١) يقصد الشاعر أنَّ علم الكلام إن لم يصلح الدين فهو لا شيء . وكذلك الذكر الذي لا يحفظ « الذات » والعقل الذي لا يصحبه العشق ، والفكر الذي لا يستجيب له القلب .

(٢) أي : يقول العقل : « لا إله إلا الله » . . . إلخ .

الإسلامُ الهنديُّ

بـوحـدة الأفكـار تحيـا أمّـةٌ ... ودونها الإلهـام يُلْقَى ملحـدا[1]
لا تُحفظ الوحدة إلا بالقُوَى ... لم يُفلح العقلُ هنا ولا اهتدى
يا عابداً ليس لديه قوّةٌ ... اذهبْ إلى كهفٍ وسبِّح واعبدا
وهات إسلاماً به تصوُّفٌ ... إلى الردى والذلّ واليأس هدى
للشيخ في الهند أجيزتْ سجدةٌ ... فحسِبَ الإسلام حُرّاً سيّدا

* * *

قطعة[2]

ما القلب مات ، قلبٌ ... فأحيِ ذا الرميما
يمحو الفؤاد داءً ... في أمم قديما
بحرُك في سُكونٍ ... سُحُر أم أنيما ؟
لا وحشَ أو هياجاً ... أو ساحلاً لطيما
وفي السماء سرٌّ ... لستَ به عليما
ما هاج طرفُ نجمٍ ... منك فتى كليما
رمى نشيدُ صبحي ... أباءك الهشيما[3]
شرارةً أكِنَّت ... في طينتي قديما
دُنيا غدٍ وأمسٍ ... يُبصرها عليما

---

(١) بغير توحد الأفكار تعمُّ الفوضى . فالإلهام الذي هو سبيل الإيمان يصير إلحاداً .

(٢) عنوان هذه القطعة في الأصل (غزل) والغزل عندهم أبيات قليلة تجمع أفكاراً مختلفة .

(٣) الأباء : القصب ، وهو سريع الاحتراق . ثم القصب يحرق أحياناً لإخصاب الأرض ، فالشاعر يعني أنّه يحرق الأنفس لتزداد حياة .

مَـــن حـــاز مثلـــي عينـــاً جـــريئـــةً هَجـــومـــا

* * *

الدُّنيا[1]

كــذاكــم بــدا لــيَ بُــوقلمــونِ وقلّبــتُ فــي الملكــوت النظــرْ
فهــذا هــلالٌ ، وهــذي نجــومٌ وهــذا عقيــقٌ وهــذا حجــر
وعيــنُ البصيــرة أعملتُهــا فــأوحــت إلــيَّ صحيــحَ الخبــر
فهــذا تــرابٌ وتلــك سمــاءٌ وذلــك طَــودٌ وهــذا نَهَــر
ولا أكتــم الحــقَّ : أنــت وجــودٌ ولا شــيء مــا ســاح فيــه البصــر

* * *

الصَّلاة[2]

تلــوّنُ فــي كــلِّ ثــوب مَنــاةُ وشــاب بنــو الــدّهــر وهــي فتــاةُ
فهــذا السجــود الــذي تجتــويــه بــه مــن ألــوف السُّجــود نجــاة[3]

* * *

(١) أنا كذلك أبصر دنيا الألوان التي تشبه بوقلمون ، وأعرف الهلال والنجم والسماء والأرض . . إلخ ، ولكني أرى أنَّ الإنسان وجودٌ حقٌّ ، وما عداه ليس شيئاً .

(٢) الأصنام لم تنقطع عبادتها ، فلا تزال تظهر بين الناس في صورٍ مختلفة ، فتعبد ضروب العبادات . فاعلم أنَّ سجود الصلاة الذي يثقل عليك ينجيك من آلاف السجود لهذه الأصنام .

(٣) تجتويه : تكرهه .

الوحي[1]

ليس هذا العقل ذو الوهـ ... ـن حريّاً بالإمامه

فحياة الظنِّ والتَّخمينِ ... ضَعفٌ وسَقامه

ليس في فكرك نورٌ ... أو إلى السعي استقامه

كيف يجلو في حياةٍ ... ذلك الليلُ ظلامه ؟

إنَّ لغز الحسن والقبح ... ليُعيي ذا الفهامه

حين لا تجلو الحياة السرَّ منها مستهامه

***

هزيمة

خلا الصُّوفيُّ مِنْ حُرقٍ وكدٍّ ؛ ... شرابُ (ألستُ) معذرةُ البطالة[2]

وفرّ إلى ترهُّبه فقيهٌ ... يَرى في الشرع معتركَ البساله[3]

إذا خشي الرجال وغى حياةٍ ... فتلك هي الهزيمةُ لا محاله

***

العقل والقلب

سيطر العقلُ على الكون أميراً ... وطوى الأفلاكَ والأرضَ مسيرا

ذا جلالٍ يخضع الكون له ... غيرَ قلب ثار بالعقل جسورا

---

(١) العقل ظنٌّ وتخمينٌ ، لا تضيء به النفس ، فلا تنجلي به ظلمات الحياة . وإنما إدراك الحسن والقبيح بالوحي ، وهذا لا يتاح إلا بأن تجلو الحياة أسرارها بنفسها .

(٢) يوم « ألست » أو عهد « ألست » إشارة إلى الآية ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، فالصوفي في سكر بذكرى « ألست » يتعلَّل به ، ويعتذر لبطالته .

(٣) لما رأى الفقيه أنَّ الشرع جهادٌ وكفاحٌ فرَّ إلى الترهُّب .

سكر العمل

في طريق الصُّوفيّ سُكرُ الحال　　وطريقُ الفقيه سُكرُ المقال
ونشيد الشِّعْر المرجَّع مَيْت　　خامدُ اللَّحن لم يُشَب بجمَال
بين نوم ويقظةٍ غيرُ صاحٍ　　بين سُكر الأفكار والبَلبال
وبنفسي مجاهدٌ لا أراه !　　فيه سكرُ الأعمال لا الأقوال

***

القبر[1]

لا يجد القلندريُّ راحةً　　وإن ثوى بقبره تحت الثَّرى
سكينةُ الأفلاك في الضَّريح لا　　فساحةُ الأفلاك أو طولُ السُّرى

***

همّة القلندر[2]

يقول للزمان ذلك الفتى :　　امض إلى حيثُ يسير المؤمنُ
مالكَ في معتركي مِن طاقةٍ　　حذارِ من قلندرٍ لا يُذعن

---

(١) فكرة الشاعر أنَّ النفس القوية المجاهدة لا تسكن في الحياة ولا بعد الموت . والقلندر أو القلندري : الحر الذي لا يركن إلى سكون ، ولا تقيده رغبةٌ أو رهبة .

(٢) القلندر : يعني به الشاعر الإنسان الّذي لا يصل نفسه بمال ، ولا أهل ، ولا دار وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب ، وأحدث طريق كان سالكوها يُديمون السفر ، لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ، ولا أهل ، ولا وطن ، ويحلقون رؤوسهم .
وسُمّي سالك هذه الطريقة : قلندر باسم صاحب الطريقة .
وقد رأى المترجم أن يبقي اللفظ في الترجمة لأنه عَلَم في الأصل ، وجعله أحياناً وصفاً وأحياناً نسَب إليه ، فقال : القلندرُ والقلندريُّ .

إذا طغى اليمُّ فهيَّا أقدمنْ ... ما حاجتي مَلاّحه والسُّفُن
لقد محا سحرَك تكبيري فهل ... تَقْوى على جحوده يا وَهِن ؟
يحاسب الأفلاكَ ذا القلندر ... وقاهرٌ أيامَه لا يُقهر

* * *

الفلسفة

ليس يَخفى على القلَنْدر فكرٌ ... ساورَ النشءَ ظاهراً أو خفيّا[١]
أنا عندي بكلِّ حالِكَ خُبرٌ ... فبهذا الطريق سرتُ مليّا
لا يقيم الحكيمُ في شَرَك اللفـ ... ـظ ولا بالحروف كان حفيًّا
ليس همُّ الغوَّاص أصدافَ بحرٍ ... يبتغي الغائصون دُرّاً بهيّا
إنَّ في حلقة المجانين عقلاً ... في شَرارٍ يرى لهيباً مضيًّا[٢]
إن أغلى من الجواهر ، معنى ... صدَّق القلبُ سرّه مطويا
فلسفاتٌ ما سطّرت بدم القلب ... مَواتٌ أو للممات تُهيّا

* * *

رجال الله

إنَّما الحرُّ من يُجيد ضِرابا ... لا الذي حربةُ تدور هُراء
وسجايا الأحرار تجمع تاجاً ... ذا سناء ، وخرقةً وقَباء[٣]

---

(١) القلندر هنا إقبال نفسه .

(٢) بين الذين يعدون مجانين من أصحاب القلوب الحية من يرى الحقائق الكبيرة في مظاهر صغيرة ، فيرى في الشرارة لهيباً عظيماً .

(٣) سجية الحر فيها عظمة الملك ، وفيها خلق الصُّوفية لابسي الخرقة ، وفيها فقه العلماء لابسي القباء .

مـن خفـايـا تُـرابهـم أخـذ الـدَّهـرُ شَـــراراً فصــاغ منـــه ذُكـــاء
فِطــرةٌ حــرَّةٌ تعــاف الــدنــايــا من طَـواف الأصنـام عـاشـت بَـراء
أنــت فـي الكفـر والتـديُّـن جَمْعـاً وثنـــيٌّ تُقـــدِّس الأهـــواء[1]

* * *

الكافر والمُؤمن[2]

أمــسِ عنـــد البحـــر قـــال الخضـــر لـــي قـــولاً أعيـــه[3]:
تبتغــي التــريـــاق مـــنْ سُــمِّ فـــرنـــجٍ تتقيـــه ؟
فخُـــذنْ قـــولاً ســـديـــداً هـــو بـــالسيـــف شبيـــه
ذا مضـــــاءٌ وضيـــــاءٌ خبـــرةُ الصَّيقـــل فيـــه :
إنَّمـــا الكـــافـــر حيـــرانُ لـــه الآفـــاق تيـــه
وأرى المـــؤمـــن كـــونـــاً تـــاهـــت الآفـــاق فيـــه

* * *

---

(١) الأحرار منزهون عن عبادة الأصنام ، وأنت في إيمانك وكفرك لا تخلو من عبادتها .

(٢) يكرّر الشاعر هذا المعنى كثيراً : إنَّ المؤمن مسيطرٌ على الكون ، يتصرف فيه ، لا يضلُّ فيه ، ولا يحار ، فهو سائر على قانون يرفعه على الأحداث والغير ، وإنَّ غيره مقهور في الكون حائر ، تتلقفه أحداثه ، وتقلبه غيره .
والفكرة مأخوذة من مثنوي جلال الدين الرُّومي . فقد قصَّ المثنوي قصة افتقاد حليمة الرسول في طفولته وطلبها إيَّاه والهةً ، وأنَّ جبريل لقيها ، فقال لها : لا تخشي عليه أن يتيه في الآفاق ، فهذه الآفاق تتيه فيه .

(٣) يروى أن الخضر صاحب إسكندر سارا حتى بلغا أرض الظلمات ، وفيها عين الحياة ، فشرب منها الخضر ، فخلد ، ولم يهتد إليها إسكندر . فينسب الشعراء إلى الخضر المعرفة والحكمة ، ويقولون عنه ما يشاؤون .

المهديُّ الحقُّ

كلٌّ ثوى في مَحبسٍ من صُنعه : سيَّارُ إفرنج وثابتُ مشرقِ[1]
والشَّيخُ في حَرمٍ وحَبر كنيسةٍ لا جِدَّةٌ في القول أو في المنطق
أهلُ السياسة في شِراكِ قديمِهم والشِّعرُ أفلس في خَيالٍ مُغلق
من لي بمهديٍّ له نظرٌ يزلزلُ عالَم الأفكار ، غيرَ ممخرِق

***

المُؤمن

- ١ -

في الدُّنيا

مع الصَّحبِ لَيِّن كمسِّ الحرير بعيدٌ من المَحَكِّ ، المؤمنُ[2]
حديدٌ إذا ما طغى باطلٌ جريء لدى المَعْرَك ، المؤمنُ
من الطِّين ، لكنْ على الطِّين يسمو ويأبى على الفلك ، المؤمن
وما همُّه صيدُ طيرٍ ولكن يصيد من المَلَك ، المؤمن

- ٢ -

في الجنَّة

تقول الملائك في غبطةٍ : حَبيبٌ إلى قلبنا ، المؤمن

---

(١) الفرنجي : الدائب في العمل ، كالكوكب السيّار ، والشرقي : القاعد عن السير ، كالكوكب الثابت .

(٢) القافية مردوفة بكلمة « المؤمن » والرويُّ الكاف التي قبلها .

وللحـــور شكـــوى إلـــى ربِّهـــا : ســـريعٌ إلـى هجـرنـا ، المـؤمـن

***

محمَّد علي الباب[1]

أجـــابَ (البـــابُ) فـــي حفـــل مفيضـــاً فـــي مقـــالاتِ
وفـــات الشيـــخَ تـــوفيـــقٌ بـــإعـــراب (السَّمـــواتِ)
ســـرَتْ فـــي الحَفْـــل غلطتُـــه فـــلاقـــوه ببسمـــاتِ
فقـــال (البـــاب) : لـــم تَـــذْروا وفـــاتتكـــم مقـــامـــاتـــي
ثـــوى القـــرآنُ بـــالإعـــراب فـــي حَبـــسٍ وإعنـــاتِ
وإنَّ إمـــامتـــي جـــاءت بتحـــريـــرٍ لآيـــاتِ

***

القدر[2]

الخالقُ وإبليس

إبليـــس : يـــا إلٰهـــاً أمـــره كُـــنْ ليـــس عنـــه مـــنْ مَحيـــذْ
لـــم يُصَـــب آدمُ منـــي بعـــدوٍّ أو حســـود
ويـــلُ غـــرٍّ ، مِـــنْ زمـــانٍ ومكـــانٍ فـــي حـــدود
كيـــف أستكبـــر عـــن أمـــرك أو كيـــف أحيـــدْ

---

(١) ناقش جماعة من العلماء في إيران محمد علي المسمى : الباب ، فقرأ من القرآن ، فلحن في إعراب السموات . فضحك الحاضرون ، فقال : إنَّ بشرى إمامتي تحريرُ الآيات من الإعراب .

(٢) مأخوذة عن محيي الدين بن عربي .

كـــان فـــي علمـــك أنـــي حـــائـــدٌ عـــن ذا السجـــود

* * *

الخـالـق : هـل عـرفـت السرَّ هـذا قبـــلَ أو بعـــدَ الجحـــوذ ؟

إبليس : بعدُ ! يا منْ مِنْ تجلّيه كمـــالاتُ الـــوجـــود

(الخالق ناظراً إلى الملائكة)

خِسَّـــةُ الفطـــرة فيـــه علَّمتـــه ذاك عـــذرا

قـــال : مـــا شئـــتَ سجـــودي أنـــا لا أملـــك أمـــرا

ذلـــك الظـــالـــم سَمَّـــى اختيـــاراً فيـــه جَبـــرا

إنَّـــه سمَّـــى رَمـــاداً شُعلـــة فيـــه وجَمـــرا

* * *

أين روح محمَّد ![1]

أرى الملَّـة البيضـاء بُـدِّد نظمُهـا فمسلمُك انظر حاله ، أين يذهب ؟

وليـس ببحـر العُـرب لَـذَّةُ ثـورةٍ وفي الصَّدر موجٌ غاله ، أيْن يذهب ؟

ولا رَكْـبَ للحـادي ولا زادَ عنـده وقطعُ الفيافي هاله ، أين يذهب

فبيِّـن لنـا الأسـرارَ روح محمـد ! حفيظٌ لآيٍ ، ياله ، أيْن يذهب ؟

* * *

---

(١) يصف الشاعر في هذه الأبيات غمّه وحيرته ، فالأمة الإسلامية انفرط عقدها ، وفي صدره موجٌ ، ولكن بحر العرب الذين ماجت بهم أحداث التاريخ ليس فيه هياج اليوم ، فيختلط به هذا الموج . وهو حادٍ ولكن لا زاد له ، ولا قافلة يحدوها . وأمامه فيافٍ هائلةٌ . وهو حفيظٌ على آيات الله يبتغي أن يسير بها . فهو يلتمس سبيله في هذا العالم ويسأل روح الرسول أينَ يذهب .

مدنية الإسلام

حياةُ المسلم أعرف في بياني ... كمالُ العقل فيها والجنونُ[(١)]

سَناً كالصُّبح مَغربه طُلوعٌ ... وحيدٌ، كالزَّمان له شؤون

ولا كالعصر، خِلوٌ منْ حَياء ... ولا فيها من الماضي فُتون

حياةٌ بالحقائق في قَرارٍ ... وليستْ ما يُطلسِم أفلَطون[(٢)]

عناصرُها يؤلِّفُها جَمالٌ ... تمثَّل فيه جبريلُ الأمين

وحسنُ الخَلق من عُجْمٍ لديها ... ونارُ العُرب فيها والشُّجون

* * *

الإمامة[(٣)]

أتسألني: الإمامةُ ما مَداها؟ ... حبَاك الله مثلي بالخفايا

إمامُ العصر حقّاً من تراه ... فتسأمُ ما تشاهدُ في البرايا

بمرآة الممات يريكَ وجهَ الـ ... ـحبيب فتجتوي عيشَ الدَّنايا

---

(١) الجنون هنا معناه الحماس للعمل والإقدام في غير مبالاة. فحياة المسلم في رأي الشاعر تجمع العقل والإقدام. وهي كالشمس تغرب لتطلع. وهي فذَّةٌ لا نظير لها، ولكنَّها كالزمان في شؤونٍ متعددةٍ، وهي قائمةٌ على الحقائق، وجامعةٌ عناصر الجمال والقوَّة.

(٢) ليست قائمة على أفكار أفلاطون؛ التي ترى الحقائق في عالم المثل، لا على هذه الأرض.

(٣) يقصد إقبال مَنِ ادَّعوا الإمامة في الماضي وفي عصره. ويرى أنَّ الإمام من يعلو بأصحابه عن قيود الحاضر المشهود إلى عالم المعنى الفسيح غير المحدود.. إلخ.

ويشعـــركَ التخلُّـــفَ عـــن كمـــالٍ فينفـخُ فيـك مشبـوبَ السَّجـايـا[1]

يُمــرُّ عليــك مِــنْ فقــرٍ مِسَنّــاً فيطبــعُ منــكَ سيفــاً للمنــايــا

فُتـــون الملَّـــة البيضـــا إمـــامٌ كـأنَّ المسلميــن بــه سبــايــا[2]

* * *

الفقر والترهُّب[3]

إسلامك الموهومُ شيءٌ آخر ؛ الفقـرُ عنـدك كـالتـرهُّـب يظهـر

شتَّانَ ، فانظر ، بين خَلوة راهبٍ وشِـراع فقـرٍ فـي عُبـابٍ يمخُـر

فـي الـروح والأبـدان يبغـي جلـوةً فنهـايـة الإيمـان (ذاتٌ) تبهـر[4]

هـو صيـرفـيُّ الكـائنـات وجـوده فعــن الفنــاء أو البقــاء يخبِّــر[5]

فـاسـألـه عمـا تـرتئيـه أعـالـمُ أم مــوج رائحـة ولـون يـزخَـر ؟

لمـا أضـاع المسلمـون علـى المـدى ذا الفقر ـ لما ضاع هذا الجوهر

لــم يبـقَ فيهـم مـن سليمـانٍ ولا سلمــانَ دولــةُ عِــزَّة لا تُقهــر

* * *

---

(١) يشعرك ما فيك من نقص وما فاتك من كمال .

(٢) فتنة الملَّة الإسلامية إمامٌ يمكِّن أصحاب السُّلطان من إذلال المسلمين .

(٣) يشيد إقبال بالفقر ، وينسب إليه المعجزات . وهو فيما يؤخذ من كلامه : التحرر من الطمع والحرص ، وألا يملك الإنسان ما يملكه فيذله ، ويصدُّه عن الحق والخير . وهو لا يشبه الرهبانية في شيء . فمن حسب الفقر رهبانيةً فإسلامه غير الإسلام الذي يعرفه الشاعر .

(٤) الضمير في « يبغي » يرجع إلى الفقر ، وهو يطلب تجلِّي الروح والجسم . وتجلي الذات هو مقصد الإيمان .

(٥) هذا الفقر ينقد الكائنات ، فيقول : هذا للفناء وهذا للبقاء ، وهذا حق ، وهذا باطل .

قطعة[1]

متـاعُـك فـي الحياة فنونُ علـمٍ ... تظَـلُّ الـدَّهـرَ منها فـي حُبُور

ومـا عنـدي متـاعٌ غيـرَ قلـبٍ ... طمـوحٍ مـا أراه بـالصَّبـور

لأهـلِ الفكـرِ معجـزةٌ تجلَّـت ... بفلسفـةٍ معقَّـدة السُّطـور

وأهـلُ الـذكـر شـادوا معجـزاتٍ ... على موسَى وفرعونٍ وطـور[2]

أقـول لمسلـم : مـا فيـك صدرٌ ... لأنفـاس بهـا حَـرُّ النشـور

ومـزقـتُ الجيـوبَ وأنـتَ خـالٍ ... جُنوني ـ لا ألومك ـ في قصور[3]

أقِـلَّ القـولَ وافتـحْ عيـنَ قلـبٍ ... ولا تـكُ مُهْـذراً عنـد البصيـر

ومـا إنْ ذلَّ قـومٌ قـد أعـدُّوا ... حَمـاسَ العِشْـق والفقـرِ الغَيـور

* * *

التَّسليمُ والرِّضا

علـى كـل غصـنٍ تبيَّـن أن النبـات مَشـوقٌ لِـرَحْـبِ الفضـاء

فمـا قـرّ فـي ظلمـةِ التـرب حَـبٌّ ... جُنـونُ النشـوء بـه والنَّمـاء

فـلا تَبـغِ فـي فِطـرةٍ تـركَ سعـيٍ ... فمـا ذاك معنـى الرضـا بـالقضـاء

لأهـلِ النَّمـاء فضـاءٌ فسيـحٌ ... ومـا ضـاقَ مُلـك الإلٰـه ، فسيحـوا

---

(١) عنوان هذه القطعة في الأصل « غزل » والغزل في عرف شعراء الفرس ومن قبلهم : أبيات قليلة في موضوع أو موضوعات . وربما لا تشتمل على شيء مما يسمَّى بالغزل في الشعر العربي .

(٢) يقصد بموسى وفرعون كل من له صفات موسى أو صفات فرعون ، فلهذا نكَّرت الاسمين ، وصرفتهما .

(٣) يعني : إني لم أصيرك مثلي مجنوناً ؛ لأن جنوني لم يكمل ، فلم يؤثر فيك ، فاللوم عليَّ لا عليك .

نكتةُ التَّوحيد[1]

إنَّ سـرَّ التَّـوحيـد طـوعُ بَيـانـي ... شِدتَ في الرأس مَوْثَنا، ما احتيالي ؟[2]

رمـزُ شـوقٍ بـلا إلٰـهٍ خفـيٌّ ... ليس في الفقه بيِّنا، ما احتيالي ؟

كـم سـرورٍ فـي حـرب حـقٍّ وزورٍ ... لستَ في الحرب مطعنا، ما احتيالي ؟[3]

كـم تُجلِّـي الآفـاقَ نظـرةُ حـرٍّ ... حجب الرقُّ أعينا ، ما احتيالي ؟

أيُّ مُلـكٍ مقـامُ فقـرٍ ! ولكـن ... تـؤثر الـذلَّ مُذعنا، ما احتيالي ؟

***

الإلهام والحرية

إنَّ للحُـرِّ ملهمـاً نظـراتٍ ... تحفِـز القـولَ والفِعـالَ بنـار

حَـرُّ أنفـاسـه يَشيـع بـروضٍ ... فترى الروض مُزهراً منْ شَرار

يَهـبُ العنـدليـبَ سيـرةَ بـازٍ ... كيـف حـالـت طبائعُ الأطيار ؟

يَنـحُ المجتـديـن شَـوكـةَ جـمٍّ ... عـارفُ النفس والـهُ الأسحار[4]

ووقـى الله حكمـةَ لـذليـلٍ ... مثل جنكيز طالعٍ بالدَّمار[5]

***

---

(١) بنى الشاعر هذه القطعة على القافية المردوفة فحاكيته في الترجمة . والروي حرف النون في موثنا ، ومطعنا .. إلخ (المترجم) .

(٢) يمكن أن يبين سرّ التوحيد ، ولكن ما حيلتي وقد بنيت في رأسك معبداً للأوثان . وقد وضعت كلمتي مصنم وموثن لمكان الصنم والوثن ، ترجمة لكلمتي بت كده ، بتخانه ، ونحوهما .

(٣) كم سرورٍ في مجاهدة الباطل بالحقّ في هذه الحياة .

(٤) جم : يراد به جمشيد أحد ملوك الفرس في الأساطير .

(٥) يريد أنّ حكمة الذليل تدمر الأمم كغارات جنكيز خان .

الرُّوح والجِسم[1]

تحيّر الناسُ في ذا اللغز من قدم : ما جوهر الرُّوح أو ما جوهر البدن؟
ومشكلي في اضطراب بي وفي ثَمَل وثورةٍ وسرورِ النفس والحزن
ومشكلٌ لك أنَّ الخمر من قدحٍ أو أن من خمرة كاساً ، لذي زَكَن[2]
ما اللفظ والمعنى؟ وكيف الرُّوح في بدن؟ جمرٌ بدا في رَمادٍ منه للفَطِنِ

* * *

« لَاهور » و « كراجي »[3]

قد تولى اللهَ عبدٌ مسلمٌ ما آمرا
هو بالموت إلى عالَم روحٍ سافرا
كيف تَفْدون شهيداً لخلودٍ آثرا
دَمُه من حَرَم أعلى وأغلى جوهرا[4]
آه للمسلم غفلانَ نَسِيّاً ما درى :
سرَّ ﴿ لا تدع مع الله إلٰهاً آخرا ﴾[5]

---

(١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ همي في هذه الحياة القلق ، والثورة ، والسرور ، والحزن . وأنت شغلت نفسك بهذه الأسئلة ولم تشعر بحقيقة الحياة .

(٢) الزكن : الفطنة .

(٣) روي أنَّ هندوكياً في لاهور اسمه : راجيال ، أساء الأدب في الحديث عن الرسول صلوات الله عليه ، فذهب إليه مسلم اسمه علم الدين ، وقتله في غير ضوضاء ، وأن رجلاً من الهنادك في كراجي فعل فعله ، فذهب إليه مسلم من كوهات في غير مشاورة ، ولا مؤامرة فقتله . وأراد المسلمون أن يؤدوا دية القتيلين وينجوا القاتلين من العقاب ، فكتب إقبال الأبيات .

(٤) يعني : أنَّ كل ما تبذلون لا يساوي دم الشهيد . . إلخ .

(٥) الآية : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

النُّبُـوَّة[1]

لســتُ المحـدِّثَ والفقيـهَ ... ولا الـوليَّ ولا المجـدِّد
لا علـم عنـدي بـالنبـوّة ... كيـف تـوصـف أو تحـدَّد
لكـن إلـى الإسـلام فـي الأيـام ... لـي نظـرٌ مسـدَّد
أوحـى إلـيَّ بسـرّه الفلـكُ ... المحيـطُ فـلا أفنِّـد
فـرأيـت فـي ظلمـات هـ ... ـذا العصـر ذا الحـقِّ المؤيِّـد :
عنـدي حشيـش المسلميـن ... نبـوّةٌ فيهـم تجـدَّد
مـا إن لـديهـا دعـوةٌ ... للبـأس والمجـد المخلَّـد

* * *

الإنسان

ذا طِلَسْـمُ الكَـون والعَـدَمِ ... سُمِّـي الإنسـانُ مـن قِـدَم
هـو سـرُّ الله جـلَّ فـلا ... يحتـويـه الـوصـفُ فـي كِلَـم
إنَّ هـذا الـدهـرَ مـن أزلٍ ... مـن سفـارٍ بـاء بـالسَّقَـم
ومضـى الإنسـانُ سيـرتَـه ... لـم يُصَـبْ بـالضَّعـف والهَـرَم
وإليـك السـرَّ أُعلنـه ... إن تَسَغـه غيـرَ متَّهِـمِ :
مـا بـدا روحـاً ولا بَـدَنـاً ... ذلـكَ الإنسـانُ للفَهَـم

* * *

« مكة » و « جنيوا »

كـم حـديـثٍ عـنِ الشُّعـوب سمعنـا ... وحـدةُ النـاس حُجِّبـت عـن عيـانِ

---

(١) يعني الشاعر بهذه الأبيات من ادَّعى النبوة ، ودعا إلى المسالمة والكفِّ عن الجهاد .

حكمةُ الغرب فُرقةُ النَّاس والإسـ ـــلامُ فيــه تــوحُــدُ العُمــرانِ
ومقـــالٍ مـــن مكـــةٍ لجنيـــوا قــد وعــاه اللبيــبُ فــي كــلِّ آن :
خبِّرينـي اليقيـن : هـل عصبـة الأقـ ـــوام خيـرٌ أو عصبـة الإنســان ؟

* * *

يا شيخَ الحرم

ودِّع الخلـوةَ يـا شيـخَ الحـرم واسمعنْ في الفجر منِّي ذا النغَم
يحفــظُ اللهُ لـــك الفتيـــان فـــي حُكمِ نفسٍ ، واشتعالٍ في الهمم
هُـمْ عـن الغـرب زجـاجـاً أخـذوا علَّمَنهـمْ صَدمـة الصَّخـرِ الأصـم
طُـــول ذلٍّ أظلـــم القلـــبُ بـــه أدرِكِ الحيـرانَ فـي هـذي الظُّلَـم
فـي جنـونـي منـك أسـرارٌ بـدتْ فاجْزني يا شيخُ عن هذا اللَّمم[1]

* * *

المَهدي[2]

أرى الأقــوامَ تَمضــي فــي حيــاة علـى قـدر التخيّـل فـي الحيـاةِ
فمجـذوبُ الفـرنـج علـى خيـالٍ مـن المهـدي قـاد إلـى النجـاةِ[3]

---

(١) يعني : أن نشوته وولهه وقد عبر عنهما بالجنون أدركا أسرار شيخ الحرم ، فأفشياها ، فهو يسأل الشيخ أن يكافئه عن هذا الجنون .

(٢) كتب سبنجلر يقول : إنَّ ضعف المسلمين من إيمانهم بالقدر والمهدي . فردَّ إقبال بأنَّ هاتين العقيدتين غريبتان عن الإسلام . وكتب مولانا أسلم جرا جبوري يأخذ على إقبال أنّه يذكر المهدي في شعره أحياناً . فكتب إقبال هذه الأبيات يبين رأيه في عقيدة المهدي ، ويذكر أنَّه يتوسل بها أحياناً إلى نفخ الحياة في موتى الأحياء .

(٣) يعني الفيلسوف الألماني نيتشه ؛ الذي تكلَّم عن الإنسان الكامل .

فـإنْ تنفـر مِـنَ المهـديِّ يَنفِـرْ غـزالُ المِسْـكِ مـن هـذي الفـلاةِ[1]
إذا مـا الحـيُّ مـن جَهـل تـردَّى بـأكفـانٍ وأغـرَقَ فـي سُبـاتِ
أتُسلِـم ذا الجهـولَ إلـى الـرَّدى أم تمـزِّق عنـه أثـوابَ الممـاتِ ؟

* * *

المُؤمن

إنَّ للمـؤمـن العجيـب الشـانِ كـلَّ حيـنٍ جـديـدَ شـانٍ وآنِ
هـو فـي قـولـه السَّديـدِ وفـي الفعل علـى الله واضـحُ البـرهـانِ
فيـه قـدسيّـةٌ إلـى جبـروتٍ ومـن القهـرِ فيـه والغفـرانِ
إنْ تُـؤلَّـف هـذي العنـاصـرُ كـان المسلـمُ المستعلـي على الحِـدْثـان
هـو تُـربٌ سمـا يجـاورُ جبـريـلَ ويـأبـى الحلـول فـي الأوطـان
لسـت تـدري بسـرِّه فتـراه قـارئـاً وهـو صـورةُ القـرآن
فيـه عـزمٌ علـى القضـاءِ دليـلٌ وهـو فـي العَـالَميـن كـالميـزان[2]
هـو بَـرد النَّـدى بقلـب شقيـقٍ وبقلـب البحـار كـالطُّـوفـان[3]
ليلـه والنهـار لحـنُ حيـاةٍ فـي انسجـامٍ كسـورةِ الـرَّحمٰـن
إنَّ فكـري مطـالـع لنجـومٍ نجمك أعرف طلوعه في بياني[4]

* * *

---

(١) يعني أن هذه الفكرة تعطر بها النفوس المقفرة ، وتحمل ما يحمله غزال المسك في الفلاة ، فلا تحرم الناس منها .

(٢) يقول إقبال في مواضع كثيرة : إنَّ عزم المؤمن من القدر أو هو مشير على القضاء والقدر ، وإنَّ رأيه وعمله ميزان الصلاح والفساد في الحياة . وهنا يقول : إنَّ ميزان الأعمال في الدارين الدنيا والآخرة .

(٣) هو تارةً كالنَّدى يبرد قلب الشقائق ، وتارةً كالموج الهائج في البحر .

(٤) يقول : أيها الباحث عن مستقبله في طوالع النُّجوم هلمَّ أدلُّكَ على أسباب السعادة ، فإنَّ فكري يطلع نجوماً صادقةً تدلُّ على السَّعد والنَّحس .

المُسلم البَنْجابِي[1]

مجـدِّدٌ فـي كـل حيـن مـذهبـا   يحـلُّ فـي مـرحلـة ليـركبـا
فـي حَلبـة التحقيـق نِكـسٌ وإذا   قـامـره داعٍ غـويٌّ غُلِبـا
حبـالـة التـأويـل إن تُنصَـب لـه   هـوى مـن العُـشِّ إليهـا مُعجبـا

* * *

الحُرية[2]

ألا مَن يطيق اليوم نُصحاً لمسلمٍ   وحـريـةُ الأفكـار مـن ربِّـه أمـر
من الكعبة اجعل بيت نار وإن تشأ   فموثِّـن أفـرنـج بـه الـزورُ والسِّحـر
وإن شئـت فـالقـرآن تـأويـلُ لاعـبٍ   فجـدِّد لنـا شـرعـاً يـلائمـه العصـر
رأيـتُ بـأرض الهنـد أيَّ عجيبـة   فـإسـلامُهـا عبـد ومسلمهـا حُـرُّ

* * *

نشر الإسلام في بلاد الإفرنج

هـذي الحضـارةُ مـا تـديَّـن قلبهـا   فـأخـوّة الإفـرنـج بـالعَصَبـاتِ
فلئـن تنصَّـر بـرهمـيٌّ لـم يـزل   لـلإنكليـز إليـه نظـرةُ عـات
وَلَـو انَّهـم قـد أسلمـوا لـم يـرفقـوا   بـالمسلـم المنكـودِ مـن إعنـات[3]

* * *

---

(١) عُرف أهل البنجاب بكثرة النِّحل والدعوات المبتدعة .

(٢) يَنعى إقبال في هذه الأبيات على من يدَّعون الحرية حين يتحدثون في الإسلام وحضارته ، فإذا عُرضت أوربة وحضارتها خنعوا لها فكراً وفعلاً .

(٣) لو أنّ الإنكليز أسلموا لم يُحسنوا معاملة المسلم .

لا وإلا[1]

لو لم تسِر في ظلام التُّرب نابتةٌ ... ما نشَّرت في فضاء النُّور أغصانا
تقضي الحياة بـ« لا » في البدء نافية ... وفي النهاية « إلا » تُكمل الشانا
إنْ لم تجيء بعدها « إلا » مثبِتةٌ ... كانت على الموت «لا» في الدهر عنوانا
إنْ أمةٌ روحها لم يمض معتزماً ... عن « لا » فقد آذنت بالهُلْك إيذانا

* * *

إلى أُمراء العرب[2]

هل يُبْعدُ الكافرَ الهنديَّ منطقُه ... مخاطباً أمراء العُرْب في أدبِ
من أمَّةٌ قبل كلِّ النَّاس قد أخذتْ ... بحكمةٍ فأعانتها على النُّوب :
إخاءٌ مصطفويٌّ دون تفرقةٍ ... وهجرُ كلِّ غويٍّ من أبي لهب
ما من حدودٍ وأرضٍ كان منشؤُها ... من أحمدِ العُربِ كانت أمةُ العَرب

* * *

---

(١) يرى إقبال أنَّ الحياة محوٌ وإثباتٌ ، أو هدمٌ وبناء . فالأمة الصالحة تمحو السيىء وتثبت الحسن . وكلمة التوحيد قائمة على نفي غير الله وإثبات الله . فإن محت الأمة ولم تثبت ، أو هدمت ولم تبن فعاقبتها الفناء ، وهو يعني هنا حضارة أوربة عامَّةً والروس الشيوعيين خاصَّةً .

(٢) العرب هم الأمة التي حملت إلى الأمم رسالة الإسلام ، وعلمتها الأخوة والتعاون . والشاعر ينعى على أمراء العرب أن نسوا هذه الرسالة التي بلغوها ، وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

الأحكام الإلٰهية(١)

قيدَ القضاء تَرى أم قيدَ أحكام ... ما أعجزتْ هذه أربابَ أفهامِ

في كلِّ حينٍ ترى التقديرَ في غِيَرٍ ... رهينُها بين لذّاتٍ وآلام(٢)

إنَّ النبات وإنَّ الجامدات لها ... من القضاء قيودٌ ذاتُ إحكام

والمؤمن الحرُّ لا شيءٌ يقيِّده ... لكنْ لخالقه في قيد أحكام

* * *

الموت(٣)

في اللحد أيضاً يبقى ... الغيابُ والحضور

إنْ يك قلبٌ حيّاً ... فالقلبُ لا صبور

هذي النجوم تمضي ... كَشَرَرٍ يطير

واللذاتُ فيها راحٌ ... في أبدٍ سُرور

إنْ مسَّ جسماً موتٌ ... واحتجب الظُّهور

فللوجود قُطبٌ ... مَناله عسير

* * *

---

(١) إقبال يؤمن بحرية الإرادة، وينفر كلَّ النفور من الاعتقاد بالجبر والاستسلام للأحداث. وفي هذه الأبيات يقول: إن الجماد والنبات خاضع لقوانين لا يحيد عنها، وأمّا المسلم فهو خاضع لأحكام الله لا لقوانين طبيعية تسيره مجبراً. وهذه الفكرة تلقى قارىء شعره في مواضع كثيرة.

(٢) عالم الطبيعة والحادثات في تغير مستمر فمن خضع له تداولته اللذات والآلام.

(٣) يرى الشاعر: أنَّ القلب الحيَّ لا يموت، فهو حيٌّ بعد الموت، طموح طلعة، لا يرضى بالسكون والقرار. وإنما حياة القلب في رأيه بقوة الذات (خودي). والموت لا ينال الذات حين ينال الجسم.

قُمْ بإذن الله[1]

إن تَخُـل دنيـا فلـم تَفْـنَ أرضٌ ... وسمـاءٌ ، قـم بـإذن الله
مِنْ « أنا الحقُّ » انطوى فيك قلب ... ومضـاءٌ ، قـم بـإذن الله[2]
لا تُـرعْ ممـا تـرى ؛ لفـرنـجِ ... سِيميـاء ، قـم بـإذن الله[3]

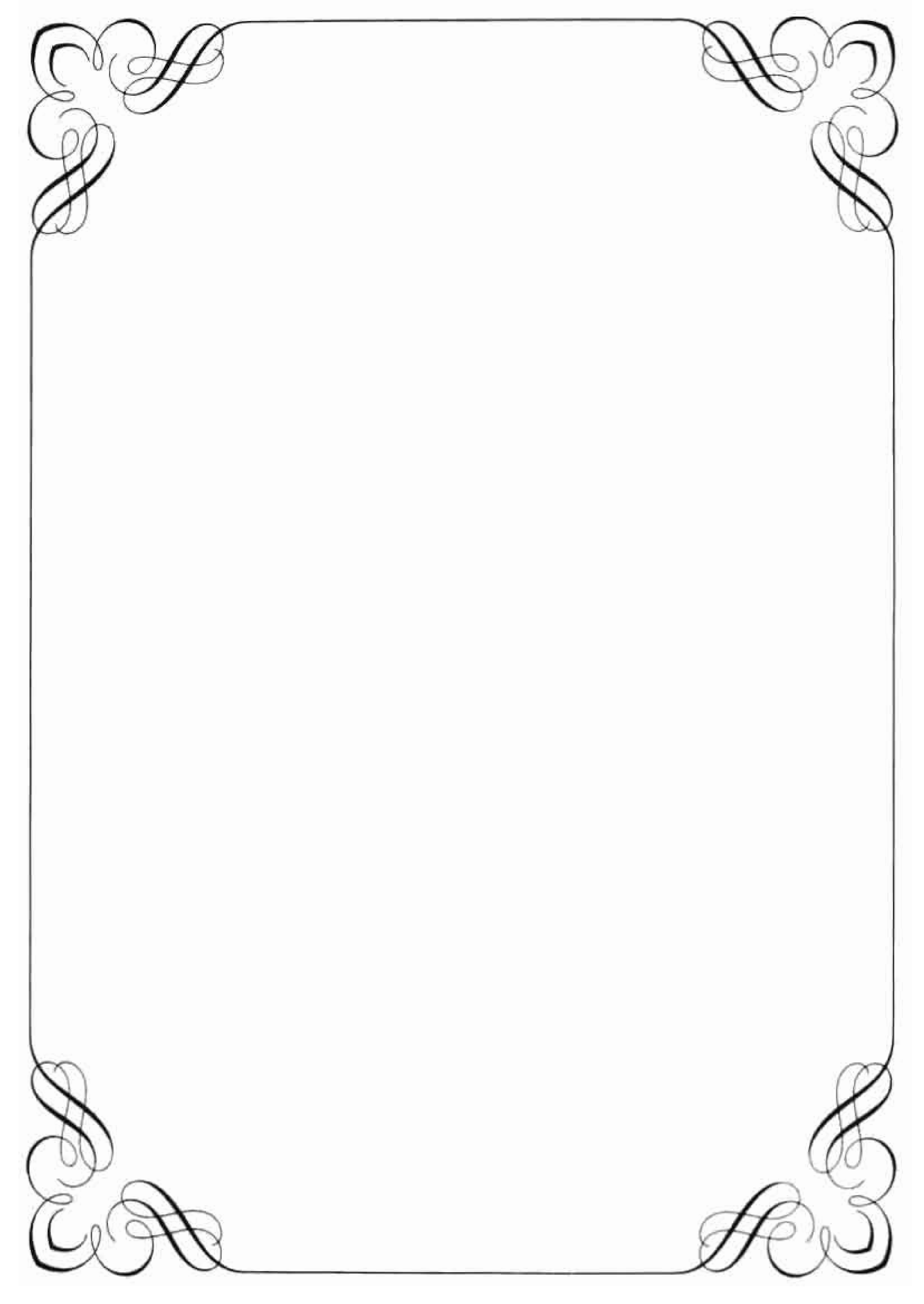
***



(١) في هذه الأبيات يبشّر إقبال بالمستقبل الوضّاء على رغم الخطوب ، ويقول : تغيرت الدنيا ، ولكن الأرض والسماء كما كانت . وكلمة « قم بإذن الله » مكررة بلفظها في الأصل .

(٢) يرمز إلى قصة الحلاج الصوفي الذي قال أنا الحق . يقول للمسلم : فيك روح تنتسب إلى الأرواح العظيمة .

(٣) لا يرعك ما يحيط بك من فتن الإفرنج ، فهي سيمياء لا حقيقة له .

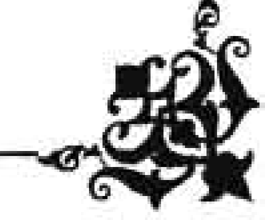




القسم الثاني

التّعليمُ والتّربيةُ





المقصود[1]

اسبنوزا :

يبصـــر العـــاقـــلُ الحيـــاةَ وليســـت غيـــرَ نـــورٍ وجلـــوةٍ تُستحـــبُّ

أفلاطون :

يبصـــر المـــوتَ عـــاقـــلٌ . فحيـــاةٌ كشـــرارٍ بجنـــحِ ليـــلٍ يشـــبُّ
مـــا إلـــى المـــوت والحيـــاة التفـــاتٌ مقصدُ الذات رؤية الذاتِ حسبُ[2]

***

إنسان هذا العصر

حُـــرِم العِشْـــقَ وللعقـــل بـــه نكَـــزاتٌ كشجـــاعٍ يثـــأرُ[3]
تبـــعَ العقـــلَ شـــروداً ســـادِراً مـــا هـــدى العقـــلَ لـــديـــه بصـــرُ
لـــم يســـافـــرْ فـــي دُنَـــى أفكـــاره وعلـــى الأفـــلاك دام السَّفـــرُ
هـــو مـــن حكمتـــه فـــي شَـــرَكٍ غـــابَ عنـــه نفعُـــه والضـــررُ
مـــن شُعـــاع الشَّمـــس فـــي قبضتـــه مـــا بـــه ليـــلُ حيـــاة يُسفـــرُ !

***

---

(١) يبين هنا الشاعر رأي اسبنوزا الفيلسوف ورأي أفلاطون ورأيه هو في المقصود من هذه الحياة . كُتبت هذه الأبيات في بهو فال في رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .
(٢) هذا رأي إقبال .
(٣) النكزة : عضة الحية ، والشجاع : نوع من الحيات .

أمم الشَّرق

كيف تُجلى حقائقٌ لعيونٍ عَميتْ بالخضوع والتقليدِ
كيف يُحيي الفرنجُ عُرْباً وفُرْساً بفنونٍ تسيرُ نحو اللُّحود

***

التَّنبه(1)

نظر المنجِّم في جِباك نجومه لكنْ مَقامُ الذات عنه يُسْتَر
مَن يَدرِ أنَّ الذات أرفعُ منزلًا عَرف الزَّمان وصرفه لا يُقهر(2)
وجميلَ أنظار يرى وقبيحَها وحلالَ قلب والمحرَّم يُبصر

***

مُصلحو الشَّرق(3)

يَئست فلا أرجّي في أناسٍ لهم فنٌّ كفنِّ السَّامري(4)

---

(1) في هذه الأبيات ينعى إقبال أيضاً على الإنسان اهتمامه بعالم الطبيعة وإهماله نفسه ، ويقول : إنَّ تقوية الذَّات وتقديرها يعين الإنسان على الحادثات ويبصره الجميل والقبيح في البصيرة ، والحلال والحرام ، حلال القلب وحرامه (استفت قلبك وإن أفتاك المفتون) .

(2) أرفع منزلًا من الفلك .

(3) يأخذ الشاعر على مصلحي الشرق أنهم لم يخرجوا للناس شيئاً ، وأنهم لم يستمسكوا بالسنن الصالحة القديمة ، ولا أخذوا بالسنن الحديثة .

(4) السامري : الذي صنع لقوم موسى عجلاً من الذهب ، ودعاهم إلى عبادته ، فنُّه سحر وضلال .

سُقاةٌ فـي رُبـوع الشـرق طـافـوا | علـى النُّـدمـاء بـالقَـدح الخلـيِّ
سحـابٌ مـا حـوى بـرقـاً قـديمـاً | وليـس لـديـه مـن بـرقٍ فتـيِّ

***

الحضارة الغربية

أرى تثقيـــفَ إفـــرنـــج | فســـادَ القلـــب والنَّظـــر
فَـــروحُ حضـــارةٍ لهـــمُ | خَلَـــتْ مـــنْ عفَّـــة الـــوطـــر
إذا مـــا الـــروح جـــانبهـــا | جمـــالُ الصَّفـــو والطُّهُـــر
فـــأيـــن جمـــالُ وجـــدانٍ | ولطـــفُ الـــذَّوقِ والفِكَـــر

***

أسرار ظاهرة[1]

ما بهم حاجةٌ إلى السيف قومٌ | مـنْ حَـديـد يُصـاغُ فيهـم شبـابُ
أيـن منـكَ الأفـلاكُ ؟ إنَّـك حُـرٌّ | وهـي قَهْـرٌ ذهـابهـا والإيـابُ
مـا اصطخـاب الأمـواج ؟ لـذة سعـيٍ | والـلآلـي يصـوغهـا الـوهَّـاب
ليس يَهوى الشاهينُ مِنْ طولِ خفقٍ | يـا أخـا العـزمِ لا ينلْـك التُّـرابُ

***

---

(١) قال موسوليني لإقبال حين لقيه : منْ ملك الحديد ملك كلَّ شيء . فأجـاب إقبال : من كان هو حديداً فهو كل شيء . وقد ضمن هذا المعنى البيت الأول من هذه الأبيات .

وصية السلطان تِيبُو [1]

طــاويَ البيــداء شــوقــاً ! أقبلــنْ ... لا تعــرَّج ، منــزلاً لا تقبلَــنْ [2]
لا ! وإن ســار بليلــى محمــلٌ ... فـامض شـوقـاً ، محمـلاً لا تقبلـنْ
جـدولَ المــاء ! تقـدَّمْ مُسـرعــاً ... واغـدُ نَهْـراً ، سـاحـلاً لا تقبلـنْ
لا تحَـزْ فـي مَصنَـمِ الكـونِ وسِـرْ ... فـي البـرايـا ، ضَلـلاً لا تقبلـنْ
يـا مُـذيـبَ الحَفـلِ ! لا تقبـل لـه ... حُـرقـة ، كـنْ مِشعـلاً ، لا تقبلـنْ
كــلُّ قلــبٍ ذلَّ للعقــل فقــد ... قـــال ربــي أزلاً : لا تقبلـــنْ
وحّـــدَ الحـــقُّ وثنّـــى بـــاطـــلٌ ... فشَـوْبَ حـقٍّ بـاطـلاً لا تقبلـنْ

***

قطعة

إلى عَصبات العُرب ما أنت منتمٍ ... ولســتُ بهنـديٍّ ولا أنـا أعجمـي

---

(١) السلطان تيبو كان من ملوك المسلمين في ميسور جنوبي الهند . وقد حارب الإنكليز زمناً طويلاً ، وحاول أن يؤلب عليهم دولاً إسلامية ، ويتفق مع نابليون ، وكان في مصر حينئذ . فجمع له الإنكليز ما استطاعوا . فلما يئس من النصر ألقى بنفسه من قلعةٍ فمات سنة ١٢١٣هـ .
وهو عند إقبال ممن تتجلّى فيهم (الذاتية) فقد جعل هذه الوصية على لسانه .
وفي هذه الأبيات أصول من فلسفة إقبال :
يدعو إلى السير الدائب ، وهجر المحمل ولو في صحبة ليلى ، وإلى المضي والتقدُّم والنماء ، فهو يدعو جدول الماء أن يسير حتى يصير نهراً ، وإلى السيطرة على هذا الكون والعلو عليه حتى لا يضل الإنسان فيه ، وإلى أن يحرق الإنسان بحرارة ذاته ولا يقبس من أحد ناراً ، وألا يذل القلب للعقل .
(٢) القافية مردوفة والرويّ اللام في منزلاً وساحلاً . . . إلخ .

فقد علَّمتني (الذاتُ) تحليقَ نافرٍ ... يمرُّ على الدارَين غيرَ محوَّمِ
بعينك أني كافرٌ غير مسلمٍ ... وأنت بعيني كافر غير مسلم
فدينُك تعدادٌ لأنفاس مُحجمٍ ... وديني إحراقٌ لأنفاس مُقْدِمِ[1]
تبدَّلتَ فالتبديل في الشرع حكمةٌ ... فليس يُطيق الظبيُ شِرعة ضيغَمِ[2]
فلست أرى في بيدِك اليومَ جِنّةً ... تشبُّ بهذا العقل نارَ التَّقدُّمِ[3]
إذا حاد عن نار الحياة منغِّمٌ ... فموتُ شُعوبٍ لحنُ هذا المنغِّمِ[4]

* * *

اليقظة

خِدنُ حقٍّ تنبَّهت فيه (ذات) ... كالحسام المصمِّم البرَّاقِ
نظراتٌ لديه تُشرقُ فيها ... ما انطوى في الذرّاتِ من إشراق
إيهِ عبدَ الآفاق ! كيف تداني ... رجلَ الله صاحبَ الآفاق
أنت في البرِّ قاعدٌ عن طِلابٍ ... وهو في البحر مَحرم الأعماق

* * *

تربية الذات

ربِّبِ « الذاتَ » بالرعاية تُبصرْ ... (كفُّ تُرب) يُشيع في الكون نارا[5]

---

(١) أنت تدين بالسكون والإحجام ، فحياتك عدُّ أنفاس ، وأنا أدين بالجد والإقدام فحياتي إحراق أنفاس .

(٢) كرر إقبال هذا المعنى ، يقول : إن الجماعة إذا ضعفت لم تستطع السير على شريعة القوة ، فهي تعمل في تبديلها بدل أن تبدل نفسها .

(٣) يرمز إلى هيام مجنون ليلى في البيداء . والجنون في شعر إقبال الإقدام في غير مبالاة .

(٤) إذا لم تكن الألحان ناطقةً بحرقة الحياة وكدِّها فهي مميتة للهمم .

(٥) تكثر الكناية عن الإنسان بكف من تراب ، أو قبضة من تراب .

إنَّ سرَّ الكليم في الدهر بيدٌ   وشُعيبٌ والرعيُ ليلَ نهارا[1]

* * *

حرية الفكر

بحرية الأفكار هُلك جماعةٍ   إذا لم يكن فيها تَدَبُّرُ عالِمِ
فحريةُ الأفكارِ في رأسِ جاهلٍ   طريقٌ لِرَدِّ الناس مثلَ البهائم

* * *

حياة الذات

إنِ الذَّاتُ حيَّتْ فالفقير مملَّكٌ   ترى طُغرَلًا أو سنجَراً لا يشاكلُ[2]
إنِ الذَّاتُ حيَّت فالبحارُ ضحاضحٌ   إنِ الذَّاتُ حيَّت فالحزونُ مخاملُ
ترى في الحياة الوحشَ قاهر لجّه   وفي موته موجُ السَّراب سلاسلُ

* * *

حكومة[3]

يَرضى المريدونَ قولَ حقٍّ   ليسوا عن الحقِّ بالعُتاةِ
والشيخُ قولَ الفقير يَقلي   وليس للحقِّ بالمُواتي
قد قَعَدَتْ أمّةٌ وباءَتْ   في حَلبة السَّعي بالخَزاةِ
إنْ شغلت عقلَها ببحثٍ   فلسفةُ الذَّات والصِّفاتِ

---

(١) يعني فسحة البيداء وتربية روح عظيمة كشعيب ، والجد الدائب .

(٢) طغرل وسنجر من ملوك السَّلاجقة .

(٣) بمعنى حكم .

دستورُ ذا الديرِ ليس فيه للخمر والشُّرب من ثَباتِ[1]
لكنما راحُهُ نصيب لأمة حُرَّةِ السِّماتِ
الشَّهدُ عند الشباب فيها المرُّ من مورد الحياة

* * *

المدرسة الهندية

إقبالُ أقصر ، هنا لا تُعرف الذاتُ فما لمدرسةٍ هذي المقالاتُ
الخير ألَّا تُرَى في عين قُبَّرةٍ من البُزاة مقاماتٌ وحالاتُ
فلحظة الحرِّ عام للذليلِ فكم تبطىء السَّيرَ بالعُبدان أوقاتُ
ولحظة الحرِّ من خُلدٍ رسالتُه ولحظةُ العبد من مَوتٍ فُجاءاتُ
وفكرةُ الحرِّ من حقٍّ منوّرةٌ وفكرةُ العبدِ تغشاها الخرافاتُ
كرامةٌ حيَّةٌ ماثلةٌ والعبدُ منْ غيره تأتي الكراماتُ
حسب المُقيَّدِ تعليماً وتربيةً تصويرُه ولحونٌ والنباتاتُ[2]

* * *

التربية

فرقُ علمٍ وحياةٍ ليس فيه مِنْ خفاءْ
هو في الرأس ذكاءٌ وهي في القلب ذَكاءْ[3]
قدرةٌ في العلم تبدو ومتاعٌ وثراءْ

---

(١) يكني عن الدُّنيا بالدَّير القديم ، وقد حذفت القديم في الترجمة .
(٢) يعني : حسب الذليل أن يعنى بهذه العلوم والفنون ، لا تدرك نفسه معاني الحياة السامية التي تسيطر بها على العالم .
(٣) ذكاء : اتقاد .

مُعضِــــلٌ أنْ لَيــــس فيــــه ... فــــي خُطــــا السَّيــــر اهتــــداءْ
وأولــــو الأبصــــار نــــزرٌ ... وأولــــو العلــــم زُهــــاءْ
ليــــس بِــــدعــــاً أنَّ كــــأســــاً ... لــــك مــــنْ راحٍ خَــــلاءْ
مــــا طــــريــــقُ الشَّيــــخ فــــي المكتــــب ... للقلــــبِ ضيــــاءْ[1]
كيــــف بــــالكبــــريــــت إشعــــا ... لُ ســــراجِ الكهــــربــــاءْ ؟

* * *

الحسن والقبيح[2]

إنَّ للفكــــر طُلــــوعــــاً وغــــروبــــاً ... كنجــــومٍ ســــابحــــاتٍ فــــي العــــوالــــي
عــــالــــمُ الــــذات بــــه عُلــــوٌّ وسُفــــلٌ ... واعتــــراكُ القبــــحِ فيــــه والجمــــالِ
فــــي اعتــــلاء الــــذات مــــا يبــــدو جميــــلٌ ... وقبيــــح مــــا بــــدا فــــي الاسْتفــــالِ

* * *

موت الذات

مِنْ ممات الذَّات في الغرب ظلامٌ ... وبموتِ الذَّات في الشرق جذامْ
مِنْ ممات الذَّات في العُرب خمودٌ ... ولــدى العُجــم عــروقٌ وعظــامْ
مِنْ ممات الذَّات في الهند جَناحٌ ... هِيضَ في الأقفاص والعشُّ حرامْ
مِــنْ ممــات الــذات يُعــري مسلمــاً ... مِنْ ثيابٍ سادنُ البيتِ الحرام[3]

---

(١) المكتب ـ المدرسة : وفي تركية : المدرسة خاصة بالعلوم الدينية ، والمكتب لما يسمى مدرسة في مصر . والكلمة بعينها في الأصل .

(٢) هنا رأي لإقبال في الحسن والقبح متصل بفلسفته في الذات وقوتها وعلوها . يقول : ما تدركه الذات في اعتلائها جميل ، وما تدركه في استفالها قبيح .

(٣) في الأصل « شيخ الحرم يبيع ثوب الإحرام ويأكله » والمعنى أن موت الذات قعدت بالمقيمين في الحرم عن المساعي ، وسوغت لهم سفساف الأمور ، فطوعت لهم =

ضيف عزيز

ضميرُ أولي المدارسِ في ازدحامٍ بــأفكــارٍ كمــا امتــلأ القفيــزُ
وهــذا العصــرُ مــاضٍ فــي هــواه جميــلاً مــن قبيــحٍ لا يَميــزُ
ففــي جَنَبــات قلبــك أخــلِ بيتــاً عسى يثوي بـه ضيـفٌ عـزيـزُ[1]

* * *

العصرُ الحاضر

فأينَ يُصيب المرءُ ناضجَ فكرةٍ وأجواءُ هذا العصر لا تُنضِجُ الثَّمر
مــدارسُ فيهــا كــلُّ عقــل محــرَّرٌ ولكنْ بهـا الأفكـارُ عِقْـدٌ قـد انتثـر
أطاحت بعشق الغرب أفكارُ ملحدٍ وعبَّدَ عقلَ الشَّرق فَوضى من الفِكَر

* * *

طالب العلم[2]

الله يحبـــــوك عِلمـــــاً بمـــــانجـــــاتِ العُبـــــابِ
فـــــإنَّ بحـــــرَكَ رَهْـــــوٌ مـــــا يُبْتَلـــــى بـــــاضطـــــرابِ
لـــــن تستطيـــــع فـــــراغـــــاً فـــــي السِّفْـــــر مـــــن أبـــــواب

= أنفسهم أن يأخذوا ثوب الإحرام ليعيشوا به .

(١) ينبغي أن يخلى القلب حيناً من الأفكار المتزاحمة التي تشغله ليفرغ للواردات النفسية ، والمعاني الروحية العالية .

(٢) يريد إقبال بالتعليم إيقاظ نفس الطالب ، وتحريكها ، وإثارتها للنظر ، وحفزها للمطالب العالية ، لا تلقينها مسطورات الكتب .

فـــأنـــت قـــاري كتـــابِ ... ولســـتَ أهـــلَ كتـــاب

***

امتحان(١)

قال نهرُ الطَّوْد يوماً للحجر : ... بسقـــوطٍ وانتكـــاسٍ تفتخـــر !

أنـــت لـــلأقـــدام والغـــمّ لَقًـــى ... وأنـــا يشتـــاقنـــي بَحـــرٌ وبَـــرّ

لـــم تُـــدَهْـــدَهْ مـــن جِـــدارٍ مـــرّةً ... كيـــف تُـــدرى أزجـــاجٌ أم حجـــر ؟

***

المدرسة(٢)

مَلَـكُ المـوتِ عصـرُنـا يتـوفَّـى ... كـلَّ نفـس بفكـرةٍ فـي المعـاش

يَـرجُـف القلـبُ مِـنْ كفـاحِ حيـاةٍ ... وهـي مَـوتٌ لمُشفـقٍ مـن هِـراش

أبعـدَ الـدرسُ عـن حِجـاك جُنـونـاً ... صـاحَ بـالعقـل : لا تَلُـذ بِنِقـاش(٣)

عيـــنُ صقـــر مُنِحتَهـــا وعليهـــا ... وضـــع الـــرقُّ نظـــرةَ الخفَّـــاش

حجبـتْ دونـك المـدارس سـرّاً ... هـو فـي البيـدِ والـرَّواسـخِ فـاشِ

***

---

(١) في الأبيات التالية يضرب إقبال مثلاً لرأيه في أنَّ الكدَّ والجهد يقويان الإنسان ، ويرفعانه ، وأنَّ الحياة لا تكمل دون عناء ـ يمثل بالنهر المنحدر من الجبل يهوي من صخر إلى صخر . . . إلخ .

(٢) يقول إقبال : إنَّ المدارس وسيلة إلى الوظائف ، وسبيلٌ إلى المعايش ، وهي لا تقدم بالإنسان على جهاد الحياة ، بل تهبط بالفطرة ، وتحجب عن الإنسان أسرار الخليقة . وإن يكن عنى مدارس الهند فما أشبه كثيراً من المدارس بها ! .

(٣) جنونٌ يقول للعقل أقدم ولا تتعلل بالجدل وتلذ بالمعاذير .

الحكيم نيتشه[1]

أي قــدرٍ لــذا الحكيــم ولكــن لــم يكــن أهــلَ نكتــةِ التَّــوحيــدِ
ليــس إلا لــذي البصيــرة يبــدو ســرُّ معنــىً بـ (لا إلٰــه) بعيــدِ
أرسـلَ الفكــرَ أسهمـاً فـي سمـاء وحوى الشمسَ بـالخيال المديـدِ
طـاهـرُ الطِّيـن فـي التـرهُّـب لكـن لـذةُ الإثـم نُصـبُ طَـرْفٍ حـديـدِ

***

الأساتذة

إنْ كان تربيةُ الياقوتِ مقصِدَنا فما شعاعٌ رمَته الشمسُ حيرانُ[2]
وما المدارس أو ما الدارسون بها وللـروايـات عــمَّ الأرضَ إذعـانُ
كـانـت جديـراً بقَـود العصـر أدمغـةٌ يقـودهـا العصـر مـا فيهـنَّ نُكـرانُ

***

قطعة

يبلــغُ المنــزلَ ســارٍ لا ينــامْ مُسرجٌ عينَ هِـزبْـرٍ فـي الظـلامْ
إنَّمــا للعبــدِ تُمنَــى راحــةٌ ليس للحـرِّ علـى الأرض حمـامْ

---

(١) إقبال يعجب بنيتشه الفيلسوف الألماني وفي فلسفته شبه بفلسفته ، ولكنه يأخذ عليه أنَّه عرف العقل لا القلب ، وأدرك العلم لا العشق . وهنا يقول : لم يكن « لنكتة التوحيد أهلاً ، وأنه كان صرورة عفاً ، ولكن كان يتشوَّف إلى لذة الإثم ، فيكثر الحديث عنها » .

(٢) يقول الطبيعيون القدماء : إنَّ العقيق والياقوت ونحوهما من الأحجار النفيسة تنضج بأشعة الشمس . ويقول إقبال : إن كان القصد تربية النشء فلا تجدي هذه الأشعة الحائرة المتفرقة . تربية النشء تقتضي أن يؤثر الأساتذة في التلاميذ تأثير أشعة الشمس المتجمعة في الأحجار النفيسة .

قـد أزاغَ العيـنَ فـي الغـرب سَنـاً لك من صاحبِ ﴿ ما زاغ ﴾ إمامْ[1]
ذاكـمُ الحفـلُ الـذي أكـؤسـه كنجـومٍ ، لمحـةٌ فيـه المُقـامْ
أعمَـتِ الأسفـارُ حِسّـاً فـالصَّبـا لـم تعطِّـر لـك من روضٍ مشامْ[2]

***

الدِّين والتعليم

قـد عـرفنـا قـدرَ أشيـاخ الحَـرَم كـلُّ دعـوى دون إخـلاصٍ سَقَـم
ولتعليـم النَّصـارى نغـمٌ ليـس مـن ديـنٍ وخُلْـقٍ ذا النَّغَـم
تكتـبُ الـذُّلَّ علـى أقـدارهـا أمَّـةٌ بـالـذات فيهـا لا تُهَـمّ
ربمـا تَغفِـرُ للفـرد ولا تغفِـرُ الفطـرةُ آثـام الأمـم

***

إلى جَاوِيد[3]

\- ١ -

حَـربٌ علـى الأديـان ذا الـزمـانُ مـركَّـبٌ فـي طبعـه الكفـرانُ

---

(١) يشير إلى الآية في سورة (النجم) ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] وصاحب ما زاغ هو الرسول عليه السلام .

(٢) يعني أنَّ العكوف على الكتب أمات الحس . فالصَّبا تمرُّ على الروض ، وتأتي الأيك فلا تشم رائحة الروض فيها . حجبت الكتب عن النفس إدراك المعاني الروحية العالية ، وأغفلت الإنسان عن وحي الكون .

(٣) جاويد ابن الشاعر ، وباسمه نظم « جاويد نامه » الديوان الخالد .
والأبيات الآتية معارضة لشعر نظامى الجنزي (الكنجوي) الذي ينصح فيه ابنه . وقد ختم إقبال كل قسم من الأقسام الثلاثة الآتية التي قسم إليها نصيحة جاويد ببيت فارسي من أبيات نظامي التي نصح بها ابنه . ونظامي من أئمة شعراء الفرس .

سُـــدَّة أهـــل الله ـ فـــاطلُبنْهـــا ـ أرفـــعُ ممـــا شيَّـــد السُّلطـــانُ

لكنـــه « الحـــقُّ » عصـــرُ سحـــرٍ السِّحـــرُ فـــي أمـــوره ميـــزانُ

عيـــنُ الحيـــاة مـــاؤهـــا نَضُـــوبٌ فـــأيـــنَ راحُ الليـــل والـــرَّيحـــانُ

مَـــنْ كـــان فـــي نظـــرتهـــم سِهـــامٌ منهـــم خـــلا الكُتَّـــاب والـــديـــوان

لكنمـــا الـــدَّار التـــي ســـراجٌ أنـــت لهـــا مَـــذاقُهـــا عِـــرفـــانُ[1]

إنْ تـــك (لا إلٰـــه) فـــي ضميـــر فـــالغـــرب مـــن تعليمـــه أمـــانُ

عُشُـــك فـــوق (الـــذات) أحكِمَنْـــه ثـــم اطـــرَبَـــنْ مـــا شـــاءت الأغصـــانُ

الآدمـــيُّ يـــا بنـــيَّ بحـــرٌ فـــي كـــلِّ قطـــرةٍ بـــه طـــوفـــانُ

مِـــن حَبَّـــة تـــرى ألـــوفَ حَـــبٍّ إمّـــا جفـــا راحَتـــه الـــدِّهقـــانُ

لا تغفلَـــنْ فـــلاتَ حيـــن لِغَـــبٍ العلـــمَ حصِّـــلْ واسْتَهِـــنْ بـــالصَّعْـــبِ

ـ ٢ ـ

إنْ لـــم يكـــنْ فـــي الصَّـــدر حرُّ قلـــب لـــم تنضـــجِ الحيـــاة فـــي هُمـــام

إن ينشَـــطِ الغـــزالُ فـــي ذَكـــاء لـــم يظفـــرِ الصَّيـــادُ بـــالمَـــرام[2]

مـــاءُ الحيـــاة هـــاهنـــا قـــريـــبٌ طـــريقُـــه حـــرارةُ الإقـــدام[3]

فـــي غيـــرةٍ أرى طـــريـــقَ حـــقٍّ الفقـــرُ بـــالغيـــرة فـــي تَمـــام

---

(١) يعني : دار إقبال التي نشأ بها جاويد .

(٢) إنَّما يصاد الصيد حين يغفل ، أو يبطىء . فإن كان يقظاً وثَّاباً لا يظفر به الصياد . فالإنسان لا تخضعه الحادثات إن صحبه الذكاء والإقدام .

متى تحملِ القلب الذَّكيَّ وصارماً وأنفـاً حميـاً تجتنبْـكَ المظـالـمُ

(٣) ماء الحياة يوجد في هذه الدنيا والسبيل إليه الجدُّ والكدُّ ، وشدَّة العطش . كما قال في رسالة المشرق :

غصـــنُ الحيـــاةِ نـــدي مـــن ظمئنـــا فـــي الطُّـــلاب

يـــا قـــرةَ الأعيُـــنِ مستحيـــلٌ لبـاشــقٍ ضَــراعــةُ الحَمـــام[1]
ليـس المقــالُ فــي الأنـام نـزراً كـم أنـوريٌ عنـدهـم وجـامـي[2]
وإنمـــا بيـــن الـــورى متـــاعـــي نُـــواحُ خـــالٍ فـــي دُجـــى الظَّـــلام
وصـــدقُ أقـــوال بهـــا تـــرانـــي فـــي نظـــر الـــدُّنيـــا مـــن الكـــرام
مـــوهبـــةُ الخـــلاَّق لا تُـــراثٌ نبـــاهـــة الـــذِّكـــر علـــى الأيَّـــام
لنـــور عينيـــه يقـــولُ نصحـــاً مـــا أجمـــل المقـــالَ مـــن نظـــامـــي[3]
أبـــوَّتـــي ليســـت بـــذات بـــالِ فـــي حَلبـــة السَّبـــقِ إلـــى المعـــالـــي

- ٣ -

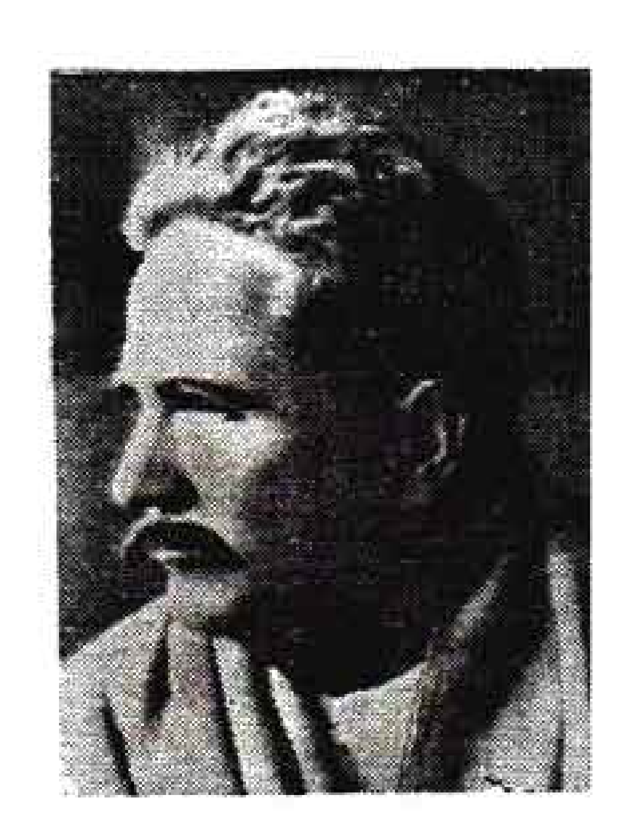
عـــبءٌ علـــى المـــؤمـــنِ ذي الليـــالـــي الـــدِّيـــنُ والـــدولـــةُ فعـــلُ هـــازي
ولا أرى نشـــوان فـــي كِفـــاحِ فليـــس إلا كَلِـــمٌ نَـــوازي
فـــإن تكـــن ذا همَّـــة فـــأقـــدم وابتـــغ فقـــراً أصلـــه حجـــازي[4]
الآدمـــيُّ منـــه فـــي صِفـــاتِ كـــالله مستغـــنٍ بـــلا إعـــواز
هـــذا المَقـــامُ للبُغـــاث حَتـــف فـــإنمـــا هـــذا مقـــام البـــازي
تُضـــيء عيـــنُ العقـــل مـــن سَنـــاهُ مـــا بـــابـــن سينـــا كُحِلـــت والـــرازي
سطـــوةَ (محمـــودٍ) تُصيـــب فيـــه إنْ لـــم يكـــن طبعُـــك مـــن إيـــاز[5]
فـــذاك فـــي دنيـــاك إســـرافيـــلٌ مـــن نَفَخـــات النَّـــاي فـــي اشمئـــزاز[6]

---

(١) الباشق ضرب من الطيور الجوارح . ولا يذل الباشق كالحمام ، فكذلك الكرام لا تضرع ضراعة الحمام .
(٢) ليس الكلام في الناس قليلاً ، فكم فيهم من شاعر مثل الأنوري والجامي . وهما من كبار شعراء الفرس .
(٣) نظامي شاعر فارسي كبير ذكر في مقدمة هذه الأبيات .
(٤) فقر نسب إلى الرسول الحجازي . راجع المقدمة في الكلام على الفقر .
(٥) السلطان محمود بن سبكتكين وغلامه إياز يشيع ذكرهما في الآداب الإسلامية الشرقية . وضرب محمود وإياز هنا مثلاً للعظمة والحقارة .
(٦) فذاك : إشارة إلى الفقر فنفسه لا يلائم الناي ولكن صور إسرافيل .

نظـــرتُـــه المثيـــرةُ الليـــالـــي ساريـــةٌ بـــالكـــون فـــي ارتجـــاز
وصـــاحـــب الفقـــر الغيـــورِ هـــذا بـــلا ســـلاحٍ فـــي الـــزمـــان غـــازِ
إمـــارة المـــؤمـــن فيـــه ســـرُّ عطيّـــةُ الـــوهَّـــاب هـــذا الفقـــر

***





القسم الثالث

المَرأة






الرَّجل الإفرنجِي

كـم حكيـمٍ قـد تمنَّـى حلَّـه ... مشكـلُ المـرأة فـي هـذي الحيـاةِ
لا تلُمْهـا فـي فسـادٍ شـائـعٍ ... شهـدتْ بـالطُّهـر كـلُّ النَّيِّـراتِ
عِشـرة الإفـرنـج نهـجٌ مُفسـدٌ ... جهِـل الحمقَـى طبـاعَ المحصَنـاتِ

* * *

سؤال

إلـى عـالـم الغـرب مـن أسلسـت ... له الرومُ والهندُ يُزجى سؤالْ :
كمـال معـاشـرةٍ عنـدكـم ... حيـالُ النِّسـاءِ وعُطْـلُ الـرِّجـال ؟[1]

* * *

حِجاب

أرى فلكـاً كـلَّ حيـن للـونٍ ... ولـم تَنـضُ دنيـاك هـذا الإهـابْ
ولا فـرق مـا بيـن عِـرسٍ وعِـرسٍ ... فـذي فـي نقـابٍ وذا فـي نقـابْ[2]
ولـم يـزلِ النَّـاس رهـنَ حجـابٍ ... ومـن بَـرزتْ ذاتـهُ مِـنْ حجـابْ ؟

* * *

---

(١) الحيال : الخلو من الحمل .
(٢) نقاب الرجل والمرأة في هذا البيت يفسره ما في البيت الذي بعده ، أنَّ الذات لا تزال في حجاب . والعرس : الزوج للرجل والمرأة .

الخلوة

فَضَحَ العصرَ جِنّةٌ بالسُّفُورِ نُورُ عَيْنٍ وظُلمةٌ في الصُّدورِ
إن تجُز متعةُ العيون مَداها كان فيها الشتاتُ في التفكيرِ
قطرةُ الماء لا تُحوّل دُرّاً دون أصدافها بقاعِ البحورِ
تُمسكُ الذّاتُ نفسَها حين تَخلو لا خلاءٌ بمسجدٍ أو ديورِ

* * *

المرأة

إنّما المرأةُ لونٌ في رسوم الكائناتِ
لحنُها ينفث نارَ الوَجد في صدر الحياةِ
ذلك الطينُ تعالى فوق أوْج النَّيِّراتِ
إنها دَرجٌ لديها كلُّ دُرٍّ من صفاتِ
ما لأفلاطون تَروي من قضايا معضلاتِ
وهو منها كشرارٍ من ذكيِّ الجَمراتِ[1]

* * *

حرِّيةُ النِّساء

قضيةُ عصرٍ لستُ فيها بفَيْصلٍ وإنْ كنتُ بين الشَّهد والسُّمِّ أفرِقُ
وما نفعُ أقوالٍ تزيدُ مَلامتي وقبلاً بنو التمدين عنّي تفرقوا
يبيِّنُ هذا السِّرَّ وجدانُ مرأةٍ ويَعجِزُ عنه في الرِّجال المحقِّقُ

---

(1) يعني : أن المرأة لا تتفلسف ، ولن تلد الفلاسفة .

أحـرِّيـة النِّسـوانِ أجمـلُ زينـةً أم الجيـدُ بـالـدرِّ الثميـنِ يطـوَّقُ[1]

* * *

حصانة المرأة

فـي الصَّـدر حـقٌّ ليـس يُـدركـه مـن حـاز بـردَ دِمـائـه عَصَـبُ
حفـظُ الأنـوثـة فـي يـديْ رجـلٍ لا العلـم يحفظهـا ولا الحُجُـبُ
إنْ غـاب هـذا الحـقُّ عـن أمـمٍ فكسـوفُ شمـسٍ فيهـمُ كَثَـبُ

* * *

المرأة والتعليم

مَوْتَ الأمومة إن رامت حضارتُهم فالموتُ عاقبة الإنسان في الغربِ
إنْ يجعـلِ المـرأةَ التعليـمُ لا امـرأةً فالعلمُ مَوتٌ يراه صاحبُ القلبِ
إنْ تحـرمـنَّ الفتـاةَ الـديـنَ مـدرسـةٌ فالعلمُ والفنُّ موتُ العِشق والحبِّ[2]

* * *

المرأة

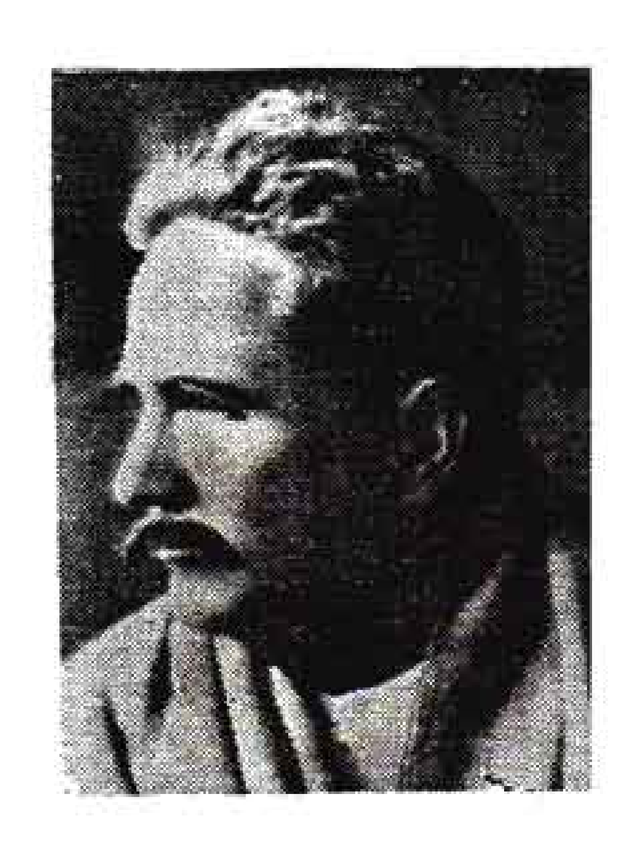
بغيـره يتجلَّـى جـوهـرُ امـرأةٍ ووحـدَه يتجلَّـى جـوهـرُ الـرَّجـلِ
حـرارةُ الشَّـوق سـرٌّ فـي بـلابلهـا كيـانُهـا لـذَّةُ التخليـق كـالشُّعَـلِ

---

(١) هذه قضية لا يفصل فيها إلا المرأة : أحرية المرأة كما نرى اليوم أحبُّ إليها . أو غل عنقها بعقد من اللؤلؤ في رعاية زوج وصيانة بيت .
(٢) إن أغفلت المدرسة الدين الذي يحفظ للمرأة حرمتها وحدودها ؛ فعلمها وفنها موت عاطفة المرأة ، وذهاب الحب الحق .

من هذه النار أسرارُ الحياة بَدَت والخلقُ والموتُ منها في وغىً زَجِلِ
كذلكم في فؤادي للنساء أسىً لكنَّها عقدةٌ أعيتْ على الحيل[1]

***

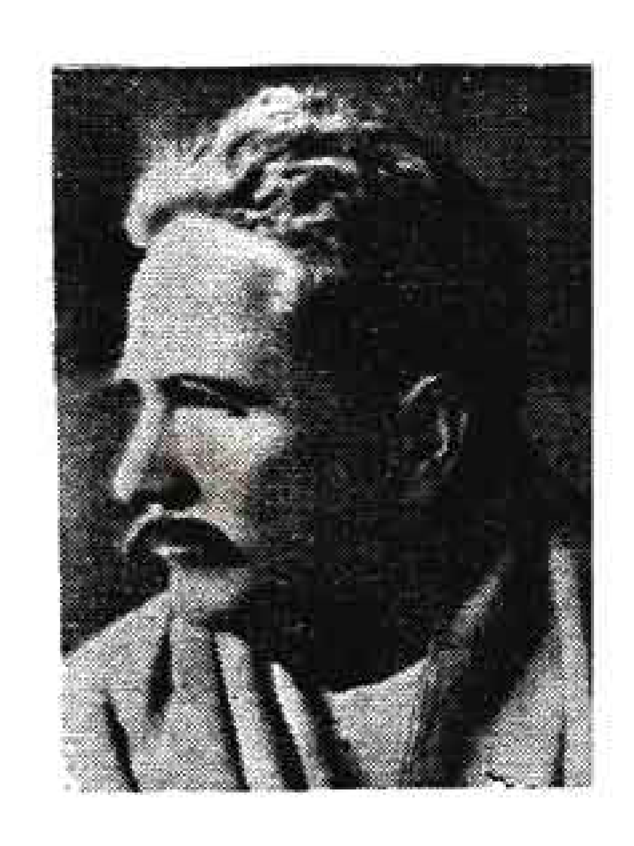


(١) هو كذلك يرثي للمرأة مما أعدتها الفطرة له وما حملتها إياه . ولكن لا حيلة لأحدٍ في هذا .



القسم الرابع

الأدب والفنون







الدِّينُ والفنُّ

الدِّينُ والفنُّ والتدبير والخُطَب ... والشِّعر والنَّثر والتحريرُ والكتبُ
كـلٌّ يُحيـط بمكنـونٍ يَضـنُّ بـه ؛ ... فـي صـدره يتوارى جوهرٌ عَجَبُ
ومـن ضميـرِ سليـلِ الطِّيـن مطلعُهـا ... لكنْ لها من وراء الزُّهْر مضطرَبُ[1]
إنْ تحفظِ « الذاتَ » هذي فالحياةُ بها ... أوْ لم تطقْ ذاك فهيَ السِّحر والكَذِبُ[2]
كم أمةٍ تحت هذي الشمسِ قد خَزِيتْ ... إذْ جانب الذاتَ فيها الدِّينُ والأدبُ

* * *

التخليق

جِـدَّةُ الـدُّنيا بتجـديـد الفِكَـر ... ليسـت الـدُّنيـا بصخـرٍ ومَـدَرْ
همَّـةُ الغـائـص فـي « الـذَّات » لهـا ... مـن غـديـرِ المـاء بحـرٌ قـد زَخَـر
قـاهـرُ الأيـام مـن أنفـاسـه ... هـي أعمـارُ خلـودٍ فـي الـدَّهَـر
ريـحُ أصحـابٍ مـن البيـد أتـت ... لا عجيـبٌ إنْ بـدا خِـذْن سفَـر[3]

* * *

---

(١) سليل الطين : الإنسان .

(٢) الدين وسائر ما ذكره في البيت الأول مقصدها حفظ الذات . . . إلخ .

(٣) يعجب إقبال بالبادية : لأنَّ الذات فيها أقوى ، ولذكرى الرسول وأصحابه الذين أخرجوا للعالم الحياة والقوة . وهو يجد من البادية ريحاً تبشر بصاحب مسعدٍ له ، يدعو دعوته ، ويحقق أمله .

جُنون

واهـنُ البيـت شـاعـرٌ وفقيـهُ — وطـوى البيـدَ ـ ويحـه ـ المجنـونُ
فـي طمـاحِ الجنـون أيُّ كمـالٍ — حيـن تعـدو البيـداء منـه فنونُ[1]
فلـه فـي الـدروس أيضـاً مجـالٌ — ليـس وقفـاً علـى الفيـافـي الجنون

* * *

إلى شعره

لـيَ مـن فعلـك شكـوى : — همـتَ فـي حُـبِّ الطلـوعْ
شِغفـتَ عـن قلبـيَ فـالأسـ — ـرارُ عـن قلبـي تَشيـعْ
لا تكـنْ مثـلَ شَـرارٍ — نـدَّ عـن نـارٍ يضيـعْ
والتمـس خلـوةَ صـدرٍ — فيـه مـن نـارٍ ضلـوعْ

* * *

مسجدُ « باريس »

يـا نظـري لا يخـدعنَّـك فنُّـه — للـزُّور هـذا الحـرَمُ المغـرَّبُ
وليـس هـذا حـرَمـاً لكنَّـه — عنـد الفـرنـج للغـرام ملعـبُ
قـد أخفـت الإفـرنـج رُوحَ مَـوثـنٍ — فـي صـورةٍ مـن حـرَم تُكـذِّبُ[2]
إنَّ الـذي شيّـد هـذا مـوثَنـاً — دمشـقُ مـن عُـدوانـه تخـرَّبُ

* * *

---

(١) إن تجاوز البيداء إلى الحضر فنونه ، وفيه إشارةٌ إلى مجنون ليلى .

(٢) الموثن : معبد الأوثان .

الأدب[1]

رأيتُ العشق يقفو اليوم نهجاً ... من العقل الإلٰهيِّ القويم
وليس يُريق ماءَ الوجه ذلًّا ... على عَتبات محبوبٍ غريم
محا التقليدَ في روح قديمٍ ... وأحيا الروح في جسدٍ قديم

* * *

البصيرة

الربيعُ النضيرُ مِلءُ الفضاء ... وجيوشُ الشَّقيقِ في الصحراء
وشبابٌ ومتعةٌ وسُرورٌ ... ودلالٌ ونشوةٌ بالفَتاء[2]
وعيونُ النُّجوم في حَلَك الليل ... وسَبْح الأفلاك في الدأماء[3]
وعَروسُ الهلال في هَودج الليل ... تَهادى بموكبٍ للقاء
وتبدِّي ذُكاءَ في رَونق الصُّبح ... وصمتُ الأفلاك في ذا الرُّواء
سرِّح العينَ، لا تكلَّفُ أجراً ... لا يباعُ الجمالُ في ذا الفضاء

* * *

مسجدُ قُوة الإسلام[4]

تملأ صدري همومُ مفؤودِ ... لم يبق إلا ادِّكارُ مفقودِ[5]

---

(١) بهذا يُجمل الشاعر طريقة الأدب الحديث، فهو مزاج من القلب والعقل. وهو يجدد الروح في صور قديمة، أو يحرر من التقليد الأرواح العتيقة. (كُتبت هذه الأبيات في بهوفال. ـ رياض المنزل ـ دار السيد راس مسعود).

(٢) الفتاء: الشباب.

(٣) الدأماء: البحر.

(٤) مسجد عظيمٌ شامخٌ في دهلي، هدمت بعض جدره.

(٥) المفؤود: حزين الفؤاد.

قـد خمـدت «لا إلٰـه» لا حُـرَقٌ ... ولا تجـلُ ثَـواءَ ملحـودِ

فـي الخلـق كـلُّ العيـون تنكـرنـي ... أعيـا إيـازاً مقـامُ محمـودِ[1]

مِنْ صَخرِكَ المسلمونَ في خجَلٍ ... لجـوهـرٍ كـالـزُّجاج معـدودِ[2]

فـإنَّمـا كُـفءَ مـا تمثُّلـهُ ... صـلاة حُـرٍّ ربيـبِ تـوحيـدِ

جـلالُ تكبيـره لـذي أذُنٍ ... فيـه وغـى هـالـكٍ ومـوجـودِ

ومـا صـلاتـي بقلـب ذي حُـرَقٍ ... ولا دُعـائـي دعـاءُ معمـودِ

ولا أذانـي جـلالُ مقتـدرٍ ... فكيـف تـرضـى سجـودَ رِعـديـدِ

* * *

مسرح

تضـيء حـريـمَ وجـودكَ ذاتُـك ... كِفـاحٌ بهـا وسـرورٌ حيـاتُـك

لهـا فـوقَ أوجِ الثُّـريـا مَقـام ... جُليـتَ بهـا وتجلَّـتْ صِفـاتُـك

أمِـن «ذات» غيـرك تَعمُـر قلبـاً ... معـاذ الإلٰـه! تُـرَى أيـن ذاتُـك؟

فـلا تبعثـنْ وُثنهـا بعـد مـوتٍ ... فتحيـا منـاتُـك فيهـا ولاتُـك[3]

كمـال المحـاكـاة أنـت تَفنـى ... فيكفيـك هـمَّ الحيـاة ممـاتُـك[4]

* * *

---

(١) السلطان محمود وإياز مولاه ، أي لا ينال العبد مقام السيد .

(٢) لجوهرهم الضعيف كالزُّجاج .

(٣) الوثن : جمع وثن . ومناة واللات صنمان ذكرا في القرآن .

(٤) كمال التمثيل أن يفنى الممثل فيما يمثله ، فعليك أن تفنى فيمن تحاكيه ما دمت مقلداً فتستريح من عناء الحياة .

شعاعُ الأمل [1]

ـ ١ ـ

تنادي أشعتَها في ضجَر ذُكاءُ وتجمعُ منها النشَر [2]
عجبتُ لدنيا نهارٌ وليلٌ عجبتُ عجبتُ لدنيا الغِيَر
إلامَ الهُيامُ بهذا الفضاء وجورُ الزَّمان بكنٍّ استمرّ
فلا دِعَةٌ في اتقادٍ برملٍ تَلألأُ ذرَّاتُه كالشَّرر
ولا دِعَةٌ في دوام طوافٍ طوافَ الصَّبا في رياض الزَّهَر
تجمَّعْنَ في صدريَ المستنير ودَعْنَ البداةَ ودَعْنَ الحضَر

ـ ٢ ـ

تداعى الأشعةُ من كلِّ صَوبٍ إلى الشمس تبغي لديها قرارا
وصاحت : تعذَّر في الغرب نورٌ دُخانُ المصانع يكسوهُ قارا
وفي الشَّرق قلبٌ بصيرٌ ولكن كعالَم غيبٍ بصمتٍ توارى
أنوارَ العوالم ! لا تهجُرينا إلى نور صدركِ آوى الحَيارى [3]

ـ ٣ ـ

شُعاعٌ جريءٌ له نظرةٌ كنظرةِ حوراءَ تغزو الضميرْ
ولا يستقرُّ على حالةٍ ترى زئبقاً في ضياء يموزْ
يقول : أُضيءُ على الشرق حتى أرى ذرَّةً كشموسٍ تنيرْ

---

(١) لعلَّ الشاعر يعني نفسه بشعاع الأمل . الشمس يئست من إضاءة في الشرق أو الغرب ، فدعت أشعتها إليها ، فجاءت الأشعة إلى صدر أمها معترفة بيأسها إلا شعاعاً جريئاً يقول للشمس : ذريني أضيء الشرق ، ولا تيأسي ، فكل ليلٍ إلى صباح . الشاعر يرى في أمله ودعوته في الشرق هذا الشعاع .

(٢) النشر : المنتشر المتفرق .

(٣) الخطاب للشمس .

وأجلو عن الهند هذا الظلام فأوقظ نُوّامها للنُّشوز
ففيها من الشَّرق آماله « وإقبالها » بالدُّموع مَطير
تضيء بها أعين النيِّرين حصاها يَلوح كدرٍّ منير
وكم عاش في أرضها غائصٌ يرى كالضَّحاضِحِ لجَّ البحور
فأعوزَ أعوادَها عازفٌ وكانت تَهيجُ الجَوى في الصدوز
ينام البَرَهْمَنُ في سُدَّةٍ لدى مَوْثَنٍ والزَّمانُ يسيز
ومسلمها خِدْنُ محرابه ينوحُ ومن قَدَرٍ يستجيز
فلا يحزُنَنكِ من الشرق نومٌ وفي الغرب لا ترهبنَّ الشُّرور[1]
قضت فطرةُ الله أن تُبْدِلي بليلِ الظلام صباحَ السُّفور

* * *

أمل [2]

لستُ من أجنادِ حربِ لا ولا ربُّ لِواءْ
بيد أني في صروف الدَّهـ ـر تَبتٌ في اللقاءْ
عُدَّتي ذكرٌ وفكرٌ وهُيامٌ وغناءْ
لست أدري أهو شعر أم سواه ذا العطاءْ[3]
إنَّ عبد الحق يُزهَى في محيَّاه ضياءْ
من جلالٍ ظلَّ فكرُ الكون منه في امتلاء
ليس دون الكفر إنْ لم يكُ كفراً ذا البلاء
أنْ يُرى بالحاضرِ المشـ ـهود للحرِّ سِباءْ[4]

---

(١) الخطاب للشمس .

(٢) كتب في بهوبال ـ رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .

(٣) هو يدري أنّه وهبه الذكر، والفكر، والهيام، والغناء، ولا يدري أهذا شعر أم شيء آخر.

(٤) ليس أقل من الكفر أن يأسر الحرَّ ما يراه ويشهده ، فيقيد به فكره وعمله . فالحرُّ =

لا تـذب غمّـاً فكـم فـي الـدهـ ـــر أدوارٌ وِضـــاءُ
كــم نجـــومِ حـــادثـــاتٍ ســـوف تجلـــوهـــا السّمـــاءُ

* * *

البصيرة

لم تُخفِ هذي الكائنات ضميرَها شـوقُ الظُّهـور يَثـورُ فـي ذرّاتهـا
إنْ صـاحبَ النظَراتِ شـوقُ بصيرةٍ تتبـدّلِ الأيـامُ فـي جَلَـواتهـا[1]
من ذي البصيرة في الليالي قد غدا أبنـاء مـن خضعـوا لهـا ساداتهـا
مِـنْ ذي البصيـرة لـي جنـون ثـائرٍ عَرفـتْ بـه الـذّراتُ طيَّ فلاتهـا[2]
هــذي البصيـرةُ لا تيسّـر لامـرىء تَخـزَى القلـوبُ بنفسـه وسِمـاتهـا

* * *

إلى أهل الفنّ[3]

رأيــت الكــواكــبَ لَمَحــاتِ نــورٍ وذاتُــك بــالعِشْــق رَهــنُ خلــودْ

= لا يقيده ما يسمى « الأمر الواقع » .

(١) يعني أنَّ نظرة البصيرة تنفذ إلى حقائق الأشياء فترى الدُّنيا على غير صورتها الظاهرة .

(٢) الجنون : هو الحماس والإقدام . ويعني الشاعر أنَّ بهذه البصيرة ثار هذا الجنون في نفسه ، فهذه الذرات التي تطوي الفلاة تعلمت من جنونه طي الفلاة . والشاعر يقرن الجنون بالفلاة إشارة إلى قصة مجنون ليلى (تراجع المقدمة في معنى الجنون) .

(٣) مذهب الشاعر أنَّ الفنَّ ينبغي أن يحرر من محاكاة الطبيعة ، وينبغي أن يصور « ذات » صاحب الفن . فالكواكب لمحات من نور لا ثبات لها ، و« الذات » العاشقة خالدة . وضمير الإنسان لا تحده الألوان . والذات تخلو للذكر والفكر ، وتظهر للشعر والإنشاد غير خاضعة لهذا العالم . والرُّوح المستعبدة فيها عبد ، والروح المقدرة نفسها تسيطر على كل شيء .

تعالى ضميرك عن كلِّ لونٍ — فعفتَ من اللَّونِ كلَّ القُيودْ
وغيبةُ ذاتك ذكرٌ وفكرٌ — ومحضرُها شعرُها والنَّشيدْ
إذا أضنَتِ الروحَ آلامُ رقٍّ — ففنُّك عبدٌ رهينُ سجودْ
وإنْ عرفتَ قدرَها كنتَ حقاً — على الجنِّ والإنس ربَّ الجنودْ

* * *

قطعة

ثائِرَ الموج كم لدى البحر درٌّ — وعلى السَّاحل الصَّموت غُثاءُ[(١)]
في شَراري سنا البروقِ ولكنْ — رَطبة العُود هذه القَصباءُ[(٢)]
ولكَ الوقتُ والتصرُّف فيه — ليس يا غِرُّ ! للنُّجوم غناءُ
قد رأينا عجيبةً من جنونٍ — فيه رَفْو لما يشقُّ القضاء[(٣)]
إنَّما الكامل الخلاعةِ شهمٌ — دون مَنٍّ الكروم فيه إنْشاء[(٤)]
وإلى اليوم حانةُ الشَّرق فيها — خمرةٌ للشُّعور منها جَلاء[(٥)]
يئس المبصرون من أمم الغـ — ـرب ففيها بَواطنٌ سَوداء

* * *

---

(١) الدرُّ في ثورة الموج ، وليس في سكون السواحل إلا الغثاء ، فالحياة جدٌّ وكدٌّ ، لا سكون .

(٢) شراري يحرق كالبرق ، ولكن هذه النفوس كالقصب الرَّطب لا تشتعل .

(٣) بعض الجنون يغير ما يظنه الناس قضاءً ، فهو يرفو ما يمزقه القضاء ، أي يصلح في هذا العالم مذللاً الطبيعة ، وما يحسبه الناس قضاء وقدراً في هذا الكون .

(٤) رجل نشوان بفكره وعمله مقدم بنفسه في غنى عمن يؤثر فيه سكران بغير خمر .

(٥) الخمر المؤثرة تحجب الشعور ولكن خمرة الشرق لا تؤثر فهي تزيد الشعور جلاء .

الوجود

أنتَ تحت الشَّمس تَمضي كشرارٍ ... لستَ تدري ما مَقاماتُ الوجودْ
ليس في فنِّك للذات بناءٌ ... ويلُ تصوير وشدوٍ وقصيدْ
ليس في المكتب والحانة إلا ... درسُ إفناء به الذات تبيدْ
ليت شعري هل تعلمتَ وجوداً ... لحياةٍ ودوامٍ وخلودْ

***

الغناء

صاح من أين لناي نشوةٌ ؟ ... صَوتُ عودٍ ذاك أم من قلب حيّ ؟
صاح ما القلبُ ؟ ومن أين له ... قوةٌ سَكرى تحدَّتْ كلَّ شيّ
ولماذا نظرة منه سرت ... مثلَ ريحٍ صرصرٍ في تَخت كَي[(1)]
ولماذا ذلك السرُّ له : ... من حياةٍ فيه يحيا كلُّ حيّ[(2)]
ولماذا كلَّ حينٍ مبدلٌ ... وارداتٍ زُمراً تهفو إليّ
ولماذا صاحبُ القلب ازدرى ... ملكَ روم ومُنَى شامٍ و ريّ
إنْ وعى للقلب رمزاً مطربٌ ... طُوِيَ الفنُّ له أسرعَ طيّ[(3)]

***

---

(١) كي : كيكاوس أحد ملوك الفرس القدماء ، وفي الأساطير أنه كان له تخت يطير به .
(٢) لماذا خص القلب بهذا السر : أنَّ بحياته تحيا الأمم .
(٣) إن عرف المطرب رمز القلب ، فأرسل في نغماته خفقات القلوب ، طوى مراحل الفن ، فبلغ غايته دون عناء .

النسيم والنَّدى

النسيم :

لـم أرقَ فـي فلـك النُّجـوم وإنَّنـي فـي شـقِّ أثـواب الأزاهـر أعمـلُ
وأسيـرُ عـن وطنـي غـريبـاً مجبَراً فـي مسمعـي شـدوُ البـلابـل يثقـلُ
قل لي ، فقد أعطيتَ سرَّ كليهما ، المرجُ أم فلكُ الكواكبِ أجملُ[1]

النَّدى :

لو لم تكن في المرج رهنَ هشيمه لـرأيتـه سـرَّ الكـواكـب يحمـلُ[2]

* * *

أهرام مِصر[3]

شـادت الفِطـرة كُثبـانـاً لهـا فـي سُكـونٍ من يَبـاب قـد وقَـد
روَّع الأفـــلاكَ فيــــه هـــرمٌ أيُّ كـفٍّ صـوَّرت هـذا الأبـد !
مِـنْ إسـارِ الكـون حـرَّرُ صنعـةً صـائـدٌ ذو الفـن أم صيـداً يعـدّ[4]

* * *

(١) و(٢) يسأل النسيم الندى وقد هبط من السماء إلى المرج ، أيهما أجمل . فيقول الندى لو لم تتعلق بالهشيم ، وتقف عند المظاهر لرأيت في المرج سرَّ الكواكب ، وما وجدت فرقاً بين السماء والمرج .

(٣) في هذه الأبيات يشيد إقبال بالإنسان وقدرته على الإبداع ، ويشير إلى ما قال في أبياتٍ أخرى من أنَّ صاحب الفن لا يحاكي الطبيعة ، بل يسيطر عليها ، ويؤثر فيها .

(٤) لم يحاك باني الهرم كثبان الرمال ، بل شاد هذا الأثر الخالد ، فحرر الصنعة من أسر الخليقة ، فإن صاحب الفن صائد لا صيد ، يأسر الخليقة ولا تأسره .

مخلوقات الفن

قــد رأى ذو بصــرٍ ســرَّ الــذَّات — وجــلا الفــنُّ لعيــنٍ جَنَّــاتٍ[١]

مــا بــه الــذَّات ولا الكــون يُــرى — فهــو مــن جهــدٍ حيــاة فــي نجــاةٍ[٢]

تعــسَ الكــافــرُ مَــن أصنــامــه — مــن حُطــام لمنــاةٍ والــلاتِ[٣]

هــالــكٌ صلَّــى عليــه فنُّــه — فــي ظــلام اللَّحد يــرنــو للحيــاةِ[٤]

***

إقبال

قال للروميِّ[٥] في الخلدِ سنائي : — لا يـزالُ الشـرق بـالتقليـد يُـؤسَـر

قـالَ منصـور : ولكـنْ قـد سمعنـا — أن ســرَّ الــذات أفشــاه قلنــدرُ

***

الفنونُ الجميلة

نظَــراتُ الآفــاق مُتعــةُ عيــنٍ — سرِّحوا العينَ يا أولي الأبصارِ

---

(١) ذات الإنسان أو مركز وجوده (خودي) في فلسفة إقبال .

(٢) ليس في هذا الفن الذات ، ولا فيه عالم الصباح والمساء ، فهو فرار من جهاد الحياة .

(٣) المقلد في الفن يتخذ أصناماً من بقايا أصنامٍ محطمةٍ كانت في الأعصر الخالية .

(٤) في الأصل : أنت ميت وفنك أمام جنازتك .

(٥) جلالُ الدين الرومي أكبرُ شعراء الصُّوفية ، ومجدُ الدين السَّنائي طليعةُ شعراء الصُّوفية الكبار ، ومنصورٌ في لغة صوفية الفرس والهند هو الحسينُ بن منصور الحلاَّج الصُّوفي المعروف . والشاعر يتخيل : أنَّ السنائي قال في الجنة للرُّومي : لا يزال الشرق في أسر القديم . فقال الحلاج : قد ظهر مجذوب أفشى للناس سرَّ الذات فهو حري أن يبدل الحياة في الشرق .

غَيْـرَ أنِّـي أقـول : مـا نظـراتٌ لا تجلِّـي كـوامـنَ الأسـرارِ[1]
مقصـدُ الفـنِّ فـي الحيـاة لهيـبٌ أبـديٌّ فمـا وَميـضُ الشَّـرارِ ؟[2]
قطـرُ نَيسـانَ ! مـا الـلآلـىءُ إنْ لـم تتـلاطـمْ بهـا قلـوبُ البحـارِ[3]
مـا نسيـمُ الصَّبـاحِ فـي الشِّعـر واللَّحـن إذا مـا أذوَى سنـا الأزهـارِ[4]
ليـس إلا الأعجـازُ يحيـي ففـنٌّ ليس ضربُ الكليم فيه ، عواري[5]

* * *

صُبْحُ المرج[6]

الزَّهرة :

وافـدَ الأفـلاك ! هـل خِلْـتَ بعيـداً مـوطنـي ؟ لا إنَّـه غيـرُ بعيـد

النَّدى :

مـن يَطِـر مـا بيـن أرضٍ وسمـاء يتبيـنْ أنَّـه غيـرُ بعيـد

---

(١) إن لم تنفذ نظراتُ صاحب الفنِّ إلى حقائق الأشياء ؛ فما هي بمجدية .
(٢) الفنُّ يصوِّر لهيب الحياة الأبدي ، فلا قيمة للفنِّ الذي يخرج شراراً لا يلبث أن يُطفأ .
(٣) قطر المطر في نيسان يُخلق منه الدرُّ في الصَّدف . يقول الشاعر : يا قطر نيسان ! ما قيمة الدرِّ الذي لا يضطرب له قلبُ البحر . يعني : أن بدائع الفن ينبغي أن يجيش لها قلب العالم .
(٤) إنْ كان نسيمُ الصبح المتمثِّل في إنشاد الشاعر ولحن المغني يذبلُ الزَّهرَ في الرَّوضة ولا ينضِّره فأيُّ نسيمٍ هو ؟! .
(٥) حياة الأمم بالإعجاز ، فالفنُّ الذي لا إعجاز فيه عاريةٌ لا دوام لها .
(٦) خلاصة ما يؤخذ من هذه الأبيات أنَّ الإنسان ينبغي أن يعمل في هذه الأرض غير غافل عن عالم الغيب ، كضوء الصُّبح يُغشى السهول والجبال ولكنَّه موصول بالفلك ، وعالم الغيب والشهادة ليسا متباعدين كما قال النَّدى : إنَّ الطيران يُعلِّم أنَّ الأرض ليست بعيدةً من السماء .

الصُّبح :

أقبلنْ في الرَّوض كالصُّبح رفيقاً   ليس يؤذي وطؤه قطرَ النَّدى
واحضِنِ الأجيالَ والبيدَ ولكنْ   من عُرا الأفلاك لا تحللْ يدا

* * *

الخَاقَانِي (١)

ذا صاحبُ تحفةِ العراقَيْن   ذو القلب يراه قرَّة العَين
تنشقُّ لفكره السُّتور   الحُجْبُ جميعُها تُنير
يجتاز بعالم المعاني   لا يسمعُ قولَ : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾(٢)
فاسأله بذلك التُّراب   والدَّهرُ يجيشُ في عُباب(٣)
ذا مَحرَم عالِم الثَّوابِ   كم دلَّ بموجَز الخطاب(٤) :

---

(١) شاعرٌ فارسيٌّ كبيرٌ ، توفي في تبريز سنة ٥٨٢هـ . وله من الكتب « تحفة العراقين » . سجل فيها ما رأى في العراقين العربي والعجمي حينما مرَّ بهما في طريق الحجِّ ، وله ديوانٌ ، ومنظومةٌ اسمها « هفت إقليم » (الأقاليم السبعة) .
وهذه الأبيات جاءت في الأصل في القافية المزدوجة وعلى وزن = مفعول مفاعلن فعولن . وهو ضربٌ شائع في الشعر الإسلامي الشَّرقي وهو مشتقٌّ من الأوزان العربيَّة ، ولم أجده في الشعر العربي إلا في أبيات لبهاء الدين زهير أوَّلها :
يا منْ لعبت به شمولُ   ما ألطفَ هذه الشمائل
وقد ترجمتها على قافيتها ووزنها لأزيدَ في شعرنا مثالاً في هذا الوزن إلى أبيات زهير .

(٢) ينكشف له عالم المعاني ، فلا يسمع منه ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وهذا رمز إلى الآية في قصة موسى : ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ .

(٣) اسأله عن هذا العالم الأرضيِّ وعن حوادث الدَّهر . وفي القرآن الكريم ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٩] أي اسأل عنه .

(٤) المحرم : المطلع على السرِّ . واستعملها شعراء الفرس وغيرهم فأقررتها في العربية وليست بعيدة من المعنى الأصلي .

« نـاهيـكَ بشـرٌ هـذا العـالـمِ إبليـسُ ثـوى ومـاتَ آدم »[1]

* * *

الرُّومي[2]

ما زال طَرفُكَ في خَلْطٍ وفي سِنَةٍ وعنكَ ذاتُك في الأسرارِ لم تَزَلِ

ولـم تـزلْ فـي صـلاةٍ لا قيـامَ لهـا وبالضَّراعة عزُّ الرُّوح لم تَصِلِ[3]

ومِـزهـرُ « الـذَّات » أوتـارٌ مقطَّعـةٌ ما زلتَ عن نغمةِ الرُّوميِّ في شُغُل

* * *

الجِدَّة[4]

إنْ صدقَتْ نفسُك في الدَّهر النظرْ تُنـوِّر الأفـلاكُ منـكَ فـي البُكَـرْ

وتستضـيءُ الشَّمـسُ منـك بـالشَّـرر وينجلـي قـدرُك فـي سيمـا القمـر

والبحـرُ يلقـى منـك مـوجـاً ذا دُرر وتستحـي إعجـازَ صُنعـك الفِطَـر[5]

---

(١) حسبُك تعريفاً بهذا العالم أنَّ آدم مات ، وبقي إبليس أي : بقيت نزعاتُ الشرِّ في هذا العالم . فهو عالمُ محنةٍ وجهاد . وهذا البيت مضمَّن من شعر الخاقاني .

(٢) هو مولانا جلال الدين الرُّومي صاحب المثنوي ، والشاعر يتَّخذه إماماً ، ويشيد بذكره في شعره .

(٣) الصلاة قيامٌ وسجودٌ ، يقول الشاعر : إنهما رمزُ الدلال والضَّراعة (ناز ونياز) أي : الخضوع والسِّيادة ، ولكنَّ بعضَ الناس صلاتهم سجودٌ بغير قيامٍ . . . إلخ .

(٤) يرى الشاعر أنَّ الإنسان لا ينفذ ببصره إلى حقائق الأشياء . يقول : إنك إن صدقت النظر فيما حولك ؛ رأيت دنيا أخرى جديدةً غير التي تراها ، وتغيَّر إدراكك هذا العالم ، وتبيَّن أنه مسخرٌ لك .

(٥) تستحي الخليقة من صنعك المعجز ، تراه أحسن منها .

تخــذتَ أفكــار الــورى مــرآتــك فكيــفَ لا تبلــغُ حتّــى ذاتَــك[1]

* * *

مِرزا بَيْدَل[2]

ذي سمـــاءٌ وجبـــالٌ وفِجـــاجْ ذاك حقٌّ أم عيونٌ في اعوجاجْ ؟
فـــرّق الآراءَ إثبـــاتٌ ونفـــيٌ أهيَ دنيا أم خداعٌ في الحِجاج ؟
عقـــدةٌ قـــد حلَّهـــا بيـــدلُ حقـــاً أعجـزتْ مـنْ قبلـه كـلَّ عـلاج :
« ما بدا ذا المراجُ لو في القلب وُسعٌ بان لونُ الخمر منْ ضيق الزُّجاج »

* * *

الجلال والجمال[3]

حسبـي كمـالًا قـوةٌ مـن حَيـدْرٍ وكفــاك مــن أفــلاطُــنَ الإدراكُ

---

(١) إنّك استعرت أفكار الناس فلم تبلغ في هذه الحياة حتى ذاتك ، فقد أضعتها بالتقليد .

(٢) من شعراء إيران ، ذهب إلى الهند أيام السلطان شاه جهان ، فأكرم السلطان وفادته ، وهو شاعرٌ صوفيٌ له ديوانٌ كبيرٌ يغلب فيه التعمّق وتكثر الدّقائق .
وقد أعجب إقبال بفكرةٍ في بيتٍ لبيدل ، فبنى عليه هذه الأبيات ، وهي : أنَّ هذا العالم الحسّي لا خطر له ، بل لا وجود له إلا عند من ضاق عن إدراك الحقائق الكبرى التي يختفي معها هذا العالم . كالخمر يُظهر لونها كأس الزجاج لضيقها . وترجمة البيت في النثر :
« لو اتّسع القلبُ ما ظهر هذا المرج ، خرج لون الخمر من شدّة ضيق الزُّجاج » .

(٣) الشّاعر من المعجبين بالقوّة ، الدّاعين إليها ، وهو يدّعي هنا الإجمال بغير جلالٍ ، يرى الكمالَ في شجاعة عليٍّ لا في خيال أفلاطون ، ويرى سجود السماء للقوة جمالًا ـ وقد تخيَّل الشعراءُ أنَّ انحناء السماء في رأي العين سجودٌ ـ والنغمةُ التي لا قوّة فيها نفخةٌ ضائعةٌ ، بل لا يحبُّ أن يجازى إلا بنارٍ شديدةِ الالتهاب .

وأرى جمالًا في بهاء أن تُرى | في سجدةٍ للقوَّة الأفلاكُ
ولَنغمةٌ من دون نارٍ نفخةٌ | ما الحسنُ إلا بالجلال يُحاكُ
لا أرتضي ناراً لجزء ولم تكن | وهَّاجةً ولهيبُها درَّاكُ

***

المصوِّر[1]

قلَّد الغربَ فنُّ عُجْم وهندٍ | عمَّ هذي البلادَ موتُ الخيال
شفَّني الغمُّ أن بِهزادَ عصري | يُفقد الشرقَ بهجةَ الآزال[2]
يا خبيراً بفنِّه فيه تمَّت | صنعةُ العصر والعصورِ الخوالي
كم ترى من خليقةٍ وتُريها | أرِنا الذَّاتَ فوق هذي المجالي

***

الغناء الحلال[3]

تفتح القلبَ نغمةٌ من غناء | أيَّ فتحٍ والقلبُ رهنُ هُمودِ ؟
في صُدور الأفلاك لحنٌ خفيٌّ | صاهرٌ حرُّه نجومَ الوجودِ

---

(١) يرى الشاعر أنَّ المصوِّر وكلَّ ذي فنٍّ ينبغي أن يُظْهِرَ ذاته فيما يصوِّر لا أن يحاكي الطبيعة ، وأنَّ المحاكاة موت .

(٢) بهزاد : مصورٌ فارسيٌّ مشهور نبغ أيام الدَّولة الصفوية ، والشاعر يغتمُّ لأنَّ بهزاد عصره يقلد الغرب ، فيفقد الشرق البهجة القديمة .

(٣) يرى الشاعر أنَّ الغناء وكلَّ لحنٍ يحلُّ إنْ كان فيه قوةُ الذات وحرقة الحياة ، ويَحْرُمُ إن أضعف الذات ، ولم يقبس من الحياة ناراً . الغناء يفتح القلب فكيف يفتحه إن أماته ؟! وفي الأفلاك ألحان طبيعية تذيب النُّجوم ، وتبرىء الإنسان من الخوف والغم ، وترفع النفس من العبودية إلى السيادة . . إلخ . والنغمة الحيَّةُ التي يُحلُّها فقهاءُ الذات لا تزال تنتظر مطرباً يعلنها .

يهجرُ الناسَ منه خوفٌ وغمٌّ ... إيازٌ يسمو إلى محمودِ[1]
تيهُ هذي النُّجوم يفنَى ولكن ... أنت تبقى ونغمةُ التَّوحيدِ[2]
قد أحلَّت شريعةُ الذَّات لحناً ... لم يزل في انتظار شادٍ مُجيدِ[3]

* * *

الغناءُ الحرام

ما بذكرى من التصوُّف وَجدٌ ... أو برأيي ثوابُهم والعذابُ
قرَّب الله مذهبي من فقيهٍ ... عُرِفت عنه سُنَّةٌ وكتابُ :
« إنْ سَرَت في اللحون دعوةُ موتٍ ... حَرُم النايُ عندنا والرَّبابُ »[4]

* * *

النَّافُورة

لا يُطَيِّبني مسيرُ النَّهرِ مطَّرداً ... مُسايراً تُربَه جنباً إلى جنبِ
دع ذاك ، وانظرْ إلى نافورةٍ بَسَقتْ ... تُصَعِّدُ الماء منها قوةُ القَلْبِ[5]

* * *

---

(١) السُّلطان محمود بن سبكتكين وخادمه إياز .

(٢) يشبه عالم الكواكب بالتيه ، ويقول : إنه يفنى ، ويبقى الإنسان ونغمته الموحدة .

(٣) اللحن الذي أحلَّته شريعةُ الذَّاتِ ، وهو الذي يحيي النفوس ويقويها ، لم يظفر به أحدٌ ، فلا يزال ينتظر مطرباً .

(٤) هذا مذهبه : الألحان التي تميت النفوس حرام .

(٥) لا يُعجب الشَّاعر بالنهر يساير الأرض ، بل يُعجب بنافورةٍ قويةٍ تقذف الماء عالياً في الهواء .

الشاعر[1]

في غابة الشرق نايٌ يبتغي نَفَساً يا شاعرَ الشَّرق هل في صدرك النَّفَسُ؟

مـن كـانَ فـي ذاتـه مـن رقَّـةٍ خَـورٌ فقلْ له من لُحونِ العُجْم يَحترِسُ

إنـاؤهـا مـنَ زجـاجٍ كـان أو خـزفٍ اجعـل بخمـرك سيفـاً لمعُـه قَبَسُ

لم تبصر الشمسُ من دُنيا يُخال بها مجـدٌ بغيـر الجـلاد المـرَّ يُلتَمَـسُ

طُـورٌ جـديـدٌ ، وبـرقٌ كـلَّ آونـةٍ لا قـرَّب اللهُ للعشـاقِ مـا التمسـوا

* * *

شعر العجم

كم بشعر العُجْم من سِحر ولكنْ منه سيفُ الذَّات ذو حدٌّ كليلْ

صَمتُ طيرِ الصُّبح أولى من غِناء إن سرى باللَّحن في الرَّوض ذبولْ

ليـس ضـربـاً مـا يشـقُّ الطَّـودَ لكـنْ ليـس منـه عـرشُ بَرويـز يميـلْ[2]

يَنحِـتُ العصـرُ أيـا إقبـالُ ! صخـراً فاحذَرنْ من كلِّ ما يُبْدي الوَذيل[3]

* * *

---

(١) ينفرُ إقبالُ من شعر الرَّخاوة والذلَّة ، ويقول هنا : من ضعفت « ذاتهم » فليحترسوا من ألحان العجم ، فهي تدعو إلى الرقَّة والترف .
ولا بدَّ للشعر أن يكون في حدَّة السيف ، ملائماً لمعركة الحياة مهما تكن صورته ، كالخمر في زجاجةٍ أو صراحيةٍ ، ينبغي أن تكون محرقةً . وليس لشوق الشاعر غاية ففي كل حين طورٌ جديدٌ ، وبرقٌ للتجلّي جديد .

(٢) ليس ضرباً ما لا يزلزل عرش برويز وإن شقَّ الجبل . والإشارة إلى قصة فرهاد الذي شقَّ طريقاً في الجبل ، ولم يظفر بشيرين ، كما وعده برويز .

(٣) الوذيلُ : جمع وذيلة ، وهي المرآة . والشَّطر فارسيٌّ من شعر العراقي . ومعناه : احذر من كلِّ ما يبين في المرآة « أي هذا عصر حقائق لا خيالات . ينحت الصخور ، ويحطم كلَّ ضعيفٍ ، فكلُّ ما بدا في الزجاج فلا تركن إليه » .

أصحابُ الفنِّ في الهند

تخيُّلهُم جَنازةُ كلِّ عِشقٍ ... وظُلمةُ فكرهم للحيِّ قَبرُ
ومَوثَنُهم به نقشُ المنايا ... وليس لفنِّهم بالعيش خُبْرُ[1]
يُنيمُ الرُّوحَ في إيقاظ جسمٍ ... ودون المجد يُسدَل منهُ سِترُ
يُسخِّر للأنوثة كلَّ شيءٍ ... لهم قَصصٌ وتصويرٌ وشِعرُ[2]

***

الرَّجل العظيم

هو في الحب عميقْ ... وهو في البُغض عميقْ
قهره فروقٌ عبادِ الله ... بَرٌّ وشفيقْ
نشَّأته ظلمةُ التَّقليد ... بالنَّاس تَحيقْ
غير أنَّ الطَّبع بالإبـ ... ـداع والخَلق خَليقْ
هو في المَجمَعِ خالٍ ... ومن الحَشدِ طليقْ
مثلُ شمع الحفل ؛ في الحفل وحيد ورفيقْ[3]
مثلُ شمس الصُّبح ؛ فِكرٌ ... فيه نُورٌ وبَريقْ
لفظه حرٌّ يسيرُ ... لكنِ المعنى دقيقْ
نظرٌ فيه سديدٌ ... عن بني العصر سحيقْ

---

(١) الموثن : معبد الأوثان .

(٢) الفن الهندي بالشهواتِ الجسمية ، ويُفتن في تصويرها ، فهو يوقظ الجسم ، وينيم الرُّوح ، ويسخِّر كل شيءٍ للأنوثة .

(٣) يكون في جمعٍ من الناس وكأنه وحده ، له فكره ، ونظره . مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين ، ووحيدةٌ بحرقتها ونورها .

ليـــس يـــدري أيُّ حـــالٍ فيـــه أشيـــاخُ الطـــريـــق

* * *

عالَم جديد(١)

مَنْ كانَ حيَّ القلب في الدُّنيا فما يخفي عليه من القضاء ضميرُهُ
تجلـو لـه رؤيـاهُ كـونـاً مُحـدثـاً بِـدعَ المثـالِ يَـروقُـه تصـويـرُهُ
فـإذا جـلا صـوتُ الأذان منـامَـه شـادَ الـذي فـي حُلمـه تعبيـرهُ
ولهَيكـلُ الـدُّنيـا الجـديـدةِ طينـهُ هـذا الضئيـلُ ، وروحهـا تكبيـرهُ

* * *

خلقُ المعاني

خلقُ المعاني مِن الخلاّق مَوهبةٌ لكـنَّ للفـنِّ فـي الفنَّـان إجهـادا
مِنْ حُرْقَةٍ في دَمِ الباني ، مشيَّدةٌ حاناتُ حافظٍ أو زُونات بهزادا(٢)
مـا جـوهـرٌ يتجلَّـى دون مَجهـدةٍ منْ ومضةِ الفأس نارت دارُ فرهادا

* * *

---

(١) الرَّجل العظيم يرى في منامه أو خياله عالماً جديداً ، فيعمل عزمه ، فلا يستعصي عليه أن يحقق في عالم الحقائق ما رأى في الرؤيا أو الخيال .
وهذا العالمُ الجديد الذي يخلقه ناشىءٌ من نفسه ، فهيكله : جسمه الصغير ، وروحه : تكبيره ، وإيمانه ، وعزمه .

(٢) حافظ الشيرازي الشاعر الفارسي الكبير ، وحاناته : شعره . وبهزاد مصور فارسي مشهور عاش في أيام الدولة الصفوية . والزونات : جمع زونة وهي معرض الأصنام ، أو الدُّمى ، يضرب بها المثل في الجمال والزينة .

المُوسِيقا

دلَّ علـــى بـــردِ دَمِ المُغنِّـــي لحــنٌ لــه الــوجـوه لا تُنيــرُ[1]

أنفـــاسُ زامـــرٍ سُمــومُ لَحــنٍ إنْ كــان لــم يَطْهُـرْ بـه ضميـرُ[2]

بـالشَّـرق والمغـرب فـي ريـاضٍ مــن الشقيــقِ شـاقنـي المسيـرُ

فمـــا مـــررتُ بينهـــا بمـــرجٍ شقَّـت بـه جُيـوبهـا الـزُّهـورُ[3]

***

لذَّةُ النَّظر

أيُّ ذاتٍ حَوَى فتى الصينِ مَن قا لَ لجــلاده أمـــام الحِمـــامِ :

منظـــرٌ رائـــقٌ ، تمهَّـــلْ ، تمهَّـــلْ لأرى لحظـــةً وميـــضَ الحُســـامِ[4]

***

الشِّعر

لـــم أدرِ ســـرَّ الشِّعـــر إلا نكتـــةً سِيَـــرُ الشُّعـــوب تُبينُهـــا تفصيـــلا

---

(١) اللَّحن الذي لا تنير له وجوه السَّامعين دليلٌ على برود نفس المغني ، وخمود عاطفته .

(٢) لا بدَّ للمطرب من طهارة الضَّمير لتكون ألحانه صدى الضمير الطاهر ، وإلا فأنفاسه في اللحن سمٌّ للسامعين .

(٣) زهور الشرق والغرب لم يهج بها الطرب فتمزق جيوبها كما يفعل من يغلبه الطرب من حزنٍ أو فرح ـ يعني : لم يظهر المطربون أسرار النفس ، ويبدو مكنون الضمير الإنساني ، ولا تزال « الذات » محجوبةً .

(٤) رجلٌ صينيٌّ قام أمام الجلاد والسيف مصلت فلم يشغله هذا المقام عن الإعجاب بوميض السَّيف ، فقال للجلاد : أمهلني لأمتِّع النفس بهذا المنظر . فهذا يعجب به إقبال أيَّ إعجاب ، ويرى فيه ذاتاً كاملة .

الشِّعرُ فيه من الحياة رسالةٌ أبديةٌ لا تقبَلُ التبديلا
إنْ كانَ من جبريلَ فيه نغمةٌ أو كانَ فيه نفخُ إسرافيلا[1]

* * *

الرَّقص والمُوسيقا

إنَّ للشعر بهجةً ضاء منها روحُ جبريل والرَّجيمُ اللعينْ
ومن الموسيقا ابتهاجٌ شوقٌ وكذا الرَّقص نشوةٌ وفُتون
قد سمعنا في الصِّين قولَ حكيم فيه أفشى مخبّآت الفنون :
إنَّ للموسيقا من الشعر رُوحاً ومن الرَّقص جسمُها في العيون

* * *

ضبط النفس

دأبُ أهلِ الزمان شكوى الزمانِ ليس للحرِّ آهةٌ في طِعانِ
قد أسرَّ النجوى إليّ عليمٌ منْ شيوخِ القلوب والعِرفانِ :
إنَّ كَظم النُّواح شيمةُ ليْثٍ ومن النَّوحِ شيمةُ الثُّعْلبانِ

* * *

الرَّقص

دعْ لأهل الغرب رقصاً بجسومْ إنَّ رقصَ الرُّوح من ضَرْبِ الكليمْ
فبهذا الرَّقصِ سُلطانٌ وفقرٌ وبذاك الرَّقص همٌّ لا يَريمْ

* * *

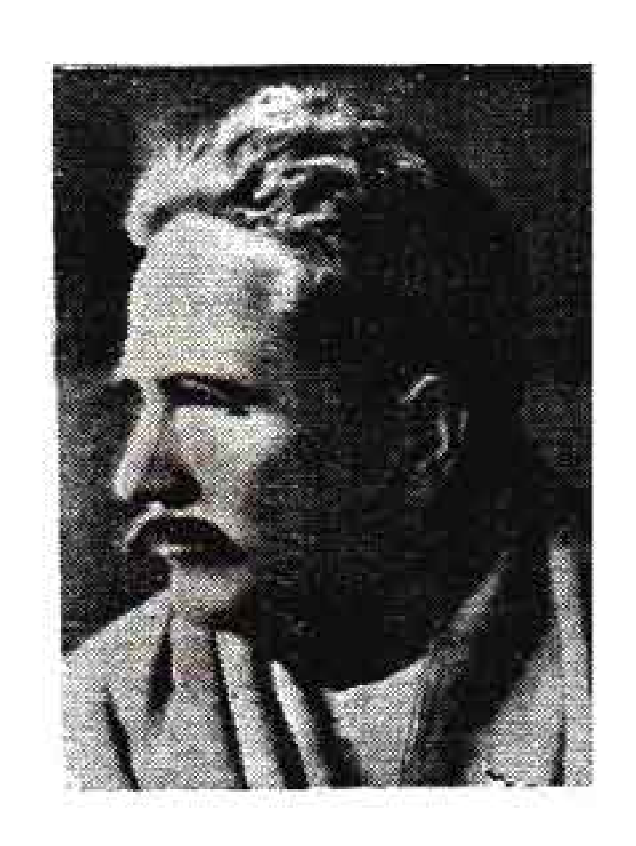
---

(١) الشعر يحمل رسالة من الحياة أبديةً إن كان جميلاً هادياً ، كنغمات جبريل (وجبريل رسول الوحي) أو كان فيه صعقٌ وبعثٌ ، كصوت إسرافيل .



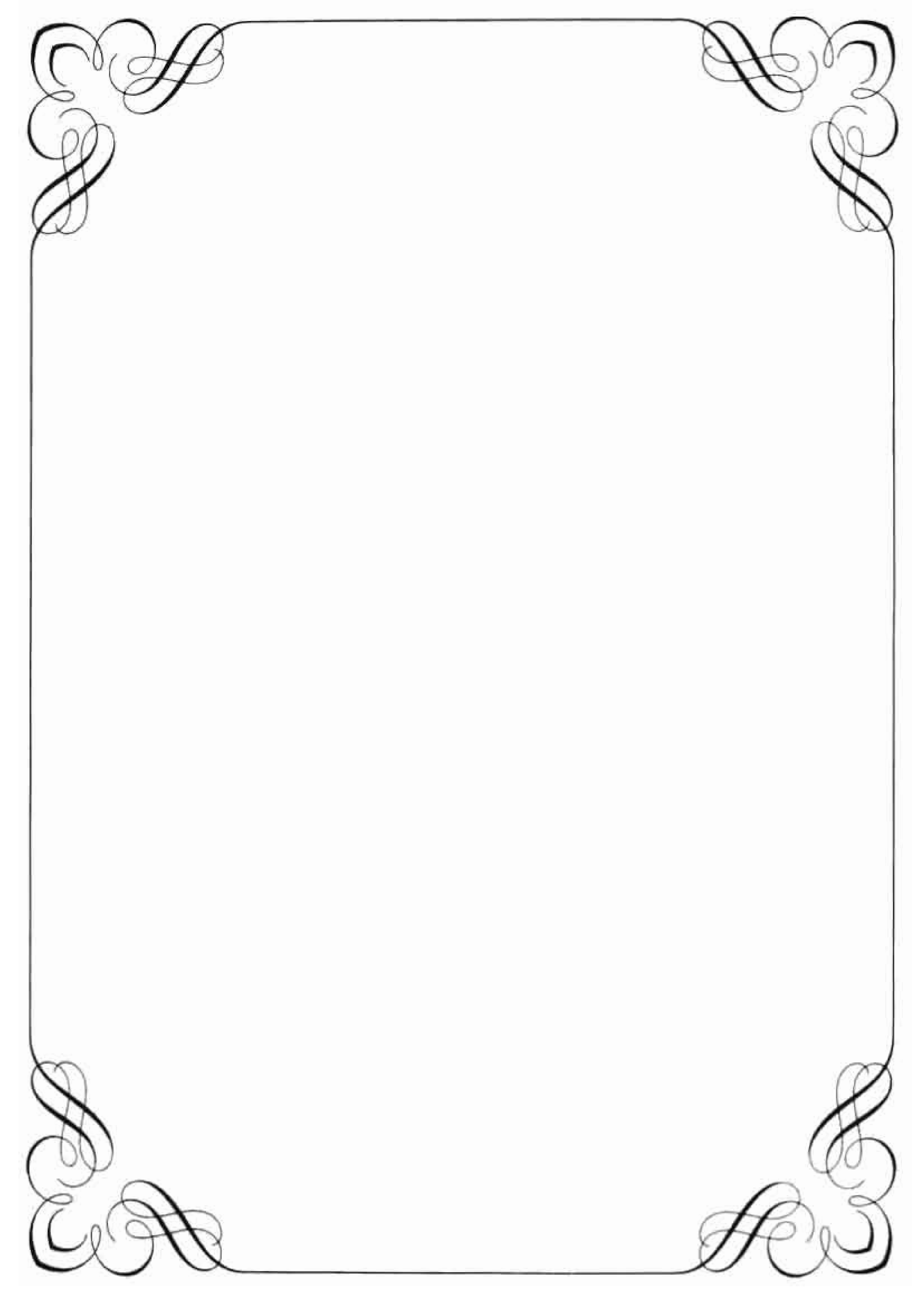
القسم الخامس

سياسيَّاتُ المشرقِ والمغربِ









انقلاب

أبمشـــرقٍ أو مغـــربِ نـــارُ الحيـــاة ونـــورُهـــا
فهنـــا تمـــوتُ ذواتُهـــا وهنـاكَ مـاتَ ضميـرُها
وأرى القلـــوبَ لثـــورةٍ مِـلءُ البـلادِ زفيـرُهـا
فلعـلَّ دنيـاكَ القـديمـةَ للممـــاتِ مَسيـــرُهـــا

* * *

تملُّق[1]

جهلتُ أمورَ الناس غيرَ مجرَّبِ ولكـنَّ ربَّ القلـب للغيـب يَشْهَـدُ
فقـلْ لـوزيـرِ مـا بـدا لـك مـادحـاً فـذانـك دُستـورٌ وعهـدٌ مجـدَّدُ
إذا قـال : صقـرُ الليـلِ للبـومِ مـادحٌ فهـل ذاك حـقٌّ أو دِهـانٌ يـردَّد[2]

* * *

المناصب[3]

سِحرُ الفرنجة قد أحاط بمؤمنٍ يا ويحَ عيني قد هَمتْ عَبَراتُها

---

(١) العنوانُ في الأصل (خوش آمد) وهي عبارة فارسيَّة بمعنى مَرحباً أو أهلاً وسهلاً . ومعناها بالأردوية التملُّق . وقد كتب إقبال هذه الأبيات حينما وضع الإنكليز نظام الاستقلال الدَّاخلي لولايات الهند ، وكثرت مناصب الوزراء فيها .

(٢) إذا قال أحد المادحين للبومة وهي لا تطير إلا ليلاً إنها صقراً لليل فهل هذا حقٌّ أو ملق ؟

(٣) هذه الأبيات قيلت في الأحوال التي أنشئت فيها الأبيات السَّابقة .

فلعلَّ منصِبكَ الرفيعَ مباركٌ ... فالذَّاتُ مِنْ جَرَّاه حانَ مماتُها

هذي القضيةُ معضِلٌ إخفاؤها ... وضَحتْ لكلِّ مفكِّرٍ آياتُها :

« لا شِرْكَ في حكمٍ لعبدٍ إنَّما ... شُرِيَتْ عقولُهُمُ وخابَ شُراتُها »[1]

* * *

أوربَّة واليهود[2]

نظامٌ ومالٌ وعيشٌ رغيدٌ ... وظُلمةُ صَدرٍ لها القلبُ يَقْلي

دخانُ المصانعِ في الغرب داجٍ ... فواديه ليس بأهل التَّجلّي

رأيتُ حضارتَه في احتضارٍ ... تموت اعتباطاً ، وما الموت يُملي[3]

فليس غريباً تولِّي اليهود ... كنائسَه بعد هذا التولِّي

* * *

عبوديةُ الأنفس[4]

ليس يخلو زمانُ شعبٍ ذليلٍ ... من عليمٍ وشاعرٍ وحكيمٍ

فرَّقتهم مذاهبُ القَوْلِ لكنْ ... جَمَعَ الآراءَ مقصدٌ في الصَّميم :

---

(١) الأممُ المحكومة لا يمكن أن تشارك حاكميها في الحكم مهما وضعوا لها من نظمٍ . شُريت : بيعت ، والشراة : البائعون .

(٢) إقبال توفي سنة ١٩٣٨م فهو لم يشهدْ حرب فلسطين ولم يرَ تسلُّطَ اليهود على أوربة وأمريكا ، كما رأينا . ولكنَّه نظر إلى الحوادث نظرة عارفٍ خبير .

(٣) تموت في شبابها ، والموت يمهل .

(٤) لا تخلو الأمم الذليلة من شعراء وحكماء وعلماء يسلكون مسالك شتَّى إلى غايةٍ واحدةٍ ، هي أن يروِّضوا الأمة على الخضوع ، ويمحوا من سجاياها الإقدام حتى ترضى بالرقِّ ، هذا مقصدُهم ، كلُّ تأويلٍ في القول تحيُّلٌ لهذا المقصد .

« علّموا الليث جفلة الظّبي وامحوا ... قصصَ الأُسْد في الحديثِ القديمِ[1]
همُّهم غبطةُ الرَّقيق بِرقٍّ ... كلُّ تأويلهم خِداعُ عليمِ

* * *

الرُّوسُ الشُّيوعيون

إنَّ سَيرَ القضاء جِدُّ عجيبٍ ... أيُّ سرٍّ حوى ضميرُ الزَّمانِ
ليس يألو الصليبَ سرّاً قَبيلٌ ... كان يرجو النجاةَ بالصُّلبانِ
أمرَ الوحيُ مُلحدي الرُّوس « هُدُّوا ... ما أقام القُسُوسُ من أوثانِ »

* * *

اليَوم والغَد

مَن عداه ليومِه في جهادٍ ... نورُ نفسٍ وشُعلةٌ في الكُبودِ
ما لَه الحقُّ في مَتاعٍ وهمٌ ... يستبِرَّان في الغدِ الموعودِ
ليس أهلاً لمعرَك الغدِ مَن في ... سيره (اليومُ) ليسَ بالمعدودِ

* * *

المشرق

جَيبُ الشَّقائق من شَدوي غدا مِزَقاً ... ونسمةُ الصُّبحِ رَوضاً تطلبُ الآنا[2]

---

(١) في هذا البيت مقصد القائلين المذكورين في البيتين السابقين .
(٢) أنا شدوت حتى مزّقتْ شقائقُ النعمان جيوبها وجداً ، ونسيمُ الصبح لا يزال يطلب روضاً ينضر أزهارَه .

ما «مصطفى» أو «رضا» جلّى حقيقتها فالروحُ في الشرق جسماً تطلب الآنا[1]

وحقُّ ذاتي عِقَابٌ غيرَ أنَّ لها ذا العصرُ جِذعاً وحبْلاً يطلب الآنا[2]

***

سياسةُ الإفرنج

يا ربِّ نِدُّكَ في غربٍ سياستُه وما تعبَّد إلا الهامَ والرُّوسا[3]

خلقتَ إبليس فرداً من لظى لهبٍ ومن تُرابٍ أقامت ألفَ إبليسا

***

العبيد

تعلَّمتُ بين الغرب والشَّرق حكمةً أراها لأهلِ الرقِّ أجدى الفوائدِ :

فلا مُلْكَ أو فقراً ودِيناً وحكمةً يؤسَّس إلا فوقَ صخرِ العقائدِ

فإمَّا خلا منها ضميرُ جماعةٍ فأفعالُ رعديدٍ وأقوالِ هامدِ

***

إلى أهل مِصر

من أبي الهول أتتني نكتةٌ وأبو الهول طَوى السرَّ القديمْ[4]

---

(١) لا مصطفى كمال ولا رضا بهلوي كان مظهراً لروح الشرق ، فهي تطلب الآن بدناً تظهر فيه .

(٢) وذاتي تستحقُّ العقاب بما دعت الناس إلى اليقظة والحرية ، ولكن العصر لا يزال يطلب حبلاً وجذعاً ليصلبني ليس قادراً على صلبي .

(٣) الروسُ : أي : الرؤساء ، أي : لا يعبد هذه السياسة إلا رؤساء أوربة وحكامها .

(٤) أبو الهول : رمز العقل والقوة ، رأسُ إنسان على جسم أسد .

بـدَّلـتْ سَيـرَ شعـوب جملـةً قـوَّةٌ لـم يخفُهـا العقـلُ الحكيـم
طبعُهـا فـي كـلِّ عصـرٍ مـائـلٌ يُبـدِلُ الشكـلَ ويَبقـى فـي الصَّميـم
فهـي طَـوراً فـي حُسـام المصطفـى وهي طَوراً في عصا موسى الكليم

***

الحَبشة

(١٨ آب سنة ١٩٣٥)

عِقبـانُ أوربَّـة بغيـر علـم فـي جيفـة الأحبـاش أيُّ سـمّ !
قد آن للمَيتةِ أن تَجيفا
حضـارةٌ تكمـلُ بـالمَخـزاة وعيـشُ أقـوامٍ علـى الغـارات
وكلُّ ذئبٍ طاردٌ خروفا
وجـهُ الكنيسـة اكتسـى شَنـارا رومـا أراقـت مـاءَه نهـارا
يا بابُ قد أضحى الورى أسيفا[1]

***

أوامرُ إبليس إلى أبنائه السَّاسة[2]

عليكـم بـالبَـرَهْمَـن فـاربكـوه بـأشـراكِ السيـاسـة والحبـالِ

---

(١) يعني : الباب رئيس الكاثوليك .

(٢) يصور الشَّاعر في هذه الأبيات عملَ السَّاسة بأوامر أبيهم إبليس . وإنما يأمرهم بإبعاد أهل الأديان كلِّها من الدِّين ، ولاسيما المسلمون ، هؤلاء الصابرون المستميتون . وقد خصَّ العربَ الذين نشأ الدين في حضانتهم ، والأفغان الذين تسيطر عليهم حمية الدِّين . . إلخ .
ثمَّ أوصاهم بإخراج إقبال من الرَّوض لأنَّ نَفَسهُ يشعل الحقائق ؛ أي : يثير النار في الشباب ، فيبعدهم عن سياسة إبليس .

وأصحابَ الزّنانير اطردوهم | من الدَّير القديمِ بالاحتيالِ
وذلكم الصَّبورُ على الرزايا | ومَن هو بالمنايا لا يبالي[1]
فروحَ محمدٍ منه اسلبوه | لتعملَ فيه أحداثُ الليالي
وفي العَرَب اقذفوا في كلِّ فكرٍ | من الإفرنج ألوانَ الخيالِ
بأرض العُرْب للإسلام كيدوا | ليُسرعَ في الحجاز إلى الزَّوالِ
وفي الأفغان بالدِّين اعتصامٌ | وليس عِلاجُ هذا بالمحالِ
عليكم بالفقيه فأخرجوه | من الأرض المنيعةِ والجبالِ
وقُوَّاماً على الحرَم اسلبوهم | لهم سُنناً تحيدُ عن الضَّلالِ[2]
غَزالَ المسك من خَتَنٍ أثيروا | وخَلُّوا الأرض من هذي الغوالي[3]
وإقبالٌ له شَذْوٌ مثير | به زَهَر الشقائق في اشتعال
من المَرج اطردوا هذا المغنّي | لتحموا الناس عن هذا المقال

* * *

جماعةُ الأُمم الشَّرقية[4]

سُخِّر الماء والهواءُ مسخَّر | ليس بِدعاً إنِ القضاءُ تغيَّر
جبروتُ الفرنج غَرَّته رؤيا | علَّها غيرَ ما رآه تُعبَّر
إنْ جنيوا للشرق طهرانُ صارت | فلعلَّ التبديلَ للأرض يُقدَر

---

(١) ذلكم الصبور .. إلخ . يعني : المسلم .
(٢) يريد بقوّام الحرم من تولى هداية المسلمين إلى دينهم في الحرم وغيره .
(٣) بلاد ختن في تركستان كانت معروفةً بمسكها ، وغزالُ تنٍ مشهور في الشعر الفارسي وما يتَّصل به .
ويريد الشاعر : أخلوا الأرض من المعاني الجميلة التي تعطرها . أي : أخلوا بلاد المسلمين من السنن القويمة ، والآمال العالية .
(٤) كتبت في شيش محل (دار أمير بهوبال) .

المُلْكُ الخالد

إني لغَوّاص المعاني فِطرةً ... لكنَّني بَحرَ السِّياسةِ أحذرُ
ما إن يُحبُّ الدَّهرُ مُلكاً خالداً ... ولو أنَّ فيه من الرُّؤى ما يسحَرُ
فَرهادُ أبقى الدَّهرُ نحتَ صخوره ... لم يَبقَ من برويز مُلكٌ يُؤثَر

***

الجمهورية

بدا السرُّ في قولةٍ من أريبٍ ... وما كان من قَبله يُعلنُ[1] :
نظامُ الجماهير حُكمٌ به ... تُعدُّ العِبادُ ولا تُوزَنُ

***

أوربة وسورية

أهدت الشَّام إلى الغرب نبيًّا ... هو عَفٌّ ومُواسٍ وصَبور
ومن الغرب إلى الشام هدايا ... من قمارٍ ونساءٍ وخمور

***

من مُوسوليني
(إلى أنداده في المشرق والمغرب)

أرى العصرَ يأبى من مُسولينَ جُرمَه ... وأخيارُ أوربة عليَّ غِضابُ

---

(١) سيظهر .

كلانا بآلاتِ التمدُّنِ آخذٌ أتنقِمُ أفعالَ السُّيوفِ جِرابُ
وقد نقَمُوا منِّي غرامَ تَملُّكٍ أما ثار منهم بالضِّعاف ضِرابُ
لِمَنْ شعبَذاتُ الحكمِ تُبقي ممالكاً ولا مُلكَ أو ملكٌ بهنَّ يُصابُ
أينفُخُ في الأعواد أبناءُ قيصرٍ ويُجبَى إليكم عامرٌ ويبابُ[1]
نهبتم خيامَ البدو والزَّرعَ والقُرى وكمْ كانَ منكم للعُروشِ نِهابُ
قصَدنا من التمدينِ قتلاً وغارةً أأمسُكم فخرٌ ويَوميَ عابُ ؟

***

شكوى

مستقبلَ الهندِ منْ يدري ؟ وما بَرِحَتْ يا ويحها ، درَّةً في التَّاج تُرتَهنُ[2]
دِهقانُها من ظلامِ اللَّحد مطَّرح ولم يزل مِزَقاً تحت الثرى الكفَنُ
الجسمُ والرُّوح للباغين قد رُهنا لم يَبق في أرضها دارٌ ولا سَكَنُ
رضيتَ رقّاً لأوربَّة بلا أنَفٍ فمنكَ شكوايَ لا منها ، وبي حَزَنُ

***

انتداب

مَلَكُ الحضارةِ أين يُحتَم سَيرهُ ؟ في عصرنا هذا السؤالُ يسيرُ :
في حيثُ لا خمرٌ ولا قَمرٌ ولا ضيقُ الثياب على النِّساء يجورُ
والرُّوحُ في بَدَنٍ قويٍّ خافقٌ لكن على سَنَن الجدودِ يسيرُ
حيثُ المدارسُ غائضٌ ينبوعُها وابنُ البداوة في الذَّكاء جَسورُ

---

(١) يشغل أبناء الرومان بالزهر والموسيقا وغيرهم يملكون الأرض ، ويضربون الخراج حتى على الصَّحارى .

(٢) كان الإنكليز يقولون : إن الهند أثمنُ درَّةٍ في تاج الإمبراطورية .

يُفتـي جهابـذةُ الفِـرنجـة أنَّمـا هـذي البقـاعُ مـنَ التمـدُّنِ بُـور[1]

***

السِّياسةُ اللأَّدينيَّة

ما الحقّ مخفٍ عن فؤاديَ سِرَّه فلقـد حبـانـي الله قلبـاً مُبصـرا

فسيـاسـةُ الـلاديـنِ عنـدي خِسَّـةٌ مات الضميرُ بها وإبليسُ افترى[2]

لمّـا قلَـى حكـمُ الفـرنـج كنيسـةً سـاسـوا كشيطـانٍ بـلا قيـدٍ جـرى

شَـرِهَـتْ لأمـوالِ العبـاد كنيسـةٌ فإذا الخَميس سفيرُها بين الورى[3]

***

شبكة التمدين

أمـانتُهـا علَـتْ عـن كـلِّ ريـبٍ وإقبـالٌ مُقِـرٌّ دون نُكـرِ

فـأوربـة نصيـرةُ كـلِّ شعـبٍ تشكّـي الـدهـرَ مـن ظلـمٍ وضُـرّ

كـرامـاتُ القسـاوسِ أنْ أضـاؤوا سـراجَ الكهـرُبـاء بكـلِّ فِكـرِ

ولكـنْ مِـن فلسطيـنَ بقلبـي وللشّـام الكسيـرةِ حَـرُّ جَمـرِ

وتلكـم عُقـدةٌ ليسـت لحـلٍّ تُـلاقـي كـلَّ تـدبيـرٍ بِعُسـرِ

مـن التـرك الجُفـاةِ نَجـوا فـلاقَـوا بـأشـراكِ التمـدُّن شَـرَّ أسـرِ[4]

***

---

(١) حيثما وُجدَ الناس على الأخلاق القويمة والفطرة السليمة قال الفرنج هذه الأرض في حاجةٍ إلى التمدُّن ، فأرسلوا إليها ملك التمدُّن باسم الانتداب .

(٢) إبليس افتراها .

(٣) الخميس : الجيش .

(٤) في هذا استهزاء : يقول : إن أوربة ادَّعت أنها أنقذت الشام وفلسطين من قسوة الترك ، ولكنها أوقعتهم في شرّ أسر .

نصيحة

قال لُزدٌ من الفرنج لنَجلٍ ... ابغِ مَرأىً يدومُ فيه المراد[1]
أظلَمُ الظُّلم للمساكين إعلامُ ... خِرافٍ شريعةَ الآساد[2]
إنَّ للملك سِرَّهُ فاكْتُمَنْه : ... لا تَرُم بالسُّيوفِ قهرَ العباد
وبحمض التَّعليم فاغمِس نفوساً ... ثمّ صُغ طينَها وفاقَ المُراد
أينَ منه الإكسيرُ ؟ هذا محيلٌ ... جَبلَ التِّبرِ كَومةً مِنْ رماد

* * *

قرصانُ وإسْكَنْدر

إسكندر :

جزاؤك في سَلاسلك ارتهانٌ ... أو التصميمُ من سيفي العتيقِ[3]
فقد صيرتَ وُسعَ البحر ضيقاً ... بما أمعَنتَ في قطع الطَّريق

القرصان :

سِكندرُ ! للفتوة لم توَفَّقْ ... أيجمُلُ بالفتى فَضحُ الرَّفيقِ ؟
فإنَّ القتل دَأبي لا أماري ... كذاك القتلُ دأبُك يا صديقي
كلانا اليوم قرصانٌ : ببرٍّ ... تَصولُ ، وَصُلتُ في بحرٍ عميق

* * *

---

(١) أطلب المنظر الذي لا تنتهي منه العين ، أي : المطمع الذي لا يحدُّ .
(٢) أظلمُ الظُّلم أنْ تعلمَ الغَنَمُ سيرةَ الأسد : أي : تعلم الأمم الذليلة طريق الحرية والقوة .
(٣) صمم السَّيف : أصاب المفصل ، فقطعه .

عصبةُ الأمم[1]

مِسكينـــةٌ منـــذ زمـــان تُحتضـــر   لا فـاهَ مِقـوَلـي بسيِّـيء الخَبـر[2]
ومـــوتُهـــا محتَّـــمٌ لكنَّمـــا   يدعو القُسُوسُ أن يزولَ ذا الخطر
عجـــوزُ أوربـــةُ يجـــوز عَيشُهـــا   علـى رُقَـى إبليـسَ أيامـاً أُخَـر[3]

***

الشَّامُ وفِلسطين

مَـرحَـى لحـانـات الفـرنـج فقـد   مـلأت بهـنَّ زجـاجَهـا حَلَـبُ
إنْ فـي فلسطيـن اليهـودُ رَجَـتْ   فلْيـأخـذَنْ إسبـانيـا العَـربُ
لـلإنكليـز مقـاصـدٌ خفيـت   مـا إن يُـراد الشَّهْـدُ والـرّطَـب[4]

***

أئمةُ السِّياسة

مـا رجـائـي بسـاسـة قـد أسفُّـوا   وإلـى الأرضِ أخلـدوا إدراكـا
نظـراتٌ إلـى ذُبـابٍ ونمـلٍ   فهـمُ العنكبـوتُ مـدَّتْ شِبـاكـا
حبَّـذا الـركـبُ قـد هـداه أميـرٌ   ذُو مـرامٍ تُجـاوز الأفـلاكـا

***

---

(١) العنوان في الأصل : جمعية أقوام .

(٢) يعني لا أودُّ أن أخبرَ بموتها .

(٣) الظاهر أنَّ الشاعر نظم هذه الأبيات حينما كانت عصبة الأمم في آخر سنواتها .

(٤) بلاد العرب كلُّها معروفةٌ في الهند بالنخل ، ويقول الشاعر ليس قصد السياسة الإنكليزية ما تعلن من عمرانِ البلاد بل لها مقاصدُ خفيَّةٌ .

نزعات العبودية

بـأسبـابِ سُقـم الشُّعـوبِ خَفـاءٌ   يقصِّـر فـي شـرحِهِـنَّ البيـانْ :
بشـرع الأسـود إمـامُ العبيـد   يـرى دائمـاً حِكمـةَ الثُّعلبـانْ[1]
كليـمُ الإلٰـه يُـرَى لعنـةً   على قـومـه فـي خُطـوب الزَّمـانْ
إذا كـان فـي السـرّ هـذا الكليـمُ   لقُـوّةِ فـرعـونَ طـوعَ البنـانْ

* * *

صلاة العبيد[2]

قـالَ بعـدَ الصَّـلاة حِلفُ جهـادٍ :   كـم يطيـلُ الصَّـلاةَ فيكـم إمامُ
ما درى ذاكُمُ المجاهدُ المؤمنُ الغِرُّ   صـلاةُ العبيـد كيـف تُقـامُ
كـم لـدى الحُـرّ فـي الحيـاةِ كفَـاحٌ   غَيـرةُ الحـرِّ للشعـوب قِـوامُ
حُـرم العبـدُ حـرقـةَ الكـدِّ عجـزاً   فعلـى وقتِـه المُضـيُّ حَـرامُ
لا تعجَّـبْ إذا أطـال سجـوداً   مـا لـديـه سـوى السُّجـود مَـرامُ
رَبِّ وَفِّـقْ أئمـةَ الهنـدِ يـومـاً   لسجـودٍ تحيـا بـه الأقـوامُ

* * *

---

(١) أسباب مرض الأمم أئمةٌ أذلَّةٌ ، يرون في شريعة الأسود فلسفةَ الثعالب ، كالذين حادوا بالمسلمين عن شريعة الحياة والقوة إلى مذهب الخنوع والاستكانة . والحكمة هنا الفلسفة ، والثُّعلبان : الثعلب الذكر .

(٢) جاء إلى لاهور وفدٌ من الهلال الأحمر التركي فصحبهم إقبال في صلاةٍ بالمسجد الكبير ، فأطال الإمامُ الصَّلاة ، فسأل أحدُ رجال الوفد : لماذا يطيل الصلاةَ إمامُكم هذه الإطالة ؟ فكتب إقبال هذه الأبيات .

إلى عرب فِلسطين

لا يـزالُ الـزَّمـانُ يَصلَـى بنـارٍ ... لم تزل في حَشاكَ دونَ خمودِ[١]

لا دواءٌ بلنـــدن أو جنيـــوا ... بـوريـدِ الفـرنـجِ كـفُّ اليهـودِ[٢]

ومـن الـرقِّ للشعـوبِ نجـاةٌ ... قـوةُ الـذَّاتِ وازدهـارُ الـوجـودِ

الشَّرق والغربُ

علَّـة الشَّـرق ذِلَّـةٌ واقتـداءُ ... ونظـامُ الجمهـور فـي الغـرب داءُ

مَـرضُ القلـب والبصيـرةِ فـاشٍ ... مـا بشـرقٍ ولا بغَـربٍ شفـاء

***

نزعات التسلُّط
(إصلاحات)

أرى رحمـةَ الصَّيـاد سِتـراً لقهـره ... ولم يُجدِ فينا ذا الصفيرُ المجدَّدُ[٣]

وقـد زيَّـن الأقفـاصَ بـالـزَّهـر ذابـلاً ... لعـلَّ أسيـراً لـلإسـار يُغَـرِّدُ

***

---

(١) يعني : أن النار التي سرت في الزمان من تاريخ المسلمين لا تزال في نفس المسلم لم تخمد .

(٢) يعني : يقبض اليهود على وريد أوربة .

(٣) يقصد الشاعر ما دعاه الإنكليز إصلاحاً ، حين جعلوا للهند نوعاً من الحكم الدَّاخلي ، يقول :

ما يزال الصيَّاد قاسياً ، وإن تظاهر بالشفقة ، ولا يرققه أن تجدد له غناه . وإنما همُّه أن يرضى الأسير فهو يزيِّنُ الأقفاص بزهورٍ لا نضرة فيها ، لعلَّ الطائر يرضى بقفصه .



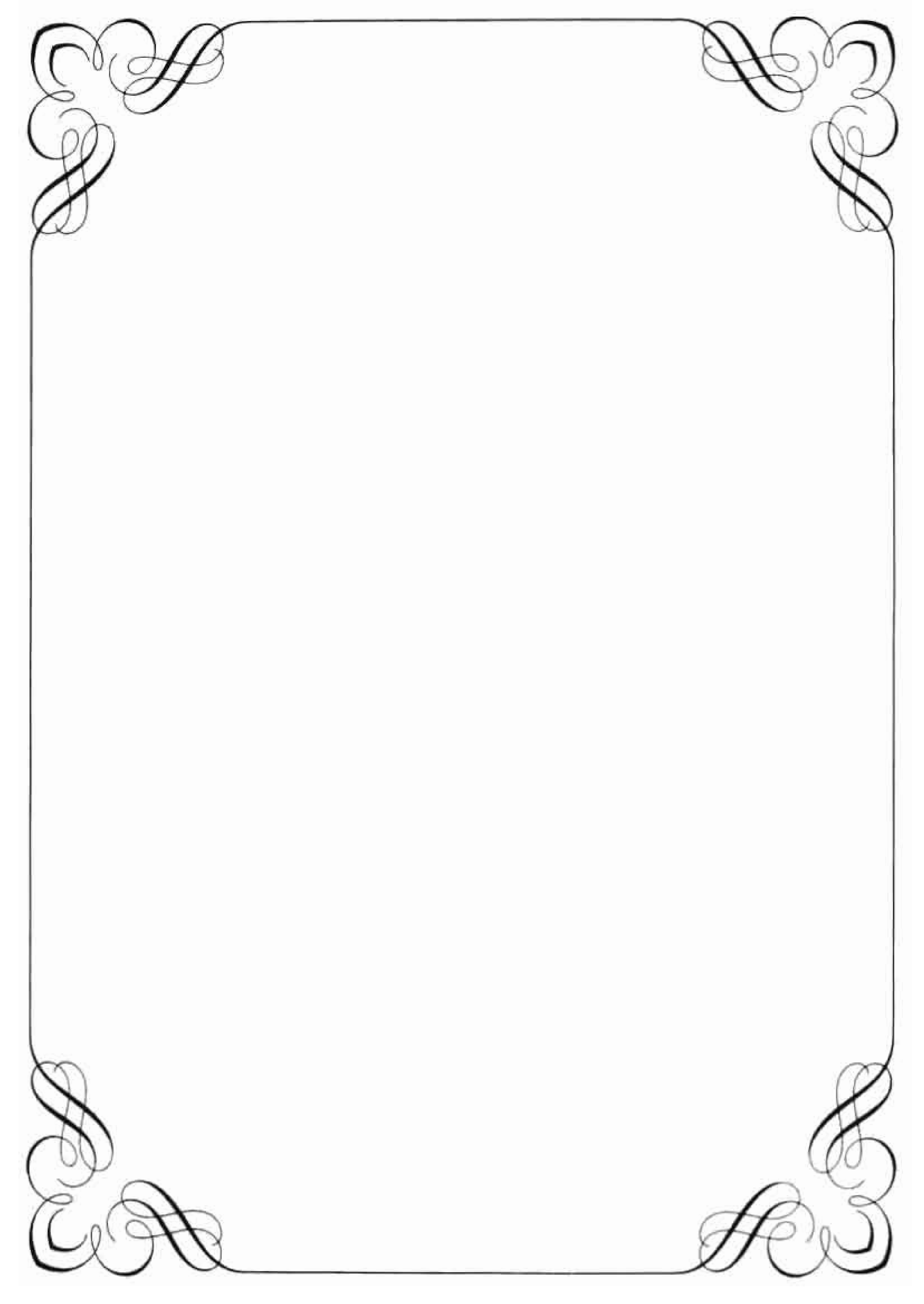
القسم السّادس

أفكار محراب غل الأفغاني

للشاعر إعجابٌ بالأفغان لقوتهم وبسالتهم ، واعتزازهم بجبالهم ، وحميتهم الإسلاميَّة ، وقد تخيَّل الشاعر أنَّ شاعراً (محراب غل) أنشأَ هذا الشعر الَّذي في الصَّفحات التَّالية ، بيَّنَ عمَّا في نفوس هؤلاء النَّاس وما في معيشتهم كما يُريد الشاعر (إقبال) .







- ١ -

يـا جبالـي أيـانَ عنكِ المسيرُ … وتـرابُ الآبـاء هـذي الصُّخـورُ
لا زهـورٌ ولا صَـدى عنـدَليـبٍ … فيـكِ منـذُ الآزال تـأوي الصُّقـورُ
جنّتـي فيـكِ مَخـرمٌ وشعـابٌ … مـأوُكِ النُّـور ، والتُّـرابُ العبيـرُ
لـن يكـونَ الشّـاهيـنُ عبـدَ بُغـاثٍ … ألحفـظِ الأبـدانِ روحـي أبيـرُ
خلعـةُ الإنكليـز أم سُخـقُ ثَـوبٍ … إيـهِ فقـري الغيـور ! مـاذا تشيـر ؟

- ٢ -

تنـافـرُ النَّـاس دائـمٌ أبـداً … لسـتُ ولا أنـتَ القضـاءَ فصَّلَـهُ
في الذاتِ غُصنٌ ، للزَّمان ذا أمَلٍ … دواؤه فـي الجـروح أرسلـه
تبقـى علـى الـدهـر واحـداً بطـلاً … إنْ كان في القلب « لا شريك له »

- ٣ -

يجـوز أن تُبـدَل أنـتَ ، لا تَخَـلْ … بـدعـوةٍ أنَّ القضـاءَ يُبـدَّلُ
إذا سـرى فـي ذاتـك انقـلابُهـا … فجـائـزٌ أنَّ القضـاءَ يُبـدَلُ
يبغـي الشـرابَ والفِنـاءُ إذ تـرى … رسـمَ « السُّقـاةِ » والإنـاءَ يُبـدَلُ
تـدعـو بتحقيـقِ الـرَّجـاء جـاهـداً … ودعـوتـي أنَّ الـرَّجـاء يُبـدَلُ

- ٤ -

ومـا فَلَـكٌ جـائـرٌ فـي السَّيَـرْ … ومـاذا ذكـاءٌ ومـاذا القَمَـرْ ؟
أرى رَكْبَهـا جـاهـداً فـي المسيـر … وأقْعَـدَهـا طـولُ هـذا السَّفَـر
سِكنـدرُ زمْجَـرَ كـالـرَّعـد حينـاً … وعنـدك يـا مـوتُ صِـدْقُ الخبـر
وعـاثَـتْ بـدهلـي يـدا نـادرٍ … بضـربـةِ سيـفٍ حكـى فـاختَصَـر[1]

---

(١) نادر شاه : ملك إيران وأفغانستان ، فتح دهلي ، وتوفي سنة ١١٦٠هـ .

وتبقـى الجبـالُ وأفغـانُهـا ... لـك الملـك والحكـم ربَّ القُـدَر !
تُـذلُّ الحـوائـجُ صيـدَ الـرِّجـال ... تـرى الليـث كـالثَّعلـب المحتقَـر
إنِ الـذَّاتُ أيَّـدهـا فَقْـرُهـا ... فعنـدي وعنـدك مُلـك البَشَـر
قِـوامُ الشُّعـوب بحُـرٍّ فقيـرٍ ... إلـى سُـدّة المُلـك مـا إنْ نظـر

- ٥ -

مـدارسُ ثـم ضـوضـاءٌ ولهـوٌ ... وغـمٌّ دام فـي العيـش الـوفيـر
وسـمُّ الحـرِّ هـذا ليـسَ علمـاً ... إذا كـان الجَـدَا كـفَّ الشعيـر[١]
ومـا أدبٌ وفلسفـةٌ غنـاءٌ ... قِـوام الفـنِّ فـي جَهـدِ المسيـر[٢]
تحكَّـمَ فـي الطبيعـة ربُّ فـنٍّ ... يضـيء الليـل كـالصُّبـحِ المنيـر
فـربُّ الفـنِّ مِـن بـركـاتِ فـنٍّ ... يطـوعُ لحكمـهِ كـلُّ العَسيـر
وذلـك إن يشـأ قَطَـرَتْ عليـه ... أيـاةُ الشَّمـسِ كـالطـلِّ النَّضيـر[٣]

- ٦ -

عـالَـمُ التَّجـديـدِ إن يظفـرْ بحـرٍّ ... موجِـدٍ مـنْ حـولـه طـافَ الـزمـانْ
لا تَـدعْ ذاتَـك بـالتَّقليـدِ لَغـواً ... جـوهـرٌ فـردٌ فحُطْـه بصِـوانْ
بـاركَ التَّجـديـدُ قـومـاً ليـس فيهـم ... غيرَ حفلِ الأمس ، ذِكرى وعِيان[٤]
خشيتي أنَّ وغى التَّجديد في الشَّرق ... علـى التَّقليـدِ للغـربِ دِهـان

- ٧ -

تبـدَّل الأقـوامُ فـي البُلـدانِ ... فـي الـروم والشـام وهنـدُسْتـان

---

(١) العلم الذي جدواه كفٌّ من شعير ؛ أي : متاعٌ قليل ، ليس علماً ولكن سُمّاً للأحرار .
(٢) الفنُّ بالجهد المستمر لا بالأدب والفلسفة .
(٣) ربُّ الفنِّ إن شاء قطرت عليه أياةُ الشمس (أي شعاعها) كالنَّدى ، فجعلها مادة فنه .
(٤) التجديد بركةٌ لقومٍ لا يذكرون ، ولا يرون إلا صورَ الماضي .

يـابـن الجبـالِ هُـبَّ للـزَّمـان وأدرِكَـنْ ذاتَـك بـالعـرفـانِ

ذاتَك بالعِرْفانِ

يا غافل الأفغانِ

ذا مـوسـمٌ ومـاؤه عُبـابُ وعَسجـداً يُنبـتُ ذا التـرابُ

مـن لـم يـروِّ زرعَـه احتسـابُ فكيـف يُـدعَـى الغِـرُّ بـالـدهقـان

ذاتَكَ بالعِرْفان

يا غافلَ الأفغان

مـا لـم يَهِـجْ فـي مَـوْجِـهِ الـزخَّـارِ فـأيُّ بحـرٍ ذاك فـي البحـار ؟

مـا ليـسَ فيـه ثـورةُ الإعصـارِ فكيـفَ يُـدعـى عـاصـفَ الأكـوان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

مـن اهتـدى ونفسَـه أصـابـا مقلِّبـاً فـي طينـه التـرابـا

فحـرثُ ذا العبـدِ الـذي قـد طـابـا يُفـدَى بكـلِّ الجـاه والسُّلطـان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

جهلُـك هـذا مـا بـهِ مِـنْ عـارِ قـد صيَّـر الجهـلَ مـن الفَخـار

كـم عـالـمٍ فـاضـلٍ ممـاري متـاجـرٍ بـالـدِّيـن والإيمـان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

- ٨ -

يـدَّعـي الـزاغُ أنَّ ريشَـكَ قُبـح ويقـول الخفَّـاش : أعمـى جهـول

مـا رُذال البُغـاث يـا صقـرُ ! تـدري فـي عَنـانِ السَّمـاءِ كيـفَ تصـول

كيـف تـدري بحـالِ طـائـرِ عـزمٍ كلُّـه فـي المطـار عيـنٌ تجـول

- ٩ -

لا يسُفَّ العشقُ دأبَ الهوسِ ... بذبابٍ بازياً لا تقِسِ
ربَّ روضٍ حال حتى ليُرىٰ ... عندليبٌ عشُّه كالمحبِس
مُزمِعُ الأسفار لا يبغي صدىً ... من أذانٍ برحيل الغلَس
أتُرى قافلةُ الموج لها ... في مسير حاجةٌ بالجَرس
خدعَ العينَ فتى مدرسةٍ ... فَبَدتْ فيه حياةُ الأنسِ
وهو مَيْتٌ ومن الغرب اجتذى ... ما سرَىٰ في صدره من نَفَس
إنْ تُرِد تربيةَ القَلْبِ فَمِن ... نظر المؤمنِ شَزْراً فاقبِس

- ١٠ -

سوادُ عيون عِترتهِ فَتيٌّ ... حليفُ طهارةٍ وفتى ضِرابِ
يُرى في السلم ظبياً ذا جمالٍ ... وفي يومِ الكريهة ليثَ غابِ
به نارٌ تُحرِّقُ كلَّ شيءٍ ... وحسبُ الغاب من شَرر الثِّقابِ
حباه الله أبَّهةً ومُلكاً ... بفقرٍ حيدريٍّ واحتسابِ
سبيلُ التَّاج حسرُ الرأس عنه ... فلا تنظرْ إليه بارتيابِ(١)

- ١١ -

في بارحاتك لألأتْ أنوارُه ... يَسطيعُ نُوراً ذا السِّراجُ الخابي(٢)
يشكو الضَّعيفُ من الزمانِ صُروفَه ... والحرُّ فيه باسمٌ لِحرابِ
مِنْ صوتِ طير الصُّبح يدهشُ ذا الفتى ... أتراهُ أهلَ تطاعنٍ وضِرابِ

---

(١) وهو حاسر الرأس ولكنَّه طموحٌ إلى التاج ، أو هو في همته وعزَّته كصاحب التاج ، فلا تحقره بأنّه حاسر .

(٢) هذا السراج الخابي هو الذي أضاء لك البارحة ، فهو أهلٌ لأن يضيء مرّةً أخرى ، يعني : الإسلام .

حذري لأنك في طِباع طفولةٍ	والغربُ تاجرُ سُكَّرٍ وجُلابِ[1]

- ١٢ -

بلا دينٍ ولا تينٍ	هوَتْ في الفخِّ رجلاه[2]
دواءُ العاجزِ المغلوبِ	« لا غلّابَ إلا هُو »
وصيّادُ المعاني ما	رَجَتْ في الغَرب عيناه
فضاءٌ مونِقٌ لكنْ	غزالُ المِسك خَلّاه[3]
يقوِّم ذاتَه سحَراً	بدَمعِ العَيْنِ أوّاه[4]
فهذا الزَّهْر أحسَنُه	على الأمواهِ تلقاهُ
وديرُ الكون ، زُونُ الرِّيـ	ـح والألوانِ معناه[5]
على الكُفّار مُستولٍ	وذو الإيمان مولاه
إمامَ المسجدِ ! امْنَعْهُ	أميراً حين يغشاهُ
زوى المحرابُ حاجِبَه	ولم تُعجِبْهُ تقواه[6]

- ١٣ -

دنياك في عينيَّ شَيءٌ آخرُ	أنَّى لعينكَ - ليت شعري - تَظْهُر

---

(١) يخاف على المسلم أو الشرقي لأن فيه طبع الطفل يحبُّ السكر والجلاب . وأوربة تحسن التجارة بهما ، فهو يتهافتُ على تجارتها .

(٢) يشير إلى مصطفى كمال واتّباعه سياسةً لا دينيةً ، واتّخاذه الحروف اللاتينية للغة التُّركية .

(٣) لا يجد صياد المعاني في أوربة غزالاً مسكياً يصيده فإنما هي فضاءٌ لا صيد فيه . أي لا يجد المعاني الجميلة التي يحبُّها .

(٤) الأواه : المتعبِّد ، الرقيق ، كثيرُ الدعاء .

(٥) هذا العالم الذي هو معرض لأصنامٍ من الألوان والروائح ، يستعبد الكفرَ ، ولكنَّه مسخرٌ للمؤمن .

(٦) تخيل زاوية المحراب تقطيباً لصلاة أميرٍ ليس فيها معنى الصلاة .

مــاذا التقلّــبُ فــي عقــول شبابنــا | فــي كــلِّ صــدرٍ قــد تبــدّى مَحشرُ
شيخَ المساجدِ! ما دُعاؤكَ سُخرةً | أبــه الحيــاةُ بــلا جهــادٍ تَظفَــرُ[1]
ما « الذَّات » يُرجى في رِباطِ خَلقُها | هــل للشَّرار مــن الرَّمــاد تَسعُّــرُ[2]

ـ ١٤ ـ

كــلُّ عشــقٍ دون إقــدامٍ هــوى | ويــدُ الله بعشــق مخطــر
ويلتــا مِــنْ تــرفٍ! أيــن فتــىً | تَخِــذَ الأهــوالَ زاد السَّفَــرِ
خَلــوةُ الأطــوادِ ليســت وَحشــةً | يَعْــرِفُ « النَّفس » بهــا ذو البَصَــرِ

ـ ١٥ ـ

عِلـمُ فقـرٍ لسـالـكٍ غيـرُ صَعْـبِ | حـدَّثَ النـاسَ عـن هُـداه الضميرُ
لا يكـون الفـولاذُ جـوهـرَ سَيـفٍ | إنْ يكـنْ فـي الطبـاع منـه حـريرُ
إنَّ قَهـر الإلـٰه فقـرٌ ذليـلٌ | وسبيـلُ السُّلطـانِ فقـرٌ غيـورُ
قـد سبـاك الفـرنـجُ نفسـاً ولكـنْ | أنـت يـا مـؤمـنُ البشيـرُ النـذيـرُ[3]

ـ ١٦ ـ

مَــوتُ الشُّعــوب بُعــدُهــا | عــن جَــذَبــاتِ المــركــزِ
والــذَّاتُ إمّــا رُكــزت | فللمعــالــي تُــركَــزِ
فقــرٌ تــراه شــاكيــاً | جَــوْرَ الــزَّمــان اللحــزِ
بــاقٍ عليــه مسحــةٌ | مــن اجتــداء الكَــزِزِ
ولــم يــزل مُيسَّــراً | للبــرِّ فعــلُ المعجِــزِ
أنْ يجعــلَ الصُّخــورَ كــالــذرّات غَيــر مُعجَــزِ[4]

---

(١) في الأصل شيخ الحرم ، والمراد به المساجد عامّة .
(٢) الرّباط : مقام الصُّوفية ، وفي الأصل خانقاه .
(٣) جاء هذ المصراع في الأصل بالفارسية .
(٤) لا يحول دون همة الحرّ شيء من عالم المادّة فهو يحيل الصخور ذراتٍ ، فلا تكون في=

فـأيـن يـا مـؤمـنُ أنـتَ اليـومَ لـم تُبـرُز
مـا فـي جهـادٍ لـذةٌ جَمْـرُكَ فيـهِ مُعـوزي[1]
يـا شَمْـسُ مـن سُـرادِقِ المشـرقِ هيَّـا فـابـرُزي
واكسـي جبـالـي حُلَّـةً تُـزهـىٰ بلـون القُـرْمُـزِ

- ١٧ -

إنْ يكـن فـي الألـوف ربٌّ يقيـنٍ نفَـخَ النـارَ فـي شَبـابٍ وشِيْـبِ
ربمـا تنشـيء الصَّحـارى فقيـراً يخلقُ الدرَّ من حصىً في الجيوب[2]
بيـراعٍ لـكَ اكتبـنْ لـك حظّـاً لـم يَخُـطَّ الجبيـنَ ربُّ الغيـوبِ[3]
ذا الفضـاء الـذي يُسمَّـى سمـاءً ليـس شيئـاً لـدى العُقَاب النجيـبِ
هـو فـوق الـرؤوسِ يُـدعىٰ سمـاءً وهـو أرضٌ تحـت الجناحِ الهَبـوبِ

- ١٨ -

أيُّ قـولٍ لشيـرشـاه رشيـدِ فـي اختـلافِ القبيـل ذلّ العبيـدِ[4]
خلعـوا ثـوبَ أمَّـة جَمعتْهـم وازدهـوا بـالـوزيـرِ والمحسـودِ[5]
ذهـبَ الـدِّيـنُ فـي الجبال شعـاعاً كـلُّ حـزبٍ للُبـده فـي سجـودِ[6]
حَـرَمٌ فيـه حُـرمـةُ الـلاَّت تـرعـى فحبـاكَ المـولى بضـربٍ سـديـدِ[7]

= طريقه عقباتٌ .

(١) ليس في الجهاد لذةٌ ما لم تكن فيه حرارةُ الإيمان . وجمرُ المؤمن يفتقد اليوم في الجهاد .

(٢) الجيوب وجه الأرض ، وهو يشير إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه .

(٣) اكتب حظك بقلمك ، فالله تعالى لم يكتب على جبينك مستقبلك ، كما تزعم .

(٤) شيرشاه : أحد أمراء الأفغان .

(٥) الوزير ، والمحسود من قبائل الأفغان في إقليم الحدود من باكستان .

(٦) اللبد : الصَّنَم .

(٧) هذا حرمٌ ولكن فيه أصنام . فالله يوفقك لضربٍ تكسرُ فيه الأصنام ، كما كسر الرَّسولُ=

- ١٩ -

لیس الـذي يُدركُ الألـوانَ بـالبَصـرِ بل مُغْتَنٍ عن ضياء الشَّمسِ والقَمَرِ[١]

يا مؤمناً قد شأى الإفرنج منزلَةً تَقـدَّمَـنْ . لیـس هـذا مُنتهَـى السَّفـرِ

وحـانـةُ الغَـرْبِ للصَّـادي مفتَّحـةٌ ما السُّكر فيها بعلم العصر بالنُّكُرِ

لـك الممـاتُ بهـذا السُّكـرِ مُستتـرٌ إنْ لم يكن فيك للتَّوحيدِ مِنْ شَرَرِ[٢]

هل يَسَمَعنَّ بنو الخانات موعظتي في شملةٍ لستُ ذا تاجٍ ولا سُرُرِ ؟[٣]

- ٢٠ -

مقـاصـدُ الفِطْـرةِ العليـاء يحفظُهـا مَن عاش في البيد أو في الطَّود إنسانا

يـراقبُ السِّحرَ في التمدين يُبطله فـي فقـره أودَعَ الخـلَّاقُ سُلطـانـا

للحُسْنِ واللُّطفِ صاغَ الروضُ بلبلَه وتُنشـىءُ البيـدُ لـلإقـدام عِقبـانـا

يا شيخُ كم تُعجِبُ الأبصارَ مدرسةٌ لكنَّ في البيد فاروقاً وسَلْمانا[٤]

هل يعرفُ الدَّهر للإسلام منْ شبَهٍ فـي نشـوةٍ تتحـدَّى السَّيفَ غضبـانـا

* * *

= أصنام الكعبة .

(١) ليس بمبصر الذي يرى الألوان ، بل ما أدرك الحقائق والأسرار التي لا يحتاج في رؤيتها إلى الشمس والقمر .

(٢) لا ضير في أن تأخذ علومَ العصر وتنتشي بها ، ولكنَّ الهلاكَ فيها أن تغفل بها عن الإيمان والتَّوحيد .

(٣) الخانات : جمع خان ، ومعناه : الأمير . يعني يسمع هؤلاء الأمراء قولي وأنا في ثيابٍ خشنةٍ ، لست ملكاً ولا أميراً .

(٤) يعني : الأصحاب الكرام ، مثل : عمر الفاروق ، وسلمان الفارسي .

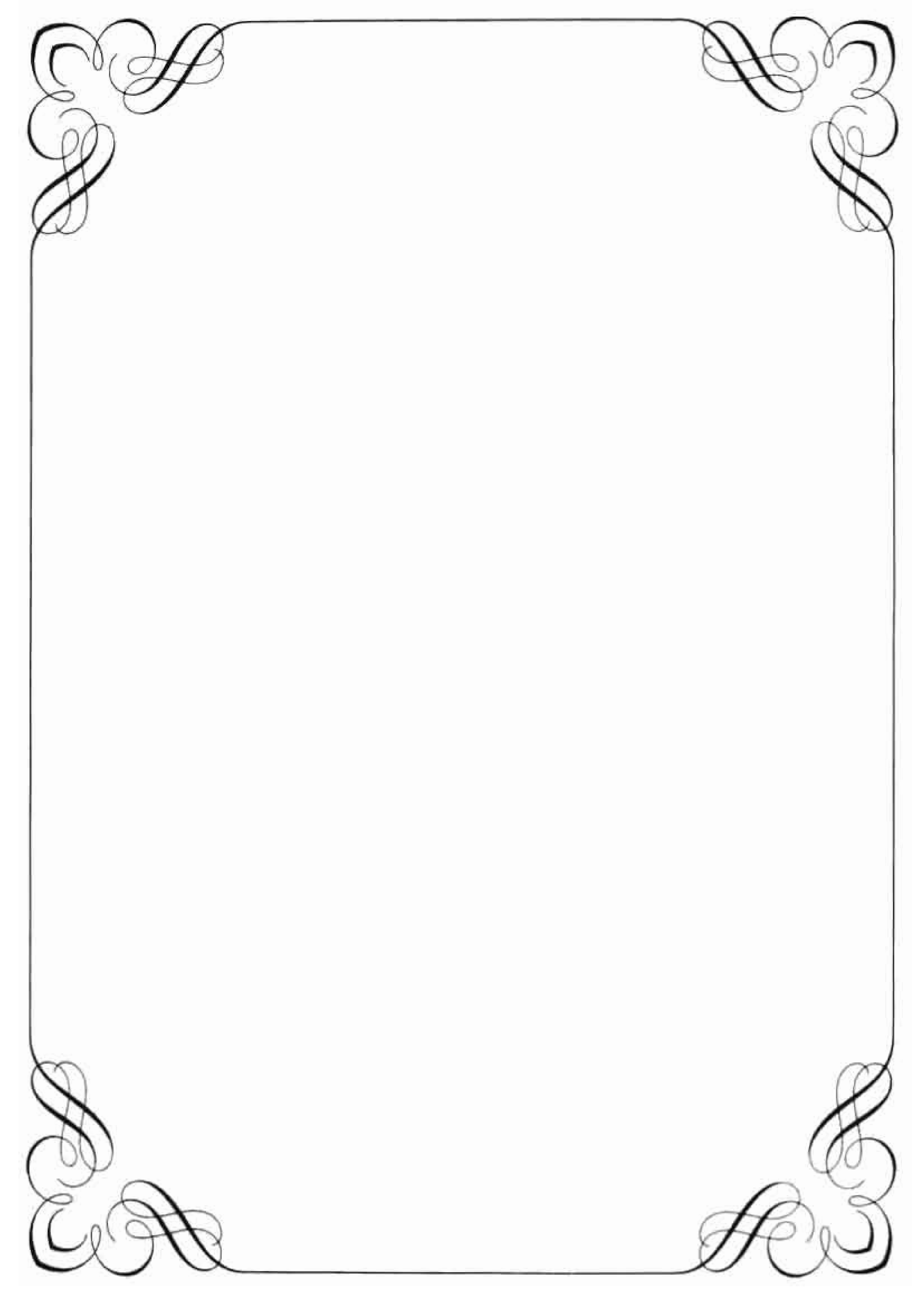



الدِّيْوانُ السَّابِعُ

رِسالَةُ الخُلُوْدِ

جَاوِيدْنَامَه

نَقَلَهُ إِلَى العَرَبِيَّةِ شِعْرًا
الدكتور حسين مجيب المصري



يعتبرُ هذا الدِّيوانُ التُّحفةَ الأدبيةَ لمحمد إقبال ، وهو عبارةٌ عن شعرٍ (مثنوي) للفلسفة الدِّينية ، ويحتوي على نحو ألفي مقطعٍ شعريٍّ مزدوج ، طبع عام ١٩٣٢م ، وإنَّه يُبرزُ قُوى الشاعرالفكريَّة وذراها الرفيعة ، وفيه توريةٌ إلى جاويد ابن الشاعر ، ويشتمل هذا الدِّيوان على ثمانية أقسام ، وفيها يحكي الشاعر قصَّةَ سفرٍ في الأفلاك كقصة دانتي الشاعر الإيطالي ، تبدأ القصَّة بمقدمةٍ فيها مناجاةٌ وفصولٌ أخرى ، إلى أنْ تظهر روحُ جلال الدِّين الرُّوميِّ ، فيشرحُ أسرارَ المعراج ، وهو دليلُ الشاعر في هذه الرحلة ، ثمّ يأتي زورابه وهو روح الزَّمان والمكان ، فيحملُ الشاعرَ ودليلَه جلالَ الدين الرُّومي إلى العالم العلويِّ .

وفي القسم **الأول** يزورُ الشَّاعر « القمر » وهنا قدَّمه الروميُّ إلى الحكيم الهندي المعروف باسم « جهان دوست » (محبُّ الدنيا) يجلسُ تحت شجرةٍ يأكلُ ويشربُ في تأمُّلٍ وتفكُّرٍ على طريقة اليوجا الهندية ، وحديثُه مع الرُّوميِّ واضحٌ ، وهو يبيِّن للإنسان أنَّ الطريق إلى التقدُّم يمكنُ خلالَ المزج بين الثقافةِ الشَّرقية والغربيَّة ، فالشرقُ قد ركز على الرُّوحانيات مهملاً المادِّيات ، بينما الغرب قد ركز على المادِّيات مهملاً الرُّوحانيات .

ويوافقُ الحكيمُ الهنديُّ على ملاحظاتِ الرُّوميِّ ، لكنَّه ينقلُ إلى الشاعر أخباراً مشجعةً ، وهي أنَّ الشَّرقَ النائم الكسلان هو مع هذا كله في طريقه إلى اليقظة من النَّوم والانشغال .

ويذهبُ الشَّاعر إلى وادي جرغميد ، حيث يرى الشاعرُ كتب البوذه وزردشت والمسيح ومحمد ﷺ ، والشَّاعر لا يقابلُ الرُّسل شخصياً بل من خلال كتبهم ، وهو يشرحُ تعاليمَ كلِّ رسولٍ على لسانِ أربعِ شخصياتٍ ، فتعاليمُ بوذه تُشرحُ على لسان فتاةٍ راقصةٍ ، بينما زردشت على لسانِ أهرمن ، وتعاليم المسيح

على لسان تولستي ، وتعاليم محمد ﷺ على لسان أبي جهل .

وفي القسم الثاني ينتقل الشَّاعرُ بعد ذلك إلى « عطارد » حيث يقابل جمالَ الدِّين الأفغانيَّ[1] وسعيدَ حليم باشا ، وهنا يقدِّم الرُّوميُّ الشاعرَ على أنَّه « زنده رود » أو « النهر الحي » وهو الاسم الّذي يستخدمه الشاعر من هنا فصاعداً خلال الكتاب . وفي إجاباته عن أسئلة الأفغانيِّ ، فإنَّ الشاعر يصفُ الأخطاءَ الّتي ترتكبها أممُ الشَّرقِ خاصَّةً الترك ، والفرس ، والعرب ، في تغريبهم لأنفسهم ، ويقارنُ سعيدُ حليم باشا بين الشَّرق والغرب ، ويبيِّن أنَّ إنقاذ وخلاصَ الجنس البشريِّ يَكْمُنُ في المزج والتأليف بين كلتا الثقافتين ، أو كما يعبر الشاعر في تزاوج العقل بالعشق .

ويحكي سعيدُ حليم باشا بعد ذلك للنَّهر الحيِّ (زنده رود) أنَّ دين الله قد أصابه الفسادُ من جرَّاء تعصُّب « المُلاّ » فقد اقتصرت وظيفتُه على خَلْقِ المتاعب .

وينتقلُ الشَّاعر في القسم الثالث إلى « فلك الزحل » ، حيث يزورُ مسكنَ الآلهة القديمة ، ويأخذُ الرُّوميُّ الشاعرَ إلى إقليمٍ يقعُ مباشرةً تحت نهرٍ ، حيث يقيم فرعون وكتشنر ، ويقدِّم فرعونُ الاعتذاراتِ ؛ لأنَّه لم يعترف بالولاء والإخلاص لموسى ، ويحذِّرُ الآخرين كي يكونوا أكثر حذراً في مثل هذه الحالات ، ويقارنُ الرُّوميُّ بين « الأتوقراطية »[2] والاستعمارية في الشرق .

وفي القسم الرابع يتَّجه الشاعرُ إلى « المرِّيخ » حيث يقابل فلكياً ، ويناقشُ الشاعرُ مع حكيم المريخ مشكلةَ القضاءِ والقَدَر ، وفي رأي الحكيم أنه من

---

(١) فيلسوف الإسلام في عصره ، نشأ في كابل ، جال في الشرق والغرب ، دعا إلى الوحدة الإسلامية ، له مؤلفاتٌ معروفة ، منها : « إبطال مذهب الدهريِّين » أصدر والشيخ محمد عبده مجلةَ « العروة الوثقى » في باريس عام ١٨٨٤م ، توفي عام ١٨٩٧م .

(٢) الحكم الفردي .

ويقابلُ الشَّاعر كذلك نادر شاه ، وأحمد شاه ، والشاعرالهندي بهر تري هري ، وبينما هو يستعدُّ لمغادرة إقليم ما وراء الأفلاك يسمعُ الصَّوْتَ الإلهيَّ المقدَّس يوضحُ له أن السرَّ الحقيقيَّ للتقدُّم والتطوُّر يَكْمُنُ في نموِّ ، وتطوُّر الفرديات ، والمجتمعات ، وهنا تنتهي الرحلة .

وفي **القسم الثامن** الذي هو الأخير يخاطب فيه الشَّاعرُ الشَّبابَ عن طريق ابنه جاويد فينصحُهم بتجنُّب الرفقةِ الشرِّيرة ، وأن ينمُّوا شخصياتهم وذاتياتهم عن طريق الجهاد والكفاحِ المستمر .

وقد نَقَلَ هذا الديوانَ من الفارسيَّة إلى العربيَّة شعراً الأستاذُ الدكتور حسين مجيب المصري بعنوان « في السماء » ، ويُقدَّم الآن إلى القراء هذا الدِّيوان في عنوانه الأصل الّذي سمَّاه الشاعر بـ « جاويد نامه » (رسالةُ الخلود) توريةً إلى ابنه « جاويد » وهو الآن بين أيديكم » .

* * *



بــدَّدَ الغيــبَ بنــور قــد بــدا ... وعلـى الـدَّهـرِ سيبقـى سَرْمَـدا[1]

يــا إلهـي مثـلَ هـذا اليـوم هَبْنـي ... إنَّ يـومـي مُـزمَهِـرٌ فلتُغِثْنـي[2]

آيــةُ التَّسخيـر فيمَـنْ أنـزلـت ... هــذه الأفـلاكُ فِيمَـنْ حَيَّـرت[3]

(علْـم الأسمـاء) سـرٌّ مـنْ دَراه ... أسكرتْ مِنْ خمرِها أو مِنْ سقاه[4]

مِـنْ جميـعِ الخَلْـقِ منـذا تَصْطَفـي ... فـإليـهِ بُحْـتُ بـالسـرِّ الخَفـي[5]

قَـدْ رَشَقْـتَ الصَّـدْرَ منَّـا بـالسِّهـام ... حرفُ ﴿ادعوني﴾، لمن هذا الكلام؟[6]

لــكَ وجــهٌ هــو قــرآنـي وديـنـي ... أتضـنُّ؟ وعلـى روحـي الحـزيـن

لــو رَمَـتْ ألــفَ شعــاعٍ شمسُنــا ... مـا رأتْ فـي الشَّمـسِ نقصاً عينُنا

قَيْـدُ هـذا العصـرِ قيـدٌ مـنْ نُهـىً ... أيـنَ روحٌ لـي تنـاهـى صبرُهـا[7]

ويمـرُّ الـدَّهـرُ مـنْ عمـرِ الـوجـود ... كـي نـرى روحـاً ومـا فيهـا خُمود

أنـتَ مـا لَـمْ تَفلَـحِ الأرضَ الجديبة ... لم تنلْ ما كنتَ تبغي مِنْ رغيبة[8]

إنْ نَمَـا مـنْ ذَلـكَ الطِّيـنِ المَهِيـن ... قلــبُ إنســانٍ فــذا كنــزٌ ثميــن

أنــتَ بـدرٌ مـرَّ بـي فـي مَخْـدعـي ... ظلمــةَ الــرُّوحِ تــأمَّلهــا معــي

---

(١) السَّرمد : الدائم .

(٢) ازمهر اليوم : اشتدَّ برده .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى في سورة لقمان : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ [لقمان : ٢٠] أي سخر الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والثمار ، والأنهار ، والدواب للإنسان لينتفع بها .

(٤) إشارةُ إلى قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] أي أسماء المسميات ، فأراه الأجناسَ التي خلقها ، وعلَّمه أنَّ هذا اسم فرس ، وهذا اسم بعير ، وهلم جرا .

(٥) اصطفى : اختار .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى في سورة غافر : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ؛ أي : اعبدوني أثبكم .

(٧) النُّهى : العقل . وتناهى : بلغ النهاية .

(٨) فلح الأرض : شقها ليزرعها . والرغيبة : الأمر المطلوب .

لَـمْ نُـنْءِ عـنْ هشيـمٍ شعلـةً ... أيخـافُ البـرقُ ليـلاً زلـةً !

عِشْتُ ما قد عِشْتُ لكنْ في الفراق ... اهـدني ربَّـاه مـزرقَ الـرُّواق[1]

افْتَحَـنْ كـلَّ بـابٍ لـي هُنـالـك ... واجْعَـلِ الطِّيـن نَجِيّـاً للمـلائـك[2]

هـاكَ صـدري فيـه أشْعِـلْ لهبـا ... وَدَعِ العُـوْدَ وأضـرِمْ حَطَبـا

نـحِّ تلـكَ النَّـار عـودي أوقـدَنْ ... وعلـى الكـونِ دُخـانـي بـدِّدَنْ

أجِّـجِ النـارَ بكـأسـي خمـرةً ... وبغـضِّ الطَّـرفِ هبنـي نظـرةً

قَـدْ طلبنـاكَ ومـا تبـدو لنـا ... إنَّمـا كـانَ عمـانـا ذنبُنـا

وعـنِ السـرِّ أمِـطْ سـتـراً خفـاه ... أوْخُـذِ الـرُّوح التـي مـا إنْ تـراه[3]

دوحُ فكـري لا يُـرجَّـى مـنْ ثمـر ... أرسـلِ المعـولَ أو ريـحَ السَّحـر[4]

قَدْ وُهِبْتُ العقلَ فامنحني الجنون ... واهدِ هذا القلبَ للجذبِ الدَّفين

إنَّمـا للعلـمِ فـي الفِكْـرِ المَقَـام ... عُـشْـُ ذاك العِشْـقِ قلـبٌ لا يَنَـام

وإذا العلـمُ عـنِ العِشْـقِ انفـرَدْ ... مسـرحـاً أضحـى لأفكـارٍ تُعَـد

فيـه سِحْـرُ السَّـامـريِّ ظـاهـرُ ... علمُنـا مـنْ غيـرِ وحـيٍ سـاحـرُ[5]

بـالتَّجلِّـي عـالـمُ القـومِ اهتـدى ... مـا رمـاهُ الـوهـمُ فـي جـوفِ الرَّدى

عيشُنـا لـولا التَّجلِّـي سقمُنـا ... عقلُنـا مَـسٌّ وجَبْـرٌ دينُنـا

هـذه الـدُّنيـا بهـا بحـرٌ وبـر ... نحنُ نرنو وهي منْ يروي الخبر

---

(١) مزرق الرواق : السماء .

(٢) يريد بالطين نفسه ؛ لأنه إنسانٌ خلق من طين . والنَّجي : صاحب السر . والملائك : الملائكة .

(٣) خفاه : أخفاه .

(٤) الدوح : جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة .

(٥) بعد أن ذهب موسى لميقات ربه ، تحيَّن رجلٌ يسمى السَّامري غيبته ، وأخذ من بني إسرائيل حلي نسائهم ، وألقاها في النار ؛ ليسبك منها عجلاً ، وجعله بحيث يكون له صوتٌ كالخوار ، وخدعَ بني إسرائيل بقوله : هذا إلهكم وإله موسى .

فـإلـى الـدَّار فـؤاداً ضـلَّ رُد   فِلقَـةُ البَـذْرِ إليـه فلتَغْـد[1]

مـن ترابـي مـا نمـا إلَّا الكـلام   وكـلامُ الهجـر يخلـو مـنْ خِتَام

إنَّني فـي الكـون ذيَّـاكَ الغـريـب   مـن بعيـدٍ فلتقـلْ إنِّـي قـريـب

ريثمـا كـالشَّمسِ يُطوى بـالغـروب   فكـلُّ صـوبٍ وشمـالٍ وجنـوب

مِـنْ غَـدي والأمـس إنِّـي مُنطلـق   ووراءَ كـلِّ نجـمٍ استبـق[2]

أنـتَ نـورُ خـالـدٍ نحنُ الشَّـرار   ولنـا الأنفـاسُ عمـرٌ مستعـار

قـلْ لمـن مـا مـازَ موتـاً منْ حياه   أي عبـدٍ غـارَ مـنْ صُنْـعِ الإلـه[3]

جـابَ آفـاقـاً وليـسَ بـالصَّبـور   لـم يسـرَّ بغيـابٍ أو حُضـور[4]

إنَّني الفـانـي فهبْ أنـتَ البقـاء   وأنـا الأرضُ أسكنِّـي السَّمـاء

يـا إلهـي هَـبْ فعـالـي والكـلام   كـلَّ خيـرٍ ، ومسيـري لـلأمـام

ليـس مـنْ دنيـاي هـذاك الخطـابْ   لا ولا تِلْـكَ السَّمـا هـذا الكتـاب

إنَّنـي بحـرٌ سكـونـي لا يليـق   أينَ منْ غاصَ على قاعي العميق[5]

وعلـى السَّـاحـلِ دُنيـا تستقـر   وتـرى فـي البحـر مـوجـاتٍ تفر

قـد يئسـتُ مـنْ شيـوخِ الأقـدميـن   ولـديَّ عـن غـدي قـولٌ مبيـن

وعلـى الفتيـان يسُـرُ مـا أقـول   وليكـنْ كـلُّ عميق كـالضَّحـول[6]

* * *

(١) فلقة البدر بكسر الفاء : القطعة منه .

(٢) استبق : تسابق .

(٣) ماز الشيء : فرزه عن غيره .

(٤) جاب البلاد : قطعها .

(٥) غاص على اللؤلؤ : غطس يستخرجه .

(٦) الضحول : جمع ضحل ، وهو الماء لا عمق له .

تمهيدٌ سَماوِيٌّ

فـي اليـومِ الأولِ لِلْخَلْـقِ ، تنثنـي السَّمـاءُ علـى الأرضِ بـالمـلام

لِلْحُضـورِ لـذةٌ أو لِلْغيـاب وبهـا قـدْ خُلِـقَ الكـونُ العُجـاب

كـانَ لـلأنفـاسِ خيـطٌ فـانْقَطَـع بَنَتِ الحيـرةُ صـرحـاً مـا انْصَدَع[1]

حيثُمـا تمضِ تُشـاهـدْ قـائـلا بَعْدَ شوقٍ : لَسْتَ مثلي يا فُلا[2]

علَّمُـوا الأنجـمَ طُـرّاً سَيْـرَهـا مَنَحُـوهـا فـي السَّمـاءِ نُـورَهـا[3]

هـذه الشَّمـسُ أقـامـتْ خيمـةً زانَهـا التِّبْـرُ رسـومـاً جمَّـةً

أوَّلُ الإصبـاحِ فـي الأفـقِ انْبَثَـقْ ورأى الكـونَ وليـداً فـاعْتَنَـقْ

كـانَ لـلإنسـانِ أرضٌ قـاحلـةْ لا تمـرُّ فـي ثـراهـا قـافِلَـةْ

الجبـالُ ليـس فيهـا مـن نَهَـرْ والفيـافي تَحْتَ غيـم ما انْهَمَرْ

ما شَدَتْ في الغُصْنِ طيرٌ بـالغِناء لا ولا في المَرْجِ سِربٌ منْ ظِباء

التَّجلِّـي غـابَ عـنْ بحـرٍ وبـرّ ولهـا الثـوبُ دخـانٌ وانْتَشـر

فـي ربيـعٍ مـا بَـدَتْ مـنْ خُضْـرَةٍ وانْطَـوَتْ تحـتَ الثَّـرى فـي غبـرةٍ

لامَ تِلْـكَ الأرضَ مـزرقُّ الفَلَـكْ « ما رأتْ عينٌ كهذا هَيْتَ لك! »[4]

وفضـائـي ليـسَ فيـه مـنْ ضَـريـر لـكَ نـورٌ مـنْ سِـرَاجـي أيَّ نـور

قـد يطـولُ التُّـرْبُ طـوداً فـي السمـا لا يضـاهـي فَلَكـاً أو أنْجُمـا[5]

فَلْتعيشـي مثلمـا عـاشَ الجميـلْ أوْ فموتـي مـن شَنَـارٍ للـذَّليـل[6]

فـاعتـرىْ الأرضَ مـنَ اللَّـومِ الخَجَـلْ بَعْـدَ حـزنٍ وضَيـاعٍ لِـلأمَـل

---

(١) الصرح : كلُّ بناء عال .

(٢) يا فلا : ترخيم يا فلان .

(٣) طُرّاً : جميعاً .

(٤) هيت لك : هَلُمَّ وتعالَ .

(٥) الترب : التراب . والطَّوْد : الجبل .

(٦) الشَّنار : العيب والعار .

ومِـنَ الظُّلْمـةِ أضـوَاهـا الألـم ونـداءٌ جـاء مِـنْ فـوقِ القِمَـم[1]

يـا أميناً لَسْـتَ تـدري مـا الخبـر أيَّ بـأسٍ ؟ ذاتُـكَ امْنَحْهـا النَّظَـر

النَّهـارُ نـورُه مِـنْ مُعْتـرك ليـسَ مِنْ نـورٍ أتـانا مِـنْ فَلَـك[2]

نورُ هذا الصُّبْح من شَمْسٍ جريح مِـنْ صُـروفِ الـدَّهـرِ أنـوارٌ لـروح

نـورُ تِلْـكَ الرُّوحِ مـاضٍ فـي سَفَـر يسبـقُ الشَّمْـسَ شُعـاعـاً والقَمَـر

مِنْ كتابِ الرُّوح أسقَطْتَ « المنى » وهي تبدي مِنْ ثراكَ ذا السَّنا ![3]

يملـكُ العَقْـلُ مـنَ الـدُّنيـا العَنَـان ولهـذا العِشْـقِ غـزوُ الـلاَّمكـان

يهتـدي الفِكْـرُ ومِـنْ غيـرِ الـدَّليـل عينُـه يقظـى وفـاقَـتْ جِبْـرئيـل !

يـا لَـهُ تـربـاً يطيـرُ كـالْمَلَـكْ ولـه يَبْـدُو رِبـاطـاً ذا الفَلَـكْ[4]

يَخـزُ الـزَّرقـاءَ جسـمٌ فـي المسيـر إبـرةٌ قـد خَـرَقَـتْ ثـوبَ الحـريـر

ثـوبُ دُنيـانـا محـا عنـهُ الـوضَـر فضَّلَـهُ فـي عينهـا نـورُ البَصـر[5]

ورقيـقُ الـدِّيـنِ سفَّـاكُ الـدِّمـاء وهو كالمِهمازِ في جَنْبِ القضاء[6]

تستنيـرُ عينُـه بـالكـائنـات لتـرى الـذَّاتَ تَجَلَّـتْ فـي الصِّفـات

مِـنْ تَلَظَّـى عِشْقُـه مِـنْ حُسْـنِ ذات سيـداً أضحـى لِكُـلِّ الكـائِنـات[7]

* * *

---

(١) أضواها : أضعفها .

(٢) المعترك : موضع العراك والقتال . والمراد به معترك الحياة .

(٣) السنا : النور .

(٤) الرباط : مبنى لنزول المسافرين كما أنه لإقامة المتعبدين .

(٥) الوضر : الوسخ .

(٦) رقيق الدين : الملحد .

(٧) تلظت النار : تلهبت .

أغنية الملائكة[1]

ويـــومـــاً تبهـــر الصلصـــال نـــوريـــاً بـــأنـــوار
ويـــومـــاً تُضبـــحُ الأرضُ سمـــا مـــنْ نجـــمِ أقـــدار
خَيـــالُ المـــرءِ ظمـــآنٌ ، سيـــولُ الـــدَّهـــرِ تـــرويـــه
ويـــومـــاً خـــارجَ الأفـــلاكِ فـــي أمـــنٍ سَتُلْقيـــه
وفـــي معنـــىً لإنســـانٍ تـــأمَّـــل أنْـــتَ ثـــمَّ اســـأل
ويـــومـــاً بَعْـــدَ تطـــويـــعٍ سَيُمْســـي ذلـــكَ الأكْمـــل
ويعلـــو منْـــهُ شـــأنٌ لـــم يكـــنْ فـــي أمســـهِ شيَّـــا
ويـــومـــاً أنْـــتَ لا تلقـــاهُ عِنْـــدَ الله مَـــرْضِيَّـــا

* * *

تمهيدٌ أرضيٌّ

تلوحُ روحُ جلال الدِّين الرومي ، وتتناولُ بالشَّرحِ سرَّ المعراج

شُعْلـةٌ لِلْعِشْـقِ شَبَّـتْ فـي المـدينـة ... ضجـةٌ لِلْقَـوْمِ تَطْـويهـا دَفينـة
تَنْشُـدُ الخلـوةَ فـي طَـوْدٍ أشَـم ... أو على السَّاحلِ مِنْ بحرٍ خِضَم[2]
مـا وَجَـدْتُ لـي حميمـاً مـرَّةً ... فَقَصَـدْتُ البَحْـرَ أُلقـي نظـرةً
ورأيـتُ البَحْـرَ فـي وقـتِ الغُـروب ... زرقـةً فيهـا يـواقيـتُ تَـذُوب
للضَّـريـرِ واهـبٌ نـورَ البَصَـرِ ... للمسـاءِ مكسـبٌ لـونَ السَّحـر
ثـم نـاجيـتُ طـويـلاً مُهْجَتـي ... وطَلَبْـتُ فـي خيـالـي مُنْيتـي[3]

---

(١) هذه المنظومة من بحر الهزج ، وهو في العربية سداسيٌّ أصلاً ، ولا يستعملُ إلا رباعياً ، غيرَ أنَّ الفرس يستعملونه ثمانياً . وقد أوردناه ثمانياً كما ورد في هذا الشعر الفارسيِّ .

(٢) الطودُ الأشم : الجبلُ المرتفع . البحرُ الخِضَمُّ : العظيمُ الواسع .

(٣) المُهجةُ : دَمُ القلب . والمرادُ به هنا القلب .

إنَّني الفاني ومالي منْ خلود وأنا حيٌّ ومثلي في اللُّحود
ظامئٌ والنَّبع عن ثغري بعيد فإذا بي منشدٌ هذا النَّشيد

***

غزل

افتحِ الثَّغرَ لذةَ الشَّهْدِ أطْلُبُ أظهرِ الخدَّ روضةَ الوَرْدِ أطْلُبُ
هذه الكأسُ في يدي وبأخرى شَعرُه ، إنَّ رقصةَ الوَجْدِ أطْلُبُ[(١)]
في دلالٍ تقولُ قُمْ أنْتَ عنَّا قلْ وكرِّرْ ، فقولةَ القَنْدِ أطْلُبُ[(٢)]
أنْتَ يا عقلُ فانصرِف عنْ هُذاء أنْتَ يا عِشْقُ صحوةَ الجدِّ أطْلُبُ[(٣)]
إنَّ تلكَ الحياةِ كالسَّيْلِ تمضي وأنا الحوتُ لُجَّةَ المدِّ أطْلُبُ[(٤)]
ذاكَ فرعونُ أرْمَضَ النَّفسَ جَوْراً نورَ موسى بليلةِ البَرْدِ أطْلُبُ[(٥)]
طافَ في الليلِ شيخُنا بسراجٍ قالَ إنّي مؤجَّلَ العَوْدِ اطْلُبُ[(٦)]
ورفاقٍ كَرِهْتُ مِنْهُمْ خِصالاً رُستماً لي وسيِّدَ الأسْدِ أطْلُبُ[(٧)]

---

(١) يريد برقصة الوجد رقص المولوية ، وهم أتباعُ جلال الدِّين الرومي المعروف بمولوي ، وكانوا يرقصون ، على أنَّ الرَّقص والسماع مما يثير في القلوب لوعةَ العِشْق الإلهي . وسنصفُ رقصهم تفصيلاً في الصفحاتِ الأخيرة من الكتاب .
(٢) القَنْدُ : السكر .
(٣) الهذاء : الاسم من هذي بمعنى تكلم بغير المعقول لمرض أو غيره .
(٤) اللجة : معظم الماء . والمدُّ : ارتفاع ماء البحر .
(٥) ذكرنا ليلة البرد هنا لأنَّ موسى عليه السلام كان يرعى غنمه ومعه امرأته في ليلة باردة وأراد أن يقدح بزَنْدِه فما أخرج الزَّندُ ناراً غير أنَّه شاهد ناراً من بعيد ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ١٠] .
(٦) العود : العودة وجعلناها مؤجلةً للمبالغة .
(٧) رستم : بطلُ الأساطير الفارسية المشتهرُ بشجاعته وشهامته في الملاحم ، وأردنا بسيد الأسد أسد الله وهو عليٌّ كرم الله وجهه .

كم بحثنا ، وأيَّ شيءٍ وجدنا
قلتُ إنّي برغمِ ذا الفقدِ أطلبُ

فوقَ ماءِ أغبرِ الموجُ نام … غابتِ الشّمسُ وفي الأفقِ الظّلام
إنّ منها اللّيلُ شيئاً قد سرَق … يَشهدُ الكوكبُ بالنّور ائتلق
روحُ « رومي » مزّقتْ كلَّ السُّتور … ولها منْ خلْفِ أطوادٍ ظُهور[1]
إنّهُ شمسُ الضُّحى في طَلْعَتِه … وشبابُ شيبه ، في مَيْعَتِه[2]
وبنورٍ سرمديٍّ قدْ أضاء … منْ حُبُورِ الخُلْدِ غطّاه الرِّداء[3]
شفتاه فيهما سرُّ الوجود … فكَّ عنهُ القَوْلَ فكّاً للقُيود
إنّ هذا القَوْلَ مرآةٌ تدلّت … وهو عَلَمٌ فيه نارٌ قد تجلَّت
غَيْرُ موجودٍ وموجودٌ ؟ أجبني … غيرُ محمودٍ ومحمودٌ ؟ أجبني
قال لي الموجودُ ما يبغي الظهور … فالوجودُ يقتضي هذا الظُّهور
للوُجودِ زينةٌ تُدعىٰ « أنا » … رغبةٌ في الذّاتِ برهانٌ لنا[4]
ألِفُوا يومَ « ألستُ » مجمعا … « أينَ مَنْ يشهد ؟ » قالوها معا[5]
إنْ تكنْ حيّاً أو الميتَ الدّفين … أو تَجُدْ بالرُّوح سلْ عن ذا الأمين[6]
شاهداً فلتتخذْهُ منْ شعور … أو عيونٍ ما لها إلاكَ نور

---

(١) روميٌّ : هو جلال الدين الرومي . والأطواد : الجبال .
(٢) مَيعةُ الشباب : أوّلُه .
(٣) السّرمديُّ : الخالد . والحُبورُ : السُّرور .
(٤) أنا هنا بمعنى الذّات أو الفرد . وفي رأي إقبال أنَّ حياة الإنسان لن تكون إلا فردية ، ولا وجود لحياة كلّيّة في واقع الأمر ، وتجلّي الحياة في الفرد ليس إلّا . فالأنا أو الإنسان يسمو ويخلد بالعمل ، وإلى تلك الحقيقة كانت إشارةُ الإسلام .
(٥) يُكثرُ شعراءُ التصوُّف من الفرس ذكرَ يوم « ألستُ » مشيرين بذلك إلى قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .
(٦) المراد بهذا الأمين : الشّاهد .

واجعلِ الثاني شعورَ الآخرين ... شاهد الذَّاتِ بعينِ الآخرين

ولتكنْ ذاتُ الإله خيرَ شاهد ... ولها نورٌ به ذاتاً فشاهد

أنتَ إنْ واجهتَ ذيَّاكَ الضِّياء ... نِلْتَ طولاً سرمديّاً للبقاء

الحياةُ هي للذَّات الوصول ... وهي ذاتٌ ليس يُخفيها سُدول[1]

لم تلائمْ مؤمناً قطُّ الصِّفات ... ما اختيارُ المصطفى إلا لِذات

ما هو المعراجُ ؟ مرجاةٌ لشاهد ... واختبارٌ ، وتراهُ عينُ شاهِد

شاهدٌ عدلٌ وممَّا قاله ... عيشُنا البستانُ أزهارٌ له

ما لإنسانٍ ثباتٌ في الحضُور ... أو هو الكاملُ لا يشكُو القُصور[2]

ذرةٌ لا تلق من هذا اللَّهيب ... ثم صُنْهُ مِثْلَ تِذْكارِ الحبيب

أنْ تزيدَ النُّورَ فيك ذاك أخلَقُ ... أنْ تضاهيه بشمسٍ ذاكَ ألْيَقُ

جسمَك الباليَ جدِّدْ بالصِّقال ... واختبرْ ذاتك عِشْ فالعمرُ طال

ليس بالمحمودِ إلا ذو الوجود

عيشُنا لولاهُ ما يعلو الوقُود[3]

قلت كيفَ نحنُ نمضي قصدُنا الحقُّ ... لجبالٍ ومياهٍ كيفَ ذا الشقُّ[4]

وبعيدٌ آمرٌ عن أمرنا ... والزَّمانُ شَصُّه في حلقنا[5]

قلت والسُّلطان إمَّا كانَ لك ... لاستطعتَ اليومَ تحطيمَ الفَلَك[6]

انتظرْ يوماً تعرَّى الكائنات ... والغبارُ طالَ منْ ذيلِ الجهات

---

(١) السُّدول : جمع سدل ، وهو الستر . واللام في للذات بمعنى إلى .

(٢) الحضور عند المتصوفة هو حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبيُّ عنده كالحكم العينيِّ . ونقيضُه الغيبة ، وهي غيبة القلب من دون الله حتى يغيبَ عن نفسه ، ويستطيع مشاهدتها .

(٣) الوقود : النار واتِّقادها . والدُّخان هو المراد بما يعلوها ، وهو متفرِّقٌ متبدد .

(٤) الحق : هو الله جل وعلا .

(٥) الشص : حديدة عقفاء يصاد بها السمك .

(٦) إما : مركبة من إن الشرطية وما الزائدة .

الأقلَّ لا ترى والأكثرا ... أنتَ منه وهوَ مِنك ما ترى

قولُه ﴿ إلا بسلطان ﴾ تَذَكَّرْ ... أو فَمُتْ في الوَحْلِ والذرِّ المبعثر[1]

بولادِ أيُّهذا الألمعي ... كنتَ في دنيا الجهات الأربع[2]

بولادِ أنتَ قد تمضي بعيدا ... وتفكُّ عنك هاتيكَ القُيودا

ليسَ مِنْ ماءٍ وطينٍ ذا الولادْ ... ما دراهُ قطُّ إلا ذو فؤادْ

ذاكَ مِنْ جبرٍ وذا بالاختيار ... ظاهرٌ هذا وذا خَلْفَ السِّتار

بالبكا ذاكَ وذا بالابتسام ... باحثٌ هذا وللثَّاني المرام

ذا سكونٌ ، سيره في الكائنات ... ذاكَ قطُّ لا يسيرُ في الجهات

ذا لليلٍ ولصبحٍ حاجتُه ... ما هما إلا لذاكَ دأبتُه

مولدٌ للطِّفل بطناً قد فطر ... للرِّجالِ المولد الدُّنيا فَطَر

ودليلُ العالمِيْنَ في الأذان ... ذاكَ بالرُّوح وهذا باللِّسان[3]

مولدٌ للرُّوح حلَّت جسمَنا

زَلْزَلَ الدُّنيا فماجَتْ حولَنا

قلتُ لمولدِ معنىً لا أراه ... قال شأنٌ من شؤونٍ للحياه

إنَّما دنياكَ غيبٌ أو حضور ... ثابتٌ هذا وللثاني المُرور

ولذاتٍ ذوبُها في جلوةٍ ... وتراها جُمِعَتْ في خلوةٍ

جلوةٌ للذَّات في نور الصِّفات ... لكنِ الخلوةُ مِنْ نورٍ لِذَات

عقلُها الدَّافعُ نحو الجلوةِ ... عِشْقُها الماضي بها لِلْخَلْوةِ

وإلى العالمِ هذا العقلُ جاء ... كي يَحُلَّ اللُّغزَ من طينٍ وماء

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] والشاعر يصف قدرة الإنسان بطاعة الرحمن . والذر : صغار النمل .

(٢) الولاد : الولادة . والألمعيُّ : الذكي الحصيف .

(٣) جرت العادة بالأذان في أذن الوليد .

كــلُّ جلمــودٍ لــه أضحــى أديبــا ثــم أمســى البَــرقُ والغَيْــمُ الخطيبا
عينُــه تــألــف ذوقــاً للنَّظَــر لا كعــربيــدٍ جريء في الغَـرَر[1]!
يَـزهَـبُ السَّيْـرَ فيمضي كـالضـريـر نملــةً أنــتَ تــراه إذْ يسيــر
حيــثُ كـانَ العقـلُ فـوقَ القـوَّة أمَّ مَـنْ يهـوىٰ وئيـدَ الخُطْـوَة[2]
أمــرُه شيئــاً فشيئــاً ينتظـمْ فمتــى أمــرٌ لــه يــومــاً يَتِـمْ
مـا درىٰ العِشْـقُ شهـوراً مـنْ سنيـن لا ولا حتَّـى قـريبـاً مـنْ شَطُـون[3]
وَيَشُـقُّ العقـلُ شقَّـاً فـي الجبـل أو حــواليــه يطــوفُ فــي مهـل
ومِــنَ العِشْــقِ جبـالٌ كـالهشيـم وقلــوبٌ كــالشُّمــوكِ إذْ تعُـوم[4]
إنَّمــا العشــقُ بَيــاتُ الــلأمكـان والممــاتُ دونَ قبــرٍ لِلْعِيَــان[5]
ليس يقوى العِشْقُ من ريحٍ وماء لا ولا مــنْ قُــوَّةٍ لــلأقــويــاء[6]
خيبــراً نــال بخبــزٍ مــنْ شعيــر شــقَّ ذلــكَ البــدرَ المنيــر
رأسَ نمــرودٍ بــلا ضــربٍ حَطَـمْ جيشَ فـرعـونَ بلا حربٍ هـزم[7]
إنَّـه فـي الـرُّوحِ ، فـي العَيْـنِ البصر كــامــنٌ فيهــا وهــا منهــا انتشـر
والـرَّمـادُ العِشْـقُ والعِشْـقُ الضَّـرم يفضـلُ الـدِّيـنَ ومـنْ علـمٍ أهـم
وهــو سلطــانٌ وبــرهــانٌ مبيــن ولــه قــدْ عفَّــر الكــونُ الجبيــن
أمسُنــا والغــدُ وهــو الــلأزمــان مــا دنــا أو شــطَّ وهــو الـلامكـان
مــنْ إلــهِ الكَــوْن ذاتــاً يطلــب ولــه الكــونُ جــوادٌ يُــرْكَــبُ

---

(١) العربيد : من يؤذي نديمه في سكره ، والمراد به هنا الصُّوفي . والغرر : التعرُّض للهلاك .
(٢) أمَّ : قصد . والوئيد : البطيء .
(٣) الشَّطون : البعيد .
(٤) الشُّموك : الأسماك .
(٥) البيات : الهجوم ليلاً . والعيان : المعاينة والمشاهدة .
(٦) الريح والماء والتراب والنار هي العناصر الأربعة .
(٧) حطم بمعنى حطَّم .

منه يبدو ما لقلبٍ من مَقام ... يبطلُ الفتنةَ في دنيا الحطام
يَهبُ العشّاقُ ربًّا نَفسَهُم ... باذلينَ العقلَ قرباناً لهم
عاشقٌ أنت ؟ على اللاصَوْب أقدِمْ ... وعلى ذاتِكَ موتاً فلتُحَرِّم[1]
أنتَ يا مَنْ أنتَ ميتٌ في الحفير ... القيامُ ممكنٌ مِنْ غيرِ صور[2]
لكَ لحنٌ مُطربٌ في المَنمَمِ ... فإلامَ منكَ صوتُ الضِّفْدَعِ
المكانَ والزَّمانَ اركَبَنْ ... ذلكَ الزُّنَّارَ عنكَ اطْرَحَنْ[3]
اشحَذِ الأذنَ واشحَذْ عينكا ... ما تراهُ عَنهُ فاسألْ عَقلَكا
« منْ بسمعِ منْهُ صوتُ النَّملِ مرًّا ... فَمِن الدَّهر وعَىٰ للدَّهرِ سرًّا »[4]
تَخرِقُ النَّظرةُ لي كلَّ الستور ... في عيونٍ ما لها ذُلُّ الأسير

إنَّما الإنسانُ هذاكَ النَّظر
فبهِ مَنْ كانَ يَهوىٰ قَدْ غَمَر
كلَّ هذا الجسم فاصْهَرْ في النَّظر
فعليكَ وعليكَ بالنَّظر[5]

مِنْ سمواتٍ تَخافُ ! لا تَخَفْ ... وُسْعةَ الدُّنيا تخاف ! لا تَخَفْ[6]
الزمانُ والمكانُ فلتشاهدْ ... فيهما حالًا لروحٍ أنتَ وَاجِدْ
نظرٌ من جلوة إمّا سبق ... فاختلافُ الغَدِ والأمسِ انبَثَقْ
حبةٌ في جوفِ طينٍ مظلم ... لا ترى عُلو الفضاء الأعظم
وهي لا تدري قريباً أنَّها ... قد تمدُّ في السماء غصنَها

---

(١) الصَّوب : الجهة .
(٢) الحفير : القبر .
(٣) الزنار : حزام يتمنطق به أهل الذمة .
(٤) هذا البيتُ للشاعر الفارسي جلال الدِّين الرُّومي .
(٥) هذان البيتان من شعره كذلك .
(٦) الوسعة : الاتِّساع .

ولهـا الجـوهـرُ نعـرقُ للنمـاء
ومقـامٌ ، وهمـا أيضـاً سـواء[1]

قلـتَ إنَّ الجسـمَ لـلأرواحِ مَحْمِـل   أبصـرِ الرُّوح وعـن جسـمٍ فَمِـل[2]
إنَّمـا الجسـمُ تعلـك الـرُّوح حـال   قـولُـك المحمـل زوراً ومحـال
ما هي الرُّوح ؟ احتراقٌ بالوجيب   وهي ذوقُ الغزو للأفقِ الرَّحيب[3]
واعتيـادُ اللـونِ والـريـحِ والجسـد   والمَقَـامُ فـي الجهـات بـالعـدد[4]
القـريـبُ والبعيـدُ فـي الضمير   إنمـا المعـراجُ تغييـرُ الشُّعـور
في الشُّعور ذاك من جذبٍ وشوق   خلِّصنَّ الـذَّات مـن تحـتٍ وفـوق

ليسَ هـذا الجسـمُ للـرُّوح النَّظيـرا
والتُّـرابُ مـانعـاً مـن أنْ نطيـرا[5]

***

« زروان » وهو روحُ الزَّمان والمكان

يمضي بالمسافر في سفرته إلى العالم العلوي[6]

دبَّ فـي روحـي فتـورٌ مـنْ كـلامـه   زئبـقٌ ذرَّاتُ جسمـي مـنْ أمـامـه[7]

---

(١) النماء : النمو ، يقول : إنَّ الحبة هي جوهرها .
(٢) المحمل : شقَّان على البعير يُحمل فيهما العدلان .
(٣) الوجيب : خفقان القلب .
(٤) المقصود بتلك الجهات الجهات الأربع أو الاتجاهات الأربعة .
(٥) التراب هنا هو مادة جسم الإنسان .
(٦) زروان في المجوسية أو الزرادشتية هو الزمانُ المطلق . وعند بعض المجوس : الذين يقولون بوجود إلهين أهورامزدا إله الخير وأهريمن إله الشر ، وأنَّ هذين الإلهين ظهرا من زروان ، ويُعرفون بالزروانيَّة ، كما يذهبون إلى التوحيد ، ويرفضون الثنوية .
(٧) يعني بقوله : إنَّ ذرات جسمه كالزئبق : أن جسمه يرتعد . ومن : بمعنى في .

بَغْتَـةً شـاهـدتُ بيـن الخـافقيـن … السَّمـاءَ فـي غمـامٍ كـالُّلُجيـن[(١)]

مَلَـكٌ يَهْبـطُ مـن هـذا الغمـام … طلعتـاهُ فـي البيـاضِ والقَتَـام[(٢)]

هـذه كـالليـلِ والأخـرى مُنيـره … هاهما يقظى وسنى كالضَّريره[(٣)]

فـي الجنـاحِ حمـرةٌ أو صفـرةٌ … ولُجَيْـنٌ أزْهَـرَتْـه خُضْـرةٌ[(٤)]

فـي طبـاعٍ منـه سَـرْبٌ للخَيَـال … بيـنَ أرضٍ ونجـومٍ فـي انتقـال[(٥)]

فتـراهُ كـلَّ يـومٍ فـي سمـاء … لجنـاحَيْـهِ جـديـدٌ مـنْ فضـاء

قـال زروان أنـا الـدُنيـا قَهَـرْتُ … وأنـا مـنْ قـدْ ظَهَـرْتُ واختفيـت

كـلَّ تـدبيـرٍ بتقـديـرٍ رأيتُـه … كـلَّ حيٍّ فـي شباكـي قـد حملتـه

إنَّ بـي للـزَّهـر فـي الغُصـنِ النَّمـاء … وَلِتلْـكَ الطَّيـرِ فـي الـوَكْـرِ الغَنَـاء

تُصْبـحُ الحبَّـةُ إنْ طِـرْتُ الغُصـونـا … وبفيضـي الـوَصْـلُ نـالَ العـاشقـونـا

وأنـا مـنْ لـي العتـابُ والخِطـاب … أظمـيء الظَّـامـي وآتـي بـالشَّـراب

الحيـاةُ والممـاتُ والنُّشـور … وأنـا النَّـارُ وجنَّـاتٌ وحُـور

في يدي الإنسانُ بل كلُّ الملائك … وبنـيَّ عـالـمٌ مـنْ فيـه هـالـك[(٦)]

مـا قَطَفْـتُ مـنْ ورودٍ فهـو لـي … أمُّ مـا لِنَـاظـرَيْـك يَنْجَلـي

إنَّمـا الـدُنيـا أسيـرٌ فـي طلسمـي … وتشيـخُ فـي زفيـرٍ مـنْ فَمـي

« لـي مـع الله » حـديـثٌ مـنْ وعـاه … سـرى المغمـورُ فـي لَبْـسٍ وَعـاه[(٧)]

إنْ أردتَ لـي رحيـلاً مـنْ هنـالـك … « لـي مـع الله » اذكـرنَّ فـي فُـؤادك

---

(١) الخافقان : المشرق والمغرب . اللجين : الفضة .

(٢) يقول : إن له طلعتين أو وجهين ، أحدهما : أبيض ، والثاني : أسود . والقتام : السَّواد ، والظلام .

(٣) وسنى : نائمة .

(٤) أزهر المصباح : أضاءه .

(٥) سرب سرباً : مضى في الأرض على وجهه .

(٦) الملائك : الملائكة .

(٧) يشير إلى قوله ﷺ : « ولي مع الله وقت » .

أيُّ شيءٍ كان لي من رؤيته قد نسيتُ عالمي من قُدرته

عالماً آخرَ أبدي يا ترى أو كأنَّ عالمي قد غيَّرا !

بَيْنَ ألوانٍ وريحٍ قد قَضَيْتُ وإلى دُنيا الكونِ قَدْ مَضَيْتُ[١]

وأنا عن عالمي هذا انقطعتُ عالماً آخرَ إنِّي قد مَلَكْتُ

لِضَياعِ عالمي إنِّي حَزِنْتُ مِنْ تُرابي غيره ها قدْ وَجَدْتُ

خفَّ جسمي ، ذاك روحي ما استقر وبقلبي زادَ نورٌ للبصر

والخفايا ما عليها مِنْ حِجَاب والنُّجومُ لحنُها لحنٌ عُجاب

* * *

زَمْزَمةُ[٢] النُّجوم

عقلُكَ الحاصلَ كانَ للحياة لكَ عشْقٌ هو سرُّ الكائنات

فتعالَ ، أنت يا هذا التُّراب مرحباً ولتمضِ في دنيا الجهات

وعليكَ المشتري والزُّهْرةُ الحسـ ـناءُ كانا في شديدٍ مِنْ نِزاع

رغبةٌ في نظرةٍ منكَ أثارتْ ما أثارتْ من تجلّي المعجزات[٣]

وطريقٌ للحبيب ، كم جديدٍ وجديدٍ فيه يبدو للتَّجلّي

إنَّما هذا الحنينُ للوحيد في قلوبِ العاشقينَ الشَّيقات[٤]

الحياةُ إنَّها هذا الصفاء الحياةُ إنَّها هذا النَّماء

---

(١) الريح : الرائحة . وقضى : مات .

(٢) الزمزمة : الترنُّم ، أو التكلُّم بصوتٍ خفي . وقد آثرنا أن نترجم هذه المنظومة على نسقها في أصلها .

(٣) الزُّهرةُ : كوكبٌ معروفٌ وقد سكنت الهاء فيها لضرورة الشعر . يقول الشَّاعر : إنَّ رغبة المشتري والزهرة في نظرةٍ منك إليهما وهما المتنافسان عليك ، مما أثار هذا التجلّي .

(٤) الشيق : المشتاق .

الحيـاةُ مُلـك ربـي ، بـاعـدِ الـ ـخطو سريعاً ولْتَسِرْ حتّى الفناء[1]
غـزلٌ إنْ شـاقَ منـك النفـس يـو مـاً فلـه رَجْـعَ الصِّيـاح ، امْتَحِـنْ
شحْنـةَ السُّلطـان يبـدو ثـمَّ خـ ـميرا بحانٍ ، جرّةَ الرَّاح امْتَحِنْ[2]
فـي العـراقِ والشـآم بـلْ وهنـ ـد ثم فرس ، يألفون الطَّعْمَ حلوا
هـؤلاء يطلبـونَ الحُلْـوَ دوْ ماً ، طعم هذا العِشْقِ مرّاً ، امتَحِنْ
كـي يمـورَ البحـر بـالأمـواجِ مـوْ راً وهو طامٍ في عُرامٍ واحتدام[3]
متعـةٌ للسَّيْـلِ يجـري بـالهـديـ ـر منْ حَدُورِ السَّهل نهراً ، امْتَحِنْ[4]
الفقيـرُ كـانَ نـاراً كـلَّ مُلـ ـكٍ ليس إلا من غُثاء ، فاعْلَمَنْ
الملـوكُ حَسْبُهُـمْ فـي بطشهـم منْ مُعْدَمٍ رَفْعَ النِّداء ، فاعْلَمَنْ[5]
إنَّ للصُّـوفـيِّ عـزّاً يـا لـه عـزّاً ، وهـذا المُلْـكُ لـلإسكنـدرِ
إنَّ للصُّـوفـيِّ جـذبـاً مـن كليـ ـم الله ، لكنَّ ذاكَ سِحْرُ السَّامري
يُقْتَـلُ الصُّـوفـيُّ بـالعينيـن لـ ـكنَّ الملوكَ بـالجيـوش قَتْلُهـم
ذاكَ يبغـي السِّلْـمَ والصُّلْـح وهـم يبغـون بـالهيجـاءِ حُكْـمَ الجـائـر[6]
ذا وذاكَ يـا لعمـري يفتحـا ن عـالَمَيْـن ، والـدُّوام بُغيـةٌ
ولهـذا كـانَ قـولٌ ليِّـنٌ لكـنْ لـذاكَ كـان عنـفُ القـاهـر[7]

---

(١) النماء : النُّموُّ . ولتسر حتى الفناء : أي إلى الأبد .

(٢) الشِّحنة : من يقوم للسلطان بضبط اليد . والخمير : من يُدمن شرب الخمر . والرَّاح : الخمر .

(٣) يمور : يضطرب . الطامي : الممتلىء الجائش . العارم : العنف والشدَّة . والاحتدام بهذا المعنى .

(٤) الهدير : صوت أمواج البحر . والحَدُور : المكان ينحدر منه .

(٥) الغثاء : ما يحمله السيل من القش واليابس من أوراق الشجر . يقول : إنَّ للفقير ناراً تحرق الملك قشاً وصوت الفقراء إذا ارتفع بالشكوى قوَّض ملك الملوك .

(٦) الهيجاء : الحرب .

(٧) أي أنَّ الصوفي والملك كل منهما له عالم يفتحه ، وإنِ اختلف هذان العالمان ، وكيفية=

فتعـالَ وتقـدَّم ، قبضـةُ الصُّـوفـي قـدَم ، سَـدَّ ذي القـرنيـن حَطَّـمْ
أحـي مـا كـان لمـوسـى مـنْ رسـو م، ليس هذا السِّحْرُ غَيْرَ المَيْنِ، حَطِّمْ[1]

***



= فتحهما ، كما تختلف رغبة الصوفي عن رغبة الملك في الدوام .

(١) المين : الكذب . والكلام في الشطر الأول من هذا البيت منصرف إلى ذي القرنين الذي قيل عنه إنه الإسكندر الذي ملك الدنيا ، كما قيل : إنّه كان نبياً . وسمي ذا القرنين لأنّه طاف قرني الدنيا ، يعني شرقها وغربها . وقيل كان له قرنان أي ضفيرتان ، أو انقرض في وقته قرنان من الناس ، كما ذهب بعضهم إلى أنه سمّي ذا القرنين لقرنين على تاجه ، وهو من الروم ، وإقبال يلمح إلى ما جاء في القرآن عنه ، وهو قوله عز من قائل : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ [الكهف : ٩٤] .



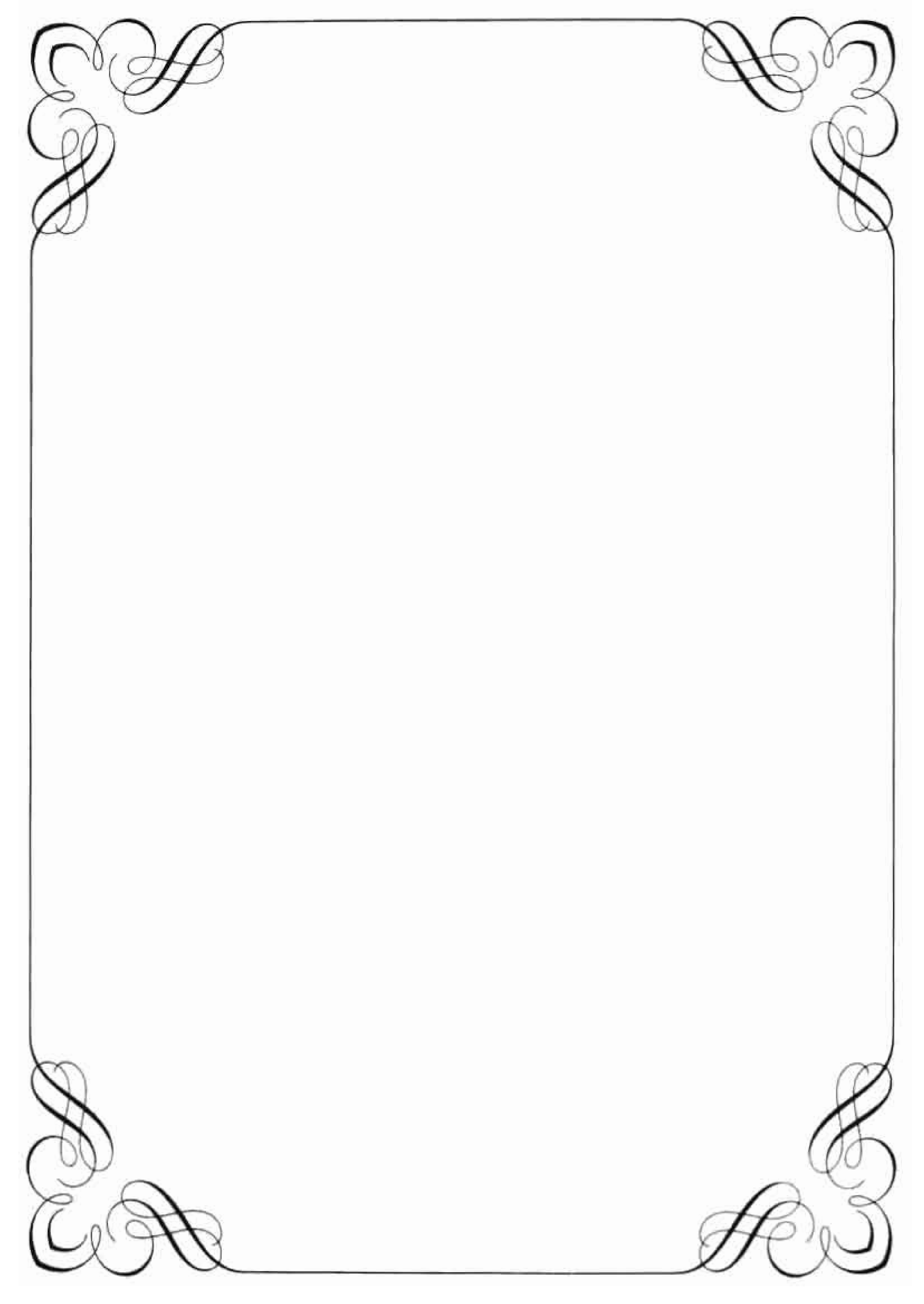
القسم الأول



فَلَكُ القَمَر







إنَّمـا الأرضُ لـربـي والسَّمـاءُ الثـريَّـا مـا ورثنـا وال
كـلُّ مـا للنَّـاظـرَيْـنِ قـدْ بـدا بعيـونٍ لصفـيٍّ فـاقد
لا تَسِـرْ مِثْـلَ الغـريـب فـي ديـارك لا تَخَفْ من غُرْبـةٍ مَرَّتْ
إنَّ منـك القـولَ كـلٌّ يَمْتثـل وبـأمـرٍ أو بنهـيٍ قـدْ
عـالـمٌ لِلْعَيْـن والأذنِ الصَّنـم والرَّدى ما كانَ في الدُّنيا ا
أشْبـه المجنـونَ فـي وادي الطَّلـب كُـنْ كـإبـراهيـم فـي قـومٍ وَ
إنْ طَـوَيْـتَ الأرضَ طيّـاً والسمـاء عـالميـكَ اطـوِ على حـدٍّ
غيـرَهـا سبعـاً مـن الله اطْلُبَـنَ كـمْ زمـانٍ ومكـانٍ تَسْـألَ
خـارجَ الـذَّاتِ بشـطِّ الكـوثـر لا تـرى خيـراً وشـرّاً ينب
لـو بكـفٍّ الـذَّاتِ عـن بحـثٍ أمـان كـانَ هـذا القَبْـرُ خيـراً مـن

وتمـوتُ الـرُّوحُ مـنْ طُـولِ المَقَـام
أيُّهـا الـرَّاحـلُ ، فـامـضِ لـلأمـام

ومَـعَ النَّجْـمِ تطيـبُ سفـرتُـك حبَّـذا مـنْ غيـرِ وقـفٍ رح
حيـنَ كـانَـتْ فـي الفَضَـاءِ وطـأتـي مـا عَـلا ألقيـتُ تَحْـتَ نَظَـ

---

(١) اخترمه الموت : أخذه .

(٢) المجنون هنا هو قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى . وقد ولهه العشق حتى عقله ، وهام على وجهه في القفار . وشعراء التصوف يرمزون به إلى العاشق الإ ووكب بمعنى قام . والإشارة إلى إبراهيم عليه السلام الذي قام في قومه أصنامهم .

(٣) يريد سبع سموات يطلبها وما لا يحصى كثرة من الأزمنة والأمكنة .

(٤) انبرى : تعرض .

ـذه الغبراءُ قنديلُ اللّيالي   وعلى رأسيَ ظِلّي قد بدا لي
اقتربتُ في صُعودي واقتربت   وعلى البَدْرِ جِبَالًا قد رَأَيْت
وْلَةَ «الرُّومي» : بدذ كلَّ شك   وترسَّم ما تراهُ لِلْفَلَك[1]
ـعُدُ البَدْرُ ولكنْ تألفُه   منزلًا في نهجنا ذا نعرِفُه[2]

ليلُه والصُّبحُ فيه ما يُرى
فيهِ غِيرَانٌ لإعجابِ الورى[3]

ـا لصمتٍ ولرعبٍ في الجبل   ظهرُه الأخدودُ والجوفُ اشتعلْ
ـأمَّلْ «خافطين» و«يلدرم»   والدُّخان فوقَ نارٍ تَضطرمْ[4]
ـا زكا عشبٌ بِتِلْكَ الأرضِ قط   لا ولا طيرٌ جناحاً قد بَسَطْ
جهام ، والرِّياحُ العاصفات   ناشبتْ حرباً لها تِلْك الموات[5]
ـالمٌ ما فيه من لونٍ وصوت   لا حياةَ فيه أوْ آثارَ مَوْت
ـس في بطنٍ له أصلُ الحياة   لا ولا في الصُّلْب سَيْرُ الحادثاتِ
سليلٌ لذُكاء ذا الوجودْ   لانقلابٍ قطُّ ما كانَ الولودْ[6]
ولة : «الروميّ» : تابعْ خَطْوَتَكْ   وعلى ما نِلْتَ شدِّدْ قَبْضَتَكْ
ـا اختفى يَفْضلُ فيه ما ظَهَرْ   ولدَيْنا فيهِ كانَ المُسْتَقَرْ
ـا ذكيَّ اللُّبِّ كلُّ ما حَصَلْ   فبسمعيكَ اختَجِنْهُ والمُقَل[7]
ظهرُ الدُّنيا لعينٍ باصرة   إنَّها الميزانُ وهي النَّاظرة

---

(1) الرومي : جلال الدين الرومي . وترسَّم الدار : نظر إلى آثارها وتأمّلها .
(2) المنزل : مكان النزول . والنَّهج : الطريق .
(3) الغيران : جمع غار وهو الكهف . والورى : الناس .
(4) خافطين ويلدرم : اسم جبلين يتخيلهما الشاعر في القمر .
(5) الجهام : السحاب لا مطر فيه . والموات : الأرض الخربة .
(6) ذُكاء : الشمس . والسليل : الابن . والولود : الوالدة .
(7) اللب : العقل . السمع : الأذن . احتجن الشيء : جذبه إليه .

أينمـا يَحْملـكَ مـولانـا انْطَلـقْ   لا تفكّـر فـي سـواه واصطَفِـقْ »[1]

ثـم شُـدَّ الكـفَّ منـي فـي مَهَـلْ
وإلـى غـارٍ حثيثـاً قـد وَصَـلْ

***

الحكيم الهنديُّ الذي آثر الخلوة في غارٍ منْ غيرانِ القمر

ويسميه أهل الهند « صديق النَّاس كافة »

كضـريـرٍ قـادنـي هـذا الـرَّفيـق   ودخلـتُ ذلـكَ الكهـفَ العميـق
مـن ظـلامٍ فيـه ذا بـدرٌ ملـول   تحملُ المصباحَ شمسٌ للدُّخول !
وعـذابـي طـال فـي وهمـي وظنِّـي   وكـأنَّ العَقـلَ منِّـي مـاتَ عنِّـي
ومَضَيْـتُ واللُّصـوصُ فـي الكَميـن   مـا بقلبـي الصِّـدقُ أو بَـرْدُ اليقيـن
جلـوةٌ لاحـت لعينـي فـي جـلاء   ظَهَـرَ الصُّبْـحُ ولـم تَبْـزُغ ذُكـاء[2]
هــذه الأحجـارُ عبَّـادَ الصَّنـم   أرضُ جـنٍّ نخلُهـا مِثْـلُ الأكَـم[3]
كـانَ مـنْ مـاءٍ وطيـنٍ ذا المَقَـام   أو خيـالـي يتهـادىٰ فـي المنـام[4]
النَّسيـمُ مثـلُ خمـرٍ تُسْكـرُ   والظِّـلالُ ومـضَ نـورٍ تُظْهِـرُ
مـا رأيـتُ قُبَّـةً مـنْ لازَوَرْدِ   لا ولا في الأفقِ من ألوانِ وردِ[5]
مـا أقـامَ النُّـور فـي أسـرِ الظَّـلام   وامَّحى صُبْـحٌ وليـلٌ مـن قَتَـام[6]

---

(١) مولانا هو جلال الدين الرومي . اصطفق : تحرك ، واضطرب .

(٢) بزغت الشمس : أشرقت . وذُكاء : الشمس .

(٣) الأكم : جمع أكمة : وهي الهضبة .

(٤) يتهادى : يتمايل في مشيته .

(٥) اللأزَوَرْد : حجر تشبه زرقته زرقة السماء .

(٦) القَتام : السواد والظلام .

وحكيـمُ الهِنْـدِ فــي ظـلٍّ جلـس عينُـه فـي الكُحْـلِ نـورٌ لِلْغَلَـس[1]
جِنمَـةُ الــوهنــانَ عــرَّى كلَّـه حيـةٌ بيضــاءُ تسعــى حَــولَـه
وعلـى الإنسـانِ مـن طيـنٍ مفضَّـل صـورةُ تلـك الـدُّنى ممَّـا تخيَّـل[2]
لا يَعُـدُّ الــوَقْــتَ أيــامــاً تمـرُّ والــزَّمــانُ لا يفيــدُ أو يضُــرُّ
قـال للـرومـيِّ مـنْ هـذا الـرَّفيـق ؟ منيــةُ الــدُّنيـا بعينيـه البـريـق !

***

الرُّوميُّ[3]

إنَّـه الجـوَّالُ فــي واديِ الطَّلـب يُشْبهُ السيَّار في السَّيْرِ اضطرب
غِــرَّةٌ منهــا لــه رأيٌ ســديـد وعلـى عيـبٍ لـه إنِّـي شَهيـد[4]
كـأسُه قـد أصبحـت قـوسَ السَّمـاء فِكْـرهُ يبغـي إلـى الـوحـي انتمـاء
كــالعقــابِ صَيْــدُه للنَّيِّــرَيْــن فـي السَّمـاءِ طـوفُـه بـالخـافِقَيْـن[5]
كلُّــمَ الأرضَ كمَــنْ نشَّــى بــدَن والجنـانُ عِنْـدَهُ بيـتُ الـوَثَـن[6]
لــدخــانٍ مِنْــهُ نــارٌ فــي صعـود ورأيــتُ الكبـريــاءَ فــي سجـود
نــاحَ كــالنَّــاي لِفَـرْطِ الاشتيـاق وقتيـلٌ فـي الـوِصَــالِ والفِـراق
لسـت أدري السـرَّ فــي صَلْصـالـه
والمَقَــامَ ، والــذي فــي منـزلـه

***

---

(١) الغلس : ظلمة آخر الليل .
(٢) الدُّنى : جمع دنيا .
(٣) هو جلال الدين الرومي أكبر وأشهرُ شعراء التصوف عند الفرس . وقد سبقت ترجمته في الديوان الثاني (القسم الأول) .
(٤) الغرَّة : الغفلةُ وعدم التجربة .
(٥) النيِّران : الشمسُ ، والقمر . والخافقان : المشرق والمغرب .
(٦) نشَّى: سكر. والدَّن: جرَّة الخمر. والفرس يشبهون الحسناء بالوثن أي الصنم في الحسن.

جهان دوست

ما لِرَبِّ الكونِ لونٌ ، وهُوَ لون
أيُّ ربٍّ أيُّ إنسانٍ وكَوْن ؟

الروميُّ

إنَّما الإنسانُ سَيْفٌ لِلإلٰه — ذلكَ الكَوْنُ مِسَنٌّ قد تراه
شاهَدَ الشَّرقُ الإلهَ وَحْدَهُ — وأشاحَ الغَرْبُ عَنْهُ خَدَّهُ[1]
أنْ ترى الله بعينيك التُّقاة — أنْ ترى الذَّاتَ ولا سِتْرَ الحياة[2]
وإن العبدُ من الدُّنيا انعتق — رحمةَ الرَّحمن بالعبدِ اسْتَحَق
إنْ غَفَلْتَ ذاتَ يومٍ عن قَدَر
فارق الصَّلْصَالَ روحٌ ذو شَرَر

جهان دوست

في طِلَسْمٍ للوُجودِ والعَدَم — ذلكَ الشَّرقُ بسرٍّ ما ألم
ما لنا أهلَ السَّما إلا النَّظر — في غدٍ للشَّرقِ تحقيقُ الوَطَر
شاهَدَتْ عيني على رأسِ الجبلْ — مَلَكاً من قُبَّةِ الزَّرقا نَزَلْ
كانَ منْ عينيه ذوقٌ للنَّظر — وهو بالعينين دنيانا غَمَز
قلتُ سرّاً عن صفيٍّ لا تكن — أرضُنا كيف تراها اذْكُرَن
حُسْنُ نجمٍ لاح في أُفُقٍ عَشِقتا — في قليبِ السِّحر قلباً قدْ رميتا[3]

---

(١) أشاح عنه وجهه : أعرض متكرهاً .

(٢) التقاة : التقوى .

(٣) القليب : البئر . والإشارة إلى البئر التي نكس فيها هاروت وماروت . وهما شيطانان كانا يُعلِّمان الناس السحر في بابل . ويقال : إنَّهما ملكان عشقا النساء وعلقا منكسين في بئر . كما قيل : إنَّهما مثالٌ لرجلٍ اتقى ربَّه ، واقترب منه ، ثم أضلَّه الشيطان .

قــال يَبْــدُو الآنَ هــذا المَشْــرِقُ شَمْسُــهُ الأخــرى عليــهِ تُشْــرِقُ
يَظْهرُ الياقوتُ منْ صَخرِ الطَّريق يـوسفُ يخرجُ مـن جُبٍّ عميق[1]
ويـولِّـي عــن ديــارٍ مــنْ كَفَــرْ ليـرى عـن ذلـك الكُفْـرِ المَفَـرْ[2]
حبَّـذا شعـبٌ بـروحٍ قـد خَفَـقْ ذاتُـه مــنْ طينـه هــذا خُلِـقْ

حــامــلُ العَــرْشِ بــأعيــادٍ فَــرِحْ[3]
إنْ رأى للشَّعْـــبِ عينـــاً تَنْفتِـــحْ

غاصَ شيخُ الهندِ في صمتٍ قليلا فـرآنـي تِهْـتُ فـي فهمـي مَلـولا
قال : موتُ العقلِ ؟ قلتُ : تركُ فِكْرِ قال : موت القلب ؟ قلتُ : تركُ ذكرِ
قال : جسم ؟ قلت : تُرْبٌ قد تراه قـال : روح ؟ قلـت : رمـزٌ لـلإلـه
قـال : والإنســانُ ؟ أبـدى سِـرَّه قلت : كونٌ ؟ قال : وَجِّهَ شَطْرَه[4]
قال : علم ؟ قلتُ : قشرٌ لا يَطيب والـدَّليـلُ؟ قلتُ : وجـهٌ للحبيب
قالَ : ما دينُ العوام ؟ : ما سمعنا قـالَ : ديـنُ العـارفيـن؟ : مـا رأينـا

طـابَ نفسـاً قـرَّ عينـاً مـن مقـالـي
صفـوةً مــن حكمــةٍ ألقــى ببــالـي[5]

* * *

---

(١) الجبُّ : البئر العميقة . والإشارة إلى قصة يوسف عليه السلام مع إخوته الذين غاظهم أن يؤثره أبوه عليهم ، فذهبوا به وجعلوه في الجب ، ثم تركوه وجاؤوا أباهم يبكون مدَّعين أنَّ الذئب أكله . وجاءت قافلةٌ ، فلما أدلوا الدلو في الجبِّ تعلَّق بها يوسف ، وأنجاه الله من الهلكة .

(٢) في الأصل إشارة إلى إبراهيم عليه السلام وما جاء عنه في سورة الأنعام وهو ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

(٣) حامل العرش : أحد الملائكة الذين يحملون العرش .

(٤) الشطر : الجهة والناحية . وشطره منصوب على الظرفية .

(٥) صفوة الشيء : خلاصته وخياره . والبال : القلب .

تسعُ كلماتٍ للعارفِ الهنديِّ

ليس يُخْفِي عالمٌ ذاتَ الإله
غائصاً ما رَذَّ رَسْمٌ في المياه

***

أنتَ إنْ في غير ذي الدُّنيا وُلِدْتَ
بشبابٍ غيرِ هذا قد نَعِمْتَ

***

بعد موت ربِّنا ، وهو الحياةْ
لا يُحسُّ العَبْدُ شيئاً بالوفاةْ
نحنُ طيرٌ بجناحٍ لا تطيرْ
علمُنا بالموت مقطوعُ النَّظيرْ

***

إنَّما الوقتُ سمَامٌ في الشِّهادْ[1]
رحمةٌ في قَهْرِ قَهَّار العِبادْ
ويلوحُ قهرُه في كلِّ صوبْ
رحمةٌ فيه مَضَتْ من غيرِ أوبْ

***

إنَّما الموتُ كفورٌ يا حكيم

---

(١) السّمام والشّهاد : جمع سُمٌّ وشَهْد .

أنـتَ إنْ جـاهـدتَ أمـواتـاً مُليـم[1]

ومـع النَّفـس التقـىٰ فـي قِتَـالْ

يـا لـهُ الليـثُ الهَصُـورُ والغَـزالْ[2]

***

كـافـرٌ صـاحـي الفـؤادِ ذو صَنَـمْ

يفضُـل المـؤمـنَ نـامَ فـي الحَـرَمْ

***

عَمِيَـتْ عيـنٌ رأتْ غَيْـرَ السَّـداد

لا تـرىٰ الشَّمْـسَ الليـالـي فـي سـواد

صحبـةٌ للحـبِّ والطيـن النَّمـاء

صحبـةُ الإنسـانِ والطِّيـن الشقـاء

يـرتضـي الحـبُّ مـن الطِّيـن العـذاب

ليـرى النُّـور كتبـرٍ فـي انْسكـاب

قـد سـألـتُ الـوردَ ذا الصَّـدرِ الجريـح

أيُّ حسـنٍ لـك مـنْ طيـنٍ وريـح ؟

فـأجـابَ : يـا حكيمـاً مـا شَعَـرْ

بخُمـودِ البَـزقِ هـل يـأتـي الخَبَـرْ !

روحُنـا فـي الجسـم جـذبٌ وانْجـذاب

منـكَ مـا يخفـى لـدينـا كـالسَّـراب[3]

---

(١) جاهد العدو : قاتله . والمليم : الملوم .

(٢) الهصور : الذي يهصر فريسته .

(٣) يقول : إنَّ الروح في جسمنا مما يقع بين الروح والجسم من تجاذب . وجذبك خفي أما جذبنا فظاهر .

تَجَلِّي سُرُوش [1]

أوصد العارفُ باباً للكلام　　أسْكَرَتْه الذَّاتُ لا تِلْكَ المُدام
إنَّه بالشَّوْقِ والذَّوْقِ انْجَذَبْ　　في وجودٍ من شهودٍ قد وَقَبْ [2]
بالحضورِ مِنْهُ ذراتٌ كطور　　أوْ فلا نورٍ ولا حتَّى ظُهُور [3]
في أساطيرِ الليالي غانِيَةْ　　كوكبٌ منهُ الظَّلامُ حَالِيَةْ [4]
شعرُها المِعْطارُ حتَّى خَصْرِها　　والسُّهوبُ نورُها مِنْ نُورِهَا [5]
وهي في سُكْرِ التَّجلِّي أغرقت　　وتَغَنَّتْ ما بكأسٍ أسْكَرَتْ
ولديها دارُ مصباحِ الخيال　　فلكاً كمْ دَارَ في الدَّهر الطُّوال [6]
فيهِ تبدو كلُّ ألوانِ الشُّكُول　　نَمِرٌ يَفْرِسُ أو صقرٌ يَجُول [7]
قلتُ للرُّوميِّ بالسرِّ العليم　　اكشفِ الأسرار ، لي فهمٌ سقيم
قال : « ذا الجسمُ لُجَيْنٌ يَلْمعُ　　وهو في فكرِ الإلهِ يَنْبُعُ »
ثُمَّ حنَّ الشوقُ فيه للظُّهور　　فأتى الدُّنيا خَلَتْ منْ كلِّ نُور
ومن الغُربةِ كان ذا نَصِيب　　كلُّنا يا صاحِ في الدُّنيا غَرِيب [8]

---

(١) سروش : اسمُ ملك في الديانة الزرادشتية ، واسمه مشتق منْ : سراوشا ، بمعنى السماع في الفارسية القديمة ، وهو رمزٌ للطاعة ، ومرشدُ الأرواحِ في الآخرة .

(٢) وقب : دخل .

(٣) الطور : الجبل .

(٤) الغانية : المرأة التي يغنيها حسنها عن أن تتحلَّى . والحالية : هي التي تلبس الحلي .

(٥) المعطار : من تعود أن يتعهَّد نفسه بالعطر . والسُّهوب : جمع سَهْب ، وهو السَّهلُ المنبسط .

(٦) مصباح الخيال : مصباحُ ما يعرف بخيال الظلِّ ، وهو مصباح يُدار حوله ستار فيه نقوشٌ وصور . والطوال : الطويل .

(٧) الشُّكول : جمع شكل . وفرس النمر : افترس .

(٨) يا صاح : بمعنى يا صاحبي .

عــرفــوه بسُــروش ، كــالمـلائــك   أبعـدَ الحـسَّ وقـد أدنـى كـذلـك
فتــحَ البُــرعــوم منّــا بــالنَّـدى   وبــأنفــاسٍ رمــاداً أوقــدا[1]
منــه ألحــانٌ لأوتــارِ القــريــض   وشقـوقُ السِّتْر بـالبيتِ الأريض[2]
ثــمَّ غَنّــى فَشهــدْتُ عــالمــا
أسْمَــعُ الألحــانَ جمــراً مُضْــرَمــا

***

لحنُ سُروش

أخشـى عليـكَ ركـوبَ بحـرٍ مـنْ سَراب
وكمـا وُلِـدْتَ العُمْـرَ تطـوي فـي الحجـاب[3]
لِلْفَخْــرِ كحــلٌ عــن جفــونــي أغْسِلُــه
فــأرى مصيـرَ الشَّعْـبِ فـي هـذا الكتـاب[4]
فــي كــلِّ صَــوْبٍ انْطــواءٌ لاحَ لــي
لِلْبَـرْقِ كـانَ المـوتُ فـي جـوفِ السَّحـاب
فــي الغَــزْب كُنْــتُ وقلَّمــا عينــي رأت
مــنْ كَــانَ ذا لحــنٍ تجــافــى عــنْ حِسَــاب
دُنْيــاكَ فــاملِــكْ إنْ أرَدتَ القُــرْبَ لــك
الــروضَ خُــذْ يــا عطـره فــي المــاءِ ذاب[5]

---

(١) البرعوم : الزهرة قبل أن تتفتح .
(٢) الستر هنا كسوة الكعبة . والأريض : المعجب للعين .
(٣) يريد ذلك الغشاء الذي يكون على الوليد حين يولد ويعدُّه حجاباً كذلك الحجاب الذي يحجب المعرفة .
(٤) الفخر هو الرازي صاحب تفسير القرآن .
(٥) في هذا تلميح إلى شطر من بيت من مأثورات الصوفية وترجمته (إنه في وأنا فيه كالعطر=

مـــا أنْـــتَ إلا للفَنَـــا يــا زاهـــداً
أنَسِيْـتَ طـوفـانـاً تـوارى فـي الحَبَـاب[1]
اللحـــنَ تَسْمـــعُ مــا تـــرى مِـــنْ مُطْـــرِبٍ
حـــوريـــةٌ قــد غُــرِّبــتْ تُبْكــي الــرَّبــاب

***

الرحيل إلى وادي يرغميد
المسمَّى عند الملائكة وادي الطواسين[2]

إنَّمـا الـرومـيُّ لِلعِشْـقِ الـدَّلِيـل
قَـولُـه للظَّـامئيـنَ السَّلْسَبيـل

قـالَ : « إنَّ النَّـارَ إنْ كـانَـتْ بشعـر
قولُ « اللهُ هو » حباها حرَّ جَمْر[3]

نغمـــةٌ منهــا الهشيـــمُ روضـــةٌ
كـــانَ لـــلأفـلاكِ منهـــا نَفْضـــةٌ

وعلـى الحـقِّ العلـيِّ شـاهـدٌ
وبهـــا المُلْـــكَ الفقيـــرُ واجـــدٌ

وبهـا دَفْـقُ الـدِّمـاء فـي الـوتيـن
ثم يصحو القَلْبُ كالرُّوحِ الأمين[4]

نـاظـمُ الأشعـارِ بـالسِّحْـرِ اشتهـرْ
ســارقُ القلـــبَ وإبليـــسَ النَّظـــر

شـــاعـــرُ الهِنْـــدِ الإلـــه أيَّـــدَه
روحُـــه مـــنْ سِحْـــرِ قـــولٍ جـرَّده

علَّمـــوا الشِّعْـــرَ أفـــانيـــن الغِنـــاء
وضـروبَ الكُفْـرِ حتَّـى الأتقيـاء[5]

= في ماء الورد) .

(١) الحَبابُ : الفقاقيع التي تعلو الماء والشَّراب .

(٢) الطواسين : جمع ط . س ، وهما حرفان في أوائل سورٍ قرآنية ، وهي : النَّمل ، والشعراء ، والقصص . وللحلاَّج كتابُ الطواسين . وقد جَعَلَ إقبالُ هذا الاسم اسماً للمكان الذي تتجلَّى فيه صفات الأنبياء .

(٣) حباه : حبا فلاناً كذا وبكذا : أعطاه .

(٤) الوتين : عرق في القلب . والروح الأمين : جبريل .

(٥) الأفانين : الأساليب والأجناس . والضُّروب : الأنواع والأشكال .

لفظُهم ما فيه شيءٌ من ألمْ ... ما تراهم في حياةٍ بلْ عَدَمْ
إنَّ خيراً منْ لحونٍ أفسَدتْ ... قولةٌ كانتْ برؤيا أضغَثتْ[1]
يَبحثُ الشَّاعرُ طوعاً بالسَّليقة ... يجعلُ الآمالَ في النَّفسِ الحقيقة
لَيسَ إلَّا القلبُ في صدرِ الشُّعوب ... إنَّها لولاه كالوادي الحطيب[2]
نَقشَ الشُّكرُ ونارٌ عالما ... بهما لم يكُ شِعرٌ مأتما !

في الأنامِ يُخلَقُ الرُّوحُ السَّويَّا
ورثَ الشاعر منْ ثمَّ النَّبيَّا »

قلتُ : هاتِ القولَ في تلك النُّبوَّة ... سرَّها لا تطوِ عن مِثلي بِقُوَّة
قال : « أقوامٌ لها آياتُها ... والعصورُ كلُّها ميزاتُها
الصخورَ أنطقتْ أنفاسُها ... كلُّنا في حقلنا زرعٌ لها
أصلُنا في العُمقِ منَّا طهَّرت ... بجناحِ الرُّوحِ فكراً علَّقت[3]
إنَّها صوتُ دويٍّ في الكائنات ... تقرأُ النُّور وتَتْلو النَّازعات[4]
ما لشمسٍ أطلعتها منْ زوال ... منكِرُوها قد تجافَوْا عن كمال[5]
رحمةُ اللهِ نراها قولةً ... غضبُ اللهِ نراها صولةً
إنَّ عَقلَ الكلِّ حتَّى إنْ مَلَكْتُه ... فيها شيئاً رأيتُ ما رأيتُه
يرغميدُ امضِ وأسْرِعْ في السَّرى ... لترى ما ليسَ بدٌّ أنْ ترى[6]

في جدارٍ منْ صخورٍ بالقمر
للطَّواسينِ أطلْ منكَ النَّظر »

يعرفُ الشَّوقُ الطريقَ لا الدَّليل ... ويَطِيرُ بجناحِ جِبْرئيل

---

(١) أضغث الرؤيا : أتى بها ملتبسة .
(٢) الحطيب : الكثير الحطب .
(٣) الرُّوحُ : جبريل .
(٤) في الأصل : أن سورةَ النَّجم ، والنُّور ، والنَّازعات من شفة النبوة .
(٥) تجافى عن الشيء : مال عنه .
(٦) يرغميد : اسم جبل في القمر .

البَعيــدُ عِنــدهُ كــالخُطــوَتَيْــن   في المَقامِ يشتكي منْ فَرْطِ أين[1]
مثــلُ نشــوانٍ قَصَــدْتُ ذا الجبــل   ورأيــتُ مــا رأيــتُ مــنْ قُلَــل[2]
أيُّ قــولٍ لــي ؟ ومــا وَصْفــي لَــهُ ؟   هــذه الأنجــمُ طــافَــتْ حَــوْلَــهُ
عِنْدَ أهْلِ الفرش ضاءَ في الضَّمير   عند أهل العَرْشِ في الجَفْنِ البَصير
عينَنــا والقَلْــبَ ربٌّ قــدْ حَبــانــا   لاكْتِناهِ السِّرِّ في الـدُّنيـا هَـدَانـا

سرَّ دنيــانــا سـأبـدي مَـنْ سُـدِلْ[3]
وحــديثــي عــنْ طــواسيــنِ الــرُّسُــلْ

* * *

طاسين جوتاما بودا[4]
توبةُ الراقصةِ اللَّعوب

جوتاما

الشَّمُــولُ والحبيــبُ ، ليــس شيئــا[5]
بــلْ وحــورٌ فــي الجنــانِ ، ليــس شيئــا
كــلُّ مــا أنــت تــراه ســوفَ يَفْنــى

---

(١) فرط الأين : شدَّةُ التعب .
(٢) القلل : جمع قلة ، وهي القمة .
(٣) السُّدْلُ : السَّتْرُ .
(٤) التزمنا في هذه المنظومة ما يعرف في الشعر الفارسي بالرديف ، وهو كلمة أو عبارة تردُ في نهاية كل البيت على أن تسبقها قافيةٌ موحدة ، وجعلنا القافية في الترجمة نفس القافية في الأصل (المترجم) .
(٥) الشَّمول : الخمر .

الفَـــلا والشــاطِئــانِ ، ليـــس شيئـــا[1]

علَّـــمَ غـــربٌ حكمـــةً للمَشْـــرِقِ

مَعْبَـــدٌ والطـــائفـــانِ ، ليـــس شيئـــا[2]

ذاتَـــكَ اذكُـــرْ وامـــضِ واعْبُـــرْ

أنـــتَ هـــذا ، العـــالمـــانِ ، ليـــس شيئـــا

هُـــذِبَ عينـــي لـــي طـــريقـــاً شُقَّهـــا

كـــلُّ مـــا فيهـــا عـــرانـــي ، ليـــس شيئـــا

دَغْـــكَ مـــنْ غيـــبٍ فمـــا وهـــمٌ بشـــيءٍ

لا تكـــونُ أو تكـــونُ ، ذاكَ شـــيء[3]

لا تكـــونُ جنـــةٌ كـــالجنَّـــةِ

لـــوى أهـــلِ الجِنـــان ، ذاكَ شـــيء[4]

راحـــةَ الـــرُّوح طلبـــتَ ، مـــا تســـاوي !

فـــي حبيـــبٍ دمعتـــان ، ذاكَ شـــيء

نظـــرةٌ والعيـــنُ سَكْـــرَىٰ والتَّغَنّـــي

يـــا لهـــذا مـــنْ حُســـانٍ ، منـــه شـــيء[5]

كـــان خيـــراً فـــي المعـــانـــي ، ذاكَ شـــيء

***

---

(١) الفلا : جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .

(٢) ذكرنا الطائف بالمعبد في المثنى مع إرادة الجمع (المترجم) .

(٣) كان هنا تامة .

(٤) يريد الشاعر ليقول : إنَّ الجنة لا تكون إلا مأوى للمتَّقين جزاءً لهم على عمل الصالحات .

(٥) الحُسان : الحسن .

الرَّاقصة

لا تَزِدْ أحزانَ قلبي ما لقلبي مِنْ قَرار
زِدْ جمالَ الشِّعر ثِنْياً ، يا لهُ ليلُ السِّرار[1]
في صميم القلبِ منِّي ، منْكَ أنوارُ التَّجلِّي
فأذقت الشَّمسَ والبَدْرَ مريرَ الانتظار
إنَّ ذواق الحضورِ يعبدُ الأصنامَ عِشْقا
يخدعُ العِشْقُ فؤاداً منْ مُنَاهُ في الخُمار[2]
في صفاءٍ إنْ تَرَنَّمْتُ بلحنٍ لي جديد
عادَ طيرٌ للرِّياض عودَ مشتاقِ الدِّيار
طبعيَ السَّامي وُهِبْتَ حُلَّ عنْ ساقي قيودي
خِرْقةً هبني لتحظى بقشيبٍ منْ إزارِ[3]
أيُّ معنىً للكلام ؟ والصُّخورُ تَحْتَ فأس
يَحْملُ العِشْقُ الجبالَ ثم يمضي في انحدار[4]

***

طاسين زرادشت[5]

أهرمن يختبر زرادشت

ما خلقتُ منكَ نايات البُكاء   وربيعي مثلُ شَهْرٍ في الشتاء[6]

---

(١) الثني : كلُّ شيء بعضه على بعض . وليلةُ السِّرار : آخر ليلة في الشهر .
(٢) الخمار : الصُّداع منْ شدَّة السُّكر .
(٣) الخرقة : ثوب الزاهد . والقشيبُ : الجديد . والإزارُ : الملحفة وكل ما يستر .
(٤) يمضي في انحدار : أن يمضي في سرعةٍ وخفَّة .
(٥) زرادشت : هو نبيُّ الفرس القديم الذي اعتقد وجود إله للخير هو أهورا مزدا وآخر للشر يسمَّى أهرمن . وجاء قومَه بكتابٍ يسمَّى : الأبستاق .
(٦) النايات : جمع ناي .

أنـا فـي الـدُّنـيـا أعـانـي صَـوْلَـتَـكْ	بـدمـائـي قـد رَسَـمْـتَ صُـوْرَتَـكْ

إنَّ مِـــنْ سينـــاك للحـــقِّ الحيـــاة
واليـدُ البيضـاءُ لـي منهـا الممـات[1]

آخــذٌ بــالعَهْـدِ مــنْ ربٌّ خَبِــل	ضلَّ منْ وَفْقَ هوى نفسٍ عَمِلْ[2]

وَمِـزاجُ الـرَّاح فـي الكـاسـاتِ سَـمْ	ولـه المِنْشَـارُ والـدُّودُ النَّعَـمْ[3]

إنَّ نـوحـاً لـم يجـدْ غَيْـرَ الـدُّعـاء	والـدُّعـاءُ كـان خِلـواً مـنْ غنـاء[4]

اعتـزلْ فـي الغـارِ وارْحَـلْ عـنْ ديـار	نحو أهلِ النُّور عَنْ مَخْضِ اختيار

وبعيــنِ اجْعَــلِ التُّـربَ الـذَّهَـبْ	وَبِنَجْـوَاكَ السَّمــاءَ مــنْ لَهَـبْ[5]

كـالكليـمِ فـي الجبـالِ كُـنْ شَـرِيـدا	واخْتَـرِقْ ممَّـا رَأَتْ عيـنٌ بعيـدا[6]

وتنـــاسَ شِيْمَـــةً لـــلأنبيـــاء	دَعْـكَ مِـنْ فَـرْطِ الـذَّكـاءِ والـدَّهـاءْ

بيـن مـن هـانـوا تهُـون الفِطْـرَة	والـرَّمـاد فـي الـرِّيـاحِ الجمـرة

الــولــيُّ إنْ شـأى يـومـاً نبيَّـا	للهـوىٰ كـانَ النَّبـيُّ داءً عَصِيَّـا[7]

قُــمْ وفــي عُــشِّ انفـرادِ عُـزْلَتِـك
وَلْتَــدَعْ هــذا التَّجلِّــي خلــوتُــك

* * *

(١) يلمّحُ إلى طور سيناء ، وإلى قوله تعالى في سورة طه : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [طه : ٢٢] .

(٢) الخبل : المخبول الذي اختلط عقله .

(٣) الإشارة إلى تعذيب زكريا بالمنشار ، وأيوب بالدُّود .

(٤) الغَناء : الكفاية .

(٥) التُّرب : التراب ، والنَّجوى : المسارّة .

(٦) يريد قوله تعالى في سورة طه : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩ و١٠] .

(٧) شأى : سبق وكان أفضل . والدَّاء العصي : هو الذي لا شفاء له .

زرادشت

الضِّيـاءُ البَحْـرُ والشَّـطُّ الظُّلـم ... مـا حَـوَتْ سيلاً كمثلي وارْتَطَمْ[1]

فـي فـؤادي المـوجُ دُفَّـاعٌ يمـور ... إنَّمـا السَّيْـلُ علـى شـطٍّ يَغِيْـر[2]

صـورةٌ مـا كـان فيهـا مِـنْ طِـلاء ... وإلـهُ الشَّـرِّ رسَّـامُ الـدِّمـاء[3]

أظهـرِ الـذَّاتَ ، فهـاتيـكَ الحيـاه

واختبـارُ المـرءِ مـا أدَّت يـداه

يُنْضـجُ الـذَّاتَ التـردِّي فـي البـلاء ... عـن قضـاءِ الله قـد تمحـو الخَفَـاء

رَجُــلُ اللهِ رأى بــاللهِ ذاتَــه ... فـي دمـاه خرَّ كـي يُنْهـي حيـاتَـه

بـالـدِّمـاء العِشْـقُ يَسْمُـو وَيَسُـود ... ولـهُ العِيـدَانُ منشـارٌ وَعُـوْد[4]

فـي سبيـلِ اللهِ مـا يجـري يَطِيـب

مـرحبـاً بـالصَّـدِّ إنْ صَـدَّ الحَبِيـبْ

لا تـرى عينـي التَّجلِّـي وَحْـدَهـا ... تَـرْمُـقُ الحُسْـنَ عيـونٌ حَـوْلَهـا[5]

خلـوةُ الإنسـانِ ؟ وجـدٌ سُعِّـرا ... إنَّهـا البحـثُ ، وجَمْـعٌ قـدْ يُـرى

خلوةٌ في العِشْـقِ مـنْ شـأنِ الكَليـم ... إنْ تجلَّـى كـانَ كـالمُلْـك العظيـم[6]

خلـوةٌ أو جَلْـوةٌ فـي القَلْـبِ وَقْـدُ ... ومَقَـامٌ أو همـا حـالٌ وَوَجْـدُ[7]

ويلـوحُ فيهمـا الـرَّحمـٰنُ آيـةْ ... بـدأ الأولـى وذي الأخـرىٰ نهـايـةْ

---

(١) ارتطم : ازدحم ، وتراكم .

(٢) الدُّفاع : معظم السيل والموج . ويمور : يضطرب .

(٣) يقول : إنَّ « أهرمن » إلهُ الشر رسمها بالدِّماء .

(٤) يقصد تعذيب المسيح عليه السلام بصلبه ، كما يعتقد المسيحيون ، وتعذيب زكريا عليه السلام بالمنشار .

(٥) لا يريد أن يرى الحسن وحده ، بل في جماعة .

(٦) الكليم : موسى عليه السلام .

(٧) الوَقْدُ : النار .

النُّبوَّاتُ ، كما قُلْتَ ، المِلَلْ يخلق الإنسانَ عِشْقٌ إنْ كَمُلْ

حَبَّذا رَكْبٌ ولله المسير[1]

وبدنيانا كأرواحِ نَطِيز

***

طاسين المسيح

(رؤيا تولستوي الحكيم)

شامخٌ قدْ ضمَّ أنواعَ المَمَاتْ فيه وادٍ ما به رفَّ النَّبات[2]

فيه نورُ البَدْرِ قارٌ منْ غُبَار بسماه الشَّمسُ ظمأىٰ فوقَ نار

والغديرُ زِئبقٌ قدْ فارَ فورَه وهو يجري دافقاً مثل المجرَّه[3]

لا ارتفاع لا انخفاضَ في الطريق زاخرٌ طامٍ وذو موجٍ حَنِيق[4]

صاحَ شابٌ قدْ حواهُ الزِّئبق جازِعاً وهوَ يكادُ يَغْرقُ

منهُ ذاكَ الغيمُ ما إن يقرب ظامىءٌ ، منْ زئبقٍ هل يَشْربُ !

وعلى الشَّطِّ رأيتُ غانِيَهْ لحظُهَا يأسِرُ ألفَ سَارِيَهْ[5]

عَلَّمَتْ منْ سِحْرِها العبَّادَ كُفْرا شرُّها الخير وكانَ الخيرُ شرّا

يا ترى منْ أنْتِ قُلْتُ فلتجيبي ما بُكاكِ بل وموصولُ النَّحيب

« إنَّ في عينيَّ سِحْرُ السَّامريِ واسمي افرنگين واسمُ السَّاحر[6]

---

(١) الرَّكب : ركبان الخيل ، أو الإبل .

(٢) الشامخ : المراد به الجبل . ورفَّ النبات : اهتزَّ نضارةً .

(٣) الغدير : النهر . والمجرَّة : مجموعة من النجوم تشبه النَّهر .

(٤) الظَّامي : الممتلىء . والحنيق : الشَّديد الغضب .

(٥) الغانية : الحسناء . والسَّارية : الجماعة .

(٦) افرنكين : من فرنكي في الفارسية بمعنى الإفرنجي في العربية . وإقبال يجسِّد التفرنج على أنه أفسد المسيحية الأولى . أما الإنسان المغمور في ماء النهر فهو رمزٌ إلى الخائن=

الجليدُ فَجْأةً كانَ الغَديرِ وبأعضاءِ الفتى العَظْمُ الكَسِيْر[١]

رَدَّدَ الشَّكْوىٰ ومنْ قلبٍ وَجِعْ فَلَهُ الشَّكوىٰ وما مِنْ مُنتَمِعْ[٢]

قالتِ افرنكينُ « فكِّرْ فِكْرَةً ما عَمِلْتَ فيهِ فانْظُرْ نَظْرَةً

إنَّما عيسى سراجُ الكائنات نورُه اللمَّاح في كلِّ الجِهات[٣]

اذْكُرَنَّ بيلاطوسَ المتقِع ما صنعتَ ؟ أيَّ شيءٍ قد صَنَع[٤]

لذَّة الإيمانِ في رُوحٍ حُرِمتْ إنَّ أصنامَ اللُّجينِ قدْ عَبَدْتَ[٥]

ما عَرَفْتَ الوحيَ والجسمَ اشتريْتَ

ولذا فالرُّوحُ أمْوالٌ فقَدْتَ »

وَمِنَ الحسناءِ تجريحُ الملام كانَ في قلبِ الفتى حزَّ الحُسام

قال : « منْ خدعك ، فالزُّور الجليّ باعَ شيخَ أمّةٍ أو برَهْميّ

ذلُّ عقلٍ ذلُّ دينٍ منْ فُسوقِك هانَ حتَّى العشقُ منْ سَوْمٍ بسُوقِك[٦]

الودادُ منكَ ضُرٌّ خِفْيَة مِنْكَ هذا الحِقْدُ موتٌ بغتة

أنتَ بالماءِ وبالطِّين عَقَدْتَ صلةً ، والعَبْدُ مِنْ ربٍّ سَلَبْتَ

حكمةُ الإنسان حلَّت مشكلات وبها جنكيزُ صِرْتَ في غزاة

ما لدى المُنصِفِ قطُّ أيُّ رَيْبٍ في ذنوبٍ لكَ فاقَتْ كلَّ ذنب

المسيحُ أسكَنَ الرُّوحَ البَدَنْ أنتَ منْ أدرجْتَ ميتاً في الكَفَنْ[٧]

= الذي خانَ المسيح عليه السلام .

(١) الكَسِيْرُ : المحطَّم .

(٢) وجع : بمعنى تألَّم ، ومَرِض .

(٣) اللَّماح : المتلألىء . يقول : إنَّ نوره يغمرُ العالمين .

(٤) بيلاطوس : هو من يعتقد المسيحيون أنه القائل إني بريء من دم المسيح .

(٥) اللجين : الفضة .

(٦) الفسوق : ترك أمر الله وعصيانه . السَّوم : من سام السلعة ، أي : عرضها وذكر ثمنها ، فكأن المنافقين يتّخذون الدين سلعةً لتجارتهم .

(٧) يريد ليقول : إنَّ المسيح عليه السلام أحيا الموتى .

مـا صنعنـا كـانَ مِـنْ نـاسُـوتِـهِ كـانَ مـا لِلْقَـوْمِ مـنْ لاهـوتِـهِ
بممـــاتِ لـــك نحيـــا قـــاطبـــةْ
لا تمـوتـي ، لتـري مـا العـاقِبَـةْ »[1]

***

طاسِن محمَّد (ﷺ)
(نياحةُ أبي جهل في حرم الكعبة)

زارتْ روحُ عمرو بن هشام ـ زعيمُ الجاهلية والنخوة العربية ـ مكَّة ، وقد أصبحت بلدَ الإسلام والتَّوحيد ، وطُهِّرَ بيتُ الله للطائفين والقائمين والركع السجود ، وحُرِّمت عبادة الأصنام والأوثان الجاهلية ، فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزى ، ولا أساف ، ولا نائلة[2] ، وقام المؤذن على شرفات الحرم ينادي بأعلى صوته خمسَ مرات : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » .

وذهبت نخوةُ الجاهلية ، وتعظُّمها بالآباء ، وأصبحَ الناس يعتقدون أنَّهم من آدم ، وآدمُ من تراب ، فلا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتقوى ، وسمعَ الناسَ يتلون : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وأصغى إلى الناس في غدوِّهم ورواحهم ، فلم يسمعهم يفتخرون ببلدٍ أو نسب ، ووطنٍ أو شعبٍ ، وطاف في الناس ، فلم ير أحداً يعيِّر أحداً بأمِّه ، أو سواده ، أو حرفته ، أو حبشيته ، أو عجميته ، ويتطاول بعربيته ، أو قرشيته ،

---

(١) قاطبةً : جميعاً .
(٢) كان أكثرها أصنام قريش ، والتي كانت لغيرها كانت قريش تعظمها ، راجع ابن هشام وابن الكلبي .

وغشي مجالسَ الناس ، فلم يسمع مفاضلةً بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبين عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس، ولا مساجلةً في مآثر الجاهلية ، وأيام العرب ، ورأى الناس بالعكس يرجعون إلى عبدٍ أسود ، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتفُّون حوله ، ويَصْدُرون عن رأيه .

ودقَّق في حديث الناس ، وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وعقيدتهم ، فلم ير عرفاً جاهلياً ، أو نزعةً عربيةً ، أو نعرةً قومية ، يتعلَّق بها سيد بني مخزوم ، ويقرُّ عيناً ، ورأى أنَّ الحياة القديمة قد نُسِخت وأُبطلت ، وولد مجتمع جديدٌ قام على أساسٍ من العقيدة ، والخلق ، والفضيلة ، والتقوى ، وتغيَّرت الموازين والقيم ، وتغيَّرت عقولُ الناس ونفوسُهم ، وسُمِعَ يُنشدُ في حزنٍ واستعجاب :

فما النَّاسُ بالنَّاس الذي عهدتُهم ولا الدَّارُ بالدَّار التي كُنْتُ أعْرِف

لقد أشكلت الأمورُ على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابنُ البلد ، وسيِّدٌ من ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحجر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذي كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويمتحنُ فيه ضعفاءَ المسلمين : لأنكر مكَّة ، وأنكر الوادي ، ورأى أنَّه قد ضلَّ الطريق .

لقد كان يرى في الدِّين « الجديد » الذي جاء به محمد ﷺ الخطرَ والضَّررَ على الدين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية القرشية ، والنظام الجاهليَّ الذي يقوم على النسب والوطن ، وتفضيل الدَّم والعرق ، ويرى العالمَ كلَّه في حدود « المملكة القرشية » التي قامت في مكَّة ، ولا يُعنى بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كلَّه في العرب ، فغيرُهم عجمٌ وعلوج ، لا يستحقُّون مدحاً ،

ولا يستحقُّون رحمةً ، ولا يستحقون عدلاً ، لقد كان يرى كلَّ ذلك ويتوقعه ، وكان من أشد الناس حماسةً في الدفاع عن الجاهلية ، وأصدقِ الناسِ فِراسةً في معرفة غايات الإسلام ، ولكنَّه على بعد نظره وذكائه ، لم يكن يعرف أنَّ الأمر يبلغُ بالناس هذا المبلغ ، وأنَّ الإسلامَ يؤثِّر في الناس هذا التأثير ، وأنَّ الجاهليةَ تُطرد من عاصمتها ومهدها هذا الطَّردَ الشنيع .

هاجتِ النَّخوةُ الجاهلية في أبي جهل ، وثارت روحُه ، ورئيَ متعلقاً بأستار الكعبة ، يستغيث على محمد ﷺ وينوحُ ، ويقول : « إنَّ قلوبنا ـ معشر الجاهليين ـ قروحٌ وجروح ، تسيل دماً مما صنع محمد ، فقد أطفأ نورَ الكعبة ، وحطَّ من مكانتها وقدرها ، لقد نعى قيصرَ وكسرى ، وتنبأ بزوال الملوك والسلاطين ، ونادى بأعلى صوته : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] و ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفُتنوا به وبدينه الجديد ، ساحرٌ يسحر بكلامه قلوبَ الناس وعقولَهم ، وهل كفر أعظم من قوله : « لا إله إلا الله » ، وإنكارُ جميع الآلهة التي آمن بها الناس ، وعبدوها في جميع الأعصار والأمصار ، إنَّه طوى بساط دين الآباء ، وفعل بآلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللاَّت ، ومناة جذاذاً بضرباته الموجِعة ، فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذَ ثأر الآلهة ، يا عجباً ! لقد جرَّد القلوب عن معبود مشهور يُرى ويُلمس ، وربطها بمعبودٍ غير مشهودٍ لا يُرى ولا يُلمس ، حتى كان هذا الإيمان بالغيب أقوى وأعمق من الإيمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الإيمان أساس ؟ وهل لما لا يُرى وجود ؟

أليس من الجهل والضَّلالة ، والعَمى والبلاهة سجودٌ لغائب ؟ هل يجدُ الإنسان لذَّةً وحلاوةً في ركوعٍ وسجودٍ أمام غائب ؟!.

إنَّ دينه حتفٌ للوطنية والقومية ، إنَّه من قريش ، ولكنه لا يفضِّل حرّاً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس مع مولاه على مائدةٍ واحدةٍ ، ويأكل معه ، أسفاً إنَّه لم يعرف قدر العرب الأحرار ، وأكرمَ العلوجَ

والعبيدَ السُّود ، لقد اختلط الأحرار البيض بالعبيدِ السود ، واختلط الكريمُ باللئيم ، والجميلُ بالدَّميم ، وذلَّ العرب ، وذلَّ بنو قصي .

إننا لا نشك في أنَّ هذه المؤاخاة ، التي يحثُّ عليها محمد كثيراً ، مبدأ عجمي ، وقد تحقَّق لدينا أنَّ سلمان مزدكيٌّ ، وأنَّ ابن عبد الله خُدِع به ، وجرَّ البلاء والشقاء على الأمة العربية ، لقد جهل هذا الفتى الهاشميُّ قيمته وشرفه ، لقد أعمته هذه الصلاة التي يصليها ، هل لعجميٍّ أصلٌ عدنانيٌّ ، وهل لأعجميٍّ نطقٌ عربيٌّ ولهجةٌ مضرية ؟ عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام الذي يسمِّيه محمدٌ وحياً ، بكلامكم البليغ السَّاحر .

ولماذ لا تنطق أيها الحجر الأسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول ! ولماذا لا تقوم يا هبل ! يا إلهنا الأكبر ! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء الصُّباة ، أغِرْ عليهم ، وعكِّر عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، تجعلهم أعجازَ نخلٍ خاوية ، يا مناة ! ويا أيها اللات ! فبالله ! لا ترحلا من ديارنا ، وإن رأيتما الرحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بدَّ من الرحيل ، فلا تعجِّلا ، وأمهلانا أياماً نتمتع بكما »[1] .

وإليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

صدرُنا نارٌ تلظَّت مِنْ مُحمَّد	فسراجَ الكعبةِ الوضاءِ أخْمَد
وَبِهُلْكِ الرُّوم أو كسرى تغنَّى	سَلَبَ الفتيانَ طُرّاً من يَدَيْنَا
ساحرٌ والقولُ منه ساحرٌ	وبقولِ « لا إله » كافرٌ !
وبساطُ دينِ آباء طَوَىٰ	وأذاقَ ما عبدناه التَّوى[2]
حطَّمَ اللاَّتَ فكانَتْ كالفُتَات	مِنْهُ فلتقتصَّ كلُّ الكائِنَات[3]

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الندوي ، صفحة ١٦٩ ـ ١٧٤ .
(٢) التَّوى : الهلاك .
(٣) الفتات : كسارة الشيء بعد أن يتفتت .

نـاطَ مِنـهُ القلـب بـالغيـبِ الكَنيـن ... ومحا الحاضرَ بالسِّحْرِ المُبين[١]

ويعيـبُ المـرءُ للغيـبِ النَّظَـر ... أيـنَ شـيءٌ ليـس يبـدو لِلْبَصَـر[٢]

الضَّـريـرُ مَـنْ لغيـبٍ يَسْجُـدُ ... يـا لهـذا الـدِّيـن أعمـى يُبْعـد

مـا السُّجـودُ ولـربٌ لا يُحَـد

الصَّلاةُ ما ارتضاها قطُّ عَبْد !

فـي قـريـشٍ بـتَّ أصـلاً للنَّسـب ... يـا لـديـنٍ منكـرٌ فَضْـلَ العـرب[٣]

الـوضيـعُ كـالـرَّفيـعِ عِنْـدَهُ ... لِلْخِـوانِ فَهُـوَ يـدعـو عَبْـدَهُ[٤]

مـا درىٰ فضـلاً لأحـرارِ العـربْ ... وِدَّ أحبـاشٍ غـلاظٍ قَـدْ خَطَـبْ[٥]

ولحمـرِ القَـوْمِ بـالسُّود اجتمـاعْ ... يـا لعمـري عـزُّنـا هـذا مُضَـاعْ

المســاواةُ أراهـــا أعجميَّـــه ... دانَ سلمـانُ بـديـن المـزدكيَّـه[٦]

ابــنُ عبــد اللهِ مَخْــدوعٌ بـــه ... فــأذاقَ العُـرْبَ مِـنْ تخـريبـه

وبنـي هـاشِـمَ جـافـى قـومُهـم ... بـالصَّلاة فـي ظـلامِ عَيْنُهـم !

أيـنَ مِـنْ عـدنـانَ أصـلُ الأعجمي ... أيـنَ مِـنْ سَحْبَانَ صَمْتُ الأبْكَـم[٧]

لخـواصِّ العُـرب عيـنٌ لا تُـرى ... قـمْ زهيـرٌ شُـقَّ مـركـومَ الثَّـرى[٨]

---

(١) الكنين : المستور .

(٢) يقول : إن الشيء الكائن وحده هو الذي يشاهد .

(٣) بت : قطع .

(٤) الخِوان : ما يوضع عليه الطعام .

(٥) خطب الودَّ : طلبه .

(٦) لم يكن الصَّحابيُّ الجليل سلمان الفارسي على الدِّيانة المزدكية قبل إسلامه بل على الزرادشتية . والمزدكية تدعو إلى المشاع في الأموال والنساء . ولكن الشاعر هنا يبالغ في التهكم بأبي جهل وجهالته ، فيقول إنَّه توهم أنَّ النبيَّ ﷺ عرف المساواة عن سلمان ، وهو يُجري على لسان أبي جهل من الكلام ما يؤيد أنَّ أبا جهل من الكافرين .

(٧) سحبان مضرب المثال في الفصاحة عن العرب .

(٨) هو الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى من أصحاب المعلقات ، وجاء في سيرته أنه رأى قبل موته بعام كأنه رفع إلى السماء ثم انقطعت به الحبال . وفسر رؤياه لبنيه =

أنت في صحرائنا خيرُ الدَّليل

قُمْ وحطِّم سِحْرَ لَحْنِ جِبْرَئيل

قُلْ وَحدِّثنا طويلاً يا حَجَرْ ! ما رأينا منه ؟ واصدُقنا الخَبَرْ

قابلَ الأعذارَ أنت يا هبل عَنْكَ ذُدْ مِنْ ديننا ما إنْ عَقَلْ

رأسَهُمْ ألقِ لذئبٍ أو هَصُور ولْيَكُنْ في نخلهم مُرُّ التُّمور(١)

صَرْصَراً واجعلْ هواءَ البادِيَهْ إنَّهم أعجازُ نخلٍ خاوِيَهْ

لاتُ دومي ، لا تَريمي يا مناةْ أنتما فينا قلوبٌ خافِقاتْ(٢)

تَسْكُنانِ بينَ جَفْنَيْنا الحِداقا

مهلةٌ إنْ كنتِ أزْمَعْتِ الفِراقا(٣)



* * *



= بقوله : سيكون بعدي أمرٌ يعلو من اتبعه فخذوا بحظِّكم منه . وما حال الحول حتَّى بُعِثَ النبي ﷺ . والمركوم : الذي بعضه فوق بعض .

(١) الهصور : الأسد . والتُّمور : جمع تمر .

(٢) اللَّات ومناة : من الأصنام التي كانت العرب تعبدها في جاهليتها . لا يريم : لا يفارق مكانه .

(٣) الحِداق : جمع حَدَقة ، وهي معظم سواد العين . والشَّطر الثاني من البيت مما اقتبسه إقبال عن شاعرٍ عربي .

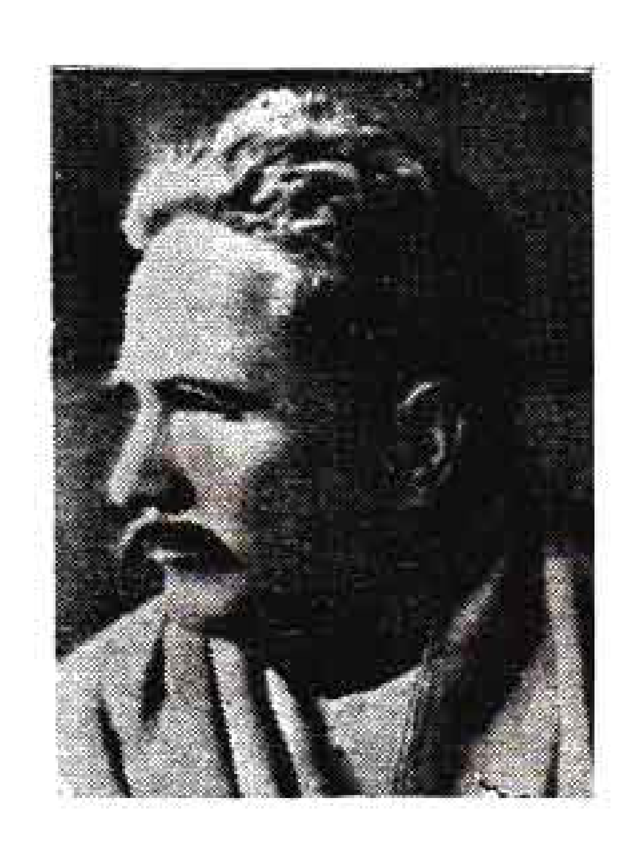


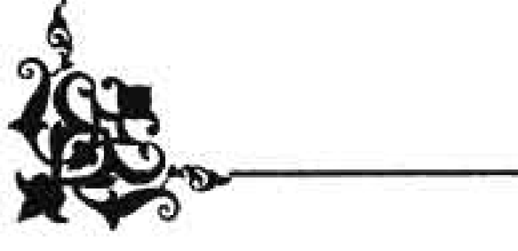
العلامة محمد إقبال مع نجله جاويد

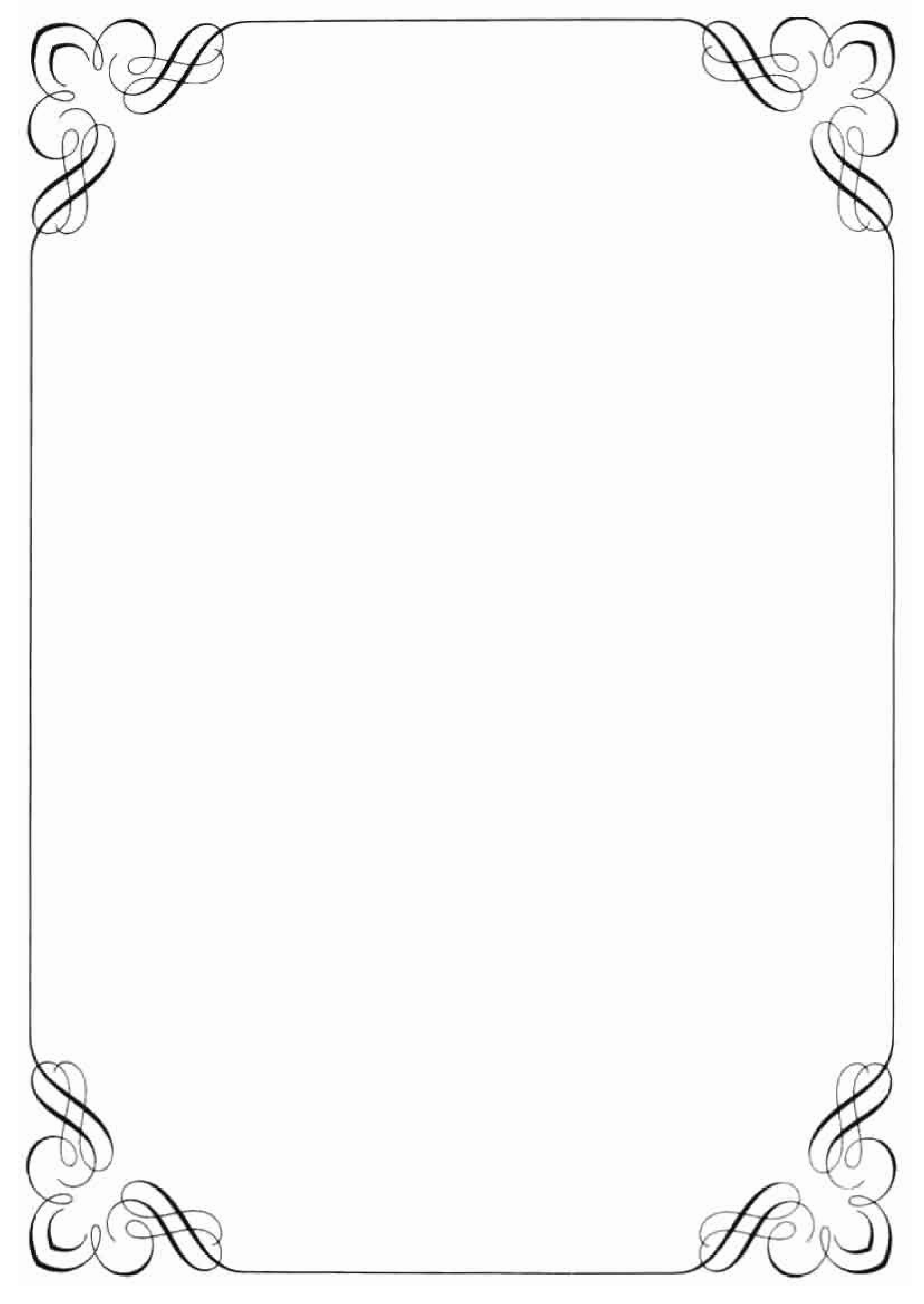


القسم الثاني

فلكُ عُطارِد





ساعةٌ مع السَّيِّد جمال الدِّين الأفغانيِّ[1]

خرج الدكتور محمد إقبال مع شيخه ومربِّيه الروحي والفكري ـ الشيخ جلال الدِّين الرومي ـ في سياحةٍ روحيَّةٍ فكريَّة ، ومرَّ في جولته ـ الخيالية ـ بمنازل كثيرةٍ ، التقى فيها بشخصياتٍ ماضية ، من أصحاب الدِّيانات والفلسفات ، وقادةِ الفكر والرِّجالات ، وتحدَّث معهم في مسائلَ كثيرةٍ .

ومرَّ في رحلته بمنزلٍ بكرٍ ، لم يطأه آدميٌّ بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة بجمالها ، وتمثلت فيه الدُّنيا بسهولها ، وجبالها ، وميادينها ، وأزهارها ، وعاش منذ آلاف السنين في عزلةٍ من المدنية والصناعة الإنسانيَّة ، وأعْجَبَ الشاعرَ جمالُ الطبيعة ، ورقةُ الهواء ، وخريرُ الماء في هدوء الصَّحراء .

وأقبل إلى شيخه الرُّوميِّ ، فقال وقد قَرَعَ أذنهُ صوتٌ عذبٌ رقيق : **ما لي أسمع الأذان ، ولا أرى أثر إنسان ؟ فهل أنا واهمٌ ، أم حالمٌ ؟**

قال الرُّوميُّ : **إنه منزلُ الصُّلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسبٌ قريب ، فقد قضى فيه أبونا آدمُ يوماً أو يومين ، لمَّا هبط من الجنة ، قد شَهِدَ هذا المكانُ زفراتِه وأنَّاتِه في السَّحر ، وبلَّتْ دموعُه التراب ، يزورُه أصحاب المَقامات الرفيعة ، كفضيل ، وأبي سعيد ، والعارفون الكبار ، كجنيدٍ ، وأبي يزيد ،**

---

(١) هو جمال الدين الأفغانيُّ ، ذلك المصلح الدِّينيُّ ، والسياسيُّ ، والاجتماعيُّ ، ورجل الفكر الحرِّ والأدب العالي ، ومن له الرِّيادة في دعوته إلى الحقِّ ومكافحته للباطل . وكان الدَّاعي إلى التجديد في الإسلام ، راغباً في إصلاح العالم الإسلاميِّ بالرجوع إلى القرآن . بعد أن فترت عنه همم المسلمين ولم يأخذوا بتعاليمه الدَّاعية إلى شحذ الهمم وتحرير العقول ، كان الأفغاني عظيمَ الأثر ، واسع النفوذ ، دائبَ العمل في مصر على الخصوص ، توفي عام ١٨٩٨م .

فلنقُم ولنُسْرِع لندركَ الصَّلاة في هذه البقعةِ المباركة ، ونتالَ لَذَّةَ الروح ، ونعمة الخشوع التي حُرِمناها في العالم المادِّي .

ونهضا من مكانهما مسرعين فوجدا رجلَيْن يُصلِّيان ، أحدُهما أفغانيٌّ ، والآخر من الأتراك ، ونظر فيهما ، فإذا إمام الصلاة جمالُ الدين الأفغانيُّ ، يصلِّي خلفه الأمير سعيد حليم باشا ، فقال الروميُّ : إنَّ الشرق لم ينجب في العصر الأخير أفضلَ منهما ، وقد حلَّا كثيراً من عقدي والغازي ، أما الإمام السيد جمال الدين ؛ فقد نفخ في الشرق الناعسِ روحَ النَّشاط ، ودبَّت بدعوته الثائرةِ الحياةُ في الأموات والجمادات ، وأمَّا الزَّعيم سعيد حليم فقد جمع بين القلب الجريح الدَّامي ، والفكر المحلِّق السَّامي ، والرُّوح القلقة ، والعقلِ الكبير المستنير ، إنَّ ركعتين مع مثل هذين الرجلين من أفضلِ العباداتِ ، وأعظم القربات .

وقرأ السيد جمالُ الدين سورة « والنجم » فأنشأ هدوءُ المكان والزَّمان ، وشخصيةُ الإمام ، وجمالُ القرآن جواً خاشعاً رهيباً ، رقَّ فيه القلب ، وفاضت فيه العين ، وكانت قراءةً لو سمعها إبراهيمُ الخليل لأعْجِبَ بها ، ولو سمعها جِبْرئيل لأثنى عليها ، وكانت قراءةٌ تقلق النفوسَ ، وتذيب القلوبَ ، وتعلو بها صيحةُ التكبير ، والتهليل في القبور ، وكانت قراءةً ترفع الحجاب ، وتتَّضح بها معاني أمِّ الكتاب .

وندعُ محمد إقبال يحكي قصَّته ، قال : « قمتُ بعد الصلاة ، وقبَّلتُ يده في أدبٍ ومحبةٍ وقد قدَّمني أستاذنا الرُّوميُّ إلى السيد ، وقال : إنَّه جوَّالٌ جوَّابٌ في الآفاق ، لا يستقرُّ في مكان ، ويَحمل في قلبه عالماً من الآمال والآلام ، لم يعرفْ غيرَ نفسه ، ولم يخضع لأحدٍ ، فيعيش حراً طليقاً » .

وأقبلَ عليَّ السيدُ جمال الدين ، فقال : حدِّثني يا عزيزي ! عن العالم الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلُهم تراب ، وينظرون بنورِ الله .

قلتُ : يا سيدي ! لقد رأيتُ في ضمير الأمَّة التي خلقت لتسخير العالم

معركةً حامية ، وصراعاً دامياً بين الدِّين والوطن ، لقد ضعُف الإيمانُ في قلب هذه الأمة ، ففقدت روحَها ، وقطعتِ الأملَ من سيطرة الدِّين وسيادته ، فلجأتْ إلى الوطنية والقومية ، أصبح الأتراكُ والإيرانيُّون سُكارى بصهباء أوربة ونشوتها ، وأصبحوا فريسةَ كيدها ودهائها ، أصبح الشَّرقُ خراباً بحكم الغرب وسيادته ، وذهبتِ الشُّيوعيَّةُ ببهجة الدِّين وبهاء الملة .

سمعَ الأفغانيُّ كل ذلك في صبرٍ وأناة ، وفي تألُّمٍ وحزن ، ثم انفجر قائلاً : إنَّ الباقعةَ الأوربيَّ هو الذي علَّم أهلَ الدين الوطنية والقومية ، أما هو فلا يزالُ يبحثُ عن مركزٍ لجميع الشعوب والأوطان ، ولكنَّه بذر في الشرق بذورَ الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصرَ والشامَ والعراقِ ، فتحرَّرْ أيُّها المسلمُ الشرقيُّ ! من قيود الوطنية والقومية ، وكنْ « عالمياً آفاقياً » يعتبرُ كلَّ بلدٍ وطنه ، وكلَّ أرضٍ أرضَه ، إنْ كنتَ تميز بين « الجميل » و« القبيح » فلا تربطْ نفسك وقلبك بالتُّراب والحجارةِ والقرميد ، إنَّ الدين هو أن ينهض الإنسانُ من الحضيض ، ويعرفَ قيمة نفسه ، إنَّ الذي عرف « الله » وآمن به ، لم يسعه هذا العالم ، ولم ينحصرْ في الجهات ، إنَّ الحشيش ينبتُ على التراب ، ويفنى في التراب ، ولكنَّ النفس الإنسانية أسمى من أن يكون مصيرها هذا التراب ، إنَّ آدم لو خلق من ماء وطين ، فقد يأبى أن يدور حول هذا الماء والطين . إنَّ جسمه يميل به إلى الأرض ، وروحه تطير به في الأجواء الفسيحة ، إنَّ الروح لا تنحصر في الجهات ، وإنَّ « الحرَّ » لا يعرف القيود والحدود ، فإذا حُبس في « التراب »[1] اضطرب وثار ، لأنَّ الصقور لا تستريحُ ولا تهدأ في الأوكار .

إنَّ هذه الحَفْنَةَ من التُّراب ، التي نسمِّيها « الوطن » ونطلقُ عليها أسماء « مصر » و « إيران » و « اليمن » ، بينها وبين أهلها نسبٌ ؛ لأنَّ هذه الشعوب قد نهضت من أرضها ، ولمعت من أفقها ، ولكن لا ينبغي أن تنطوي على نفسها ،

---

(١) يعني به « الوطن » .

وتنحصرُ في حدود أرضها ، أما ترى إلى الشمس تطلع بسنائها ونورها من الشرق ، ولكنَّها لا تلبث أن تتحرَّر من حدود الشرق والغرب ، وتسيطرَ على العالم وتحتضِنَه . إنَّ فطرتها بريئةٌ من الشرق والغرب ، وإن كان مولدُها وظهورُها في الشرق .

أما الشيوعية يا عزيزي! فإنَّ مصدرها ذلك الإسرائيليُّ ، الذي خلط الحقَّ بالباطل ، وآمن قلبهُ وكفر عقلُه ، إنَّ الغربيين فقدوا القيم الرُّوحية ، والحقائق الغيبيَّة ، وذهبوا يبحثون عن الرُّوح في « المعدة » إنَّ الروح ليست قوَّتها وحياتُها من الجسم ، ولكنَّ الشيوعية لا شأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ، وديانةُ « ماركس » مؤسسة على مساواة البطون . إنَّ الأخوة الإنسانية لا تقوم على وَحْدة الأجسام والبطون ، إنَّما يقوم على محبَّة القلوب ، وألفة النُّفوس .

إنَّ المُلوكيَّة سمنٌ يطرأ على الجسم ، صدرُها مظلمٌ خاوٍ ، ليس فيها قلبٌ خفَّاق ، إنَّها كالنحلة تجلس على كلِّ زهرة ، وتتشربُ منها الرُّضاب ، وتغادرها إلى زهرةٍ أخرى ، وتبقى هذه الزَّهرات بلونها وشكلها ورائحتها ، ولكنَّها أوراقٌ بالية ، وحشائش ذاوية ، كذلك المُلوكية تستحوذُ على الشعوب والأفراد ، وتمتصُّ منها دماءها ، وتتركُها أجساداً هامدة .

إنَّ « الملوكيَّة » و « الشيوعية » تلتقيان على الشَّره والنَّهامة ، والقَلق والسآمة ، والجهل بالله ، والخداع للإنسانية ، الحياة عند الشيوعية « خروج »[1] ، وعند الملوكية « خراج » ، والإنسانُ البائسُ بين هذين الحجرين قارورةُ الزُّجاج ، إنَّ الشيوعية تقضي على العلم ، والدين ، والفنِّ ، والمُلوكية تنزع الروحَ من أجسام الأحياء ، وتسلُبُ القوتَ من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادَّة ، وجسمُهما قويٌّ ناضر ، وقلبُهما مظلمٌ فاجر .

---

(١) يعني : تجرُّد من العقائد ، والعواطف ، والآداب ، والحضارات .

ألا ! منْ يبلغُ « روسيا » أنَّ القرآن وتعاليمه في وادٍ والمسلمين في وادٍ ، لقد انطفأت شرارةُ الحياة في صدورِ المسلمين ، وانقطعتْ صلتُهم عن النَّبيِّ ﷺ إنَّ المسلم اليوم لا يؤسِّسُ حياته ، ولا ينظِّمُ مجتمعه على مبادىء القرآن ، وقد أفلس لذلك في الدِّين والدنيا ، لقد ثَلَّ عَرْش قيصر وكسرى ، ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه عرشاً ملوكياً ، وتربَّع عليه ، واقتبس من العجم الملوكية وأساليبها ، وبذلك تغيَّر نظرُه إلى الحياة ، وتغيَّر منهج تفكيره .

لقد حطَّمت « القيصريةُ والكسرويةُ » مُثُلَ المسلمين في العصر القديم ، فاعتبري أيتها الأمة الرُّوسية ! من تاريخنا ، عليك بالثباتِ والاستقامة في معركة الحياة ، فإذا كنت قد كسرت هذه الأصنامَ « الملوكية والوطنية » فلا تعودي إليها ، ولا تطوفي حولها مرَّةً ثانية . إنَّ العالم اليوم يطلب أمةً تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرَّحمة والشدَّة ، فاقتبسي من الشرق ديانته وروحانيته ، لقد أصبحت دياناتُ الإفرنج ودساتيرُهم عتيقةً باليةً ، فلا تعودي إليها مرَّة ثانيةً ، لقد أحسنت إذ ألغيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي « لا إله » فعليك أن تبدئي مرحلة الإثبات « إلا الله » ، وهكذا تكمِّلين مهمَّتَك ، وتُتمين رحلتك العظيمة ، إنَّك تبحثين عن نظامٍ للعالم ، فعليك أن تبحثي له عن أساسٍ مُحْكمٍ ، وليس هو إلا الدينُ والعقيدةُ .

لقد محوت يا روسيا ! أساطيرَ الأولين أسطورةً أسطورة ، فعليك أن تدرسي الآن القرآن سورةً سورةً ، وما أدراكِ ما القرآن ؟ إنَّه نعيٌ للملوكية والسُّخرة ، وحتفٌ للاكتناز والأثرة ، وحياةٌ للصعلوك ، وبشرى للملوكِ ، إنَّه يذمُّ الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، ويحثُّ على إنفاق كلِّ ما فضل عن حاجة الإنسان ، ويقول في صراحة : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] إنه يحرِّم الربا ، ويحلُّ البيع ، ويحثُّ على القرض الحسن ، وهل يتولَّدَ من الربا إلا الشرورُ والفتن ، والقساوةُ والضَّراوة ؟ إنَّ اكتساب الرزق من الأرض جائز ، فكلُّ ما في الدنيا ملكٌ لله تعالى ، ومتاعٌ

للعبد ، والإنسانُ أمينٌ في مال الله ، ووصيٌّ على أرضه ، وخلقه ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، قد انتكست رايةُ الحقِّ بطغيان الملوك ، وخربت القرى والمدنُ بظلمهم ، وعبثهم . إنَّ المبدأ الذي يقرِّره القرآن : أنَّ قوت بني آدم من مائدةٍ واحدة ، وأنَّ الأسرة الإنسانية كلَّها كنفسٍ واحدة[1] .

إنَّه لما قامت دولةُ القرآن ، اختفى الرُّهبان والكهَّان ، أقول لك ما أؤمنُ به وأدين : إنه ليس بكتابٍ فحسب ، إنَّه أكثر من ذلك ، إذا دخل في القلب تغيَّر الإنسان ، وإذا تغيَّر الإنسان تغيَّر العالم . إنَّه ظاهر ومستترٌ ، كتابٌ حيٌّ خالدٌ ناطقٌ ، إنَّه يحتوي على جدود الشعوب والأمم ، ومصير الإنسانية .

لقد ابتكرتِ تشريعاً جديداً ودستوراً جديداً ، فجديرٌ بك أنْ تنظري إلى العالم بنورِ القرآن نظراً جديداً »[2] .

* * *

والآن إليك هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً :

يقول إقبال :

الترابُ كلُّ مخلوقٍ شأى	وتجلّيه جلياً قدْ رأى[3]
أبكانَ أم يكونُ سقطتي	والوجودُ قَنَصتْ أحبولتي[4]
أنا في الزرقاء لي شقاً شققتُ	إنَّني منها وإيَّاها مَلَكْتُ[5]
أفؤادي في حنوٍّ عانقت	أم أراها منه في الصَّدرِ ارتمت

---

(١) قال الله تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] .

(٢) مأخوذ عن « روائع إقبال » لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني النَّدوي ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

(٣) شأى : تفوَّق على غيره .

(٤) السَّقطة : المرَّة من الوقوع والتردِّي . وَقَنص : اصطاد . والأحبولة : المصيدة .

(٥) الزرقاء : السماء .

ما الـذي يخفـى ومـا شـيءٌ ظَهَـرْ | لستُ أدري كُنْـهَ مـا تَحْـتَ البَصَـر
فـي سمـاء غيـرهـا طيـراً خفقـتُ | فـرأيـتُ عـالمـاً مـا إن رأيـتُ
عـالـمٌ بـالبـرِّ والـدَّأمـاء مُفْعـمْ | مـنْ ثـرانـا إنَّـه خيـرٌ وأقْـدَمْ[1]
عـالـمٌ مـنْ بَعْـضِ أرمـاء ظَهَـرْ | ليـس لـلإنسـانِ فيـهِ مِـنْ أثَـرْ[2]
مـا عَلَيْـهِ صـورةٌ لـوحِ الـوجـود | ليسَ للفِطْـرَة مـن نقـدٍ حَـديـد[3]
قلـتُ للـرُّومـيِّ يـا حسـنَ اليَبـابْ | فـي الجبـال حبـذا هَـدْرُ العُبَـابْ[4]
أيـنَ آثـارُ الحيـاة هـاهنـا ؟ | والأذانُ فـاضَ مِنْـه سَمْعُنـا ![5]
قـال لـي « هـذا مقـامُ الأوليـاء | أرضُنا والأرضُ في فيءِ الإخاء[6]
آدمٌ عـنْ خُلْـدِهِ حيـنَ ارْتَحَـلْ | ذلـك العـالـمَ يـومـاً فيـه حَـلْ
ورأى هـذا الفضـاءُ زفْـرَتَـهْ | وبفجـرٍ وهـو يشكـو ، رنَّتَـهْ[7]
زائـروه مـنْ خـواصِّ الكُمَّـلِ | كلُّهـمْ فـي قـومِـهِ هـذا العَلـي
بـوسعيـدٍ والفضيـلُ بينهـمْ | بـايـزيـدُ والجُنَيْـدُ عِنْـدَهـمْ[8]

---

(١) الدأماء : البحر .
(٢) الأرماء : جمع رمي ، هو السَّحابةُ الصَّغيرة .
(٣) النقد الحديد : النقد الشديد الحاد .
(٤) اليباب : الخراب . والعباب : الموج .
(٥) يعجب الشاعر لوجوده في أرض خراب ، ومع ذلك يسمع صوت المؤذن .
(٦) الفيء : الظلُّ .
(٧) الرَّنةُ : الصَّوت ، أو صوتُ القوس .
(٨) أبو سعيد بن أبي الخير من مشاهير المتصوفة في أوائل القرن الخامس الهجري . وممن أذاعوا بين الناس في خراسان نظرية وَحْدة الوجود . وله رباعيَّات يعبِّر فيها عن مذهبه الصُّوفي وهو رقيقُ المعاني أصيلُ الشاعرية . والفضيل شيخ الحرم المكي كان في الحديث ثقةً ، أخذ عنه خلقٌ كثير منهم الشافعيُّ . وهو في عداد زهاد المسلمين كانت وفاته عام ١٨٧هـ وبايزيد أو أبو يزيد البسطامي أوَّلُ صوفي نسبت إليه الشطحات ، وأراد ابن تيمية أن يَدفع عنه غلوه في شطحاته ، وتوفي عام ٢٦١هـ. أما الجنيد فصوفيٌّ بغداديٌّ مرموقُ المنزلة من أهل الصَّحو لا أهل السُّكر ، أي أنَّه لم يكن من غلاة =

قُمْ معي كيما نصلي ركعتين

ونذابُ برهةً أو برهتين »

إنَّما الروميُّ دوماً في الحضور ... مشرقُ الطَّلعةِ ذوقاً في السُّرور

قال : « إنَّ الشرق قطُّ ما وَلَدْ ... مثلَ هذين فقدْ حلاَّ العُقَدْ

سيِّدُ السَّادات مولانا جمال ... منه يحيى الطِّين والصَّخرُ المقال

ورئيسُ التُّرك منْ يُدْعى حليما ... كانَ في فكرٍ وفي جاهٍ عظيما

مَعَ هذين الصَّلاةُ طاعةٌ

وجزاءُ منْ يُصلّي جَنَّةٌ

سورةُ النَّجم تلاها شيخُنا ... غَمَرَ الصَّحراء صَمْتٌ هاهنا

ويثيرُ اللَّحنُ وَجْداً في الخليل ... وكذا في عمقِ رُوْحِ جِبْرئيل

ويذودُ الصَّبْرُ عن قلبٍ صَبُور ... يرفعُ « إلا الله » منْ كلِّ القبور

يَهَبُ النَّار دخانَ الزَّفْرَة ... وَلداودَ ضِرَامُ السَّكْرَةِ

وبذا اللَّحنِ الظُّهورُ للغياب ... وارتفاعُ السِّتْرِ عنْ أمِّ الكتاب

والصَّلاةُ بَعْدَ أنْ تَمَّتْ نَهضْتُ ... ويَدَيْهِ في خشوعٍ قَدْ لَثَمْتُ

قال « هذي ذرةٌ تَطْوي الفَلَكْ ... عالَمٌ مِنْ حُرْقَةٍ فيها اعْتَرَكْ[1]

ذاتُها منها تَلَقَّتْ نظرةً ... لمْ تَهَبْ قلباً وكانَتْ حُرةً

وحثيثٌ في الوجودِ سيرُها ... زنده رودٍ إنَّني سمَّيتُها[2]

* * *

= المتصوِّفة ، ويعدُّ أولَ المتكلمين في التوحيد ببغداد ، وكانت وفاته عام ٢٩٧هـ .

(١) اعترك : اختلج واضطرب .

(٢) زنده رود في الفارسية بمعنى النَّهر الحي ، وهو اسمُ نهرٍ عظيم يجري بمدينة أصفهان في إيران . ولكن الشاعر آخذ عن الشاعر الألماني كوته في منظومةٍ له بعنوان « نشيد محمد » وقد عرفها إقبال وترجمها ، وفيه يشبِّه الشاعر الألماني روح النُّبوَّة بالنَّهر المتدفق المزبد ، كما قال المستشرق الإيطالي باوزاني .

الأفغانيُّ

زنـده رود ، تِلْـكَ دنيـانـا تكلَّـمْ أرضَنا صِفْ أو سمانا أنْتَ أعْلَمْ
يـــا تُـــرابيَّـــاً سمـــاويَّ البَصَـــر أمَّـــةُ الإسـلامِ عنهـــا مـــا الخبـــر ؟

زنده رود

أمـــةٌ قـــدْ دوَّخَـــتْ كـــلَّ الأمـــم فيهـا فكـرُ الـدِّيـن والأوطـانِ عـمْ
وتمـوتُ الـرُّوح مِـنْ ضَعْـفِ اليَقيـنْ بـأسُهـا مـنْ قـوَّةِ الـدِّيـن المبيـن
الفِـــرَنْـــجُ المسلميـــنَ أسْكَـــرُوا وبِشَـــصٍّ فـــي الحُلـــوق جـرَّروا[1]
منْ نُفُوذِ الغَرْبِ في الشَّرق الخراب والشُّيـوعُ لانحطـاط الـدِّيـن بـاب

* * *

الأفغانيُّ

الدِّين والوطن

مَكْـرٌ لـوردِ الغَـرْبِ كـمْ أعيا الفطَـنْ فطَـنَ القـومَ بمعنـىً لِلْـوَطَـن[2]
مــركــزاً يبغـي وأنـت فـي النِّفـاق انسَ حتَّى الشَّام ، دَعْ أمْرَ العراق
أنـــتَ إنْ أدرَكْـــتَ مـــا خيـــرٌ وشـــرْ فَلْتَفُـكَّ عنـك قيـداً مـن حجـر[3]
مـا هـو الـدِّيـن ؟ القيـامُ مـن ثـرى ذاتـه القلـبُ الطَّهُـورُ كـي يـرى
« الله هُـو » مـنْ قـالهـا قـولاً يجـود لم تَعُدْ تحويهِ هاتيْكَ الحدُودْ[4]

---

(١) الشصُّ : حديدةٌ معقوفةٌ يُصاد بها السَّمكُ حين يتعلَّق من فمه . يقول إقبال : إنَّ الأوربيين خدعوا العرب ، والفرس ، والترك ، وجذبوهم إليهم كما يجذبُ الصيَّادُ السمك .

(٢) فطن : فهم .

(٣) يريد بالحجر المنازل التي تتألف منها المدن .

(٤) يجود : يحسن .

قشَّةٌ في الأرضِ قامت من تُراب ويلُ روحٍ في التُّراب من تَبَابْ[1]
يُخلَقُ الإنسانُ مِنْ ماءٍ وطِين لونُهُ كالوَرْدِ من ماءٍ مَعِين[2]
بئسَ للإنسانِ في الطِّينِ الدَّوام إنْ بِهِ لمْ يَعْلُ ذيَّاكَ المَقَامْ
يا حكيمُ ، الرُّوحُ تسمو عن جهاتْ ضاقَ حرٌّ بقيودٍ مُثْقَلات

من ظلامِ الأرض حرٌّ قد يَثُورْ
ما كفأرٍ فَعَلَتْ تِلْكَ الصُّقُورْ !

قَبْضَةُ الطِّينِ تسمِّيها الوطن دَغلك مِنْ مِصْرَ وفُرسٍ واليَمنْ[3]
بينَ أوطانٍ وقومٍ نسبةٌ إنَّهم في الأرض منها نَبْتَةٌ
أنتَ إنْ أمعَنْتَ في هذا النَّظَرْ دقةً أدرَكتَ دَقَّتْ كالشَّعَرْ
فَمِنَ الشَّرْقِ ذُكَاءٌ تَطْلُعُ باجتراءٍ وَتَجلُّ تَسْطَع[4]
في عذابٍ واصبٍ منْ نارِ قَلْبِ عِنْدَ فَكِّ القَيْدِ مِنْ شَرْقٍ وَغَرْبِ[5]
بالتَّجَلِّي أسكرَتْ في شَرْقِها أفقاً ما أفْلَتتْ منْ غَزْوِها

مِنْهُما قد قطَّعت أصلَ السَّبَبْ
إنَّها للشَّرق لَكِنْ في النَّسَبْ[6] !

* * *

الشُّيوعيَّة والرأسماليَّة

صاحبُ « المالِ » سليلٌ لِلْخَلِيلْ وبلا جِبْريلَ أضحى كالرَّسول[7]

---

(١) التباب : الهلاك والخراب .
(٢) المعين : الجاري .
(٣) الفرس هنا بمعنى بلاد الفرس .
(٤) ذُكاء : الشمس .
(٥) الواصبُ : الدائم .
(٦) يقول : إنَّ الشمس قطعت كلَّ صلةٍ بينها وبين المشرق والمغرب .
(٧) يريد كارل ماركس صاحب كتاب رأس المال .

مبطلٌ ، في الزَّيغِ حقّاً يُضمرُ　　مؤمنُ القَلْبِ بعقلٍ كافِرُ

إنَّ أهلَ الغربِ أفلاكاً أضاعوا　　طلبوا الرُّوح ببطنٍ حينَ جاعوا !

ما استمدَّ الروحُ حسناً من جَسَدْ　　وعلى الجِسْمِ الشُّيوعيُّ اعْتَمَدْ

قولُه في كُفْرِهِ هذا المُبين　　ليس إلا في مساواة البُطون

في صميمِ القَلْبِ ذيَّاكَ الإخاءْ

ما احتوى أصلاً له طينٌ وماءْ[1]

الجسومُ بالثَّراءِ سُمِّنَتْ　　والصُّدورُ مِنْ قلوبٍ جُرِّدَتْ[2]

يا لَهُ الزُّنْبُورُ يرعى وردَهْ　　ثم يمضي ، نالَ مِنْهُ شَهْدَهْ

إنَّ غُصْنَ الوَرْدِ هذا حُسْنُهُ　　ولَهُ البُلْبُلُ هذا لَحْنُهُ[3]

عَنْ جمالٍ رَاقَ فَلْتَطْوِ النَّظَرْ　　اقْصِدِ المعنى وَدَعْ عَنْكَ الصُّوَرْ

أنْ ترى لِلْقَلْبِ موتاً يَصْعُبُ

أنْ تسمّي الطِّين وَرْداً يَكْرُبُ[4]

يَمْلِكَانِ الرُّوحَ نِدَّ صَبْرُها　　تَخْدَعُ النَّاسَ ويَبْدُو كُفْرُها[5]

لهما العيشُ الخروجُ والخَرَاجْ　　حَجَران ، والورىٰ هذا الزُّجَاجْ[6]

هذه ديناً وعلماً حَطَّمَتْ　　تِلْكَ روحاً ورغيفاً حَرَّمَتْ

لهما في الماءِ والطِّينِ الغَرَقْ　　أظْلَمَ القَلْبُ وذو الجِسْمِ ائْتَلَقْ

والحياةُ الاحتراقُ والعَمَلْ

---

(١) يقول : إنَّ الإخاء في الروح لا في الجسد .

(٢) يراد بالثراء الرأسمالية .

(٣) درج شعراء الفرس على قولهم : إنَّ البلبل يَعْشَقُ الوردة ، ويغني لها ، وهم يشبهون بالبلبل عاشق الذّات الإلهية .

(٤) كل في الفارسية بفتح الأول بمعنى الوردة وبكسره بمعنى الطين ، ولبلغاء الفرس ولوع بذكر هذين الاسمين على أنهما رمز للنقيضين . ويكرب : يثير الحزن .

(٥) يتحدَّث الشاعر عن الشُّيوعية والرأسمالية . ونَدَّ : بعد .

(٦) يريد بالخروج والخراج : الإنتاج ودفع الضريبة .

والسُّـوَيْـداءُ لِتُلْقَـىٰ فـي الـوَحَـلْ[1]

* * *

سعيد حليم باشا[2]

الشَّرقُ والغربُ

إنَّ في الغَرْبِ الذَّكا أصلُ الحياة ... والهوى في الشَّرْقِ سرُّ الكائنات

وبعشـقٍ يَعْـرفُ اللهَ الـذَّكـاء ... ولعشـقٍ بـالـذَّكـاء ذا العَـلاء

وإذا العِشْـقُ الـذَّكـاءَ صـادقـاً ... عـالـمـاً آخَـرَ قَطْعَـاً حقَّقـا

انْهَضَـنَّ العـالَـم الثـانـي اصْنَعَـنْ ... بـالـذَّكـاءِ ذلـكَ العِشْـقَ امْـزُجَـنْ

لِلفِـرَنْـجِ شعلـةٌ قَـدْ بُلِّلَـتْ ... قَلْبُهـم مـاتَ وعيـنٌ فُتِّحـتْ

جُـرِّحـوا لكـنْ بحـدِّ سَيْفِهِـمْ ... يـا لَهُمْ صَرْعَىٰ كَمِثْلِ صَيْدِهِم[3]

نشـوةً مـنْ كـرْمِهِـمْ لا تَطْلُبَـنْ ... جِـدَّةً مـنْ عَصْـرِهِـمْ لا تَـأْمُلَـنْ[4]

للحيـاةِ النَّـارُ فلتُشْعَـلْ بنـارِكْ

اصْنَـعِ العـالَـمَ وارْفَـعْ مِـنْ مَنَـارِكْ

و « كمـالُ » حِيْـنَ نـادىٰ بـالجـديـدْ ... قـالَ : إنَّ المَحْـوَ لِلْعَهْـدِ العهيـدْ[5]

لَيْـسَ لِلْكَعْبَـةِ تَجْـديـدُ الحيـاة ... إنْ أتـى الكعبـةَ غـربـيٌّ بِـلاتْ !

مـا تَغَنَّـى التُّـركُ مـا قـالـوا نشيـدا ... بـلْ قـديـمُ الغَـرْبِ سَمَّـوْهُ الجديـدا

---

(١) السُّويداءُ : حبَّة القلب .

(٢) هو سعيدُ حليمُ باشا الصَّدر الأعظم الذي قتل عام ١٩٢١ في روما . ولقد فَرَضَ إجلاله حتى على خصومه لِسَدادِ رأيه ، ورجاحة عقله . والجامعُ بينه وبين الأفغاني أنَّ كلاً منهما صاحب نزعةٍ إسلاميَّةٍ إصلاحيَّة .

(٣) الصَّيد : ما يصاد .

(٤) الكرم : شجر العنب .

(٥) كمال هو مصطفى كمال أو كمال أتاتورك رائد تركية الحديثة . والعهيد : القديم .

نَفَسٌ آخرُ فيهم ما خَفَقْ   عالمٌ في القلب منهُمْ ما انبَثَقْ
وافقوا العالمَ هذا لا جَرَمْ   فيه ذابوا شمعةً تَحتَ الضَّرَمْ[1]
في الصَّميمِ طُرفةٌ للكائنات   لمْ تكنْ تقييد تقويم الحياة[2]
إنَّ حيَّ القلبِ خلَّاق الدُّهور   ومنَ التقليد كانَ ذا النُّفور
مسلماً إنْ كُنتَ ذا عقلٍ منير   في الكتابِ انظرْ وفي هذا الضَّمير[3]
كمْ دُنى تَظهرُ فيه منْ سُتُوز   والعصورُ مَرُّها تلوَ العُصور
إنَّ دنيا مِنْهُ تكفي عَصْرَنا   إنْ عَقَلْتَ أنتَ فاجْعلها لنا
يؤمنُ الإنسانُ من آيات ربِّه   كلُّ دُنيا يَرْتديها مِثْلُ ثوبه
وإذا دنياهُ رثَّتْ ثوبها   قدَّم القرآنُ دنيا غَيْرَها[4]

***

زنده رود

زورقٌ نَحْنُ بلا هدي جرىٰ
عالمُ القرآنِ أينَ ؟ من درىٰ

الأفغانيُّ

عالمٌ في صدرنا هذا اختفى   في انتظارِ « قُمْ » لإنسانٍ غفا
ليسَ فيه أيُّ لونٍ أو دِماء   ما لغربِ ما لَدَيْهِ منْ بَهاء

---

(١) الضَّرم : الحطب المشتعل والمراد به هنا النار .
(٢) الطُّرفة : الشيء العجيبُ النادر .
(٣) الكتاب : القرآن .
(٤) رثَّ الرجل ثوبه : جعله رثاً أي غير صالح .

ليس فيه مِنْ ملوكٍ أو عبيد — مثلُ قلبٍ في خلوٍّ منْ حُدُود[1]
عالمُ الحُسْنِ ، ومنْ فَيْضِ النَّظر — بذرُه ألقي بقلبٍ منْ عُمَرْ[2]
سرمديٌّ فيه أحداثٌ تَدُومْ — محكماتٌ فيه تهدي منْ يَرُومْ[3]
لا يهابُ باطنٌ فيه التَّغيُّرْ — ولهُ الظَّاهرُ دوماً في التطوُّرْ

بينَ جنبيكَ ، عليكَ بالنَّظر
محكماتٌ ، ألقِ سمعاً للخبر[4]

***

مُحْكماتُ العالَمِ القُرآنيِّ
خلافةُ الإنسان

أثرُ العِشْقِ بدا في العالَمِيْن — ويرى في المرءِ منَّا رأيَ عَيْن
ليسَ سرُّ العِشْقِ من دنيا الرَّحم — ما إلى سامٍ وحامٍ يَحْتكِمْ[5]
كوكبٌ ، ما منْ شروقٍ أو غروبْ — لا ولا يَدْري شمالًا مِنْ جَنُوب
قول ﴿ إني جاعل ﴾ تقديرُه — بَيْنَ أرضٍ وسما تفسيرُه[6]

---

(١) يشبه هذا العالم بقلب المؤمن الذي يخلو من الحدود .

(٢) يذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أسلم بعد أن ألقى نظرة على آية قرآنية ، وهو يهمُّ بقتل أخته التي كانت قد أسلمت سراً .

(٣) السَّرمديُّ : الدائم الخالد . والمحكمات : الآيات التي أحكمت فلا تمس حاجة سامعها إلى تأويلها لبيانها كقصص الأنبياء . ويقابلها المتشابهات .

(٤) أي أن هذا العالم في داخلك وبين جنبيك . فانظر في نفسك واستمع إلى الآيات المحكمات .

(٥) الرَّحم : القرابة . وسام أحد أبناء نوح ؛ وينسب إليه الجنس السَّامي ، وكذلك حام وهو أبو السُّودان .

(٦) قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا =

الحياةُ مِنْهُ كانتْ والرَّدى نورَ دُنيانا وناراً أَوْجَدا

الإمامُ والصَّلاةُ والحَرَمْ والمِدادُ والكِتابُ والقَلَمْ

غيبُهُ يُمسي رُويداً ذا الحضوز مُلْكُهُ ما فيهِ حَدٌّ أو تُغُوز

منهُ كانَ اعْتبارُ الكائنات واعتدالٌ فيهِ قاسَ المُمْكِنات

يا لَه بحراً بلا شطٍّ يفور قلبُه قد أُغرقتْ فيه الدُّهور

إنَّما الإنسانُ دُنيا قدْ وَسِعْ هذه الدُّنيا لَهُ لمْ تَتَّسِعْ

وتجلَّى فإذا نورُ السَّماء واختلىٰ يوماً فجبرائيلُ نائي[1]

وعنِ الأفلاكِ أعلى قَدْرَهُ

والحميدُ مَنْ تغنَّى شُكْرَهُ

ما الحياةُ يا بصيرٌ هل فَهِمْتَا أنْ تُرى اثنينِ ، وَفَرْدٌ مَنْ عَشِقْتَا

يَرْبِطُ الجنسينِ موصولُ الصِّلات يَرْسُمانِ شوقَ تِلْكَ الكائنات[2]

تُشْعِلُ المرأةُ نيرانَ الحياة طبعُها لوحٌ لأسرارِ الحياة[3]

أَضْرَمَتْ في الرُّوح منها نارَنا جوهرٌ فيها أتمَّ خَلْقَنا

ممكناتُ العَيْشِ مِنْهَا في الضَّمير وثباتُ العيشِ في وَهْجِ الشُّعور[4]

إنْ يَغِبْ عن هذه النَّارِ الشَّرَرْ لمْ يَلُحْ جسمٌ وروحٌ للنَّظَرْ

ما لنا منْ قيمةٍ ، منها لنا رَسَمَتْنَا وأجادتْ رَسْمَنا

إنْ حباكَ اللهُ عقلاً لِلتَّفَكُّرْ

طهِّرِ النَّفْسَ بتقديسٍ لها انْظُرْ

أفسدَ الإيمانُ فيكَ عَصْرَنا يَكْشِفُ السِّرَّ الخفيَّ قولُنا

= تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] ومعنى استخلاف الله آدم في الأرض أنه سيكون له سلطانٌ عليها ، وسيتصرَّف في موادها ليجعلها ملائمةً لحاجاته .

(١) يقول : إنَّ جبريل لم يقتحم عليه عزلته .

(٢) الجنسان : المراد بهما الرجل والمرأة .

(٣) اللوح : ما يكتبُ فيه .

(٤) الوهج : اشتعال النار .

فـي الجسـومِ الخلـقُ نـارٌ تَتَّقِـدْ أيُّ فـردٍ حـولَها لـمْ يَسْتَفِـدْ ؟

مـنْ يَنَـلْ مـنْ هـذهِ النَّـارِ النَّصيبـا يَجْعَلِ النَّفسَ على الفِعْلِ الرَّقيبا

إنَّـه ذو الـرأيِ فيمـا قـدْ عَمِـلْ لا يـرى الغَيْـرَ وَلٰكـنْ يَعْتمِـلْ[١]

مُـدَّةً فـي الغـارَ ظَـلَّ المصطفـى غَيْـرَ آثـارِ لـذاتٍ مـا اقتفـى

رَسْمَنـا قـد أغـرقـوا فـي مُهْجَتِـه وأقـامـوا أمـةً مـنْ خَلْـوَتِـه

وعلـى إنكـار ربٍّ إنْ قَـدَرْنـا كـلُّ فضـلِ المُصْطفى حتماً عَرَفْنَا

لـو أنـارتْ فيـك روحٌ كـالكليـم لَشَقِيـتَ أنـتَ بـالفِكْـرِ العَقِيـم

فـالخيـالُ فيـك تحيـي عـزلـةٌ

ثـم تـأتـي بعـد بحـثٍ ضـالَّـةٌ[٢]

مـن مقـامـاتٍ لنـا علـمٌ وَشَـوْق لهمـا فيمـا جـرى لِلْقَـوْمِ حَـقّ

بهجـةٌ لِلْعِلْـمِ تحقيـقٌ دقيـق متعـةٌ لِلْعِشْـقِ خَلْـقٌ قـدْ يَليـقْ

صـاحـبُ التَّحقيـقِ رامَ المُنْجلـي صـاحـبُ الخَلْـقِ بـذاتٍ يَخْتلـي

عيـنُ مـوسـى رؤيـةَ الـدُّنيـا أرادتْ وإليهـا رغبـةَ التَّحقيـقِ سَـاقَـتْ

﴿ لن تراني ﴾ إنَّها المعنى الدَّقيق وَلْتَضِـعْ فيـهِ فـذا البحـرُ العَمِيـقْ[٣]

إنْ تَلُـحْ للعيـنِ آثـارُ الحيـاة تستمـدُّ النبـعَ جـوفَ الكـائنـات

هـذه الآفـاقُ بـالعيـنِ ازمُقَـنْ وتجلِّـي ربِّهـا لا تَطْلُبَـنْ

---

(١) اعْتَمَلَ : عَمِلَ عملاً يتعلّق به دون سواه . والمبتكر : المجدِّد لا يقلِّد غيره .

(٢) الضَّالة : الناقة الضائعة التي لا يعرف لها صاحب . والمراد هنا ما يراد معرفته .

(٣) الشاعر يريد قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وقد تضاربت أقوال المفسرين في معنى تلك الآية الكريمة . وفي شعرٍ لجلال الدين الرُّومي : أنَّ الله خالقُ الوجود من العدم ، والرؤية لا تكون إلا لما ظهر وخلق .

خلــوةٌ تحفــظُ كــلَّ مَــنْ صَنَــعْ
جــوهــراً فــي خــاتــمٍ كــانــت لَمَــعْ[1]

***

الحكمُ الإلهيُّ

إنَّ عبــدَ اللهِ لا يبغــي المقــامــا	مــا لــه عبــدٌ ولا كــانَ الغُــلامــا
إنَّــــه حــــرٌّ وذو نَفْــــسٍ زكيَّــــة	مُلْكُه هــذا مــن المــولــى عَطِيَّة[2]
دينُــه والعُــرْفُ مــنْ ربٍّ كــريــم	حُلْــوُهُ والمــرُّ مــنْ ربٍّ عظيــم
جــازَ عقــلٌ فــي الغــرورِ حــدَّهُ	ولــه النَّفْــعُ تمنَّــى وَحْــدَهُ[3]
خيرُ كلِّ النَّاسِ يبغي وحيَ ربِّي	ويــرى الخَيْــرَ نــداءً كــي يُلَبِّــي
ويكــونُ السِّلْــمُ أو حتَّــى المَصَــافْ	لا يــراعــي منصفٌ بل لا يَخَافْ[4]
وإذا الإنســـانُ أضحـــىٰ آمـــرا	كــانَ لِلْمِسْكيْــنِ حتمــاً قــاهِــرا

ومــنَ القَهْــرِ صُــدُوْرُ أيِّ أمْــر
ولغيــرِ اللهِ أمْــرٌ مَحْــضُ كُفْــر

آمِــرٌ بــالأمــرِ زكَّــى عَقْلَــهُ	مــنْ قــوانيــن بنــى حصنــاً لــه
إنَّ صقــراً فــي ذُرىٰ جــوٍّ يَطيْــرِ	صعــوةً فــي أمْــرِهِ قــدْ يَسْتَشيْــرْ[5]
قهــره القــانــون ، مفقــودُ البَصِيْــرَة	يضعُ الإثمدَ في العَيْنِ الضَّريرة[6]

---

(١) يقول : إنَّ الخلوة تحمي كلَّ من أوجد شيئاً ، وهي فصٌّ من الجوهر لخاتمه .

(٢) الزكية : الطاهرة .

(٣) جاز : تجاوز .

(٤) المصاف : الموقف في القتال .

(٥) الذُّرى : جمع ذروة وهي أعلى الشيء . والصَّعوة : أنثى الصَّع وهو عصفور صغير .

(٦) الإثمد : الكحل .

صاحبُ الأرضِ البدين ، كان شِرْعَه
والنَّحيلُ زارعٌ ما اقتاتَ زَرْعَه[1]

بئسَ ما في الغربِ حقّاً حُكْمُهُمْ ... ويزيدُ الميتَ موتاً صُوْرُهم[2]
يسحرونَ ، خَدْعُ دَهْرٍ خَدْعُهُمْ ... من شعوبِ الأرضِ كان نَرْدُهُمْ[3]
يَسْرِقُون ، ذا ثريٌّ ذاكَ كادِح ... بالعداءِ بعضُهم للبعضِ كاشِحْ[4]
يَكْشِفُ السرَّ جليّاً قولُنا ... سلعةٌ نحنُ وَهُمْ تُجّارُنا
جَفْنُهُمْ في المالِ حُبّاً قد جَمَدْ ... كلُّ أمٍّ آدها ثِقْلُ الوَلَدْ[5]
ويلهمْ ! خوفاً على حُلْوِ الثَّمَرْ ... يُخْرِجُون الماءَ منْ جِذْعِ الشَّجرْ !
ولِكَيْلا يبعثُ العُودُ الرَّنينا ... في البطونِ قَتَلُوا حتّى الجنينا
عِنْدَهُمْ منْ كلِّ فنٍّ كثرةٌ ... كلُّ ما حصَّلْتَ منهم عَبْرَةٌ

يا أسيراً كانَ مِنْ تقليدِهم
الكتابَ اقرأ ، وَعُدْ منْ أسْرِهم[6]

***

الأرضُ ملكٌ للهِ

إنَّما الإنسانُ في شرقٍ وَغَرْب ... لامتلاكِ الأرضِ في حربٍ وَضَرْب
كعروسٍ ولها كُنّا الرِّجالا ... سَحَرَتْنا ، قطُّ ما نلنا الوِصالا

---

(١) البدين : السّمين . والشِّرْعَةُ : الشريعة . واقتات الشيء : اتخذه قوتاً .
(٢) الصُّور : ما ينفخ فيه إسرافيل يوم القيامة ليبعث من في القبور .
(٣) النرد : شيءٌ معروفٌ يلعب به مع تحريك قطعٍ من العاج على لوحٍ من الخشب .
(٤) كشح له بالعداوة : أضمرها له .
(٥) جمدت العين : قلّ دمعها ، أو انقطع . وآده الحمل : أثقله .
(٦) الكتاب : القرآن الكريم .

ضمَّنَتْ كلَّ خداعٍ دَلَّها ... في هواها إنّنا لسنا لها[1]

أيُّ شيءٍ رُمْتَ منْ ذاكَ الحَجَرْ ... إنَّه الباقي وَأَنْتَ في سَفَرْ[2]

وعنِ اليقظانِ منْ نَامَ افترقْ ... ومعَ السَّيَّار ضدٌّ ما اتفق[3]

هذه الأرضُ منحناها مَتَاعَا ... منْ شَرَاها منحةً يوماً وباعا[4]

مالكَ الأرضِ إليكَ القولُ عَنْها ... اتَّخذْ رِزْقاً وقبراً ثُمَّ دَعْهَا[5]

وإلامَ لَيْتَ شِعْرِي تبْقَيان ... قَدْ تَظَلُّ وَتَغِيْبُ عَنْ عِيَان[6]

طُفْ بأفلاكِ السَّماءِ كالعُقَاب ... كنْ طهوراً واجْتَنِبْ رِجْسَ التُّراب[7]

إنَّما الأرضُ لربِّي ، ذاكَ ظاهر

كلُّ من أنْكَرَ هذا فَهوَ كافر

لم أقلْ دَعْ عنكَ هاتيك الدِّيارا ... عالماً تملك منْ حسنٍ أنارا

ارفعنْ عنْ جوهرِ الأرضِ التُّرابا ... الْتَقِطْ حَبَّ النُّجومِ طِرْ عُقابا

في الجبال اضْرِبْ بفأسٍ صَخْرَها ... وبنورٍ منك أوْقِدْ نارها

وطريقُ آزرَ فلتجتنبها ... وكما تهوى لك الدُّنيا أقِمْها[8]

بالجمالِ لا تَصِلْ قلباً سَقِيما ... أعْطِها قلباً لها كانَ الحَريما[9]

---

(١) الدَّل : الدلال . ويقول : إنها لا تقبل عشاقها .

(٢) الحجر هنا رمز إلى الدار والوطن . والإنسان سوف يرحل عن دنياه وما البقاء إلا لوطنه وداره من بعده .

(٣) السَّيار هو الكوكب السيار ، وضدُّه الكوكب الثابت .

(٤) شرى الشيء : اشتراه . والمنحة لا تباع ولا تشترى .

(٥) يقول : حسبك أن تجني من الأرض رزقك ، وتحفرُ فيها قبرك .

(٦) ليت شعري : ليتني أشعر أي ليتني أعلم .

(٧) العقاب : من جوارح الطير . والرِّجس : القذر .

(٨) آزر : هو أبو إبراهيم عليه السلام . وجاء في سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٧٤] .

(٩) الحريم : كل موضع تلزم حمايته . يقول : إنَّ القلب يحيطُ بتلك الأرض وتلزمُ حمايتها وحمايته .

أنمـوتُ ؟ مـا لنـا مـالٌ وقَبْـرُ   أنضيـعُ ؟ ولنـا أهـلٌ وَوَفْـرُ[1]

« لا إلـه » ولهـا القلـبُ اتَّسَـغ   عـالمـاً فـي الـذَّاتِ إنسـانٌ جَمَـعْ

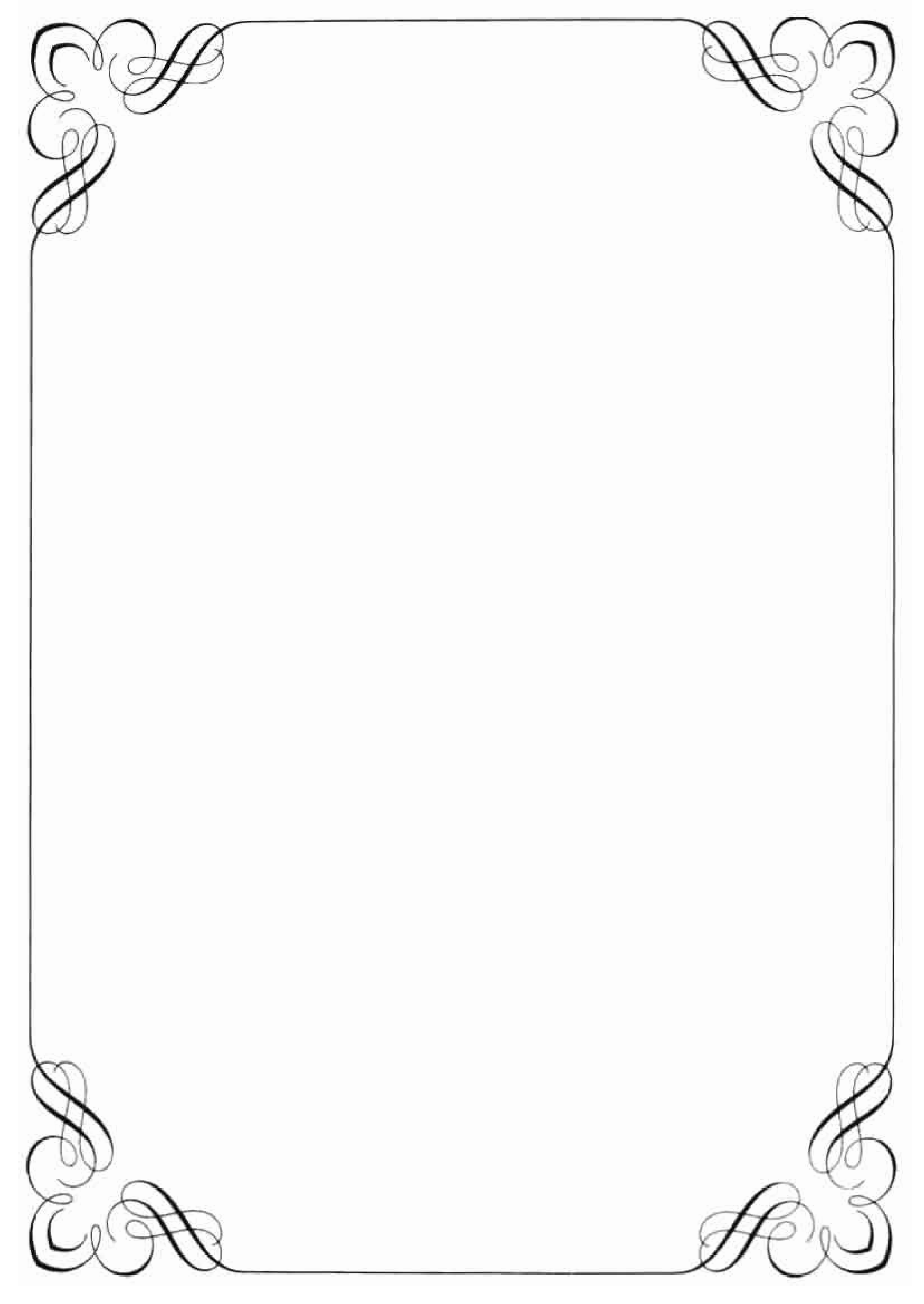
كيـفَ فَقْـرُ الجـوعِ أو فَقْـرُ العُـراة

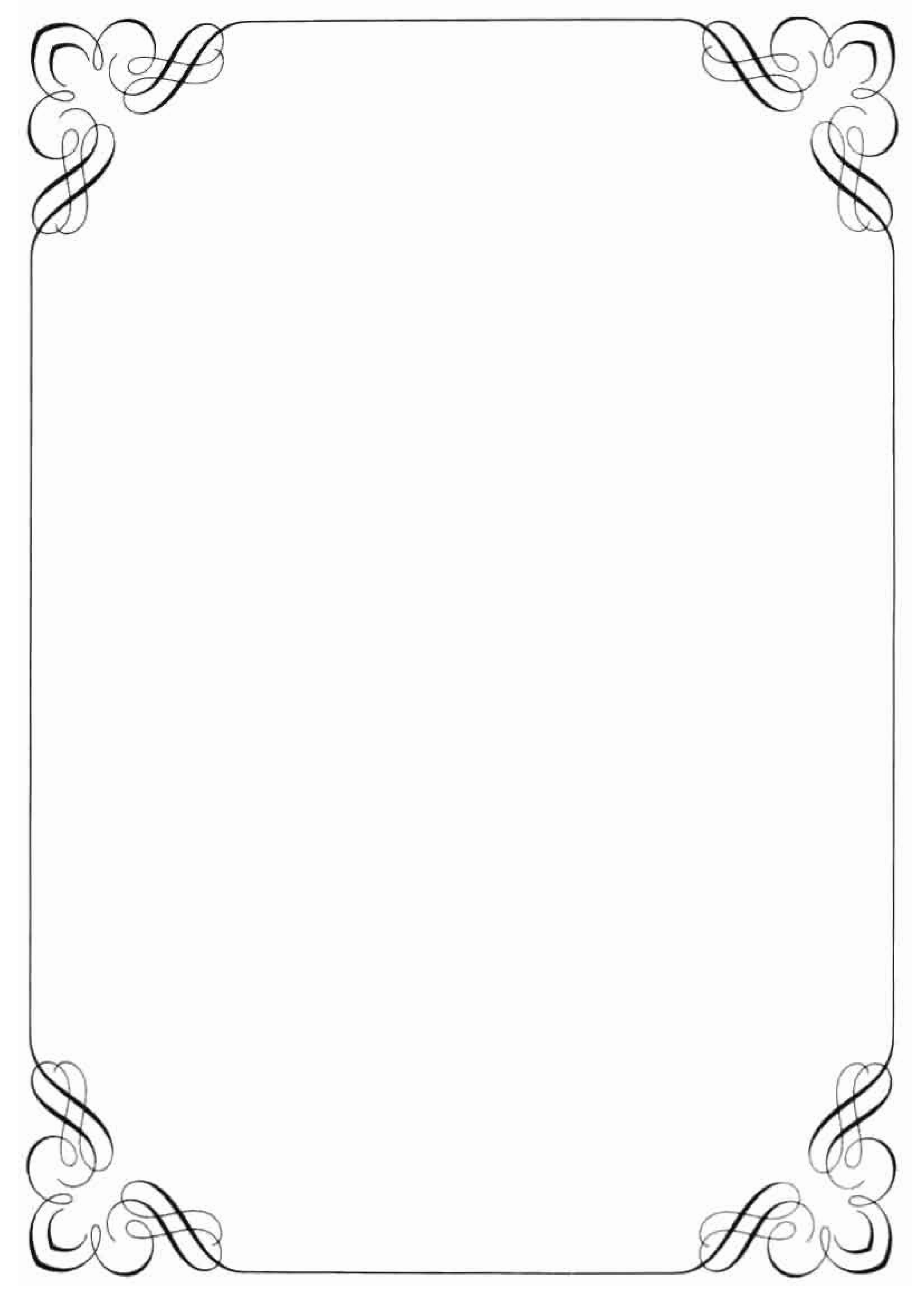
حُكْـمُ سلطـانٍ ، فَـدَعْ ذِكْـرَ العُفَـاة[2] !

* * *

(١) الوفر : الكثير من المال .

(٢) يقول : إنَّ الفقر هو حكمُ الحاكم . والعُفاةُ : السائلون والفقراء . والمراد بهم هنا الزُّهَّادُ .





الحكمةُ خَيْرٌ كثير

قــالَ ربِّــي إنَّهــا الخَيْــرُ الكَثِيــرْ إنْ تَجِــدْهُ فــاغْتَنِمْــهُ يــا بَصِيــرْ[1]

ولحــرفٍ وَهَــبَ العِلْــمُ الجنــاحــا للخَسِيْسِ رونَـقَ الغـالـي أتـاحـا[2]

وإلــى الأفــلاكِ عِلْــمٌ قَــدْ طَلَــغْ نظْـرةً مِــنْ مُقْلَـةِ الشَّمْـسِ اقْتَلَـغْ

للــوُجُــودِ ، مــا يــرى تَفْسِيْــرَهُ والمَصِيْــرُ للــوَرَىٰ تَقْــدِيْــرُهُ[3]

للصَّحـارى قـال جـودي بـالحَبَابْ للْبِحـارِ قـال مُـوْجـي بـالسَّرَابْ[4]

عينُـه دومـاً علـى مـا قَـدْ جَـرَىٰ أصـلَ تِلْـكَ الكـائنـاتِ كـي يَـرَىٰ

كَتَبِــيٌّ ، ربَّــه إمَّــا ذكــر وبقطـعِ الفِكْـرِ عـنْ ربٌّ كَفَـرْ[5]

وَبِغَيْــرِ القَلْــبِ عِلْــمٌ كــانَ شَــرًّا نــورُه الظَّلمــاءُ بحــرٌ ضــلَّ بَــرًّا

مِــنْ دخــانٍ عــالـمٌ أضحـى كَفِيْفـا والرَّبيعُ فيه قَدْ أمسى الخَرِيفا[6]

الفَيــافـي والــرِّيــاضُ النَّــاضِــرَاتْ والجبــال هَــدَّمَتْهــا الطَّــائــرات

صَـدْرُ أهـلِ الغـربِ يُضْنِيْـهِ اللُّهَـابْ لـذةً للسَّطْـوِ والغَـزْوِ اسْتَطَـابُـوا[7]

نَكَّسُــوا الأوضــاعَ فــي أيــامِنَــا نَهَبُــوا الأمــوالَ مِــنْ أقــوامِنــا

---

(١) قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

(٢) أتاح : هيَّأ .

(٣) أي أنّ ما يراه العلم ، ويحكم به ، هو وحده ما يفسّر الوجود .

(٤) الحَبَابُ : النفاخات على سطح الماء . والسَّراب : ما يشاهد نصف النهار كأنه ماء .

(٥) إمَّا : تتألف من إن الشرطية وما الزائدة .

(٦) الكفيف : الأعمىٰ . أي أنّ المتصاعد من الدخان والغاز يعمي العيون .

(٧) اللهاب : مصدر من لهبت النار أي اشتعلت .

واستمدُّوا بَطْشَ إبليسَ الرَّجيمْ تُضبِح الأنوارُ ناراً بالجَحِيمْ[1]

قَتْلُهُ ما زالَ كالأمرِ الصَّعُوب إنَّه قد ضاعَ في عُمْقِ القُلُوب[2]

كان أولى مؤمناً أنْ تَجْعَلَهُ وبسيفِ لِلْكتابِ تَقْتُلُه[3]

ما جلالٌ لَيْسَ فيهِ منْ جَمَالْ ! أيُّ هجرٍ ذاكَ يخلو مِنْ وِصَالْ !

عِلْمُنا بالعِشْقِ عِلْمُ المؤمنينا وبِغَيْرِ العِشْقِ عِلْمُ الكافِرِينا

جنةٌ عِلْمٌ لنا ما لَمْ نُحبْ ولنا العَقْلُ كَسَهمٍ لمْ يُصِبْ

هبْ عُيُونَ العُمْيِ نوراً تَشْهَدُهْ

واهدِ للإيمانِ منْ تَبَّتْ يَدُهْ[4]

زنده رود

محكماتٌ لي أبنتَ في الكتابْ عالمٌ ما زالَ يطوي في الحِجاب[5]

النِّقَابُ عن جبينٍ ما رَفَعْ ولماذا منْ فُؤادٍ ما طَلَعْ

وَلَدَيْنا عالمٌ فيهِ الدَّبيبْ للبلى ، والنَّوم فيه لِلشُّعوبْ

في التَّتارِ خَمَدتْ نارُ الغِلابْ ألِمَنْ أسْلَمَ موتٌ والكِتَاب[6]

سعيد حليم باشا

إنَّ دينَ الحقِّ كالكُفرِ الصُّراح إنْ تردَّى الشَّيْخُ في الكُفْرِ المباح ![7]

---

(١) يقول إنهم عززوا قوتهم بقوة إبليس . ومعاشرة أهل الجحيم تجعل النور ناراً .

(٢) الصَّعوب : الصَّعب . ويصعب قتل إبليس لأنه اختفى في القلب .

(٣) الكتاب : القرآن .

(٤) يقول : هب عيون العميان بصراً لرؤية الله بقلوبهم : ومنْ تَبَّتْ يداه هو أبو لهب . قال تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : ١] .

(٥) الكتاب : القرآن .

(٦) غالبه غلاباً بمعنى قاهره .

(٧) الصُّراح : الخالص . وتردَّى في الشيء : سقط .

طَلُّنَــا يَبْــدُو كبحــرٍ عنــدنــا　　وَيُـرىٰ فـي البحـرِ هـذا طَلُّنـا ![1]

مِـنْ أعـاجيـبِ لِمَـنْ بـاعَ الكِتـابـا　　كم تعالى صوتُ جِبْرِيلَ انتحابا

فــي السَّمـاء لَـمْ تَشُقّـهُ جـولـةٌ　　عِنْـدَهُ أمُّ الكِتــابِ قَــوْلــةٌ[2]

مـا نصيبـاً نـالَ مـنْ دِيْـنِ النَّبِيِّ　　فـي ظـلامٍ لِضَيـاعِ الكَـوْكَـبِ

وضـريـرُ القَلْـبِ يهـذي فـي النِّفاق　　تَغمـهُ الأمَّـةُ منْـهُ فـي الشِّقـاق[3]

مكتـبٌ ، شيـخٌ ، وأسـرارُ الكتـاب　　أكْمـهُ والشَّمْسُ كُمْها لا تحابي[4]

دِيـنُ مــنْ يَكْفُــرُ تـدبيـرَ الجهـاد

فــي سبيــلِ اللهِ شيــخٌ فــي الفَسَـادْ

« رَجُـلُ اللهِ لِـدُنيـا الـرُّوحِ كـانـا »　　قُلْ لمنْ في عزلةِ الرُّكْنِ استكانا !

أنْـتَ يـا مـنْ للحيـاةِ الفكـرُ مِنْكـا　　وثبـاتُ الشَّعْـبِ قـولٌ قِيْـلَ عَنْكـا

حفــظُ قَـوْلِ اللهِ كــان دَيْـدَنُــكْ　　نَشْرُهُ فـي النَّـاسِ كـانَ مَـذْهَبُكْ

ازفَــعِ الــرأسَ تَكَلَّــمْ يــا كَلِيْــم　　مِـنْ يَـدَيْـكَ يَصْـدُرُ الأمـرُ العَظِيْـم

عـن بيـاضِ الشَّعْـبِ حدَّثنا طويلا　　وَلْتَـذَكَّـرْ بـالفـلا ظبيـاً جميـلا[5]

أنْـــتَ حقّـاً مستنيــرٌ مــن مُحمَّــدْ

وَضْعُنا الحالي فصفه ، أينَ نُوجدْ !

مـــا استمـــدَّ رجـــلُ اللهِ البَشَـــرْ　　واستمـــدَّ مـــنْ إلـــهٍ قَـــدْ غَفَـــرْ

---

(١) الطَّلُّ : النَّدى .

(٢) أم الكتاب : اللوح المحفوظ . وكلُّ العلوم منسوبة إليه ومتولدة منه . يقول : إن هذا الشيخ لا يبحث فيما وراء الطبيعة ، ولا يعرف القرآن حقَّ المعرفة .

(٣) يهذي : يتكلم بغير معقول . ويعمه : يتردَّد في الضلال ، ويتحيَّر في طريقه ، وكلامُ هذا الشيخ يوقعُ الناس في الحيرة والخلاف .

(٤) الكمه : جمع أكمه وهو من ولد أعمى .

(٥) قال تعالى في سورة طه : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [طه : ٢٢] وبيضاء ؛ أي : مشعة . ومن غير سوء : من غير عاهة . والفلا : جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة .

كـلَّ يـومٍ سَعِـدَتْ روحٌ بِقُـرْبِـهْ　　كـلَّ يـومٍ كـانَ فـي شـأنٍ كَـرْبِـهْ

مـؤمنـاً أَوْقِـفْ علـى السرِّ الخفـيِّ　　« كلَّ يومٍ » مُدَّ بالشَّرحِ الجليِّ[1]

مـا لـركـبِ نـزلٌ إلا الحَـرَمْ　　فـي قلـوبٍ منهـمُ اللهُ الحَكَـمْ

وطـريقـاً آخـراً مـا إنْ ذَكَـرْت

نظـرةً أخـرى لهـمْ مـا إنْ عَـرَفْـت

* * *

الأفغانيُّ

مِنْ حديثِ المُصْطفىٰ نِلْتَ النصيبا ؟　　كانَ دينُ الحقِّ في الدُّنيا غَريبا[2]

إنَّـه قـولٌ مِـنَ الأقـوالِ بكـرْ　　مـا عنى بـالفقـر قـطُّ أهـلُ ذِكـرْ

عَنْـهُ مَشْغُـولٌ بِبَحْـثِ حُقْبَـةْ　　نـدرةُ الآيـاتِ كـانـتْ غُـرْبـةْ[3]

إنَّهـا فـي كـلِّ عَصْـرٍ تَخْتَلـفْ　　افْهَمـنَّ مـا أقـولُ يـا ثَقِـفْ[4]

امْنَـحِ القـرآنَ مـنْ فِكْـرٍ مـزيـدا　　وكما شِئْـتَ افْتَتِحْ عصـراً جَدِيـدا

عَـنْ كتـابِ اللهِ مَـنْ زاحَ السّتـارا　　فيه أَهْلُ الشَّرقِ والغَرْبِ الحَيارىٰ[5]

هـؤلاء الـرُّوسُ شيئـاً أبْـدَعـوا　　أَوْجَـدُوا الخُبْـزَ ودينـاً ضَيَّعُـوا

---

(١) جاء في سورة الرحمن : ﴿ يَسْئَلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ بمعنى يفتقر إليه كل من فيهن ويطلب منه الرزق والعون . وهو يغفر ذنباً ويشفي سقيماً ويسقم سليماً ويغفر غنياً ويغني فقيراً ويرفع قوماً ويضع آخرين .

(٢) التلميح إلى قوله ﷺ : (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ) أي : أن المؤمنين المُتَمسّكين بإيمانهم سوف يجدون أنفسهم في مقبل الأيام بين قومٍ غرباء ، كما كان شأنهم في أول أمرهم . وهذا يذكرنا بحديثٍ آخر ، وهو : (يأتي زمانٌ يكون فيه القابضُ على دينه كالقابضِ على الجمر) .

(٣) الحُقْبة : المدّة من الدّهر ، لا وقت لها .

(٤) الثَّقِفُ : الحاذق الفَطن .

(٥) زاح : أزاح .

بـاللِّسـانِ الحـقَّ قُـلْ وانظُـرْ بِعَيْـن

أبْلِغَــنَّ القَــوْمَ منِّــي لَفْظَتَيْــن

* * *

رسالةُ الأفغانيِّ إلى شَعْبِ رُوْسيا

إنَّ للقــرآنِ قَصْــداً آخــرا وَيرى في الشَّرْعِ هذا مَنْ يَرَىٰ

قَلْبُــهُ مــا فيــه نــارٌ تَسْتَعِــرْ صَـدْرُه فيـهِ النَّبـيُّ لـمْ يَسْتقـرْ

ثَمَــرَ القُــرْآن عَبْــدٌ مــا أكَــلْ في يَدِ كـأساً دِهاقاً ما حَمَلْ[1]

قيصــراً أفنــى وكِســرَى حطَّمــا واعتلـى عـرشـاً لـهُ كـي يَحْكُمـا

دوحــةُ السُّلطـانِ طَـالَـتْ واسْتَـوَتْ صـورةٌ للمُلْـكِ فـي الـدِّيـن انطوت

ومــنَ المُلْــكِ اختــلافُ النَّظْــرَةِ

واختــلافُ العُــرْفِ بــلْ والفِكْــرَةِ

أنــتَ أرْسَيْــتَ الأســاسَ المُخْتَلِـفْ ومـنَ المـاضـي قلـوبـاً تَقْتَطِـفْ

نحن في الماضي هَدَمْنَا الكِسْرَوِيَّةْ أنْــتَ قَــوَّضْــتَ بنـاءَ القَيْصَـرِيَّـه

كـي تُنِيـرَ اليَـوْمَ مصبـاحَ الضَّمِيـر عِبْـرَةٌ منَّـا اتَّخِـذْ عَبْـرَ العُصـوز

وَلْتُثَبِّـتْ قَـدَمَيْـكَ فـي المَصَـافِ حـولَ أصنامِ حذارِ مِنْ طَوَافِ[2]

هــذه الـدُّنيـا العجـوزُ قـدْ أرادتْ شَعْبَها شيخاً ومَنْ شَيْخٍ أفَادَتْ[3]

ثُــمَّ ولِّ الــوَجْــهَ نَحْــوَ المَشْــرِقِ كَيْـفَ تَنْسَىٰ يَوْمَ مـاضٍ مُعْرِقِ[4]

شعلــةً أخــرى بــروحٍ تُــوْقَــدُ ولْـكَ العَصْـرَ الجديـدَ تُـوْجَـدُ

---

(١) الدِّهاق : الممتلئة .

(٢) المصاف : موقف القتال .

(٣) أفاد : استفاد . وكأنها تستفيد من شيخ يعظها وينصحها .

(٤) وَلِّ : وجِّه . المُعْرِق : العريق في الكرم . يريد ليقول : إنَّ بين الرُّوس والشرق صلاتٌ تاريخيةٌ مجيدةٌ .

إنَّ دينَ الغربِ قد أمسى رَمِيمَا لا تشاهدْ ذلكَ الدَّيْرَ القَديما[1]
وَتَلَلْتَ الحاكمينَ اليَوْمَ تلاَّ اتْرُكَنْ « لا » وَلْتُيَمِّمْ نحو « إلا »[2]
إنَّ « لا » ضِمنَ كلامٍ كان نفيا أنت بالإثباتِ خُذْ دوماً لتحيا[3]

وإذا شِئْتَ نِظَامَ العَالَمِ
فليكنْ فَوْقَ الأساسِ المُحْكَمِ

ومِنَ التَّاريخِ تَمْحُو كلَّ بابْ فاقبسِ الأنوارَ مِنْ أمِّ الكتاب
من يقولُ ماتَ كِسْرَىٰ ماتَ قَيْصَرْ؟ بين سودٍ باليدِ البيضاءِ بشَّر؟[4]
دَعْكَ مِنْ هذا التَّجَلِّي لِلشِّياتْ اتركِ الغَرْبَ وأَدْرِكْ كُنْهَ ذَاتْ[5]
وَبِمَكْرِ الغربِ إنْ كُنْتَ الخبيرا لا تُقَلِّدْ ثعلباً بلْ كُنْ هَصُورا[6]
أملُ الثَّعْلَبِ في الدُّنيا طَعَامْ قولُ أُسْدِ الله « حُرٌّ أو حِمام »[7]
يُصْبِحُ الثعلبَ ذيَّاكَ الأسد دون قرآنٍ، ومُلْكٍ ما اسْتَنَدْ
فَقْرُهُ مُلْكٌ وَذِكْرٌ ثمَّ فِكْر واهبَ الفكرِ الكمالَ كانَ ذِكْر
كانَ تهذيباً لأشواقٍ وَذَوْق إنَّه في الرُّوح، لم يُوْجَدْ بِحَلْق
في الصُّدورِ منهُ نارٌ تَلْتَهِبْ وأجيجُ النَّارِ لمَّا تَسْتَطِبْ[8]

يا شهيداً في هوى الفِكْرِ الجميل
ذا تجلِّي الفكرِ في قولٍ طويل

---

(١) الرميم : العظم البالي .
(٢) تل : صرع . ويمم : وجه . والإشارة في « لا » و« إلا » إلى « لا إله إلا الله » .
(٣) دوماً : دائماً .
(٤) السُّود : العرب .
(٥) الشيات : الألوان .
(٦) الهصور : الأسد .
(٧) الحِمام : الموت . والمعنى نعيش أحراراً أو نموت .
(٨) أجيج النار : تلهبها . لما تستطب : لم تستحسن إلى الآن .

مـا هـو القـرآنُ ؟ هُلْـكُ الظـالمينـا والخـلاصَ كـانَ للمُسْتَعْبَـدينـا[1]

أهــلُ حِــرْصٍ أيَّ خيــرٍ حقَّقُــوا ﴿لَنْ تَنالوا البرَّ حتَّى تُنْفقوا﴾[2]

ليـس مـنْ هـذا الـرِّبـا إلا الفِتَـنْ مـنْ دَرَىٰ ما لـذةُ القَرْضِ الحَسَنْ؟

يَجْعَـلُ الإنسـانَ صَخْـريَّ الفـؤادْ أو كليـثٍ أدْرَدَ وَسْـطَ المَصَـادْ[3]

عـن منـالِ رِزْقُ أرضٍ مـا امتنـاع ! مُلْـكُ ربٍّ وهـيَ لِلْعَبْـدِ المتَـاع

الأميـنُ العَبْـدُ والـرَّحمـنُ مـالِـك كـلُّ شـيءٍ غيـرَ وَجْـهِ الله هَـالِك[4]

الملـــوكُ نَكَّسُـــوا للهِ رَايَـــةْ والقُرَىٰ منْ ظُلمهم في الذلِّ غَايَةْ[5]

خبـزُنـا والمـاءُ تحـوي مـائـدةْ

إنَّمـا النَّـاسُ كنفـسٍ واحـده[6]

صـورةُ القُـرآن لمـا أظْهَـرَتْ صُـوراً أخـرى سِـوَاهـا أبْطَلَـتْ

وأقــولُ مــا بقلبــي يُضمــرُ أكتــابُ ذاك ؟ شــيءٌ آخــرُ ؟

مشبهُ الرَّحمٰنِ يخفى وَهْوَ ظاهِرُ دائـمٌ حـيٌّ وَمِنْطيـقٌ يُجاهـرُ[7]

وَلِغَـزبٍ فيـهِ أقـدارٌ وشـرقُ كُنْ سريعَ الفَهْمِ أسْرِعْ مِثْلَ بَرْقِ

قـال جُـذْ بـالـرُّوح جُـذْ لِلْمُسْلِـم فـوقَ مـا تحتـاجُ طـوعـاً قَـدِّمِ

أنْـتَ يـا مـنْ ذلـكَ الشَّرْعَ اتَّخَـذْتـا فــي كتـابِ اللهِ نـوراً لَـوْ رأيتَـا

---

(١) الهلك : الهلاك .

(٢) قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

(٣) الأدرد : من ذهبت أسنانه . والمصاد : مكان الصيد .

(٤) يذكر بقوله تعالى في سورة القصص : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] .

(٥) الإيماء إلى قوله تعالى في سورة النَّمل : ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : ٣٤] .

(٦) قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

(٧) المنطيق : البليغ . ويجاهر : يرفع الصوت .

لَعَرَفْتَ ما تَعالى وانْحَدَرْ
في الحياةِ وَفَهِمْتَ ما القَدَرْ

ما مَعَ السّاقي حوانا المَحْفَل — مِعْزَفُ القرآنِ دوماً يَهْدِلُ[1]
لَوْ خَلا عزفٌ لَدَيْنا مِنْ أَثَرْ — في السَّماءِ لاسْتَمَعْنا لِلْوَتَرْ
ذكرُ ربّي عن شعوبٍ في غنى — لزمانٍ ومكانٍ ما انثنى[2]
أينَ مِنْ ذِكْرٍ لربّي مِنْ ذَكَرْ — ما لروم ما لشام مِنْ خَبَر[3]
لو أرادَ اللهُ عنّا حَمْلَهُ — لاستطاعَ لِسِوانا نَقْلَهُ[4]
ذلكَ التقليدُ فينا قد رأيتْ — رِغدةً للرُّوحِ في جسمي وَجَدتْ[5]
في غدٍ قدْ يُحْرَمون ذِكْرَهُ
وبقلبِ الغَيْرِ يلقي نارَهُ

* * *

جلال الدِّين الرُّوميُّ
يرغب إلى زنده رود أن يقول شعراً

إنَّما الرُّوميُّ في جَذْبٍ تَفَجَّر — وَعَرَفْتُ القولَ فيهِ كَيْفَ أَثَّر
صعَّدَ الزَّفْرَةَ ناراً لِلْكُبودْ — سَكَبَ الدَّمْعَ دماءً لِلشَّهيدْ[6]
بالسِّهام راشقٌ قَلْبَ الرِّجال — سيِّدُ الأفغانِ خُصَّ بالمقال[7]

---

(١) المِعْزَفُ : آلة الطرب . وَهَدل الحمامُ : صوَّت .
(٢) يقول : إنَّ ذكرَ الله ليس خاصاً بشعبٍ خاصٍّ ، ولا ينتسبُ إلى زمانٍ ولا مكان .
(٣) يريد ليقول : إن ذكر الله منفصلٌ عن ذاكره ، ولا صلة له بالمكانية .
(٤) غرضُ الشاعر أنَّ الله لا يخصُّ بذكره قوماً بعينهم .
(٥) يعيب التقليد عند المسلمين .
(٦) الكبود : جمع كبد .
(٧) المراد بسيد الأفغان السيد جمال الدين الأفغاني .

« حمرةٌ للأفق ضَعْها في الوَتين ... وسموطَ الحقِّ أمْسِكْ باليمين[1]
بالمُنى الأرواحُ سيلٌ ذو زَبَدْ ... إنَّما اليأسُ لها موتُ الأبَدْ »
وأشار ثم قال « زنده رود ... فَلْيَكُنْ بالشِّعرِ ناراً ذا الوُجود
ناقةٌ منْ أينِها ضاقَتْ خُطاها ... آدَهَا الحِمْلُ وأنَّ منْ حَدَاها[2]
امتحانُ الطَّاهرينَ بالبلاء ... فَلْنَزِدْ في طولِ جُهْدٍ للظِّماء[3]
وَعَنِ النِّيلِ ابْتَعِدْ مِثْلَ الكَلِيم ... كالخليلِ فَلْتَسِرْ نَحْوَ الضَّريم[4]
من حبيبٍ نغمةٌ ماجَتْ بطِيب
أمَّةٌ تَسْكُنُ داراً للْحَبِيب »

* * *

غَزَلُ زنده رود

لَيْسَ زهرٌ في الرِّياضِ بالمقيم أبَدا ... إنَّه يمضي كأمواجِ النَّسيم أبَدا
أينَ معنى ما وَجَدْنا بَعْدَ بحثٍ يا تُرَىٰ ... مكتبٌ يبقى وحانٌ كالعَقيمِ أبدا
وَمِنَ الذَّاتِ تَعَلَّمْ أنْتَ حرفاً واحْتَرِقْ ... تَغْدَمُ الخانقاه ناراً لِلْكَليمِ أبداً[5]

---

(١) حمرة الأفق هي الشفق . والوتين : عرق في القلب . والسُّمُوط : حبالٌ تتدلى من السَّرج .

(٢) الأين : التَّعب . آده الحمل : أثقله . وحدا الإبل : ساقها ، وغنَّى لها . يقول : إنَّ غناء من يسوق الناقة ينبغي أن يصبح أنيناً بعد تعب ناقته .

(٣) الظِّماء : جمع ظامىء . وهذا البيت يتصل بما قبله وما بعده في وجوب الشعور بالجهد والعذاب لامتحان النفس .

(٤) الضَّريم : الحريق وهو هنا نارُ إبراهيم عليه السلام . والشاعرُ يذكر بما وقع لكليم الله موسى ، فقد أوحى الله إلى أمه أن تقذفه في النيل ليلقيَه بالسَّاحل .

(٥) الخانقاه : مبنىً يقيمُ فيه المتصوِّفة . والكليم : موسى عليه السلام . والشاعر يلمح إلى تلك النار التي آنسها موسى ، وهي عند الصوفية رمزٌ للمعرفة .

لا تحدَّثْ عَنْ صفاءٍ منْ بخانقاه سَكَنْ　　وَسِخَ الشَّعْرِ تـراه والأديـمِ أبـدا[1]

كَمْ بيوتٍ شَيَّدوها وَسْطَ بيتٍ واحِدٍ　　لا يثيرُ القَلْـبُ ريباً للمُقيـمِ أبـدا[2]

لَيْسَ خَطْباً أنْ يَضيقَ بالنَّدامىٰ مجلسي　　إنَّـه ألّا تـرى كـأسَ النَّـديـمِ أبـدا !

* * *

(١) الأديم : الجلد المدبوغ ، ووجه الأرض ، وقد ترجمنا به كلمة سجادة في الأصل رغبةً منا في الاحتفاظ بنفس القافية والوزن في الترجمة العربية . أما الرديف وهو الكلمة التي تكرر بعد كل بيت فهي في الأصل (كل) وترجمناها بـ(أبداً) وهي ظرف زمان للتأكيد في المستقبل .

(٢) يريد الشاعر بالبيوت بيوت العبادة . ويقول : إنَّ الموحّدين لهم جميعاً فكرةٌ واحدةٌ لا ريب فيها ، وهو يَعْجبُ لانقسامِ القَوْمِ فرقاً وطوائف .

فلكُ الزُّهَرَة

يَحْجُبُ النُّورَ بدا بَيْنَ السَّحَابْ مِنْ فضاءِ الصَّفِيْقُ مِنْ حِجَابْ[1]

واجَهُونا بالسُّتورِ عُلِّقت للتَّجلِّي كُلُّ نارٍ أخْمِدَتْ

كي تَزيدَ النَّارُ في القلبِ اشتعالا وترى غُصْناً وبالأثمارِ طالا

وبوقدٍ منه في وردٍ دِمَاء زئبقاً بالرَّقصِ مِنْهُ كانَ ماءْ

هكذا مِنْ تُرْبِها الأرواحُ قامَتْ وبما لا تَشْهَدُ العينانُ لاذَتْ[2]

والطريقُ يحتوي موتاً وَحَشْرا فيهِ لَكِنْ زوَّدوا بالنَّارِ سَفْرا[3]

في الفضاءِ دارَ مُزْرَقٌ الفَلَكْ هابطٌ يعلو وما يَغْلُو انْسَبَكْ[4]

وهي إبراهيمُ أو ذاكَ الحَرِيم كالذَّبيحِ ، في الفِدَاءِ لا يلُومْ ![5]

السمواتُ وهذي خيبرُ لا يُجِيْدُ الطَّعْنَ إلا حَيْدرُ[6]

---

(١) الصفيق : ضدّ الرقيق .

(٢) التُّرْب : التراب .

(٣) السَّفْر : المسافرون . يقول : إنَّ النار كانت زاداً لهم .

(٤) انسبك الذَّهب : ذُوِّبَ وأُفرِغَ في قالب . وبذلك يشبَّه انخفاض واستواء ما ارتفع .

(٥) الذبيح : هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام الذي أطاع واستسلم .

(٦) حيدر هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وفي غزوة خيبر أرسل النبي ﷺ إلى علي لفتح أحد الحصون وكان عليٌّ أرمد . فقال : ما أبصرُ سهلاً ولا جبلاً . فذهب إليه وقال : افتح عينيك ففتحهما فما رمد بعدها ، ثم دفع إليه اللواء ، ودعا بالنصر له ومن معه . وشدَّ عليٌّ على الأعداء فانكشف المسلمون وثبت هو وقتل من بارزه . وانهزم اليهودُ إلى حصنهم وبارزه يهوديٌّ آخر وضربه ضربةً شديدة حطَّمتْ تُرْسه . فتناول كرم الله وجهه باباً عندَ الحصن لِيَتَتَرَّس به عن نفسه . ولم يزل معه حتى فتح الحصن . قيل وكان هذا الباب ثقيلاً فلم يحمله أربعون رجلاً .

طهَّـر الـرُّوْحَ الصَّـراعُ المُسْتمـز إنَّهـا تجـري بـه أو تَسْتَقِـز
وهـي فـي نـورٍ علـى نـورٍ تَطيـز ولَـديْهـا الصَّيْـدُ جبريـلٌ وَحُـوز[1]

ثمَّ ﴿ ما زاغ البصر ﴾ يضحىٰ النَّصيبا
لمقـامِ « عبـده » تمسـي الـرَّقيبـا[2]

في مَقَـامي لَسْتُ أدري أيْـنَ كُنْتُ إنني عـنْ كـلِّ خُـلاَنـي نَـأَيْـتُ
تَغْـدَمُ الحـربُ بصـدري عسكـرا مـنْ لَـهُ عيـنٌ كعينـي قـدْ يَـرَىٰ
منْ دَرَىٰ ما الحربُ في كفرٍ ودين وَخدَها نفسي كزينِ العَابدين[3]
أيُّ معنـىً للطَّـريـق والمَقَـام ؟ إنَّ شكـوايَ السِّـراجُ فـي الظَّـلام[4]
أهلَـكَ اليـمُّ الشيـوخَ والشَّبـابـا هـاكَ شَيْخـاً واحـداً جـازَ العُبَـابـا[5]
قَـدْ رَفعْـتُ السِّتْـرَ والسِّتْـرُ انطـوىٰ أرهـبُ الـوصـلَ وتبكينـي النَّـوى[6]
الـوصـالُ آخـرُ الشَّـوقِ ! الحـذَرْ ! مـا لشكـوى وزفيـرٍ مـنْ أثَـرْ !
سـالـكٌ مـا إنْ رأى مَتْـنَ الطَّـريـق مـنْ فـراغ إنْ يَكُـنْ غَيْـرَ المُفيـق[7]

---

(١) الصيد : ما يصاد .

(٢) يريد الشاعر قوله تعالى في سورة النجم : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] . أي ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه وما تجاوزه بل أثبته أو ما عدا عن رؤية ما أمر برؤيته من العجائب . وقد رأى من آيات الله الكبرى ليلة المعراج .
أما قوله (عبده) فالمقصود به قوله تعالى في السورة نفسها ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ١٠] ؛ أي أوحى إلى عبده جبريل ما أوحى جبريلُ إلى النبيِّ ولم يذكر المُوحَىٰ تفخيماً لشأنه .

(٣) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بزين العابدين رضي الله عنه ، رابعُ الأئمة الاثني عشر عند الإمامية . وقد عرف بصدقة السرّ ، والحلم ، والورع . وهو الوحيد الذي نجا من موقعة كربلاء . وكانتْ وفاتُه عام ٩٤هـ .

(٤) السِّراج : المصباح .

(٥) اليَمُّ : البحر . والعُباب : الموج .

(٦) النَّوى : البعاد .

(٧) الفَراغُ هنا هو : سكون النفس .

إنَّ لـي قلباً ومـن ذَوْقِ النَّظَـرْ عالماً يَشتاقُ ، بالشَّوْقِ اسْتَعَرْ[1]

إنَّما الرُّومي بروحي تلك أعْلَمْ قـالَ يا مـنْ عـالماً تبغي تَسَلَّمْ

في يمينِ العِشْقِ نَحْنُ وهوَ يَلْعبْ فتـأمَّلْ ، يحتـوينا أيُّ كَـوْكَب[2]

عـالمٌ والأسُّ مـنْ طيـنٍ ومَـاءْ من سواد المِسْكِ يَبْدُو في كِسَاءْ[3]

وبعيـنٍ مَـزِّقَـتْ كـلَّ الحُجُـبْ انظـرنَّ واختَـرِقْ كـلَّ السُّحُـبْ

ستـرى الأربـابَ حتمـاً كلَّهـا وأنـا أعْلَـمُ حقَّـاً حـالهـا

(بعلُ ومردوخُ ويعوقُ ونَسْرُ وفسرُ رم خن ولاتُ ومناةُ وعسرُ وغسرُ)

إنَّهـا لِلْبَعـثِ تـأتـي بـالـدَّليـل

فـالـزَّمـانُ لَيْـسَ فيـهِ مـنْ خَلِيـلْ[4]

***

عودةُ الجاهلِيَّة

مرَّ شاعرُ الإسلام ـ في بعض زياراتِه الرُّوحيَّةِ وسياحاتِه الفكريَّة ـ بوادٍ ، اجتمعت فيه الآلهةِ القديمة التي عبدتها أممُ الجاهلية ، ونحتَتْ أصنامَها وتماثيلَها ، وبَنَتْ عليها هياكلَ ومعابد ، وعَكَفَ عليها السَّدنةُ والكُهَّان ، وتغنَّى بها الشعراءُ والأدباء ، وكان مَجْمعُ الآلهة القديمة من شعوب مختلفة ، وبلادٍ مختلفة ، وعصورٍ مختلفة ، فهذا إلهُ المصريين القدماء ، وهذا ربُّ التبابعة ، والأذواءِ من اليمن ، وهؤلاء آلهةُ عربِ الجاهلية ، وأولئك آلهةُ وادي الفرات ،

---

(١) استعرت النار : اشتعلت .

(٢) هذا الكوكب هو كوكب الزُّهرَة .

(٣) الأس : الأساس . وهو يشبه هذا العالم بالكعبة وعليها الكسوة السوداء .

(٤) يقول إنَّ هذه الآلهة تقدّم الدليل على بعثها . فما في زماننا إبراهيمُ الخليل عليه السلام محطِّمُ الأصنام . وقد أوردنا أسماءها كما وردت في الأصل الفارسيّ ، فلتنطق كُلُّ واوٍ ضمَّةً ليستقيمَ الوزنُ كما هو الشأن في الفارسية .

وهذا إلهُ الوَصْلِ ، وذلكَ ربُّ الفراق ، هذا من سلالة الشَّمس ، وذلك خَتَنُ القَمَر ، وهذا زوجُ المُشتري .

ثم إنَّهم أشكالٌ وألوان ، فهذا قد سلَّ السيف بيده ، وهذا تقلَّد حيَّةً ولواها حول عنقه ، وكلُّهم وجلون مشفقون من الوحي المحمَّديِّ ، الذي أحدث الثَّورة الكبرى عليهم ، وأفسَدَ عليهم العيشَ ، وولد العالم الجديد القائم على نبذِ الأصنام ، والمُؤسَّس على عقيدةِ التَّوحيد ، وكلُّهم ساخطون حانقون على ضَرْبَةِ إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارةً مفاجئةً سُرَّ بها الآلهة ، وتفاءلوا بها ، وكان « مردوخ » أولَ من انتبه لهذه الزيارة ، ورحَّبَ بالإنسان القادم ، وأخبر زملاءَه به : أبشروا يا إخوتي ! فإنَّ إنساناً فرَّ من الله ، وثار على الأديان السَّماوية ومراكزها ، وأقبل إلى العهد الماضي ، ليتوسَّع في العلم والنظر ، وجاءَ يتمتَّع بالآثار العتيقة ، ويتحدَّث عن مجدنا ، إنَّها بارقةُ أملٍ لاحَتْ بعد مدَّة ، ونفحةٌ هبَّتْ من أرضٍ حكمناها طويلاً ، ونعِمْنا فيها كثيراً .

وكان بعلُ ـ إله الفينيقيين والكنعانيين القديم ـ أولَ من اهتزَّ لهذه الزيارة ، فأنشأ يغنِّي في طربٍ ومَرحٍ ، ويقول : « **إن الإنسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ، فليست هذه العقائد التي يدين بها الإنسان إلا خواطر تسنحُ له ثم تغيب ، كالأمواج ترتفع ثم تتوارى ، إنَّه لا يرتاح إلا إلى المحسوس المشهود .**

حيَّا الله الإفرنجَ الذين عرفوا طبيعةَ الشرقيين ، الذين أعادوا إلينا الحياة ، وبعثونا من مراقدنا ، فانتهزوا يا زملائي الكرام ! هذه الفرصة الذَّهبيَّة ؛ التي أتاحها لنا الدهاةُ الغربيون ، ألا ترون كيف نسي آل إبراهيم عقيدةَ التَّوحيد ، ونسوا العَهْدَ والميثاق الذي أخِذ عليهم ، ونسوا لذَّته .

إنهم صحبوا الغربيين مدَّةً من الزمان ، وعاشوا معهم ، ففقدوا ثروتهم ،

وضيَّعوا ذلك الدِّينَ الذي نزل به الروح الأمين ، والذي بَعَثَ فيهم الإيمانَ واليقين .

إنَّ الرجلَ المؤمنَ الحرَّ الذي لم يكن يعرف الحدودَ والجهات ، ولا يعبدُ غير الإله الواحد الذي خلق السمواتِ والأرضَ أصبحَ يؤمنُ بالوطن ، ويقدِّسه ، ويعبُده ، ويقاتلُ في سبيله ، ويكفرُ بالله ، ويهجرُه ويتناساه .

لقد خَضَعَ المسلمون لنفوذ الغربيين ومجدهم ، وأصبح شيوخُهم الكبار وعلماؤهم العظام يتقلَّدون شعارَهم ، ويقتفون آثارَهم ، فلنستبشرْ ولننتهزْ هذه الفرصة .

لقد عاد إلينا الشبابُ ، وحُقَّ لنا أن نَطْرَب ، فقد انهزم الدِّين ، وانتصرت الوطنيةُ والجنسيةُ . إنَّ المصباحَ الذي أناره محمَّد ، تألَّبَ عليه مئةُ « أبي لهب » يطفئونه ، إنَّنا لا نزال نسمع صوت لا إله إلا الله ، ولكنَّه صوت يصدرُ عن الشفتين ، ولا يصدر عن القلب ، وكل ما غابَ عن القلب سيغيب عن الفم .

لقد أعاد سحرُ الغرب دولةَ إله الشرِّ والظلمة ، وشبابه ، وأصبح الدِّين الإلهي مهدَّداً ، فطوبى لنا ولإخوتنا الذين قطعوا الرجاء من الحياة ، واعتكفوا في الخلواتِ والمغاراتِ .

لقد كان عبادنا أحراراً ، لهم التصرُّفُ المُطْلَق ، والحريةُ الكاملة في حياتهم ، لم نثقلهم بعبادةٍ وطاعةٍ ، وإنَّما طلبنا منهم ركعةً لا سجود فيها ، وقد أثرنا فيهم العاطفةَ الدِّينيَّةَ بالأناشيد والأغاني ، فلم تكن صلاتُهم إلا مكاءً ، وتصدية ، ونغمةً ، وأغنية ، وأيُّ لذةٍ في صلاة لا غناء فيها ، ولا موسيقا ؟!

إنَّ الناسَ لابدَّ يفضِّلون عبادةَ طاغوتٍ مشهودٍ على عبادة إلهٍ غائب ، وربٍّ لا يُرىٰ بالأبصار »[1] .

---

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الندوي . صفحة ١٧٥ ـ ١٧٨ .

وإليك هذه الأبيات المترجمة للعربية شعراً ، يقول فيها إقبال :

أظلَمَ الغَيمُ وَلِلرِّيحِ الخُفُوقْ ... في الظَّلام تَفقِدُ النُّورَ البُروقْ ![1]

الرياحُ البحرُ فيها قد تعَلَّقْ ... شَقَّتِ الثَّوبَ بدُرٌ كم تَألَّقْ

لا يرى شطٌّ وموجٌ يَهْدرُ ... ما على صَرْعِ الرِّياحِ يَقْدِرُ[2]

ومَع الرُّوميِّ في بحرِ السَّوادْ ... حُلماً كنَّا بسوداءِ الفُؤادْ[3]

إنَّه المِسْفَارُ لَكِنْ لم أُسَافِرْ ... وعلى هذا رآني غَيرُ صَابِرْ[4]

عاجزاً قُلْتُ كلاماً كُررا ... « عالماً آخرَ عَيْني لا تَرَىٰ »

وإذا للعينِ أطوادٌ تلوحْ ... وغديرٌ في مروجٍ وهي فَيحْ[5]

وإذا في النَّجدِ والسَّهْلِ الرَّبيع ... والنَّسيمُ يا لهُ مِسْكاً يَضُوعْ[6]

ولنا الطَّيرُ تَغَنَّتْ بالجَوَىٰ ... والينابيعُ وعُشْبٌ ما استوى[7]

ذاكَ فَيضٌ مِنهُ للجسمِ البَقَاء ... وَلِعَيْنِ الرُّوحِ في الجِسْمِ الجلاءْ

وَمِنَ الطَّودِ نَظَرْتُ نَظْرةً ... لأرىٰ الدُّنيا ترفُّ نَضْرةً[8]

واستوى الوادي ومدَّ جانبيْه ... إنَّ ماءَ الخضرِ مشتاقٌ إليه ![9]

---

(١) الخفوق : الخفق والخفقان .

(٢) هَدَرَ البحرُ : ارتفع خريره .

(٣) الروميُّ : هو جلالُ الدِّين الروميُّ ، وسوداء القلب وسويداؤه : حبته .

(٤) المِسْفَارُ : الكثير الأسفار .

(٥) الأطواد : الجبال . والغدير : النَّهر . والفيح : الواسعة .

(٦) النَّجد : ما ارتفع من الأرض . وضاعَ المسك : انتشرت رائحته .

(٧) الجوى : الحزن . ما استوى : ما ارتفعت سوقه .

(٨) رفَّ النباتُ : تلألأ نضرةً .

(٩) استوى : أصبح مستوياً ، جاء في الروايات الفارسية أن الإسكندر رغب إلى الخضر عليه السلام أن يكون دليله في رحلة طويلةٍ تكتنفها المصاعب والمعاطب إلى ماء الحياة وهو ينبوعٌ في أرضٍ بعيدةٍ تسمَّى دار الظلمات . ومنْ نَهَلَ نهلةً منه ضَمِنَ أن يكون من الخالدين . ومضى الخضر مع الإسكندر ، وشاهد الخضر هذا الماء كأنَّه خيطٌ من=

كـلُّ ربٍّ فيـه مـنْ ذاكَ الـزَّمَـنْ ... ربُّ مِضـرَ ذا وذا ربُّ اليَمـنْ

ذاكَ مِـنْ أربـاب عُـزبٍ أو عِـرَاقْ ... ذاكَ ربُّ الـوَصْـلِ ذا ربُّ الفِـرَاقْ

وسليـلُ الشَّمْـسِ صِهْـرٌ لِلْقَمَـرْ ... مِـنْ بـزوج المشتـري خصَّ النَّظَرْ

واحـدٌ يختـالُ بـالسَّيـفِ الحُسـامْ ... آخـرُ فـي لِيْتِـهِ أفعـى السُّمـامْ[١]

كلهـم يـرتـاعُ مـنْ ذِكْـرِ الجميـل ... ويخـافُ كلُّهـم بَطْـشَ الخَليْـلْ[٢]

« إنمـا المـرءُ مـنَ المـولـى هَـرَبْ ... والمصلَّى»، قال مردُخ ، وانْتَحَبْ[٣]

« وكـأنَّ العقـلَ منـه أومضـا ... وهـو لا ينسىٰ زمـانـاً قـدْ مَضَـى[٤]

ظـلَّ يستحسـنُ مـا كـان القَـدِيمـا ... فـي تجلِّينـا يـرىٰ شيئـاً عَظيمـا

ويَجِـدُّ الـوَهْـمُ فـي هـذا الـزَّمـانِ ... وتهـبُّ الـرِّيـحُ ريحـاً لـلأمـاني »[٥]

ثـم غنَّـى بعـلُ مـنْ فَـرْطِ الطَّـرَب

سـرَّنـا أفشـاهُ عِنْـدَ كـلِّ رَبّ[٦]

***

أغنيةُ بَعْل

مـزَّقَ المـرءُ السِّتـارَ الأزرقـا ... مـا استطـاعَ ربُّـه أن يَـرْمُقَـا[٧]

= فضة . فشرب منه ، وتلفَّت حوله ، فما وجد الماء ولا الإسكندر . ولماء الحياة هذا ذكرٌ متردِّدٌ في الشِّعر الفارسي الصُّوفيِّ على أنَّه رمزٌ للحقيقة .

(١) السيف الحسام : القاطع . والليت بكسر اللام : صفحة العنق . والسُّمام : السموم .

(٢) الجميل : هو الله تعالى . والخليل : إبراهيم عليه السلام .

(٣) المولى : الله جل وعلا . المصلى : مكان الصلاة والمراد به المعابد بجميع أنواعها . ومردوخ : أكبر آلهة البابليين .

(٤) أومض البرق : ومض ولمع .

(٥) يجد : يصبح جديداً .

(٦) بعل : اسم إله عند الساميين .

(٧) رمقه : نظر إليه طويلاً . وهذه المنظومة مما يعرف عند الفرس : ترجيع بند . =

مَـوْجَـةٌ لِلفِكْـرِ تغشـى قَلْبَـهُ   مَـوْجَـةٌ أخـرى لهـا أنْ تَفْـرَقـا[1]
روحُـه بـالحسِّ أمْسَـتْ فـي قَـرَارْ   منيةَ الماضـي عسـى أنْ تصـدقـا[2]
نحـنُ حـابـونَ بِعِلْـمٍ فَلْيَعِـشْ   عـالـمٌ أحيـا بعلـمٍ مَشْـرِقـا[3]

أيُّهـا الأربـابُ قـد آن الأوانْ

قِـفْ تـأمَّـلْ وَحْـدةً قَـدْ شُتِّتَـتْ   و ﴿ ألست ﴾ عِنْدَ قـومٍ أُبْطِلَتْ[4]
حُطِّمَـتْ كـأسٌ بـأيـدي ثُلَّـةٍ   خمرُ جبرائيلَ منهـا أُسْكِـرَتْ[5]
كـلُّ حـرٍّ فـي قيـودٍ مـن حـدود   وصِلَـةٌ بـالله مِنْـهُ صُـدِّعَـتْ
سـؤددُ الأسـلافِ بـردٌ فـي دمـاء   وزنـانيـرُ الشُّيـوخِ شُـوهِـدَتْ[6]

أيُّهـا الأربـابُ قـدْ آن الأوان

بَعْـدَ دَهْـرٍ عـادَ يـومٌ لِلطَّـرَب   أصبح الـدِّيـن صـريعاً لِلنَّسَـبْ[7]

= والترجيع : بند يحوي عدة أبيات تكون كلُّ مجموعةٍ منها قسماً ، وتلك الأبيات متفقةٌ في الرَّوي ، ويتلو كلَّ قسمٍ بيتٌ مستقلٌّ يُكرَّرُ . وقد التزمنا في الترجمة رويَّ هذه الأبيات في الأصل .

(١) غشيه : غطاه . ويَفْرَقُ : يخاف .
(٢) المنية : الأمل .
(٣) الحابي : واجدُ الحياة . وكأنَّ هذا الإله يدعو بطولِ البقاء لذلك العالم المستشرق الذي أحيا الشرقَ بعلمه .
(٤) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] وهذا من باب التمثيل ؛ أي أنه أقام الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت عقولهم بها ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم ، وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا ، وأقررنا بوحدانيتك .
(٥) الثُّلَّة : الجماعة من الناس .
(٦) الزَّنانير : جمع زُنَّار . وهو ما يَشُدُّ به النصراني وسطه .
(٧) يقول : إنَّ العنصرية طغت على الدِّين .

لا تفكر في سراجِ المُصْطفى أخمدَ الشُّعْلَةَ فيه « بولهب »[1]
« لا إله » في لسانٍ ناطقٍ عن فؤادٍ شُرِّدَتْ يا لِلْعَجَبْ !
إنَّ سِحْرَ الغَرْبِ أحيا أهْرَمنْ[2] وَجْهُ يومِ اللهِ مِنْ لَيْلٍ شَحَبْ
أيُّها الأربابُ قَدْ آنَ الأوانْ

دينُك القيدُ تحرَّرْ مِنْ قُيُود عبدُنا قد كانَ حُرّاً في عبيد
وعليهِ كي نَشُقَّ في صلاة ركعتين نبتغي ، ما مِنْ سُجُود
إنَّما النَّغمةُ تُعلي جذبةً ما الصلاةُ وهي تخلو مِنْ نَشِيْد
إنَّ خيراً مِنْ إلهٍ قد توارىٰ ذلكَ الشَّيطانُ يبدو في الشُّهود
أيُّها الأربابُ قَدْ آنَ الأوانْ

***

الغوصُ في بَحْرِ الزُّهَرَة ومشاهدةُ روحِ كتشنر وفرعون

مَيَّزَ الرُّوميَّ ذكرٌ لِلْجَميْلْ ضربُه يُشبهُ ضَرْباً لِلْخَليل
غزلًا قالَ وَبالشُّكْرِ اتَّقَدْ كل رب في خشوعٍ قد سَجَدْ

غزل

«خصّ ما يمضي ويأتي بالنَّظر، ذاكَ أوْلَى انهَضَنَّ خذ بأفكارٍ أُخَرْ ، ذاكَ أولى
ناقةُ الأيامِ أوساقاً لِعِشْقٍ حُمِّلَتْ ارْحَلَنَّ في المساءِ والسَّحَرْ، ذاكَ أولى[3]

---

(١) السِّراج : المصباح . وبو لهب في الفارسية هو أبو لهب في العربية .
(٢) أهرمن : هو إله الشر أو الشيطان في دين المجوس .
(٣) الغزل نوع من المنظومات الفارسية ، وتلك المنظومة ذات روي واحد ولا تقلُّ أبياتها عن سَبْعَةَ عشر . وفي هذا الغزل ما يعرف بالرَّديف ، وهو كلمةٌ أو كلامٌ يُكرَّر بعدَ كلِّ=

قالَ شَيْخٌ ما لِدُنيانا أساسٌ مُحْكَمُ ... ينبغي عمّا بها قَطْعُ النَّظَرْ ، ذاكَ أولى
أنتَ بالتَّركِ أتنساها ولَوْ حاولته ... قلْ وُجودي ليس عِنْدِي ذا خَطَرْ ذاكَ أولى[1]
قلتُ في قلبي مناةٌ وكثيرٌ غَيْرُها ... قال في المعبد حطِّمْ ذا الحَجَرْ، ذاك أولى»
قال « فانهضْ مُسْرِعاً واقْدَمْ إليَّا ... بني تَمسَّكْ لا تَـدَعْنـي يـا بُنَيَّـا
الجبالُ وهيَ مِنْ موسى خَلَتْ ... بالثُّلوج مِنْ لُجَيْنٍ أصْبَحَتْ[2]
خَلْفَهَا قَدْ لاحَ بحرُ الجَوْهَرِ ... وانجلى بالجَوْفِ لا بِالمَظْهَرِ
أيُّ بأسٍ من عُبابٍ أو أتيٌّ ... قرَّ عيناً بسكونٍ سَرْمَديٌّ[3]
إنَّ في هذا مَقامُ مِنْ تَجَبُّرْ ... ووجودُ كلُّ ما قدْ غابَ أنكَرْ
ذاكَ شرقيٌّ وذا مِنْ أهْلِ غَرْبِ ... معَ أهْلِ الحقِّ في حربٍ وَضَرْبِ[4]
وعصا موسى على هذا تَهَاوَتْ ... والرفيقَ مديةُ الدَّرْويشِ غَالَتْ[5]
مِثْلُ فِرْعَوْنَ الصَّغيرِ والكبيرْ ... ظامئان بَيْنَ أمواجٍ تَثُورْ
يعرفان الطَّعْمَ مرَّاً للرَّدىٰ ... مَوْتُ جبارٍ كآياتٍ بَدَا[6]
سِرْ ورائي يا بنيَّ لا تَخَفْ ... هاكَ كفِّي فما قلبٌ وَجَفْ[7]
وكموسى البَحْرَ إنِّي فالقٌ ... فيهِ يَحْوِيك فؤادٌ خافقٌ
شقَّ مِنْهُ البَحْرُ صدراً كالضِّياءْ ... أهْوَاءٌ كان يبدو مِثْلَ ماءْ
قاعُه مِنْ كلِّ لونٍ قدْ خلا ... إنَّه وادي الظلام في الفَلا

= بيت تُلْتَزَمْ قبله قافيةٌ موحَّدة . وقد احتفظنا في الترجمة بقافية الأصل . والأوساق : جمع وَسْق ، وهو حمْلُ البعير .

(١) الخطر : الأهمية وارتفاع القدر .

(٢) اللجين : الفضة .

(٣) الأتي : السَّيْل . والسَّرمدي : الدائم .

(٤) الحقُّ هنا هو الله .

(٥) المدية : السكين . وغاله : أهلكه .

(٦) يقول : إنَّ هلاك الجبار منْ آياتِ الله .

(٧) وجف القلب : اضطرب .

ومـــنَ القُـــرآنِ طــهَ الشيــخُ يتلــو   فإذا القمراءُ جوفَ البحرِ يَجْلُو[1]
ونَضَــتْ عنهــا الجبــالُ ثَــوْبَهَــا   رَجُــلانِ حــائــرانِ بينهــا
لــم تشــاهــدْ وجــهَ شيخــي مَــرَّةً   بعضُهــا ألقــى لبعــضٍ نَظْــرَةً
قــال فــرعــونُ أيُجـري البحـرَ نُـوْر !   أصبــاحٌ مِــلْءَ عينــي أمْ ظُهُــوز !

الروميُّ

الخفــي منــه وَضَّــاحُ الجَــلاء   واليَــدُ البيضــاءُ أصْــلٌ للضِّيــاء[2]

فرعون

آهِ عقلــي آهِ دِينــي قَــدْ فَقَــدْت   ونظــرتُ والضيــاءَ مــا عَــرَفْــت
امنحــونــي نظــرةً يــا مــنْ مَلَكْتُــمْ   وهبــونــي لَفْتَــةً يــا مــنْ ظَلَمْتُــمْ[3]
بِئْسَ مِنْ حرصٍ لهم أعمىٰ البَصائِرْ   يُخْرِجُوْنَ التِّبْرَ منْ جَوْفِ المقَابِرْ[4]
ذلــكَ التِّمثــالُ فــي دارِ العَجــائِــب   صَمْتُــه يــروي لنــا كــلَّ الغَــرائِــبْ
جــاءنــا عَــنْ غــاصبيــنَ بــالخَبَــرْ   عيــنَ عميــانٍ أنــارَ بــالبَصَــرْ
مــا يــريــدونَ لنــا غَيْــرَ الشِّقــاق   والأســاسُ أحكمــوهُ بــالنِّفــاق
ولهــذا دبّ فــي الحكــم الخَــوَرْ   والفســادُ ، وتَفَشَّــى كــلُّ شَــرْ[5]

لــو بــدا مــوســى كليــمُ الله لــي
لالتمســتُ منــه قَلْــبَ العــاقِــلِ

---

(١) القمراء : نور القمر . ويجلو هنا بمعنى يخرج ، فكأن جوف البحر يُظْهِرُ نور القمر .

(٢) يلمح إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٢٢] .

(٣) يوجه الخطاب إلى المستعمرين من أهل الغرب .

(٤) التبر : الذهب . وإقبال يتحدث عن علماء الغرب المنقبين عن آثار الفراعنة .

(٥) الخور : الضعف . وتفشى : انتشر .

الرُّوْميُّ

إنَّ نُـوْرَ الـرُّوْحِ لِلْحُكـمِ الفـلاخ	واليدُ البيضا بها المُلْكُ المُبَاحْ
حـاكـمٌ يقـوى بِضَعْـفِ مـنْ حُكِـمْ	ويحـرمـانٍ لكـلِّ مـنْ حُـرِمْ
يَلْبـسُ التَّـاجَ بجمـعٍ لِلْخَـراج	ورجـالَ الصَّخْرِ كـانـوا منْ زُجَاجْ
المغيْـرُ مَـنْ لـه جيـشٌ وَقَيْـدْ	حـاكـمٌ عـنْ مِثْـلِ هـذا مـنْ يَصُدْ

اللورد كتشنر[1]

إنَّ للغـربـيِّ قصـداً قَـدْ ظَهَـرْ	ولأجـلِ التِّبْـرِ كـمْ قبـرٍ حَفَـرْ
إنَّ تـاريخـاً لِمصْـرَ والكَلِيْـم	مـا نـراهُ اليوم فـي سِفْرٍ قَـدِيْـم[2]
إنَّمـا بـالعلـمِ للسـرِّ الظُّهـور	حكمةٌ والبَحْثُ ، أو شيءٌ حَقِيْر[3]

فرْعون

بـالعُلـومِ كشَّفـوا عنَّـا الحَجَـرْ
كـان للمهـديِّ قبـرٌ ، مـا الخبـر ؟

---

(١) قائد بريطاني حارب أتباع المهدي في السودان ، وغلب على مدينة أم درمان عام ١٨٩٨ . وعرف بتناهيه في الضراوة والفظاظة حين عقد العزم الأكيد على استئصال شأفتهم وإذهاب ريحهم . ولما حقَّق من ذلك بغيته ، أمعن في التشفي منهم ، وضرب الذلة عليهم ليدرك بثأر القائد غوردون الذي انكسرت جيوشه قبله ، وقتل شر قتله . وقد أمر كتشنر بنبش قبر المهدي ، وإلقاء عظامه في النيل ، وإرسال جمجمته إلى متحف في لندن . وشاءَ الله له أن يذوق كأساً كان يسقي بها . فقد مات غريقاً عام ١٩١٦م بعد أنْ هَوَتْ به السفينةُ إلى قاعِ اليمِّ .

(٢) السفر : الكتاب .

(٣) يقول : إنَّ الحكمة بلا بحثٍ تُعَدُّ شيئاً حقيراً .

ظهورُ دَرْويشِ السُّودان

هـو ذا فـي المـاءِ بـرقٌ يـأتَلـقْ ... ثُـمَّ يعلـو المـوجُ حتَّـى يَنْـدَفِـقْ
وَمِـنَ الفِـرْدَوْسِ ضـاعَ نَفْـحُ عِطْـر ... لاحَ بـالـرُّوحِ لنـا درويـشُ مِصْـر[1]
إنَّ منهـا الـدُّرُّ فـي القـاعِ اسْتَقَـرْ ... « كشنر » في صَدْرِهِ ذابَ الحَجَرْ[2]
قــال « كشنــر انظُــرَنَّ يــا فَهِــم ... إنَّمــا هــذا تــرابــي يَنْتَقِــمْ[3]
مــا حبـاكَ الله مــن قبـرٍ يَضُمُّـكْ ... بـل رُمِيْـتَ بيـنَ أمـواجِ تَطُمُّـكْ »[4]
ثُــمَّ ضــاعَ فــي اللّســانُ المَنْطِــقُ ... والــزَّفيــرُ مــنْ حَشَــاه يَخْــرِقُ
قـال « هبِّـي أنـتِ يـا روحَ العَـرَبْ ... قلدي الأسلافَ في ماضي الحُقَبْ[5]
يـا فـؤادُ ! ابـنَ السُّعـود ، فيصـلُ ... كلكـم مِثْـلَ الـدُّخَـانِ يَـزْفُـلُ[6]
أوْقِـدُوا فـي الصَّـدْرِ نـاراً أُخمـدَتْ ... أرْجِعُــوا أيــامَ دُنيــا ضُيِّعَــتْ
واديَ البطحــاءِ أنجــبْ خــالــدا ... نشتهــي التَّــوْحيــد فيــكَ غَــرِّدا
أمــةَ الإيمــانِ ، يــا ســودَ الجلـود ... منكــمُ أستــافُ عِطْــراً لِلْخُلــود[7]
فـــإلامَ تَجْهَلُـــونَ سَيْـــرَكُـــمْ ... وتـــولُّـــون سِـــوَاكُـــمْ أمْـــرَكُـــمْ
لَيــتَ شعــري هَــلْ تخــافــونَ البــلاء

---

(١) ضاع العطر : انتشرت رائحته . نفح : فاح .
(٢) كشنر هو اللورد كتشنر . وهكذا أورد الشاعر اسمه مراعاة لوزن الشعر . واستعر : التهب .
(٣) الفَهِمُ : السريع الفهم .
(٤) طم الماء : غمر .
(٥) الحُقَبُ : جمع حِقْبة : وهي السَّنةُ والمدَّة من الزَّمان لا وقْتَ لها .
(٦) فؤاد الأول المتوفى عام ١٩٣٦ كان ملكاً لمصر . وابن السعود المتوفى عام ١٩٥٣ كان ملكاً للمملكة العربية السعودية : وكان فيصل ملكاً للعراق وتوفي عام ١٩٣٣ .
(٧) السُّود : هم العرب . واستاف : شمَّ .

البــلاءُ كــانَ لِلْمــرءِ الصَّفــاء[1]

قــد سَكَنّـا يثـربـاً والحِـبُّ نَجْـدَا — أيـنَ يـا حـادي حـداءٌ هـزَّ وَجْـدَا[2]

ديمــةٌ تهمــي وأرضٌ خُضِّــرتْ — فكــأنَّ الخَطَــواتِ أُثقلَــتْ[3]

الفــراقُ وهــو يُضنينــي طَـوِيـل — امـضِ فـي أرضٍ بهـا عُشْبٌ قليل

نشـوةُ النّـاقـةِ عشـبٌ ، لـي حبيـب — لكَ حبلٌ ، وَلِمَنْ أهْوَى قُلُوبْ[4]

جعلـوا للمـاءِ فـي الصَّحـرا سبيـلا — فـي الجبـال بَلَّـلَ المـاءُ النَّخيـلا

وتتـالـتْ فـي التِّـلال ظبيتـان — فتـأمـلْ ، كيـف مِنهـا تَهْبِطـان

تـرشفـان مِـنْ ميـاهِ النبـعِ قَطْـرا — تـرمُقـانِ مـنْ بتلـكَ الأرض مُـرّا

وَمِـنَ المـاءِ الـرِّمـالُ كـالحـريـر — هـانَ فيهـا كـلُّ سيـرٍ لِلْبَعيـر[5]

مثـلُ رِيشـاتِ السّمـانَـاةِ الغَمـامْ — أرهـب الغيـثُ فَقَـدْ شـطَّ المَقَـام[6]

قــد سكنّــا يثـربــاً والحــبُّ نَجْـدَا
أيــنَ يــا حــادي حُــدَاءٌ هــزَّ وَجْــدَا »

* * *

---

(١) يذكر الشاعر بحديثٍ للنبيّ قال فيه : (أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثلُ فالأمثلُ إلى أن قال : فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يتركَه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة) .

(٢) يثرب : المدينة المنورة . والحِبُّ : الحبيب . والحادي : منْ يسوق الإبل . ويغني لها .

(٣) الديمة : المطر يدوم في سكون . ويهمي : ينهمر . وخضَّر الشيء : جعله أخضر اللون . يقول : إنَّ المطر يُنبتُ العشب في الأرض ، فيصبح سيرُ الإبل في الأرض المعشبة صعباً .

(٤) يوجه الكلام إلى الحادي قائلاً : إنَّ الناقه تجد في العشب لذَّتها ونشوتها . أما هو فنشوته بالحبيب . الحادي يملك الحبل الذي يعقل به ناقته ، أما الحبيب فيملك قلب من يهواه .

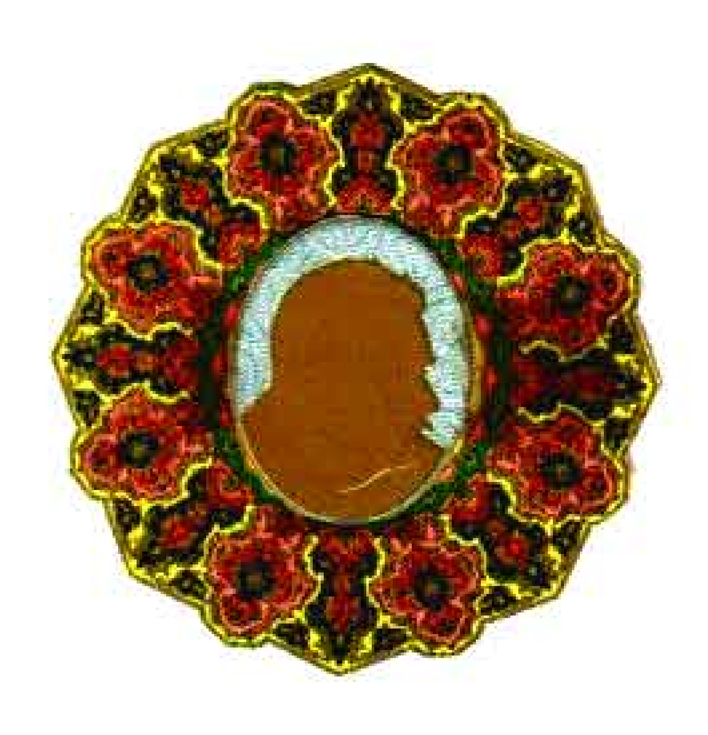
(٥) هان : سهل .

(٦) السماناة : مفرد السُّمانى ، وهو نوعٌ معروفٌ من الطيور . وشطَّ : بَعُدَ .

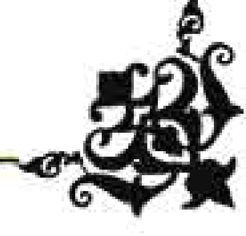


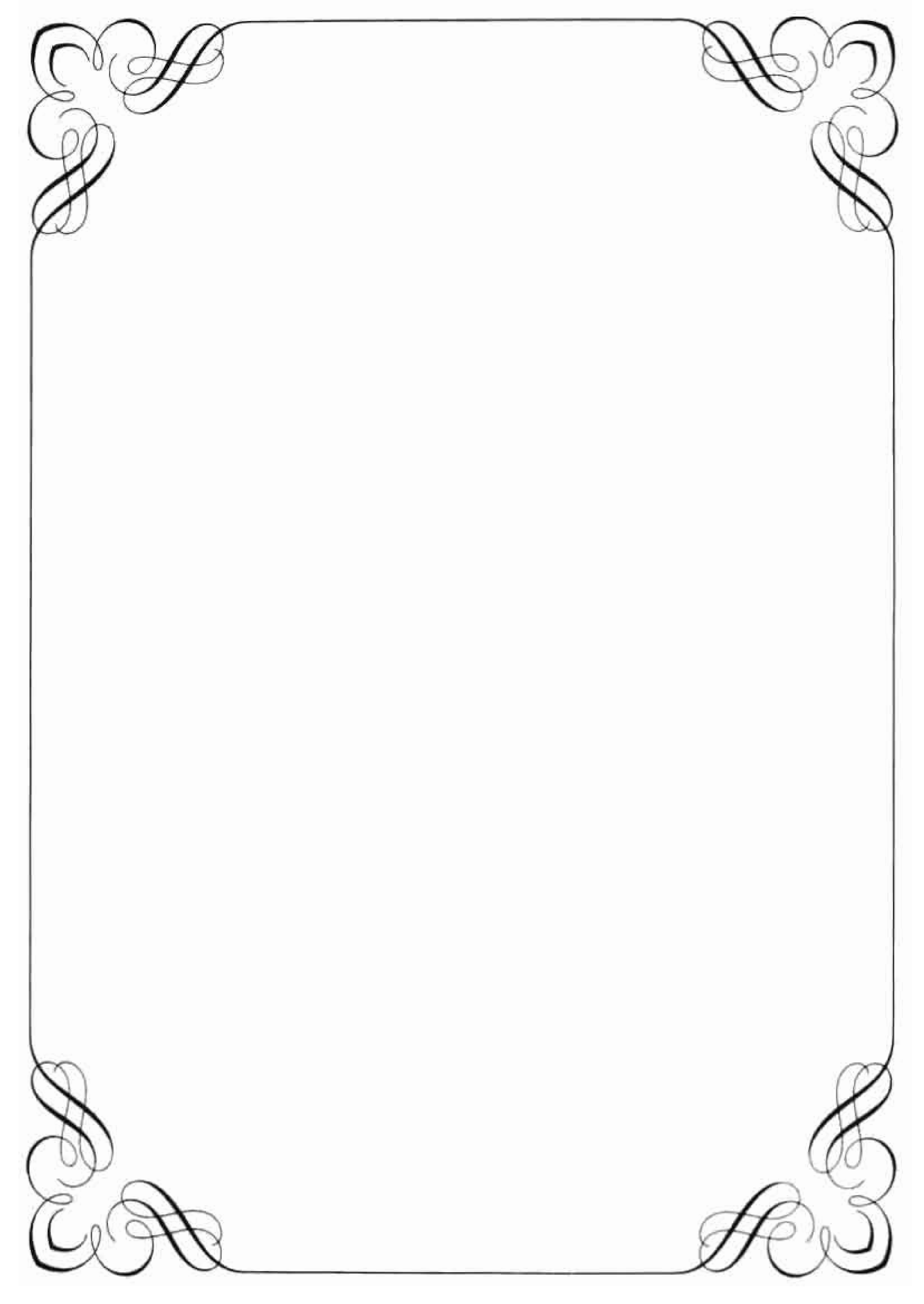
القسم الرابع

فَلَكُ المِرِّيْخ









أهْلُ المِرِّيخ

تَحْتَ هـذا الماءِ عَيْني أُطبِقَتْ ثُمَّ عنِّي الذَّاتُ مِنِّي أُبعِدَتْ
نَحْوَ دُنْيا طابَ لي أنْ أرْحَلا والزَّمَانُ والمكانُ بُدِّلا
شَمْسُنا في الأفْقِ منها أشْرَقَتْ ولها ليلاً وصبحاً أوْجَدَتْ
فإذا بالجسمِ روحاً يَجْهَلُ عن زمانٍ ومكانٍ يُفصَلُ
روحُنا كلَّ لهيبٍ تُخْمِدُ إنَّها في كلِّ وقتٍ تُسْعِدُ
لم تَشِخْ ، واليومُ مرَّ كالطيور إنَّ للأيامِ مِنْها ألفَ نُور[1]

هذه الأيامُ مِنْها كمْ تَوالَتْ
الدُّنى منها وَلَوْلاها لَزالَتْ[2]

ذلكَ المَرْصَدُ في مرجٍ سَمَقْ الثُّريا قَدْ يَصيدُ بالوَهَق[3]
القِبابُ الخضرُ لَاحَتْ أشْهَدُ عالمٌ هذا لَدَيْنَا أسْوَدُ
لاتساعٍ ما أرى حداً طَلَبْت في فضاءٍ لِلسَّماءِ كمْ نَظَرْت
قالَ شَيْخُ الرُّومِ وَهْوَ مرشدي « أنتَ في المرِّيخ فاسمعْ واشْهَدِ
مثلُ دنيانا لهُ لونٌ وَرِيح فيهِ بلدانٌ وبُنْيانٌ وَسُوح[4]
وكأهلِ الغَرْبِ فيه منْ سَكَنْ سبقونا كلَّنا في كلِّ فَنْ

---

(١) شاخ : صارَ شيخاً .
(٢) الدُّنى : جمع دنيا .
(٣) سَمَقَ : ارتفع . الوَهَقُ : حبلٌ في طرفه أنشوطة يطرح في عنقِ الدَّابة حتى تؤخذ . والشاعر يشبه المنظار الطويل الذي تشاهد به النجوم في المرصد بالوَهَق .
(٤) السُّوح : جمع ساحة . والرِّيح : الرائحة .

فَهَرُوا حتَّى الزمانَ والمكانا   في علومٍ لِلفَضَا كلَّ شأنا[1]

إنَّ وعراً في العقولِ مَهَّدُوا   الخفايا في الفَضَاءِ شاهَدوا

قلبُ أهلِ الأرضِ بالطِّينِ المُقيَّدْ   وهناكَ الجِسْمُ بالقَلْبِ المُصَفَّدْ[2]

كانَ بالطِّينِ لقلبِ مَنْزِلُ   كلَّ ما شاء بينٍ يَفْعَلُ

تَهَبُ الرُّوحُ الخُمارَ والسُّرورا   تمنحُ الغيبَ لجسمٍ والحُضُورا[3]

الوجودُ عندنا في مَظْهرينْ   جسمنا والرُّوحُ ما لاحَتْ لِعَينْ

جسمنا والرُّوحُ طَيْرٌ في قَفَصْ   ساكنُ المرِّيخ عنْ فِكْرَىٰ نَكَصَ[4]

وإذا ما جاء يومٌ لِلْفِراقْ   أصبحَ الإنسانُ حيّاً باختِراقْ

بالمنونِ ذلكَ الإنسانُ يُخْبَزْ   ويقالُ بَعْدَ يومٍ سوف تُقْبَرْ[5]

روحُهم بالجسمِ ما إنْ رَبَّبوه   ولهذا جِسْمُهم لم يألفُوه[6]

اندماج الجسمِ في النَّفْسِ الفَنَاءْ   وَمِنَ الدُّنيا فرارٌ وانطواءْ[7]

وكأنِّي قُلْتُ ما لا يُفْهَمُ   لكَ روحٌ وبجسمٍ تُحْكَمُ !

برهةً لا غَيْرَ تبقىٰ هاهنا

لمْ يُشاهِدْ مثلَ هذا غَيْرُنا

* * *

---

(١) شأىٰ : سبق .

(٢) صفد : قيد .

(٣) الخمار : صداع السكر والمراد هنا السكر .

(٤) الفكرى : إعمال الخاطر في الشيء .

(٥) المنون : الموت .

(٦) ربيه : رباه .

(٧) يقول : إن الفرار من الدُّنيا ، والانطواء على النفس موتٌ كإدماج الجسم في النفس .

ظهور فلك المِرِّيخ منَ المَرْصَد

ذاكَ شَيْخُ العِلْمِ بالثَّلج التحىٰ ... ممسياً كانَ بعلمٍ مصبحا[1]

كشيوخِ الغَرْبِ في الفِكْرِ السَّبُوْح ... كنصارى الغربِ في لُبْس المُسُوخ[2]

وهو هِمٌّ بقوامٍ مِثْلَ سرو ... مشرقُ الوَجْهِ كأتراكِ بمرو[3]

وعلى علمٍ بمعنى لِلطَّريقْ ... لَمَعَتْ عيناهُ بالفِكْرِ العَميقْ

وكوردٍ كان قد ألقى الكِمَاما ... قال كالخيَّام والطوسي كلاما[4]

« قالبُ الطِّينِ أسيرُ الكيفِ والكَمْ ... وهو في « تحت » و« فوق » لم يُقِمْ

وأطارَ التُّربَ ، ريشٌ ما نَبَتْ ... جوهرَ السَّيارِ أعطى ما ثَبَتْ »[5]

عَقْلُهُ والقول كالماءِ النَّميرْ ... منهما شاهَدْتُ عَرْضَ المُسْتَحِيرْ[6]

كانَ حلماً ما أرىٰ أمْ كان سِحْرا ... ساكنُ المريخ هذا قال شِعْرا !

قال « في عهدِ النَّبيِّ المصطفى ... بيننا من كانَ مِنْ أهلِ الصَّفا

---

(١) أمسى وأصبح : دخل في المساء والصباح .

(٢) الفرس السَّبوح : السريع . والمسوح : جمع مسح بالكسر وهو الكساء من شَعْرٍ ، كثوب الرُّهبان .

(٣) الهِمُّ : الشيخ الفاني . ومَرو : عاصمة خراسان بإيران . والأتراك مضرب المثل في الحسن عند شعراء الفرس .

(٤) الخيَّام : هو العالم الفلكي المفكِّر عمر الخيام صاحب الرُّباعيات المشهورة من أهل القرن السادس الهجري . والطوسي هو نصيرُ الدين الطوسي من أهل هذا القرن . وله المؤلفات في المنطق والحكمة ، والأخلاق ، والعقائد . وله شهرةٌ مستفيضةٌ بحذقه في علم الفلك . وقد ارتقى هذا العلم بفضلٍ منه ، وأسَّس هولاكو مرصداً في مدينة مراغة كان نصير الدين يرأس العمل فيه .

(٥) التُّرب : التراب . يقول : إنه أطار الترابَ وما للتراب ريش ولا جناح ليطير ، ثم أشار إلى الكواكب السيارة والثابتة .

(٦) الماء النمير : الماء الكثير . والمستحير : الطريق المعترض لا يدرى أين منفذه . واعتراضه يثير الحيرة .

هـذهِ الـدُّنيـا بعقـلٍ أبصـرا ... ورأى الإنسـانُ مـاذا دبَّـرا
الجنـاحَ فـي سمـوات بَسَـطْ ... فـي الحجاز وَسْطَ بيداء هَبَطْ[1]
مـا رأى فـي الخافقيـنِ قَـدْ رُقِـمْ ... فـي كتـابٍ كـان أبهـىٰ مِـنْ إرَمْ[2]
فـارسـاً شـاهَـدْتُهـا والغَـرْبَ زُرْت ... أرضَ مِصْرَ جبْتُها في الهند كُنْت[3]
وعـن الأرضِ تَيَقَّنْـتُ الخَبَـرْ ... وَبِبَحْـرٍ وَبِبَـرٍّ لـي سَفَـرْ[4]
وعـراكَ المـرء فـي الـدُّنيـا رَعَيْنـا
وهـو حقّـاً لَيْسَ يـدري مـا لـدينـا[5]

***

الرُّوميُّ

من سماء كنتُ من أرضٍ رفيقي ... ثملٌ ما ذقتُ طعماً للرَّحيق[6]
رجـلٌ نجْـدٌ يُسمَّـىٰ زنـده رودا ... خرَّ سكراً إذ رأى هذا الوُجودا[7]
أرضُكـم هـذي إليهـا قـدْ وصلنـا ... نحـنُ فـي الـدُّنيـا وَلٰكِنَّـا خـرجنـا
التَّجلِّـي نَحْـنُ عنـه البـاحثـونـا ... والـدَّليـلُ أنـتَ نـرضىٰ أن تكُـونـا

***

---

(١) البيداء : الصحراء .
(٢) الخافقان : المشرق والمغرب . ورقم : كتب . وإرم : تلميح من المؤلف إلى قوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ [الفجر : ٧] وقال بعض المفسرين : إنَّ إرم ذات العماد مدينةٌ عظيمةٌ قصورها من الذَّهب والفضَّة وأساطينُها من الياقوت والزَّبَرْجَد .
(٣) جاب البلاد : قطعها .
(٤) تيقن الأمر : علمه وتحققه .
(٥) رعى : راقب .
(٦) الرَّحيق : الخمر . يقول : إنه سكران ولم يذق خمراً .
(٧) النجْدُ : الشُّجاع . خرَّ : سقط .

حكيمُ المرِّيْخ

مَرغَدين تلك أرضُ برخيا — برخيا جدٌّ لأجدادِ ليا[1]

فرز مرزَ بالشرور الآمرُ — ولديه في الجنانِ الحاضرُ[2]

قال : « أنت هانىءٌ كالعادة — طالما أُلزمتَ سيرَ الجادَّةِ[3]

عالمٌ ، ما أنت فيه يَفضُلُ — يجعلُ الجنَّةَ زهراً يَذبُلُ[4]

وعلا حتَّى على تِلْكَ الجِنانْ — إنَّه فَوقَ الزَّمانِ والمكَانْ

أيراه الله ؟ إنّي ما دَرَيتْ ! — مثلَهُ حرّاً وحقِّي ما رأيتْ ![5]

قَدْ خَلا حتَّى منَ الربِّ الدَّخيلْ — لَيْسَ فيهِ منْ كتابٍ أو رَسُولْ !

لَيْسَ فيه من طوافٍ أو سُجُودِ — لا ولا فيهِ الدُّعاء لِلْحَميدِ

قالَ فانهضْ دبرنَّ خدعتَكْ — اذهبنَّ فيهِ أفرغْ صَورَتَكْ[6]

ما بهذا السِّحْرِ أُغوي جدُّنا — فالإلهُ عالَماً أعطى لنا

إنَّه منْ فَضْلِ ربِّ العالمينا

امضِ فيه وتأمَّلْ مَرغَدينا

* * *

---

(١) برخيا : اسم الجدّ الذي يتخيله إقبال لسكان المريخ . ولم يُلْقِ سمعاً إلى وسوسة الشيطان .

(٢) فرز مرز : اسم يتخيَّله الشاعر كمرغدين .

(٣) الجادة : وسط الطريق : وألزمه السير في الجادة كناية عن إلزامه عدم الانحراف إلى الشر .

(٤) يحدثه عن عالم آخر أحسن مما هو فيه ، وحسنُه ربيعٌ دائم ، وكأنَّ الجنَّة قياساً عليه ربيع لا يدوم ، أو زهرة سرعانَ ما تذبل .

(٥) يبالغ الشاعر في وصف هذه الشخصية الخيالية بالكفر . والمبالغة من مقوِّمات الشعر وسماته .

(٦) هذا كلام برخيا .

التَّجْوَالُ في مدينة مرغدين

البنـاءُ فـي السَّمـاء كـان طـولا ... فـي السُّمُـوِّ مـا عَسَيْتُ أنْ أقـولا

سـاكِنُوهـا قـولُهـم مثـلُ الشُّهـادْ ... زانَهـم حُسـنٌ وطِيْـبٌ فـي الفُـؤادْ[1]

مـا بتحصيـلٍ وكـدٌ فِكْـرُهُـمْ ... سـرُّ تلـكَ الشَّمْـسِ أفشـى عِلْمَهُـمْ

مـن أرادَ المِلْـحَ فـي نـورٍ وَجَـدْ ... مثـلُ ملـحٍ مـنْ بحـارٍ يُسْتَمَـدْ

العلـومُ والفنـونُ تَخْـدُمُ ... وازنـوهـا بـالنُّضَـارِ مـنْ هُـمُ ؟[2]

إنَّمـا الـدِّينـارُ كـانَ كـالصَّنـم ... أبعـدوا الأصنـامَ عـنْ هـذا الحَـرَم

آلـةُ الشَّيطـانِ لـم تقهـر طبيعـه ... ما الدخانُ في السموات الوسيعه[3]

إنَّ للفـلاح مصبـاحـاً أنـارا ... مـالكـاً لـم يَخْـشَ حتـى إنْ أغـارا

آمنـاً يـروي نبـاتـاً يَمْلِكُـهْ ... مـا لَـهُ فـي مِلْكِـهِ مـنْ يُشْـرِكُـهْ

هـاهنـا مـا لاحَ جنـديٌّ لـرائـي ... لا ولا منْ عاشَ مِنَ مصِّ الدِّماء

مـرغـديـنُ ليـس فيهـا مـنْ قَلَـمْ ... فِـرْيـةٌ للخـادعيـن قـدْ رَقَـمْ[4]

ليـس فـي السُّـوقِ نِـدَاءُ مـنْ تَبَطَّـلْ ... لا ولا في الأذْنِ نَوْحُ منْ تَسَوَّلْ[5]

***

حكيمُ المِرِّيْخ

لا مكـانَ هـاهنـا للسَّـائلينـا

والعبيـدُ لا تُـرى والمـالِكينـا

---

(١) الشُّهاد : جمع شَهْد .

(٢) النُّضار : الذَّهب .

(٣) يقول : إن الآلة شيطان لا تقهر الطبيعة ، ودخانُها لا يعكِّر صفو السماء الواسعة .

(٤) الفريةُ : الكذب واختلاقه . ورَقَم : كتب .

(٥) تبطَّل : تعطَّل ، ولم يَعْملْ .

زنده رود

بقضـــاءِ اللهِ هــذا مــنْ حُـرِمْ وبــأمــرِ اللهِ ذاكَ مــنْ حُكِـمْ
إنَّمـا التقـديـرُ للهِ المقـدَّرْ لَيْسَ مِـنْ تَـدْبِيـرِ إنسانٍ مُـدَبِّـرْ

* * *

حكيمُ المريخ

القضـاءُ إنْ عَـدِمْـتَ خَيْـرَه مِنْ إلهِ الكَوْنِ فاطلبْ غَيْرَه[1]
بِسُـؤالِ اللهِ كُـنْ أنـتَ الجـديـرا يملـكُ اللهُ الكثيـرَ والكثيـرا[2]
كـلُّ مـالِ الـذَّاتِ فـي قَـوْمٍ هَـدَرْ إنَّهـم لَـمْ يُـدْرِكـوا معنـى القَـدَرْ[3]
رمـزُه حـرفـانِ ، هَـلْ أدرَكْتَـهُ « إنْ تَغَيَّـرْتَ فَقَـدْ غَيَّـرْتَـهُ »
كُـنْ تـرابـاً لِتَطِيْـرَ فـي الهـواء حجـراً كُـنْ بـكَ تحطيـمُ الإنـاء !
أنـت طَـلٌّ ؟ فـالسقـوطُ فَـوْقَ زَهْـر أنـتَ بحـرٌ ؟ فـالخُلـود كـلَّ دَهْـر[4]
قـد صَنَعْـتَ لـكَ دومـاً أنْـتَ لاتـا مـا ثبـتَّ ، فَلْتُعَلِّمْـكَ الثَّبـاتـا
أنْتَ ما لم تَرْفُضِ الإيمانَ نَفْسُكْ عـالَـمَ الأفكـارِ فيـهِ كـانَ حَبْسُـكْ
قـد ينـالُ المـالَ مَـنْ يَلْقَـى التَّعَـبْ وعـديـمُ الأيْـنِ مَـوفُـورُ النَّشَـبْ[5]
كـانَ هـذا أصـلَ ديـنٍ يـا غـريـر ؟! فليـزد فـي فَقْـرِه هـذا الفَقِيْـر[6]

---

(١) القضاء : ما يقدّره الله للإنسان .

(٢) يريد الشاعر ليقول : إن الإنسان يستطيع أن يسأل الله قدراً آخر ، وكأنَّه بذلك يستطيع اختيار قدرٍ يوافقه .

(٣) هدر الدم : ذهب باطلاً ليس فيه قَوَدٌ . واستعير ذلك للمال إذا ضاع في غيرِ نفعٍ .

(٤) الطل : الندى أو أضعف المطر . وإقبال يلمح إلى قدر الضعيف وقدر القوي .

(٥) الأين : التَّعب . والنَّشب : المال .

(٦) الغرير : من لا تجرِبة له . وإقبال ينزه الدين عن الدعوة إلى الكسل ، لأنَّ الغنى والفقر ما قدر الله للمرء بقطع النظر عن كسله أو توفره على عمله .

أيُّ دينٍ ! وإلى نومٍ دعاكا فأطلت النَّوْمَ لا تبدي حَرَاكا

أَفَسِحْرٌ ذاك أمْ دينٌ لَكَا

نشوةُ الأفيونِ تمحو وَعْيَكَا ؟

أعَلِمْتَ أنْتَ مِنْ أيْنَ النُّهى هذه الحوراءُ أيْنَ طِيْنُها

قوةٌ في الفِكْرِ كانت للحكيم طاقةٌ بالذِّكر كانَتْ لِلْكَلِيم

ذلكَ القَلْبُ عليه ما خَطَرْ وجميعُ المُعْجِزَات مِنْ فَطَرْ[1]

أفصيحٌ أنْتَ ؟ ما هذا بِقَوْلِكْ تُنجِزُ الأعمالَ ؟ لكن ما بحوْلِكْ[2]

كلُّ هذا كانَ فيضاً للرَّبيعْ أوْ ربيعٍ فطرةُ اللهِ البَديعْ

ما الحياةُ ؟ مَعْدنٌ للجَوْهَرِ الأمينُ أنْتَ ، مُلْكُ الآخَرِ[3]

يَشْرُفُ الإنسانُ بالطَّبْعِ الجواد خدمةُ الخلقِ لَهُ كلُّ المُرَاد

تِلْكَ كانَتْ شيمةً للأنبياء

تاجرٌ مَنْ نَالَ ربحاً كالجزاء[4] !

هكذا تِلْكَ الرِّياحُ والمَطَرْ والبساتينُ وكلُّ ذي ثَمَرْ

أتقولُ ما لَدَيْنا مُلْكُنا ؟! يملكُ الملكَ جميعاً رَبُّنَا

كلُّ أرضٍ أرضُ ربِّي فاشْهَدُوا في الكتابِ قولَهُ ﴿ لا تفسدوا ﴾[5]

سلَّمَ المرءُ لإبليسَ القِيَادَا إنَّما إبليسُ مَنْ يَسْعَىٰ فَسَادا

---

(١) فطر : أوجد .

(٢) الحول : القدرة . يقول : إنَّ الفصاحة ليست للفصيح ولكنَّها هبة من الله . وكذلك الشأن في القدرة على إنجاز العمل .

(٣) المعدن : المنجم . يقول : إن الإنسان أمين على هذا المنجم والله صاحبه .

(٤) لا ينبغي لمن يخدم الناس أن يتوقع منهم جزاء على خدمتهم ، وإلا كان كالتاجر الذي لا يتوقع إلا الربح .

(٥) يشير إقبال إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] ، أي : لا تفسدوا فيها بالمعصية بعد الطاعة ، أو بالشرك بعد التوحيد ، أو بالظلم بعد العدل .

مَــنْ أميــنٌ مُنجِــزٌ أعمــالَــه ؟ لَيْتَــــه لله ردَّ مــــالَـــهُ

قَدْ أَخَذْتَ أَنْتَ شيئاً غَيْرَ مِلْكِكْ يا لعمري ليس هذا شأنُ مِثْلِكْ !

امْلِكَـــنَّ الشـــيءَ فيـــه رَاغِبـــا أو فخـاطِبْ مِنْكَ نَفْساً عـاتِبا[1]

إنَّ مُلْـــكَ اللهِ هـــذا فلتـــردَّه كي تَحُلَّ أنْتَ في الأعمال عُقَدَه

ولمـاذا اليـوم نشكـو فَقـرَنـا ؟ مـا لـربِّ الكـونِ قُلْتُـم : ذا لَنـا !

كــلٌّ مــنْ طينـاً ومـاءً لازَمـا كـأسُـهُ بـالصَّخْـرِ طَوْعـاً حطَّمـا

منـزلٌ ذا أمْ طـريـق ؟ مـا عَـرَفْنا كـلَّ شـيءٍ كـان يَبْـدُو لـو نَظَـرْنـا

جــوهــرٌ هــذا لَكِــنْ إنْ مَلَكْتَــهْ والحَصَى إنْ لم يَكُنْ في الكَفِّ دُسْتَهْ[2]

* * *

قِصَّةُ فتاةِ المِرِّيخ التي ادَّعت النُّبُوَّة

بِقُصُـــورٍ وَبِسُـــوحٍ قَــد مَــرَرْنــا جــانِــبَ الأســوارِ مَيْدَانـاً رأينـا

مِــنْ رجــالٍ ونســاء فِيــهِ حَشْــدُ وفتــاةٌ ، ولهــا كــالْبَــانِ قَــدُّ

وأنــارَ وَجْهُهــا مِــنْ غَيْــرِ رُوحْ والكـلامُ لَيْسَ فيـهِ مِـنْ وُضُـوحْ

لَفْظُهــا صلْــدٌ وَعَيْــنٌ مـا جـرت بَهْجَــةَ الآمــالِ قَــطُّ مــا دَرَتْ

الشَّبــابَ قلبُهــا مــا إن سَعَــرْ ولهــا المـرآةُ لا تُبْـدِي الصُّـوَرْ[3]

وَعَـنِ العِشْـقِ أتـدري مـا الخَبَـرْ !؟ صَعْـوةٌ والعِشْـقُ شَـاهِيـنٌ كَسَـرْ[4]

هكـــذا قــالَ الحكيـــمُ شَيْخُنـــا « هـذه الحسنـاءُ لَيْسَـتْ مـنْ هُنَـا »

---

(١) يقول : إذا لم تكن مالكاً لشيء من حقّك أن تَمْلُكَه ؛ فعاتب نفسك على ذلك .

(٢) يقول : إذا ملكت الجوهر فأنت تنعم به ، وعليه فقد حقَّقت متعتك بامتلاكه . أما إذا ملكه سواك فأي متعةٍ وفائدة لك منه ، وكأنه لا يكون الجوهر حقاً إلا إذا كان لك .

(٣) سَعَر النَّار : أوقدها .

(٤) الصَّعوة : أنثى الصَّعو ، وهو عصفورٌ صغير . والشَّاهين : طائر من جنس الصقر . وكَسَرَ : ضمَّ جناحيه لينقضَّ على فريسته .

فـزُمَـزِزُ فـي حـديـثٍ قَـدْ صَـدَقْ « مِـنْ بـلادِ الغَـرْبِ إيَّـاهـا سَـرَقْ
لَقَّـن الحَسَنـاءَ أسْـرارَ النُّبُـوَّهْ ثُـمَّ فـي العَـالَـمِ ألقـاهـا بِقُـوَّه !
مِنْ سمائي قَدْ هَبَطْتُ اليَوْمَ قَالَتْ دعـوتـي فـي آخـرِ الأيَّامِ كـانَـتْ
عـن نسـاءٍ ورجـالٍ مـا تَقُـوْل وصريحُ القول ما عافَ الخَجُول !
سـأقـولُ مـا المصيـرُ مـا القَـدَرْ ،
بلسـانٍ تَفْهَمُـونَ يـا بَشَـرْ »

* * *

رسالةُ نَبيَّةِ المِرِّيخ

يـا نسـاءُ ، أنـتِ يـا أمّي الجَلِيْلَـهْ قُلْنَ لي حتَّامَ عيشي كالْحَلِيْلَهْ[1]
عَيْشُهـا مـا كـانَ إلا ظُلْمُهَـا إنَّمـا الحِـرْمَـانُ فـي الـدُّنيـا لَهَـا
إنَّنـا بـالمشـط نُـرْخِـي شَعْـرَنـا فـي الـرِّجـالِ قَـدْ وَجَـدْنـا صَيْدَنَـا
الـرِّجـالُ صـائـدونَ ، حِـذْرَكُـنْ ! ولأجْـلِ الصَّيْـدِ داروا حَـوْلَكُـنْ[2]
وإذا أبْـدَوْا هيـامـاً مـاكِـرُونـا وَبِشَـوْقٍ وشُجُـونٍ خـادَعُـونـا
كـافِـرونَ ، ويُقيمُـون الحَـرَمْ ولكِـنَّ فيـهِ ألـوانُ الألَـمْ[3]
وعلـى العيـشِ إذا تـمَّ اتفـاقْ فالوصالُ السُّمُّ والشَّهْدُ الفِرَاقْ[4]
الأفـاعـي ؟ مـنْ تُطِيْـقُ لَـدْغَهُـمْ لا تُـرِقْـنَ فـي الـدِّمـاءِ سُمَّهُـمْ[5]

---

(١) الحليلة : الزوجة . والشاعر يجري الكلام على لسان فتاة المريخ موجهاً إلى النساء ، وإنما أراد بكلامها التلميح إلى تبرّج فتاةِ الغرب وصراحةِ تعبيرها عن مبادىء المرأة المنحرفة التي تفضّل الخليل على الخليل .
(٢) حذركن : احذَرْنَ .
(٣) الحَرَم هنا : بيت الزوجية .
(٤) الاتفاق على العيش : الاتفاق على الحياة الزوجية .
(٥) يشبّه الرجال في نظر هذه المرأة بالأفاعي .

كــلُّ أمٍّ ســوفَ تَضْـوَىٰ فــي ذُبــولْ
طـابَ عَيْشٌ ليس فيـهِ مـنْ حَلِيـلْ[1]

إنَّ هــذا الــوحــيَ يــأتيني تِبَــاعَــا　　طــابَ لــي الإيمـان عُمْقـاً واتّسـاعـا
عصــرُنــا أبــدىٰ لنــا إعجـازَ فَــنْ　　الجَنِيْــنُ قــد نَــرَىٰ فــي طــيِّ بَطــنْ
فَلَــدَيْــكَ أنْــتَ مِــنْ حَقْــلِ الحيـاة　　مــا أرَدْتَ مــن بنيــنٍ أوْ بنـــات
إنْ وَجَــدْتَ غَيْــرَ مــرغــوبٍ لَــدَيْــكْ　　كــانَ دِينــاً قتلُــه مــنْ غَيْــرِ شَــكْ
إنَّ هـــذا العَصْـــرَ تتلـــوهُ العُصـــور　　ولأســـــرارٍ وأســـــرارٍ ظُهُـــــوز
فـــالجنيـــنُ هـــذه الـــدُّنيـــا قَـــدِم　　مـا رأى قــطُّ ظــلامـاً فــي الــرَّحِم.
فَلْيَمُــتْ ! يَبْــدُو كَشَيْطــانٍ مَــرِيْــد　　حيــوانـاً كـان فـي العهـد العَهِيـدْ[2]
لِلْــوُرُود الحُمْــرِ مــنْ أرْضٍ طُلُــوعْ　　للنَّــدَىٰ مــا همَّهــا قــطُّ الــوُقُــوعْ !
وَخــدَهُ ســرُّ الحيــاةِ قــدْ ظَهَــرْ　　مــا لَــدَيْــهِ مِضْــرَبٌ هــذا الــوَتَــرْ[3]
دَعْـكَ مـنْ غَيْـثِ الـرَّبيـع يـا مَحَـازْ　　وَلْتَمُــتْ ظمــآنَ تَطْــوِيــكَ البِحَــازْ[4]
غــالبــي مــا النَّــاسُ قــد سمَّــوه فِطْــرَهْ　　والفتــاةُ فَلْتَكُــنْ مــنْ بَعْــدُ حُــرَّه

بـــافتـــراقِ الجســـديـــنِ وَحِّـــدِي
كـي تُصـانـي ، عـن رجـالٍ فـابْعُـدِي[5]

---

(١) ضوي : ضَعُفَ ونَحَلَ . يقول : إنَّ المرأة إذا ولدت اعتراها الضَّعفُ والذُّبول . والحليل : الزوج .

(٢) المريد : الخبيث . وهذه المرأة تريد للرجال أن يموتوا ويصبحوا حيواناتٍ منقرضةً . والعهيد : القديم .

(٣) المضرب : ما يضرب به العود وغيره . وكأنَّ سرَّ الحياة وترٌ يرسل الأنغام من غير عازفٍ .

(٤) المحار : صَدَفُ اللؤلؤ . وفي عقيدة القدماء أنَّ مَطَرَ الرَّبيع إذا سَقَطَ في المحارة تكوَّن اللؤلؤ بها .

(٥) يبالغ الشاعرُ في التهكُّم فيقول : إنَّ افتراق المرأة عن الرجل في الحياة الزوجية دينُ التوحيد عندها ! لأنَّ تلازمَ الجسدين أو الشخصين في الزواج يعدُّ ثنويةً لا توحيداً !! .

الرُّومِيُّ

مَذهبُ العَصْرِ الجديدِ ! قِفْ لِتَنظُرْ … يا لعمري كلُّهم بالله يَكفُرْ

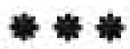
إنَّ هذا العِشْقَ شَرْعٌ لِلْحَيَاةْ … في الحياةِ ما لنا دِيْنٌ سِوَاهْ[1]

وَهِيَ في الظَّاهِر نارٌ تَحْرُقُ … وبنورِ اللهِ قاعٌ يُشْرِقُ

نارُهُ قد أَوْجَدَتْ كلَّ الفُنونْ … كلُّ فنٍّ كانَ مِنْ فَرْطِ الجُنونْ !

إنَّ عِشْقاً بوَّأَ العلياءَ دِينا

ذلكَ الدِّينُ فَخُذْ عنْ عاشِقِينا[2]





---

(١) المرادُ بهذا العشقِ عشقُ الصُّوفيةِ للذَّاتِ الإلهية .

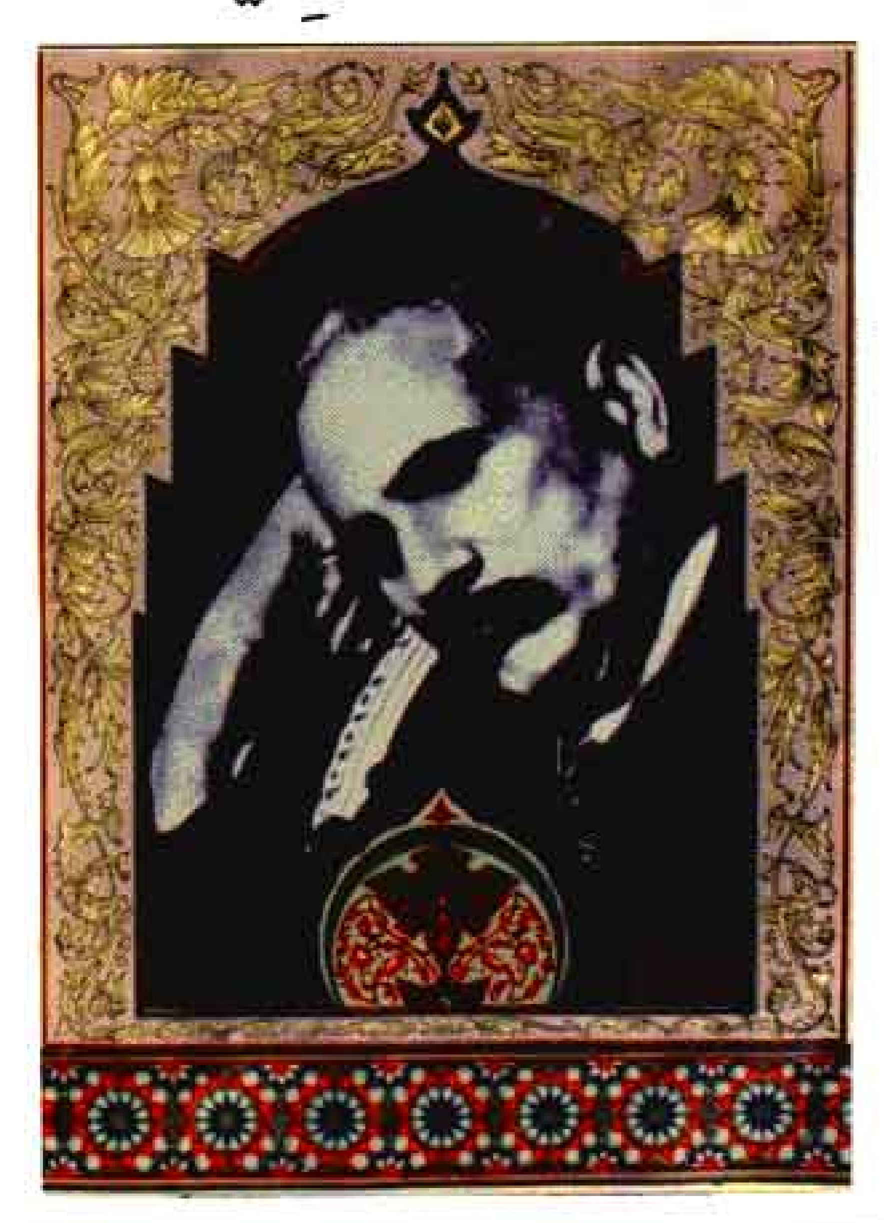
(٢) العلياء : المكانُ العالي وكلُّ ما علا من شيء . والمعنى : أنَّ العِشْقَ الإلهيَّ يسمو بالدِّين . والعاشقون : عاشقو الذَّاتِ الإلهية .



القسم الخامس

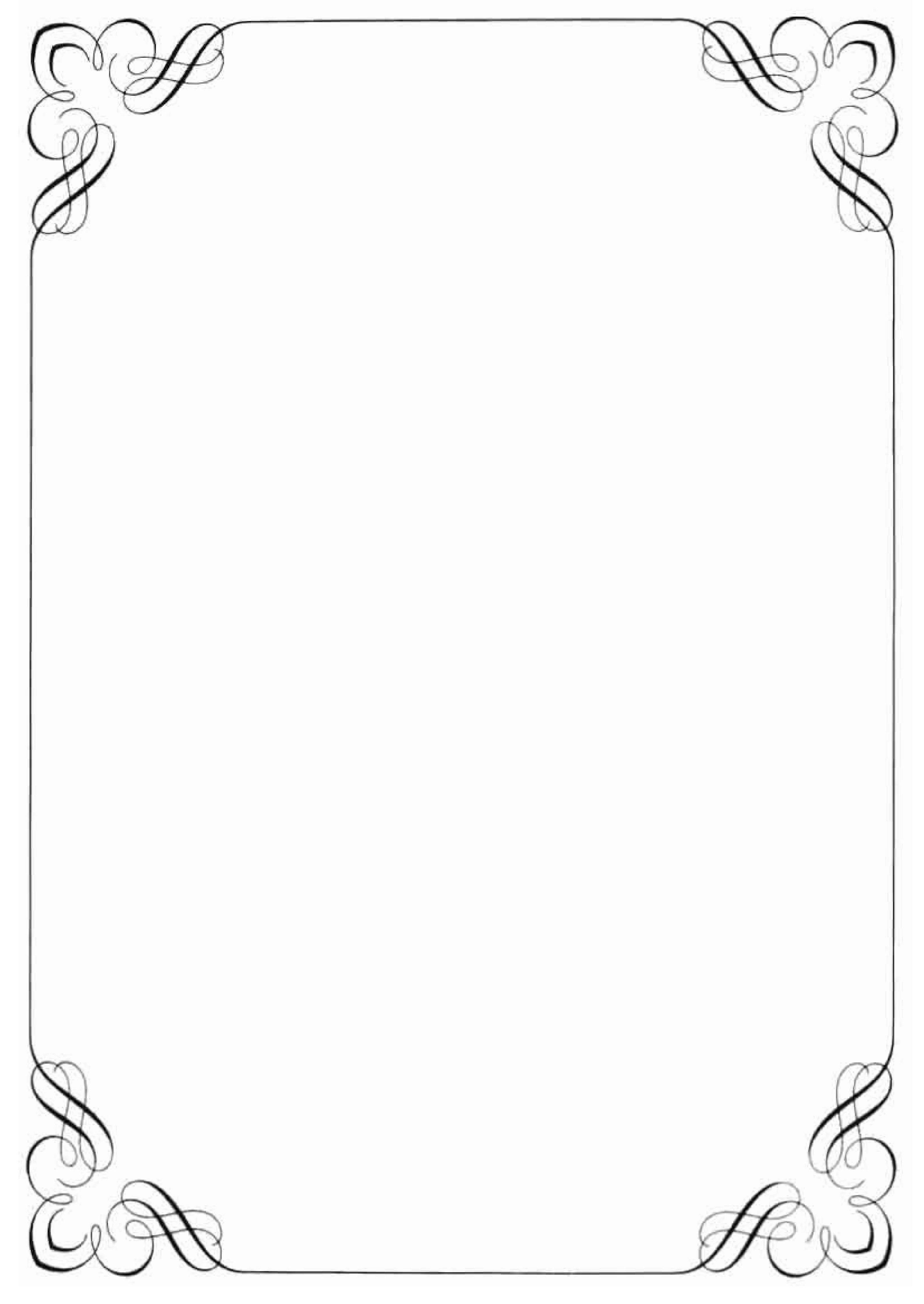


فَلَكُ المُشْتَرِي









أرواحُ الحلاَّج[1] وغالبٍ[2] وَقُرَّةِ العَينِ الطَّاهِرَة[3]

لم تجدْ لها مستقراً في الجنة
فَجَعَلَتْ تطوف على الدَّوام وإلى الأبد

قلبـي المجنـونَ إنِّـي قـد فَـدَيْـتَ ... كـلَّ يـومٍ منـه صحـراءَ وَجَـدْت[4]
إنْ بلغـتُ منـزلاً لـي قـال قُـمْ ... القَـويُّ بحـرَه كـوبٌ يَضَـمْ[5]
مـا لآيـاتٍ لِـرَبِّ الكَـوْنِ آخِـرْ ... ما انتهى هذا الطريقُ يا مُسافر ؟
الحكيـمُ مَـنْ يَـرى شيئـاً ويَخْبُـو ... والعَلِيْـمُ مـا يَـراهُ سوف يَـرْبـو[6]

---

(١) الحلاَّج هو الحسين بن منصور ، ذلك الصُّوفي المعروف بشدَّة الغلو والتطرُّف في نزعاته الصُّوفية التي كان حريصاً على نشرها في الناس . فما ركن إلى الكتمان ، ولا كان منطوياً على نفسه . بل كان يصيحُ في الأسواق ، وهو في حالةٍ من الجذبةِ والطَّرَب . وقال بالاتحاد مع بقاء كلِّ عنصرٍ من عنصريه على ما هو عليه ، واتُّهم بالحلول والكفر لقوله : (أنا الحق) فصُلِبَ عام ٣٠٩هـ .

(٢) غالبٌ : هو من أعظم شعراء القارة الهندية ، نظمَ بالفارسية والأوردية ، ويتَّسمُ شعره ببعد الخيال ، ودقة التصوير ، وهو مفكرٌ عميق التفكير في تحليل النفوس ووصف الطباع . كانت وفاته عام ١٨٦٩م .

(٣) الطاهرة : شاعرةٌ إيرانية تُعْرَف كذلك بقرة العين . وقد شايعت من يسمَّى « الباب » في حركةٍ دينيةٍ تُعَدُّ في الإسلام بدعةً مذهبيةً ، فصدر الحكم بقتلها في إيران عام ١٨٥٢م . وشهرتُها بشدَّة الجرأة في التعبير عن الرأي ، كما كان من دعوتها إلى السُّفور .

(٤) المجنون هنا هو العاشق المشبَّه بمجنون ليلى ؛ الذي دلهه الحبُّ ، فهام على وجهه في القفار .

(٥) المنزِلُ هنا : مكانُ نزولِ المسافر .

(٦) الحكيم هنا هو العَالم . والعليم هو الصوفي . وتخبو النار : تخمد وتنطفىء . ويربو : يزيد .

الحكيمُ طِبْقَ فنٍّ ما اختَبَرْ ... لِلْعَليم كانَ ميزانَ النَّظَرْ[1]

الحكيمُ الطِّيْنَ بالكفَّيْنَ جسَّا ... والعَلِيْمُ مسَّ تِلْكَ الروح مسَّا

التَّجلِّي كانَ هذا منْ رَآهُ

غَيْرَ أنَّ ذاكَ في ذاتِ طَوَاهُ

عن جديدِ مِنْ تَجَلٍّ قَدْ بَحَثْتَ ... طفتُ بالأفلاكِ مِثْلَ الناي نُحْتُ

كلُّ هذا كانَ فيضاً مِنْ طَهُوْر ... ألهبَ الرُّوحَ بمَسٍّ مِنْ سَعِيْر[2]

وصلا مِنْ بَعْدِ أنْ طالَ الرَّحِيلْ ... وبشطِّ المُشْتَري كانَ النُّزُولْ[3]

ذلكَ العالَمُ للتُّرْب المَقَرْ ... حولهُ شاهَدْتُ أقماراً تَمُرْ[4]

كرُمه ما فيهِ منْ كأسٍ لنا ... أرضُه ما أخْرَجَتْ قطُّ المُنىٰ

كان جوفُ اللَّيلِ بالقمراءِ ظَهْرَا ... ما عَرفْنا جَوَّهُ بَرْداً وحرًّا[5]

في السَّماء تلكَ عيني تَنْسَرِبْ ... وأرى الكوكبَ مني يَقْتَرِبْ

دخلتني هيبةٌ مِمَّا أرى ... ما أراهُ كلَّ شيءٍ غَيَّرا

هذه أرواحُ طُهْرٍ تَظْهرُ ... قَلْبُها بالنَّارِ دنيا يَضْهَرُ

ترتدي ثوباً جميلاً أحمرا ... وجْهَها ، والقَلْبُ نارٌ ، نوَّرا

مِنْ ﴿ ألست ﴾ هزَّها فَرْطُ اضْطِرابْ ... سَكِرَتْ، مِنْ لحنها رَشْفُ الشَّراب[6]

« الزَمِ الذَّات » بها الرُّومي حباني ... « عِشْ بأنفاسِ لِمَنْ غَنَّى الأغاني »

ما رأيتُ مِثْلَ هذا الشَّوقِ فانظُرْ ... وعلى تِلْكَ الحُمَيَّا أيْنَ تَعْثُرْ

---

(١) المراد بالفن أصول العلم .

(٢) الطهور : الطاهر . والشاعر يشير إلى رجل طاهر النفس . والسعير : النار .

(٣) يريد بمن وصلا : العالم والصوفي .

(٤) التُّرب : التراب . ومن أسماء الدُّنيا في الفارسية (خاكدان) بمعنى مجمع التراب .

(٥) القمراء : نورُ القمر .

(٦) قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

قُــرَّةُ العَيْــنِ ومَنْصُــورٌ وغَــالِـبْ حَرَمُ الأرواحِ مِنْهُمْ شِبْهُ جَالِبْ[1]
لَحنُهُــمْ روحــاً يَمُــدُّ بــالثَّبَــاتْ
نــارُهــم مـنْ جَـوْفِ تِلْـكَ الكَـائِنَـاتْ

***

لحنُ الحلاَّج

مِـنْ تـرابـي لـي لهيـبٌ مـا رَأَيْتُـه مثـلُ هـذاك التَّجَلّـي مـا طَلَبْتُـهْ
نَظْـرَتـي أمْعَنَـتْ فـي ذاتـي طـويـلاً فِتَـن الـدُّنيـا حبيبـي مـا شَهِـدْتُـهْ !
ذاكَ شِعْـرٌ أيـنَ مِنْـهُ مِلْـكُ جَـمٌ غيـرُ مقتـولٍ بعشـقٍ مـا نَسَبْتُـه[2]
عقلُنـا إنْ كـان يَغْـزو أيُّ بـأس ؟ عِشْقُنـا هـذا وحيـداً مـا عَـرَفْتُـه
الطَّـريـقَ والمَقَـامَ لَسْـتَ تـدري أي لحـنٍ لِسُلَيْمـى مـا سَمِعْتُـهْ

---

(١) قرّة العين ومنصور اسمان للطاهرة والحلاّج . وجلب : لغط وصاح وضج . والجالب : اسم الفاعل من جلب ولكن المراد هو ضجيج الأرواح لا ضجة الحَرَم .

(٢) جَمْ أو جَمْشِيد مِنْ مُلوك الفرس في العهد الأسطوري ، وكان مشهوراً بعظمته ، واتساع ملكه . ويريد الشعر بالشطر الثاني من ذلك البيت وهو لشاعر يُسمَّى نظيري عاش في الهند ، وأصله من إيران ، وكانت وفاته عام ١٦١٢م .

وهذا الشاعر يقول : مَنْ لَمْ يَمُتْ عِشْقاً لَيْسَ منَّا . وهو يذكّرنا بترديد شعراء الصُّوفية لهذا المعنى ، ومنهم الشاعرُ العربيُّ عمرُ بن الفارض القائل :

هو الحبُّ فاسلم بالحَشَا ما الهوى سَهْلٌ فمـا اخْتَـارَهُ مُضْنـىً بـه ولـه عَقْـلُ
وَعِـشْ خَـاليـاً فـالحُـبُّ راحتُـه عَنَـاً وأولُـــه سُقْـــمٌ وآخِـــرُه قَتْـــلُ

وقيل في شرح هذا : إنَّ الموت في الحب عنده حياة تفضّل الحبيب بها على العاشق . والوفاءُ للحبيب بالوفاة . والموت فيه حياة . والميت خارج عن دعوى قدرته ، وهذا ما يظهر أنَّ القُدْرَة لله . وبذلك يكون قد مات الموتَ الاختياريَّ قبلَ الموتِ الاضطراري . وعليه فموتُه حياةٌ لانكشاف الحياة الحقيقية الأزلية ، وفي هذا يقول شاعر آخر :

ولكـنْ لـديَّ المـوتُ فيـه صَبَـابـةٌ حيـاةٌ لمـن أهـوى علـيَّ بهـا فَضْـلُ

صِفْ لنا النُّونَ وبيِّن كَيْفَ صَيْدُه لا تَقُلْ لي زورقٌ ما إنْ رَكِبْتُهْ[1]
إنَّ شيخي قال لي : لولا صِعَابٌ صادفتني في طريقي ما سَلَكْتُهْ !
أرشفُ الصَّهباءَ في حَشْدِ النَّدامىٰ
قلْ لنا شيخَ النضالِ ما اجتنبتُهْ[2]

* * *

لحن غالب

السَّماءُ مِثْلَمَا شِئْتَا نُديِر والقضاءُ الكأسَ أرْوَتْنا نُدِيْر[3]
شِحْنَةُ السُّلْطانِ نَحْنُ ما رَهِبْنَا للنَّوال كفَّنَا مِنَّا نُدِيْر[4]
الكليمُ لمْ يَنَلْ جواباً لِلْخَليلِ وَجْهَنَا كُنَّا نُدِيْر[5]
سارقَ البُستانِ ماذا أنْتَ تَبْغي سلَّةٌ قدْ أُفْرِغَتْ إنَّا نُدِيْر[6]
نَحنُ في رِفْقٍ طيورَ الرَّوْضِ صبحاً نَحْوَ أعشاشٍ لها كنَّا نُدِيْر[7]

---

(١) النُّون : الحوت .
(٢) الحشد : الجماعة من الناس . والشاعر يطرق المعاني الصُّوفيَّة دون سواها . وقد ترجمنا هذه المنظومة ملتزمين أسلوب إقبال في الأصلِ الفارسي .
(٣) أدار الكأس : قدَّمها بالتناوب إلى جماعةِ الشاربين . وكلمةُ ندير هي الرديف في الأصل الذي التزمنا تكراره مع القافية الموحدة التي تسبقه .
(٤) الشَّحْنَةُ : منْ يضبط البلد منْ قِبَلِ السُّلطان . والنَّوال : العطاء . وإدارة الكفِّ للنوال كنايةٌ عن رفضه .
(٥) الكليم : موسى ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والشاعر يجنح إلى مبالغة الصُّوفية في معانيهم الرَّمزية . فهو يقول : إنَّه لا يردُّ على موسى إذا كلمه ، ولا يستقبل إبراهيم ضيفاً .
(٦) يقول : إنَّ السارق إذا أفعم سلَّته بثمارٍ سرقها من البستان أفرغنا تلك السَّلَّةَ مما فيها ، فعاد بها فارغةً .
(٧) المعنى في هذا البيت متعلق بالمعنى في البيت الأول ؛ لأنَّه يقول : إنَّه عنيفٌ مع العنيف ، رقيقٌ مع الرقيق .

حَيْـدَرٌ جَـدٌّ لنـا ، لا تَعْجَبُـوا   نَحْـوَ غَـرْبِ شَمْسَنا إنَّا نُـدِيـر[1]

***

لحْنُ الطَّاهِرة

« آهِ لَـوْ كـانَ اللِّقـاءُ بـالعُيـونْ
لَكَشَفْـتُ لَـكَ مكنـونَ الشُّجُـونْ[2]
كـي أراكَ مِثْـلَ أنْسَـامِ الصَّبـا
بـالـدِّيـارِ طُفْـتَ تـوَّاقَ الحَنِيْـنْ[3]
مِـنْ نـواكَ فـي عيـونـي ذابَ قلبـي
مَـنْ رأى بحـراً جـرى بَيْـنَ الجُفُـونْ[4]
إنَّ للـرُّوح شُفُـوفـاً خـاطَهـا
بهـواكَ مِخيـطُ القلـب الحَـزِيْـن[5]
طُفْـتُ بـالقلـبِ طـويـلاً لـمْ أجِـدْ
غَيْـرَ مـن أهـوى ، ويخفـىٰ بـالكُمُـونْ[6]

وجْـدُ مَـنْ يَعْشَـقُ بـالقَلْـبِ الصَّـدِيْـع   تِلْكَ روحي مِنْهُ في الحُزْنِ الوَجِيعْ[7]
مشكـلاتٌ لـي تَـوارتْ قـدْ بَـدَتْ   كـلَّ فِكْـرِي كـلَّ ظَنـي أطْبَقَـتْ[8]

---

(١) حيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه .
(٢) الشُّجون : الأحزان .
(٣) الأنْسَام : جمع نَسَم ، وهو نَفَسُ الرِّيح إذا كان ضعيفاً . والتواق : المشتاق .
(٤) النَّوى : البعاد .
(٥) الشُّفوف : جمعُ شِف ، وهو الثَّوب الرَّقيق الذي يُسْتَشَفُّ ما تحته . والمِخْيطُ : الإبرة .
(٦) كَمَنَ كُموناً : توارىٰ .
(٧) الصَّديع : المصدوعَ ؛ أي المشقوق . الوَجِيْعُ : المؤلم .
(٨) أطبق الشيء : غطاه .

بَحْـرُ فكـرِي فيـه مـوجٌ مُضْطـرِبْ   شطُّه منْ عَصْفِ هوجاءَ خرِبْ[1]
لا تضيِّـــع مِـــنْ زمـــانٍ مُـــدَّةً   إنْ أرَدْتَ أنْ تَحُـــلَّ عُقْـــدةً[2]

وإلامَ أنـــت لِلفِكْـــرِ الأسيـــر
ومِـــنَ البَلْبَـــالِ فَلْيَخْـــلُ الضَّمِيـــر[3]

* * *

زنده رود يعرضُ مشكلاتِه على الأرواح

عَـنْ مقـامِ المـؤمنيـنَ قَـدْ بَعُـدْنـا ؟
مِنْ جنانِ الخلدِ هَلْ طَوْعاً خَرَجْنا ؟

الحلَّاج

مَـــنْ رأىٰ خيـــراً وشـــراً بـــالجَنَـــانْ   ما استقرَّتْ منْهُ رُوحٌ بالجِنانْ[4]
جنَّـــةُ الـــزَّاهِـــدِ حُـــورٌ أو غـــلامْ   جَنَّـــةُ الأحـــرار فـــي سَيْـــرٍ دَوَام[5]

---

(١) الهوجاء : الريح التي تقلع البيوت .

(٢) هذا البيت هو قول جلال الرومي للشاعر .

(٣) إلامَ : أيَّ وقت . والبلبال : الهمُّ وَوَسْوَاسُ الصَّدر .

(٤) الجنان بالفتح : القلب وبالكسر : الجنَّات .

(٥) يجري إقبال على مألوف شعراء الصُّوفية من الفرس الذين يتهكمون بالزاهد في شعرهم الرَّمزي الذي يحتمل معنيين أحدهما قريبٌ غيرُ مقصودٍ والآخر بعيد هو المقصود . وإنما أرادوا بذلك أن يقولوا : إنَّ العاشق الإلهيَّ ، أو الصُّوفي يتلقى الحقيقة إلهاماً من ربه ، ونوراً يشرق به قلبه ، ولا حاجة به إلى ترديد النظر في العلم ؛ لأنَّ القلب عنده مصدرُ المعرفة . أما الزاهد أو غير الصوفي الذي يأخذ بظاهر النَّص ولا يتجاوزُ القشور إلى اللباب فهو يعتمد على العقل وحده مصدراً للمعرفة . ومن ثمَّ كان الخلاف بين الصُّوفيَّة وغيرهم . وهم يبالغون في التحسين والتقبيح محاولين البلاغة ، وكلامُهم غير محمولٍ على ظاهره . ويدعون إلى التحرُّر من قيود منْ يَعْجِز في نظرهم عن إدراك =

جَنَّـةُ الـزَّاهِـدِ نـومٌ فـي التَّبَطُّـلْ   جَنَّةُ العاشِقِ في الكَوْنِ التأمُّلْ[1]
حَشْـرُ مـنْ يَـزهـدُ شَـقٌّ لِلقُبـوز   إنَّ هـذا العِشْـقَ صُبْـحٌ للنُّشُـوز[2]
وَأسـاسُ العِلْـمِ خَـوْفٌ أوْ رَجَـاء   مـا لِعُشَّـاقٍ علـى هـذا اتِّكـاء[3]
يُـرهِـبُ العلـمَ مـنَ الكـونِ الجلالْ   يُغْـرِقُ العِشْـقَ الـرُّواءُ والجمـالْ
مـا مضَـى لِلْعِلْـمِ أوْ مـا قَـدْ حَضَـرْ   وإلـى الآتـي مـنَ العِشْـقِ النَّظَـر
مـذهـبٌ لِلْعِلْـمِ كـانَ وَهـوَ جَبْـر   مـا لـدَيْـهِ كلُّـه جَبْـرٌ وَصَبْـر
يـا لهـذا العِشْـقِ مِـنْ حُـرٍّ غَيُـوز   ويـرى الكـونَ بِعَيْـنٍ لِلْجُسُـوز
عِشْقُنـا معنـىٰ الشَّكـاةِ مـا درىٰ   دمعُـه فـي نَشْـوَةٍ لمَّـا جَـرَىٰ.
كـان مجبـوراً وَحُـرّاً قَلْبُنـا   لَيْسَ مِنْ أجفانِ حُوْرٍ سَهْمُنا[4]
الفـراقُ كـانَ نـاراً فـي الفُـؤادْ   روحُنـا يحلُـو لهـا مـرُّ البُعـاد
وبـلا وخْـزٍ وَحَـزٍّ كَيْـفَ تحيـا   قِفْ على نارٍ كَوَتْ ساقَيْكَ كَيّا!
الحيـاةُ هكـذا، تقـديـرُ ذاتِـكْ   وهو تعميرٌ لها، سِرْ في حَيَاتِكْ
ذرةٌ لِلشَّـوقِ شمـسٌ حـاسِـدَةْ   صَـدْرُهـا فيـهِ السَّمـاءُ راقِـدَةْ

إنْ يكـنْ لِلشَّـوقِ فـي الـدُّنيـا الهُجُـومْ
يَمْنَـحُ الخُلْـدَ لفـانٍ لا يَـدُومْ

= الحقيقة، ولا يُدْرِكها إلا القلب العامر بعشق الذَّاتِ الإلهيَّة.

(١) التبطل: التعطُّل عن العمل، والشاعر يرمز إلى ضرورة التأمُّل في الكون لأنه مظهرٌ لِلْقُدْرَة الإلهية. وشعرُ الصوفية من الفرس خصوصاً زاخرٌ بِمثل تلك الرموز التي تجد مبالغاتُها مساغاً في ذوقهم.

(٢) نشر الله الموتى نشراً ونشوراً: أحياهم.

(٣) يشير إقبال إلى منْ يعبد الله رغبةً في ثوابه ورهبةً من عقابه، ويقول إنَّ الصُّوفي يعبدُ الله ويحبُّه لمجرَّد العبادةِ والمحبَّة.

(٤) يقول: إنَّ قلبنا كان حُرّاً مع خضوعه لقضاء الله وقدره، ولا يريدُ أن يكون القضاء سهماً، ولو كان من عيون الحُوْرِ العين.

زنده رود

بــالــرَّدىٰ والعيــشِ تقــديــرٌ جــرىٰ
ذلــكَ التَّقــديــرُ مِنَّــا مــنْ دَرَىٰ[1]

الحلاَّج

مَــنْ لــه التَّقْــديـرُ سَهْــمٌ سُــدِّدا يَفْــزَعُ الشَّيْطــانُ مِنْــهُ والــرَّدىٰ[2]
كــانَ جبــراً ديــنُ أصحــابِ الهِمَــمْ والقُوى عِنْدَ رجالٍ في القِمَمْ[3]
الحَصِيْــفُ زادَ فــي عقــلٍ بِجَبْــرِ والغــريــرُ مِنْه فــي أعْمــاقِ قَبْــرِ[4]
خــالــدٌ بــالجَبْــرِ هــدَّ عــالمــا أسُّنــا جبــرٌ لنــا قــدْ هــدَّمــا[5]
الــرِّضــا مــنْ شــأنِ ذيَّــاك البَطَــلْ وهــوَ ثــوبٌ فيــهِ فَسْــلٌ مــا رَفَــلْ[6]
ولمــولانــا عَــرَفْــتَ مــا المَقَــامْ
فليشنِّــــفْ أذْنَيْــــكَ ذا الكَـــلامْ

« المجــوســيُّ زمــانَ بــايــزيــدْ مهتــدٍ قــال لــه جِــدٌّ سعيــدْ
يــا أُخــيَّ كُــنْ كمثلــي مُــؤمِنــا لِتكُــوْنَ للنَّجــاةِ ضــامِنــا
إنَّمــا الإيمــانُ هــذا يــا مُــريــدْ وهُــوَ إيمــانٌ يــراهُ بــايــزيــدْ
فــأنـــا عَـــنْ حَمْـــلِ ذاكَ أضْعَـــفُ
وبـــروحـــي وهـــي تُعيـــي يَعْنُـــفُ

---

(١) التقدير : قضاء الله .
(٢) يريد بالسَّهم السِّلاحَ الذي يتسلَّح به ، وهو القَدَرُ الذي يفزع الشيطانَ والموت .
(٣) المرادُ برجال في القِمَمِ رجالٌ في أوج العظمة وعلوِّ القدر .
(٤) الحصيف : العاقل . والغرير : من لا تجربة له .
(٥) الأس : الأساس .
(٦) الفسل : الضعيف الذي لا مروءة له . ورفل : جرَّ ذيله وتبختر .

غَيْـرُ خـوفٍ ورجـاءٍ مـا لـدينـا   وجميعـاً سلَّمـوا ؟ لا مـا رأينـا
أنْـتَ قُلْـتَ : كـلُّ شـيءٍ بـالقَـدَرْ   وَهْـوَ قَيْـدٌ ، يـا تُـرى أيـنَ المفـر
قـد أسـأت الفهـم يـا هـذا كثيـرا   مـا رأيـتَ الـذَّاتَ والله القَـديـرا[١]
بـالـدُّعـاء المـرءُ كـان مـؤمنـا   « لـكَ نَحْـنُ يـا إلهـي كُـنْ لنـا »

وقضـاءُ الله كـان عَـزْمَـهُ
سَهْمُـه فـي الحـرب كـان سَهْمَـهُ[٢]

* * *

زنده رود

فتنـةٌ هـا قَـدْ أثـارَ الغـافلـون   هو ذا المصلوبُ يبدو لِلْعُيون[٣]
الـوجـودُ وَهْـوَ سـرٌّ قـدْ عـرفتـا   أيَّ ذنبٍ قُلْ لنا كُنْتَ اجْتَرَحْتَا[٤]

الحلاّج

إنَّ فـي صـدري لَصُـوراً للنُّشـوز   هـوذا شَغْـبٌ مضـى نحـو القُبُـور[٥]
مـؤمنـونَ يُشْبِهُـون الكـافـرينـا   مُسْلِمُـون وَلِـذاتِ مُنْكِـرُونـا
قـولهـم : الـرُّوح شـيءٌ بـاطـلُ   قُيِّـدَتْ بـالطِّيـن وَهْـوَ زائـلُ

---

(١) رأيت هنا بمعنى رأيت بالقلب لا بالعين .
(٢) أي أنَّ عزمه كان قدراً ، وسهمُه سهمُ الله .
(٣) يشيرُ إقبال مِنْ طَرْفٍ خفيٍّ إلى صَلْبِ الحلاَّج .
(٤) اجترح الذنب : ارتكبه .
(٥) الصور : القرن ينفخ فيه يوم القيامة فيجعل الله ذلك سبباً لعود الصُّور والأرواح إلى أجسامها .

الحياةُ أشعِلَتْ مِنْ نارِ ذاتي ... ميْتاً بصَّرتُ أسرارَ الحياةِ[1]

عالَمٌ مِنْ ذاتِهِمْ ما يصنعونا ... رقةً بالعُنْفِ كانوا يَمْزِجُونا

أيْنَ تبدو الذَّاتُ أو أيْنَ اختَفَتْ ... العيونُ قطُّ هذا ما رَأَتْ

يَسْتُرُ النِّيرانَ ستراً نورُها ... بالتَّجلِّي الكونَ يُبدي طَوْرَها

قَلْبُنا بالذَّات كَمْ كانَ الحفِيَّا ... ما ونىٰ عَنْ ذِكْرِها ذكراً خَفِيَّا[2]

مِنْ لظاها كلُّ معدومِ النَّصيبْ ... ماتَ عَنْ نَفْسٍ له مثلَ الغَريب[3]

نارُ فُرْسٍ نارُ هِنْدٍ هلْ عرفتا ... أنتَ وصَّافاً لها ما إنْ رأيتا

نارُها والنُّور إني قَدْ وَصَفتْ ... يا أنيسَ القَلْبِ هذا ما اجْتَرحتْ

ما فَعَلْتَ قَدْ فَعَلْتَ فاحْذَرِ

ودعوتَ ميْتاً للمَحْشَرِ

* * *

الطَّاهرة

مِنْ ذُنُوبٍ وخطايا لِلْغُلاة ... قَدْ بَدا ما لم يَكُنْ ، مِنْ كائناتْ

إنَّ فَرْطَ الشَّوْقِ ستراً مزَّقا ... وعَنِ العَيْنِ القَدِيْمَ فرَّقا

نالَ مِنْ عُوْدٍ ومِنْ حَبْلٍ نَصِيْبَه ... لمْ يَعُدْ حيًا وَقَدْ وافىٰ حَبيبه[4]

بالتَّجلِّي بَيْننا ها قَدْ ظَهَرْ ... لا تَظُنَّ أنَّه الدُّنيا هَجَرْ

عَصْرُه كانَ ضميراً وَهْوَ فيهْ

عزلةٌ مهما تكُنْ لا تَحْتَويهْ

---

(١) بَصَّرَهُ الأمرَ : عرَّفه إياه .

(٢) الحفيّ : البرُّ اللطيف .

(٣) اللظى : النار ، أو لهبها .

(٤) وافى : أتى .

زنده رود

أنْتَ يا منْ جَهْدَ بحثٍ قد ألِفْتَهْ اشْـرَحَـنَّ لـيَ بيتـاً أنـتَ قُلْتَـهْ
« مِـنْ رمـادٍ قبضـةٌ قُمْـريـةٌ ، قَفَـصُ اللَّـونِ الهـزارُ
يـا شكـاة فلتجيبـي : أيـن رمـزٌ لفـؤادٍ فيـه نـارُ »[1]

غالب

يشتكي النِّيرانَ في القلب الدَّنِفْ وشكـاةٌ عـنْ شكـاةٍ تَخْتَلِـفْ[2]
أحـرق القُمـريُّ منهـا فـي اللهيـبْ وبدا البلبلُ في الثَّوْبِ القشيبْ[3]
وتضـمُّ المـوتَ فـي حِضْـنِ الحيـاة فحيـاةٌ ، أوْ لهـا شـأنُ الممـاتْ[4]
يـا للـونِ كـانَ منـه سِفْـرُ مـانـي أوْ زوالُ اللَّونِ مسلوبَ المعاني[5]
أفتـدري مـا للـونِ مـنْ مَقَـام ؟ ونصيـبُ القَلْـبِ مِقْـدارُ الهِيَـام[6]
أنـتَ بـاللَّـون تعـالَ ، أوْ فسِـرْ[7]
كـي تـرى آثـارَ قلـبٍ يَسْتَعِـرْ

---

(١) يقول المستشرق الإيطالي باوزاني : إنَّ هذا البيت ترجمةٌ لإقبال عن بيت بالأوردية لغالبٍ يكتنف الغموضُ معناه ، وهو « إذا كانت مظاهر الطبيعة كلها غير جديرةٍ بأن تكون رمزاً للقلب العاشق ، فأي شيء يمكن أن يعد له رمزاً حقيقياً » وفي رواية أخرى لهذا البيت : « قفص الصدأ » في موضع « قفص للألوان » .

(٢) الدَّنِف : من لازمه المرض .

(٣) القشيب : الجديد .

(٤) أي أنَّ الشكاة إمَّا حياةٌ أو موت .

(٥) السِّفْرُ : الكتاب . وماني من أنبياء الفرس قبل الإسلام ، وكان عظيم المهارة في الرَّسم . وارژنگ عنوان كتاب يحوي تصاويره التي خدع بها أتباعه ويعدُّها من معجزاته .

(٦) يقول : على قدر ما يجدُ القلب من لوعة الأسى والهيام يكون ما قدر الله له .

(٧) أي أقدِمْ باللون أو امضِ بدونه .

زنده رود

أَلــفُ دنيــا فــي الفَضَــاءِ الأَزْرَقِ
وبهـــا كـــلُّ نبـــيٍّ متَّقـــي

غالب

أنظُـرَنَّ فـي الـوجـودِ والعَـدَمْ   كمْ دُنىً تأتي لنا مُنذُ القِدَمْ[1]
نحـنُ دنيـا فـي الـوجـودِ إنْ رأينـا   رحمــةً للعــالميــن قَــدْ رأينــا

زنده رود

وضِّــحِ القَــوْلَ فــإنِّــي مــا فَهِمْــت

غالب

أنــا إنْ زِدْتُــكِ تــوضيحــاً غَلِطْــت

زنده رود

لا يفيــدُ قــولُ أصحــابِ الجَنَــان[2]

غالب

مشكــلٌ قــولٌ دقيــقٌ فــي اللِّســان[3]

---

(١) الدُّنى : جمع دنيا .
(٢) الجنان : القلب .
(٣) أي : يصعب على الإنسان أن يعبر عن قول دقيق عميق .

زنده رود

اشْتَعَلْــتَ أنــتَ مــنْ نَــار الطَّلَــبْ
لفظــةٌ مــا قُلْتُهــا يــا لِلْعَجَــبْ

غالب

إن خلقــاً وقضــاءً ابتــداءٌ[1]
رحمــةٌ للعــالميــنَ انْتهــاءْ

زنده رود

المعــانــي عــاجــزٌ عَــنْ فَهْمِهَــا
لــكَ نــارٌ ؟ قُــمْ وأخــرِقْنــا بِهَــا

غالب

أنْتَ يا منْ تُبصرُ الأشْعَارَ مِثْلي وعليهــا لِلْكــلامِ أيُّ فَضْــل
أمــراءُ الشّعــرِ زانــوا جَمْعَهُــمْ واليَـدُ البَيْضــاءُ لَيْسـتْ عِنْـدَهُـمْ
لَيْسَ مــا تبغيــهِ منّــي غَيْــرَ كُفــر إنَّــه كُفْــرٌ وراءَ كــلِّ شِعْــر

الحلاَّج

وإذا أبْصَــرَتْ دُنيــا للشّيَــات فالمُنَىٰ في أرْضِها مِثْلُ النَّبات[2]

---

(١) يلمح الشاعر إلى قوله تعالى في سورة الأعلى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى : ٢ ـ ٣] .

(٢) الشّيَات : الألوان .

إنَّ نُـورَ المُصْطَفـى فيـه البَهَـاءْ أوْ رسـولَ الله ، هـذا مـا تَشَـاءْ

زنده رود

النبـيُّ المُصْطَفـى مـا أمْـرُهُ جـوهـرٌ ، أفْصَح أجِبْ ما سِرُّهُ
فـي الـوُجـودِ آدمـي أوْ جَـوْهَـرُ ؟ تـارةً يَخْفَـىٰ وأُخْـرَىٰ يَظْهَـرُ

الحلاّج

عفَّـرَ العَـالَـمُ خَـدّاً عِنْـدَه نَفْسـه سمَّـىٰ النَّبـيُّ « عَبْـدَه »
« عبـده » فهمـاً لَـدَيْـكَ تَبْهَـرُ إنَّـهُ الإنسـانُ وَهْـوَ الجَـوْهَـرُ[1]
لَيْـسَ مـنْ عُـرْبٍ وَلَيْـسَ الأعجما آدمٌ بـلْ كـان منْـه الأقْـدَمـا[2]
« عبـده » قـد شَكَّلَـتْ هـذا القَـدَرْ بالفَيَافي الخصْبُ مِنْها قدْ ظَهَرْ[3]
أحْيَـتِ الأرْوَاحَ وهـي تَقْتُـلُ والـزُّجـاجُ ، وهـي صَخْـرٌ يَثْقُـلُ
غيـرُ « عبـدٍ » « عبـدُه » فَلْتَعْتَبِـرْ ولهـا طـالَ انتظـارُ المُنْتَظِـرْ[4]
عبـدُه الـدَّهْـرَ وكـانَ الـدَّهْـرُ منهـا كلُّنـا لـونٌ وينـأىٰ اللـونُ عنهـا
ولهـا البَـدْءُ ومـنْ غَيْـرِ انتهـاء مـا لـديهـا مثـلُ صُبْـحٍ أوْ مَسَـاء
مـا درى الإنسـانُ قـطُّ سـرَّهـا سـرُّ « إلا الله » كـانَ ذِكْـرَهـا
لا إلــه السَّيْـفُ وهـي حـدُّه وَلْتُصَـرِّحْ وَلْتَقُـلْ « هـو عَبْـدُه »
« عبـدُه » كُنـهُ جميـع الكـائنـات « عبـدُه » فيهـا معـانٍ مغلقـات

---

(١) بهر : غلب .

(٢) في الأصل الأعجم وهو الذي في لسانه لُكْنَةٌ وعَدَمُ فصاحةٍ . والمراد الأعجمي أي غير العربي .

(٣) الفيافي : جمع فيفاءَ ، وهي الأرض لا ماء فيها .

(٤) اعتبر : نظر في الشيء واختبره .

ولهــذا الشِّعْــرِ معنــىً مــا فَهِمــت قبلَ فَهْمِ قَوْلِ ربِّي ﴿ ما رمَيْتَ ﴾[1]

دَعْــك مــن هــذا الكــلام زِنــده رود

امــضِ وَلْيُغْـرِقْـكَ ذَبَّـاكَ الــوُجـود

زنده رود

إنَّ هــذا العِشْــقَ شــيءٌ مــا عَــرَفْتُــهْ

أهُــوَ للــرؤيــةِ ذوقٌ مــا عَهِــدْتُــهْ ؟

الحلَّاج

هــذِهِ الــرُّؤيــةُ معنــاهــا النَّبِــيّ يَحْكُمُ النَّفْسَ ، بِذَا وهُوَ الرَّضِيّ

أنت في دنياكَ عِشْ مِثْلَ الرَّسول ومــنَ الخَلْــقِ ستحظــىٰ بــالقَبُــول

ذاتَــك انظُــرْ إنَّ هــذا رُؤيتــه ســرُّه الســرُّ العظيــمُ سُنَّتُــه

زنده رود

رؤيــةٌ للهِ أفــلاكــاً نَثَــرْ ؟

وأدارَ الشَّمــس فيهــا والقَمَــرْ[2]

---

(١) يريد قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] ؛ أي لم تقتلوهم ببدر بقوتكم ولكن الله قتلهم بنصره إيَّاكم . . . وما رميت يا محمد عين القوم إذ رميت بالحصا ، فإنَّ كفاً من الحصا لا يمكن أن تملأ عيون الجيش العظيم إنْ كان الرَّامي من البشر ، ولكنَّ الله رمى ، ليقهر الكافرين .

(٢) أي اللهُ الذي نثر الأفلاك في السماء .

الحلاَّج

صــورةُ الحــقِّ بــروحِ اطْــرَحَـــن ثــمَّ فــي الــدُّنيــا إليــه انظُــرَن[1]

وإذا كَــانــتْ بــروحٍ صُــوَرَتُــه فلكـــلِّ العـــالَمِيـــنَ رؤيتـــه

إنْ جَرَتْ « هُو » يا حظيظُ مِنْ لِسَانِكْ طافَتِ الأفلاك طوفاً حولَ دَارِك[2]

ويــلُ درويــشٍ بفيــه قــدْ جَــرَتْ ثـــمَّ ضـــمَّ شفتيـــه أوْ صَمـــت

إنَّـــه لـــم يُجـــرِ حُكْـــمَ ربِّـــه ما الشعيرُ ؟ حَيْدرٌ في حَرْبه ؟[3]

طلـــبُ الـــزُّهـــد تحـــاشـــى خيبـــرا راهباً أضحى ، مليكٌ يا ترى ؟![4]

صـورةُ الحـقِّ ، هـي الـدُّنيـا لـديكـا والقَضـاءُ كـالـزِّمـام فـي يـديكـا

القتـــالُ بُغْيَـــةُ العَضـــرِ المَـــرِيـــد

ألقهـــا فـــي لـــوحِ كفّـــارٍ عَنِيـــدْ

زنده رود

كـــان فـــي الـــدُّنيـــا لَـــدَيْنـــا رَمْيُهـــا

لســـتُ أدري كيـــف كـــان رَمْيُهـــا !

---

(١) الحق : هو الله تعالى .

(٢) الحظيظ : السعيد الحظ .

(٣) أكلُ خبز الشعير رمزٌ إلى شدة التقشف والقناعة من الدُّنيا بأقلِّ قليلها . وحيدر هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المشتهر بالنجدة وشدة البأس في القتال . والشاعر يتهكم بالمسرف في الزهد ، ويفضل عليه المحارب المناضل .

(٤) يشير إلى ما يروى من عجائب الأخبار عن قوة عليٍّ وشجاعته في غزوة خيبر، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك . ويتهكم ثانيةً بالزاهد الذي يتوهم نفسه بالزهد أعظم من ملوكِ الأرض .

يعـــرفُ الأفـــلاكَ حقّـــاً طينُنـــا   أيـــنَ نـــارٌ للمَـــريـــد هـــاهنـــا[1]

الحلاّج

أوجـزِ الأقـوالَ عَـنْ شَيـخِ الفِـرَاقْ   ذي الهُيَامِ والنَّجِيع في الدِّهاقْ[2]
وجهلُنَـا ، كـلَّ شـيءٍ قـدْ دَرَىٰ   وبِكُفْـرٍ كـلَّ سـرٍّ أظْهَـرا
السُّقـوطُ بَعْـدَهُ طـابَ الصُّعـودْ   بَعْـدَ نقصٍ قـرَّ عينـاً مـنْ يَـزيـدْ
إن عَشِقْـتَ فـي لهيـبٍ فـاخْتَـرِقْ   كـانَ مِنْـهُ ، أو فَلَسْـتَ المُخْتـرِقْ !
إنَّـهُ فـي العِشْـقِ منَّـا أقـدم   سـرَّهُ مـا لَيْـسَ يـدري آدَمْ

إنَّ للتقليـدِ ثـوبـاً ، مَـزِّقَنَّـهْ
وَخُـذِ التَّـوحيـدَ عنـه وافْهَمَنَّـهْ

الحلاّج

المقـامُ لَيْـسَ فـي طـوْقٍ لنـا   ونَطيـرُ ، كـانَ ذا ذَوْقـاً لنـا[3]
نحـنُ دوْمـاً مـنْ رَأَيْنـا أو خَفَقْنـا   مـا لَـدَيْنـا مـنْ جناحٍ ، حَسْبُنـا[4]

***

ظهورُ رأسِ أهلِ الفراقِ إبليس

وحـديـثُ الحكمـاءِ بُـرهتـان   الـوجـودَ والفَنـاءَ تَضْنَعـان

= إبليس أو الشيطان .

(١) المراد بالطِّين هنا هو الإنسان . والمَريد : الخبيث .

(٢) الهُيام : الظمأ . والنَّجيع : الدم . والدِّهاق من الكؤوس : الممتلئة .

(٣) الطَّوْق : الطَّاقة والقُدْرة .

(٤) دوماً : دائماً . وحسبنا : كافينا .

الحلاّج

بِحُنَيْنٍ كـان لِلْـوَجْـدِ الـرَّهيـف أمْ بِقَسْـرٍ كـانَ لِلْقَهْـرِ العَنيـف[1]
إنَّ فـي الـرِّقَّـةِ ربـي أظهَـرُ هـي مِـنْ عُنْـفٍ شـديـدٍ أجْـدَرُ

زنده رود

أنْـتَ يـا مَـنْ تَعْـرِفُ الأسـرارَ شَـرْقـا
بَيْـنَ زُهْـدٍ هـل تـرى والعِشْـقَ فَـرْقـا ؟

الحلاّج

إنَّمـا الـزَّاهـدُ فـي الـدُّنيـا الغَـريـبْ
ذلـكَ العـاشِـقُ فـي العُقبىٰ الغَـريـبْ

زنده رود

إنْ عَـرَفْـتَ فـانتهـاءٌ بـالفنـاءْ مـنْ سعيـدٌ فـي الفَنـاءِ بـالبَقَـاء ؟

الحلاّج

تُسْكِـرُ الكـأسُ خَلَـتْ بَعْـدَ امتـلاء وَعَـنِ العِلْـمِ اغتـرابٌ كـالفَنَـاء
فـي الفَنَـاءِ لـكَ شـوقٌ واحتَـدَمْ ذلـكَ المـوجـودَ لا يلقـى العَـدَمْ[2]

زنده رود

مـن علـى آدم أغلَـىٰ قَـدْرَهْ لـمْ يَجـدْ فـي قـاعِ دنِّ خَمْـرَهْ[3]

---

(١) الرَّهيف : الرَّقيق .
(٢) احتدم : اشتد . يقول : أنت في الفناء تطلب شيئاً . والعَدمُ لا يصادف الشيء الموجود .
(٣) الدَّنُّ : جرَّةُ الخمر . ويعلى قدره على قدر آدم : يدَّعى أنَّه خير من آدم ، وهذا ما ادعاه=

أضْـرَمَ العِشْـقَ علينـا وانْصَـرَفْ وَهَـبَ الـرؤيـةَ عقـلاً ، مـا وَقَـفْ
أغمـضِ العينيـن حتَّـى أملكَـهْ فـي فـؤادي طـابَ لـي أن أسْلُكَـهْ
وظـلامٍ كُـفَّ منـهُ النَّـاظـران فـي المكـانِ وإلـى غيـرِ المكـان[١]
شعلـةٌ لاحـتْ بليـلٍ قـدْ وَقَـبْ وإذا مـنْ جَـوْفهـا شيـخٌ وَثَـبْ[٢]
وهـو شيـخٌ يـرتـدي سـودَ الثِّيـابْ والـدُّخـان لَفَّـهُ مِثْـلَ السَّحـابْ

قـال مـولانـا أرى شَيْـخَ الفِـراق
يتلظَّـى والنَّجيـعُ فـي الـدِّهـاق[٣]

طالَ منهُ الصَّمْتُ في طولِ الوُجُومْ ويرى الأرواحَ وهيَ في الجُسُومْ[٤]
مـاجـنٌ شيـخٌ حكيـمٌ زاهِـدُ يُشْبِـه الـزُّهـادَ وهـو الجَـاهِـدُ[٥]
مـا درىٰ طَبْـعٌ لـه ذَوْق الـوِصَـالْ زُهْدُهُ تـركُ الخلودِ فـي الجَمَالْ[٦]
وهـوَ عـنْ هـذا الجمـالِ مـا انْقَطَـعْ وامتنـاعٍ عـن سجـودٍ مـا صَنَـعْ
قِـفْ تـأمَّـلْ بُـرْهـةً مـا قَـدْ عـراه ثـابتـاً فـي المُشْكـلاتِ كـي تـراه[٧]

وبـه الهيجـاءُ مـا زالـتْ تَـدُوزْ
كـم نبـيٍّ قـد رأى وهْـوَ الكَفُـوزْ

مِنْ لظاهُ الرُّوحُ في جسمي ارْتَعَدْ وزفيـرُ الحُـزْنِ مـنْ فِيـهِ اصَّعَـدْ[٨]
فَتَـحَ العَيْـنَ وقـالَ واعْتَـدَلْ مثْلُنـا مـنْ كـانَ ميمـونَ العَمَـلْ

---

(١) كُفَّ بصرُه : ذهب . النَّاظران : العينان .
(٢) وقب الظلام : دخل على الناس .
(٣) يتلظَّى : يتلهب . النَّجيع : الدم . والدِّهاق من الكؤوس : الممتلئة .
(٤) الوجوم : الحزنُ مع الصَّمت .
(٥) الماجن : الذي لا يبالي ما صنع . والجاهد : المجد .
(٦) الذَّوق : الإدراك . وفي الأصل أنَّ زهده قطع النظر عن الجمال الخالد .
(٧) عراه : اعتراه ، وغشيه .
(٨) اللظى : النار . اصَّعد : صَعِدَ .

انهَمَكْتُ فـي شُؤونـي واجْتَهَـدْت ... لِلصَّـلاة قلَّمـا وَقْتـاً وَجَـدْت[(١)]

مـا لَـدَيَّ مـن مَـدَدْتُ مِنْـهُ قُـوَّة ... إنَّ وَحيـي لا يَمُـنُّ بـالنُّبُـوَّة[(٢)]

لَيسَ عِنْدي من حَدِيثٍ أوْ كِتَابْ ... والفَقِيْه من دَحَرْتُ في الغِلابْ[(٣)]

كـالفَقيـهِ غَـزْلَ ديـن مـن غَـزَلْ ... جَعَـلَ الكَعْبَـةَ آثـارَ الطَّلَـلْ[(٤)]

مـا عَـرَفْنـا مِثْـلَ هـذا المَطْلَـبِ ... مـا لإبليـسَ انشقـاقُ المَـذْهَـبِ

يـا جهـولُ ، إنَّنـي مـا إنْ سَجَـدْت ... أرغُنـي هـذا عليـه قَـدْ عَـزَفْـت[(٥)]

لِـوجـودِ الله لِسـتُ مُنْكِـرا ... أبْصِـرِ البـاطـنَ واتـركْ ظَـاهِـرا

أجْهلـتُ كـي أقـولَ مـا وُجِـد ... كيفَ هـذا ، إنَّ ربِّـي قـدْ شُهِـد[(٦)]

و« نَعَمْ » في سِتْرِ « لا » ما قَدْ نَطَقْت ... مـا سكـتُّ ، فـأنـا خيـراً صَنَعْـت

آدمُ مِـنْ هَمِّـهِ نِلْـتُ النَّصِيبـا ... ولـذاكَ عَنْـهُ هـدَّأتُ الحَبيبـا[(٧)]

مِـنْ مـروجـي نَبَتَـتْ نـارٌ ونـارْ ... بَعْـدَ جبْـرٍ قَـدْ هَـدَاهُ الاختيـارْ

إنَّني أظهرتُ قُبْحي ، قُمْ بشأنِكْ ... ثُـمَّ قلـتُ : أنْـتَ فلتختَـرْ لِنَفْسِـكْ

تلـكَ نـاري صَـدَّ عنِّـي حـرَّهـا ... عُقْـدتـي حُـلَّ وَدَبِّـرْ أمْـرَهـا

أنـت يـا إنسـانُ فـي أسـري وَقَعْـت ... أنْـتَ عصيـانـاً لِشَيْطـانٍ أبَحْـت

وهُمـامـاً كُـنْ ولا تَخْـشَ الخُطـوبـا ... وَلْتَعِشْ يا مُسعدي عنِّي غريبا[(٨)]

دَعْكَ منْ حُلوي ومُرِّي وانسَ ما بي ... لا تـزدنـي مـنْ سـوادٍ فـي كتـابـي

---

(١) في الأصل أنه ما وجدَ وقتاً لصلاة الجمعة .

(٢) مددت منه قوة : أخذتها منه . والمن : التعيير بالصنيعة .

(٣) دَحَرَ : طرد ، وهزم . الغلاب : من غالب .

(٤) يجري إقبال على مألوف الصُوفية في تهكمهم الرمزي بالزهاد والفقهاء .

(٥) الأرغن : آلةٌ يعزف عليها .

(٦) شهد : رُئي .

(٧) الحبيبُ : هو اللهُ جلَّ وعلا .

(٨) الهمام : العظيم الهمَّة . المُسْعدُ : المواسي والمعين .

يَـرْصُـدُ الصَّيَـادُ مـا يَـرْميـهِ حَتْمـا   إنْ بدوتَ في مَصادي نِلْتَ سَهما[1] !

مـا هـوىٰ مـنْ طـارَ فـي أوجِ السَّمـاء

يَغْلـبُ الصَّيـادَ صيـدٌ بـالـذَّكـاء[2] !

قلـتُ : « فـاطْـرَحْ لِلْفَـراقِ مَـذْهَبـا   في الطلاق ليس لي أنْ أرْغبا »[3]

« الفــراقُ للحيـــاةِ مِثْــلَ شَطْــر   نشــوةٌ فــي يَــوْمِــهِ لَيْسَــتْ لِخَمْــر

الــوِصَــالُ بلســانــي مــا ذَكَــرْت   فهو في الوَصْلِ امَّحى بي وامَّحَيْت »[4] !

لفظُــه عَــنْ نَفْسِــه كــانَ الغــريبــا   ثُــمَّ زادَ القَلْــبُ بــالحُـزْنِ اللَّهيبَــا

وتَلَــوَّى فــي الــدُّخــان واخْتَلَــجْ   ثــمَّ ضـلَّ وهـو منـه فـي الْحَـرَجْ[5]

الشَّكــاةُ للـــدُّخـــانِ فـــي انْسِكـــابْ

تَسْعـــدُ الـــرُّوحُ بـــآلامِ العَـــذَابْ

* * *

شكوى إبليس

ربَّ مَـنْ أخطَـا وربَّ مَـنْ أصَـابَـا   صحبةُ الإنسانِ لي كَانَتْ مُصابا[6]

ذلـكَ الإنسـانُ حكمـي لـمْ يُخَـالِـفْ   أغْمَـضَ العَيْـنَ وذاتـاً لـم يُصـادِفْ

طينُــه لــمْ يَــذْرِ ذَوْقــاً لــلإبــاء   لا ولا معنـــىً لنـــارِ الكِبْـــريـــاء

---

(١) المصَاد : موضعُ الصيد .

(٢) الصَّيْد : ما يصاد .

(٣) التلميحُ هنا بحديث للنبيِّ ﷺ ، وهو قوله : « أبغض الحلال عند الله الطلاق » . وأورد الشاعر هذا الحديث بتمامه في الشطر الثاني من البيت .

(٤) يريد فناء الصُّوفي في الذَّات الإلهية .

(٥) الحرج : مكان ضَيق كثيرُ الشجر .

(٦) المصاب : النازلة الشديدة .

ويقـولُ الصَّيْـدُ للصَّيـادِ خُـذْنـي ... وخضـوعُ العَبْـدِ أمرٌ لـم يَـرُقْني[1]

وَمِـنَ الصَّيْـد ، إلهـي ، خلِّصَنّـي ... بخضـوعـي لـكَ بـالأمـسِ اذْكُـرَنّـي

مِنْـهُ ذُلِّـي ورمـانـي مـنْ عـلائـي ... ويـحَ نفسـي واشقـائـي وابـلائـي !

وَضَعيـفُ العَـزْمِ فَـجُ الفِطْـرَةِ ... وَيَخِـرُّ إنْ ضَـرَبْـتُ ضَـرْبَتـي[2]

وجـديـرٌ بـي حصيـفٌ ذو نَظَـرْ ... منْ يُجيلُ الرأيَ في كلِّ الفِكَرْ[3]

دُمْيَـةَ الطِّيـنِ استـردَّ مـنْ يَـدَيَّـا ... لَيْـسَ كـالأطفـالِ مـنْ يَعْتُـو عِتِيَّـا[4]

ما هو الإنسانُ ؟ ضِغْثٌ من غُثاء ... حَسْبُـهُ منِّـي الشَّـرارُ لِلفَنـاء[5]

للغُثَـاءِ وَحْـدهُ كـانَ الـوُجـودْ ... كلُّ تلكَ النَّار عندي هَلْ تُفيدْ ؟

أيُّ شـيءٍ للـزُّجـاج كـانَ صهـر ... أعظَـمُ الأعمـالِ حقّـاً صَهْـرُ صَخْـر

مِنْ فتوحي ها أنا ذا قَدْ سَئِمْتُ ... وإليـكَ لِتَجـازيـنـي قَـدِمْـتُ

مُنْكِـرَ الـذَّات أريـدُ منْـكَ فـامنـحْ ... رَجُـلَ اللهِ الطَّـريـقَ نَحْـوَهُ افتَـحْ

وأريـدُ طُليتـي مـنْ يَعْصِـرُ ... وارتيـاعـي منْـهُ حيـنَ يَنْظُـرُ[6]

من يقول : « أُخْرُجَنَّ مِنْ حُضُوري » ... لا أسـاوي عِنْـدَهُ حَـبَّ الشَّعِيـرِ

يـا إلهـي فَلْتَهَـبْ حُـرّاً أبيّـا

فـي انهـزامـي متعـةٌ كـانَـتْ لَـدَيّـا

* * *

---

(١) لم يرقني : لم يعجبني .

(٢) الفج : ما لم ينضج من الثمار . وخر : سقط .

(٣) الحصيف : العاقل الحكيم .

(٤) عتا الشيخ : طعن في السن .

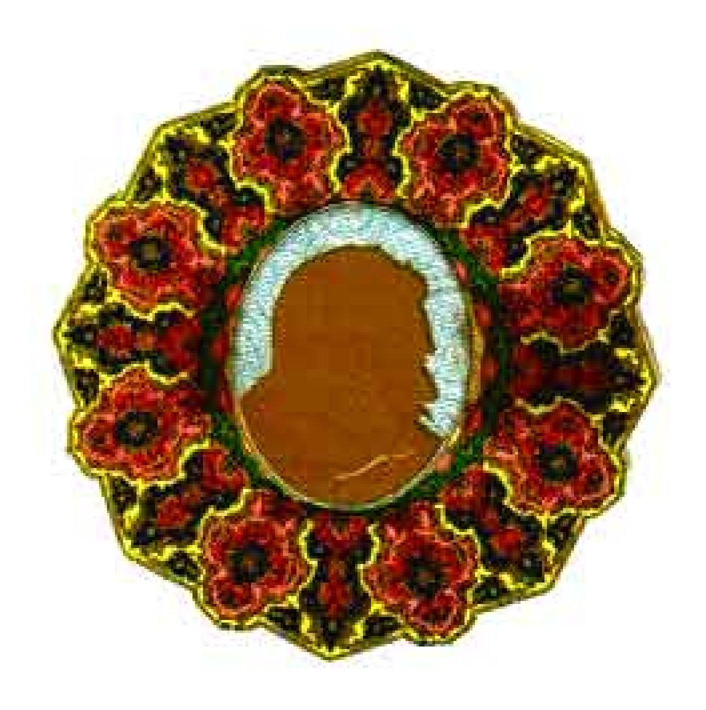
(٥) الضغث : قبضة حشيش مختلطة اليابس بالرطب .

(٦) الطلية : العنق .

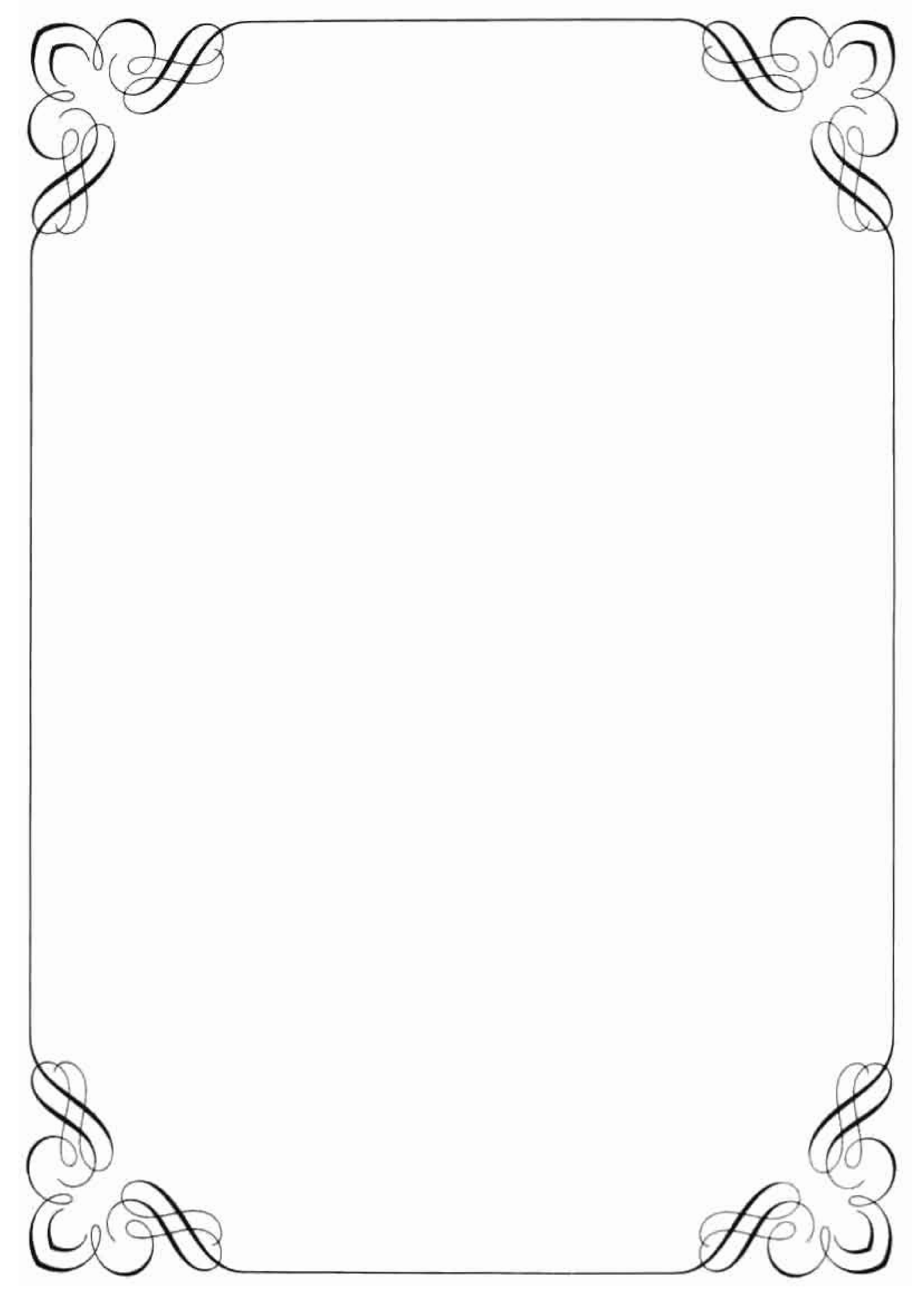


القسم السادس

فَلَكُ زُحَل







الأرواحُ الخبيثةُ الَّتي غَدَرَتْ بالوَطن ولم تقبلْها جهنَّم

كـانَ لـلأحـرارِ مـولانـا الإمـامـا ... كـلَّ حُـرٍّ بـوَّأ الشَّيْـخَ المَقَـامـا[1]

السمـاء قـالَ يـا مَـنْ قَـدْ طَـوَيْـتْ ... أعلـى العـالَـمِ زُنَّـاراً رأيـتْ ؟[2]

وكمـا شـاهَـدْتَـه أنـتَ انْتَطـقْ ... بـذيـولِ لنجـومٍ قـدْ سَـرَقْ ![3]

وبطـيءٌ كـالسُّكـونِ عِنْـدَ سيْـر ... خيـرُه مـا كـان إلا كـلَّ شَـر

جسمَـه مـاءً وطينـاً شَكَّـلا ... خطوُه في الأرضِ صَعْبٌ أُشْكِلا[4]

تَصْعَـقُ النَّـار بـأيـدٍ لِلْمَـلائـك ... قَسَمَتْ سُخْطاً لربي مِنْ هُنالِكْ[5]

دِرَّةٌ قـد أوْجَعـتْ تِلْـكَ النُّجـومـا ... مَنَعَتْهـا فـي المَـدَارِ أنْ تَحُـومـا[6]

عـالَـمٌ منـه النُّفُـورُ لِلْفَلَـكْ ... وهو مِنْ بُخْلِ الشُّمُوْسِ في الحَلَكْ[7]

مـا لأرواحٍ بـه يَـوْمَ النُّشُـور ... لـمْ تُعَـذِّبْهـا الجحيـمُ بـالسَّعيـر[8]

إنَّ شَيْطَـانَيْـنِ فيـهِ يَسْكُنَـانْ ... أزْهَـقَ الـرُّوحَ لقـومٍ قـاتـلانْ

ذاكَ فـي البنغـال هـذا فـي الـدَّكَـنْ ... وهمـا للـدِّيـن عـارٌ والـوَطَـنْ[9]

---

(١) مولانا هو الصوفي الفارسي جلال الدين الرُّومي .

(٢) الزُّنار : ما يشدُّ به النصارى وسطهم والإيماء إلى زحل .

(٣) انتطق : شدَّ وسطه بالمنطقة .

(٤) أشكل الأمر : التبس .

(٥) الملائك : الملائكة ، والنَّار هنا : الصاعقة .

(٦) الدِّرَّة : السوط .

(٧) الحلك : الظلام .

(٨) يوم النشور يوم القيامة الذي تعود فيه الحياة إلى الموتى . والسَّعير : النار .

(٩) مير جعفر : هندي قبل أن يكون حاكماً للبنغال تحت نفوذ الإنجليز ؛ الذين توطدت=

أبَغَضًا في اليأس من نيلِ المُراد ... الفسادَ قَدْ أشاعا في البِلادْ

أمَّةٌ كلَّ الصِّلاتِ قَطَّعتْ ... مُلْكَها والدِّينَ حتماً ضَيَّعتْ[1]

وبلادُ الهند هلْ أُنسيتها ؟ ... ولها في كلِّ قلبٍ ما لها[2]

فَتَجَلِّيها أنارَ العالما ... ما تزالُ أرضُها تجري دَمَا

في ثراها مَنْ رَمىٰ بِذْرَ العبيد ؟ ... ذاكَ فِعْلٌ كانَ منْ رُوْحِ مَرِيْد

برهةً قِفْ أنتَ في هذا الفضاء

ما ينالُ المرءُ شاهدْ منِ جزاء

* * *

بَحْرُ الدِّماء

ما رأيتُ ، وَصْفُهُ يُعْيي اللسِن ... يُرعبُ الرُّوحَ ويُنْسيها البَدَنْ[3]

إنَّه بحرُ الدِّماء قَدْ جَرَىٰ ... فَوْقَهُ ريحٌ وأخرى أضْمَرا

يُشْبهُ الحيتانَ تِنِّينٌ يَطِيرْ ... بجناحيْ زئبقٍ والكفُّ قِيرْ[4]

موجُهُ اللَّيْثُ الهصورُ ذو المَنَاصِلْ ... ماتَ رُعْباً منه تِمْسَاحٌ بِسَاحِلْ[5]

= أقدامُهم ، واستقامتْ أمورُهم ، وسيطروا على الهند بعد أن هزموا سراج الدولة حاكم البنغال عام ١٧٥٧ . وصادق الدَّكني خائن خان السلطان تيبو الحاكم المسلم لميسور المتوفى عام ١٧٩٩ .

(١) يريد قطع الصلات بينها وبين غيرها من الأمم .

(٢) أي لها في كل قلبٍ ما لها من علوِّ المنزلة .

(٣) اللسن : الفصاحة .

(٤) التنين : العظيم من الحيات . يقول إن التنانين في الجو كالحيتان في البحر وجناحاها في لون الزئبق ومخالبها سود في لون الليل . والقير : القار ، وهو مادة سوداء تُطلى بها السفن .

(٥) الهصور : المفترس . والمناصل : جمع منصل وهو السيف . وكأن أنياب الأسد سيوف .

لَـمْ يَنَـلْ مِنـهُ الأمـانَ الشَّـطُّ قَـطْ ... فـي الـدِّمـاء تِلْـكَ أعـلامٌ تُغَـطْ[1]
هــذه الأمــواجُ دومــاً فــي نِـزَاعْ ... تُهْبِطُ الـزَّورَق مِـنْ بَعْـد ارتفـاع
فيــه يَبْــدو رَجُــلانِ شَــاحِبــانْ
أشْعَثَــانِ مــنْ ثِيَــابٍ عَــاريــانْ

* * *

روحُ الهِنْدِ تَظْهَر

تِلْكَ بنتُ الحورِ في شَقِّ السَّماء ... ترفع البُرْقُعَ عَنْ وَجْهِ الضِّياء
ولهــا نــارٌ ونــورٌ فــي الجَبِيــنْ ... وســرورٌ أبــديٌّ فــي العُيــون
تــرتــدي ثــوبــاً أرقَّ مــنْ غَمَــامْ ... نَسَجَتْـهُ مِـنْ وُرُودٍ فـي الكِمـامْ[2]
مَـعَ هـذا الحُسْـنِ نـاءت بـالقُيـود ... تَصْدَعُ الشَّكْوىٰ لها قلبُ الحَدِيدْ[3]
قــال : روحَ الهنـدِ مـولانـا اشْهَـدا
نــوحُهــا فــي القَلْــبِ نــاراً أوقــدا

* * *

روحُ الهِنْدِ تَنُوحُ وتَنْتَحِب

أيْـنَ نـورُ الـرُّوحِ فـي مصبـاحهـا ... مـنْ وَعَـىٰ مجـداً لهـا مـنْ أهْلِهـا
مَـنْ علـى سـرٍّ لهـا لـم يَطَّلـعْ ... ألِلَخْـنِ مِنْـهُ مُشْـجٍ نَسْتَمِـعْ
ويـرى المـاضـي بعيـنٍ جـامِـدَهْ ... يَخْـرِقُ القلـبَ بنـارٍ خـامِـدَهْ
وقيــودي مِنْــهُ يُعيــي ثِقْلُهــا ... وشَكـاتـي ليـس يُجْـدي قـوْلُهـا

---

(١) الأعلام : جمع علم وهو الجبل العالي . وتغط : تغطس في الماء .
(٢) الكِمَامُ : جمع كِمٍّ ، وهو غلافُ البُرعم .
(٣) ناء بالحمل : نَهَضَ به مُثقلاً .

ومضى شوطاً بعيداً عن « أنا » مِنْ تقاليدِ له سِجْناً بَنى

عَيْشُه آلَمَ حتَّى قَومَنا

طُهره بالحُزْنِ أضنى عَصْرَنا(١)

دَعْكَ مِنْ فَقْرٍ به عُزْيٌ وجب حبذا الفَقْرُ إذا مُلْكاً وَهَبْ(٢)

دَعْكَ مِنْ جبرٍ وصبرٍ ، الحَذرْ فلأهلِ الجَبْر سُمٌّ قَدْ بَدَرْ(٣)

إنَّ هذا مَنْ يُدِيمُ صَبْرَهُ ذاكَ مَنْ يرضى ويهوى جَبْرَه

يألفانِ الظُّلْمَ مُرّاً في التَّحَسّي

لَيْتَ قومي يعلمون ، ويحَ نَفْسي

أَلِلَّيلِ الهندِ صبحٌ قَدْ يَلُوحْ جعفرٌ أودى وتحيا مِنْهُ رُوحْ(٤)

إنَّ قَيْدَ الجِسْمِ عَنْهُ قَدْ خَلَعْ وَبِجِسْمٍ آخرٍ عشّاً وَضَعْ

تارةً كانَ أَلُوفاً للكنائِسْ وهو مَنْ في الدير أحياناً يُجانِسْ(٥)

دينُه ما كانَ غَيْرَ المتْجَرِ عنترٌ يَبْدُو كمِثْلِ حَيْدَرِ(٦)

إنَّهُ عنْ كلّ هذا لا يَحِيدْ طالَما كانَ لِدُنيانا وُجُودْ(٧)

وقديماً لِسِوىٰ هذا سَجَدْ وطناً في عَصْرِنا ما قَدْ عَبَدْ

وعلى الدِّين لنا يَبْدُو حَزِينا وهو في الباطِنِ مِثْلُ المُلْحِدِينا

جَعْفَرُ الأمَّةِ هذي مَنْ قتل مسلماً والقَتْلُ كانَ ما فَعَلْ

---

(١) يقول : إن وجوده كان ألماً للبشرية كلّها . ومما أحزن العصر الحديث أن يحار فيما طَهُرَ وما لم يَطْهُرْ .

(٢) يقول الصوفية (الفقر فخري) والفقر عندهم خيرٌ من مُلْكِ الملوك .

(٣) الجَبْرُ والصَّبْرُ هنا هما القَدَرُ والاستسلام له .

(٤) أودى : هلك .

(٥) الألوف : الكثير الألفة . ويشير إلى ولائه للإنجليز . وجانسه : كان من جنسه .

(٦) المتجرَ : الاتّجار .

(٧) يحيد : يعدل وينحرف .

باسمٌ ، ما شاق يوماً خِلَّهُ يبسمُ الثُّعبانُ لَكِنْ ما لَهُ ؟[1]
الشَّقاقُ بثَّه في قَومِهِ واللئيمُ شَعْبُهُ منْ لُؤْمِهِ
الفساد في بلادٍ حينَ يَظْهَرُ صادقٌ أصْلٌ له أو كانَ جَعْفَرُ
جعفرٌ منْ رُوحِه رَبِّي أغِثْنا
منْ مَثِيلِ جعفرٍ ربِّي أجِرْنا

***

صيحةُ راكبٍ في زورقِ بَحْرِ الدِّماء

حائرٌ بَيْنَ الوُجودِ والعَدَمْ وَيْحَ نفسي منْ وُجودٍ كمْ ظَلَمْ
نَحْنُ منْ شرقٍ إلى غربٍ عَبَرْنا وإلى بابِ الجَحِيمِ قدْ وَصَلْنَا[2]
ما رَمَتْ هَذينِ حتَّى بالشَّرَرْ ما لنا كفُّ رمادٍ في الشَّعَرْ[3]
ثُمَّ قالتْ إنَّ ضِغْثاً أفضَلُ
فهو أنقى ، فيه ناري تَشْعَلُ
في السَّمواتِ مضينا مُصْعِدِينا ورأينا بَغْتَةً تِلْكَ المَنُونا[4]
قالتِ الأرْوَاحُ : أسرارٌ لَدَيَّا حفظُ روحٍ هَدْمُ جِسْمٍ في يَدَيَّا
إنَّ رُوحَ الشرِّ شيءٌ يُحْقَرُ امضِ عنِّي! ما بموتٍ تَظْفَرُ[5]

---

(١) شاقَ : هيج الشوق . أي : أنه كان باسم الوجه إلا أنه لم يعجب خليلاً يصادقه وقد يبسم الثعبان ولكن عن نابين يمجّان السُّمَّ .

(٢) يقول : إنهم لكثرة ما كابدوا من المشقة في سفرتهم وشدة ما لقوا من تعب كأنَّهم في نهاية المطاف وقفوا بباب جهنم .

(٣) أي لم تنثر حفنةٌ من الرَّماد على رؤوسهم .

(٤) أصعد : مضى في أرض أعلى من الأخرى . والمنون : الموت .

(٥) يقول : إنَّ قبض الروح أمر يسير وروح الشر شيء حقير ، ومع ذلك لا يريد قبض روحه .

راحـةُ الأرواحِ لَيْسَـتْ فـي الحِمـام
لا يُـريـحُ المـوتُ روحـاً لِلئـام

يـا ريـاحُ ، يـا محيطـاً لِلـدِّمـاءْ   أنتِ يا غَبْرَاءُ ، يا لونَ السَّماءْ[1]
يـا ذُكـاءُ ثُـمَّ يـا بَـدْرُ الظُّلَـمْ   والكتـابُ ومَـعَ اللَّـوْحِ القَلَـمْ
يـا إلهـاً أبيضـاً يـا لِـوَرْدٍ غَـرْبِ   تَمْلُكانِ عالماً مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ ![2]

مـا لِـدُنيـانـا ابتـداءٌ وانتهـاءْ
ألِعَبْـدٍ حـانَ بـالمـولـى لِقَـاءْ[3]

ثُـمَّ دوَّى بَغْتَـةً صَـوْتٌ رَهِيـبْ   شقَّتِ الصَّدرَ البحارُ والسُّهوب[4]
تِلْـكَ أوصـالُ الجسـومِ فُكِّكَـتْ   والصُّخُـورُ وهـي تهـوي فُتِّتَـتْ
والجبـال كـالسَّحـاب فـي المـرور   هـذه الـدُّنيا انتَهَتْ مِنْ غَيْرِ صُـوزْ
والبـروقُ أصْلُهـا نـارُ الخَفَـاءْ   عُشُّهـا تَطْلُـبُ فـي بحـرِ الـدِّمـاء
جـاشَـتِ الأمـواجُ وهـي تَسْتَبِـقْ   في الدِّماء الطُّورُ كالسَّهلِ الغَرِقْ[5]

للنُّجـومِ مـا بـدا أو غـابَ عَنْهـا
لـمْ يُثِـرْ أدنـى اهتمـامٍ كـانَ منْهَـا

* * *

---

(١) الغبراء : الأرض . يا لون السَّماء : أي : أيَّتها السَّماء الزرقاء .

(٢) في الأصل أيتها الأصنام البيض وياالوردات الغرب . فذكرنا المفرد مع إرادة الجمع . ويقول : إنَّ هؤلاء يريدون أن يملكوا العالم بكلِّ يسرٍ وهينة .

(٣) المولى : السَّيِّد .

(٤) السُّهوب : السهول .

(٥) جاشت : ارتفعت ، واضطربت . تستبق : تتسابق .

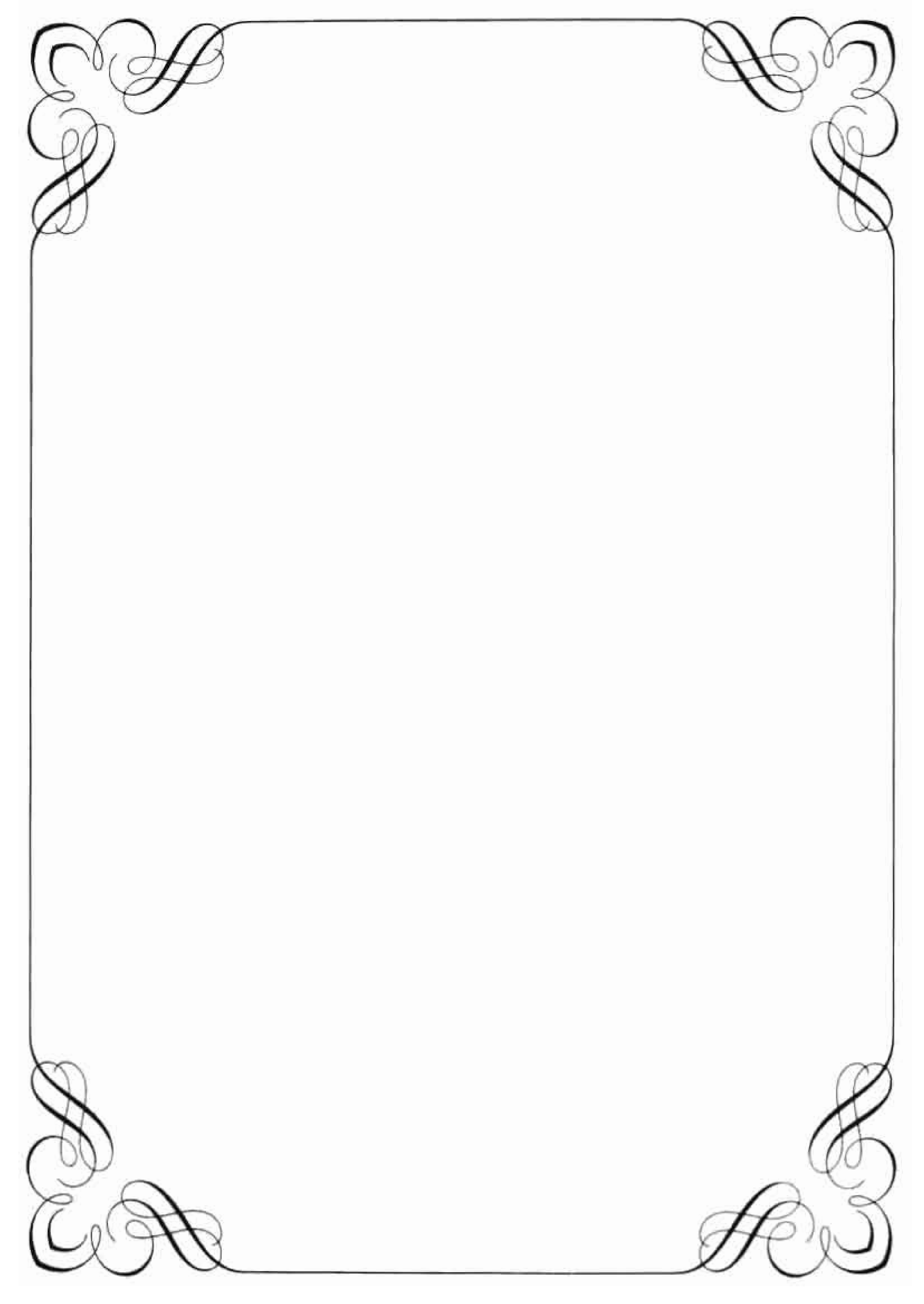



القسم السابع

مَا وراءَ الأَفْلاك





منزلة الفيلسوف الألماني نيتشه[١]

للفنـــاءِ والبقـــاءِ مُعْتَـــركْ ... لَيسَ يدري المرءُ سِرَّاً لِلْفَلَكْ[٢]

للحياةِ يَحْمِلُ الموتُ الرِّسالـهْ ... والسَّعيدُ منْ وَعَىْ لِلْمَوْتِ حالهْ !

الـريـاحَ أشْبَهَـتْ هـذي الحيـاة ... ما استقرَّت ، كلُّ ما تبغي الثَّبَاتْ !

كـم دُنَـى لـي نـاظـرانِ شاهَـدَا ... ثـمَّ حـدُّ الكـائنـاتِ لـي بـدا

كـلُّ دُنيـا كـانَ فيهـا نـورُهـا ... قـطُّ مـا إنْ أشْبَهَتْهَـا غيـرُهـا[٣]

إنَّ فيهـا الـوقْـتَ يجـري كـالبِحَـارْ ... فهـي تجـري أو لهـا بَعْضُ القَـرَارْ

عـامُهـا شَهْـرٌ وحتَّـى بُـزهـةٌ ... قِلَّـةٌ طَـوْراً وطَـوْراً كَثْـرةٌ[٤]

عقلُنَـا فـي عـالَـمٍ كـانَ الـذَّكيَّـا

فـي سِـــوَاهُ لـم يَكُـنْ إلا الغبيَّـا

ثَغْرُه القـاصـي بـه مـنْ قَـدْ ظَهَـرْ ... صـوتُـه المحـزونُ بـالحـزنِ انفَطَـرْ

ولـهُ العَيْـنُ كَعَيْـنٍ للعُقَـابْ ... كاسفَ الوَجْهِ لأهوالِ المُصَابْ[٥]

والتَّبـاريـحُ تـزيـدُ فـي الجَنَـانْ ... بَيْتُ شِعْرٍ ما طَوَاهُ عَنْ لِسَانْ[٦]

---

(١) نيتشه : فيلسوف ألماني مستفيض الشهرة ، يُعدُّ بحقٍّ منْ أهمِّ قادة الفكر الذين كان لتفكيرهم أثرٌ في العصر الحديث . وأكثر كتبه سيرورة كتاب بعنوان : « هكذا قال زرادشت » وإن كان أشدَّ ما كتب غموضاً . وقد تناول المسيحية بالنقد ، واختلط عقله قبل وفاته عام ١٩٠٠م .

(٢) المعترك : موضع العراك والقتال . والمراد أنَّ الفناء والبقاء في حربٍ إلى الأبد .

(٣) في الأصل أنَّ كلَّ عالمٍ له قَمَرُه وثريَّاه ، وهو مختلفٌ عنْ غيره .

(٤) أي أنَّ القلة في عالم كثرةٌ في غيره . وهذا مطَّردٌ في كلِّ تِلْكَ العوالم .

(٥) كاسفَ الوَجْه : عابسٌ منْ هول الشدائد .

(٦) تباريح الشوق : توهجه . والجنان : القلب . ولم يطو بيت شعر عن لسانه : لا يكفُّ=

« أجبريلُ أم اللهُ وحورُ الخُلْدِ ؟ تَنساقْ !
تراب أنت في نارٍ لروحٍ وهي تَشْتَاقْ »[1]

قلتُ للروميِّ ذا المجنونُ مَنْ ؟ قال : في الألمانِ مَشْهورُ الزَّكَنْ[2]
كانَ بَيْنَ العالمينَ مَوْضِعُهْ وقديمُ اللَّحْنِ منْهُ نَسْمَعُهْ
إنَّه الحلَّاجُ لَكِنْ أيْنَ عُوْدُه ؟ قال قولًا وسواهُ لا يُعيدُهْ[3]
وجريءُ القَوْلِ بزَّاقُ الفِكَرْ قولُه السيفُ الفِرَنْجَ قَدْ شَطَرْ
الجليسُ لَيْسَ يَدْري جَذْبَتَهْ تَحْسَبُ المجذوبَ جُنَّ نَظْرَتَهْ
من خُمارِ العِشْقِ معدومو النَّصيب نبضُه قدْ أودعوا كفَّ الطَّبيب[4]
عِنْدَ أهْلِ الطبِّ خَتْلٌ ما وُجد ويلُ مجذوبٍ لإفرنجٍ وُلِدْ[5]
ابنُ سينا في كلامٍ قالَ أفْصِد أو بِحَبٍّ منْ شَكَا الأوجاعَ أرْقِدْ

كانَ حلاجاً بأرضٍ كالغَرِيبْ
فرَّ مِنْ قَتْلِ الفَقِيهِ لا الطَّبيب !

الطَّريق في الفِرَنْجِ منْ عَرَفْ ؟ فَعَلَىٰ قيثارةٍ دوماً عَزَفْ[6]
الطَّريقُ لَيْسَ فيه منْ دَلِيلْ ضلَّ في سيرٍ وفي سيرٍ وَبِيلْ[7]
كانَ مالًا لَمْ يَجِدْ منْ عَدَّهُ يُنْجِزُ الأعمالَ لَكِنْ وَحْدَهُ
عاشقٌ لَكِنْ طَوتْهُ زَفْرَتُهْ سالِكٌ قَدْ تَيَّهَتْهُ خُطْوَتُهْ[8]

= عن ذكره وترديده .

(١) ترجمنا هذا البيت ببحره في الأصل ، وهو الهزج الذي يستخدمه الفرس ثمانياً .

(٢) الزَّكن : الفطنةُ والذَّكاء .

(٣) العود هو الذي صلب عليه الحلاج . وقال قولًا لا يعيده سواه : أي لا يشبهه فيه .

(٤) الخمار : الصُّداع من شدَّة السُّكْرِ .

(٥) الختل : الخداع . وما وجد : بمعنى الذي وجد .

(٦) دوماً : دائماً .

(٧) السَّير الوبيل هنا هو السير الذي تخشى عاقبته .

(٨) تيَّههُ : أضلَّه ، وضيَّعه .

حَطَّمَ الكـاسـاتِ ذيَّـاكَ الثَّمِـلْ   وَعَـنِ اللهِ وذاتٍ مُنْفصِـلْ
ورأىٰ لَكِـنْ بِعَيْـنِ الظَّـاهِـرِ   الـرَّقيـق فـي العنيـفِ القَـاهِـرِ
وانْطِـلاقـاً شـاءَ مِـنْ طِيْـنِ البَـدَنْ   وخـروجُ الحَـبِّ فـي قلـبٍ قَطَـنْ
ومَقَـامٌ لـلإلـه مـا يـريـد   وعَـنِ العَقْـلِ البَعيْـدِ والبَعيـد !
إنَّ تِلْـكَ الـذَّاتِ شَـرْخٌ لِلْحَيـاة   « لا » و « إلّا » مِنْ مقاماتٍ لِذَاتْ
ظَلَّ في « لا » وَحْدَها هذا العَجِيب   عَنْ مَقَامِ « عبده » وَهْوَ الغَرِيبْ
عَـنْ تجلٍّ مـا لـديـهِ مـنْ خَبَرْ   كثمـارٍ أبعـدوهـا عـنْ شَجَـرْ !
طَلْعَـةُ الإنسـانِ راقَـتْ مِنْـهُ عَيْنَـا   ثـمَّ صَـاحَ ذَلِـكَ الإنسـانُ أينـا
أوْ عـنِ النَّـاس تـراه رَاغِبـا   وكَمُـوسـىٰ لِلقـاءِ طَـالِبَـا
لَيْتَـهُ مـنْ عَـاشَ فـي عَصْـرٍ لأحْمَـدْ   لِيَعِيْشَ في الحُبُورِ وَهْوَ سَرْمَدْ[1]
عَقْلُـهُ لِلـذَّاتِ قـالَ : اسْتَمِـرْ   أنْـتَ فـي خيـرِ طـريـقٍ ، فَلْتَسِـرْ

وَتَقَـدَّمْ قَـدْ دنـا هـذا المَقَـامْ
طَـالَ فيـه ، وبـلا حـرفٍ ، كَـلامْ

* * *

الرَّحِيْلُ إلى جنَّة الفِرْدَوْس

انْطَلَقْـتُ مِـنْ حُـدُوْدِ الكـائِنَـاتْ   عالماً وافَيْتُ يَخْلُو مِنْ جِهَاتْ
لَيْـسَ فيـهِ مِـنْ يمـينٍ أو يَسَـارْ   لا ولا ليـلٌ أتـى بَعْـدَ النَّهـارْ
عِنْـدَهُ قِنْـدِيْـلُ إدْراكـي خَمَـدْ   هيبـةً مِنْـهُ كـلامـي قَـدْ جَمَـدْ

بِلِسـانِ الطِّيـنِ لِلـرُّوحِ المَقَـالْ !؟

---

(١) أحمد : هو الشيخ أحمد السَّرهندي المتوفى عام ١٥٦٤م ، ذلك الصُّوفي الهندي الذي عاصر أكبر ، وجهانكير من أباطرة المغول في الهند . وقد عرف بمجتهد الألف الثاني ، وكان ضدَّ غُلاة المتصوِّفة .

والحبور : السرور . والسَّرمد : الدائم .

طيرانُ الطَّيْرِ في السِّجْنِ المُحَال[1]

عالماً للرُّوحِ خُصَّ بالنَّظَرْ فَبِنُورِ الذَّاتِ نورٌ لِلْبَصَرْ

ما الفؤادُ ؟ عالمٌ لا لَوْنَ لَهْ لَيْسَ فيهِ الحدُّ فانْظُرْ كلَّه

ساكنٌ والسَّيْرُ منه في ازدياد كلُّ حالٍ كلُّ فكرٍ في الفؤاد

حارَ هذا العقلُ في تِلْكَ الحقيقه سارَ وهو لا يرى حتَّى طَرِيْقَه

والخيالُ غَيْرهُ عَنْهُ اخْتَلَفْ ذاكَ في الجوزا وهذا قَدْ أَسَفّ[2]

مَنْ يقولُ إنَّ هذا في السَّما بجوارِ مَنْ على الأرضِ ازْتمىٰ

أسرورُ مَنْ رأىٰ يوماً حَبِيبَا مِنْ سُرُوْرِ ناشقٍ كانَ القَرِيبا[3]

أيقظِ العَيْنَيْنِ أوْ خُذْ بالكرى فَبِدُونِ الشَّمس قَلْبٌ قَدْ يُرَىٰ

فضِّلِ الدُّنيا على دُنيا الفُؤادْ

بالقياسِ حِزْتُ في شَرْحِ المُرَاد

هذه دنياكَ فيها غَيْرُها « كنْ فكانَ » غَيْرُ تِلْكَ نَجْرُها[4]

وتدومُ ، وبها دامَ التَّغَيُّرْ لا يراها الوَهْمُ ، إنَّ العَيْنَ تَنْظُرْ

ولها دوماً جديدٌ مِنْ كمال كلَّ يوم كانَ لونٌ مِنْ جمال[5]

لا تُرى فيها الشُّموسُ والبُدور تسعةُ الأفلاكِ فيها ما يَدُور

كلُّ ما في الغَيْبِ يبدو في سُفُوز قَبْلَ أنْ يَخْفِقَ قَلْبٌ بالشُّعوز

بلساني هَلْ أصيبُ وَصْفَها يا لها نورُ الحياةِ يا لها ![6]

الجبالُ أنْبَتَتْ حُمْرَ الزُّهوز في الرياض النَّهْرُ يجري بالخَرِيزْ

---

(١) المقال : القول . والمراد بالسجن هنا : قفص الطير .

(٢) الجوزاء : برج في السماء . وأسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

(٣) نشق ريحاً طيبة : شمها . والمعنى أنَّ سرور من يشاهد الحبيب ليس كسرور من يشمُّ الرِّيح التي تأتي من محلته .

(٤) النجر : الأصل .

(٥) لون : نوع . وكانَ هنا تامة .

(٦) في الأصل : إن هذه الدنيا هي النور والحضور والحياة .

البَـراعِيـمُ زَهَـتْ ألـوانُهـا نفخـةُ الأبـرارِ منهـا كـونُهـا[1]

اللُّجَيْـنُ المـاءُ والأنسـامُ عَنْبَـرُ والقِبابُ للقُصورِ ، تِلْكَ جَوْهَرُ[2]

الخيـامُ مِـنْ يـواقيـتٍ وتِبْـرِ وجبيـنُ الغِيْـدِ بـالمـرآةِ يُـزْرِي

قال لي « الرومي » أسيرٌ للقياس ؟ عَنْـكَ دَعْ كـلَّ اعتبـارٍ لِلْحَـواس

بـالتجلّـي الخيـرُ كـانَ والشُّـرور جَنَّـةٌ كـانَـتْ كمـا كـانَ السَّعِيـر

القُصُـورُ كـالـرَّبيـعِ فـي النَّظَـرْ أصلُهـا الأعمـالُ لا ذاكَ الحَجَـرْ !

مـا تُسمِّيـهِ بحـورٍ أو بِكَـوْثَـرْ لِسُـرُورٍ ولجـذبٍ كـانَ مَظْهَـرْ

الحيـاةُ ، هـاهنـا هـذا النَّظَـرْ

وسِـوَاهُ وَسِـوى قـولٍ فـذَرْ

* * *

قَصْرُ شَرَفِ النِّسا[3]

عُـشُّ يـاقـوتٍ أراهُ فـي عُـلاه ومِـنَ الشَّمْـسِ الخـراجُ قَـدْ جَباه

ذَاكَ قَصْـرٌ ذو قِبَـابٍ عَـالِيَـاتْ ضمَّ حوراً في ثياب المُخْرِمات

رغبـةُ العِلْـم وُهِبْـتَ سَـالِكَـا مـنْ لهـذا القَصْـرِ كـانَ مَـالكـا[4]

---

(١) البراعيم : جمع برعوم : وهو الزهرة قبل تفتحها . يقول : إنَّ الأبرار نفخوا نفخة أوجدتها .

(٢) اللجين : الفضة . والأنسام جمع النسم ، وهي الريح اللينة .

(٣) شرفُ النِّسا : حفيدةُ أحد حكام البنجاب على عهد الإمبراطور المغولي بهادرخان . ويقال : إنَّها أقامت في قصرها منصةً لتتلو القرآن عليها كلَّ صباح وإلى جانبها سيف . وكانَ المصحف والسيف على تلك المنصَّة دائماً . وأوصت بدفنها بعد موتها مع السَّيف والمصحف في ذلك الموضع .

(٤) السَّالك : المريد في أول عهده بالتصوف .

قال « هذي ، عُشُّها البادي هنالك ... وتغنَّى طيرُه بَيْنَ الملائك[1]

جوهرٌ ، ما إنْ حَوَاهُ بحرُنا ... وفتاةٌ لم تَلِدْها أمُّنا

أرضُ لاهورَ بها أضحَتْ سَمَاء ... سرُّها يخفىٰ على الدُّنيا خَفَاء

ولما بالذَّوْقِ والشَّوْقِ الشُّعُورْ ... ولعينِ حاكمِ البنجابِ نُورْ

وهي نورُ الأهلِ في عبد الصمد ... فَقْرُها ذِكْرى ستبقىٰ لِلأبَدْ

تَقْرَأُ القرآنَ ، نفساً طهَّرت ... برهةً في تَرْكِهِ ما فكَّرَتْ

تَحملُ المُصْحَفَ والسَّيْفَ الحُسَاما ... إنَّها السَّكْرى وما ذاقت مُدَاما[2]

خلوةٌ سيفٌ وقرآنُ الصَّلاة ... حبَّذا عُمْرٌ تَقضَّى في التُّقاة[3]

آخرُ الأنفاسِ وهي تُحْتَضَرْ ... أمَّها خصَّتْ بِمُلْتَاعِ النَّظَرْ

ثُمَّ قالتْ إنْ عَرَفْتِ الآنَ سِرِّي ... شاهدي ما في يَدِيْ أوْ ما بِخَصْرِي[4]

قوَّتانِ بهما أيْدُ الثَّبَاتْ ... مِحْوراً كانا لِدَوْمِ الكائِنَاتْ[5]

في حياتي ، وجميعاً نُقْبَرُ ... ليس لي يا أمُّ شيءٌ آخَرُ

قَبْلَ مَوْتي ذاكَ مِنْكِ مَطْلَبي ... مُصْحَفي والسَّيفَ منِّي قرِّبي

كلُّ هذا منْ كلامي فلتعي ... لا تزيني في التُّرابِ مَضْجَعي[6]

الكتابُ والحُسَامُ حَسْبُنَا
بهمَا يَزْدَانُ حقَّاً قَبْرُنا

وقروناً تَحْتَ تِبْرٍ لِلقِبَابْ ... قَدْ تحلَّى بالحسامِ والكِتَابْ[7]

---

(١) أي تَغَنَّى الطيرُ الذي حطَّ على سطح هذا القصر مع الملائكة .
(٢) السَّيفُ الحسام : القاطع .
(٣) التقاة : التقوى .
(٤) المصحف في يدها ، والسَّيف معلقٌ بخصرها .
(٥) الأيْد : القوة .
(٦) وعى الكلام : حفظه وتدبره . وهي ترغب إلى أمِّها ألا تقيمَ لها قبراً يزدانُ بالقبابِ والقناديل .
(٧) التبر : الذَّهب .

ولنـا المَـرْقَـدُ فـي دُنيـا الشَّتَـاتْ　　علَّـم المـؤمـنَ معنـىً لِلْحَيَـاة[1]
نَفْسَـهُ المسلـمُ حقّـاً قَـدْ ظَلَـمْ　　فـالبسـاطُ مـا طـوىٰ دَهْـرٌ وَضَـمّ
وهـو فـي غيـرِ الإلـهِ فَكَّـرا　　أَصْبَـحَ الثَّعْلَـبُ ، كـانَ القَسْـوَرا[2]
ولهيـبُ القلـبِ فيـه مـا انْـدَلَـعْ　　أنتَ في البنجاب تدري ما وَقَعْ ؟
مِنْـهُ سَيْـفٌ وكتـابٌ مـا حُمِـل
ولـذا الإسـلامُ فيـهِ قَـدْ قُتِـل »[3]

* * *

زيارةُ الأميرِ الكبيرِ سيِّد علي همداني ومُلاَّ طاهر غني كشميري[4]

حَـرَّقَ الأضـلاعَ لِلـرُّومـيِّ قـولُ　　آه يـا بنجـابُ ! يـا أرضـاً تُجَـلُّ
مِثْلَ خِلاَّني اضطربتُ في الجنانِ　　وَمِـنَ الهـمِّ ذكـرتُ مـا عَـرَانـي[5]
وإذا صـــوتٌ لآلامٍ وَحُـــزْنِ　　منْ ضِفَافِ الكَوْثَرِ الصَّافي بأُذْني
« وأردتُ حَرْقَ نفسي ولذا جَمَّعتُ قشّا

---

(١) الشَّتات : التفرق .
(٢) القَسْوَرُ : الأسد .
(٣) يقول : إنَّ طائفة السِّيخ هي التي أبعدت القرآن والسيف عن البنجاب . وفي عقيدةِ السِّيخ : أنَّ كل إنسانٍ جديرٌ بالإجلال والتقدير بقطع النظر عن دينه ومذهبه ، ومرَّت الأيامُ وحاربَ السيخُ المسلمين .
(٤) الأمير سيد علي همداني صوفيٌّ مرموقُ المنزلة عالي القدر . كان صاحب مشورة أمير كشمير ، ولد في همدان ، وعاش طويلاً ، وأفاد الناس بعلمه في كشمير ، وتوفي عام ١٣٨٥م . ومُلاَّ طاهر غني كشميري ، شاعرٌ من أهل كشمير ، كانت وفاته عام ١٦٦٩م . كان واسع الخيال ميالاً في شعره إلى التمثيل والتخييل ، وعلى فقره ورقة حاله عُرِفَ بغنى النفس ، فكان اسماً على مسمًى .
(٥) عراه : أصابه .

ويظنُّ الوردُ أنِّي في الرياض رُمْتُ عُشًا » ![1]

قالَ لي الروميُّ « ما يأتي انظُرَنْهْ ... يا بُنَيَّ ما مَضَىٰ لا تَذْكُرَنْهْ
هو ذا « طاهر غني » أو خير شاعِر ... الفقيرُ ، وغِنَاهُ مِنْهُ ظَاهِرْ
إنَّهُ النَّشْوانُ غَنَّى في دوام ... عِنْدَ هذا السَّيِّدِ العالي المَقَامْ
سيِّدُ السَّاداتِ مِنْ سَادَ العَجَمْ ... كفُّه مِعْمَارُ تقديرِ العَجَمْ[2]
الغزالي دَرْسَهُ لمَّا تَلَقَّى ... اسْتَمَدَّ آلَهُ فِكْراً وحقًّا
في بلادٍ وهي لِلْخُلْدِ النَّظير ... مرشدٌ لِلْكُلِّ بلْ نِعْمَ المُشِيرْ
في البلادِ ذلكَ البَحْرُ المَعينْ ... فَضْلُهُ عِلْمٌ وَتَهْذيبٌ وَدِينْ[3]
إنَّه مَنْ شَادَ إيرانَ الصَّغِيرَهْ ... بصفاتِ الخَيْرِ والحُسْنِ الكثيره

عقدةً بالعَيْنِ حلَّ كالحكيم
قُمْ تلقَّ ما لديهِ في الصَّمِيمْ »[4]

* * *

في حضرة أميرِ همدان

زنده رود

أفهمنّي سرَّ ربِّي ، أنت تَصْدُقْ ... يَطْلُبُ الطَّاعةَ والشيطانَ يَخْلُقْ !
كلُّ شرٍّ في الوجود زيَّنَه ... وابتغي ممَّا عَمِلْتَ أحْسَنَهْ ![5]
ذاكَ سِحْرٌ مِنْهُ لي شكٌّ يخامرْ ... ما ابتهاجي صاحبي بِئْسَ المُقَامِرْ

---

(١) هذا البيت لطاهر غني كشميري . وقد ترجمناه طبق وزنه في الأصل .
(٢) كان طاهر غني ينظم بالفارسية ، ويقول : إقبال عنه : إنَّه قرَّرَ مصير الفرس .
(٣) مَعَنَ الماءُ فهو مَعِين : أي جرى .
(٤) ما لديه : أي ما لديهِ من فضلٍ وصفاتٍ حميدة .
(٥) أي : أراد منّي ألا أعمل إلا خيراً .

مِـنْ تـرابٍ حُفْنـةٌ ، وهـو الفَلَـكْ　　أطـريـقٌ لَيْـتَ شعـري مـا سَلَـكْ !
مـا عَمِلْنـا ، مـا ذَكَـرْنـا ، والألَـمْ　　كـانَ عضّـاً للبَنَـانِ مـنْ نَـدَمْ
كـلُّ مـن يـدري عـن الـذَّات الخَبَـر　　يخلـقُ النَّفـعَ لـديـه مِـنْ ضَـرَرْ
حُـبُّ إنسـانٍ لشيطـانٍ وَبَـالْ　　هـزمـه الشَّيطانَ فـي حـربٍ جمَـالْ
وعلـى الشيطـانِ أنـتَ فـاخمِلَـنْ　　كُـنْ حُسـامـاً وَلْيَكُـنْ نِعـمَ المِسَـنْ
فَلْتُجاهـزْ وَلْتُجـالِـدْ ، كـنْ وَحِيّـا　　لا تكُـنْ فـي العـالميـنَ ذا الشَّقِيّـا

زنده رود

كـلُّ إنسـانٍ أخـاهُ يـأكـلُ　　لِيَعيـشَ الشَّعْـبُ شَعْبـاً يَقْتُـلُ[1]
تتلظّـى الـرُّوحُ مـنْ هـذا البَلَـد　　ويئـنُّ القَلْـبُ أضنـاهُ الكَمَـد[2]
شعبُـه بـالعَقْـلِ والحُسْـنِ اشْتَهَـرْ　　وهـو فـي الآفـاقِ معـروفُ الخَبَـرْ
دُخْـرِجـتْ كـأسٌ ولكـنْ فـي دِمَـاه　　نـاحَ نـابـي لـلأليـمِ مـنْ أسَـاه
مُنْـذُ أنْ ضَيَّـعَ مـنْ ذاتٍ نصيبـا　　كـان فـي أوطـانِـه هـذا الغـريبـا
ظـلَّ فـي أيـدي سِـوَاه أجـرُه　　وشبـاكَ الغَيْـرِ أرضـىٰ نَهـرُه
ومَضَـتْ فـي سَيْـرِهـا كـلُّ القوافـل　　أفْسَـدَ الأعمـالَ شـأن كـل غـافـل
مـاتَـتِ الجـذْبَـةُ فيـه وَهْـوَ عبـدُ　　ولنـارٍ فـي العُـروقِ كـانَ خَمْـدُ[3]
لا تظـنَّ أنَّـه كـانَ المهينـا　　فـي التُّرابِ دائمـاً أدلـىٰ الجَبينـا[4]

إنَّـه فيمـا مضـى خـاضَ الحُـروبـا
وتحـدَّى وهْـوَ ذو البـأسِ الخُطـوبـا

قمـةً للثَّلـجِ فـاغْمُـزْ بـالنَّظَـرْ　　وكفـوفُ النَّـارِ تَبْـدُو فـي الشَّجَـرْ

---

(١) في الأصل أنَّ الشعب يرعى شعباً غيره كما ترعى الماشية العشب في المرعى لتعيش .
(٢) يتلظّى : يشتعل . الكَمَدُ : أشدُّ الحزن .
(٣) الخمد : الخمود .
(٤) المهين : الحقير .

اليــواقيــتُ حصــاهُ فــي الــربيــع والتُّـراب مـاجَ بـاللَّـونِ البَـديـع

والسَّحــابُ حــول أجْبــالٍ يَـدُورْ مِثْـلَ قُطْـنٍ عِنْـدَ نـدّافٍ يَطِيـرْ[1]

ذاكَ قـرصُ الشَّمس فـي بحرٍ غَـرَبْ قـد رأيـتُ الله عني مـا احْتَجَبْ[2]

في « نشاطٍ » سِرْتُ في ركبِ النَّسيم وتلوتُ شِعْرَ « مولانا » العَظِيمْ[3]

قـالَ طيـرٌ كـانَ فـي أعلى الغصـون مـا الـرَّبيع غَيْـرَ ذا الشيء المَهِينْ

نَــرْجِــسٌ يَــزْكُــو وزَهْــرٌ أحْمَــرُ بــالنَّسيـم شُـقَّ ثـوبٌ أخْضَــرُ[4]

مِـنْ قـديـمٍ فـي الجبـالِ قَـدْ ظَهَـرْ نَـرْجِسٌ فـي طُهْـرِهِ فـاقَ القَمَـرْ

كــمْ رأينـــا مـــنْ ورودٍ أيْنَعَـــتْ

كشهـــابِ أرضُنـــا مـــا أنْبَتَـــتْ[5]

بــالشَّكَــاةِ نــاحَ غِــرِّيــدُ السَّحَــرْ فـأُوارُ الـوَجْـدِ فـي رُوحـي اسْتَعَـرْ

ورأتْ عَيْنــايَ مجنــونَ الطَّــرَبْ كـلَّ مـا جمَّعتُ مـنْ صَبري سَلَبْ

* * *

امــضِ عنَّــا ، دَعْــكَ مــنْ نــوحٍ ثَمِـلْ

عــن طِلسْــمِ اللَّــونِ فــي الأزهــار مِـلْ

قلـــت إنَّ الطـــلَّ فـــي أوراق وَرْد

مــنْ بَكــىْ فــي الشَّــطِّ غِـرٌّ أوْ خبــل[6]

---

(١) الأجبال : الجبال . والنَّداف : ضارب القطن بالمندف ليرقَّ .

(٢) يقول : إنه شاهد قدرةَ الله في روعة الطبيعة .

(٣) نشاط : اسم حديقة في كشمير . ونشاط في الفارسية بمعنى سرور . يقول : إنه أنشد شعراً مشهوراً لمولانا جلال الدين الرومي نظمه على لسان الناي ومنه بيت يقول فيه إنَّ ما يتردد في الناي ليس هواء بل نارُ العِشْقِ الإلهي .

(٤) زكا الزهر : نما . ويريد بذلك الثوب الأخضر الذي يشقه النسيم أكمامَ الزهر .

(٥) أينعت الثمرة : بلغت نضجها . وقد استعير ذلك للزهرة ، وشهاب الدين المتوفى عام ١٣٧٤هـ من سلاطين كشمير ، وقد بلغت بلاده في عصره ذُروة التقدُّم في تاريخها .

(٦) الغر : من لا تجربة له . والخبل : المجنون .

أيـن ضِغْـثُ الـرِّيـش مـن تلـك الأغـانـي
عيـــن روح لغنـــيٍّ تَنْهمـــلْ[1]
إنْ مَـــرَرْتِ بجنيـــفٍ يـــا صَبَـــا
بلغـــي العُصْبَـــة عنّـــي مـــا نُقِـــلْ[2]
بِيْـــعَ فـــلاحٌ وتِلْـــكَ الأرضُ بيعـــت
وأنـــاسٌ ، ولَهُـــمْ سِعْـــرٌ مُـــذِل[3]

* * *

أمير همدان

اسْمَعَـنَّ القَـوْلَ لا يُنْسَـىٰ ويُـذْكَـرْ
التُّـرابُ جِسْمُنـا والـرُّوحُ جَـوْهَـرْ

ولأجْـلِ الـرُّوحِ جِسْـمٌ يُصْهَـرْ
مِـنْ تـرابٍ إنَّـه لا شـكَّ أطْهَـرْ

يـا بنـيَّ ، منْـهُ إنْ جـزءاً قَطَعْتَـا
ذلـكَ الجـزءُ بـلا ريـبٍ أضَعْتَـا

إنْ بذلْتَ الرُّوح لَكنْ وهي سَكْرَىٰ
عـادتِ الـرُّوح إليـكَ وهـي حَيْـرَىٰ

قُـلْ أجبنـي أيْـنَ للـرُّوح النَّظِيْـر
فهـي فـي قيـدٍ ومِـنْ قَيْـدٍ تَطِيْـر !

إنْ حَفِظْـتَ الـرُّوحَ ميْتـاً أصْبَحَـتْ
إنْ بَـذَلْـتَ الـرُّوحَ نـوراً أشْـرَقَـتْ

مـا هي الـرُّوحُ وفـي سُكْـرِ التَّجَلّـي
مـا هـي الـرُّوحُ ومـا عنهـا التَّخلّـي

ولـربـي قُـلْ أجِبْنـي كَيْـفَ تُنْشَـرْ
وبهـا الطُّـورُ العَظِيْـمُ كَيْـفَ يُصْهَـرْ

بتجلّـي السُّكْـرِ أنـتَ الـذَّاتَ تَطْلُـب
في الليالي السُّودِ لاحَتْ مِثْلَ كَوْكَبْ

إنْ فَقَـدْتَ الـذَّاتَ حَقَّقْـتَ الفَنَـاء
والـوجـودُ ، كـانَ لِلـذَّاتِ العَطَـاء[4]

مَـنْ رأى الـذَّاتَ ، وشيئـاً مـا رآه
سِجْنَـهُ أخـلاهُ مِمَّـا قَـدْ حَـواه

---

(١) انهملت العين : سال دمعها . وفي الأصل أنَّ روح غنى في حداد على أملها .
(٢) العصبة : هي عصبة الأمم وكان مقرها مدينة جنيف بسويسرا .
(٣) أردنا بالسِّعْرِ المذل : السِّعْرِ الرخيص للغاية .
(٤) الوجود هنا هو وجود الذَّات .

ذاكَ نَشْوانُ التَّجلِّي ، وهي مَطْلَبْ لسعةٌ مِنْ شَهْدِهِ أحْلَىٰ وَأطيَبْ !

وترىٰ الرُّوحَ رياحاً نَظْرَتُهْ سجنُه سِجْنٌ تهُولُ رَجْفَتُهْ[1]

يرفعُ الفأسَ لِتَخطِيمِ الصَّفاة لنصيبٍ قدْ ينالُ مِنْ حياة[2]

تَرَكَ الرُّوحَ لِتَغدُو خَلْفَهُ

وَبِغَيْرِ التَّرْكِ كانت ضَيْفَهُ

***

زنده رود

أنتَ خيراً ثُمَّ لي شرّاً شَرَحْتَا يا حكيمُ غَيْرَ هذا لوْ ذَكَرْتَا[3]

وإلى لُبِّ المعاني قَدْ هَدَيْتَ كلَّ أسرارِ الملوكِ كمْ وَعَيْتَ

فقراءٌ ، حاكمٌ يبغي الخَرَاجا قُلْ لماذا مجّدوا عرشاً وتاجا[4]

أمير همدان

أصْلُ هذا المُلْك في شرقٍ وَغَرْبِ ؟ كانَ إرْضاءَ لِشَعْبٍ أوْ لِحَزبِ

وأقولُ لكَ يا عالي المَقَامْ لسوى اثنينِ الخراجُ كالحرام[5]

لأولي الأمر و« منكم » شأنُهُمْ في الكتابِ قولُه برهانُهُمْ[6]

---

(١) يشبه الروح بالريح على أنَّ الريح لا ثمن لها .

(٢) الصفاة : الحجر الضَّخم الصَّلد .

(٣) لو هنا للتمني .

(٤) أي : نحن فقراء .

(٥) أي : أنَّ أداء الخراج حرامٌ إلا إلى اثنين .

(٦) قال تعالى في سورة النساء : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] ، فالأمر بطاعة أولي الأمر إذا أمروا بطاعة الله ورسوله .

أو نَجيدٍ مِثْلَ ريحٍ عاتِيَهْ ... جادَ في الحربِ بنفسٍ غَالِيَه[1]

بالقتالِ يَفْتحُ البُلدانَ فَتْحَا ... وهي تمس مُلْكَهُ إنْ شاءَ صُلْحَا

فارسٌ والهندُ ممَّا يُشْتَرىٰ ... لا يُنالُ المُلْكُ منْ هذا الوَرَىٰ[2]

جام جمشيد العجيبُ والنَّفيس ... أيباعُ مِثلَما بيعت كؤوس[3]

الزُّجاجُ لكَ مالٌ إنْ شَرَيْتَهْ ... أيُّ نَفْعٍ للزُّجاجِ إنْ كَسَرْتَهْ

* * *

غني

مَنْ أفادَ الهِنْدَ تَحْطيمَ القُيُودْ ... أيكونُ الصَّيْدُ يوماً كالصَّيُودْ[4]

عقلاءُ يُنْسبُونَ لِلْبَراهِم ... عِنْدَهُمْ قَدْ أُخجلت حُمْرُ البَراعِم[5]

مِنْ أولي العِرْفان أصحابُ النَّظر ... أي غربيٌّ رآهم لم يَحَرْ

أرضُنا كِشْميرُ منها أصْلُهم ... وبها لا بِسواهَا نَجْمُهُم

إنْ حَسِبْتَ الأرضَ تخلو منْ شَرَرْ ... قَلْبَكَ افتحْ وأطِلْ فيه النَّظَرْ[6]

أصلُ تِلْكَ النَّارِ أينَ ؟ لَيْتَ شعري ... ونسيمٌ للرَّبيعِ وَهْوَ يَسْري[7]

في الجبالِ عندنا خفقٌ لريح

---

(١) النجيد : الشجاع .

(٢) الورى : الناس .

(٣) يقال : إن ملك الفرس الأسطوري جمشيد كانت له كأس رسمت في قاعها الأقاليم السبعة . وهذه الكأس في شعر الفرس الصُّوفي رمز لقلب المتصوِّف .

(٤) الصَّيدُ : الفريسة التي تصاد . والصيود : الكثير الصيد .

(٥) البراهم : البراهمة .

(٦) الشرر : ما يتطاير من النار .

(٧) سرى : سار عامة الليل .

وبهـا تختـالُ فـي لـونٍ وريـح[1]

هـلْ عَلِمـتَ أنَّ يـومـاً فـي وُلَـر موجـةٌ قـالـتْ لمـوجـاتٍ أُخَرْ[2]

طـالَ فـي البحـر بنـا عُنْفُ الصِّراع لو حوانا البرُّ يوماً في اجتماع[3] !

وابننـا أي ذلـكَ النَّهـرُ القـديـم منه في الوادي وفي السَّفحِ الهَزِيم[4]

يَضربُ الأحجَارَ في عرض الطريق كي يُزِيلَ شأفة الطَّوْدِ العَتيقْ[5]

مـنْ فتـىً فـي كـلِّ أرضٍ قَـدْ غَلَـبْ أرضعتـه ألـف أمٍّ ثُـمَّ شَـبْ

إنَّـه بـالعُنْـفِ أبْـدَىٰ المَخْشَـرا لـمْ يَجـدْ عِنْـدَ سـوانـا المَصْدرا

ما الصَّوابُ عيشُنا في حدِّ ساحِلْ في الطَّريق حظَّ ما صَخْراً يُمَاثِلْ[6]

إنَّ إلـفَ الشَّـطِّ مـوتٌ لـلأبَـدْ يا مُديم السَّبحِ في لُجِّ الزَّبَدْ[7]

الحيـاة السيـرُ فـي غـورٍ وَنَجْـدِ

يُسْعِـدُ المـوجـةَ جـزرٌ بَعْـدَ مـدٌ

أنْـتَ فـي وَجْـهِ الحيـاةِ مَـنْ قـرأتَ ذلـكَ الشَّـوْقَ الحيـاةَ مـنْ وَهَبْـتَ

الـزَّفيـرَ لـكَ هـذا القَلْـبُ أخـرَقْ ضقتَ صَدْراً وَلدَيْنا الصَّدْرُ أَضْيَقْ

النُّـواحُ للطُّيـورِ مِـنْ رَجْيِعِـكْ والـوَضـوءُ للنباتِ مِنْ دُمـوْعِكْ[8]

وَفَتَحْـتَ الـزَّهْـرَ مـنْ طَبْـعِ هُنَـاكَـا والمنى في الرُّوحِ كانَتْ مِنْ مُنَاكَا

إنَّ مِنْكَ الصَّوْتَ أجراسُ القوافِلْ ولكشميـر أراكَ غَيْـرَ آمِـلْ

---

(١) الريح : الرائحة .

(٢) ولر : اسم بحيرة في كشمير .

(٣) لو هنا للتمني .

(٤) الهزيم : صوت الرعد .

(٥) شأفة الطود : أصل الجبل .

(٦) أي : أنَّ عيشنا على الساحل ليس صواباً لأنَّ صخر الساحل عقبةٌ في طريقنا . ويماثل : يشبه .

(٧) اللج : معظم الماء .

(٨) الرَّجيع : كلُّ متردِّدٍ . والمرادُ هنا الكلام والشعر . الوضوء : ماء الوضوء .

فـي الصُّـدُورِ لـم يُمِـتْ يـأسٌ فـؤادا تَحْـتَ ثلـجٍ لـم يَصِـرْ جَمْـرٌ رمـادا

قِـفْ تَمَهَّـلْ لِتَـرَىٰ مِـنْ غَيْـرِ صُـوز كيفَ قَامَ الشَّعْبُ مِنْ جَوْفِ القُبُوز

وتَـــأوَّهْ يـــا فَتَـــىٰ لا تَبْتَئِـــسْ أخضـراً أخْـرِقْ وأخْـرِقْ مـا يَبِـسْ[1]

كَـمْ بـلادٍ تَحْـتَ أفْـلاَكِ السَّمـاء أحـرقتهـا نـارُ قَلْـبِ الأشقيـاءْ[2]

إنَّ هـذا المُلْـك أوهـى مـنْ حَبَـابْ وهوَ بالأنفاسِ محتومُ الخَرابِ[3]

إنَّمـــا الشِّعْـــرُ المصيـــر قَـــدَّرا والشعـــوبَ قـــدْ بنـــى أوْ دمَّـــرا

أنـتَ إنْ جَـرَّحْـتَ هـاتيـكَ القُلـوبـا لم تَجِدْ في هذه الدُّنيا ضريبا[4]

الغنـاءُ لـكَ مِـنْ شِعْـرٍ تَلَـوْتَـهْ مـا وراء الشِّعْـرِ شعـرٌ أنْـتَ قُلْتَـهْ

جَــدِّدِ التَّحْــرِيْــكَ والتَّــأثيــرَ جَــدِّدْ
رَدِّدِ الألحـــان فـــي الجنَّـــاتِ رَدِّدْ

* * *

زنده رود

اغْـزِفَـنَّ ، نَشْـوةَ الـدَّرويشِ هـذي فـاثلفـنْ
إنْ نضجت ملكَ جمشيد العريضَ فامْلُكَنْ[5]
ثُـمَّ قـالـوا هـذه الـدُّنيـا لنـا هَـلْ تـرتضيهـا ؟
قلـتُ لا ، لا أرتضيهـا ، قِيْـلَ هيَّـا هـدِّمَـنْ
ليس في الحانات كفءٌ بالرِّضا مِنَّا جَدِيرْ

---

(١) ابتأس : حزن .
(٢) الأشقياء : ضد السعداء .
(٣) الحباب : النفاخات التي تعلو الماء والشراب ، وهو يزول حتماً إذا نفخ فيه .
(٤) الضريب : النظير .
(٥) جمشيد : ملك من ملوك الفرس الأقدمين .

رُسْتُم الأبطالِ حارِبْ ، ومَعَ الساقي امْزَحَنْ[1]
أنتَ يا زَهْرُ الصَّحارى ، قُلْ أحقَّقْتَ احتراقاً[2]
في قلوبٍ للأناسي ، هذه النَّارُ اضْرِمَنْ
كنتَ في قلبٍ لهيباً ، ولهيباً في دِمَاءْ
وإذا لم تَقْتَنِعْ بالقَوْلِ ذا الكونَ اشْطُرَنْ
ألكَ العَقْلُ سِرَاجٌ ؟ في الطريق سِرْ تَقَدَّمْ
وَلَكَ العِشْقُ مُدَامٌ ، فمعَ الحِبِّ اشْرَبَنْ[3]
فَلَذَّةُ القَلْبِ بدمعٍ مِنْ عيوني في انسكاب
مِنْ يواقيتِ بدَخْشانَ الفُصُوصَ فاصْنَعَنْ[4]

* * *

حديثٌ مع الشَّاعرِ الهنديِّ بَرْترِي هري[5]

تَسْكُنُ الحورُ القصورَ والخِيَاما ... بشكاتي يُضبحُ القَلْبُ الضِّرامَا[6]
هذهِ مِنْ خيمةٍ أبْدَتْ جَبِيْنَا ... أختُها مِنْ غرفةٍ أدْلَتْ عُيُونا[7]
كلُّ قلبٍ في الجِنَانِ قَدْ وَجَدْتُه ... بالأسىٰ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيا غَمَرْتُهْ

---

(١) رستم : بطل من أبطال إيران في عصر الأساطير .
(٢) يريد الزهر الأحمر الذي يشبه النار .
(٣) الحب : الحبيب .
(٤) بَدَخْشَان : مدينة تشتهر بالياقوت .
(٥) برتري هري : شاعر هندي عاش في منتصف القرن السابع الميلادي . وله أشعار باللغة السنسكريتية في الحبّ والخلق القويم والزهد .
(٦) الضرام : النار .
(٧) أدلت عيوناً : نظرت .

قالَ لي الشَّيخُ وبَسْماً قَدْ حَجَبْ   « أنتَ سحَّارٌ » وهنديُّ النَّسَبْ[1]

شاعِرُ الهند ! وهذي حِرْفَتُهْ   تَجْعَلُ الطَّلَّ اللآلي نَظْرَتُهْ[2]

(بَرْتَرِي) يزدانُ بالعِلْمِ العُجابْ   فطرة كانت له مِثْلَ السَّحابْ

بُرْعُمٌ بَيْنَ يديهِ ما رَأَيْنَا   دَفَعَتْهُ مِنْكَ أنْغَامٌ إلينا

إنَّه مَلْكٌ عظيمٌ بالغناء   وهو بالفقرِ العظيمُ ذو العَلاء

يَرسُمُ الشَّكْلَ البديعَ بالذَّكاء   يُظْهِرُ الدُّنيا بحرفٍ مِنْ خفَاء

أمرَ هذا العَيْشِ يدري كلَّه   وهو جمٌّ شِعْرُهُ جامٌ لَهُ[3]

قد عرفنا فنَّه فنّاً عليّا
وأدَرْنا بيننا قولاً طَلِيّا

* * *

زنده رود

أنتَ يامَنْ قُلْتَ قولاً عبقرِيّا   يَعْلَمُ الشَّرْقُ به سرّاً خَفِيّا

قلْ ، لهذا الشّعرِ مِنْ أينَ اللَّهَبْ   أضْرَمَتْهُ الذَّاتُ أوْ رَبٌّ وَهَبْ ؟

* * *

برتري هري

شاعرٌ أينَ يُقيمُ ، مَنْ عَرَفْ ؟   ولَه بَمٌّ وزيرٌ إنْ عَرفْ[4]

---

(١) السَّحَّار : الكثير السحر .
(٢) الطَّلُّ : النَّدى .
(٣) جم : هو جمشيد من ملوك الفرس الأقدمين . قيل إنه كان يملك كاساً رسمت في قاعها الأقاليم السبْعة .
(٤) البم : أغلظُ أوتار العود . والزيرُ : أدقُّها .

قلبُـه فـي الصَّـدرِ وهَـاجُ الأوار وأمـامَ اللهِ مَغْـدُومُ القَـرَار[1]

وببحـثٍ روحُنـا كـانَـتْ تَطِيـبْ وَطَلَبْنَـا ، فلـذا الشِّعْـرُ اللَّهِيـبْ

مِنْ كـرومِ القَـوْلِ يـا مَنْ قَدْ ثَمِلْتـا مِثْلَ ذَيَّـاك المقـامِ لَـوْ بَلَغْتَـا ![2]

وببيـتٍ قيـلَ فـي دنيـا الحَجَـرْ فـي الجِنـان تُسْتَبَى ذاتُ الحَـوَرْ[3]

زنده رود

إنَّ أهـلَ الهِنْـدِ كـانـوا فـي العَـذَابْ
أظْهِـرَنَّ السـرَّ مـنْ خَلْـفِ الحِجَـابْ

برتري هري

هذه الأربابُ شَحَّتْ وهيَ مِنْ طينٍ وصَخْر
« بـرتـري » كـان بعيداً عَنْ كنيسٍ بَلْ وَدَير
سجدةٌ مِنْ ذَوْقِ أعمالٍ خَلَتْ لا خَيْرَ فيها
عمـلٌ تِلْـكَ الحيـاةُ ، وَهـوَ مِـنْ خَيْـرٍ وَشَرّ
عـالَـمٌ أنـتَ تـراهُ لَيْـسَ مـن آثـارِ رَبّ
مِغْـزلٌ بـالخَيْـطِ دوَّرْتَ ولكـنْ لَسْـتَ تَـدْري
أسْجُـدَنَّ عنـدمـا للعـامليـن مِـنْ جَـزَاء
مـا لهـمُ هـذا النَّعِيـمُ والجَحِيـمُ غَيْـرَ أجْـر[4]

* * *

(١) وهاج الأوار : متأجج النار .
(٢) لو هنا للتمني .
(٣) استباه : سباه في الحرب .
(٤) المراد بالأجر هنا : الجزاء سواءٌ أكان على الخير أم على الشرّ .

السَّفرُ إلى قَصْرِ سلاطين المَشْرِق
نادر وأبدالي والسُّلطان الشهيد(١)

«بزترِي» قَدْ هَزَّ روحي بالنداء — أسْكرتني منه صهباءُ الغِنَاء
قال لي الروميُّ «عَيْنُ القَلْبِ أفضلْ — والخروجُ عنْ إطارِ الفِكْرِ أمْثَلْ»(٢)
بِمَقَرٍّ للدراويشِ اعبُرَنْ — وقصوراً للسلاطينِ انْظُرَنْ
وملوكُ الشَّرْقِ في حَفْلٍ كَعِقْدْ — عزةُ الأفغانِ أو فرسٍ وَهِنْدْ(٣)
«نادرُ» النِّحريرُ رمزُ الاتِّحاد — كانَ للإسلامِ بُشْرَىٰ بالوِدَاد(٤)
ثم «أبدالي» وَقَدْ كانَ البَطَلْ — مَنَحَ الأفغانَ أُسّاً لِلْعَمَلْ(٥)
وإمامُ شُهَداءِ العَاشِقينا — شرفَ الأقوامِ كانَ أجْمعينا(٦)

---

(١) نادر : هو شاه أفشار الذي كان قائداً في جيش الشاه طهماسب الثاني آخر ملوك الصفويين ، وقد تأتّى له أن يدفع غارة الأفغان على إيران ، فتربّع على عرشها عام ١٧٣٦م كان سُنّياً ، وبذل وُسْعَه في التقريب والتوفيق بين المذهب السني والمذهب الشيعي الذي كان المذهب الرّسمي للدولة الإيرانية في عهد الصفويين .
وأبدالي هو أحمد شاه دراني المتوفى عام ١٧٧٣م كان من قادة جيش نادر كما حكم من قبله إقليم مازندران . وبعد مقتل نادر مضى إلى أفغانستان حيث أصبح ملكاً ، واتخذ من مدينة قندهار عاصمةً له . ويعدُّ مؤسساً لدولة الأفغان .
أما السلطان الشهيد فهو تيبو سلطان الذي كان له المُلك في الدَّكن . وقد حارب الإنجليز الذين غلبوا على عاصمته ، ثم قتل في حومة القتال عام ١٧٩٩م .

(٢) الأمثل : الأفضل والأدنى للخير .

(٣) يشبه هؤلاء الملوك في مجلسهم بحبات العِقْد ، ويقول : إنَّ عزَّة الأفغان والفرس والهند بهم . وأو هنا للجمع .

(٤) النحرير : العاقل الحاذق .

(٥) الأس : الأساس . وفي الأصل : أنه منح الأساس للشعب .

(٦) العاشقون هنا عاشقو الذات الإلهية من الصُّوفية .

أينَ مِنْ نورٍ اسمهُ نورُ الكواكبْ ... وتـراه عَيْشَنـا هـذا يُـوَاكِـبْ[1]
إنَّـه كشَّـفَ سـرَّ العَـاشِـقِ ... جـادَ بـالـرُّوح بِشَـوْقٍ دَافـقِ[2]
وبفضـلٍ مـنْ بِبَـدْرٍ أوْ حُنَيْـن ... قَـدْ حباهُ فقرُه جَذْبَ الحُسَيْن[3]

زايـلَ السلطـانُ قصـراً زائـلا
مُلْكُـه فـي الهِنْـدِ ظَـلَّ مـاثـلا »[4]

ناقصَ العقلِ ، عجزتَ عن كلامي ... لَيـتَ شِعْـري كيـف وصفـي للمَقَامِ
بِتَجَلِّيـه رأى أهْـلَ السَّمـاء ... مـازَهُـم لَكِـنْ عجيبٌ مِنْ ذُكـاء
ذاكَ قَصْـرٌ ومـنَ الفيـروزِ بَـابُـه ... السَّمـاءُ كلُّهـا تَحْـوي رحـابَـه
فـي الشُّمُـوقِ مـا لـه كَيْـفٌ وَكَـمْ ... يَجْعَـلُ التفكيـرَ ذا عجـزٍ يُـذَمْ
هـذه الأزهـارُ فـي الحسن البديع ... صـورةٌ كـانـت تجلَّـت للـرَّبيع
والنبـاتُ وهـو فَيَّـاضُ البَهـاء ... غيَّـر الألـوانَ مِـنْ ذَوْقِ النَّمـاء
والصَّبـا دأبٌ لهـا أن تَسْحَـرا ... تجعَـلُ الأصْفَـرَ تـوّاً أحْمَـرَا[5]
دَفَـقَ المـاءُ وكـالـدُّرِّ انْتَثَـرْ ... طـائـرُ الفِرْدَوسِ غنَّـى فـي الشَّجَرْ
يـا لقصـرٍ فيـه بهـوٌ قَـدْ سَمَـقْ ... ذرَّةٌ منـه ذُكـاةٌ فـي الـوَهَـقْ ![6]
سَقْفُـه كـانَ عقيقـاً نُضِّـدا ... أرضُـه يَشْـمٌ ثَمِيـنٌ مُهِّـدا[7]
وصفـوفٌ فيـه مـنْ قـامـاتِ حُـورْ ... ولهـنَّ التِّبْـرُ حَلْـيٌ فـي الخُصُـورْ

---

(١) واكب الركب : سايرهم ، أو ركب معهم .
(٢) كشَّف : بمعنى كشف .
(٣) في الأصل بنظرةٍ من سيد بدر وحنين .
(٤) المراد بالقصر الزائل هذا العالم .
(٥) الدأب : العادة . يقول : إنَّ من عادتها أن تغيِّر الأشياء بالسّحر .
(٦) سمق : علا . وذُكاء : الشمس . الوَهَق : حبل في طرفيه أنشوطة يطرح في عنق الدابة لتؤخذ به . يقول : كأنما كلُّ ذرةٍ في هذا القصر صادت الشمس بهذا الحبل .
(٧) نضده : وضع بعضه على البعض . واليشم واليشب : حجر يشبه الزبرجد .

وعلى العرشِ ملوكٌ يَجْلسُونا ... وملوكَ الفُرْسِ كانوا يُشْبهُونا[1]
ذلكَ الرُّوميُّ مرآةُ الأدَبْ ... فرَّجَ الغمَّ بما زادَ الطَّرَبْ[2]
« ومِنَ المَشْرِقِ هذا شَاعِرُ ... لستُ أدري ، شاعرٌ أمْ سَاحِرُ
فِكْرُهُ دَقَّ وفي الرُّوح الألَمْ
شِعْرُه في الشَّرْقِ قد أذكى الضَّرَمْ »[3]

* * *

نادر

مرحباً يا شاعرَ الشَّرْقِ العَظيما ... مِنْ كلامِ الفُرْسِ أنْشَدْتَ القَوِيما
نَحنُ أهلُ السرِّ قلْ سرّاً لنا ... ثمَّ عن إيرانَ حدِّثْ أنْبِنا[4]

زنده رود

نَظَرَتْ إيرانُ في ذاتِ مليَّا ... وَهَوَتْ في قاعِ أشراكٍ هُوِيًّا[5]
وقتيلُ دَلِّ أصنامِ الجَمالْ ... تُشْبهُ الإفرنجَ في خَلْقِ الكَمالْ !
فِكْرُها في مُلْكِها أو في النسب ... مَدْحُ سابور وَذَمٌّ لِلْعَرَب[6]

---

(١) ذكر من هؤلاء الملوك جمشيد وبهرام وهما مشهوران بعزة الجانب .
(٢) فرج : فتح . والطرب : خفة تعتري الإنسان من فرحٍ أو حزن .
(٣) أذكى : أوقد . والضرم : الحطب يطرح في النار .
(٤) أنبنا : أنبئنا .
(٥) هوى هوياً : سقط . والشراك : جمع : شرك ، وهو الحبالة .
(٦) سابور : ملك من ملوك الفرس . وهو سابور الثاني المعروف بذي الأكتاف ؛ لأنه في حربه مع قبائل العرب خلع أكتافهم ، أو ثقب ألواحها وجعل فيها حبلاً إمعاناً في التشفي منهم .

يـومُهـا خـالٍ ، ومـنْ كـلّ المهـامْ   الحيـاةُ طَلَبَتْهـا فـي الـرِّجـام[1]
وطنـاً رامَـتْ وذاتـاً لا تَـرَىٰ   وتَنَـاسَـتْ رُسْتُمـاً بـلْ حَيْـدرا[2]

باطـلَ الإفـرنـج مـا قَـدْ حَصَّلَـتْ
ولهـا التـاريـخُ مِنهُـمْ شَكَّلَـتْ

كـانـتِ الشَّيْـخَ ، وفـي عهـدٍ بعيـد   شـاحـبَ الـوَجْـهِ دِمَـاهُ مـنْ جَلِيـدْ
غُـرَفُهـا بـالٍ لهـا ديـنٌ قَـدِيـمْ   وكـذاكَ الصُّبْـحُ واللَّيْـلُ البَهِيـمْ ![3]
كـرْمُهـا مـا فيـه أمـواجٌ لخمـرٍ   تُـرْبُهـا مـا فيـهِ مـنْ وَهْـجٍ لجمـرٍ[4]
ومِـنَ الصَّحـراءِ كـانَ المَحْشَـرُ   فَلَـدَيْهـا مِنْـهُ عُمْـرٌ آخَـرُ[5]
رحمـةُ اللهِ ومـنْ تَحْنـانِـه   فـارسٌ ظلَّـت وروما أيـنَ هِـي ![6]
مـا مضـى عـن جِسْمِهـا روحٌ رؤوم   أبغيـر الحَشْـرِ مـنْ تُـرْبِ تَقُـومْ[7]
رجـلُ الصَّحـراءِ روحـاً قـد مَنَـحْ   وإلـى صحـرائِـه عنهـا نَـزحْ[8]
ومحـا مـنْ لـوْحنـا كـلَّ القـديـم   جَـدَّدَ العَصْـرَ ، وليـس بـالمقيـم

إنَّهـم لـم يـذكـروا فَضْـلَ العَـرَبْ
وَمِـنَ الإفـرنـجِ ذابـوا فـي اللَّهَـبْ !

* * *

---

(١) الرجام : جمع رجم ، وهو القبر .
(٢) رستم : أعظم أبطال الأساطير عند الفرس . وحيدر : علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
(٣) البهيم : الذي لا ضوء فيه إلى الصباح . يقول : إنَّ كل شيء فيها كان قديماً بالياً حتى ليلها ونهارها .
(٤) الترب : التراب . والوهج : اتقاد النار .
(٥) يشير إلى فتح العرب لفارس ، ويشبهه بالبعث والحياة الأخرى .
(٦) التحنان : الرَّحمة .
(٧) الرؤوم : الرحيمة : وفي الأصل الطاهرة .
(٨) نزح : بعد ورحل .

ظهور روح ناصر خسرو العلوي واختفاؤها وإنشاد غزل رقيق[1]

لِلْحُسامِ واليَراعِ تجعلُ الكفَّ المدارا
مِنْ جَوَادِ الجسم بَعْدُ ، أنْتَ لا تخشى العِثَارا[2]

الحسامُ واليَرَاعُ منهما فَضْلٌ عميم
يا أخيَّ مَصْدَرُ النُّورِ لدينا كانَ نارا[3]

عِنْدَ كفارٍ أجنبي أيُّ خيرٍ فيهما
لهما بالدِّين سِعْرٌ يشتري حتى النُّضارا[4]

عِزَّةُ الدِّين بعلمٍ وبجهلٍ ذلَّةٌ
دينُ جُهَّالٍ كزهرِ الثَّورِ قَدْ جابَ القِفَارا[5]

مِثْلُ كزباسٍ وإلياسٌ يَخيطُ نِصْفَهُ

---

(١) ناصر خسرو : من شعراء إيران في القرن الخامس الهجري ، وكان من دعاة المذهب الإسماعيلي ، وجمهرة أشعاره في المسائل المذهبية والفلسفية . ولما قدم مصر ، وكل إليه الخليفة الفاطمي نشر المذهب الإسماعيلي في خراسان ، وجعله رأس الباطنية في تلك الجهات .

(٢) الحسام : السيف . واليراع : القلم . وهذا الشعر نوني القافية في الأصل . ويقول الشاعر : إنك إذا جعلت من كفك ميداناً يجول فيه القلم والسيف ، فإن جواد جسمك لا يكبو من بعد .

(٣) أخي : تصغير أخ . وهو يقول : إنَّ الحسام واليراع مصدر الخير ، كما أن النار مصدر النور .

(٤) النُّضار : الذهب . وإذا اقترن القلم والسيف بالدِّين غلا ثمنهما ، وعظمت قيمتهما .

(٥) يقول : إنَّ الدين يَعِزُّ بالعلم . والدين عند الجاهل كالزَّهرة عند الثور الذي يتجوَّل في الصحارى .

ويهـودِيٌّ لكفَـنٍ نِصْفِـه الثـانـي استعـارا[1]

أبداليّ

وفتـىً مُلْكـاً عظيمـاً قـد أقـامـا — للجبـالِ عـادَ واختـارَ المَقَـامـا

أضْـرَمَ النيـرانَ فـي تلـكَ الجبـال — أحْـرَقَتْـهُ ؟ أمْ شجـاعٌ لا يبـالـي

* * *

زنده رود

الشعـوبُ بينهـا صَفْـوُ الإخـاء — إخوةٌ ، في حَرْبِها أو في المِرَاء[2]

وحيـاةُ الشَّـرْقِ كـانَـتْ مـنْ حَيـاتِـه — ابنُـه الجنـديُّ أمسـى مـنْ حُمَـاتـه !

ذاتَـه مِـنْ ذاتِـه جهـلاً سَلَـبْ — مـالَـهُ مِـنْ ممكنـاتٍ مـا حَسَـبْ[3]

ولَـه قلـبٌ وعنـهُ غـافِـلُ — للجسومِ والقُلوبِ منْ فراقٍ فَاصِلُ[4]

إنَّمـا الجـوَّالُ ضَـلَّ كـلَّ غـايـه — روحُـه مـا إنْ دَرَتْ معنـى النِّهـايَـهْ

---

(١) الكرباس : ثوب من القطن الأبيض وقيل هو الثوب الخشن . والكفن : تكفين الميت .
وإقبال يومىء إلى حقيقة تاريخية هي ظهور النبي إلياس في اليهود بعد انقسام مملكتهم قسمين شمالي وجنوبي . وقد أراد أن يهدي اليهود إلى دين قويم أساسه توراة موسى ، وكان يلبس قباء أبيض . وما زال اليهود إلى اليوم يصلون بقباء أبيض لا يجيزون الصَّلاة إلا به .
وقد تلقينا هذه المعلومات عن الأستاذة منى ناظم المعيدة بقسم اللغات الشرقية بكلية الآداب من جامعة عين شمس ، فلها الفضل وإليها الشُّكر .

(٢) المراء : الجدال . يقول : إنَّ الشعوب إخوة إلا أنَّها على الدوام تتحارب وتتجادل .

(٣) حسب الشيء : عدَّه وأحصاه .

(٤) يقول : إن الفراق حدٌّ يفصل بين الأجسام والقلوب .

يعـرفُ الأفغـانَ حقّـاً شـاعـرُ قـالَ مـا قَـدْ قـالَ وهـو السّـادِرُ[1]
إنَّـه كـانَ حَكِيْـمَ شَعْبِهِـمْ بـذلَ الـوُسْـعَ بِقَصْـدِ طَبِّهِـم[2]
سـرُّ قـومٍ قَـدْ دراهُ ثـمَّ قـالا ما رآه الحقُّ لـم يَخْـشَ الـوَبالا[3]

« فتـى الأفغـانِ لـو يلقـي البعيـرا
يحمـلُ الجـوهـرَ والـدُّرَّ الـوفيـرا
مـا تملَّـى ذلـكَ الـوَسْـقَ الكبيـرا[4]
وأرادَ جُلجُـلَ الهـادي الصَّغيـرا[5]

أبدالي

إنَّ مِـنْ قلـبٍ لنـا الطَّبْـعُ اتَّقَـدْ وصَحَـا منـهُ التُّـرابُ أوْ رَقَـدْ
وبمـوتِ القَلْـبِ جِسْـمٌ غُيِّـرا ودمـاً أمسـى النَّضِيـحُ أحمـرا[6]
بفسـادِ القلـبِ مـا هـذا الجَسَـدْ ؟ وَحْدَهُ كُنْ مَنْ على القَلْبِ اعْتَمَدْ
آسيـا جسـمٌ وَمِـنْ مـاءِ وطيـن قلبُهـا الأفغـانُ خفَّـاق الـوَتِيْـن[7]
ولهـا منـه الفسـادُ إنْ فَسَـدْ وانطـلاقٌ مِنْـهُ يـا نِعْـمَ المـدد ![8]
بـانطـلاقِ القَلْـبِ فـالجِسْـمُ الطَّليـق أوْ لـريـحٍ كـانَ بـالقَشِّ الخُفُـوقْ[9]

---

(١) السادر : الذي لا يبالي .

(٢) طَبُّهم : علاجهم من المرض .

(٣) الوبال : سوء العاقبة .

(٤) تملّى الشيء : تمتع برؤيته . الوَسْقُ : الحِمْلُ .

(٥) الجلجل : الجرس الصغير . والهادي : العنق .

(٦) النضيح : العرق .

(٧) الوتين : عرق في القلب .

(٨) المدد : العون .

(٩) يقول : إن الجسمَ إذا لم ينطلق بانطلاق القلب ، كان شبيهاً بالقشَّةِ إذا اشتدت بها الريح في يومٍ عاصف .

وله كالجسم بالعُرف القُيُود دينُه أحياهُ والموتُ الحُقُود[1]

بمقامِ وَحدةٍ قد عزَّ دِينْ

ذلكَ الشَّعْبُ بها شَعْبٌ يكونْ

ذاتَه يفقدُ ذا الشَّرقُ المُقَلِّدْ لَيْتَهُ النَّقادُ لِلْغربِ المُفَنِّدْ[2]

عزُّ هذا الغرب لا بالمطربات لا ولا رقصِ الغواني العاريات

لَمْ يَهَبْهُ قوّةً وَرْدُ الخُدود وقصيرُ الشَّعْرِ أو مَيْسُ القُدود[3]

مجدُه ما كانَ مِنْ تَرْكٍ لِدِيْن لَيْسَ مِنْ خطٍّ لديهِ بالمَكِيْن[4]

العلومُ والفنونُ سرَّهُ وبمصباحٍ لَدَيْهِ نُورُهُ

لستَ بالثَّوبِ حكيماً كالأعاظم أيُضارُّ العِلْمُ مِنْ لُبْسِ العمائم[5]

تُدْرِكُ العِلْمَ بِعَقْلٍ أنتَ مالك لا بثوبٍ تستعيرُ مِنْ هُنالك[6]

ليسَ في هذا السبيل غيرُ عِلْم ما على رأسِك مِنْ غَيْرِ المُهِمْ

إنْ مَلَكْتَ الفِكْرَ هذا الفكرُ حَسْبُك

كلَّ شيءٍ عَنْهُ ما يُغنيكَ ، طَبْعُك

السِّناجَ في الليالي إنْ أكلْتَه فإلى العلم السبيلُ قَدْ وَجَدته[7]

من رأى يوماً حدود مُلك مُعَنَّىْ ؟ يَطْلُبُ المطلوب مجهوداً وأيْنا[8]

---

(١) الحقود : الأحقاد .

(٢) فَنَّده : كذَّبه وخطَّأ رأيه .

(٣) الميس : التبختر .

(٤) هذا الخط في الأصل هو الخط اللاتيني . والمكين : صاحب الحظوة .

(٥) ضاره : ضره .

(٦) يريد بهذا الثوب زي أهل الغرب .

(٧) السناج : أثر دخان المصباح . وأكلُ سناج المصباح في الفارسية كنايةٌ عن سَهَرِ الليالي في طلب العلم .

(٨) الأين : التعب .

فَقَـدَ الأتـراكُ ذاتـاً بـالمُـدَام ... فـالفـرنـجُ أسْكَـرُوهـم بـالسُّمـام[1]
إنَّ تِـرْيـاقَ العِـرَاقِ مـا لَـدَيْهِـمْ ... رحمـةً يـا ربِّ فـابْسُطْهـا عليهـم[2]
وعبيـدُ الغَـرْبِ يبغـونَ الظُّهـورا ... إنَّهم يُرْضُوْنَ بالرَّقْصِ الغُرورا !
روحَهـم في اللَّهـوِ كـانـوا يَفْقِدُونـا ... يَضْعُـبُ العلـمُ ، بلهـوٍ لـنْ يكـونـا
يَطْلُبـونَ السَّهـلَ لكـن مـنْ كَسَـلْ ... طبعُهـم مـا يبتغـي سَهْـلَ العَمَـلْ
اليَسيـرُ السَّهْـلُ لَكِـنْ إنْ طلبتـا
أنـتَ روحـاً لـكَ مـنْ جسـمٍ فَقَدْتـا

* * *

زنده رود

الفِـرَنْـجُ بـالـرقـيِّ مـا أرادوا ؟ ... ألفَ فردوسٍ من الألوانِ شادوا[3]
ظـاهـرٌ مِنْهُـم ديـاراً حـرَّقـا ... والغصـونَ بـالعِشـاشِ مَـزَّقـا[4]
ظـاهـرٌ يبـدو لعيـنٍ لامعـا ... وَهَـنَ القلـبُ لعيـنٍ خـانعـا[5]
يـزلـقُ القلـبُ وللعيـنِ النَّظَـرْ ... وأمـامَ المَعْبَـدِ الخفَّـاقُ خَـرْ[6]
ومصيـرِ الشَّـرْقِ هـذا مَـنْ دَرَىٰ ؟ ... أيُّ تـدبيـرٍ وتبغـي مَظْهَـرا

---

(١) يقول : إن الأتراك سكروا بخمرة الغرب ، وهي كناية عن افتتانهم به . والسُّمام : جمع سم .

(٢) الترياق : دواء السُّموم . وفي أشهر كتاب من كتب الأدب الفارسي ، وهو كتاب كلستان لسعدي الشيرازي عبارةٌ مشهورةٌ مأثورةٌ ، وهي : (يُسْلم الملدوغُ الروحَ قبل أن يُحضروا له الترياق من العراق) .

(٣) شاد البناء : رفعه .

(٤) العشاش : جمع عش .

(٥) الخانع : الخاضع في ذل .

(٦) الخفاق : القلب .

أبدالي

وعلـــى تغييـــرِ ذاكَ القَـــادِرِ ... بهلـــوي إيـــران قُـــلْ أوْ نَـــادِرِ
بهلـــوي ملـــكُ قُبـــاذٍ نـــالــه ... كـــلُّ معقـــودٍ لـــديـــه حَلَّـــه[1]
ومـــن الـــدُّرَّانييـــن كـــانَ نـــادِرُ ... وهـو لـلأفغـانِ ذخرٌ مَنْ يُكـابِرُ ؟
إنَّـــه لِلـــدِّيـــن يَـــأسَـــىٰ والـــوَطَـــنْ ... قـادَ جيشـاً فـي جبالٍ قَـدْ كَمَـنْ[2]
بطـــلُ الهيجـــاءِ حقَّـــاً والأميـــزْ ... والحـديـدُ عنـد قـوْمٍ والحـريـرْ ![3]
مـــنْ رأى ذاتـــاً لـــه إنـــي فَـــدَيْتُـــهْ ... وازنَ العَصْـرَ بحـذقٍ مَـنْ هَـوَيْتُـهْ

كـم لأهـلِ الغـربِ مـنْ فَـنٍّ سَحَـرْ
إنْ نَسِيـتَ الـذَّاتَ كُنْـتَ مـنْ كَفَـرْ !

* * *

السُّلطانُ الشَّهيد

عَنْ بـلادِ الهنـدِ حَـدَّثني طـويـلا ... فَشُهـا يَفْضُـلُ بستـانـاً جميـلا[4]
مسجدٌ فيها خلا مِنْ صوتِ حَشَدْ ... ديـرُهـا مـا فيـهِ نـارٌ بَعْـدُ خَمَـدْ
قلبنـا حـزنـاً علـى الهنـدِ انْفَطَـرْ ... روحُنـا شيئـاً سِـواهـا مـا ادَّكَـرْ[5]

---

(١) بهلوي : هو رضا شاه بهلوي المتوفى عام ١٩٤٤م الذي أسس الأسرة المالكة في إيران بعد أن أسقط الأسرة القاجارية عام ١٩٢١م ورضا شاه مؤسس إيران الحديثة وعلمٌ عظيمٌ من أعلام تاريخها . وقباذ هو كيقباذ أول ملوك الأسرة الكيانية في إيران ، وفي عهده هزم البطل رستم التورانيين أي الأتراك هزيمة ماحقةً .

(٢) يأسى : يَحْزنُ .

(٣) الهيجاءُ : الحَرْبُ .

(٤) فضله : كان أفضل منه .

(٥) ادَّكر : ذكر .

حــزنُهــا قِسْــه بــأحــزانٍ لنــا   ليــس يــدري مــنْ نُحِــبُّ حــالَنــا

زنده رود

الهنـودُ أنكـروا قـانـونَ غَـرْب   كـلُّ سحـرٍ رَفَضُـوهُ كـلَّ خَلْـب[1]
إنَّ عُـزفَ الغيـرِ روحـاً يُثْقِـلُ   مِــنْ سمــاءِ إنَّــه لا يَنْــزِلُ !

* * *

السُّلطانُ الشَّهيد

وإذا الإنســان مــنْ طيــنٍ خَــرَجْ   قَلْبُــهُ مــنْ رغبــةٍ فيــه اخْتَلَــجْ
لــذَّةُ العصيــانِ كــانَــتْ مُتْعَتُــهْ   رؤيــةُ الــذَّاتِ رآهــا بَهْجَتُــهْ
هــذه الــذَّاتُ بعصيــانٍ تُنَــالْ   وانعـدامُ الـذَّاتِ معنـاهُ الـوَبـالْ[2]
أنْـتَ فـي أرضـي وفـي داري حَلَلْتـا   وبعيــنِ قبــريَ البــالــي مَسَخْتَــا
وعــرفــتَ حَـدَّ كـلِّ الكـائنـات   فـي الجنـوبِ أيْـنَ آثـارُ الحيـاة[3]

زنده رود

في الجنوبِ قَدْ نَثرْتُ الدَّمْعَ حَبّا   فـاكتسـتْ أرضٌ بِـهِ وَزداً وأبّـا[4]
نهرُ « كاويري » يَسيرُ في جموحهْ   ورأيـتُ وَقْـدةَ أخـرىٰ بِـروحِـهْ[5]

---

(١) الخلب : الخداع .
(٢) الوبال : سوء العاقبة .
(٣) اخترنا هنا كلمة جنوب عوضاً من « دكن » وهو اسم إقليم في جنوب الهند . وكلمة دكن في الأوردية بمعنى جنوب .
(٤) الأبّ : المرعى .
(٥) اسم النهر الذي تقع عليه مدينة سرنجاباتم .

السُّلطانُ الشَّهيد

قـولُـكَ النُّـورُ بـه ضـاءت قُلـوبْ ... لـكَ دمـعٌ نـاره منهـا أذُوبْ[١]

عـالِـمُ الأسـرارِ دَوْمـاً مـنْ ظَفَـرْ ... مِـنْ عُـروقِ العُـوْدِ أنهـاراً حَفَـرْ[٢]

ونشيـدُ الـرُّوحِ إنْ أنْشَـدْتَـهُ ... اللهيـبُ فـي الحشـا أوْقَـدْتَـهُ

عنـد مـولى الكـلِّ كُنْـتَ حـاضِـرا ... مـنْ سِـوَاهُ كـانَ يهـدي سـائـرا

وعلـى القَـوْلِ هنـاكَ مـا شجُعْـت ... رؤيـةٌ بـالـرُّوحِ كـلُّ مـا استطعت

وأنـا مـنْ أحـرقتنـي نـارُ شِعْـرِكْ ... ولساني لا يني عن ذِكْرِ فِكْرِكْ[٣]

قـال « بَيْـتٌ قلتَـه مـنْ قـالـه ؟ ... ضجَّـةُ الـدُّنيـا ومـا فيهـا لـه »

ببيـانٍ لـكَ فـي الـرُّوحِ اسْتَعَـزْ ... نَهْـرَ كـاويـري فَصِـفْ وَازْوِ الخَبَـرْ

زنـده رود أنـت وهـو زنـده رود

إنَّ لحنـاً مـع لحـنٍ مـا يجـود[٤]

رسالةُ السُّلطان الشَّهيد إلى نَهْرِ كاويري

حقيقةُ الحياةِ والموتِ والاستشهاد

إنَّ هـذا النَّهْـرَ قـد سـارَ الهُـوَيْنـى ... ودوامُ السَّيْـرِ مـا أضنـاهُ أينـا[٥]

نـائحـاً بيـنَ الجبـالِ ، كُنْـتَ تَعْبُـرْ ... وطـريقـاً لـكَ بـالأهـدابِ تَحْفُـرْ !

أنـتَ مِـنْ جِيحـونَ خيـرٌ والفـرات ... للجنـوبِ كُنْـتَ وهَّـابَ الحيـاة

يـا لأرضٍ أنـتَ قـد عـانقتهـا ... بـرواء كـانَ فِيْـكَ زِنْتَهـا

---

(١) ضاء : أنار وأشرق .

(٢) عروق العود هنا هي أوتاره . وفي الأصل من دماء تلك العروق .

(٣) يني : يفتر ويضعف .

(٤) يجود : يحسن .

(٥) الأين : التعب .

شِخْتَ لكنْ أنتَ فيّاضُ الشَّباب ... والبهاءُ لكَ كالسِّحرِ العُجاب

بنتُ موجاتٍ لديكَ دُرَّةٌ ... فلتنثُر موجاً عليك طُرَّةٌ[1]

حُرقةُ العيشِ تغنّيها نشيدا ... أعلِمتَ منْ لِذَا كانَ البريدا[2]

إنَّه منْ طُفتَ حولَ سَطوتِه ... لكَ مرآةٌ لِوَجْهِ قوّتِه[3]

الصَّحارىٰ جنَّةٌ منْ قُدرَتِه ... بدماهُ كانَ رَسْمُ صُورَتِه

الأماني منْ ثراهُ تَقتَرِبْ ... منْ دِماه فيكَ مَوجٌ يَضطَرِبْ

كانَ فعلاً كلُّ قولٍ قالَه

لم يَنَمْ ، والشَّوقُ نامَ ليلَه

إنّنا الأمواجُ في نَهرِ الحياة ... إنَّما التَّبديل شأنُ الكائنات

ما الحياةُ غيرَ تجديدٍ تجدَّدْ ... عالماً تطلبُ في شوقٍ تمهَّدْ

الذَّهابُ والمجيء ما هما ... الكيانُ لِلْوُجودِ مِنْهُما

الطَّريقَ راحلون في سَفَرْ ... سَفَرٌ يخفى لكي يبدو الحَضَرْ

النِّياقُ والصَّحارى والنَّخيل ... تِلْكَ أشجاها وأبكاها الرَّحيل

برهةً حلَّتْ وُرودُ الرَّوض ضيفا ... لاختبارٍ عُرِّضت حسناً وعَرْفا[4]

مأتمٌ في الرَّوضِ أمْ أفراحُ سُورْ ؟ ... برعمٌ في الحِضْنِ ، نَعْشٌ لِلزُّهُورْ[5]

أحمرُ الوَرْدِ لهُ قُلْتُ اخترِقْ ... قالَ سرّي ما عَرَفتَ يا لَبِقْ !

مِنْ هشيمٍ للوُجودِ ذا البناء

للظُّهورِ حسرةٌ كانَ الجزاء

ما مضى أو ما يكونُ ، اِمْضِ عَنهُ ... المجيءُ للوُجودِ ، دَعْكَ مِنْهُ

---

(١) الطرة : شعر مقدم الرأس . يشبه الأمواج بالشّعر الثائر .

(٢) البريد : الرّسول .

(٣) في الأصل : أنت حامل المرآة لوجه سطوته .

(٤) العرف : الرائحة الذكية .

(٥) السور : كلمة فارسية تستخدم في العربية ، وهي بمعنى الوليمة والضيافة .

لا تَضِعْ مِثْلَ الشرارِ إنْ قَدِمْت اطلبَنَّ بَيْدراً إمّا مَضَيْت[1]

وإذا أشبهتَ شمساً في الصِّفات فارتفعْ بَيْنَ الشُّموسِ المشرقات

الرياضَ احْرِقْ وآكامَ الصَّحارى والسَّماكَ أصْلِ بقاعِ اليمِّ نارا[2]

وإذا عوَّدْتَ جُرْحَ السَّهْمِ صَدْرا فلتعشْ صَقْراً وكُنْ في الموتِ صَقْرا

السكونُ في الحياةِ للثَّباتِ ما سألتُ اللهَ طَوْلًا في حياتي !

دينُنا والعُرْفُ في تِلْكَ الحياةِ

برهةً كالَّليْثِ لا عاماً كشاةِ[3] !

الحياةُ برضاكَ أحْكِمَتْ قَتَلَتْكَ أُخْذةٌ قَدْ دُبِّرت[4]

الرَّدَىٰ ظبيٌ وهذا المرءُ ضَيْغَمْ منْ مقاماتِ حِمامَ المرء فاعلم[5]

إنَّما الكاملُ يجتاحُ الحِماما كالشواهين إذا صادت حماما[6]

ويموتُ العَبْدُ خوفاً من حِمام لَمْ يَكُنْ عيشٌ له غَيْرَ الحرام !

لكنِ الحرَّ هذا شأنُه ؟ روحُه الأخرىٰ لَدَيْهِ حَيْنُه[7]

ليس يُجري ذِكْرُ موتٍ بتَّةً ويموتُ الحُرُّ لَكِنْ بَغْتَةً[8]

دَعْكَ مِنْ مَوْتِ القُبُورِ والتُّراب إنَّه الموتُ وَلٰكِنْ في التُّراب

ما يُرَجِّي مؤمنٌ من ربِّه موتُ إطلاقٍ له من تُربه

لطريقِ الشَّوْقِ هذا الموتُ غايه وهو للتكبير في حربٍ نهايه

---

(١) البيدر : الموضع الذي يدرس فيه القمح .

(٢) السَّماك : جمع سمك .

(٣) أي عش برهةً كالأسد ولا تَعِشْ عاماً كالشاة .

(٤) الأخذة : الرقية تأخذ العين كالسِّحر .

(٥) الضيغم : الأسد .

(٦) الكامل : الرجل الكامل . يجتاح : يقهر . الحمام : الموت . الشواهين : جمع شاهين ، وهو طائر كالصقر .

(٧) الحين : الهلاك ، والمراد هنا الموت .

(٨) بتة والبتة : بمعنى لا رجعة فيه .

لَيس للمؤمن غَيرُ الأطيب أيُّ موتٍ مِثلُ موتِ ابنِ النَّبي[1]

الملوكُ حاربوا من أجْلِ سَلَبْ كالنَّبيِّ مؤمنٌ في خَوْضِ حَرَبْ[2]

وبها يمضي إلى دارِ الحبيب يَهْجُرُ الدُّنيا لِوَصْلٍ من قَريب

قالَ للقومِ النبيُّ ذو المحامد راهبُ الإسلام مَنْ كانَ المجاهد[3]

الشَّهيدُ وَحْدَهُ هذا دَرَاه

بدمٍ أجْرَاهُ في الحرب اشْتَراه

***

زنده رود يغادرُ الجنَّة العالية وطلبَ حور الجِنان

كأسُ صبري أضْحَتْ بعضَ الفُتات قال لي الروميُّ قُمْ قَبلَ الفَوات[4]

يا حديثَ الشَّوْقِ يا جَذْبَ اليقين! يا لإيوانٍ على الأسِّ المتين[5]

داميَ القَلْبِ إليه قَدْ وصَلْت وعلى أعتابِه حُوراً رَأَيْت

قالتِ الحورُ تَعالَ زِنْدَهْ رُود لكَ عَذْبُ اللَّحن يشجي، والوُقود[6]

خفقاتٌ منْ ضَجيجٍ حَوْلَنا زِنده رود اجْلسْ قليلاً بيننا

***

---

(١) ابن النبي هنا هو الإمام الحسين رضي الله عنه سيد الشهداء .

(٢) أي أن المؤمن يشبه النبي ﷺ ، ويقتدي به في الجهاد .

(٣) الإشارة إلى قوله ﷺ : « الجهاد رهبانية الإسلام » .

(٤) الفتات : ما تفتت من الشيء وكسارته . والفوات : فوات الأوان .

(٥) يا هنا للتعجب . والأسُّ : الأساس .

(٦) الوقود : النار .

زنده رود

كــلُّ مــنْ يَعْــرِفُ سِــرّاً للسَّفَــرْ يَرْهَبُ المَنْزِلَ لا لصَّ الممَرْ[1]

الــوِصَــالُ مــا أراحَ قَــطُّ عِشْقــا بَـلْ أراحَ سـرمـديَّ الحُسْـنِ حَقَّـا

وابتـــداءً عِنْـــدَ حَسْنـــاءِ سُجُــود بـــانتهـــاءِ حُطِّمَــتْ تِلْــكَ القُيُــود

سَــادِرٌ مــا كـفَّ يـومـاً عـنْ رَحِيْـل وهو في غيرِ المكانِ ابنُ السَّبيل[2]

دِينُنَـــا يُشْبِـــهُ مـــوجـــاً أسـرعـــا

مـــا أقـــامَ بـــلْ أرادَ المَهْيَعـــا[3]

حُوْرُ الجنَّة

لَـــكَ دَلٌّ مِثْـــلَ دلٍّ للـــزَّمـــان

فعلينـــا لا تَضِـــنَّ بـــالأغـــانـــي

غزل زنده رود

أإلى المرءِ وَصَلْتَ ؟ لك رَبّاً كَيْفَ تَطْلُب وَمِنَ الذَّاتِ فَرَرْتَ أنْتَ صَحْباً كيفَ تَطْلُب

شاحِبَ الوجْهَ تَعَلَّقَ بالغُصونِ الطَّلِّ وارْشُفْ لك شيئاً مِنْ نسيمٍ هبَّ هبّاً كَيْفَ تَطْلُبْ

قطرتـان مـنْ دمـاءِ ذاكَ مـا سَمَّـوْهُ مِسْكـاً يا غزالَ المسك مسكاً مِنك عُجْباً كَيْفَ تَطْلُب[4]

إنَّ عــزَّ المُلْــكِ والسُّلْطــانِ معيــارٌ لِفَقْــرٍ الحطامَ ما طَلَبْتَ المُلْكَ وَهْباً كَيْفَ تَطْلُب

---

(١) في الأصل : أنَّ رهبةً من المنزل أشدُّ من رهبة من قاطع الطريق .

(٢) السَّادر : الذي لا يبالي بما صنع ، والمراد به : العِشْق .

(٣) المهيع : الطريق الواسع .

(٤) يعتقد القدماء أنَّ المسك مِن دم الغزلان ، وفي ذلك يقول المتنبي :

وإن تَفُــقِ الأنــامَ وأنْــتَ منهــم فــإنَّ المِسْــكَ بَعْــضُ دَمِ الغــزال

والعجب : التيه والخيلاء . وفي الأصل يا غزال الحرم في الخطا ماذا تطلب .

والخطا : اسم لشمال الصين ، وهذا الإقليم يشتهر بغزلان المسك .

عَرْفُوهُ في الوُرُودِ الحُمْرِ بالبستانِ يَبْدُو   لحنُنا الدَّامي الحزينُ قدَّ قلباً كَيْفَ تَطْلُب
مَنْ لـه قلـبٌ مُنيرٌ زادَ نـوراً كـلَّ عيـنِ   ليت شعري لِعَشَى العَيْنَيْنِ طبّاً كَيْفَ تَطْلُب

زاهـدون ، رؤيـةُ الـدُّنيا كـراماتٌ لـنا
نظرةً منا ، وما يغويك خلباً كَيْفَ تَطْلُب

في الحَضْرَةِ الإلهيَّة

مِـنْ تَجَلِّـي اللهِ كـانَـتْ جَنَّتُـه   لا يـريـحُ الـرُّوحَ إلا رُؤيَتُـه
نَحْـنُ قـومٌ قَـدْ جَهِلْنَـا أصْلَنـا   نحـنُ طَيْـرٌ وأضعنـا عُشَّنـا[1]
علَّمَنَـا إنْ كـانَ سـاءَ جَـوْهَـرا   كـانَ لِلْعَيْـنِ الحِجَـابَ الأكبـرا
وإذا بـالعِلـمِ حَقَّقْنـا النَّظَـرْ   فـالسَّبيـلُ والـدَّليـلُ يُعْتَبَـر
وَيُـريـكَ للـوجـودِ قِشْـرَه   ويقـولُ سَـلْ تبيَّـنْ سِـرَّه
رامَ تمهيـدَ الطَّـريـقِ دائمـا   أيقَـظَ الشَّـوْقَ وكـانَ نـائمـا
وَهَـبَ النَّـارَ لقلـبِ والـوجيبـا   وبجوفِ اللَّيْلِ قَدْ أهدىٰ النَّحيبا[2]
إنَّـه مـا فسَّـرَ الـدُّنيـا لَنـا   عَيْنَنَـا رَبَّـى وَرَبَّـىٰ قَلْبَنـا
وإلـى جَـذْبٍ وَشَـوْقٍ يَـرْفَعُـكْ   مِثْلَ جبريـلَ أراهُ يُبْـدِعُـكْ[3] !
هَـلْ يُتيـحُ العِشْـقُ يـومـاً عـزلـةً   إنَّـه يَحْسُـدُ مِنْـهُ مُقلـةً[4] !

كـان فـي البَـدْءِ الـرَّفيـقَ والطَّـريقـا
ثـم يمضـي بَعْـدَ أن يَنْسَـىٰ الـرَّفيقـا

عَنْ قصورٍ سِرْتُ عَنْ حُورٍ بَعُدْتُ   زورقـي روحـي وفـي نـورٍ فَقَـدْتُ

---

(١) الطير : الطيور .
(٢) الوجيب : خفقان القلب . والنَّحيب : رفعُ الصوت بالبكاء .
(٣) يبدع : يخلق .
(٤) أي إن العشق لا يتيح للعاشق خلوةً مع الحبيب .

والغريقَ كُنْتُ في هذا الجمال ... وهو بالتَّبديل يحمي مِنْ زوال !

وَفَقَدْتُ في ضَميرِ الكائنات ... فالحياةُ كالرَّبابِ الصَّادِحات[1]

إنَّما أوتارُها كانَتْ رَبابا ... كلُّ لحنٍ كانَ في قلبي حِرَابا

أسرةٌ نَحْنُ بها نارٌ وَنُور ... آدمٌ والشمس جبريلٌ وَحُور

وأمامَ الرُّوحِ مرآةٌ أُقيمت ... باليقينِ حَيْرَةٌ طالتْ فَشِيبَتْ[2]

وصباحُ اليومِ ملءُ العَيْنِ نُور ... لغدٍ فيهِ وللأمسِ الظُّهور

وبأسرارٍ له ربِّي بدا ... نَفْسَه بالعين منِّي شاهدا

وازديادٌ لا يَحُوزُ أنْ يُرى ... بلْ خروجُ الجسم مِنْ قَبْرِ الثَّرى[3]

ردَّدَ العَبْدُ ومولاهُ النَّظَر ... فإذا شكواهُما شَكْوى الحسَر[4]

طلبٌ تِلْكَ الحياةُ حَيْثُ كانَتْ

أيُّنا الصيدُ ؟ رموزٌ ما اسْتَبانَتْ

لذةُ الرؤية كانت في جَنَاني ... وَمِنَ العِشْق جَرُؤتُ في لساني[5]

« أنتَ نورَ العالمين قَدْ وَهَبْنا ... فإلى دنيا الثَّرى هلَّا نَظَرْتا

ما رأى الإنصافَ مِنها الحرُّ مَرَّةْ ... غير شوكٍ لم يَجِدْ في كلِّ زَهْرَه

غالبٌ في العَيْشِ مسرورٌ طَرِبْ ... والليالي عدَّها مَنْ قَدْ غُلِبْ !

إنَّ الاستعمارَ مِنْهُ كُلُّ نَحْسِ ... يا له ليلاً يُريدُ حَجْبَ شَمْسِ

وعلومُ الغَرْبِ نَهْبٌ يُذْكَرُ ... وبلا حَيْدَرَ دَيْرٌ خَيْبَرُ[6]

---

(١) الرباب : من آلات الطرب .

(٢) شابه : مزجه .

(٣) يحور : ينقص .

(٤) الحسر : التعب .

(٥) الجنان : القلب .

(٦) المراد بيذكر أنَّ هذا النهب معروف للناس يذكرونه جميعاً . وإقبال يشير إلى ما كان مِنْ أمر عليٍّ كرَّم الله وجهه في غزوة خيبر ، وقد سبق بيان ذلك .

إنَّمـا المسكيـنُ قـالَ : لا إلهـا ... فِكْـرُهُ نَـدَّ وَمِنْـهُ العَقْـلُ تـاهـا[1]

نحـنُ فـي الـدُّنيـا نمـوتُ أربعـا ... اذكـرنْ مِنهـا المُـرابـي الأجْشَعـا[2]

أيليــقُ بــكَ هــذا العَـالَــمُ

منــه فــي ذَيْلِـكَ طيــنٌ أقْتَــمُ[3]

* * *

نداءُ الجمالِ الأبديِّ

مِــنْ جميــلٍ وَقبيــحٍ ربُّنــا ... خــطَّ نقشــاً ، إنَّ هــذا نَقْشُنــا

ما الوجودُ هَلْ عَرَفْتَ يا نجيب ؟ ... مِنْ جمالِ الله أنْ يُلفىٰ النَّصيب[4]

كـانَ هـذا الخَلْـقُ نِشـداناً لِعِشْـق ... والظهـورُ بـالجمـالِ عِنْـدَ خَلْـقٍ[5]

وضجيــجٌ مــا يكــونُ أو غَبَــرْ ... بجمــالٍ عنـدنـا يبـدي الأثـر[6]

الفنــاءُ للحيــاةِ والبَقــاء ... إنَّهــا خَلْــقٌ وَشَــوْقٌ لِلّقــاء

أنـت حـيٌّ ؟ حـنَّ شـوقـاً واخلُـقِ ... كــلَّ أفــقٍ مِثْلَنــا فلتَطْــرُقِ

مــا تــراهُ لا يــواتــي فَلْتُحطِّــمْ ... عــالمـاً مِنْـكَ إليـكَ فَلْتُقَـدِّمْ[7]

كـلُّ حُـرٍّ كـان مَكـروبـاً حـزينـا ... أنْ حَـوَاهُ عــالـمٌ لـلآخـرينـا

أعلـى الإبـداع أنْـتَ غَيْـر قـادر ؟ ... لَسْـتَ فـي رأيٍ لَـدينـا غَيْـرَ كـافِـر

---

(١) ندَّ : نَفَر وشرد .

(٢) أي نموت أربع مرات . وفي الأصل أنَّ السبب في ذلك أربعة وهم المرابي ، والوالي ، وشيخ الطريقة ، والشيخ .

(٣) الأقتم : الذي يعلوه اللون القاتم .

(٤) يلفى : يوجد .

(٥) النشدان : الطلب . والخلق في الشطر الثاني بمعنى الناس .

(٦) غبر : مضى .

(٧) يواتي : يوافق .

وعــدمــت حسننــا حتّــى الأثــر   مِـنْ نخيـلِ العَيْـشِ مـا ذُقْـتَ الثّمـر

مِـنْ رجـالِ الله ؟ كـنْ سيفـاً حُسَـامـا
عالمَ التّقديرِ فاخلُقْ ، والمَرَاما[1] »

* * *

زنده رود

عـالَـمُ الألـوانِ عَنْـهُ مـا الخبـر   هلْ يعودُ الماءُ يجري في النَّهَرْ ؟
سِـرُّ تكـرارٍ عَـنِ الـدُّنيـا غَـرِيـبْ   وهـو فـي طبـعٍ لهـا أمـرٌ عَجِيـبْ
لا تجـوز رَجْعَـةٌ تحـتَ السَّمـاءْ   لـم يَقُـمْ قـومٌ تـلاشَـوا فـي الفَنـاءْ
لا يَقُـومُ الشَّعْـبُ مِـنْ أعمـاقِ قَبْـرِ
مـا لَـهُ مِـنْ بَعْـدُ قَبْـرٌ غَيْـرَ صَبْـرِ

نداء الجمال الأبدي

الحيـاةُ أهـي تَكْـرارُ النَّفَـس ؟   أصلُها مِنْ قولِ « يا حيُّ » انْبَجَسْ[2]
إنَّ قُرْبَ الرُّوحِ مِنْ ﴿ إني قريب ﴾   مِنْ حياةِ الخُلْدِ للمرءِ النَّصِيبْ[3]
يـرفـعُ التَّـوحيـدُ فـرداً بـالتُّقـاة   يَجْعلُ الشَّعْبَ أحاديثَ الرُّواة[4]

---

(١) السيف الحسام : القاطع .

(٢) انبجس الماء : تفجر .

(٣) قال جل وعلا في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] والله قريب علماً وإجابةً لتعاليه عن القرب مكاناً . قيل : إنَّ أعرابياً سأله ﷺ : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت الآية . والإيمانُ والعملُ الصَّالح شرط في قبول الدعاء .

(٤) التقاة : التقوى . وأردنا بجعل الشعب أحاديث الرواة أنَّ هذا الشعب مشهورٌ عند الناس رفيع القدر .
=

وعَنِ الشّبلي سمعتُ أو أبي ذَرْ　　طغرلٌ كانَ لِشَعبِ ثُمَّ سنْجَرْ[1]
بالتَّجلّي كانَ لِلْمَرْءِ الثّبات　　إنّه لِلْفَرْدِ والشَّعْبِ الحَيَاة
وَلَقدْ نالا بتوحيدٍ كمالا　　حقّقا هذا جلالاً ذا جَمالا
وهما سلمانُ في الفَقْرِ التّقيّ　　وسليمانُ له المُلْكُ العليّ[2]

ويرىٰ الواحدَ هذا ، ذاكَ واحدْ
جالسنْ هذا وذاكَ فلتَعاضِدْ

= وينقسم التوحيد أقساماً عدة : أولها التوحيد الإيماني الذي يمكن أن يسمى التوحيد الامتثالي والتقليدي والتعبدي ، وهو توحيد العوام والمقلدين ، والثاني التوحيد الاستدلالي والعقلي ، وهو توحيدٌ علميٌّ تحقيقيٌّ . وهذا توحيد علماء الكلام والحكمة الإلهية . وثالثها توحيدُ الواصلين من الصُّوفية ، وهو توحيدٌ حاليٌّ وكشفيٌّ . وعندهم أنَّ حال التوحيد وصفٌ لازم لذات الموحِّد ، وللتوحيد نورٌ يكشف الظلمة عن الصُّوفي ، وبذلك يشاهد الجمال الإلهي ، ويفضي به الأمر إلى أن يعدَّ التوحيد صفةً له ، ويصبح أشبه شيء بالقطرة التي تسقط من ذلك التوحيد في بحر .

(١) في الأصل بايزيد والشبلي وأبو ذر . وبايزيد هو بايزيد البسطامي من أهل القرن الثالث الهجري ، من كبار الصوفية ، وأول من نسبت إليه الشطحات . والشبلي صوفي بغدادي ، يقال : إنه أول من صعد المنبر لينشر في الناس مبادىء التصوف ، وكان يعظم الشرع ، ومات عام ٣٣٤هـ . وأبو ذر صحابيٌّ جليلٌ مشهور بالزهد والورع ، وأحد الأركان الأربعة عند الشيعة . طغرل بك : أول سلاطين السلاجقة ، وقد اتسع في الفتوح ، واستولى على بغداد ، وذكر اسمه في الخطبة ، وتزوج ابنة الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وكانت وفاته عام ٤٥٥هـ . وسنجر : آخر عظيم من سلاطين السلاجقة ، وفي عهده أغار الأتراك على مملكته ووقع مع زوجه في أسرهم وتوفي عام ٥٥٢هـ .

(٢) سلمان الفارسي أعلى صحابة الرسول ﷺ قدراً ، وله شهرةٌ مستفيضة بالعلم ، والزهد ، والورع ، وهو مذكورٌ في الشعر الفارسي خصوصاً على أنه المثل الأعلى للمسلم التقي الذي رفعته تقواه إلى منزلةٍ ما بعدها من منزلة . أما سليمان فهو سليمان بن داود عليه السلام ، وكان عظيم الحكمة ، وسخر الله الرياح له يصرفها بأمره ، وله بساطُ الريح يطير به ، كما كان له من الجنّ جنودٌ وملكٌ عظيم .

أنـت يـا مَـنْ « لا إلـه » قُلْـتَ مَرَّهْ   أيُّ شيءٍ ألفُ عينٍ خَلفَ نَظْرَهْ ؟
ولأهــلِ الحــقِّ دَعْــوى وَحْــدَتْ   وَلَهُــمْ قلــبٌ ودورٌ أبْعَــدَتْ
تُضبــحُ الــذَّرَّةُ شمســاً بــالنَّظَرْ   نظـرةَ كُـنْ ، والإلـهُ مـا اسْتَتَرْ !
نظــرةٌ بــالله كَيْــفَ تــزدريهــا   والتَّجلِّــي كــانَ لِلتَّــوحيــدِ فيهــا
وإذا التَّــوْحيْــدُ شعبــاً أَسْكَــرا
فَمَكَـانُ الشَّعْـبِ فـي أعلـى الـذُّرَى[1]
إنَّ رُوْحَ الشَّعْبِ بَيْنَ النَّاسِ كَانَتْ   لِلْحُلــولِ قــطُّ جسمــاً مــا أرَادَتْ
بــاجتمــاعِ القَــوْمِ لِلــرُّوحِ البَقَــاءْ   والشَّتَــاتُ فيــهِ لِلــرُّوْحِ الفَنَــاءْ[2]
نظــرةٌ شــرِّد بهــا نــومَ اللُّحــود   عِشْ طويلاً دَعْكَ منْ هذا الشُّرود[3]
وَحْــدَةُ الأفكــارِ والأعمــال حَقِّــقْ
خــاتَــمَ المُلْــكِ إليــهِ اليــومَ فــاسْبِقْ

زنده رود

مَـنْ أنـا مَـنْ أنْـتَ أيـنَ العـالَـمُ   طــالَ بُعْــدٌ بيننــا ! لا أعْلَــمُ
قـلْ لمـاذا كُنْـتَ فـي أسْـرِ القَـدَرْ   لا تمـوتُ وأمـوتُ مـا الخَبَـرْ ؟

نداءُ الجمالِ الأبديّ

أنْــتَ فــي دنيــا الحــدودِ الأربعــه   كـلُّ مـنْ فيهـا يـلاقـي مَضـرَعَـهْ
إنْ تَـرِدْ عيشـاً فتلـك الـذَّاتُ أسْبَـقْ   بعضُها في بعضها الدُّنيا لِتَغرَقْ[4]
مـنْ أنـا مِـنْ بَعْـدُ تـدري بـلْ وأنتـا   كَيْـفَ فـي دُنْيـاكَ عِشْـتَ ثُـمَّ مُتَّـا

---

(١) الذُّرى : جمع ذروة ، وهي أعلى الشيء .
(٢) الشتات : التفرُّق .
(٣) أردنا بالشرود هنا ما أراد إقبال بعدم المركزية ، أي : الخروج على الجماعة .
(٤) أسبق هنا بمعنى أفضل ، وقبل كل شيء .

أعـذرِ الجـاهـلَ بـالجهلِ اغتَـذَرْ والنُّقـاب ارْفَعْـهُ عَـنْ وَجْـهِ القَـدَرْ
ثـورةٌ للـرُّوس والألمـانِ كـانَـتْ خَفقـةُ الأرواحِ في الإسلامِ بـانَـتْ
دبَّـرَ الشَّـرْقُ وهـذا الغَـرْبُ دَبَّـرْ قُـلْ أجبْنـي مـا الـذي كـان المُقَـدَّر

ظهورُ تَجَلِّي الجلال

بَغْتَـةً دُنيـا لـذاتـي مـا رَأَيـتْ إنَّ أرضي وسمـائي قَـدْ شَهِـدتْ
غَـرِقَـتْ دنيـايَ فـي نـورِ الشَّفَـقْ وَعَلَيْهَـا الأحْمَـرُ القـانـي انْطَبَـقْ
بـالتَّجلِّـي مـاجَ عُمْـقُ مُهجتـي كـالكليـمِ بـالتَّجلـي نَشْـوتـي[1]
نُـوْرُه أبـدى الخفـيَّ لِلْعِيَـانْ مِنْـهُ قَـدْ أصْبَحْـتُ مسلـوبَ اللِّسـانْ

مِـنْ ضَمِيْـرِ عـالَـمٍ لِلْكَيْـفِ والكَـمْ
أطْـرَبَ السَّـامِـعَ مشبـوبُ النَّغَـمْ
« إنسَ شرقاً لا تَكُنْ منْ سِحْرِ غربِ كالأسيرْ
فـالقَـدِيْـمُ والجَـديـدُ مـا همـا غَيْـرَ النَّقيـرْ[2]
عِنْـدَ شيطـانٍ قُمـرتَ وَفَقَـدْتَ خـاتمـاً[3]
ولـدى جبريـلَ رَهْـنٌ أغسَـرَ الأمـرَ العَسيـرْ !
الحيـاةُ زانَـتِ الجَمْـعَ وَصَـانَـتْ ذاتَهـا
أنتَ في الرَّكبِ وحيداً كُنْ وواكبْ في المسير[4]

---

(١) الكليم : موسى عليه السلام .

(٢) النقير : النكتة في ظهر النواة ، وهي مضرب المثل في الحقارة . يقال لا يملك شروى نقير ، أي : مثل نقير ، بمعنى : لا يملك شيئاً .

(٣) قَمَرَ : غلبَ في القِمَار .

(٤) الرَّكب : أصحاب الإبل في السفر ، والمراد هنا : القافلة . وواكب : ساير ، وركب=

فُقْتَ شمساً في ضِيَاء تَغْمُرُ الآفاقَ نوراً
عِشْ وكلَّ ذرةٍ في الكونِ فاغمرْها بنُور
كَهَشِيْمٍ حَمَلَتْه بالجناحينِ الصَّبَا
انْقَضَتْ أيامُ خُسْرُو ، دالَ عَصْرٌ للجهير[1]
ضِيْقُ كأسٍ في يديكَ كانَ للحاناتِ عاراً
ارْتَشِفْ كأسَ الحُميَّا وَلْتَكُنْ ذاتَ الخرِير »[2]

* * *



= مع الراكبين .

(١) خسرو : هو خسرو برويز الذي أوفد النبيُّ ﷺ إليه رسولًا في العام السادس للهجرة يحمل كتاباً فيه الدعوة إلى الإسلام . ولكن خسرو غضب ، ومزَّق الكتاب ، فمزق الله ملكه ، وسلط عليه ولده شيرويه الذي قتله . وقد تطاولت الحروب بينه وبين الروم ، ويعدُّ آخر عظيم من ملوك الساسانيين .
ودال الزمان : انقلب من حالٍ إلى حال . والجهير : الخليق بالخير والمعروف . وقد أردنا به الملك دارا ، وذلك لأنه حين قدم إلى مصر عام ٥١٧ قبل الميلاد ؛ أظهر لرجال الدين من المصريين كلَّ آيات التسامح والتبجيل ، وأمر بترميم المعابد ، وعرف كيف يجذب قلوب المصريين إليه حتى عدوه من فراعينهم . وقد أصلح نظم الري . وجلب الكتب من إيران لتزويد المكتبات في مصر بها ، وبسط رعايته على العلوم ، وعلم الطبِّ خاصة .

(٢) الحميا : الخمر . ولإقبال في هذا من كلامه نزعةٌ صوفيةٌ جليةٌ ؛ لأن الخمر في شعر الصوفية رمزٌ إلى نشوة العشق الإلهي .



القسم الثامن

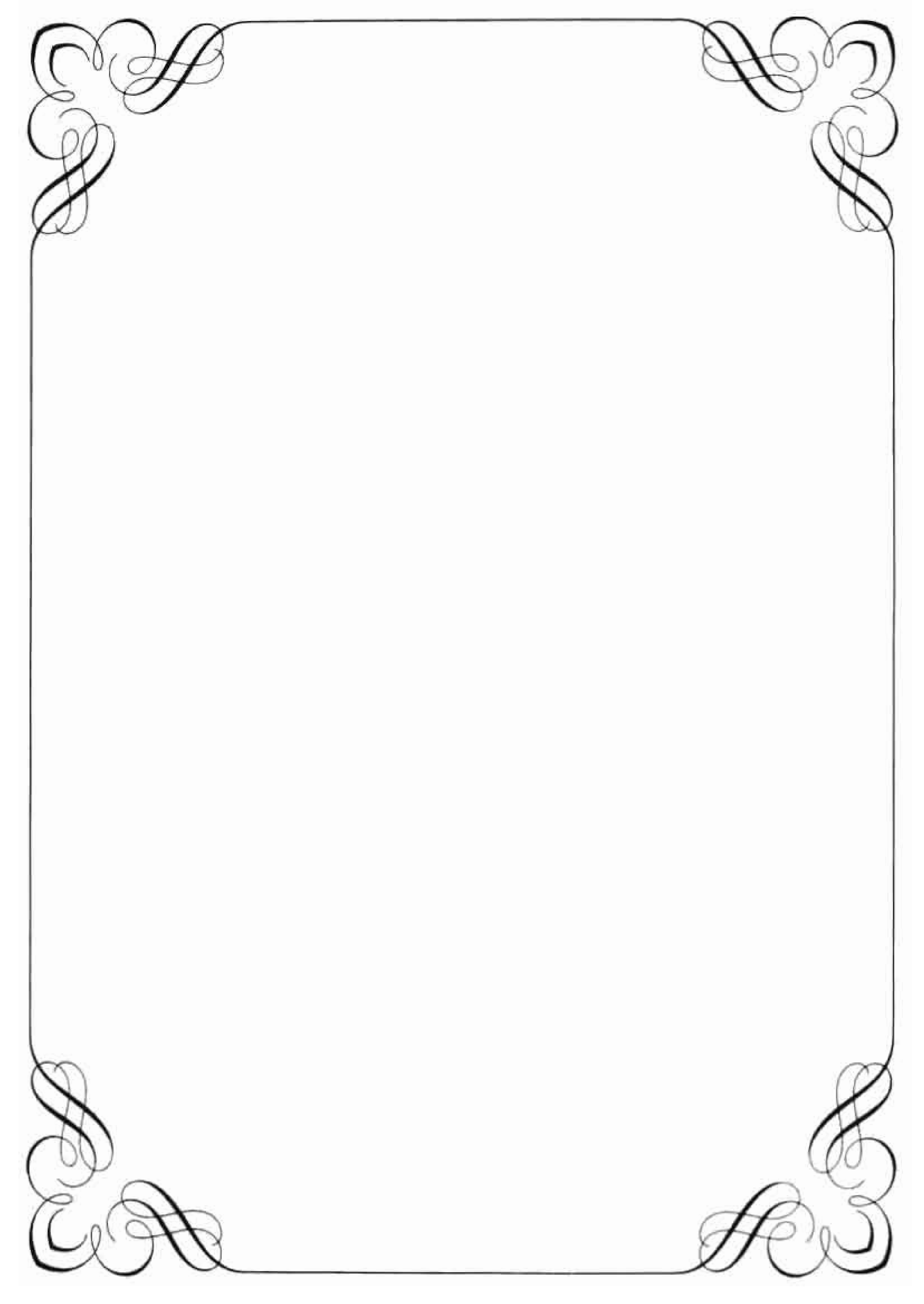
كلمة

إلى الجيل الجديد









وفي الأخير أن الدكتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلاً جديداً ، شبابه طاهر نقي ، وضربه موجع قوي ، إذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشرى ، وإن كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ، هذا مع الأعداء وذلك مع الأولياء ، إذا تكلم كان رقيقاً رفيقاً ، وإذا جد في الطلب كان شديداً حفياً ، وكان في حالتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً ، آماله قليلة ، ومقاصده جليلة ، غني القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى ، غيور في العسر ، رؤوف كريم عند اليسر ، يظمأ إن أبدى له الماء منة ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلة ، إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً في النعومة ، وإن كان بين الأعداء كان حديداً في الصلابة ، كان طلاًّ وندى ، تتفتح به الأزهار وترف به الأشجار ، وكان طوفاناً تصطرع به الأمواج وترتعد له البحار ، إذا عارض في سيره صخوراً وجبالاً كان شلالاً ، وإن مر في طريقه بحدائق كان ماء سلسالاً ، يجمع بين جلال إيمان الصدِّيق ، وقوة علي ، وفقر أبي ذر ، وصدق سلمان ، يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء ، يعرف في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السحر ، الشهادة في سبيل الله أحب إليه من الحكومات والغنائم ، يقتنص النجوم ، ويصطاد الأسود ، ويباري الملائكة ، ويتحدى الكفر والباطل أينما كان ، يرفع قيمته ويزيد في سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه ، شغلته مآربه الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق في اللباس ، شعر بإنسانيته ، فترفع عن تقليد الطاووس في لونه ، والعندليب في حسن صوته[1] .

إنَّ تَنْميقَ الكلامِ غَيْرُ مُجدِ فالفؤادُ ما احتواهُ لَيْسَ يُبْدي

---

(١) مقتبس من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ص٧٣ ـ ٧٤ . طبع دار ابن كثير بدمشق .

قلتُ قولاً ما عليه مِنْ حِجَاب ... ما تبقَّى مِنْهُ يَنْبُو عَنْ كتاب !
بالكلامِ كلُّ معنىً لي تَعَقَّدْ ... ويزيدُ اللَّبْسُ مِنْ صَوْتٍ تَرَدَّد

نظرتي منها افهمنَّ ما استَعَرْ[1]
أو أنيني وصداهُ في السَّحَرْ

دَرْسَكَ الأولَ أمٌّ لَقَّنَتْ ... بالنَّسِيمِ بُرْعُماً قد فَتَّحَتْ
ونسيمُ الأمِّ هذا عطَّرَكْ ... فَعَزَزْتَ ، وبحسْنٍ صَوَّرَكْ
دولةٌ لِلْخُلدِ منها نِلْتَها ... عَلَّمَتْكَ « لا إله » قُلْتَها
يا بُنيَّ أنتَ خُذْ عنّي النَّظَرْ ... واحترقْ مِنْ « لا إله » في الشَّرَرْ
« لا إله » قُلْ ومن روحٍ عَمِيقْ ... ليكونَ الجسمُ كالمِسْكِ الفَتِيقْ[2]
إنَّها شمساً وبدراً قد أدارَتْ ... شعلةً في القشِّ والأطوادِ صارَتْ[3]
يا لها حرفينِ ليسا في الكلام ... بَلْ هما في كفِّ مِضرابٍ حُسَام[4]

نارُها نَضْرٌ مبينٌ عِشْ بها
إنَّها ضَرْبٌ أفذ مِنْ ضربها

مؤمنٌ دأبٌ له عَقْدُ النِّطاق ... مؤمنٌ بالغَدْرِ يَرْضى والنِّفاق !
وَبِفِلْسٍ شَعْبَهُ والدِّينَ باعا ... أَحْرَقَ الدَّارَ فَضَاعَتْ والمتاعا
في صَلاةِ البَقَاءُ والفَنَاءْ ... وهما كانا دلالاً في الدعاء[5]
إنَّ نوراً ما تبقّى في صَلاتِه ... والتَّجَلّي قدْ نأى عَنْ كائناته
كلُّ مَنْ يَعْبُدُ في الدُّنيا الحُطاما ... عَشِقَ المالَ كما خافَ الحِمَامَا

---

(١) استعر : اشتعل .
(٢) المسك الفتيق : المخلوط بشيء أدخل عليه ؛ لتسطعَ رائحته .
(٣) كاه في الفارسية بمعنى قش ، وكوه بمعنى جبل . وقد أراد الشاعر أن يتلاعب بهذين اللفظين .
(٤) المضراب : الكثير الضَّرب . والحُسَام : السيف .
(٥) يقول : إن لا إله هي البقاء والفناء في صلاته ، كما أنَّها دلالٌ في دعائه .

ما انتشى ما ذاقَ شيئاً من حُبُوز — وكتابُ الدِّينِ في جَوْفِ القُبُوز[1]
ويقولُ ما يظُنُّ اليَوْمَ حقاً — عن نَبِيِّين تَلَقَّى ما تَلَقَّى
من بلادِ الفُرْسِ هذا ، ذاكَ هِنْدِي — « حكمُ حجٍّ وجهادٍ لَيْسَ عندي » ![2]
إنَّ حجَّاً وجهاداً واجبان — لصلاةٍ أو لصوم كالجَنَانِ[3]
إنَّ روحاً في الصَّلاةِ والصِّيام — إنْ نأتْ فالشَّعْبُ مختَلُّ النِّظام
ليس للقرآنِ في القلب الأثر — فيهما الآمالُ خابت لِلْبَشَر[4] !

مسلمٌ عن ذاتِه تلكَ انفَرَدْ
قد طغى الماءُ فيا خضرُ المَدَدْ[5] !

سَجْدةٌ ، والأرضُ منها زُلْزِلَتْ — وأرادتْ ، فالشُّموسُ أُجْرِيَتْ
والصُّخورُ إنْ دَرَتْ عَنْهَا الخَبَرْ — فهي في الجوِّ دُخانٌ وانْتَشَرْ[6]
ذاكَ عَصْرٌ كان فيه خفضُ هام — دبَّ ضعفُ الشَّيْخِ منه في الحُطام[7]
« ربي الأعلىٰ » أكانَتْ عِنْدَنا ! — ذَنْبُه هذاكَ أوْ ذَنْبٌ لَنا ؟
في سبيلٍ كلُّنا قد أسرعا — له النَّاقةُ جافتْ مَهْيَعا[8]

صاحبُ القرآن ما ذاقَ الطَّلَبْ !
العَجَب ثمَّ العَجَب ثُمَّ العَجَبْ

إنْ بِفَضْلِ الله فاضَ عِلْمُكا — فسيأتي للزَّمان غَيْرُكا

---

(١) الحبور : البهجة .
(٢) ما بين قوسين كلام هذين الرجلين .
(٣) الجنان : القلب ، وفي الأصل : الروح .
(٤) أي أن أمثال هذين الرجلين اللذين لم يذكر إقبال اسماً لهما .
(٥) انفرد : تنحى ، واعتزل . وهو يستنجد الخضر بعد أن طغى الماء وخيف الغرق . والخضر هو الذي دل الإسكندر على ماء الحياة وقد أسلفنا الإشارة إلى خبره .
(٦) أي إن عرفت الصخور خبر تلك السجدة .
(٧) الهام : جمع هامة وهي الرأس .
(٨) جافت : أبعدت . والمهيع : الطريق الواسع .

لـم يَخَـفْ عقـلٌ وَقَلْـبٌ لَـمْ يَـذُبْ　　ما اسْتَحَتْ عَيْنٌ وغاصَتْ في الكَذِبْ

كـلُّ عِلْـمٍ كـلُّ فـنٍّ كـلُّ ديـن　　لا تكُـفَّ عـن طـوافٍ حَـوْلَ طيـن

آسيـا أرضُ الشُّمُـوسِ المُشْـرِقَـاتْ　　عينُهـا لِلْغَيْـرِ ، مـا كـانـتْ لِـذَاتْ

لا جـديـدَ جـدَّ لِلْقَلْـبِ الغـريـر　　نِلْتُ منها الرِّيح أوْ حبَّ الشَّعِيرْ ![1]

وحـواهـا ذلـكَ الـدَّيـرُ القـديـم　　فـي جُمُـودٍ وخُمُـودٍ لا تـرِيـمْ[2]

صَيْـدُ شيـخٍ أوْ لسلطـانٍ مَلَـك　　فكـرُهـا ظبـيٌ ولكـنْ فـي الشَّـرَكْ

عَقْلُها والـدِّيـنُ بَـلْ حتَّـى الشـرف　　منْ ركاب « اللورد » كانت في طرف

فعلـى أفكـارِهـا كُنـتُ المغيـرا　　وعـن الأسـرارِ مَـزَّقْـتُ السُّتـورا

فَاضَ قَلْبي بـالـدِّما منْ فَرْطِ جَهْدي

ثُـمَّ دُنيـاهـا أنـا غَيَّـرتُ وَحْـدي

وبطبـعِ العَصْـرِ قُلْـتُ لفظتيـن　　إنَّ لـي بحـريـنِ فـي قـارورتيـن

لَفظَـةٌ تَلْتَـفُّ أخـرىٰ تَلْسَـعُ　　والعقـولُ فـي شـراكـي أجْمَـعُ[3]

لفظـةٌ كـانـتْ بمقيـاسِ الفِـرَنْـج　　نغمـةٌ سكـرى ومِـنْ أوتـارِ صَنْـج[4]

أصلُ هـذي الـذِّكْرُ تِلْكَ بنتُ فِكْرِ　　قدْ ورثتَ ذا وهذا ، لستَ تدري[5] ؟

إنّـي نَهْـرٌ ومِـنْ نَبْـعِ لأصلـي　　إنَّ فصلي كانَ فصلاً وهو وصلي[6]

طَبْـعُ عصـري ذاك لمَّـا أنْ تغيَّـر

---

(١) الغرير : من لا تجربة له . والشعير مضرب المثل في رخص القيمة . يقول : إنه لا يظفر منها إلا بالريح والشَّعير ، فكأنه لم يظفرْ منها بشيء .

(٢) رام : فارق المكان .

(٣) يشبه إحدى هاتين اللفظتين بالأفعى التي تلتف ، والأخرى بعقربٍ تلسع ، وهو يشير بذلك من طرفٍ خفي إلى كتابٍ له بالإنجليزية بعنوان « إعادة بناء الفكر الدِّيني في الإسلام » كما يريد بجمع العقول والقلوب في شراكه : إقناعها ، وجذبها .

(٤) الصنج : معزف ذو أوتار .

(٥) أي : لتكن وارثاً للذكر والفكر .

(٦) يريد بهذا المنبع هذين البحرين اللذين أسلف الإشارة إليهما .

غَيْـرَ الأصـداءَ صـوتٌ لـي تَحَـرَّزْ

ظَمِىءَ الفتيانُ ما في الكوبِ قَطْرَهْ عَقْلُهـم نـورٌ ، بـروحٍ ليـل حَسْـرَهْ

شَكُّهـمْ يَـرْبُـو ويجتـاحُ اليقينـا مـا رأوا شيئـاً ، وكـانـوا البـائسينـا

يُنكِـرونَ الـذَّاتَ ! إيمـانٌ بِغَيْـرِ ! رفعـوا مِـنْ تُـرْبهـم بُنْيـانَ دَيْـرِ[1]

ليـس يـدري القَصْـدَ منـه المكتـبُ أنْ تنـاسـى مـا بقلـبٍ يُجْـذَبُ

وَمِـنَ الأرواحِ يمحـو نُـورَ فطـره غُصْنُـه مـا كـانَ فيـه قـطُّ زَهْـرَهْ

صَـفَّ أحجـارَ البنـاءِ لَيْـسَ يـدري وطبـاعَ البَـطِّ يَهْـدي لابـنِ صَقْـرِ

وعلـى وَقْـدٍ إذا لـم يَعْتَمِـدْ لـذةٌ للـوارداتِ لـمْ يَجِـدْ[2]

وبـهِ شَـرْحُ المَقَـامِ كـانَ غـايَـهْ لـم يكـنْ حقّـاً سـوى تفسيـر آيـه

وبنـارِ الحـسِّ طـوعـاً فـاخْتَـرَقْ عَـنْ لجيـنٍ لَـكَ صُفْـرٌ يَنْفَـرِقْ[3]

بـادىء بـالحـسِّ يُنهـىٰ بـالحضُـور

آخـرُ العلـم أيبقـى فـي الشُّعـور !

كَـمْ كتـابٍ فيـهِ أعْشَيْـتُ البَصَـرْ خيـرُ علـمٍ مـا عَـرَفْـتُ بـالنَّظـر[4]

إنَّ هـذا العلـمَ صَـبُّ خمـرةِ يـا لهـا مـنْ بَعْـدُ رَشْـفُ سَكْـرَةِ !

تُطْفِـىءُ المصبـاحَ أنفـاسٌ لِفَجْـرِ وردةُ البستـانِ منهـا كـأسُ خَمْـرِ[5]

لا تُطِـلْ فـي القَـوْلِ واقْنَـعْ بـالغِـرَارْ حـولَ ذاتـي كـنْ كَفِـرْجـارٍ مَـدَارْ[6]

منكـرُ اللهِ لـدى شيـخٍ كَفَـرْ منكـرُ الـذَّاتِ لـديَّ مِنْـهُ شَـرّ[7]

---

(١) الترب : التراب . والبنيان : الجدار .

(٢) الوقد : النار . والواردات : ما يرد على القلب من خواطر .

(٣) اللجين : الفضة . والصفر : النحاس الأصفر . انفرق عنه : انفصل .

(٤) أعشاه : جعله أعشى ، أي لا يرى ليلاً .

(٥) يقول : إن نسيم الفجر يطفىء نور المصباح ، كما يفتح البرعم ، فيصبح زهرة ينسكب فيها الندى ، فكأنها كأس خمر .

(٦) الغرار : القليل من النوم . والفرجار : آلة ذات ساقين ترسم الدوائر .

(٧) أي : أنَّ منكر الذات أشدُّ كفراً ، وأكثر شرّاً من منكر الله .

منكـــرُ اللهِ بـــإنكـــارٍ عَجُـــولْ ذا عجــولٌ وظلــومٌ بــلْ جَهُــولْ

وعلــى الإخــلاصِ شــدِّد قَبْضَتَــكْ رهبــةَ السُّلطـانِ جَنِّبْ شِيْمَتَـكْ[1]

ارضَ عَــنْ عَــدْلِ القــوي لا تَبْتَعِــدْ فــي غنــاكَ بَــلْ وفــي الفَقْــرِ اقْتَصِــدْ

يَضْعُـبُ الحُكْـمُ ؟ حــذارِ لا تــؤوِّلْ وعلــى قلبــك مصبــاحــاً فَعَــوِّلْ[2]

يحفــظُ الأرواحَ ذِكْــرٌ ثُــمَّ فِكْــر يحفــظُ الجِسْــمَ لِتِلْــكَ النَّفْــسِ أَسْــر

كــلُّ حكــمٍ فــي انخفــاضٍ وارتفــاعِ نــالَــهُ جسمــاً وروحــاً مــنْ يُــراعــي

لــذةٌ لِلسَّيْــر غــايــاتُ السَّفَــرْ لا تَطِـرْ إنْ خِطْـتَ بـالعِشِّ النَّظَـر[3]

ويــدورُ البَــدْرُ يحظــى بــالمَقَــام مــا المَقَــام عِنْــدَهُ غَيْــرُ الحَــرام[4]

أنْ تَطِيْـــرَ ، للحيـــاةِ متعـــةٌ والتـــزامُ العِـــشِّ فيهـــا ضَيْعَـــةٌ

الغُــرابُ رزقُــه فــي جَــوْفِ قَبْــر

عِنْــدَ شَمْــسٍ رزقُ شــاهيــن ، وَبَــدْر

إنَّ ســرَّ الــدِّيــن أكــلٌ لِلْحَــلالْ وهــو صِــدْقٌ والتَّمَلِّــي للجمــال[5]

كُــنْ قــويــاً وابــغِ بــالــدِّيــن اليقينــا واربــطِ القَلْــبَ بــربِّ العَــالمينــا[6]

بعـض سـر الـديـن ممـا ليـس يظهـر يا بنيَّ اسمغ حَديثي عَنْ مُظَفَّر[7]

---

(١) جنب شميته رهبة السلطان : أي أبعد طبعه عن الخوف من السلطان .

(٢) عول عليه : اعتمد عليه .

(٣) يقال في الفارسية : خاط عينه بكذا : أي حدَّق فيه ، ولم يبعد عنه نظره . وفي الأصل : إن كانت لك نظرة على العش .

(٤) المقام : هو المرحلة في الطريق الذي يسلكه الصُّوفي . وينبغي أن يمر بسبعة مقامات هي : التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا .
ويريد إقبال بالمقام هنا مطلق المنزلة العالية . أما المقام بضم الميم فبمعنى الإقامة .

(٥) التملّي : التمتع .

(٦) في الأصل : كنْ صلباً كالماس وأبعِدْ عن نفسك الوسواس .

(٧) مُظفَّر : من سلاطين كجرات ، وهو ابن السلطان محمود الذي يسميه مسلمو الهند : بيكره .

وهو في أعماله فَرْدٌ فَريد … في عُلُوٍّ لِلمَقام بايزيد

فرساً كان يُعِزُّ كالوَلَدْ … مِنْ حروبٍ خاضَ أمسى في كَبَدْ[1]

أدْهَمٌ مِنْ خيرِ أفراسِ العَرَب … ونجيبٌ وكريمٌ في النَّسَب[2]

ولدى المؤمنِ عزَّ أو نَفُسْ … الكتابُ والحُسَامُ والفَرَسْ[3]

أيُّ وصفٍ ؟ إنَّه خَيْرُ الجياد … مرَّ ريحاً بالغدير والنِّجاد ![4]

في الحُروبِ مُشْبِهٌ لَمْحَ البَصَرْ … أوْ كريحٍ زَلْزَلَتْ طَوْدَ الحَجَرْ

عَدْوُهُ موزٌ وفوزٌ يَوْمَ حَشْر … يَسْحَقُ الحافرُ مِنْهُ كلَّ صَخْر

أشبهَ الإنسانَ فاعتلَّ الجَواد … ذاتَ يومٍ ، قيل أضناهُ الكُباد[5]

أحضَرَ البيطارُ دَنّاً مِنْ شراب … وسقاه فانتفى داءُ العَذَاب[6]

غَضِبَ العاهلُ قالَ لا أريد … ذا الجوادَ ، فالتُّقَى مِنّي بعيد

نِلْتَ مِنْ رَبِّكَ قلباً مُنْحَتَه

مسلمٌ هذا تأمَّل طَاعَتَهْ

إنَّما الدِّينُ احتراقٌ في الطَّلَبْ … وَهوَ عِشْقٌ ثُمَّ يتلوهُ الأدَبْ

وبلونِ عزَّ وَرْدٌ أو بِعِطْر … أدبٌ إنْ غابَ كانَ شرَّ إصْر[7]

إنْ رأيتَ الشَّابَّ هذا قَدْ فَقَدْ … فنهاري ضاعَ في لَيْلِ الأبَدْ

وتزيدُ حُرقةٌ كانتْ بِصَدْري … فلأيَّامِ النَّبيِّ كانَ ذِكْري

وأتوبُ مِنْ زماني الحاضِرِ … لأغيبَ في الزَّمانِ الغابِرِ

---

(١) في كبد : في تعب .

(٢) الأدهم : الأسود . وقد يكون هذا السواد شديداً أو هيناً .

(٣) عز : صار عزيزاً ، ونفس : صار نفيساً . والمراد بالكتاب : القرآن الكريم .

(٤) الغدير : النهر . والنجاد : جمع نجد ، هو ما ارتفع من الأرض .

(٥) اعتلَّ : مرض . والكباد : داء الكبد .

(٦) البيطار : طبيب الخَيل . دَنُّ الشراب : جَرَّةُ الخمر . انتفى : طرد .

(٧) الإصر : الذنب .

يَسْتُرُ المرأة زوجٌ أو تُراب ... والرِّجالُ حِذْرَهم كانَ الصِّحاب[1]

تَنْطِقُ العوراءُ ؟ ذا كلُّ الخطأ ... كافِرٌ أو مُؤمنٌ ربِّي برا[2]

أنْتَ إنسانٌ ؟ أخاكَ فاحْتَرِمْ ... ليسَ منّا غيرَ هذا مَنْ عَلِمْ[3]

تربطُ الناسَ جميعاً عُروةٌ ... مِنْكَ في هذا الطريقِ خُطْوةٌ ؟

ولعبدِ العِشْقِ منْ ربٍّ طَرِيق ... وعلى الكافِر والبَرِّ الشَّفِيق[4]

ضمَّن الدِّين وكفراً قَلْبَكا ... وإذا ما الدِّينُ فرَّ ويلكا !

لَيْسَ هذا القَلْبُ إلا سجنُ طِين

إنَّ فيه كلَّ أفقٍ كالوَضِين[5]

إنْ رأستَ القَوْمَ أو صِرْتَ الغنيّا ... فعلى الفَقْرِ احْرِصَنَّ يا بُنَيّا[6]

إنَّه في الرُّوحِ مِنْكَ يَتَّقِدْ ... عنْ أبٍ خمراً وَرِثْتَ بلْ وجَدْ[7]

لا تؤمِّل غيْرَ قلبٍ ذي ألَمْ ... ادعُ ربّاً وانسَ كلَّ منْ حَكَمْ

---

(١) يقول : إنَّ المرأة يسترها أن تتزوج أو تموت . كما يستر الرجل أنْ يأخذ حذرَه من أصدقاء السوء .

(٢) العوراء : الكلمة القبيحة . وبرأ : خلق .

(٣) أي لا يعد إنساناً منّا من تناسي وجوب احترام أخيه في الإنسانية .

(٤) البَرُّ : من يطيع الله .

(٥) الوضين : ما انطوى وانثنى .

(٦) الفقر من مقامات الصُّوفية . وهو ليس فقدان الغنى ليس إلا ، بل فقدان الميل إليه والرغبة فيه ، فينبغي للصُّوفي أن يكون خالي اليد والقلب جميعاً ، وعلى هذا المعنى لا يتعارض الفقر مع جاه بعض الصُّوفية ، ورفعة قدرهم ، وقد يكون لهم قدرٌ من المال ، ولكن الله يخفي حقيقتهم عن أهل الظاهر . قيل : إنَّ الفقير هو الذي لا يملك ولا يملك ، والذي استصفى نفسه في فقره تقرباً . كما قالوا : إن الفقر لباس المرسلين ، وزينة الصالحين ، وتاج المتقين ، وغنيمة العارفين ، ورغبة المريدين ، ويؤثر عن الصوفية قولهم « الفقر فخري » .

(٧) يشبه الفقر بالخمر المعتقة . والخمر في مصطلح الصُّوفية نشوةُ العشق الإلهي .

كـمْ حصيـفٍ وهـوَ بـالحـقِّ البَصيـر غَمَـرَتْـهُ نِعمـةٌ فَهُـوَ الضَّـريـر[1]

فبهـا تِلْـكَ القلـوبُ أصْلَـدَتْ ودعـاءَ العَبْـدِ عنهـا أبْعَـدَتْ[2]

فـي البـلاد جُلْتُ أعـوامـاً طِـوالا لغنـيٍّ مـا رأيـتُ الـدَّمـعَ سـالا[3]

أهـلَ فَقْـرٍ مـنْ فَـدَيْـتُ ، طِبْـتُ نَفْسـا

ويـلُ مَـنْ بـالنِّعْمَـةِ الـرحمـنَ يَنْسَـىٰ

أتـرومُ الـذَّوْقَ عِنْـدَ المُسْلِمِيْنَـا وتُـريـدُ الشَّـوْقَ فيهـمْ واليَقِيْنَـا

إنَّ لِلْقُـرآن علمـاً لَيْـسَ يُعْـرَف والـذئـابُ إنَّهـم أهْـلُ التَّصـوُّف !

الصِّيـاحُ والعَجِيْـجُ فـي الخـوانـقْ أيْـنَ خِمِّيـرٌ لِحُسْـنِ الله عَـاشِـقْ[4]

قلَّـدَ الإفـرنـجَ منَّـا المسلمـونـا مـنْ سـرابٍ كـوثـرٌ مـا يطلبـونـا

وَبِسِـرِّ دِيْنِنـا مـا عِلْمُهُـمْ ؟ أهـلُ حِقْـدٍ وعـداء كُلُّهُـمْ

كـلُّ خيـرٍ لِلْخَـوَاصِّ كـالحَـرَام مـا رأيـتُ الصِّدْقَ إلا فـي العَـوَام

التقـيَّ مِـنْ غَـوِيٍّ مَيِّـزَنْ مَـعَ أهْـلِ الحـقِّ والفَضْـلِ اجْلِسَـنْ

إنَّمـا النَّسْـرُ تقـاليـداً ألـفْ

سطـوةُ الشَّـاهِيْـنِ طـارَ ، تختلـف

رَجُـلُ الله يَلُـوحُ مِثْـلَ بَـرْق حطبـاً يَجْعَـلُ مِـنْ غَـرْبٍ وَشَـرْق

نحـنُ كُنَّـا فـي ظـلامِ الكـائنـات وَهُـوَ ذو حِـذْقٍ بِحَـلِّ المُعْضِـلات

والكليـمُ والمسيـحُ والخليـلْ والنَّبـيُّ والكتـابُ ، جبـرئيـلْ[5]

إنَّ أهـلَ القلـبِ شَمْـسُ الكـائنـات نـورُهـا وهَّـابُ هـاتِيْـكَ الحيـاة

---

(١) الحصيف : العاقل .

(٢) أصلدت الأرض : صلبت .

(٣) يريد ليقول : إنه لم يصادف غنياً رقيق القلب يحزن لمصاب غيره .

(٤) الخوانق : جمع خانقاه ، وهو المبنى الذي يقيم فيه الصوفية معتزلين متعبدين . والخميرُ : مدمن الخمر . والمراد به الصُّوفي .

(٥) الكليم : موسىٰ ، والخليل : إبراهيم عليهما السلام . والكتاب هنا : هو القرآن الكريم .

وهي في نورٍ لها قَدْ أحرقَتْكا ... ذلك السُّلطانَ بَعْدُ علمتكا
نَحْنُ بالنَّار لها أصحابُ قَلْب ... أو فما ماءٌ وطينٌ مِثْلَ شَوْب ![1]
أنْتَ في عَصْرٍ ولكِنْ أيُّ عَصْر ... غارقٌ في الجسم ، روحاً لَيْسَ يدري
قَحْطُ رُوحٍ سِعْرُ جسمٍ أنقَصا ... رَجُلُ اللهِ لذاتِ نكَصا[2]
إنَّ هذا ما درىٰ معنى الطَّلَبْ ... وهوَ بالعَيْنِ يَرَىٰ يا لَلْعَجَبْ
ذوقُ ذاك البَحْثِ لا تَتْرُكْهُ مدَّةْ ... وَلْتُواجِهْ في الحياةِ ألفَ عُقْدَةْ
صُحْبةَ النَّدْب اللبيبِ إنْ عَدِمْتَا ... ما لديَّ عن أبي هلَّا أخذْتَا
اجْعَلِ الرُّومِيْ رفيقاً في الطَّريق ... يُنْعِمُ اللهُ بمشبوبِ الخُفُوق[3]
يَعْرِفُ الرُّومي لُباباً مِنْ قُشُور ... في الطَّريق كانَ مَوْصُولَ المسير
فسَّروهُ ما درى المعنى أحَدْ ... إنَّ معناه غَزَالٌ قَدْ شَرَدْ
رَقْصَ جِسْمٍ منه كانوا يَفْهَمُونا ... رَقْصَةَ الرُّوح تناسىٰ الغافِلونا
رقصةُ الجِسْمِ تَدُورُ بالتُّراب ... رَقْصةُ الرُّوح لها نَجْمُ السَّحاب
رَقْصةُ الأرواحِ عِلْمٌ وهي حُكْمْ ... وإلينا الأرضُ والخضرا تُضَمْ[4]

---

(١) الشوب : القطعة من العجين . والمراد بها جسم الإنسان .

(٢) نكص : رجع . وفي الأصل : أنه اختفى في ذاته .

(٣) المشبوب : المشتعل .

(٤) الحكم : الحكمة . والخضراء : السماء . وإقبال هنا يحدّثنا عن رقص الدراويش المولوية أتباع جلال الدين الرومي المعروف بمولوي المتوفى بقونية في الأناضول عام ٦٨٣هـ . فقد كان مريدو جلال الدين الرومي يستعينون بالرقص والموسيقا على تحريك نشوة التصوُّف في قلوبهم . وجرت عادتهم بالاجتماع فيما يعرف بسماع خانه أي بيت السماع ، وهو بهو متراحب الأرجاء في صدره مجلس للعازفين . ويدخل الدراويش بالطويل من قلانسهم والضيق من سراويلهم . وبعد التسليم على شيخهم تبدأ رقصتهم ، فيرفعون أذرعهم ، وقد اتجهت راحة يدهم اليمنى إلى أعلى وراحة اليسرى إلى أسفل . ويدورون بعض أطراف أصابعهم دوران الرحى حول قطبها بينما ينفخ في الناي وتقرع الطبول ثم يصلون على النبي ﷺ واضعين أيديهم على صدورهم ، ويحنون قامتهم ، وبذلك تنتهي رقصتهم .
=

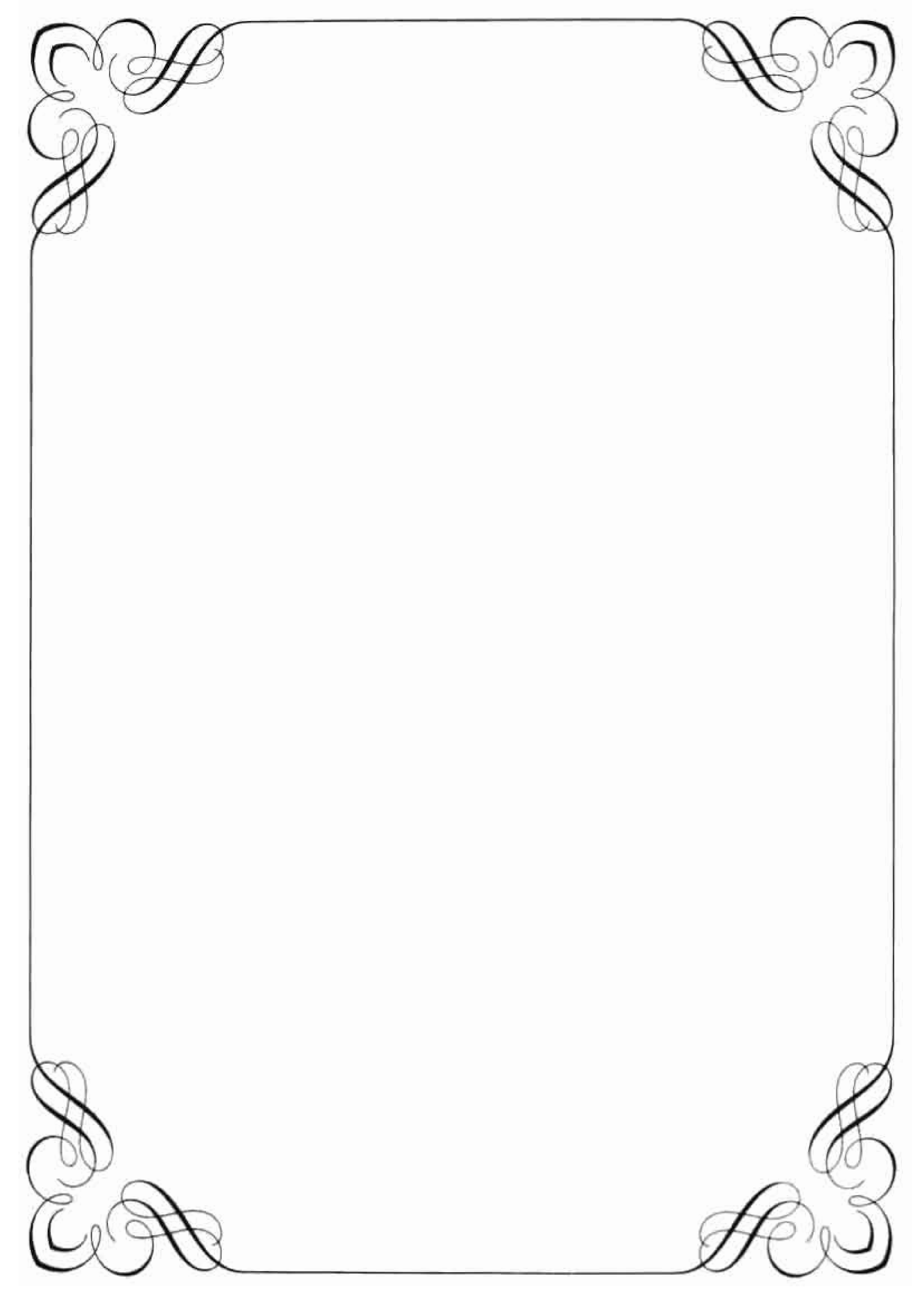
جـذبـةٌ لِلفَـرْدِ منهـا كـالْكَلِيـمْ	كلُّ شَعْبٍ كانَ ذا المَلِكُ العَظِيمْ[1]
إنَّ هـذا لـيس سهـلاً فـي التَّعَلُّـم	وَلِغَيْـرِ اللهِ فـي القلـب التَّضَـرُّم[2]
وبنـار الحـرص إنْ قلبـاً حـرقتـا	فبـروحٍ منـك قـطُّ مـا رَقَصْتـا[3]
يُضْعِـفُ الإيمـانَ فـي الإنسـانِ هَـمْ	يـا بنـيَّ إنَّـه نِصْـفُ الهَـرَمْ[4]
هَلْ عَلِمْتَ ؟ الحرصُ فقرٌ حاضِرُ	إنَّ مـولاي لـذاتٍ قـاهِـرُ[5]
بـكَ يـا « جاويدُ » لـي روحٌ تطيب	آهِ لـو وافـاكَ مِـنْ هَـذا نَصِيـبْ[6]

لَشَـرَحْـتُ دِيْـنَ خَيْـرِ الأنبيـاءِ
وأطَلْـتُ لـكَ فـي قَبْـرِي دعـائـي

* * *

= وفي رأي الصوفية أنَّ السماع وما يفضي إليه من رقص يرقق القلوب وينتزعهم من عالم الثرى ليسمو بها إلى العالم العلوي ، كما يثير الطرب في النفوس والخوف عند التائبين ، ويضرم نار المشتاقين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي (إذا ما ذكرت البحر وأمواجه ، فما ذكرت شيئين متباينين ، لأن أمواج البحر هي البحر نفسه ، ولكن في ارتفاعٍ وانخفاض . والموجُ بَعْدَ هبوطه إلى البحر يعود . وما مَثَلُ البحر إلا مثل بني الإنسان ، لأنَّهم أمواج الله . وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .
ومن مستطرف ما يروى عن السُّلطان سليم العثماني ، أنَّه مرَّ بإقليم قونية وعاصمته قونيه ، فتعجب من كثرة الأعاصير ، وقال له أحد رجاله متبسطاً : إنَّ ما في تلك الأرض من تلال وأحجار وغبار يرقص رقصة المولوية .

(١) الكليم : هو موسى عليه السلام .
(٢) التضرُّم : اشتعال النار .
(٣) حرق : بمعنى أحرق .
(٤) قال النبيُّ ﷺ : « الهمُّ نصف الهرم » .
(٥) يشير إقبال إلى قوله ﷺ : « إياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر » وفي الأصل : إني عبدٌ لمن قهر ذاته .
(٦) جاويد : اسم ابنْ إقبال الذي أهدى إليه المنظومة ، والمراد بهذا في قوله هو رقص الروح . ووافاك : بمعنى أتاك .





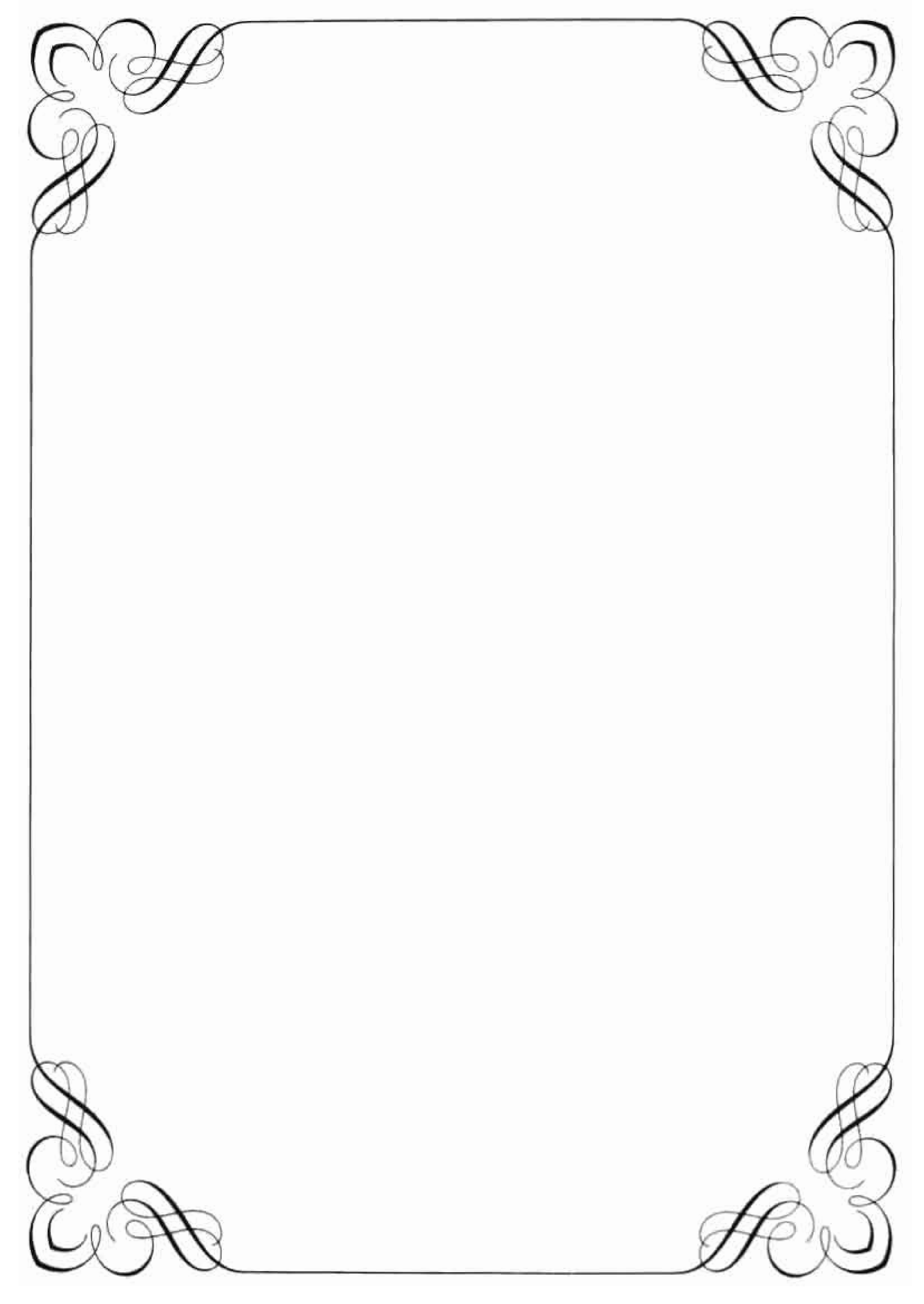
الدِّيوانُ الثّامِنُ

وَالآنِ... ماذا نَصْنَعُ؟ يا أُمَمَ الشَّرقِ..

پس چه باید کرد ای اقوام مشرق

نَقَلَهُ إلى العَرَبيَّةِ
الأستاذ أحمد الغازي

صَاغَهُ بِالعَرَبيَّةِ شِعْرًا
الشيخ صاوي شعلان المصري



أصدر محمد إقبال هذا الديوان في آخر حياته باللغة الفارسيَّة ، صَاغَه على وزنِ مثنويِّ مولانا جلال الدِّين الرُّومي من بحر الرَّمل المسدس ، وهذا مجموعة قيمة جميلة من شعره ، نشرها في سنة ١٩٣٦م ، بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة ، مع أن مثنويات هذا الكتاب موجزة تحتوي على صحائف محدودة ، ولكنها مليئة بأمواج فكره العالي ، تتلاطم فيها بحار فلسفته البديعة التي اقتبسها من الكتاب والسنة وآثار العلماء .

وإذا أمعنَّا النظرَ في هذا الديوان تبيَّن لنا أنَّ مزاياه تفوق جميع دواوينه الأخرى لما يحويه من حالة ممتازة من النشاط والجذب والإخلاص والعشق ، تقطر من كلِّ بيتٍ فيه قطراتُ الشَّوق والحبِّ والاضطراب الرُّوحي ، كما نلاحظ ذلك في مثنوي مولانا جلال الدِّين الرُّومي .

قد تناول محمد إقبال في هذا الديوان بعض الموضوعات الهامَّة ، نشير إليها باختصار :

الموضوع الأول من هذه الموضوعات الهامَّة التي عني بها شاعرنا العظيم في دواوينه بعامةٍ وفي هذا الديوان بخاصةٍ ، موضوع نهضة الشَّرق ، يقول : إنَّ الشرق هو الذي هدى الغرب إلى التقدم والرُّقيِّ العالي ، وإلَّا فلقد كان أهل الغرب متخلِّفين عنَّا في كلِّ ناحية من نواحي المدنية والحضارة ، وحين كانت أوربة غارقةً في لجَّةٍ من التعصُّب ، والجهل ، والحروب الدَّاخلية الدَّامية كنا - أهل الشرق - في أرقى منزلةٍ من منازل العلم ، والفنِّ ، والمدنيَّة ، والحضارة . وهذا هو الشرق الذي هذَّب الأمم الغربية بمختلف الفنون ، والعلوم ، والكيمياء ، والطبِّ وغيرها .

والموضوع الثاني في هذا الديوان هو تطهير الفكر وتجديده ، يقول : « **إذا أمكن تطهير الفكر في أمَّةٍ استطاعت أن تنهض ، وتخطو إلى المجد قدماً ، ولو**

أمعنّا النظر في سيرة الرسول ﷺ العطرة علمنا أنّه بدأ تربية الأمة بتطهير الفكر ، ثم استطاع بعد ذلك أن يقيم بناء التعمير » .

فيريد شاعرنا العظيم أن نركز أولًا على إصلاح الفكر ، فبإصلاحه يصلح الإحساس ، وتستقيم العواطف .

وبعد ذلك أجلُّ ما عني به محمد إقبال في هذا الديوان هو موضوع فقر المؤمن ، ويتبادر إلينا في المعنى اللغوي أنَّه يعني فراغ اليدِ من الأموال ، ولكن صوت الحقيقة يدوّي في كيان الحقيقة كلِّها ، بأنَّ كل موجود فقير إلى الله ، فقير إلى إدراك ما لا يعرفه ومعرفة ما لا يعلمه ، فقير إلى محبة الأصدقاء ومعاونة العشراء .

وقد اصطلحت الصُّوفية على أن الفقر يعني : إخلاص العمل لله ، وتخصيص الاحتياج إلى الله وحده ، والاستغناء به عمّا سواه ، وقد التبس الأمر على بعض الناس لما بين هذه الصورة من التشابه ، وظنَّ البعض أنَّ فقر الصُّوفيَّة هو بعينه الفقر اللغوي .

ويقول محمد إقبال : **إنَّ الفقر قد يعني ترك الدُّنيا ، ولكن ذلك لا يعني الإهمال ، والعزوف ، والزُّهد الغالي ، وإنَّما يعني تسخير الدنيا أولًا ، ثم العزَّة ، والعفَّة ، والاستغناء ، كما سخَّرها أجدادنا ، واستفادوا من نعمها ، لكنَّهم لم ينغمسوا في قعرها انغماس الماديين وأهل الهوى .**

وليس من شأن المسلم أنْ تستعبده مادةُ الحياة الدنيا وحطامها ؛ لأنه أرفعُ قدراً ، وأعزُّ مكاناً ، وأنبلُ هدفاً لأنّه له خلافةُ الأرض ، فالمؤمنُ الفقير ـ المؤمن الكامل ـ هو الذي يُزلزلُ بعزيمته هذه الكرة المسكونة ببرِّها وبحرها ، والفقر النَّبيلُ العفيفُ هو احتقار زهو الدُّنيا ، ودواعي الغرور فيها ، وإلى ذلك يُشير محمد إقبال في موضوع فقر المؤمن في هذا الديوان .

وقد كتب محمد إقبال هذا الديوان باللُّغة الفارسيَّة ، فنقله منها الأستاذ أحمد غازي إلى العربيَّة نثراً ، فصاغه الشاعر الإسلاميُّ المعروف الشيخ صاوي شعلان المصري شعراً بالعربيَّة ، وهو الآن بين أيديكم .

* * *

التمهيد

ذكر الشاعر في هذه الأبيات حبّه لمرشده الرُّوحي مولانا جلال الدين الرُّومي ، مجدِّد التصوُّف وإمام الرُّوحانية في عصره ، ثمَّ يُلقي الضوء على المكانة العالية التي يحتلُّها الرُّوميُّ في نظر الشاعر .

ويركِّزُ في الأبيات الأخيرة على أهمية الصراع بين الحق والباطل ، وكلُّ ذلك على لسان مرشده وأستاذه الرُّومي ، يقول :

كُنْ مثلَ إبراهيم في الإيمان	حتى تزيلَ معابدَ الأوثان
الشَّعبُ يبني عزَّه بكفاحه	ليشيد مجداً ثابتَ الأركان
ولقد يُظنُّ به الجنون إذا بدا	يوماً تمرُّدُهُ على الطُّغيان
ما فوقَ أرضِ الله شعبٌ ظافرٌ	ببلوغِ آمالٍ ونيلِ أماني
إلَّا إذا عقلَ الجنون وإنَّما	يحلو جنونُ الحبِّ للأوطان
المؤمنُ المقدامُ يمضي قاهراً	بالعزِّ والإقدامِ دون توانِي
وإذا ارتضى للذلِّ أمسى كافراً	بالله أو بكرامةِ الأوطان
من كانَ يدري فَرْقَ ما ينتابه	في دَهْرِهِ مِنْ عزَّةٍ وَهَوان
وبأنَّ الاستعمارَ أسرعُ بالرَّدى	للناسِ في الدُّنيا من الحَدَثان
وبأنَّ للأحرارِ بعد فنائهم	عمراً على الأيام ليس بفاني
وهناكَ يَرْفَعُ سهمَهُ نحو العلا	ويقيمُ رايته على كيوان
شُمُّ الجبالِ تذوب في خطواتها	حتى تفوقَ الماءَ في الجريان
كم ثورةٍ للمَجْدِ طيُّ ثيابه	كالنَّار تَقْذِفُ ثورة البركان
لا يتركُ الدُّنيا تعيشُ وشعبهُ	فيها قتيلُ الذلِّ والحِرْمان
العِطْرُ مستترٌ ويسري ظاهراً	كنْ أنت مِثْلَ العِطْرِ في البُستان
لا تخدعنَّك في الرُّبى ألوانها	كنْ خالياً فيها من الألوانِ

قد ضلَّ أهلُ القصر عن أرواحهم … لم يهتدوا إلَّا إلى الأبدان

فالدِّين إرضاءُ الدَّخيل وليس … مرضاةَ الإلَه الواحدِ الدَّيَّان

فقلوبُهم وجيوبُهم وعقولُهم … للأجنبيِّ تقرُّبٌ وتفانِ

لا تصحبنْ في شربِ كاسات المنى … إلَّا وفياً صادقَ الوِجْدان

لا ترجُ في نُدَماء غدرٍ نشوةً … ولو أنَّ فيهم قيصرَ الرُّومان

لا تُفش للأنعامِ أسرارَ الأسو … دِ ولا حديثَ الصَّقْرِ للغِرْبان

مَنْ شابَ في نسجِ الحصيرِ فما له … يوماً إلى نسجِ الحرير يَدَان

والذِّئبُ يأكلُ يوسفاً خيرٌ له … من أن يُبَاع لتاجرِ العُبْدانِ

مرشدُ الأرواح مولانا جلال(١) … شيخُنا الروميُّ علويُّ المِثال

مشرقُ الإيمانِ قدسيُّ الضَّمير … وهو في قافلةِ العِشْقِ أمير

قد علا منزلةَ الشمس مَقَاما … ضارباً في مسبح النَّجْم خِياما

قلبُه في مُحْكَمِ الذِّكرِ صفا … بهدىٰ القرآنِ أضحى مُصْحفا

لو رأىٰ مرآته بين الملا … جام (جمشيد) توارى خَجَلا

رَأيُه المرسلُ بالعِشْق نَدَاه … أشْعَلَ الثورةَ في قلبي صداه

قالَ شيئاً سَمِعَتْه فطرتي … وَتَجَلَّى نغماً في فكرتي

أممُ الدُّنيا صَحَتْ بعد سبات … واستبانت كُنْهَ أسرارِ الحياة

وأفاقَ الشَّرق من نومٍ طويل … يكسرُ الأغلال والقَيْدَ الثقيل

جَذْبَةٌ واتته مِنْ دَفْعِ القَدَر … فأزاحَ العِبْءَ عنه وانتصر

أممُ الغرب تبينتَ مداها … ما اكتوى مِثْلُك حيٌّ بلظاها

كُنْ كإبراهيمَ سُكْراً وَهُياما … لتصير النَّارُ برداً وسَلاما

اجْعَلِ الأصنامَ في الأرض هشيما … لا تغادرْ هيكلاً منها قديما

مِنْ ضميرِ الشَّعب من إيمانه … تنبتُ الثورة في وِجْدانه

هي نورٌ يجتليه المُصْلحونا … قاصرُ العَقْل يسمِّيها جنونا

---

(١) قد سبقت ترجمته .

إنَّ قوماً للهوى يستسلمون ... لم يَقُمْ فيهم جنونٌ ذو فنون
لن يقيموا نهضةً تمحو الهوان ... ما لهم في ساحة المَجْدِ مكان
كلُّ مَنْ تحتَ الفضاءِ الأزرقِ ... لمْ يُجَاهِدْ فكأنْ لم يُخْلَقِ
ثقةُ المؤمنِ باللهِ عَتاذ ... فتوكَّل واعتزمِ نَحْوَ المُراد
شيمةُ المؤمن عزمٌ وثقة ... حيثما همَّ بأمرٍ حقَّقه
بهما يَنمُو ويمضي قاهرا ... لا أرى اليائسَ إلَّا كافرا
نظرةُ المؤمنِ مصباحٌ منير ... فهو بالخيرِ وبالشرِّ بَصير
عزمُه الوثَّابُ لا يخشى الصعابا ... تاركاً ما عمَّر الظلمُ خرابا
حوَّلت ضربتُه صُمَّ الصَّفا ... والجبالَ الشُّمَّ قاعاً صَفصَفا
يدركُ الآمالَ بالفقرِ الغَيُور ... وهو للأجيالِ بعثٌ ونُشور
ومضى عازفُ ناي العاشقين ... يُرسلُ الإلهام والقولَ الرَّصين
حين أدرَكْتَ المُنى في صحبتي ... ثملاً من خمرها في حانتي
حال في نشوتك العزمُ الصَّميم ... لم تَعُدْ تحفلُ بالوَهْم القديم
كُنْ من الرَّوض قريباً نائيا ... كالشَّذا يسري خفياً باديا
بين ألوان الرَّوابي واعيا ... ومن الألوان[1] طرّاً خاليا
كن مع الكل على هَذي الإلَه ... وبدونِ الكلِّ لا ترجو سِواه
قوةُ الرُّوح هي السِّحرُ العُجاب ... أهلُ هذا العصر عنها في احتجاب
فلديهم حبُّ غيرِ الله دين ... ولغيرِ الله ذَلُّوا صاغِرين
ذلكَ السرُّ وهذي المعرفة ... فيهما حيرةُ أهلِ الفلسفة
مُنْذُ بدءِ الخلقِ في ماضي السنينا ... لم يجاوِزْ فكرُهم ماءً وطينا
حُرِمَتْ أعينهم نورَ القلوب ... ومعينُ العِشقِ منهم في نُضُوب
لم يروا في الكون إلَّا مَنْظرا ... أزرقاً أو أحمراً أو أصفرا
وإذا الأبصارُ لم تُدرك هُداها ... من سراج القلب ضلَّت في ضحاها

---

(١) المذهب.

فــاز حــرٌّ جَعَــلَ الحــقَّ مصيـره
لـم يبغ يـومـاً لمخلـوقٍ ضميـره

مــنْ وفــى لله روحــاً ودَمَــا
صــانَ عَــنْ قَيْـدٍ سِـواه القَـدَمـا

إنَّ سـرَّ الأُسْـدِ فـي حِضْـنِ الأجم
لا تعيــه فــي مــراعيهـا النَّعَـم

لـيس كـلُّ الخلـق أهـلاً للعهـود
لا تَبُـخ بـالسـرِّ إلَّا لـلأسـود

إنْ تعـاطيتَ مع الصَّخْـبِ المُداما
أبْعِـدِ السَّفْلـةَ عـن حَقْـلِ النَّدامى

هَبْـهُ كسـرى هَبْـهُ أيضـاً قَيْصـرا
لَـنْ تـرى فيـه النَّـديـمَ الخَيِّـرا

لـو غـدا يـوسُفنـا يـومـاً طعـامـا
فـي فـم الـذِّئـب وأفناه التهامـا

فهـو خيـرٌ مـن خسيـس يحتـويـه
وَبِبَخْـس المـالِ يـومـاً يشتـريـه

أهـلُ دنيـانـا تمـادوا فـي غـرور
لـم يبـالـوا بمقـاييـس الأمـور

بَهَـرَتْنـي نكتـةٌ مِـنْ شـاعـرٍ
بـارعِ الفكـرِ نقـيِّ الخـاطـرِ

ذاتُ معنـى نـورُه مُـؤْتَلِـق
كـادتِ الـرُّوحُ بـه تَحْتَـرق

إنَّـه العـاشـقُ فـي أهـل الجحـود
لـم تَـزِدْ أسماعُهـم غَيْـرَ الجمـود

فَهْـوَ يَحْكـي مسلمـاً بـاتَ يُعـانـي
فـي قـرى الإفـرنـج تـرديـدَ الأذان

قـلْ لأهـل الحـقِّ ما يشفـي القلـوب
قُـلْ عـن الـدِّيـن وأنبـاءِ الشُّعـوب

اقبـل الهـمَّ ولا تـأكـلْ طعـامـا
مــنْ يَـدٍ تُطْعِمُـك الهَـمَّ دوامـا

إنْ يكـنْ عيشُـك مِـنْ طـولِ الكَـدَرْ
فيـه مـرُّ الجـوعِ فـالـذُّلُّ أمَـرْ

الـدواءُ المُـرُّ للعقـلِ الكبيـر
فـاتـركِ الحلـواءَ للطفـلِ الغَـرِيـر

خِـرْقـةُ الـزَّاهـد عـبءٌ للفقيـر
كُـنْ عفيـفَ القلـب وانْعَـمْ باليَسِير

واسألِ الأنْسَام في الرَّوض النضير
مـا الـذي تَحْمِلُـه غَيْـرَ العَبيـر

إنْ تكُـنْ بحـراً قـويـاً غـامـرا
فـاجعـلِ الصَّحـراءَ سيـلاً هـادِرا

أو تكـن طَـلًّا فعـش بَيْـنَ الـورود
وابْعَثِ العِطْرَ سلاماً في الوُجود

أنـتَ فـي الحـربِ نشيـدٌ مـن دمـاء
أنـتَ فـي السِّلْـمِ رسـولٌ لـلإخـاء

إنَّ أهـل الحـقِّ أربـابُ الـوفـاء
ليـس سِـرُّ الحـقِّ عنهـم فـي خَفَـاء

نـذروا أنفسَهـم فـي كـلِّ حيـن
ليعـمَّ الخيـرُ كـلَّ العـالميـن

وتـأمَّـلْ قطـرةَ الطـلِّ النَّـدي
مِـنْ دجـى الليـلِ إلـى فجـرِ الغَـدِ

حَفِظَتْ في الكون ذاتِيَّتَها ... ثم حلّت في الدُّجى عُقْدتها
وبنى عُنْصُرَها شوقُ الحياه ... واستقرَّتْ حيثُ أحياها الإلَه
ومَضَتْ تجتازُ في صَمْتِ الفضاء ... خلوةُ الأفلاكِ في جوِّ السماء
جانبتْ أنْ تَجْعَل البَحْرَ الهدف ... لم تُرِدْ أنْ تتوارى في الصَّدَف
بل أقامتْ بين أحضانِ السَّحر ... لَمْحةٌ كانت حياةً للزَّهر
فَتَحَ الوردُ بها أجفانَه ... وسقى مِنْ عِطْرِه أغصانَه
هكذا المؤمنُ رمزُ التَّضحيات ... يتفانى في اقتناء الباقيات

* * *

مناجاة الشَّمْس

جرَتْ في حياةِ الشُّعراء سنةٌ أدبيَّة سلكها الكثيرون منهم في مخاطبة الشَّمس ، ولعلَّ أقرب مثال إلينا في الجديد قصيدة أحمد شوقي (قفي يا أخت يوشع خبرينا) فالشُّعراء خاطبوا الشمسَ ، وتحدَّثوا عنها ، وتفنَّنوا في ذلك ، وأبدعوا ، وها نحن نرى إقبال يُخاطبها قائلاً :

يا مبعثَ الإشراقِ والنُّور الذي ... عمَّ البريَّة مِنْ ضياءِ الباري
في كلِّ موجودٍ ضميرٌ مشرقٌ ... مِنْ ضوئكِ الفيَّاض كلَّ نَهارِ
مِنْكِ الحرارةُ للحياةِ وبعثُها ... ونضالُها في موجها المؤّار
أوْدَعْتِ كلَّ مُحَجَّبٍ شَوْقَ الظُّهو ... ر على هدىً مِنْ حكمةِ الأقْدَار
كَيَدِ الكليمِ أرى جلالَكِ سابحاً ... في موكبٍ مُتَجدِّدِ الأسفارِ
يطوي المَسِيْرَ على جَدَاوِلَ فِضَّةٍ ... في زورقٍ من عَسْجدٍ ونُضَارِ
أرسلتِ بدرَ التَّمِّ بعدكِ في الدُّجى[1] ... يجلو محاسنَه على الأنظار
أهديتِ للياقوتِ وَمْضَ بريقهِ ... ولعلَّ بينَ بواطنِ الأحْجَار

(١) الدُّجى : سواد الليل وظلمته .

وسكبتِ في قَلْبِ الشَّقيقِ حرارةً ... صَبَغَتْ ملابِسَه بلونِ النَّارِ

بعروقه تجري الدِّماء وقد غدا ... يختالُ بين عرائسِ النُّوَّارِ

والنَّرْجِسُ[1] الغَضُّ استفاقَ من الكرى ... وأزاحَ عن جَفْنيهِ ألفَ سِتَار

لينالَ من هذا الشُّعاع نصيبَه ... بين الغصونِ الخُضْرِ والأشْجارِ

مَرْحىٰ لقد وافىٰ قدومُكِ بالسَّنا ... وسما بطلعةِ وجهكِ استبصاري

حتى تجلَّى نخلُ سينا ماثلاً ... في كلِّ ما في الأرضِ من أشجار

أنت الصباح المرتجى لكنَّني ... ظِلُّ المساء الغاربِ المُتواري

فهبي لِوِجْداني سراجاً مشرقاً ... يهدي خُطايَ إلى علا وفخار

وَلْيَسِرْ ضوءُك في ترابي شعلةً ... تصفو بها نفسي منَ الأكدار

وصلي حياتي واجعلي هذا السَّنَا ... منْ حولها ستراً من الأنوار

لأنِيلَ فِكْرَ الشَّرق أوضاحَ الهُدى ... كيما يُبَدِّلَ لَيْلَهُ بنهار

وأثيرُ ناراً في الصُّدورِ جديدةً ... مشبوبةً بعزائمِ الأحْرَار

إني سَأُنْمِعُهم نشيدَ المجد من ... قيثارةٍ أوتارُها أشعاري

وأحيلُ خام الطَّبع وعياً صارخاً ... متحفِّزاً للسَّبق في المِضْمار

وأصوغُ للأيَّام دوراً مقبلاً ... غَيْرَ الذي شَهِدَتْ من الأدوار

ليحرِّروا الأرواحَ والأفهامَ من ... لغوِ الفِرَنْجِ وزيفِ الاستعمار

لا يستقي نبضُ الحياةِ حرارةً ... إلَّا بذكرِ مُقَدِّرِ الأقدار

ومجالُ تحريرِ النُّفوسِ أمانةٌ ... موصولةٌ بنزاهةِ الأفكار

والشَّعْبُ حِينَ يَضِلُّ في آماله ... عَنْ قَصْدِهِ لم يَلْقَ غَيْرَ بَوَار[2]

وتحُولُ فضَّتُه النقيةُ بهرجاً ... منْ ذا يسوِّي بهرجاً بِنُضَار

ويموتُ داخلَ صَدْرِه القلبُ السَّليم ... وينطوي في ذلَّةٍ وصَغَار

---

(١) النَّرجس : نبت من الرياحين ، وهو من الفصيلة النرجسية ، ومنه أنواع تزرع لجمال زهرها ، وطيب رائحته ، وزهرته تشبَّه بها الأعين .

(٢) بَوَار ، أي : هلاك .

حتّى ترى المُغوَجَّ في نَظَراتِه | يبدو سليماً عاليَ المِقْدار
وإذا رأى في الكائناتِ صِرَاعها | طَلَبَ الشَّواطِىءَ خَشْيَةَ الإعصارِ
فإذا الحياةُ هي السَّلامةُ والسُّكو | نُ وفوزه مِنْ حربها بِفِرار
في بَحْرِه موجُ الأماني راسبٌ | ما فيهِ مِنْ لُجٍّ ولا تيَّار
الخطوةُ الأولى لِنَهْضَةِ أمَّةٍ | تحريرُها بالعَزْمِ والإضْرار
لو أمكنَ التَّطهيرُ أمكنَ بعدَه | أنْ يَنْهَلَ التَّغْميرُ للأفكار

* * *

حكمة الكليم ـ سياسةُ الأنبياء

استخدم إقبال كثيراً من مصطلحاته الخاصَّة ، فوجَّه منها سهاماً نافذةً إلى صدر الاستعمار ، وهو هنا في هذه الأبيات يرقى على معراج الفكر إلى تفهُّم جلال النبوَّة ، ثم يعرض صفات المؤمن الصَّادق ليشحذَ من عزيمته وينفخَ فيه روح التحرُّر ، ويوقظَ في فطرته معاني القوَّة ، فما كان يستسلم لطغيان طاغيةٍ ، وجبروتِ جبارٍ ، وإنما تكون خشيته من الله وحده والتجاؤه إليه دون سواه ، فنراه يتَّخذُ من صفات النَّبيِّ أسلحةً للأمم العزلاء لتناضل بها ، وتذودَ عن حياضها ، وتدفع العدوَّ عن حماها :

عندما يَصْدَعُ النبيُّ بأمرِ الله جهراً في مَسْمَعِ الأكوان
يتحدَّى بوحيه كلَّ حُكْمٍ لأميرٍ في الأرض أو سُلطان
لا يرى قَصْرَه سِوى رَسْمَ ديرٍ من بقايا هياكلِ الأوثان
لا يَسِيغُ المَقَام في مَوطنِ الذُّلِّ ولا يَرتضي بِعَيْشِ الهَوان
تَتَذَكَّى بنورِ صحبته النَّفْسُ ويهدي الرَّشَادَ للحيران
يُحْدِثُ الضَّجَّةَ الرَّهيبة في الأيام حتى تَسِيرَ طَوْعَ الأماني
مُعْلناً في الوجود لا ربَّ غَيْرَ الله يُخْشَى ويُرْتَجى كلَّ آنِ
كَيْفَ يرضى إذلالَ عَبْدٍ لِعَبْدٍ وامتهانَ الإنسانِ للإنسانِ

قطـرةٌ مـنْ نَـداه تُشْعِـلُ نـاراً فـي عـروقِ الكُـروم والأغْصَـان
ويُجَلِّـي فـي قبضـةٍ مـن تـراتٍ بَعْـثَ روحِ اليقيـن والإيمـان
حـارسُ الفطـرة التـي فَطَـرَ اللهُ عليهـا الأرواحَ فـي الأبـدان
لا يسـامـي جـلالُ حكمتـه العقـلَ ولا عبقـريـةَ الفَنَّـان
حكمـةٌ فـي غنـى عـن الحَشْـدِ والجَمْـعِ وزهـورِ العُـروش والتِّيجـان
مِـنْ جُمُـودِ الشّتـاءِ يحيـي ربيعـاً بـاسـمَ الـرَّوْضِ نـاضِـرَ الأفنـان
وثُمـالُ الـرَّاحِ المُعَتَّـقُ أشهـىمـنْ رَحِيـقٍ مُصَفَّـقٍ فـي الـدِّنـان[1]
ابتهـالاتُ صُبْحِـهِ تـوقـظُ الكـونَ فيصحـو مـنْ ليلـه الـوَسْنـان[2]
ولـه نظـرةٌ مـن الحـقِّ فيهـا نبـأٌ يُعْلِـنُ انقـلاب الـزَّمـان
ولـديـه وثيقـةُ الأمـنِ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فـي مُحْكَـمِ القُـرآن
وَخيُـه يَغمُـرُ الصُّـدورَ الخـوالـي بقلـوبٍ جـديـدةِ الإيمـان
دَرْسُـهُ العَـزْمُ والـرِّضـا المحـضُ والتَّسليـمُ منـه فـي السِّرِّ والإعـلان
كسـراجٍ يشـقُّ قلـبَ الـدَّيـاجِيْـرِ[3] بـاهـرَ الضَّـوْءِ سـاطـعَ البُـرْهَـان
قـدرةٌ حـارتِ النَّـواظِـرُ فيهـا أيُّ سـرٍّ بهـا خفـيّ المعـانـي
يَصْبُـغُ الـرُّوحَ فـي الجُسـوم بلـونٍ غَيْـرَ كـلِّ الـرُّسـومِ والألـوان
حَـوَّلَـتْ كيميـاؤه الصَّـدَفَ البـالـي عِقْـداً مـن الـدَّراري الحِسَـان
يتـولَّـى مـلءَ الفـراغ بحـزمٍ يَقْهَـرُ المستحيـلَ بـالإمكـان
وينـادي العَبْـدَ المُصَفَّـدَ[4] هيَّـا لا تحـاكُ القيـودُ لـلإنسـان
فـإلـى المَحْـوِ والبِلـىٰ كـلُّ معبـودٍ قـديـمٍ مَـعَ الحُطـامِ الفـانـي
مَـنْ يُحـارِبْ وسيفُـه رَبِّـيَ الأعلـى يُـدمِّـرْ قـواعـدَ الأوثـان

---

(١) الدِّنان : وهي جِرَار الخمر .
(٢) الوَسنانُ : النائم الذي ليس بمستغرق في نومه .
(٣) الدَّياجير : واحدها الدَّيجور، وهو الظلمة، وصفوا به فقالوا: ليل ديجور، وليلة ديجور.
(٤) المصفَّد ، أي : المشدود .

إنْ أردْتَ الفَقْـرَ الغيـور فـلا تَفْقِـدْ مـعَ العُـدْمِ ثَـرْوةَ الإيمـانِ
فَمِـنَ الحـالِ لا مـنَ الجَـاهِ والمَـالِ دوامُ الـرِّضـا والاطْمِئْنَـان
رأسُ مـالِ الأخـرارِ صِـدْقٌ وإخـلاصٌ وَوَجْدٌ وَحُرْقـةٌ وتَفانِ
لَيْسَ فـي الحَلْـيِ والمَظـاهـرِ والثَّـوْبِ المـوشَّـىٰ والأصفـرِ الـرَّنَّـان
لا تحـاولْ دركَ المعـالـي بكـاووسَ وخسـرو فـي غـابـرِ الأزمـان
طُـفْ إذا شئـتَ حَـوْلَ ذاتٍ : حـرّاً لا تَطُـفْ بـالسَّـريـرِ والإيـوان
قَـدْ تباعَـدْتَ عـن مَقـامِـك حتَّـى صِـرْتَ فـي ذِلَّـةِ الأسيـر العَـانـي
لا تَسِـرْ واهـنَ الخُطـى كبغـاثِ الطيـر بيـن الطُّلُـولِ والجُـدْران
كُـنْ نَظِيْـرَ الشَّـاهيـن فـي القِمَـمِ الشَّمَّـاءِ لا فـي مَسَـارِبِ الـوُدْيَـان
تتحـرَّى الطيـورُ عِنْـدَ بنـاء العُـشِّ أعلـى الفـروعِ فـي البُسْتـان
لَسْـتَ دونَ النُّسـور بـأسـاً فحـاولْ دارةَ النَّجْـم أو ذُرى كِيـوان
مِـنْ مِهـادِ الثَّـرى إلـى التِّسْعـةِ الأفـلاكِ فَـوْقَ الـزَّمـان فَـوْقَ المَكَـان
غَيِّـرِ العـالَـمَ القـديـمَ وعَمِّـرْ فيـه دُنيـا جـديـدةَ البُنْيـان
والَّـذي يَنْشُـد الجِهـاد فنـاءً فـي رضا الحـقِّ وهـو ماضي الجَنانِ
هـو سـرُّ الأقـدارِ وهـو قضـاءُ الحـقِّ فـي المُمْكِنـاتِ والإمكـانِ
فَتَمثَّـلْ نضـالَ أسـلافِـك الأمجـادِ نَحْـوَ العُلـى بغيـرِ تَـوَانـي
وتَـدَبَّـرْ كيـف استهـانـوا بِبَـذْلِ الـرُّوح والمـالِ فـي رضـا الـرَّحمـن
أظْهِـرِ الجَـوْهَـرَ الكـريـمَ مِـنَ الأصـداف واجْعَلْـهُ بـاديـاً لِلْعِيَـان
وتَحَـرَّزْ مـنْ هيكـل المـاءِ والطِّيـن وَمِـنْ ظُلمـةِ الهـوى والهَـوان
واجعـلِ الفطـرةَ النقيَّـة نبـراسـاً لعينيـكَ بَيْـنَ قـاصٍ ودان
كـلُّ مـنْ ضـاعَ حظُّـه مـنْ جـلالِ الحـقِّ بَيْـنَ الجُحـودِ والنِّسيـان
لَـم ينَـلْ طُـوْلَ عُمْـرِه مـنْ جمـالِ الحـقِّ غَيْـرَ الإبعـادِ والحِـرْمـان
مبـدأ العِشْـقِ والصَّبـابـة قَهْـرٌ وخطـوبٌ مـوصـولـةُ الأشجـان[1]

(١) الأشجان : الهموم والأحزان .

وهـو مـنْ بعـدهـا دلالٌ وتيـهٌ بيـن طيـبِ المُنـى وَصَفْـوِ الأمـانـي
ويعـودُ المحـبُّ بـالقُـربِ محبـوبـاً وَيَنْسـى لـواعـجَ الهِجْـران[1]
الـوجـودُ الأسمـىٰ هـو المـؤمـنُ الحـرُّ الأبـيُّ الـوفـيُّ فـي كـلِّ آنِ
وبقـايـا الـوجـودِ فيمـا سِـوَاهُ مَظْهـرٌ حـائـلٌ وظـلٌّ فـانِ
حِيْـنَ يَـدْعُـو أنْ لا إلَـه سـوى الله القـديـرِ المهيمـنِ الـدَّيَّـان[2]
يُـذْعِـنُ الكَـوْنُ والمكـانُ ولا يُشْـرِقُ إلَّا بفـوزِه القَمَـرانِ

***

حكمة فرعون أو سياسة الطغاة

إنَّ إقبالًا قال في هذه الأبيات والتي قبلها ما يكون في حياة الناس من إقامة العدل بينهم أو من الجور عليهم في الحكم ، وقد استخدم كلمة (الحكمة) لهذا العنوان ، (حكمة الكليم) ثمَّ (حكمة فرعون) ، وهو إنّما يُريد بياناً لسياسة الحكم في إطارٍ من مصطلحاته الخاصة قصداً إلى بيان دسائس الاستعمار وتدميره لحياة الإنسان والقضاء على حريّته ، وهو في هذه الأبيات يقول :

قـدمـتُ حكمـةَ النَّبـيِّ لِلْعِيَـانِ والمكـرُ والخـداعُ حِكْمـةُ الطُغـاةِ
تبقـي علـى الإنسـان جِسْـمَ الحيوانِ وَتَسْلُـبُ الـروحَ كـرامـةَ الحيـاة

***

حِكْمتُهـا حـريـةٌ مـارقـةٌ[3] تَعيشُ في الدُّنيا بها منْ غَيْرِ دينِ
والنَّفـس فـي أوهـامهـا شـاردةٌ لمْ تَعْرِفِ الشَّوْقَ إلى عينِ اليقين

***

(١) الهِجْرانُ : هو الترك أو الإعراض عن شيء .
(٢) الدَّيَّان : هو اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ .
(٣) مارقة : خارجة عن دينها .

وسائلُ التهذيبِ مِنْ هذا النظام سلاسلُ الأسرى وأغلالُ العبيد
كما يرى السَّيِّدُ ينقادُ الغُلام فلا يرى ولا يعي ولا يُريد

* * *

وذلكَ البارعُ في مهنته يَصْطَنِعُ التَّجْديدَ في الدِّين القويم
قدْ شطرَ الوَحْدَةَ في أمَّتِه فما له نِدٌّ سوى عَصَا الكليم

* * *

متى يفيقُ القومُ من وَهْدَتهمْ وَهُمْ لحكم الغَيْرِ زَرْعٌ وَحَصَاد
قَدْ هدموا بناءَ ذاتيَّتِهِمْ وغيرُهم في أرْضِهِمْ سادَ وشَاد

* * *

كَمْ مِنْ غَرِيْرٍ اسْتَطالَ وادَّعى حَصَافَةَ الفِكْرِ وَدِقَّةَ النَّظَرْ
قَدْ خَبَرَ الوُجودَ والدُّنيا معاً وما لَدَيْهِ عَنْ وُجُودِهِ خَبَرْ

* * *

أزالَ نَقْشَ الحقِّ مِنْ خَاتَمِهِ وكلُّ خَيْرٍ عن ضَمِيرِهِ اسْتَتَرْ
قَدْ وُلِدَ الرَّجاءُ في عالمه لكنَّه في المَهْدِ وَلَّى وانْدَثَرْ[1]

* * *

ما تَصْنَعُ الأيامُ بالقَوْمِ الأُلى لمْ يُرْزقوا حظّاً مِنَ العَزْمِ الغَيُور
قَدْ أصْبَحَتْ أرواحُهم رَهْنَ البلى[2] وما سِوى أجسامِهم لها قُبُور

* * *

ومزَّقَ الكبارُ أستارَ الحياء وقلَّد الشَّبابُ صُنْعَ الغَانِيَات[3]

---

(١) انْدَثَرَ : دثر وامَّحى وفني .
(٢) البِلى : الفناء ، ومنه بلي الميت أفنته الأرض .
(٣) الغانياتُ : النِّساء الغنيّات بحسنهنَّ وجمالهنَّ عن الزينة .

كــأنَّهــم بيــنَ عــوامــلِ الفَنــاء ... يــأتــونَ مَــوْتــى مِــنْ بُطــونِ الأمَّهــات

* * *

وهــذه الحسنــاءُ تَقْضــي يَــوْمَهــا ... فــي منظــرٍ عــارٍ وصبْــغٍ مُسْتَعــار
ســاعِــدُهــا الفِضّــيُّ يُبْــدي جِسْمَهــا ... بمنظــرِ الأسمَــاك فــي لُــجِّ البِحــار[1]

* * *

جمــودُ هــذا الشَّعــبِ عَــنْ كفــاحــه ... يحكــي رمــاداً ليــس تَحْتَــه شَــرَر
مســاؤه رانَ علــى صبــاحِــه ... بظلمــةٍ فــي ليلهــا زاغَ البَصَــر[2]

* * *

كــلٌّ يعيــش فــي إطــار نَفْسِــه ... والعيشُ والمُتْعَــةُ فــي الــدُّنيــا مناه
يَخْشَــى البِلَــى قَبْــلَ حُلُــولِ رَمْسِــهِ[3] ... فــاعْجَــبْ لِمَيْــتٍ لَــمْ يَــزَلْ قَيْــدَ الحياه

* * *

وذو الغِنى في الشُّحِّ يحكي جَلْمَدا ... ومــالُــه فــي اللَّهــو يُغْــرِقُ السَّحــاب
حيــاتُــه ضــاعــت على الغيِّ سُدَىً ... تَشْغَلُــه قشــورُهــا عَــنِ اللُّبــاب

* * *

يَبِيــعُ دِيْنَــه لِــدُنيــا غيــره ... وفــي رِضَــا غــاصِبِــه يَسْتَشْهِــد
وَيَــوْمُــه الحــاضــرُ كــلُّ عُمْــرِهِ ... فَلَيْــسَ فِــي تــاريــخِ دُنيــاه غَــدُ

* * *

وكَــمْ تــرى فــي القَــوْمِ حَمَّــالَ كُتُــب ... ثقيلــةٍ يعيــا بِحَمْلِهــا جَمَــلْ

---

(١) لُجُّ البِحارِ ، أي : عُرْضُها .
(٢) زاغَ البَصَرُ ، أي : مَالَ عن مستوى النظر حيرةً وشُخوصاً ، وفي التنزيل ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ .
(٣) الرَّمس : هو التُّراب الذي يُحثى على القبر .

يدورُ في النَّاس كحمَّالِ الحَطَبْ　　ويُرْسِلُ الأقوالَ مِنْ غَيْرِ عَمَلْ

* * *

ولاؤه لِلْغَيْرِ كُلُّ هَمِّهِ　　حتى بنى الدَّيْرَ بأحجارِ الحَرَمْ
ماتَ ولكنْ ما دَرَىٰ بِمَوْتِهِ　　قَدْ عاشَ وَهْماً ثُمَّ واراهُ العَدَمْ

* * *

كلمةُ التَّوحيد
لا إله إلَّا الله

(رباعيات)

إنَّ لهذه الكلمة تأثيرها البالغ في حياة الأمم ، فإنَّها للفرد والمجتمع عقيدة القوَّة ، وركيز التقدُّم والانطلاق ، وإفراد العبودية للخالق ، ورفضُ كلِّ عبودية لما سواه ، فالمؤمن لا يخضع الجبين إلا لله الذي يقول له : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

تلك هي كلمة التَّوحيد التي تُجدِّد الصُّورة الإنسانيَّة في القالب التُّرابيِّ هيكلاً من النور ، تحمل كلمة التوحيد أهوال يوم النُّشور ، يقول محمد إقبال :

في مقام التَّوحيد يَشْدُو خيالي　　بصدى الحقِّ مِنْ رِجالِ الحَال
إنَّما تُدْرِكُ القلوبُ هداها　　بِصَفاءِ الأحوالِ لا الأقوَال

* * *

حرف (لا) مُظْهِرٌ لسرِّ الجلال　　وهو للجَوْرِ منذرٌ بالزَّوال
بَعْدَ نفي الظَّلامِ والظُّلم يبدو　　عند (إلَّا) إشراقُ صُبْحِ الجَمَال

* * *

لا وإلَّا فَتْحٌ لبابِ الحَيَاةِ　　واحتسابُ الوُجودِ والكائناتِ

بِهِمـا تَقْهَـرُ المهـانَـةَ والضَّيْـمَ   وتمضـي الأمـورُ فـي الحـادثـات

* * *

حِيْـنَ يَقْـوى مَـعَ الـرَّجـاء اليقيـنُ   فجـوابُ الأقـدارِ كُـنْ فَيَكُـوْنُ
يَـدْفَـعُ النَّفـيُ للتحـرُّك والجِـدِّ   وَعِنْـدَ الإثبـاتِ يـأتـي السُّكُـوْنُ

* * *

كـلُّ شَعْـبٍ يَـرُوْمُ عِـزَّ حمـاه   فبنـور التَّـوحيـد لا بسـواه
ليـس يحمـي بـلادَه غَيْـرُ حـرٍّ   سيفُـــه (لا إلَـــه إلا اللهُ)

* * *

حـرفُ (لا) آيـةٌ لبَـدْءِ المسيـر   فـي طـريـقِ الجهـاد نَحْـوَ المَصِيْـر
إنَّهــا أولُ المَنَــازلِ طــرّاً   لــرجـالِ الله العلـيِّ القَـديـر

* * *

كـلُّ شعـبٍ يمضـي بِخَطْـو سـديـدِ   لِلْعُلـى فـي حَـرَارةِ التَّـوْحيـد
يَبْتَنـي مِـنْ تُـرابـه صـرحَ دُنيـاهُ   ويحيـا فيهـا بِخَلْـقٍ جَـدِيْـدِ

* * *

قـولُ (لا) ثـورةٌ أمـام الطُّغـاة   هـو عِنْـدَ الأحـرارِ معنـى الحيـاة
ثـورةٌ مـنْ نِضَـالهـا يُصْنـعُ المَجْـدُ   ويبـدو تَجَـدُّدُ الكـائنـات

* * *

لَيْـسَ فـي ذلـكَ الجنـونِ العـريـقِ   كـلُّ ثـوبٍ يفـوزُ بـالتَّمْـزيـق
لا أرى في الغُثَاء[1] والقَشِّ[2] يوماً   حَطَبـاً صَـالحـاً لهـذا الحَـرِيْـقِ

* * *

---

(١) الغُثاء : هو ما يحملُ السَّيلُ من رغوةٍ ومن فُتات الأشياء التي على وجه الأرض .
(٢) القَشُّ : هو ما يتخلَّف من القمح والرز ونحوهما بعد استخراج حبِّه .

لـو يَمَـسُّ التَّـوحيـدُ فِكْـراً نقيًّـا ... وضميـــراً حيًّـــاً وقَلبـــاً أبيًّـــا
لأحـالَ الخُمـولَ والضَّعْـفَ إيمـانـاً ... وعـزمـاً يغـزو نُجُـومَ الثُّـريَّـا[1]

* * *

حـرف (لا) صَيْحَـةٌ تثيـرُ العبيـدَ ... ليـزولـوا مـا لَـمْ يُـزيلـوا القُيـودا
ويقيمـوا فـي الـدَّهـر عصـراً مجيـدا ... لا تَـرى فيـهِ سيِّـداً ومَسُـودا

* * *

لو سَرتْ شعلةُ الهدى في الصُّدور ... وتمشَّـى وميضُهـا فـي الضميـر
لأقـامَ الأحـرارُ لِلْهَـوْلِ يـومـاً ... يتحـدَّى أهـوالَ يـومِ النُّشـور

* * *

صوتُ (لَا) مِنْ دَويِّ صوتِ الرُّعود ... ليـس شكـوى نـايٍ ولا لحـنَ عُـوْدِ
لَوْ يَضيقُ الفضاءُ يوماً على الحرِّ ... تخطَّـى بـه نِطـاقَ الـوُجـود

* * *

يـا لهـا مـنْ ذِكـرى لأمجـادِ العَـرَبْ ... آيـةٌ كُبْـرَى وتـاريـخٌ عَجَـبْ
حـرَّروا أقـدارَهـم بـالعَـزَمـاتِ ... في جميع الكَوْنِ منْ كلِّ الجهاتِ
فـازْدَهـىٰ مـنْ نـورهـم كـلُّ مكـانٍ ... وتغنَّـى بـاسمِهـم كـلُّ زمـانِ
لـمْ تَـدُمْ عُـزَّىٰ[2] ولـم تَبْـقَ مناةٌ[3] ... هَـوَتِ الأصنـامُ تَحْـتَ الضَّـربـاتِ
حِيْـنَ نـادى المـؤمنـون (اللهُ أكبـر) ... زالَ كِسْـرى وانْطَـوَتْ أعـلامُ قَيْصَـر
أيُّ سيـلٍ هـادرٍ عـمَّ الصَّحـارىٰ ... أيُّ طـوفـانٍ جـرى يغـزو البحـارَ

---

(١) الثُّرَيَّا : مجموعة من النجوم .
(٢) عُزَّى : صنم كان لبني كنانة وقريش ، أو شجرة من السَّمُر كانت لغطفان بنوا عليها بيتاً وجعلوا يعبدونها ، فبعث إليها رسولُ الله ﷺ خالد بن الوليد فهدم البيتَ وأحرق السَّمُرةَ .
(٣) أحد أصنام العرب في الجاهلية .

هؤلاءِ العَرَبُ الصِّيدُ الأباه   وحَّدوا الخَلْقَ بتوحيدِ الإله

شعلةٌ مِنْ نورها الحقُّ أضاء   مَنْ تحدَّى نارَها أضحى هَبَاء

قد أبادوا كلَّ شيطانٍ مريد   وأزالوا كلَّ جبارٍ عنيد

وسَمَوْا فوقَ الدَّراري منزلا   كلُّ هذا كانَ مِنْ أنوارِ (لا)

بينما العالمُ كالعَظْمِ الرَّميم   في سهوبِ الأرضِ أو دَيْرٍ قَدِيم

أنشؤوا دنياه في خلقٍ جَدِيْدْ   وأقاموها على النَّهْجِ الرَّشيد

أيقظوا الدُّنيا بتكبيرِ الأذان   فجرى الحقُّ على كلِّ لِسان

كلُّ خيرٍ يُرتجى مِنْ غَرْسِهِم   كلُّ نورٍ يُجْتَلى مِنْ شَمْسِهِم

كلُّ روضٍ بالمعالي مُخْصِبُ   فهوَ مِنْ شاطىء نَهْرِ العَرَب

قد أزالَ العُرْبُ من لوحِ القُلوب   نَقْشَ غير (الله) ، علَّامِ الغُيوب

فأقاموا في شَمَالٍ وجنوب   ثورةَ الإيمانِ في كلِّ الشُّعوب

فترى في أُمم الغَرْب العبيد   حطَّموا القَيْدَ بعزمٍ مِنْ حَدِيْد

أعلنُوا الحربَ على ساداتهِمْ   واستردُّوا أمْنَ حرِّيَّاتِهِمْ

* * *

صارَ شعبُ الرُّوس ناراً ودما   باسم (لا) حتى أثارُوا الأمَما

فاستهانُوا بتقاليدِ الزَّمنْ   وأطاحُوا بمعاييرِ السُّنَنْ

وَقَفَ الرَّكْبُ بهم في بابِ (لا)   لم يروموا نَحْوَ (إلَّا) منزلا

ستراهُمْ كجيوشٍ زاحفه   بعد حينٍ يَقْهرُون العاصفه

وترى لِلْقَوْمِ أمراً عَجَبا   نحو (إلَّا) يَدْفَعُون المَوْكِبا

لا و(إلَّا) بهما العَدْلُ انتظمْ   كلُّ نفيٍ دُوْنَ إثباتٍ عَدَمْ

إنَّ لِلفِطْرَةِ في كلِّ ضَمِيْر   هاتفاً يَدْعُو لِتَوْحيدِ القَدِيْر

لم يبنْ في حرف (لا) صدقُ الخَليل   دونَ (إلَّا) فهيَ لِلصِّدق دَليل

يا مقيماً في زوايا الحُجُرات   يَحْشُدُ الألفاظَ حَشْدَ المَكْتَبات

إنْ تكنْ في مثل نيران الخليل   أسمِعِ النّمرُودَ تَوْحِيْدَ الجليل

والــذي تبصــرُه حــولَ الفَضــاء لا يســاوي قَــدْرُه وزنَ الهَبَــاء[1]

كـلُّ حرٍّ فـي يـديـه سيـفُ (لا) ثــمَّ لا يَقْبَــلُ عَنْــهُ حِــوَلا

فهـو للعليـاءِ دومـاً فـي صُعُـود أمـرُه النَّـافـذُ فـي كـلِّ الـوجـود

أيهــا الشــادي بقــرآنٍ كــريـم وهــو فــي عُــزْلتِــهِ نــاء مُقيـم

قــمْ وأسْمِعْــه لكــلِّ العــالميــن قُــمْ وأبْلِغْــه البَــرايــا أجمعيــن

***

فَقْر الصَّالِحِين

خصَّ إقبال موضوع فَقْر الصَّالحين بهذه الأبيات على أسلوبٍ خاص من التعبير تعريفاً بقيمة الفقر ومراميه ، يقول :

يــا عبيـدَ المـاءِ والطِّيـن اسْمَعُـوا مــا هــو الفَقْــرُ الغنــيُّ الأرْفَــعُ

هــو عِــرْفــانُ طــريــق العــارفيــن وارتــواءُ القَلْــبِ مــنْ عَيْــنِ اليَقيـن

ذلــكَ الفقــرُ عــزيــزٌ فــي غِنَــاه هــامــةُ الجَـوْزاء مِـنْ أدنـى خُطـاه

يُحْكِـمُ الإبـداعَ فـي صنـع الحيـاه ويــرى التَّــوحيــدَ نبــراسَ هُــداه

يَــرْعَــشُ الكــونُ إذا دوّى صَــدَاه لَيْــسَ غَيْــرَ اللهِ فــي الكَــوْنِ إلَــه

خَيْبــرُ حــرَّرهــا ذاك الفقيــر لـمْ يكـنْ ثـمَّ سِـوَى خُبْـزَ الشَّعيـر

خــاشــعٌ لله ذيَّــاكَ القــديــر وإليــهِ خــاشعــاً يَسْعَــى الأميــر

حــالُــه ذَوْقٌ وَشَــوْقٌ وَرِضَــا ثُــمَّ تسليــمٌ لمــا اللهُ قَضَــى

يــا لَــهُ كَنْــزاً بــه العَيْــشُ صفــا فهــو ميــراثُ النَّبــيِّ المصطفــى

ليلــه المُظْلِــم لِلْمَجْــدِ سِــرَاجْ يَصْنَـعُ الجَـوْهَـرَ مـن أدْنـى زُجـاج

يَقْهَــرُ المـؤمـنُ نـامـوسَ[2] الفَلَــكْ فهــو إنســانٌ وفــي النُّــور مَلَــكْ

---

(١) الهَبَاءُ : التُّرابُ الذي تُطيره الرِّيحُ ويلزق بالأشياء .

(٢) نَامُوس : القانون أو الشريعة .

فَلَقَدْ تَنقُلُ دُنْيَاكَ إلى … حالةٍ أسْمَى وشأنٍ أفْضَلا

في هُدى القرآن والذِّكر الحكيم … دائمَ الإسعادِ مَوْصُولَ النَّعيم

ذلكَ المِسكينُ في رُقْعَتِه … يَسَعُ العالَمَ في مُهْجَتِه[١]

صامتٌ ليس يُطيل الكَلِمَا … وهو بالصَّمْت يربِّي أُمَما

ولهُ منْ طاقةِ الرُّوح جِنَان … يَمْنَحُ الخَامِل ذَوْقَ الطَّيَران

حوَّل العصفورَ نَسْراً في الفضاء … فبدا للأرض تفسيرُ السَّماء

بنداءِ الحقِّ يُحيي مُدُنا … وَبِصِدْقِ العَزْمِ يَبْني وَطَنا

مسلمٌ دولتُه فوقَ الحَصِير … كانَ يخشى بأسَهُ ألفُ سَرير

ليس يَرْضى العَيْشَ إلّا في مَقَام … يستوي الشَّاهين فيه والحَمَام

لا يبالي منْ له هذا السُّلوك … أنْ يقولَ الحقَّ في وَجْه المُلوك

يتلاشى الجَمْرُ في نِيْرانه … ويخافُ البَحْرُ منْ طُوفانه

صوتُه في الشَّعْبِ يذكي لَهَبا … وتخافُ النَّارُ منه الحَطَبا

لا تَرى الأمَّةَ تَخْشَى منْ مُغِيْر … وَلَدَيْها مِثْلُ ذَيَّاك الفقير

نحنُ باستغنائه نلقى الغِنَىٰ … وعلى أشواقِه نَرْجُو المُنى

فامْتَحنْ وَجْهَكَ في مِرْآتِه … وانْشُدِ الحِكْمَةَ منْ آياته

تَكْتَسِبْ منه مَزايا الصَّادقين … وتَفُزْ منه بسلطانٍ مُبين

تَتجلَّى حكمةُ الدِّين جمالا … حين يُبْدي الفَقْرُ عِزّاً ودلالا

قوةُ الدِّين وتَشْيِيدُ عُلاه … في تسامي الفَقْرِ عن ذُلِّ الحياه

كُلُّ منْ آمنَ بالله الأحد … لا يُذِلُّ النَّفْس يوماً لأحد

إنْ يكن في صُورة النَّمل خَفَاء … ليسَ يَرْجو منْ سُليمانَ عَطاء

قال خَيْرُ الخلقِ تاجُ المُرْسلين … كلُّ أرضٍ مسجدٌ للمؤمنين

كيف يعلو منبراً لِلْمُسلمين … فَوْقَ أرضٍ في يد المُسْتَعمرين

يا لها كارثةٌ في العالَمِين … مسجدُ الهادي بأيدي الغاصبين

---

(١) المُهْجَةُ : الرُّوحُ .

حَـرِّرِ الأرضِ معـاً والمَسْجِـدا ... لا يكـنْ غَيْـرُكَ فيهـا سَيِّـدا

أيُّهـا النّـاصِـحُ ليـلاً ونهـارا ... داعيـاً أنْ نتـركَ الـدُّنيـا احتقـارا

إنَّ معنـى تَـرْكِهـا تسخيـرُهـا ... فـي سبيـل الخَيْـرِ لا تَـدْمِيـرُهـا

والـذي يَعْلُـو علـى صَهْـوَتِهـا ... يـأمَـنُ المِحْنـةَ مِـنْ عَثْـرَتِهـا

فـاتَّخِـذْهـا مِـنْ مطـايـا الآخِـرة ... تنـجُ مـنْ تِلـكَ العجوزِ السَّاحِـره

هـي صَيْـدُ المؤمـنِ الحرِّ الجَسُور ... قبـل أنْ يصطَـادَه فيهـا الغُـرور

كـلُّ زُهْـدٍ لـم يكـنْ مـنْ واجـدِ ... فهـوَ سَلـوىً لِعَـديـمٍ فـاقِـدِ

أنـا مـنْ مُشْكلتـي طـالَ اكتئـابـي ... حلُّهـا أعيـا علـى الجُهْـدِ صـوابـي

أيُّها الشَّـاهيـنُ[(١)] مـا هـذا الجُمود ... أيـنَ مِنْـكَ البـأسُ أوْ أيـنَ الصُّعـود

يائسٌ أمْ أنت مَقْصُوصُ الجَنَاح[(٢)] ... أمْ خَشِيتَ الوَثْبَ في هَوْجِ الرِّياح

مـا شكـا مِخلبـكَ النَّسْـرُ ولا ... فـرَّ مـنْ عَـزْمِـكَ طَيْـرٌ فـي الفلا

الجبـالُ الشُّـمُّ والآفـاقُ لَـكْ ... أيُّهـا الهـاربُ مـنْ أوجِ الفَلَـكْ

طِرْ إلى النَّجْمِ وَحَلِّقْ منْ جَدِيْـد ... فـي الفَضَـاء الـلازورديِّ البَعِيْـد

فقـرُنـا تُمْليـه آيـاتُ الكِتـاب ... لَيـسَ فـي رَقْـصٍ وسُكْـرٍ وَرَبَـابْ

فقـرُنـا معنـاهُ تَسْخيـرُ الجِهـات ... واحتسـابٌ لجميـعِ الكـائنـات،

يَـرْفَـعُ المـؤمـنَ فَـوْقَ الشُّبهـات ... مَظْهَـراً أعلـى لِقُـدسـيِّ الصِّفـات

فقـرُ أهـلِ الكُفْـرِ هَـدْمٌ لِلْفِطَـرْ ... ومجـافـاةٌ لِعُمْـران البَشَـرْ

عَيْشُـه بيـن المـرامـي والكُهـوف ... لا تـرى مَـوْضِعَـهُ بَيْـنَ الصُّفـوف

لـمْ يَكُـنْ فـي الـدَّهر منذُ المَوْلِـدِ ... غَيْـرَ صِفْـرٍ فـي يسـارِ العَـدَدِ

ليـس للمـؤمـن بـالفَقْـرِ اعتـزالْ ... هـو فـي البرِّ وفـي البحـر نِضـالْ

بينمـا الأول فـي صَمْـتِ الجُمـود ... سـارَ هـذا نحـو تعميـرِ الـوُجـود

ذاك يطـوي العُمْـرَ فـي تـركِ البَدَن ... طـالبـاً للـرُّشْـدِ أو تَـرْكِ الـوطـن

---

(١) الشَّاهِيْن : طائر منَ جوارح الطَّير وسباعها ، من جنس الصقر .

(٢) مقصوص الجناح : مقطوع الجناح .

وترى المُؤمنَ في أمّتِه … يَنْشُدُ الحقَّ بذاتِيَّتِه

نحو إدراك المعالي سَاعيا … وسراجاً في الليالي هَادِيا

فقرُنا الحرُّ إذا ناجى القَدَرْ … يُزهِبُ الشَّمْسَ ويَخْتَلُّ القَمَرْ

فقرُنا العاري تولاه الزَّوال … قد نأى المُسْلِمُ عن هذا الجَلال

إنَّه إيمانُ بدرٍ وَحُنَيْن … إنَّه زلزالُ تكبيرِ الحُسَيْن

أسفاً لمْ يَبْقَ عندي سَيْفُ (لا) … وأرى غِمْدَكَ منه قَدْ خَلا

أسَفاً ، إنّي أرى دُنيا الفِتَنْ … زَلْزَلَتْ إيمانَه فيها المِحَنْ

يا شبابَ الحقِّ ، يا ذُخْرَ الشُّعوب … حرِّروا مِمَّا سوى اللهِ القُلوبْ

إنَّ دنيا اليومِ أبلاها القِدَمْ … فاخْلُقوا دُنيا سِواها في الأمم

أينَ مِنْكُم يا ذوي المَاضي الكريم … غيرةُ الأحرارِ للدِّين القَويم

طالَ هذا النَّوْمُ عنْ صونِ حَمَاهْ … ما أرى المَوْتَ سوى هذي الحَيَاةْ

يدأبُ الحرُّ غُدُوّاً وعَشِيَّا … ثُمَّ يبني ذاتَه صَرْحاً عَلِيّا

وَجِهادُ المُصطفى برهانُه … وسجايا المُصطفى ميزانُه

يا لقومٍ ، أنجبوا كلَّ أمير … فمتى يُولَدُ في القومِ فقِير

لا تَسَلْ عنْ قصَّةِ القَوْمِ بيانا … أسكتَ الدَّمْعُ عن الوَصْفِ اللِّسانا

ألَمٌ أغمدَ في صَدْري سِهَامَه … هوَ في قلبي كأهوالِ القِيَامَه

هَوْلُ هذا الحَشْرِ أعيا الواصفينا … فليقدَم في الصَّدْرِ مَطْوِيّاً دَفينا

قوةُ الدِّين في النَّصر القَريبْ … فكأنَّ القَوْمَ في شكٍّ مُريب

أينَ مَسْعَاهُمْ وَهُمْ في العَاجلةْ … قَطَعُوا عَمْداً طريقَ القَافِلَةْ

ليس للشَّيطانِ فينا مأربُ … لا ولا لِلِّصِّ منَّا مَطْلَبُ

فتراثُ الدِّين قد طار شُعاعا … وتراثُ المَالِ قدْ ولَّى ضَيَاعَا

كمْ تغنَّى بمَزايا بايَزيد[1] … ذو رياءٍ هُوَ لِلْوِرْدِ مُرِيد

فيرى في دولةِ الأغيارِ رَحْمه … وكأنَّ الذُّلَّ في دُنياه نِعْمَة

---

(١) لا أدري مَن يريدُ الشاعرُ به .

ويُنـادي أنَّ حُكْـمَ الـدُّخـلاء فيـه للـدِّيـن ازدهـارٌ وازْتِقَـاء
أيُّهـا المحـرومُ مِـنْ وِجْـدانِـه وَمِـنَ الشَّـوْقِ وَمِـنْ أشْجَـانِـه
أوَ تَـدْري أنَّنـا مِـنْ عَصْـرِنـا غـربـاءُ فيـهِ عَـنْ أنفُسنـا
كـلُّ حـيٍّ معـرضٌ عـن ذاتـه فَقَـدَ الجَـوْهَـرَ مِـنْ مِـرآتِـه
عِـشْ ولـو يـومـاً عزيـزَ المَطْلَـبِ أجنبيـاً عـنْ طـريـقِ الأجْنَبِـي
مَنـزِلُ الشَّـاهيـنِ فـي أوجِ السَّحـاب مـا لَـهُ يَسْكُـنُ فـي وَكْـرِ الغُـرَاب
لـم يَـزَلْ فـي الـرَّوضِ ظـلٌّ وَثَمَـر فـالتَمِسْ عُشَّـك فـي أعلـى الشَّجَـر
كُـنْ كحدِّ السَّيفِ في صِدْقِ المَضاء واحْتَسِـبْ نَفْسَـكَ فـي كـفِّ القَضـاء
إنَّ فـي رُوحِـك سيـلاً كـالعُبـاب يَنْسِفُ الشُّمَّ ويهـوي بـالهِضـاب[1]
انـدفـاعُ السَّيْـل إثبـاتُ البَقَـاء وسكـونُ اللَّيْـلِ معنـاهُ الفَنَـاء
أنـا لـمْ أسلُـكْ إلـى الفِقْـهِ سبيـلا أتحـرَّى الحُكْـمَ فيـه والـدَّليـلا
لـم أكـنْ فـي الفَقْـرِ ذا فهـمٍ دَقِيـق فـي سلـوكٍ بيـن رُوَّادِ الطَّـريـق
فكـرةٌ جـاشَ بهـا القلـبُ اضْطـرابـا ثـمَّ لـمْ أمْلِـكْ عن القَـوْلِ احْتِجَـابـا
كُنْـتُ فـي الـدِّيـن حَـدِيْـدَ البَصَـرِ رَغْـمَ مـا بـي مِـنْ قصـورِ النَّظَـر
وانجلـت واحـدةٌ بَيْـنَ مئـات بَعْـدَ لأيٍ مـن ألـوفِ المُشْكِـلات
فـاغْتَنِـمْ مـنْ فـاقتـي حظّـاً يسيـرا فَعَسَـى ألا تـرى مِثْلـي فَقِيـرا
أيهـا الشَّـادي بقـرآنٍ كـريـم وهـو فـي ركـنٍ مـن البيـتِ مُقِيْـم
قُـمْ وأبْلِـغْ نـورَه للعـالميـن قُـمْ وأسمعـه البَـرايـا أجمعيـن
إنْ تَكُـنْ فـي مِثْـلِ نِيـرانِ الخَليـل أسْمَـعَ النَّمـرودَ تـوْحِيْـدَ الجَليـل
مـنْ لـهُ مـنْ ثـروة الهـادي نَصيـب فَهْوَ مـن جبريلَ في الدُّنيا قَريب
يـا غـريبـاً عَـنْ مقـامِ المُصْطفـى عُـدْ إلـى الحـقِّ تَجِـدْ نُـوْرَ الصَّفـا

***

---

(١) الهِضَابُ ، جمع هَضْبة : جبل منبسط ممتدٌّ على وجه الأرض .

الرجلُ الحرُّ

قدّم إقبالُ في أبياته السّابقة صفات الفقير المؤمن بالله ، إلّا أنّه شاء أن يخصّ المسلمَ الحرَّ بهذه الأبيات نظراً لما للحرية من مكانة ، وما للرَّجلِ الحرّ من مقام ، ولذا نجد إقبالاً يكرّر في هذه الأبيات بعضَ المعاني كصاحبِ رسالةٍ نظراً إلى ذلك الارتباط الوثيق بين حرّية الفقير وفقر المؤمن ، يقول :

فَوْقَ مسرى النَّجمِ للحرّ هَدَفْ ... وِرْدَهُ في كلّ حينٍ لا تَخَفْ

آمِنٌ في سِلْمِه في حَرْبِه ... رأسُه في الكفّ لا في جَيبِه

عَرَفَ اللهَ فلَمْ يَرْهَبْ سِواه ... كيفَ يخشى الخَلْقَ مَنْ خافَ الإلَه

لا يرى قطُّ مَعَ البُؤسِ المرير ... عَبْدَ سلطانٍ ولا ظِلَّ أمِيْر

جمَلٌ في البِيْدِ موصولَ الصِّيام ... يَحمِلُ الأثقالَ والشَّوْكَ طَعام

هُوَ نَبْضٌ في عُروقِ الأمَلِ ... وهو سَعْيٌ في طريقِ العَمَلِ

مَنْ علا تكبيرُه مِنْ غير تَاج ... يُلْزِمُ التيجان تقديمَ الخَراج

قَدْ ذَكَتْ نيرانُنا مِنْ جَمْرِهِ ... وَجَرَتْ أنهارُنا مِنْ خَمْرِهِ

جنّةُ الوَرْدِ شذاً مِنْ سِحْرِهِ ... شعلةُ المَجْدِ سناً مِنْ فكره

وترى في قصرِهِ ربَّ السَّرير ... راعشاً مِنْ سَهْمِ عُرْيانٍ فَقِيْر

شأنُنا في الدِّين لا يعدو الخَبَرْ ... وهو في الدِّين شُهودٌ ونَظَرْ

نَحْنَ عند الباب نستجدي الأماني ... وهو في الدَّار وفي طِيْبِ المَجَاني

أصْبَحَ الدَّيْرُ لدينا مَقْصدا ... نحنُ لِلْغَيْر نبيعُ المَسْجِدا

وهو يُسْقَى مِنْ يمينِ المُصْطفى ... كوثراً عَذْباً به الوردُ صَفا

في ضميرِ الحرّ تكبيرُ الإلَه ... في جبينِ الحرّ تقديرُ الأُمَم

نحنُ للإفرنج أسْلَمْنا القِيادا ... واتخذناهم لدى الجُلّى عَتَادا

وابتغينا عندهم عِزَّتنا ... وجعلنا وُدَّهم قِبْلتنا

وشعارُ الحرّ عزمٌ وإباء ... رزقُه مِنْ يدِ جبَّار السَّماء

فلغير الله ما مَدَّ اليمين ... لغير الله لم يَحْنِ الجَبين

متعةُ الدُّنيا لنا كلُّ المَرام ... ثمَّ يأسٌ ثُمَّ قَبْرٌ وظلام

هو في الحقِّ جهادٌ وثبات ... موتُه إحدى مقاماتِ الحَياة

إنَّنا نبني قصوراً في الخيال ... ونرى المُمْكنَ في حُكْمِ المُحال

وهو بالأعمال في كلِّ مجال ... لا يُضيعُ العمرَ في زَيْفِ الخَيال

لو رمى شُمَّ الجبالِ العاتيه ... حوَّل الصَّخْرَ بحاراً جاريه

اجتنبْ صُحْبَتَنا واسْعَدْ به ... إنْ تُرِدْ خيراً فكنْ من صَحْبِه

الزَمِ الحرَّ ودعْ أهلَ البَوَار(1) ... اهدمِ الدَّارَ وكنْ صاحبَ دار

صحبةُ الحرِّ إلى العلياء باب ... هي خيرٌ لكَ منْ ألفِ كِتَاب

صحبةُ الحرِّ تنيرُ العالم ... وَلَقَدْ تَخَلَّق مِنْهُ آدم

قُرْبُه للعزِّ أصفى مَنْهَلِ ... لكَ في البَحْر غنىً عنْ جَدْوَلِ

هُوَ يَوْمَ السِّلْم في أوطانه ... آيةُ التغييرِ في عُمْرَانه

بجديد الفِكْرِ يحيي عَصْرَهُ ... مِثْلَما يَنْشُر رَوْضٌ عِطْرَهُ

وَهْوَ يومَ الحَرْبِ في مَيْدانها ... ثورةُ البُركان في نِيرانها

سيفُه يحفِرُ فيها قَبْرَه ... أو يتمُّ اللهُ فيها نَصْرَهُ

ليسَ زَرْعُ القلبِ في ماء وطين ... هيناً إلَّا لأصحابِ اليقين

إنْ أردْتَ العَيْشَ حُرّاً صافيا ... فالتزمْ في الدَّهر حرّاً هاديا

* * *

رُباعيّات(2)

أقْبَلَ الحرُّ على يومِ الفِداء ... ومضى يرمي على النَّجمِ الهَدَف

وكأنَّ الوَحْيَ لَقَّاهُ النِّداء ... مِنْ سماءِ الله أقْدِمْ لا تَخَفْ

* * *

---

(1) أهل البَوَار : أهل جهنَّم .

(2) ولقد أعاد المترجم صياغة هذه المنظومة في رباعيات .

أشْـرَقَ الـتـوحيـدُ نـوراً فـي هـداه   وسرى التحريرُ مِنْه في الضَّمير
أتُـرى مـنْ لـم يَخَـفْ غيـرَ الإلَـه   يَـرْهَـبُ السُّلطان أو يَخشى الأمير

***

روحُـه تكشـفُ أسـرارَ الخُلـود   عن حياةٍ ما لها في الدَّهْرِ مَوْت
يـرسـلُ التكبيـرَ مِـنْ قلـبِ الـوُجـود   لغـةٌ تُغْنيـه عـن حَـرْفٍ وَصَـوْت

***

سلْ ملوكَ الأرضِ عن دُنيا الغُرور   في الملاهي خَلْفَ أستارِ الحرير
زَلْـزَلَتْهُـمْ بيـن أبـراجِ القُصـور   ضـربـةٌ مِـنْ سَهْـمِ عُـريـانٍ فقيـر

***

ضَـرَبَ البَحْـرَ كمـوسـى بعصـاه   ورمى الصَّخْرَ حُطاماً مِنْ زجاج
ذلـك الأوّابُ فـي ثـوبِ تقـاه   ألـزمَ التِّيجـان تقـديـمَ الخَـرَاج

***

قَـدْ جَـرَتْ أنهـارُنـا مِـنْ بَحْـرِهِ   وأضـاءتْ نـارُنـا مِـنْ خمـره
بسمـةُ الـوَرْدِ شـذا مِـنْ عِطْـرِهِ   شعلـةُ المَجْـدِ سنـا مِـنْ فِكْـرِهِ

***

شـأنُنـا فـي الـدِّيـن لا يعـدو الخَبَرْ   وهـو فـي الـدِّيـن شهـودٌ ونَظَـرْ
نحـنُ عنـد البـاب فـي ظـلِّ الشَّجَـرْ   وهـو فـي الـدَّار وفـي مَجْنَى الثَّمَرْ

***

لبنـي الإفـرنـج فـي الـدُّنيـا عَبِيْـد   فـي قيـودٍ مـن حـريـرٍ أو حَـدِيْـد
كـمْ تغنَّـى بمـزايـا بـايـزيـد   ذو ريـاء وهـو للـوردِ مُـرِيْـد

***

في حديثِ المُصْطفى شمسُ الهُدى   كـلُّ أرضٍ مَسْجِـدٌ للمـؤمنيـن

كيــفَ تبنــي فَــوْقَ أرضٍ مسجــدا إنْ تَــرَكْــتَ الأرضَ لِلْمُسْتَعمــريــن

* * *

ليــسَ حيّــاً مــنْ يُــرى مُسْتَعبَــدا لِســوىْ مــنْ فــي يــديــه رِزْقُــه
سَيّــد مَــنْ ليس يــرضــى سيِّــدا مــا خــلا ربِّــي فكــلٌّ عَبْــدُه

* * *

فــي ضَمِيــرِ الحــرِّ تكبيــر الإلّــه فــي جبيــن الحــرّ تقــديــرُ الأُمــم
مــوتُــه أعلــى مقــامــاتِ الحيــاه تَــرْفَــعُ الــدُّنيــا لِــذِكْــراه العَلَــم

* * *

هــو يــوم السِّلْــم فــي نَهضَتِــهِ بِيَــدِ الإصــلاح يَبْنــي عَصْــرَه
ويــذيــعُ الخَيْــرَ فــي أمّتِــه مِثْلَمَــا يَنْشُــرُ رَوْضٌ عِطْــرَه

* * *

وَهْــوَ يَــوْمَ الحَــرْبِ فــي سَــاحَتِــهِ سيفُــه يَحْفِــرُ فيهــا قَبْــرَه
يتحــدَّى المــوتَ فــي وَثْبَتِــه أو يُتــمُّ العَــزْمُ فيهــا نَصْــرَه

* * *

إنَّ غَــرْسَ الحــقِّ فــي نــورِ القُلــوب غَيْــرُ شــأنِ الــزَّرعِ فــي مــاء وَطِيــنْ
فــالتَمِــسْ لِلْمَجْــدِ أحــرارَ الشُّعــوب إنَّهــم فــي الــدَّهــر أعــلامُ اليَقِيــنْ

* * *

في أسرارِ الشَّريعة

لم يتحدَّث إقبال فقط عن أسرار العبادات وحكمة الدِّين فيها ، ولكنَّه من جهةٍ أخرى يحاول أن يكشف أسرار الحياة في المال ، وفي مجال التعامل به ، وما انتهجه المادِّيُّون من الأساليب في هذا السبيل ، فيقول للمؤمن : إنِّي وعيت

عن جلال الدِّين الرُّومي حكمة نبهني فيها إلى أمرٍ جَلَل ، ما كِدْتُ أتأمَّلُها حتى أصابني المقيمُ المقعدُ من التفكير ، فيقول :

حِكْمَةٌ قد وعيتها عن جلال الدِّينِ فيها أدركتُ معنى الجَلالِ
أنَّ حِفْظَ الأموالِ مِنْ أجْلِ حفظ الدِّين زادٌ وعدَّةٌ للنِّضال
قد أبانَ الرَّسُولُ أنَّ صلاحَ المالِ يزكو بهِ[1] صلاحُ الرِّجال
إنْ يَكُنْ همُّك الغِنَى لم تكنْ له عبداً بَلْ أنْتَ عبدُ المال

* * *

كمْ شَهِدنا الإصلاح من فارغي الأيدي وأهلِ الخَصاصة المُعْدَمين
كمْ وَجَدْنا الكسادَ منْ خازِن المالِ وأهْلِ الأهواء والمُتْرَفين
هُمْ يَضيقون بالعدالةِ في الأرضِ ليَقْضُوا حياتَهم ناعمين
لا يخافونَ في المَصير حساباً بلْ يخافُون غَضْبَةَ الثَّائرين

* * *

يأكلون التراثَ جَمْعاً وبُخْلا ثُمَّ هم يأكلونَ خُبْزَ الأجير
وتزيد المأساة رُغْباً وهولا عندما يَسْرِقُون حقَّ الفقير
يقفُ العاملُ المُسِنُّ[2] لديهم خاشعَ الطَّرف خافضَ التَّعبير
يصلُ الليل بالنَّهار أنيناً دُونَ جَدْوىً[3] في بؤسِ عيشٍ مرير

* * *

ليس في بيته الرغيفُ ولا يسْتُرُ مِنْ عُرْيِه سوى الأسمالِ[4]
يبتني القَصْرَ وهو يلتمِسُ الأكواخَ بين الرُّبوعِ والأطلالِ

---

(١) يَزْكُو به : يزيد به .
(٢) المُسِنُّ : كبير السِّن .
(٣) دُون جَدْوى : دونَ فائدة .
(٤) الأسمال : الأثواب الخَلِقَة البالية .

نـال ربـح الـدَّاريـن مـنْ جَعَـلَ المَـالَ سبيـلاً إلـى كـريـمِ الفِعـالِ
هـم حيـارى لا يَنْظـرون بنـورِ الله بـلْ يَنْظُـرون رأسَ المـالِ

* * *

يستـوي الحـلُّ والحـرامُ لـدى القَـوْم وأيـن الـدُّجى مِنَ الأنْـوَارِ
فـأسـاليبُهـم مخـادَعـة الخلـق وتعميـرهـم خـرابُ الـدِّيـارِ
دولـةٌ تعتـدي علـى دولـةٍ ظلمـاً وقطـر يبغـي علـى أقطـارِ
كـادحٌ يـزرعُ الحقـولَ فيـأتـي غيـرُه عـاجـلاً لجَنْـي الثمـارِ

* * *

مِنْ صميم الحيـاة . مـنْ فطـرةِ الله ، مـنْ القَلْـبِ ، مـنْ لقـاء الضَّميـرِ
يشـرقُ الـدِّيـنُ بـالهـدايـة والـرُّشـد كمـا يشـرقُ الضُّحـى بـالنُّـورِ
فلـو أنَّ الحـرام يبـدو حـرمـاً يَحْجُـزُ النَّـاسَ عنـه وعـيُ الضَّميـرِ
يصبـح العـدلُ شـامـلاً كـلَّ أرضٍ فـي الحيـاة الـدُّنيـا ليـوم النُّشـورِ

* * *

حكمـةُ الـدِّيـن أن تُسَلِّـم للشَّـرْعِ وتـرضـى بكـلِّ حكـمٍ قَضَـاهُ
مِـنْ ضميـر الـرَّسـولِ أينـع هـذا الـدِّيـن فـي غَـرْسِـه وطـابَ جَنـاهُ
إنَّ هجـر الحبيـب يستلـبُ اللـبَّ ويُـذكـي فـي القلـب نـارَ جَـواهُ
لـو أزيـل الحِجَـاب لـم تبـقَ حيـاً خـلِّ أمـر الـوصـال واطلـب رِضـاهُ

* * *

عِشْ بـأحكـامـه تَـرَ العَيْـشَ صفـواً ورخـاءً أو نضـرةً ونعيمـا
وأطـع أمْـرهُ تُطِعْـك البـرايـا وتـرى الأمـنَ حيث كُنْـتَ مُقيمـا
قـد حبـاك الإلـه أحسـنَ تقـويـم لتحيـا خَلْقَـاً سـويـاً كـريمـا
إنَّ إرْثَ[1] الخليـل إيمـانُـه الصَّـادقُ فـاحفـظ ميـراثَ إبـراهيمـا

---

(1) إرْث : الميراث أو الأمر القديم توارثه الآخِرُ عن الأول ، كما جاء في الحديث : =

كـلُّ قَلْـبٍ لـه مـن الحـقِّ نـورٌ ولـه مـن هـدي النَّبـيِّ نصيبُ
لا يُشـابُ اليقيـنُ[1] منـه بـريـبٍ وهـو مـنْ جبريـلَ الأميـنِ قـريـبُ
يـا مقيمـاً فـي حُجْـرةِ الـدَّا ر يتلـو وهـو عمَّـا يتلـوه نـاء
قُـمْ وأنـذر بـه الخـلائـقَ طـرّاً تَجِـدِ الكـونَ كلَّـه يَسْتجيـبُ

***

وتقبَّـل أوامـرَ الـدِّيـن بـالـرَّغبـة والشَّـوق والـرِّضـا كـلَّ وقـتٍ وآنِ
كـلُّ فـرضٍ تقضيـه جبـراً وقهـراً لا تـرى فيـه نَشْـوةَ الإيمـانِ
حكمـةُ الـدِّيـن فـي العـدالـة والحـبُّ ليسـت فـي البُغْـضِ والطُّغيـانِ
وبـأنْ لا يحتـاجَ فـي الأرض إنسـانٌ ليحظـى بـالـرِّزْقِ مِـنْ إنسـانِ

***

قَـدْ خَبَـرْتُ الـدُّعـاة فـي هـذه الأيـامِ والمُـدَّعيـن لـلإلهـامِ
أطفـؤوا جـذوةَ الإرادةِ فـي الشَّعْـبِ وزادوه حَيْـرَةً فـي الظَّـلامِ
وأصـاغـوا التـأويـل فـي كـلِّ نـصٍّ حيلـةً للغِنـى وجَمْـعِ الحُطـام
لا أرى فـي منـابـر القـوم إلا سلَّـة الكعـك أو خـوان الطَّعـام

***

كـم أطـالـوا الجـدالَ فـي العقـل والنقـل وأفنـوا أعمـارهـم فـي المِـراءِ
أيُّ بـابٍ مـن الهـدايـة يُـرْجـى مـنْ كليـمٍ[2] بـلا يـدٍ بيضـاء
أيُّ أمـرٍ يفيـده مـنْ كـلامٍ فـي صبـاحٍ مـرددٌ ومسـاءِ
صـاحـب الحـق أنـت فـاطلبـه بـالسَّعْـيِ ولا تنتظـره بـالإعطـاءِ

***

= « إنكم على إرثٍ من إرث أبيكم إبراهيم » .

(١) لا يُشاب : لا يختلَط .

(٢) كليم : يريد به الشاعر سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام .

دمعة على افتراق

الشعب في شبه القارة

نظم إقبال هذا المثنوي في العهد الأخير من حياته سنة ١٩٣٦ ميلادية ، وكانت عوامل الفرقة قد بلغت حدَّتها ، وضعف الأمل في جمع الصفوف بعد أن قامت وَحْدةٌ وقتية بين الهنادك والمسلمين تعمل على إبعاد المستعمر البريطاني الذي حلَّ منذ سنين طويلة في شبه القارة ، وإجلائه عن البلاد ، إلَّا أنَّ المستعمر لم يفقد أمله الدائب في بث عوامل الفرقة بينهم ، كما حدث منه أدوار متعددة من تاريخ كفاح البلاد من أجل الحرية .

كان المستعمرون الإنجليز يثيرون حرباً ضروساً بين طوائف الشعب باسم الدِّين تارةً وباسم اللغة تارةً أخرى ، يحرِّضون فرقة مسلمة على أخرى ، وجماعة السيخ على جماعة المسلمين ، ويطلقون في حربهم أيدي السَّفاكين على الأبرياء الآمنين ، ويزجون بالمجاهدين في أعماق السجون والمعتقلات ، جرياً على معهود سياستهم (فرق تسد) .

وقد نظم إقبال هذه القصيدة من كتابه (والآن ماذا نصنع يا أمم الشرق) في ظروف ما قبل التقسيم . ولكنَّ المسلمين فيما بعد كانوا قد وصلوا إلى حالة وجدوا فيها أنفسهم مضطرين إلى توحيد جبهتهم للمطالبة بالتقسيم الذي انتهى إلى قيام باكستان دولة مستقلة على مسرح التاريخ حفاظاً على كيان المسلمين وحقوقهم المشروعة .

وتعد هذه القصيدة من أجمل القصائد في مثنوي إقبال ، رغم ما حوته من بعض المبالغات ، وفيها يحضُّ المسلمين على ثورةٍ عارمةٍ بأسلوبٍ دينيٍّ مثير ، وأن تكون لهم القلوب الواعية ، والآمال النابضة بمعاني الحرية والانطلاق .

يوجه إقبال خطابه إلى جميع سكان شبه القارة الهندية قائلاً :

همـــالايـــا ونهـــرَ الكنـــج إنّـــي ... أرى صُـــوَرَ الحيـــاةِ بِغَيْـــرِ معنـــى
فلـــم أدركْ لهـــا فـــي الـــذوق رأيـــاً ... ولـــم أعـــرفْ لهـــا فـــي الحسِّ لـــونا

* * *

شعـــوبُ الشَّـــرق والغـــرب استقلَّـــت ... وضـــاقَ بنـــا علـــى الأرضِ الفضـــاءُ
فلـــلأغيـــار ثـــروتُنـــا متـــاعٌ ... وَمِـــن لبنـــاتنـــا لهـــم البِنـــاءُ

* * *

وأيـــن حيـــاتُنـــا والغَيْـــرُ فيهـــا ... يَصُـــوْلُ كمـــا يشـــاءُ ويستطيـــلُ
وليـــس النَّـــوْمُ مـــا صِـــرْنـــا إليـــه ... فـــذاكَ المـــوتُ لا النَّـــومُ الثَّقيـــلُ

* * *

وإنَّ بـــذورَ هـــذا المـــوت جـــاءت ... مـــن الأعمـــاقِ مُنْـــذُ الابتـــداءِ
ومُنْذُ المهـــدِ كـــان القـــومُ صَرْعَـــى[1] ... وهـــذا المـــوتُ ليـــس مـــن السَّمـــاءِ

* * *

وليـــس فقيـــدُ هـــذا المـــوتِ أهـــلاً ... لغُسْـــلٍ أو لقَبْـــرٍ أو بُكـــاءِ
ولا شـــقُّ الثِّيـــابِ عليـــه حـــزنـــاً ... ولا سعـــيِ الـــوفـــودِ إلـــى عَـــزَاءِ

* * *

جهنمُـــه ســـوى مـــا قـــد عـــرفنـــا ... فليـــسَ لهـــا إلـــى الفَلَـــكِ انتســـابُ
ويـــومُ حســـابِ كـــلِّ الخلـــقِ يـــأتـــي ... بـــلا عمـــلٍ فليـــس لـــه حِسَـــابُ

* * *

حصـــادُ الـــزَّارعيـــن غـــداً وهـــذا ... بـــلا زرعٍ فمـــن أيـــن الحَصَـــادُ
ومـــدَّة عمـــرِه فـــي الـــدَّهـــر يـــومٌ ... وكـــلُّ حيـــاتِـــه يـــومٌ مُعـــادُ

* * *

---

(١) صَرْعَى ، جمع الصَّريع : وهو المصروع . يقال : بات صريع الكأس ـ والمجون .

وأيَّــةُ أمَّــةٍ تــرجـو الأمــانــي ... بــلا جَهْـدٍ وتمضـي فـي رُكـودِ[1]
يكـونُ مصيـرُها عـدمـاً ومحـواً ... وينســىٰ نَقْشَها سِفْـرُ الـوُجـود

* * *

وكَـمْ فِتَـنٍ تمـادى[2] الغـربُ فيهـا ... وأحْكَـمَ حـولَهـا السِّحْـرَ المبينـا
فمـا أبقـى علـى الكفـارِ كفـراً ... ولا أبقـى لأهـلِ الـدِّيـن دينـا

* * *

وأغْطَشَ ليلها الـدَّاجي[3] ظـلامـاً ... فمـا تـدري الشَّرابَ مـن السَّرابِ
هـي الغَمَـرات مـا منهـا نجـاةٌ ... ولا حَـلٌّ بِغَيْـرِ الانقـلابِ

* * *

فيـا مَـنْ هـامَ بـالـدُّنيا متـاعـاً ... وأصبـحَ همُّـه شبعـاً ورِيَّـا[4]
تَطَلُّـبْ فـي حُضُـورِ الحـقِّ قلبـاً ... وفيّـاً صـادقَ الإيمـانِ حيَّـا

* * *

فهـذا القلـبُ للـدُّنيـا سـراجٌ ... لـه أمـمُ الخليقـةِ فـي انتظـار
وهـذا القلـبُ مَعْـدِنُـه تـرابٌ ... وَجَـوْهَـرُه فـريـدٌ فـي الـدَّراري[5]

* * *

يفـوقُ السَّبْعَـةَ الأفـلاك قَـدْراً ... بِهِمَّتِـه ولا يـألـو رُقِيَّـا

---

(١) الرُّكود : الهدوء ، والسُّكون .
(٢) تَمَادى : لَجَّ ودام عليه .
(٣) ليلها الدَّاجي ، أي : حالك .
(٤) رِيّاً : مصدر رَوِيَ ؛ أي : شَرِبَ .
(٥) الدَّراريّ ، جمع الدُّرِيّ : نسبة إلى الدُّر في حسنه وبهائه .

يقيـــمُ علـــى الثَّـــرى ولـــه أمـــانٌ إلـــى العليـــاء أدنـــاها الثُّـــرَيَّـــا[1]

* * *

وفي حـربٍ ضـروسٍ[2] كـلَّ حيـنٍ مـع التَّـاريـخ مُتَّصـل النِّضـالِ
بِضَــزبَتِــهِ الجبــالُ تصيــرُ عِهْنــاً وَتُــرْهِبُــه الضــراغِـمُ فــي الجِبَـالِ

* * *

تــرى لِشعــورِه المشبــوبِ نــاراً تُــوْقَــدُ مِــنْ حــرارَتِهــا ذُكــاءُ
لــه ممَّــا ســوى التنــورِ خبــزٌ ومِــنْ غَيْــرِ الطَّعــامِ لــه غِــذَاءُ

* * *

حضــورُ الحــقِّ يملــؤه يقينــاً فمنـه الخـوفُ مَحْضـاً والـرَّجـاء
شهــودُ الحــقِّ إنْ هُــوَ غــابَ عنــه فليـسَ لـه علـى الـدُّنيـا بَقَـاءُ

* * *

طيــف الجلــواتِ والخلــوات طُــرّاً يضــيء الكــونَ بــالــرأي المُنيــرِ
ومــاللعِشْــق فــي سُكْــرٍ وَصَحْــوٍ دليـــلٌ غَيْـــرَ أوابٍ فَقِيْـــرِ

* * *

فصــاحــبْ مــنْ لــه قلــبٌ عظيــمٌ لعلَّــك تــدركُ الأمــرَ العظيمــا
وُلِــدْتَ علــى مهــاد الــذُّلِّ عبــداً فجـاهـدْ ثـمَّ مُـتْ حُـراً كـريمـا

* * *

---

(١) الثُّرَيَّا : مجموعة منَ النجوم .
(٢) حَرْب ضَروس ، أي : شديدة مُهلكة .

السِّياسَةُ الحاضِرة

إنَّ إقبالًا كشف الأقنعة المزيَّفة عن وَجْه السِّياسة الغربية ، ووجَّه أمم الشَّرق إلى تجنُّب أخطارِ دُوَلِ الغَرب وسياستها ، وقدَّم حقائقَ وصوراً عن التَّدهورِ الخُلقي في قادة المسلمين والموجهين لشعوبهم لاسيَّما في شبه القارة الهندية الَّتي كتب على أرضها هذه المنظومة الكبرى قبل الاستقلال . ومن أروع ما نشهده من روائع هذه المنظومة ذلكَ الاستدراكُ العجيب الذي صرَّح فيه إقبالُ بأنَّ الإنسانَ المستعبدَ الذَّليل يكاد يفقد حقَّه في أن يذكر اسم النَّبيِّ ﷺ على لسانه بالصَّلاة والتسليم ، وألمح إلى الحالة المؤسفة التي شهدها في المجتمع ، ولاسيما في شبه القارَّة ، وبيَّن بجلاء أنَّ العبوديَّة والذِّلَّة لا تلتقيان مع الإيمان بالله في قلبِ إنسان ، ومنْ ثمَّ يقول إقبال :

صَوَّرَ الغاصبُ عَدْلًا ظُلْمَهُ ... ما هو التَّفسير للعَدْلِ الجَديد

زادَ في التَّحرير معنىً أنَّه ... يُحْكِمُ القَيْدَ لتحريرِ العَبِيْد

* * *

قال للطَّيْرِ إذا رُمْتَ الأمان ... فاتَّخِذ في منزلِ الصَّيادِ وَكْرا

ليس في الأجواء للطَّير مكان ... لا ولا تأمنُ في الصَّحراء نَسْرا

* * *

حِيْنَ يلقي الحَبَّ في أشراكِه ... يَسْقُطُ الطَّيْرُ ويهوي ثَمِلا[1]

ويَغيبُ الرُّشْدُ عن إدراكِه ... سَاعَةً يَفْقِدُ فيها الأملا

* * *

سَدِّدِ الرأيَ وحاذرْ كَيْدَهُ ... كلُّ ما يأتي به زُوْرٌ ومَيْن[2]

---

(١) الثمل : النشوان من السكر .

(٢) المَيْن : الكذِبُ .

إنْ سقَاكَ المـاءَ فـاتْـرُكْ وِرْدَهُ   وَلْتَمُـتْ ظمـآنَ حُـرّاً كـالحُسين

* * *

لا تُصَـدِّقْ مِنْـهُ مـا تَسْمَعُـهُ   فَهُـوَ تَخْـديـرٌ مبيـدٌ للبَشَـرْ
واحـذَرِ الكُحْـلَ الـذي يَصْنَعُـه   إنَّـه الكُحْـلُ الـذي يُعمـي البَصَـرْ

* * *

ضـاقَ صـدري بـأميـرِ القَـافلـة   لَيْـسَ فيـه وَمْضـةٌ[1] مِـنْ لا إلَـه
عـابـدُ المـالِ يحـبُّ العـاجلـة   عَبْـدُ جسـمٍ عَبْـدُ نفـسٍ عَبْـدُ جاه

* * *

كـان بـالتَّـوحيـد مـرفـوعَ العلم   يَنْشُـدُ المَجْـدَ طـريفـاً وَتَلِيـدا
ذلـكَ المـولـودُ فـي ظـلِّ الحـرم   مـا لـه أصْبَـحَ لِلْغَيْـرِ مُـريـدا

* * *

أيْـنَ مَـنْ كـانَ بهـمْ يستـرشـد   كُـلُّ مـرتـابٍ فيحظـى بـاليَقيـن
وتـرى الأرضَ إذا مـا سَجَـدُوا   زُلْـزِلَـتْ مـنْ جَبَهـاتِ السَّاجـديـن

* * *

فـي دويِّ الهَـوْلِ كـانـوا يُعْلِنـون   تَحْـتَ ظـلِّ السَّيْـفِ تَـوْحِيـدُ الإلَـه
بِمِـدَادٍ مِـنْ دمـاء يَكتبـون   ربُّنـا اللهُ ولا نخشـى سِـوَاه

* * *

أيـنَ ذاكَ الشَّـوْقُ والقَلْـبُ الصَّبُـور   ومـرايـا البَـاقيـاتِ الصَّـالِحَـات
قـد طَـوَتْهـا فـي تـواليهـا العُصـور   وتـوارتْ فـي الليـالـي الخَـاليـات

* * *

---

(١) وَمْضَة : لمعة خفيفة .

قَـدْ بَلَـوْتُ الـرِّقَّ[1] مُنْـذُ الابتـداء   لَـمْ يكـنْ مهـدي فـي أرضِ الحَـرَمِ
مِـنْ رسـولِ الله يَغْـرونـي الحَيَـاء[2]   حِيْـنَ يَـدْعُـو باسمِـه الغـالـي فَمِـي

* * *

لـكَ قلـبٌ ومـع القَلْـبِ ضميـر   أمْ غـدا صـدرُك لـلأصنـام دَيْـرا[3]
أنْـتَ للغَـاصـبِ محكـومٌ أسيـر   تَحْتَ حُكْمِ الغَيْرِ لن تَصْنَعَ خَيْرا

* * *

تـدَّعـي الحُـبَّ لخيـر الأنبيـاء   أكْـذَبُ الأقـوالِ مـا لَـمْ يَبْـدُ فِعْـلا
وإذ لَـمْ يَتبَـعِ القَـولَ اقتـداء   لَـمْ يكـن لِلْحُـبِّ أوْ لِلْقُـرْبِ أهـلا

* * *

لَـذَّة الإيمـانِ عنـد المـؤمنيـن   قَـلَّ أنْ يُـدْرِكَهـا عبـدٌ ذَليـل
مسلـمٌ مُسْتَسْلِـمٌ للطَّـامعيـن   آزريٌّ[4] حـادَ عـن ديـن الخَليـل

* * *

صلـواتُ الحـرِّ بعـثٌ للشُّعـور   فهـي مِعْـراجٌ إلـى العَيْـشِ الكَـريـم
وصـلاةُ المَـرْءِ فـي غيـر حُضُـور   عـادةٌ جـوفـاءُ فـي رسـمٍ قَـدِيـم

* * *

إنَّ لـلأحـرار فـي العِيْـدِ السَّعيـد   مَظْهَـرُ العِـزَّةِ فـي دُنيـا وَدِيـن
ولـدى الأسرىٰ وفـي عيشِ العَبِيْـد   يُصْبـحُ العِيْـدُ هَجْـوَ المُـؤمنيـن

* * *

---

(١) الرِّق : العُبوديَّة .
(٢) يعروني الحياءُ : يُصيبني الحياءُ .
(٣) دَيْراً ، مصدر من دَارَ يدورُ ، أي : طَافَ حولَه .
(٤) آزريٌّ : نسبة إلى آزر والد سيِّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

إلى الأمة العربية

خصّص محمد إقبال قصيدةً من أبدع قصائده للحديث مع الأمّة العربية ، ليسجل فيها فضلَها وسَبْقها في حمل الرسالة الإسلاميَّة ، والأخذ بيد الإنسانيَّة ، وافتتاحها لتاريخٍ جديدٍ وفجرٍ سعيد ، وسرعان ما ينتقل إلى موضعه الحبيب الأثير ، فيذكر الشخصية الحبيبة التي كانت على يدها نهضة هذه الأمّة وسعادتها ، بل نهضة الإنسانية وسعادتها ، فيرسلُ على عادته النفسَ على سجيتها ، ويعطي القلب والعاطفة زمامَه ، ويسترسلُ في الحديث ، فيقول :

« أيتها الأمة العربية ! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود ، مَنِ الذي سَمِعَ العالم منه نداء « لا قيصر ولا كسرى » لأول مرة في التاريخ[1] ، ومنِ الذي أكرمه الله بالسَّبْقِ إلى قراءة القرآن ؟ مَنِ الذي أطلعه على سرِّ التوحيد ، فنادى بأعلى صوته : « لا إله إلا الله » ، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم ؟ هل العلم والحكمة إلا فتاتُ مائدتكم ، وهل قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] إلا وصف حالكم ، إنَّ نَفَسَ ذلك الأمي أعاد على هذه الصحراء الخِصْبَ والنمو ، فأنبتت الأزهار والرياحين ، إنَّ الحرية نشأت في أحضانه ، وإنَّ حاضرَ الشعوب ليس إلا وليد أمسِه ، إنَّ الجسد البشري كان بلا قلبٍ وروح ، فأعطاه القلب والرُّوح ، وكشف اللثام عن جمال وجهه ، إنَّه حطَّم كلَّ صنمٍ قديم ، وأفاض الحياة على غصنٍ ذاوٍ من أغصان

---

(١) يشير إلى الحديثً المشهور : « إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده » .

العلوم والمدنية ، وأنجب أبطالاً وقادةً مؤمنين ، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل ، فتارةً يدوِّي الأذان في ساحة الحرب ، وتارةً يتجلَّى الأذان بقراءة « الصافات »[1] بين صليل السيوفِ وصهيلِ الخيول ، إنَّ سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي ، ونظرة الزاهد الأواب كأبي يزيد البسطامي مفتاحان لكنوز الدُّنيا والآخرة .

إنَّ العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه ، وإنَّ ذكرَ جلال الدين الرومي ، وفكرَ فخر الدين الرازي يلتجئان تحت ردائه ، إنَّ العلم ، والحكمة ، والشرع ، والدين ، والملك والإدارة ، ولوعة القلوب مقتبسةٌ من نوره ، وليست « الحمراء » في غرناطة ، وقصر « التاج » في آكره[2] ، اللذان خضع لجمالهما وجلالهما كبار الفنانين الناقدين ، وعظماء العباد الزَّاهدين ، ليس إلا صدقةً من صدقات بعثته ، ومظهراً من مظاهر عبقرية أمته ، إنَّ بعض مظاهره تجلَّى في سموِّ ذوق أمته ، وسلامة تفكيرها ، وجمال فنها ، أما باطنه فقد تقاصر عن إدراكه كبارُ العارفين .

لقد كان الإنسان حفنةً من تراب ، وقبضةً من أشلاءٍ وعظام ، لا يدري ما الكتاب ، ولا الإيمان ، فعرَّفه بالعلم والإيمان ، وأذاقه لذة العبادة والإحسان ، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء » .

يذكُر إقبال الأمة العربية عهدها القديم قبل البعثة حين كان نظام العرب فوضى ، يعيشون كالبهائم التي لا همَّ لها في الحياة إلا الأكل والشرب ، وكان مَثَلُهم كمَثَل السيف المفلول يتراءى للناظر لامعاً قاطعاً ، ولكن ليست له ظُبَّة فهو لا يُنتفعُ به ، فيقول الشاعر :

---

(١) يشير إلى سورة الصافات .

(٢) يعني « التاج محل » الذي بناه الإمبراطور المغولي « شاه جهان » ، ويعتبر آية في الفن المعماري ، ويأتي إليه الجوالون والزائرون من أقاصي البلاد .

« أيها العرب قد منَّ الله عليكم ؛ إذْ جعلكم مثل السيف البتار أو أحَدَّ منه ، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصَّحراء ، تركبون عليها ، وتظعنون بها ، ثم انعكست الآية ، فسخر الله لكم المقادير ، فضلاً عن الإبل ، فأصبحتم من مالكي أعنَّتها ، فلو أقسمتم على الله لأبرَّكم ، وهنالك دوت تكبيراتُكم وصلواتُكم ، وزمزمت جلبة حروبكم ومغازيكم بين الخافِقَيْن ، فارتجَّ بها ما بين الشرق والغرب ، فما أحسن تلكَ المُغامرات ، وما أجملَ تلك الغزوات » .

وبعدما يمدحُهم الشَّاعر ، ويذكرُ حماسَتهم الإسلامية ، وغضبتهم المضرية في الله ورسوله ، ويبدي فرحَه وسروره ، يقف برهة ، ويملكه الحزن والتألم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط ، والإحجام بعد الإقدام ، والفُرْقة بعد الوَحْدَة ، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع بعد القيادة ، ويقبل إليهم مخاطباً معاتباً ، ويقول :

« أسفاً على هذا الخمود والجمود ، أيها العرب ! ألا ترون إلى الأمم الأخرى ، كيف تقدَّمت وسبقت! أما أنتم فما قَدَّرْتُم قَدْرَ هذه الصحراء التي نشأتم فيها ، وهذه الحرية التي ورثتموها ، كنتم أمَّةً واحدةً ، أمَّةَ الإسلام ، فصرتم اليوم أمماً ، وكنتم حزباً واحداً ، حزب الله ، فأصبحتم أحزاباً ، لقد فرقتم جمعَكم ، ومزَّقتم شملكم ، وانقسمتم على أنفسِكم .

اعلموا أيها السادة ! أنَّ منْ ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد الثقة بنفسه مات ، ومُحي من الوجود ، ومن فرَّ من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء ، وتطفَّل على مائدتهم ، عوقب بالهوان والشَّقاء ، والطَّرْد والجلاء ، ألا إنه لم يجنِ عدوٌّ على عدوٍّ مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ، ولم يُسيء أحدٌ إلى أحدٍ إساءتكم إلى أمَّتكم ، إنكم آذيتم روحَ رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فهي متألمةٌ متوجِّعةٌ شاكيةٌ مستغيثة » .

الشاعر عارف بمكائد الإفرنج ، وما لديهم من سهامٍ مسمومة ، وحبائلَ

منصوبة ، وهو شديدُ المعرفة بهم ، وقد عاش فيهم ، ودرَسهم وَخَبرهُم ، فهو يتألَّم إذ يرى في الأمة العربية من يُحْسنُ الظنَّ بهم ، ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة ، وفضِّ المشكلات ، فيرسل صيحته ، وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

« مهلاً أيها الغافلون ! إيَّاكم والركونَ إلى الإفرنج ، والاعتمادَ عليهم ، ارفعوا رؤوسكم ، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم ، ألا إنه لا حيلةَ لكم ولا وزر إلا أن تطردوهم عن منهلكم ، وتذودوهم عن حوضكم ، إنَّ حكمة الغرب قد أسرت الأمم ، وتركتها سليبة حزينةً لا تملك شيئاً ، إنَّها مزقت وَحْدَةَ العرب ، واقتسمت تراثهم ، إنَّ العرب لما وقعوا في حبالهم تنكَّر لهم كلُّ شيء ، وقسا عليهم هذا الكون ، ولم يَجِدوا من يرثي لهم ، ويرفُق بهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسهم » .

وبعدما يفيض الشاعر في بيان شرور الإفرنج ومكائدهم ، ويحذِّر العرب من الانسياق إليهم والوقوع في شركهم يُقْبل إلى تشجيع العرب والترفيه عنهم ، ويقول :

« إنَّ الله قد رزقكم البصيرة النافذة ، ولا تزالُ فيكم الشرارةُ كامنةً ، فقوموا أيها العرب! وردُّوا فيكم روحَ عمرَ بنِ الخطاب مرَّةً أخرى ، إنَّ منبع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم واليقين ، وما دامت ضمائركم أمينةً للسرِّ الإلهي ، فيا عمارَ البادية ! أنتم الحراسُ للدِّين ، وأمناءُ الله في العالمين .

إنَّ غريزتكم العربية الإسلامية ميزانٌ للخيرِ والشرِّ ، وأنتم ورثةُ الأرض ، إذا تألَّق نجمكم في آفاق السماء أفَلتْ نجومُ الآخرين ، وَطُوِيَ بساطُهم ، لن تسعهم الصحراء والفيافي ، فاضربوا خيمتكم في وجودكم ، الذي يسع الآفاق ، كونوا أسرع من العاصفة ، وأقوى من السَّيل ، حتى تُسْرِعَ ركائبكم في مضمار الحياة ، وتَسْبقَ الريح .

ليت شعري ! مَنْ خلّفكم في الحياة ؟ إنَّ العصر الحاضر وليدُ نشاطكم ، وكفاحكم ، وصنيعُ جهادِكم ودعوتِكم ، وما زلتم سادته ، وولاته حتى أفلَتَ زمامه منكم ، فتبناه الغربُ وامتلكه ، ومن ذلك اليوم فَقَدَ هذا العصر وهذا المجتمعُ الإنسانيُّ شرفه وكرامته ، وأصبح تحت ولايته منافقاً خليعاً ، ثائراً على الدِّين .

فيا رجلَ البادية ! ويا سيِّدَ الصَّحراء ! عُدْ إلى قوَّتِك وعزَّتك ، وامتلك ناصية الأيام ، وخذ عِنان التاريخ ، وخذ قافلةَ البشرية إلى الغاية المثلى » .

وهنا نبذةٌ أخرى من أبياته يشكو فيها إلى روح رسول الله ﷺ ضَياعَ الأمة الإسلامية ، وانطفاءَ شعلةِ الحياةِ والإيمانِ في نفوس العرب ، ويشكو وَحْدَتَهُ وغربتَه في هذا المجتمع الإسلامي البارد الجامد ، ويناجيه مناجاةَ منْ قام بين يديه ، وأذِنَ له في الكلام ، ويقول :

« لقد تَشَتَّتَ شَمْلُ أمّتك يا محمد ! يا رسولَ الله ، فإلى أين يلجأ المسلم الحزين ، وإلى من يأوي ؟ لقد سكن بحر العرب المضطرب المائج ، وفقدت الأمة العربية ذلك اللوع ، وذلك القلق ، الذي عُرفت به ، فإلى من أشكو ألمي ، وأينَ أجدُ من يساعدني على آلامي وأحزاني ؟ وماذا يفعل حاديِ أمتك ، وكيف يقطع الطريق الشاسع ، ويطوي السَّفر البعيد في هذه الجبال والمَهامِه ، وقد ضلَّ سبيله ، وفقد زاده ، وانقطع عن الركب ، بالله ! قل لي ماذا يصنع حاملُ دعوتك ، المؤمنُ برسالتك ، وأين يجدُ زملاءَه ورُفقَته ؟ » .

ويؤلم الشاعر أن يرى العرب لا يزالون ينظرونَ إلى الأوربيينَ الإنجليزِ والأمريكيين كأصدقاءَ مخلصين ، وأعوانٍ مُنجدين يحلُّون لهم مشكلةَ اللاجئين ، ويردُّون إليهم أرضَ فلسطين ، مع أنهم لا يزالون تحت سيطرة اليهود ونفوذهم السياسيِّ والاقتصاديِّ والصَّحافيِّ ، يقول :

« أنا أعلم جيداً يا إخوتي العرب ! أنَّ النار التي شَغَلَتِ الزَّمان ، وبَهَرتِ

التاريخ ، لم تزلْ ولا تزالُ تشتعلُ في وجودكم ، صدِّقوا أيها السادة ! إنه لا دواء لكم في جنيف ، ولا في لندن ، لأنكم تعلمون أنَّ اليهود لا يزالون يتحكَّمون في سياسة أوربة ، ولا يزالون يملكون زمامها ، إنَّ الأمم لا تذوقُ طعم الحرية والاستقلال حتى تربي فيها الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرفُ لذة الظهور » .

وأخيراً يقول كلمةً صريحةً مركزةً بليغةً مع تلطُّفٍ واعتذارٍ :

« معذرةً يا عظماء العرب ! لقد أراد هذا الهنديُّ[1] أن يخاطبكم ، ويقولَ لكم كلمةً صريحةً ، فلا تقولوا أيها الكرام : هندي ، ونصيحةٌ للعرب ؟ إنَّكم كنتم يا معشر العرب ! أسبقَ الأمم إلى معرفة حقيقة هذا الدِّين ، وإنه لا يتمُّ الاتصال بمحمد ﷺ إلا بانقطاعٍ عن « أبي لهب » ، وإنَّه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطَّاغوت ، كذلك لا تتمُّ الفِكْرةُ الإسلامية إلا بإنكار القوميات ، والوطنيات ، والفلسفات المادية ، إنَّ العالم العربيَّ أيها السادة ! لا يتكوَّن ، ولا يظهر إلى الوجود بالثغور والحدود ، وإنما يقومُ على أساس هذا الدِّين الإسلاميِّ وعلى الصلة بمحمد ﷺ »[2] .

* * *

وإليك هذه القصيدة المُصاغة شعراً بالعربية ، يقول إقبال :

شعبَ العُروبةِ والمَجْد المُؤَثَّل[3] في ... بدوٍ وفي حَضَرٍ حتَّى ضُحى المحشر

مَنِ الَّذي حرَّرَ الدُّنيا لخالقها ... وأسْمَعَ الخَلْقَ لا كِسْرَى ولا قَيْصَر

* * *

---

(١) لا يعزبن عن البال أن محمد إقبال توفي قبل ولادة باكستان بعشر سنوات ، وقبل أن تكون هناك جنسية باكستانية .

(٢) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ص١٢٤ ـ ١٣٥ .

(٣) المؤثَّل : المبني الأصيل .

مِنْ قبلكُم أبلغَ الآياتِ ناطقةً ... بوحي مِنْ خلق الدُّنيا وسوَّاها
مِنْ غَيْرِكم رَفَعَ المِصْباحَ مؤتلقاً ... وَوَحَّدَ الخَلْقَ لمَّا وَحَّدَ اللهَ

* * *

لم يَطْعَمِ النَّاسُ إلَّا في موائدكم ... علماً شَهِيّاً وتَهْذيباً وعِرْفانا
في شأنكم أرسلَ اللهُ الكتابَ فأصـ ... ـبحتُم بنعمته في الخَيْرِ إخوانا

* * *

مَنْ حوَّل البيدَ روضاً والحَصى دُرراً ... وأنبتَ الوَرْدَ في الصَّحراء لِلْعَرَبِ
أستغفرُ اللهَ ما غَيْرُ النبيِّ بها ... أغْنَتْ مكارِمُه فيها عَنِ السُّحُبِ[1]

* * *

فكلُّ معبودٍ قديمٍ في الشعوب هوى ... بعزمه ساجداً لله إكبارا
وكلُّ غصنٍ هشيمٍ من نداه غدا ... يُجَدِّدُ الحُسن أوراقاً ونوَّارا

* * *

واهاً لها جذبات طالما حَفَزَتْ ... منَّا الخُطا وأثارت للعلا هِمما
قد أبدلتنا الليالي من سعادتها ... يأساً مريراً ومِنْ أنوارِها ظُلَما

* * *

كلُّ الشُّعوب أعدَّت مِنْ مواردها ... حِصْنَ الرَّخاء وصارتْ للمُنى قَدَما
وملءُ صحرائكم لو تعلمون غنىً ... وثورةٌ وكنوزٌ تُغْدِقُ النِّعما

* * *

كيفَ انقضى حفْلكم وانفضَّ سامِرُكم[2] ... وكان بالأمس مِثْلَ العَقْدِ منتظما

(١) سُحُب ، جمع السَّحاب : هو الغيم سواء أكان فيه ماء أم لم يكن .

(٢) سَامِر : هو مَن يتحدَّث مع زميله في الليل .

تـوَحَّـدَتْ مـن قـديـمِ الـدَّهـر أمَّتُكـم ما بالُها انقسمتْ في أرضِكم أُمَمَا

* * *

قَدْ خادَعَتْكُم من المستعمرين يدٌ سُمُّ العقارب في أكمامِها استترا
كَـمْ أهْـدروا مِـنْ شعـوبٍ آدمِيَّتَهَـا كمْ أيقظوا فتناً ، كمْ أفسدوا فِطَرا

* * *

تـوَارَثَ العَـرَبُ الأحـرارُ وَحْـدَتَهُـم مـدى عصـورٍ وأجيـالٍ وأزمـانِ
حتـى إذا جـاء الاستعمـارُ قسَّمهـا إلـى شعـوبٍ وأقـوامٍ وأوطـانِ

* * *

اضْرِب خيامَك في دنيا وُجودك لا تَقِفْ بها عند رَسْمِ الدَّار والدِّمَنِ[1]
وادفـعْ بنـاقَتِـك الميـدانَ أسْبَقُ مـنْ ريحِ الصَّحارى وأنْقِذْ وَحْدَةَ الوَطَنِ

* * *

يـا أيُّهـا العـربيُّ انظر لعصـرك في دنيـا يفـوزُ بهـا مـنْ أحْكَـمَ النَّظـرا
بـالسِّلْـمِ بـالعَـدْلِ تبنـي مـا تُـؤَمِّلـه إنْ شِئْتَ للأرضِ عُمْراناً فكُنْ عُمَرا

* * *

تُعادُ هنا نَفْسُ هذه المنظومة في صياغةٍ أخرى ، يقول :

(١)

أمَّـةَ الصَّحـراءِ يـا شَعْـبَ الخُلـود مَـنْ سِـواكـمْ حـلَّ أغـلالَ الـوَرَىٰ
أيُّ داعٍ قبلَكُـم فـي ذا الـوُجـود صـاحَ لا كسـرى هُنـا لا قيصـرا

* * *

---

(١) الدِّمَن ، جمع الدِّمنة : وهي آثار الدَّارِ .

مـنْ سِـواكـم فـي حـديـثٍ أو قـديـم ... أطْلَـعَ القـرآنُ صُبْحـاً للـرَّشـاد
هـاتفـاً فـي مَسْمَـعِ الكَـوْنِ العَظيـم ... لَيْـسَ غَيْـرَ الله ربّـاً لِلْعبـاد

* * *

حـدِّثـونـي اليـومَ عـن أيِّ خِـوَان ... قَـدَّمَ الحِكْمَـةَ قـوتـاً لِلْفَطِـنْ[1]
يـا مصـابيـحَ التَّـآخـي[2] والتَّفـانـي ... أنْـزَلَ اللهُ فـأصْبَحْتُـم لِمَـنْ

* * *

(٢)

وابـلٌ مِـنْ فَيْـضِ أمِّـي اللَّقَـبْ ... الكـريـمُ الفَـرْدُ فـي كُـلِّ الكِـرام
أنبـتَ الـزَّهـرَ بِصَحْـراءِ العَـرَبْ ... بَـلْ سقـى فـي القَفْـرِ بُسْتَـانَ الوِئـام

* * *

بِهُـدَى الحـرِّيَّـةِ العليـا أنـار ... فهـي روضٌ مُـونـقٌ مِـنْ غَـرْسِـه
يـومُهـا الحـاضـرُ فـي كـلِّ الدِّيـار ... لَـمْ يُنِـرْ إلَّا بـذكـرِ أمْسِـهِ

* * *

كـلُّ صَـدْرٍ مـن بقـايـا آدمَ ... صـاغَ فيـه لِلْعُـلا قلبـاً جـديـدا
مَنَـحَ الإنسـانَ مُلْـكَ العَـالَـمِ ... بَعْـدَ مـا علَّمَـهُ النَّهْـجَ الـرَّشيـدا

* * *

كـلُّ ربٍّ غَيْـرَ خـلَّاقِ النَّسَـمْ ... صـارَ مـنْ عَـزْمَتِـهِ تَحْـتَ الثَّـرى[3]
كـلُّ غُصْـنٍ كـانَ فـي يَبْـسِ العَـدَم ... بِنَـداه اخْضَـرَّ حتـى أثْمَـرا

---

(١) فَطِن : الفهم الذكيّ .
(٢) التآخي ، مصدر من تآخّى فلاناً : اتّخذه أخاً .
(٣) الثَّرى : التُّراب النَّدي .

(٣)

لا تسلني الآنَ عَنْ ثَوْرَتِه إنَّها ميدانُ بَدْرٍ وَحُنَيْن
في أبي بكرٍ وفي صاحِبِهِ في عليٍّ ثُمَّ في صَبْرِ الحُسَيْن

***

سيفُ أيوبَ وتقوى بايزيد فيهما مفتاحُ كَنْزِ العَالمين
أنكَرَ الدُّنيا بجامٍ واحِدٍ فحوىٰ الدُّنيا وضمَّ المَشْرِقَيْن

***

هاهنا الحكمةُ والدِّين القويم وهناكَ الحُكْمُ للدُّنيا يُقَام
كلُّ قلبٍ فيه لِلْمَجْدِ الصَّميم ثورةٌ تعلو به فَوْقَ المَرام

***

(٤)

لا تَقُلْ أينَ ابتكارُ المسلمين وسلِ الحَمْراء واشْهَدْ حُسْنَ تاج[1]
دولةٌ صارَ ملوك العَالمين نَحْوَها طَوْعاً يؤدُّون الخَرَاج

***

دولةٌ تقرأ في آياتها مَظْهَرَ العزَّة والمُلْكِ الحَصِين
وكنوزُ الحقِّ في طيَّاتها دونها حارَتْ قلوبُ العارِفين

***

---

(١) تاج : يُريد به الشاعر « تاج محل » الذي بناه جهانكير ، ويُعدُّ اليوم من العجائب السبعة في العالم .

(٥)

أرسـلِ الشُّكْـرَ إلـى غيـر انتهـاء ... لِنَبـيِّ الله قُـدْسـيِّ الجَنَـاب[1]
أشْعِـلِ الإيمـان نـاراً بـالعَـرَاء ... أوقـدِ النُّـور بكـفٍّ مـنْ تُـراب

* * *

وحبـاهُ الله مِـنْ عَلْيَـائـه ... عَـزْمَـةً فـلَّ بهـا سَيْـفَ الغِيَـر
راكـبُ النَّـاقـة فـي صَحْـرائِـه ... سـارَ فيهـا راكبـاً خَيْـلَ القَـدَر

* * *

كبَّـروا لله فـي ظـلِّ الحُـروب ... وصفـوفـاً تَحْـتَ ظـلِّ المَسْجِـدِ
ضجـةٌ دانـت لهـم فيهـا الشُّعُـوبْ ... وارتقَـوْا فيهـا مكـانَ الفَـرْقَـدِ[2]

* * *

(٦)

ويْ كأنْ لمْ تُشْرِقُوا في الكائنات ... بِهُـدى الإيمـانِ والنَّهـج الـرَّشيـد
ونسيتُـم فـي ظـلامِ الحـادِثـات ... قيمةَ الصَّحراء في العَيْشِ الرَّغيد[3]

* * *

كـلُّ شعـبٍ قـامَ يَبنـي نَهضـةً ... وأرى بنيـانكـم مُنْقَسمـا
فـي قـديـمِ الـدَّهـر كُنْتُـم أمَّـةً ... لَهْـفَ نَفْسي كَيْفَ صِـرْتُـم أُمَمـا

* * *

---

(١) الجَنَاب : النَّاحية .

(٢) الفَرقد : نجم قريب من القطب الشمالي ثابت الموقع تقريباً ولهذا يُهتدى به . وهو المسمَّى بـ « النجم القطبي » .

(٣) الرَّغيد : العيش الطيِّب الواسع .

كـــلُّ مـــــنْ أهْمَــــلَ ذاتِيَّتَــــه فهـو أولـى النَّـاسِ طُـرّاً بـالعَنَـاء
لــنْ يــرى فــي الــدَّهْـر قــومبتــه كــلُّ مَــنْ قلَّــد عيــش الغــربــاء

***

فكِّـروا فــي عَصْـرِكـم واسْتَبِقُـوا طــالمــا كُنْتُــم جمــالاً لِلْعَصْــر
واملـؤوا الصَّحــراء عـزمـاً واخلُقـوا مــرَّةً أخـــرى بهــا رُوْحَ عُمَــر

***

والآنَ ماذا نصنع يا أُمَمَ الشَّرق[1]

يندِّدُ إقبال في هذه الأبيات بمغامرات الإفرنج ، ومؤامرات الغاصبين ، وسخريتهم بحقوق الشعوب ، وتمزيقهم للدُّول الصغيرة غنائم فيما بينهم ، ولكن التطوّر السَّريع والثوراتِ المتوالية في الشرق والغرب ، غيَّرت الكثير من الأوضاع التي يشكو منها إقبال ، يقول مخاطباً للأمَّة العربيَّة ـ بعد أن وجَّهَ إليها خطابه ـ :

تَئِنُّ الخلائقُ في الأرض طُرًّاً   وقد سامها الغَرْبُ عَسْفاً وَجُوْرا[2]

فيا أُمَمَ الشَّرْق فيم التَّواني   لقد آن أنْ يُصْبِحَ الشَّرْقُ حُرًّا

* * *

أكادُ أرى ثورةً في النُّفوس   تشدُّ الحياة إلى المَجْدِ جَرًّا

مضى الليلُ وانجابَ عَهْدُ الظَّلامِ   وبَعْدَ الدُّجى يَعْقُب الليلَ فَجْرَا

* * *

وما بَرِحَ الغَرْبُ يختالُ تِيهاً[3]   ويَخْتَرِفُ الكَيْدَ لِلْعَالَمِيْن

لينشرَ في الكونِ إلْحَادَهُ   وَيُنْشِىء دُنيا على غَيْرِ دِيْن

* * *

وَيَسْتَبْطِنُ الذِّئبُ في جِلْدِ شاةٍ   بأنيابِه العُصْلِ[4] خَلْفَ الكَمِيْن

---

(١) بهذه الجملة وضع إقبال العنوانَ لهذا الكتاب .

(٢) جَوراً : ظلماً .

(٣) تِيهاً : ضلالاً .

(٤) العُصل : المعوجة .

أرى مشكــــــلاتِ بنـــــي آدمَ يَـزِيـدُ بهـم شَـرُّهـا كـلَّ حِيْـن

* * *

فَمَـا قَـدْرُ إنسـانِ هـذا الـوُجـودِ لَـدَيْهـم سِـوى هيكـلٍ مِـنْ تُـراب
تَشَكَّـلَ فـي الخلـق مـاءً وطينـاً وبنيـانُـه صـائـرٌ لِلْخَـراب

* * *

وقـافلـةُ الكَـوْنِ ضَلَّـتْ خُطـاهـا بحكمتهـم عَـنْ طَـريـقِ الصَّـوَابْ
لأطْمَـاعِهـم كـلُّ شـرٍّ مُبَـاحٌ ومـا للضَّمِيـر عليهِـمْ حِسَـابْ

* * *

وللحـقِّ فـي كـلِّ شـيءٍ دليـلٌ ومِـنْ نـورِه كـلُّ مـا تُبْصِـرون
وفـي كـلِّ معنـىً لـه حِكْمـةٌ يفـوزُ بـأسـرارهـا العـارِفُـون

* * *

إذا شَهِـدوا آيـةَ الله عـاشُـوا أبَـاةً على الضَّيـم[1] لا يَـرْهَبُـون
لقـد نظـروا فـاستبـانـوا الهُـدىٰ بـإدراكِهـم أفـلا يَنْظُـرُون

* * *

وَلِلْمُـؤمِـنِ الحـرِّ مِـنْ ربِّـه هُـدًى فـي الحيـاةِ ونـورٌ مبيـن
وفـي قلبـه لـوعـةٌ[2] واشتيـاقٌ وعَطْـفٌ علـى مِحْنَـةِ الآخَـريـن

* * *

---

(١) الضَّيْم : الظلم أو الإذلال ونحوهما ، جمعه : ضُيُوم . قال المثقَّب العبديّ :

ونحمي علىٰ الثغر المخوفِ ونتَّقي بغـارتنـا كيـدَ العِـدَا وضُيُـومَهـا

(٢) لَوْعَة : حرقة في القلب وألم يجده الإنسان من حب أو هم أو حزن أو نحو ذلك .

إذا العِلْمُ حلَّ بِقَلْبِ الفتى أحلَّ به خَشيةَ المتَّقينْ
ويزدادُ خوفاً منَ اللهِ حتَّى يردَّ الأمانَ إلى الخائِفِيْن

* * *

هو العلمُ لنا فيه كيمياءٌ إلى قدرةِ اللهِ يَهْدي البَصَرْ
فيا أسفا لَيْسَ لِلْغَرْبِ منه سوى حيرةٍ في دياجي الفِكَرْ

* * *

فلَم يُجِبْه العلمُ عقلاً سَوياً يُفَرِّقُ ما بَيْنَ خَيْرٍ وَشَرّ
فلا ينبعِ الطلُّ منْ جَفْنِه وفي صَدْرِه قطعةٌ منْ حَجَرْ

* * *

فبالعلمِ كانَ رقيُّ الحياةِ تضيءُ القرونُ به والعَصر
فَحَوَّلَهُ الغربُ سيفاً رهيباً لِمَحْوِ البوادِي وَقَتْلِ الحَضَرْ

* * *

تصيرُ الملائكُ لوْ جاوَرَتْهُم معاولَ[1] هَدْمٍ لِمَحْوِ البَشَرْ
ولو كانتِ الأرضُ جنَّةَ عَدْنٍ لِسُكَّانها جَعَلُوها سَقَرْ

* * *

غدا مظهرُ العِلْمِ في عَصْرِهِم بكلِّ الشُّعوب خِداعاً وَسِحْرَا
معاذَ الحقيقةِ ، ما ذاكَ سِحْرٌ لقد بدَّلوا نعمةَ اللهِ كُفْرَا

* * *

لَهُمْ فِتَنٌ تَجعلُ الوَرْدَ شَوْكاً وتُوقِدُ في رَوْضَةِ الأمنِ جَمْرا

---

(١) المَعاول جمع المِعْوَل : آلة من الحديد يُنقر بها الصخر ، ويُهدَم بها البيوت .

خُـذِ السَّيـف مـن عُصبـة المعتـديـن إذا كُنْـتَ تَنْشُـدُ للحـقِّ نَصْـرَا

* * *

لَقَـــدْ آنَ للــرُّوحِ أن تَسْتَفِيــقَ وَلِلشَّـرْقِ أنْ يستبيـنَ الـدَّليـلا
لِيَجْعَـلَ أنقـاشَ هــذا البنــاءِ علـى الظَّـالميـن كثيبـاً مَهِيْـلا

* * *

إذا العَقْـلُ أذعَـنَ لِلْقَلْـبِ حكمـاً رأى طـاعـةَ اللهِ أهْـدَى سَبيـلا
وإنْ لمْ يُجِبْ داعيَ القلبِ أضحىٰ كـإبليـسَ مكـراً وشـرّاً وَبِيْـلا[1]

* * *

يَـرَى الغَـرْبَ يستغـلُّ البـرايـا[2] كمـا يَشْتَهـي دُوْنَ قيـلٍ وقـال
يـرى الآدمييـن مِثْـلَ القطيـع فَهُـمْ لفـمِ الـذئـبِ رزقٌ حَـلال

* * *

لَقَــدْ حــانَ تغييـر دُنيـا بهـا نـرى العَـدْل أمـراً بَعِيْـدَ المَنَـال
وسُـرَّاقِ أكفـانِ مـوتـى القبـور علـى يَـدِهِـم أيُّ خيـرٍ يُنَـال

* * *

ضَوارِي السِّباعِ التَقَتْ في جنيف[3] لِطَمْـسِ الهُـدى والتِهَـام العِبَـاد
قـد اقتسمـوا كُـرَةَ الأرض نهبـاً[4] وهـم نَحْـوَ تقسيمِهـا فـي اتِّحـاد

* * *

---

(١) وبيلًا : شديداً .
(٢) بَرَايا : جمع البرية ، وهي الأرض .
(٣) جنيف (Geneva) : مدينة في سويسرا .
(٤) نهباً : غصباً .

يقـولـونَ هـذي بـلادي لَكُـمْ ... ونحـنُ لنـا كـلُّ تلـك البـلاد
هنـا ثـورةٌ وهنـا فتنـةٌ ... بهـم نـارُهـا أبـداً فـي ازديـاد

* * *

لـكَ الأرضُ أم هـذه أرضُـه ... وأيُّكـم فـي حِمَـاهـا نـزيـل
بنفسـك كـن واثقـاً مـؤمنـاً ... وعِـشْ كـافـراً بـالعـدوِّ الـدَّخيل

* * *

فَمِنْـك إليـك العُـلا والهَـوان ... وَمَجْـدُك فـي الشَّـرْق عـالٍ أصيـل
كـرامـةُ أجيـالـه فـي يـديـك ... فـأنْـتَ لـه أو عَلَيْـه الـدَّليـل

* * *

علـى قـوة الحـقِّ تحيـا الشُّعـوب ... وتجتـازُ فـي المَجْـدِ حـدَّ المجـال
فـلا شعـبَ يقـوى بـلا وَحْـدةٍ ... تضُـمُّ الصُّفـوف لنيـلِ المَعَـالـي

* * *

ومهمـا سَمَـا الـرأيُ إنْ لـم يَقُـمْ ... علـى قـوةٍ فَهْـوَ زيـفُ الخَيَـالْ
وفـي قـوةٍ دونَ رأيٍ جُنـونٌ ... وجَهْـلٌ وطيـشٌ وعُقْبَـى وَبَـال

* * *

بنـا لَبِـسَ العِشْـقُ ثـوبَ الـدَّلال ... وفـاضَ علـى الكـونِ طيبـاً وَحُسْنـا
وفطـرةُ آدمَ فـي كـلِّ حـيٍّ ... رَوَتْهـا الخلائـقُ فـي الـدَّهْـرِ عنَّـا

* * *

تَعلَّمَـتِ الأُمَـمُ النَّـاهضـاتُ مِـنَ ... الشَّـرْقِ دِينَـاً وعِلْمَـاً وَفَنَّـا
رفعنـا الحِجَـابَ عـنِ الكـائنـاتِ ... فَنَحْـنُ مـن الشَّمْـسِ والشَّمْـسُ منَّـا

* * *

إذا لاحَ فــي صَــدَفٍ جَــوْهَــرٌ   فَــذَلِــكَ مــنْ قَطْــرِ نَيْسَــانِنَــا
وإنَّ هَــدْرَ المَــوْجِ فــي بحــره   فَــذَلِــكَ مــنْ فَيْـضِ طُـوْفَـانِنَـا

***

حــرارةُ شَــذْوِ الهَــزَارِ الطَّــروبِ   علــى غُصْنِــهِ بَغْــض نِيــرانِنَــا
سَقَيْنَـــا دَمَ آدمَ قلــبَ الـــوُرُود   فــأهــدىٰ رســالــةَ إيمَــانِنَــا

***

فتــى الشَّــرْقِ أنْــتَ الــوَفــيُّ الأميــنُ   فــأظْهِــرْ يَــدَ العَــزْمِ للنَّــاس جَهْــرا
لِتَخْــرُجْ بيضــاءَ مــنْ غَيْــرِ ســوءٍ   وتُبْطِــلْ مــنْ فِتْنَــةِ الغَــرْبِ سِحْــرَا

***

عـــلامَ ارْتَبَطْــــتَ بِــــزُنَّــــارِهِ   وَكَيْــفَ استَطَعْــتَ على القَيْــدِ صَبْــرا
فَـــوَحِّـــدْ بــــلادَكَ صــوبَ العُــلا   بــإيمــانِهــا تَلْــقَ عِــزّاً ونَصْــرَا

***

لَقَــدَ نَشَــرَ الغَــرْبُ أســواقَــهُ   ومــنْ حَــوْلِــهِ الجُنْــدُ أقــوىٰ سِيَــاج
وَسِلْعَتُـــــهُ شَـــرَكٌ للشِّـــــراء   ومَتْجَــرُه ظِـــلُّ عَـــرْشٍ وتَـــاج

***

لــهُ فــي التِّجــارة رِبْــحٌ ونَفْــعٌ   وبــالحُكْــم يــأتيــهِ كَنْــزُ الخَــراج
ويلقــاكَ بـــالكلمـــاتِ العِـــذابِ   وفــي قَلْبِــه الحِقْــدُ خَلْــفَ الــزُّتَــاج

***

فَكُـــنْ فـــي متـــاجـــره زاهـــداً   ففيهـــا الخَســـارَةُ والمَغْـــرَمُ
نسيـــجُ بـــلادِكَ أقـــوى خيـــوطـــاً   وَقُطْنُـــكَ مـــنْ خَـــزِّهِ[1] أنْعَـــمُ

---

(١) خَزّ : نوع من الثياب ينسج من صوف .

جهـازُ المنـايـا بـدُولابِـه يَـدُورُ وأنـتَ بـه أعْلَـمُ
يميتـك بـالغشّ من غَيْرِ حَزبٍ وأنـتَ لـه الـرِّبْـحُ والمَغْنَـمُ

* * *

إذا جـاء يَعْـرِضُ نَقْـشَ البِسَاطِ فَـدَعْـهُ وَعِـشْ راضيـاً بـالحَصِيْـرِ
وإنْ وَصَلَتْـكَ بِـهِ رُقْعَـةٌ فـلا تُعْطِـه بَيْـدَقـاً[1] بـالـوَزيـرِ

* * *

جـواهـرُه بَهْـرَجٌ[2] زائـفٌ لِجَمْـعِ النُّقـود وَبَيْـعِ الضَّمِيـرْ
ونـافِجَـةُ[3] المِسْـكِ فـي سُوقِـهِ مِـنَ الكَلْـبِ لا مِـنْ غَـزَالٍ غَـرِيـرْ

* * *

تَنَبَّـهْ لهـذا الـدَّخيـلِ الَّـذي تَفِـرُّ الثَّعـالِـبُ مِـنْ مَكْـرِهِ
ولا تَتَعمَّـم بِمَنْسُـوجِـه ولا تُغْمِـضِ العَيْـنَ عَـنْ غَـدْرِهِ

* * *

وإمَّـا مَـرَرْتَ علـى حـانـةٍ تَعَـوَّذْ بِـرَبِّـكَ مِـنْ شَـرِّه
فَمَـنْ ذاقَ خَمْـرَتَـه لَـمْ يَعُـدْ إلـى دارِه بَـلْ إلـى قَبْـرِه

* * *

بـأصبـاغِـه وبـألـوانِـه تَضِـلُّ البَصِيـرةُ قَبْـلَ البَصَـرْ
بِسِلْعَتِـه قـد غَـدَوْنـا سُكـارى وصـاحبُهـا بـالغنـى قَـدْ سَكِـرْ

* * *

---

(١) البَيْدَق : الدليل في السفر ، والجندي الراجل . ومنه : بيدق الشطرنج .
(٢) البَهرَجُ : الباطل .
(٣) النَّافجة : وعاء المسك في جسم الظبي .

فَمِـنْ جَهْـدِ كَسْبِـكَ مـا يَجْتَنِيـهِ ومـا يَقْتَنِيـهِ ومـا يَـدَّخِـرْ
ومِنْـكَ الغِـذَاءُ معـاً والكِسَـاءُ لـه فـي نعيـمٍ وعَيْـشٍ نَضِـرْ

* * *

وإنَّ ذوي الفَضْـلِ فـي كـلِّ شَعْـبٍ علـى مَجْـدِ أُمَّتِهِـمْ سَـاهِـرُون
فَهُـمْ بسـواعـدهـم يعملـون وهُـمْ فـي مَـوَاطِنهـم يَـزْرَعُـون

* * *

ومـن أرضهـم كـلُّ مـا يُنْتجُـون ومـا يَـأْكُلـون ومـا يَلْبسَـون
فيـا مـنْ غـدا مُنْكـراً ذاتَـه إلـى أيـن يَمْضـي بِـكَ المَـاكِـرون

* * *

وكـمْ بِغـتَ مَحْصُـولَ زرعٍ لـه رَخيصـاً وأنـت غـداً مُشْتَـريـه
يعـودُ بـأضعـافِ مـا نِلْتَـهُ بـربـحٍ سَخـيٍّ لِمُسْتَـوْرِدِه

* * *

كـأنَّـك لـمْ تَشْـقَ مـنْ أجلـه ولا كُنْـتَ فـي الأرض مـنْ زَارِعِيْـه
أفـي البَحْـر لـؤلـؤه كـامـنٌ ومـنْ يـد غـوَّاصِـه يَشْتَرِيـه

* * *

شكوى ومُناجاة

كان محمد إقبال كثيرَ الاعتداد بالإيمان ، شديدَ الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوتُه وميزتُه ، وذخرُه وثروتُه ، وأنَّ أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات ، لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت :

« إن الفقير المتمرد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، هما : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروةً ضخمةً من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه » .

وكان شديد الغيرة على اعتزائه إلى هذه الرسالة وإلى هذه الشخصية العظيمة ، فكان يأبى أن يتطفل على مائدةٍ أجنبية ، أو أن يروي غُلَّته من معينٍ غريبٍ يقول : **« رفقاً يا رسول الله بفقيرٍ غيورٍ أبيٍّ النفس ، رفض أن يملأ كوبه من نهر الأجانب » .**

وجاشت نفسه الكبيرة الدافقة بالحنان والإيمان في الثالث من أبريل سنة ١٩٣٦م وهو عليل رهين الفراش في بهوبال[1] (الهند) ، وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامي المخزي ، والفراغ الفكري والروحي الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الإسلامية الشائن ، واندفاع الجيل الجديد المتهور إلى الفكرة الغربية ومُثُلِها وقِيَمها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعرٍ من أبلغ الشعر الوجداني ، تحدث فيه إلى النبي ﷺ ، وشكا إليه في عالم الخيال ضعف العالم الإسلامي وفقره الروحي وانحرافه عن الجادة ، وما كان يجده في نفسه من فتورٍ بعد النشاط ، ومن ضعف في العلم ، يقول :

« أشكو إليك يا رسول الله ! هذه الأمة التي تسلط عليها خوفُ الموت ، إنك حطَّمت الأصنامَ القديمةَ كاللاتِ ومناة ، وجدَّدت العالم القديم ، الذي سرى فيه الهرم ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان والحنان ، والتسبيح والأذان ، ويستمدُّ من الشهادة التي لقنته إيَّاها الانتباه والحضور ، والنور والسرور .

---

(١) اسم مدينة تقع في ولاية « مدهيابرديش » وهي عاصمتها كذلك .

إننا ـ وإن ولدنا في بلادٍ عريقةٍ في الوثنية ـ رفضنا أن نعبد الثور والبقر ، وأبينا أن نطأطىء رؤوسنا أمام الكهَّان والسَّدنة ، فلم نخرَّ بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نَطُفْ حول بلاط الملوك وقصور الأمراء . والفضل في كل ذلك يرجع إلى دينك الذي جئت به ، وإلى جهادك الذي قمت به ، فقد تربينا على السُّفرة التي بسطتها للعالم ، وقد ظلَّ حديثُك مصدر الشوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبيَّةً في الفقر ، عفيفةً في الحاجة ، ولكنَّ العالم الإسلامي اليوم قد فقد الشيء الكثير من قوته وقيمته .

لقد تجوَّلتُ في ربوع العالم الإسلامي ، وزرتُ بلاد العرب وديار العجم ، فرأيتُ من يقتدي بك ، ويجدد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثِّل أبا لهب ويحكيه كثيراً يوجد في كل مكان . إنَّ الشباب الإسلاميَّ قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبُهم وضمائرُهم ، إنَّهم في شبابهم ناعمون رقاقٌ كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنظر البعيد ، إنهم نشؤوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيلٌ بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يحلمون بالحرية ولا يطيقونها .

إنَّ نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النَّزعة الدِّينية حتى أصبحوا خبر كان ، إنهم هاموا بالغرب ، وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدق عليهم الغرب بكسرة خبز ، أو حفنة شعير ، إنهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمةٍ حقيرة ، فأصبحت الصُّقور التي تحلق في السماء عصافيرَ صغيرةً لا شأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامي البعيدة .

إنَّ أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مُزجاةٌ لم يخبروه بمركزه ومنصبه ، إنَّ نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح في هذا الجحيم ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلمُ لا يعرف سرَّ الموت ولذته ، ولا يؤمن كما كان يؤمن في القديم بأنه « لا غالب إلا الله » ، لقد مات قلبُه بين جوانحه ، فأصبح لا يفكِّر إلا في المنام والطعام ، إنه حكَّم الغرب في

نفسه ليتلقى منه رغيفاً ، وقبل منّة مئةِ إنسانٍ من أجل بطنٍ واحد ، إنّ محطّم الأصنام ، وسليل إبراهيم قد أصبح « آزر » ينحت الأصنام ، إنّه يشتري من الإفرنج أصنامهم الجديدة .

إنّ هذا الجيل قد أصبح في حاجةٍ إلى بعثٍ جديد ، وإلى أن نقولَ له مرّةً ثانية : قم بإذن الله ، لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيون أن يقتلونا من غير حرب وضرب ، لقد استطاعت أمتك وأصحابك ، أن يَثُلُّوا عروش كسرى وقيصر ، والعالم ينتظر من جديد ثائراً جديداً ، يؤمن بالله ويكفر بغيره ، ويكسر طلاسمَ هذه الحضارة ويبطل سحرها .

نفسي فداؤك أيها الفارس الكريم ! بالله اقبض العِنان ، وقفْ بي لحظةً أبث إليك بالأشجان والأحزان ، قد تلجلج لساني وخانني البيان ، إنّني في صراعٍ بين سلطان الشوق وسلطان الأدب ، إنّ الشوق يقول لي : تَشَجَّعْ وتكلَّم ، فأنت من الحبيب بقاب قوسين ، الأدب يقول : إيّاك والفضول ، فافتح العينين وأطبق الشفتين ، ولكنّ الشَّوْقَ عصيٌّ ثائر ، لا يخضع للأدب ، إنني أطلب منك نظرة التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذي زَهِدَ فيه الطالبون ، وانصرف عنه الصيادون ، فلجأت إلى حرمك ، ولأمر ما تراميت في أحضانك ، إنّ صوتي قد اختنق في حلقومي ، وإنّ اللهيب عاد لا يتجاوز صدري ، وإن أنفاسي قد تجرّدت من لوعة القلب ولهيب الصدور ، وإنني فقدت اللذة التي كنت أجدها في قرآن الفجر .

إنّ الزفير الذي لا يسعه الضمير كيف يستقر في الصدر كالعاني الأسير ؟ إنه يحتاج إلى أجواء لا نهاية لها ، وإلى سعة السموات التي لا حدود لها ، يا لها من عللٍ يعانيها جسدي وروحي ، ولا دواء لها ، إلا أن تنظر إليَّ من طرف خفي ، إن هذه الأدوية التي يصفها الأطباء لا تناسب روحي العليلة ، فإن شامتي اللطيفة لا تحتمل مرارتها ورائحتها ، فأنا مريض لا يرجع فيه إلى طبيب ، فأبكي بكاء الأطفال ، إذا جرعوا الدواء المر ، وأنا أخادع نفسي ، فأمزجه بالحلاوة حتى

تسهل إساءته ، إنني كالبوصيري أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود إليَّ ذلك اليوم الذي فقدتُه ، إنَّ العصاة من أمتك أسعد بشفاعتك ، وأكثر حظاً من عطفك من غيرهم ، كالأمِّ الحنون الرؤوم في عطفها وصفحها عن إساءة أبنائها .

إنَّني مع عباد الليل والظلام في صراعٍ شديد ، فمد سراجي بمدود من الزيت من جديد ، إنَّ وجودك كان للعالم ربيعاً ، وللإنسانية خصباً وريعاً ، فلا تضنَّ عليَّ بشعاعٍ من أشعة شمسك المنيرة للعالم ، إنَّ قيمة الجسم بالروح ، وإنَّ قيمة الروح هو إشراقٌ من المحبوب ، إنني أريد أن ينقطع رجائي عن غير الله فاجعلني سيفاً ، أو اجعلني مفتاحاً .

لقد أسرع بي ذهني الوقاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بي عملي في مجال الكفاح ، إنَّ مهمتي أصعبُ وأدقُّ من مهمة « فرهاد » الذي كلف تفجير نهر من لبن من جبلٍ صلد أصم ، فأنا في حاجة إلى آلات أَحَدّ ، وقوى أَشَدّ ، حتى أتم مهمَّتي ، وأحقِّق رغبتي ، إنني مؤمنٌ لا أكفر بشخصيتي ومواهبي فضعني على المِسَنِّ ، فإنني حديدٌ منْ مَعْدِنٍ كريم .

إنني وإن كنت قد ضيَّعتُ شبابي ، وأتلفتُ حياتي ، ولكن أملك شيئاً اسمه « القلب » ، إنني أغار عليه وأستره من العيون لأنه يحمل أثراً من حافرِ جوادكَ الأصيل ، إنَّ العبد الذي قد زهد في زخارف الدُّنيا ، إنما يتسلَّى برضا سيده وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً .

يا من منح الكرديَّ لوعة العرب ، اسمحْ للهنديِّ أن يَمْثُلَ بين يديك ، ويتحدَّث بأشواقه وأحزانه إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مقروحة ، لا يعلم أصدقاؤه وزملاءه ما يعانيه من حزنٍ وألم ، إنه لا تنقطع ألحانه المشجية ، كالعود الذي لا راحة له ولا انقطاع ، إنني كحطبٍ في الصحراء مرَّ به ركبٌ فأشعل فيه النار ، وأعجلَ الركبُ السَّير ، فمضى وخلَّفه ، وبقيَ الحطب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً ليستهلكه ويأتي على بقيته ، فمتى يمرُّ به ركْبٌ

جديد في هذه الصحراء الموحشة المظلمة[1] ؟ .

* * *

وإليك هذه القصيدة المصاغة بالعربية شعراً يقول إقبال :

يا رأسَ مالِ البائسينَ ويا مَنَارَ الحائرين
ادعُ الإلَهَ يَهَبْ لأمَّتِك : الشَّجاعةَ واليقين

* * *

ويعيذُهم منْ شرّ خوفِ المَوْتِ منْ قَبْلِ المَماتِ
الخوفُ يفني اليائسينَ وهمْ على قيدِ الحياةِ

* * *

يا منْ هَدَمْتَ اللاَّتَ والعُزَّى وحرَّرت الحَرَمْ
وبنيتَ أعلى أمةٍ تَهْدي بِسِيْرَتها الأُمَمْ

* * *

ذكرُ الإلَه ويَقْظةُ الوجْدان في إنسٍ وجان
منْ فَيْضِ وحيكِ يا صلاةَ الصُّبحِ يا صَوْتَ الأذان

* * *

فحرارةُ الإيمان في القَلْبِ المَشُوْقِ إلى النِّضال
وسراجُ ليلِ الفِكْرِ (لا معبودَ إلا ذو الجَلالِ)

* * *

لَمْ نَتَّخذْ في الكونِ رباً من رُخَامٍ أو حَجَرْ

(١) من « روائع إقبال » للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ص٢٠١ ـ ٢٠٦ .

كــلا ولــم تَسْجُـد لنجــمٍ أو نبــاتٍ أو بقــر

* * *

لــم نلــق جبهتنــا لــدى الكُهَّـان فـي ذُلٍّ حقيـر
لــم نحــنِ هــامتنــا لسلطــانٍ قــويٍّ أو أميــر

* * *

منْ فيضِ روحِكَ كلُّ هذا الفَضْلِ والعزِّ المكين
وبناءِ صَرْحِ المَجْدِ في توحيد ربِّ العالمين

* * *

ذكــراكَ وردٌ ســائـغٌ يحلـو بـه العيشُ المَـريـر
وبِغَيْـرةِ الإيمــان صــار الـدِّيـنُ كنـزاً للفقيـر

* * *

يا منتهى كلِّ المنازلِ في طريق السَّالكين
يــا مَـنْ إلـى أنـوارِه تهفـو قلـوبُ العـاشقيـن

* * *

قِيثَارتي[1] ثَقُلَتْ وأعْيَاها التَّجاوبُ والرَّنين
أوتـارهـا لا تستجيـبُ إذا عَـزَفْـتُ ولا تبيــن

* * *

فـإذا نصحـتُ فـإنَّني نـاديـتُ مـنْ لا يسمعـون
وإذا نَهَيْـتُ فـإنَّمـا أسْمَعـتُ مـن لا يَنْتَهـون

* * *

---

(١) القِيثارة : آلة طرب ذات أوتار .

طوَّفتُ في أرض الأعاجم ثمَّ في أرض العرب
لم ألق فيها المصطفى ولكمْ رأيتُ أبا لهب

* * *

عجبي لهذا المسلمِ المزهوِّ بالعصر المنير
لا همَّـةٌ تحـدو خُطـاه ولا سِـرَاجٌ فـي الضَّميـر

* * *

وأرى شباباً واهن العزماتِ في لينِ الحرير
وُلدَتْ أمانيه فكانَ المهدُ مصرعَها الأخير

* * *

ذاكَ الغُـلامُ بـنُ الغَـلامِ بـنِ الغُـلامِ بـنِ الغُـلامِ
فـي شَـرْعِـه تحـريـرُ أمَّتِـه محـالٌ أو حَـرام

* * *

الـدِّيـنُ ليـس لـه بِـدُنْيـاه زمـانٌ أو مكـان
كـلُّ الـذي أدريـه عنـه أنَّـه بـالأمـسِ كـان

* * *

عن ذاتِـه أضحى غـريبـاً مُستهـامـاً بـالـدَّخيل
بـذلُ الكـرامـةِ عنده ثمنـاً لِمَطْعَمِـهِ الـذَّليـل

* * *

كالطَّير غايته التقاط الحبِّ في ظلِّ القُصور
هـو طـائـرٌ لكنَّـه لـم يَـدْرِ تحليـقَ النُّسـور

* * *

قَدْ ذابَ في نارِ الفِرنْجِ فما له عنها مَحِيْد[1]
وأَتَتْـه نـارُ جهنـمَ لكـن بـأسلـوبٍ جَـدِيْـد

* * *

هـو مـؤمـنٌ لكنَّـه مـن جنَّـة الشُّهـداءِ هـارِبْ
ليستقـرَّ بقلبـه أنْ (ليـس غيـرَ الله غـالـبْ)

* * *

ذاكَ الـذي فَقَـدَ اليقيـنَ وقلبُـه فَقَـدَ الحَيَـاه
وطعـامُـه وشـرابُـه ومنـامُـه أغلـى منـاه

* * *

وتـراهُ بـالمِنَـنِ الثِّقَـال مقيَّـداً ومُكَبَّـلا
مِمَّنْ يقولُ : (نعم) وممَّن لا يُجيب بِغَيْرِ (لا)

* * *

فَلْيَصْـحُ مـن غَفَـلاتِـه ليعـودَ حيَّـاً قلبُـه
ويعيـشَ فـي أوجِ الكـرامـةِ هـاتفـاً (اللهُ هـو)

* * *

مـدنيـةُ الإفـرَنْـجِ مـاضيـةٌ بنـا نَحْـوَ الـزَّوال
قَتَلَـتْ مـواهِبَنـا بـلا حـربٍ تـدورُ ولا قِتَـال

* * *

فاكْشِفْ لقومِكَ عن كريمِ النَّفْس مُتَّقدَ الحياه
ثمِـلٌ يحـبُّ الله لا يَـرْجُـو ولا يَخْشَـى سِـواه

---

(١) فماله عنها محيد ، أي : ماله منها مفر .

وإذا تبيَّن مسلمٌ في ذاتـه شَـرَفَ المَكَـانَـهْ
أخلِقْ به في الدَّهْرِ أنْ يختارَ في الدُّنيا مَكَانَهْ

* * *

أيُّهـذا الفـارسُ المِغـوار أمْهِـلْ فـي المسير
واحْبسْ عِنَـانَـك لمحـةً تَسْتَقْبِلِ القَمَـرَ المُنير

* * *

أملي على شَفَتَيَّ مُحْتبسٌ عنِ النُّطْقِ احْتَجَبْ
والشَّوقُ يقتحمُ المَقَامَ فليس يحكمُه الأدب

* * *

هذا يقولُ أَبِنْ عن الشَّكوى ولا تَكْتُم أسَاكْ
ويقولُ ذاكَ انظر ولا تَهْمسْ بحرفٍ عَنْ جَوَاكْ

* * *

أنْتَ الهدايةُ والدَّليلُ وأنتَ عِرْفاني وَفِكْرِي
وسفينتي في الدِّينِ والدُّنيا وطوفاني وَبَحْري

* * *

زادت بي الأنَّاتُ والعَبَراتُ حتَّى عِيل صَبْرِي
فإلى متى هذا اللهيبُ يظلُّ مطوياً بِصَدْري

* * *

فلَمْ يَبْقَ للأرواحِ في شوقِ العِبَادَةِ من أثَرْ
لمْ يَبْقَ لُطفُ تلاوةِ القُرآن في وَقْتِ السَّحَرْ

* * *

قَدْ كُنتِ يا شمسَ الخليقةِ منقذاً في النَّائبات

وأبـرَّ بـالعـاصيـن رفقـاً مـن قلـوب الأمَّهـات

* * *

فـي حَـزبِ عبَّـادِ الظَّـلام أصـارعُ الـدَّاء العَيَـاءْ
فامنحْ سراجي منك زيتاً قبل ما يخبو الضِّياء

* * *

كلُّ الخمائلِ[1] في رياض الكَوْنِ أنتَ ربيعُها
مِنْـكَ الفـواضِـلُ كلُّهـا والمَكْـرُمـاتُ جميعُهـا

* * *

الجِسْـمُ فـي بُنيـانـه بـالـرُّوح يَكْتسـبُ الحَيَـاةْ
لكنْ حياةَ الرُّوحِ في قُرْبِ الحبيبِ وفي رِضاهْ

* * *

انظُرْ إليَّ فأنتَ بالجَدوى وبالإحْسَان أوفى
إنْ لمْ أكنْ بِهُداك مِفْتاحاً ، أكنْ بحماك سيفا

* * *

لي محنةٌ منْ دُونها قطعُ الصُّخورِ منَ الجِبَالْ
فاجعلْ لفأسي مِنْكَ حدّاً ماضياً عِنْدَ النِّضالْ

* * *

إنْ كانَ عُمري قد بدا خِلْواً من المَحْصُولِ جَدْبَا
ما زلتُ أملكُ مضغةً[2] يدعونها في الحُبِّ قَلبا

---

(١) الخمائل ، جمع خَمِيلة : كل موضع كثر فيه الشجر .

(٢) المُضغَة : القطعة التي تمضغ من لحم وغيره ، لكن هنا يريد بها الشاعر « القلب » .

أخفيتُـه لأكـونَ فـرداً فـي هـواكَ وفـي رِضَـاكْ
وعليه خاتمُ حُبّك الغالي فَلَيْسَ به سِوَاك

* * *

إنَّ الـذي لا يبتغـي مـن هـذه الـدُّنيـا متـاعـا
إنْ لمْ يَنَلْ قُرْبَ الحبيبِ تكونُ دُنياه ضَيَاعا

* * *

كمْ ذا يُعاني القلبُ منْ نارِ اللَّواعجِ والشُّجُون[1]
وَيَئِـنُّ مِثْـلَ النَّـاي بـالشَّكـوى لِمَـنْ لا يَعْلمُـون

* * *

قَدْ خَلَّفَتْهُ على رُبى الصَّحْراءِ قافلةُ الرِّفاقْ
كَهَشِيمِ غُصْنٍ يَصْطلي بالجَمْرِ في نِصْفِ احْتِرَاقْ

* * *

يَـرْنُـو إلـى البَيْـداءِ والمُـدُنِ الـرَّحيبـة والفَضَـاءْ
فعسـى تمـرُّ قـوافـلٌ أخـرى تُعِيْـدُ لـه الـرَّجـاءْ

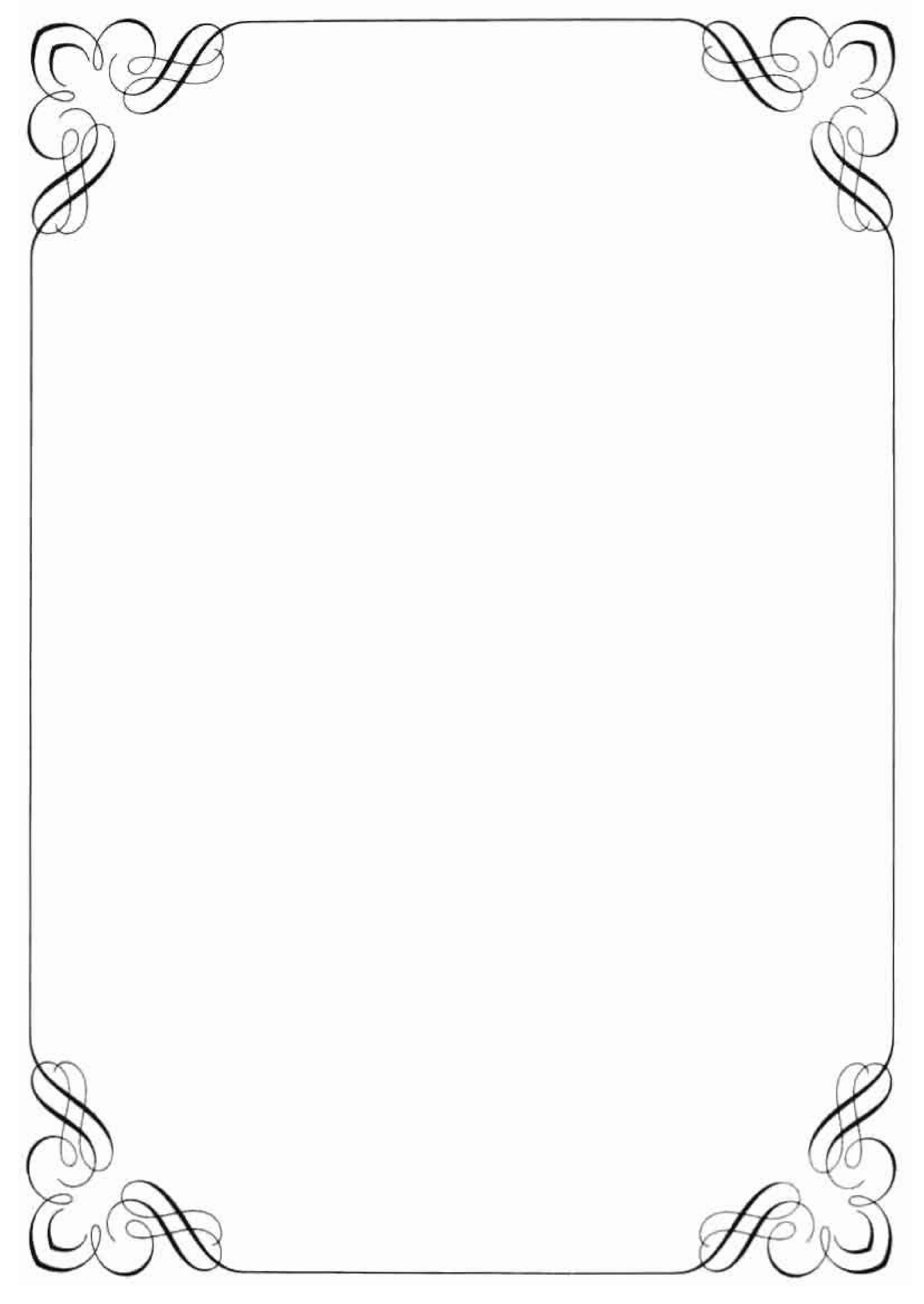
* * *

يا مَنْ خَلَعْتَ على صلاحِ الدِّين حُلَّةَ خالدِ
فمضـى بِعِـزٍّ دائـمٍ يبقـى وَمَجْـدٍ خـالـدِ

* * *

---

(١) الشُّجون : الهموم والأحزان .





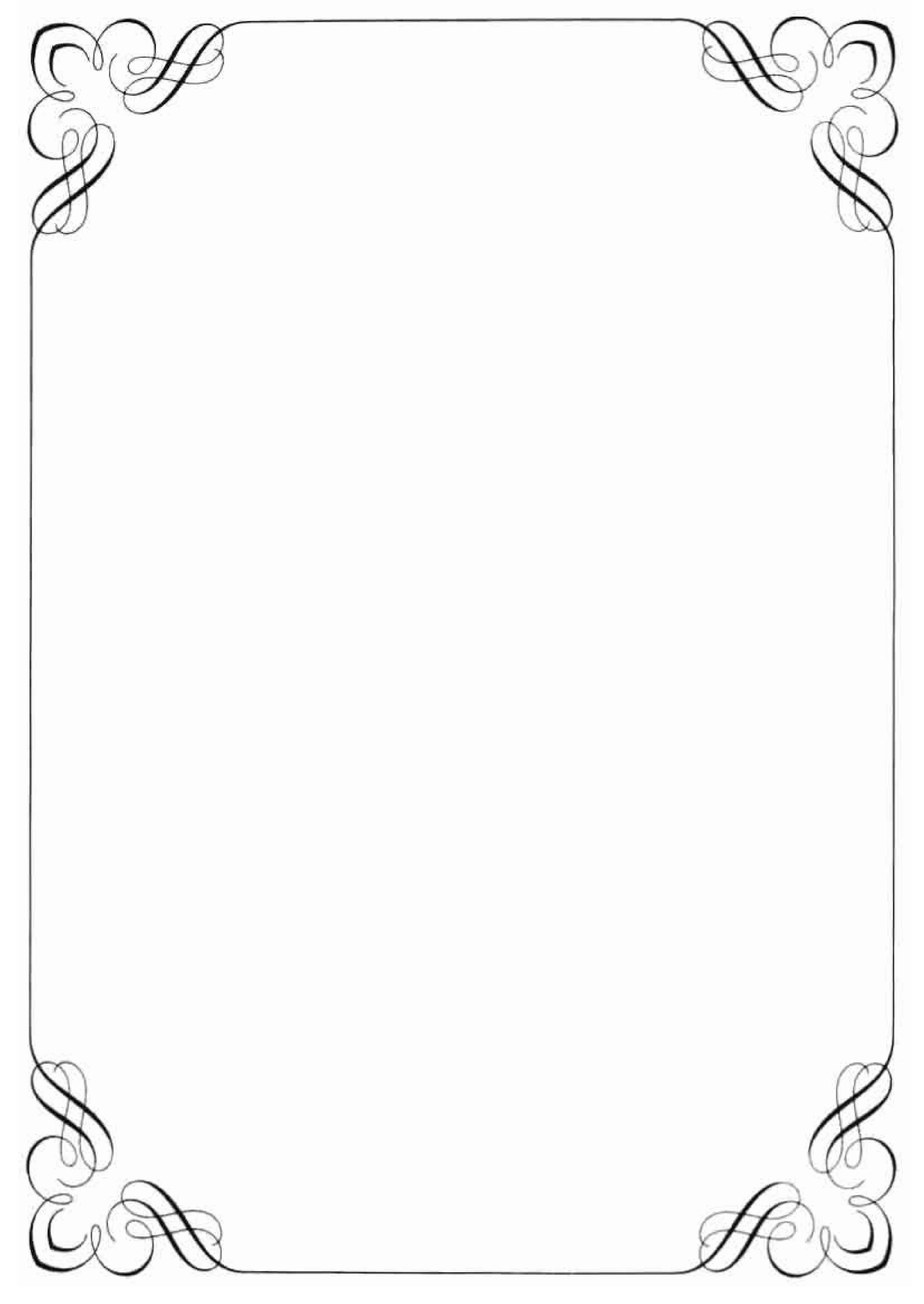

اَلدِّيْوانُ اَلتّاسِعُ

هَدِيَّةُ الحِجازِ
أرمغان حجاز

نَقَلَهُ مِنَ الفارِسِيَّةِ شِعرًا

الدكتور حسين مجيب المصري





نُشِرَ هذا الديوان بعد وفاة الشاعر ، وهو عبارة عن الشعر الفارسيّ والأردويّ معاً ، وهو يتألَّف من قسمين ، أولهما يحتوي الرباعيات الفارسية التي ترجمها الدكتور حسين مجيب المصري ، والثاني يحتوي منظومات وقصائد قصيرة باللغة الأردوية ، الذي ترجمه نثراً الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم ، وفيه قصيدة بديعة عنوانها « برلمان إبليس » وصف فيها الشاعر وصوَّر جلسةً برلمانيةً ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ، ووكلاء النظام الإبليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسيَّة والعصرية التي تهدِّد مهمتهم في العالم ، وتحبط مساعيهم أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم ، وترأَس هذه الجلسة وأشرف عليها « إبليس » فحكم على هذه الآراء والدراسات ، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة ، وبُعْدِ نظره الذي لا يُشاركه فيه أحد من تلامذته ، وأدلى برأيه الحصيف المؤسَّس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخَّص في أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفء لنظامه ، وهو الشرارة التي تتحوَّل ناراً بسرعة ، فالمصلحة والرأيُ أن يركِّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربة هذا العدوّ ، أو إلهائه ، وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة (من القسم الثاني) من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسيَّة .

وأما القسم الأول المتعلق بالرباعيات الفارسية فهو يحتوي على ثلاثة أبواب ، ومنها الباب الأول يتعلق بالله عز وجل ، وفيه يستنهج سبيل المتصوفة في تضرُّعهم إلى الله ومناجاتهم له والإبانة عما تموج به قلوبهم من عشق إلهيّ هو غاية الغايات في سمو الروحانية . بيد أنه يعارض المتصوفة في تهافتهم على توكُّلهم واستكانتهم وقطع الأسباب بينهم وبين دنياهم ، ويرى في هذا ما ينافر واقع الحياة ، ويحيد عن القصد ، ويتجافى عن الصواب ، ويصد عن فهم

صريح القرآن . فالمؤمن الموقن يعمل لدنياه كأنه سيعيش أبداً ، وينهض بالبشرية إلى ذروة المثالية ، ويوائم بين دنياه وآخرته .

وهو يحب الله بقلب صوفيٍّ واصل دلَّهه الشوق والتوق ، فيقول معبِّراً عن وجده وكمده :

هيــاجٌ مــاجَ فــي مــاء وطيــن ... بـلاءُ العشقِ مِنْ قلـبٍ حَزِيـن
قَــرَاري بــرهــةٌ حقــاً حــرام ... فرفقاً ، شأن قلبي من شؤوني

كما يتشبه بهم بعض الشيء في انصرافهم تمام الانصراف إلى الاستغراق في عشقِ الذات الإلهية بقطع النظر عن كل ما عداها ، ولا غرو فهم القائلون إنهم يحبون الله ، ولكن لا رغبةً في الجنة ولا رهبةً من النار ، وهذا هو الحبُّ الحقُّ بالمعنى الأصحِّ الأدقِّ ، لأنه الروحانية في شفافيتها التي لا تعلق شائبة من المادية بصفائها :

لــي الــداريــن إنِّــي لا أريــدْ ... وحسبــي فهــم مــا روحٌ تفيــدْ
فهبني سجدتي فيهـا احتراقي ... ومنهـا الكون فـي وجـدٍ يميـدْ

غير أن إقبالًا حتى وهو في نشوته الروحية الغامرة يعبر عن عاطفته الدافقة لا ينسى القوم من حوله ، ولا يقتلع نفسه من الناس يموج بهم معترك الحياة ، فالغيرية مهيمنة عليه وإن استبدت الأنانية بسواه ، لأنه يتفجَّع ويتوجَّع للخلق وقد تردَّوا في ضلالهم وتحيَّروا في طريقهم ، وعزَّ عليه ألا يذكُرُهم وهو في مناجاة ربه ، فجأر بشكواه من حالهم ، داعياً من طرفٍ خفيٍّ بالخير لهم ، بعد أن نصب نفسه داعية حقٍّ يبيِّنه لهم ليضع أمرهم في نصابه :

علــى قــومٍ إلهــي فلتُعنِّــي ... كَرَاعي الضأن عـالِمهُمْ بفنِّ
رأت عينـاي مـا يقـذي عيونـاً ... ألا يـا ليـت أمـي لـم تلِـدنـي

وبعد أن تأذى بمناقص الناس ومعايبهم في رأيه ، كان على ذكر من الإنسانية ، ولم يفُتْهُ أن يجري قولها على لسانه لأنه الجزء الذي لن يتجزَّأ منها ،

وتكشف عن شخصيته الإيجابية وعبقريته المتفتحة المنطلقة التي طوّعها لخدمتها ، فدعا ربه لها وأمله أن يستجاب ، وتضمن دعاؤه جوهر فكرته وأساس نزعته وملامح كيانه العقليّ والروحيّ وهو يقول :

إلهي زِنْ لنا خيراً وشرا ... هب الدنيا نعيماً مستمرا
وشاهدنا خلقنا من تراب ... لنجعل عالم الغبراء نضرا

أما في الباب الثاني من الكتاب فلا يوجه خطاباً ولا دعاءً إلى كائنٍ من كان ، أو على التحديد لا يصرح واضحَ التصريح بمن يخاطبه كما كان شأنه في الباب الأول . وهو يجنح إلى رمزية حالمة يستشف منها أنه سعى إلى بيت الله حاجاً ، وأن فؤاده مشوق إلى أرض الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وله ولع بوصف سفرته الطويلة ولعله يتأثر في ذلك بشعراء المتصوفة وهم يتمثلون التصوف طريقاً يشكو سالكها من طولها ووعورتها . غير أنه أرق منهم قلباً وأجمل وصفاً وأدق تصويراً في نحو قوله :

مساءٌ مثل صبحٍ قد تبسَّم ... تمطَّى صبحُها والليلُ أظلَم
تمهَّل إن خطوت على رمالٍ ... كقلبي كلها قلبٌ تألَّم

ويفرغ من تصوير عاطفته ليولّي عقله شطر حال المسلمين ، فلا جرم لقد ذكره مهد الإسلام بها ، فتساءل عن عاقبة أمرهم ورفع كربهم ، وساءه أن يكون للمسلم قلبٌ أقفَرَ من حبيب ، وهو يلمِّح بذلك إلى أنَّ صلاح حال المسلمين لن يكون إلا بالوقوف عند حدود الدين ، ولزام أن يرقَّ قلبهم للتقوى .

غير أنه لا يرتضي من علماء الإسلامِ إلا أن يمعنوا النظر في الدين ليفهموه حق الفهم ، ويكره منهم أن يغفل بعضهم عن دعوة الدين إلى الكفاح من أجل غدٍ أسعد ، والعمل لخير الناس كافة ، وطرح العداء والشحناء والعيش في ظل الإخاء والصفاء ، كما ربأ بهم أن يتوهموا الدين جموداً وخموداً ، فالدين قوام الحياة يصلحها في كلِّ أمورها ، ويسمو بها في كل مناحيها . كما يكره للمؤمن الحق أن يكون متواكلاً منطوياً .

والباب الثالث خاص بالمجتمع أو الشعب ، وقد صدَّره بقوله « **صل قلبك بالله واسلك طريق المصطفى** » وتندرج تحته عدة فصول وعناوين .

وهو في حديثه عن الجماعة يريد ليبصِّرها بمبادئه المثالية ونزعته الإنسانية ، ويبذل النصح مهيباً بها ألا تتخلف عن ركب التقدمية ، وأول ما يحبه للشعب أن يتآخى أفراده ويعرف كل منهم قدر نفسه دون أن يتعدى على حق غيره ، وبئسما الشعب يخضع فيه فرد ويذل لمن يطغى ، ويذل وينتزع الثمرة بغير حق من يد من لقي ما لقي من تعب في زرع شجرتها ، فهذا ما يغضب الله على الشعب كله وقد كبر مقتاً عنده تعالى :

ولاةُ الأمرِ مـن ربِّي لشعـبٍ ... زمـامـاً يملكـون لكـلِّ أمـرِ

ولكــن لا يحــب الله شعبــاً ... بـه الفـلَّاح يـزرعُ كـيْ يلبِّـي

ويخصُّ الذاتية بالذكر لأنَّه من يجلُّ ذات الإنسان إلى أبعد مدى ، وهو بذلك مخالف للصوفية الذين أرادوا المحو التام لها والقضاء المبرم عليها إلى أن تفنى في الله ، كما أن بعض المدارس الفلسفية والدينية تحط من قيمتها وتنفي عنها كل قوة وقدرة . وها هو ذا يعلي من قدرها ويستعير من المجاز لوصف حقيقتها :

لـذاتـك لا إلـه فضـم مـرَّه ... لتُخـرِج من تـرابٍ مـات نَظْـرَه

ولا تقبـض يمينـك عـن وجـودٍ ... لـه القمـران فـي وهـق يجـرَّه

ومن فصول هذا الباب فصل بعنوان « الصوفي والملاَّ » ، بمعنى الصوفي والشيخ . وإقبال يرمز بهما إلى موقفين لبعض المسلمين لا يقعان في نفسه موقع الرضا ، وهما موقف السلبيين الخاملين ، وموقف المتزمتين الجامدين . وهو من بعد يعرض الصوفي والشيخ في صورة المضحوك منه المسخور به ، مبالغة في توكيد الحقيقة التي يريد تناولها بالإيضاح . وما من ريب في أنه متأثر في هذا بمألوف شعراء التصوف في تهكمهم بالشيخ غير المتصوف ، غير أنه صاحب الرأي المخالف والمجدد غير المقلد حين يغلظ اللائمة على الصوفي والشيخ في

وقت معاً . فعنده أن الشيخ آخذ بالمظهر لا يتجاوزه إلى الجوهر ، أما الصوفيّ في عزلته وسلبيَّته فيشاهد حرمة الإسلام تنتهك ولا يحرك لساناً ولا يداً . وإقبال يدعو إلى تدبُّر آيات الكتاب الكريم التي تهدي سبيل الرشاد وتقطع الشك باليقين وتصلح بها حال العالمين . أما الشرط الذي يفرضه ، فهو ضرورة فهمها على الحقيقة التي ليس فيها من مراء :

لمُـلّاً أو لصـوفـيٍّ أسيـر ! **وفـي القـرآن للعيـش الكثيـر**
مـن الآيـات مـا أدركـتَ شيئـاً **ومـن يـاسيـن بُغْيَتَكَ الحَفِيـر !**

وفي فصل عن الخلافة والملك ، يدلي الشاعر برأيه فيهما ويدعو إلى الأخذ بتعاليم الإسلام في الحكم وسياسة الملك . ثم أفضى به القول إلى ذكر الأتراك في نهضتهم الحديثة . غير أنه عاب عليهم أن يتهافتوا على تقليد الأوربيين ورأى ذلك زراية بهم وتجريحاً لعزة نفسهم ، لأنه الداعي على الدوام إلى احترام ذات الفرد والجماعة ، الموصى بالغوص على أعماقها للكشف عن قدراتها وملكاتها وهباتها ، وهو لا يرتضي للتركي أن يظل من الفرنجة في قيود ويبقى أسيراً لسحر طلسمهم ، كما يحزنه أن يكون المسلم عن تراثه المجيد من الغافلين ، وأن يعصب عينه ليقوده الأجنبي إلى المصير . وبذلك يلتمس إقبال ما استطاع إليه سبيلاً من أمثلة لإشاعة رأيه وإذاعة مبدئه .

وتتجلَّى دعوته إلى التأدُّب بآداب الإسلام والأخذ بأوامره ونواهيه حين يوجه الخطاب إلى فتاة المجتمع ويزعها عن أن تتزين وتتبرج ، كما يذكرها بعظم فضلها أماً صالحة ، ويرغب إليها أن توصى بالنظر في القرآن ، ثم يبين لها كيف أن ذلك يمكنها من تسوية النفوس ، إلى أن يضرب لها المثل بما كان من أمر أخت عمر بن الخطاب حين شاهد القرآن بين يديها فدفعته إليه ليقرأ حتى رق للإسلام قلبه .

وإقبال ساخطٌ على ما آلت إليه الأمور في العصر الحاضر ، فهو القائل فيه :

وعصرٌ منه للدين الشكاة **وحـرِّيـاتِـه وأدّ الطغـاة**

كما أنه يقدح في شبابه لأنهم ليسوا على بينة من أمر دينهم ، ويغمز فيهم لأنهم يقلدون الفرنجة في رقصهم ، فمن أقبح العيب عنده أن يقلِّدوا ، وتلك منه دعوة ضمنية إلى شدة التمسك بالذاتية .

ويريد ليحرك مسلماً من ركوده وجموده فيذكره بالبرهمي الذي يضع ما يعبد من صنم تحت بصره تبركاً وتعظيماً وإعزازاً ، على حين خلا طاق بعض المسلمين من مصحف يزدان به ، كما يظهر الإعجاب ببرهميّ لا يكل عن العمل الدائب ساعدُه القوي ، وينحت له به صنماً من الصخر الصلود . ثم يضرب أمثلة عدة وغايته من هذا كله أن يشحذ من همم المسلمين ليلتمسوا الوسائل إلى الغايات ويبتغوا بالعمل وجوه النجح .

ويتصدى للتعليم ، وفي نظره أن العلم يرسو على أساس من الحس ، وهو يمد الإنسان بقوة تتبع الدين ولا بد ، وإلا فلن تكون إلا قوة شيطانية . كما أن العلم مقطوع الصلة بالعشق ، ثائرٌ متمرِّد كالشيطان . أما إذا زاوجه العشق فهو إلهي الصفات . وبهذا العشق تكتسب الحياة مالها من معان ، ويصبح العلم بفضل منه نعمة للبشر .



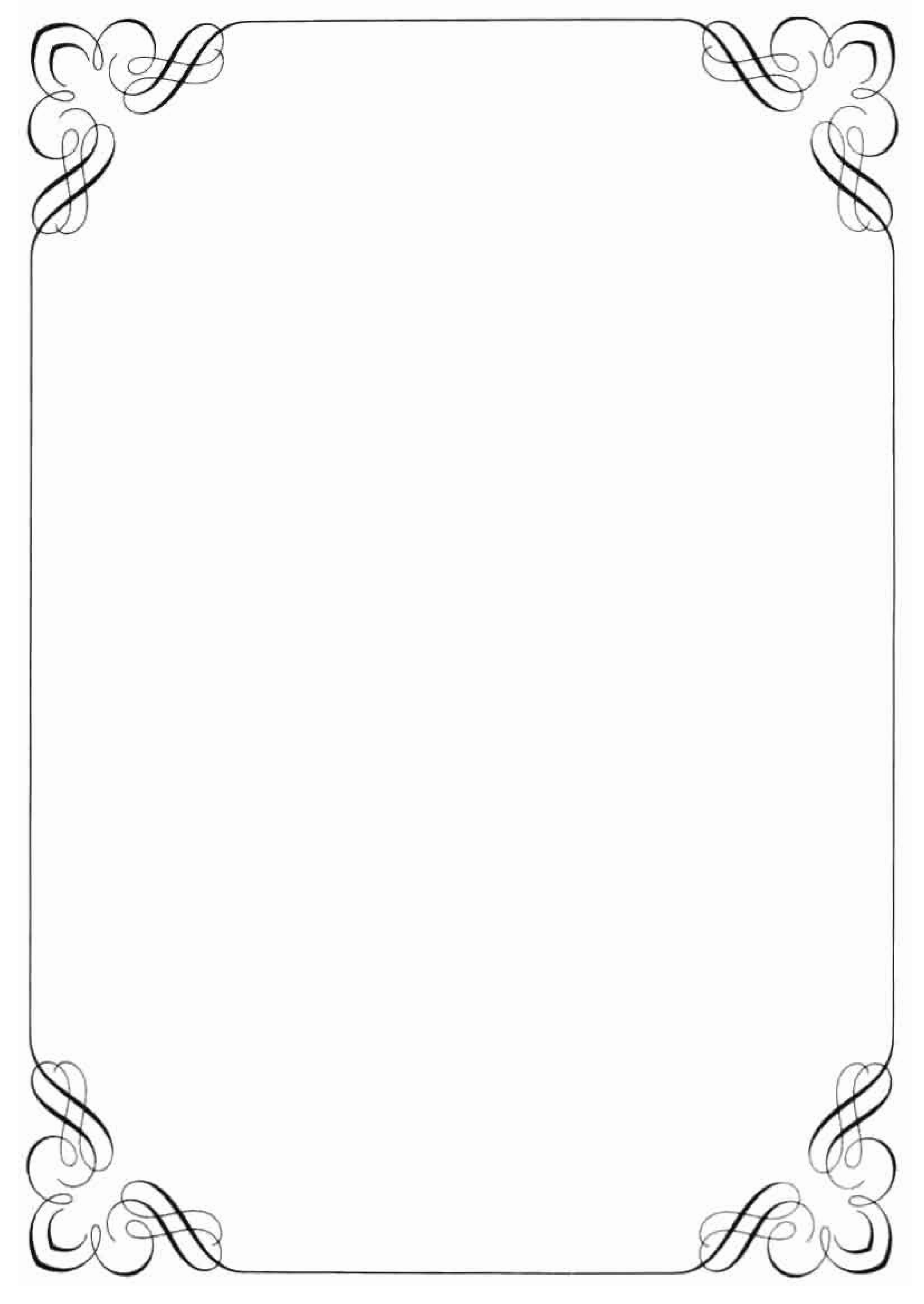



القسم الأوّل

(بالفارسيّة)



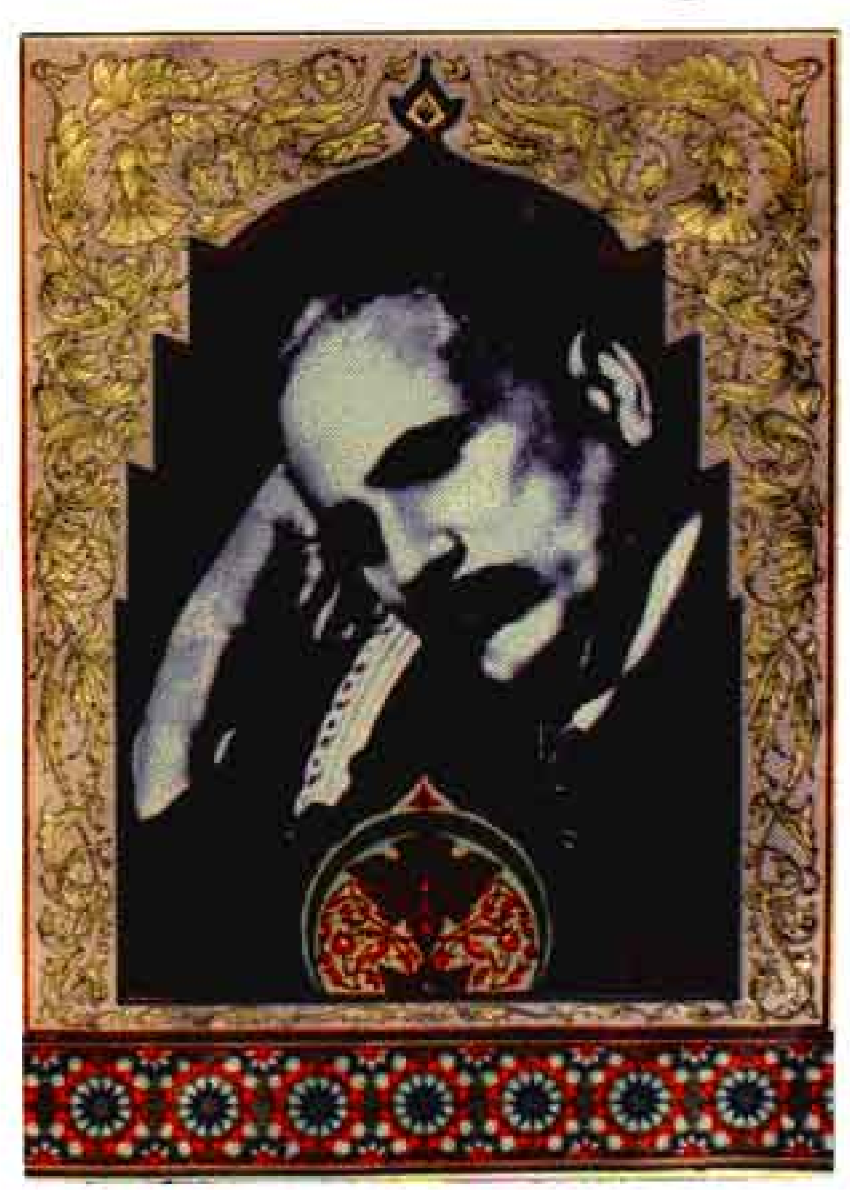


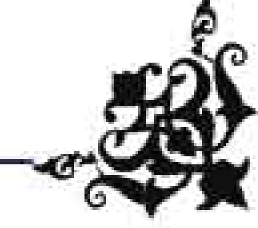






أَلَا يـا حبَّـذا تِلـكَ الطـريـقْ تطولُ ولَا يؤَانِسها الرفيقْ

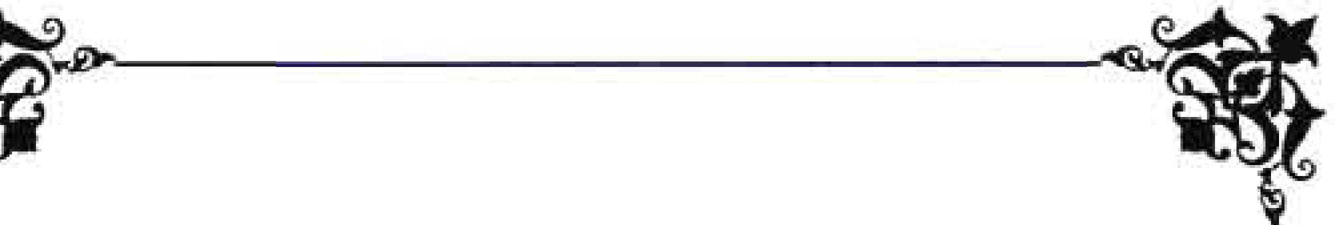
لها الزفراتُ، فافتحْ منكَ قلباً لتحرقَ فيه حزناً لا تطيق





الدكتور الشيخ محمد اقبال فى شبابه



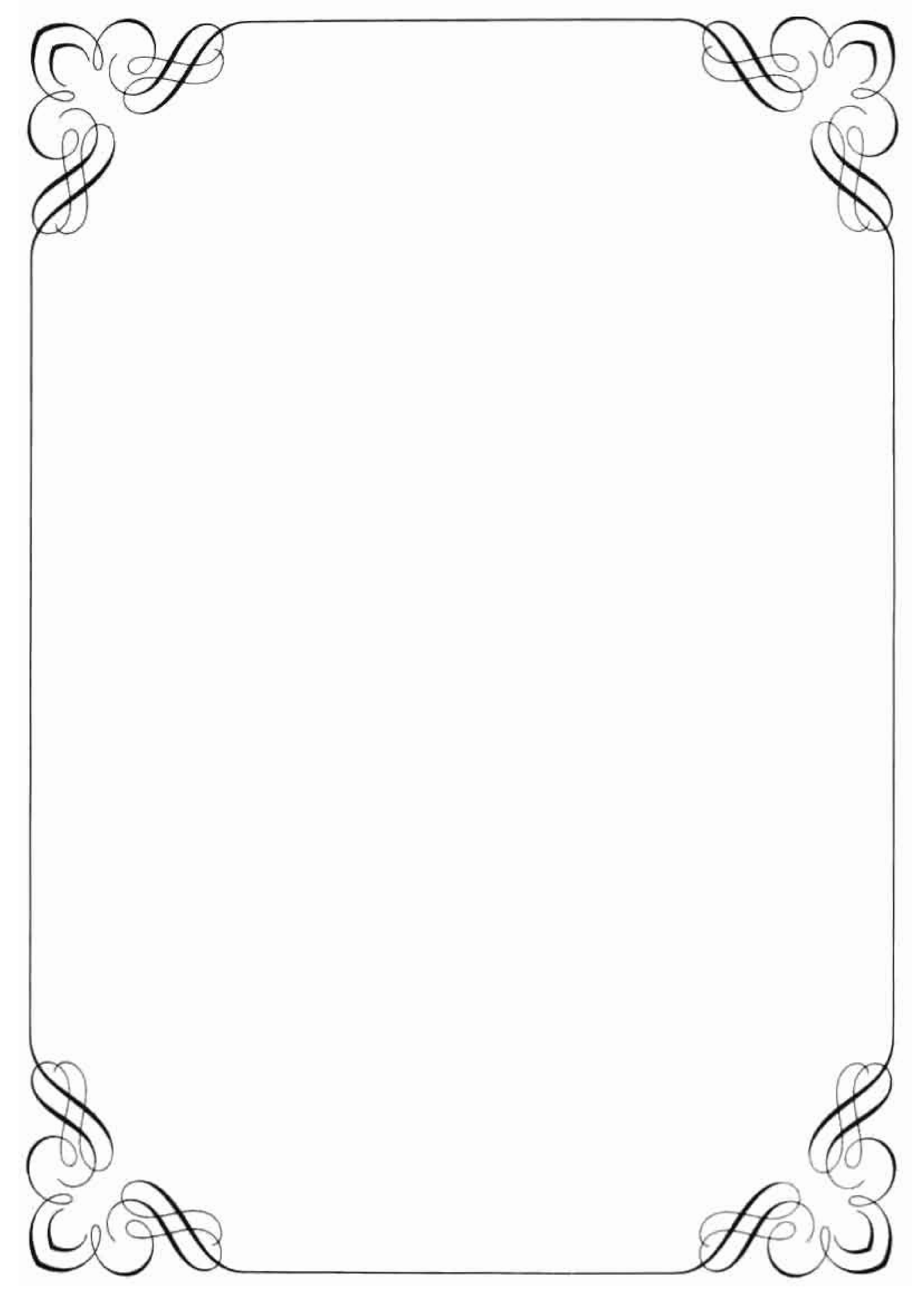
القسم الأول[1]

(المترجم من الفارسية)

مَنَاجَاة

(١) القسم الأول والثاني والثالث لهذا الديوان نقله من الفارسية إلى العربية شعراً الدكتور حسين مجيب المصري .



في الحضرة الإلهيَّة

لقـد سلبـوا لنـا قلبـاً ومـرُّوا　　وكـانـوا شعلـةً خمـدتْ ومـرُّوا
عـوامّ القـومِ عـايشهـمْ رُويـدا　　فـإن خـواصهـم ثمِلُـوا ومـرُّوا

* * *

أطَـالُـوا القـولَ شَكّـاً فـي وجـودي　　وقـد أقصـرتُ عـن قـولٍ سـديـدِ[1]
لحـيّ القلـبِ هـل تـدري سجـوداً　　علـيّ احكـم بهـذا مـن سجـودي

* * *

فـؤادي كـان قيـدَ الكيـفِ والكمّ　　يـرى لكـن وراءَ البـدرِ إن تـمْ
خـلاه هبـه حتـى فـي سعيـر　　بخلـوتـه كفـوراً فهـوَ يهتـمْ
هيـاجٌ مـاجَ فـي مـاء وطيـنْ　　بـلاءُ العشـقِ مـنْ قلـبِ حـزيـنْ
قـراري بـرهـةً حقـاً حـرام　　فـرفقـاً ، شـأنُ قلبـي مـن شـؤونـي

* * *

أجبنـي مـن عـن الـدنيـا تخلّـى　　لهـا حسـن ، لمـن حُسْـنٍ تجلّـى[2]
تقـولُ احـذرْ مـن الشيطـان لكـنْ　　أتعـرفُ مـوجِـدَ الشيطـانِ أم لا ؟

* * *

ولـي قلـبٌ طليـقٌ فـي عـذابِ　　نصيبـي مـن عتـابٍ أو خطـابِ

---

(١) أقصر عن القول : سكت عنه .

(٢) تخلى عن الدنيا : زهد فيها وقطع ما بينه وبينها من أسباب .

لإبليسَ أنا ما سؤت قلباً خطيئة كلٌ حينٍ من صوابِ
صبنتِ الكأسَ عنا أمَّ عمرٍو وكان الكأسُ مجرَاها اليمينا[1]
إذا ما كَانَ هَذَا دأبَ عشقٍ بكأسكَ فاضربِ البيتَ المصونا[2]

***

أسيرُ هوى ، على النفس انطواءُ به ألمٌ ومَا يجْدِي دَوَاءُ
عجيبٌ أنْ تكلّفنِي سُجُودَا خراجُ الأرضِ والأرضُ الخلاء !؟

***

بلا أمدٍ تراخى بي طريق نثرتُ الحبَّ ، أين لي الوريق[3]
من الآلامِ لا أخشى ولكنْ بهذا القلبِ هبْ ألماً يليق
سريع السكر لا تُرشِفْ شرابي وأبعد عن غريرٍ في ارتياب[4]
عن القصباءِ يحسن بُعد نارٍ خواصَّ القومِ وحدهمُ فحابِ[5]

***

أأنت لقيتَ في طلب لغوبا وما أصليتُ في شوقٍ لهيبا[6]

---

(١) هذا البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ، وصبنت : بمعنى صددت وصرفت . ومن شعراء الفرس من ضمنوا شعرهم الفارسي أبياتاً عربية . وتعرف أشعارهم بالملمعات . وأصل التلميع أن يكون في جسم الفرس أجزاء من لون يخالف لون جسمه فسمي هذا الشعر ملمعاً على التشبيه .

(٢) الدأب : الشأن والعادة وفي الأصل فاضرب بكأسك جدار الحرم . وحقيق بالذكر أن الخمر هنا هي خمر الصوفية التي يرمز بها إلى العشق الإلهي . ولعمر بن الفارض خمرية مشهورة مطلعها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

(٣) الأمد . الغاية . الوريق : الكثير الورق من الشجر .

(٤) الغرير : من لا تجربة له .

(٥) القصباء : منبت القصّب . وهو كل نبات يكون ساقه أنابيب وكعوباً .

(٦) اللغوب : التعب .

وإنّـــي هـــارب مـــن لا مكـــانـــي فَنَوحُ الـوَهْـنِ لـم يُشْجِ القُلُوبا[1]

* * *

أثـــرْ دنيـــاك خـــذ منـــي المثيـــرا بهـــا التغييـــر فـــاجعلـــه الكبيـــرا
لـــك الإنســـان فـاخلـق مـن ثـراهـا أبِـــرْ مـــن كـــان للمـــال الأسيـــرا[2]

* * *

بنـــورِ الشمـــسِ دنيـــانَـــا ظـــلام وليـــس الحـــقُّ مـــا أدّى كَـــلام
إلـــى كـــم ، إنّ دنيـــانـــا خـــراب سيكســـوهـــا دمـــاءهـــمُ الأنـــام[3]

* * *

---

(١) الوهن : منتصف الليل . ويتردد ذكر المكان واللامكان والجهات في شعر إقبال مما يبعثنا على الإشارة إلى تلك المقولة عند الفلاسفة . فيرى أفلاطون أن المكان يستحيل عليه الفناء وإليه مأوى المخلوقات . ويقول أرسطو إن وجود المكان متعلق بوجود العالم المتناهي، وقد تابعه على ذلك الفارابي وابن سينا من فلاسفة المسلمين. والمكان في نظر الرواقيين فراغ متوهم تشغله الأجسام ولا وجود له في ذاته فليس بحقيقة . وقد بين الأشعري إلى أي حدٍّ اختلفت الآراء في المكان فعند بعضهم أنه ما يقل الشيء ويكون الشيء متمكناً فيه . وقال غيرهم إنه ما يماس الشيء ، وإذا ما تماس الشيئان فكل منهما مكان بصاحبه . وعند غيرهم أنه ما يعتمد عليه الشيء أو لا يعتمد ويمنعه من السقوط . كما قيل إنه الجو وقيل هو ما يتناهى الشيء إليه . أما المتكلمون فيرون أنه الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وتنفذ منه أبعاده. ويضيف أحد فلاسفة الإسلام إلى بعد الطول والعرض للمكان بعداً ثالثاً هو العمق . ويوضح ذلك بالإناء والدار، فيقول إن الإناء قد يمتلىء بالشراب ويخلو منه ، كما تعمر الدار بساكنيها ويهجرها من فيها فليس ذلك الممتلىء الخالي هو السطح الباطن بل هو العمق بأسره .
ولقد دلتني الدكتورة سهير فضل الله مدرّسة الفلسفة الإسلامية بكلية البنات من جامعة عين شمس على بحث لها في هذا الموضوع ، فشكرها من أوجب الواجب [الأستاذ المترجم] .

(٢) أبار : أهلك .

(٣) الأنام : الناس .

رضـــاك ، فـــإنـنــي عبـــد ذليـــل بـــأمـــر منـــك يمضـــي بـــي السبيـــل
إذا مـــا قلـــت سَـــمَّ العَيـــر طـــرفـــاً فهـــذا القَـــول حقـــاً لا أقـــول[١]

* * *

فـــؤادي ليـــس فيـــه مـــن حُبُـــور ومن لهب خلا من تُربي ونور[٢]
صـــلاتـــي تلـــك خـــذ منهـــا ثـــوابـــاً صلاتي ليس فيها من حضور ![٣]
أعـــن ديـــنٍ وعـــن وطـــنٍ كـــلامـــي وهـــذا الســـرّ يُطـــوى بـــالتمـــامِ
فـــلا تغضـــبْ ، جَفَـــوْتَ ومِـــنْ جَفـــاء بنيـــتَ الـــديـــرَ يبـــدو كـــالحطـــامِ[٤]

* * *

مـــن الإفـــرنـــجِ إن ضـــاقـــت قيـــودُ فقلبُـــك لا يحقّـــقُ مـــا يـــريـــد
علـــى عتبـــاتِ غيـــرِ الله وجـــهٌ تَعفَّـــرَ لا يليـــق بـــه السجـــود[٥]

* * *

لـــي الـــداريـــن إنـــي لا أريـــد وحسبـــي فهـــمُ مـــا روحٌ تفيـــدْ
فهبنـــي سجـــدتـــي فيهـــا احتـــراقـــي ومنهـــا الكـــون فـــي وجـــدٍ يميـــدْ[٦]
أنـــا المكســـالُ مـــا تبغيـــهِ منّـــي أهبّـــتْ هبـــوةٌ لـــم تقتلِعنـــي[٧]

---

(١) العير : الحمار . الطرف : الجواد الكريم .
(٢) الحبور : السرور . الترب : التراب .
(٣) الحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي لديه كالحكم العيني .
(٤) يطلق الدير على الدنيا في الشعر الصوفي . يقول شاعر فارسي ما ترجمته (كنت ملكاً ولي في الجنة العالية مستقر ، إلا أن آدم جاء بي إلى هذا الدير الخرب) .
(٥) تعفر الوجه : تمرغ في التراب .
(٦) يميد : يتحرك ويضطرب .
(٧) الهبوة : الغبرة وهي الغبار . والمقصود هنا الريح التي تحمل الغبار وتثيره .

رأيــت ابنــي يصلــي فــي صبــاحٍ مســائي فليقــلْ بــالصبـحِ زِنّــي[1]

* * *

علـــى قـــومٍ إلهـــي فلتعنّـــي كـراعـي الضـأنِ عـالمُهُـمْ بفـنٍّ[2]
رأتْ عينـايَ مـا يقـذي عيـونـاً ألا يـا ليـت أمّـي لـمْ تلِـدْنـي[3]

* * *

إلامَ بعيــنِ عتبــكَ أنــتَ تنظــر وأصنــامٌ لــديــك إلام تحضــر
لأبنــاءِ الخليـــلِ رأيـــتَ دارا ونمــرودُ يــربُهــمُ ويكفــر[4]

* * *

أيــرجِـعُ مــنْ نعيمــي مـا تَـولَّـى ومِـنْ أرضِ الحِجـازِ الـريـحُ ؟ كـلاَّ
وهـــذا العمــرُ يـالهفـي تقضّــى فهـلاَّ عــادَ مــن أحببــتُ هــلاَّ ؟

* * *

إذا مــا جــاء مــن ذا الســرِّ يعـرفْ بلحـنِ القلـبِ أسمـاعـاً فشنِّـفْ[5]
وروحَ القلـــبِ مَـــنْ أبقـــى ونقّـــى كليـمٌ أو حكيـمٌ وهـو يعـزف[6]

* * *

---

(١) يشير إلى ابنه المسمى (جاويد) . وزنّي : من زان يزين .
(٢) راعي الضان مضرب المثل في الجهل .
(٣) أقذى العين : أوقع فيها القذى . وهو ما تتأذى به من غبار أو نحوه
(٤) الخليل : سيدنا إبراهيم عليه السلام . يرب : يربي .
(٥) شنف في الأصل بمعنى جعل له شنفاً أي قرطاً ، وشنَّف كلامه : زيَّنه وحلاه وشنف السمع : زينه وأطربه .
(٦) يتردد في الشعر الصوفي ذكر العزف والغناء على أنهما رمز لنشوة العشق الإلهي . ويمكن القول إنّ الحسناء والصهباء والغناء تؤلف وحدة قلما نجد انفصاماً بين مقوماتها الثلاثة .

أرجّي لي فؤاداً قد توجع — شكوتُ فمن شكاتي سوفَ يَسمعْ
بزهرٍ قانىء يزدان قبري — عديم النطق دامي اللحن موجعْ[1]

***

أسيرُ القلبِ لا يفدي الأسيرا — وليس يزيدُ من ألمٍ كثيرا
وينفخُ في الثرَى الأنفاس دوماً — ورامَ الأكلَ أو سكنَ الحفيرا[2]

***

من الأضلاعِ لي قلبٌ يفرُّ — تبقى صورةٌ معناهُ سرّ
طريدُ البابِ يفضلني كثيراً — رآهُ اللهُ ، لي في السمعِ ذِكْر

***

نداءُ جبرئيل ليس يدري — ففي طلبِ مقامٌ طيٌّ سِرٌّ
وهَذا عبدُكَ المسكينُ سَلْهُ — عنِ الآمالِ في حلوٍ ومُرٍّ
صفاتٌ هبْ لخسرو أو لرومي — وَجُدْ لي من سنائي بالمروم[3]

---

(١) القانيء : الشديد الحمرة .

(٢) دوماً : دائماً . الحفير : القبر .

(٣) خسرو : هو أمير خسرو دهلوي المتوفى عام ٧٠٥ هجرية . شاعر عظيم من شعراء الفارسية في الهند . وله شعر صوفي يتميز بخصائص ليست لشعر غيره من شعراء الفارسية في تلك البلاد . وشعره كثير البديع . وقد نظر إليه الشعراء كمثال يحتذى ، كما أوجد أسلوباً عرف بالأسلوب الهندي .

والرومي هو جلال الدين الرومي أشهر وأكبر شعراء التصوف من الفرس ولد بمدينة بلخ عام ٦٠٤هـ لأب من خيرة العلماء والفضلاء ورحل به إلى الأناضول التي كانت تعرف آنئذ ببلاد الروم ولذلك عرف بالرومي . وقد تصدر للوعظ والإرشاد وعقد الأسباب بينه وبين المتصوفة وأشهر مؤلفاته كتاب المثنوي الذي استمد اسمه من نظمه على القافية المزدوجة . وهو يتضمن حكايات لها مغزى صوفي وآيات قرآنية وأحاديث نبوية فسرت وأولت ولكن لا علىّ ظاهرها ولا يداني هذا الكتاب غيره من كتب التصوف . وجلال الدين صاحب طريقة صوفية أساسها وحدة الوجود وقد أشاعها بين الترك في =

أَلِفْتُ صفاتَ عبدٍ منذ دهرٍ ... فليس لكل هذا من لزوم

فقيرٌ عفَّ عن لبسِ المرقَّعْ ... لهذا منه جبريلٌ تَوجَّعْ

لدَينا أمةٌ أخرى لنَخلِقْ ... بها كلاًّ عنِ الدنيا لنَرفَعْ

***

وشعبٌ منه جهدٌ في التَّأنِّي ... ومِنْ إبَرٍ تَراه الشهدُ يُجْنَى

وذاكَ بعالمٍ مَنْ ليسَ يَرضَى ... فتحت العالَمين الظَّهْر يُحْنَى

***

وقومٌ وحَّدُوا عِندَ ابتهالِ ... أنارُوا الفجرَ مِنْ جوفِ الليالي

رأوا في الشمسِ صبحاً مستقراً ... فأبدتْ نهجَ نجمٍ منْ رِمَالِ[1]

لحفلٍ في الليالي كنتُ زينا ... نقَصْتُ وكنتُ بدراً ذاقَ أيْنا[2]

وفي هذا التغافلِ كَمْ أفاضوا ... ولكني تركتُ الجمعَ وهْنا[3]

= الأناضول ، واضطره هذا إلى محاولة النظم بالتركية ليفهم عنه سواد الناس . فكان ذلك سبباً في نشأة الشعر التركي العثماني . وكانت وفاته عام ٦٧٢ هجرية .

أما سنائي الغزنوي المتوفى عام ٥٤٥هـ . ففي ديوانه تتردد الشكوى ممن يأخذون بالقشور دون اللباب ويتمسكون بالظاهر دون الباطن ، كما يصرح بما آلت إليه حال القوم لتناسيهم أوامر الدين ونواهيه ، ويئن تألماً من جفاء الخلان وصروف الزمان . غير أن شهرته بشعره الصوفي ، ويعد أول شاعر صوفي بحق في إيران وأول من ضمن شعره مصطلحات التصوف .

(١) النهج : الطريق . وفي الأصل أن الشمس تزيح الرمال عن طريق المجرة وهي نجوم تسمى الطريق اللبنية في الإنجليزية وحاملة التبن أو ناثرته في الفارسية ، وتسمى في الريف سكة التبانة لأنها تشبه طريقاً تناثر فيه التبن ، وانعكس عليه نور القمر بعد أن مر به التبان الذي يحمله .

(٢) الزين : الزينة . الأين : التعب يشبه نفسه بالقمر ، وكأنه ينقص من هزال يصيبه لطول سيره في السماء .

(٣) الوهن : نصف الليل .

كهـذا العصـرِ عصـراً مـا رَأيْنَـا حـزيـنُ القلـبِ جبـريـلٌ عَلينَـا
هُنَـا قَـدْ شيَّـدوا ديـراً عجيبـاً يـزيـد لمـؤمـنٍ كُفْـرٌ لـدينـا !

* * *

أرَى دنيـاكَ فـي أيـدِي اللئـام ولِـلأحـرَارِ فـي أسـرٍ مُقَـام
فَضيـلٌ بَيـنَ مَـنْ فَقِهُـوا أمـوراً يعيـشُ كمثـلِ نسـرٍ لا الأنـام[1]

* * *

مـريـدٌ قـال عنـدَ الشيـخِ يـومـا إلهـي لـمْ يحِـطْ بـالنـاسِ عِلْمَـا ؟!
كَمِثْـلِ العـرقِ فـي عنـقٍ قـريـبٍ وليـسَ كبطِنِنَـا فـي القُـربِ حتْمـا

* * *

لأرضِ الهنـدِ حـالٌ بَعـدَ حـالْ وهـذا الكـونُ أمسـى فـي اختِـلَالْ
إلينـا كيـفَ تطلـبُ أن نصلـي بـرأسِ الجيـشِ عبـدٌ كـالمحَـال
ويَحْكُـمُ مسلـمٌ فـالنفـسَ بـاعـا وآذانـاً وعينـاً قَـدْ أَطَـاعـا
وهَـتْ أجْسَـادُنَـا مِـنْ إصْـرِ حُكْـمٍ فـآدَ الشَّـرْعُ متنـاً والـذِّرَاعَـا[2]

* * *

إلهـي زِنْ لَنَـا خَيـراً وشـرًا هـبِ الـدنيـا نعيمـاً مستمـرًا
وشـاهَـدْنـا خُلِقْنَـا مِـنْ تـرابٍ لنجعـل عـالـمَ الغبـراءِ نَضـرًا[3]

* * *

خُلـودُ المـرءِ فـي الـدنيـا عَـرِفتـا وعـنْ مَـوْتِ الفجـاءةِ مـا سمعتَـا
ووقتُـكَ لَـنْ تُعَـرِّضَـهُ لنقـصٍ أإن خلـدتَ قـالـوا قـد ضُـرِزتـا ؟!

---

(١) الفضيل : ذو الفضل .

(٢) الإصر : الثقل . آد : أثقل . المتن : الظهر .

(٣) الغبراء : الأرض .

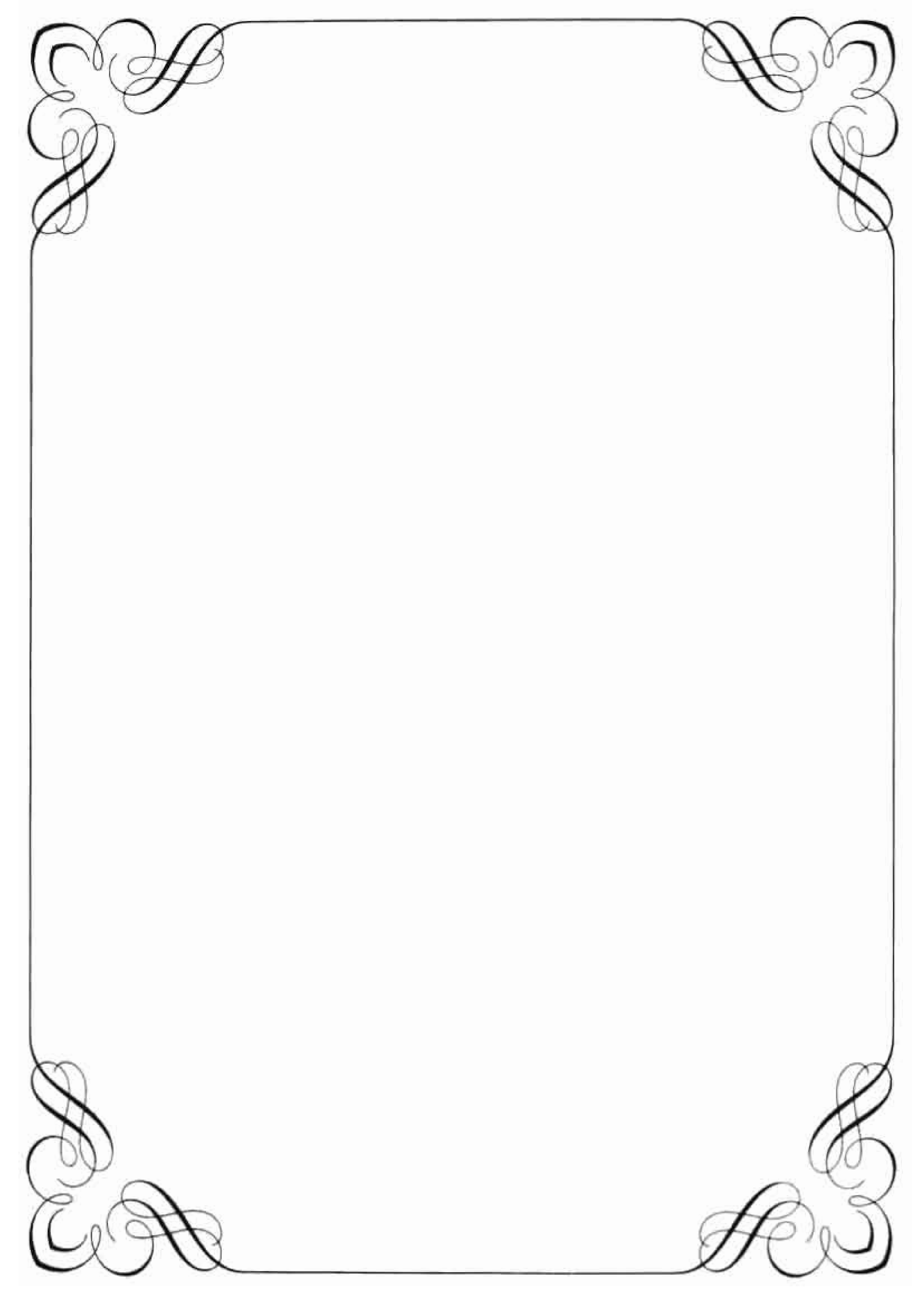
إنِ الـدنيـا دنـتْ مِـنْ منتهـاهـا أبـانَ الـدهـرُ أسـراراً طـواهـا[1]
فـلا تفضـحْ لـدى الـرحمـنِ أمـرِي حسـابـي صفحـةٌ مَـا إنْ رَآهـا !

* * *

بقيـتُ هنـا وَلـي روحٌ تسِيـر إلـى البطحـاءِ أشـواقـي تَطِيـر[2]
خـواصَّ القـومِ عـايشهـمْ ، تلبَّـثْ بشـوقِـي دارَ مَـنْ أهْـوى أزور[3]

---

(١) أبان : أظهر .
(٢) البطحاء : مكة المكرمة .
(٣) عايشهم : عش معهم . تلبث : ابق .





القسم الثاني



الرِّسَالَة







إلى الرسالة

تحت السماء مقام أرق من العرش يستلزم الأدب
ذلك المقام الذى يحضر إليه جنيد وبايزيد تائهى الأنفاس[1]
عزت بخارى[2]



(١) جنيد وبايزيد من المتصوفة المشهورين ، توفى الجنيد البغدادى عام ٢٩٧هـ
أما بايزيد فهو أبو يزيد البسطامى
المتوفى عام ٢٦٠هـ ولهما تراجم كثيرة فى كتب التصوف مثل حلية الأولياء
طبقات الصوفية ، مرآة الجنان .
تذكرة الأولياء ، الرسالة القشيرية .
(٢) شاعر ايرانى .

تمهــلْ لا تُقِــمْ تلــكَ الخيــامــا   دليلُ الـركـبِ فـي البيـداءِ هـامَـا[1]
وهــذَا العقــلُ نعــدمــه دليــلاً   لــذا أسلمــتُ للقلــبِ الـزمـامـا

* * *

ســويــدائــي بهــا ألقيــتُ نظــره   بحضنِ القلبِ فاستروحتُ فَتْره[2]
بــريــحٍ للمــدينــةِ ضقــتُ ذرعــاً   لقلبــي مــن نسيــمِ البيــدِ خطــره

* * *

ولــي قلــبٌ لمــنْ كــانَ الشهيــدا   هــو الخفــاقُ يــألــفُ أنْ يميــدَا[3]
إلــى الصحــراءِ أحملــهُ فيــأســى   على شـطِّ الغـديـرِ بَكَـى وليـدَا[4]
ولا تســألْ عــنِ الــركــبِ السُّكــارى   فمَــا يــرْضَــون تِلــكَ الــدَّارِ دَارَا
يهــزُّ قُلُــوبهــمْ جَــرَسٌ مــدوٌّ   نسيمــاً فــي ذُرَى القَصْبَــاءِ ثــارَا[5]

* * *

ليثْــرِبَ كــانَ فــي كُبْــرَى رَحِيلِــي   وَبــي فَــرَحُ اللقــاءِ مَــعَ الخليــلِ
كَــأَنّــي الطيــرَ قبــلَ الليــلِ يمضِــي   ويَبْغِي العشَّ في الرَّوْضِ الجميلِ

* * *

أَدَانــوا عــاشقــاً رَشَــفَ المــدَامَــا   وَكَــمْ لِمحنَّــكٍ عَــابُــوا الكَــلاَمــا

---

(١) الركب : راكبو الإبل ، وفي الأصل القافلة . والبيداء : الصحراء . وهام : سار على غير هدى .
(٢) السويداء : حبة القلب . استروح : استراح .
(٣) يميد : يتحرك في اضطراب .
(٤) يأسى : يحزن . الغدير : النهر .
(٥) ذرى القصباء : أعالي القصب في منبته .

عَلَى نَغَمِ الحِجَازِ شَرِبْتُ كَأْسِي وَمَا إنْ قَدَّمُوا مِنْ قَبْلُ جَامَا[1]

أَتَسْأَلُ عَنْ مَقَامَاتٍ لِلَحْنِي ومَاذَا يَعْرِفُ النَدْمَانُ عَنِّي[2]

لَقَدْ أَلْقَيْتُ فِي الصَّحْرَاءِ رَحْلِي وَفِيهَا أَخْتَلِي حَتَّى أُغَنِّي[3]

* * *

وَقُلْتُ لِنَاقَتِي بِالرِفْقِ سِيرِي بشيخٍ فَازْفِقِي دَنِفٍ حَسِيرِ[4]

وَسَارَتْ نَاقَتِي سَيْراً عنيفاً أَتَخْطُو فِي الرِّمَالِ أمِ الحريرِ !

* * *

ويا جمّالُ عنها اطرح عقالاَ لِرُوحِي رُوحُهَا كَانَتْ مِثَالاَ

تَهَادَتْ مَوْجَةٌ أَيْقَنْتُ مِنْهَا بِأَنَّ عَلَى الفُؤادِ الأسرُ طَالاَ

تَرَقْرَقَ دَمْعُهَا سُودَ العيونِ ومِنْ زَفَرَاتِها كَانَتْ شُجُونِي

مُدَامٌ أُضْرِمَتْ فِي القَلْبِ نَارًا بِنَظْرَتِهَا كموجٍ يَحْتَوِينِي

* * *

وفي الصَّحْراءِ قَافِلَةٌ تَكُون وفي توديعِها خَفَقَتْ لُحُون[5]

---

(١) الجام : الكأس . ولأهل الحجاز منذ قديم شهرة بالميل إلى الغناء والمهارة فيه . وهذا يذكرنا بقول من قال :

رأيه في السماع رأي حجازي وفي الشراب رأي أهل العراق

(٢) المقام : من مصطلحات الموسيقا . وللمقام معنى آخر عند الصوفية ، فهم يتمثلون التصوف طريقاً يسلكه الصوفي أو (السالك) وفي هذا الطريق مراحل ومنازل يسمونها المقامات ، وينبغي أن يمر بها حتى يصل إلى الحقيقة أي الفناء في الله ويجد البقاء في الله . والندمان : النديم أو الندماء .

(٣) الرحل : ما تستصحبه من الأثاث .

(٤) الدنف : العليل . والحسير : المعيا والكليل .

(٥) كان هنا تامة . اللحون : الألحان .

أَلَا فَــاسجُــدْ عَلَــى رَمْــلٍ تَلظَّــى   عليـه الـوسـمُ يَخْتَـرِقُ الجبِيـن[1]

* * *

مَسَــاءٌ مِثْــلُ فَجْــرٍ قَــدْ تَبَسَّــمْ   تَمطَّــى صُبْحُهَــا وَاللَّيــلُ أَظْلَــم[2]
تَمَهَّــلْ إِنْ خَطَــوْتَ عَلَــى رمــالٍ   كقلبــي كُلُّهَــا قَلْــبٌ تَــأَلَّــمْ
أميـرُ الـركـبِ مَـنْ ذَا الأَعْجَمِـيّ   بغيــرِ لِسَــانِنَــا لَحْــنٌ شَجِــيّ
يُغَنِّــي وَالغنَــاءُ لَــهُ سَــرَابٌ   وفــي الصحــراءِ مِنْــه القلــبُ حَــيّ

* * *

وَمِــنْ عِشْــقٍ وَمِــنْ سُكْــرٍ مُقَــامُــه   وَفِــي مَــاء وَفِــي طِيــنٍ ضِــرَامُــه[3]
لَــهُ الأَنْغَــامُ تُطْــرِبُ كُــلَّ قلــبٍ   لَنَــا قَلْــبٌ بِفِلْــذَتِــه قِــوَامُــه[4]

* * *

خَفِــيّ الحــزنِ فــي صمــتٍ تَــراهُ   لســانُ المــرءِ فــي خُبْــرٍ رَوَاهُ
طَــرِيــقٌ وَعْــرَةٌ وَالنِّضْــوُ فِيهــا   بِــلَا نُــورٍ لِمُصبَــاحٍ هَــدَاه[5]
ربيــعُ المــرجِ مُخْمَــرُّ الــزهــورِ   أَقَــامَ الصحــبُ فــي كَنَــفِ السرُورِ
أَتُــوقُ إِلَــى البَقَــاءِ هُنَــاكَ وَحْــدِي   وَفِــي جَبَــلٍ عَلَــى شَــطِّ الغَــدِيــرِ[6]

* * *

(١) الوسم : أثر الكي .
(٢) يريد صبح الصحراء وليلها .
(٣) العشق والسكر هنا بالمعنى الصوفي .
(٤) الفلذة : القطعة وقوام الشيء نظامه وعماده .
(٥) النضو : المهزول الضعيف .
(٦) أتوق : أشتاق .

وأَقْـرَأُ تَـارَةً شِعْـرَ العِـرَاقِـي[١] وَأَحْيَـانـاً مِنَ الجَامِـي احتِـرَاقِـي[٢]
أَبَيِّـنَ لحـونِ أعـرابٍ ولحـنٍ لِحَـادي نـاقتـي بَعْـضُ اتفَـاقِ[٣]

* * *

أَشُـبُّ فَـرَحَـاً بـأحْـزَانِ الطـريـق وَكُـنْ مَجنُـونَـهُ غَيْـرَ المفيـقِ
طَـريقـاً طـالَ يـا حَـادِي لِتَسْلُـكْ وَآلامَ المفـارقِ مِـنْ حَـرِيـقِ[٤]
أَنِيـسُ الـرُّوحِ بَـادِلْنِـي شَكَـاتِـي وَقُلْ مِثْلِي « بذي حسنٍ مَمَاتِي »
« لِنَمْسَحْ مَوْضِعَ القَدَمينِ » فَاهْمِسْ « بِـأَجْفَـانٍ رِقَـاقٍ دَامِعَـاتِ »

* * *

لَقَـدْ غَضُّـوا وغَضُّـوا مِـنْ حَكِيـم جَهُـولٍ كَـانَ ذَا الفَضْـلِ العَمِيـم[٥]
وَنَحْـنُ اليـومَ فِـي عَصْـرٍ سَعِيـد لَـدَى السلطـانِ دَرْويـش عَظِيـم

* * *

بِصَـدْرِي هَـذِه الـدنْيَـا وَعَيْـت بِـرَأسِي « لا مَكَـانـاً » قَدْ حَـوَيْـت
وَلَمَّـا جُـزْتُ فِـي العَلْيَـاءِ سَقْفـاً جَنَـاحـي كـلَّ فـي أَرْضِـي هَـوَيْـت

---

(١) هو فخر الدين العراقي المتوفى عام ٦٨٨ هجرية من شعراء التصوف في إيران . وشعره رقيق أنيق يموج بالعشق الإلهي ، وقد رحل إلى الهند وأصبح من شيوخ الطريقة القلندرية التي تلزم أتباعها بالسياحة فساح في البلاد طولاً وعرضاً . ولما زار مصر وجد السبيل إلى سلطانها الذي أكرمه حق إكرامه وأمر بتنصيبه شيخاً لشيوخ مصر .

(٢) جامي : هو الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي المتوفى عام ٨٩٨ هجرية ويعد من أعظم شعراء الفرس وآخر فطاحلهم من القدماء . والنزعة الصوفية غالبة على شعره ، وقد نظم قصة ليلى والمجنون وطوعها لمعاني التصوف ورموزه ، كما أن له عدة منظومات قصصية ضمنها شروحاً لأحكامه في رمزية وروحانية دقيقة .

(٣) الحادي : من يغني للإبل .

(٤) الحريق : النار . أشب : أمزج .

(٥) غضوا منه : حقروا من شأنه .

بِــوَادِيِنَــا خُلُــودٌ للــزمَــانِ بِــلاَ صُــوَرٍ نَمَــتْ فِيــه المَعَــانِــي
حَكِيــمٌ دَائِمــاً آخــى كَلِيمــاً لِسَانٌ سَاكِتٌ عَنْ (لَنْ تَرَانِي)[1]

* * *

وَيُبْـدِي المسْلِـمُ المحبـوبُ فَقْـرَه يُصَعِّــدُ مِثْــلَ حَــرِّ النــارِ زَفْــرَه
شَكَــا مِنْــه الفُــؤَادُ وَلَيْــسَ يَــدْرِي فَهَبْنَــا يَــا رَسُــولَ اللهِ نَظْــرَه

* * *

عَــذَابُــكَ مِنْــهُ كَــمْ ذُقْــتَ العــذَابَــا بِــكَ الألْحَــانُ لِــي كَــانَــتْ عَــذَابَــا
حَــزِيــنٌ ، مَــا رَأَتْ عَيْنَــايَ يَــومــاً بِــأرضِ الهنــدِ قَــطُّ لَــكَ الصَّحَــابَــا
لِعَبْــدِ الهنْــدِ لَيْــلٌ ضَــاعَ فَجْــرُه وَأَيْــنَ الشمــس بَــلْ قُــلْ أَيْــنَ بَــدْرُه
أَنَــا المِسكِيــنُ فَلْتَــرْفُــقْ بحَــالِــي أَمِثْلِــي مُسْلِــمٌ قَــدْ عِيــلَ صَبْــرُه[2] ؟

* * *

فَقِيــرٌ ضَــاقَ بِــالأَلَــم المقيــم بــديــنِ الحــقِ ذو الأصــلِ الكــريــمْ
إلهــي كُــنْ لِمحــزُونٍ مُعِينــاً هــوى مــن صــرحــهِ العــالِــي القــديــمْ

* * *

لســانِــي كيــفَ يــروي عنــه شيًــا وتعلــم مــا بــدا بــل والخفيــا

---

(١) أراد إقبال قوله تعالى سورة الأعراف ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾
وقال جلال الدين الرومي في شعر له : إن الله خالق الوجود من العدم والرؤية لا تكون إلا لما ظهر وخلق . وتباينت أقوال المفسرين في معنى تلك الآية الكريمة وفي كتاب (في السماء) يقول إقبال :
(لــن تــرانــي) إنهــا المعنــى الــدقيــق ولتضــع فيــه فــذا البحــر العميــق
(٢) عيل صبره : نفد .

وما قاساه في دهر طويل طوى قلبي على الآلام طيا
جَرَى فلكٌ على غيرِ المَرَامِ شَكَاةَ الرَّكبِ مِنْ بَعْدِ المُقَام
أَفِي هَذَا كَلَامٌ ليتَ شِعري وَهَذَا الشعْبُ كانَ بِلاَ إمَام

* * *

دِماءٌ فِيهِ تَخلُو مِنْ لَهَاب وما زَرَع الأَزَاهِرَ في الخراب؟![1]
خليّ الغمدِ . ما فِي الكَفِّ مَال وَهَذَا الرفُّ يَهْوى بِالكِتَاب[2]

* * *

بِظَاهِرِ ما يَرَاهُ القَلْبُ قَيِّد فمِنْ ذوقٍ ومِنْ شوقٍ تَجرَّدْ[3]
صَفِيرَ الصَّفْرِ حَتْماً لَيسَ يَدْرِي عَلَى طَنِّ البعوضةِ مَنْ تَعَوَّدْ
له بالقلبِ باباً مَا فَتَحْنَا وَذَاتاً فِي ثَرَاه ما رَأَيْنَا
وَلَا التَّكْبِير دَوَّى فِي ضَمِيرِ وَمِنْهُ الذكْرَ قَطّ ما سِمِعْنَا

* * *

يَقُدُّ الجيبَ مَقْطُوعَ الرَّجَاء لِمَاذَا قَدْ تَرَدَّى فِي البَلاء[4]
شبيهَ الموتِ ما يَلْقَى نَصِيباً إذَا مَا كَفَّ عَبْدٌ عَنْ ثَنَاء

* * *

أَنِلْهُ الحقَّ ، مِسْكِينٌ أَسِير فَقِيرٌ وَهْوَ فِي قَلَقٍ يَثُور
وهذِي حَانَةٌ قَدْ أَوْصَدُوهَا لِيَظْمَأ وَالردَى كَأسٌ تَدُور[5]
فَطَهِّرْ مَاءَهُ وَالطينَ طَهِّرْ بِدُنْيَا مِنْهُ هَذَا القَلْبَ عَمِّرْ

---

(١) اللهاب : اشتعال النار

(٢) خلي الغمد : لا سيف في غمده .

(٣) الذوق في الاصطلاح : نور يلقيه الله في قلوب أوليائه يميزون به بين الحق والباطل .

(٤) يقد : يشق . الجيْب : فتحة الثوب حول العنق . وتردى : وقع .

(٥) الحانة هنا بمعناها عند الصوفية .

تَمَزَّقَ ذَيْلُهُ وَالريحُ تُسْفِي فَفِي مِضْبَاحِهِ المحْطُومِ فَكُّرْ[1]

* * *

عَرُوسٌ هَذِه الدنيَا لِغَيْرِه مَقَامٌ لِلفَنَا نَهْجٌ لِسَيْرِه
وَقَبْلَ المَوْتِ آدَتْهُ الخطَايَا لَهُ الملكَانِ مِنْ دَيْرٍ بِقَبْرِه[2]

* * *

أَفِي عَيْنَيْهِ نُورٌ أوْ سُرُورُ وَمَا فِي صَدْرِهِ قَلْبٌ صَبُور
لِهذَا الشعبِ كُنْ رَبِّي مُعِيناً قَضَى ، فَالرُّوحُ مَا فِيهَا حُضُور[3]
حَنِيفٌ والردَى مَا لَيْسَ يَأْلَفْ أَيَخْلَعُ قَلْبَه رُغباً وَيَأْنَفْ ![4]
وَبَيْنَ ضُلُوعِهِ مَا كَانَ قَلْبٌ يَقْطَعُ زَفْرةً حَرّى وَيَأْسَفْ !

* * *

وَحُكْمُ الفردِ شَرٌّ لِلأَنَامْ فَمَنْ مِنْ شَرِّه غير المضَامْ
شَكَاةَ القَلْبِ للخِلَّانِ فَاسْمعْ إذا مَا شِئْتَ تَحْقِيقَ المَرَامْ

* * *

رَكِيناً كَانَ جِسْمُ المسْلِمِينَا بِنَاءٌ ظَلَّ فِي آدٍ متِينَا[5]
وإنْ نَظَرُوا فَقَدْ ظَهَرُوا بِذَاتٍ لَهُمْ فِي الخَفْقِ أَشْبَهَتِ الوتِينَا[6]

---

(١) تسفي : تحمل الغبار ، والمحطوم : المحطم .
(٢) آدته : أثقلته .
(٣) قضى : مات . والحضور : حضور القلب بدلالة اليقين حتى يصبح الحكم الغيبي كالحكم العيني .
(٤) الحنيف : الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه .
(٥) الركين : القوي . الآد : القوة .
(٦) الوتين : عرق في القلب .

خجولٌ مُسْلِم هَانَتْ شُؤونُه ... لَهُ الخَانْقَاه فَقْرٌ ، مَاتَ دِينُه[(١)]
بِدُنْيَانَا فَقُلْ مَاذَا وَرِثْنَا ... كَلِيمٌ عَنْ مُلُوكٍ نَسْتَبِينُه[(٢)]

* * *

وَعَنْ أَحْوَالِهِ لا تَسْأَلَنِّي ... فَقَدْ سَاءَتْ وَفِيهَا حَارَ ظَنِّي
وَهَذَا الطَيْرُ بِالثَّمَرَاتِ يغْذُو ... لَهُ فِي البِيدِ نَقْرٌ بِالتَّعَنِّي[(٣)]

* * *

لِعَيْنَيْهِ الحياة أَنَا فَتَحْتُ ... وَمَا فِي الأَمْسِ وَالغَدِ كَمْ شَرَحْتُ
كَشَفْتُ الروحَ أَسْرَاراً فَهَلاَّ ... بَلاَغَةَ يَغْرُبِ يَوْماً مَنَحْتُ
وَلَيْسَ لِمُسْلِمٍ جَيْشٌ عَرَمْرَمْ ... بِذَاتٍ مِنْ مُلُوكِ الأَرْضِ أَكْرَمْ[(٤)]
فَلَوْ رَدُّوا إِلَيْهِ اليومَ حَقّاً ... لَكَانَ جَلاَلُه لا رَيْبَ أَعْظَمْ

* * *

أَسَاطِيرُ مَتَاعِ الشيخ حَقًّا ... مِنَ الأَوْهَامِ أَقْوَالاً تَلَقَّى
لَهُ الإِسْلاَمُ بِالزُّنَّارِ يَبْدُو ... وَذَا حَرَمٍ وَمِنْ دَيْرٍ تَبَقَّى

* * *

وَعَالَمُنَا بِإِلْحَادٍ تَغَيَّرْ ... وَأَنَّ الروحَ مِنْ جَسَدٍ تَقَرَّرْ

---

(١) خانقاه : كلمة فارسية الأصل بمعنى المبنى الذي يقيم فيه الصوفية . ويقال : إن الشاعر الفارسي أبا سعيد بن أبي الخير وهو من صوفية القرن الخامس الهجري هو مؤسس أول خانقاه في إيران . ومعلوم أن كل مدينة وكل ناحية في إيران كان بها خانقاه حين الغزو المغولي . وكانت كل خانقاه تابعة لشيخ أو لفرقة خاصة من فرق الصوفية . وقد تنافس المتنافسون من العظماء في بناء الخوانقات ووقف الأموال عليها .

(٢) الكليم : البساط وتأتي كذلك بمعنى الثوب الخلق . نستبينه : نعرفه ونميزه .

(٣) التعني : الشدة والصّعوبة .

(٤) الجيش العرمرم : الشديد .

بِفَقْرٍ كُنْتَ لِلصِّدِّيقِ تُعْطِي أَبِرْ روحاً تَسَامَى أَوْ تَطَوَّرْ[1]

لَنَا حَرَمٌ فَمَاذَا يَسْتَعِيرُ ! بِهِ صَنَمٌ هُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ

وَأَظْلَمَ حَظُّنَا نَحْنُ الْحَيَارَى وَمَا فِي الْقَلْبِ لِلآمَالِ نُورُ

* * *

فَقِيرٌ رَكْعَةً لله صَلَّى طُغَاةٌ أَوْ بُغَاةٌ مَنْ أَذَلَّا

وَتِلْكَ النَّارُ إِنْ خَمَدَتْ بِصَدْرٍ إِلَى عَتَبَاتِ مَنْ ظَلَمُوا تَوَلَّى[2]

* * *

---

(١) يضرب إقبال على قالب شعراء التصوف الذين ألفوا أن يتهكموا بالشيخ أو الزاهد . والشيخ عندهم رمز لغير المتصوف . وقد اتسعت شقة الخلاف بين المتصوفة والفقهاء ، ولا غرو فالمتصوفة يجنحون إلى التأويل والتمثيل والتخييل ويصدون عن الظاهر للغوص في أعماق الباطن . أما الفقهاء فوقافون عند حرفية النصوص لا يمعنون في الاجتهاد بالرأي . ولا يكاد يخلو شعر صوفي من هذا التهكم التقليدي بالزهاد والشيوخ . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي ما ترجمته :
(امض عنا أيها الزاهد وكف الملام عن شاربي المدام ، فما منحونا سوى تلك التحفة يوم ألست) والإشارة في يوم ألست إلى قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ والشاعر يريد ليقول إن الصوفية أتحفوا بعشق الذات الإلهية منذ أن عرفوا ربهم . الزنار : ما يشده النصراني على وسطه .
يريد الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وكان واسع الثراء غير أنه أنفق ماله على رسول الله ﷺ وفي سبيل الله . قالت عائشة رضي الله عنها : إن أبا بكر أنفق على النبي أربعين ألفاً . وعن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما خرج ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل ماله كله معه . وقال لها جدها أبو قحافة وقد ذهب بصره : إن أباها قد فجعها بماله فردت عليه بقولها إنه ترك خيراً كثيراً وأخذت أحجاراً وضعتها في كوة البيت الذي كان أبوها يضع المال فيه ثم غطتها بثوب وقادت إليها جدها الضرير ووضعت يده عليها فقال : إنه أحسن بترك هذا وفيه الكفاية . وقد أرادت أسماء أن تسكن جدها وتوهمه بأن أباها ترك شيئاً ، ولمْ يترك لعياله أي شيء .

(٢) تولى : مضى وأدبر .

يُعَـــادِي المسْلِمُـــونَ الأَقْـــرَبِينَـــا وَظَلُّـــوا فِـــي شِقَـــاقٍ رَاغِبِينَـــا
تَـدَاعَـى مَسْجِـدٌ يَـوْمـاً لِيَـأْسُـوا وَكَـانُـوا مِنْـهُ دَوْمَـاً هَـارِبِينَـا ![1]
لِغَيْـــرِ اللهِ عَفَّـــرْنَـــا الجَبِينَـــا وَكُنَّـــا كَـــالمجُـــوسِ مُهَلِّلِينَـــا
فَـــأَنْفُسَنَـــا شَكَـــوْنَـــا لا سِـــوَانَـــا لِمِثْـــلِ عُـــلاَكَ لَسْنَـــا لاَئِقِينَـــا

* * *

خَلَـتْ مِـنْ رَاحِهَـا كَـأْسُ النُّـدَامَـى إلاَمَ الصَّمْـــتُ لِلْسَـــاقِـــي إلاَمَـــا
عَلَـى الـزَّفَـرَاتِ مِنِّـي القلـبَ أَطْـوِي دُخَـانـاً لِلسِّـرَاجِ مَحَـا الظَّـلاَمَـا[2]

* * *

لَـــدَى الصُّـــوفِـــيِّ دِنَّ مَـــا رَوَاه وَيَطْـــوِي مَكْتَبَـــاً نَهْجـــاً طَـــوَاه[3]
أَغَـــادَرَ مَجْلِـسَ الشعَـرَاءِ كَـرْهـــاً وَمَـــاتَ اللحـــنُ فِـــي نَـــايٍ حَـــوَاه
غَـــرِيـــبٌ ، مُسْلِـــمٌ ، عَـــنْ كُـــلِّ دَارٍ وَلِـــي دُنْيَـــا أَعَـــافُ ، مِـــنَ الغُبَـــار
وَهَـــذِي لَـــوْعَتِـــي مِـــنْ فَـــرْطِ عَجْـــزِي لِغَيْـــرِ اللهِ أَبْـــدَيْـــتُ اقْتِـــدَارِي

* * *

وَتَمنَحُنِـــي جَنَـــاحـــاً كَـــيْ أَطِيـــرَا وَأَلْحَـــانِـــي خَفَقْـــتُ بِهَـــا سَعِيـــرَا[4]
فَهَـــلْ مِـــنْ مُسْلِـــمٍ يَخْشَـــاهُ مَـــوْتٌ ؟ أَطَلْتُ ، وَمَا وَجَدْتُ ، أَنَا المسِيرَا

* * *

سَـــأَلْـــتُ اللهَ بِـــالـــدَّمْـــعِ السَّكُـــوب أَحَـــانَ لمسلـــمٍ رَفْـــعَ الكُـــرُوب ؟

---

(١) يأسى : يحزن . يعجب لمن يحزنهم ضياع حجر من مسجدهم وهم الذين لا يدخلون للصلاة فيه .
(٢) يشبه الزفرات بالدخان . والزفرة في الفارسية تسمى دخان القلب .
(٣) يصطنع إقبال طريقة الصوفية في التعبير ، غير أنه يخالفهم في التفكير ويتناول أعمالهم وأقوالهم بالتفنيد والتنديد . المكتب : المدرسة . والنهج : الطريق .
(٤) السعير : النار .

نِــدَاءٌ ظَــلَّ فِــي سَمْعِــي يُــدَوّي　　« لَــهُ قَلْــبٌ وَأَقْفَــرَ مِــنْ حَبِيــبِ »
لِمَــاذَا أَذْكُــرُ المَــاضِــي المجِيــدَا　　فَهَــذَا الــذِّكْــرُ مَــا كَــان المفِيــدَا
بِصَــدْرِي قَــدْ حَــوَيْــتُ أَنَــا سِــرَاجَــاً　　وَفِــي قَــرْنَيْــنِ آنَسْــتُ الخمُــودَا[1]

* * *

وَيَخْـــرُسُ كَعْبَـــةَ بَنَّـــاء ديـــر　　يَقِيـــنٌ مَـــاتَ فِيـــهِ رَنَـــا لِغَيْـــر[2]
وَتَقْصُـــرُ نَظْـــرَةٌ مِنْـــهُ وَفِيهَـــا　　تَجَلَّـــى يَـــأْسُـــهُ مِـــنْ كُـــلِّ خَيْـــر

* * *

وَتَشْـــرِيـــدٌ وَنَـــارٌ لِلْفَقِيـــر　　مِــنَ الحــرَقَــاتِ هَــبَّ نَــارَ الضَّمِيــر
وَفِيـــهِ القَلْـــبُ تَبَـــتَ أَوْ أَنِـــزَهْ　　بِــآمَــالِ اليقِيــنِ كَفَيْــضِ نُــور
وَلِــي مِــنْ نَشْــوَتِــي[3] قَــدْ تَــرَنَّــخ　　بِــلَا سَيْــفٍ دِمَــاءٌ كُنْــتُ أَنْسَفِــخ
فَهَبْنِـــي نَظْـــرَةً وَارْأَفْ بِحَـــالِـــي　　فَلِــي عَصْــرٌ أُجَــاهِــدُهُ وَأَكْــدَخ

* * *

لَقَـــدْ آثَـــرْتُ أَنْ أَشْكُـــو وَحِيـــدَا　　وَيَشْــرِبَ رُمْتُهَــا فَــاجْتَــزْتُ بِيــدَا
أَأَطْلُــبُ مَكْتَبِــي أَمْ هَــانَ شَــوْقِــي　　تَخَيَّــرْ ، حِيــرَتِــي تَــأْبَــى المــزِيــدَا

* * *

أَطِيـــرُ بِجَـــوِّهِ هَـــذَا المحَبَّـــبْ　　وَمِــنْ غَيْــمٍ جَنَــاحِــي قَــدْ تَــرَطَّــبْ
وَبَيْـــتُ اللهِ أَخْـــوِيـــهِ بِقَلْبِـــي　　أُغَنِّـــي مَـــا بِقَلْبِـــي ثُـــمَّ أَطْـــرَبْ
أَقُــولُ السِّــرَّ مِــنْ مَــا قُلْــتُ يُفْهَــمْ　　وَمَــنْ مِــنْ دَوْحَتِــي الثَّمَــرَاتِ يَطْعَــم
أَمِيــرَ القَــوْمِ أَنْصِفْنِــي فَــإِنِّــي　　عُــرِفْــتُ بِشَــاعِــرٍ غَــزِلٍ تَــرَنَّــم

* * *

---

(١) آنس : رأى . والشاعر يشير إلى فساد حال القوم في القرنين الماضيين .

(٢) رنا : أدام النظر .

(٣) النشوة : السكر .

خِـلاَفَ الشِّعْـرِ مَـا أَبْغِي بِقَـولـي وَحُلَّـتْ عُقْـدَةُ المعنَـى بِحَلِّـي
وَأُكْسِيـراً لِعِشْـقٍ مَـا أُرَجِّـي فَـدِرْهَـم مُفْلِسٍ ذَهَـب بِصَقْلِـي[1]

* * *

حَيَـاةُ الخلـدِ عَنهـا قلـتُ خَبِّـرْ وَمـنْ مَاتـوا حـديثَ الـروحِ ذَكِّـرْ
وقـومٌ يجحـدونَ الحـقَّ قـالـوا بمـوتِهمـا إذا مَـا شِئـتَ بَشِّـرْ
جَبِينـي مِـنْ أَسَـى كـالـزَّعْفَـران جَـرَتْ عينِـي بمثـلِ الأُرجُـوانِ[2]
وحَـالِـي أَنْـتَ تَعْلَـمُ رَغْـمَ صَمْتِـي فَهـذِي عُقْـدةٌ لـي فـي لِسَـانِـي

* * *

غَـرِيـبٌ ، لـي لسـانٌ وَهـوَ نَظْـرَه وَذُو أَلَـمٍ تُكَلِّمُـه بعَبْـرَه
فمِـي أوصَـدتُ ، بـالعينيـنِ أزنُـو فَشَـرْعِـي لا يجيـزُ القـولَ مَـرَّه

* * *

مَنَحْـتُ الـذَّاتَ مـن ذاتـي غـريبـا وَزَمْـزَمَ بيـنَ صَلْصَـالٍ قَلِيبَـا[3]
فَهَبْنِـي زَفْـرَةً حَـرَّى ومِنْهَـا سَـأُصْلَـى كـلَّ بَلْبَـالٍ لَهِيبَـا[4]
زَفِيـرٌ ليـس فـي قلبـي سِـوَاه ولـي أمـلٌ ونبعُـكَ مـا رَوَاه
لمَـنْ أَشْكُـو غمـومـاً فـي فـؤادي علـى مـن غيـر ذاتـكَ مـا طَـواه

* * *

غـريـبٌ شجـوَه بـالنـاي أبـدى ونـارُ اللحـنِ منهـا ذابَ وجْـدًا
أتعلـمُ مـا يقـول ومـا تمنَّـى يـرومُ القلـب[5] عـنْ داريـن صـدًا

---

(١) الأكسير : ما كان يلقيه الأقدمون على الفضة ونحوها ليحيله إلى ذهب خالص .
(٢) الأرجوان : اللون الأحمر .
(٣) القليب : البئر .
(٤) البلبال : الهم .
(٥) يرومُ القلب : يُرِيْدُ .

وما زهراً ولا قَطْراً أريد لتلك الريحِ ، شمسكَ كم تجود
وتعلو نظرتي عن كلِّ نجمٍ ورأيي لا أبدِّله سديد
ببحرٍ شَطُّه لم أدرِ بُعْده دليلُ العاشقين القلبُ وحدَه
إلى البطحاءِ تأمرُنا بسَيْر وإلَّا كنتَ ما وقفت عنده[1]

***

أتطردُ منْ يتوقُ إلى الحضور ألِمْت ولستُ أُعرَف بالصَّبور
بما أحببت مُزْ إلا بصبر عجزت أنا إليه عن المسير

***

دُمَى الإفرنجِ قلبٌ لي تعشَّق ومن نارٍ لأهل الدير أحرق[2]
لقد أصبحتُ عن نفسِي غريبا فما أدرِي وجوداً لي تحقَّق
بِحَانِ الغربِ عَاقَرْتُ الشَّرَابَا برُوحي قَدْ شَرَيتُ لي العذابَا[3]
وكمْ جَالستُ أهلَ الحسنِ لكِنْ بدَتْ نِيرَانهمْ ثَلْجاً مُذَابَا

***

فقيرٌ فلتحقَّقْ لي رَجَائِي هشيمي اجْعَلْه قَلباً في الفَضَاءِ[4]
سئِمْتُ الدرسَ يلقيهِ حكيمٌ فلي من نظرتي فيضُ الذَّكاءِ

***

---

(١) البطحاء : مكة المكرمة .

(٢) الدمى : جمع دمية وهي الصورة المنقوشة أو الصنم . وشعراء الفرس يشبهون الحسناء بالصنم في الحسن . والشاعر يشير من طرف آخر في تهكم وسخرية إلى التهافت على تقليد الغربيين .

(٣) عاقر الخمر : أدمنْ شربها . شريت : اشتريت .

(٤) الهشيم : ماتكسر من يابس النبات .

أنَـا الصـوفـي والمـلاّ أجَـافِـي	وَتَعْلَـمُ مَـنْ أكُـونُ بِـلاَ خِـلاَفِ[1]

عَلَى صفحاتِ قلبي « اللهَ » فاكتبْ	لأشهِـدَهُ وذَاتـي بـالشُّغَـافِ[2]

فـيَّ قَلْـبٌ لمـلاّ الغَـمّ حَـلاّ	وهـلْ بـالـدمعِ بلّ العينَ بَـلاّ

أولَـي مـن مجـالسِه فِـرَاراً	أزيـنُ حِجَـازه بـالبئـرِ ؟ كَـلاّ

* * *

يقـولُ القـولَ نَضْـلاً للحـرابِ	وَفِـي حِضْـنٍ لـه كـمْ مِـنْ كِتَـابِ

وتخجلنـي الصـراحـةُ فِـي كَـلاَمـي	عن الذاتِ اختفىَ لا عنْ صِحَابِ[3]

* * *

أجِـبْ بـاللهِ مـنْ ملـكَ القُلُـوبَـا	ومَـنْ قَـدْ ألهـم الشـوقَ المـذِيبَـا

كِلاَنَـا مَنْ رَمَـى فـي الـديـن سَهْمَـاً	فَقُلْ فـي الـرمـي من كَـانَ المصيبَـا

ولسْـتُ بمخفَلـي غَيْـر الغـريـب	لمنْ في مُشْكِلي شَكْوَى كُرُوبي ؟

ذُيُـوعَ السـرِّ بيـنَ القـومِ أخشـى	شكـاتـي صنتُ عَـنْ قَلْبـي الكَئيـبِ

* * *

وقلبـي لسـت أسلمـه لأيـدٍ	أضيـق بعقـدتـي وأحِـلُّ وَحْـدِي

إلـى غيـرِ الإلـهِ رفعـتُ عينـي	لـذا مـن قمّتـي كـان التـردّي

* * *

---

(١) الملا : كلمة تركية مأخوذة عن العربية (مولى) . وهي بمعنى الشيخ والمعلم والقاضي . والشاعر يطلقها على الشيخ والفقيه وغير الصوفي .

(٢) الشغاف : غلاف القلب أو حبته . وإقبال يجري على مألوف الصوفية من تجريح غير المتصوفة . غير أنه يريد ليجرح ضيقي الأفق من المسلمين المتزمتين الجامدين .

(٣) يعبر إقبال عن نزعته الفكرية التحررية ورغبته في فهم الدين حق الفهم بنجوة عما لا يقره الدين من جمود على الأساطير والأوهام ، ويبالغ في وصف من نظروا في أحكام الدين بلا عقل ولا روح . والمبالغة تفهم على أنها مبالغة إلا أنها تؤكد المعنى وتؤيد الغرض .

بِــرُ أُمِّــي جَمــرةٌ هــذا الجنــون بِصَــدْري فــورةٌ هَــذَا الفتُــون[1]
ومِــنْ أمــواجِ طُــوفَــانٍ تَقَضَّــى بــروحـي الموجُ يجفُوهُ السُّكُـون[2]
لِهَــذَا التــربِ مــا زَالَ الشــرَار لهــذا الصــدْرِ زفْــرُ الفجــرِ نَــار
بمــا أهــديـت مـن نــورِ التجَلِّـي علــى نظــرٍ لعينــيَّ اقتِــدَار

* * *

أُشَـاهـد غيـر أنِّـي لسـتُ أرغـبْ وبيــنَ جــوانِحِــي قلــبٌ تَلَهَّــب
وهــذَا العصْــرُ مِــنْ رَوحٍ تَخَلَّــى فقـلْ مـا السِّرُّ أو مثلـي تَعَجَّـب[3]

* * *

وفــي عصــرٍ بــلاَ لهــبٍ خُلِقْــتُ تُــرابــي فيــه مــا يهفــو مُنخــتُ
وفــي عنُقِــي حيــاتِــي مِثْــلُ حَبْــلٍ علــى عــودٍ كــأنّــي قَــدْ صُلِبْــتُ
ومــا للــزَّهــرِ ألــوانِــي وريحــي يضيــقُ الصــدْرُ بــالأمــلِ الجــرِيــحِ
ومَــا وَسِــعَ الكــلامُ أَسَــى خَفِيّــاً لمــنْ أشكــو بقــولٍ لــي صَــرِيــحِ

* * *

وَفــي شــرقٍ وفــي غــربٍ غــريــبُ فُــؤَادِي لا يُــوَاسِيــه الحَبِيــبُ
همُــومُ القلــبِ أشكــوهــا لِقَلْبــي فكَــانَ لِغُــرْبَتِــي خَــدْعٌ عَجِيــبُ

* * *

لِعِلْــمِ اليــومِ أبْطَلْــتُ الطِّلَسْمَــا[4] حَطَمْــتُ حَبَــائِــلاً بِــالحُــبِّ حَطْمَــا

---

(١) الجنون عند المتصوفة هو جذبة العشق الإلهي .
(٢) تقضى : مضى وانتهى .
(٣) تخلى منه وعنه : تركه .
(٤) الطِّلسمْ والطِّلَّسَمْ ، ج : طلاسم وطلسمات ، يونانية معرّبة : خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى وهو ضرب من السحر .

وإبْـرَاهيـمَ مَـنْ أشْبَهْـتُ حقـاً فَمَـا كَـانَـتْ لَـدَيَّ النـارُ هَمّـا
حَبَـوتُ العيـنَ بـالبصَـرِ البَصِيـر وَقَـوْلَـهُ « لا إلَـه » كَفَيْـضِ نُـور
وفَجْـراً فَلْتَهَـبْ مِـنْ « مَـنْ رَآنِـي » فَلَيْلـي مِنْـكَ ذُو البـدْرِ المنيـرِ[1]

* * *

وَفِـي يَـوْمٍ جَـذَبْـتُ إلَـى ذَاتِـي بِـأَنْـوارِ مَقَـامِـي مُشْـرِقَـاتِ
بِهَـذَا الـدَّيْـرِ مِـنْ نَغَمـاتِ فَجْـرِ خَلَقْتُ دُنَى القلوبِ الـوَالِهـاتِ[2]

* * *

بِعَـالَمِنَـا جِنَـانٌ عَـالِيَـاتُ لـدوحتهـا دمـوعـي الجارِيَاتُ[3]
سكُـونٌ كَـانَ حَتَـى اليـومَ فِيهَـا فَـأَيَّـامٌ لآدَمَ آتِيَـاتُ
ألَا هَبْهَـا فَتَـىً يَخْتَـالُ فِيهَـا هَـوَاهُ الكَـأْسُ دَارَتْ يحتَسِيهَـا
تَـرَاهُ مِثْـلَ حَيْـدَرَ فِـي قِـوَاه مُنَى الـدارَيْـنِ مَـا إنْ يَشْتَهِيهَـا[4]

* * *

أَدِرْ يَـا صَـاحِ كَـاسَـاتِ النُّـدَامـى وَزِدْ فِـي نَـاي أَلْحَانِـي ضِـرَامَـا[5]
وَهَـذَا القلْـبُ رُدَّ إلَـى ضُلُـوعِـي لأَفْضِـلَ كُـلَّ مَـنْ مَلَكُـوا ، مَقَـامَـا

* * *

وَمِـنْ عِشْـقٍ لَنَـا الـدنْيَـا بِصَـدْرِكْ وتَفْـرَح فَـرْحَـةٌ نَشْـوَى بِصَـدْرِكْ
فمِـنْ جِبْـرِيـلَ ؟ إنِّـي لَسْـتُ أَدْرِي أَأَبْـدَتْ جَـوْهَـراً مِـرْآةُ صَـدْرِكْ

---

(١) إشارة إلى القول الذي جاء فيه (من رآني فقد رأى الله) كذا في الأصل .
(٢) الدنى : جمع دنيا .
(٣) الدوحة : الشجرة العظيمة .
(٤) حيدر : هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
(٥) أدار الكأس : طاف بها على الشاربين .

فُـؤَادِي لَـمْ يُمِـقْ أحـداً بمعبـد مُقَامي أيْنَ ؟ كُنْتُ بِه المقيَّد[1]
إلَـهٌ يبْتَغِـي مِنِّـي سُجُـودَاً ! لَقَـدْ حطَّمْتُـهُ وَهُـوَ المبـدَّدْ

* * *

وَهَـذِي زَهْـرَةٌ نَبَتَـتْ بِتُـرْبِـي بَـدَتْ فِـي حمـرةٍ مِـنْ ذوبِ قلْبـي
تَقَبَّلْهَـا ، بِهَـذَا القلـبِ رفقـاً فَلِي قلبٌ ، وَهَذَا القلبُ حَسبِي[2]

* * *

لِهَـذَا الشعـبِ إنِّـي قـدْ خَفَقْـت ولحنِي النارَ فـي رُوحِـي خَلَقْـت
وَجيـزُ القـولِ خَيـرُ القـولِ قَـالُـوا خَفَقْتُ ، خُلِقْتُ ، لَكنِّي استَرَحْت
بِفطـرةٍ مـنْ تمجَّـن رمـتُ صِـدْقـا وتحـرقُ زَفْـرَتِـي الأرواحَ حَـرْقَـا[3]
سَحَـابـاً للـربيـعِ فهـبْ تـرابِـي وَفيـهِ الحَـبُّ أنثـرهُ ليبقَـى

* * *

بكَفِّي القلبُ ، مـالـي مـن حبيـبِ متاعٌ لِي ، فَمَنْ لصَ الدُّرُوب ؟[4]
وَهَـذَا الصَّـدْرُ فلتسكنْـهُ دَارَاً وَحيـدٌ ، لا أشبِّـه بـالغـرِيـب

* * *

ببيـتِ اللهِ كـالـرومِـي أذَانِـي فسِـرُّ الـروحِ أوضـحُ والمعَـانِـي[5]
طَـوَاهُ بفتنـةٍ عصـرٌ قـديـمٌ وَلكِـنْ لِـي الجـديـد مـنَ الـزمـانِ
لـكَ البستـانُ أنبـتُ مـن تُـرابِـي ولـوّنـه بـدمْعِـي فـي انسِكـابِ

---

(١) ومق : أحب .
(٢) حسبي : كفايتي .
(٣) تمجن : تكلف المجانة وهي عدم المبالاة بالأعمال والأقوال .
(٤) الدروب : جمع درب وهو الطريق .
(٥) الرومي : هو جلال الدين الرومي .

وما أَمَلْتُ سيفَ أبي ترابِ فهبْ عيناً كسيفِ أبي تُرابِ[1]

* * *

على شطٍّ يطولُ به الوقُوف فعنْ عملٍ وعنْ أملٍ عَزُوفُ[2]
لمنْ غيري أنا المسكينُ حقاً على أسرارهِ كانَ الوقُوفُ

* * *

ومنْ مناهُ للمحبوبِ عِطْرَا وهذاكَ الربيعُ يرفُ زَهْرَا[3]
تَناسَى قَوْلَةً قيلتْ فمنذَا على قَضبائِه بالنَّارِ مَرّا
غديري هَبْه دُرّاً مِنْ بِحَارِكْ مَتَاعِي ضَعْ بطودِكَ أوْ قِفَارِكْ[4]
بطُوفَانٍ فَمَا فتحتُ قَلْبِي فَهَبْنِي غيرهُ طوعاً وبارِكْ

* * *

أثرتُ الوَجْدَ فِي نَايِي ، تأمَّلْ بنارِي ذبتُ مُخْتَلِياً ، تَأَمَّلْ
عرفتُ الفقرَ عَنْ سَلَفِي قَدِيماً عنِ السلطانِ إحجامِي ، تأمَّلْ

* * *

---

(١) أبو تراب : كنية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد أطلقها عليه النبي ﷺ . والخبر في هذا أن علياً دخل على فاطمة ثم خرج فأتى ﷺ فاطمة وسألها أين ابن عمك ؟ قالت : إنه مضطجع في المسجد . فمضى النبي إليه فوجد رداءه ساقطاً عن ظهره ، فجعل يمسح عنه التراب ويقول اجلس أبا تراب . وفي رواية أخرى أن علياً وعمار بن ياسر كانا رفيقين في غزاة ذي العشيرة ونزلها الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأقام بها . وجعل علي وعمار ينظران إلى من يعملون في نخل هناك ثم أخذتهما سنة وتتربا وجاء النبي فحرك علياً وقال له يا أبا تراب حين رأى عليه التراب . وكان يطيب له كرم الله وجهه أن يدعى بأبي تراب .

(٢) عزف عن الشيء : أعرض عنه .

(٣) رف الزهر : تلألأ نضرة .

(٤) الطود : الجبل . القفار : الصحارى .

على مـا كـانَ مـنْ حَـالـي أَعِنِّي		كشفـتُ اللبـسَ عـنْ مَغْنَـى بفنِّي
مع المحبوبِ تسـألُ كيـفَ حالِـي		يُـوافِـي مَـرَّةً ويغيـبُ عَنِّـي
لقـدْ شَـاركـتُ فـي وجـدٍ ورَوْدَا		ضميـرَ العيـشِ أفتحـهُ وَئِيـدَا[1]
فمنْ لَقَّنْتَ شَوقِي ليتَ شِعْرِي ؟		أغَنِّـي مـا أغنِّيـهِ وَحِيـدَا

* * *

بِنُـورِكَ كنـتُ أفتـحُ مُقْلَتَيَـا		وَقَـدْ شَـاهـدتُ أعمـاقَ الثـريَّـا
وَإِنِّـي مسلـمٌ يَـالَهْـفَ نَفْسِـي		فَمُشْكـلُ (لا) أَرَى صعبـاً عليَّـا[2]

* * *

بـأرضِـكَ حـرقـةُ الألحـانِ حسْبِـي		وبـدءٌ وانتهـاءٌ منـكَ ، حَسْبِـي
لِـرَبِّـي قلـتُ متنَشِيـاً بِـوَجْـدِي		رَسُـولُ الله يـا رحمـنُ ، حَسْبِـي
مـنَ الأشـواقِ ثَـائِـرتِـي لتنظـرْ		فَلِـلأنْهَـارِ مِـنْ حَجَـرٍ تَفَجَّـرْ
وَلَيْـتَ ابنـي بعشْقِـكَ فـي دوامٍ		يُـزَيَّـن بـالتلـوُّنِ والتعطُّـر

* * *

فَتَـى الإفـرَنـجِ[3] فلْتَشْهَـدْه حِينَـا		بَـدَا قَمَـراً لعيـنِ النـاظِـرِينَـا
فَتَـانَـا سـاذجٌ مـن فَـرْطِ ظُـرْفٍ		وَقَـاهُ الله عَيْـنَ الكَـافِـرِينَـا

* * *

يمينُـكَ مُـدَّهَـا للعَـاثِـرِينَـا		وَمَـنْ لسـواكَ كَـانُـوا نَـاظِـرِينَـا
فَمِـنْ نَـارٍ أضْـرِمُهَـا بِـرُوحِـي		نَصِيبـاً هَـبْ جَمِيـعَ المسْلِمِينَـا
إليـكَ الـرَّاحَ مِـنْ كـأسِ الحَبِيـبْ		لِتَسْكَـنْ دَائِمـاً قَلْـبَ الحَبِيـبْ

---

(١) وئيداً : على مهل .
(٢) في الأصل (لا إله) .
(٣) الإفرنج والإفرنجة والفرنج : اسم لسكان أوربة كلها ماعدا الأروام والأتراك .

أَيَا هَـذَا (المليك) أَذَا سُجُود ! لتكنِس مُقْلَتِي دَارَ الحَبِيب[1]

* * *

لَكَ السلْطَانُ لَكِنّي فَقِيرُ لأَرضِ الروحِ والمغْنَى أَمِيرُ[2]
وَدُنْيَا « لا إِلَه » بَدَتْ تَأَمَّلْ حَوَاهَا كُلَّهَا مِنِّي ضَمِيرُ

* * *

دَوَاءٌ لَيسَ يَنْجَعُ فِي سَقَامِي فَإِنِّي الشيخُ قَدْ وَهَنَتْ عِظَامِي
أَلَا يُلْقُونَنِي عَنهم بَعِيدَاً أَلَسْتُ لِدِينِهِمْ أَحَدَ السِّهَامِ !
تَعَالَ وَفِي اعْتِنَاقٍ نَحْنُ نَرْقُصْ وَدُنْيَانَا نُجَافِيهَا ، وَنَرْقُصْ[3]
وَعِنْدَ دِيَارِ مَنْ نَهْوَى تَوَقَّفْ دِمَاءَ العينِ نَذْرِفُهَا ، وَنَرْقُصْ

* * *

(1) في الأصل اسم أحد الملوك .

(2) يتردد ذكر الفقر والفقير كثيراً في هذا من شعر إقبال . والفقر من مقامات التصوف . ويعرف بأنه ليس فقدان الشيء بل فقدان الميل إليه والرغبة فيه . وشعار الصوفية (الفقر فخري) وقال بعضهم : إذا صح الافتقار إلى الله صح الغنى بالله لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر ، ويرى إقبال أن الفقر خلاص النفس من الطمع وتعففها عن ذل الحرمان . وهذا ما يكفل لها أن تعمل وتقدم منطلقة من كل قيد . وفي كتابه جاويدنامه الذي ترجمناه بعنوان (في السماء) يبذل النصح لولده قائلاً :

إن رأست القوم أو صرت الغنيا فعلى الفقر احرصن يا بنيا

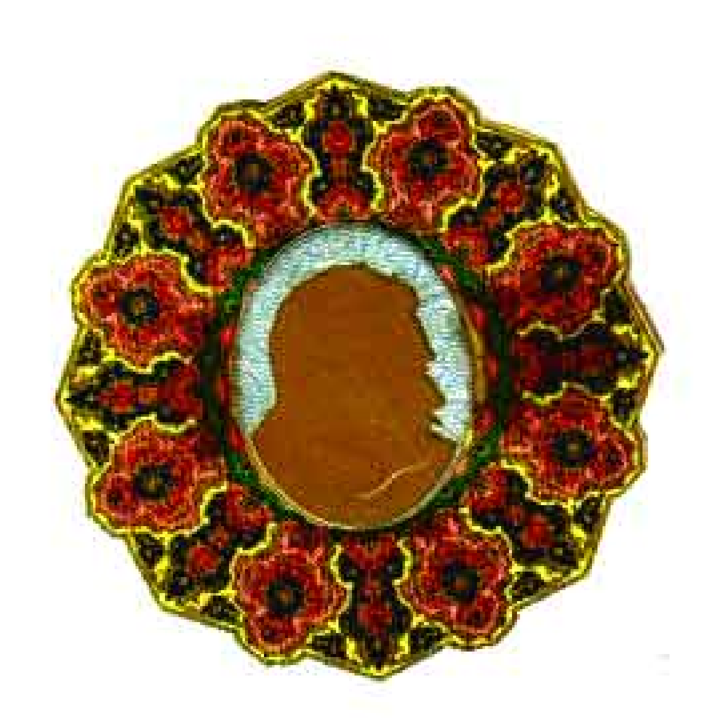
(3) يتلو إقبال تلو المتصوفة من أتباع جلال الدين الرومي الذين كانوا يستعينون بالرقص والموسيقا على تحريك نشوة التصوف في قلوبهم . ففي رأيهم أن الرقص ينتزع نفوسهم من عالم الثرى ليسمو بها إلى العالم العلوي . كما يثير الطرب والخوف عند التائبين . وفي الرقص يقول جلال الدين الرومي ما ترجمته :
(إذا ذكرت البحر وأمواجه ، فما ذكرت شيئين متباينين فما أمواج البحر إلا البحر نفسه ولكن في ارتفاع وانخفاض . والموج بعد هبوطه إلى البحر يؤوب . وما مثل البحر إلا مثل بني الإنسان لأنهم أمواج الله وإلى الله مرجعهم بعد موتهم) .

بِصَحْـرَاءِ لَـكَ اخْتَـرْتَ المقَـامَـا   ويشْبِـهُ لَيْلَهَـا الصبْـحَ ابْتِسَـامَـا
فَفِـي أَيِّ البقَـاعِ خِيَـامُـكَ انْصُـبْ   وَكَـانَ الحبْـلُ مِـنْ أَحَـدٍ حَـرَامَـا[1]

* * *

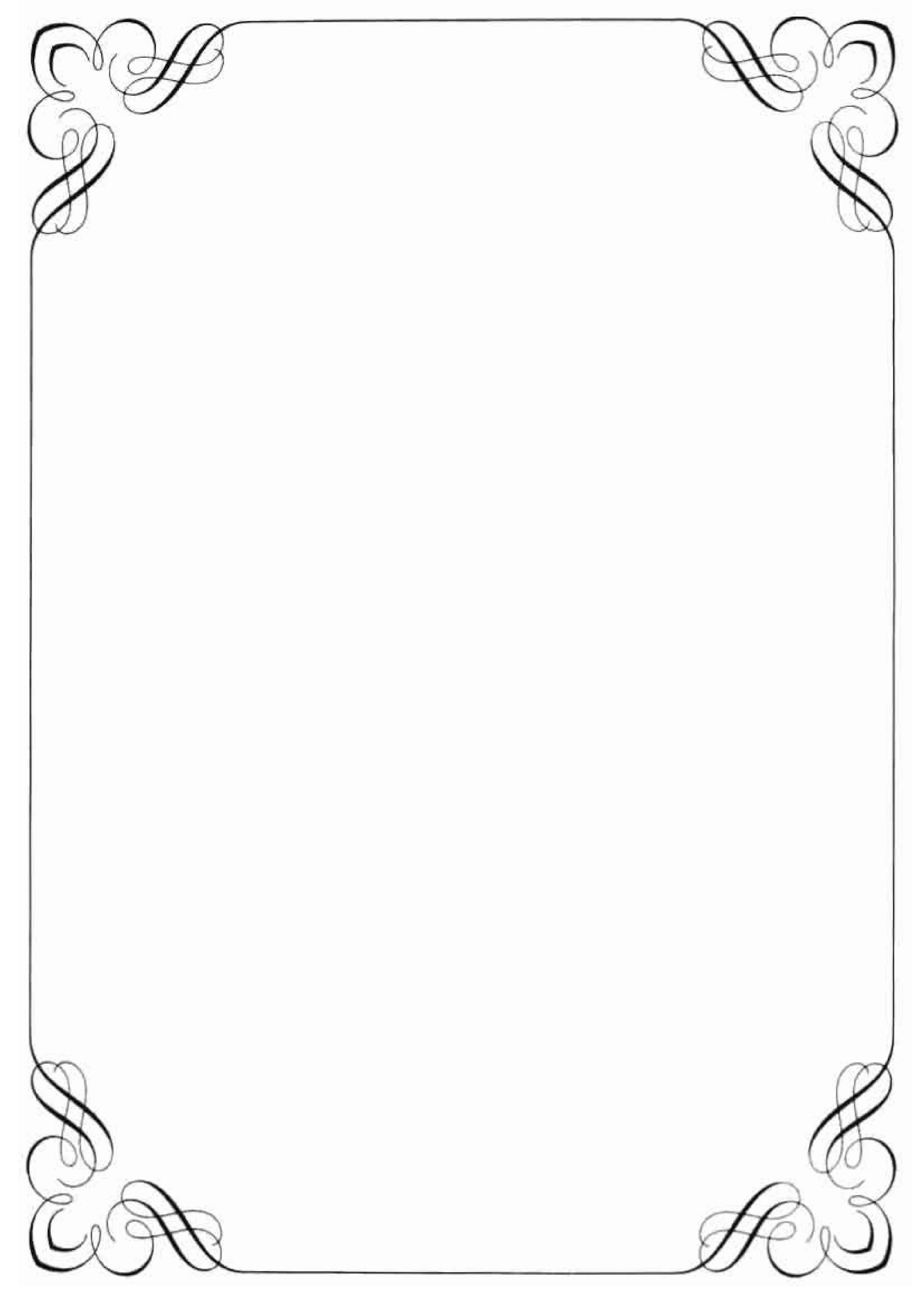
بِـأَرْضٍ تَحْتَـوِينَـا اليَـوْمَ ضِقْنَـا   وَمِـنْ كِـلِّ السمَـوَاتِ انطَلَقْنَـا
أَرَاهُـمْ سَجْـدَةً قَـدْ عَلَّمُـونَـا   وَكُنْـهَ الحَـاكِمِيـنَ بِهَـا عَـرَفْنَـا
عَـنِ الإِفْـرَنْـجِ فَلْتَكُـنِ البَعِيـدَا   لَقَـدْ كَـذَبُـوا وَإِن بَـذَلُـوا وُعُـودَا
لـكَ النظَـرَاتُ خُـذْهَـا عَـنْ« مَلِيكٍ »   وَشَكِّـلْ عَـالَمـاً حُـرّاً جَـدِيـدَا[2]

* * *



---

(١) يقول : إن اقتراض حبل الخيمة من أحد حرام .
(٢) في الأصل اسم أحد الملوك .





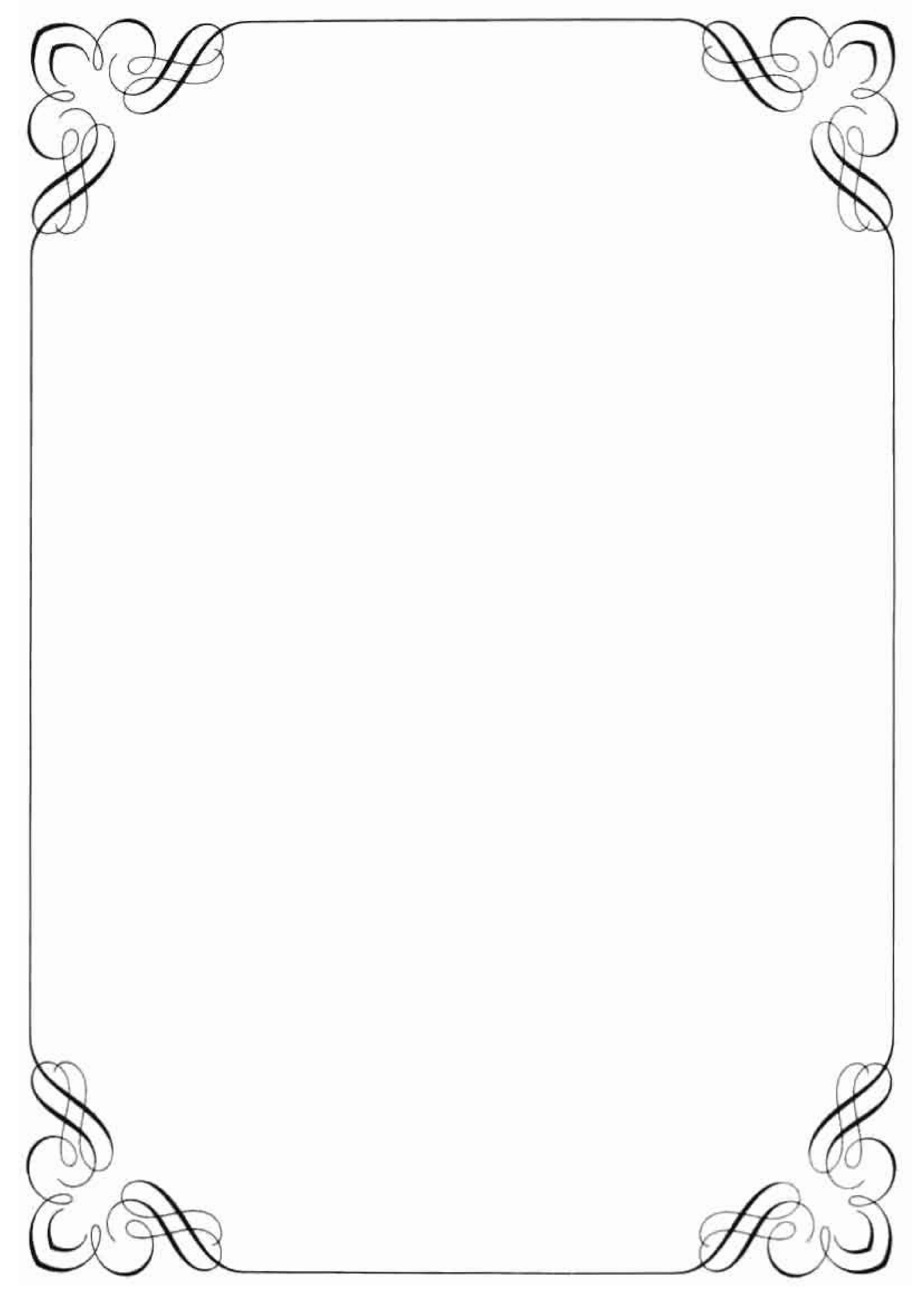
القسم الثالث

المُجْتَمَع









عَـدِمْـتُ أنَـا كَـلاَمَ العَـارِفِينَـا فَطَبْعِـي كَـانَ طَبْـعَ العَـاشِقِينَـا
بِـدَمْـعٍ مِـنْ دمٍ فِـي الـرَّوضِ هَـذَا لِفَـرْطِ الـوجْـدِ أفعَمْـتُ العُيـونَـا[1]
ودَارُكَ تَشْبِـهُ القَمَـرَ الجَـدِيـدَا بِـأوْجِ سَمَـاكَ حَـاوِلْ أنْ تَـزِيـدَا
ستَسْمُـــو إنْ وَهَبْـــتَ اللهَ قلبَـــاً طَـرِيـقَ المصْطَفى فَـاسْلُـكْ رَشِيدَا

* * *

عَلَـوْتُ كَمَـوْجَـةٍ مِـنْ بَحْـرِ ذَاتِـي كَمَنْـتُ كَجَوْهَـرٍ تَحْـتَ الصَّفَـاةِ[2]
وَكَــانَــتْ غَضْبَــةُ النمْـرُودِ مِنِّـي أعمِّــرُ بَيْــتَ رَبِّـي فِـي حَيَـاتِـي

* * *

بِجَـامِـكَ سَـاقِـي الجُـلاَّسِ أقْبِـلْ على الدارَينِ هَذَا الذيْلَ أَسْبِلْ[3]
حَقِيقَتَنَـــا لَنَـــا الخمِّيـــرُ أبْـــدَى لِمُلّا لا تَقُلْ « ذَا الدِّينُ فَاعْقِلْ »[4]
تعَـالَ عَـنِ الجبيـنِ اطـرحْ نِقَـابَـا فَـدَمْعِـي يَحْتَـوِي قَلْبِـي المـذَابَـا
بِلَحْـنٍ لَيْـسَ مِـنْ شَـرْقٍ وَغَـرْبِ لتعزفْ (لا تخفْ) تُطْرِبْ صِحَابَا[5]

* * *

ومِـنْ صَـدْرٍ لَـكَ التكْبِيـرَ صَعِّـدْ وَبِـالأُكْسِيـرِ تُـرْبُـكَ فَلْتُجَـدِّدْ
وَذَاتَــكَ فَــامْلِكَــنَّ تَعِـشْ سَعِيـدَاً لِنَفْسِــكَ هَــذِهِ الأَقْــدَارَ حَــدِّدْ

---

(١) أفعم : ملأ .
(٢) الصفاة : الصخرة .
(٣) أسبل ذيله على الشيء : أهمله وتناساه .
(٤) الخمِّير : السكير . ويطلق على الصوفي الذي انتشى بالعشق الإلهي .
(٥) يشير إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ والخطاب من الله تعالى إلى موسى حين تفوق على السحرة وأبطل كيدهم .

بِتِلْكَ الذاتِ شَارَفْتَ الكَمَالاَ وَإِلَّا كُنْتَ للعبدِ المِثَالاَ
إِذَا مَا قُلْتَ ذَاتِي لِي مَتَاعٌ فَنِسْيَانٌ لَهَا لَيْسَ الحَلاَلاَ[1]
وَأَنْتَ الذاتُ يَوْماً إِنْ تُشَاهِدْ تَقِرُّ كَجَوْهَرٍ فِي البَحْرِ رَاقِدْ
وَتِلْكَ الذَّاتُ إِنْ غَرَّبْتَ عَنْهَا فَأَنْتَ لأَجْلِ هَلْكِكَ مَنْ تُجَاهِدْ

* * *

كَشَفْتَ السِتْرَ عَنْ وَجْهِ المَصَائِرْ بِنَهْجِ المصْطَفَى سِرْ يَا مُسَافِرْ[2]
وَمِمَّا قُلْتَ إِنْ أَضْمَرْتَ شَكاً فَمُتْ يَا مَنْ شَكَكْتَ وَأَنْتَ كَافِرْ

* * *

لِتُرْكٍ فَتَّحُوا مَا أَوْصَدُوه وَفِي مِصْرَ أَسَاسٌ وَطَّدُوه
تَمَسَّكْ إِنْ ظَفِرْتَ بِذَيْلِ ذَاتٍ بِغَيْرِ الذَّاتِ ذَا لَمْ يَعْهَدُوه
إِذَا قَوْمٌ رَبِيعُهُمُ تَوَلَّى فَعِطْرُهُمُ التَّوَهُّمُ لَيْسَ إِلَّا
وَتُنْبِتُ أَرْضُهُمْ زَهْراً وَلَكِنْ تُشَاهِدُ لِلذُّبُولِ عَلَيْهِ ظِلَّا

* * *

وُلَاةُ الأَمْرِ مِنْ رَبِّي لِشَعْبٍ زِمَاماً يَمْلِكُونَ لِكُلِّ أَمْرِ
وَلَكِنْ لَا يُحِبُّ اللهُ شَعْباً بِهِ الفَلَّاحُ يَزْرَعُ كَيْ يُلَبِّي

* * *

مِنَ الرَّازِي كِتَابَ اللهِ فَافْهَمْ وَمِنْهُ النُّورُ خُذْ فَاللَّيْلُ أَظْلَمْ
وَلَكِنْ لِي كَلَامٌ فِيهِ فَانْظُرْ أَنَحْيَا بِالفُؤَادِ وَمَا تَضَرَّمْ[3] ؟

* * *

---

(١) يوجه الخطاب إلى المسلم .
(٢) النهج : الطريق . وإن أريد بالكلام خلاف ظاهره ، فالمسافر في الاصطلاح هو من سافر بفكره في المعقولات والاعتبارات فعبر من الدنيا إلى الآخرة .
(٣) تضرَّم : احتدم غيظاً .

الذاتية

لِـــذَاتِـــكَ لَا إِلَـــهَ فَضُـــمَّ مَـــرَّهْ لِتَخْـرُجَ مِـنْ تُـرَابٍ مَـاتَ نَظْـرَهْ
وَلَا تَقْبِـضْ يَمِينَـكَ عَـنْ صُيُـودٍ لَـهُ القَمَـرَانِ فِـي وَهَـقٍ بِجُـرَّهْ[1]

***

جَهُولٌ ، عِلْمُ هَذَا القَلْبِ ، فَاعْلَمْ طَرِيقَكَ مِثْلَ مَنْ سَبَقُوكَ ، فَاعْلَمْ
تَمَكَّـنَ مُـؤْمِـنٌ مِـنْ كَشْـفِ سِـرٍّ بِـلَا مَـوْجُـود إِلَّا الله ، فـاعلـم[2]

***

بِقَلْبِـكَ مَـا اخْتَفَـى هـذا اللهـاب مِـن الإسـلام مـا للنـور بـاب
طـريـق الـذات فـانضحهـا بمـاء لبحـر لا يـرى فيـه العبـاب[3]

***

---

(١) لإقبال فرط اهتمام بالذات أو الذاتية ويجعلها من أهم مقومات فلسفته ، فعنده أن الذاتية جوهر الحياة وأس نظامها وهي تستمد كيانها من تحديد الرغائب وتخليق الأماني . وهذا باعث على العمل في دوام . وينبغي للإنسان أن يعرف مواهبه الكامنة في فطرته ويعتمد على ذاته وحدها . وقوة الذات هي معنى الحياة والغاية منها وبها جمالها وجلالها . الصيود : الكثير الصيد . القمران : الشمس والقمر . الوهق : حبل يطرح في عنق الدابة لصيدها به .

(٢) يلمح إقبال إلى وحدة الوجود وهي أنه لا وجود في هذا الكون إلا لله وكل ما فيه صورة منه ، وذلك كالماء الذي يتشكل في صور شتى كالندى والثلج والبرد وهو ماء واحد لا وجود لسواه .

(٣) نضح بالماء : رش وبل . والعباب : الموج .

أنا الحق

(أنـا الحـقْ) ذِي مَقَـامِ الكِبْـرِيَـاءِ   أَكَـانَ لَهَـا الصليـبُ مِـنَ الجَـزَاءِ ؟!
فَهَـذَا جَـائِـزٌ فِـي رَأْيِ فَـرْدٍ   وَيَبْطُـلُ عِنْـدَ قَـوْمٍ بِـالإِبَـاءِ[1]

***

أَلَيْسَـتْ قَـوْلَـةً لَاقَـتْ بِشَغْـبِ   يَجُـودُ دَمـاً لِغُصْـنٍ فِيـهِ رَطْـبِ
جَـلَالٌ فِيـهِ قَـدْ أَخْفَـى جَمَـالًا   تَجَلَّـى فِـي سَمَـوَاتٍ لِقَلْـبِ

***

وَبَيْـنَ العَـالَمِيـنَ سَمَـا مَقَـامـا   فَلِلـدَّارَيْـنِ قَـدْ كَـانَ الإِمَـامَـا
وَلَـمْ يَمْسَسْـهُ فِـي خَلْـقٍ لُغُـوبٌ   عَلَيْـهِ النَّـومَ يجعَلُـهُ حَـرَامَـا[2]
سَعِيـرُ القَلْـبِ تَشْهَـدُهُ العُيـونُ   وَدُنْيَـاهُ الهشِيـمُ وَكَـمْ يَهُـون
يُبِيـنُ بِهِمَّـةٍ مَعْنَـى أنَـا الحـقْ   وَتَـأْتِـي بَعْـدَ كُـنْ دَوْمـاً يَكُـونُ[3]

***

جَنَـاحٌ مِنْـهُ يَخْفِـق فِـي الفَضَـاء   وَيَـرْمُـقُ عِشَّـهُ وَالعُـشُّ نَـاءِ

---

(١) الحلاج : هو الحسين بن منصور ذلك الصوفي الذي ذاعت شهرته في الآفاق بشططه وغلوه في تصوفه ، وكان شديد الحرص على نشر تعاليمه بين سواد الناس وهو في ذلك يختلف عن الكثرة الكاثرة من شيوخ المتصوفه الذين كانوا يميلون إلى الكتمان والضن بعلمهم على غير أهله . وقد قال الحلاج بالاتحاد ولكن مع بقاء كل عنصر من عنصريه على حاله ، واتهم بالكفر لقوله (أنا الحق) وصلب عام ٣٠٩ هجرية . وقد أوردنا قوله بسكون القاف كما ينطق في الفارسية ، وفي رأي أن الحلاج حين قال (أنا الحق) كان مؤمناً بأن الله في قلب المؤمنين الذين يتخلقون بأخلاقه وبفضل من ذلك يصبح المؤمن (هو هو) .

(٢) اللغوب : التعب يقول إن رغبته في التخليق تحرم عليه أن ينام .

(٣) السعير : النار .

وَفِـي وَهَـقٍ لَـهُ القَمَـرَانِ صَيْـدٌ   وَطَـوْعُ يَمِينِـهِ كُـلُّ الـرجَـاءِ[1]

* * *

بِبُسْتَـانٍ تَـرَاهُ العنْـدَلِيبَـا   وَصَفْـراً كَـانَ فِـي مَـزجِ مَهِيبَـا
أَمِيـرٌ فِيـهِ قَـدْ يَبْـدُو فَقِيـراً   فَقِيـرٌ مِـنْ غِنَـى نَـالَ النَّصِيبَـا
إِلَيـكَ الكَـأْسَ أُفْعِمُهَـا بِخَمْـرٍ   وَنُـورُكَ صُـبَّ فِـي جُخْـرٍ وَقَصْـرِ
وَنَـلْ مِـنْ غُصْـنِ مَنْصُـورٍ ثِمَـارَاً   وَقَلْبُـكَ فِيـه (إلا الله) تَسْـرِي[2]

* * *

الصوفيُّ والمُلاَّ

هـوَ المـلاَّ ، عَبُـوسٌ والكِتَـاب   وقِشْـرَاً لا يَمِيـزُ مِـنْ لُبَـاب
بِبَيْـتِ اللهِ يَطْـرُدُنِـي لِـدِينِـي   وَذَلِـكَ لَيْـسَ بِـالشَّيءِ العُجَـابِ[3]

* * *

بِبَيْـتِ اللهِ صَيَّـادٌ وَدَيْـز   وَلِلصُّـوفِـيِّ لَـمْ يَـكُ أَيُّ ضَيْـزٍ[4]
عَلَـى المـلاَّ قَصَصْـتُ الآنَ هَـذَا   جَـوَابـاً لَـمْ يَجِـزْ وَدَعَـا بِخَيْـزٍ !
تَحَـدَّثَ وَاعِـظٌ لِـي عَـنْ جَهَنَّـمْ   ومِنْـهُ كَـافِـرٌ فِـي القَـوْلِ أَحْـزَمْ
غُـلاَمٌ حَـالُـهُ مَـا إِنْ دَرَاهَـا   وَقَـالَ « جَهَنَّـمُ لِسِـوَايَ فَـاعْلَـمْ »

* * *

---

(١) الوهق : حبل يطرحه الصياد في عنق الدابة لصيدها .
(٢) منصور : الحلاج وفي الأصل (لا غالب إلا الله) .
(٣) يريد ليقول إن المتزمتين الجامدين لا يفقهون قوله ويتهمونه برقة الدين .
(٤) يريد الغربي . ويشير إلى الصوفي في تجادله وعجزه عن دفع عادية الأجانب ، كما يعيب على الشيخ رضاه بالأمر الواقع وعدم الوقوف في وجه المعتدين على حرمة الدين وكرامة المسلمين .

مـــرِيــدٌ كَــانَ ذَا رَأْيٍ سَـدِيـدِ   لِشَيْـخٍ فَـاهَ بِـالقَـوْلِ الشَّـدِيـدِ
« وَجَنَى الـرِّزْقَ مَوْتٌ ، مِنْ تُـرَابٍ   تَكَـوَّمَ فَـوْقَ هَـاتِيـكَ اللحُـودِ »

***

لِشَيْـخٍ كَـانَ ذَا قَـوْلُ الغُـلاَمِ   « تَـأَمَّـلْ واستَمِـعْ لِـي بِـاهْتِمَـامِ
لِهَـذَا العَصْـرِ نَمْـرُودٌ جَـدِيـدٌ   فَمِنْـهُ اخْلِـقْ خَلِيـلاً لِـلأَنَـامِ »
لِمـلاَّ أَوْ لِصُـوفِـيٍّ أَسِيـرْ !   وَفِـي القُـرآنِ لِلْعَيْـشِ الكَثِيـرِ
مِـنَ الآيَـاتِ مَـا أَدْرَكْـتَ شَيْئـاً   ومِنْ ﴿ ياسين ﴾ بُغْيَتُكَ الحَفِيرِ[1] !

***

لَـكَ القُـرْآنُ كَـالمِـرْآةِ فَـانْصُـبْ   وَنَفْسَـكَ دَعْ إِذَا غُيِّـرتَ وَاهْـرُبْ
لِمَـا قَـدَّمْـتَ مِيـزَانـاً لِتَصْنَـعْ   وفِـي المـاضِـي قِيَـامَـاتٍ لِتَطْلُـبْ

***

عَلَـى الصُّـوفِـيِّ وَالمـلاَّ سَلاَمِـي   كَـلاَمُ اللهِ قَـالاَ بِـالتَّمَـامِ
وَلَكِـــنْ أَوَّلاَ مَـــا أَوَّلاَهُ   فَحَـارَ الـروحُ بِـلْ خَيْـرُ الأَنَـامِ[2] !

***

جَلاَلُ الدِّينِ الرُّومِيّ

تَـرَشَّـفْ يَـا نَـدِيـمَ الـرُّوحِ خَمْـرَا   لَهَـا كَـأْسٌ تُسَـاوِي مُلْـكَ كِسْـرَى

---

(١) يدعو إقبال إلى النظر في القرآن الكريم وتدبر آياته البينات التي تهيب بالناس ليحيوا حياة حرة كريمة وتهدي إلى ما تصلح به الدنيا والدين ، وفيها الوازع عن حياة الخمول والجمود ويسخر ممن لا هم له إلا سورة ﴿ يس ﴾ فقد جرت العادة بقراءتها في المقابر . والحفير : القبر .

(٢) الروح : سيدنا جبريل . وخير الأنام : هو المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . وإقبال لا يرتضي تفسير القرآن تفسيراً سطحياً .

وللـــرُّومِـــيِّ أَشْعَـــارٌ رِقَـــاقٌ فَلُـذْ بِحِمَـى فُـؤادِكَ حِيـنَ تَقْـرَا

* * *

وَفِـي كَـاسَـاتِهَـا لَـوْنٌ تَـوَرَّدْ بِـهِ اليَاقُوتُ يُصْبِحُ كُلَّ جَلْمَدْ[1]
وَقَلْـبُ الأُسْـدِ تَمْنَحُـهُ غَـزَالاً وَمِنْهَـا الـوَسْـمُ عَـنْ نِمْـرٍ تَبَـدَّدْ

* * *

وَفِيهَـا سَـوْرة مِنْهَـا نَصِيبِـي دُجَـايَ سَنَـا بِكَـوْكَبِهَـا العَجِيـبِ[2]
فَشَاهِـدْ فِـي الحِمَـى إنْ شِئْتَ ظَبْياً بَـدَا فِـي بَسْمَـةِ الأَسَـدِ الغَضُـوبِ[3]
حَبِيـبٌ حُبُّـهُ كَـانَ احْتِـرَاقِـي وَمِنْـهُ الـوَصْـلُ يَنْطِـقُ عَـنْ فِـرَاقِ
جَمَـالُ العِشْـقِ مِـنْ نَـاءٍ لَـدَيْـهِ تَـزَيَّـنَ مِـنْ عَـلاَءٍ بِـائْتِـلاَقِ

* * *

وَلِـي عُقَـدِي ، فَحَـلَّ بِمَـا يَشَـاء غُبـارٌ فِـي طَـرِيقِـي الكِيمِيَـاء[4]
وأَسْمَعَنِـي لَـه أَنْغَـامَ نَـاي فَفِـي سُكْـرِي وَفِـي عِشْقِـي رَجَـاء

* * *

وَهَـا قَـدْ فَتَحُـوا بَـابـاً لِقَلْبِـي كَمَـا خَلَقُـوا لَهُـمْ دُنْيَـا بِتُـرْبِـي[5]
وَمِـنْ فَيْـضٍ لَـهُ نِلْـتَ اعتِيَـاراً فَبِـي مَـا حَقَّقُـوا مِـن صُنْـعِ شُهْـبِ
نُجُـومَ الأُفُـقِ جَـالِـسْ بـالخَيَـالِ وَرَاءَ البَـدْرِ يَنْظُـرُ فِـي مَجَـالِ
فَقَـدَّمَ قَلْبَـهُ الضَّـاوِي إِلَيْـه لَـهُ الأَنْفَـاسُ تَخْفِـقُ فِـي اتِّصَـالِ[6]

---

(١) الجلمد : الحجر . والوسم : أثر الكي .
(٢) سورة الخمر : شدتها . الدجى : الظلام . السنا : الضوء .
(٣) الحمى : هنا حرم بيت الله .
(٤) الكيمياء : ما كان يضعه القدماء على المعادن لتحويلها إلى ذهب .
(٥) الترب : التراب .
(٦) الضاوي : المنهوك الضعيف .

عَنِ الرُّومِيِّ خُذْ سِرَّ الفَقِيرِ يُشِيرُ بِفَقْرِهِ حَدَّ الأَمِيرِ
وَفَقْرٌ ذَاكَ لكِنْ مِنْهُ فَاحْذَرْ مَقَاماً نِلْتَ يُدْنِي مِنْ حَفِيرِ[1]

* * *

وَعَنْ ذَاتِ إِلٰهِي وَهْوَ نَاءِ تَمُدّ الكَفَّ فِي طَلَبِ العَطَاءِ
وَلِلرُّومِيِّ عَيْنٌ حَقَّقَتْ لِي سُرُوراً مِنْ مَقَامِ الكِبْرِيَاء
رَحِيقٌ طَابَ مِنْ كَرْمِي تَدَفَّقْ وَيَسْعَدُ مَنْ بِذَيْلِي قَدْ تَعَلَّقْ[2]
نَصِيبِي كَانَ مِنْ لَهَبٍ قَدِيمَا سَنَائِي نَالَ وَالرُّومِيّ يُحْرَقْ

* * *

إلى مصر
رسالة الفاروق[1] (رضى الله عنه)

رِيَاحَ البِيدِ وَافِينِي وَسِيرِي عُبَابَ النِّيلِ فِي خَفْقِ أَثِيرِي[3]
وَأَدِّي القَوْلَ عَنْ عُمَرٍ فَقُولِي « كُنِ السلطانَ يُعْرَفُ بالفَقِيرِ »

* * *

وَمَا تِلْكَ الخِلَافَةُ غَيْرَ فَقْرٍ لَهُ تَاجٌ ، فَكَانَ دَوَام أَمْرِ
تَمَسَّكْ يَا فَتَى دَوْماً بِفَقْرٍ بِغَيْرِ الفَقْرِ مُلْكُكَ عِنْدَ قَبْرِ

* * *

---

(١) يتلاعب الشاعر بالكلمة الفارسية (سربز يرى) وتحمل معنيين : الطاعة والخضوع ، والنكس أي القلب على الرأس وجعل الأسفل الأعلى . فكأنه يريد ليقول : أن تلقي الفقر بالمعنى الصوفي المطلق يعرض للتهلكة . والحفير : القبر .

(٢) الرحيق : الخمر . والكرم : العنب .

(٣) العباب : الموج . وعنوان هذا القدر من الرباعيات في الأصل باسم أحد الملوك .

وَتِلْكَ الذَّاتُ يَوْماً مَنْ يُشَاهِدْ يُقِمْ فِي الغَدِ لِلدُّنْيَا القَوَاعِدْ
وَهَا قَدْ طَافَ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ بِخُلْوَتِهِ بِذَاتٍ ، وَهْوَ قَاعِدْ
لِعَقْلِكَ أَوْ لِقَلْبِكَ فَابْغِ بَابَا وخذْ مِنْ شيخِ حاناتٍ شرابَا
إلى الحاجاتِ فلتسلكْ سبيلاً لتطرحَ مظهراً واطهرْ لبابَا

***

وتسعدُ أمةٌ للذاتِ عادتْ وفِي عملٍ وفِي نصبٍ تمادتْ[1]
سَيلمعُ نورُها فِي الأفقِ شرقاً إذا بسيوفها ضرباً أرادتْ

***

ومَلَاحٌ من الأتراك طرَّب بذوبِ الوردِ منه الخدّ رطّبْ[2]
إذا لم أستطعْ فِي البحرِ سيراً فلِي الطوفان أقهرهُ وأركبْ
بملكِ الأرضِ قدْ مزجوا ثرَانا بآياتِ الإمامةِ هلْ ترَانا[3]
لنادِينا بعمقِ الذاتِ شاهدْ بهذا القلبِ حبّاً مِنْ ذُرانَا[4] ؟

***

وأسرارَ اليقينِ إذنْ عرفتَا عنِ الاثنينِ عينكَ هلْ كففتَا
لمصباحينِ نورٌ ليس إلّا بغيرِ الدينِ مُلكاً هلْ ألفتَا

***

---

(١) النصب : الإعياء .

(٢) يضرب شعراء الفرس بالترك المثل في الحسن . مثال ذلك قول الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي :
(لو اكترث هذا التركي الشيرازي لحالنا ورعى جامينا لوهبت خاله الأسود بخاري وسمرقند) .

(٣) الآيات : العلامات .

(٤) ذرى الحب : نثره . وفي الأصل ذرى الدنيا حباً في قلب المليك .

وإن عـرَضـتَ ذاتـك لاختبـارِ خلقـتُ لـكَ السمـاءَ مـن الغبـارِ
شـرارُ الشـوقِ طَـيُّ القلـبِ منـهُ تُضيءُ الشمسَ فِي وضحِ النهارِ[1]

* * *

شعراء العرب

وقـلْ للشـاعـرِ العـربـيِّ عَنِّـي لياقـوتِ الشفـاهِ البخـسِ منِّـي[2]
قبسـتُ النـورَ بـالقـرآنِ حتَّـى جعلـتُ الليـلَ لِـي فجـراً يغنِّـي

* * *

وفِـي الأرواحِ قَـدْ أذكيـتَ جمـرًا ترابـي مـا يـراهُ النـاسُ قصـرًا[3]
غـديـرٌ سـاكـنٌ حـركـتَ فيـهِ عبابـاً ، ثـارَ فِي النَّكباءِ بَحـرًا[4]

* * *

أتـرسـمُ صـورةً ؟ لا يـا غـريـرُ لتعمـلْ مـا يحبِّـذهُ الضميـرْ[5]
وروضتُنَـا خفقـت بهـا جنـاحَـاً حنِيفـاً خُـصَّ بـالقبَـسِ المنيـرْ[6]
تُـرَابٌ نحـنُ ذُو قلـبٍ كئيـبْ وطَـلٌّ ظـلَّ فِـي الغصـنِ الرطيـبْ
وهَـذَا النبـعُ فجَّـره بِسِحـرٍ جـوانـحُ مسلـمٍ حـرِمَ القليـبْ[7]

---

(١) الخطاب إلى المسلم .
(٢) بخسه حقه : نقصه إياه . يقول : إنه لم يقل شعراً في الغزل ، فما تغزل في الشفاه ولا شبهها بالياقوت .
(٣) أذكى النار : أضرمها .
(٤) النكباء : الريح بين الريحين .
(٥) الغرير : الناقص التجربة .
(٦) القبس : شعلة تؤخذ من معظم النار .
(٧) القليب : البئر . والمقصود بها بئر زمزم .

حَنِيفٌ شبهُ ربي في الصفاتِ ... ويحوي قلبُه أسرارَ ذاتِ
بنورِ اللهِ تشهدُ فيه حسناً ... له أصلٌ بقلبِ الكائناتِ

* * *

لتمنحَ ذاتهُ نوراً ونَارَا ... ليصبحَ ليلهُ الداجي نهَارَا
وذاكَ اللحنُ فلتعزفْ بفيضٍ ... فذلكَ ذوقُ تبديلٍ أثارَا
لغيركَ ينبغي للقلبِ حزقٌ ... ومثلُ خفوقِ قلبِ سواكَ خفقٌ
وذاتٌ أنتَ تنكرُها لشعبٍ ... « ونحن الشعبُ » قولٌ منك حقٌ

* * *

ولِلأرواحِ أسرارٌ دراهَا ... بعينِ الذاتِ منْ دنيا رآهَا
لتعزفَ في صميمِ القلبِ لحنَا ... حَيَاةً مِنْ ذبولٍ قدْ براهَا

* * *

لتحفظَ ما بصلصالٍ لديكَا ... فكمْ من نشوةٍ حامتْ عليكَا
لهذا أو لذاكَ الدنُّ خلوٌ ... وقلبُكَ قدِّمِ الصهبَا إليكَا[1]
وهَذا الليلُ يوحِشُنَا بفدْفدْ ... فأينَ الماءُ والشحرورُ غرّدْ[2]
وليسَ يضيءُ رهبان سِرَاجاً ... فشمس الصبح حتماً سوف تشهد

* * *

وفِي سيماكَ ذِي نظراً فكرّزْ ... وفِيمَا تُخبِئُ الأيامُ فكّزْ
وسِرْ مثلي بصحراءِ الحمى سِرْ ... لأنكَ عمقَ ذاتِكَ قدْ تُقدّزْ

* * *

---

(١) الدن : جرة الخمر . والصهباء : الخمر .

(٢) الفدفد : الصحراء . الشحرور : طائر حسن التغريد .

يا بنَ الصحراءِ

تنيـرُ البيـدَ بـالفجـرِ الجميـلِ ... وَيَصـدحُ طـائـرٌ بيـنَ النخيـلِ[1]
« خيامُكَ يـا فتى الصحـراءِ دعْهَا ... أيمكـنُ أنْ تعيـشَ بـلاَ رحيـلِ ؟ »

* * *

وللـرُّكبَـانِ مِـنْ عـربٍ دليـلُ ... فمحنـةُ ربهـمْ فقـرٌ طـويـلُ[2]
وهـذَا الفقـرُ إنْ أمسـى غيـوراً ... تـرجَّـفَ كـونـنَا وهـو الـذليـلُ

* * *

شهـدْنَـا الصبـحَ فِـي ليـلٍ مبينَـا ... تجلَّـتْ فيـهِ أنـوارٌ لِسِينَـا[3]
صَححنـا مـنْ ريـاحِ البيـدِ روحـاً ... فمنهَـا القـومُ كـانـوا القـادِمينَـا

* * *

وما يدريكَ أنَّ المغوارَ فِي هذَا الغبارِ

رضـاكَ وذلـكَ التسليـمُ مـذهـبْ ... وعـنْ نهـجٍ لصـدقٍ أيـنَ تـذهـبْ
وشِعـري لا تفسَّـر بـاجتهـادٍ ... جنوني فِي حِجَايَ لديكَ مكتبْ[4]

* * *

---

(١) الكلام منسوب إلى الطائر .

(٢) في الأصل أن الله جعل العربي دليل القافلة .

(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ ويقول الشاعر : إن الأمم ظهرت من سينا .

(٤) الحجى : العقل . المكتب : المدرسة .

وهـذَا المـرجُ أَقْفَـرَ مـنْ جنـونِـي وأصبـحَ كـالغـريـبِ بـلاَ خَـدِيـنِ
وفِـي بلـدِ أصبـحُ ومـنْ صياحِـي جنـونٌ ظـلَّ كـالعقـلِ الـوزيـنِ

* * *

ربيعِـي منبـتٌ فِـي الفَجْـرِ زَهْـرِي وَإنّـي مُحْـرِقٌ زَهْـرِي بِجَمْـرِي
أتحسـبُ أنَّنِـي أبْقَـى وَحِيـداً وزهْرِي ليسَ يدخلُ تحتَ حَصْرِ
أتتـركنِـي المشتَّـتُ كـالغبـارِ علـى النسمـاتِ مسلـوبَ القـرارِ
فطـوبَـى لـي ويَـا بُشـرَى فُـؤَادِي فمِنـي فـارسٌ يبـدُو بغَـارِ(١)

* * *

يسـودُ القـومَ فِـي زمـنٍ يَضِيـرُ ويظهـرُ فيهـمُ البطـلُ الشهيـرُ(٢)
لـديـهِ السـرُّ مـنْ أسـرارِ غيـبِ أكُـلُّ ثـرى بـهِ بطـلٌ جَسُـورُ

* * *

خفقْـتُ كمـوجـةٍ فـي مـوجِ ذاتِـي إلـى الطـوفـانِ أَدَّتْ سـافيـاتِـي(٣)
ومَـا شـاهـدتُ لـونـاً مثـلَ هَـذَا وإلَّا مـنْ دمِـي رُسمـتْ شِيـاتِـي(٤)
دِنـانَ الخمـرِ بـالنظـراتِ أفعِـمْ وَرَاحَ منِّـي بهـذَا الكـرمِ أَفْحِـمْ
ومـنْ طـوفَـانِـهِ أمْسَـى غـديـرٌ صغيـرٌ مـنْ بحـارِ البحـرِ أعظـمْ

* * *

زِمَـامَ الـركـبِ يـومـاً إنْ تسلَّـم فقدْ كشفَ الخفا عنْ كلِّ مبهَمْ
وأظهـرَ مـنْ بـأفـلاكٍ جِهـارَاً سمـواتٍ بهَـا مـا كـانَ يهتَـمْ

* * *

---

(١) طوبى له : الخير والحسنى له . الغار : ما يكلل به رأس المنتصر من ورق الكرم .
(٢) يضير : يؤذي .
(٣) السافيات : الرياح .
(٤) الدمى : الصور والتماثيل . الشيات : الألوان .

وزُفَّ لهــذِهِ الــروحِ التهــانِــي — ألــمْ تلــدِ الأميــرَ رفيــعَ شــانِ
ألــوذُ بحضنِهَــا أُمّــاً رؤومــاً — وأخجــلُ منــه حــوراً فِــي الجنَــانِ
يقــولُ الصــدرُ فِــي قلبــي حبيــبُ — مغيــرٌ جَــاءَ هــيءٌ مَــا يَصِيــبُ
وعنــد المــوْتِ فِــي سمعِــي يــدوّي — « بسقطــةِ زهــرةٍ ثمــرٌ يطيــبُ »

* * *

الخِلافةُ والمُلْكُ

بنــورٍ للنبــي القلــبُ أضــرَمْ — أنــارَ بشَــرقِــهِ مَــا كَــان أظلَــمْ[1]
ولكــنَّ الخِــلافَــةَ وســطَ تيــهِ — فهــذا المــؤمنيــن الملــكَ علَّــمْ[2]

* * *

ونشهــدُ أننَــا نَسْمُــو مَقَــامــا — وهــذا الملــكُ قــدْ كــانَ الحــرامَا[3]
خــداعٌ كُلُّــه ، بــلْ كــلُّ مكــرٍ — وتــرعَــى عهْــدَ ربِّــي والــذِّمَــامَــا[4]

* * *

نــزاعٌ فيــهِ ملــكٌ والكَليــمْ — ومــنْ أكــدَى وأعــوزَهُ كَليــمْ[5]
هــيَ الأقــدارُ تجْــرِي كيــفَ شــاءتْ — فعصفُ الريحِ ما وهبَ النسيمُ !
هــوَ الإنســانُ فِــي الــدنيــا غــلامُ — وليــسَ لِمَــا يــزاولُــهُ تَمَــامُ
لفقــرٍ عظيــمٍ قــومٍ كنــتُ عبْــدَاً — لــديــهِ الملــكُ فِــي ديــنٍ حــرَامُ

* * *

---

(١) يقصد العربي .

(٢) إقبال لا يرتضي الخلافة إذا كانت كالملك .

(٣) الخلافة هي التي تشهد .

(٤) الذمام : الحرمة والحق .

(٥) أكدى : افتقر . والكليم : البساط أو الثوب الخلق في الفارسية .

بنظـرتـهِ المحبـةُ مـا يـدُومُ ومنـهُ السكـرُ تقْـدِيـراً يَـرُومُ
وهـذِي « عبـدُهُ » كـانـتْ مَقَـامَـاً بتـربيـبِ لأشـواقِ يقُـومُ[1]

* * *

التركي العثماني

بملـكٍ واسـعٍ أضحَـى أميـرَا بقلـبٍ قـدْ وعَـى أمسَـى بصيـرَا
يظـلُّ مـنَ الفـرنجـةِ فِـي قيـودٍ لسحـرِ طِلَّسْمِهـمْ بَقِـيَ الأَسِيـرَا

* * *

لمـنْ قـدْ أبطَلـوا ذا السحرَ طوبَـى ومَـا شَغلُـوا بعَهْـدِهِـمُ قُلُـوبَـا[2]
بـذاتِـكَ فـاعتـرفْ واليـأسَ جـانـبْ تحـدَّى قبلَهـمْ قـومٌ خطـوبَـا

* * *

بهـمْ قَـدْ حقَّـقَ التـركُ الـرغـائـبْ ونـالُـوا بغتـةً أعلَـى المـراتـبْ
أليـسَ لمسلـمٍ عينـاً بصيـرٍ ! لقـدْ كشـفَ المصيـرَ لـهُ الأَجـانـبْ

* * *

---

(١) تردد ذكر « عبده » في ديوان « رسالة الخلود » لمحمد إقبال وهو القائل تحت عنوان « الحلاج » :

عفـر العـالـم خـداً عنـده نفسـه سمـى النبـي عبـده
عبـده فهمـا لـديـك تبهـر إنـه الإنسـان وهـو الجـوهـر
عبـده قـد شكلـت هـذا القـدر بـالفيافي الخصـب منها قد ظهر
غيـر عبـد عبـده فلتعتبـر عبـده فيهـا انتظـار المنتظـر
عبـده كنـه جميـع الكـائنـات عبـده فيهـا معـان مغلقـات

(ص٢٠١ ـ ٢٠٢)

(٢) طوبى لهم : الخير والحسنى لهم .

فتاةُ المجتمعِ

فتـاتِـي دعـكِ مـنْ هـذَا التجمُّـلْ — مـنَ الكفَّـارِ تـزيـنٌ أيجمـلْ؟[1]
وصـدِّي القلـبَ عـن تـوريـدِ خَـدٍّ — فـإنَّ الغـزوَ مـنْ عيـنِ التـأمُّـلْ[2]

* * *

لـكِ النظـراتُ مـنْ ربِّـي حسـامُ — لـروحٍ مـنْ جـراحـاتٍ قـوامُ[3]
ومنهَـا يستمـدُّ القلـبُ شيّـاً — فمـاءٌ للحيـاءِ هـوَ المـرامُ

* * *

ضميـرُ العصـرِ ليـسَ لـهُ نقـابُ — علَـى حسـنٍ تَفتَّـحَ منـهُ بـابُ
بنـورِ اللهِ دنيَـا فلتُنيـري — عليـهِ فـي تجليـهِ الحجـابُ
ويصلـحُ عيشُنـا بـالأمَّهـاتِ — أميـنٌ قلبهُـنَّ لممكنـاتِ
وهـذا إنْ يغـبْ عـنْ فكـرِ قـومٍ — فليـسَ لأيِّ أمـرٍ مـنْ ثَبـاتِ

* * *

أصَبْنَـا العقـلَ مـن ذاكَ الجنـونِ — بنظـرةِ هـذهِ الأمِ الحنُـونِ
ومَـا فِـي مَكْتـبٍ عيـنٌ وقلـبٌ — وهـلْ مـنْ مكتـبٍ غيـرَ الفنـونِ

* * *

ويسعـدُ مَـنْ رأَوْا بـالـوارداتِ — قيـامـاتٍ بتلـكَ الكـائنـاتِ[4]

---

(١) يجمل : يحسن .
(٢) يقول : إن الحسناء تغزو قلب العاشق بعينها .
(٣) قوام الشيء : نظامه وأساسه .
(٤) الواردات : حلول المعاني بالقلب ، وما يخطر عليه بلا تفكر ولا تدبر .

وما قدْ فَاتَ أو ما سوفَ يأتِي   لهمْ أبدى جبينَ الأمهاتِ
ونُصحي فاجعَليهِ ملءَ أذنكْ   ليفْنَى الناسُ طُرّاً قبلَ دفْنِكْ[1]
عنِ العصرِ اختَفَى ، كونِي بتولَا   ليبقَى شبرٌ في دفءِ حضنكْ[2]

* * *

ومنْ ليلٍ لنَا فجراً أنِيري   إلى القرآن عودِي بالبَصِيرِ[3]
(قرأتُ) وتعلمينَ لهَا أُوارٌ   بهَا عُمَرٌ تغيَّرَ في كثيرِ[4]

* * *

العصرُ الحاضرُ

وعصرٌ منهُ للدينِ الشكاةْ   وحرّيَاتُه وأْدُ الطغَاةْ
وُجُوهٌ فيهِ للإنسانِ شاهتْ   وأفسدَ نقشَهُ حتَّى الهواةْ[5]

* * *

ونظْرَتُه بها تصويرُ كفرٍ   وليسَ كمالُ فنٍّ غيرَ جمرِ

---

(١) طراً : جميعاً . يقول إذا انتصحت بقولي فإن ألف أمة تموت وأنت لا تموتين .

(٢) البتول : العذراء وتطلق على السيدة فاطمة رضي الله عنها ، وشبر أو شبير : اسم الحسن بن علي رضي الله عنه .

(٣) أي اطلبي إلى أهل النظر أن يعودوا إلى كتاب الله الكريم لتدبره .

(٤) يلمح إقبال إلى سبب وقوع الإسلام بقلب عمر بن الخطاب وذلك أنه دخل على أخته وزوجها فوجدهما يقرآن سورة طه . وقالت له أخته (إن كان الحق في غير دينك فأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) ودفعت إليه الكتاب فقرأ حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ ثم أسلم .

(٥) في الأصل أن بهزاد هذا العصر أفسد نقشه . وبهزاد : اسم أشهر رسام إيراني في العصر الصفوي .

ومـنْ تُجـاره فـي السـوقِ فـاحـذرْ   فهـــذا ميَسَّـــرٌ فِـــي كـــلِّ أمْـــرِ

* * *

شبـابَ القـومِ هـذا العصـرُ أفسـدْ   لإبليـسَ دُجَـاه الصبـحَ فـاشهـدْ
لـــهُ الأذيـــالُ تطـــوينَـــا كَنَـــارٍ   فكـــلُّ شُعَـــاعِ نـــورٍ فيـــه يُخْمَـــدْ
جَمَعْنَـــا بيـــنَ سلطـــانٍ وفَقْـــرِ   ومَـــا يغنـــي وَمَـــا يبْقَـــى لـــدهـــرِ
عيـــاذاً منـــهُ بـــالبـــارِي عِيَـــاذاً   دَمُ الشيطـانِ فـي السلطـانِ يجْـرِي !

* * *

أرقـــصٌ ذاكَ ؟ إنـــي لســـتُ أدرِي   أنشْـــوَةُ فـــرحـــةٍ أمْ سكـــرُ خمـــرِ
لتقليـــدِ الفـــرنجـــةِ كـــانَ رقـــصٌ   وليـسَ دمـاً بعـرقِـكَ وهـوَ يَجْـرِي

* * *

البرْهَمِيّ

فتحـــتُ لفتنـــةٍ بـــابَـــاً وبَـــابَـــا   مشيتُ ، سقطتُ ، لاقيتُ الصعَابَا
دُمَـــى للبـــرهَـمِـــيِّ تـــزيـــنُ طـــاقـــاً   بـرأسِ الطـاقِ علقـتُ الكتَـابَـا ؟[1]

* * *

أفـــي عمـــلٍ ونَـــى ؟ لا بـــلْ أطَـــالاَ   لـه الأحجـارُ يكسـوهَـا الصقَـالاَ[2]
بقـــوةِ ســـاعـــديـــهِ بـــرَى إلهـــاً   صلـودَ الصخـرِ قـدْ يـزنُ الجبَـالاَ[3]

* * *

---

(١) الطاق : ما جعل كالقوس من الأبنية .
(٢) ونى : أبطأ .
(٣) برأ : خلق .

ويحفظ بزهميٌ كُلَّ أمرٍ ولا يفضي إلى أحدٍ بِسرٍّ
وهذِي سبحةٌ قَالَ اطَّرِحْهَا بزُنارٍ على كتفيهِ يجرِي[1]
وقالَ لتبتعدْ عنْ بابِ غيرٍ فمنْ أهلٍ لنَا نحظَى بخيرِ
ومَا تسعُ المساجدُ غيرَ مُلاً ومنْ سحرِ الدُّمَى كَانَا بدَيْرِ

***

التعليم

يدومُ لقلبنَا هذا اللهيبُ كَنسُوطٍ ، والحياةُ هيَ النجيبُ[2]
فعلِّمْ ذاكَ أبناءً فعلْمٌ لأنَّ كِتَابهمْ سِحْرٌ يَخِيبُ

***

ومِنْ علمٍ بقلبٍ ليسَ حرقا تأمُّلُ متقٍ خيرٌ وأبقَى
وأصْفَى مِنْ عيونِ الصقرِ قلبٌ هوَ المزورُّ عنْ دارَيْهِ حَقًّا[3]

***

إلهِي مؤمناً لا ريبَ يسلُو من الروحِ الرقيقةِ وهوَ يخلُو
لذَا عنْ مكتبِ الخلانِ أمْضي فما صَادفْتُ منْ بالذاتِ يغلُو[4]
ألَا يا حبَّذَا هذَا الضريرُ إذَا ما أخطأَ النَظَرُ البصيرُ
أُفَضِّلُ جاهلاً وَرِعاً تَقِياً بعلمٍ ليسَ يخدَعُنِي الكَفُورُ

***

---

(١) اطرحها : ألقها . الزنار : ما يشد به النصراني وسطه .

(٢) النجيب : الفرس الكريم .

(٣) ازورّ : مال وحاد .

(٤) يعاود إقبال ذكره للذات على أنها أهم ما ينبغي الالتفات إليه والاهتمام به في تعليم النشء .

أَيُجْـدِي الفِكْـرُ فِـي أَوْجِ السَّمَـاءِ يحـومُ عَلَـى النجُـوم بِـلاَ انتِهَـاءِ
كـأنَّ الـريـحَ تـزْجِيـهِ سَحَـابَـاً فتَـاةَ ممـزَّقـاً وَسَـطَ الفَضَـاءِ[1]

* * *

عَلِيـمٌ زَانَـهُ أدبٌ وجـاهِـلْ كـريـمٌ منهُ مَنْ يحظَى بِحَاصِلْ[2]
وَمَـا أحببـتُ إنسـانـاً عَلِيمـاً وَمِـنْ أدبٍ نصيـبٌ غَيـرُ كَـامِـلْ
لمـاذَا اليـأسُ مِـنْ طفـلٍ صغيـرٍ إذَا مـا شِئـتَ فـانْعَـتْ بـالغَـرِيـرِ
ولكـنْ مَـنْ يعَلِّمُـهُ لتسـألْ أَلِـلأطفـالِ قلـبٌ فِـي الصُّـدُورِ ؟

* * *

صغيـرَكَ لقِّنَـنَّ الـديـنَ علمَـا ليشـرِقَ سعـدُه بـدرَاً ونَجْمَـا
ولـو قـدَّمـتَ بيـنَ يـديـهِ فضـلاً لـزيِّـنَ بـاليـدِ البيضَـاءِ كُمَّـا[3]

* * *

غنـاءٌ مِـنْ بَـلاَبِـلِ مَـا أصَـابَـا أُوارٌ بـالـورودِ لـديـهِ طَـابَـا[4]
بِعِلـمٍ ليـتَ شِعْـري أيُّ فخْـرٍ فعـنْ روحِ لأجـلِ الخبـزِ غَـابَـا
إلهِـي حَـيٌّ للـدرويـشِ ذِكْـرَى يفتـحُ قلبَنَـا عِطْـراً وزَهْـرَا
وينصَـحُ طِفْلَنَـا نصحـاً حَكِيمـاً « لخبـزِكَ لا تَـذِلَّ النفـسَ أسْـرَا »

* * *

و « إلا الله » مِـنْ دومـاً تـذَكَّـرْ مِـنَ المـلأ ومِـنْ درسٍ تحـرَّزْ[5]

---

(١) تزجيه : تدفعه .
(٢) يقول : إن الأدب زينة للعالم والجاهل على السواء ، ويكرم من ينال من الأدب نصيباً .
(٣) الإشارة إلى قوله تعالى في سورة طه ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾
وبيضاء بمعنى مشعة . ومن غير سوء : من غير عاهة .
(٤) الأوار : لهيب النار .
(٥) في الأصل (لا إله) .

بهـذَا العلـمِ لا تبسُـطْ جَنَـاحَـا   بِـهِ الإنسـانُ فِـي عجـزٍ تحيَّـرْ[1]

* * *

وإنْ لـصٌّ علـى رَكْـبٍ أغـارَا   أتسْـألُ كيـفَ أورَدَهُـمْ بَـوارَا[2]

فـلَا تـأمـنْ إذا حصَّلْـتَ عِلمـاً   فمنـهُ الـروحُ يمكـنُ أنْ تُضَـارَا[3]

فتـىً راقـتْ فَصَـاحتَـهُ وسِيـمُ   ونظـرتُـهُ كليـثٍ لا تُقِيـمُ[4]

وفـي درسٍ تلقـنْ عِلْـمَ شَـاةٍ   ومَـا إنْ يسَّـرَ الـورقَ الجمِيـمُ[5]

* * *

وسَقْـب أي شـيءٍ مـا دَرَاهُ   إلهـي قـال إنـي لَا أرَاهُ[6]

فقـالَ أبـوهُ قَـدْ يُمنَـى بَعِيـرٌ   بعَثْـرَتِـه ليشْهـدَ مَـنْ بَـرَاهُ[7]

* * *

السعْيُ في الرِّزْق

أَمِـنْ سطـحٍ إلـى سطـحٍ تطيـرُ   بِهـذَا مَـا سَمَـتْ قَـطُّ الصقُـورُ

إِذَا مَـا كَـانَ صَيْـدُكَ بَعْـضَ رِيـشٍ   فخيـرٌ منْـهُ مـوتٌ فـي الـوكُـورْ[8]

* * *

---

(١) في الأصل : هذا العلم يسلبنا عيننا وقلبنا ويدنا .

(٢) البوار : الهلاك .

(٣) تضار : تصاب بالضرر والأذى .

(٤) يشبه نظرته في دوام حركتها بأسد جوال لا عرين له .

(٥) الجميم : النبات .

(٦) السقب : ولد الناقة .

(٧) يمنى : يبتلى . براه : خلقه .

(٨) الصيد : الفريسة . الوكور والأوكار : جمع وكر وهو العش .

لـــذاتــك نظـــرة فـــي كـــلِّ أمـــرٍ لنَـــا مِـــنْ نَظْـــرةٍ ســـوطٌ لنَجْـــرِي
وَمَـــا نسْعَـــى وَرَاءَ الـــذكـــرِ إلَّا لِكَـــي نَعْلُـــو وَنَغْلُـــو مِثْـــل طَيْـــرِ

* * *

التمساح وصغيره

وللتمْســـاحِ هَـــذَاكَ الكَـــلامُ «لـــزُومُ الشـــطِّ فِـــي دِينـــي حَـــرَامُ
عَـــنِ الشـــطِّ ابْتَعِـــدْ مـــوجـــاً تسَلَّـــقْ فَعِـــشْ بحـــرَنَـــا وَبِـــهِ نَنَـــامُ»

* * *

وَهَـــذَا البَحْـــرُ فِـــي صَـــدْرٍ حَمَلْتَـــهْ وذَا الطـــوفَـــانُ فِـــي حَـــرْبٍ غَلَبْتَـــهْ[1]
ولَـــوْ فِـــي بُـــرْهَـــةٍ أعْيَـــا وَأَغْفَـــى لَكَـــانَ مُقَـــاتِـــلاً مَـــا إنْ قَتَلْتَـــهْ

* * *

خاتمة

عَـــنِ السَّـــاقِـــي وَعَـــنْ كَـــأْسِ المـــدَامِ سَكَـــتُّ وَكَـــانَ عَـــنْ عِشْـــقٍ كَـــلامِـــي
مِـــنَ الأخْيَـــارِ فِـــي قَـــومٍ حَـــدِيثَـــاً سمِعْـــتُ لِكَـــيْ أبْلُـــغَ بـــالتَّمَـــامِ

* * *

بقلبـــكَ أمسِكَـــنَّ وعـــدْ لِنَفْسِـــكْ وَصَـــدْرُكَ فَلْيَكُـــنْ دَاراً لحبْسِـــكْ
لِتَســـقِ الحقـــلَ دَمْعـــاً مِـــنْ دِمَـــاءٍ نَثَـــرتَ الحَـــبَّ فلتعمـــلْ بِفَـــأْسِـــكْ

* * *

---

(١) طوفان في الفارسية بمعنى العاصفة ومعنى الطوفان في العربية . ونحن نشير إلى المعنيين تمهيداً لفهم التورية الممكنة .

بقَلْـبٍ حـوْلَ هَـذَا البيـتِ طُفْنَـا ... وَمَـا كَمُطَـوِّفٍ بِـالبَـابِ كُنَّـا[1]
وَيَكْمُـنُ بينَنَـا سِـرٌّ عَجِيـبٌ ... وهَـذَا الـرَّمزُ عَنْ جِبْرِيلَ عَنَّا[2]

* * *

العالمُ الإِنسَانِيُّ[3]

كَـانَ حُـبُّ الخيرِ للمرْءِ احتِرَامَـا ... كَيـفَ تَنْسـى أنَّـه يسمُـو مَقَـامَـا

جاويدنامه[4]

تمهيد

عَلَيْنَـا فَلْتَـدِرْ كَـأسَ الشمُـولِ ... ونَضُـرْ لِـي رَبِيعـاً فِـي ذُبُـولِ[5]
وأَنْفَـاسـاً مِـنَ الأَنْغَـامِ هَبْنِـي ... أُضَـرِّم نَـارَ نَـايِـي بِـالأَلِيـلِ[6]

* * *

بَقِيـتَ بخلـوةٍ فلتَـأْتِ مَـرَّه ... وَصَـدْرُكَ فِـي الصَّبَـا فَتْـحُ بِخَطْـرَه

---

(١) طوف : طاف .

(٢) عن عنه : بعد .

(٣) في الأصل أن الإنسانية هي احترام الإنسان . ومفهوم الإنسانية : حب الخير للإنسان ورقة الشعور نحوه .

(٤) وهذا البيت في ديوان « جاويدنامه » لمحمد إقبال الذي ترجمة الدكتور مجيب المصري بعنوان « في السماء » وهو الديوان السابع من مجموعة هذه الدواوين باسم « رسالة الخلود » .

(٥) دارت الكأس : تناولها الشاربون الواحد تلو الآخر . والشمول : الخمر أو الباردة منها .

(٦) الأليل : الأنين .

مقـامَ الـريـحِ والألـوانِ دوًى | فـزدْ فِيـهِ لهـذَا الطيـرِ نبْـرَه

* * *

أَثَـارَ الـدهـرُ فِتْنَتَـه ، وَوَلَّـى | لئَامَ الناسِ مَـنْ رَبَّـى ، وَوَلَّـى
بـلادَ اللهِ بغـداداً مَحَـاهَـا | عَلَـى عجـلٍ كَجِنْكيـزٍ ، وَوَلَّـى
بهـذَا الغـدِ كَـمْ شَغَلـوا القُلُـوبَـا | فَهُمْ فِي أَمْسِهِمْ ذَاقُـوا شَعُـوبَـا[1]
فمـنْ فِـي يَـوْمِـهِ أَحْيَـا دَوِيَّـاً | لِيَسْعَـدْ أَوْ لِيَسْمَعْـهُ الطـرُوبَـا ؟

* * *

أنُحْـتَ كَمـا يَنُـوحُ العنـدليـبْ | فَمَـا للـرُّوحِ مِـنْ نَـوْمٍ هُبُـوبْ
بِهـذَا الـرَّوضِ قَطْـفُ الـزهْـرِ حَـلٌ | وَليسَ لـدَيكَ مِنْ شَوْكٍ نُدُوبْ[2]

* * *

علـى الـذَّاتِ انْطِـوَاءٌ ، فَلْتُعلَّـمْ | بظفـرِكَ حَفْـرُ صَـدْرِكَ ، فلْتعلَّـمْ
تـرجّـي رؤيـةَ المـولَـى عَيَـانَـاً | فـرؤيـةُ عمـقِ ذاتِـكَ ، فَلْتُعلَّـمْ
عـنِ الشكـوى مِـنَ الأيـامِ أَقْصِـرْ | فمنْ لَـمْ ينْصَهِـرْ كـالتِّبْرِ يُخْسِـرْ[3]
يطيـبُ المـاءُ فِـي نَهْـرٍ بصَخْـرٍ | يشتِّـتُ مِنْـهُ أَمْـواجـاً وَيَكْسِـرْ

* * *

عـنِ الـورْقَـاءِ للفَـرْخِ الصغيـرِ | « بطبـعِ كيـفَ نَحْيَـا كَـالحَـرِيـرِ[4]
فَقُـلْ فـي نشـوَةِ الأشـوَاقِ يَـا هُـو | وَخُـذْ مَـا زَانَ هَـامَـاتِ الصُّقُـورِ »

* * *

---

(١) شعوب : الموت .

(٢) الندوب : جمع ندب وهو أثر الجرح .

(٣) أقصر عن الكلام : سكت .

(٤) الورقاء : الحمامة التي يضرب لونها إلى الخضرة .

هُوِيُّكَ مِنْ مقامِ الكبرياءِ وعَفَّرْتَ الجبينَ لأذنياءِ[1]

وشاهِيناً أَرَاكَ تَصِيدُ ذَاتاً ولكنْ فِي شِبَاكِكَ بِارْتِماءِ

لكَ البشرَى فَذَاتكَ تسترِدُّ ومِنْ فقْرٍ غِنىً ما تستَمِدُّ

حياةُ الخُلدِ هذِي فِي يَقِينٍ وفِي حدْسٍ لموتٍ تستَعِدُّ[2]

***

أعنْ ذاتٍ تحَجَّبُ بالحجابِ إليهَا حَبَّذَا يَوْمُ الإيابِ

وفِي رِزْقِي لي التفْكِيرُ كَفْرٌ وَأَنْتَ كَفَرْتَ مِنْ عِلْمِ الكتَابِ[3]

***

لسقْبٍ قالَ هذَاكَ البعيرُ «تأمَّلْ أنتَ لِي نِعْمَ النَّظِيرُ

لتَعْمَلْ مِثْلَنَا ، جِبْنَا الصَّحَارَى بأحْمَالٍ لنَا كُنَّا نَسِيرُ»[4]

كلامُ جهبذِ الإفرنجِ قَالاَ وَفِي كَوْنٍ وَفِي عَدَمٍ أَطَالاَ[5]

مِنَ الأعجَامِ شَيْخٌ قَالَ قَوْلاَ أبَلِّغُهُ ، فَأَلْقِ إِلَيْهِ بَالاَ

***

غَرِيبٌ عنكَ يَجْعَلُكَ القَتِيلاَ لقَلْبٍ تشْتَرِي الحزْنَ الوَبِيلاَ[6]

---

(١) عفر الجبين : مرغه في التراب .

(٢) الحدس : الظن والتخمين .

(٣) يذهب إقبال مذهب المتصوفة الذين لا يرون أن النظر في الكتب وسيلة إلى العلم ، فهم على أن القلب هو مصدر المعرفة وليس العقل الذي يعد وحده مصدرها عند غيرهم . ويروى أن بعض الصوفية طرحوا كتبهم في النهر . ومنهم من دفنوها في جوف الثرى رغبة في الخلاص منها لعدم جدواها . وفي هذا المعنى قال شاعر فارسي ما ترجمته : (اغسل الأوراق إن كنت في الدرس زميلنا ، فليس لعلم العشق دفتر عندنا) .

(٤) جاب الصحراء : اجتازها .

(٥) الجهبذ : الناقد العارف بتمييز الجيد من الرديء .

(٦) الوبيل : الشديد .

ويَفضُلُ كُلَّ تَأويلٍ لِشَيْخٍ مَعَ الذاتِ الجلوسُ وَلَوْ قَليلاَ

* * *

وجُودُ ذَاكَ أَمْ هَذَاكَ مَظْهَرْ حَكِيمٌ عِنْدَنَا الإشْكَال فَسَّرْ
وعلْمُ الغوْصِ ضَمَّنَهُ كِتَاباً ولكِنْ ليتَهُ فِي العُمْرِ أَبْحَرْ[1] !
إليكَ الفأسَ ، هَذَا بيسْتُونُ وبادِرْ ، دَهْرُكَ العَاتِي خَؤُونُ[2]
شَرَارَ الفأس دع مَنْ قالَ عنهُ أمِنْ فَأْسٍ ؟ أَمِنْ حَجَرٍ يَكُونُ ؟

* * *

سِرَاجُ مُنَاكَ فِي كَفَّيْك أَبْقِ مقَامَ الهَاتِفِينَ فَنَلْ بِحَقِّ
وفِي دُنياكَ فَاحْذَرْ مِنْ ضَيَاعٍ بِذَاتِكَ خُذْ ، دعِ الدنْيَا لِمَحْقٍ[3]

* * *

وهَذَا القلبُ بَحْرٌ مِنْكَ يَسْكُنْ ومِنْ جَرّاكَ فِيهِ الدُّرُّ يَكْمُنْ[4]
فثُرْ يَا موجُ وَاحذرْ مِنْ سُكُونٍ فَهذَا البحْرُ دَارًا مِنْكَ يَحْسُنْ
إلى ذاتٍ لكَ الدارَيْنِ فاجْذِبْ أعَنْ ذَاتٍ تشرّقُ أَوْ تغرّبْ
ويومَكَ مِنهمَا نُوراً لتُبصِرْ وَهَذَا النُّورُ يَوْمَكَ لاَ تُجَنِّبْ

* * *

---

(١) يتهكم الشاعر مرير التهكم بمن يدعي بالوجود علماً ، فيقول إنه يخرج الكتاب ليعلم الناس الغوص في البحر وهو لم يركب البحر في العمر مرة .

(٢) إليك الفأس : بمعنى خذ الفأس . وبيستون : اسم جبل في إيران جاء في القصص الفارسي أن من يسمى فرهاد شق في صخره طريقاً ، وكان في ذلك صادعاً بأمر الملك برويز في خبر أسلفنا الإشارة إليه . والشاعر يدعو إلى الإقبال على العمل وإنجازه بقطع النظر عما يتكشف عنه من نتيجة وعدم المبالاة بالمادحين والقادحين .

(٣) محقه محقاً : أهلكه .

(٤) من جراك : من أجلك ..

لنَـا يَـا زَهْـرَةً هَـا قَـدْ ظَهَـرْتِ بِـوَجْـهِ الحسْـنِ دُنْيَـانَـا أَنَـرْتِ
وهــذِي زهــرةُ البستَــانِ قَــالُــوا بغصْنِكِ كيفَ كُنْتِ وكيفَ صرْتِ ؟

***

مـنَ التبـريـحِ لا يبكِـي الـرجـالُ بصرفِ الـدهْـرِ يـومـاً لـمْ يُبَـالُـوا[1]
وقَـدْ تبكِـي ولكـنْ لسـتَ مِنهـمْ لـدمعٍ مِـنْ لَظَـى الشـوقِ انهِمَـالُ[2]
ومــنْ فِــي مِحْنــةٍ نَسِــيَ الفنَــاءَ ولوْ شهدَتْهُ في الموتِ السَّماءَ[3]
وأنــتَ بمــوتِــهِ هَــذَا جَـدِيـرٌ وَإِلَّا فَلْتَمُــتْ مَــوْتــاً تَشَــاءُ

***

تُـرابُـكَ وَهْـوَ عـنْ روحٍ غـريـبُ غصـونـكَ ليسَ يـروِيهـا صَبِيبُ[4]
عليـكَ بحـرقـةِ الأنفـاسِ واسعـدْ فمبتهِـجٌ بِهــا الصــدْرُ الكئيــبُ

***

علينَــا قَــدْ تكــاثــرتِ الغمــومُ غَــرِيبــاً مُسْعِــداً كُنَّــا نَــرُومُ[5]
فهيِّــئْ فِــي غـدٍ مـا أنـتَ تبغـي ولكـنْ إنْ عـرفـتَ بكـمْ يقُـومُ[6]
كــريــمٌ ذاتَــهُ والقلــبَ ضَمَّــا بِرَمْيِ الشِّصِّ لا يؤذِي الخِضَمَّا[7]
تجلّــي السكــرُ للنظــراتِ حِــلٌّ بغِــلِّ القلــبِ والكفَّيــنِ حتْمَــا

***

---

(١) التبريح : من برح به الأمر : إذا أجهده وآذاه .
(٢) انهمل الدمع : سال .
(٣) المحنة : بمعنى الامتحان والشدة . وفي هذا احتمال التلميح إلى من يموتون من أجل رأي يرونه وعقيدة يعتقدونها ومن يصيبهم الله بالبلاء ليبلوهم به .
(٤) الصبيب : المصبوب . والمقصود به هنا الماء .
(٥) المسعد : المواسي المشارك في الحزن .
(٦) قامت السلعة بالثمن : تعدلت به .
(٧) الكريم : خير الناس . والشص : حديدة معقوفة يصاد بها السمك .

همُـــومٌ قلبُنَـــا مِنهَـــا تَفَطَّـــر تـــرابٌ أصْلُهـــا وضـــرٌ وأَكْـــدَرْ[1]
ولكـــنْ مَـــا عَـــرَفنَـــا الهـــمَّ يخلـــوُ بـــأصلِ الفكـــرِ فِـي عَقْـلٍ تفَكَّـرْ[2]

***

إلـــى الأقـــدَارِ لا تنســـبْ أُمُـــورَا وَكـــانَ اللهُ وَهَّـــابـــاً غَفُـــورَا
ولكـــنْ قَلْـــبِ الـــدنْيَـــا ففِيهَـــا حقيـــرُ النـــاسِ مَـــنْ قَمَـــرَ الأمِيـــرَا[3]
مـــريـــرَ الحقـــدِ فَلْيَلْفُـــظْ جَنَـــانُ مـــن الشُبَّـــاكِ فليخْـــرُجْ دُخَـــانُ[4]
وليـــسَ لحقـــلٍ قلبـــكَ مـــنْ خـــراجٍ فيـــا دُهْقَـــانَ هـــلْ مِنْـــكَ الأمَـــانُ ؟[5]

***

لفجـــرٍ مـــنْ ليـــاليـــهِ الظهـــورُ لكـــوكبـــهِ علـــى الـــداريـــنِ نـــورُ
وأعجـــزُ عـــنْ كـــلامٍ فيـــه عجـــزاً فعنـــدَ المـــوتِ يغشـــاهُ الســـرورُ

***

وَقَـــالَـــتْ للصَّبَـــا فِـــي الظِّـــلِّ قَطْـــرَة: مُنَـــاي إلـــيّ مـــن عينـــك نَظْـــرَة:
مـــنَ الأزهـــارِ فـــي قلبـــي مَـــلاَلٌ فهبِّـــي كَـــيْ أُوَافِـــي العشـــبَ مَـــرَّة[6]

***

---

(١) الوضر : القذر .
(٢) يقول : إن الهم الحلو المناقض للهم المر الذي تتأذى به هو هم العقل المفكر .
(٣) قمره : غلبه في القمار .
(٤) لفظ الشيء : ألقاه من فمه . والجنان : القلب . يشبه خروج الحقد من القلب بخروج الدخان الذي لم يكن مستحب البقاء في الدار .
(٥) الدهقان : رئيس الإقليم .
(٦) وافى : أتى .

القلب

بِــلاَ شَــطٍّ خِضَــمٌ كَــانَ قَلْبَــا يثيــرُ بهيبــةِ الأمــواجِ رُعْبَــا
بسيــلٍ مغــرقٍ سهبــاً وسهبَــا حبَـابٌ فيـهِ بـالأفـلاكِ يعبَـا ؟[1]

***

لهيـبٌ ، جسمُنَـا مـوجُ الـدخـان ومِــنْ خَفَقَــاتِــهِ رَجْـعُ الأغَــانِـي
ومجلِسُــهُ بِــذِكْـرِ الـوَهْــنِ أمْسَـى كقطــرةِ زئبــقٍ تبــدُو لــرانِ[2]

***

وينجِــحُ سعيُــه دَهْــرَ مُثَــابِــرْ بصــونِ الــذاتِ درويــشٌ يُجَـاهِـرْ
وصُــنْ للقَلْــبِ سُلطَــانــاً وَفَقْــرَاً فهــذَا البحْرُ قَدْ صَانَ الجوَاهِرْ[3]
قِــوَى للــذاتِ يــومــاً مَــا بَلَــوْتَــا وقَيْــداً بَعْــدَ قيــدٍ مَــا حَطَمْتَــا[4]
يَــدُومُ العقــلُ لِــلإنْسَــانِ قَيْــداً إذَا فِـي صَــدْرِه القلــبُ افتقَــدْتَــا[5]

***

تَقُــولُ القلــبُ مِــنْ تــربٍ مهيــنٍ يــذوقُ الأســرَ مِــن كــافٍ ونُــونِ

---

(١) الخضم : البحر . السهب : الأرض المنبسطة . والحباب : الفقاقيع التي تعلو الماء والخمر . والشاعر يريد ليقول إن الأفلاك كلها لا تساوي فقاعة واحدة في هذا السيل .

(٢) يقول : إن هذا القلب نار والجسم موج دخانها ، وهو بخفقه أشبه شيء بالقيثارة . الوهن : نصف الليل . ويشبه من يطربون لذكر الله ليلاً في هزتهم وحركتهم بالزئبق الرجراج .

(٣) أنجحه : جعله ناجحاً . وإقبال يجري على مألوف عادته في الربط بين فقر النفس وعظمة السلطان .

(٤) بلوت : اختبرت . حطم : مثل حطم بتشديد الطاء .

(٥) افتقد : فقد .

وفِـــي صـــدْرٍ لقلـــبِ مستَقَـــرّ هُنَـا مَـا كَـاَنَ يَـوْمـاً بِـالقَطِيـنِ[1]

* * *

ودنْيَـا النيِّـرَيْـــنِ بِهَـــا تَمَنْطَـــقْ وَكَـــمْ عَقْـــدٍ يَحِـــلُّ إذَا تَحَـــرَّقْ[2]

فَقُـلْ لِلْهنْـدِ هَـذَا مِـنْ كَـلاَمِـي بصَخْـوَرَتِـهِ غُـلاَمُ الهنْـدِ يُعْتَـقْ

وكُنَّـا حقْـلَ رَبِّـي وَهْـوَ خَـاصِـلْ لِعَـالَمِنَـا عَـرُوسٌ وهـو محمَـلْ

غبـارَ مـنْ درَى ســرّاً بــدَربٍ ولم يكُ غيرَ هذَا القلْبِ ، فاعقِلْ[3]

* * *

دؤوبٌ يطلُــبُ الحســنَ الغـرِيبَـا خطيــبٌ كــانَ منبــرُهُ صَلِيبَــا[4]

وسلطـــانٌ لـــهُ خيـــلٌ وجَيْـــشٌ ويعـــدمُ عنـــدَ دولتِـــهِ نصيبَـــا

* * *

ودُنْيَـا القلـبِ مـا اتَّسمَـتْ بـرونَـقْ ومـا يبـدُو بهـا حجَـرٌ وَجَـوْسَـقْ[5]

ومـنْ أرضٍ خلـتْ بـل مـن سمـاءٍ و « الله هـــو » تغشّيهَـــا فتغْـــرَقْ

رأتْ عيـنٌ ، أتَـى قلـبٌ سـرِيعَـا أرَادَ يقيــسُ عــالمَنَــا الــوَسِيعَــا

وهـــذَا القلـــبُ سِكّيـــراً يسمَّـــى تحسَّـــى مَـــا بِـــهِ حُسْنَـــاً بَـــدِيعَـــا

* * *

سهــامُ العشــقِ مِـنْ عيـنٍ تصيــبُ يطيــبُ الجرحُ والـرامِـي حَبِيــبُ

بِصَيــدِ القلــبِ سهمُــكَ فلتــدَعْــهُ بكـلِّ الصيـدِ ، مـنْ نَظَـرٍ تـؤوبُ[6]

---

(١) المراد بـ« هنا » : هذه الدنيا . والقطين : الساكن والمقيم

(٢) تمنطق : شد وسطه بالمنطقة .

(٣) الدرب : الطريق .

(٤) الصليب : من معاني الصليب العود الذي يصلب عليه من يقتل .

(٥) الجوسق : القصر .

(٦) الصيد : اسم من صاد وبمعنى ما يصيد .

الذاتية

بِنُورِ الكبرياءِ لها اشتعالٌ ... ومِنْ نَقْصٍ لَها كُلُّ الكَمَالْ
مقاماتُ الوِصَالِ لَها فِرَاقٌ ... كَما أَنَّ الفِرَاقَ لَهَا وِصَالْ

***

ومِنْ جَدَلٍ لقومٍ أنْ يُريحُوا ... ليزهرَ عندهمْ أملٌ نَجِيحُ[1]
بدتْ ذاتيةٌ سيفاً حُسَامَا ... ويُعرفُ حدُّهُ لونٌ وريحُ

***

وجُودُ اللهِ أكسبَها الوجودَا ... فكَانَتْ مَظْهراً جَازَ الحدُودَا
أرَاهَا جَوْهراً منْ جَوْفِ بحرٍ ... سواهُ بمثلِهِ منْ لَنْ يَجُودَا
وطِينٌ حِينَما يرضاهُ قلبٌ ... يفطِّره لطيبِ النومِ حُبُّ
ومِنْ نومٍ بخَلْقِ (أنَا) سيصْحُو ... بجسمٍ حينَ يحكمُهاسيخْبُو

***

لنا وصلٌ فِرَاقٍ فيهِ يظْهَرْ ... وهذي عقدةٌ للحَلِّ تنْظَرْ
تضيعُ جواهرٌ منْ حِضنِ بحرٍ ... وليسَ لماءِ بحرٍ ما لجوهَرْ !

***

وَلِي منْ بَابِهِ هَذَا التُّرَابُ ... ومنْ صَدْرٍ له زَهْرٌ عُجَابُ
ولَا أدْرِي (أنَا) أوْ مَا عَدَاهَا ... بِصَدْرٍ مِنْهُ تَخويني رِحَابُ[2]

***

---

(١) أراح : استراح . والنجيح : الذي تنجح أموره .

(٢) يقول : إنه لا يعرف (أنا) ولا (هو) ولكن يعرف أن (أنا) في صدر (هو) .

الجبرُ والاختِيارُ

سيــوزَنُ كُــلُّ شــيءٍ يَــومَ حَشْــرٍ   لــدَى الإنْســانِ مِــنْ جُحــرٍ وقَصْــر
فَمــاذَا فِــي غَــدٍ يــا لَيْــتَ شِعْــرِي   أيَــرْضَــى اللهُ عمَّــا ســوفَ يَجْــرِي ؟

***

وَلــي شَيْــخٌ مِــنَ الــرهْبَــانِ قَــالَا   كَــلَامــي ذَاكَ ألْــقِ إلَيْــهِ بَــالَا
بتَقْــدِيــرٍ لَكُــمْ عمــرٌ سيَفْنَــى   سنُقْتَــلُ نحــنُ بــالتــدْبيــرِ طَــالَا

***

الموت

لِــرَبــي قَــالَ ذَا المــوتُ المــريــدُ   لعيــنٍ أصلُهــا طِيــنٌ جَمُــودُ[1]
مــنَ الإنســانِ يخجَــلُ قبــضُ رُوحٍ   أمِــنْ مَــوْتٍ لــه العــارُ الجــدِيــدُ !

***

وأيِّــد فِيــه مَــنْ مَلَــكَ الجِهَــاتْ   بمفْــوَدِهِ يَقُــودُ الكَــائِنَــاتْ
لــذُلِّ المــوتِ مَــا أُغْضِــي حَيَــاءً   غــريــبٌ عنــهُ نَــامــوسُ الحيَــاة

***

إلــى إبليــسَ فلتنقــلْ مَقَــالِــي   إلَامَ لِــيَ التملْمُــلُ فِــي العِقَــالِ[2]
وَلِــي دُنْيَــا الثــرَى لا أرْتَضِيهَــا   فَفِيهَــا الصبــحُ مَهْــدٌ للَّيَــالِــي

---

(١) جمود العين : انقطاع دمعها .

(٢) المقال : القول . التململ : التقلب على الفراش من هم أو مرض .

ولمَّـا أخـرجُـوا الـدنيَـا إلَيْنَـا ضَمِيـراً خـامِـداً فِيهـا رَأَيْنَـا
بِغَيـرِ الـروحِ أيـنَ لَنـا لهِيـبٌ لَقَـدْ خَلَقُـوكَ مِـنْ نَـارٍ لَـدَيْنَـا

* * *

فـراقٌ يجعَـلُ الشـوقَ البَصِيـرَا بعمـقِ البحـثِ يجعلُـه الجـدِيـرَا
ولكـنْ كَيـفَ حـالـكَ لسـتُ أدْرِي وطيـنٌ قـالَ لِـي « كَـانَ الخبِيـرَا »

* * *

لقَـدْ طَـرَدُوكَ يـا مَـنْ لَـنْ يُعَـادَا لَـكَ التفْكِيـرُ بَيْـنَ الخَلْـقِ زَادَا
قضَيـتُ الـدهـرَ فِي بَلْـوَى عَـذَابِي فقَلبـي فيـهِ كـمْ زَرَعُـوا القَتَـادَا[1]
مُصِيبـاً مِـزْتُ مـنْ غَيـرِ المصِيـبِ عدِمْتُ النبتَ فِي حَقْلِي الجدِيبِ[2]
ولَـمْ تَسجـدْ فمـنْ ألـمٍ تقـاسِـي أَخَـذْتُ إلَيْـكَ مَـالـي مِـنْ ذُنـوبِ

* * *

تَعَـالَ النـردَ فـي مـرَحٍ لنلعـبْ ودُنْيَـانَـا لنحـرِقَهَـا فتعطَـبْ
بسحـرٍ مـن هشيـمٍ كـانَ فيهَـا لنصنـعْ جنَّـةَ الأفـلاكِ فـاعجَـبْ

* * *

إبليسُ الترابيّ وإبليسُ النَّارِيّ

فسـادُ عصـرِنَـا أوْهَـى وأثْقَـلْ وأفـلاكٌ تشـاهـدُهُ فتخجَـلْ
أليـسَ لـديـكَ للنظـراتِ ذوقٌ لتُخـدَمَ عنـدَ شيطـانٍ وتُحمَـلْ

* * *

---

(١) القتاد : الشوك .
(٢) النبت : النبات .

وَمَـنْ عينـاهُ والأذنـانِ سـارقْ ... تـرصَّـدْ فِي الظـلامِ لسلْـبِ خَافِقْ
وَكَـانَ السعـرُ فـي الأسـواقِ بخسـاً ... بفلـسٍ تشتـرِي ذنبـاً ؟ تحـامِـقْ[1]

* * *

عجيـبُ السعـيِ شيطـانٌ عجيـبُ ... بِسِحْـرٍ للعمَـى عينـاً يصيـبُ
اسمِّـى ذلـكَ الشيطـانَ ميتـاً ... فمثلـكَ صيـدُهُ وهـوَ الطليـبُ[2]
لـهُ كـأسٌ بهـا سـمٌ دَهَـاكَـا ... لقتـلِ الـروحِ ، جسـمٌ مَـا هُنَـاكَـا
لـكَ الحلقـاتُ تبـدِيهَـا شبـاكٌ ... ومَا شَاهَدْتَ فِي الحَبِّ الشّبَاكَا !

* * *

هـوَى الإنسـانُ مِـنْ أَعْلَـى مقـامِ ... فضـاقَ مجـالـهُ عنـدَ ارتطـامِ[3]
بـلَا طعـمٍ ولَا لـونِ ذنـوبٌ ... وإبليـسُ لـه طبـعُ الأنـامِ[4]

* * *

ومـنْ شيطـانِ هـذا العصـرِ فـاحذرْ ... خسيـسٌ مـنْ يضلِّلُـهُ ويسخَـرْ
أرَى إبليـسَ خيـراً مِنْـهُ حقَّـاً ... رَأى الـرحمـنَ فهـوَ بـذاكَ يفخَـرْ
لـه النـدُّ المغَـالِـبُ مِـنْ هُمـامِ ... وبـالنيـرانِ يعلُـو فِـي المَقَـامِ
ومَـا كـلُّ التـرابِ رَمَـاهُ صيـداً ... وأعجـفَ أنْ يصيـدَ مـنَ الحـرامِ[5]

* * *

خسيـسُ الطبـعِ هـذَا ليـسَ يفهـمْ ... علينَـا القـولُ فيـهِ قـدْ تحتَّـمْ

---

(١) حامقه : ساعده على الحمق ، فكان بذل الثمن السخي في الذنب يعين الحمقى الذين يبيعون بالثمن القليل .
(٢) الطليب : الكثير الطلب .
(٣) الارتطام : الوقوع في الوحل .
(٤) الأنام : الناس .
(٥) الأعجف : الهزيل .

أبــالســةً بهــذَا العصــرِ جَــافَــى		غيــورٌ وَهْــوَ طُــولُ العمْــرِ يــأْثَــمْ

***

إلى رُفقاء الطريق

تعــالَ لقَــومِنَــا أمــراً نــدَبِّــرْ		لنكســبْ إنَّ هــذا العيــش ميســرْ

نصعَّــد فِــي مَسَــاجِــدِنَــا أنِينَــاً		علــى إخْــرَاقِ قلــبِ الشيــخِ يَقْــدِرْ

***

وصقْــرٌ فِــي السمــواتِ القَلَنْــدَرْ		لخفــقِ جنــاحِــهِ ذو الثقــلِ أصغَــرْ[1]

وفِــي هــذا الفضــاءِ لــه مَصَــادٌ		بعــشٌ لــمْ يَطُــفْ فــالعُــشُّ أغبَــرْ

***

ولحــنُ « اللهِ » مــن روحِــي تــردَّدْ		متــاع الكــون عثيــره تصعَّــدْ[2]

ولــي فــي معــزَفِــي وَتــرٌ بنــارٍ		تقطَّــع ، يــا لــه دمعِــي المبــدَّدْ

***

خفقــت كــدمعــة ســالــت فطــره		إلــى عيــنٍ وصلــتُ بفضْــلِ طَفْــرَه[3]

---

(١) في القرن الثامن الهجري أنشأ من يدعى قلندر الأندلسي فرقة دينية من مبادئها طهارة القلب وقطع الإنسان ما بينه وبين دنياه من أسباب رغبة عنها وزهداً فيها ، ودوام الترحال . وكانوا يحلقون شعورهم ولحاهم وشواربهم وحواجبهم إمعاناً منهم في تشويه مظهرهم ، ورغبة في أن يعلنوا على الملأ أنهم لا يالون إلا بما بينهم وبين ربهم ولا يكترثون بما يشاهد الناس من ظاهرهم . ويريد إقبال بالقلندر من تخلى عن دنياه وكان اهتمامه ببواطن الأمور لا ظواهرها .

(٢) العثير : الغبار .

(٣) الطفرة : الوثبة .

ولـي إشـراقـةٌ فِـي الهـذْبِ تَبْـدُو عَلى هـذا الهشيـمِ نَثرتُ قَطْـرَه[1]
ولَـمْ يَـفِ منطـقٌ لِـي بِـالمـرَامِ دَليـلٌ فيـهِ خُلْـوٌ مـنْ تمـامِ
سيفتـحُ كـلُّ بـابٍ أوْصَـدُوه ببيـتٍ قـالـهُ الرُّومـي وجَـامِـي[2]

* * *

تعـالَ إليـكَ منِّـي بنـتُ حَـانِ تثيـرُ الـروحَ فِـي طيـنِ الـدِّنَـانِ[3]
ومـنْ قـارورَتِـي فلتسـقِ غصْنـاً لتشهـدَ فيـه إنسـانـاً يـرانِـي[4]

* * *

بكفِّـي معـزَفـي شِعـري يغنِّـي أنيـنٌ فيـهِ مـنْ لـونٍ ولـونِ
عليـهِ بمخلـبِ الآسـادِ عـزْفـي بـه الأوتـارَ مـن وجـهِ المجـنِّ[5]
لِكِسـرَى العصـرِ عنِّي القـولُ ينقـلْ « كفـرهـادٍ لـدى الفـأسِ تحمَّـلْ ؟
بصـدْرِي شـوكـةٌ أدمتـهُ وَخـزاً لقلـبِ الطـودِ منهـا السيـفُ يعمَـلْ »

* * *

فقيـرٌ نظـرةٌ لـي كـلُّ مَـالِـي هشيـمٌ مـا لصحبِـي مـن جِبَـالِ
علـى البـازِي أفضَـلُ زَاغَ ميـتٍ ولـو ربَّـاهُ كِسْـرَى فـي الـدَّلالِ[6]

---

(١) الهشيم : النبات اليابس المتكسر .

(٢) راجع ما مضى عن جلال الدين الرومي ، وجامي .

(٣) الدنان : جمع دن وهو جرة الخمر .

(٤) يقول : إذا سقيت غصناً من خمري أصبح هذا الغصن إنساناً .

(٥) المجن : الترس . وفي الأصل أن أوتاره من عروق الحجر .

(٦) الزاغ : الغراب . والإشارة هنا إلى جوارح الطير التي تأكل جثث الموتى . ولتفسير ذلك نقول : إن المجوس لا يدفنون جثث موتاهم في الأرض التي يعتقدون أنها من خلق إله الخير ويحرم تنجيسها . فهم يضعون جثة الميت عل منصة عالية ويعرضونها لجوارح الطير حتى تأكلها . أما ما تبقى من عظامها فيلقون به في البئر . =

لقلبـي قـطُّ مـا أوصـدتُ بـابـا ولا قـاطعْـتُ أهـلاً أو صحَـابَـا
قبعتُ بمجلسِـي في عقرِ صَدْرِي فجزتُ بمجلسِـي هـذَا السحَـابَـا[1]
عـدمتُ بـروضـةٍ عـزِّي وَجَاهِـي نصيبِـي أيُّ شـيء كَـيْ أُبَـاهِـي ؟
وصـاحبُهَـا يسمينِـي وقَـاحـاً بعيـنِ نـرجسٍ جـذَبَ انتبـاهِـي[2]

* * *

وللعلمَـاءِ فِـي الحفْـلِ المـزيـنِ كـلامٌ رقَّ مثـلُ اليـاسمِيـنِ
ولكنْ مـنَ رأى فِـي الـروضِ شـوكـاً لـوصـفِ الـروضِ بـالقـولِ اليقِيـنِ ؟

* * *

بعلـمٍ أو بِفـنٍّ مـا اهتمـامِـي مقـامٌ آخـرُ فيـهِ كَـلامِـي
ضعيـفُ الـركـبِ يجعلُـهُ لِهيبِـي خفيـفَ الخطـوِ يعـدُو فـي الأمَـامِ
أتحسبُنِـي لفجْـرٍ عنـدَلِيبَـا وحسبـي الـروضَ أفعمُـه نحِيبَـا
تمسـكْ بـي تجـدْ مِفْتَـاحَ روضٍ بعُشِّـي كنـتَ تخشَـى أن يغيبَـا

* * *

هـي الـدنيَـا لعينـيَّ المَمَـرُّ رفيـقٌ ليـس لِـي والكـلُّ سَفْـرُ[3]
نفـارَى مـنْ قـريـبٍ كـانَ خيـراً غـريـبٌ وهـوَ لِـي هـمٌّ وشَـرُّ

* * *

وفِـي عـدمٍ تعلَّـمْ كيـف تَحيَـا وزِدْ ذَاتـاً مـنَ التقـديـرِ هيَّـا

= والمراد بالبازي هنا : ذلك البازي الذي يربيه الملوك في قصورهم لاستخدامه في صيدهم .

(١) قبع : أدخل رأسه في فتحة ثوبه . وعقر البيت : وسطه .

(٢) الوقاح : الوقح .

(٣) السفر : المسافرون .

وفــي أعمــاقِ أنغــامِــي تقلــبْ ... ببخــرِي لــؤلــؤ فــاسكــنْ مليّــا[1]
وتــربيِبــي بتلــكَ الأرضِ كــانَــا ... ولكــنْ أجتــوِيهــا لِــي مَكــانَــا[2]
نَبــتٌّ بهَــا بفيــضٍ مــن نَــداهَــا ... سمــاءٌ لِــي أَأشهــدُهَــا عيــانَــا

* * *

إلــى نفــسِ الــرجــالِ كــنِ القَــرِيبَــا ... لهــم أنفــاسهــم تحيــي القلــوبــا
شكــاةَ الــذَّاتِ همُّهــمُ يجَــافِــي ... فمــا عــنْ ذاتِــه كــانَ الغــرِيبَــا

* * *

لتخلــقَ نظــرةً والــروحَ أبصِــرْ ... تجــد زهــراً بغصــنٍ غيــرَ مــزهِــرْ
وإلَّا فلتكُــــنْ سهمــــاً لقــــوسٍ ... ومــنْ يــرْمِــي لــه هــدَفــاً يُقــدِّرْ[3]
تغــرَّبَ عقلُنَــــا ذَا عــــنْ يقِيــــنِ ... بــدَا كمقــامــرِ العلــمِ المشِيــنِ[4]
جهــولٌ كــانَ خيــراً مــنْ حَكِيــمِ ... بنظــرَتِــه إلــى الحــقِّ المبِيــنِ

* * *

ومــنْ ذَهَــبِ ودُرٍّ مــا المــرامْ ... ومَــا ســرجُ المطهَّــمِ والغــلامْ[5]
مــنَ الــدارَيْــنِ شــيءٌ لا يــرَجَّــى ... وذاكَ لمــالِ ذِي الفضــلِ القــوَامْ

* * *

وسكْــرُ أنــا لتلــكَ الــذاتِ عقْــلْ ... وإنَّ الصمــتَ فــي حَــانِي لِفضْــلْ
شــرَابِــي مــا صَفَــا ، لكــنْ تــرشَّــفْ ... ففِــي يــومٍ مضَــى للــدَّنِّ بَــزْلْ[6]

---

(١) ملياً : زماناً طويلاً .
(٢) الترييب : التربية .
(٣) يشبهه بالسهم الذي يحدد راميه الهدف ولا يحدد هو هدفه بنفسه .
(٤) المشين : المعيب .
(٥) الجواد المطهم : التام الحسن .
(٦) بزل الدن : ثقبه لأخذ الخمر منه .

لـدَيْـكَ بخـرْقـةٍ أو فِـي نصِيـبِ ... ومنْ ذَاتِي وَجَدْتُ شذَا الحبِيبِ[1]
لَـدَيَّ المـالُ مِـنْ خَشَـبٍ لِنَـاء ... وليـسَ لمنبـرٍ أوْ للصليـبِ[2]

* * *

بمـرْآةٍ لـذاتِـي قَـدْ بَصُـرْتُ ... بصَـدْرِي خُلْـوةٌ فِيهَـا قَـرَرْتُ
مـنَ العميـانِ فِـي عِلْـمٍ وَفَـنٍّ ... ببلبَـالٍ قـدِيـمٍ لِـي فـرَرْتُ

* * *

رحِيلِـي حَـانَ عـنْ هـذَا التـرَابِ ... فقَالَ الكـلُّ «كـانَ مـنَ الصحـابِ»
فمَـنْ هـذا المسـافـرُ ليـتَ شِعْـرِي ... ومَـنْ قـدْ خُصَّ بـالقـولِ العجَـابِ
عليـمُ القلـبِ رَقْـرَاقُ الضَّميـرِ ... أميـرٌ وَهـوَ يُعـرَفُ بـالفقِيـرِ
وليـسَ لمعـدمٍ دينـاً وعلمـاً ... قبـاءٌ بـلْ لـهُ سـرجُ الحـريـرِ

* * *

لجَـمْ أنـتَ تَسجُـدُ أو لـدَارَا ... فَـلاَ تُلحِـقْ ببيـتِ اللهِ عَـارَا[3]
ولا تطلـبْ إلـى الغـرْبِـيِّ شيئـاً ... بقلبِـكَ حطْـمِ الصنـمَ المعَـارَا

* * *

بسمْعِـي طـافَ مِـنْ شيـخٍ كبِيـرِ ... لـهُ عقْـلٌ وإشـرَاقُ الضَّمِيـرِ
«فقيـرٌ إنْ يصُـنْ بـالفقْـرِ ذاتَـاً ... فملـكُ العـالميـنَ لـذَا الفقِيـرِ»
وفِـي حـرْفَيـنِ هـذَا السـرُّ يستَـرْ ... مَقَـامَ العشْـقِ لاَ يُبْـدُو كمنبَـرْ
وإبـرَاهِيـمُ نمـرُوداً أيخشَـى ... لعـودِ نفحـةٌ بـالنـارِ تنشَـرْ

* * *

---

(١) الخرقة : الثوب الخشن البالي الذي يلبسه الصوفي .
(٢) الصليب : من معانيه العود يصلب عليه من يقتل .
(٣) جم : هو الملك جمشيد من ملوك الأساطير عند الفرس وهو مذكور بعظمة الملك .

ألاَ يـا زهْـرُ مـا طلـبُ العـزاءِ ؟ بـذَاتـكَ فـالْتَـزِمْ خـلَّ الـوفَـاءِ
وصــدرَكَ افْتَحَــنَّ لكــلِّ ريــحٍ وصنْ وَسْماً قدِيماً فِي الخفَاءِ[1]

* * *

يـدوِّي النصْـحُ فِـي سمعِـي دوِيًّـا « بـرُوحِـكَ وحـدَهَـا عِـشْ يـا بنَيَّـا
لتحـذرْ مـنْ أضَـاعَ الـروحَ رهْنَـاً بجسـمٍ لا بـروحٍ وهـوَ يحيَـا »
لشـطٌّ قـالَ مـوجٌ وهـو يهـدُرْ بفِـرعُـونيـةٍ ذَاتِـيَ أقـدِرْ
عَلَـى ذَاتِـي التفَـافِـي مِثْـلُ أفْعَـى وأرقُـصُ بـانتظـارٍ فيـهِ أصبِـرْ

* * *

بجَـاهِ الغـرْبِ إنْ كنْـتُ القمِينَـا علـى عتبَـاتِـهِ عَفِّـرْ جَبِينَـا[2]
أذِرْ لعصـاهُ عنـدَ الضـرْبِ ظَهْـرَاً كَعِيـرٍ سيـقَ فلتكُـنِ المهِينَـا ![3]

* * *

وأيــنَ فــؤادُهُ طــوعَ اليمِيــنْ خــلاءٌ ملكُـهُ مـنْ كِـلِّ دِيـنْ[4]
شيــاطيــنٌ تطــوفُ لــهُ ببيــتٍ وتُـوحِـشُ غيبـةُ الرُّوحُ الأمِينْ[5]
ومـنْ قَلْـبٍ ومِـنْ ديـنٍ يئِسْنَـا كعِطْـرِ الـوردِ مـن أصـلٍ هـربْنَـا
ومـاتَ الـديـنُ مـن مـوتٍ لقلْـبٍ لنـا مـوتَيـنِ نحـنُ قَـد اشتَـرَيْنَـا !

* * *

حنيـفٌ كَـانَ يعـرفُ قـدْرَ دِيـنٍ لــرَبِّــي منــهُ تعفِيــرُ الجبِيــنِ
بَمــا لا يشتَهــي الأفــلاَكُ دَارَتْ أدَارَ الأرْضَ منــهُ بــاليمِيــنِ

---

(١) الوسم : أثر الكي .
(٢) القمين : الجدير .
(٣) العير : الحمار .
(٤) يريد الرجل من الفرنجة .
(٥) الروح الأمين : سيدنا جبريل .

مِـنْ دُنْيَـا لنَـا قلـبٌ غَـرِيـبُ	لـهُ الأَيَّامُ مِـنْ فَلَـكٍ نَصِيـبُ[1]
صـلاةَ العشْـقِ مَيِّـزْهَـا بـوقـتٍ	فلَيْـسَ لهَـا المـؤذِّنُ والخَطِيـبُ
مقَـامُ العشْـقِ يفعَمُـهُ اليقِيـنْ	يقِينَـاً يصحَـبُ الـروحَ الأمِيـنْ
إذا حصَلْـتَ مِـنْ هـذَا نصِيبَـاً	فَسِرْ قُدُماً ، فما اعترَضَ الكَمِينْ

* * *

وعِـرْفَـانٌ وإدْرَاكٌ لمسلِـمْ	وعَيْنيهِ « بِلَـولا » الـذات يفْعَـمْ[2]
سَمَـا رَبِّـي سمُـوّاً عـن قيـاسٍ	بقائلٍ « ما عرَفْنَا » النفسَ أكْرَمْ[3]

* * *

وأصْنَـامَ الفـرنجَـةِ مـا عبـدتَـا	بمعَبـدِهِـمْ فبِئْـسَ المـوتُ مِنَّـا
وعقلُـكَ كـانَ عـن قلـبٍ غَـرِيبَـاً	فما بسُلافِ من سَلَفُوا سكِرْتَـا[4]
أكـلُّ النـاسِ مِـنْ نفْسَـاً يُسِيـلْ	ومِـنْ سُكْـرِ التـدَلُّـلِ مِـنْ يمَيـلْ
قبـاءٌ « لا إلـه » بـه دمـاءٌ	على قـدِّ الخِسَاسِ هـوَ الطَّويـلْ

* * *

ويحـرِقُ مـؤمِنـاً حَـرُّ الـوقِيـدْ	مِـنَ الأبـوابِ يفتَـحُ مـا يـريـدْ[5]
جـلالُ الكبـريـاءِ لـهُ قيـامٌ	جمـالُ الصبْـرِ يظهـرُه السُّجـودْ

* * *

أتسـألُ عـن صَـلاةِ العـاشِقينَـا	وفِيهَـا خُفْيـةً هـمْ ساجِـدُونَـا
أرى « الله أكبـر » مثـلَ نـارٍ	أفِـي خمسٍ بـدَتْ للنَّـاظِـرِينَـا

---

(١) يريد ليقول إن القلب الغريب الطبع ليس من دنيانا .

(٢) التلميح إلى (لولاك لما خلقت الأفلاك) هكذا في الأصل .

(٣) الإشارة إلى (ما عرفناك حق معرفتك) هكذا في الأصل .

(٤) السلاف : الخمر .

(٥) الوقيد : الوقود .

نِـدَاءُ العَـالمِيـنَ بهَـا يـدُومُ ... ومِنهَـا مُسلـمٌ خلـداً يَـرُومُ
صـريـعُ العصـرِ فينَـا ليـسَ يـدرِي ... قِيـامَـاتِ « لقـدْ قَـامـتْ » تَقُـومُ

* * *

رَأى مُتَفَـزِنـجٌ للهِ حُكْمَـا ... فيـرزقُ وهـو يطلُـبُ منـه دَوْمَـا
علـى الشيطـانِ أغـدقَ أي رِزقٍ ! ... إلـى أنْ حـارَ فيـهِ الله يـومَـا

* * *

وفِـي قَـوْلـي لِـمَ الإسهـابُ كَـانَـا ... أقُـولُ الحـرفَ عـنْ سـرٍّ أبَـانَـا[1]
وعـالمـهُ لمتجـريـن أغطَـى ... مَكَـانَ كَيْـفَ يـدْرِي الـلاَّمَكَـانَـا
لمَـنْ تصفُـو قُلُـوبُهُـمْ نَعيـمُ ... وَآخَـرُ فِيـهِ ذُو هِمَـمٍ يُقِيـمُ
فبلِّـغْ مُسْلِمـاً فِـي الهنـدِ بُشـرَى ... « نَعِيمـاً فـي سبيـلِ اللهِ شيمُـوا »[2]

* * *

إلـى التقـريـرِ مَـا مـالَ القلنـدَرْ ... كـأكسيـرٍ لـه رأيٌ يقـدَّرْ
وهـذَا الحقـلُ أقفَـر مـنْ حصَـادٍ ... فمـا يـروي ثـراهُ دمٌ لشبَّـرْ[3]

* * *

(١) أبان عنه : فسره .

(٢) شيموا : انظروا .

(٣) الحصاد . الزرع . شبر : اسم الحسن بن علي رضي الله عنه .



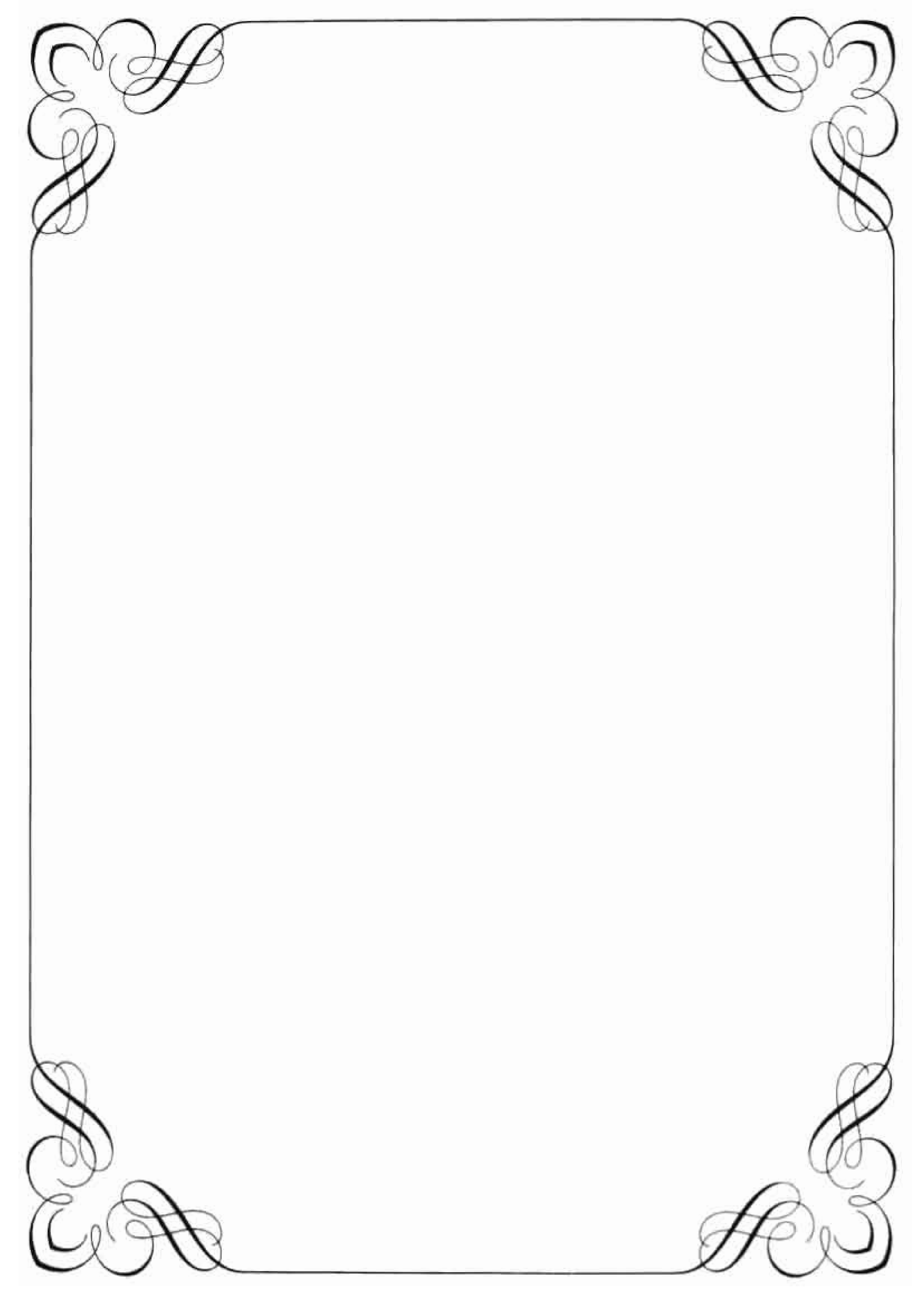
القسم الرابع

قَصَائد



(١) من هُنا القسم الرابع والخامس لهذا الديوان نقلها من الأردوية إلى العربية نثراً الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم .



برلمانُ إبليس

هذه قصيدةٌ بديعةٌ لمحمد إقبال ، وصف فيها وصوَّر جلسةً برلمانيةً ، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي ، واستعرضوا فيها الاتجاهاتِ والحركاتِ والمذاهبَ السياسيةَ العصريةَ التي تهدِّدُ مهمَّتهم في العالم وتُحبطُ مساعيهم ، أو تعرقلُ سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ، ووجهاتِ نظرهم ، وترأسَ هذه الجلسة ، وأشرف عليها « إبليس » فحكمَ على هذه الآراءِ والدراساتِ ، وعارضَ أكثرها في ضوء تجارِبه الواسعة ، وبُعْدِ نظره الذي لا يشاركه فيه أحد من تلاميذه ، وأدلى برأيه الحصيفِ المؤسَّس على الدراسة الواسعة العميقة ، وهو يتلخَّص في : أنَّ المسلم هو المنافسُ الوحيدُ ، والمصارعُ الكفءُ لنظامه ، وهو الشرارةُ التي تتحوَّل ناراً بسرعة ، فالمصلحةُ والرأي أن يركِّز « الزملاء » تفكيرهم على محاربةِ هذا العدو ، أو إلهائه وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصَّادقِ الدقيقِ للمسلم ، ومن الملاحظات الصَّائبة الدَّقيقة عن كثيرٍ من المذاهب السياسية وزعمائها ما يفيدُ الاطلاعُ عليه ، وإليك محضر الجلسة :

« إنَّ الشياطينَ وزملاءَ إبليس وأعوانَه اجتمعوا في مجلسِ شورى ، وتباحثوا في سيرِ العالم ، وأخطار الغدِ ، وفتنه ، وما يتوجَّسون من خيفةٍ على نظامهم الإبليسي ، ومهمَّتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتنٍ وأخطارٍ قد أحدقت بهم ، وهدَّدت نظامهم ، وجلَّلوا خطبها ، وتناذروا شرَّها ، فذكرَ أحدُهم « الجمهورية » وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولنَّك أمرُها ، فإنَّها ليست إلا غطاءً للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ؛ إذ

رأينا الإنسانَ بدأ ينتبهُ ويفيقُ ، ويشعرُ بكرامته ، وخفنا ثورةً على نظامنا قد لا تُحمدُ عاقبتُها ألهيناه بلعبةِ الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك ، إنَّ الملوكية لا تنحصر في وجودِ شخصٍ ترتكز فيه الملوكية ، وفردٍ يستبدُّ بالسلطان ، إنَّما الملوكية أن يعيشَ الإنسانُ عيالاً على غيره ، مستشرفاً إلى متاع غيره ، سواءٌ في ذلك الشعبُ والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهوري ، وجهُهُ مشرقٌ وضّاحٌ ، وباطنُه أظلم من باطن جنكيزخان .

فقال الآخر : لا بأسَ إذا بقيت روحُ الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدَّهماء التي أثارها هذا اليهوديُّ الذي يُدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ، ولكنَّه يحملُ عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ أنّه أقام العالم وأقعده ، وأثار العبيد على السّادة ، حتى تزعزعت مباني الإمارة والسّيادة ؟ .

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحبَ الفخامة ! إنَّ سحرة أوربة ، وإن كانوا مريديكَ المخلصين ، ولكنَّ لم أعد أثق بفراستهم ، هاهو السامريُّ اليهوديُّ الذي هو نسخة من « مزدك » (الزعيم الفارسي الاشتراكي) ، قد كاد يأتي على العالم بقواعده ، فاستنسرَ البُغاث ، وأصبحَ الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ، ويدفعونهم بالرَّاح (أعلامُ أرضٍ جُعِلَتْ بطائحاً) إنا قد استهنَّا بخطب هذه الحركة الاشتراكية ، وهاهي قد استفحلت وتفاقم شرُّها ، وهاهي الأرضُ ترتجفُ بهولِ فتنة الغد ، يا سيدي ! إنَّ العالمَ الذي كنتَ تحكمه سينقضُّ عليك ، وينقلبُ نظامُ العالم ظهراً لبطن .

فتكلم رئيسُ المجلسِ « إبليس » وقال : إنِّي أملك زمام العالم ، وأتصرَّف به كيف أشاء ، وسيرى العالمُ عجباً إذا حرَّشت بين الأمم ، فتهارشت الكلابُ ، وافترسَ بعضُها بعضاً فِعْلَ الذئاب ، وإذا هَمَسْتُ في آذان القادة السياسيين ، وأساقفةِ الكنائس الروحانيين فقدوا رُشدَهم ، وجُنَّ جنونُهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقةٍ أنَّ الخَرْقَ الذي أحدثه

الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطقُ المزدكي (يعني الفلسفة الاشتراكية) لا يخوّفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ، والصعاليكُ السُّفهاء .

إنْ كنتُ خائفاً ، فإنِّي أخافُ أمةً لا تزال شرارةُ الحياةِ والطموحِ كامنةً في رمادها ، ولا يزالُ فيها رجالٌ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وتسيلُ دموعُهم على خدودهم سَحَراً ، لا يخفى على الخبير المتفرّس : أنَّ الإسلام هو فتنةُ الغد ، وداهيةُ المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهلُ أنَّ هذه الأمّة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنّها فُتِنتْ بالمال ، وشُغِفَتْ بجمعه ، وادخاره ، كغيرها من الأمم ، أنا خبيرٌ بأنَّ ليل الشرق داجٍ مكفهرٌ ، وأنَّ علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلماتُ ويضيءُ لها العالمُ ، ولكنِّي أخاف أنَّ قوارعَ هذا العصر وهزَّاتِه ستقضُّ مضجعها ، وتوقظ هذه الأمة ، وتوجهها إلى شريعة محمد (ﷺ) ، وإنِّي أحذِّركم وأنذرُكم من دين محمد (ﷺ) ، حامي الذِّمار ، حارسِ الذِّمم والأعراض ، دينِ الكرامة والشَّرف ، دينِ الأمانة والعفاف ، دين المروءة ، والبطولة ، دينِ الكفاح والجهاد ، يلغي كلَّ نوع من أنواع الرِّقِّ ، ويمحو كلَّ أثرٍ من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرِّقُ بين مالكٍ ومملوك ، ولا يؤثرُ سلطاناً على صعلوك ، يزكِّي المال من كلِّ دنسٍ ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ، ويجعلُ أصحابَ الثروة والملاَّك مستخلَفين في أموالهم ، أمناءَ الله ، وكلاءَ على الأموال ، وأيُّ ثورةٍ أعظمُ ، وأيُّ انقلابٍ أشدُّ خطراً مما أحدثه هذا الدِّينُ في عالم الفكر والعمل ، يومَ صرخَ : إنَّ الأرض لله لا للملوك والسَّلاطين .

فابذلوا جهدكم أنْ يظلَّ هذا الدِّينُ متوارياً عن أعينِ الناس ، وليهنكم أنَّ المسلمَ بنفسه هو ضعيفُ الثقةِ بربِّه ، قليلُ الإيمان بدينه ، فخيرٌ لنا أنْ يظلَّ مشتغلاً بمسائل علم الكلام ، والإلهيات ، وتأويل كتاب الله ، والآيات ، اضربوا على أذان المسلم ، فإنَّه يستطيع أن يكسرَ طلاسمَ العالم ، ويبطلَ سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ، ويبطئَ سَحَرُه ، اشغلوه يا إخوتي !

عن الجدِّ والعمل ، حتى يخسرَ الرِّهان في العالم ، خيرٌ لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجرَ هذا العالمَ ، ويعتزلَه ، ويتنازلَ عنه لغيره زهداً فيه واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا ! ويا شقوتنا! لو انتبهتْ هذه الأمّة ، التي يَعْزِمُ عليها دينها أن تراقب العالم وتمسَّه »[1] .

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلاً نجحَ شياطينُ الإنس والجنّ في مهمَّتهم ، وكانت مؤامرةٌ مبيتةٌ ضدَّ الإسلام ، وخطةٌ منظمةٌ ضدَّ أجياله القادمة ، فأكبر ما اهتموا به هو إطفاءُ الجمرةِ الإيمانيَّة ، التي لا تزال كامنةً في الرَّماد ، وتجريدُ المسلمين في بلاد العرب والعجم من الحَمِيَّة الدِّينية ، والعاطفة الإسلامية ، التي تحمل أصحابها على التضحيةِ والجهاد ، وتحمُّلِ الشدائدِ والمكاره في سبيل الله ، والثورةِ على الباطل ، وقد أوصى بذلك إبليسُ أشياعه وجنده ، يقول محمد إقبال في قصيدة عنوانها (وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين) :

« إنَّ المجاهدَ الذي يصبرُ على الجوع ، ولا يحسُب للموتِ حساباً ، أخرجوا روحَ محمد (ﷺ) من جسمه ، فيصبحُ قليلَ الصَّبر ، جزوعاً من الفقر ، شديدَ الخوف من الموت ، وأشغلوا العرب بالأفكار الغربيَّة ، وانتزعوا من أهل الحرم تراثَهم الدينيَّ تتمكَّنون بذلك من إجلاء الإسلام من الحجازِ واليمن ، إنَّ في الأفغان غيرةً دينية ، وعلاجُها أن يُقصى العَالِمُ الدِّينيُّ من جبالها وسهولها » .

وكان من أقرب الطُّرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليمُ الذي يجرِّد الشباب المسلم من الروح الدِّيني والعواطف الإسلاميَّة والعقلية الإسلاميَّة ، وينشئُ فيه طبيعةَ النفعية والأبيقورية ، وطبيعةَ التهام الحياة ، وانتهابِ

---

(١) كتب الشاعر هذه القصيدة عام ١٩٣٦م ، كما هو مكتوب تحت عنوان القصيدة في الأصل .

المسرّات ، وتقديسَ المادَّة ورجالها ، وعدمَ الاستقامة الخلقية والتماسك ، وضعفَ الثقة بالنفس ، والشكَّ في الدِّين ، لذلك يرى شاعرٌ هنديٌّ آخر اسمه : أكبر الإله آبادي : أنَّ فرعون مصر أخطأ الرمية ، وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني إسرائيل ، فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرقٍ سافرةٍ ألصقت به العار ، وأثارتْ عليه اللَّعناتِ ، فكان يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ليأمن ثورة بني إسرائيل ، وغائلتهم في المستقبل ، ولو أنَّه رُزِقَ شيئاً من الابتكار ، وبُعْدِ النظر ، ودقَّةِ التفكير ، لاكتفى بتأسيس كليةٍ لبني إسرائيل ، ينشىءُ الجيل الإسرائيليَّ الجديدَ كما يشاء ، ويسبكُ العقول والطبائع سبكاً جديداً ؛ لا يدع مكاناً لنشأة شاب مثقف يشعر الشعور الدِّينيَّ ، ويحمل العاطفة الدينية ، والغيرة القومية ، ويهتم بشيءٍ آخر غير الوظائف ، والمناصب ، والمرتبات ، والدرجات ، لو أنَّ فرعون وُفِّقَ لهذا المشروع لتفادى هذه المتاعب ، وسوءَ الأحدوثة ، ووصلَ إلى غايته في سهولةٍ ويسرٍ ، وهدوءٍ وسلام ، وزيادةً على ذلك اشتهرَ في الناس بلقب « حامي العلم » و« مربي الجيل » وناشرِ الثقافة والتعليم في الشعب .

نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الديني :

ويرى محمد إقبال أن أنصارَ الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكرتهم ، وجهودهم ، فَضَعُفَ الشعورُ الدينيُّ في بلاد الإسلام ، وَخَمَدَتْ جذوةُ الإيمان ، وفقدت البطولةُ الإسلاميَّةُ وروح الجهاد ، وَفَشَتِ النفعيةُ ، وجَمَحَتِ الماديَّةُ ، يقول الشاعر ؛ وقد ساح في كثيرٍ من البلاد الإسلامية والعربية : « لقد تجوَّلت في بلاد العرب والعجم ، فرأيت خلفاء أبي لهب كثيرين تفيضُ بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد ﷺ كالكبريت الأحمر ، وعنقاء المغرب » ، ويقول في قصيدةٍ قالها في فلسطين : « لا أرى في بلاد العرب تلكَ اللَّوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد العجم ذلك السموَّ الفكريَّ الذي كان يمتازُ به العجم ، لا تزال دجلةُ والفراتُ متعطشين إلى بطلٍ من أبطال

الإسلام ، ولكنّي لا أرى في قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين » .

يشعرُ محمد إقبال بهذا التدهورِ الذي وقع في حياة المسلمين ، ويتألّم لذلك أشدَّ الألم ، ويبكي دماً ، وشعره يفيض بهذه الأناتِ والدموع ، يقول في أبيات : « يا وارثَ التوحيد الإسلاميّ لقد فَقَدْتَ الكلامَ الجذابَ السّاحر ، والعملَ المسخر القاهر ، لقد كنتَ يوماً من الأيام إذا نظرت إلى أحدٍ ارتعد فرقاً منك ، وطار قلبه شعاعاً ، وقد أصبحت اليوم كسائر الناس ، لا تحملُ روحاً ولا تجذبُ نفوساً » . ويقول في موضعٍ آخر : « إنَّ السجدة التي كانت تهتزُّ لها روحُ الأرض ، لقد طال عهدُ المحراب بها ، واشتاق إليها المسجد ، كما تشتاق الأرضُ الجدبية الخاشعة إلى المطر ، لم أسمعْ في مصر ، ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال بالأمس » . ويقول في بيتٍ : « لقد فقد المسلمُ لوعةَ القلبِ ، وانطفأت نارُ الحياة فيه ، فأصبح ركامها من تراب » . ويقول : « لم أر في محيطكَ أيُّها المسلم لؤلؤةَ الحياة ، قد بحثتُ عنها موجةً موجة ، وتفقَّدْتها صدفةً صدفة » .

ويرى محمد إقبال أنَّ مصدر هذا التدهور هو القلبُ الذي خوى من الإيمانِ وشعلةِ الحيــاة ، يقول : « لقد فقدَ المسلمون سَوْرَةَ الحبِّ الصادق ، ونَزَفَ منهم دمُ الحياة ، أصبحوا هيكلاً من عظام ، لا روحَ فيه ولا دم ، الصفوفُ زائغة ، والقلوبُ مضطربةٌ ، والسَّجدةُ لا لذَّة فيها ، ذلكَ لأنَّ القلب خالٍ من الحنان » .

اليقظة الإسلامية :

هذا ، ولكنَّ محمَّد إقبال يعتقدُ أنَّ الصَّدماتِ السياسية التي أصيب بها العالم الإسلاميُّ أقضَّتْ مضجع المسلمين وأيقظتهم ، ودبَّ فيه دبيبُ الحياة ، يقول في قصيدته البليغة « طلوع الإسلام » : « إذا رأيت النُّجومَ شاحبةً منكدرةً تخفق ؛ فاعلم أنَّ الفجر قريب ، هاهي الشمس قد ذرَّ قرنها من الأفق ، وولَّى الليلُ على أدباره ، إنَّ عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام ، فإنَّما تتكوَّن اللآلىء

في البحر المتلاطم الهائج ، ولقد دبَّ دبيب الحياة في الشرق ، وجرى الدَّمُ الفائر في عروقه الميتة ، وذلك سرٌّ لا يفهمه ابنُ سينا ، والفارابي ، إنَّ المسلم سَيُمْنَحُ من الله الأبهة التركية ، والذكاء الهندي ، والنطق العربي » ، ويقول في بيت : « إنَّ إقبالًا ليس يائساً من تربته الحقيرة ، فإنَّها إذا سقيت أتت بحاصلٍ كبير » .

المسلم هو باني العالم الجديد :

ويرى محمد إقبال أنَّ الحضارة الغربية قد مثَّلَتْ دورَها ، ونثرت كنانتها ، وقد شاخَتْ وهَرِمتْ ، وأينَعتْ كالفاكهةِ ، وحانَ قطافها ، وأنَّ العالمَ القديمَ الذي حوَّله مقامرو الغرب إلى حانةِ الفساد والمقامرة منهارٌ قريباً ، والإنسانية تتمخَّضُ بعالمٍ جديد ، ويعتقد محمد إقبال أنَّ هذا العالم الجديد لا يُحْسِنُ تصميمَه إلا من بنى للإنسانيةِ البيتَ الحرامَ بالأمس ، وورِثَ إبراهيم ومحمداً ﷺ في قيادة العالم وإرشادِه ، فيهيبُ محمد إقبال بهذا المسلم النائم ، وينشدُه بالله أن يقومَ ويمسحَ النَّوم من عينيه ، فقد ظهر الفسادُ في البرِّ والبحر ، وعاث الأوربيون في الأرض ، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها ، وخرَّبوا العالم وملؤوه ظلماً وظلمات ، وشروراً وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوتِ الله جعلها مسجداً وطهوراً ، وأذِنَ أن تُرفَعَ ويذكر فيها اسمه ، ولكنَّ الأوربيين قد حوَّلوها إلى خمارةٍ ، وبيتِ فسقٍ ودعارةٍ ، ومكانِ نهب وغارةٍ ، وقد آن لباني البيت الحرام وحاملِ رسالةِ الإسلام أن يقومَ ، ويُصْلِحَ ما أفسده الأوربيون ، ويعيد هذا البيتَ إلى قواعدِ إبراهيمَ ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم ، ويبني العالمَ من جديد[1] .

* * *

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . للعلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي ص٢٣٠ ـ ٢٣٣ نقلاً عن « روائع إقبال » للعلامة الندوي ، ص١١٤ ـ ١٢٣ ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

وإليك الآن هذه القصيدة المترجمة في النثر :

إبليس

١ ـ هذه الألاعيبُ القديمةُ للعناصرِ[١] ، وهذه الدُّنيا الوضيعة
كانت سبباً في قَتْلِ أمنياتِ ساكني العَرْشِ الأعظم[٢] .

٢ ـ الخالقُ الذي سمَّاها دنيا الكافِ والنون[٣]
مُتَهَيِّىءٌ اليومَ لتدميرِها .

٣ ـ عَرَضْتُ على الإفرنج حُلْمَ المُلوكيَّة
وحطَّمْتُ سِحْرَ المسجدِ والمعبدِ والكنيسة .

٤ ـ علَّمتُ الجهلاء درسَ القَدَر
وأعْطَيْتُ الغنيَّ جنونَ الرأسمالية .

٥ ـ منْ يستطيعُ أن يطفىء نارَه المتأججة[٤] .
إنَّ في هيجانها الحُرْقَةَ الإبليسيَّة .

٦ ـ أغصانُه[٥] تنمو وترتفعُ من ماءِ سُقيانا
فَمَنْ يستطيعُ أن يُنكِّسَ أغصانَ هذا النَّخلِ القَديم ؟!

---

(١) أي : الإنسان والعناصر المكونة له ، وهي : الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار .
(٢) أي : الملائكة .
(٣) حيث قال تعالى ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .
(٤) يقصد نار الإنسان الذي يحمل الملكية ، وجنون الرأسمالية .
(٥) أي : أعماله ، وما يقوم به من أفعال .

المُستشارُ الأول

٧ ـ لا شكَّ أنَّ هذا النظام الإبليسيَّ مُحْكمٌ
ففي ظلّه ألِفَ الشَّعْبُ طَبْعَ العُبودية .

٨ ـ الخضوعُ والمذلَّة على جبينِ هؤلاءِ المساكين
فنظرتُهم تقتضي منهم صلاةً بلا قيام

٩ ـ لا تَنْبُتُ لديهم الأمنيةُ أساساً
فهي إنْ تَظْهَرْ تَمُتْ أو تَبْقَ كشيءٍ خاملٍ لا يَنْضَجُ أبداً .

١٠ ـ وهذه هي معجزةُ جهدِنا المتواصل
فاليومَ صار الصُّوفيُّ والملاُ عبداً ـ بشكلٍ تامٍّ ـ للمَلكيَّة .

١١ ـ هذا الأفيونُ ـ الملكيَّةُ ـ كانَ مناسباً تماماً لِطَبْعِ الشَّرق .
مع أنَّ عِلْمَ الكلامِ ليس بأقلَّ من « الغناءِ الصُّوفي »[١] .

١٢ ـ لو بقِيَتْ لهم مناسكُ الحجِّ والطَّواف ، فلا ضَيْرَ
فإنَّ سيفَ المؤمنِ المسلولِ صارَ كالَّاً .

١٣ ـ إنَّ هذا الأملَ الجديدَ بأنَّ الجهادَ حرامٌ على المسلم
دليلٌ على اليأس ؛ فَمَنْ ذا الذي أصابه اليأسُ ؟

المُستشارُ الثاني

١٤ ـ هَلْ غوغاءُ الحُكْمِ الجُمهوريِّ خيرٌ أم شرٌّ ؟
أنت لا تدري شيئاً عن الفتنِ الجديدةِ في العالم !

---

(١) هو « القوالي » وهو ما يتغنَّى به الصُّوفيَّة .

المُستشار الأول

١٥ ـ نَعَمْ ، ولكن بصيرتي تخبرني :
لو تبقى المَلَكيةُ كالسّتار فلا خطر !

١٦ ـ فحينَ صارَ الإنسانُ مدبّراً ومفكّراً إلى حدٍّ ما
ألبسْنا المَلَكية لباسَ الجُمهورية .

١٧ ـ شؤونُ الحُكْمِ شيءٌ آخر
لا يَنْحصرُ في وجودِ الأميرِ والسَّلْطَنَة .

١٨ ـ وسواءٌ يكونُ مجلسُ الأمَّة ـ أو يكونُ بلاط برويز
فالحقيقةُ أنَّ السلطانَ هو من تكون عيونُه على زَرْعِ الغَيْرِ .

١٩ ـ أمَا رأيتَ أنَّ النِّظامَ الجُمهوريَّ الغربيَّ
له وجهٌ مضيءٌ لكنَّهُ من الدَّاخل أحلكُ من جنكيز[1] .

المُستشارُ الثالث

٢٠ ـ روحُ السَّلطنة باديةٌ فأيُّ اضطرابٍ بعدَ ذلك
لكنْ ما هو الردُّ على شقاوةِ ذلكَ اليهوديِّ[2] .

٢١ ـ هو الكليمُ بغير تجلٍّ ، هو المسيحُ بغيرِ صليب
« ليس رسولاً ولكنْ في حِضْنه كتاب » .

٢٢ ـ ماذا أقولُ ؟ كيف يكونُ نظرُ هذا الكافِرِ الذي يخترقُ السَّتائر ؟
هذا النَّظرُ صارَ كيومِ حسابٍ لأقوامِ الشَّرق والغربِ .

---

(١) مثالٌ لظلم جنكيز وقهره ، ثم التعبير عن مدى ظلم النظام الجمهوري الغربي نفسه .
(٢) هو كارل ماركس .

٢٣ ـ لا يوجدُ للطبيعة فسادٌ أعظمُ من هذا
فقد حطَّم العبيدُ أطنبةَ خيامِ السَّادة .

المُستشار الرابع

٢٤ ـ انظرْ ردَّ هذه الشقاوة في إيواناتِ روما الكبرى[(١)]
فقد أعدنا على آلِ قَيْصَرَ حُلْمَ قيصرَ مرَّةً ثانية[(٢)] .

٢٥ ـ من الذي يتلوَّى بأمواجِ بحر الروم
ويرتفعُ أحياناً كالصَّنوبرِ ـ وأحياناً يبكي كالرَّباب ؟

المُستشار الثالث

٢٦ ـ الرَّجُلُ الذي فضح سياسةَ الإفرنج ، هكذا
لا أعترفُ أبداً بدرايتِه للأمور .

المُستشار الخامس
(يُخاطِب إبليس)

٢٧ ـ يا منْ أمورُ العالم قائمةٌ بأنفاسِك المحترقة !
أنتَ الذي أظهرْتَ كلَّ مختفٍ حينَ شِئْتَ .

٢٨ ـ صارَ الماءُ والطِّين من حرارتك عالماً مليئاً بالحُرقةِ والغِناء
وصارَ أبْلَهُ الجنةِ[(٣)] بتعليمكَ عالماً بالأمور .

---

(١) أي : الإمبراطورية الرُّومانية .
(٢) هذا هو ردُّ شقاوةِ اليهودي .
(٣) أبله الجنة : هو « آدم » .

٢٩ ـ هو ليس أعرفَ مِنْكَ بسرِّ الفِطْرة
ذلكَ الذي اشتهرَ بينَ العباد البسطاءِ باسم الرَّب .

٣٠ ـ أولئكَ الذين لم يكنْ لهم عملٌ سوى التقديسِ والتسبيحِ والطَّواف[١]
هم بسبب غَيْرَتِكَ سيبقون أذلَّاءَ خجلين إلى الأبد .

٣١ ـ ومع أنَّ سَحَرَة الإفرنج جميعاً من مريديك
لكنْ لا أعتمدُ على فراستهم .

٣٢ ـ ذلكَ اليهوديُّ[٢] المثيرُ للفتن الذي هو ظهورٌ لروح مَزْدَك
والذي كادَ كلُّ قباء أنْ يكونَ فتّاناً بسببِ جنونه .

٣٣ ـ غرابُ الصَّحراء صارَ نِدّاً للشَّاهين والعُقاب
كيف يتغيَّر بسرعةٍ طبعُ الزَّمان[٣] .

٣٤ ـ إنَّ ما اعتقدناه قبضةَ غُبارٍ بسبب الجَهْلِ
انتشرَ فاغبرَّتْ سعةُ الأفلاك .

٣٥ ـ إنَّ هيبةَ فتنةِ الغدِ قد وصلت إلى درجةِ أنَّ
الجبالَ والسهولَ والهضابَ والأنهارَ كلَّها تَرْتَعِد .

٣٦ ـ وهذا العالمُ الذي لم يكن يدارُ إلا بسيطرتِك
أوشكَ ـ يا مولايَ ! ـ أنْ يضطربَ فيصبحَ أعلاهُ سُفلاه .

---

(١) أي : الملائكة .
(٢) كارل ماركس .
(٣) الغراب لم يكن أبداً نِدّاً للعُقاب ، والمعروف أنّه من أخسِّ الطيور ، وهو رمزُ الجاهل الخبيثِ النفس .

٣٧ ـ عالمُ اللَّونِ والرائحة[١] هذا[٢] في قبضتي المتصرِّفة
سواءٌ هذه الأرض ، أو هذه السَّماءُ ، أو كلُّها جميعاً .

٣٨ ـ وسوفَ يرى أهلُ الشَّرقِ والغربِ بأعينِهمْ
حينَ أثيرُ دِماءَ أقوامِ أوربة .

٣٩ ـ ما قيمةُ أئمةِ السِّياسةِ ، وما قيمةُ شيوخِ الكنيسة
إنَّ صيحةً واحدةً منِّي تُذهِلُهم وتَذْهبُ بعقولهم .

٤٠ ـ الجاهلُ الَّذي يعتبرُ هذا العملَ بيتاً من الزُّجاج
عليهِ أنْ يحاولَ أنْ يحطِّم كأسَ وأباريقَ هذه المدنية .

٤١ ـ الجيوبُ الَّتي مزَّقتها يدُ الفِطْرة
أصبحَ منَ المُحالِ رَتْقُها بإبرةِ مَنْطِقِ مزدَك[٣] .

٤٢ ـ كيفَ يستطيعُ هؤلاءِ المتشرِّدون الاشتراكيُّون
أن يخيفوني ، المخبولون ، منفوشي الشعر ، مضطربي الأيام .

٤٣ ـ إنَّ ما بين جنباتي من خطرٍ ليس إلَّا مِنْ هذه الأمَّة[٤]
ففي رمادِها حتى الآنَ شرارةُ الأمل .

٤٤ ـ فحتَّى الآنَ يوجدُ في هذه الأمَّة قليلٌ من النَّاس
يتوضَّؤون بدموعِ الأسحارِ .

---

(١) أي : العالم المحسوس .
(٢) أصلها في النص « هو » .
(٣) جاء بعد زردشت وماني وادَّعى النبوة ، وهو أولُ من نادى بالاشتراكية الشيوعية .
(٤) الأمة الإسلاميَّة .

٤٥ ـ إنَّ منْ كُشفَ له باطنُ الأيامَ يعرفُ
أنَّ فتنةَ الغدِ ليست مَزْدَكيَّةً لكنَّها الإسلام .

(٢)

٤٦ ـ أعرفُ أنَّ هذه الأمَّة لا تَحْمِلُ القرآن
وأنَّ الرأسماليةَ هي دينُ العبدِ المؤمن .

٤٧ ـ أعْرِفُ أنَّه في ظلمةٍ دجا ليلُ الشَّرق
فإنَّ أكمامَ شيوخِ الحَرَمِ خاليةٌ من اليَدِ البيضاء[1] .

٤٨ ـ لكنَّ الخوفَ من مطالبِ العصرِ الحاضِر ،
ألا يَظْهَرَ شرعُ النَّبيِّ .

٤٩ ـ الحذرَ ، الحذرَ مِئَةَ مرَّةٍ بنظامِ الرَّسول فهو
حافظٌ لكرامةِ المرأة ، ومختَبِرُ المرء ، ويَخْلُقُ الرِّجال .

٥٠ ـ هذا النِّظامُ كرسالةِ الموت لكلِّ أنواع العبودية
ليس هناكَ فرقٌ بين مَلِكِ الصِّين ، أو فارسٍ ، أو مسكينٍ ذي مَتْرَبة .

٥١ ـ إنَّه يُطَهِّرُ الثروةَ ويخلِّيها مِنْ كلِّ قذارة
ويجعلُ الأغنياءَ أمناءَ على المالِ والثَّروة[2] .

٥٢ ـ لا يوجدُ في الفِكْرِ والعَمَلِ ثورةٌ أعظمُ من :
« هذه الأرضُ لله وليست للملوك »[3] .

٥٣ ـ يا حبذا لو يبقى هذا النظامُ مختفياً عن عينِ العالم

---

(١) إشارة إلى قصَّة موسى ، انظر [الشعراء : ٣٣] و[النَّحل : ١٢] و[القصص : ٣٢] .
(٢) إشارة إلى النظام الإسلامي .
(٣) له في جناح جبريل قطعةٌ بعنوان « الأرض لله » ، في القسم الثاني .

فهذا مغتنمٌ أن يبقى المؤمنُ محروماً من اليقين .

٥٤ ـ وهذا أحسنُ أن يبقى في شِرْكِ الإلهيات
ويبقى منهمكاً في تأويلاتِ كتابِ الله .

(٣)

٥٥ ـ الإنسانُ الَّذي حطَّمتْ تهليلاتُه سِحْرَ الجهاتِ السِّتِّ[١]
كيفَ لا يضيء الليلَ الحالكَ لهذا الوَرِعِ التَّقيِّ .

٥٦ ـ أماتَ ابنُ مريمَ ؟ أمْ هو حيٌّ باقٍ ؟ هذه صفاتُ ذاتِ الحقِّ
هَلْ صفاتُ الذاتِ منفصلةٌ عنه أمْ عَيْنُ الذَّاتِ ؟

٥٧ ـ هَلْ يَقْصِدُونَ بالقادمِ المسيحَ ابنَ مريمَ أمْ هُوَ المجددُ
الَّذي تكمُن فيه صفاتُ ابنِ مريمَ ؟

٥٨ ـ هَلْ ألفاظُ كتابِ الله قديمةٌ أم حادثةٌ ؟
وفي أيِّ عقيدةٍ منها تكْمُنُ نجاةُ الأمَّةِ المَرْحُومَةِ ؟

٥٩ ـ ألا يكفي المسلمين في هذه الأيام
هذه الأصنامُ[٢] المنحوتةُ من الإلهيات ؟

٦٠ ـ اجعلوه غريباً عن عالم العَمَلِ لكي
تنهزمَ جميعُ قطعهِ الشَّطرنجيَّة على بساطِ الحياة .

٦١ ـ فهذا خيرٌ أنْ يبقى المؤمنُ عبداً حتى يومِ القيامة
ويتركَ هذه الدُّنيا الفانيةَ للآخرين .

---

(١) يقصد : الشمالية ، والجنوبية ، والغربية ، والشرقية ، والفوقانية ، والتحتانية . ويمكن أن يكون المقصد منها أن تكون رمزاً للحواس الخمس ، والحس المشترك ، وأسير الحواس عند الصُّوفية هو إبليس .

(٢) في الأصل (اللات ومناة) .

٦٢ ـ الشِّعْرُ والتصوُّف اللذان يغطيانِ عن عُيونه مَنْظَرَ الحياة
أحسنُ بالنِّسبةِ له .

٦٣ ـ إنِّي أخافُ مع كل نَفَسٍ منْ يقظةِ الأمَّة
فحقيقةُ دينها هي احتسابُ الكائنات .

٦٤ ـ أسْكِرُوه واجعلوه ينتشي بالذِّكر والتفكُّر في الأسحار
وأنضِجُوا فيه طَبْعَ الخانقاهات .

* * *

نصيحة بَلُوش عجوز لابنهِ[1]

لِيُنْعِشْكَ هواءُ صحرائك
فليستْ دهلي ولا بخارى بأروع منْ هذه الصَّحراء .

إنَّك تستطيعُ أنْ تسيرَ كالسَّيلِ الجارِف حينما تريد
فهذا وادِينا وهذهِ صحراؤنا

الاعتزازُ بالنَّفس له قَدْرٌ عظيمٌ في دنيا الكدِّ والجُهْدِ
فهو يُلبسُ الدرويشَ تاجَ دارا[2] .

عليكَ أن تنالَ هذا الفنَّ الخفيَّ منْ كاملٍ ، إذ إنَّهم يقولون :
إنَّهم يستطيعونَ أن يجعلوا من الزُّجاج صخراً جلموداً .

إنَّ تقديرَ الأمم بيدِ الأفراد

---

(١) في الأصل : بلوج ، هو اسم لقبيلة تسكن منطقة بلوجستان في باكستان الغربية على الحدود بين إيران والسند وهي بلادٌ صحراوية ، وهم الذين كتب عنهم أولُ فاتحٍ إسلامي دخل في بلاد الهند ، فقال : إنَّهم أشداءُ أقوياء .

(٢) ملكٌ من ملوك إيران .

ومعَ كلِّ فردٍ نجمُ تقديرِ الأمَّة .

هذا الغوَّاصُ الَّذي لا يتركُ صُحْبَةَ السَّاحلِ
ظلَّ محروماً من ثورةِ البَحْرِ .

لو ضاعَ الدِّينُ من يدِ الأمَّة الحرَّة
فهذهِ التِّجارةُ خسارةٌ للمُسلم .

إنَّ العالَمَ يواجهُ معركةَ الرُّوح والجَسَدِ مرَّة ثانيةِ
فإنَّ المدنية قد هيَّجتْ وحوشَهَا .

اللهُ يعتمدُ على ثباتِ المسلم
وإبليسُ يعتمدُ على آلات أوربة .

ما هو تقديرُ الأمم ، لا أحدٌ يستطيعُ أن يقول
لكنْ لو تجدُ فراسةَ المؤمن ، فالإشارةُ كافية .

اطلبِ الإخلاصَ في العمل من الأسلافِ القُدماء
أيُّ عَجَبٍ لو يعطفُ الملوكُ على الشَّحاذين !

الصُّورةُ والمصوِّر

الصورةُ :

قالتِ الصُّورةُ للمصوِّرِ :
سببُ ظهوري من إبداعِكَ وفنِّك[1] ،
كمْ منَ الظُّلم أنْ تكُونَ

---

(١) يوضح أنَّ الإنسان الذي يتخذ من صورته الحسية أساساً لإدراك حقيقة الخالق لا بدَّ من وقوعه في الخطأ لأنه سلك إلى ذلك العرفان سبيلاً خاطئاً ، وعلى الإنسان أن يتحرَّر من سيطرة الحواسِّ قبل انطلاقه إلى الحديث عن الخالق .

محجوباً عن نظري .

المصوِّر :

صَعْبٌ على الإنسانِ البصيرِ أنْ تكونَ له عينٌ تنظرُ

ماذا حلَّ بالشَّررِ من رؤيةِ العالَمِ .

فلتقتنعي أيَّتُها الجاهلةُ بهذا الخبر - إنَّ النظر ليس إلا

الغمَّ والألَمَ والحميَّةَ والنَّشاط .

الصُّورة :

الخبرُ عجزُ العَقْلِ والفِكْرِ

النَّظرُ حياةُ القلبِ الخالدة

ليس جدُّ وجُهْدُ هذا الزَّمانِ

لائقاً بحديثِ ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾

المصوِّر :

أنتِ من روائعِ فنِّي

ولذلكَ فلا تيأسي من مُبْدِعِكِ .

ليسَ هناكَ شرطٌ لرؤيتي

سوى ألا تختفي أنتِ عن نظرِكِ .

عالَمُ البرزخ

الميِّتُ (يخاطبُ قبره) :

ما هذا ؟ وأيُّ يومٍ تكونُ القيامةُ غَدَهُ ؟

يا بيتي القديم : ما القيامة ؟

القبر :

ألا تعرفُ بعدُ ، يا ميِّتَ المئة عام ؟
بأنَّ القيامة هي المطلبُ الخفيُّ لكلِّ موت .

الميِّت :

أنا لستُ أسيراً في شَرَكِ ذلك المَوْتِ
الذي يخفي بداخله القيامة .

فمع أنَّني مِتُّ منذ مئةِ سنةٍ
إلا أنَّني لستُ متضايقاً من هذا البيتِ الأرضيِّ المُظلم .

آه لو تَلْبسُ الرُّوحُ هذا الجسمَ الهزيلَ مرَّةً أخرى
فإنِّي لستُ راغباً في شراءِ هذه القيامة .

نداء من الغيب :

ليسَ الموتُ من نصيبِ الثُّعبان والعَقْرَبِ أو الغَزَالِ والوَحْشِ
فإنَّ الموتَ الأبديَّ ليس إلَّا للأممِ المستعبَدة .
صوتُ إسرافيل[1] لا يستطيعُ أن يبعثَ أولئكَ
الذينَ كانتْ أجسادُهم خاليةً مِنَ الرُّوح في دنياهم .

ولو أنَّ مُستَقَرَّ كلِّ ذي روحٍ هو حِضْنُ اللَّحدِ
إلا أنَّ القيامَ بعدَ الموتِ ليسَ إلا شأنُ الأحرار .

القبرُ (يخاطبُ ميته) :

آه أيُّها الظَّالمُ ، أكنتَ عبداً محكوماً في الدُّنيا ؟

---

(١) إسرافيل هو الملك الذي ينفخ في الصور يوم القيامة ، فيبعث الموتى .

لمَ ترابي ملتهبٌ هكذا ؟
ازدادتْ ظُلماتي بِجَسَدِكَ ظلمةً
وتمزَّقَتْ ستارةُ ناموسِ الأرضِ بجسدِك .

الحذرُ من جسدِ الميت المحكومِ ، الحذرُ مِئَةَ مرَّةٍ
يا إسرافيلُ ! يا ربَّ الكائنات ! النجدةَ أيَّتها الروحُ الطَّاهرة .

نداءٌ من الغَيْبِ :

مع أنَّ النِّظام الكونيَّ مضطربٌ بسببِ القِيامة
إلا أنَّ هذا الاضطرابَ يكشفُ أسرار الوُجود .

بالزَّلازِل تطيرُ الجبالُ كالسَّحاب
وتظهرُ في الوُديان عيونٌ جديدة .

لا بدَّ لكلِّ تعميرٍ جديدٍ منْ تخريبٍ كاملٍ
ففي هذا حلٌّ لكلِّ مشكلاتِ الحياة .

الأرض :

آهِ مِنْ هذا الموتِ الدَّائم ، آهِ منْ معركةِ الحياة
هل ينتهي صِراعُ الكائناتِ إلى الأبد ؟
لا يجدُ العقلُ النجاةَ مِنْ أصنامِه
العارفُ ، العالمُ ، العامَّةُ ، جميعُهم صاروا عبيداً لِلَّات ومناة .

كم صارَ خاضعاً ذليلاً هذا الآدميُّ المتمثِّل لصفاتِ الله
فبقاءُ هذا العالم ثقيلٌ على هذا القلبِ والنَّظر .
فلماذا لا يكونُ ليلُ هذا الإنسانِ العظيمِ سَحَراً ؟

***

المَلِكُ المعزول[1]

فلنُبارِكْ هذا الملكَ الطَّيِّب
الذي فَضَحَتْ تضحيتُه أسرارَ المُلوكية .

المَلِكُ في المعبد البريطانيِّ ليس إلا صنماً من التُّراب
يمكنُ أن يحطِّمه العبادُ حينما يشاؤون .
هذا المِسْكُ ممزوجٌ بالأفيون لنا نحنُ العبيد
أيُّها السَّاحرُ الإنجليزيُّ انْحتْ لنا سيِّداً آخر !

***

مُناجاةٌ جهنَّميٌّ

العبادُ في هذا الدَّير القديم ذوو احتياجٍ
يذكرون الله حين يتألَّمونَ منَ الأصنامِ .

ولا تفيدُهم الصَّلاةُ ، ولا تفيدُهم عبادةُ الأصنام
فحظُّ هؤلاءِ المساكينِ ليس إلا النُّواحُ والعويلُ .

مع أنَّ العماراتِ تطاولُ الفَلَكَ رفعةً
لكنَّ الحقيقة أنَّ كلَّ مدينةٍ كخرابةٍ عامرة .

انظُرْ إلى تقلُّباتِ خطِّ الفأس
فبرويز مزيَّنٍ ، وفرهاد ظمآنٌ كبدُه[2] .

هذا العِلْمُ ، هذه الحِكْمةُ ، هذه السِّياسةُ ، هذه التِّجارةُ

---

(١) أنشد هذه الأبيات بعد عزل ملك الهند ، وأعتقدُ أنّه يشير إلى : Edward Assamen .

(٢) انظر خطَّ الفأس كيف كان حين استعملها برويز ، وكيف كان حين استعملها فرهاد .

جميعُها أشياءُ من إبداع المَلَكيَّة .

شكراً لك يا إلهي ، فإنَّ هذه القطعةَ من الأرضِ الملتهبةِ[1]
حرَّةٌ من عُبوديَّةِ التَّاجرِ الأوربيِّ .

* * *

مسعود المرحوم[2]

هذه الشَّمسُ ، هذا القَمَرُ ، هذه النُّجومُ ، وهذه السَّماءُ الزَّرقاء
منْ يدري أهذا عالمُ الوجودِ أمِ الفناء ؟
التَّفكيرُ في الرِّحلةِ والهدفِ ما هو إلا خُرافةٌ
فالحياةُ كلُّها رحيلٌ دون هدف .

واأسفاهُ لم يَبْقَ في يدِ الزَّمانِ تِذْكارُ
كمالاتِ أحمد ومحمود[3] .

تأسَّفَ العِلْمُ والفنُّ لموتِه المفاجىء
فقد كان متاعاً غالياً للقافلة .

تُبكيني جفوةُ أهل الدُّنيا
فإنَّهم يعتقدونَ أنَّ بكاء طيورِ السَّحَرِ نغماتٌ .

لا تَقُلْ : إنَّ علاجَ حزنِ الصَّديقِ يمكنُ بالصَّبرِ
لا تَقُلْ : إنَّ حلَّ لُغْزِ الموتِ كامنٌ في الصَّبر .

---

(١) جهنم .
(٢) هو صديق محمد إقبال ، وحفيد السر سيد أحمد خان ، وكان زميلاً لإقبال في الدراسة ، وأشرت إلى هذه القصيدة في الفصول السابقة
(٣) أحمد هو سرسيد أحمد خان ، ومحمود هو ابنه ، ووالد مسعود . وكان مسعودُ هو ذكرى كمالاتهم .

القلبُ الذي يَعْشَقُ ويَصْبرُ ليس سوى حجر
فبينَ العِشْقِ والصَّبْرِ ألفُ فرسخ[1] .

لا تسلْني عن العُمْرِ الذي يمرُّ بسرعةٍ
فلا أحد يدري ما هذا التغيُّر والجاذبية .

كلُّ منْ خُلِقَ من التُّراب سيوارىٰ فيه
أهذه هي الغيبةُ الصُّغرى أم هذا هو الفناء ؟ ماذا ؟

وُهِبَ لغُبار الطَّريق ذوقُ الجمال
والعقلُ لم يستطعْ أن يكشفَ المعنى الخفيَّ .

أليسَ القلبُ والنَّظرُ من إعجاز هذا الماءِ والطِّين[2] ؟ وإنْ لمْ يَكُنْ
فما نهايةُ حضرةِ الإنسانِ إذاً ؟

إنَّ « لا إله إلا هو » هي روحُ الدُّنيا الخالدة
فما معنى المسيحِ والمسمارِ والصليب ؟

مِمَّنْ نطلبُ القِصاصَ لدمِ الآمال
مَنِ المُذنبُ ؟ وما هي الفِدْيةُ ؟

لا تَحْزَنْ فنحنُ مكبَّلونَ بقيد الدُّنيا
فالقلبُ الذي نملكُ يحطِّم الطلاسم[3] .

لو أنَّ معرفةَ الذَّات حيةٌ ، فالموتُ مقامٌ في الحياة ،
لأنَّ العِشْقَ يختبرُ ثباتَها بالموت .

---

(١) هذا البيت من شعر سعدي وقد ضمنه إقبال قصيدته .
(٢) الإنسان نفسه .
(٣) هذا البيت بالفارسية :
غمين مشوكه به بند جهان گرنتاريم   طلسمها بشكند آن ولى كه ماداريم

لو تكنِ الذَّاتُ حيَّةً ، فَبَحْرُكَ لا شاطِىءَ لَهُ
وموجُ النِّيلِ والفراتِ يتوقُ لأنْ يَنْدَمِجَ مَعَك .

لو تَكُنِ الذَّات ميتةً فهي كأعوادِ القشِّ أمامَ النَّسيمِ ؛
لو تَكُنِ الذَّاتُ حيَّةً فهي سلطانُ كلِّ الموجودات .

لو أنَّ البصيرةَ حُرِمَتْ منْ تجلٍّ واحدٍ
فإنَّها تحتاجُ إلى مِئَتَيْ تجلٍّ لتعويضِ ما فات .

اللَّاتُ ومناةُ منتشرةٌ من الأرضِ حتى الثريَّا
بينما مقامُ العبدِ المؤمنِ وراءَ الفَلَكِ .

مقامُه الأبديُّ هو حَرَمُ الذَّات
وليس مكانَه القبرُ المظلمُ ولا مكانَ تجلِّي الصِّفات .

أولئكَ الذين ملكوا معرفةَ الذَّاتِ والَّذين خرجوا من هذه الدُّنيا .
قد حطَّموا طِلَّسْمَ الشَّمْسِ والفَلَكِ والنُّجوم[1] .

***

صوت من الغيب

يأتي صوتٌ من العَرْشِ الأعلى ذاتَ صباحٍ ، يَهْتِفُ :
« كيفَ ضاعَ جوهرُ إدراكِك » ؟
كيفَ أصبحَ مِشْرَطُ التَّحقيقِ لَدَيْكَ كالًّا ؟
لماذا لا تستطيعُ أن تمزِّقَ أكبادَ النُّجوم !
لقد كنتَ جديراً بخلافة الظَّاهرِ والباطنِ

---

(١) أصله فارسي .

هلْ تكونُ الشُّعلةُ أسيرةً للأعشابِ الجافَّة[1] ؟
لماذا لا تَخْضعُ لكَ الشَّمْسُ والقَمَرُ ؟
لماذا لا ترتجفُ الأفلاكُ منْ أنظارك ؟

مع أنَّ الدَّمَ يجري في عروقِكَ
لكنَّك لا تملكُ حميَّة الأفكارِ ، ولا الفِكْرَ الجريء ..

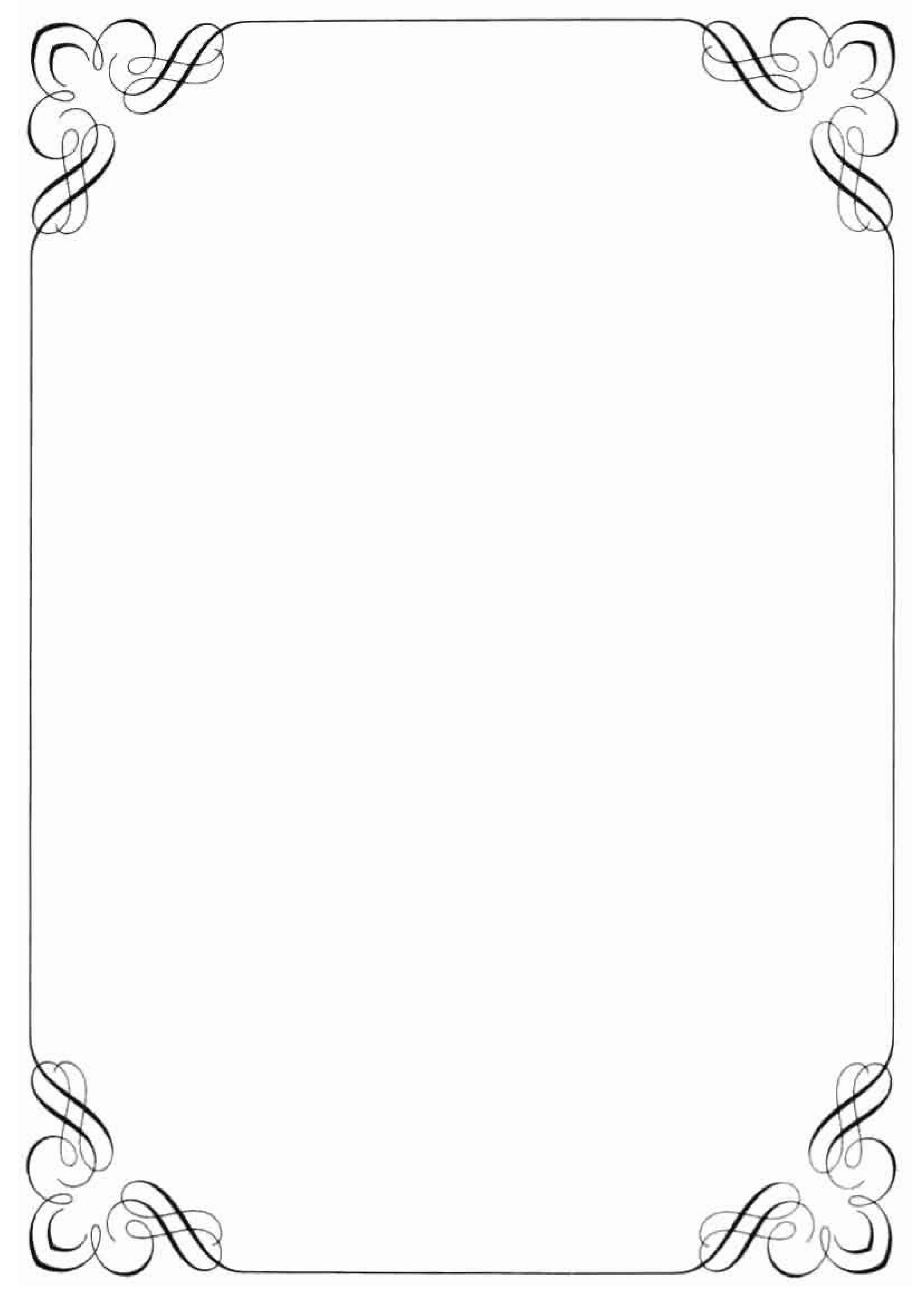
العينُ الَّتي لا يُوجدُ في ثناياها النَّظَرُ الطَّاهرُ
تكونُ مضيئةً لكنَّها لا ترى العالَمَ .

لم يَبْقَ في أحضانِك صفاءُ مرآة ضميرِك
يا قتيلَ السَّلطنة والملأ والمَشْيَخَةِ !

* * *



(١) حرفياً : التِّبْنُ والنِّشارة .



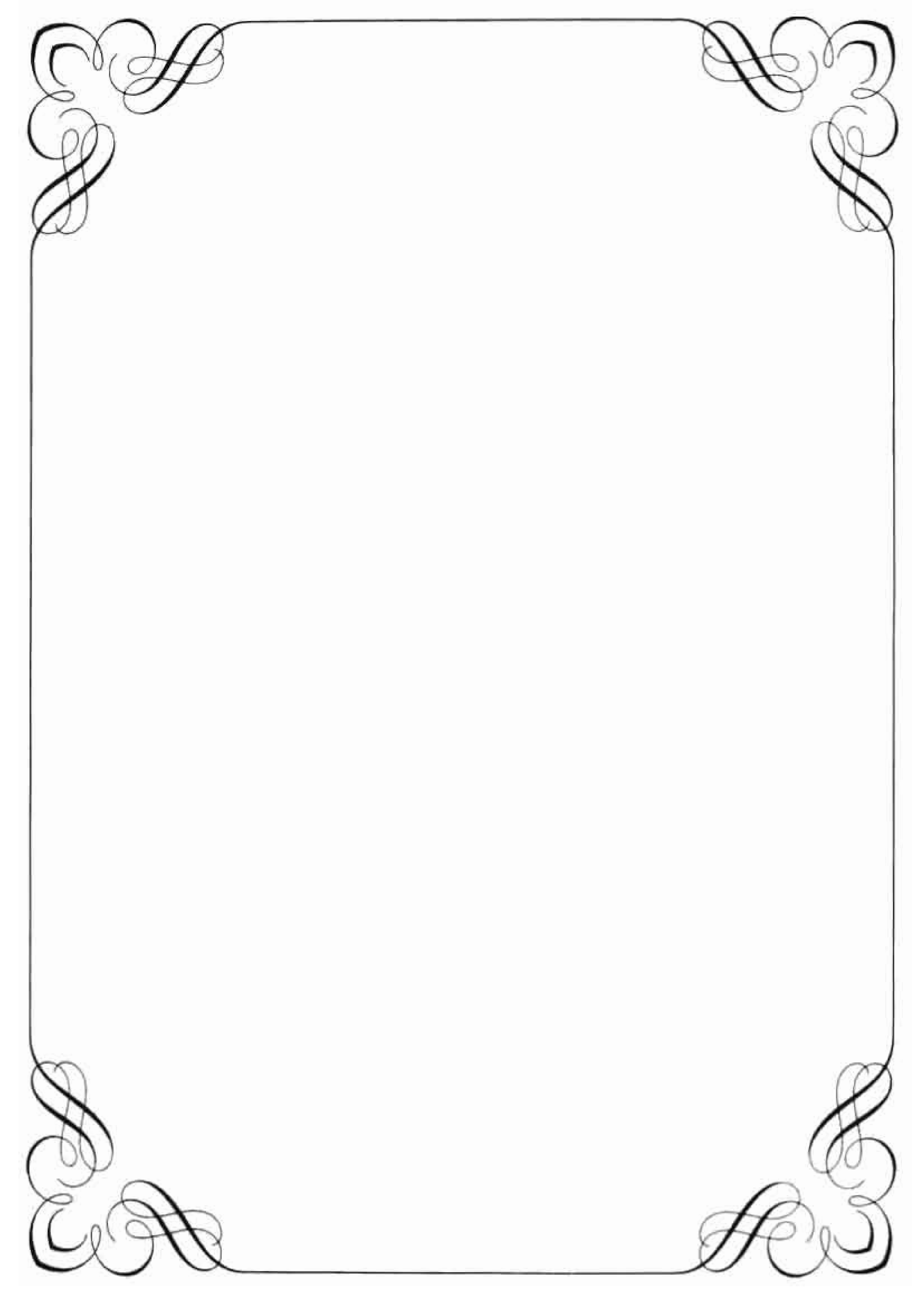



القسم الخامس

رُبَاعِيَّات





(١)

١ ـ لا أدري ما هي ثَمَرةُ غُصْنِ أملي
فأيُّ درايةٍ لي بتقديرك
بُرْعُمُ الزَّهرةِ يحتاجُ اليومَ إلى التفتح
فما فائدة انتظار نسيمِ صُبْحِ الغد !

* * *

٢ ـ حَرْزُهُ من عَمَلِ الدُّنيا
حتَّى يتحرَّر من امتحانِ كلُّ نفس
صارَ تفكيرُ الشَّيطانِ بسَبَبِ الكِبْرِ تفكيراً قديماً
فمن أين يأتي بإثمٍ جديد ؟[١]

* * *

٣ ـ غيِّرْ وبدِّلْ عالَم الماءِ والسُّخر
اقْلِبْ هذه الدُّنيا الجافةِ والطريَّة
ولتبقَ ألوهيَّتُكَ طاهرةً من الوصمة
واحْذَرْ من السُّجود الخالي من أيِّ ذوق .

* * *

(٢)

٤ ـ أنا في حالةِ الفَقْرِ محسودُ الغِنى
لأنَّ فقري ذو غيرة

(١) المفروض أن تكون آثامه قديمةً قدَمَ تفكيره ، وهنا استفهامٌ استنكاري .

الحذرَ من ذلكَ الفقرِ والتصوُّف
الذي علَّم المسلمينَ الذلَّ والخُضوع .

* * *

٥ ـ الغوثَ الغوثَ مِنْ ضيق ذيلِ العقل !!
الغوثَ الغوثَ من زيادةِ التَّجلِّي !!
إنَّ النَّظر يُفضِّل النَّظَرَ في غير الله
الغوثَ الغوثَ منْ كُفرِ النَّظر .

* * *

٦ ـ قال إقبالٌ لشيخ الحَرَم :
منِ الذي نامَ تحتَ محرابِ المَسْجِد ؟
أجابتْ جدرانُ المَسْجِدِ :
هو الذي تاه في بيت أوثانِ الإفرنج .

* * *

٧ ـ صارت الهيجاناتُ القديمةُ رغبةً باردةً سقيمة
دماءُ المُسلمِ أصبحتْ باردةً
فلتباركْ للأصنامِ كفري
إذ إنَّ نارَ « الله هو » أصبحتِ اليومَ باردة .

* * *

٨ ـ حديثُ العبدِ المؤمنِ يتعلَّق بالقلب
الكَبِدُ مليءٌ بالدَّم ، النَّفْسُ مضيئةٌ ، النَّظْرةُ حادَّةٌ
كيفَ تتيسرُ رؤيةُ المؤمنِ الَّذي يضيء المَحْفَلَ
فهو لا يختلطُ بنا إلا قليلاً .

* * *

٩ ـ صفاءُ ضميرِ الصُّبحِ المنير
يعرفُ التمييزَ بين الشَّوْكِ والزَّهر
حمايةُ الزَّهر غيرُ ممكنة
لو أنَّ في الشَّوكةِ طبعَ الحرير .

* * *

١٠ ـ لا تذكرِ الفراقَ واللِّقاء
لأنَّ أصلَ الحياةِ نفسه هو الظُّهور
إنّ انفصالَ اللؤلؤِ منْ قَلْبِ البَحْرِ
ليسَ فيه أيُّ ضررٍ للبَحْرِ ولا لِلُّؤلؤ .

* * *

١١ ـ لماذا لا يجتاحُ الطُّوفانُ بَحْرَكَ ؟
لماذا لا تكونُ ذاتُك مسلمةً ؟
عَبثٌ تلك الشَّكوى من تقديرِ الله
لماذا لا تكونُ أنت قَدَرَ الله ؟

* * *

١٢ ـ لو يَنْظُرُ العقلُ بعينِ القلب
يرى العالمَ مُضاءً بنورِ « لا إله »
ولو يَنْظُرُ إلى نورِ الشَّمس والقَمَرِ
لا يَحْسَبُه إلا دورانَ الليلِ والنَّهار[١] .

* * *

١٣ ـ أحياناً ترتفعُ منَ البحرِ كالمَوْجِ

---

(١) أي : العالم .

وأحياناً تنزلُ إلى صَدْرِ البَحْرِ
وأحياناً تمرُّ على ساحلِ البَحْرِ
فأظهِرْ لنا سرَّ مقامِ ذاتِكَ واضحاً .

***

مُذاكرات مُلَّا زاده ضيغم اللُّولابيِّ[1] الكَشْمِيْرِيِّ

(١)

ماءُ عيونِكَ كالزِّئبقِ الرَّجراج
طيورُ السِّحرِ قلقةٌ في أجوائك
يا واديَ اللُّولاب .

لو لمْ يكنْ خطيبُ المنبرِ والمحرابِ ذا همةٍ ونشاط
فالدِّين للعبدِ المؤمنِ إمَّا الموتُ ، وإمَّا الحُلم
يا واديَ اللُّولاب .

النغماتُ المُحْرِقةُ للقلبِ إنَّما تنبُع من الآلةِ الموسيقيَّةِ
فلو كانت أسلاكُها رِخوةً فلا فائدةَ تُرجى من مِضرابها
يا واديَ اللُّولاب .

بصيرةُ المؤمنِ خاليةٌ منْ نُوْرِ الفِراسة[2]
والخمرُ الصَّافيةُ في حانة الصُّوفية خاليةٌ من الحُرْقَةِ
يا واديَ اللُّولاب .

---

(١) ضيغم هو الأسد ، لولاب : اسم وادي في كشمير . والواقع أنَّ إقبال كتب هذا الشعر إلى أهلِ كشمير .

(٢) تلميح إلى الحديث : « اتقوا فِراسَة المؤمن فإنَّه يرى بنورِ الله » .

إنَّ الفقير[1] الذي تستيقظُ القلوبُ من آهته السِّحرية
لا يوجدُ في هذه الأمَّةِ منذُ زمانٍ
يا واديَ اللُّولاب .

(٢)

الموتُ الصَّعبُ اسمه العبوديَّةُ
ألا لَيْتَ العبدَ يَفْهمُ مَكْرَ وخِدَاعَ السَّادةِ .

انظرْ تنوُّعَ الأحكامِ في شَرْعِ المُلْكيَّةِ
غوغاءُ الصُّورِ حلالٌ ، لذَّةُ الحَشْرِ حرامٌ .

يا مَنْ ذبُلت[2] روحُك من العبوديَّة
أتبحثُ عن مقام الذَّاتية في الصَّدر الخالي من الحُرْقَة ؟!

(٣)

كشميرُ الَّتي سمَّاها أهلُ النَّظر بالأمسِ إيرانَ الصَّغير
هوَ اليومَ بلدٌ خاضعٌ وفقير .

حينَ يخافُ رجلُ الحقِّ السُّلطانَ والأمير
تخرجُ آهاتٌ مُحْرِقَةٌ منْ صَدْرِ الأفلاك .

منزلُ الحزنِ لفلاحٍ عجوزٍ على سفحِ الجبل
يحكي لنا حكايةَ قَسْوةِ الأيَّام :

واأسفاهُ على هؤلاءِ القومِ النُّجباءِ ذي الأيدي النَّشيطةِ والدِّماغِ الخلاَّق[3] .

---

(١) استخدم كلمة « درويش » بمعناها الصوفي .

(٢) استخدم اللفظ العربيّ « مضمحل » مع الروح . وقد استبدلتها في الترجمة بكلمة « ذبلت » .

(٣) في الأصل : (تردماغ) أي : الدماغ الندي .

أيها الإله يا من تمهل الناس[1] . أين يوم الجزاء ؟

(٤)

حينَ تثورُ الشُّعوب المغلوبةُ على أمرها
يضطربُ هذا العالمُ ذو الأطرافِ الأربعةِ ، واللَّونِ والرَّائحة[2] .

ضميرُ الإنسانِ يتطهَّر من الظنِّ والتَّخمينِ
ويجعلُ مصباحَ الأملِ يضيءُ كلَّ طريق .

ذلكَ الفَتْقُ القديمُ الَّذي لم يستطع العقلُ رَتْقَهُ
يُخيطهُ العِشْقُ دونَ حاجةٍ إلى إبرَة أو خيطِ الرَّفَّاء .

صنمُ الحُكم له قلبٌ حجريٌّ ووجهٌ منْ زجاج
وهو يصبحُ في النهاية قِطعاً مبعثرةً من الدَّقِّ المُسْتَمر .

(٥)

عظمةُ الشَّاهين وشوكتُه توجدُ في طيرانِ الدَّرَّاج
والصَّيادُ في حيرةٍ شاهينٌ هذا أم درَّاج .

تلاطَمَتْ أفكارُ كلِّ قومٍ
فاليومَ مُظْهِرٌ لغدِ القيامةِ في الشَّرق .

الميِّتُ الذي كان في حاجةٍ إلى صُوْرِ إسرافيل
اضطرَّ للقيامِ ثانيةً استجابة لمطالبِ الفطرة !

---

(١) أصله « خدا ديركي » أي الرب الذي يقبض ويحاسب الإنسان في النهاية وبعد تمهُّل شديد .

(٢) في الأصل : جهان جار سو ، عالم رنگ وبو ، وهو تعبير أدبي يعبر عن العالم المحسوس الذي نعيش فيه .

(٦)

حتى السِّكِّيرون[1] أيضاً يعرفونَ كمالاتِ الصُّوفية
مع أنَّ كراماتِهم غيرُ معروفةٍ ، وغيرُ مشهورة .

حين يكونُ السَّالكُ حُرّاً فهذه هي مقاماتُه :
عزَّةُ النَّفس وثباتُها والصَّوتُ الحسنُ القائل « أنا الحق »[2] .

حينَ يكونُ السَّالِكُ محكوماً فالعبوديةُ هي كلُّ شيءٍ له
فهو نفسُه ميِّتٌ ، وهو المريدُ ، وهو الموتُ المفاجىء نفسُه .

(٧)

اخرُجْ من الخانقاهات ، وقمْ بتقليدِ شبير
فليسَ فقرُ الخانقاهات إلّا الهمَّ .

من دِينكَ وأدبكَ تَهُبُّ رائحةُ الرُّهبان
إنَّ هذا عالمُ الشيخوخةِ للأممِ التي حان موتُها .

في عيونِ شياطينِ المَلَكيَّةِ يوجدُ السِّحرُ
الذي يخلقُ في قلبِ الصَّيادِ طَبْعَ المَصِيْد

كيف مَضَوْا غيرَ مكترثين بآهاتي السِّحريَّةِ
ومَنِ الذي ذهب بالنَّشوةِ والنَّشاط مِنَ العيونِ الكشميريَّةِ السَّوداء[3] ؟

(٨)

إذا اعتقدتَ أنَّ هذا القلبَ قطرةٌ منْ دمٍ فَهُوَ كذلك
فقلبُ الإنسان إنَّما هو ـ فقط ـ جذْبةٌ عالية .

---

(١) أصله : « رند » وهو من لا يهتم بالأحكام الدينية الظاهرة ولا يتمسَّك بها .
(٢) إشارة إلى قول الحلاج « أنا الحق وما في الجبة غيرُ الله » .
(٣) « تمتاز العيون الكشميرية بسوادها وكثيراً ما تغنى بها الشعراء » .

لا يُعْجبُه دوران القمر والنجوم
فهو الذي يخطِّطُ سَحَرَهُ ومساءه .

لا يمكنُ أن يَبْرُدَ ذلك التُّرابُ الأصيلُ
الذي تَكْمُنُ في ضمير ترابه نارُ چنار[1] .

(٩)

حين انفتحتْ في الرَّوضة مكتبةُ الورود
فإنَّ العِلْمَ الكتابيَّ لم ينفعْ المُلاَّ .

كانَ هواءُ الرَّبيع محطماً للجدِّيَّة
فبدأ شيخ « أندراب »[2] يُنشدُ الغزل .

قالت زهرةُ شقائقِ النُّعمانِ ذاتُ القميصِ الأحمر
إنَّني مظهرةٌ لأسرار الرُّوح[3] .

منِ الَّذي يعتقدُ أنَّ النَّوْمَ في القبر هو الموتُ
إنَّ سرَ تعميرِ كلِّ شيءٍ يَكْمُنُ في تخريبه[4] ؟

ليستِ الحياةُ سلسلةَ الأيَّام والليالي
ليستِ الحياةُ نشوةً وغفوة .

الحياةُ والاحتراقُ في نارِك
فما أسعدَ اللحظاتِ حينما تستعيدُ هذه الحِكْمَةَ :

---

(١) چنار : شجرة ذات أوراق كثيرة ، تشبه كف اليد ، وتكون خضراء في الصيف ، بينما تحمر جداً في الخريف وتصبغ في لون النار الملتهبة خاصةً في الأصل .
(٢) أندراب : اسم مكان بكشمير .
(٣) لأنها مفتحة في الوسط .
(٤) أشار إلى هذه الفكرة جلال الدين الرومي بأبيات متوالية في أنشودة الناي ـ انظر المثنوي .

« لو تأخذُ شرارةً من نار القلب
فإنَّك تستطيعُ أن تجعلها شمساً تحت الفَلَكِ » .

(١٠)

شِرْيَانُ الحرِّ صُلْبٌ كَشِرْيانِ الحَجَر
شِرْيانُ المحكومِ رقيقٌ كشِرْيانِ الكرم .
قلبُ المحكوم ميتٌ سقيمٌ يائس
قلبُ الحُرِّ حيٌّ مفعمٌ بالحرارة يبعثُ الطَّرب .
ثروةُ الحرِّ قلبٌ مضيء ونَفْسٌ حاميةٌ
ثروةُ المحكومِ ليست إلا عيناً دامعة .
المحكومُ غريبٌ عن الإخلاصِ والمروءةِ
مع أنَّه بارعٌ في البراهينِ المنطقية .
ليس من الممكن أن يكونَ المحكومُ ندّاً للحرِّ
فهو عبدٌ للأفلاكِ والحرُّ سيِّدُها .

(١١)

جميعُ العارفينَ والعامَّةِ غرباءُ عن الذَّات
فليقلْ أحدٌ إنِ استطاع : أهذا مسجدٌ أم خمَّارة ؟
لقد أخفى هذا السرَّ عنا « مير واعظ »[١]
إنَّ الفراشةَ التي تدورُ حولَ مصباح الحَرَمِ هي الحَرَمُ .
طِلَّسْمُ الجَهْلِ هو الكفرُ والتديُّن

---

(١) شخصية سياسية في كشمير واسمه محمد يوسف مير واعظ كشميري ، مات في باكستان حوالي عام ١٩٦٦م .

وحديثُ الشَّيخِ والبرهمن ليس إلَّا سِحْرٌ وخرافة .
فليكنْ ذلكَ العبدُ الدَّرويشُ نصيبَ هذه الأرض
ففي فقرِهِ تَكْمُنُ طرقُ الكليم .
إلى متى تبقى لآلىء بحيرةِ وُلَر[1] الفريدةُ من نوعها .
مختفيةً عن أعينِ الزَّمان .

(١٢)

العالمُ مضطربٌ منْ قوَّة عملهم
فالأممُ الحيَّة خاضت معاركَ كبيرةً .
إنَّ تقويمَ المُنَجِّمِ للغدِ باطلٌ
فالنُّجومُ القديمةُ سقطتْ من السَّماء .
ضميرُ العالَم ملتهبٌ بدرجةٍ عظيمةٍ
حتى أنَّ أمواجَ البحر كَسَرَتِ النُّجوم .
الأرضُ لم تَعُدْ خاليةً من الزَّلازل
فالدَّلائلُ الدَّقيقةُ للفِطرة ظاهرةٌ .
إنَّ الخضرَ - قابعٌ - يفكِّرُ على شاطىء بحيرة وُلَر[2]
إلى متى تفورُ عيونُ الهملايا !!

(١٣)

هذا هو دليلُ الشُّعوب الخالدةِ على مرِّ الزمان :
أنَّ تقديرَهمْ يتغيَّر صباحَ مساء .

---

(١) بحيرة ولر : بحيرة رائعة في كشمير يذهب إليها الأثرياء للاستمتاع بالتجديف ، وكانوا من المسلمين .
(٢) وردت قصة الخضر في سورة الكهف الآيات (٦٥ - ٨٢) .

حياتُهم هي كمالُ الصِّدقِ والمروءةِ
حتى الفطرةُ أيضاً تعفو عن تقصيرِهم .

أعمالُهم كأعمالِ القَلَنْدرِ ، وجلالُهم كالجَلال الإسكندري
هذه الأمّةُ في العالم كالسُّيوفِ المسلولةِ .

إنَّ جمالَ وجلالَ الرَّجلِ العارفِ يَكْمُنُ في معرفةِ ذاتيته
هذا هو الكتابُ ، وما تبقَّى كلُّه تفاسير له .

أنا لا أُنكرُ عظمةَ العِيد
لكنَّ ما يُقْبَلُ هو تكبيراتُ الحرِّ .

كيفَ يَعْرفُ الحكيمُ سرَّ نغماتي
وأنَّ تدابيرَ أهل الجُنون فيما وراء العقل ؟

(١٤)

كيف تقامرُ ـ قمار الحياة ـ كالكافرِ ؟
ذلكَ أنَّكَ تسيرُ مع الزَّمانِ ولا تسيرُ مع نفسك .

لم أرَ في مدارسِ الحَرَمِ مرَّةً ثانيةً
قلبَ جنيدٍ ونظرةَ الغزاليِّ والرَّازي .

في حُكْمِ الفتى الأعظمِ الذي هو نفسُه حُكْمُ الفطرةِ الأزليَّة :
أنَّ أعمالَ الصُّقورِ حرامٌ في عقيدةِ الصَّعْوة .

قالَ ذلكَ الفقيهُ الأزليُّ للصَّقرِ الصَّغيرِ :
عليكَ أنْ ترتبطَ بالسَّماء ولا تتعلقَ بالأرض .

أنا الذي لها أقلع عن الكلام الصَّريح
خوفاً من وشيهم بي لدى السُّلطان .

قدم التحيات منَّا نحنُ الفقراءَ إلى ترك شيرازَ

فليس في أيدينا سمرقندُ وبخارى[1] .

(١٥)

ضميرُ الغرب ضميرُ التُّجّارِ ، ضميرُ الشَّرق ضميرُ الرُّهبان
هناك التغيير المستمرُ في كل لحظةٍ ، وهنا لا يتغيَّر الزَّمان .

قال لي الخضر على شاطىء البحر وكأنَّني محرم لأسرارِه :
إنَّ طرقَ الإسكندر[2] والقَلَنْدر كلُّها طرقٌ سحريةٌ .

آلهة الخانقاهات يعتبرونني نِدّاً لهم
ويَخْشون ألا ينشقَّ حَجَرُ عتبتهم من نواحي

النَّصيحةُ الواضحةُ والعلامةُ المميِّزةُ لعلمٍ ومعرفةِ الأمم المستعبدة :
أنَّ الأرضَ لو ضاقت فها هو فضاء الفَلَكِ بلا حدود .

لا أعرفُ بماذا أسمِّيه ، هل أسمِّيه اختبارَ الله[3] ، أم خداعَ النفس ؟
إذ إنَّ المسلمَ أصبح خالياً من العملِ بعد أن اختلقَ من القَدَرِ عُذراً له .

قال غصنُ الوردِ عن أسري قولاً أبكى الصَّياد :
إنَّ عُشَّ هذا المغرِّدِ المفعمِ بالحُزْنِ لم يكنْ ثقيلاً عليَّ .

(١٦)

يا أيُّها الوطن العزيزُ لا حاجةَ للشَّرح والبيانِ
عن صورةِ قلبنا المليءِ بالدَّمِ ، كشقائقِ النُّعمان .

---

(١) إشارة إلى شعر حافظ :
اگر اين ترك شيرازي بدست آرد دل مارا   بخال هندوش بخشم سمرقند وبخارا
(٢) طرق الإسكندر هي طرق الحياة .
(٣) في الأصل المعنى (خداع الله) ، أم خداع النفس ؟
إذ إنَّ المسلمَ أصبح خالياً من العملِ بعد أن اختلقَ من القَدَرِ عُذراً له .

التقديرُ هو اسمٌ لمكافأةِ الأعمال
هذه هي رسالة آلهةِ الهمالايا .

جسدُه عارٍ في ريح الشِّتاء
ذلكَ الذي يقدِّم للأمراء رداءً من الصُّوفِ بفنِّه وإبداعه .

لا تأملْ في وفاءِ دولةِ الدُّنيا
فهي كالغزالِ ، الهروبُ من طبعها .

(١٧)

حرامٌ على منْ علَّمتْه معرفةُ الذَّات نسيانَ الجسد
حرامٌ على هذا الرَّجلِ المجاهدِ أن يَلْبَسَ الدِّرْع !

(١٨)

احْمِلْ على ذلك العزمَ الرفيعَ ، واستمع إلى عويلي
لكي تقومَ القياماتُ في صدرك أيضاً .

(١٩)

أنا غريبُ هذه المدينة ، فاستمعْ إلى عويلي
لكي تقوم القياماتُ في صدرك أيضاً .

أغنياتي الممزوجةُ بالغمِّ والحزنِ متاعٌ عزيزٌ
ونَغْمةُ القلبِ الحزينِ ليستْ عامَّةً في هذه الدُّنيا .

أنوحُ وأشكو منْ ذَوْقِ هذا الزَّمانِ الأعمى
الذي فَهِمَ محنتي على أنَّها محنةُ فرهاد .

أعرفُ أنَّ الصَّوْتَ الذي ينبعثُ مِنْ ضربِ الفأسِ على الحَجَرِ
أعرِفُ أنَّهُ آخرُ ، فهو صوتُ الفأسِ والكَبِدِ معاً .

إلى سر أكبر حيدري رئيس وزراء حيدر آباد الدَّكن[1]

كانَ هذا من أمرِ الله أن يُعطىٰ القَلَنْدَرُ
ذو الصِّفاتِ المَلَكيَّة عظمةَ برويز[2] .

قال لي : خُذْ وصِرْ حاكماً وأعطِ الثبات
لحسنِ التدبير لكلِّ ما هو آتٍ ولكلِّ ما فات .

كنتُ مستعداً لأن أتحمل عبءَ هذه الأمانة على كتفي
لأنَّ كلَّ ما هو مرٌّ طعمه يصير في حلق الدَّرويش السُّكَّر .

ولكنَّ غيرة فقري وعظَمَتَهُ لم تستطعْ أنْ تقبل ما قدَّمه
حين قال ، إنَّ هذه هو زكاةٌ لألوهيتي .

حسين أحمد[3]

لا يَعْرِفُ العَجَمُ حتَّى الآنَ أسرارَ الدِّين
وحسين أحمد الديوبندي ـ ما هذا العجبُ العجاب .

من يخطبُ على المنبر قائلاً بأنَّ الملَّة قائمةٌ على الوطن
كم هو جاهلٌ بمقامِ محمدٍ العربي[4] !

عليك أن تَصِلَ بنفسك إلى النَّبيِّ فإنَّ الدِّين كلَّه

---

(١) كان رئيس وزراء الهند ، وأرسل شيكاً بمبلغ ألف روبية إلى إقبال في ذكرى ميلاده .
(٢) أي : المال والدنيا .
(٣) كان من علماء الهند ويُعدُّ من مؤسسي مدرسة ديوبند ، ومن أنصار حزب المؤتمر ، وهذا الشعر بالفارسيّة .
(٤) يقصد الدين .

فإنْ لم تصل إليه فكلُّ هذا يعدُّ من أعمالِ أبي لهب .

السَّيِّدُ الإنسان

وَصَلَتْ درجةُ العِلْمِ والفِكْر في هذه الدُّنيا إلى درجةٍ أنَّه
لا يمكنُ لشيءٍ أن يختفي ، فهذا عالمٌ نوراني .

لو نظرَ أحدٌ لرأىٰ أنَّ حجابَ الفِطْرَةِ رقيقٌ إلى درجةٍ :
أنَّ البسماتِ الخفيَّةَ للملائكةِ تظهرُ واضحةً .

هذه الدُّنيا دعوةٌ لابنِ آدم أنْ يشاهدَ وينظُرَ
فكلُّ مستورٍ قد وُهِبَ ذوقَ التعرِّي .

هذا هو ابنُ آدمَ الذي جَعَلَ اللهُ الأنهارَ
تفيضُ من دموعه الدَّامية .

ماذا يعرفُ الفَلكُ ؟ مقرُّ مَنْ هذا المسكنُ التُّرابيُّ ؟
والهدفُ مِنْ خَلْقِ النُّجومِ هو حراسةُ بيتِ مَنْ ؟

لو أنَّني مقصودُ الكلِّ فماذا « ما ورائي »
وما هي نهايةُ اضطراباتي المتجدِّدة !!



